

الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي : حياته ومساهمته في العلوم الإسلامية

(Professor Dr. Yousuf al- Qaradawi : His Biography and
Contribution in Islamic Knowledge)



رسالة مقدّمة إلى جامعة داكا لنيل شهادة إيم فل

(A Thesis was Submitted to the University of Dhaka for M.Phil. Degree)

المشرف

الدكتور محمد عبد الرشيد

الأستاذ

قسم الدراسات الإسلامية

جامعة داكا، داكا - ١٠٠٠، بنغلاديش

الباحث

محمد أبو جعفر

رقم التسجيل: ١٨٧

العام الدراسي: ٢٠١٥م/٢٠١٦م

قسم الدراسات الإسلامية

جامعة داكا، داكا - ١٠٠٠، بنغلاديش

Supervisor

Dr. Muhammad Abdur Rashid

Professor

Department of Islamic Studies

University of Dhaka

Dhaka -1000, Bangladesh

Researcher

Md. Abu Zafar

Registration No: 187

Session Year: 2015/2016

Department of Islamic Studies

University of Dhaka

Dhaka -1000, Bangladesh

University of Dhaka, Dhaka -1000, Bangladesh

January 2022

بسم الله الرحمن الرحيم

شهادة الإشراف

يشهد بأن رسالة البحث العلميّ التي قدّمها الباحث محمد أبو جعفر لنيل شهادة إيم فل بعنوان: "الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي : حياته ومساهمته في العلوم الإسلامية" قد أعدّها تحت إشرافي المباشر، وإنّها رسالة علميّة قيّمة وكتبها الباحث حسب المنهج التعريفيّ أو التوصيفيّ.

وإنّني قد راجعت هذه الرسالة من البداية إلى النهاية، فرأيت أنّها صالحة للتقديم لنيل شهادة إيم فل، كما بدا لي خلال مراجعتي هذه الرسالة أنّ الباحث قد بذل قصارى جهوده لتنميقها على الوجه الأكمل. وأنّني أعتقد أنّ هذا البحث العلميّ سيحظى بالإعجاب الكبير من قبل القراء والباحثين والدارسين وسيكون نموذجًا مثاليًا للباحثين والمنهّلين العلوم.

وأخيرًا أسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفّقنا جميعًا لما يحبّه ويرضاه ويجعل هذه الرسالة مفيدة للمسلمين عامّة ولأهل العلم والباحثين خاصّة وأتمنّى للباحث التقدّم والفلاح والسعادة في حياته المستقبلية، وصلىّ تعالىّ على نبيّنا محمد صلىّ الله عليه وسلّم وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيرًا وكثيرًا.

التاريخ:

الموافق:

الدكتور محمد عبد الرشيد

المشرف على هذه الرسالة

الأستاذ لقسم الدراسات الإسلامية

جامعة داكا، داكا - ١٠٠٠، بنغلاديش

بسم الله الرحمن الرحيم

شهادة الاعتراف

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد!

أشهد بأني (الباحث/ محمد أبو جعفر) قد أتممتُ هذا البحث العلمي المُعَنَّون "الأستاذ الدكتور يوسف القرصاوي : حياته ومساهمته في العلوم الإسلامية" تحت إشراف مباشر لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد عبد الرشيد، (حفظه الله ورعاه في الدارين) الأستاذ لقسم الدراسات الإسلامية وكان رئيسًا سابقًا لنفس القسم، جامعة داكا، بنغلاديش.

وأعترف كذلك بأن هذا البحث من نتائج دراستي العميقة والذاتية وجهودي الشخصية المواصلة، وكما أصرّح بأنه لم أقدمه في أيّ معهد علميّ لنيل أية شهادة أكاديمية فيما قبل.

الباحث

التاريخ:

الموافق:

محمد أبو جعفر

قسم الدراسات الإسلامية، جامعة داكا

رقم التسجيل: ١٨٧/٢٠١٥م - ٢٠١٦م

كلمة الشكر والتقدير

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيّد الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين. فأوجّه كلمة الشكر أولاً إلى ربّي عزّ وجلّ الذي أتاح لي الفرصة لإتمام هذه الرسالة لحصول "مرحلة إيم فل" (M.Phil.) في قسم الدراسات الإسلاميّة بجامعة داكا. وكنت أودّ في غاية الرغبة أن أتمّ المرحلة المذكورة من هذه الجامعة العريقة المعروفة بـ "أوكسفورد لبلاد الشرفيّة"، وبعد إجراءات ولأبي وفقني الله عزّ وجلّ بقبولي من قبل هذه الجامعة، وهو الموفّق الوحيد لكلّ برّ، وأحاطني بتوفيقه وتعمدني برحمته الوافرة وأدركتني عنايته الخاصّة لتتميم هذه الرسالة لنيل "شهادة إيم فل".

كما أقدم بكلّ الشكر الجزيل والامتنان الوافر من صميم قلبي إلى مشرفي العلامة الدراكية الداعية الجليل، والمحدّث الفقيه الحاذق النبيل، فضيلة الأستاذ المفضّل الدكتور محمّد عبد الرشيد، الأستاذ لقسم الدراسات الإسلاميّة بجامعة داكا، (الذي كان رئيساً لقسم الدراسات الإسلاميّة سابقاً)، والذي هو العيّ عن التعريف، حفظه الله تعالى ورعاؤه وأسرته، ونفع به العباد والبلاد وأولاده، وهو صاحب التصانيف المفيدة الرائقة، والآثار النافعة الفائقة. وهو غنيّ عما طلب، بما آتاه الله تعالى من العلوم الواسعة، والمواهب العالية. والذي تفضّل بالإشراف الخالص على هذه الرسالة، وتحمل مسئولية مراجعة النظر في كلّ ما كتبت، ومتّعني بالإفادة العلميّة وتوجيهاته وتعليماته النفيسة، والمشاورات القيّمة. والذي أعطاني من أوقاته الثمينة رغم عنده أشغال وأعمال ونشاطات كثيرة، ولا أستطيع بالتي أن أعاوضه لها. وأودّ أن أذكر هنا صدقاً وخالصاً بلا مجاملة من أعماق قلبي أني كنت لا أستطيع أن أكمل هذه المرحلة بدون مساعدته (الأستاذ الدكتور محمّد عبد الرشيد) القيّمة بالنصح والإرشاد والتوجيه الميمونة والكريمة في أثناء البحث، حيث كان صحّح أخطائي العلميّ واللغويّ والإعلاميّ في رسالتي. فجزاه الله خير الجزاء في الدارين لهذا العمل الصالح لانتشار العلوم الإسلاميّة في وطننا المحبوبة. وأتمنّى عافيته ومعافاته دائماً وبارك الله في حياته الطيبة المباركة.

ثمّ أحصّ بالشكر إلى قسم الدراسات الإسلاميّة، وجميع الأساتذة الأفاضل والمسؤولين المكرّمين لنفس القسم لإتاحة الفرصة لي بالبحث الممتع في ميدان الدراسات الإسلاميّة. كما أشكر كلّ أساتذتي المكرّمين في حياتي خاصّة المحدّث الجليل العلامة نياز مخدوم خطواني رحمه الله تعالى الذي لقّني ببدء الدراسة، وجميع المسؤولين بجامعة داكا، بنغلاديش. وأسجّل شكري لمنسوبي مكتبة جامعة داكا، ومكتبة خادم الحرمين الشريفين فهد بن عبد العزيز للجامعة الإسلاميّة بنغلاديش، كوشتيا، ومكتبة المؤسسة الإسلاميّة، بنغلاديش، ومكتبة الجامعة الإسلاميّة العالميّة، شيتاغونغ، ومكتبة جامعة راجشاهي، ومكتبة الأزهر في أترَبَدَا (North Badda)، بنغلاديش، ومكتبة هبة في مصر، ومكتبة دار الشروق في مصر، ومكتبة دار القلم في مصر، ومكتبة دار الكتب العلميّة في بيروت. وغير ذلك من المكتبات.

وأقدم شكري وامتناني إلى الإخوة الكبار ممن مدّوا أيديهم إليّ بإعارة الكتب والمشاورات القيّمة، والتوجيهات العلميّة. وأيضاً أكرّر شكري لكلّ من مدّ يد العون والمساعدة والنصح والإرشاد والتوجيه أثناء البحث وجمع المعلومات ومن كان له أدنى مساعدة لإتمام هذه الرسالة. فجزى الله الجميع خير الجزاء ووفّقهم لما يحبّ ويرضاه.

وأذكر بخالص الشكر والإحترام أبوي الكريمين الحنونين لما بذلا من جهودهما لحسن تعليمي وتربيتي. وكانا أبي وأمّي لهما رغبة شديدة في دراستي العليا دائماً وأبداً، حيث نفق كثيراً من الأموال لدراستي في بنغلاديش وفي خارج بلادنا (جامعة الأزهر في جمهورية مصر العربيّة)، وهذا دُين عليّ الذي لا يمكن أن أسدّه منّي. وأذكر خاصّة أمّي التي توفيت إلى رحمة الله، - إنّنا لله وإنا إليه راجعون - حينما كان سنّي أربع سنوات كما سمعت من أبي المحترم، حتّى ما في ذهني كيف كانت صورتها؟ ولا أكن أشعر بوداع البائس الموجه المؤلم لعمر

صباي في ذلك الوقت، ولكن الآن كنت أشعر شعورًا وأحسّ غاية إحساس حقًا، ماذا فقدت؟ وكانت وفاة أمي صدمةً كبيرةً لي في سيرة ومسيرة حياتي. لو كانت حيًا اليوم! فكم فرحت وسعدت وتفاخرت في. وحقًا وصدقًا وفعلا - يا ذا اللهف! مَنْ فَقَدَ أُمَّهُ، التي لا تُقَدَّرُهَا بأيّ شيء من الأشياء في العالم، والتي لا نظيرة ولا مثيلة ولا بديلة لها، أنا الفرد الفاقد الذي أشعر، كم قيمةً بهذه الفريدة النادرة والثروة النفيسة الجوهرة؟ أنا أدعو وأسأل الله تعالى لها ولأبي دائمًا في مناجاتي بلسان الرحمن الرحيم قائلًا كما علّمنا بالقرآن الكريم: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا﴾ [٢٤].^١ وأرجو إلى حضراتكم جميعًا أن تدعوا لهما خاصةً لأمي لكي أن يدخلها الله في جنة الفردوس الأعلى! آمين يا رب العالمين!

فأرجو الله سبحانه وتعالى أن يتقبّل منّي ويجعلها في ميزان حسناتنا جميعًا ووسيلة لمغفرة والديّ ومشرفي. وما ذاك على الله بعزير.

الباحث

التاريخ:

الموافق:

محمد أبو جعفر

قسم الدراسات الإسلامية، جامعة داكا

رقم التسجيل: ١٨٧/٢٠١٥م - ٢٠١٦م

المحتويات

رقم التسلسل	الموضوعات	الصفحة
*	المقدمة	٧-١
	الفصل الأول الأوضاع الدينية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية والتعليمية في قرية يوسف القرضاوي [فيه ستة مباحث].	٣٦-٨
	المبحث الأول: الجانب الديني في قرية القرضاوي [فيه عشرة مطالب].	٢١-٩
١	الدين محور الحياة في قرية القرضاوي	٩
٢	مساجد قرية القرضاوي	١١-١٠
٣	رمضان موسم ديني سنوي في قرية القرضاوي	١١
٤	الركن المالي (الزكاة) في قرية القرضاوي	١٢
٥	الاهتمام بالقرآن والصدقة في قرية القرضاوي	١٢
٦	مواسم دينية في قرية القرضاوي	١٤-١٣
٧	الطرق الصوفية في قرية القرضاوي	١٦-١٥
٨	ظاهرة الموالد في قرية القرضاوي	١٨-١٦
٩	نظام الحياة اليومية في قرية القرضاوي	١٩
١٠	المعاصي في قرية القرضاوي	٢١-١٩
	المبحث الثاني: الجانب الاقتصادي ومستوى العيش في قرية القرضاوي [فيه ثلاثة مطالب].	٢٥-٢٢
١	الأوضاع الاقتصادية في قرية القرضاوي	٢٣-٢٢
٢	أحوال مستوى المأكولات والمشروبات في قرية القرضاوي	٢٤-٢٣
٣	في الملابس والأثاث وغيرها في قرية القرضاوي	٢٥
	المبحث الثالث: الجانب الاجتماعي في قرية القرضاوي [فيه ستة مطالب].	٢٩-٢٦
١	قرية القرضاوي غير محظوظة	٢٧-٢٦
٢	مستوى النظافة في قرية القرضاوي	٢٨-٢٧
٣	شدة الشتاء على أهل قرية القرضاوي	٢٨
٤	أدواتهم الطبخية المنزلية في قرية القرضاوي	٢٨
٥	مصيبة الموت في قرية القرضاوي	٢٩-٢٨

رقم التسلسل	الموضوعات	الصفحة
٦	الفتوات في قرية القرضاوي	٢٩
❖ المبحث الرابع: الجانب الثقافي في قرية القرضاوي [فيه ثلاثة مطالب].		
١	عدم ثري الجانب الثقافي في قرية القرضاوي	٣٠-٣١
٢	الفنون في قرية القرضاوي	٣١-٣٢
٣	الغوازي في قرية القرضاوي	٣٢
❖ المبحث الخامس: الجانب السياسي في قرية القرضاوي [فيه مطلب].		
١	تورط ناس قرية القرضاوي بالسياسي	٣٣-٣٦
❖ المبحث السادس: الجانب التعليمي أو التربوي في قرية القرضاوي [سيأتي بيانه في الفصل الرابع].		
❖ المبحث السابع: الجانب الاقتصادي في قرية القرضاوي [فيه سبعة مطالب].		
❖ المبحث الثامن: الحياة الشخصية للعلماء وموضع القدوة فيها [فيه مطلب].		
١	الحياة الشخصية للعلماء وموضع القدوة فيها	٣٧
❖ المبحث التاسع: اسم القرضاوي ومكان ميلاده وتاريخه وتعريف عائلته [فيه سبعة مطالب].		
١	اسمه الكريم الكامل	٣٨
٢	لقبه وكنيته	٣٨
٣	تاريخ ميلاده	٣٨
٤	مكان ميلاده	٣٩
❖ المبحث العاشر: التعريف العائلي من جانب أبيه وأمه [فيه مطلبان].		
١	التعريف العائلي من جانب أبيه	٤٠-٤١
٢	التعريف العائلي من جانب أمه	٤١
❖ المبحث الحادي عشر: وفاة والده ووالدته رحمهما الله تعالى [فيه مطلبان].		
١	وفاة والده رحمه الله تعالى	٤٢
٢	وفاة والدته رحمها الله تعالى	٤٣
❖ المبحث الثاني عشر: حياته الازدواجية [فيه خمسة مطالب].		
١	رحلة بحث القرضاوي عن بنت الحلال للزواج	٤٤-٤٦
٢	شروط فيمن يريد لها زوجة	٤٦

رقم التسلسل	الموضوعات	الصفحة
٣	محاولات عدّة لم يكتب لها التوفيق	٤٧-٤٨
٤	أخيراً وفقه الله	٤٨-٥٣
٥	زوجته الثانية	٥٣
❖ المبحث السادس: بناته وحالاتهنّ التربويّة والتعليميّة وحياتهنّ الازدواجيّة [فيه أربعة مطالب].		
١	عدد بنات الشيخ القرضاوي	٥٤
٢	حالاتهنّ التربويّة	٥٤-٥٦
٣	حالاتهنّ التعليميّة	٥٧-٥٩
٤	حياتهنّ الازدواجيّة	٦٠-٦٧
❖ المبحث السابع: أبنائه وحالاتهم التربويّة والتعليميّة [فيه ثلاثة مطالب].		
١	عدد أبناء الشيخ القرضاوي	٦٨
٢	حالاتهم التربويّة	٦٨-٧١
٣	حالاتهم التعليميّة باختصار	٧٢
■ <u>الفصل الثالث</u>		
طفولة الشيخ القرضاوي وشبابه ومؤهّلاته العلميّة والدراسيّة والبحثيّة [فيه مبحثان].		
❖ المبحث الأول: طفولة الشيخ القرضاوي وشبابه [فيه خمسة مطالب].		
١	كفالة عمّه أحمد	٧٣
٢	رعاية أمّه	٧٣-٧٤
٣	للناس بيت وللقرضاوي بيتان	٧٤-٧٥
٤	كيف مَضَى طفولته وشبابه؟	٧٥-٧٦
٥	من أحاسيس القرضاوي ودروس وعبر من صَبَّاه وشيخوخته	٧٦
❖ المبحث الثاني: مؤهّلاته العلميّة والدراسيّة والبحثيّة [فيه أحد عشر مطلبًا].		
١	الجانب التعليمي أو التربوي في قرية القرضاوي	٧٧-٨٥
٢	إلى المعهد الديني في "طنطا"	٨٦-٨٨
٣	إلى المعهد الثَّانَوِي	٨٨-٨٩
٤	وقفه القرضاوي لتقويم الدراسة في المرحلة الابتدائيّة	٨٩-٩٣
٥	مرحلة الكليّة	٩٣-٩٧
٦	ما بعد المرحلة الجامعيّة	٩٨-١٠٠
٧	مرحلة الدراسة العليا	١٠٠-١٠٨

رقم التسلسل	الموضوعات	الصفحة
٨	مرحلة الدكتوراه	١١١-١٠٨
٩	حصول درجة أستاذ في العام الدراسي ١٩٧٥م - ١٩٧٦م	١١٢
١٠	استجازة القرضاوي من الشيخ عبد الفتاح أبي غدة وغيره	١١٣-١١٢
١١	السعي لتعلم اللغتين	١١٤
■ الفصل الرابع		
حياة عمليّات القرضاوي وشخصيّاته ونشاطاته المتنوّعة والمتعدّدة [فيه ثلاثة مباحث].		
❖ المبحث الأول: حياته العمليّات [فيه ثلاثة مطالب].		
*	رحلة بحثه عن عمل يتعيّش منه	١١٥
١	عمليّاته في وطنه جمهورية مصر العربيّة وإجراءاته	١٢٨-١١٦
٢	عمليّاته في بلاد قطر	١٣٧-١٢٨
٣	عمل الشيخ القرضاوي في الجزائر في السنة الدراسيّة (١٩٩٠م - ١٩٩١م)	١٣٧
❖ المبحث الثاني: حياته الشخصيّة [فيه سبعة مطالب].		
١	أخلاقه	١٣٨-١٣٩
٢	غلبة عاطفة الحزن	١٣٩
٣	القناعة بالقليل	١٣٩
٤	إطلاق اللحية	١٤٠
٥	ظهور بعض جوانب شخصيّته الكريمة بتجربة عدّة أمور	١٤٠-١٤٦
٦	عَبَقْرِيَّتُهُ وَمَوْهَبَتُهُ	١٤٧-١٤٨
٧	تَفَوُّقُهُ	١٤٨-١٥٥
❖ المبحث الثالث: نشاطاته المتنوّعة والمتعدّدة [فيه سبعة مطالب].		
١	القرضاوي وإخوان المسلمين	١٥٦-١٦٣
٢	القرضاوي وطلاب المعهد وجامعة الأزهر	١٦٣-١٦٧
٣	مع قضية فلسطين	١٦٧-١٧١
٤	نشاطاته في قطر	١٧١-١٧٥
٥	نشاطاته في أقطار العالم	١٧٥-١٩٩
٦	أداء الحج والعمرة	٢٠٠-٢٠٢
٧	مُعَانَاةُ وَمُكَابَدَتُهُ لَانضمامه بجماعة إخوان المسلمين والصحوّة والحركة الإسلاميّة	٢٠٣-٢٣٢

رقم التسلسل	الموضوعات	الصفحة
	الفصل السادس	٣١١-٢٤٤
	مؤلفات الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي [فيه خمسة عشر مبحثاً].	
	أسئلة مهمة من أساتذة الجامعة الإسلامية بكوالا لامبور إلى القرضاوي	٢٤٦-٢٤٤
	السؤال الأول: كيف تؤلف؟ وما سرّ غزارة الإنتاج مع انشغال الوقت؟	٢٤٤
	السؤال الثاني: من أين لك الوقت الذي يتسع لكلّ هذا الإنتاج؟ كلنا يحتاج إلى معرفة الجواب؟	٢٤٥-٢٤٤
	السؤال الثالث: لماذا تؤلف؟ أو ما الذي يدفعك إلى التأليف؟	٢٤٦-٢٤٥
	السؤال الرابع: ما سرّ هذا التنوع أو الموسوعيّة الثقافية؟	٢٤٦
	منهج القرضاوي في تصنيفاته	٢٤٨-٢٤٦
	❖ المبحث الأول: مؤلفاته في "الفقه وأصوله"	٢٦٠-٢٤٩
	❖ المبحث الثاني: تصانيفه في "تيسير الفقه للمسلم المعاصر"	٢٦٤-٢٦١
	❖ المبحث الثالث: مؤلفاته في "إسلاميات عامّة"	٢٧٠-٢٦٥
	❖ المبحث الرابع: تصنيفاته في "الاقتصاد الإسلامي"	٢٧٨-٢٧١
	❖ المبحث الخامس: مؤلفاته في "سلسلة: حتميّة الحلّ الإسلامي"	٢٧٩
	❖ المبحث السادس: تصانيفه في "علوم القرآن والسنة"	٢٨٢-٢٨٠
	❖ المبحث السابع: مؤلفاته في "عقائد الإسلام"	٢٨٢
	❖ المبحث الثامن: تصنيفاته في "فقه السلوك في ضوء القرآن والسنة"	٢٨٢
	❖ المبحث التاسع: مؤلفاته في "الدعوة والتربية"	٢٨٢
	❖ المبحث العاشر: تصانيفه في "ترشيد الصحوة والحركة الإسلامية"	٢٨٩-٢٨٣
	❖ المبحث الحادي عشر: تصنيفاته في "نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام"	٢٩١-٢٩٠
	❖ المبحث الثاني عشر: مؤلفاته في "شخصيات إسلامية"	٢٩٥-٢٩٢
	❖ المبحث الثالث عشر: تصانيفه في "الأدب والشعر"	٣٠٤-٢٩٦
	❖ المبحث الرابع عشر: تصنيفاته في "رسائل ترشيد الصحوة"	٣٠٩-٣٠٥
	❖ المبحث الخامس عشر: مؤلفاته في "محاضرات الدكتور القرضاوي"	٣١١-٣١٠

رقم التسلسل	الموضوعات	الصفحة
	الفصل السابع	٣١٢-٣٦١
	أفكار القرضاوي المتعلقة بالقرآن الكريم وتفسيره وبالأحاديث المطهّرة وبالفقه والشريعة الإسلاميّة وبال دعوة الإسلاميّة وفكره في التربية والتعليم وفي علم التوحيد وفي الإسلام والعلوم الإنسانيّة [فيه سبعة مباحث].	
	❖ المبحث الأوّل: أفكاره المتعلقة بالقرآن الكريم وتفسيره	٣١٢-٣١٨
	تأصيل مصادر المعرفة الإسلاميّة	٣١٢-٣١٣
	وَقْفُهُ مع مناهج "كَلِيَّة أصول الدين"	٣١٣
	ملاحظة عامّة	٣١٣
	علم التفسير في الثانويّة	٣١٣-٣١٤
	علم التفسير في كَلِيَّة أصول الدين	٣١٤-٣١٥
	صِدَامٌ مع أستاذه التفسير	٣١٥
	قضية نزول المطر من السماء أم السحاب؟	٣١٦-٣١٧
	قضية صعود الإنسان إلى القمر	٣١٧
	مناقشة حول قضية موت فرعون مع الأستاذ مالك بن نبي في بيروت	٣١٧-٣١٨
	❖ المبحث الثاني: أفكاره المُنتسبة إلى الأحاديث المطهّرة	٣١٩-٣٢١
	منهج الشيخ القرضاوي في الاستدلال بالأحاديث	٣١٩
	قضية حول "السُّنَّة" و"الرَّدَّة"	٣١٩
	علم الحديث في الثانويّة	٣٢٠
	علم الحديث في كَلِيَّة أصول الدين	٣٢٠
	واقعة نزاعية مع الشيخ أحمدين	٣٢١
	❖ المبحث الثالث: أفكاره المتعلقة بالفقه والشريعة الإسلاميّة	٣٢٢-٣٥٧
	علم الفقه	٣٢٢
	المراد بالشريعة عند الشيخ القرضاوي	٣٢٢-٣٢٣
	التزامه (القرضاوي) المنهج السنّي عن بَيِّنَةٍ	٣٢٣
	نظريّة الشيخ الدكتور القرضاوي في قضية "الاجتهاد"	٣٢٣
	شرح الاجتهاد: أن يكون من أهله في محلّه عند الشيخ القرضاوي	٣٢٤
	ومعنى "من أهله"	٣٢٤

رقم التسلسل	الموضوعات	الصفحة
	ومعنى: أن الاجتهاد "في محله"	٣٢٤
	من أفكاره	٣٥٧-٣٢٤
	❖ المبحث الرابع: فكره في التربية والتعليم	٣٥٨
	❖ المبحث الخامس: فكره في علم التوحيد	٣٥٩
	❖ المبحث السادس: فكره المتعلقة بالدعوة الإسلامية	٣٦٠
	❖ المبحث السابع: فكره في الإسلام والعلوم الإنسانيّة	٣٦١
	■ <u>الفصل الثامن</u> أفكار القرضاوي في السياسة الشرعيّة وفي الاجتماعيّة وفي الاقتصاديّة وبعض نشاطاتها [فيه ثلاثة مباحث.]	٤١٣-٣٦٢
	❖ المبحث الأوّل: أفكاره في السياسة الشرعيّة وبعض نشاطاته [فيه تسعة عشر مطلبًا.]	٣٨٧-٣٦٢
١	موقف القرضاوي من الديمقراطية	٣٦٣-٣٦٢
٢	كلمته الرائعة حول مُوظّفي الحكومة ومسئوليتهم	٣٦٣
٣	أفكاره في الجهاز السّري أي النظام الخاصّ لجماعة إخوان المسلمين	٣٦٤
٤	وَقْفَةُ القرضاوي للتقويم النظام الخاصّ	٣٦٨-٣٦٤
٥	تعايش دعاة الإسلام مع النظام الحاكم المعتدل	٣٦٨
٦	فكرة القرضاوي في الحاكميّة	٣٧٠-٣٦٨
٧	نقطة الضعف في المشروع القطبيّ	٣٧١-٣٧٠
٨	موقف القرضاوي حول قضية تشريع الإسلاميّ والقوانين الوضعيّة	٣٧٢-٣٧١
٩	نُكْبَةُ حَزْبِ رَئِيسِ "يُونَيْتُو" (١٩٦٧م) وأنظار القرضاوي وتحليله وموقفه	٣٧٥-٣٧٢
١٠	حرب العاشر من رمضان في سنة ١٩٧٣م وأنظار القرضاوي وتحليله وموقفه	٣٧٦-٣٧٥
١١	نَظَرُ القرضاوي في "زيارة أنور السادات لإسرائيل وتوقيع اتّفاقيّة كامب ديفيد"	٣٧٧-٣٧٦
١٢	نريد أن نسأل هنا سؤالاً، وهو: هل العُنْفُ ظاهرة إسلاميّة؟	٣٧٨-٣٧٧
١٣	هل العنف يحقّق هدفًا؟	٣٧٨
١٤	فقه التغيير	٣٧٩
١٥	أوّل لقاء للقرضاوي بالرئيس حسني مبارك	٣٨٢-٣٧٩
١٦	حدث الأحداث، غزوة الكويت وتحليل القرضاوي وأنظاره وموقفه	٣٨٥-٣٨٢
١٧	قبوله التعدديّة السياسيّة	٣٨٥

رقم التسلسل	الموضوعات	الصفحة
١٨	أنشطة المركز المتنوعة	٣٨٥-٣٨٦
١٩	سؤال مُخرَج لعلماء السنة	٣٨٦-٣٨٧
	❖ المبحث الثاني: أفكاره في الاجتماعية وبعض نشاطاته	٣٨٨-٣٩٣
	❖ المبحث الثالث: أفكاره في الاقتصادية وبعض نشاطاته [فيه أربعة وعشرين مطلبًا].	٣٩٤-٤١٣
١	شركة الأخوة الإسلامية بالمحلة	٣٩٤-٣٩٥
٢	تأميم شركة قناة السويس ومساهمة القرضاوي	٣٩٥
٣	نظريّة الإسلام في اكتساب الأموال عند القرضاوي	٣٩٥-٣٩٦
٤	وَقْفَةُ القرضاوي في الرشوة	٣٩٦
٥	التجاوب عن الربا	٣٩٦
٦	قضية الزكاة ما يتعلق برواتب المُوظَّفين	٣٩٧
٧	موقف الشيخ القرضاوي عن مشكلة الفقر	٣٩٧
٨	درس الشيخ القرضاوي حول الزكاة في الدوحة أحدث صَجَّةً في قطر	٣٩٨-٣٩٩
٩	نفقاته الفندق المتواضعة من أموال الدولة	٣٩٩
١٠	المناقشة حول العملة الورقية مع زميله	٤٠٠
١١	تأسيس أول بنك إسلامي في دبي	٤٠٠-٤٠١
١٢	تأسيس شركة الاستثمار الخليجي	٤٠١-٤٠٢
١٣	عُضُوِيَّة مجلس إدارة بنك فيصل المصري	٤٠٣
١٤	ملاحظة على البنوك الإسلامية	٤٠٣-٤٠٤
١٥	المؤتمر العالمي الأول في الاقتصاد الإسلامي	٤٠٤-٤٠٥
١٦	شركة الراجحي المصرفية والاستثمار	٤٠٥-٤٠٦
١٧	تأسيس بنك التقوى	٤٠٧-٤٠٩
١٨	محاضرة الشيخ القرضاوي عن شروط النجاح لمؤسسة الزكاة	٤٠٩
١٩	مساهمة القرضاوي في المشروعات الاقتصادية الإسلامية	٤٠٩-٤١٠
٢٠	لماذا تَحَسَّرُ المشروعات الاقتصادية الإسلامية؟	٤١٠
٢١	تجربة شركة الرِّيَّان	٤١٠
٢٢	من أخطاء البنوك الإسلامية	٤١١
٢٣	تأييده البنوك الإسلامية	٤١١
٢٤	الاتحاد الدولي للبنوك الإسلامية	٤١١-٤١٣

رقم التسلسل	الموضوعات	الصفحة
	■ <u>الفصل التاسع</u> مساهمة الشيخ القرضاوي وأدواره في انتشار العلوم الإسلامية في أنحاء العالم [فيه مبحث.]	٤١٤-٤٥٤
	❖ المبحث: مساهمته وأدواره في انتشار العلوم الإسلامية في أنحاء العالم [فيه أربعة وثلاثين مطلبًا.]	٤١٤-٤٥٤
١	وَقْفَةُ تَأْمِيلِيَةِ الْقُرْضَاوِيِّ	٤١٤-٤١٥
٢	الدعوة في أنحاء العالم	٤١٥
٣	ندوة إخوانية بحثية في إستانبول	٤١٥-٤١٦
٤	مع سيّد قطب	٤١٦-٤١٧
٥	المؤتمر العالميّ الأوّل لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة	٤١٧-٤١٨
٦	مع التنظيم العالميّ لإخوان المسلمين	٤١٩
٧	مُشَادَّةٌ مع الدكتور محمّد أركون حول الصحوة الإسلامية وغير ذلك في سنة ١٩٨٤م	٤١٩-٤٢١
٨	من عيوب المُنظَّماتِ والمؤسّسات الإسلامية في الغالب	٤٢١
٩	تأليف كتب للعلوم الشرعية، وغيرها في قطر لانتشار العلوم الإسلامية في بلاد الخليج	٤٢٢-٤٢٣
١٠	المؤتمر العالميّ للسنة والسير في قطر	٤٢٣-٤٢٤
١١	رئاسة مؤتمر "الإسلام والمستشرقون"	٤٢٤
١٢	إمكانية التفاهم بين الدولة وجمعيات الإسلاميه	٤٢٤-٤٢٥
١٣	تأسيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية	٤٢٥-٤٣٢
١٤	ملتقى الفكر الإسلاميّ العشرون سنة ١٩٨٦م في مدينة «سطيف» عن الإسلام والعلوم الإنسانية	٤٣٢
١٥	إلى ملتقى الفكر في سطيف	٤٣٣
١٦	مع مُنظَّمة الدعوة الإسلامية في الخرطوم	٤٣٣-٤٣٤
١٧	ندوة (الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربيّ) في عمّان	٤٣٤-٤٣٥
١٨	زيارة ألمانيا صيف سنة ١٩٨٧م بسعي الدكتور زقزوق	٤٣٥-٤٣٦
١٩	ندوة قضايا المستقبل الإسلاميّ بالجزائر	٤٣٧-٤٣٨
٢٠	ندوة عن المستقبل الإسلاميّ وقضاياها	٤٣٩
٢١	تأسيس المؤتمر القوميّ الإسلاميّ	٤٤٠-٤٤١
٢٢	دعوات مُكثَّفة إلى مؤتمرات ومحاضرات في أنحاء العالم	٤٤٢

الصفحة	الموضوعات	رقم التسلسل
٤٤٣-٤٤٢	الإشارة بإجمال إلى أهمّ الزيارات التي قام الشيخ القرضاوي بها لانتشار العلوم الإسلامية في أنحاء العالم	٢٣
٤٤٤-٤٤٣	محاضراته في الجامعات	٢٤
٤٤٥-٤٤٤	محاضرات مكثفة في محافظات مصر	٢٥
٤٤٦-٤٤٥	خُطْبُهُ	٢٦
٤٤٧-٤٤٦	محاضرات مكثفة في مدن المملكة العربية السعودية	٢٧
٤٤٧	المجلس الأعلى العالمي للمساجد	٢٨
٤٤٧	التعاون مع رابطة العالم الإسلامي	٢٩
٤٤٨	اختياره عضواً بالمجمع الفقهي	٣٠
٤٤٨	الندوات العالمية للشباب المسلم	٣١
٤٤٨	الردّ على الكراسي الرمادية	٣٢
٤٥٣-٤٤٨	بين الشيخ القرضاوي وبين المُستشرق الألمانيّ وندلين ونزل تيوير (Wendelin wenzel teuber)	٣٣
٤٥٤	مؤتمر «مسكو» للأديان في سنة ١٩٩٥ م	٣٤

٤٦٠-٤٥٥	نتائج البحث	
٤٦٢-٤٦١	الخاتمة	
٤٧١-٤٦٣	المصادر والمراجع	

❖ المقدمة

- ❖ أهميّة البحث وحاجته
- ❖ أهميّة الموضوع وأسباب اختياره
- ❖ حدود البحث
- ❖ أهداف البحث
- ❖ مناهج البحث
- ❖ التقاء الباحث وجهًا لوجهٍ مع الأستاذ الدكتور القرضاوي

الفصل الأول

الأوضاع الدينية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية
والتعليمية في قرية يوسف القرضاوي

وفيه ستة مباحث:

- ❖ المبحث الأول: الجانب الديني في القرية
- ❖ المبحث الثاني: الجانب الاقتصادي ومستوى العيش في القرية
- ❖ المبحث الثالث: الجانب الاجتماعي في القرية
- ❖ المبحث الرابع: الجانب الثقافي في القرية
- ❖ المبحث الخامس: الجانب السياسي في القرية
- ❖ المبحث السادس: الجانب التعليمي أو التربوي في القرية

الفصل الثاني

اسم القرضاوي ومكان ميلاده وتاريخه وتعريف عائلته

وفيه سبعة مباحث:

- ❖ المبحث الأول: الحياة الشخصية للعلماء وموضع القدوة فيها
- ❖ المبحث الثاني: اسم القرضاوي الكامل ولقبه ومكان ميلاده وتاريخه
- ❖ المبحث الثالث: التعريف العائلي من جانب أبيه وأمه
- ❖ المبحث الرابع: وفاة والده ووالدته رحمهما الله تعالى
- ❖ المبحث الخامس: حياته الازدواجية
- ❖ المبحث السادس: بناته وحالاتهن التربوية والتعليمية وحياتهن الازدواجية
- ❖ المبحث السابع: أبنائه وحالاتهم التربوية والتعليمية

الفصل الثالث

طفولة الشيخ القرضاوي وشبابه ومؤهلاته العلميّة والدراسيّة والبحثيّة
وفيه مَبْحَثان:

- ❖ المبحث الأول: طُفُولَةُ الشيخ القرضاوي وشبابه
- ❖ المبحث الثاني: مُؤَهَّلَاتِهِ العلميّة والدراسيّة والبحثيّة

الفصل الرابع

حياة عمليات القرضاوي وشخصياته ونشاطاته المتنوعة والمتعدّدة

وفيه ثلاثة مباحث:

- ❖ المبحث الأول: حياته العمليات
- ❖ المبحث الثاني: حياته الشخصية
- ❖ المبحث الثالث: نشاطاته المتنوعة والمتعدّدة

الفصل الخامس

أساتذة يوسف القرضاوي وتلاميذه المشهورون

وفيه مَبْحَثان:

❖ المبحث الأول: أساتذة يوسف القرضاوي

❖ المبحث الثاني: تلاميذه المشهورون

الفصل السادس

مؤلفات الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي

وفيه خمسة عشر مبحثاً:

- ❖ المبحث الأول: مؤلفاته في "الفقه وأصوله"
- ❖ المبحث الثاني: تصانيفه في "تيسير الفقه للمسلم المعاصر"
- ❖ المبحث الثالث: مؤلفاته في "إسلاميات عامة"
- ❖ المبحث الرابع: تصنيفاته في "الاقتصاد الإسلامي"
- ❖ المبحث الخامس: مؤلفاته في "سلسلة: حتمية الحل الإسلامي"
- ❖ المبحث السادس: تصانيفه في "علوم القرآن والسنة"
- ❖ المبحث السابع: مؤلفاته في "عقائد الإسلام"
- ❖ المبحث الثامن: تصنيفاته في "فقه السلوك في ضوء القرآن والسنة"
- ❖ المبحث التاسع: مؤلفاته في "الدعوة والتربية"
- ❖ المبحث العاشر: تصانيفه في "ترشيد الصحوة والحركة الإسلامية"
- ❖ المبحث الحادي عشر: تصنيفاته في "نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام"
- ❖ المبحث الثاني عشر: مؤلفاته في "شخصيات إسلامية"
- ❖ المبحث الثالث عشر: تصانيفه في "الأدب والشعر"
- ❖ المبحث الرابع عشر: تصنيفاته في "رسائل ترشيد الصحوة"
- ❖ المبحث الخامس عشر: مؤلفاته في "محاضرات الدكتور القرضاوي"

الفصل السابع

أفكار القرضاوي المتعلقة بالقرآن الكريم وتفسيره وبالأحاديث المطهّرة وبالفقه والشريعة الإسلاميّة وبالدعوة الإسلاميّة وفكره في التربية والتعليم وفي علم التوحيد وفي الإسلام والعلوم الإنسانيّة وفيه سبعة مباحث:

- ❖ المبحث الأوّل: أفكاره المتعلقة بالقرآن الكريم وتفسيره
- ❖ المبحث الثاني: أفكاره المُنتسبة إلى الأحاديث المطهّرة
- ❖ المبحث الثالث: أفكاره المتعلقة بالفقه والشريعة الإسلاميّة
- ❖ المبحث الرابع: فكره في التربية والتعليم
- ❖ المبحث الخامس: فكره في علم التوحيد
- ❖ المبحث السادس: فكره المتعلقة بالدعوة الإسلاميّة
- ❖ المبحث السابع: فكره في الإسلام والعلوم الإنسانيّة

الفصل الثامن

أفكار القرضاوي في السياسة الشرعية وفي الاجتماعية وفي
الاقتصادية وبعض نشاطاتها

وفيه ثلاثة مباحث:

- ❖ المبحث الأول: أفكاره في السياسة الشرعية وبعض نشاطاته
- ❖ المبحث الثاني: أفكاره في الاجتماعية وبعض نشاطاته
- ❖ المبحث الثالث: أفكاره في الاقتصادية وبعض نشاطاته

الفصل التاسع

مساهمة الشيخ القرضاوي وأدواره في انتشار العلوم الإسلامية في أنحاء العالم

وفيه مبحث:

❖ المبحث: مساهمته وأدواره في انتشار العلوم الإسلامية في أنحاء العالم

المقدمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا الطريق، وجعل لنا التوفيق خير رفيق، وأعز العلم والعلماء قائلًا: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [١١].^١ وفي آية أخرى: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [٣] ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [٤] ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [٥].^٢ وأذل الجهل والجهلاء معلنا: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [٩].^٣ وقال الله أيضًا: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [١٣].^٤ والصلاة والسلام على من أرسله هدى هو بالاهتداء حقيق ونورا به الاقتداء يليق ومعلما للبشرية جمعاء. فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ترغيبا): «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ».^٥ وفي حديث آخر أيضًا: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْكَلِمَةُ الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ، حَيْثُمَا وَجَدَهَا فَهِيَ أَحَقُّ بِهَا».^٦ وعلى آله وأصحابه الذين سعدوا في مناهج الصدق بالتصديق، وصعدوا في معارج الحق بالتحقيق. اللهم! ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [٣٢].^٧

وبعد:

فقال الله تبارك تعالیٰ في محكم تنزيله: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٤٣].^٨ وفي آية أخرى: ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [٥٩].^٩ فإن موضوع الفكر الإسلامي (*Islamic Thought*) ذو قيمة كبيرة في تشكيل بناء الأمة الإسلامية نحو التقدم والرفي، لأن قدرة الطاقة الفكرية تعدّ مقياساً لتقدّم الأمم، علاوة على أن الفكر هو أول مقوم فعّال الذي يقود به الأمة إلى النهضة، ومن هنا جاء دور الفكر الإسلامي في تكوين الأمة الإسلامية إلى مجتمع راق وإلى نهضتها بالتفكير في الإسلام.

وعلاوة على ذلك أنّ النصوص القرآنية أيضا شجعت لنا للتفكير والتدبر، فحاطبت العقول التي تفكر وتستخلص من تفكيرها زبدة الرأي من كلمات متعدّدة مثل الفكر والنظر والبصر والتدبر والاعتبار والذكر والعلم وغيرها التي تدلّ على الملكات الفكرية، نكتفي بذكر الآيات التي جاءت بكلمة التفكر، قال الله تبارك وتعالى:

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [١٢٢].^{١٠}

-
- ١ القرآن الكريم، المجادلة (٥٨)، الآية [١١].
 - ٢ القرآن الكريم، العلق (٩٦)، الآيات [٣ - ٥].
 - ٣ القرآن الكريم، الزمر (٣٩)، الآية [٩].
 - ٤ القرآن الكريم، البقرة (٢)، الآية [١٣].
 - ٥ الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك (المواد: ٢٠٩ هـ - المتوفى: ٢٧٩ هـ)، سنن الترمذي، [تحقيق وتعليق: إبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (ج ٤، ٥)، باب فضل طلب العلم، (مصر - شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م)، رقم الحديث: ٢٦٤٦، ج ٥، ص ٢٨، و[هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَحَكَمَ الْأَلْبَانِيُّ: صِيحِح]. والشيباني، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد (المتوفى: ٢٤١ هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، (مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م)، رقم الحديث: ٨٣١٦، ج ١٤، ص ٦٦
 - ٦ القزويني، أبو عبد الله محمد بن يزيد بن عبد الله ابن ماجة (المواد: ٢٠٩ هـ - المتوفى: ٢٧٣ هـ)، السنن، باب الحكمة، (دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي)، رقم الحديث: ٤١٦٩، ج ٢، ص ١٣٩٥
 - ٧ القرآن الكريم، البقرة (٢)، الآية [٣٢].
 - ٨ القرآن الكريم، النحل (١٦)، الآية [٤٣].
 - ٩ القرآن الكريم، الفرقان (٢٥)، الآية [٥٩].
 - ١٠ القرآن الكريم، التوبة (٩)، الآية [١٢٢].

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [٢١٩].^١

﴿الَّذِينَ يَذُكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [١٢١].^٢

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [٣].^٣

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.^٤

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [٥٠].^٥

فهذه الآيات نصوص صريحة على ضرورة التفكر والتفكير.

ولذلك ظهرت مدرسة الفكر الإسلامي والكلامي (*Islamic & Theological School of Thought*) في

التاريخ الإسلامي إمتثالاً لأوامر الله تعالى ولتحقيق نهضة الأمة، حتى برزت أعلامها في العصور المختلفة، ففي العصر القديم (عصر الخلافة العباسية)، اشتهر هؤلاء المفكرون من أمثال أبو يوسف يعقوب الكندي (١٨٥ هـ - ٢٥٦م/٨٠٥ هـ - ٨٧٣م)، وأبو الحسن الأشعري (٢٦٠ هـ - ٨٧٤م/٣٢٤ هـ - ٩٣٦م)، وأبو منصور الماتريدي (عهد الخليفة المتوكل - ٣٣٣ هـ)، وأبو نصر محمد الفارابي (٢٦٠ هـ - ٨٧٤م/٣٣٩ هـ - ٩٥٠م)، وأبو بكر الباقلاني (٣٣٨ هـ - ٩٥٠م/٤٠٢ هـ - ١٠١٣م)، وأبو علي ابن سينا (شخص مشير الجدل، ٣٧٠ هـ - ٩٨٠م/٤٢٧ هـ - ١٠٣٧م)، وأبو الريحان البيروني (٩٧٣ هـ - ١٠٤٨م)، وابن حزم الأندلسي (٣٨٤ هـ - ٩٩٤م/٤٥٦ هـ - ١٠٦٤م)، وأبو المعالي الجويني (٤١٩ هـ - ١٠٢٨م/٤٧٨ هـ - ١٠٨٥م)، وأبو حامد الغزالي (٤٥٠ هـ - ٥٠٥م/١١١١م)، ومحمد بن طفيل الأندلسي (١١٠٥م - ١١٨٥م)، وابن رشد (٥٢٠ هـ - ١١٢٦م/٥٩٥ هـ - ١٠٩٨م)، وفخر الدين الرازي (٥٤٣ هـ - ٦٠٦م/١١٤٨ هـ - ١٢٠٩م)، وابن خلدون (١٣٣٢م - ١٤٠٦م)، وغيرهم.

وفي العصر الحديث برزت أعلام الفكر الإسلامي، من أمثال الشاه ولي الله الدهلوي (١١١٤ هـ - ١٧٠٣م/١١٧٦ هـ - ١٧٦٢م)، ورفاعة رافع الطهطاوي (١٢١٦ هـ - ١٨٠١م/١٢٩٠ هـ - ١٨٧٣م)، والسيد أحمد خان (شخص مشير الجدل، ١٨١٧م - ١٨٩٨م)، وعلي مبارك (١٨٢٣م - ١٨٩٣م)، وجمال الدين الأفغاني (١٨٣٨م - ١٨٩٧م)، وعبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩م - ١٩٠٢م)، ومحمد عبده (١٢٦٦ هـ - ١٨٤٩م/١٣٢٣ هـ - ١٩٠٥م)، والسيد أمير علي (١٢٦٥ هـ - ١٨٤٩م/١٣٤٧ هـ - ١٩٢٨م)، وشبلي النعماني (١٨٥٧م - ١٩١٤م)، والسيد محمد رشيد رضا (١٨٦٥م - ١٩٣٥م)، وعبد الهادي عقيلي (*Ivan Agueli*) (١٨٦٩م - ١٩١٧م)، والأمير شكيب أرسلان (١٨٦٩م - ١٩٤٦م)، وطنطاوي جوهر (١٨٧٠م - ١٩٤٠م)، ومحمد إقبال (١٨٧٧م - ١٩٣٨م)، ومحمد علي جوهر (١٨٧٨م - ١٩٣١م)، ومصطفى عبد الرواق (١٣٠٤ هـ - ١٨٨٥م/١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧م)، وسعيد النورسي (١٨٧٧م - ١٩٦٠م)، وأحمد أمين (١٨٨٦م - ١٩٥٤م)، وأبو الكلام آزاد (١٨٨٨م - ١٩٥٨م)، وعبد الحميد بن باديس (١٣٠٧ هـ - ١٨٨٩م/١٣٥٨ هـ - ١٩٤٠م)، وعباس محمود العقاد (١٨٨٩م - ١٩٦٤م)، ومحمد عبد الله دراز (١٨٩٤م - ١٩٥٨م)، وغيرهم.

١ القرآن الكريم، البقرة (٢)، الآية [٢١٩].

٢ القرآن الكريم، آل عمران (٣)، الآية [١٩١].

٣ القرآن الكريم، الرعد (١٣)، الآية [٣].

٤ القرآن الكريم، الروم (٣٠)، الآية [٨].

٥ القرآن الكريم، الأنعام (٦)، الآية [٥٠].

أما في العصر الحاضر اشتهر بعض من رجال الفكر الإسلامي في أوساط العلمية من أمثال محمد أسد (*Leopold Weiss*) (١٩٠٠م-١٩٩٢م)، وأبو الأعلى المودودي، شخص مثير الجدل، (١٩٠٣م-١٩٧٩م)، وزكي نجيب محمود (١٣٢٢هـ-١٩٠٥م/١٤١٤هـ-١٩٩٣م)، ومالك بن نبي (١٣٢٣هـ-١٩٠٥م/١٣٩٣هـ-١٩٧٣م)، ومحمد البهي (١٣٢٣هـ-١٩٠٥م/١٤٠٢هـ-١٩٨٢م)، وعلال الفاسي (١٣٢٨هـ-١٩١٠م/١٣٩٤هـ-١٩٧٤م)، وعبد الحلیم محمود (١٩١٠م-١٩٧٨م)، وأبو الحسن الندوي (١٩١٣م-١٩٩٩م)، وأنور الجندي (١٩١٧م-٢٠٠٢م)، وفضل الرحمن (١٩١٩م-١٩٨٨م)، ومصطفى محمود (١٩٢١م-٢٠٠٩م)، ووحيد الدين خان (١٩٢٥م- ما زال على قيد الحياة)، وسعيد رمضان البوطي (١٣٤٧هـ-١٩٢٩م/١٤٣٤هـ-٢٠١٣م)، ويوسف القرضاوي (١٩٢٦م- ما زال على قيد الحياة)، ومحمد عمارة (١٣٥٠هـ-١٩٣١م)، والسيد نقيب العتاس (١٩٣١م- ما زال على قيد الحياة)، ومراد هوفمان (*Murad Wilfried Hofmann*) (١٩٣١م- ما زال على قيد الحياة)، وطارق رمضان (١٩٦٢م- ما زال على قيد الحياة)، وغيرهم.

أهميّة البحث وحاجته

وفنّ التفكير (*Art of Thinking*) يعتبر من أهمّ أعمال الإنسان، والتفكير هو عمليّة الذهن (*Mind*) الإنساني، فالإنسان يتعرف به الأشياء الكبرى، وبهذا يتعرف الفرق بين الشيئين المتجانسين، ويتمكن بهذا أن يتعرف حلّ المشكلات المعقّدة، ويتعرف الحقائق المختفية، وهذا التفكير عموماً يتّصف به معظم الإنسان مع ولادته، لكن التفكير الصحيح (*Right Thinking*) الذي يعدّ بمثابة العبادة لا يمتلك كل الناس، بل يمتلك ذلك الشخص الذي يستعدّ نفسه بشعور له، ويستطيع أن يخرج من جاذبيّة الحبّ والكراهيّة، وينظر إلى الشيء مثل ما هو ذلك الشيء، ولا ينظر إليه مثل ما هو يريد ذلك الشيء. فالإسلام قد اعتنى بالفكر الصحيح كثيراً، فلذلك علماء الإسلام قد اهتموا به اهتماماً كبيراً، حتى جعل بعضهم كعباس محمود العقّاد بمثابة فريضة إسلاميّة مثل الفرائض الأخرى. وهو يقول: إن الجهاد فريضة للدفاع عن أراض المسلمين، فهكذا الكفاح من أجل تحرير عقول المسلمين من الأفكار الهدّامة من الإلحاد والمادّيّة والشيوعية فريضة أيضاً.

وكان بين المسلمين تساؤلاً عن تخلفهم في الساحة الفكرية الإسلامي في العصر الحديث، وطرح هذا التساؤل بعض المفكرين المسلمين من أمثال جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، والسيد رشيد رضا، ورفاعة الطهطاوي، وشكيب أرسلان الذي كتب كتاباً وتساؤل فيه "لماذا تأخّر المسلمون وتقدّم غيرهم؟" وفي العصر الحاضر كتب أبو الحسن الندوي "ماذا خسر العالم بالخطا المسلمين؟"، وتبين فيه دور المسلمين المجيد الذي قد تمّ أدائه في الأيّام الماضية، وماذا فقدّ العالم بسبب سقوطهم وزوالهم. فكل هذه المحاولات بحوث عن أسباب تخلف المسلمين، وما هي المعالجة لهذه المشكلة؟ والجواب الوحيد لها هو انحطاط قدرة تفكير المسلمين ونسيان تاريخهم المجيد، لذلك يمكن أن يقال:

وإذا استطاع الغرب أن يسيطر على العالم الإسلامي في العصر الحاضر، فإنّما كان ذلك لانحطاط قدرة تفكير المسلمين، وعدم محاولتهم لفهم الإسلام بمناهج جديدة وأساليب متعددة، فتيسّر لهم (الغرب) السبل في تغريب المسلمين بواسطة أفكارهم الهدّامة من الإلحاد والمادّيّة والماركسيّة وغيرها. على حين لو تراجع المسلمون إلى مفاهيم الإسلام عن طريق خوض الأفكار لعلمائه ومفكره، وتطوّروا قدرة تفكيرهم التي تستمدّ و تستنير بأفكار إسلاميّة أصيلة، فتمكّنوا أن يقفوا أمام كل أنواع التيارات الفكرية الهدّامة كبنيان مرصوص مدافعاً عن الدين الإسلامي الحنيف.

ومن ثمّ ينبغي على الباحثين أن يدرسوا موضوع الفكر الإسلامي، وأهم أفكار المفكرين المسلمين دراسة إكاديميّة، حي يقفوا موقفهم عن التيارات والأفكار الوافدة أنفسهم، ويستطيعوا أيضاً أن يقدّموا لأبناء الأمة حقيقتها، إيجابياتها وسلبياتها. والمفكر المصري الكبير المعاصر فضيلة الأستاذ الدكتور يوسف عبد الله القرضاوي حفظه الله من هؤلاء المفكرين المسلمين البارزين وقادة الفكر، الذين سلكوا طريقهم بالتفكير في الإسلام عن طريق المواجهة العلميّة الرصينة للتحديات الفكرية المعاصرة. فهو يقول: 'إن من المشكلات التي يواجهها الإسلام في هذا العصر، منها ما هو علمي، يوجّه إليه بلغة العلم ومصطلحاته، لذلك يجب علينا أن نضع إجاباتنا في مواجهة هذه الحملات بنفس المصطلحات العقلية والعلمية التي يستخدمها المعارضون للدين'.

ومنها ما هو علمي، وهو مشكلة بناء الأمة الإسلامي وتعميرها، والعمل على نهضتها، وعلينا في هذا المجال أن نكشف العلل، ونفحص الأسباب الاجتماعيّة والسياسيّة التي أدت إلى سوء أحوال المسلمين، ثمّ وضع خريطة للمستقبل وتقوية الشعور القومي لدى المسلمين ليربط بين مختلف أنشطتهم، فيجعلها مجموعة معنويّة متكاملة، وتشجيعهم على مواصلة الجهد لتكون منهم أمة قويّة جامعة في العالم.

ومن مميّزاته أنه رسم أفكاره بالحجج القويّة والبراهين الساطعة، مع مراعاة الأسلوب الساذج والبيان الجذّاب ولأجل يعدّه عالماً ومفكراً معتدلاً من العلماء المعاصرين المرموقين. لكن مع تسليم أهميّة أفكار الأستاذ العلامة فضيلة الأستاذ يوسف عبدالله القرضاوي واحترام آرائه المتميّزة مع الإعجاب بأسلوبه وكيفيّة استدلاله يجب علينا ألا ننسى القاعدة ومصدريّة الفكر الإسلامي المتمثّلة في القرآن الكريم والسنة النبويّة، فمنهما يستمدّ المسلم عقيدته، ويغذي بها فكرته وثقافته.

فالفكر الإسلامي الأصيل يقوم على الثقافة القرآنيّة وهدى الرسول صلى الله عليه وسلم، فأصالة الفكر الإسلامي وتزييفه تعرف بمقدار قُربِهِ أو بُعْدِهِ من القرآن والسنة ومدى موافقته لهما أو مخالفته، لذلك يرى علماء الإسلام ضرورة التفريق بين الإسلام وبين فكر المسلمين الذي يمكن أن يكون صواباً أو خطأً.

وفي الزمن المعاصر اشتهر بعض من رجال الفكر الإسلامي في الأوساط العلمية وأحد منهُم فضيلة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي (١٩٢٦م - ما زال على قيد الحياة).

وفضيلة الأستاذ الشيخ يوسف عبد الله القرضاوي مجرّد إنسان وليس بمعصوم، ويمكن أن يقع في الخطأ... لذا ينبغي على المسلمين أن ينظروا أفكاره بمنظار القرآن والسنة النبويّة العطرة، هل هي أصيلة أم زائفة؟ ومن هذا المنطلق حاول الباحث أن يدرس أفكاره الرئيسيّة، فاختر الباحث الموضوع بعنوان "الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي: حياته ومساهمته في العلوم الإسلامية" للدراسة. وتمسّ الحاجة للبحث الدراسات كي يساهم في الإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي والثقافي الاقتصادي وغير ذلك في حياتنا الدنيويّة والأخرويّة. وأخيراً، في الحقيقة حينما تمّ اختيار هذا الموضوع للبحث، ما كانت الخلفيّة لدى الباحث سوى اسمه وبعض أسماء كتبه فقط، فبعّد إجراء الدراسة اكتشف له بأن هذا الموضوع واسع جداً، بسبب كثرة مؤلّفاته، وخاصة هو يأتي بأفكاره الجديدة حتى اليوم - لأنه ما زال على قيد الحياة - فكان من الصّعب أن يحيط كل أفكاره، فيرى الباحث مناسباً أن يختار تلك الأفكار التي هي محور فكره فقط، وحاول ألا يخوض في أفكاره التي قد تمّ بحثها من قبل. عسى الله أن جعل هذا البحث مفيداً لقارئ أو نافعاً لباحث، والله من وراء القصد وهو حسبي ونعم الوكيل.

عَنْ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اللَّهُمَّ لَا سَهْلَ إِلَّا مَا جَعَلْتَهُ سَهْلًا وَأَنْتَ تَجْعَلُ الْحُزْنَ إِذَا شِئْتَ سَهْلًا»^١.

فالسعي منا والإتمام من الله، والله هو الموفق والمعين في البداية إلى النهاية في تمييز هذه الرسالة، عليه توكلت وإليه أنيب. اللهم اجعل هذا الجُهد خالصاً لوجهك الكريم، واجعله في ميزان حسناتنا جميعاً يوم نلقاه، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله.

أهميّة الموضوع وأسباب اختياره

تعد دراسة الفكر الإسلامي من الدراسات التي لها أهميّة كبيرة في مجال الفكر الإنساني، وتزداد أهميتها يوماً بعد يوم - وهو ما دفع الباحث إلى اختيارها - لأسباب منها ما يلي:

١. الفكر الإسلامي موضوع ذو أهمية بالغة لأنه باعث مباشر للنهضة الإسلامي في تشكيل بناء الأمة الإسلامي فكرياً وثقافياً. فأراد الباحث أن يدرس هذا الموضوع من خلال أفكار المفكر الإسلامي المعاصر.

٢. ولا شك أن الأستاذ "فضيلة الأستاذ يوسف عبدالله القرضاوي" من رواد الفكر الإسلامي المعاصر، له فكر متميّز يحاول المنهج الوسطي والاعتدال والتسامح والبناء والتقريب والجمع بين المنهج السلفي والعلمي، وأسلوبه يتميّز بمحاولة الجمع بين البساطة والعمق.

١ البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الحُسْرُوْجْردي الخراساني، أبو بكر (المتوفى: ٤٥٨هـ)، **الدعوات الكبير**، باب جامع ما كان يدعو به النبي صلى الله عليه وسلم، (الكويت - غراس للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى للنسخة الكاملة، ٢٠٠٩م)، رقم الحديث: ٢٦٥، ج ١، ص ٣٥٥، وراه ابن حبان في صحيحه برقم: ٢٤٢٧، [موارد]، وابن السني برقم: ٣٥١، [وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني: هذا حديث صحيح، وصحّحه عبد القادر الأرناؤوط في تحريج الأذكار للنووي ص ١٠٦].

فاختار الباحث شخصيّة هذا المفكر المصريّ الكبير وأفكاره لموضوع البحث.

٣. تواجه الأمة الإسلاميّة تحديات التيارات الهدامة من الداخل والخارج، وفضيلة الأستاذ يوسف عبدالله القرضاوي تصدي هذه التحديات بأفكاره القويّة التجديديّة خاصّة في الجانب الاقتصاديّ والسياسيّ ومجالات الفقهي الإسلامي وأطر الدراسات الإسلاميّة وحقول الدعوة الإسلاميّة في أقطار العالم، فأراد الباحث أن يتعرف كيفية استدلاله ومساهمته وأدواره.

٤. الإيقاف عن آرائه التجديديّة في الفكر الإسلامي، إلى اتجهت نحو الاتجاه العصري، فهو يحاول الجمع والانسجام بين الإسلام وقضايا عصريّة جديدة على ضوء القرآن والسنة ومصادر الشريعة الإسلاميّة بالأدلة المعتمدة.

٥. الاكتشاف عن منهجه الجديد لعلم الفقه والاقتصاد والكلام حيث يقال إنه أسس ضوابطه، وشدّد بالتححرر من منهج الكلام القديم لمواجهة التيارات المعاصرة.

٦. إبراز موقفه الأخير وهو "التعايش السلمي دون عنف"، الذي يسبب نوعاً من الجدل حول هذا المفكر العظيم.

٧. إعطاء صورة مؤجزة عن أفكار الأستاذ فضيلة الأستاذ يوسف بن عبد الله بن عليّ بن يوسف القرضاوي وصورة حياته بالاختصار لدى العالم العربيّ والإسلاميّ عامة، والعالم الملايو خاصة حتى يثري المكتبة العربيّة والإسلامي والملايوية.

حدود البحث

يدور هذا البحث تحت إطار حياة فضيلة الأستاذ الدكتور يوسف عبد الله القرضاوي في ميدان العلوم الإسلاميّة، ممّا فيه من عرضه وتحليلها بالعربيّة، وتقييمها مع ذكر آراء الآخرين إن احتاج، إضافة إلى عرض مفهوم الفكر الإسلامي وخصائصه ومناهجه الفتاوى، وعرض ترجمة فضيلة الأستاذ الدكتور يوسف عبد الله القرضاوي، فيكون هذا البحث محدوداً حول فضيلة "الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي : حياته ومساهمته في العلوم الإسلاميّة".

أهداف البحث

يهدف البحث إلى معرفة المفكر المصريّ المعاصر فضيلة الأستاذ الدكتور يوسف عبد الله القرضاوي واستعراض مساهمته في العلوم الإسلاميّة وأهم أفكاره بشكل منظم. كما يهدف إلى تقييم تلك الآراء، باحثاً عن مدى صلاحيتها للتطبيق في الواقع بمنظور الإسلام. وهذا هو الهدف الرئيسيّ.

وبالإضافة إلى ذلك:

* أهم هدف من هذه الرسالة إبراز عمليّاته وشخصيته ونشاطاته وتفاعل صاحب السيرة مع عصره وقائمه وأحداثه الكبرى، ورأيه فيها، فلعل في ذلك ذكرى لمن كان له قلب، وعبرة لمن كان له عقل.

* إظهار أدب الاختلاف بين المجتهدين رحمهم الله تعالى في أصول الدين الشريعة.

* إبراز بعض الجوانب من اختلاف الأئمة الإسلاميّة وتقدير كل منهم للآخر احترامه لرأيه على الأدلة المعتمدة.

* دعوة المسلمين للعودة إلى الوحدة ونبد الفرقة الشائعة الوافدة والاختلاف حتى نحفظ الصحوة الإسلاميّة، ونعلم المتعاونين على إنجاحها ولعبادة مجد الإسلام وعزّه وسيادته.

* أن هذا البحث سيقدم للخدمة العظيمة في تنمية المجتمع من نواحي عديدة فمنها:

* إذا استقر المجتمع ويتعاون فيما بينهم، يعود إلى دين الله عزّ وجلّ ويقوي قوة المسلم يصبح هذا وسيلة لتنمية الاجتماع

والاقتصاد ببنغلاديش وفي العالم كلها.

* كما يلتزم بمنهج البحث المروجة في أوساط البحث العلميّ في جميع المعاملات من اللقاءات والنقاش والحوارات مع الشخصيات البارزة والدراسات الميدانيّة في العالم الإسلاميّ.

مناهج البحث

يعتمد الباحث في إجراء هذا البحث على ثلاثة مناهج، وفيما يلي:

١. منهج الاستقرائي في جمع المعلومات أو المواد العلمية من خلال مراجعة الكتب والمكتبات والشبكة العنكبوتية عن حياته ومساهمته في العلوم الإسلامية و أهم أفكار فضيلة "الأستاذ الدكتور يوسف عبد الله القرضاوي". واعتمد الباحث على إعداد هذا البحث المنهج التعريفيّ أو التوصيفيّ.
٢. أما في عرض أفكاره اعتمد الباحث على المنهج الوصفيّ.
٣. وفي تقييم بعض مساهمته وأفكاره اعتمد على المنهج التحليليّ النقديّ.
٤. وأيضًا حاول الباحث أن يأتي بترجمات بعض الأعلام في الهامش، إن احتاج التعريف. والتزم الباحث هذه المنهجية في عرض أهم مساهمته وأفكاره وتقييمه دون تعصّب.
٥. كما يلتزم بمنهج البحث المروجة في أوساط البحث العلميّ في جميع المعاملات من اللقاءات والنقاش والحوارات مع الشخصيات البارزة والدراسات الميدانيّة في العالم الإسلاميّ.

التقاء الباحث وجهًا لوجهٍ مع الأستاذ الدكتور القرضاوي

أنا (الباحث) ذهبتُ إلى جمهورية مصر العربيّة لإتمام درجة البكالوريا في قسم الشريعة الإسلاميّة من جامعة الأزهر تحت المنحة الدراسيّة، في سنة ٢٠٠٦م. والحمد لله، تخرّجْتُ بتقدير "جيد جدًا" بتوفيق الله تعالى. وكنت أعرفه قبل قدومي إلى مصر سوى اسمه (الشيخ القرضاوي) الكريم، فعلمتُ بعد ذلك عنه وفي تصانيفه النفيسة. وكنت أودّ منذ ذلك الحين لو كان لي حُسن الحظّ بملاقة فضيلة الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي! أخيرًا، فتقبّل الله هذا الرجاء. وأنا سَعَدْتُ وشرَّفْتُ بلقاء حضرته وجهًا لوجهٍ حتى صافحتُ معه، وكان هذا اللقاء في مسجد رابعة العدوية، مدينة نصر بالقاهرة في مصر. وقد نظّم بعض الإخوة من جماعة إخوان المسلمين الندوة في ذلك اليوم هناك، وكان الضيف المكرّم فضيلة الشيخ يوسف القرضاوي. بعد إدراك الخبر من إخواننا الكبار، أنا ذهبتُ هناك مع زملائي. وكنا مسرورين غاية السرور والبهجة. وذلك كان في مساء يوم ما، في سنة ٢٠٠٩م على ما أذكر. وحاضر الشيخ الخطيب المصنّف وكنا نستمع ونُنصِتُ له صامِتًا وساكنًا، كأن كلامه إقباس من أضواء النبويّة. وبعد المحاضرة أجاب الأسئلة منا بالحجج القويّة والبراهين الساطعة، مع مراعاة الأسلوب الساذج والبيان الجذّاب. فاتّضح عندي أنه ذي بشاشة وجه، ومشرق متألّق، والابتسامة الدائمة، وصاحب الشخصية الجاذبة، بلا تكلف ولا افتعال؛ وهو ما جعله قريبًا ومحببًا إلى الناس، ولا سيّما إلى الشباب. وهذا أمكن بلياقته وحضور بديهته في الحوار والرد على الأسئلة المخرجة، والإجابة المقتنة أو حسن التخلّص منها، وهذا موهبته ومِنته عليه خاصّة من الله تعالى. وبالإضافة إلى ذلك، أنه عالم ومفكّر معتدل من العلماء المعاصرين المرموقين.

لا بدّ لي أن أتحدّث (الباحث) عن سيرة ومسيرة يوسف القرضاوي أن ألقى شعاعا على ضرة البيئة التي ولد فيها ونشأ بها وخطوات في رُؤوعها ومرابيعها.

سأحاول أن أبين صورة بيئة الملامح واضحة التقاسيم عن قرينته في جوانبها الدينية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية والتعليمية أو التربوية. كما سأبدر بعدها شعاعاً على أسرته التي ربي في ظلها حتى تتكامل الصورة أمام القارئ الكريم، إن شاء الله. وستحدث فيما يلي عن:

١. الجانب الديني في القرية.
٢. الجانب الاقتصادي ومستوى العيش في القرية.
٣. الجانب الاجتماعي في القرية.
٤. الجانب الثقافي في القرية.
٥. الجانب السياسي في القرية.
٦. الجانب التعليمي أو التربوي.

المبحث الأول: الجانب الديني في قرية القرضاوي

كان الدين في قريته كما كان في قرى مصر بصفة عامة. هو المؤثر الأول في حياة الناس. كان الموجه الأول لتفكير الناس والمصدر الأول لتثقيفهم كما سئى بعد، والمؤثر الأول في سلوكياتهم. ويحتوي هذا المبحث على عشرة مطالب، وبيانها كالاتي:

المطلب الأول: الدين محور الحياة في قرية القرضاوي

المولود يولد على اسم الله. وعلى أنه نعمة من نعم الله سبحانه وتعالى. والشاهد على هذا بالحديث النبوي المروي عن الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَثَلِ الْبَهِيمَةِ تُنْتَجُ الْبَهِيمَةَ هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ؟»^١ والزواج يتم على كتاب الله وسنة رسول الله وعلى مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان كما يقول مأذون البلد باستمرار. والميت يموت على ملة رسول الله ويغسل ويكفن ويصلى عليه ويدفن في مقابر المسلمين على شرع الله. والإنسان حين يأكل يبدأ باسم الله وحين يفرغ من أكله يحمده بحمد الله.

قال الدكتور يوسف القرضاوي وكثيرا ما نسمع منهم هذه الكلمة حين يأكل بعضهم ويشبع من الطعام العادي: اللهم أدمها نعمة واحفظها من الزوال. وكانوا يحترمون الخبز ويسمونه "النعمة" وإذا وجد أحدهم لقمة خبز ساقطة في الطريق التقمها وقبلها حتى لا يدوسها الناس بأقدامهم. فيكون ذلك كفرانا بنعمة الله.

وكل الظواهر والأشياء تفسر باسم الله وتقرن بذكر الله. حين يعطس الإنسان يقول: الحمد لله، ويُسَمِّتُه صاحبه فيقول: يرحمك الله. وحين يودع صاحبه يقول له: في أمان الله، وبسلامة الله. وحين يعود من السفر يقال له: الحمد لله على السلامة. وحين يعود المريض يقول له: أجر وعاقبة إن شاء الله. وحين يخسر في صفقة أو يضيع منه شيء يقال له: العوض على الله. ويقول بعض من خسر: الله جاب (أعطى) الله أخذ، الله عليه العوض.

وإذا نزلت بأحدهم مصيبة يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، وإذا عزّاه أحدهم يقول له: ربنا يجبر مصيبتك ويُعوّضك خيرا، إذا اغتنى أحدهم قال: هذا بفضل الله.

وإذا افتقر قال: بقدر الله، وإذا قيل لأحدهم كيف أصبحت أو كيف أمسيت أو كيف حالك؟ فإنّ ردّه دائما: بخير والحمد لله. وبهذا نرى الناس في القرية مخلوطين ومعجونين في الدين.^٢

١ البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي (المولد: ١٩٤هـ - المتوفى: ٢٥٦هـ)، *الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله وسننه وأيامه*، باب ما قيل في أولاد المشركين، (دار طوق النجاة [مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي]، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ)، رقم الحديث: ١٣٨٥، ج ٢، ص ١٠٠، والنيسابوري، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري (المولد: ٢٠٤هـ - المتوفى: ٢٦١هـ)، *المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم*، [المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي]، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، رقم الحديث: ٢٦٥٨، ج ٤، ص ٢٠٤٧، بعبارة أخرى عن نفس الراوي.

٢ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله بن علي بن يوسف (المولد: ١٩٢٦م - ما زال على قيد الحياة)، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٨ - ٩

المطلب الثاني: مساجد قرية القرضاوي

كان أهم مؤسّسة في القرية هي "المسجد"، وأهم شخصية مؤثرة في القرية هي شخصية "عالم الدين". وقال القرضاوي كان في قرينتا خمسة مساجد، ثلاثة كبيرة، واثنان صغيران. على عادة القرى في مصر تسمّى بأسماء مشايخ مدفونين فيها. ولا أدري هل بني المسجد أولاً ثمّ دفن الشيخ أو عكس؟

في القرية -

١. مسجد سيدي عبد الله بن الحارث الصّحابيّ

٢. مسجد سيدي سليمان

٣. زاوية سيدي صالح

٤. زاوية سيدي عبد الغنيّ

٥. ومسجد المتوليّ. هو مسجد ناحية القرضاوي، وكلمة المتوليّ تعني: متوليّ أمر البلدة أي مسجد الحكومة. ويوجد مسجد المتوليّ

بمدينة المحلّة وبالقاهرة أيضاً.^١

وظلّ مسجدهم على هذه الوتيرة حتى ظهر عالم جديد وهو الشيخ عبد المطلب البتة. بدأ الشيخ عبد المطلب بخطب الجمعة، فقلّبها رأساً على عقب، أصبح يرتجل الخطبة ارتجالاً، ولا يقرأها من ورقة، كالخطباء من قبله، وأصبح يحضر خطبته تحضيراً جيّداً، ويجدّد لها موضوعاً معيّناً، يعدّد و يهيئ له أعمدته من الآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة المطهّرة، والأقوال المأثورة، فشدّ الناس إليه، وانتفع الناس به. وقد عالج الشيخ عبد المطلب في خطبه أمراض المُجتمَع من الغشّ والكذب والخيانة، وعقوق الوالدين، وقطع الأرحام، وغيرها، وحارب البدع المنتشرة في المُجتمَع، وأمسى هو الموجّه الأوّل للناس.

وفي مسجد سيدي سليمان قد كان يلقي الشيخ أحمد عبد الله المدرّس بكليّة الشريعة بالأزهر الشريف بانتظام. الّذي كان قريب من بيت الشيخ القرضاوي، وقد حضر الشيخ بعض دروسه في رمضان، وكان عبارة عن أحاديث تَبَوَّيَّةٍ يختارها غالباً من "شرح التّوّيِّ" على "صحيح مسلم"، ويعلّق عليها تعليقا خفيفا. وأمّا مسجد سيدي عبد الله بن الحارث الصّحابيّ - وهو مسجد الصّحابيّ الجليل دفين القرية. فقد كان قليل الحظّ من الخطباء والعلماء، حتّى عبّ فيه الشيخ عبد المطلب غانم من قِبَلِ "وَزَارَةِ الْأَوْقَافِ".^٢

بعض النساء اللواتي لا يصلّين وبعض الرّجال الّذين لا يصلّون، كانوا يحافظون على الصلاة في شهر رمضان. فقد كان لرمضان حرمة عظيمة في نفوس المسلمين، وكانوا يلتمسون فيه مغفرة خطاياهم طوال العام. وكثير من الناس الّذين أضاعوا الصلوات، واتبعوا الشهوات، لم يُحَرِّزُوا على إفطار رمضان، فكان هذا الشهر يجبرهم على احترامه ويحفزهم على صيامه.^٣

ولقد كتب أحد كبار المبشّرين في مصر تقريرا في أوائل قرن العشرينات كيف فشلت الحملة التبشيريّة على مصر. فذكر أن من أسبابها (أربعة أمور) تحطمت عليها محاولات التنصير في مصر المسلمة:

١. القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ١٠

٢. المرجع السابق، ص ١٧

٣. المرجع السابق، ص ١٠

الأول: القرآن المجيد،

والثاني: الجامعة الأزهر،

والثالث: اجتماع الجمعة الأسبوعي،

والرابع: مؤتمر الحج السنوي. وهذا المنصر نسي أن يذكر أمرا خامسا، وهو الموسم السنوي العظيم في شهر رمضان وما له من إحياءات وثمرات في الأنفس والحياة بصيام أيامه وقيام ليليه ودروسه وعظاته.

المطلب الثالث: رمضان موسم ديني سنوي في قرية القرضاوي

في شهر رمضان يصلي إمام مسجدهم (القرضاوي) الشيخ أحمد التراويح بعشرين ركعة غير الشفع والوتر. وبين المغرب والعشاء، بعد الإفطار السريع، يعقد درس في المسجد يقوم به أحد المشايخ، وهو مأذون البلدة، ومعظمه في الفقه على مذهب الشافعي، ويطيل في هذه الدروس التي تتحدث غالبا عن الطهارة: المياه وأحكامها، والاستنجاء وشروطه وآدابه، والوضوء وأركانه وشروطه وسننه ونواقضه، والتميم والحيض والنفاس غير ذلك. وإن الشيخ حفظه الله كان يمضي في دروسه هذه ثلاثين ليلة^١.

وكثير من النساء كنّ يصمن رمضان كله حتى إنهنّ لا يفطرن أيام الدورة الشهرية (الحيض) مع أنّ الصوم في هذه الأيام حرام، ولا يقبل منها. ولكنّ الجهل الشائع لدى النساء أدى إلى هذه النتيجة.

وكان شهر رمضان كلّ عام موسما للطاعات، ومتجرا للصلحين، وكان الناس يجددون فيه إيمانهم بحق بصيام نهاره وقيام ليله، والانتفاع بدروسه، ولذا سمي في بعض الكتب: (ربيع الحياة الإسلامية) تتجدد فيه القلوب بالإيمان والصيام والقيام، والعقول بالمعرفة والعلم، والأسرة بالالتقاء على الفطور والسحور، والمجتمع بقوة الترابط والتزاور والإحسان إلى الفقراء.

وكان فرصة لتلاوة القرآن وذكر الله تعالى وتسبيحه والدعاء والاستغفار له، وخصوصا عند الإفطار، وحين يفطر الصائم ويقول: اللهم لك صمت وعلى رزقك أفطرت. وفي رمضان ابتكر الشيخ عبد المطلب البتة درس العصر، ولم يكن موجودا قبله، يفسر فيه آيات من القرآن المجيد، أو يشرح من الأحاديث النبوية، مثل أحاديث الأربعين النبوية. وكان عبد المطلب تجديدات في دروسه لا يجدها الناس في غيره، يريد أن ينشط بها الناس، ويجذب انتباههم.

مثل دعوته الحاضرين إلى أن ينشدوا معه في كلّ درس، هذه الأبيات:

يا رجال الله ليس غير الله ربّ

إن في القرآن آية وهي للعشاق طبّ

ان تناولوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبّوا^٢

قال القرضاوي: كان الشيخ عبد المطّاب البتة مثالا حيا للعالم القوي في علمه، وأشهد أنّي انتفعت بالشيخ البتة، ولزمت دروسه بعد العصر في مسجد المتولي، حتى كدت أحفظها، بل كنت ألزمه في صلاة التراويح، حيث كان يصليها في مسجد صغير يسمّى مسجد سيدي عبد الغني، وكان يصلي التراويح عشرون ركعة كالعادة. وقد عين مدرّسا بالمعاهد الأزهرية.

١ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ملخص ما في ص: ١٢ - ١٣

٢ يقصد "مما تحبّوا" كما هو لفظ الآية، ولكن حذف "النون" لضرورة القافية. ولا ندرى هل هذا يجوز في القرآن الكريم؟ في نظري (الباحث) لا يجوز استخدام كمثل هذه القافية في الآية القرآنية.

المطلب الرابع: الركن المالي (الزكاة) في قرية القرضاوي

وهناك فريضة دينية، وشعيرة إسلامية، وركن ركين من أركان الإسلام لم يكن أثر ملموس فرضية الزكاة في الحياة الإسلامية في عهد صبا يوسف القرضاوي. ولكن الزكاة هو الركن المالي الاجتماعي الاقتصادي من أركان الإسلام. وهو الذي فرضه القرآن مع الصلاة في ثمانية وعشرين موضعا، والذي قال فيه أبو بكر رضي الله عنه: فَقَالَ: «وَاللَّهِ لَأَقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللَّهُ لَوْ مَنَعُونِي عَنَّا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنَعِهَا»^١.

وكان يبدو عند القرضاوي أن سبب اختفاء هذا الركن وعدم ظهوره بوضوح يرجع إلى عدّة أسباب:

أولها: أنّ جمهرة الناس في القرية كانوا فقراء لا يملكون النّصاب.

ثانيها: أنّ كثيرا من الذين يملكون النّصاب، وتجب عليهم الزكوات، كانوا يخرجونها دون إعلان لأقاربهم وجيرانهم.

ثالثها: غلبة الشُّحّ و حُبّ الدنيا على كثير من الناس، حتّى نسوا إقامة هذا الركن العظيم.

رابعها: عدم وجود من يطالبهم بالزكاة لا من الدولة، ولا من هيئات شعبية.

قال القرضاوي: ولكنّي لاحظت أن بعض الفلاحين - ومنهم عمّي - كانوا يخرجون إذا اجتمع لهم خمسون كيلة مصرّية من الحبوب (القمح أو الذرّة أو غيرها) كيلتين ونصفا منها، زكاة للفقراء، نصف عشر ما خرج من الأرض، حيث كانت الأرض تسقي بالسواقي ونحوها من الآلات، وليس بماء السماء.

وكان الملاحظ أن الفلاحين المحدودي الدخل هم الذين يحرصون على أداء الزكاة، لا كبار الملاك الزراعيين.

المطلب الخامس: الاهتمام بالقرآن والصدقة في قرية القرضاوي

وكان من تأثير الدين في أهل القرية: اهتمامهم بالقرآن الكريم وحفظه، وكان في القرية أربعة كتاتيب: كُتّاب في غرب القرية وهو كُتّاب "الشيخ دسوقي"، وكُتّاب في شرقها وهو كُتّاب "الشيخ نور الدين"، وكُتّابان في وسطها، أحدهما: "كُتّاب الشيخ حامد"، وهو الكُتّاب الذي تعلّم الشيخ القرضاوي فيه. والآخر: كُتّاب "الشيخ يماني مراد". وكان في القرية حينئذ نحو مائة حافظ للقرآن الكريم أو أكثر.^٢

وكانت تقام في المساجد حلقات للقرآن الكريم يوم الجمعة في مسجد سيدي عبد الله، أو يوم السبت في مسجد المتوّبي - وهو مسجد الشيخ القرضاوي. وتسمّى "السبتية" ويهيئ الناس له، متطوّعين - صواني العشاء والأرزّ بالدين. ويعتقد الناس: أن البيت الذي لا يقرأ فيه القرآن كلّ يوم يكون كالبيت الحرب، كما في حديث عن ابن عبّاس، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الَّذِي لَيْسَ فِي حَوْفِهِ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ كَالْبَيْتِ الْحَرْبِ»^٣. ولذا كانوا يرتّبون أحد القراء، ليمرّ كلّ يوم بالبيت ويقرأ "رُبعًا" من القرآن الكريم يكون رحمة للأموات، وبركة على الأحياء. ويعطونه في كلّ موسم حصاد ما تجود به أنفسهم من القمح أو الذرّة.

وكانوا يعتقدون أن كلّ بيت لا بدّ أن تخرج منه كلّ يوم صدقة، يسمّونها "حسنة" ويأسفون إذا لم يمر سائل في يوم يطلب حسنة ويخرجونها مضاعفة في اليوم التالي.

وأكثر ما تكون الحسنة رغيماً من الخبز، فقد كانت النقود عزيزة، والجدود من الموجود. وبعض الناس يعطون أكثر من حسنة، وآخرون يعطون حسنة واحدة كلّ يوم، ولهذا لو جاء سائل بعد آخر، قالوا للثاني: طلعت، يعني: جئت بعد فوات الأوان، والغالب أن الذين كانوا يسألون، كان يسألون من حاجة، وقليل منهم من احترف السؤال والتسؤل.

١ البخاري، الجامع الصحيح للبخاري، باب وجوب الزكاة، (دار طوق النجاة [مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي]، الطبعة: الأولى،

١٤٢٢هـ)، رقم الحديث: ١٤٠٠، ج ٢، ص ١٠٥

٢ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٣٣

٣ الترمذي، سنن الترمذي، المرجع السابق، رقم الحديث: ٢٩١٣، ج ٥، ص ١٧٧، [حكم الألباني: ضعيف، وعند حسين سليم أسد الداراني: حديث حسن].

المطلب السادس: مواسم دينية في قرية القرضاي

وكان من تأثير الدين في القرية وأهلها: أن هناك عدة مواسم سنوية يحتفل الناس بها، تذبج فيها الذبائح، ويوسع الناس فيها على أنفسهم وأسرهم. وكان أول هذه المواسم: يوم عاشوراء وهو اليوم العاشر من محرم من كل عام. وقد روي في هذا حديث ذكره الحافظ المنذري في كتابه "الترغيب والتهذيب" يقول: "من وسع على عياله في عاشوراء وسع الله عليه سائر سنته."^١

قال المنذري: وقد قال بعض العلماء المتقدمين: جَرَّئَنَاهُ فوجدناه صحيحاً. ورد عليه بعض المحققين: أن الأحاديث لا تصح بالتجارب. وقد ذكر ابن تيمية: أن الحديث موضوع.

يتضمن هذا المطلب مسألتين، وهما:

المسألة الأولى: موقف القرضاي في "عاشوراء"

وفي ظن القرضاي أن هذا الحديث وضعه بعض أهل السنة، رداً ما يصنعه الشيعة في هذه المناسبة، من نياحة وعويل وضرب للصدر إلى حدّ إسالة الدماء، من أجل استشهاد الحسين بن علي رضي الله عنهما في كربلاء في ذلك اليوم. فاعتبروا هذا اليوم يوم حزنٍ وحِداءٍ، فقاومهم غلاة أهل السنة، واعتبروه يوم احتفال وتوسعة، وكلاً الأمرين مرفوض، لأنّ كلاً ما جاء في عاشوراء هو الترغيب في صيامه، وكذلك في صيام اليوم التاسع من قبله.^٢ وفي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم حين هاجر إلى المدينة، وجد اليهود يصومون عاشوراء، فأسألمهم عنه، قالوا: هذا يوم نجى الله موسى وبني إسرائيل، فقال "نحن أولى بموسى منكم وصامه وأمر بصيامه".

أنا (الباحث) موافق مع فضيلة الأستاذ الدكتور القرضاي: ومن المعلوم أن هذه مسألة اختلافية، ولم أجد حديثاً صحيحاً بعد البحث، الذي تدلّ على وسع عياله، بل كل ما يوجد في عاشوراء هو الترغيب في صيامه. والمبادئ المقرّرة في أحكام العبادات أن يثبت بالدليل الصحيح وإلا فلا يحتج به ولا يعتبره.

المسألة الثانية: ليلة "الإسراء" و"المعراج"

ومن المواسم السنوية: الاحتفال في أواخر رجب من كل عام بذكرى الإسراء والمعراج في ليلة السبع والعشرون منه. ورحلة الإسراء: هي الرحلة الأرضية التي ذكرها القرآن الكريم، وافتتح بها السورة التي سميت باسم هذه الذكرى "الإسراء" وقال فيها ربنا عز وجل: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [١].^٣

وأما المعراج: فهو الرحلة السماوية التي ابتدأت من المسجد الأقصى إلى السماوات العلا، إلى سدرة المنتهى، وهي التي أشار إليها القرآن في سورة "النجم" ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ [١٤] ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ [١٥] ﴿إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ [١٦] ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [١٧] ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [١٨].^٤

١ وقال المناوي رحمه الله تعالى في فيض القدير: قال جابر الصحابي: جربناه فوجدناه صحيحاً. وقد ورد فيه حديث ولكنه مختلف فيه، فأكثر أهل العلم على تضعيفه وهو عن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من وسع على عياله يوم عاشوراء لم يزل في سعة سائر سنته. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الأوسط وفيه محمد بن إسماعيل الجعفري، قال أبو حاتم: منكر الحديث.

٢ القرضاي، يوسف بن عبد الله، (المولد: ١٩٢٦م - ما زال على قيد الحياة)، فتاوى معاصرة، الفصل: صيام يوم عاشوراء، (القاهرة، دار القلم، الطبعة: الخامسة، ١٩٩٣م)، ج ٣، ص ١١٢.

٣ القرآن الكريم، الإسراء (١٧)، الآية [١].

٤ القرآن الكريم، النجم (٥٣)، الآيات [١٤ - ١٨].

هذه الليلة ليست لها مراسيم معيّنة، ولا تقرأ فيها قصّة، وليس فيها صيام ولا قيام، إلا ما فيها من التوسعة بطيب الطعام والشّراب. وشهر رجب ليس فيه شيء غير هذه الليلة، على أنّها غير مؤكّد وقوع الإسراء فيها، إذ لم يكن الصّحابة يهتّمون بهذه التواريخ، خصوصاً أنّه لم تشرع فيها عبادة، لا صيام ولا قيام ولا ذكر معيّن. كلُّ ما جاء في شهر رجب: أنه واحد من الأشهر الحرم التي نوه الله بها في كتابه في قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [٣٦].^١

وقد جاء في الحديث الحثّ على صيام الأشهر الحرم بصفة عامّة، ولم يثبت في شهر رجب بصفة خاصّة شيء، وإن كان الواضعون (الوضاعون) قد وضعوا أحاديث في فضل رجب، وفي أوّل ليلة منه، وابتدعوا صلاة فيها سمّوها "صلاة الرغائب". وهي صلاة مكذوبة على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كما بيّن المُحقّقون من العلماء. وشاع بين الناس حديث طالما سمعوا من خطباء مساجدهم: «عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَلَا إِنَّ شَهْرَ رَجَبٍ شَهْرُ اللَّهِ وَشَعْبَانَ شَهْرِي، وَرَمَضَانَ شَهْرُ أُمَّتِي».^٢

ومع هذا في قرية القرضاوي من كان يصوم رجب كلّه، وشعبان كلّه، ورمضان كلّه، بالطبع، والأيام السّنة عقب عيد الفطر. وكانت جدّة القرضاوي أمّ أمّه رحمها الله من هذا النوع من الناس. وصيام الأشهر الثلاثة متّصلة لم تثبت بها سنّة عن الرسول الكريم ولا عن أحد من أصحابه ولا من أتبعهم بإحسان. وكان أكثر شهر يصوم فيه الرسول بعد رمضان هو شعبان، ولكنّ الصّحيح أنّه لم يصمه كلّه، بل لم يصم شهرًا كاملاً غير رمضان، أمّا شهر رجب، فلم يثبت عنه أنّه صامه فيه أو صام فيه أيّاماً بخصوصها.

والمطلوب من العبادات: أن نقف عند ما ورد، فالأصل في العبادات وشؤون الدّين التّعبد والاتباع يعني أمر توقيفيّ، والأصل في شؤون الدّنيا الابتكار والابتداع. وهذا ما كان عليه سلف الأمتّة في خير القرون وأزهى العصور: اتّبعوا في أمور الدّين، وجدّدوا وابتكروا في أمور الدّنيا، فلمّا ساء حال المسلمين وتراجعت مسيرتهم وحضارتهم عكسوا الآية، فاخترعوا وابتدعوا في أمور الدّين، وجدّدوا وقلّدوا في أمور الدّنيا، فأضاعوا الدّين والدّنيا معاً.^٣

١ القرآن الكريم، التوبة (٩)، الآية [٣٦].

٢ الجرجاني، يحيى (المرشد بالله) بن الحسين (الموفق) بن إسماعيل بن زيد الحسيني الشجري (المتوفى ٤٩٩ هـ)، ترتيب الأمالي النخعيّة للشجري، [تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل]، باب في صوم رجب وفضله وما يتّصل بذلك، بيروت - دار الكتب العلميّة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م، رقم الحديث: ١٨٣٤، ج ٢، ص ١٢٣، [وقال الشيخ القرضاوي: هو حديث غير ثابت، وحكم الألباني: ضعيف].

٣ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠ م)، ج ١، ص ٣١

المطلب السابع: الطرق الصوفية في قرية القرضاوي

لم يكن للطرق الصوفية الشهيرة والكبيرة في قريته نفوذ وأتباع، إلا أفراداً قليلين كانوا من أتباع الطريقة الشاذلية. وهناك أتباع للطريقة "البيومية" ومشهورون بالذكر الجماعي، الذي كثيراً ما يتم على نشيد المنشد وأنغام "السلامية" ويتراقصون في ذكرهم بطريقة رياضية قوية، تحتاج إلى جسم مرين قادر على هذه الحركات والاتواءات.

وكان من المشايخ الذين لهم صلة بالقرية: الشيخ محمد سليمان العناني، الذي كان يأتي من "طنطا" إلى القرية، والذي يعتقد أهل القرية أنه من أولياء الله الصالحين.

وكان من الطرق الشهيرة في مصر في ذلك الوقت: الطريقة الخليلية التي أسسها الشيخ إبراهيم أبو خليل في الشرقية، وكان رجلاً أمياً، ولكن يحكون عنه من الكرامات والخواص الشيء الكثير، كان القرضاوي يسمع هذه الحكايات من زوج خالته الحاج محمد الرياشي الحاروني، الذي أخذ عهداً على الشيخ أبو خليل نفسه، وكان دائم الذكر والتسبيح.

وفي لسان الشيخ القرضاوي: قد نشأت في قريتنا طريقة مستقلة من الطريقة الخليلية، وهي طريقة الشيخ محمد أبو شادي، الذي كان خليلاً في أول أمره، ثم استقل بطريقة خاصة، التي كان قوامها الذكر والدعاء والاستغفار والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قراءة فصل من كتاب "إحياء علوم الدين" للغزالي. فجمعت بين العلم والعمل، أو بين الثقافة والسلوك. وكان لها شعار اتخذته يحفظه أتباعها يقول: من جالسنا فلا يذكر إلا الله وحده، فإن كان ولا بد من ذكر غيره، فليذكر الآخرة، وليذكر الصالحين. وهذا يشبه ما قاله بعض مشايخ الصوفية المتقدمين حين قرأ قوله تعالى عن الصحابة في "غزوة أُحُدٍ": ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ [١٥٢].^٢ فصرح الشيخ وقال: فأين من يريد الله؟ ورد عليه شيخ الإسلام ابن تيمية بأن من أراد الآخرة فقد أراد الله، إذ لا يعقل ألا يكون في الصحابة من أهل أُحُدٍ: من لا يريد الله! وقد عرف القرضاوي هذه الطريقة من الشيخ بيومي العزوني. وقد كان من أتباع الشيخ أبي شادي بعض علماء الأزهر المرموقين، منهم العالم الجليل الشيخ عبد الحليم قادم شيخ معهد الزقازيق، وأحد الصالحين من علماء الأزهر، وقد شهدته بنفسه حين قدم إلى القرية، وزار قبر شيخه أبي شادي، وألقى درساً في "أدب الأكاير".

وقد استفاد من هذه الطريقة شيئاً مهماً، مما كان له تأثير في حياته، وهو التعرف المبكر على حجة الإسلام الإمام أبي حامد الغزالي، وذلك عن طريق كتابه "إحياء علوم الدين". وكانوا يلتقون أي القرضاوي وزملائه - منذ التحقوا بالمعهد الديني - بعد عصر كل يوم، ليقروا فصلاً أو أكثر منه. وكثيراً ما كان يختلف القرضاوي والشيخ بيومي في بعض المواضع. كما لاحظ أن في الكتاب أحاديث كثيرة يرفضها عقله، ثم اكتشف أن "الإحياء" يحتوي معه كتاباً آخر للحافظ العراقي، سمّاه المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في "الإحياء" من الأحاديث والأخبار.

وهذان المأخذان على "الإحياء" لم يسقطا اعتباره، ولا اعتبره الإمام الغزالي عنده. وهذا مما يحمد الله تعالى عليه: العدل والاعتدال مع الناس، وخصوصاً مع العلماء، فلا يغلو في حبّ بعضهم إلى درجة التقديس، ولا يطاول على كبارهم، مجرد أنه أخطأ، فكلّ بني آدم خطّاء. ولكلّ عالم هفوة، ولكلّ جواد كبوّة. ثم ما يدرية لعلّ ما يظنّه صواباً هو الخطأ بعينه، ولا سيما في الأمور الاجتهادية. فضممه إلى كتاب آخر للغزالي المسمّى "منهاج العابدين" وهو كتاب مختصر مفيد في علم السلوك، وإن لم يخل من مبالغات الصوفية في الزهد والتوكل ونحوهما.

١ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ١٨
٢ القرآن الكريم، آل عمران (٣)، الآية [١٥٢].

وجدير بالذكر هنا عندما اعتقل الشيخ القرضاوي لأول مرة سنة ١٩٤٩م مع إخوان المسلمين، كان اصطحب معه كتابين:

أحدهما: "إحياء علوم الدين"

والثاني: أجزاء من "العقد الفريد" في الأدب.^١

المطلب الثامن: ظاهرة الموالد في قرية القرضاوي

وكان من آثار التصوف في قريته: الاهتمام بـ "مولد الأولياء" وأهمها وأبرزها: مولد السيّد "أحمد البدوي" بمدينة طنطا. وجدير بالذكر كان يحتفل به كل سنة لمدة أسبوع كامل. وتحتشد فيه مئات الألوف من الناس محملين بالزاد معهم، مصطحبين معهم الخراف التي نذروها للمولد أو للسيّد.

وفي آخر ليلة من الأسبوع ليلة الجمعة تطلق الصواريخ إيدانا باستكمال الاحتفال. وحيث كان يختلط الرجال والنساء في ازدحام شديد، متماسين متلاصقين، ولا حول ولا قوة إلا بالله. ويعود الناس إلى قراهم وبلدانهم و معهم "الحُص والحلاوة" من ذكريات المولد، ومن يستطع أن يعود بشيء من ذلك قال الناس عنه: رجع من المولد بلا "حُص"!^٢

وبعد مولد السيّد البدوي بقليل يبدأ مولد آخر لوليّ شهير آخر في مدينة "دسوق". وهو مولد سيّدي "إبراهيم الدسوقي" دفين في مدينة "دسوق". وهو أحد الأولياء المشهورين عند العوام، ويقول الناس: إنّه أحد الأقطاب الأربعة الذين وكلّ الله إليهم التصرف في هذه الأرض، كلٌّ منهم له ربعها. فأحدهم: أحمد البدوي، والثاني: إبراهيم الدسوقي، والثالث: عبد القادر الجيلاني، والرابع: أحمد الرفاعي!

وهي بالطبع خرافة لا أساس لها من دين الإسلام، وهي تنافي عقيدة التوحيد، التي جعلت الأمر كلّ الله، فلا يملك نبي ولا وليّ أن يتصرّف في الكون في حياته فما بالك بعد مماته؟ ولقد قال الله تعالى لخاتم رسله و صفوة خلقه: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْعَيْبَ لَأَسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [١٨٨].^٣

وفي قرية القرضاوي كان يقام مولدان:

أحدهما: مولد سيّدي عبد الله بن الحارث الصّحابي

والثاني: مولد إبراهيم الدسوقي

يشتمل هذا المطلب على مسألتين، وهما:

المسألة الأولى: رأي في الموالد

قال القرضاوي: ولي رأي في هذه الموالد، أقوله بعد تأمل طويل وتحليل لهذه الظاهرة الشعبيّة المنتشرة في أكثر العالم الإسلامي، وأرجو ألا يغضب هذا الرأي إخواننا المتشدّدين في أمر الموالد.

الذي يراه: أنّ هذه الموالد ليست إلا مهرجانات شعبيّة وأفراحا عامّة للجماهير، تنفس بها عن ذاتها، وتعبّر بها عن مشاعرها، وتعطي أنفسها إجازة من عملها المضني طوال العام، الذي تكد فيه اليمين، ويعرق الجبين، لتمرح وتلهو مدّة أسبوع من الزّمان.

ونظرا لأنّ مجتمعاتنا مجتمعات دينيّة وكلّ شيء في حياتنا موصول بالدين، فقد مزجت هذه المهرجانات بالدين، وأضفت عليها طابعا دينيًّا، شكلا دينيًّا، أو عنوانا دينيًّا. وهي في الحقيقة مهرجانات دينويّة محضة، وكلّ ما فيها دنيا: مَرَحٌ وهو ولعب وأسواق وبيع وشراء.^٤

١ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٢١

٢ المرجع السابق، ص ٢٢ بالاختصار.

٣ القرآن الكريم، الأعراف (٧)، الآية [١٨٨].

٤ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، المرجع السابق، ص ٢٤

فلو قيل عن مولد السيّد البدوي: مهرجان طنطا السنويّ الشّعبيّ لكان هذا القول حقاً، ولعبر عن واقع الحال بصدق. وكذلك يقال عن مولد الدسوقي مهرجان دسوق السنويّ، وكذلك مولد قرية القرضاوي: مهرجان صفط تراب السنويّ الأوّل والثاني. واعتقاد القرضاوي أن ٩٩% من الذين يذهبون إلى هذه الموالد لا يخطر في بالهم فكرة التعبّد لله تعالى بالدّهَاب إلى المولد: ولكنّ الدافع لهم هو: الفُسحة والترويح والتّرفيه. وفي هذه الحالة ينبغي أن نضبط هذه الموالد بما نضبط به كلّ المهرجانات الشّعبيّة الكبرى: من حيث الإعداد و حسن التنظيم، والحفاظة على الصّحّة والنظافة، ورعاية الآداب العامّة، وحماية عوام الناس من النّصّابين، إلى غير ذلك ممّا لا بدّ منه في مثل هذه التجمّعات الكبيرة، "درءاً للمفاسد وجلباً للمصالح".^١ وهذه قاعدة فقهيّة إسلاميّة.

المسألة الثانية: المولد النبويّ

ومن المواسم السنويّة: يوم المولد النبويّ. وقد اشتهر أنّه اليوم الثاني عشر من ربيع الأوّل. وقد جرت عادة القرية بالاحتفال بهذا الموسم ابتداء من أوّل ربيع، حيث تنصب الزينات، وتضاء المساجد، وتقرأ قصّة المولد كلّ ليلة، وتوزع الحلوى والشّربات إلى أن تأتي ليلة الثاني عشر.

وقد حكى الشّيخ القرضاوي: وكنا - نحن صغار - نفرح بهذه المناسبة وما يوزّع فيها من حلوى وشربات، وما نسمعه من شيخ المسجد كلّ ليلة من قصّة المولد المكتوبة بشكل مسجوع. ويدعو الناس: اللهم عطر قبره بالتعظيم والتحيّة، واغفر لنا ذنوبنا والآثام. قد عرف القرضاوي بعد ذلك: أنّ معظم ما يذكر في هذه الموالد من أحداث وقصص لم يصحّ به حديث، ولا قام عليه دليل من عقل أو نقل، سواء ما حدث في حالة حمله صلى الله عليه وسلّم، وما حدث عند ولادته. وكان خيراً من هذا لو ذكرت جوانب صحيحة من سيرته صلى الله عليه وسلّم، أو جوانب من عظيمة شخصيّته، ممّا فيه أسوة للناس، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [٢١].^٢

وقد عرف بعد نضجه وتجوّاله في العالم: أن المسلمين في آسيا وإفريقيا، وفي أوربا وغيرها من أقطار العالم، يحتفلون بالمولد النبويّ، ويعدّون ذلك من باب المحبّة والتكريم والتعظيم لرسول الله صلى الله عليه وسلّم، ووفاء ببعض حقه على أمّته.

وقد انقسم العلماء إزاء هذه القضية إلى طرفين وواسطة:

أولهم: ينكر هذه الموالد ويرفضها رفضاً كلياً.

حجّتهم:

ادّعوا على أنّها من المحدثات، وكلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة. كما جاء في الحديث هكذا: عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.^٣ وقالوا أيضاً: وأنّ الرسول صلى الله عليه وسلّم وأصحابه لم يفعلوا ذلك ولا دعوا إليه ولا شرعوه، وأنّه من المحدثات الفاطميّين العلّاة، الذين شرعوا من الدّين ما لم يأذن به الله سبحانه وتعالى.

والطرف الثاني:

وتمثّل أغلب المسلمين، يرون ذلك مظهرًا من مظاهر الحبّ لرسول الله صلى الله عليه وسلّم، ويستدلّون على ذلك بأنّه من باب ذكر النّعمة.

١ ألفردّواوي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٢٤

٢ القرآن الكريم، الأحزاب (٣٣)، الآية [٢١].

٣ النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المولد: ٢١٥ هـ - المتوفى: ٣٠٣ هـ)، *سنن النسائي*، باب كيف الخطبة، (حلب - مكتب المطبوعات الإسلاميّة، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م)، رقم الحديث: ١٥٧٨، ج ٣، ص ١٨٨، [حكم الألباني: صحيح].

دليلهم:

وقد استدلووا بقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [٩].^١ وتكرّر هذا في القرآن المجيد. ولا شك أنّ ميلاد الرسول صلّى الله عليه وسلّم نعمة، أو من لوازم النعمة، وهي بعثته صلّى الله عليه وسلّم. كما أنّه صلّى الله عليه وسلّم سئل عن صيام يوم الاثنين، وحرصه على ذلك، فقال: "ذلك يوم وُلدت فيه، وبعثت فيه، وأحبُّ أن يرفع عملي وأنا صائم". وهؤلاء يُقرُّون المولد بعجزه ووجّهه، وما يشتمل عليه من مبالغات وخرافات.

والرأي الثالث: وهو الوسط بين هذين الأمرين، وهو انتهاز هذه المناسبة، وكلّ المناسبات الإسلامية المتعلقة بالسيرّة النبويّة، مثل: هجرته عليه الصلّاة والسّلام، وإسرائه ومعراجّه، وغزوة بدر الكبرى، وفتح مكّة، وغزوة خيبر ونحوها من المناسبات والذكريات المحمّديّة - انتهازها للحديث عن السيرة المحمّديّة، وعن الرّسالة الإسلاميّة، وربط الناس بهما، وتقديم صورة مُشرِّفة عن سيرة محمّد، وعن رسالة محمّد صلّى الله عليه وسلّم.^٢ عرفه الشيخ القرضاوي سلفي العقيدة ولكنّ لم يكن فيه خشونة السلفيين ولا حُرْفِيَّتُهُمْ، ولا نظرتهم السوداء إلى غيرهم، ولا حملتهم الشّعواء على من خالفهم.

لم يجد بأسًا في احتفال بمولد الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم بالحديث السيرة النبويّة، والرّسالة المحمّديّة، وقد شارك الشيخ القرضاوي في ذلك بعض المرات، مبيّنًا في كلمته مُبرّرات مثل هذا الاحتفال بهذه الصورة، في عصر أصبح الناس يحتفلون فيه بميلاد زعمائهم وكبرائهم، وذكر الشيخ القرضاوي أن هذا في الحقيقة احتفال بمولد الرّسالة لا بمولد الرسول. وأن الصحابة والتابعين لم يحتفلوا بمثل هذه المناسبات، لأنهم لم يكونوا في حاجة إليها، وقد كان الرسول صلّى الله عليه وسلّم حيًّا حاضرًا في وجدانهم وحياتهم.^٣ ومّا لا ريب فيه: أنّ الصحابة رضي الله عنهم، ومن اتّبعهم بإحسان، في خير قرون الأُمّة، لم يحتفلوا بالمولد ولا بغيره من الذكريات المحمّديّة. رُبّما لأنهم لم تكن حاجة إلى ذلك، فقد كان رسول الله عليه الصلّاة والسّلام حيًّا في ضمائرهم، حاضرًا في حياتهم، حبّه في قلوبهم، وسيرته نصب أعينهم، وسنّته ماثلة لهم. حتّى إن أحدهم عندما حضره الموت.

وقال سعد بن أبي وقاص: كنّا نروي أبناءنا مغازي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كما نحفظهم السورة من القرآن الكريم. فلمّا بعد العهد، وخبث جذوة الشّوق والحبّ، وقَلَّ نصيب النَّاس من استحضر الأسوة النبويّة، ربّما أصبحوا في حاجة إلى ما يذكرهم بالرحمة المهداة، والنعمة المسداة، بالبشير النذير، والسّراج المنير، صاحب الخلق العظيم، والمبعوث بالرّسالة الخالدة والرحمة. العامّة، ليُتمّم مكارم الأخلاق، ويكمل الله به الدين، ويتمّ النعمة على المسلمين قائلاً: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرٍ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [٣].^٤

وقال أيضًا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [١٠٧].^٥

ومّا يُؤكّد هذا في عصرنا: أنّ الناس أمسوا يحتفلون بميلاد ملوكهم ورؤسائهم وعظمائهم، بل كثيرًا ما يحتفلون أولادهم، بل بميلاد أنفسهم، فلمّا ذًا لا يحتفلون بمولد من أنقذهم الله تعالى على يده، وأخرجهم من الظلمات إلى النور، وهداهم إلى صراط مستقيم. فإذا حولنا احتفالات هذه الموالد إلى ندوات أو مؤتمرات سنويّة للحديث عن الرسول العظيم وشخصيّته وسيرته ورسالته، فقد كسبنا من وراء ذلك كسبًا عظيمًا، وأبلينا في سبيل دعوة الإسلام بلاء حسنًا.

١ القرآن الكريم، الأحزاب (٣٣)، الآية [٩].

٢ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٢٧

٣ المرجع السابق، (الطبعة: الأولى، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٥٥٣ - ٥٥٤

٤ القرآن الكريم، المائدة (٥)، الآية [٣].

٥ القرآن الكريم، الأنبياء (٢١)، الآية [١٠٧].

المطلب التاسع: نظام الحياة اليومية في قرية القرضاوي

كان نظام الحياة اليومي في القرية مرتبًا بالصلوات الخمس ومنضبطًا بها، فقد كان الناس ينامون عادة بعد صلاة العشاء، لا يعرف عامتهم السهر، إلا في مناسبات خاصة كالأعراس، فقد يسهرون قليلاً للغناء للعرّوسين، وخصوصاً في بيت العروس (المرأة) قبل الزفاف.

ويستيقظ الناس مبكرين لصلاة الفجر، وبعد أن يتناولوا شيئاً من الطعام، يذهبون إلى حُقُولِهِمْ مع شروق الشمس، مرددين قولهم: البركة في البكور، أخذاً من الحديث الشريف: عَنْ صَخْرِ الْعَامِدِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا»^١.

وبعد صلاة الظهر يتناولون تيسر لهم من الغداء، قد يَحْمِلُونَهُ معهم في مناديلهم، وقد تأتي به إليهم نساءهم أو أبناءهم. وَقَبِيلِ المغرب يعودون إلى بيوتهم، لِيُصَلُّوا المغرب في المسجد، ثم يعودون إلى البيت ليتناولوا العشاء، وهو الوجبة اليومية الرئيسية، التي يجتمع عليها غالباً جميع أفراد الأسرة. ثم يُصَلُّونَ العشاء في المسجد ليستعدوا للنوم.

المطلب العاشر: المعاصي في قرية القرضاوي

وكان المعاصي قليلة في القرية. يعني الكبائر، أما الصغائر فقلماً يَسَلَّمُ منها أحد، وهي على كل حال يُكْفَرُهَا الصَّلَاةُ والصَّيَامُ والصدقة وسائر الحسنات بمصداق الآية القرآنية: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [١١٤].^٢

هود كما تُكْفَرُهَا المصائب التي تنزل بالمسلم من النصب والوصب والغم والحزن والأذى حتى الشوكة يشاكها، يُكْفَرُهَا بها من خطاياها. بل ذكر القرآن أنَّ اجتناب الكبائر يُكْفَرُ الصَّغَائِرَ، كما قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [٣١].^٣

وربما وقعت الكبيرة في السر، ولكن المعاصي إذا استتر الناس بها لم تضرّ جماهير المُجْتَمَعِ، إنما تضرُّ وتؤذي حقاً إذا شاعت واشتهرت وتَبَجَّحُ بها مرتكبها. كما في الحديث الصحيح: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، يَقُولُ: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " كُلُّ أُمَّتِي مُعَانِي إِلَّا الْمِجَاهِرِينَ »^٤. قد يوجد الزنى، ولكن في خفية وإسرا، ولا يهاجر به فاجر أو فاجرة. ولم تكن الخمر معروفة في القرية، ولا يعرف بها أحد من أهل السكر. وقد وجد بعض الناس يستعملون "الأفيون" ولكن المُخَدَّرَاتِ الأخرى لم تكن معروفة. قال الشيخ القرضاوي: وقد سمعت في صباي عن رجل قبضوا عليه لأنه يتعاطي "المورين" وهي أول مرة أسمع فيها هذه الكلمة. ولكن جريمة "القتل" كانت تقع بين الحين والحين، قتلُ العيلة، من أجل صراعات بين العوائل بعضها وبعض، وهي عادات جاهلية، وأحياناً تستأجر العائلة من يقتل غريمها. وقد تستفحل هذه الخصومات، فتفضي إلى فساد كبير، من سمّ البهائم، وقلع الزرع، وإحراق المنازل، وغير ذلك من ألوان الفساد في الأرض.^٥

١ الترمذي، أبو عيسى مُحَمَّدُ بن عيسى، سنن الترمذي، [تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (ج ٢) ومحمد فؤاد عبد الباقي (ج ٣)]، باب ما جاء في التكبير بالتجارة،

المرجع السابق، رقم الحديث: ١٢١٢، ج ٣، ص ٥٠٩، [حكم الألباني: صحيح].

٢ القرآن الكريم، هود (١١)، الآية [١١٤].

٣ القرآن الكريم، النساء (٤)، الآية [٣١].

٤ البخاري، الجامع الصحيح للبخاري، باب: ستر المؤمن على نفسه، (دار طوق النجاة [مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي]، الطبعة:

الأولى، ١٤٢٢هـ)، رقم الحديث: ٦٠٦٩، ج ٨، ص ٢٠

٥ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٣٥

ويتضمّن هذا المطلب مسألة، وهي خلل في الفهم والسلوك.

ومع هذه الاستغراق في الجانب الديني، كان هناك خلل كثير فيه:

- خلل في الفهم والتفكير
- وخلل في السلوك والعمل

كان تصوّف القرون الأخيرة هو الغالب على تفكير العامة، بما فيه من سَلبيّات يعرفها الدارسون، مثل: الجبريّة في العقيدة، حتّى يكاد الإنسان يكون مُسيّرًا لا مُخيّرًا.

ومثل الشّركيّات شابت التوحيد، مثل التبرّك بالأحجار، واستخدام التّمائم والأحجبة، والمبالغة في تعظيم الأولياء والصّالحين، والطّواف بقبورهم كما يُطاف بالكعبة، والتّدبر لهم. ومثل الذهاب إلى الكهنة والعرافين والمُحجّمين والزّمالين وأمثالهم، ممّن يدعون أنهم يكشفون أستار الغيب.

ومثل الحُرّافات التي انتشرت عن السّحر والجنّ والعفاريّت. وممّا يخفقون في أمرٍ، كأن تخفق المرأة في المحافظة على حبّ زوجها لها، أو يخفق الرّجل في الاحتفاظ بقلب امرأته.

ومثل ذلك كثير من النساء المُصابّات بأمراض عصبيّة معيّنة، وبعض تشنجات، ويدعين أن عَفْرِيَّتًا ركب إحداهنّ، زهكذا تذهب إلى الكاهن أو السّاحر أو الدّجّال، ليزعم لها أنّ جنّاً ركبها، وأنّها في حاجة إلى صفات كذا وكذا، ومن هذه صفات إقامة ما يسمّى "الزار" وهي حفلة رقصٍ وغناء وموسيقى، فيخرج الجنيّ أو تساعد على إخراج الجنيّ من جسد المرأة. وكلّ هذه نفقات وتكاليف باهظة تتحمّلها المرأة إن كانت ذات مال أو يتحمّلها زوجها المسكين، وهي لا تكاد تنتهي، فمن حفلة إلى حفلة، ودعوة إلى دعوة، ومن مطلب إلى آخر، حتّى ينفد آخر ما عند المرأة،^١ ولذا قال القائل: ثلاثة تشقى بهن الدار العرس والمأتم والزار!

كما أن هذه الحفلات لا تنقيد بضوابط الشرع في شيء. ففيها الاختلاط، وفيها المُحجّون، وفيها التبرّج. وبعضهنّ يذهبن إلى بعض المشايخ ليقرا عليها تعويذات معيّنة، ليخرج من جسدها العَفْرِيّت الذي يسكنها. والمعتاد أن المرأة يسكن جسدها جنيّ، أمّا الرّجل فيسكن جنيّة.

وكان شيخنا الشيخ الغزالي رحمه الله ينكر هذا الهوس، وقال للرّجل الذي جاءه يشكو إليه، وقال له: أنا مسكون. فقال له: وما سكنك؟ قال جنيّ. قال له: ولماذا لم تسكنه أنت، وأنت ما شاء الله شحط طويل عريض! ولماذا لم يسكن هذا الجنيّ الخواجات في أوزبنا وأمريكا؟

وقد كان حديث أهل القرية عن الجنّ والعفاريّت والغيلان ونحوها، والقصص التي تحكي عن ظهورها في الليل لفلان وفلانة، كان هذا الحديث يملأ قلوبنا رعباً وخوفاً. حتّى إن أهل حارّتنا كانوا يحكون عن عفريّة تظهر بالليل قبل الفجر، اسمها "أم جلاجل" وهي تسكن في "بدروم" المدرسة التي نتعلم فيها بالنهار، وهو عبارة عن دورة مياه. ويقول أهل حارّتنا: إن هذه الجنيّة ظهرت بالليل لفلان وفلان! وهذا ما يجعل القرضاوي من بعد الصّلاة المغرب عندما أمر على هذه المدرسة أركض رقصاً، ويجري كالريح خوفاً من أن تطلّع على "أم جلاجل". وكلّها تحاويل وحُرّافات، وكما عبّر عن ذلك المثل: "اللي يخاف من العفريت يطّلع". أي حالته النفسية تحيّل إليه أنّه ظهر له العفريت، فيرى الكلب قد كبر حتّى أصبح كالحمار أو البغل. والحقيقة أنّه لم يزل كلباً.^٢ ومثل ذلك عفريّة المقتول تظهر لمُدّة أربعين يوماً. وهكذا. وهناك خلل في السلوك، فهناك عدد من الناس لا يؤدّون الصّلاة، صحيح أنهم مكروهون من الناس محتقرون من قبيلهم. ولكنهم موجودون.

١ ألفرّضَاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٣٦

٢ المرجع السابق، ص ٣٨

كما أن كثيراً من النساء لا يعرفن الصلّاة، ويعيش ويمتن ولم يركعن لله ركعة واحدة، مع أن آباءهنَّ يُصَلُّونَ، وأزواجهنَّ يُصَلُّونَ، وأبناءهنَّ يُصَلُّونَ. وكان كثير من النساء في حارة القرضاوي لا يُصَلِّينَ، لغبة الجهل عليهنَّ، حتى امرأة عمِّي ماتت دون أن تُصَلِّيَ. على حين كانت عمِّي وخالاتي جميعاً محافظات على الصلّاة.

واعتقد أن هذا كان من ثمرات حرمان المرأة من المسجد، فقد شدّد الفقهاء في منع المرأة من صلاة الجماعة، وصلاة الجمعة في المسجد، خوف الفتنة، على الرغم من أن المرأة في عصر النبوة كانت تؤدّي الصلوات الخمس في المسجد، حتّى العشاء والفجر، وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: **عَنِ ابْنِ عُمَرَ «لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ»**.^١

ولكن كلمة قالت أم المؤمنين عائشة رض الله عنها إنكاراً على بعض نساء زمنها، إذ قالت: **عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: «لَوْ عَلِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَحْدَثَ النَّسَاءُ بَعْدَهُ لَمَنَعَهُنَّ الْمَسَاجِدَ كَمَا مُنِعَتْ نِسَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ»**.^٢ لو علم رسول الله ما أحدثن بعده لمنعهنَّ من الخروج".

فكانت هذه الكلمة تكأة للفقهاء في منعها، وكان الفقهاء في بعض الأزمنة يمنعون المرأة الشّابّة، ويسمحون للكبيرة، ثمَّ جاء الفقهاء المتأخّرون، ومنعوا الشّابّة والعجوز، وقال قائلهم: **لكلّ ساقطة في الحَيِّ لاقطة وكلّ كاسدة يوماً لها سوق**

والعجيب أنهم قالوا: تصلي في بيتها، وعلى أبيها أو زوجها أن يفقهها في الدّين، ولكنَّ إذا كان الأب أو الرّوج نفسه في حاجة إلى من يعلمه أو فقهه في الدّين، فكيف يُفَقِّهه غيره، وفاقد الشّيء لا يعطيه! وقد ضلَّ من كانت العميان تهديه!

١ البخاري، **الجامع الصحيح للبخاري**، (دار طوق النجاة [مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي]، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ)، رقم

الحديث: ٩٠٠، ج ٢، ص ٦، ومسلم، **الصحيح لمسلم**، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي]، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، باب خروج النساء إلى المساجد، المرجع السابق، رقم الحديث: ٤٤٢، ج ١، ص ٣٢٧

٢ الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران (المتوفى: ٤٣٠هـ)، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، دار الكتب العلمية- بيروت (طبعة ١٤٠٩هـ بدون تحقيق)، ج ٧، ص ٣٣٣

المبحث الثاني: الجانب الاقتصادي ومستوى العيش في قرية القرضاوي

ويتناول هذا المبحث ثلاثة مطالب، وتفصيلها كما يأتي:

المطلب الأول: الأوضاع الاقتصادية في قرية القرضاوي

كانت الأشياء في قريته - في الثلاثينات من القرن العشرين، وهي التي بدأت فيها أعني ما حولهم - رخيصة جداً، كان المليم واحد من عشرة من القرش صاغ عملة متداولة له قيمة، يأخذ الطفل الواحد - الذي يكون أبوه في سية ويسر - مصروفاً له فيشتري به من الحلوي ما يشببه، وكنت أشتري به "الطعمية" فيكفي لإفطاري أو عشاءتي. وفي بعض الأحيان آخذ مع المليم بيضة لبائع الطعمية - وهو صانعها - أيضاً فيعمل لي بالبيضة عجة، ويكون هذا من الرفاهية. بل كان هناك نص المليم، يُسمونه "عشرون خردة" ولا أدري ما الخردة؟ وكانت تستعمل ويشترى بها، إمّا وحدها، أو كسراً مع الملامييم. وكانت هذه الملامييم تصنع من النحاس، فتظهر أول ما تظهر لامعة براقاً، ثم تنطفئ بالاستعمال.

وكان هناك عملة بمليمين يُسمونها "النكلة"، وعملة أخرى بمقدار مليمين ويُسمونها "عشرين تعريفة". ثم نصف القرش ويسمى "قرش تعريفة" ثم "القرش صاغ" وهي عملة محرمة. وهذه العملات كلها من النكيل الأبيض. ثم تأتي عملة بقرشين صاغ، وهي عملة صغيرة من الفضة، وتسمى في عرف الناس "نصف فرنك" إذ الفرنك - وهو عملة فرنسية - كان يقارب الأربعة قروش. وهناك الـ "خمسة قروش" والـ "عشرون قروش" وتسمى "البريزة" والـ "عشرون قرشاً" وتسمى "الريال" وكلها عملات فضية. وبعد ذلك الجنيه، وهو عملة وريية، ولم يكن هناك عملة وريية إلا الجنيه ومضاعفاته، الخمسة والعشرة جنيهاً، ولم تكن هناك عملة أكثر من عشرة جنيهاً. ولم يدرك القرضاوي عصر الجنيهاً الذهبية.

وفي تلك الفترة: أن العملة كانت قليلة جداً بي الناس، ولا يكاد يجد النقود في جيبه إلا الموظف الذي يقبض راتبه كل شهر. أما الفلاح فلا يكاد يجد النقود إلا عندما يبيع القطن، أو يبيع القمح أو الذرة. وهو لا يبيع منهما إلا ما فاض عن قوت العائلة، فالناس يخرقون أقواتهم من القمح خاصة في "زواليع" يصنعونها من الطين، ويضعون فيها القمح - أو العلة يُسمونها - ليقوها من التسوس^١. وكذلك القارئ الراتب، الذي يأتي كل يوم إلى البيت ليقراً فيه ربعاً من القرآن أو ما تيسر له، يأخذ أجره من حصاد كل موسم. حتى الشحاذون كانوا يأخذون صدقتهم من الطعام، وخصوصاً الخبز، ولا يطعمون أن يعطوا نقوداً، فهي لم تكن ميسورة لعموم الناس. وكان فقيه الكتاب يأخذون من أولياء تلاميذه من الموسم الزراعية أيضاً، فضلاً عن "قرش التعريفة" الذي يدفع له كل أسبوع.

كانت الحياة الاقتصادية تقوم أساساً على الزراعة، فلو أصابت الزراعة آفة، مثل "الدودة" التي كانت تأكل القطن أحياناً، وتدع أرضه سوداء، ففي هذه الحالة تكون السنة "سوداء" على الناس، ولا يسميها المستأجرين للأرض منهم، الذين يطالبهم المالكون بأجرتها، وهم لم يحصلوا منها نقيراً ولا قطميراً. وكان ملاك الأرض متجربين على الفلاحين، لا يرحمهم في تلك الحالة، ويراعون ما نزل بهم من "جوائح" بل يطالبونهم أن يدفعوا، ألمهم أنهم سألهم الأرض، ولا عليهم أنتجت أم لم تنتج. وأقصى ما يفعله الرحيم منهم أن يسقط الأجرة على عدة سنوات^٢.

وقال الشيخ يوسف القرضاوي: وهذه المشاهد التي رأيتها في القرية هي التي جعلتني أرجح المذهب الذي يمنع "إجارة الأرض البيضاء بالنقود" وأفضل عليها "المزوعة" التي يشترك فيها الطرفان في المعنم والمُعرم. فإن كان ولا بد من الإجارة، فلتكن مصحوبة أو مشروطة بوضع "الجوائح" إذا نزلت الزارع. كان العني في القرية يتمثل في ملكية الأرض الزراعية، وهي التي يُسميها الناس "الأطيان" جمع

١ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٤٠ - ٤١

٢ المرجع السابق، ص ٤١ - ٤٢

"طين"، فبقدر ما يملك من هذا الطين يكون غناه، وفي قريتنا أرض مملوكة لبعض الباشوات مثل: أرض رياض باشا. وبعضها مملوكة لآل خضر من أعيان البلد، ولآل نوير من أعيانها أيضاً، أو لبعض الأعيان من بلاد مجاورة، مثل: أرض "الدبور" و"أرض البنك" وله عزبة في قرية من القرية تسمى "عزبة البنك". وكان حول قريتنا عدد من "العزب" تتبع القرية، ومعظم أهلها يعملون مزارعين عند الملاك الكبار، أو عمالاً لهم. وملكية الأرض تعني ملكية عدد من المواشي والأنعام تدل على مقدار الثراء والنعمة، وكانت منازل الناس ومراتبهم في القرية تتفاوت علواً وهبوطاً، بمقدار ما يملكون من الأطين، لأن الذي لا يملك الطين لا بد أن يعمل مستأجراً لأرض غيره، أو عاملاً بالأجرة في أرض غيره. فكان رأس مال الفلاح أرضه و بهائمها، وأكثر الفلاحين يملك جاموستين أو جاموسة و بقرة وحماراً، لأن الحرات تجره ماشيتان فهو محتاج إلى ثنتين لا واحدة.

المطلب الثاني: أحوال مستوى المأكولات والمشروبات في قرية القرضاي

وكان الخبز هو القوت اليومي والطعام الرئيسي للناس، وأحياناً يكون الأرز، ولما ظهرت المكرونة بدأ بعض الناس يستعملونها على قلة، ولذلك يسمي الناس الخبز "العيش" أي الحياة، لأنه أساس معيشة الناس وحياتهم. ^١ وأما ما يطهوه الناس من إدام لهم، فكان معظمه من نتاج الزراعة: الباميا والملوخية والتاذنجان والكوسة واللويبا والرجلة والخبيزة ونحوها، وكلها من إنتاج مزارع القرية. ومن البقوليات المنتشرة: الفول والعدس واللويبا الجافة، وكان الفول يستعمل "مدمساً" ويستعمل "بصارة" ويستعمل "نابتا" ويستعمل "طعمية" ويؤكل أخضر بالجبنة، ويطبخ أخضر أيضاً. كما كان الناس يستخدمون الخضروات طازجة من الحقل: مثل الفجل والكرث والبصل والفلفل الأخضر والخس، والسريس والجعضيض، والطماطم والخيار والقناء وغيرها.

أما اللحم فلم يكن يعرفه معظم الناس إلا مرة كل الأسبوع، يوم الأربعاء، وهو يوم سوق القرية، حيث تكون معظم الذبائح من الجاموس الكبير وهو لحم أكثر الناس، وبعضه من صغير، ويُسَمُّونه "الكندوز" وأحياناً من البقر، وقليل من اللحوم يكون من الغنم (الضأن والمعز) ومن العجول الصغيرة (البتلو). وكانت اللحوم لا تباع لجمهور الناس إلا يوم السوق. أما في خلال الأسبوع، فكان بعض الجزارين (اثنان أو ثلاثة) يذبحون مرتين أو ثلاثة للموسرين من أهل القرية.

وكان ممّا يقوم مقام اللحم: السمك: اللحم الطري، كما سمّاه القرآن بقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ حَلْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [١٤]﴾. ^٢ وكان أرخص من اللحم كثيراً، وأحياناً يصطاده الناس بأنفسهم، من المساقبي وألبرك، وخصوصاً عندما يقل ماؤها.

قال القرضاي: وقد اشتركت بنفسني في صيد السمك الصغير من القنوات الصغيرة مع زملائي، والسمك الذي يؤكل. وكان القرضاي مؤلماً بألوان كثيرة من الفاكهة ولا يطيب لي الطعام بدونها من الصيد يجد له المرء لذة لا يجدها في غيره من الأسماك. ولا سيما في ذلك الزمن، الذي كان سمك النيل وما تفرغ منه لا يدانيه سمك آهر في طعمه ولذته.

وكان هناك أنواع من السمك الرخيص من الله به على الفقراء، يأتي في أفاص من خارج البلد، ويسمونه "الكشر" الأقة فيه بقرش صاغ، وربما بنصف قرش. وكان بعض الفقراء لا يجدون اللحم حتى يوم الأربعاء. ويقول المثل عنهم: اللحم من العيد للعيد، والسكر في المرض الشديد!

وكان الله تعالى يعوّضهم عن البروتين الذي يجدونه في اللحم، ببروتين آخر يجدونه في اللبن ومنتجاته، فهو غذاءً يومي تقريباً.

١ القرضاي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٤٣
٢ القرآن الكريم، النحل (١٦)، الآية [١٤].

وفي طفولية القرضاوي أنه كان له وعاء صغير أخذ فيه اللبن من ثدي الجاموسة أو البقرة، وأترد فيه الخبز الجاف بعد أن أكسره وأدقّه، فيصبح (تسقيه باللبن). وأحياناً أفرط على اللبن الرايب وكثيراً ما يخلط بشيء من القشدة والجبن، ويعتبر هذا ضرباً من الرفاهية. كما كان كثير من الناس يستغنون عن شراء اللحم من السوق بذبح الطيور والدواجن التي يربونها في البيوت، مثل الدجاج والبطّ والأوز والحمام والأرنب. وكثيراً ما تذبح هذه الطيور عندما يطراً على العائلة ضيف. فإذا لم توجد هذه الطيور، كثير ما يصنع الناس "الفطير المشلتت" يُقدّم مع العسل الأسود أو مع الجبن للضيف. وقد يُقدّمون "الفطير الدُرّة" وهو شهّي جدّاً، إذا حشي بالجبن والقشدة، وأكل ساخناً، وكأنيّ أراه قد انقرض اليوم من الرّيف المصريّ.

أمّا الفواكه فكان استعمال الناس لها قليلاً، إلّا الفواكه الرخيصة ممّا تنتجها أرض البلد من البطيخ البلديّ والعجور، وأحياناً الشّمّام، والجوّافة، وبلح أحمر ورطب، والجزر والتوت والجَمّيز، وهو فاكهة شعبية تشبّه التين في شكلها. ^١ فيها قال الشاعر قديماً:

أما ترى السوق قد صفت فواكهها للتين قوم وللجمّيز أقدام!

أمّا "التوت" فقد كانت أشجاره منتشرة بعضها حول بعض البيوت، وكانت لذتها في غاية الحلاوة. وكان هناك عند بعض الحقول التي يزرها عمّه أشجار حول أرض تسمّى "أرض البنك" يبدو أن بعض البنوك الربويّة قد حجز على هذه الأرض، في مقابل ديون لم يقدر أصحابها على الوفاء بها. فكان حولها نحو ثلاثمائة شجرة للتوت، وكان الشيخ القرضاوي يذهب مبكراً ليقطف من هذا التوت، وينتقي أكثره نضجاً وسواداً، فيستمتع به فاكهة شهية، بلا ثمن يدفع، ولا حارس يمنع، وهذا فضل الله على الفقراء. وقد بقيت هذه الأشجار، حتى قطعت كلّها أثناء الحرب العالميّة الثانية لحاجتهم إلى الأخشاب وغلاء ثمنها في الأسواق.

وما عدا ذلك، فإن الفاكهة - غير الشعبيّة - تعتبر من (النعيم) الذي يبحث عنه الأغنياء، يقدرون على تكاليفه. أمّا عامة الناس، فحسب الواحد منهم: رغيف يكفيه، و(هدمة) تستره، وبيت صغير يكتفه.

على أنّه قد منّ الله تعالى على بأنّ جدّه (أي جدّ القرضاوي) لأمه - وحاله بعده - كانا من تجّار الفاكهة المعروفين في منطقتها، وكان هذا فرصة له ولأولاد خالاته ليشبعوا من الفواكه التي يحرم منها الكثيرون. ولعلّ هذا ما جعله إلى اليوم مولعاً بألوان كثيرة من الفاكهة، ولا يطيب له الطعام بدونها، والشخص أسير ما تعود، كما قال المتنبي: لكلّ امرئ من دهره ما تعودا.

هذه صورة لأطعمة القرية في صباه، وأمّا مشاربها، فقد كان الماء يستقي من ترعة البلد، يأتي بها نساء القرية في جرار يملأها، ويحملنها على رؤوسهنّ برشاقة، ونرى الصبايا في البكرة، أو في الأصيل، يذهبن بجراحنّ فارغات، ويعدن بهنّ ممتلئات، ويمشين بهنّ متبخترات. وكانت مياه الترعة - خصوصاً في أيّام فيضان النيل - تحمل كثيراً من الطين. فكين يحككن الجرات بنوى المشمش، فيرقد الطين، ويصفو الماء. وبعض الناس يضعن الماء في (الزير) وهو يتسبّع لعدّة جرات، وفيه يرقد الطين، ويبرد الماء، وكثير منهم يقطر الماء من الزير، ويضع تحته وعاء يستوعب هذا الماء المرشّح النقيّ، فيشرب هنيئاً مريئاً. وكان الناس يستعملون القليل لتبريد الماء، وكانت هي أيضاً نلّاجات الفقراء، تملأ وتوضع في صينيّة خاصّة بها، وتوضع في جهة بحريّة (شمالية) فتهب عليها الرياح الباردة فتبردها. وفي أيّام النخاريق التي تمبّط فيها مياه النيل إلى حدّ كبير، تحفّ ترعة القرية تماماً، ويضطرّ نساء القرية - وهنّ المسؤولات عن سقي كلّ عائلة - أن يذهبن إلى (البحر الكبير) وهو (بحر شبين) ليملأن منه جرارهن رغم بعد المسافة: أكثر من اثنين كيلو متر دهباً ومثلها إياباً.

١ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٤٦

المطلب الثالث: في الملبوسات والأثاث وغيرهما في قرية القرضاوي

كانت القرية- بصفة إجمالية- مكنفية بذاتها في اقتصادها، وتكاد تستغني عن المدينة تماما في طعامها وشرابها، ولكنها تحتاج إليها في ملبوساتها بصفة عامة، وإن كان في القرية نساجون، يسنجون بعض (البشوت) أو (البطاطين) وفي بعض القرى كانوا يسنجون بعض الثياب، وكنا نشترئها من هناك مثل قرية (كوم النور) بجوار ميت غمر.

وكان هناك عدد من (الخياطين) الذين يخيطنون للناس (الجاليب) البلدية و الإفرنجية، وخصوصا جلايب الصوف أو الكشمير أو (السكروته) وهي نوع من الحرير، الذي اشتهر لبسه بين الموسرين. ومن هؤلاء من اشتهر بخياطة العباءات التي تصنع من الجوخ أو الصوف (ماركة الإمبريال) ويطرزونها بخيوط الحرير في أطرافها، ويلبسها أهل السيار عادة في الأعياد والأعراس والمناسبات.

وكانت معظم الصناعات التي تفتقر إليها القرية موجودة فيها، ففيها النجارون: منهم نجار (الساقية) الذي يصنع الساقية لري الأرض، وكذلك (الطنبور). وكذلك أدوات الزراعة المختلفة، مثل المحراث و النورج والقصابية وغيرها. وهناك النجار الذي يصنع الأبواب والنوافذ و(الشبابيك) ولا سيما ذات(الشيش) المعروف. وهناك تجار الأثاث (الموبيليات) مثل الخزائن (الدواليب) و اليوربهات ونحوها، وكانت الأسيرة في ذلك الوقت من الحديد أو النحاس أو النكيل، على حسب مراتب الطبقات لا من الخشب، إلا أن (الملة) وهي الألواح الخشبية التي توضع على السرير لتفرش عليها الحشايا (المراتب) كما يسمونها. وكانت تجار الأثاث محدودة في القرية، إذا الغالب أن يذهب الناس إلى المدينة (المحلة الكبرى). وهي مركز القرية، ليشتروا منها متطلباتهم من الأثاث، وكثير من حاجات الأعراس.^١

وكان في القرية أكثر من حداد، ليصنع الفؤوس والقواديم، والأسلحة المحارث، وغيرها من الأشياء التي تحتاج إليها الزراعة، وبعض الأشياء التي يحتاج إليها الناس في البيوت، مما لا يحتاج إلى (تقنية) عالية. وكان فيها عدد من البنائين المتقنين، الذين يقومون بعمل المصمم والمقاول والبناء، وأحيانا يقومون بعملية (الصلب) وهو حمل السقف وما وفوقه على أعمدة من الخشب، لتغيير بعض الجدران التي أصابها العطف أو الخلل، حتى لا يحتاج إلى هدم البيت كله وبنائه من جديد، وكان زوج إحدى خالاتي من هؤلاء البنائين المجيدين.^٢

وكان في القرية سمكري- أو أكثر- يلحم الأشياء المعدنية، وأكثر من مبيض للنحاس، وفيها من المهن من يصلح وأبورات الجاز، وفيها من يصلح (كوالين) الأبواب، وفيها أكثر من (إسكاف) يصلح نعال الناس، بل فيها من (يفصل) أحذية للناس على قدر أقدامهم.

١ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٤٨

٢ المرجع السابق، ص ٤٨-٤٩

المبحث الثالث: الجانب الاجتماعي في قرية القرضاوي

يشتمل هذا المبحث على ستة مطالب، وتفصيلها فيما يلي:

المطلب الأول: قرية القرضاوي غير محظوظة

كانت قريتهم أي الشيخ القرضاوي تعتبر من القرى الكبيرة من حيث تعداد السكان، ولكنها لم تكن محظوظة من حيث الخدمات المتاحة لمثلها من القرى. فلم يكن بها مستشفى، ولذلك كان أبناء "صفت تراب"^١ إذا أصيبوا بالأمراض المتوطنة المعروفة التي يبتلي بها أكثر المصريين مثل البلهارسيا والانكلستوما^٢ يذهبون إلى مستشفى قرية مجاورة، وكانا مسافة بينهما نحو سبعة كيلو مترات، وهي قرية "القريشة" وهي من القرى الراقية. وهذا المنصر نسي أن يذكر أمراً خامساً، وهو الموسم السنوي العظيم في شهر رمضان وما له من إحياءات وثمرات في الأنفس والحياة بصيام أيامه وقيام ليلاته ودروسه وعظاته.

وبالذکر هنا أن - أصاب الشيخ القرضاوي بالبلهارسيا في صباه، فكان يذهب هو ومجموعة من أهل القرية ثلاث مرّات في الأسبوع إلى القريشة لعلاج البلهارسيا، عن طريق "حُقْن" أو "إِبر" يأخذونها على الرّيق دون تناول أيّ طعام، وهي اثنتا عشرة إبرة.^٣ لم يكن للقرية محطة قطار، ولم تنشأ لها محطة إلا في أواخر الثلاثينات، ولذلك كان الناس يسافرون إلى المحلّة الكبرى على الدواب غالباً، إذ لم تكن وجدت الأوتوبيسات أو عن طريق التاكسي، وهو نادر، وغال نسيباً على عموم الناس.

وأيضاً جدير بالذكر هنا أيضاً - في سنة ١٩٤٦م هجم على مصر وباء كاسح، يصيب الإنسان وهو في عز شبابه وصحته، فيمتص من جسمه الماء، عن طريق القيء من فوق، والإسهال من تحت، ذلك ما عرف باسم داء "الكوليرا" الذي انتشر في مصر كلّها انتشار النار في الهشيم. وقد بدأ في قرية "القرين" بالشرقية، التي تصدّر البلح إلى أنحاء مصر، فعمّلت بنشر الوباء بسرعة البرق، والقرين هذه بجوار معسكرات الإنجليز في منطقة الشرقية. ووصل هذا البلاء إلى قرية القرضاوي، وأخذ الناس يتساقطون، ولا يكادون يجدون من الأدوية "الأمصال" وأدوات الإسعاف ما ينجدهم كمثل "كرونة"^٤ في العصر الحاضر في العالم كلّها تقريباً. ولا سيّما أن الناس في القرى يخافون من المستشفيات، ويُفضّلون مثل هذه الحالات أن تموت الإنسان في بيته وبين أهله، أستر له، وأصون له من موته خارج بيته، وخصوصاً أنه ينقل إلى مستشفى المحلّة الكبرى. على أن مستشفيات المحلّة ضاقت بالواردين إليها.

وبعثت وزارة الصحة بـ "الأمصال" الواقية، وكان بعض الناس يتردّد في تناولها، لولا فتاوى العلماء، بأن تركها حرام، وإلقاء بالنفس إلى التهلكة، وأن الله الذي أنزل الداء أنزل الدواء. ومع هذا تقاعس بعض الناس عنها. وفي عدّة أيام صرّع الموت في قريته ما يقارب الأربعين شخصاً، معظمهم من الرجال. وفي حارته الصغيرة توفي حوالي خمسة، منهم اثنان من أقاربه: ابن عمّه الأكبر، وزوج ابنة عمّه، توفي زوج ابنة أولاً، فذهب ابن عمّه ودخل عليه، واشترك في تغسيله، وحمله للدفن، دون أيّ احتياط، وكان رحمه الله مجازفاً، جريئاً، لا يبالي بالعواقب، فأصابته العدوى، وما أسرعها، وما هي إلا أيام قضاها حتى ودع الحياة: قبل أن يتمّ الأربعين من عمره.

ولم يكن في القرية "ملاعب" كمعظم قرى مصر، فكانوا يلعبون "الكرة الشراب" كما يُسمّيها المصريون، ويعنون بالشراب "الجورب"، فالجورب القديمة تؤخذ وتحشى بقطع الثياب البالية، ويلعبون بها في الطرقات والشرارح، فهذه هي ملاعبهم.^٥ وكان لهم

١ هو اسم قرية الشيخ القرضاوي.

٢ هما نوعان من أنواع الأمراض.

٣ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٥٠.

٤ اسم داء وباء كاسح من الأدوية المُعدي في العالم كلّها الآن، ويسمى بـ (Covid-19 [Corona Virus Disease 2019])، ويقال هي التي نشأت أولاً من إقليم "أوهان" في بلاد الصين.

٥ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، المرجع السابق، ص ٥١ (بعبارة تغيير وتبديل).

أنشطة رياضية كانوا يمارسونها وفق إمكاناتهم، كالتسابق في العدو، وفي الوثب العالي، أو الطويل، أو التدريب على القيام والعمود لتقوية الركب. وأما السباحة فكانت محظورة عليهم، أو على معظمهم خوفاً من الغرق.

المطلب الثاني: مستوى النظافة في قرية القرضاوي

كان مستوى النظافة العام بالقرية متدنياً، لتدني مستوى المعيشة العام لدى جمهور الناس. فكانوا يأكلون الخضروات الطازجة دون أن تغسل، ولهم مثل شائع في ذلك يقول: بطينة، لا غسيل البركة. وكان كثير من البيوت لا يوجد فيها مرحاض، ويعتمد الرجال فيها على مراحيض المسجد، أما النساء فقيضين حاجتهن في زينة المنزل!

وكان المسجد فيه مِيضَاءُ أي مَطْهَرَةٌ، وَهِيَ الَّتِي يُتَوَضَّأُ مِنْهَا أَوْ فِيهَا. وَالْمِيضَاءُ: الْمَوْضِعُ الَّذِي يُتَوَضَّأُ فِيهِ،^١ يتوضأ فيها الناس، ويغسلون من مياهها وجوهم وأرجلهم إلى الكعبين، ويتمضمض فيها ويستنشق. برغم ما قد يسببه ذلك انتشار العدوى ببعض الأمراض، ولكن مذهب الشافعي يميز ذلك بناء على حديث صحَّ عنده: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ وَسَأَلَهُ رَجُلٌ عَنِ الْمَاءِ يَكُونُ بِأَرْضِ الْفَلَاةِ وَمَا يَنْتَابُهُ مِنَ الدَّوَابِّ وَالسَّبَّاحِ فَقَالَ: «إِذَا بَلَغَ الْمَاءُ قُلَّتَيْنِ لَمْ يَحْمِلِ الْحَبَثَ». فلميضاة يبلغ قُلَّتَيْنِ أو أكثر. فلا ينحس إلا إذا تغيَّرَ بالنجاسة طعمه أو لونه أو ريحه.

والحنفية لا يميزون ذلك، ويشترطون أن يكون الماء أكثر من ذلك بكثير حتى يجوز الوضوء من ماء توضع منه آخرون. ولذا شجع المذهب الحنفي استعمال الصنابير، ولذا نسبت إليهم وسميت حنفيات! وكان في المسجد شيء آخر يشترك فيه الناس، وهو "المُعْطَس" وهو حوض عميق نحو متر ملئ بالماء يغتسل فيه الناس، خصوصاً عند صلاة الصبح. وفي الشتاء يكون كأنه عصير الثلج. وفيه آفتان:

الآفة الأولى: أن الجميع يغتسلون فيه، وقد يحمل أحدهم مرضاً معدياً، فينقل العدو إلى غيره. والإسلام أقر سنة الله في العدو. كما ورد عن أَبِي سَلَمَةَ: سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ، بَعْدُ يَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُورَدَنَّ مُرَضٌ عَلَى مُصِحٍّ». ^٢ الممرض: صاحب الإبل المريضة، والمصح: صاحب الإبل الصحيحة، فعند ورود الماء للشرب، لا يجوز أن يخلط المريضة بالصحيحة، حتى لا تعديها، وبهذا حافظ على صحة الحيوان، كما يحافظ على صحة الإنسان. وهذا الحديث احتج على من أنكر الوباء المُعْدِي والكاسح "كرونة" في مجتمعاتنا. وكرونة عَلَّمْتَنَا كَيْفَ يَفْرُ الْمَرْءُ مِنْ أُمَّهُ أَبِيهِ وَأَخِيهِ وَ... وهذه مصداق لقول الله تعالى في الدنيا: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنَ أَخِيهِ [٣٤]﴾ ﴿وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ [٣٥]﴾ ﴿وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ [٣٦]﴾. ^٣

والآفة الثانية: أن الناس كان ينظرون بعضهم إلى بعض وهم عراة، وهذا محرّم في الإسلام، فلا يجوز لأحد أن ينظر إلى عورة آخر، ولو كان الجميع رجالاً أو نساء. فلا يجوز لأحد أن ينظر إلى عورة الآخر، ولو كان الجميع رجالاً أو نساء. ولذا كان الناس في هذه الحالة يوصي بعضهم بعضاً بغضّ البصر، لأن جاء في الحديث: عَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: وَبَلَّغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ النَّاطِرَ وَالْمَنْظُورَ إِلَيْهِ».^٤

١ محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ)، *لسان العرب*، باب فصل الواو، (بيروت - دار صادر، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤هـ)، ج ١، ص ١٩٤. والدكتور سعدي أبو حبيب، *القاموس الفقهية لغة واصطلاحاً*، باب حرف الواو، (دمشق - دار الفكر، الطبعة: الثانية ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م)، ج ١، ص ٣٨٢.

٢ البخاري، *الجامع الصحيح للبخاري*، باب لا هامة، (دار طوق النجاة [مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي]، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ)، رقم الحديث: ٥٧٧١، ج ٧، ص ١٣٨. والسجستاني، أبو داود، *سنن أبي داود*، [محمد محيي الدين عبد الحميد]، باب في الطيرة، (بيروت - المكتبة العصرية، صيدا)، رقم الحديث: ٣٩١١، ج ٤، ص ١٧، [حكم الألباني: صحيح].

٣ القرآن الكريم، البقرة (٨٠)، الآيات [٣٤ - ٣٦].

٤ البيهقي، أبو بكر البيهقي، *شعب الإيمان*، فصل في الحمام، (مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية بيومياني بالهند، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م)، رقم الحديث: ٧٣٩٩، ج ١٠، ص ٢١٤.

وكان الماء في المسجد يأتي من جوف الأرض عن طريق "طلمبة" كبيرة تدار يدويا، وهي التي تغذي الجامع، وكان المسجد مفروشًا بالحصير، وكانت أرضيته من الأسمنت و ليس من البلاط، وكان يغسل كلّ جمعة، استعدادًا لصلاة الجمعة. ولم يكن فيه مكان للنساء، فلم يرى الشيخ القرضاوي في قريته امرأة دخلت المسجد للصلاة في حياته. إلا ما كان من نساء يدخلن مسجد سيدي عبد الله الحارث، لزيارة القبر، ولتوفية النذر.

المطلب الثالث: شدة الشتاء على أهل قرية القرضاوي

وكان الشتاء أشدّ على أهل القرية من الصيف. فالصيف يمكن للناس أن يتخففوا فيه، وأن يناموا والأبواب مفتحة، ويقولون: حصيرة الصيف واسعة. ولكن الشتاء يحتاج إلى تدفئة، وثياب ثقيلة، وأغطية ثقيلة، وكثيرًا ما تمطر السماء، فيهدد سقوفهم بخير الماء، وتمتلئ الطرقات والحارات والأزقة بالماء، ثم تصبح طينًا ووجلا، لا يستطيع المرء أن يمشي فيه إلا بصعوبة، وحذر بالغ، أن تنزلق رجلاه فسقط في الطين. ويصبح الذهاب إلى المسجد والكتّاب والمدرسة والسوق صعبًا للغاية، وكثيرًا ما يجلس المطر الناس في منازلهم.

المطلب الرابع: أدواتهم الطبخية المنزلي في قرية القرضاوي

وكانت البيوت في القرية قليلة الأدوات، إذ لم يكن في البيت شيء اسمه المطبخ، وكان مطبخهم أي الشيخ القرضاوي هو "الكانون" وهو أثفيتان أو حجران أو جانبان صغيران مبنيان توضع فوقه أواني الطبخ، وتوقد تحتها النار من الحطب ونحوه. وكانت الأواني من النحاس الأحمر الذي يبيض بالقصدير، ويحتاج إلى إعادة تبيض بين الحين والحين، ويقوم بهذا حرفيون يسمونهم "المبيضاية" يمرّ على الناس وينادي "أبيض النحاس". وكانت أهمّ أدوات البيت من النحاس: حلال الطهي كلّها - كبيرة و متوسطة وصغيرة، - من النحاس، و"المقلّي" الذي يقلي فيه البيض والسمك والبادنجان ونحوها من النحاس، و"المصقّي" من النحاس^١. والدسّث الذي يغلي فيه الماء من النحاس، والصواني التي يطهي فيها الطعام في الفرن من النحاس، وصينية القليل من النحاس والطحشت الحمام من النحاس، وحنفية الغسيل من النحاس. وصينية العشاء الكبيرة من النحاس، و"المنقد" أو "الموقد" الذي يستخدم للتدفئة في الشتاء من النحاس. ولهذا كان أهم ما تدخل به العروس حين تزف إلى زوجها هو "النحاس"، فلم يكن قد عرف الناس "الألمنيوم" أو "الاستانلي ستيل" ونحوها.

كما كان الفخّار أيضًا له دور كبير في أدوات المنازل، وخصوصًا فيما يدخل الفرن من الأطعمة مثل السمك ونحوه. وكما أن الفخّار لا يقوم غيره مقامه في حفظ اللبن، بعد تعقيمه بطريقة عرفها الناس وتوارثوها عن طريق التطهير بالنار.

المطلب الخامس: مصيبة الموت في قرية القرضاوي

ومن أهمّ الأحداث المؤثرة في القرية "مصيبة الموت" كما سمّاها القرآن. فقد رأى الشيخ القرضاوي الموت يحدث من الأسى والحزن في الحياة المصرية ما لا يحدث في البلدان الأخرى، مثل أهل الخليج، الذي يمرّ الموت عليهم دون أن يحدث جراحًا عميقة في القلوب والمشاعر. ويبدو أن المصريين ورثوا هذا من قديم، من عهود الفراعنة، فهم يستقبلون الموت بالبكاء والعيول والصراخ، وأكثر ما يكون ذلك من النساء.

١ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٥٤

وكثير ما ترتكب المخالفات الشرعية التي برئ منها صلى الله عليه وسلم، كما عن عبد الله رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ»^١. وكثيراً ما يستأجرون النائحات المتخصصات في تهيج مشاعر الحزن، واستدراار الدموع، والتأثير على عواطف النساء، وبخاصة أن كل إنسان في هذه الحالة يبكي ميتة يذكر مصيبتها، حيث قال الشيخ القرضاوي لهم:

إن الأسي يبعث الأسي دعوني فهذا كله قبر مالك

وقد اعتاد أهل القرية أن ينصبوا العزاء ثلاثة أيام، ثم بعد ذلك: أيام "الخميس" الأول والثاني والثالث، ثم الخميس "بعد أربعين يوماً". ثم هناك الذكرى السنوية. وهناك زيارة الميت كل يوم الخميس، وعمل "الرحمة" له، والرحمة هذه قرص تخبز لتوزع على الفقراء والمساكين في المقابر. ثم هناك بيوت في المقبرة ليلة عيد الفطر، وليلة عيد الأضحى. وكانت عمّة الشيخ القرضاوي تذهب إلى المقبرة ليلة العيد من أجل زوجها، وكذلك جدته لأمتها، وتقول أتركه وحده ليلة العيد!! تعني جدّ الشيخ القرضاوي رحمه الله. وهذا ما جعل المقابر ليلة العيد كأنها سوق تباع فيها الحلوى وألعاب الأطفال والمأكولات وغيرها، وكانوا وهم أطفال، يفرحون بهذه الليلة وربما كانت عندهم أهم من يوم العيد نفسه.

وقد اعتاد النساء أن يلبسن الثياب السود على موتاهم الأقربين مثل الأب والابن والأخ والزوج ونحوهم مدة سنة كاملة. وهو مخالف للشرع الشريف، الذي يحرم على كل امرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث ليال إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا. وكان بعض أهل النساء إذا مات زوجها، تترمل بعده ولا تتزوج، وبعضهن لا يتزوج إلا بعد سنين طويلة، على خلاف ما كان عليه نساء الصحابة، فقد كانت المرأة يموت زوجها شهيداً في سبيل الله، فتتزوج بعد انقضاء عدتها. ولا يوجد في ذلك حرج، كما تزوجت أسماء بنت عميس زوجة جعفر بن أبي طالب بعد استشهادها من أبي بكر، ثم بعد وفاة أبي بكر تزوجت من علي، وأنجبت من كل منهم رضي الله عنها وعنهم جميعاً^٢. وطالما أنكر علماء القرية على العوام هذه العبادات التي اعتادوها في الموت، وهي مخالفة لأحكام وآدابه، وكلما شاع التعليم، وانتشر الوعي تغيرت هذه العبادات بالتدرج.

المطلب السادس: الفتوات في قرية القرضاوي

ومن الظواهر الاجتماعية التي تذكر في القرية: ظاهرة "الفتوات" ولكنها ليست مثل "فتوات القاهرة" القديمة، التي تحدث عنهم نجيب محفوظ^٣ في رواياته المعروفة، إنما هم رجال لهم نفوذ معنوي يرهبهم الناس، ويظهرون لهم الاحترام لما لهم من أتباع من صغار المجرمين، يعتبرون آلات في أيديهم يستخدمونهم عند اللزوم، لتنفيذ ما يبتغون، والانتقام ممن يريدون. وهؤلاء الصغار محسوبون عليهم، ويعيشون في كنفهم، فهم الذين يتحملون عنهم مسؤولية أي فعل مخالف للقانون. ومن هؤلاء الفتوات من كانت هيبتها بما يصدق من أموال على من حوله هؤلاء المجرمين الصغار، وإن لم يستخدمهم في الشرور والجرائم، إنما يتعزز بهم، ويتقوى بالتفاهم حوله، حيثما ذهب أو جاء، وحيثما أظهروا له السمع والطاعة والامتثال لما يأمر به، فإشارته حكم، وطاعته غنم^٤.

١ البخاري، الجامع الصحيح للبخاري، باب ليس منا من شق الجيوب، دار طوق النجاة [مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي]، الطبعة:

الأولى، ١٤٢٢هـ، رقم الحديث: ١٢٩٤، ج ٢، ص ٨١

٢ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٥٧

٣ هو كان رئيس حكومة المصرية أسبقاً.

٤ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، المرجع السابق، ص ٥٧ - ٥٨

المبحث الرابع: الجانب الثقافي في قرية القرضاوي

هذا المبحث يتضمّن ثلاثة مطالب، وبيانها فيما يأتي:

المطلب الأول: عدم ثري الجانب الثقافي في قرية القرضاوي

كان الجانب الثقافي في القرية ضعيفا، إذ لم يكن في القرية من أدوات الثقافة غير المدرسة الإلزامية والكتّاب الأربعة، والمساجد. لم تكن هناك مكتبة في القرية، وكان المتعلّمون فيها أقلّيّة. وأكثرهم من خريجي الكتّاب، وكانت الكتب التي يقرأها الناس إمّا أنّها كتب وعظيمة في الرقائق يبيعها كُتُبُون متجولون، وإمّا كتب القصص الشعبيّ مثل قصّة "الزير سالم" وهو المهلهل بن ربيعة عن مقتل شقيقه كليب وحره الطويل مع قبيلة بكر... وقصّة "أبو زيد الهلالي" وسيرة بني هلال، ومنها قصّة مرعى ويحيى ويونس أبناء أخت أبي زيد وقصّة الناعسة وغيرها. وقصص محليّة صغيرة مثل قصّة "سعد اليتيم" وقصّة أدهم الشراوي الذي قاوم الحكومة ليأخذ بثأر عمّه^١. وكان بعض الناس يقنّي قصّة عنتر بن شدّاد العبّسي، وقصّة سيف بن ذي يزن الملك اليميني. وكانت أشهر هذه القصص قصّة بني هلال وأبي زيد، وكان الناس يحفظون أحداثها ويتناشد بعضهم أشعارها وهي مؤلفة باللغة العاميّة، ومزوجة بالدين في صورة بسملة و حمدلة وصلاة على النبي صلى الله عليه و سلم في كلّ مناسبة.

وكانت المهرجانات الثقافيّة في القرية حين يستقدمون "الشاعر" ليحكّي قصّة أبي زيد على "الربّابة" ويلتف جل الناس في القرية حوله، ليستمعوا إلى القصّة في إعجاب وتأثر وتفاعل مع الأحداث، وكان الشاعر يقضي عدّة ليالي في حكاية القصّة، ويقف في العادة عند مقطع مهمّ، كأن يترك البطل أسيرا أو نحو ذلك من المآزق.

ولم تكن في القرية سينما، ولا يعرف الناس التمثيل، إلا من خلال عمل فنيّ بسيط مكرر يقام في "الأعراس" اسمه "الخيال" وقوامه رجل (كوميدي) من أهل القرية اسمه (زهران) ومعه مساعدان يقدّمون قصّة اجتماعية مضحكة للناس، تكاد تتكرر في كلّ عرس. وكانت جريدة (الأهرام) هي الصحيفة الوحيدة المعروفة في ذلك الوقت، وكان لا يقرأها إلا القليل جدّا من أهل القرية، معظمهم من (الأعيان) القادرين على شرائها يوميا بنصف قرش أو (قرش تعريفية).

وحين ظهر الراديو في القرية أحدث ضجة في حياة الناس، ولم يكن عامة الناس يقتنونه، فقد كان ثمنه أكبر من طاقتهم، ولكن كان في القرية قهوة يسمونها (القهوة الكبيرة) كان مستواها راقيا بالنسبة إلى غيرها من (القهواوي). ولكن الناس لم يستخدموا كلمة (المذياع) وظلوا يستخدمون كلمة (الراديو) كما ظلوا يستخدمون كلمة (التليفون) ولم يستعملوا كلمة (المسرة) التي وضعها له المجمع. كان أبرز ما يهتمّ الناس من الراديو (نشرة الأخبار) وسماع الشيخ محمّد رفعت قارئ القرآن المبدع الذي كان له عشاق يتربّون، وقل أن يجود الزمان بمثله.

كان معظم المثقفين في القرية من خريجي الأزهر، وقليل منهم من دار العلوم، ومن دار المعلمين، فقد كان الأزهر هو جامعة الفقراء، وأبناء الشعب الذين لا يملكون دفع رسوم التعليم العام، الذي كان يكلف من يدخله كثيرا. أمّا الأزهر فكان التعليم فيه مجّانا، بل ربّما كان هناك أوقاف وقفت على طلبته أو بعضهم تعينهم على معيشتهم.

وكان خريجو الجامعة في الغالب مقصورين على أبناء الأعيان من الحضاروة أو النويرة، وقلّ منهم من كان يجتاز كلّ المراحل، حتى ينهي الجامعة. أمّا غير الأعيان، فكانوا بعيدين عن التعليم العام لكلفته، إلا قليلا جدا منهم، ومن هؤلاء قريب لنا كان تاجرا، وكان متزوجا من ابنة عمّي، وأصرّ على أن يعلم ابنه الأكبر في مدارس الحكومة، على رغم ما يكلفه ذلك.

١ ألفردّواوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٥٨

كان أعظم مصدر للثقافة في القرية هو المسجد، ففيه تلقى خطبة الجمعة كلَّ أسبوع وتلقى بعض الدروس، كما تنشط فيه الحركة الثقافية خلال شهر رمضان، فهناك درس بعد صلاة العصر من كلِّ يوم، ودرس بين المغرب والعشاء وقبل صلاة (التراويح).^١ ولكن قيمة المسجد وروحه وجوهه إنما تتمثل في (شيخ المسجد) أو إمامه وخطيبه ومُدْرَسه، وقد كان حظُّ مسجده القريب من بيته أي الشيخ القرضاوي. وهو "مسجد المتولي" وهو جامع كبير عريق - حيث كان خطيبه الدائم والمتطوِّع الشيخ أحمد مولانا الكبير، ثمَّ ابنه الشيخ أحمد مولانا الصغير، يخطبان فيه من ديوان قدم مسجوع، خطبا تقليديَّة معروفة، موزَّعة على أشهر العام الهجرية، وتكاد تتشابه كلُّها في المواعظ والتذكير بالموت والقبر والآخرة والجنة والنار، والترغيب في عمل الصالحات، والترهيب من فعل السيئات وليس للخطبة موضوع محدَّد تعالجه.

المطلب الثاني: الفنون في قرية القرضاوي

كان للقرية فنونها الخاصة بها، الملونة بلونها، المعبرة عن طبيعتها وبساطتها، وآمالها وآمالها، هناك فنُّ الغناء، غناء الفرغ والطرب، وغناء الحزن والألم. وأما غناء الفرغ والسرور، فيتجلَّى ويبرز في مناسبات شتَّى، أهمُّها "الأعراس" حتى إن المصريين يعبِّرون عن "الأعراس" بكلمة "الأفراح" ولأهل القرية أغان وأهازيج جميلة بلغتهم العامية يعبِّرون بها عن فرحتهم، بعضها ممَّا يشبع في بلدان مصر كلُّها تقريبا مثل: يا عروستنا يا لوز مقشر تعالي. وبعضها خاص بأهل القرية، حتى سمعت أن إحدى القرويات كانت تولِّف أغاني معيَّنة يُعنى بها في المناسبات، مع أنها أميَّة، وكن عندها الحاسة الفنيَّة أو الشعريَّة، ربَّما لو تعلَّمت لكانت شاعرة مسموعة.

وهناك أغان تقال في الاحتفال بالمولود عند ولادته، وخصوصا عند احتفال بمرور أسبوع عليه، ويسمِّيهم المصريون "السبوع" ويوزَّعون الحلوى، وتزغرد النساء، ويدقون للطفل "الهون" ويضعونه في "الغربال" ويقولون له ما هو مشهور اليوم في الأغاني المذاعة: برجالاتك، يا سلام على شرباتك، إلى آخر ما يقال. وهذا الاحتفال له أصل شرعيّ، وهو "العقيقة" التي تذبح للمولود في اليوم السابع من ولادته.^٢ وهناك الاحتفال بختان الذكور، وهذا أيضا يظنون يحتفلون به قبل حدوث الحدث بنحو أسبوع، ويوم الختان تذبح ذبيحة أو يطهي الطعام وتوزع الحلوى، ولهم في ذلك أغنيات معروفة أيضا. وأعتقد أنهم ينطلقون في الاحتفال بهذا الختان باعتباره من "شعائر الإسلام". ولهذا يحتفلون بختان الذكور، ولا يحتفلون بختان الإناث، ولا سيَّما أنه يقوم على الستر.

وكان الغناء شائعا في القرية في ألوان شتَّى. بين بائعي الفاكهة والخضروات وأمثالهم، حيث ينادون على سلعهم بأصوات معتمَّة. وكذلك بائع العرقسوس يغني ويضرب بالصاجات. وهناك البتَّاءون والفعلَّة يباشرون أعمالهم وهم يُنشِدُونَ الأهازيج التي تحون عليهم أعمالهم، على نحو ما كان يفعله الصحابة، وهم بينون المسجد النبويّ، ويقولون: اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فاغفر للأَنْصار والمهاجرة.

وهناك غناء (المسحراتي) في شهر رمضان، حيث لكلِّ ناحية مُسحَرَاتِيّ خاص بها، وهو يمرّ بعد منتصف الليل على البيوت، وينادي على ربِّ البيت بالألحان، وقد يسمَّى أفراد الأسرة فردًا فردًا، أو أهمُّهم. ذكر القرضاوي حفظ الله تعالى مُسحَرَاتِيّ حارتنا وهو يقول: يا عمَّ أحمد قم اتسحر، لمَّ أولادك واستغفر. كلوا واشربوا هناكم الله. وقد وجد في القرية مُسحَرَاتِيَّة فنانون، يؤلِّفون الأناشيد والأغاني ثمَّ يغنونها بألحانهم.

وهناك فنُّ مَوَاوِيل وهو فنُّ يغني فيه الإنسان لنفسه، أو لأصحابه من حوله. ويبدأ غالبا بمناجاة الليل: يا ليل، يا عيني، يا ليلي...

١ القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٦٠

٢ المرجع السابق، ص ٦١ - ٦٢

ومن المَؤاويلِ ما يتعلّق بالعشق والغرم، كثيرًا ما يكون مَطْلَعُهَا: قلبي عشق بنت بيضاء واسمها ليلي. أو سعدى، أو لبنى... الخ. وبعض المَؤاويلِ يتضمّن الشكوى من الحبيب، أو سفره الطويل، أو فِرَاقَهُ لأيّ سبب كان. ومّا أذكره هنا مَوَالٌ مؤثّر كان يغنيه بعض الناس بتأثر عميق وفيه يقول: دقّ الهوى الباب، أنا قلت حبيبي جاني. ونزلت فرحان وخذت الباب في أحصاني، لما لقيت هوا والباب كذايين، رجعت أعيط وأعيد اللي مضى تاني!

ومن هذه المَؤاويلِ ما يشكو من تقلّب الزمان، وتغير الأحوال على الناس، مثل هذا المَوَالِ:

يا تاجر الود هو الود شجره قلّ ولا سواقي الود جفّت وماءها اختل
أيّام بنشرب عسل وأيّام بنشرب خلّ وأيّام بنلبس حرير وأيّام بنلبس فل
أيّام ننام على الفراش وأيّام ننام على التل وأيّام بتيجي على أولاد الملوك تنذل

وكثيرا ما يعيّي الناس لأنفسهم، ويكون حظهم العاثر، وظروفهم البائسة، وقد حكى الشيخ الغزالي رحمه الله ما سمعه من غناء (عمال التراحيل) الذي يحملون من قراهم في (لوريات) كما تنقل الأغنام والمواشي، وينقلون إلى قرى أخرى يعملون في مزارعها لجني القطن أو نحو ذلك، وهم يعيشون فيما يشبه الحظائر، ويأكلون (المش) بدوده، معتقدين أن (دود المش منه فيه) جاهلين أن سببه الذباب. ومّا ما سمعه القرضاوي من أحد قريباته، وقد تعثر حظّها في الزواج، وتأخّرت عمّن هو أقلّ منها ثمّ لما تزوّجت لم يلبث زوجها أن توفّي، وهو شاب - فكانت تندب حظّها، وتنشد لنفسها:

يا كاتب الخيبة أكتب وسمعي يا هل ترى الخيبة: ما لهاش حدود يعني!!

المطلب الثالث: الغوازي في قرية القرضاوي

ومن الفنون الدخيلة على القرية: فنّ "الرقص الشرقي" الذي كان يفد إلى القرية ما بين الحين والحين في صورة "الغوازي" جمع "غزية" وإن كان الصواب أن يكون مفردا "غازية" ولكن كلمة "غزية" أخفّ على ألسنة العوام. كانت الغزية ترقص وتتلوى - وهي كاسية عارية - كما تتلوى الأفعى، وتنفت سمها كالأفعى. وهي بالفعل أشبه شيء بالأفعى. ناعم مسها، قاتل سمها!

هذا الاسم "الغوازي" له دلالتة، فهنّ "يغزون" القرية الهادئة الساكنة بهذا الفنّ الخليج، وقد شهدتهنّ في الصبا يقمن بحركات مثيرة للغريزة الجنسيّة، مصحوبة بكلمات مكشوفة أشدّ أثرا، يؤدنها في صورة أغان خفيفة، وبعض الموسرين ينشرون النقود بين أيديهنّ، ويتنافسون في ذلك، ليخصصنهم بالرقص أمامهم. وهنّ يمكنن في القرية بضعة أيّام في الغالب، مع من يصحبهنّ من بعض الرجال، الذين يعملون معهنّ، ثمّ يرتحلن عن القرية، وقد خلفن فيها من بذور الفساد ما خلفن، ويحمد الرجال الصالحون ربّهم على ارتحالهنّ، وينشد من ينشد: إذا ذهب الحمار بأمّ عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار!

المبحث الخامس: الجانب السياسي في قرية القرضاوي

وفيه مطلب، وهو:

تورط ناس قرية القرضاوي بالسياسي

لم يكن الناس في قرية القرضاوي في عهد طُغُولِيَّتِهِ مشغولين بالسياسة، ولا مهتمين بشؤونها، وذلك لسببين:

السبب الأول: انتشار الأمية بين الناس، والاهتمام بالسياسة يحتاج إلى قدر من الوعي، ومتابعة القضايا العامة، وقراءة الصحف ونحو ذلك. ولم يكن هذا ميسور لأهل القرية، حتى لم يكن يقرأ صحيفة الأهرام إلا أناس يعدون على الأصابع.

والسبب الثاني: أن الناس كانوا مشغولين بلقمة العيش، ومعركة الخبز، وهي معركة ومريرة و طويلة، قوامها المعاناة والكدح من الفجر حتى غروب الشمس، حتى قالوا في أمثالهم: الدنيا أشغال شاقة آخرها الإعدام!

والناس إنما يفكرون في السياسة حينما يُحْسُونُ بشيء من الراحة، وقدر من الفراغ، ليخرجوا من شأنهم الخاص إلى الشأن العام. وكان أمر الملك يجري حسب نظام الوراثة، وحسب رغبات الإنجليز الذين احتلوا البلاد منذ أوائل الثمانينات من القرن التاسع عشر، ولا دخل للشعب في اختيار الحاكم ولاعزله. وقد تغيرت ألقاب الحكام من خديوي إلى سلطان، إلى ملك، والناس لا شأن لهم بذلك^١. إنما يشاهدون أثر ذلك في صورة الحاكم، وما يكتب تحت صورته: خديوي أو سلطان أو ملك. وخصوصا في العملة، فقد شهدت عملة باسم السلطان حسين، ثم أخرى باسم الملك فؤاد الأول، ثم الأخرى باسم الملك فاروق الأول. وكان أول ما يظهر تغير العملة في "المليم" أصغر العملات، وأكثرها شيوعا في ذلك الزمن.

وكان الناس يذكرون عرابي وثورة عرابي ضد الخديوي، أو كما يسمونها "هوجة عرابي". كما يذكر بعضهم بطش الإنجليز وعدوانهم الوحشي على المصريين في قرية "دنشواي" ووقوف "مصطفى كامل" بشا ضد الإنجليز، وكان بعضهم يُعَيِّي مَوَالًا في تمجيد مصطفى كامل. الذي مات في عنفوان شبابه. كما كان بعضهم يذكر "محمد فريد" الذي خلف كامل، في رئاسة حزبه، ومقاومة الاحتلال الإنجليزي، والذي نفي خارج مصر، ومات في منفاه رحمه الله.

قال القرضاوي: وما أذكره أن المصريين رحبوا بالملك فاروق أول جلوسه على العرش، وأطلقوا عليه لقب "الملك الصالح" وكنا نحتف ونحن تلاميذ بالمدرسة الإزامية: عاش الملك الصالح. ورد الناس هذا الصلاح لقربه من الشيخ المراغي شيخ الجامع الأزهر. وأذكر أن الملك مر على صفت مرة في طريقه إلى المحلة الكبرى لافتتاحه أحد المساجد بها، فأخذونا نحن تلاميذ المدرسة، واصطففنا على الطريق، وكذلك كل القرى قبلنا وبعدها، لنحبي ملك البلاد، ونحتف بحياة الملك الصالح. ولكن بطانة السوء تسللت إليه بعد ذلك، كما تسلل الشياطين، وجروه إلى دوامة الفساد. والمعصوم من عصمه الله.

وكانوا يسمعون من الناس ذكريات عن ثورة سنة ١٩١٩م وعن سعد باشا زغلول ومقاومته الإنجليز المستعمرين. ويسمعون منهم عن الحرب العالمية الأولى وما أصاب كثيرا من التجار فيها من خسائر اقتصادية وتجارية نقلت هؤلاء من السير إلى العسر، ومن الغني إلى الفقر. وينشدون في ذلك. ما بين طرفة عين وانتباهتها يُعَيِّرُ الله من حال إلى حال^٢.

أما الانتماء إلى الأحزاب، فكان الأهالي هنا تبعا لآل خضر، الذين يُرَشِّحُونَ ناسا منهما لكل دورة انتخابية، وهم قد قسّموا أنفسهم بحيث يكون منهم نائب في كل عهد. وقد كانوا في فترة ما مع حزب الوفد، فلما انفصل السعديون عنه، وشكلوا الحكومة، وأجروا الانتخابات، وعرف أنهم سيفوزون بالأغلبية القادمة بالحق أو الباطل، انضموا إليهم، ورشحوا على قائمتهم.

١ القرضاوي يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٦٦

٢ المرجع السابق، ص ٦٧

أما أهالي البلدة، فكانت عواطفهم مع النحاس باشا زعيم حزب الوفد، وذلك لأمرين:

الأول: أنه ابن المنطقة، ابن الغريبة، ابن سمندو القريية من قرية القرضاوي.

والثاني: أنه يعمل لمصلحة الفقراء، وكثيرا ما سمع أهل القرية: نحن نحبُّ النحاس لأنه رفع عنا "العتبة" و "الشرقي". ويقصدون بالـ "عتبة" تلك الضريبة العقارية، التي كانت مفروضة على الناس جميعا: أن يدفع كل شخص مبلغا عن الدار التي يملكها ويسكنها هو وعياله، مهما تكن حالته وعسره، وكان هذه عتبا كبيرا على المواطنين العاديين، يحملون همّه. وكيف يدبّر الرجل الفقير، والمرأة الأرملة، والعامل المتبطل، وأمثالهم الذين لم يكونوا يجدون القوت إلا بشقّ الأنفس، كيف يدبّر أحدهم مبلغ "العتبة" الذي كان يشكل هما ثقيلا عليهم، فلما ألغته حكومة النحاس، تنفس الشعب الصعداء، ودعا للنحاس بخير. وأما الشرقي فيقصد به فرع نهر النيل الشرقي المعروف بـ "فرع دمياط". ولم يكن للنيل وفرعيه "كورنيش" يحميه من طغيان الفيضان إذا علا في فصل الصيف من كل عام، وكان في كثير من الأعوام يعلو ويعلو حتى يهدد القرى المجاورة بالغرق. ولم تجد الحكومات وسيلة لمقاومة هذا الفيضان العاتي إلا "بتسخير" الفلاحين المساكين، يساقون من قراهم سوقا تحت سياط التهديد والقوة، ليعملوا مجّانًا، ويتركوا أرضهم وأعمالهم، ويغربوا عن أهلهم وبلداتهم في حملة مكثّفة، لوضع الحجارة وغيرها عند الشواطئ، لحماية البلاد القريبة من خطر الفيضان.

فكان من الخير الذي قدّمته حكومة الوفد للشعب إلغاء "هذه السخرة المذلة" للناس. وقال القرضاوي: قد رأيت بعيني الشبان من أبناء الفلاحين يخطفون خطفا من بيوتهم أو حقولهم، ويجرون جرا رغم أنوفهم، كما كانوا يجندون قهرا أيام السلطة في عهد الإنجليز. وقد أخذ ابن عم لي مرّة في هذه السخرة. وفيما عدا ذلك، فلم تكن لدى الناس ثقة بالحكومة، ومن الأمثال السائرة عندهم: (يوم الحكومة بسنة) وهو تعبير عن بطء الروتين الإداري، والبروقراطية الحكوميّة المتوارثة.

ومن الأمثال المعبرّة عن عدم الثقة بالحكومة قولهم: إذا كان ذراعك عسكري- يعني شرطي- اقطعه. فهو لا يعتقد أن هذا العسكري أو الشرطيّ لحمايته وخدمته، بل هو لقهره وإذلاله.

ويأس الناس من الدولة ومؤسساتها هو الأساس، فهّم لا يهمهم تغيير الحكومات من حزب إلى آخر، ومن حزب الأغلبية لأحزاب الأقلية، وقد عبّروا عن هذا بقولهم: اللي يتزوّج أمّي أقول له يا عمّي!

ومن الأوقات التي اهتمّ الناس فيها بالسياسة: أيام الحرب العالميّة الثانية، التي أعلن فيها هتلر الحرب على الحلفاء، وعلى رأسهم بريطانيا، التي احتلت مصر والسودان والعراق وفلسطين وغيرها من بلاد المسلمين في آسيا وإفريقيا. والتي هزمت دولة الخلافة في الحرب العالميّة الأولى.^١

كان أهل القرية عموما- كمعظم أهل مصر- في تلك الفترة، يرحبون بهتلر، ويعبرونه سيفا سلّه القدر الأعلى على رقبة بريطانيا، لينتقم منها على طغيانها وجرائمها في حقّ المسلمين. وكان الناس في شأن هتلر قسمين:

قسم الأول: هو مبعوث العناية الإلهية للانتقام من المستعمرين الأوروبيين من الإنجليز والفرنسيين وغيرهم من الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد.

ومن الطريف أن بعض الناس في القرية، كانوا يقولون: إنّه مسلم يختفي وراء اسم هتلر، بل قال بعضهم: إن اسمه الحاج محمد هلتلر!!

والقسم الآخر: يقول ما قاله أحد الحكماء قديما: الظالم سيف الله في أرضه ينتقم منه. ويردّد قول الشاعر:

وما من يد إلا يد الله فوقها ولا ظالم إلا سبيلي بظالم!

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٦٩ - ٧٠

على أية حال كان هتلر عقوبة إلهية للحلفاء، ومن فضل الله على المستضعفين أن يُسلطَ الظالمين بعضهم على بعض، حتى لا ينفرد فريق منهم بالفتك بالضعفاء دون أن يقول أحد لهم: كفوا أيديكم. ولهذا كان من أدعية السيوف: اللهم اشغل الظالمين بالظالمين، وأخرجنا من بينهم سالمين. ومن أمثال العرب: إذا اصطاح الفأر والهرة خربت ذكأن البقال. وقالوا كذلك: إذا اختلف اللسان ظهر المسروق. فكان اختلاف اللصوص على الغنيمة، واشتغال الظالمين بعضهم ببعض رحمة من الله تعالى بالضعفاء الذين لا يملكون من أسباب القوة ما يقاومون به المستكبرين في الأرض، الذي قالوا ما قال قوم عاد قديماً: من أشدّ منا قوة؟!

قال القرضاوي: وهذا ما شهدناه بأعيننا أيام صراع القطبين الدوليين: أمريكا والاتحاد السوفيتي وكيف كان تنازعهما نعمة على الشعوب المستضعفة وفرصة لها. وكيف أصبحت الشعوب الضعيفة اليوم فريسة لأنياب القوة العظمى الوحيدة المنفردة بالهيمنة والقوة في العالم؟

على كل حال كان أهل قريتنا بقلوبهم ومشاعرهم مع الألمان، ومع هتلر، ما عدا واحداً من أهل القرية، كان ضد أهل القرية، وكان مع الإنجليز بصراحة، ويرى أنّ الإنجليز هم المنتصرون في النهاية، وهو أحد تجار القرية، واسمه الحاج عبد القادر يحيى. والعجيب أن الأيام قد صدقت ظنّه وانتصر الإنجليز في النهاية، برغم تقدّم (ثعلب الصحراء) روميل في أوّل الأمر، وترحيب الجماهير المصريّة به، وقول بعضهم: إلى الأمام يا (روميل)!

وكنا نسمع في بعض الأحيان عن اليهود وأطماعهم في فلسطين، ولكن لم يكن الحديث عنها واضحاً، ولا مؤثراً، ولا يشكل الأمر إحساساً بالخطر، وخصوصاً بعد سقوط الخلافة العثمانية، وتفترق الأقطار التي كانت تابعة لها، وظهور النزعة الإقليمية التي تعتزّ بالوطن والوطنية، وتتغنى بهما.^١

وكانوا في المدرسة يحفظوننا أناشيد تعلق قلوبنا بحبّ الوطن الصغير (مصر) والفناء فيه، وبذل النفس والنفيس في سبيله، وإعفاء الوطن العربي والإسلامي نهائياً.

وقد كان القرضاوي في السنوات الأولى في المدرسة نحفظ النشيد الذي يقول:

بلادي، بلادي، فداك دمي	وهبت حياتي فدا فاسلمي
غراك أوّل ما في الفؤاد	ونجواك آخر ما في فمي
سأهتف باسمك ما قد حييت	تعيش بلادي ويحيا الوطن
ثمّ غيّر هذا النشيد أيام الحرب	العالمية إلى نشيد آخر يقول:
أماما، أماما جنود الفدا	وسيروا إلى النصر تحت العلم
إلى عزّة الملك رغم العدا	ولا ترتضوا غير عالي القمم

وفي هذا النشيد:

سيخفق قلبي ويشدو فمي	بجبك يا مصر طول الزمن
وإنّ بَخَّ صوتي، فهذا دمي	يخط على الأرض: يحيا الوطن

١ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٧١

وظاهر هذه الأناشيد أنها تهدف إلى تعبئة مشاعر الناشئة نحو الوطن والوطنية، فتكون بديلا عن مشاعر الوحدة الإسلامية، والأخوة الإسلامية، التي كانت مهيمنة على الناس أيام الخلافة الإسلامية، التي كانت تجمع أوطان الإسلام في وطن واحد، أو دار واحد هي (دار الإسلام) كما يعبر عنها الفقهاء. وكان كلُّ وطن منها، وكلُّ شعب فيها، ينظر إلى نفسه على أنه جزء من كلِّ، وعضو في جسد واحد، إذا اشتكى منه عضو اشتكى كلاًه. فكلُّ هذه الشعوب جزء من أمة واحدة هي أمة الإسلام.

وحب الوطن عاطفة فطرية، ولكن لا يجوز الغلو فيها على حساب عواطف أخرى، مثل قيمة الأخوة والوحدة والعقيدة، وقد قال الشوقي: وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني إليه بالخلد نفسي!
بل قال أكثر من ذلك: وجه الكنانة ليس يغضب ربحكم أن تجعلوه كوجهه معبودا

فكيف يرضى مسلم أن يجعل وجه الوطن معبودا كوجه الله الذي لا يجوز أن توجه العبادة إلا إليه؟ هذا على الرغم من نزعة شوقي الإسلامية الصريحة.

كان التركيز على الوطن والوطنية، دون اهتمام بأيِّ وحدة إسلامية ولا عربية، وإن كان الناس في القرية يتحدثون عن (برّ الحجاز) و (برّ الشام) و (برّ العراق) و (برّ المغرب) و (برّ السودان) وغيرها... ونرى الناس مرتبطين بهذه (البرور) ويحسون بأن هذه الأوطان منهم، وهذه بقية من آثار الأخوة الإسلامية ودلائلها. يؤكدها كلُّ جمعة الخطباء على منابرهم، الذين يدعون الله باستمرار: أن يعز الإسلام والمسلمين، وأن ينصر أمة محمد في كلِّ مكان.

المبحث السادس: الجانب التعليمي أو التربوي في قرية القرضاوي

وهو سيأتي إلى الأمام في الفصل الرابع إن شاء الله، لأن هذا المبحث مرتبط بحياة الدكتور القرضاوي مباشرة، وبالإضافة إلى هذا أنني ما كتبت هذا المبحث هنا، لكي لا يكون هذا البحث مزعجاً ومُملًا بالتكرار والإعادة.

١ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٧٣ - ٧٤

المبحث الأول: الحياة الشخصية للعلماء وموضع القدوة فيها

وفيه مطلب، وهو:

الحياة الشخصية للعلماء وموضع القدوة فيها

قد تكون الحياة الشخصية للعلماء وموضع الأسوة فيها مفيدًا واقتفاءً وقدوةً للآخرين، إذ أن فضيلة الأستاذ الدكتور الشيخ يوسف القرضاوي عالمٌ ومفكرٌ وداعية ومفسرٌ ومحدثٌ وفقهه النابه والنابع والوجيه المعاصر. باعتباره عالمًا، واعتباره زوجًا، وباعتباره أبًا، وباعتباره إنسانًا.

وإنما أذكر أي الباحث من أمور شخصيته وأمور أسرته: ما أرى أن فيها عبرة قد يستفيد منها قارئها، فالحياة الشخصية للعلماء وأصحاب الدعوات، ليست ملكًا خاصًا لهم. بل فيها جزء لا يجوز أن يقتحمه الناس، ولا أن يخترقوا أسواره، وهو بينهم وبين ربهم سبحانه، يحاسبهم عليه وحده.

فإن أهم من العبر والعظة التي تفاعل صاحب السيرة مع عصره ووقائعه وأحداثه الكبرى، ورأيه فيها، فلعل في ذلك ذكرى لمن كان له قلب، وعبرة لمن كان له عقل.^١

وفيهما جزء آخر كثيرًا ما يكون فيه قدوة للناس، يقتبسون منه، وينتفعون به، كما قال الله تعالى في شأن رسوله الكريم: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [٢١].^٢

والعلماء ورثة الأنبياء، والأصل أن يكون فيهم من الأسوة، بقدر ما فيهم من وراثة النبوة. كما ورد عن أبي الدرداء، عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ».^٣

كلّ أحد يؤخذ من قوله وعمله ويترك إلا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

على ألا يُنسى الأصل الأصيل الذي قرره سلف الأمة، وهو أن كلّ أحدٍ يؤخذ من كلامه وعمله ويترك إلا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فهو وحده المعصوم من المعاصي، والمعصوم من خطأ الرأي، حتى لو أخطأ في اجتهاده، نزل الوحي، يُصوّب خطأه، حتى لا يصبح شرعًا يأخذ الناس به.

١ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٦

٢ القرآن الكريم، الأحزاب (٣٣)، الآية [٢١].

٣ الترمذي، سنن الترمذي، [تحقيق وتعليق: إبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (ج ٤، ٥)]، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، المرجع السابق، رقم الحديث: ٢٦٨٢، ج ٥، ص ٤٨، [حكم الألباني: هذا حديثٌ صحيح].

المبحث الثاني: اسم القرضاوي الكامل ولقبه ومكان ميلاده وتاريخه

وهذا المبحث يشتمل على أربعة مطالب، وفيما يلي:

المطلب الأول: اسمه الكريم الكامل

اسمه "يوسف" على اسم عمّه، الذي مات ولم ينجب رحمه الله، حيث قال الشيخ القرضاوي: اتفق عند ولادتي على تسميتي بـ "يوسف" على اسم عمّي رحمه الله الذي مات ولم ينجب واسمه الأب "عبد الله" واسمه الجدّ "عليّ" أو الحاج عليّ"، واسمه النسبيّ الْقُرْضَاوِي (بفتح الراء)، لذلك كُنَّاه بـ "الْقُرْضَاوِي" وهذا نِسْبَةٌ إلى أسرته (القرضاوية).

فاسمه الكريم الكامل العائليّ: يوسف بن عبد الله بن عليّ بن يوسف الْقُرْضَاوِي وهو مشهور ومعروف بـ "يوسف الْقُرْضَاوِي" في العالم كلّها.

ولكن الشيخ عبد الفتاح أبو غدة^١ ذكر اسمه زياداً بـ "جمال الدين أبو المحاسن" في نصّه الإجازة التي استجاز القرضاوي منه في علم الحديث، على طريقة أسلافنا في ذلك. وكتب فيه "الأستاذ الْمُفْضَلُ الشيخ جمال الدين أبو المحاسن يوسف عبد الله الْقُرْضَاوِي. "رُبَّمَا لَقَّبَهُ من نفسه. لأني (الباحث) ما وجدت اسمه هكذا في أيّ كتاب الشيخ القرضاوي من كتبه ولا في أيّ مكان ولا أسمع من أحد إلا الشيخ عبد الفتاح أبو غدة. إذن لا أصل له باعتبار معرفة عائليّ الشيخ القرضاوي.

المطلب الثاني: لقبه وكنيته

كان له كثير من الألقاب مثل: الأستاذ الْمُفْضَلُ وجمال الدين وأبو المحاسن، الذي أعطاها الشيخ عبد الفتاح أبو غدة. "والمجتهد المعاصر المعتدل" و"الشيخ" و"الأستاذ" والدكتور وغيرها.

وجدير بالذكر هنا - أنه معروف ومشهور بـ "الْقُرْضَاوِي" وهو اسمه النسبيّ الْقُرْضَاوِي (بفتح الراء)، لذلك كُنَّاه بـ "الْقُرْضَاوِي" وهذا نِسْبَةٌ إلى أسرته (القرضاوية). ومن ثمّ نستطيع أن نقول كنيته "الْقُرْضَاوِي".

المطلب الثالث: تاريخ ميلاده

ولد في شهر سبتمبر، الموافق التاسع في سنة ١٩٢٦ م - (وهو بَقِيّ على قيد الحياة). عمره حتى الآن خمسة وتسعون سنة تقريباً. نسأل الله تعالى أن يمدّ وأن يُطِيل في عمره لطول حياته الطيبة الذي أنعم به على المسلمين اليوم، ويؤيِّده وأسرته بنصرته الكريمة الموفورة، ويرزقه القوّة والصحة العافية والمعافاة على متابعة أداء رسالته.

١ الْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٧٩
٢ هو عالم حَلَب في سوريا ومحدّثها العلامة المحقّق الشيخ عبد الفتاح أبي غدة، وأيضاً هو الفقيه اللغوي الأديب، المتلقّي الورع. تعرّف الشيخ القرضاوي عليه في منزل المحقّق والناشر الإسلامي المعروف الشيخ زهير الشاويش في سنة ١٩٦٩م، وكان منزله - ولا يزال - في "الحازمية" من بيروت. وهو كان حنفيّ معروف بانتسابه إلى مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله، أشعريّ معروف بانتمائه إلى مذهب أبي الحسن الأشعريّ، معتزّ بتلمذه على علامة الأتراك الشيخ محمّد زاهد الكوثري، وكيل مشيخة الإسلام في تركيا في عصر الخلافة، قبل أن يلغياها أتاتورك. وفي هذه السنة الدراسية (١٤١٣هـ - ١٩٩٣م) دعاه الشيخ القرضاوي أستاذاً زائراً لمركز بحوث السنّة والسيرة بقطر. وقد كان الشيخ القرضاوي رَشَّحَهُ أي الشيخ عبد الفتاح أبو غدة باسم المركز بحوث السنّة السيرة لجائزة سلطان بروناي، التي ينظمها مركز أوكسفورد للدراسات الإسلاميّة، وكانت الجائزة في خدمة السنّة وعلومها، فلها عن جِدَارَةٍ بما قدّم من كتبٍ ودراساتٍ وتحقيقاتٍ حول السنّة، وحازت رضا المشتغلين بها وإعجابهم، وكانت هي أوّل جائزة، أعطاها له سلطان بروناي.

المطلب الرابع: مكان ميلاده

قرية يوسف القرضاوي في عهد صباه الذي وُلِدَ فيها، وهي قرية صفط تراب، أريد أن أبين تعريف قريته للتوضيح:

ولد ونشأ يوسف القرضاوي في قرية متواضعة من قرى الرُّيفِ المِصْرِيِّ، بعيدة عن كلِّ أسباب المدينة الحديثة، فلا ماء ولا كهرباء ولا شوارع مرصوفة، ولا أندية ولا مكتبات ولا متاحف، ولا غير ذلك ممَّا تَزَخُرُ المدن العريقة عادة. تقع قريته صَفْطُ تُرَابٍ على بعد نحو واحد وعشرون كيلو متر من طنطا، ونحو تسعة كيلو مترات من المحلَّة.^١

كلمة "صَفْطُ" والمفهوم أمَّا كلمة غير عربيَّة، وهي من الكلمات الموروثة ممَّا قبل الإسلام، لعلَّها من اللغة الهيروغليفيَّة أو اللغة القبطيَّة.^٢

وفي مصر عدد من القرى تسمَّى "صَفْطًا" وتضاف إلى اسم آخر، مثل (صَفْطُ العنب) و"صفطُ الملوك" و"صفطُ الحنة" و"صفطُ البصل" و"صفطُ جدام" وغيرها. ويبدو أن كلمة "صفط" كانت تنطق وتكتب قديما بـ "السين" لا بـ "الصاد" هكذا "سفت" وهذا ما ذكره "ياقوت الحموي" في "معجم البلدان". فذكر بلادا ثلاثة في مصر تسمَّى "سَفْطًا"

١. "سفت أبي جرجا"

٢. "سفت العرفا" وكتاهما في صعيد مصر.

٣. و"سفت القدور" في أسفل مصر. أي في الوجه البحري بتعبيرنا الحديث: و"سفت القدور" وهذه هي قريته، بدليل أمَّا القرية التي دفن فيها الصحابيُّ "عبد الله بن الحارث" ذكر الإمام "أبو جعفر الطحاوي" أن وفاته كانت بأسفل أرض مصر بالقرية المعروفة بـ "سفت القدور".

وقال ابن منده: ولا أدري متى تغيَّر اسمها من "سفت القدور" إلى "صَفْطُ تُرَابٍ". وفي بعض المراجع: أمَّا تسمَّى "صَفْطُ أَبِي تُرَابٍ" ثمَّ حذفت كلمة "أبي" واستقرَّت على هذا الاسم الأخير الذي عرفت به، وهو "صَفْطُ تُرَابٍ".

وقد ذكر صاحب القاموس أسماء سبع عشرة قرية بمصر اسمها سفت،^٣ وأضاف إليها الزبيدي شارحه في "تاج العروش": أسماء ستَّة أخرى. وكان من السبع عشرة: سفت القدور. قال الزبيدي: هي المعروفة بـ "سفت عبد الله بالغربيَّة"، وبها توفيَّ عبد الله بن جزء الزبيدي، وآخر من مات من الصحابة بمصر. وفي اللغة العربيَّة توجد كلمة "سفت" بالسين لا بالصاد وبالفاء المفتوحة ومعناها: السلَّة ونحوها ممَّا يوضع فيه الطيب وأدوات التَّسَاء كالجوالق أو كَالْقَفَّة. وتتميَّز قرية "سفت تراب" بأنَّها قرية عريقة قديمة. ومن دلائل عراقتها: وجود قبر الصحابي الجليل سيِّدنا عبد الله بن الحارث بن جزء بن عبد الله بن معد يكرب الرُّبَيْدِيِّ، أي الحارث نزيل مصر.

وكان من حظِّ قريتهم أن يستوطنها ويستقرَّ بها هذا الصحابي الشاب، عبد الله بن الحارث الزبيدي، وأن يظلَّ في هذه القرية ويتزوَّج بها وَيَنْجُبُ حتَّى وافاه أجله، ومات بها ودفن بها سنة ٨٦ هـ وقبره معروف بها.^٤

١ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريَّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٢

٢ المرجع السابق، ص ٢

٣ مرتضى، الرُّبَيْدِيِّ، محمَّد بن محمَّد بن عبد الرزَّاق الحسيني، أبو الفيض، (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، تاج العروش من جواهر القاموس، باب س ف ط، (دار الهداية)،

١٩٧٧م)، ج ١٩، ص ٤٣٨

٤ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، المرجع السابق، ص ٦

المبحث الثالث: التعريف العائلي من جانب أبيه وأمه

وهذا المبحث يتناول مطلبين، وبيانهما كالآتي:

المطلب الأول: التعريف العائلي من جانب أبيه

كانت أسرته (القرضاوية) أسرة صغيرة في عددها، حيث تتكوّن جميعها من ذرية رجل واحد هو جدّي الذي اشتهر باسم "الحاج عليّ القرضاوي". وقد كان من الحجاج القليلين في القرية.

قال الشيخ القرضاوي: وقد سمعتُ من عمّي أحمد يقول: يقال إنّ أصولنا من بلدة تسمّى "القرضة" ... ونسب إليها فيقال: الْقُرْضَاوِي - بفتح الراء. وليس كما ينطقه بعض إخواننا من أهل الشّام بسكون الراء "الْقُرْضَاوِي".^١ إن جذور القرضاوية ترجع إلى قرية "القرضة" ويقال: إن أصلهم من عائلة عون، وهي عائلة شريفة حسينية الأصل والنسب. فالله أعلم.

وعائلة "القرضاوي" عائلة منتشرة في قرى شتّى من مصر، بل وجد قرضاويين في بني غازي في ليبيا، ولا يدري الشيخ القرضاوي هل أصولهم مصريّة أو لا؟ وأشهر فروع القرضاوية في "سنهور المدينة" مركز دسوق في مصر.

المهمّ هنا أن أصل عائلة "القرضاوي" في صفت تراب هو جدّه عليّ أو الحاج عليّ، وقد كان له أخ اسمه محمّد، ولكنّه هاجر من البلدة، ويقال: إنّ استوطن مدينة "كفر الزيات" ولم يبق من نسله إلا امرأة كان اسمها فاطمة، حاول الشيخ القرضاوي أن يعرف عنها شيئاً فلم يهتد إليه، ويبدو أنّها لم تنجب.^٢

وكان لجدّه أختان تزوّجتا في القرية، إحداهما تزوّجت من آل البحيريّ، وكان من شيوخ البلد، ومن وجهاء الطبقة الوسطى، ومن نسله الحاجة فطومة البحيريّ أم آل يحيى: الحاج عبد القادر وعبد الوهّاب وغيرهما. والأخت الأخرى لجدّ "القرضاوي" تزوّجت الشيخ حسن العزوني، وكان له أبناء عدّة في حارته ومن جيراننا منهم: أحمد والششتاوي وعباس ومحمّد.

أمّا جدّه "عليّ" فقد تزوّج في أوّل من امرأة وأنجب منها ولداً سمّاه محمّداً، وهو بكره، ثمّ فارقها. وتزوّج جدّته عائشة عجيز، وأنجب منها سائر أولاده: وهم خمسة أبناء و ابنتان.^٣

وأما الابنتان - عمّتاها - فقد تزوّجتا أخوين من الطبقة الوسطى في البلد من آل النجّار: الشيخ سعد النجّار، وكان شيخاً للبلد، وقد توفّيت زوجته بعد أن أنجب منها ابنين. وشقيقه عبد الله النجار، وقد تزوّج عمّته "حضرة" التي رآها الشيخ القرضاوي وكانت تحبّه كثيراً. وقد أنجبت خمسة أبناء، وبنّتا واحدة. وأمّا الأبناء فكانوا على الترتيب: عبد العزيز ويوسف وأحمد وعبد الله وسعد، ومعنى هذا أنّ جدّه كان له ستّة أبناء ذكور، محمّد وهؤلاء الخمسة، مات ثلاثة منهم دون أن ينجبوا، منهم من لم يتزوّج مثل عمّي الأكبر محمّد، وعمّي الأصغر سعد، فقد ماتا شابين دون أن يتاح لهما الزواج.

وأما عمّه يوسف فقد تزوّج ولم يقدر له أن ينجب، ثمّ توفّي، وقد رأى زوجته جوهرة التي كانت تزور بيت "الشيخ" من حين آخر، وتحمل للأسرة مودّة عميقة.

١ الْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٧٥

٢ المرجع السابق، ص ٧٦

٣ المرجع السابق، ص ٧٧

وأما الذين أنجبوا فهم: عمّه عبد العزيز الذي محمّداً وكاملاً. وعمّه أحمد الذي أنجب عليّاً وإبراهيم وحضرة، وهو عمّي الوحيد الذي بقي بعد وفاة أبيه أي القرضاوي. وأبوه عبد الله الذي لم ينجب غيره. وهو كان نصف فلاح، ونصف تاجر.

كان عمّه عبد العزيز من حفّاظ القرآن، كأنه التحق قليلاً بالأزهر ولم يستمر، ولذا ظلّ في الأسرة شوق إلى أن يتمم أحد أبنائها ما بدأه عمّي عبد العزيز، وكان عمّ "الشيخ" "أحمد" يشتغل بالزراعة. وكان أحد ابن عمّته يوسف عبد الله النجار، الذي كان يدرس في المعهد الثانويّ بطنطا. وأحد ابن عمّه الحاج إبراهيم.

وكانت أسرته - برغم منزلتها الاجتماعية التي تتجلى في مصاهراتها وروابطها - لا تملك شيئاً من الأطيان، على خلاف كلّ من حولهم من أهل الحارة، الذين لكلّ منهم طينه وأرضه. كلّ ما كان للأسرة نحو نصف فدان ملك امرأة عمّه، وكانت الأسرة تعيش على الأرض المستأجرة تزرعونها وتأكل من ثمرها، وتدفع منها الإيجار.

وكان هذا يتطلب من الأسرة أن تكدح وتتعب وتعرق حتى تحمّق الكفاية ولو في حدّها الأدنى لأفرادها. فلا مجال في الأسرة للهو ولا عبث.

تزوَّج أبو القرضاوي من امرأة قبل أمّه ولم ينجب منها، ثمّ افترقا بالطلاق على ظنّ الشيخ القرضاوي. ثمّ تقدّم أبيه لأميّه لطلب الزواج منها بعد نحو سبع سنوات من إنجابها لطفلتها، وبعد أن أصبحت البنت قادرة على أن تستقل بنفسها، وتبقى مع جدّها وجدّها. وتمّ الزواج، وسرعان ما حملت أمّه به أي (الشيخ القرضاوي)، واتفق عند ولادته على تسميته بـ "يوسف" على اسم عمّه رحمه الله الذي مات ولم ينجب، وهو سمي عليّ اسم جدّه. فهو يوسف بن عبد الله بن علي بن يوسف.^١

المطلب الثاني: التعريف العائليّ من جانب أمّه

بعد افتراق الزواج الأوّل لأبي القرضاوي، تزوّج أمّه وكانت ثيباً، فقد تزوّجت ابن عمّتها، وهي صغيرة، وكان يعيش في القاهرة، ويحيا حياة غير ملتزمة، فقد كان يشرب الخمر، ثمّ يعود إليها سكراناً، ويهرف بما لا يعرف، ويهذي الكلام، قال "الشيخ" وأمّي فتاة ريفيّة غريبة عن هذا الجوّ. فتلقى زوجها مذعورة خائفة، وقد زارها جدّي لأميّ مرّة، وراها على تلك الحال، فطلّقها من زوجها - وهو ابن أخته - وعاد بها في الحال، وقد كانت حاملاً، فوضعت بنتاً سمّتها "روحية" وهي أختي لأميّ، تكبرني بنحو ثماني سنين. وقد زوّجت في بيت جدّي ثمّ خالي، حتى زوجت في مدينة زفتي من ابن عم لها، وأنجبت أبناء وبنات وتوفيت منذ سنوات رحمه الله.^٢

كان للقرضاوي أربع حالات، وإحدى خالته طاهرة. وكان زوجها أي خال القرضاوي يروي من قصص ونوادير وحكايات، تستفرغ منهم الضحك إلى حدّ القهقهة أحياناً في جلسة عائلة ممتعة.^٣ وكانت خالته الأخرى اسمها زينا.^٤ وكانت أخرى خالته معروفة عند أهل قريتها باسم "بدوية"، أما أهل طنطا فينادونها: أم عبده، على اسم خاله عبد الحميد. وأنا (الباحث) في التردد، هل هذه اسمها أم لقبها؟ وكان أحد اسم خاله الحاج محمّد الرياشي الحاروني، والآخر عبد الحميد، وكان خاله الكبرى "نور". وكان أحد ابن خالة عبد الحي الطنطاوي مرد. وهو كان يكبر القرضاوي بعدة سنوات.^٥ ولم أجد أكثر معلومات من هذا عن جانبه الأمّيّ.

١ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٧٩

٢ المرجع السابق، ص ٧٩

٣ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة* (المرجع السابق، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٤٦٤

٤ المرجع السابق، ٢٠٠٠م، ج ١، ص ٩٣

٥ المرجع السابق، ص ١١٥

المبحث الرابع: وفاة والده ووالدته رحمهما الله تعالى

وفيه مطلبان، وبيانهما كالآتي:

المطلب الأول: وفاة والده رحمه الله تعالى

في الثانية من عمره مرض والده، كان له مرضا من أمراض البول كما يحسبه الشيخ القرضاوي، ومن مضاعفات البلهارسيا، ونظرا لقصور الطبّ في تلك الأيام، وقلة ذات اليد، فقد كان الكثيرون يموتون بأمراض، أما نجد علاجها اليوم يسيرا.^١ ومن المحتمل أن قد تُؤيَّبُ أبوه بهذا المرض. لأن كلام الشيخ القرضاوي يشير إليه. ونقول ما علّمنا الله بالقرآن الكريم: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [١٥٦].^٢

ولأن ورد في الحديث عَنْ سَعْدِ بْنِ سَعِيدٍ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» وَقَالَتْ: فَلَمَّا تُؤيَّبُ أَبُو سَلَمَةَ، قُلْتُ: كَمَا أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْلَفَ اللَّهُ لِي خَيْرًا مِنْهُ، رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.^٣

١ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٧٩

٢ القرآن الكريم، البقرة (٢)، الآية [١٥٦].

٣ النيسابوري، مسلم، الصحيح لمسلم، [المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي]، باب ما يقال عند المصيبة، المرجع السابق، رقم الحديث: ٩١٨، ج ٢، ص ٦٣٢

المطلب الثاني: وفاة والدته رحمها الله تعالى

الحادثة البائسة والموجعة والواقعة المؤسفة والمؤلمة هي التي حدثت له في السنة الأولى من المرحلة الابتدائية هو مرض والدته ووفاتها، لقد أصيبت أمه بحمى شديدة ألزمتها الفراش في بيت جدّه أو بيت خاله، ويبدو أنّها أَحَسَّتْ أجَلها، فطلبت أن تراه.

في لسان القرضاوي: فأبلغت بذلك، وذهبت في نهاية إجازة الأسبوع إلى البلدة، ورأيتها وعانقتني طويلاً، وهي على فراشها، ودعت لي من أعماقها، وهي تَدْرِفُ دموعها، وكان لها دعوات تحفظها وتخصّي بها دائماً: رَبَّنَا يُحِبُّ فِيكَ الرَّبُّ فِي عَرْشِهِ، وَالْجَنْدِي فِي فَرْشِهِ، وَيَجْعَلُ فِي وَشِكِ (وجْهك) جَوْهَرَةً، وَفِي حَنْكِكِ (فمك) سَكْرَةً، وَ يُحِبُّ فِيكَ الْحَصَى فِي الْأَرْضِي، وَيَجْعَلُ لَكَ فِي كُلِّ سَكَّةٍ سَلَامَةً.

وفي الواقع كلّما لاحظت حب الناس لي، وقولهم في كلّ مكان: نَحْبُكَ فِي اللَّهِ! أقول: هذا من بركات دعاء أمّي. حَقًّا وَصِدْقًا- يا ذا اللَهْف! مَنْ فَقَدَ أُمَّهُ، الَّتِي لَا تُقَدَّرُهَا بِأَيِّ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ، وَالَّتِي لَا نَظِيرَةَ وَلَا مِثْلَةَ لَهَا، هُوَ الْفَرْدُ الَّذِي يَشْعُرُ، كَمْ قِيَمَةً بِهَذِهِ الْفَرِيدَةِ النَّادِرَةِ وَالثَّرْوَةِ النَّفِيسَةِ الْجَوْهَرَةِ؟

وَدَعَتِ أُمَّيَ وَرَجَعْتُ إِلَى طَنْطَا، عَلَى أَنْ أَعُودَ إِلَيْهَا فِي نَهَايَةِ الْأَسْبُوعِ الْقَادِمِ، وَلَكِنْ لَمْ يَشَأْ الْقَدْرُ أَنْ تَسْتَكْمَلَ الْأَسْبُوعَ، فَقَدْ كَانَ لِقَائِي مَعَهَا هُوَ اللَّقَاءُ الْأَخِيرَ، وَفِي ضَحَى يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ، وَأَنَا فِي جَرَسِ النَّحْوِ جَاءَ مِنْ يَدْعُونِي إِلَى مَكْتَبِ مَرَاقِبِ الْمَعْهَدِ، لِأَنَّ أَحَدًا مِنَ الْأَقْرَابِ جَاءَ مِنَ الْبَلَدِ، لِيخْبِرَنِي أَنَّ أُمَّيَ قَدْ تُوفِّيَتْ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ، - إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ - وَاسْتَأْذَنْتُ مِنْ مَدْرَسِ النَّحْوِ السَّيِّخِ مُحَمَّدِ شَعْتِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - الَّذِي كَانَ يُحِبُّنِي جَدًّا، وَكَثِيرًا مَا كَانَ يناديني: يَا عِلْمَةَ! لِمَا رَأَى هَضْمِي الْعِلْمِ النَّحْوِ وَتَذَوَّقِي لَهُ. وَقَدْ وَدَّعَنِي الشَّيْخُ وَهُوَ يَبْكِي، وَيَقُولُ: لَا بَدَّ أَنْ تَعُودَ. قُلْتُ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

ووجد القرضاوي إبراهيم ابن عمّه ينتظره بباب المعهد، وركبا وذهبا إلى القرية، وأدركا الناس قد صلّوا الجنازة على أمّه رحمها الله في مسجد سيدي عبد الله بن حارث، وتوجّهوا بجنائزها إلى المقبرة، وهي قريبة من المسجد، فأدركها قبل أن تدفن.

كانت وفاة أمّه صَدْمَةً كَبِيرَةً لَهُ، فَقَدْ حَزَمَ الْقُرْضَاوِي مِنْ أَبِيهِ وَهُوَ فِي الثَّانِيَةِ مِنْ عُمْرِهِ، فَوَجَدَ فِي حَنَانِ أُمَّهِ وَحَبِّهَا وَحَرَارَةِ عَاطِفَتِهَا مَا عَوَّضَهُ بَعْضَ الشَّيْءِ عَنْ أَبِيهِ، وَإِنْ كَانَتِ الْأُمُّ لَا تَمَلَأُ مَكَانَ الْأَبِ بِحَالٍ.

اليوم فقد أمّه بعد أبيه، وعلى أن يواجه الحياة بنعمائها وبأسائها بوردها وشوكها، وقد عَوَّضَهُ اللَّهُ عَنْ حَنَانِ أُمَّهِ بِحَنَانِ جَدَّتِهِ - أُمِّ أُمَّيَ - وَخَالَاتِهِ الْأَرْبَعِ، فَكُنَّ لِلْقُرْضَاوِي أُمَّهَاتٍ بَعْدَ أُمَّهِ. وَلَا سِيَّمَا خَالَاتِهِ (أُمُّ عَبْدِ) الَّتِي تَعِيشُ فِي طَنْطَا وَتَرَعَى شُؤْنَهُ.^١

حَقًّا وَصِدْقًا- يا ذا اللَهْف! مَنْ فَقَدَ أُمَّهُ، الَّتِي لَا تُقَدَّرُهَا بِأَيِّ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ، وَالَّتِي لَا نَظِيرَ وَلَا مِثْلَ لَهَا، هُوَ الْفَرْدُ الَّذِي يَشْعُرُهَا كَمْ مِنَ الْبَائِسَاتِ وَالْمَوْجِعَاتِ وَالْوَاقِعَاتِ الْمُؤَسِّسَاتِ وَالْمُؤَلَّمَاتِ الْهَائِلَةِ! وَكَمْ قِيَمَةً بِهَذِهِ الثَّرْوَةِ النَّفِيسَةِ الْجَوْهَرَةِ!

علينا أن ندعو لهم دائماً في حياتنا بلسان الرحمن الرحيم قائلاً كما علّمنا بالقرآن الكريم: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي

صَغِيرًا [٢٤]﴾.^٢

١ أَلْقُرْضَاوِي، يَوْسُفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ١٣١

٢ القرآن الكريم، الإسراء (١٧)، الآية [٢٤].

المبحث الخامس: حياته الأزواجية

يحتوي هذا المبحث على خمسة مطالب، وتفصيلها فيما يلي:

المطلب الأول: رحلة بحث القرضاوي عن بنت الحلال لِلزَّوْجِ

من الطبيعيّ لشابّ أزهريّ: أن يفكر في الزَّوْجِ، ويبحث عنه، وقد أمَّ القرضاوي الثلاثين من عُمرِهِ. وقد حثَّ القرآن والسنة على الزَّوْجِ، وجعله من سُنَنِ المرسلين، حيث قال الله تعالى في كلامه القديم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ [٣٨]﴾.^١

واعتبر رسول الإسلام الزواج من سنته قائلا: "النكاح سنتي، فمن رغب عن سنتي فليس مني". عن حميد بن أبي حميد الطويل، أنه سمع أنس بن مالك رضي الله عنه، يقول: "أنه سمع أنس بن مالك رضي الله عنه، فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأزفد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»».^٢

ولم يشرع الإسلام الرهبانية، بل رغب عثمان بن مظعون في "التبتل" والانقطاع للعبادة، فردّه عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم. وصحيح أن هناك بعض العلماء الكبار شغلهم العلم أو الهموم الأمة عن الزواج، فعاشوا وماتوا عزابًا مثل: الإمام النووي، والإمام ابن تيمية، وقد صنّف صديق القرضاوي الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله: كتابًا من العلماء العزّاب: ولكنهم يمثلون الشذوذ الذي يثبت القاعدة.

وقد كان القرضاوي يرجو قديمًا أن يتزوج بعد خزيجه بسنة واحدة، ولكن الاعتقالات لاحقته، فلم تمكنه من تحقيق هذه الأمنية.^٣ وقد قال شوقي حديثًا: قدّرت أشياء، وقد رغيرها قدرٌ يحطّ مصاير الإنسان! وقال غيره قديمًا: ما كلّ ما يتمّ المرء يدركه تأتي الرياح بما لا تشتهي

كان الجانب الماليّ يمثل أولى العقبات في سبيل الزواج، فلم تكن لدى القرضاوي الوظيفة المستقرّة بعد خروجه من المعتقل، كما لم يكن لديه ما يدفعه مهرًا وشبكة ويعدّ به بيتًا صالحًا لحياة زوجية مناسبة. فلما هيأ الله له التعيين في وزارة الأوقاف، أمست له وظيفة معقولة، كما هيأ الله له ظرُوفًا جمع فيها ما يقرب من مائتي جنيه، وهذا مبلغ طيب يشجعه على التقدّم إلى أسرة ملائمة ليخطب منها. وجدير بالذكر أن مصادر فُطُوفِ هذا المال، لقد جاءه من ابتعائه سنتين خلال شهر رمضان إلى مدينة العريش عاصمة سيناء من قبل وزارة الأوقاف، وكانت تعطيه في كلّ مرّة حواليّ سبعين جنيهًا.

كما كلّفته الوزارة أو مراقبة الشؤون الدينية فيها - هو أحمد العسال - بإشراف على طباعة تفسير لعالم هنديّ كبير "ثناء الله الأمر تستري"، ويتضمّن تفسير القرآن بالقرآن، وهو تفسير على هامش المصحف، وقاموا بالمهمّة، ومنح كلّ منهم مكافأة، على الإمكان كانت سبعين جنيهًا. هذه "السبعينات" الثلاثة من الجنيهات المصريّة، كانت هي رأس المال الذي ادّخره للزواج.

١ القرآن الكريم، الرعد (١٣)، الآية [٣٨].

٢ البخاري، الجامع الصحيح للبخاري، باب الترغيب في النكاح، المرجع السابق، رقم الحديث: ٥٠٦٣، ج ٧، ص ٢. ومسلم، الصحيح لمسلم، [الخفق: محمد فؤاد عبد الباقي]، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه. المرجع السابق، رقم الحديث: ١٤٠١، ج ٢، ص ١٠٢٠، عن أنس رضي الله عنه.

٣ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٢٩٢

فالمرء بفطرته يَتَطَلَّعُ إلى الجنس الآخر، فكلا الجنسين لا يستغني أحدهما عن الآخر، لا يستغني الرجل عن المرأة، ولا المرأة عن الرجل، فهم يكملها، وهي تكمله، كما قال تعالى: ﴿مِنْكُمْ مَنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ [١٩٥]﴾. ١ أي الرجل من المرأة، والمرأة من الرجل. ولما خلق الله آدم أبا بشر، وأسكنه الجنة، ولم يدع وحده، إذ لا معنى لجنّة يعيش الإنسان فيها وحيدا مستوحشا؛ لهذا خلق الله له من نفسه - أي من جنسه - زوجا ليسكن إليها، وقال له: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ [٣٥]﴾. ٢

فالإنسان إذن يحتاج إلى سَكَنَيْنِ: سكن مادية: يسكن فيه، وسكن معنوي: يسكن إليه. والمرأة للرجل هي السكن المعنوي النفسي الذي يحتاج إليه، ليجد الأُنس والرَّوْحَ إلى جانبه، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ [٢١]﴾. ٣

ومن هنا كان دعاء الرحمن الذين أتى الله تعالى عليهم: أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَدُرِّجَاتِنَا فِرَّةً أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا [٧٤]﴾. ٤ وبهذا يكون الزواج مُكْمِلًا لدنيا الرجل، وَجُمْلًا لحياته، وَمُصَدِّرًا من مصادر سعادته، كما في الحديث الصحيح: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِهَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ». ٥ وكما في الحديث الآخر: سعد ابن أبي وقاص، عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَزْوَاجُ مَنْ السَّعَادَةُ: الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ، وَالْمَسْكُونُ الْوَاسِعُ، وَالْجَارُ الصَّالِحُ، وَالْمَرْكَبُ الْهَيِّئُ». ٦

كما أن الزواج مُكْمِلٌ لدين الرجل أيضًا، حتى بين جماهير المسلمين أن الزواج نصف الدين، وهو مقتبس من الحديث النبوي: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ امْرَأَةً صَالِحَةً فَقَدْ أَعَانَهُ عَلَى شَطْرِ دِينِهِ، فَلْيَتَّقِ اللَّهَ فِي الشَّطْرِ الْبَاقِي». ٧

وبهذا يتبين أن مجرد الزواج ليس هو شطر الدين أو نصفه، بل الزواج من المرأة الصالحة، التي تعينه على أمر دينه، فتذكره إذا نسي بأمر ربه، وتنبهه إذا غفل عن واجبه، وتقويه إذا ضعف عن القيام بأعباء دعوته.

وَرُبَّ زَوْجٍ مِنْ امْرَأَةٍ قَلِيلَةَ الدِّينِ تَكُونُ سَبَبَ ضِيَاعِ صَاحِبِهِ. وقد كان الإخوان إذا سئلوا عن الأخ إذا تزوج من امرأة، فتقاعس عن الدعوة وتكاليفها، قالوا: رحمه الله، انتقل إلى جوار زوجته!

١ القرآن الكريم، آل عمران (٣)، الآية [١٩٥].

٢ القرآن الكريم، البقرة (٢)، الآية [٣٥].

٣ القرآن الكريم، الروم (٣٠)، الآية [٢١].

٤ القرآن الكريم، الفرقان (٢٥)، الآية [٧٤].

٥ الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران، (المتوفى: ٤٣٠هـ)، **المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم**، باب: بَابُ فَضْلِ الْمَرْأَةِ الصَّالِحَةِ، (بيروت - دار الكتب العلمية الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م)، رقم الحديث: ٣٤٤٢، ج ٤، ص ١٤١، زَوَاةُ مُسْلِمٍ عَنْ ابْنِ مُجَرِّدٍ عَنْ الْمُفَرِّجِيِّ. والطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، (المتوفى: ٣٦٠هـ)، (القاهرة - مكتبة ابن تيمية)، رقم الحديث: ٤٩، ج ١٣، ص ٢٦

٦ الدارمي، البستي، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبّد، التميمي، أبو حاتم، (المتوفى: ٣٥٤هـ)، **الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان**، باب ذكر الإخبار عن الأشياء التي هي من سعادة، (بيروت - مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م)، رقم الحديث: ٤٠٣٢، ج ٩، ص ٣٤٠

٧ البيهقي، **شعب الإيمان**، فصل في الترغيب لما فيه من العون، (مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م)، رقم الحديث: ٥١٠١، ج ٧، ص ٣٤١. رواه الحاكم، برقم - (١٧٥ / ٢)، والطبراني في "الأوسط" برقم - ٩٧٦، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

وذات الدين هي المرأة الصالحة، وهي إحدى التَّعَمُّ التي من أوتيتها فقد أوتي خير الدنيا والآخرة، مثل اللسان الذاكر، والقلب الشاكر، وهي من خير ما يكتزهُ المرءُ لدنياه وآخِرته، وهي التي إذا نظر إليها سرته، وإذا أقسم عليها أبرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته في نفسها وماله، كما قال تعالى: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [٧٤].^١

لقد حاول خال القرضاوي رحمه الله - وهو طالب بكليَّة أصول الدين - أن يزوجه من إحدى قَرِيْبِهِمْ من قرية شبشر الحصة بالقرب من قريتهم، وكان لا ينقصها الجمال ولا الدين ولا الخلق، ولا الحسب ولا المال، كان ينقصها شرط، وينقصه هو (القرضاوي) شرط، أما شرطها، فهي أنها لم تتعلَّم أكثر من الابتدائية، وهذا القدر من التعلُّم لا يكفي. وأما الشرط الذي ينقصه هو، فهو أنه لم يزل طالبًا، ومعنى زواجه منها: أن تنفق عليه من مالها، وقد كان أهلها مُرَحِّبِينَ غاية الترحيب بذلك، ولكن كرامته لم تسمح له أن يكون القرضاوي عائلة على مال امرأته.

المطلب الثاني: شروط فيمن يريد لها زوجة

بدأ إخوان القرضاوي وأصدقائه مَنْ حَوَّلَهُ يسألونه عن شروطه في الفتاة التي ينشدها زوجة له. فقال القرضاوي لهم: إن لديه أربعة شروط ليس مستعدًّا لِأَنْ يتنازلَ عن واحد منها:

الأول: أن تكون من أسرة طَيِّبَةٍ، ذات مَعَدِنٍ أَصِيْلٍ، وأن يظهر ذلك في دينها وسلوكها، فلا يريد "خضراء الدَّمَنِ" وهي المرأة الحسنى في المُنْبِتِ السوء. فلا بد أن تكون محافظة على الصلاة، فهذا أمر أساس. وقالوا: هل تشترط أن تكون مُحَجَّبةً؟ فقال القرضاوي: يستحسن هذا ولا يشترطه، لِئَدْرَةَ المحجَّبات في ذلك الوقت، ولكن لا تكون مُتَبَرِّجةً.

والثاني: ألا يقلَّ تعليمها عن الشهادة الثانوية، ولو كانت جامعيَّة، فهو أفضل، حتى تستطيع أن تتفاهم معه، ويتفاهم معها، وأن تساعد أولادها في المستقبل.

والثالث: أن تكون على قدر من الجمال يرضيه (القرضاوي) فخير النساء من تسرَّ إذا نظر، وتطبع إذا أمر، والجمال أمر نِسِيٌّ، فما يُعْجِبُهُ قد لا يُعْجِبُ غيره، وما يُعْجِبُ الآخرين قد لا يُعْجِبُه. والناس في ذلك جد متفاوتين. المهم أن يراها فتدخل قلبه. والناس يقولون: الحبُّ مستغنٍ عن الجمال. يعنون: أن الرجل قد ينظر إلى امرأة فتستهويه وتملك عليه قلبه من أول نظرة، وهي في عينه ملكة جمال، والآخرون ربَّما لا يرون فيها شيئًا من الجمال.

والرابع: شرط غريب في نَظَرِ الكثيرين، وهو: أن يكون لها إخوة أشقاء من الذكور خاصَّة، وسِرَّ ذلك: أن القرضاوي وحيد أبيه، فليس له إخوة، ومعنى هذا: أن أولاده لن يكون لهم أعمام، فينبغي أن يكون لهم أحوال.

هذه شروطه الأربعة، التي أعلنها وأشاعها بين الأصدقاء، وعلى أساسها يجب أن يكون بحثهم معه عن النصف الآخر، وقد طَفِقُوا يبحثون، وطَفِقَ هو يبحث أيضًا.^٢

١ القرآن الكريم، النساء (٤)، الآية [٣٤].

٢ القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٢٩٧

المطلب الثالث: محاولات عدّة لم يكتب لها التوفيق

وفي أثناء بحثه عتَرَ على فتاة رأها ضالته التي يَنْشُدُهَا، كانت تدرس معه في معهد الدراسات العربيّة العالية، وفي قسم اللغة والأدب الذي يدرس فيه، وهي على قدر ملائم من الجمال يرضي تطلعه، وهي خريجة قسم اللغة الإنجليزيّة من كليّة الأدب، ويمكن أن تساعد في تعلّم اللغة الإنجليزيّة، وهي محبّبة على غاية من الأدب والحياء وحسن السلوك، وهي تَصُعُرُ من القرضاوي بنحو خمس أو ست سنوات، وسأل عنها، فعرف القرضاوي أنّها غير متزوّجة، ثمّ عرف أنّها شقيقة أحد الإخوة الأفاضل، كان زميلاً له في معهد طنطا، وإن كان بعده بسنتين، وكان من طلاب الإخوان، فاستبشر القرضاوي بذلك، فهو يعرفه جيّداً والقرضاوي يعرفه، وبالفعل كتب القرضاوي إليه يطلب ال التقدّم لِحِطْبَةِ شقيقته إذا لم يكن هناك مانع. وسرعان ما جاء عند القرضاوي جوابه يحمل كثيراً من الشاء عليه، والترحيب به، وهو نِعْمَ الزوج، ونِعْمَ الصهر... لولا أن شقيقته مخطوبة لابن خالها من الصغر.

وبدأ الأصدقاء يُرَشِّحُونَ له أسماء لفتيات من مدن وبلاد شتّى، فأحياناً يرفض العرّض، لنقص شرط من الشروط التي وضعها القرضاوي.

من ذلك أن أحد إخوانهم الوُعَاظ، وكان معهم في مدينة العريش في شهر رمضان في سَفَرٍ، كان هو مبعوثاً من الأزهر، وكان القرضاوي هو مبعوثاً من وزارة الأوقاف، وقد رَشِّح له فتاة من قرينته قريباً من دمياط، وهي وحيدة أبويها، وترث من أبيها ستين فدّاناً، وهي ثروة تغري الكثيرين، ولكنّه عرض عنها لسببين: السبب الأول: أنّها وحيدة أبويها، وهو يشترط أن يكون لزوجته أشقاء. السبب الثاني: أنه عرف أنّها كانت مخطوبة لضابطٍ بالجيش استشهد في مقاومة العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦م، فخشى القرضاوي أن تكون معلقة القلب به، وهذا قد يسبب مشكلة نفسية في المستقبل.

وكذلك رَشِّح له بعض إخوانه في المحلّة ابنة شقيق أخ معروف منهم، وهو من أعز أصدقاء القرضاوي، وهي في السنة النهائيّة بقسم اللغة العربيّة بكليّة الآداب، وتوشك نتيجتها أن تظهر، وأنّها على قدر طيّب من الجمال. وفعلاً اتّصل القرضاوي بعمّ الفتاة، وأفضى إليه برغبته وطلبه، فاتّصل بأخيه وأسرته وحددوا للقرضاوي موعداً ليرى الفتاة وتراه، فإذا تمّت موافقة كلّ منهم على الآخر، شرعوا في الخطوات التالية.^١

وسافر القرضاوي إلى المحلّة في اليوم الموعود، ووَجَدَ القوم ينتظرونه، وقد أعدّوا ما يشبه أن يكون حفلاً صغيراً، ورأى القرضاوي الفتاة، والحمد لله قد أعجبتّه وَحَدَّثَتْهَا وَحَدَّثَتْهُ، وتجاوبهم معاً، واتفقوا على أن يلتقوا لقاءً آخر بعد ظهور نتيجتها. وعاد القرضاوي إلى القاهرة، وهو قرير العين، سعيد الأحلام، لا تسعه الدنيا من الفرحه، صحيح أنّها ليست محبّبة، ولكنها محتشمة، ولا تمنع أن تتحبّب في المستقبل كما يبدو له. وبقي القرضاوي أيّاماً على هذه الحالة من السرور والاستبشار، حتّى جاء عنده من يخبره بأن الجماعة في المحلّة يعتذون عن عدم إتمام المشوار الذي بدأوه لظروف طارئة، لم يفصحوا عنها، والقرضاوي لا يدري حتى الآن ما هي؟ وقال: الزواج قسمة ونصيب.

وكذلك رَشِّح له بعض أبناء قرينته ابنة أحد رجال القرية من موظفي شركة الغزل بالمحلّة، وممن يقيمون بالمحلّة منذ زمن، ودعا القرضاوي والد الفتاة ليرأها في منزله، وألقى نظرة عليها، ولكنها للأسف لم تنل إعجابه، ولم يفتح لها قلبه، وماذا يصنع في هذا القلب؟ إنه لا يملك أن يفتحها أو يغلقه، فإن الذي يفتحها ويغلقه هو الله.

١ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٢٩٩ - ٣٠٠

ولقد تألم القرضاوي من نفسه أشدّ الألم، واستبدّ به شعور يَكُونِيهِ كَيْبًا، كَلْدَعِ الْجُمْرِ، حيث لم تقع الفتاة موقعها منه. وقال القرضاوي: لا حول ولا قوّة إلا بالله، كيف أسمح لنفسني أؤذي مشاعر بنات الناس واحدة تلو الأخرى؟ وكأني وحيد دهري، وفريد عصري! ولماذا لا يكون العيب فيّ أنا، وليس في هؤلاء الفتيات؟ وربما كنت معجبًا بنفسي أو مغرورًا أكثر من اللازم، وَالْعُجْبُ وَالْعُرُورُ من "المهلكات"، كما سمّاها الإمام الغزالي في "الإحياء"، أحدًا مما جاء في الحديث الشريف.

على كلّ حال، قد آليت على نفسي أن لا أرى الفتاة التي أريد حِطْبَتَهَا بهذه الطريقة الرسميّة أبدًا، وإنما أفعل ما كان يفعله سيّدنا جابر بن عبد الله عندما أراد أن يتزوَّج، فقد قال: كنت أنجِبًا لها تحت شجرة، حتّى رأيت منها ما دعاني إلى زوجها.

المطلب الرابع: أخيرًا وفقه الله

وبعد هذا المشوار الشاقّ الحافل بالمحاولات الفاشلة: جاء الفَرْجُ والتيسير من الله، الذي قضت سنّته أن يجعل بعد العسر يسرا، وبعد الليل فجرًا.

لقد رَشَّحَ له عدد من أصدقائه بمحلّة أبو علي وسمنود: فتاة من عائلة طيّبة الأصول، كريمة المَعْدِنِ، والدها يعمل نَاطِرًا بإحدى المدارس، في مركز سمنود، وخالها طبيب كبير مشهور، ولها ثلاثة أشقّاء، أكبرهم خريج كليّة الحقوق، وهو يقضي الآن مدّة التحنيد الإجباري، وقالوا له: نظنّك تعرفه، فقد كان معتقلاً معك في السجن الحربيّ، وهو الأخ سامي عبد الجواد الحرم، وقد حصلت على الشهادة الثانويّة، ولم تسمح ظروفها العائلة بالسفر إلى القاهرة للدراسة بالجامعة، وهي الآن في العشرين أو فوق العشرين بقليل، وهي على قدر طيّب من الجمال باعتراف الجميع. كما أنّها على قدر أطيب من حسن السيرة والخلق يشهد به كلّ من خالطهم.^١

قال القرضاوي للإخوة: أما الأخ سامي عبد الجواد، فأنا أعرفه جيّدًا، وهو مفتاح جيّد لهذا الباب. وحمد في نفسه قائلاً: الحمد لله، هذه والله مناسبة من جميع الوجوه، وفيها توافرت الشروط الأربعة التي وضعها لمن يختارها، وهي العائلة، والجمال، والثقافة، والأشقّاء، لعل الله ثناؤه يكون قد كتبها له. ولكن بقي شيء مهمّ، وهو: أن يراها، فرأى الناس فيها لا يكفيه، وفي قضية الجمال تختلف أذواق الناس اختلافًا كثيرًا. وقد شرع لنا الإسلام أن يرى الرجل من يخطبها، كما يشرع ذلك للمرأة أيضًا. كما روي عن المغيرة بن شعبه، قال: خَطَبْتُ امرأةً، (فأخبر بذلك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلْ نَظَرْتَ إِلَيْهَا؟» قُلْتُ: لَا، قَالَ: «فَانظُرْ إِلَيْهَا، فَإِنَّهُ أُخْرَى أَنْ يُؤَدَمَ بَيْنَكُمَا».^٢

وقال الإخوة الكرام الوسطاء: محمّد بدر عبد الباسط، وعليّ خلف من سمنود، ومصباح عبده، ورمزي الدمهوري من محلّة أبو عليّ: نرتّب له (للقرضاوي) لقاءً، يراها وتراه. قال القرضاوي لهم: حلفت أن لا أفعل ذلك، لما سببته من أذى نفسي لبنات الناس. ولكن يجب أن تساعدوني في رؤيتها بدون علمها. وهذا جائز شرعًا، ما دام القصد هو الارتباط الحلال وفق شرع الله. وفعلاً رتّبوا ترتيبًا حسنًا، فقد كانت الفتاة المرشحة صديقة صدوقة لشقيقة الأخ محمّد بدر عبد الباسط، وكانتا زميلتين في الدراسة، بينهما تزاور وتلاق مستمرّ، وكانت الخطّة: أن تذهب شقيقة الأخ محمّد للعروس، وتصحبها من بيتها لزيارة أخرى،

والقرضاوي ينتظر في مكان معيّن مناسب في الطريق، ومعه بعض هؤلاء الإخوة، ليُعرِّفُون القرضاوي: مَنْ هي منهما؟ وقد تحقّق ما اتّفقوا عليه، ومَرّت الفتاتان في المكان المعهود عند مكان اسمه: "سيدي محمّد"، وقيل للقرضاوي: إنّها تلك صاحبة الفستان الأصفر،

١ القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٣٠٢

٢ أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواسطي العبسي (المتوفى: ٢٣٥هـ)، الكتاب المصنّف في الأحاديث والآثار، باب مَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَزَوَّجَ الْمَرْأَةَ مَنْ قَالَ: لَا بَأْسَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا، (الرياض - مكتبة الرشد، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩)، رقم الحديث: ١٧٣٨٨، ج ٤، ص ٢١

فقال القرضاوي: الله أكبر. هذه هي العروس التي كانت أبحث عنها. لقد انفتح لها قلبي من أول نظرة. والعين رسول القلب، وسألت الله أن ييسر الأسباب لإتمام الأمر على ما يجب ويرضى.^١

وهنا قال الإخوة الأصدقاء الوسطاء: بقي عليك الآن أن تتحرّك، وتبدأ الخطوة الأولى. وهي الاتصال بشقيقها الأستاذ سامي، الذي عرف القرضاوي في السجن الحربي، وهو يعرف القرضاوي من قدم كما نعرفك، وازداد معرفة بك داخل السجن الحربي قطعاً، وهو يقضي فترة التجنيد في القاهرة، ويخرج كل يوم خميس ليقضي إجازته عند خالته في حلوان، وتستطيع أن تقابله هناك. وأعطون القرضاوي العنوان، وأوصوه بسرعة التحرك.

ولقد عرف القرضاوي الأخ سامي في السجن، واستراح إليه، لما لَمَسَ فيه من ذكاء وإخلاص ونشاط وبشاشة وجه، وحسن خلق، وحضور شخصيّة، ولم يكن يَحْسَب أن القدر سيربط بينهم بِمُصَاهَرَةٍ أَبَدِيَّةٍ، وأنه سيصبح الخال الأكبر لأولاده. ولذا حين عاد إلى القاهرة بدأ القرضاوي يتهيأ للقاء الأخ سامي في أول مساء خميس يأتي. وذهب إلى حلوان لبحث عن العنوان الذي أعطاه له الإخوة، ولم يكن للقرضاوي معرفة ولا خبيرة بحلوان، لهذا ضلَّ الطريق. وأخطأ العنوان في أول مرّة، وكلفه هذا مشياً طويلاً على قدمي، وبخاصّة أنهم في الليل، ولكنه لم يحسّ بطول المشوار، وهو مشوار مُحَبَّبٌ إلى نفسه، ولا بأس على المرء أن يجهد ويتعب في تحقيق أماله، حتى يعرف قيمتها إذا تحققت.

ووصل القرضاوي إلى منزل الخالة نجية خالة سامي وخالة العروس، ودقَّ الباب، فخرج الأخ سامي، وفوجئ به، فقال: أهلاً وسهلاً، وتعانقا، وجلسا في حجرة الضيوف التي يسمونها: "الصالون". ورحّب به الأخ سامي الذي لم يراه منذ أيام الحربي، ولم يكن يتوقّع هذه الزيارة التي لا يدري سببها، وقد كان يعرف القرضاوي شيخاً مُعَمَّمًا، فما هو يراه يراه قد غيرَ زِيَّه القديم، ليرتدي الحُلَّةَ الإفريقيّة "الْبَدْلَةَ".

وبادر هو (القرضاوي) بالحديث ليقطع دهشة المفاجأة، وقال: هل تعرف يوسف القرضاوي؟ قال كيف لا أعرفه؟! أحنونا الكبير وأستاذنا. وقال القرضاوي: وهل تعرف إسماعيل الجواد؟ قال: كيف لا أعرفها وهي أختي وشقيقتي؟ قال القرضاوي: بلا مقدمات وتطويل، لقد جاء ليخطبها؟ فما قولك؟ وهو (القرضاوي) الآن موظّف في وزارة الأوقاف، ومستقرّ والحمد لله. قال: مبدئياً هذا يسعدني ولكنك فاجأني، ولا بدّ من تمهيد الأمر عند العائلة، وخصوصاً الوالد، فأعطني فرصة حتى أردّ عليك... ثمّ دخل عند خالته ليحضر لهم الشاي، ولكن انتهز الفرصة وكلمها فيما جاء (القرضاوي) من أجله. فقالت له: أتح لي فرصة لأراه و"الأخطبه" نيابةً عن إسماعيل أختي، فقال لها: يُمكنك أن تريه من نافذة الحجرة إذا خرجت إلى الشارع. وقد علمت أنها رحمها الله بخرجت إلى الشارع ونظرت وَحَدَّقَتْ وَقَدَّمت تقريراً كان في صالحه (القرضاوي).^٢

سرّته هذه المقابلة الأولى، واستأذن القرضاوي في الانصراف، منتظراً الردّ من الأخ سامي، بعد أن يكتب إلى والده، ويشاور العائلة. وكان سامي في صفّه (القرضاوي)، واجتهد أن يقنع والده بقبوله خاطباً لابنته الوحيدة، وأن يضيف عليه من الصفات و"المقبّلات" ما يروج عند والده رحمه الله.

ولم يكن لدى والده أيّ اعتراض عليه إلا من جهة واحدة، وهي: أنه (القرضاوي) من الإخوان، ومن دعائم الناشطين، وأن أيّ محنة تأتي سيكون في طبيعة المعتقلين، وقد جرّب ذلك في سامي. قال لزوجه أم سامي: يعني في أيّ بلوى تصيب الإخوان، سيكون

١ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٣٠٣

٢ المرجع السابق، ص ٣٠٤ - ٣٠٥

ابنك وزوج ابنتك كلاهما في المعتقل! ولكن كانت الحاجة أم سامي مع القرضاوي أي بجانبه، فقالت له: لماذا نفترض البلاء قبل وقوعه؟ وهل نعرف نحن ما يجنبه المستقبل؟ كل الناس يمدحون هذا الرجل، فلماذا نحسره؟ لنُدع أمر المستقبل لله.

وكان ممن سألوه عن القرضاوي: الأستاذ مصطفى الحسني ابن عمّة سامي، والعروس، وهو يعمل في مهنة الصيّفة. وكان طالبًا قبل ذلك في معهد طنطا، وقد عاصر القرضاوي فيه، فلمّا سألوه عن القرضاوي أوسع مدحًا وثناءً، بما يعرفه عنه، وأطراه في العلم والخلق والسلوك وحسن السُّمعة. ثمّ نقله مصطفى الحسني إلى خاله الأستاذ عبد الجواد، فزادهم ثقةً واطمئنانًا.

وأرسلت الحالة نجية من حلوان إلى أختها أم سامي تقول لها: إنها رأته أي القرضاوي، وإنها تنوب عنها وعن إسعاد ابنتها، وتحتب أن تطمئنهما إلى صورة "العريس" وشكله وطُوله وعرضه. وكانت حصيلة هذا كَلِّه: الموافقة من العائلة على القرضاوي، وأبلغه الأخ سامي بذلك، على أن نلتقي لتحدّث في التفاصيل والإجراءات. وفي قول القرضاوي: والتقينا في أقرب خميس في حلوان في منزل الحالة نجية، التي تعرفت عليها وعلى زوجها الأستاذ عبد المنعم جابر، وقالت لي: إنها ساهمت في إنجاز الأمر بما قدّمته من تقرير عني للعروس ولأمها، فهما رأياني بعينيهما.^١

وهذا المطلب يتضمّن أربع مسائل. وحديثها كما يأتي:

المسألة الأولى: الرحلة إلى سمند ثم المنصورة لشراء الشُّبْكَ

واتفقت مع الأستاذ سامي على المهر والشُّبْكَ وعلى موعد عقد القران. في أواخر شهر يوليو ذهب القرضاوي إلى منزل والد العروس في سمند لأول مرّة، ومعه: السُّكَّر والشَّرْبَات وعُلب الحلوى التي توزّع على المدعوين ونحو ذلك. وعندما وصل إلى المنزل قال لهم: والعروس حاضر، وقد رأوه لأول مرّة: أمّا هو فقد رأى العروس من قبل رؤية خاطفة، ولكنها كافية، وهي لم تراه إلا الآن، ومن حقّها ألا تتم الصَّفقة إذا لم تُعجبها البضاعة عند المُعَايَنَة، والقاعدة الشرعية: "أن من اشترى ما لم يره، فله الحَيَاؤُ إذا رآه." وَ حَجَكُوا، وقالوا: يبدو أن العروس دمه خفيف، وقالوا: كيف نرجع في كلامنا بعد أن أُخْضِتِ الشَّرْبَات ولوازم الفرح؟ قال القرضاوي: ولكننا لا زلنا على البِرِّ.^٢

وبات القرضاوي عندهم الليلة، وجلس مع العروس في حضور أهلها، وتعرّف عليها، وتعرّف عليه، واستراح كلاهما إلى الآخر. أو "دخل قلبه." وفي الحديث الصحيح: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «الْأَزْوَاجُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا اثْتَلَفَ، وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ».^٣ ويبدو أن روحيهما قد تعارفتا فألتفتا، وهذا من فضل الله.

المسألة الثانية: رأي فيم يسمّى: "الشُّبْكَ"

وفي الصباح تقرّر أن يذهبوا إلى المنصورة ليشتروا ما يسمّيه المصريون: "الشُّبْكَ"، ولا يُدرى بالضبط: من أيّ عهدٍ أصبحت هذه "الشُّبْكَ" من الفرائض المقرّرة في الزواج؟ ولم يكن يعرفها المسلمون الأوّلون، بل هي لا تعرف في كثير من البلاد العربية الإسلاميّة، ولكنّ العرب أقرّها وأمضاها، وللعرف اعتبارها. وقال الفقهاء في قواعدهم: "العادة مُحْكَمَةٌ"، وقالوا: "المعروف عُزْمًا كالمشروط شرطًا".

١ الشيخ القرضاوي، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٣٠٦

٢ هي هدية معروفة عند المصريين قبل الزواج، كثيرًا ما تكون من الذهب أو الماس، وما يدفعه الخاطب في هذه الشبكة يعتبره الشيخ القرضاوي هو المهر المطلوب منه.

٣ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، المرجع السابق، ص ٣٠٦ - ٣٠٧

٤ البخاري، محمد، الجامع الصحيح للبخاري، باب الأزواج جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، المرجع السابق، رقم الحديث: ٣٣٣٦، ج ٤، ص ١٣٣. ومسلم، الصحيح لمسلم

المرجع السابق، باب الأزواج جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، المرجع السابق، رقم الحديث: ٢٦٣٨، ج ٤، ص ٢٠٣١. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

على أن القرضاوي لا يجد مانعاً من قبول فكرة "الشَّبَكَة" على اعتبار أنها نوع من الهدية يُهدِيهَا الخاطب إلى مخطوبته، وقد جاء في الحديث الصحيح: "تهادوا تحابوا." على ألا يبالغ الناس فيها بحيث نرهقهم من أمرهم عسراً، ونكلّفهم شططاً، فالخير في الاعتدال والوسط، لا في العُلُوّ والشَّطَطِ. ١ وذهبوا إلى المنصورة هو والعروس بصحبة الحاجة رابعة أم الأخ محمد بدر عبد الباسط، وشقيقته مجيدة صديقة العروس، والتي ربّبت فرصة رؤيته الأولى لها، وهي صديقة أم العروس، وقد أنابتها عنها في شراء الشبكة؛ لأنها مشغولة بإعداد الطعام للضيوف، وعلى رأسهم "عريس". ٢ واشتروا شبكة محترمة على ذوق العروس، وكان الذهب رخيصةً في ذلك الزمان، فكان ثمنها أقلّ من ستين جنيهاً.

المسألة الثالثة: فكرة "الدبل" فكرة دخيلة

وكان من ضمن الشبكة: "دبلة" للعروس من الذهب يكتب عليها الحرف الأول من اسم "العروس"، و تاريخ الزواج "عقد القران" ودبلة من الفضة للعريس يكتب عليها الحرف الأول من اسم العروس والتاريخ. وكان التاريخ هو: يوم ٣١ / ٧ / ١٩٥٨ م. وهو اليوم الذي اتفقوا فيه على عقد القران. وعندما تلبس الفتاة هذه "الدبلة" تُعرّف أنها مخطوبة، فإذا زوّجَتْ إلى زوجها نقلت الدبلة من يد إلى أخرى، من اليمنى إلى اليسرى. وفي اعتقاد القرضاوي أن هذه العادة "تلبس الدبل" دخيلة على المسلمين، ولعلها مأخوذة عن النصارى، فعندهم خاتم الزواج، وله قدسيّة خاصّة.

على أية حال جارى القرضاوي القوم في قضية الدبل هذه، ولكنه اشترط أن تكون من فضة لا من ذهب، كما يفعل أكثر الناس للأسف. وبعد مدة خلع القرضاوي دبلة الفضة وقال لزوجته: إني لا أجد لها أصلاً، ولا ينبغي لمثلي أن يقلد الناس في ذلك. فقبلت ذلك منه، وتفهمت الأمر، جزاها الله خيراً. فإن بعض النساء قد تتطير من ذلك، وتتوجس شراً من وراء خلع الدبلة.

وعادوا إلى سمنود ليأكلوا "الدبل الرومي" الذي أعدته حمايته ترحيباً بالعريس، واحتفالاً بشراء الشبكة. وبعد يومين قضاها القرضاوي في سمنود - بالقرب من العروس - كانا من أسعد الأيام في حياته، ذهب القرضاوي إلى قريته "صفط تراب"، ليدعو الأقارب والأحباب والمهمين من أهل القرية لحضور عقد القران في سمنود في عصر يوم ٣١ / ٧ / ١٩٥٨ م. وفي اليوم المحدد ذهب القرضاوي مع الأهل والأقارب إلى سمنود لعقد العقد أو "الميثاق الغليظ" كما سماه القرآن الكريم، وقد أعدّ سُرَادِق أمام المنزل العروس، وعقد العقد على بركة الله تعالى، بحضور هذا الجمع الكريم من أهل سمنود، وأهل صفط وطنطا والحلّة ومحلة أبو علي، وفي الليل عاد المدعوون من أهل صفط وطنطا وغيرها إلى بلدانهم، وبقي القرضاوي هو في منزل الأصهار، وقد أصبح واحداً منهم، فألمصأهراً أحد الرابطين اللذين يربط الله بهما بين الناس برباط طيبعيّ، وهما: النسب والصهر، كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [٥٤]. ٣

قال القرضاوي: يا سبحان الله! إن هذه الكلمات القليلة: زَوَّجْتُكَ ابنتي فلانة على كتاب الله وعلى سنة رسول الله... وقبِلْتُ الزواج منها... بحضور الشهود، تحلُّ للإنسان ما كان مُحَرَّمًا، وتدخله في أسرة كان غريباً عنها، وتنشئ بيتاً إسلامياً، يضمُّ إلى بيوت المسلمين. ٤ وبقي القرضاوي مع عروسه، بعد أن أمست زوجة شرعية له، ولم يعد أهلها حريصين على أن يكون بينهما رقيب من إخوانها الصغار، كما كان ذلك قبل العقد. وتحدّث إليها، وتحدّثت إليه، وطال الحديث الذي لا ينقطع إلى اليوم والحمد لله. وكان

١ القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٣٠٨

٢ لفظ "عروس" يصلح للرجل والمرأة، فكلاهما عروس، ولكن المصريين فرّقوا بينهما، فسموا الرجل: "عريساً"، والمرأة: "عروسة".

٣ القرآن الكريم، الفرقان (٢٥)، الآية [٥٤].

٤ القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، المرجع السابق، ص ٣١٠

أصهاره كرماء معه، فلم يطلبوا منه من الصداق ما يؤود ظهره، وقالوا: ادفع ما تُقدِّرُ عليه، فدفَع القرضاوي مائة جنيه مقدّمًا، وسجّل عليه خمسين مَهْرًا مؤخَّرًا.

وَوَفَّقًا للتقاليد المصريّة، كان على والد العروس أن يعدّها لها جهازًا لائقًا: ثلاث حجرات: للضيوف "الصالون"، والطعام "الكُسْفَرَةُ"، والنوم، وعليه السجاجيد والنحف والمطبخ. وبعد يومين أو ثلاثة غادر القرضاوي سمنود، بعد أن تَعَلَّقَ قلبه بعروسه، وتعلّق قلبها به، في انتظار أن يكمل تصنيع الجهاز، الذي يقوم به محلّ أثاث متخصص مشهور بالاتقان، يملكه أحد أقارب حَمَاتِهِ "ابن عمته".

وسافر القرضاوي من "سمنود" إلى مدينة "بور سعيد" ليقضي نحو عشرة أيّام على شاطئها، مع ثلّة من المشايخ والإخوان، على رأسهم: الشيخ محمّد الغزالي، وقد تنازل بعض الإخوة عن شَفَقِهِمْ على الشاطئ لينزلوا فيها، فكان مضيفهم بِالْمَجَّانِ. وقد أعطى القرضاوي عنوانه لزوجته، فسرعان ما جاءت عنده رسالة منها، كان لها وقع الماء البارد الرُّلال على الظامئ الحترق. ولم يَخُدْثْ بينهما لقاء إلا أيّامًا معدودة. وَرَدَّ عليها برسالة بَثَّهَا ما في قلبه من شوق وحنين إلى لقاء قريب. وفي هذه الفترة حتّى الدخول في ١٤ / ١٢ / ١٩٥٨م، تبادلوا جملة من الرسائل التي تَحْمِلُ أصفى ألوان الؤدّ والحُبّ والشُّوقِ، وهو نوع راق من الحبّ العميق النقيّ، الذي يبدأ بعد الزواج، بعد أن يعرف كلّ من الزوجين صاحبه، وَيَأْتُسُ به، ويسكن إليه، وتقترب روحه من روحه.

والحقّ أن هذه الأشهر - منذ عقد القران إلى الدخول - مرّت بطبيعة بطء السُّلْخَفَاةِ، وخبيلٍ إليه أن الزمن لا يتحرّك، وأن الفلك لا يدور، ويستعجل الأيام حتى تُزْفَّ إليه عروسه، ويجتمع شَمْلُهُ. وقد استجابوا لرغبته جزاهم الله خيرًا، وشرعوا يهيّئون الأثاث ويجهزون العروس بما يلزم لها، وتقرّر الرِّقَاف - بحمد الله - في ١٤ / ١٢ / ١٩٥٨م، ونقلوا الأثاث من سمنود إلى شقّة القرضاوي بالقاهرة، في حدائق شبرا شارع الشيخ عبد الرحمن قراعة رقم "١٥ (أ)".

وفي الليلة السابقة على الرِّقَافِ، أُقِيمَ حفل عائليّ محدود، جمع الأقارب وأخصّ الأصدقاء في منزل العروس. وفي اليوم التالي (١٤ / ١٢ / ١٩٥٨م) أعاروا عمدة قريتهم سيّد بك خضر سيّارته لِيَمْتَطِيُوْا هو وعروسه ووالدتها إلى شقّة القرضاوي المذكورة، وقد حَمَلَتْ معها من ألوان الطعام الفاخر ما يكفيهم لعدّة أيّام، وخصوصًا أنّهما في فصل الشتاء، فَنِعْمَهُمَا بالرومي والبطّ والحَمَامِ.^١

وبعد أيّام تركتُ القرضاوي حَمَاتُهُ، وأوصته بابتها خيرًا، وقالت إنها أمانة عندك. فقال القرضاوي لها: إنها في عيني، وأنا أولى مَنْ يَصُونُ الأمانة إن شاء الله. لقد باتت جزءًا مِنِّي، كما أنّي جزءٌ منها. وهذه حقيقة، فالزواج يُقَرِّبُ بين الزوجين حتى يجعل منهما كيانًا واحدًا، عبّر القرآن الكريم بقوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [١٨٧].^٢ بكلّ ما توحى به كلمة "لباس" من القرب واللصوق والستر والدفء والزينة.

المسألة الرابعة: من ذكريات زوجته الأولى

يعتبر القرضاوي أن زواجه كان مُوَفَّقًا، وذلك من فضل الله عليه، فقد رَزَقَ بزوجة كانت له قرة عين، سَعِدَ القرضاوي بها وسَعِدَتْ به القرضاوي، فَهَمَّتْهُ وَفَهَمَهَا، كان فيها جملة من الأخلاق الرّكيّة، والفضائل المرصّية؛ فهي مُقتصدة في حياتها، مُدبّرةٌ لأمر بيتها بالحكمة، لا تنظر إلى غيرها، وتقول: أريد أن أكون مثل فلانة، بل هي قانعة بعيشهما راضية به تمامًا. وشاركته الحُلُوَّةَ وَالْمُرَّةَ بلا تَدَدُّرٍ، وعاشتت تصبر على تنوع أعباء القرضاوي بلا ضَجْرٍ، تجتهد في إسعاده بلا مَنْ ولا أذى، وبعد أن وسّع الله على القرضاوي في الرزق لم

١ القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٣١٣.
٢ القرآن الكريم، البقرة (٢)، الآية [١٨٧].

يرأها يوماً تطالب عند القرضاوي بما تطالب النساء من زيناتٍ وحُلبيّ، بل هو الذي (القرضاوي) يباردها. كانت له نِعَم الزوج، ولأولادها نِعَم الأم، ولا غرو فهي هاشميّة حسيّنيّة، نشأت في بيت دينٍ وأخلاقٍ، والشيء من مَعَدِنِهِ لا يستغرب.

قال القرضاوي: ومن حسنات زوجتي - أنها مكملة لي، فأنا رجل نظري، وهي امرأة عمليّة، أنا لا أفهم في الميكانيكا ولا الكهرباء ولا الآلات شيئاً، وهي ماهرة في هذه الأشياء تصلح مهندسة. أذكر أنني حينما سلّمتمها أول مُرْتَبٍ لي لتتصرّف فيه: قَسَمْتُهُ ثلاثة أقسام: قسم يدفع أجرة للسكن، وقسم للنفقات الشهريّة المعتادة؛ للمأكل والمشرب والملبس وحاجات البيت. وقسم يُدخِر للمستقبل. ومن فضل الله على الشيخ القرضاوي: أن زوجته لم تُنكِر الحياة في قطر، بل انسجمت معها، وتعرّفت على أخواتها من النساء المصريّات، وخصوصاً من كان قبلهم منهن مَن عرفن الدوحة وأسواقها وما يتطلّبها النساء منها، وأهمّها: "السوق الضيقة" للائي تعرّفن على تجاره وعامله، وخصوصاً عالم الأقمشة والثياب، التي تشتري منها المرأة لنفسها ولبناتها، وللهدايا المطلوبة منها آخر العام للأوقاب والأصدقاء والجيران.

وكانت المحلّات التجاريّة الكبرى الآن الدوحة ممثلة في دكان صغير بالسوق الضيق، أو سوق واقف. وكان التاجر يعطي المرأة الثوب، لتأخذه معها إلى البيت، لتريه لزوجها أو لبناتها، وبدون أن يأخذ أيّ تأمين عليه، فقد كانت الثقة موفورة بين الناس.

وزوجته متفرّغة للبيت، وقد أغرى بعض المدرّسات زوجتي أن تعمل مدرّسةً، مثل الكثيرات مني أمثلها، ولكننا تفاهما على أن تبقى زوجته ريّة البيت. وكان في ذلك الخير.

المطلب الخامس: زوجته الثانية

تعرّف الشيخ القرضاوي على أسماء بنت قادة^١ عند لقائه مع الطالبات في المسكن الجامعيّ المعروف في منطقة "بو زريعة" في سنة ١٩٨٤م. وهي كانت فتاة جزائريّة. وقد أعجب الشيخ القرضاوي بفتنة جمالها وبرشاقتها وبإلقاء خطبتها البارعة والرائعة والشجاعة التي ألقتهما للردّ على مُعَارِضِ الحجاب وغير نُحْيِيهِ. وَرَغِبَتْ أسماء بن قادة إلى الشيخ القرضاوي من قبل. فتزوّجا فصارت أسماء بن قادة زوجته الثانية للشيخ القرضاوي، وكانت طالبة في كليّة العلوم والتكنولوجيا، وفي قسم الرياضيات. وكان الشيخ القرضاوي أكبر سنّاً منها بنحو ٣٧ عاماً وقتئذٍ. ولكنها لم تكن تنظر إلى هذا الفرق، وتحذره من الإشارة إليه. وكانت ذات الموهبة والشجاعة وذات ناضجة التفكير والبلاغة والفصاحة وحسن التعبير في كلامها وخطبتها. وبقيت زوجين حوالي اثني عشرة سنة، كان فيها أيّام ما أطيبها، وذكريات ما أعذبها! ولكن الشيخ القرضاوي يودّ أن يبارد، ليسجل هنا: أن أسماء فيها من الصفات والمحامد كل ما يحبّ المرأة إلى الرجل. فهي امرأة وافرة الحظ من الذكاء الحاد، والثقافة الواسعة، والجمال الجذاب، واللسان الحلوّ، وقوّة الشخصيّة، مع شرف الأصل ... بالإضافة إلى أن الشيخ القرضاوي يحبّها، وكانت تحبّه، ومع هذا كان هناك أسباب عميقة للخلاف والصدام ... مع أنّهما متوافقان فكريّاً ... حتّى يعيشان في نكاحٍ وشجارٍ مُسْتَمِرٍّ، ويعتقد الشيخ القرضاوي أن أهمّها هو اختلاف الطبع، واختلاف البيئته، واختلاف الثقافة، ثمّ قدّر الله لهما أن ينفصلا، فانتهى إلى ما انتهى إليه،^٢ ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [٣٨].^٣

١ ما وجدته (الباحث) المعلومة: هل هي أنجبت أيّ ابن أو بنت أم ما أنجبت؟ والله أعلم بالصواب.

٢ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٣٠٨.

٣ القرآن الكريم، الأحزاب (٣٣)، الآية [٣٨].

المبحث السادس: بناته وحالاتهنّ التربويّة والتعليميّة وحياتهنّ الازدواجيّة

وفيه أربعة مطالب، وبيانها كالآتي:

المطلب الأوّل: عدد بنات الشيخ القرضاوي

للشيخ القرضاوي أربع بنات وترتيبهنّ باعتبار لأَسْتَيْهِنَّ:

* ابنته الكبرى إلهام

* ثم بنته الثانية سهام

* ثم ابنته الثالثة عُلا

* وابنته الرابعة والأخيرة "أسماء"، وهي الصغرى منهنّ.

وجدير بالذكر أن كلّ واحدة منهنّ: قطعة من قلب الشيخ القرضاوي، وفُلْدَةٌ من كَبْدِهِ، كما قال الشيخ القرضاوي، وقال نبينا المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إن فاطمة بضعة مني، يربيني ما يربيهها..." وروي عَنِ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ فَاطِمَةَ بَضْعَةٌ مِنِّي، مَنْ أَعْضَبَهَا أَعْضَبَنِي».^١

وكذلك بناتنا وأبنائنا هم كما قال الشاعر العربي:

لَوْلَا بُنَيَاتٌ كَزُرْبِ الْقَطَا زُودَنَّ مِنْ بَعْضٍ إِلَى بَعْضٍ
لَكَانَ لِي مُضْطَرَبٌ وَاسِعٌ فِي الْأَرْضِ ذَلَّتِ الطُّولُ
وَإِنَّمَا أَوْلَادُنَا بَيْنُنَا أَكْبَادُنَا تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ
لَوْ هَبَّتِ الرِّيحُ عَلَى بَعْضِهِمْ لَامْتَنَعَتْ عَيْنِي مِنَ الْغَمُضِ

المطلب الثاني: حالاتهنّ التربويّة، وهذا المطلب يتناول أربع مسائل، وهي فيما يأتي:

المسألة الأولى: ميلاد ابنة الشيخ القرضاوي الْبِكْرُ "إلهام"، ثم شقيقتها "سهام"

وما هي إلا الأسابيع حتّى حملت زوجته بابنته البكر "إلهام" والتي وضعتها عند أهلها في سنمود في مصر، لتكون تحت رعاية والدتها. وذلك في ١٩ / ٩ / ١٩٥٩ م.^٢ وملاّت عليهم الطفلة الصغيرة بيتهم بمحبة وفرحة وحركة. والمصريّون يقولون: الأطفال قناديل البيوت، أي أنهم ينبرونها ويملاؤها حياة حيويّة بِصُرَاخِهِمْ وَضَحْكِهِمْ وَبُكَائِهِمْ. ولا سيّما الطفل الأوّل، الذي يُحَدِّدُ علماء النفس والتربويون أن يُرْخِيَ أهله له العِنَانُ ويدلّوه أكثر ممّا ينبغي فيفسدوه.

والمصريّون يقولون أيضاً: خير النساء من بكرت بأنتي. وأحسب أنهم استنبطوا ذلك من قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ [٤٩]﴾ ﴿أَوْ يُرْوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ [٥٠]﴾.^٣ فبدأ سبحانه وتعالى في هذه الآية بِهَيْبَةِ الْإِنَاءِ.

١ النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، (المتوفى: ٥٣٠٣هـ)، السنن الكبرى، [المحقق: حسن عبد المنعم شلبي]، باب مناقب فاطمة بنت رسول

الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (بيروت - مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م)، رقم الحديث: ٨٣١٣، ج ٧، ص ٣٩٤

٢ الْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٣١٤

٣ القرآن الكريم، الشورى (٤٢)، الآياتان [٤٩ - ٥٠].

ولم يكدمر شهران حتى حملت زوجته بابنته الثانية "سهام" التي ولدت بالقاهرة في ١٩٦٠/٩/٥م، أي قبل أن تكمل إلهام سنتها الأولى، وقد كان لدى القرضاوي امتحان الدراسات العليا في ذلك اليوم، فخرج من الصباح، ولا تشكو زوجته من شيء، ثم جاءها المَخاضُ، واشتدَّ بها الطَّلُقُ، وكان الأخ سامي صَهْرُهُ مع شقيقته ووالدته في شَقَّتِهِ، فاضطرَّ هو أن يقوم هو بإحضار المَوْلَدَةِ، وما يلزم لِلوِلَادَةِ، وقال عني: أمه داعية له، خرج هو وحملني العبء، وقد أصبحت إلهام وسهام كأنهما تَوَّعَمَانِ، لتقاربهما في السنِّ، وتعلّق سهام أن تكون مع أختها حينما جاء سنُّ المدرسة، ثم قدّر الله تعالى أن تدخل الأختان المدرسة في عام واحد.^١

المسألة الثانية: ميلاد ابنته الثالثة "عُلا"

وكانت امرأته حاملة عندما قدمت الدوحة (عاصمة قطر)، وفي ١٥ ديسمبر ١٩٦١م رزقهما الله تعالى بابنتهما الثالثة، اسمها "عُلا"، فزادت البيت بهجة وإشراقاً، فقد زاد في منزلها قنديل أو مصباح جديد.^٢

المسألة الثالثة: ميلاد ابنته الرابعة والأخيرة "أسماء"

جاءت إجازة الصيف في السنة الدراسية ١٩٦٢م - ١٩٦٣م من قِبَلِ المعهد في قطر، فسفر القرضاوي وبناته إلى القاهرة، ليظلم متفرغاً لهذا العمل الذي نِيَطُ بهم في حرِّ قطر المعهود، وفي ظلال التكيف المعتاد، ولا ضرورة لأن يتحمّل أولاده معه قَيْظَ الدوحة، ولا سيِّماً أن زوجته كانت حاملاً في ابنته الرابعة، واسمها "أسماء".

عادت زوجته وبناته الثلاث من القاهرة، بعد أن أقضوا فيها فترة الإجازة الصيفيّة، وزاروا الأهل والأقارب، كما زارهم الأهل والأقارب، وبعُدُوا عن جوِّ الدوحة اللاهب في فصل الصيف، وإن قالوا هم: إن وجودهم في حرِّ الصيف خير من افتراقهم، ولكنَّ القرضاوي يحسب حساب الأطفال، وحقهم في الاستمتاع بجوِّ أفضل وأروح، لأبدانهم ونفوسهم. وبعد شهر من عودة الأسرة إلى الدوحة في قطر، جاءهم رزق جديد، وأشرق في بيتهم نور جديد، فقد ولدت ابنته الرابعة: أسماء، في مُنتَصَفِ أكتوبر سنة ١٩٦٣م.^٣

كانوا سمّوا بناتهم الأوّل: إلهام، والثاني: سهام، والثالث: عُلا، لا أسماء تراثيّة، والرابع: أسماء "حديثه". وقال القرضاوي لزوجته: لا بدّ نسَمِّي بنتنا اسمًا من التراث: من أسماء أمهات المؤمنين أو الصحابة. وكان أمامهم اسمان محببان إليهم: سُمِّيَّة أو أسماء، ولكن بعض أقارب القرضاوي كان عندهم سُمِّيَّة، فأثروا "أسماء" تيمناً بـ "ذات النطاقين" رضي الله عنها.

في نهاية العام الدراسي ١٩٧٣م ١٩٧٤م، لا تزال في المرحلة الابتدائية. وكان لها والله فرحة في قلوبهم لا تقلّ عن الفرحة بأخواتها، وإن لاحظ القرضاوي أن بعض الناس، حين علم أن المولود الرابع أنثى كأنما أشفقوا عليه أن يكون: أبا البنات!

والحق أن البنات كالذكور هبة من الله تعالى لأهلهم، ومنحة من فضله لهم، وقد قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِائًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ [٤٩] ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِائًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ [٥٠] ﴿٥٠﴾.٤

١ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٣١٤ - ٣١٥

٢ المرجع السابق، ص ٤٣٥

٣ المرجع السابق، ص ٥١٧ - ٥١٨

٤ القرآن الكريم، الشورى (٤٢)، الآياتان [٤٩ - ٥٠].

المسألة الرابعة: ضياعُ ابنة القرضاوي "أسماء" ثمّ العثور عليها

وفي أحد الأيام حَدَّثَتْ واقعة لا يُنْسَاهَا الشيخ القرضاوي، ولا تنساها أسرته، وهي ضياعُ ابنته أسماء منهم، ثمّ وجدانها. وقد وقعت هذه النَّكْبَةُ الْمَأْسَاةُ في إجازة صيف ١٩٦٨م.

فقد كانوا في مرّة من مرّات نزولهم إلى إستانبول، وهي إحدى الحدائق الشهيرة القريبة من جامع السلطان أحمد وجامع آيا صوفيا، وتسمّى: "جول هانا"، ومعنى "جول": الزهر، و"هانا": خانة، أي مكان، ومعنى العبارة: حديقة الأزهار، وكانت الحديقة تحتوي أراجيح لِلْعِبِّ الأطفال، وأدوات مختلفة للهوهم ولعبيهم. قضاوا نهارهم في الحديقة، يَنْعُمُونَ بحضرتها، وتستمتع البنات باللعب وَالْقَفْزِ.

وبعد العصر، وبعد أن شَبِعَتْ البنات لعبًا وتزحلّفًا وركضًا، قاموا ليأخذ طريقهم للعودة إلى مقامهم في يَكْحَك، ومضوا و يمشون رويدًا رويدًا في الحديقة الواسعة، وقبل أن يصلوا إلى باب الحديقة، عرجوا على صناير للماء العذّب: فقالوا: نتروّد بالشرب منها قبل العودة، ومزّت دقائق معدودة في هذه التعريجة، ثمّ انطلقوا، ليكتشفوا أن ابنتهم الصغرى "أسماء" غير موجودة. أين أسماء؟ التفتوا يمينًا وشمالًا، وبحثوا عنها هنا وهناك، وظلّ الشيخ القرضاوي يركض ركض الحِصَانِ في أنحاء الحديقة، وكان لا يزال بقوّته، فلم يجدوا لها أثرًا، حاولوا أن يُعلن عنها في ميكروفون الحديقة، ولكن كانت المشكلة اللّغة، فوجدوا أحد الإخوة العراقيين الذين يعرفون التركيّة، ليُعلن عن طفلة عمرها كذا، وتلبس ثيابًا لونها كذا..... ولم يردّ عليهم أحد. فأبلغ الشيخ القرضاوي الشُّرْطَةَ الإقليميّة القريبة بطفلة المفقودة "أسماء"، لتشركهم معه في البحث عنها، ورجاء أنهم يساعدونه م في نكبتّه. وكان الأخ العراقيّ قام بالترجمة نيابة عنهم، وعاد القرضاوي إلى أسرته حيث بقي منتظرًا في الحديقة، وأخبرهم بإبلاغهم للشرطة، ووعدهم بأنهم لن يدّخروا وسعًا في البحث، وسيخبرونهم بأيّ جديد يحصلون عليه.

وبقوا وقتًا ينتظرون جوابًا، وأمست قلوبهم معلّقة بهذا الأمل، وهم دائمو التضرّع إلى الله، وبعد مرور ما يقرب من ساعتين، مرّتا كأنهما دهر طويل، ذهبا - الشيخ القرضاوي والأخ العراقي الشهم - لتراجع القسم، فقال المسئول: أبشروا! البنت موجودة في قسم شهر مينا، وفي حالة طيّبة، وقد أبلغوهم أن يحتفظوا بها، حتى يذهب إليها لتسلمها، وسجد الشيخ القرضاوي لله تعالى وحده وشكره. ثمّ عاد الشيخ القرضاوي ليشير زوجته وأولاده؛ وقال: إنّنا وجدنا أسماء، وأن علينا أن نذهب لأخذها من قسم الشرطة، وبعد ذلك نعود إلى منزلنا في منتجع يكحك. ووصلنا - الشيخ القرضاوي والأخ العراقيّ - إلى قسم شهر مينا بسيارة أجرة، وكان بعيدًا كثيرًا عن المكان الذي هم فيه، ودخلا القسم، فوجدا "أسماء" يداعبها بعضهم، ويحاولون أن يهدّوا من روعها، ويطمئنّوها حتى يأتي أهلها، وقد وضعوا في يدها بعض القروش التركيّة.

وكانت الحادثة: لقد كانوا كلّهم يمشون خارجين من الحديقة، ثمّ توقّفوا هُنَيْهَةً لشرب الماء، ولكن أسماء لم تنتبه لتوقّفهم، وظلّت تمشي منطلقة إلى الباب، حتى خرجت من الحديقة، وبمجرد خروجها من الحديقة أحسّت أنها تمشي وحدها، وأن أحدًا ليس معها، فوقفت تبكي، فراها أحد المارّة تبكي، وكلّما عرف أنها عربيّة ولا تحسن تركيّة، وكان الرجل طيّبًا، فخاف عليها أن تقع في يد شريرة، فأخذها في يده، وكان هو عائدًا إلى منزله في شهر مينا، ومن هناك ذهب إلى قسم الشرطة ليسلمها إليهم، ويحكي بهم كيف وجدها، وكيف أخذها.

وعاد الشيخ القرضاوي بابنته أسماء - (هو والأخ العراقي) إلى حديقة، تنتظر لهما الأسرة، فما أن رأوا "أسماء" حتى احتضنتها أمّها باكية من الفرح، وسرّ بها أخواتها، وعاد الانتعاش والبهجة إلى الأسرة، وشكروا أحاهم العراقي الكريم الذي وضع نفسه في خدمتهم، وهو لا يعرف عنهم شيئًا، إلا أن الشيخ القرضاوي عربيّ مسلم. وأسأل الله أن يجعل ذلك في ميزان حسناته.

المطلب الثالث: حالاتهنّ التعليميّة

وهذا المطلب يحتوي على تسع مسائل، وتفصيلها فيما يلي:

المسألة الأولى: إلهام وسهام تدخلان المدرسة الابتدائية

بالنسبة لعائلة الشيخ القرضاوي، فقد دخلت ابنته الكبرى إلهام المدرسة الابتدائية، وهي لم تكمل السنة السادسة، ولكن الوزارة كان تسامح في قبول مواليد سبتمبر وما بعده، وإلهام من مواليد سبتمبر ١٩٥٩م، لم تكن هناك مشكلة في قبولها.

ولكن مشكلة ظهرت بالنسبة لأختها سهام، وهي أصغر منها بسنة (سبتمبر ١٩٦٠م) وقد تعلقت بشقيقتها، وأن أرادت أن تكون معها في المدرسة، وجاء "باص" المدرسة ليحمل أختها، فأصرت على الركوب معها وبكت، فركبت وانطلقت معها، ولكن مديرة المدرسة اعتذرت بأنها لا تستطيع أن تقبلها؛ لأنها دون السنّ المطلوبة بكثير.

وهنا لم يجد الشيخ القرضاوي بُدًا من أن يتكلّم وزير المعارف الشيخ قاسم بن حمد، راجيًا منه أن يستثنيها، رعايةً لظروف البنت ومشاعرها، فاستجاب رحمه الله. وكانت هذه الواقعة في السنة الدراسية (١٩٦٥م - ١٩٦٦م). وظلّت البنت مع أختها طوال مراحل الدراسة الابتدائية والاعدادية والثانوية والجامعة، حتى نجحتا بامتياز في كلية العلوم، وأن تحصلا على الثانوية معًا، وأن تحصل كلتاها على البكالوريوس بامتياز في سنة واحدة من كلية العلوم: إلهام في الفيزياء، وسهام في الكيمياء، وتعيّنا معيدتين كلّ واحدة في قسمها، وأن تزوجا في أسبوعين متتاليين، وأن تحصل كلّ منهما على بَعثةٍ لدراسة الماجستير والدكتوراه، وأن تحصل عليها من إنجلترا: إلهام في الفيزياء النووية، وسهام في الكيمياء الضريّة.

المسألة الثانية: حصولهما على الشهادة الإعدادية

في نهاية العام الدراسي ١٩٧٣م ١٩٧٤م، حصلتا ابنتا الشيخ القرضاوي "إلهام وسهام" على الشهادة الإعدادية، وتَهَيَّئتا لدخول المرحلة الثانوية.

المسألة الثالثة: إلهام وسهام تختاران "شعبة العلمي"

في السنة الدراسية ١٩٧٥م - ١٩٧٦م، انتقلت كلّ من إلهام وسهام ابنتا الشيخ القرضاوي إلى الصفّ الثاني من المرحلة الثانوية، وهو الصفّ الذي ينقسم فيه الطلبة والطالبات إلى شعبتين: علمي وأدبي، وكلتاها قد اختارتا شعبة العلمي، والشيخ القرضاوي لا يحبّ أن يضغط على أبنائه ولا بناته في اختيار توجههم التعليمي، ولا يفرض عليهم ما يحبّ، كما نجد كثيرًا من الآباء - مثل الأطباء - يفرضون على أولادهم أن يرثوا مهنتهم، وربما لم يكن لهم أي ميل لهذه المهنة. فلسفة الشيخ القرضاوي أن يختار كلّ امرئ لنفسه بعد أن نشرح له مزايا كلّ توجه، وعيوبه إن كان فيه عيوب.

وقد عرّض على ابنتيه - مجرّد عرّض - أن ينوعا في اختيارهما، فتختار العلمي، والأخرى الأدبي، فقالتا في نفس واحد: با أبت، إن الأدبي لا يدخله غير البنات الكسلانات! فقال: وقّقكما الله فيما اخترتماه، وجعله خيرًا لكما في دينكما ودنياكما.^١

١ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٣٩

٢ المرجع السابق، ص ٣٦٧

المسألة الرابعة: ابتناه إلهام وسهام تدخلان الجامعة

في السنة الدراسية ١٩٧٦م - ١٩٧٧م دخلنا ابتناه "إلهام وسهام" جامعة قطر، وكاننا قد حصلنا على الثانوية بتفوق، وقد أشار على الشيخ القرضاوي بعض زملائه في الجامعة بإرسالهما إلى مصر، ليدخلا كلية الطب، فهذه هو التوجه المصري العام لدى الناس: أن الطالب المتفوق أو الطالبة المتفوفة لا بد أن يلتحق بكلّيات "القيمة" كما يسمونها. وقال الشيخ القرضاوي لأحد زملاءه، هو أستاذ متميز في كلية العلوم: وما عيب كلية العلوم وأنت فيها الآن أستاذ ملء السمع والبصر؟! قال: يا فضيلة الأستاذ، انظر إلى دخلي ودخل الطبيب الذي أخذ الثانوية ودخل الجامعة معي؟ ما أعظم الفرق بيني وبينه!

وكاننا ابتناه غير مُتَحَمِّسَيْنِ للطب. ويحسب الشيخ القرضاوي، وهذا من فضل الله عليهم؛ لأنهما لو كانتا حريصتين عليه، لوقعا في مشكلة: هل تعيشان وحدكما؟ أو هل تنقسم الأسرة الأب هنا والأم هناك؟ لقد اتفق مع ابنتيه بحمد الله: أن يكون هَمَّهُما الحصول على الماجستير والدكتوراه، وهناك تساوي الرسوم. وهكذا استراحتا ابتناه إلى الدخول جامعة قطر، والبقاء في حِصْنِ العائلة.

وبحكم تخرجهما في القسم العلمي، سيدخلان "كلية العلوم" التي أنشأت هذا العام. وقد اختارت "إلهام" قسم "الفيزياء" التي تحوى البحث فيها، واختارت "سهام" قسم "الكيمياء" التي تحبها أيضاً.^١

ولكن طلبة الجامعة وطالباتها لا يدخلان الأقسام التي يريدونها مباشرة، بل يدرسون السنة الأولى دراسة عامّة، مقسمة إلى قسمين: العلمي العام، والأدبي العام. فطلاب كلية العلوم والأقسام العلمية في كلية التربية: يدرسون موادّ مشتركة في هذا "العلمي العام". وطلاب الشريعة والإنسانيات والأقسام الأدبية في كلية التربية: يدرسون موادّ مشتركة في الأدب العام. كما يدرس الجميع "متطلّبات الجامعة" من الثقافة الإسلامية، واللغة العربيّة، واللغة الإنجليزيّة.

المسألة الخامسة: إلهام وسهام

كانت إلهام وسهام أشبه ما يكونان بالتوّعَمَيْنِ. لقد كان بينهما في السنّ أقلّ من اثني عشر شهراً، ولكنهما دخلتا المدرسة الابتدائية معاً، وحصلتا على الشهادة الابتدائية ثمّ الإعداديّة معاً، وكاننا دائماً في مدرسة واحدة وفي صفّ واحد، وفي السنة الثانية الثانوية وهي سنة التشعيب الدراسي ما بين أدبيّ وعلميّ، واختارتا العلميّ معاً، وحصلتا على الشهادة الثانوية معاً، ودخلتا جامعة قطر معاً، واختارتا كلية العلوم معاً، وإن كانت إلهام اختارت قسم الفيزياء، وسهام اختارت قسم الكيمياء. ونحنتا معاً بامتياز في قسميهما، وعُيِّنَتَا مُعَيَّدَتَيْنِ في قرار واحد، وشاء الله أن يعقد قراخما في يوم واحد، وأن يتمّ زفافهما في أسبوع واحد.^٢

المسألة السادسة: إجراءهما للحصول على الدكتوراه

إلهام وسهام تعملان للحصول على الدكتوراه من إنجلترا في سنة ١٩٩٠م: إلهام من جامعة لندن، وسهام من جامعة ريدينج.^٣

١ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٤٣٢ - ٤٣٣

٢ المرجع السابق، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ١٦٢ - ١٦٣

٣ المرجع السابق، ص ٦٣٠

المسألة السابعة: حالة دراسية لـ"عُلا"

في نهاية العام الدراسي ١٩٧٣ م ١٩٧٤ م، انتقلت عُلا إلى السنة الثانية الإعدادية.

لقد تخرّجت عُلا كما تخرّجت أختها في كلية العلوم من جامعة قطر بدرجة امتياز، وكانت الأولى على كلية العلوم، والثانية على جامعة قطر، بكلّياتها العلمية والأدبية، وإن لم تعيّن في وظيفة معيدة، لأن الجامعة توسّعت في تعيين المعيدات في السنوات الأولى أكثر مما ينبغي، حتّى عيّنت بعض الحاصلات على درجة جيّد جداً، بل درجة جيّد في بعض الأحيان، حرصاً على ملء الخانات الفارغة، ومسابقة الزمن، وكان الشيخ القرضاوي ممن يعارض هذا التوسّع، لأنه سيكون على حساب الأفواج القادمة.

وفعلاً كانت عُلا ودفعتها برغم حصولهن على الامتياز، والامتياز المرتفع، لا يجدن مكاناً لهنّ في الجامعة. فسلكت عُلا طريقاً آخر خارج الجامعة، وفي مختبرات مستشفى حمد الطبيّ، ثم مركز العلمية والتطبيقية في الجامعة.^١

المسألة الثامنة: تخرُّج أسماء في كلية الجامعة

حصلت أسماء على الماجستير من جامعة الخليج في البحرين في سنة ١٩٩٠ م، وتتهياً للابتعاث للدكتوراه بتوفيق الله تعالى.^٢

المسألة التاسعة: مسابقة القرآن الكريم للمدارس

كانت من السنن الحميدة التي سنّتها وزارة التربية والتعليم في قطر - باقتراح فضيلة الشيخ عبد الله بن تركي، رئيس العلوم الشرعية - إقامة مسابقة في حفظ القرآن وتلاوته، مفتوحة لجميع الطلاب والطالبات في جميع مدارس قطر بالدوحة، وغيرها من مناطق قطر. وكان الفائزون الأوائل الثلاثة من كلّ فصلٍ يأخذون جوائز نقدية تشجيعية، كانت المدارس تتنافس في ذلك، كما يتنافس الأبناء والبنات، في حفظ كتاب الله تعالى، حيث قال الله تعالى: ﴿حِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [٢٦].^٣

وقد أدى ذلك إلى تسابق كثير من الطلاب والطالبات في حفظ القرآن، وأن تجدّ البيوت قبيل الامتحان مشغولة بالقرآن.

كما فتحت الوزارة جزاها الله خيرًا، باب التسابق للطلاب ولغير الطلاب في حفظ القرآن كلّ، أو نصفه أو أجزاء منه، ويعطى الحافظ جائزة قيمة على قوّة حفظه وحسن تلاوته. وكانت بنات الشيخ القرضاوي: إلهام وسهام وعلا ثم أسماء بعد: يدخلن كلّ عام هذه المسابقة ويفزرن فيها، ويحصلن على جائزتها.

بل دخلت إلهام هذه المسابقة في الأجزاء الخمسة الأخيرة، ونجحت فيها، وحصلت على جائزتها، ودخلت سهام في ثلاثة أجزاء، وأسماء في جزأين. وهذه في السنة الدراسية ١٩٧٥ م - ١٩٧٦ م.^٤

١ ألفردّواوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ص ١٦٩

٢ المرجع السابق، ص ٦٣٠

٣ القرآن الكريم، المطففين (٨٣)، الآية [٢٦].

٤ ألفردّواوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (المرجع السابق، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٤٠٥ - ٤٠٦

المطلب الرابع: حياتهن الازدواجية

وهذا المطلب يشتمل على إحدى وعشرين مسألة، وتفصيلها كما يأتي:

المسألة الأولى: زواج ابنته "إلهام"

في مساء يوم من أيام شهر مايو من سنة ١٩٨٢م، اتصل ب الشيخ القرضاوي هاتفياً: الأستاذ عبد اللطيف مكّي رحمه الله، وقال: أريد أن أتشرف بزيارتكم، ومعني الحاجة أم سيف، فهل يناسبكم أن نزرركم الليلة،؟ الساعة الثامنة؟

قال الشيخ القرضاوي: على الرّحّب والسّعة، الدار داركم، والجميع منكم وإليكم. وأدرك الشيخ القرضاوي المقصود، وقال لأمّ محمّد: الأستاذ عبد اللطيف اتصل، وقال كذا وكذا، ويعتقد أنهم قادمون لخطبة إلهام لابنهم الدكتور سيف. قالت: هذا هو المفهوم، وربما كان هناك سبب آخر لا يعلمه.

قال الشيخ القرضاوي: قوله: سآتي هو عبد اللطيف والحاجة أم سيف يُؤدّدُ بالمطلوب.

وفي الساعة الثامنة، حضر الأستاذ عبد اللطيف وزوجته، وهي امرأة فاضلة، لم يعرف عنها إلا كلّ خير، وهي من عائلة إسلامية معروفة بنصرة الدعوة الإسلامية، وشقيقها المهندس سيّد أبو النور، الذي عُرفَ ببلائه في دعوة الإخوان، ويعرفه كثيرون. بعد تبادل التحيّات والمجاملات، قالوا: لا نريد أن نطيل في المقدمات، لقد جئنا لنطلب يد ابنتنا إلهام لابنكم أحمد سيف الإسلام. قال الشيخ القرضاوي: لقد أحسنتم التعبير، إن إلهام هي ابنتكم، وإن أحمد هو ابنا، ولقد عرفته منذ سنوات مع الشباب المسلم في القاهرة، وسررت به، وسمعت من إخوانه وزملائه ثناءً عاطفياً عليه وعلى أخلاقه وسلوكه ... ولن أجد لابنتي زوجاً أفضل منه آمنه عليها، كما لن أجد أصهاراً خيراً منكم ديناً وخلقاً وفضلاً، وأعتقد أن هذا هو رأي أم محمّد، قالت: نعم بلا شك.^١

المسألة الثانية: أخذ رأي البنت في الخطبة

قال الشيخ القرضاوي: ولكن الشرع يوجب علينا أن نأخذ رأي البنت، فلا يجوز شرعاً أن يزوّج الأب ابنته من يشاء هو، لا من تشاء هي. وفي التعاليم النبوية المشهورة: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْبِكْرُ تُسْتَأْذَنُ» قُلْتُ: إِنَّ الْبِكْرَ تَسْتَحْيِي؟ قَالَ: «إِذْنُهَا صُمَاتُهَا».^٢ واعتقاد الشيخ القرضاوي أن ابنته لن تقول: لا، فإذا وافقت على المبدأ، يسرهم لهما لقاء يرى كلاهما الآخر، ويتحدّث إليه ويسمع منه.

عادة أهل الخليج منع الخاطب من رؤيته مخطوبته إلا ليلة الزفاف. فهذا ما جاء به الشرع، وما علّمناه رسول الإسلام، والخير كلّ الخير في اتّباع هذه التعليم. ولا يفعلون ما يفعله أهل الخليج هنا، حيث لا يرى الخاطب مخطوبته إلا ليلة الزفاف، حتّى بعد عقد العقد عليها، وأنها أصبحت زوجته شرعاً: لا يراها ولا تراه، مع أنها ترى كلّ الناس، وترى أساتذتها في الجامعة، وترى الرجال في السوق، إذا باعت أو اشترت، وتراهم في الطائرة إذا سافرت، رجل واحد - فقط - لا يراها، وزوجها مسكين! قالوا: ونحن موافقون كلّ الموافقة على هذا، ونحن أولى الناس بتطبيق أحكام الشرع. وقد تغيّرت عادة أهل الخليج الآن، وصاروا يصرحون للخاطب برؤية مخطوبته

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ١٦٠

٢ البخاري، الجامع الصحيح للبخاري، باب في النكاح، المرجع السابق، رقم الحديث: ٦٩٧١، ج ٩، ص ٢٦. والبغوي الشافعي، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء (المتوفى: ٥١٦هـ)، شرع السنة للبغوي، [تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد زهير الشاويش]، باب استئذان المرأة البالغة في النكاح، (بيروت

- المكتب الإسلامي، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م)، رقم الحديث: ٢٢٥٥، ج ٩، ص ٣١

المسألة الثالثة: الأستاذ عبد اللطيف مكّي

وكان الأستاذ عبد اللطيف مكّي من إخوان المصريّين الذين سبقوا إلى قطر في الخمسينات من القرن العشرين. ويعمل مع الدكتور سعيد رمضان في مجلّة "المسلمون"، وكان قريباً من الأستاذ البناء، وقد سمّى ابنه الأول على اسم ابنه أحمد سيف الإسلام. وقد عمل الأستاذ عبد اللطيف مكّي رئيساً لقسم التغذية بالوزارة، وكان محمود السيرة، محبباً إلى الناس من القطريّين وغيرهم، يألّف ويؤلف... وقد جاء إلى قطر وابنه أحمد سيف الإسلام عمره سنة واحدة، وأكمل تعليمه الابتدائي والإعدادي والثانوي في قطر، وحصل على الثانوية من قطر، وكان تربيته فيها الأول على القسم العلميّ.

ثمّ دخل كليّة الطبّ بجامعة القاهرة، وكان من طلاب الجماعة الإسلاميّة فيها، وإن لم يندمج معهم تماماً، ولكنهم كانوا يُجِبُونَه لاستقامته، وصفاء نفسه، ودَمَانَةِ خُلُقِهِ، كما أخبره أي الشيخ القرضاوي بذلك أحد البارزين منهم، وهو عبد الرحمن سعودي.^١

المسألة الرابعة: من أعظم نِعَمِ الله على الأب أن يوفّق في تزويج بناته

فإن من أعظم نِعَمِ الله على الأب أن يُوفّق في تزويج بناته، فيطمئنّ إلى الرجل الذي يسلمّ إليه فلذّة كبده. وفي المثل: "اخطب لبتك قبل أن تخطب لابنك" وَالْحُطْبَةُ هنا تعني تحرّي الصالحين من الشباب والاقتراب منهم، وليس من الضروري أن تقول له: عندي بنت ملائمة لك. فرمّا لا يناسب هذا عصرنا... وقد فعل سيّدنا عمر رضي الله عنه حين عرض حفصة على أبي بكر وعلى عثمان. أمّا اليوم فما يُظنُّ ذلك يقبله منطلق هذا الزمان، وفعلها أحد الإخوان، فعيره من أصهر إليه بأنك أنت الذي عرضت عليّ ابنتك!! لقد وقّعه الله أي الشيخ القرضاوي زواج سهام من شابّ كفاء كريم، والإصهار إلى عائلة كريمة عزيزة... واليوم تلحق بها شقيقتها إلهام، وحمد الشيخ القرضاوي قائلاً: والحمد لله الذي اختار لبناتي مَنْ أَحَب من الأخيار.

المسألة الخامسة: زواج ابنته سهام

في أوائل شهر يونيو سنة ١٩٨١م، اتّصل بـ الشيخ القرضاوي الأستاذ الفاضل عبد العليم عبد الستار المحاضر بمعهد الإدارة في الدوحة، وقال له: أريد أن أتشرف بزيارتكم الليلة، ومعني أم هشام زوجتي، فهل لديكم مانع؟

قال الشيخ القرضاوي: مرحباً بكم في أيّ وقتٍ، فالدار داركم، ونحن أهل وأخوة. وأخبر الشيخ القرضاوي زوجته، وقال لها: يبدوا أن هذه الزيارة لهدف مُعيّن، وهو خِطْبَةُ إحدى البنات، وإلا ما ذكر أن أم هشام ستكون معه. وفي الوقت المحدّد، حضر الأستاذ عبد العليم ومع زوجته السيّدّة صفيّة موجهة الرياضيات، التي أصبحت بعد ذلك رئيسة تعليم البنات في قطر.

وبعد اللقاء والترحيب، وتقديم المرطبات ونحوها، قال الأستاذ: دون تطويل في المقدمات، نحن جئنا لنطلب يد ابنتكم - وهي ابنتنا أيضاً - سهام، لابننا - وابنكم - هشام، ابننا الأكبر، وهو قد تخرّج في كليّة الطبّ، ويقضي سنوات الجندية الإجباريّة في الجيش في مصر، وسينهيها بعد عدّة أشهر، وبعدها سيأتي للعمل في قطر إن شاء الله.

قال الشيخ القرضاوي: ولكنه لم ير البنت ولم تره، والرسول الكريم يأمر الخاطب بأن يرى مخطوبته قبل الإقدام على الزواج، ولم يعدّ الشاب في عصرنا يكتفي برؤية أهله ورأيهم فيمن يتقدّم إليها. قالوا: نحن نريد حجز "المقعد" قبل أن يأخذه غيرنا، نريد أن نتفق على المبدأ، وبعد ذلك يتمّ كلّ شيء في موعده. وقبلوا ذلك أن نتفق بمجرد اتّفاق مبدئيّ، وبعد الرؤية واللقاء الخاطب ومخطوبته، يتمّ الاتّفاق على التفاصيل.^٢

١ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ١٦١ - ١٦٢

٢ المرجع السابق، ص ١٥٦

المسألة السادسة: موقف الشيخ القرضاوي من خطبة البنت الصغرى قبل الكبرى

وقال الأستاذ عبد العليم: كنت أخشى أن ترفض خطبة سهام قبل أختها الكبرى إلهام، كما يفعل بعض الناس. قال الشيخ القرضاوي: ليس ذلك مبدئي، بل من يجيء لها كفؤها، أقبله إذا رضيت به، ولا أعطلُّ واحدة من أجل أخرى، وسيأتي لأختها نصيبها في وقته المُعَدَّر إن شاء الله، ولا سيَّما أن بين سهام وأختها الكبرى - إلهام - أحد عشر شهرًا، قد دخلتا المدرسة في سنة واحدة، وأخذتا الثانويَّة معًا، والبكالوريوس معًا، وعُيِّنَتَا معيدتين بالجامعة في قرار واحد.^١

وبعد أن انتهى العام الدراسي، سافروا إلى القاهرة، كان لا بدَّ أن يرى هشام "سهام" الرؤية الشرعيَّة... وفعلا التقيا في بيتهم في مدينة نصر بالقاهرة، وتحدَّث إليها وتحدَّثت إليه، واستراح كلٌّ منهما إلى صاحبه، وقال هشام بعد جلسته مع سهام: أنا موافق بكلِّ رضا وسرور على سهام، ويدعون أي أهل "سهام" الله أن يتمَّ زواجهما على خير، ويرجون أن تكون هي كذلك. وأعلنت سهام موافقتها كذلك.

المسألة السابعة: اعتبار الشيخ القرضاوي هدية الشبكة من المهر المطلوب

وبدءوا الإجراءات، وشراء الشُبَّكة، وهي هدية معروفة عند المصريِّين قبل الزواج، كثيرًا ما تكون من الذهب أو ألماس، وما يدفعه الخاطب في هذه الشُبَّكة يعتبره الشيخ القرضاوي هو المهر المطلوب منه. والحقيقة أنه لا يطلب مهرًا مُحدَّدًا، ولا يشترط مبلغًا مُعيَّنًا، فما يدفعه الخاطب أو أهله، يقبله، ويُكْمَلُ عليه إن لم يكن كافيًا.

وفعلا دفع والد هشام مبلغًا، وذهبت زوجة الشيخ القرضاوي أم محمد ومعها سهام، ومعهما العريس ليشتروا الشُبَّكة... وقال الشيخ القرضاوي لزوجته: ما تريده سهام، اشتروه لها، ولا تبخلوا عليها، ولا تُكَلِّفُوا العريس فوق طاقته... وتمَّ شراء الشبكة المطلوبة وَفَّقَ رغبة العروس، بحمد الله.^٢

المسألة الثامنة: ارتباط الشيخ القرضاوي بالواجبات الرمضانيَّة

أمَّا الاحتفال بِالْحِطْبَةِ وَالشُّبَّكَةِ، فَأُجِّلَ إلى ما بعد رمضان، حيث كان الشيخ القرضاوي يعود إلى الدَّوْحَةِ في رمضان، ويدع الأهل والأولاد في مصر، إذ كان مرتبطًا بواجبات رمضانيَّة، لا يسعه أن يتخلَّف عنها، منها: درس العصر في مسجد الأمير، ومنها: صلاة التراويح بجزء من القرآن في مسجد الشيوخ، وإلقاء درس التفسير بعد الركعات الأربع من التراويح.

المسألة التاسعة: الاحتفال بِخِطْبَةِ سَهَام

بعد قضاء شهر رمضان في الدوحة، عاد الشيخ القرضاوي، ليعيِّد مع الأسرة في مصر، وقد حدَّدوا الاحتفال بِخِطْبَةِ سَهَام وشبكتها في ٤ شَوَّال ١٤٠١ هـ الموافق ٤/٨/١٩٨١م.

وكانت ليلة من أجمل الليالي، أقاموها في منزلهم بمدينة نصر، وكان الحفل في الطابق الأوَّل، وهو فارغ تمامًا، قبل أن يتحوَّل معظمه إلى مكتبة، واقتصر على الأهل والأقارب من العائلتين.

١ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريَّة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ١٥٧

٢ المرجع السابق، ص ١٥٧ - ١٥٨

المسألة العاشرة: تأخر عقد سهام

أما العقد فقد تأخر قليلا، حتى أنهى هشام بقيّة فترة تجنيده في الجيش، وهي ثلاث سنوات، فقد كان الجامعيون الذين يدخلون الجيش، إذا عملوا جنودًا تكون مدّتهم سنّة فقط، وإذا عملوا ضابطًا تكون مدّتهم ثلاث سنوات. وقد دخل هشام الخدمة ضابطًا، وبعدها قدم هشام إلى قطر ليعمل طبيبًا في مستشفى حمد بالدوحة. وجدّير بالذكر هنا - كانت ابنته إلهام قد خُطبت، فتمّ عقدها في يوم واحد.

المسألة الحادية عشرة: حفل عقد قران إلهام وسهام

ففي بداية الشهر السادس تمّ عقد قران ابنتي الشيخ إلهام وسهام في منزلهم بالدوحة، وكانوا يسكنون بيتًا فيه ساحة فسيحة تتسع لمثل هذه الأفعال، وقد دعوا عددًا لا بأس به من الأقارب والمحبين والشخصيات القطريّة والمقيمة قي قطر، كما هي السنّة في الإعلان عن الزواج وشهره... وعقد العقد القاضي الفاضل، والكاتب الإسلاميّ المعروف: الشيخ عبد القادر العمّاري.^١ وقالوا لأحمد وهشام كما قال لهما الحضور: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا رَفَقًا الْإِنْسَانَ إِذَا تَزَوَّجَ، قَالَ: «بَارَكَ اللَّهُ لَكَ، وَبَارَكَ عَلَيْكَ، وَجَمَعَ بَيْنَكُمَا فِي خَيْرٍ».^٢

وهي التهنة التي علّمها لنا رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم، بدل تهنة الجاهليّة التي كانوا يقولون فيها: بِالرِّفَاءِ وَالْبَنِينَ، إذ كانوا لا يحبّون البنات، فيتمنون أن ينجب العروسان بنين فقط، زهر خطأ جوهرّي من غير شكّ، فإن الحياة لا تقوم إلا على الزوجين: الذكر والأنثى، ولو اقتصر الناس على إنجاب البنين، لفنيت البشريّة بعد جيل واحد!

المسألة الثانية عشرة: موقفُ الشيخ القرضاوي من المهر المؤخّر

سأله الشيخ عبد القادر: ما قيمة المهر المؤخّر؟ قال الشيخ القرضاوي: ولا درهم. قال: جرى عرف الناس: أن يكتبوا مهرًا مؤخّرًا، وفي العادة يكون كبيرًا، حتى يكون قيدًا يمنع الزوج من التفكير في الانفصال، أو في مضارّة للزوجة، ونحو ذلك.

قال الشيخ القرضاوي له: أما أنا فقد اخترت لابنتي رجلا أراه كفئًا لها وأمينا عليها... فإذا كان عند حُسن الظنّ به، فالحمد لله، وإذا ظهر على غير ما أحسنت الظنّ به، وتبيّن أنه رجل سوء، فخبية أمني فيه لا يعوّضها شيء لا مؤخّر ولا غير مؤخّر، بل إني حينذاك سأحرص على تلخيص ابنتي من سوءه، ولا أريد منه شيئًا غير تحرّرها منه.

قال الشيخ عبد القادر: نعم الصهر أنت، وإن موقفك لجدير أن يسجّل!

وبحمد لله، أن الشيخ القرضاوي عامل أزواج بناته جميعًا بهذه الروح، وبهذه الطريقة، وكانوا جميعًا عند حُسن الظنّ بهم، وفوق حُسنِ الظنّ، ولله الحمد والمِنَّة.^٣

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص - ١٦٣
٢ السّجّستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث، *سنن أبي داود*، [محمد محيي الدين عبد الحميد]، باب ما يقال للمتزوج، (بيروت - المكتبة العصرية، صيدا)، رقم الحديث: ٢١٣٠، ج ٢، ص ٢٤١ [حكم الألباني]: صحيح. والشيباني، الإمام أحمد بن حنبل، *مسند الإمام أحمد بن حنبل*، (مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م)، رقم الحديث: ٨٩٥٧، ج ١٤، ص ٥١٨ وقال مُخَرَّجُونُهُ: إسناده قوي رجال الصحيح.
٣ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، المرجع السابق، ص ١٦٤

المسألة الثالثة عشرة: زفاف "سهام" ثم "إلهام"

وفي ١٩٨٣/١/٦ تمّ زفاف سهام في حفل بهيج. وبعد أسبوع من زفاف سهام، كان زفاف إلهام، في نفس المنزل وبنفس الطريقة، وكان كلاهما حفلاً بهيجاً، حضره الأقارب والأحباب. وتمّ أمرهما على خير ما يحبّون ويحبّ العروسان، كما يرجون أن يكون قد تمّ على ما يحبّ الله ويرضى.^١

المسألة الرابعة عشرة: زواج ابنته "عُلا"

بعد زواج ابنته البكر إلهام، وشقيقتها سهام من زوجين كريمين، والإصهار إلى أسرتين فاضلتين، والاطمئنان عليهما في حياتهما الزوجية، كان الدور على ابنته الثالثة "عُلا"، وليس أسعد للأب ولا أقرّ لعينه من أن يُزوّج بناته من رجال ثقات يرضى دينهم وحلقهم.

تقدّم لخطبة عُلا، وهي في قطر، مهندس مدني مقيم في القاهرة، والده أستاذ جامعي معروف، وكان يعمل وقتها رئيساً لقسم الكيمياء في جامعة الملك عبد العزيز بجدة، وهو صديق قديم عزيز يعرفه الشيخ القرضاوي من سنين، كما تعرف زوجته والدة الشاب المهندس صديقة قديمة لزوجته الشيخ القرضاوي، كانتا زميلتين أيام الدراسة في المراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية، وهي ممنودية مثل زوجته، والأب من مركز ممنود، وتعلم في مدارس ممنود، وكان زميلاً لسامي - صهر القرضاوي .

ويبدو أن هذه الروابط والعوامل كلّها، كانت من المُرجّحات عند عُلا: أن تختار هذا المهندس على طبيب من أبناء الصحوة الإسلامية قد تتقدّم لها بعد أن صلّت صلاة الاستخارة، كنا هو المشروع في مثل هذه الأحوال، وقد وجدت صدرها منشرجاً لهذا الأمر، وكان الخير فيما اختاره الله.

المسألة الخامسة عشرة: الصّهرُ الثالث: حسام الدين خلف

كان الشاب المهندس، وهو زوج عُلا الآن، المهندس حسام الدين علي علي خلف، الذي قضى صباه في أمريكا مع والده، حين كان يدرس هناك للحصول على الدكتوراه، ثمّ عاد إلى مصر وحصل على بكالوريوس الهندسة المدينة من جامعة أسيوط في مصر وهو الآن يسعى للحصول على ماجستير من أمريكا.

المسألة السادسة عشرة: الدكتور علي علي خلف

أما والده، فهو الأستاذ الدكتور علي علي خلف، الذي يعرفه الشيخ القرضاوي منذ كان طالباً في المدرسة الثانوية في ممنود، حيث كان مع عدد من زملائه من شباب الدعوة الإسلامية، ثمّ شاء الله أن يتزوَّج من مجيدة، كريمة الفقيه المعروف الشيخ بدر المتولي عبد الباسط.

وبمجرّد التزاور اكتشفوا أن عندهم أي أسرة القرضاوي عروساً مناسبة لحسام، وكلّ الأبوين يبحثان لابنهما عن بنت الحلال، التي تُسرّه إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، وتحفظه إذا غاب في نفسه وماله، وكأنما وجدت الأسرة ضالّتها في عُلا. ويبدو أن حساماً لم يكن قدر رآها، كما ينبغي، فإذا هم يطلبون زيارتهم ويحلّون عليها، وكانوا على سفر، مشغولين بالتجهيز للسفر، وكلّهم كزروا الطلب، فلم يكن لهم أي أسرة الشيخ القرضاوي بدّ من الاستجابة.

وقال الشيخ القرضاوي لزوجته: كأن هذه الزيارة زيارة خطبة، أو تعرّف للخطبة.

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ١٦٤

قالت: كيف عرفت ذلك؟ قال لها: عرفتُ بالإحساس الأبويّ، وبالقرائن، وبالإلحاح في الزيارة، مع أننا زرناهم وزارونا قبل ذلك! كان ما توقّعه في محلّه، وكان همس حول الموضوع، دون الدخول مباشرة فيه.

وظلّ الأمر معلّقًا، حتّى نهاية العام الدراسيّ، وقد تحرّجت عُلا بامتياز، وعادوا إلى القاهرة في الإجازة الصيفيّة، وتقدّم الشابتان كلاهما خاطبين: الطبيب والمهندس، وتركوا لكلّ من الخاطبين الفرصة أن يلقي كلّ منهما البنت ويتحدّث إليها وتحدّث إليه.

وظهر من كلام الطبيب: أنه لا يريد من عُلا أن تعمل، وأنه يرى أن العمل مضادٌّ لوظيفة المرأة، باعتبارها زوجة، وباعتبارها أمًّا، وأنه لم يشعر بحقيقة الأمومة من والدته، نظرًا لأنها طبيبة ناجحة، وعملها يشغل وقتها وجهدها، فلا يكاد يبقى شيء لأولادها. قال: ولذا كنت إذا تحيرت في شيء أو احتجت إلى رأي أو مساندة، لا أُلجأ إلى والديّ، ولكن أُلجأ إلى جدّي وجدّي، فكانت جدتي هي أمي الواقعيّة، وجدّي هو أبي، ولا أريد أن يكون أولادي في الحياة مثل حظّي.

وكانت هذه صدمة لابنة الشيخ القرضاوي "عُلا"، وقالت له: أنا لستُ مُصيرةً على العمل، ولا مستميتة من أجله، ولكن أرى أن يترك لي الخيار في ذلك، فقد يوجد من العمل ما لا يستغرق كلّ الوقت وكلّ الجهد كالطبّ، وفي هذه الحال نتشاور فيما يمكن عمله، قال لها: ترك العمل شرطي الوحيد، ولا شرط غيره. قالت: هذا ما لا أستطيع أن أوافق عليه بسهولة.

وقد حسّم هذا الموقف التردّد الذي كان لدي عُلا بين الخاطبين، وقرّرت اختيار حسام على بصيرة. ولعلّ هذا وافق هوى في الأسرة، نظرًا للمودّة القديمة بين أسرتهما لأبوي حسام، ومن الخير أن يُصهر المرء إلى أسرة يعرفها وتعرفه، ويألفها وتألّفه، ويكون هذا مزيدًا من الضمان لنجاح الزواج. وهذا لا يعني طعنًا أو تنقّصًا من أسرة الخاطب الآخر، فقد كانوا نعمّ الناس، ونعمّت الأسرة، ولكن على كلّ حالٍ ليس بين أسرتهما أيّ صلة من قبل.^١

المسألة السابعة عشرة: خطبة "عُلا" وحفلة العقد

وفي أوائل شهر أغسطس سنة ١٩٨٣م تمّت الخطبة، وقرءوا الفاتحة، وقدمت "الشُبُكَة" التي اعتادها المصريّون.

وكان لا بدّ أن يعقدوا العقد، ويحتفلوا بذلك احتفالًا يليق بمنزلة الأسرتين، ويكون فرصة لاجتماع الأصدقاء والأحباب في هذه المناسبة الطيّبة.

وحدّدوا موعد الاحتفال بعد قليل في فندق "سونستا" بمدينة نصر في مصر، بعد أن عقدوا العقد في منزلهم، بحضور عدد من أقرباء العائلتين، على رأسهم جدّ العريس العالم الفقيه الحنفي الشيخ بدر متولي عبد الباسط، الذي طلبّ الشيخ القرضاوي منه أن يتولى العقد بنفسه ولكنه - للفضله وعُلو قدره - أبي، ووكل إلى الشيخ القرضاوي هذه المهمة رحمه الله.

وفي المساء ذهبوا إلى الاحتفال العام في "سونستا"، وقد خصّصوا مكانًا للنساء داخل الفندق، ومكانًا للرجال حول حمامات السباحة، وقد اتّى دعوتهم عدد كبير من رجال العلم والفكر، ورجال الدعوة، والأصدقاء، بجوارٍ عدد من الأهل والأقارب لكلّ من العروسين جاءوا من الرّيف، فكانت ليلة طيّبة قرّت بها العيون، وشبعت فيها البطون، وابتسمت فيها الثغور، وانشرحت فيها الصدور، وإن لم يكن فيها شيء مما تعودّه كثير من المصريّين من الأغاني والموسيقى، وربّما الرقص أيضًا، فمثل هذا لا يليق بالداعيّين، كما لا يليق بالمدعوّين.

١ ألفرّضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ١٧٢

وقد اتفقوا على أن يكون الزفاف في بداية الصيف القادم ١٩٨٤م إن شاء الله. وقد تمّ ذلك بحمد الله، كما اتفقوا، وعادت غُلا إلى قطر فترة من الزمن، لتقوم بالإجراءات اللازمة لدراسة الماجستير في أمريكا، وقد يسّر الله تعالى الأسباب، وسهّل الصّعب، وتقرّرت بعثتها إلى أمريكا من دولة قطر، وسافرت هي وزوجها إلى تكساس، لتدرس هي تخصص "البيولوجيا" حول هندسة الوراثة، ويدرس زوجها تخصص "إدارة المشاريع الهندسية"...

المسألة الثامنة عشرة: زواج ابنته "أسماء"

وقد تأخّر زواج "أسماء". قال الشيخ القرضاوي: هذه بمناسبة زواج ابنتي الصغرى أسماء. لقد كانت هي أوّل من خطبها خاطب، وهي لا تزال في المرحلة الإعداديّة، ثمّ شاء الله أن تتخرّج، وأن تتأخّر نسبيّاً في زواجها، وكان الشيخ القرضاوي لا يحبّ أن يتعجّل زواج ابنته ممّن لا يثق به ويطمئن إليه مائة في المائة... هذه طريقتة، وكلّ شيخ له طريقتة.

وحتىّ يكون صادقاً مع نفسه، لقد تقدّم شابّ مصري، من شباب الصحوة الإسلاميّة، تخرّج حديثاً في كليّة الطبّ، ووالده لواء في الجيش المصريّ، هو يريد أن يضاير الشيخ القرضاوي، أن يتزوّج إحدى بناته، وإن لم يرها، وكانت ابنته الثالثة "غُلا" قد خطبت، ولم يبق إلا ابنته الصغرى الرابعة أسماء، وأمام تخرّجها سنتان، فقال: أنا لست مستعجلاً، أنا مستعدّ أن أنتظر سنتين أو أكثر.

ولم يعطه الشيخ القرضاوي وعداً صريحاً، ولكن الشابّ الكريم ظلّ ينتظر، حتىّ إذا عرف بتخرّج أسماء، أرسل إلى الشيخ القرضاوي أن يذكره بطلبه، أو أرسل أحد إخوانه بذلك، لا ينكر تماماً، ولكن وجد الشيخ القرضاوي أن وجوده في مصر، ووجود ابنته في قطر، وارتباطها بجامعة قطر، وانتظارها التعيين في كليّتها معيدة أو أخصائيّة، علميّة، يعوق ارتباطها بشابّ يعيش في مصر.

لهذا اعتذر الشيخ القرضاوي بلطف للشابّ النبيل، الذي لا يرى ابنته، ولم يهتمّ بذلك كثيراً، وكأنه مطمئنّ إلى أنها ستعجبه! وإنه لا يزال يلوم نفسه كلّما تذكّر موقفه مع ذلك الشابّ النبيل، الذي ظلّ ينتظر ابنته ولم يكن رآها، ويكرّر الشيخ القرضاوي اعتذاره إليه. ولأنه يعتبر نفسه السبب في تأخيرها إلى حدّ ما، لذا كان في غاية القلق، كلّما مرّت عليها سنة، ولم يهيئ الله لها الزواج الصالح. وفي المثل: "كلّ تأخيرة وفيها خيرة". وكلّ شيء بأوان. ويقول القرآن: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ [٨]﴾.^٢

المسألة التاسعة عشرة: الصهر الرابع الدكتور هشام علي المرسي

فعندما جاء الأوان، تتقدّم ابن الهلال الذي كانوا ينتظرونه... إنه الشابّ الحركيّ الصالح الدكتور هشام المرسي علي المرسي، الذي ارتباط منذ صباه بالحركة الإسلاميّة، وله فيها نشاط ملموس، ووالده الدكتور المرسي علي المرسي: رجل ملتزم محبوب من كلّ من يعرفه من أهل قطر والمقيمين فيها، وقد كان طبيباً مثاليّاً بالصحة المدرسيّة، التابعة لوزارة التربية والتعليم، وكان يقوم بواجبه خير قيام... ثم استقال، وأنشأ عيادة خاصّة، فأقبل عليه الناس من كلّ الفئات والمستويات، لأنه طبيب بارع في تخصصه، وهو طبّ الأطفال، ولأنه رجل صالح يعتقد الناس أنه رجل مبارك، يجري الله على يديه الشفاء، وزوجته صديقة زوجة الشيخ القرضاوي، وبنته صديقة لبنات الشيخ القرضاوي.

١ ألفقرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ١٧٢ - ١٧٤
٢ القرآن الكريم، الرعد (١٣)، الآية [٨].

ولذا رحّب الشيخ القرضاوي بـ "هشام" ورحّب الأسرة كلّها به، وعلى طريقة الشيخ القرضاوي كان لا بدّ أن يرى مخطوبته وتراه، ويحدّثها وتحديثه، حتّى يتعرّف كلاهما على الآخر، حتّى يؤدّم بينهما، وتبذر بذور المودّة بهذه الرؤية وهذا اللقاء.

والمهم أن هشامًا قد تكفّل أن يأتي إلى عروسه بالشبكة التي يراها تستحقّها، وكان في ذلك نبيلًا كريمًا. وقد تمّت الإجراءات بسرعة، وأعلنت الخطوبة.^١

المسألة العشرون: عقد ابنتاه أسماء وزفافها

وفي ثاني أيام عيد الفطر (٢ شوال ١٤١٠ هـ) تمّ العقد، في منزل الشيخ القرضاوي بالدفنة - كما تسمّى في قطر - ودعى الأحبة من طرفي العائلتين إلى وليمة العروس، كما هي سنة. وقبل إجازة الصيف تمّ الزفاف بحمد الله.

وبهذا تمّ زواج بناته الأربع جميعًا، من أزواج كلّهم خيار من خيار. نسأل الله لمنّ جميعًا: السعادة في حياتهنّ، وأن يقرّ أعينهن بالذريّة الصالحة، إنه سميع الدعاء.^٢

المسألة الحادية والعشرون: أحفاده من بناته

* لدى ابنة الشيخ القرضاوي إلهام من الذريّة: محمّد وإيناس وأميرة ويوسف. وكلّهم قد تزوّجوا، وندعو الله أن يرزقهم بالذريّة الطيبة.

* ولدى سهام: سُها وعمر وضحي، وقد خاطبت سُها، ونسأل الله أن يتمّ عليها بخير،^٣ وتزوّجا عمر وضحي.

* ولدى عُلا: أحمد وآية و تُقى، وقد تزوّجوا كلّهم، ومنهم آية أنجبت "جنى" وبهذا أصبح الشيخ القرضاوي جدًّا ثانيًا، كما أصبحت زوجته أم محمّد جدّة ثانية.

* ولدى أسماء: ابنتها "يسر" أحد عشر من الأحفاد، كلّهم من بناته. ومن المحتمل قد زاد على عددهم الآن.

١ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتّاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ١٧٦ - ١٧٧، بالاختصار

٢ المرجع السابق، ص ١٧٧

٣ قد تمّ زواجها بحمد الله، وسافرت مع زوجها، الدكتور آدم خضر إلى أمريكا.

المبحث السابع: أبنائه وحالاتهم التربوية والتعليمية

هذا المبحث يتضمن ثلاثة مطالب، وتفصيلها كالاتي:

المطلب الأول: عدد أبناء الشيخ القرضاوي

للشيخ القرضاوي ثلاثة أبناء وترتيبهم طَبَقًا لأَعْمَارِهِم:

* ابنه الأكبر محمد

* ثم ابنه الثاني عبد الرحمن

* وابنه الثالث والأخير أسامة، وهو الأصغر منهم.

المطلب الثاني: حالاتهم التربوية

هذا المطلب يحتوي على خمس مسائل، وبيانها فيما يلي:

المسألة الأولى: ميلاد ابنه محمد

في السنة الدراسية ١٩٦٧م - ١٩٦٨م، وفي مُنتَصَفِ شهر أكتوبر: ولد ابن الشيخ القرضاوي "محمد" الذكر الأولى وابنه الأكبر من أبنائه في قطر، وكان لولادته فَرْحَةٌ عارمة، لا في قلب أسرهم فقط، ولكن في الدوحة كلها، فقد كان الناس مهمومين بأمره، ويدعون للشيخ القرضاوي أن يرزقه الله بإخوة لبناته الأربع، ولقد استجاب الله الدعاء.^١

فَرِحُوا وَسُرُّوا سرورًا خاصًا جميعًا، بحكم الطبيعة البشرية، فكلّ الناس يحبّون أن يكون لهم أولاد من الجنسين وخصوصًا من الذكور، فهم الذين يُجْلِدُونَ اسم الأب، وبهم يَصْمَنُ استمرار العائلة، وبدونهم تنقرض العائلة بعد جيلٍ واحدٍ، وهذا ما جعل الشاعر العربي يقول: بنونا بنو أبنائنا، وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأبعاد!

على أن الأولاد جميعًا - بنين وبنات - إنما هم هبات المولى عزّ وجلّ لعباده، كما قال في كتابه: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ [٤٩]﴾ ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ [٥٠]﴾.^٢

قال الشيخ القرضاوي: أن أحد مشايخه الذين كنت أعتزّ بهم، وأكن لهم الكثير من مشاعر الحبّ والتقدير، قد نصحني بعد أن رزقت بابنتي الرابعة أسماء: أن أكتفي بذلك، وأقف عند هذا الحدّ، ولا داعي لتكليف أم العيال بالحمل والولادة! ومّا قاله لي: يبدو يا شيخ يوسف، أن حظّك في البنات، وهن خير وبركة، فارض بما قسمه الله لك، وادع الله أن يبارك لك فيما أعطاك، وربّ أنثى خير من عدد من الذكور.

ولم يشأ القرضاوي أن يعترض على شيخه، أدبًا واحترامًا، ولكنه لم يقتنع بما قاله له، وسيما قوله "ارض بما قسم الله لك"! فَمَنْ أَيْنَ أُعْلِمُ: أن الله قسم له الإناث دون الذكور؟ وما زال باب الرجاء في فضل الله مفتوحًا، والقرضاوي في الثلاثينات من العمر، وزوجته في العشرينات، وما زال قادرين الإنجاب؟

١ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م، ج ٣، ص ١٥٩

٢ القرآن الكريم، الشورى (٤٢)، الآيتان [٤٩-٥٠].

على كلِّ حالٍ، كانت هذه نصيحة شيخه رحمه الله، وقد قالها من باب الإشفاق على القرضاوي، ولكن القَدَرُ حَيَّبَ ظَنَّهُ، وروقت بمحمَّد، ثمَّ بعد محمَّد بابنين آخرين، هما: عبد الرحمن، وأسامة، فكما تتابع البنات الأربع، تتابع الذكور الثلاثة، وأدى الشيخ القرضاوي الشكر قائلاً: والحمد لله على ما أعطى، اللهم ما أصبح وأمسى بي من نعمة فمك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر.^١

المسألة الثانية: عقيقة محمَّد

مَّا شرعه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأُمَّته: العقيقة، وهي ذبيحة من الغنم أو من البهائم الأنعام تقرُّباً إلى الله تعالى، وشكرًا على نعمائه، يوسِّع المرء بها على أهله وأولاده، يهدي منها لأقربائه وأصدقائه، أو يدعوهم للأكل منها، ويوزع جزءًا منها على الفقراء والمساكين، ليشاركهم في أفراحه ومسرَّاته.

وبعض المذاهب الإسلاميَّة ترى أن يذبح عن الابن الذكر شاتين، وقد ورد ذلك في حديث نبوي شريف عن عائشةَ قَالَتْ: يَعْقُ عَنِ الْغُلَامِ شَاتَانِ مَكَاْفَتَانِ، وَعَنِ الْجَارِيَةِ شَاةٌ قَالَتْ عَائِشَةُ: «فَعَقَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ شَاتَيْنِ يَوْمَ السَّابِعِ».^٢

لأن الناس يفرحون بالذكر أكثر، فعليهم أن يبذلوا مقابل هذه الفرحة، فيما فيه خير للناس. وكانت عقيقة محمَّد: أربع خرافٍ، اجتمع عليها الأصدقاء والأحبة من المصريين والقطريين والفلسطينيين وغيرهم ممن يقيمون في قطر، حتى قال بعضهم: لقد دعينا إلى عقائق كثيرة، ولكن لم نذق ألدَّ ولا أحلى من هذه العقيقة! قال القرضاوي: إنما حلاها الحب، أما سمعتم المثل القائل: بَصَلَةُ الْمُحِبِّ خروف؟ فماذا يكون خورف المُحِبِّ!!؟

قال الشيخ القرضاوي: وأوَّدُ أن أقرَّر حقيقة هنا، وهي: أني - برغم شوقي إلى الأبناء الذكور وفرحتي الغامرة بابني الأول - لم ينل ذلك من حبي لبناتي الأربع، ولم يتغيَّر قلبي من ناحيتهن، ولم أسرف في تدليل ابني الأول، كما هو المعتاد في مثل هذه الأحوال، التي يفقد فيها الآباء والأمهات فيها قيمة العدل والمساواة بين الأولاد، لا سيَّما مع المولود الأول، أو الابن "الذكر" الأول، أو المولود الأخير، الذي يقولون عنه: آخر العنقود، سَكَّرَ مَعْقُودًا! وجدير بالذكر هنا أن الشيخ القرضاوي لا يحسُّ بأيِّ تفضيل لأحد من أولاده - ذكورًا ولا إناثًا - على أخيه وأخته، وكثيرًا ما سألتني الصحفيون في حوارهم: أيُّ الأولاد أحبُّ إليك أو أقرب إلى قلبك؟ فأقول كلَّهم حبيب إليّ، قريب إلى قلبي، لا يوجد "أفعل تفضيل" بين بعضهم وبعض، وهذه حقيقة أعلنها صراحة وأشهد الله عليها.

ولكنه يشهد هنا شهادة مهمَّة أيضًا، وهي: أن البنات نالهنَّ من اهتمامه أكثر مما نال الأبناء الذكور. وسبب ذلك: أن الذكور رزقه بهم، في فترة الانطلاق والانتشار في العالم، لم يفرِّغ لهم كما فرِّغ لأحواتهم. وربما أدرك محمَّد بعض هذا الاهتمام في سنواته الأولى أكثر من أخويه.^٣

١ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ١٥٩ - ١٦١ باختصار
٢ الموصلي التميمي، أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال (المتوفى: ٣٠٧هـ)، *مسند أبي يعلى*، [حسين سليم أسد]، (دمشق - دار المأمون للتراث، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م)، رقم الحديث: ٤٥٢١، ج ٨، ص ١٧، [حكم حسين سليم أسد]: إسناده صحيح. ورواه أحمد، برقم الحديث - ٦٦٩٨، والنسائي، برقم الحديث - ٤٢١٢ عن عبد الله بن عمرو.
٣ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، المرجع السابق، ج ٣، ص ١٦١ - ١٦٢ (بالاختصار).

المسألة الثالثة: طُفُوئُهُ

كان جسم محمد رياضياً، واستعداده جيداً. ولقد كانت طفولة محمد هادئةً وَسَوِيَّةً ومُرِيحَةً بفضل الله تعالى، ولم يحدث فيها ما يُزَعِجُ أو يُفْلِقُ، بل مرّت خفيفة لطيفة، كما تمرّ نَسَمَاتُ الصباح في أيّام الربيع. ولم يكن أخواته البنات يشعرون بِعَيْزَةٍ منه، أو منافسة له، أو نحو ذلك، بل كُنَّ جميعاً يُحِبُّنَهُ ويتنافسْنَ على حمله، وفي أسفارهم كانت كلّ واحدة تحرّص على أن يكون له حظٌّ في حَمَلِ "ميمي" وهو اسم "الدلع" أو التديل كما يقول المصريون، وكان محمد إذا سئل عن اسمه، يقول: أنا "ميمي ضاوي" أي محمد القرضاوي...

ولا يوجد مانعاً شرعياً في هذا التديل الذي يستخدمه المصريون وغيرهم في مخاطبة الأطفال، وقد كان العرب قديماً، يفعلون ما يشبه ذلك عن طريق تصغير الأسماء تصغير "تمليح" كما يقول العلماء، فيطلقون على عامر: عُومِر أو عُمِير. وعلى زينب: زُونِب، كما كان عندهم طريقة الترخيم في النداء بحذف آخر الكلمة، فبدل أن يقال: "يا صاحب" يقال يا صاح. وبدل "يا فاطمة" يقال: فاطم! وكان الرسول يدلل بعض الأولاد بالتكنية كقوله لابن أبي طلحة: يا أبا عمير، ما فعل التُّعَيْر؟!

المسألة الرابعة: ميلاد ابنه عبد الرحمن

في الثامن عشر من شهر سبتمبر سنة ١٩٧٠م - ولد ابن الشيخ القرضاوي - الذكر الثاني - "عبد الرحمن" في قطر. فمنذ ابنتهما أسماء: آثرهما أن يختاراً لأولادهما أسماء تراثية، من أسماء الأنبياء أو أسماء الصحابة والسلف.

وقد جاء في الحديث الصحيح: عَنْ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ»^١.

وكان الشيخ القرضاوي يُؤثِّرُ اسم "عبد الله" لأنه كان اسم أبيه، وفي ذلك إحياء لذكره. ولكن زوجته فَضَّلَتْ اسم عبد الرحمن، فلم يحبّ القرضاوي أن يرفض رغبته.

كان عبد الرحمن سليم الجسم، مُعافى في بدنه، ولكنه من صِغَرِهِ كان يشكو من التهاف اللوز باستمرار، حتى كَدُّوا إجراء له عملية لاستئصالها، لولا أن صديق الشيخ القرضاوي الدكتور شوقي الصيرفي الطبيب الشهير في الأنف والأذن والحنجرة، نصحهم بأن لا يُجْرءونها، وطالبهم بالصبر عليه، حتى يَكْبُرَ قليلاً، وسيشفى منها بإذن الله، وقد كان.^٢

المسألة الخامسة: ميلاد ابنه الأخير "أسامة"

في فبراير ١٠ سنة ١٩٧٢م ولد ابنه الأخير "أسامة". كان ميلاد أولاده السابقين كلّهم في أواخر السنة الميلادية ٣ في سبتمبر، و ٢ في أكتوبر، وواحدة في ديسمبر، أما أسامة فجاء بخلاف المألوف، وولد في الشهر الثاني من السنة. ولم يكن بينه وبين شقيقه عبد الرحمن إلا سنة وخمسة أشهر، وبهذا أصبح له ثلاثة من البنين، وأربع من البنات.

والحقيقة أن معاملة الشيخ القرضاوي للأولاد "بنين وبنات"، وكذلك معاملة أمّهم: كانت مثاليّة، فلم يكونا يُدَلِّلان الأولاد إلى حدّ الإفساد، ولا يَشْتَدَّان عليهم إلى حدّ القسوة. والتربية السليمة في نظر الشيخ القرضاوي هي ما كانت بين التديل المُمَيِّع للشخصية والقسوة المُحَطِّمَة لها.

١ الترمذي، سنن الترمذي، [تحقيق وتعليق: إبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (ج ٤، ٥)]، باب ما جاء ما يستحب من الأسماء، المرجع السابق، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م)، رقم الحديث: ٢٨٣٣، ج ٥، ص ١٣٢، [وحكم الألباني: صحيح]. ورواه مسلم، برقم الحديث - ٢١٣٢، وأصحاب السنن عن ابن عمر.

٢ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م، ج ٣، ص ٢١٤ - ٢١٥

ولذا نشأ أولاده نشأة سَوِيَّة، ليس فيها غَيْرَةٌ مُفْرِطَةٌ، أو شعور بالظلم، أو إضرار حسد لأخ أو أخت، وما فضَّلاً ولداً على بنت، ولا واحداً على آخر لأيِّ سبب.

ولقد رأينا الناس يُدَلِّلُونَ الطفل الأوَّل أكثر مما يلزم فيفسدونه، ومثله: الذكر الأوَّل أو الطفل الأخير. وأنهما لم يفعلا ذلك أبداً، فطرة لا تكلفاً، لم يُحَابَّأ أيُّ طفل على حساب الآخر، بل يشعر الشيخ القرضاوي أنه يُحِبُّ الجميع حباً متساوياً، ويعتقد أن والدتهم مثله. ولكنَّ أسامة الطفل كان يُدَلِّلُ نفسه، ويُفرضُ دلالة على الجميع، ويشعر بأنه أصغر واحد في العائلة، كما يحسُّ أنه آخر العُنُقُود، فيبدو أن الأم قد اكتفت بما آتاه الله من أولاد بلغوا سبعة: أربع بنات، وثلاثة بنين. وإن كان الشيخ القرضاوي هو شخصياً كان يتميَّ ثامناً، يسمِّيه: "عبد الله" على اسم أبيه، فقد شَعَرَ أخيراً، أنه لم يعط أباه حَقَّهُ في إحياء اسمه! وكان الذي يشجِّعه على ذلك. رزقهما الله بأولادهما السبعة، وزوجته لم تتمَّ الخامسة والثلاثين في ذلك الوقت. ولكنَّ تربية سبعة أولاد في سنين متقاربة ليست بالأمر السهل، فكان الحقُّ مع أم محمَّد في الاكتفاء، ويسألان الله أن يعينهما على حسن تربيتهم حتى ينشأوا صالحين في سيرتهم، متفوقين في دراستهم. ومن فضل الله عليهما: أن أولادهما جميعاً كانوا يتمتَّعون بنسبة عالية من الذكاء.

وكان أسامة يريد أن يَكْبُرَ بسرعة، ليكون له حظُّ الكُبَرَاءِ، ولكنَّ إذا كان الحظُّ مع صِغَرِ السِّنِّ قال: أنا أصغركم سنًّا! وكانت أمُّه تقول له: ادخل نَمِّ يا أسامة، فيقول لها: تريدان أن تستريحي منِّي!
هكذا كانت له منهم كفاتِه ونوادره المحبِّبة.^١

١ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م، ج ٣، ص ٢٦٣ - ٢٦٤

المطلب الثالث: حالاتهم التعليمية باختصار

وفيه خمس مسائل، وبيانها كآتي:

المسألة الأولى: دخول محمد المدرسة

فقد كان الشيخ القضاوي أَدْخَلَهُ مدرسة أبي بكر الصديق الموجودة بِجِوَارِ المعهد الديني في قطر، وأخذه إلى المدرسة معه في سيارته، وكان يُسْمَعُ له القرآن في ذهابه به، بل كان آخذه عِدَّةَ مَرَّاتٍ في السماء ليشارك في ألعاب "الجمباز" في المدرسة. في نهاية العام الدراسي ١٩٧٣م ١٩٧٤م، فقد نجح محمد في السنة الأولى الابتدائية، وكانت ترتيبه الأول.^١

المسألة الثانية: تخرّج محمد في كلية الهندسة

كان محمد قد تخرّج في كلية الهندسة في سنة ١٩٩٠م، وبعد ذلك حصل الدكتوراه في نفس الكلية من أمريكا، وهو كان مبتعثًا من قطر. ثم عُيِّنَ معيدًا.^٢

المسألة الثالثة: تخرّج عبد الرحمن في كليته

وقد تخرّج عبد الرحمن في كليته في سنة ١٩٩٠م، ونجح في كليته بامتياز.^٣

المسألة الرابعة: دخول أسامة كلية الهندسة

دخل أسامة ابنه الأخير كلية الهندسة بجامعة قطر في سنة ١٩٩٠م.^٤

وجدير بالذكر، للشيخ القضاوي أربع بنات، ومنهنّ "إلهام" و"سهام" وُلِدَتَا في مصر، ثمّ "عُلا" و"أسماء": وُلِدَتَا في قطر. وثلاثة أبناء كلّهم وُلِدُوا في قطر، وهم محمد وعبد الرحمن وأسامه.

أما أولاد القضاوي الخمسة الآخرون: علا، وأسماء، ومحمد، وعبد الرحمن، وأسامه، فقد ولدوا في دولة قطر بعد إعارته إليها بعد.

المسألة الخامسة: أحفاده من أبنائه

وقد تزوّج فيما بعد ابنه الأكبر محمد، وأنجب طفلين هما: يوسف وفيصل.

وتزوّج أسامة، وأنجب طفلة سمّاها: جميلة، وهي فعلاً كاسمها، ثمّ أنجب أخرى سمّاها: ليلي.

وتزوّج عبد الرحمن. ويحفظ الله تعالى جميع أحفاده وحفيداته، ويكتب لهم التوفيق والسعادة.

وعند الشيخ القضاوي سبع ماجستيرات، وأربع دكتوراهات: ثلاثة من إنجِلِيزَا، لإلهام وسهام وأسماء، كلّها في العلوم، والرابعة من أمريكا لمحمد في الهندسة الميكانيكية، الماجستيرات لعُلا وعبد الرحمن وأسامه. ووفق الله الجميع وبارك لهم في شهاداتهم ووظائفهم وحياتهم.^٥

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م، ج ٣، ص ٣٣٣

٢ المرجع السابق، ج ٤، ص ٦٣٠

٣ المرجع السابق، ص ٦٣٠

٤ المرجع السابق، ص ٦٣٠

٥ المرجع السابق، ص ١٧٧ - ١٧٨

المبحث الأول: طُفُولَةُ الشيخ القرضاوي وشبابه

يشتمل هذا المبحث على خمسة مطالب، وبيانها فيما يأتي:

المطلب الأول: كفالة عمّه أحمد

بعد موت أبيه كفله عمّه أحمد، وهو الوحيد الباقي من أعمامه الخمسة. وكان فلاحًا أميًا لا يقرأ ولا يكتب. ولكنه كان حكيما عاقلا غير متهور، وكان عطوفا رقيق القلب، وكان محترما بين الناس، رغم أنه لم يكن يملك أطيانا، وهي التي تجعل للإنسان قيمة في الريف.^١

وكان يساهم الزراعي مع ابنه. لم يره الشيخ القرضاوي يشكو من مرض من الأمراض الشائعة بين الناس، فقد كانت الحركة له بركة، وكان سعيه وكدحه في سبيل عيشه من أسباب تمتعه بالصحة. وكان يُصَلِّي الصلوات - حتى الفجر - في المسجد، وتلك سنة حسنة توارثها الخلف عن السلف. وكان يأكل الخبز الجاف - ومعظمه من الذرة - ويأدمه بالخبز القريش، أو الجبن القديم بالمش يتناثر منه الدود، ثم يشرب من الثلثة المصنوعة من الفخار، ويقول: الحمد لله، اللهم أدمها نعمة، واحفظها من الزوال.

وهكذا كان عموم أهل القرية، أو قل: عموم أهل مصر، قانعين بما رزقهم الله، مؤمنين بالحديث النبوي القائل: " أرض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس." كما عن أبي وإيل، قال: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: " اَرْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ، وَأَدَّ مَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ، وَاجْتَنِبَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكَ تَكُنْ مِنْ أَوْرَعِ النَّاسِ."^٢

ومرددين أحيانا قول الشاعر: إذا ما كنت ذا قلب قنوع فأنت ومالك الدنيا سواء!

ثم يحكي له نكات (جحا) وحكمه وموافقه المضحكة، ومنها: أنه جمع مبلغا من المال، وذهب إلى سوق الحمير، ليشتري حمارا، فسأله بعضهم، إلى أين يا جحا؟ قال: إلى السوق لأشتري حمارا. وقال له السائل: قل. قال: ولماذا (إن شاء الله)؟ الفلوس في جيبي، والحمير في السوق! فذهب إلى السوق، وترصده بعض اللصوص، فسرقوا منه الفلوس، فلما رجع، سأله نفس السائل الأول: اشتريت الحمار يا جحا؟ قال: إن شاء الله الفلوس سرقت!

المطلب الثاني: رعاية أمه

مات أبوه وهو في الثانية من عمره، وبقيت أمه في بيت العائلة حيث لها ابن له في الدار، في حارته المشتهرة بحارة (أبو سمك) وكان لنا من الدار حجرتان إحداهما شتوية، في الدور الأول، يسمونها القاعة، وفيها فرن يوضع فيه بعض الحطب في الشتاء لتدفئة المكان، وحجرة في الدور الثاني في الصيف.

قال القرضاوي: ومن حسن تفكير والدي: أنها وجدت القاعة التي نعيش فيها في الشتاء ليس لها نوافذ إلا الباب، فإذا أغلق الباب كانت مظلمة تماما في عزّ النهار. ولا تدخلها أشعة الشمس ولا الهواء، وكانت هذه الحجرة ليس عليها أيّ بنيان فوقها، فجاءت بنجار وصنع لها نافذة في السقف يدخل منها الضوء والهواء.^٣

١ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م، ج ١، ص ٨٠)

٢ السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث، الزهد لأبي داود السجستاني، باب من خبر ابن مسعود، (حلوان - دار المشكاة للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م)، رقم الحديث: ١٣١، ج ١، ص ١٣٩

٣ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، المرجع السابق، ج ١، ص ٨٢

وكان جدّه واسمه علي أيضاً، علي اسم جدّه لأبيه يعمل تاجرًا، يتاجر في الفواكه في فصل الصيف، وهو تاجر جملة وقطاعي، وفي فصل الشتاء يتحوّل إلى تاجر حبوب، حيث لا توجد فواكه في الشتاء. كان جدّه تاجرًا مستقيماً، لا يكذب ولا يغش، ولا يحلف، ولا يبيع إلا البضاعة السليمة والطّيبة. وقد جاء في الحديث المطهّرة: **عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الْأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ، وَالصَّدِّيقِينَ، وَالشُّهَدَاءِ»**.^١

وقد أنجب جدّه من جدّته - واسمها عائشة أيضاً كاسم جدّته لأبيه، وهي من آل اليزيديّ، ابنين وخمس بنات، مات أحد الابنين وبقي الآخر، وهو خاله الوحيد عبد الحميد. وخاله هذا آية في الذكاء، وحضور البديهة، وقوّة الذاكرة، وله حضور وفصاحة وجرأة وشخصيّة، ولو قدر له أن يكمل تعليمه لكان له شأن إذا ساعده القدر، وكان يدرس في المدرسة الألوّية بمحلة روح. وقد ورث خاله التجارة من أبيه، وظلّ يعمل بها جُلّ عمره، ولكن - رغم فرط ذكائه - لم يكن له فيها حظّ، ظلّ (محلّك سر) لا يتقدّم خطوة إلى الأمام. مما يدلّ على أن الرزق ليس يأتي بالذكاء وحده.

كان جدّه رجل أسرة، يحبّ أن يجمع بناته حوله كلّما تسير ذلك، وخصوصاً في الأعياد والمواسم والمناسبات، قال القرضاي: فكاننا نلتقي أنا وأولاد خالتي في بيت جدّي الذي يجمعنا، وكان لعننا في دار جدّي أكثر منه في (دار القرضاي) لأن أولاد عمي ليس فيهم أحد قريب من سيّ. بخلاف أولاد خالتي. وكان جدّه يحبّهم جدّاً - أولاد بناته - ويعزه بشكل خاص، لعلّ ذلك لظروف يتمي المبكر، ولكنه كان رجلاً جاداً، وكان إذا غضب صاح صيحة تكاد تهتز لها جدران المنزل.

وقد توفي جدّه وهو في السابعة من عمره تقريباً، وحضر القرضاي جنازته، وسمع الناس يثنون عليه، ويقولون: كان رجلاً صالحاً، لم يعرف عنه موقف سوء، وجاء الناس من البلاد التي حوله يعزون فيه.^٢ وكانت جدّته تحبهم كأولاد بناتها، وتخصّ "القرضاي" بمزيد من الحبّ والعناية، وكانت تحبّ له الأشياء الطّيبة، لأكلها عند حضوره عندها. وكانت خالاته يحببته حباً جمّاً، كأنه ابن لكل واحدة منهم، وزاد ذلك الحب والاهتمام بعد موت أمّه وهو في الخامسة عشر من عمره، فأصبح جميعاً أمهات له بعد أمّه، وازدادت عناية جدّته به.

المطلب الثالث: للناس بيت وللقرضاي بيتان

كان مما أكرمه الله به: أن له بيتين. أوّلها: بيت العائلة، وهو البيت الذي أقام فيه مع عمّه وأولاد عمّه، ومعه والدته. والآخر: هو بيت جدّه الذي كان يذهب إليه كثيراً، ويقوم فيه طويلاً، لسببين - السبب الأوّل: أنس والدته بأهلها، وقربها من أمّها وأبيها وإخوتها. والآخر: أن له أولاد خالة قريبين من سنّه، فكانت فرصة للعب معاً، ولم يكن في أولاد عمّه ولا عمّته قريبون من سنّه. فكثيراً ما يقضي معظم اليوم في بيت جدّه ولا يعود إلا بعد العشاء والعشاء.

وكان بيت جدّه أيسر حالاً من بيت عمّه، إذ كان جدّه تاجرًا، وعمّه فلاحاً، والتاجر كانوا أكثر يسراً من الفلاحين الذين يعانون في معيشتهم. ولذا كان بيت جدّه أقرب إلى المدينة من بيت القرضاي، فهم يستخدمون (وابور الجاز) مع الكانون أيضاً. وهم يستخدمون الكنب (الاستانبولي) والكراسي والخزّان، في حين لا يستخدم في بيت القرضاي غير (المصطبة) المبنية بجوار الحائط، فهي كنبته المفضلة، أو قل: الوحيدة.^٣

١ الترمذي، سنن الترمذي، [تحقيق وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي ج ٣]، باب من جاء في التجار وتسمية النبي صلى الله عليه وسلم، رقم الحديث: ١٢٠٩، ج ٣، ص ٥٠٧، [وحكم الألباني: ضعيف].

٢ ألفقرضاي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٨٤

٣ المرجع السابق، ص ٨٩

وكان بيت جدّه يهتم بالفواكه، باعتبار جدّه تاجرا كبيرا من تجّار الفواكه. وفي بيت القرضاوي - معظم الفلاحين - لا يعرفون من الفواكه إلا الجميز والتوت والبطيخ والعجّور ونحوها. فكان بيت جدّه فسحة له، يستمتع بطيباته، وينعم بخيراته. وبعد أن مات جدّه أصبح البيت بيت خاله.

المطلب الرابع: كيف مَضَى طُفُولُته وشبابه؟

كانت طُفُولُته - بحمد الله - سليمة من الناحية الصحية، لو لا ما أصبحت به مما يصاب به عامة المصريين من الأمراض المتوطنة (البلهارسيا والإنكلستوما والإسكارس - ثعابين البطن).

قال القرضاوي: ولا أذكر أنني أصبت بمرض خطير في طُفُولِي، إلا ما يصيب الأطفال من سخونة عارضة، لعلها نتيجة ما عرف بعد باسم "الإنفلونزا"، وإن كان أهل القرية يجعلون سبب ذلك هو "العين" التي قد تُدخِلُ الحمل القدر، والرجل القبر، ويعبرون عنها عادة بـ "الحسد"، فإذا أصبت بشيء من ذلك قالوا: الولد محسود. ولا سيّما أيّ كنت نامياً جسناً النمو، وموفقاً في الكتاب والمدرسة، فمثلي يحسد في نظرهم.^١

وعندهم رقية متوارثة للمصاب بالعين أو بالحسد. وهي عبارة عن وعاء فيه جمرات متقدة توضع عليها قطع من "الشبّة والفسوخة". ويطلب من المحسود أن يجرّ من فوقها سبع مرّات، في سبع خطوات. والراقية - وقد تكون أمي أو جدّي أو خالتي - تقول: الأوّله "أي الأولى" بسم الله، والثانية: بسم الله، إلى السادسة، والسابعة: رقية محمّد بن عبد الله، الذي رقى واسترقى، من كلّ عين بيضا، وكل عين زرقا، رقيتك من عين "الرجل" في عينه سناجل، ومن عين المرأة في عينها شرشرة، من عين الجار نارة، ومن عين اللّي شافتك من الحارة، ولا صلت على النبي، استعنت عليهم بالله القويّ.

إلى آخر هذه الرقية وهي طويلة، ولا أريد أن أطيل على القارئ بذكرها، وإن كان فيها ما يتحفظ عليه، مثل القول بأن محمّد بن عبد الله رقى واسترقى. أما أنه رقى عليه الصلاة والسلام، فهو ثابت بأحاديث صحاح مستفيضة، ووردت عنه ألفاظ من الرقى معروفة محفوظة. وأما أنه استرقى: أي طلب الرقية من غيره، فلم يثبت ذلك عنه، بل وصف الذين يدخلون الجنة بغير حساب بأنهم الذين لا يتطيرون ولا يكتوون، ولا يسترقون، وعلى ربّهم يتوكّلون.^٢ (مقتبس من حديث طويل).

وقد روي عن عمّران بن حصّين، قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ». قيل: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ هُمْ؟ قَالَ «هُمُ الَّذِينَ لَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَكْتُوُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ».^٣

هذا ولا شك أن العين حقّ، كما جاء في الحديث، وقد علّل المفسّرون قول يعقوب عليه السلام لبنيه "يا بنيّ لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرّقة" يوسف: بأنه كان يخشى عليهم العين. وهذا أمر معروف لدى الأمم من قديم، ولا زال الناس يعتقدون ذلك في عصرنا. وفي بلاد الخليج ذكروا لنا أن بعض الأسر أو القبائل مشهورة بأن "عيونها حارة" ينطلق الشرر منها كأنها السهم والمسموم.

١ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م، ج ١، ص ٩٠)

٢ البخاري، الجامع الصحيح للبخاري، باب من اکتوى أو كوى غيره، وفضل من لم يکتوى، رقم الحديث: ٥٧٠٥، ج ٧، ص ١٢٦

٣ الطحاوي، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري (المتوفى: ٣٢١هـ)، شرح معاني الآثار، باب الكي ها هو مكره أم

لا؟، (عالم الكتب، الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤م) رقم الحديث: ٧١٤١، ج ٤، ص ٣٢٠

ولكن آفة هذه الأمور هي المبالغة فيها، بحيث تحيل كل بلوى تصيبك إليها، ولا تفكر في السبب الحقيقي الذي أدى إلى هذه النتيجة، وقد يترك بعض المرضى دون علاج حتى يقضوا نحبهم، اعتقاداً بأنهم معيونون أو محسودون، دون بحث عن الأسباب المادية وراء ذلك. والإسلام شرع التداوي بالأدوية المادية، مع الاستعانة بالأدوية الروحية مثل الرقى والأدعية والأذكار، التي لا يجحد أحد أثرها في نفس المريض. على أنه لا يجوز أن نتقي العين ونحوها بالتائم والحزازات - ما يسمى "الخمس وخميسه" و نحوها حتى عند الغريبين يعلقون "حدوة الحصان" على الأبواب ونحوها.^١

المطلب الخامس: من أحاسيس القرضاوي ودروس وعبر من صباه وشيخوخته

سبحان الله: ما أعظم عُرُورِ الإنسان حين يُعْجَبُ بِقُوَّتِهِ! وما أعجزه أضعفه حين يَفْقِدُهَا، أو يفقد شيئاً منها! ثم ما أشد عجزه مرة أخرى حين لا يعرف متى يفقدها، فيفجأ بفقدتها أشد ما يكون حاجة إليها!

لقد كان الشيخ القرضاوي قبل الحادثة التي أصابت برجله اليسرى في سنة ١٩٨٩م في أثناء سفره إلى الجزائر، وكان مُعْجَبًا بما آتاه الله من قدرة على الحركة والنشاط، ومواصلة الأسفار من الشرق والغرب والشمال والجنوب، معتقداً أن ما منحه الله من تكوين جسمه يساعده على أداء مهنته، فقد ساعدته نشأته الريفيّة البسيطة على تعود المشقات، فلم يولّد وفي فمه ملعقة من ذهبٍ ولا فضّة، وربما ولا من حديد. ولكنهم كانوا يأكلون الأكل الطبيعيّ الذي لم تمسه الكيمياويات، ويشرب اللبن الطبيعيّ، ويأكلون اللحم الطبيعيّ، والبَيْض الطبيعيّ، فكلّ شيء فيه بركة. لم يتعود الحركات الرياضية المنظّمة، فلم يكن في قريتهم ناد رياضيّ في ذلك الوقت، ولكن كانوا يلعبون لعب أبناء القرى من الرُّكُضِ والقَفْزِ والتسابق في مثل الألعاب، وكانوا يمشون المسافات الطويلة ولا يَكِلُون ولا يَمْلُؤُونَ.

ونشأ نشأة مستقيمة؛ فلم يعرف طريق المُسَكِرَاتِ ولا المُخَدَّرَاتِ، حتى التدخين، لم يُدَخِّنْ سيجارة في حياته لا جاداً ولا لاعباً. ولما انضم إلى جماعة الإخوان المسلمين: علّمهم بعض السلوكيات الرياضية، وربّوا على بعض الأعمال التي تزيدهم قوّة بعد قوّة. وما شكّا الشيخ القرضاوي في شبابه من أمراض خطيرة، إلا ما أصابه في الصبّا من البلهارسيا والإنكلستوما، وهما من الأمراض المتوطّئة في مصر في ذلك الوقت. وقد عُولجَ منهما في صباه.

وكان الشيخ القرضاوي يحسّ أن تكوينه العظمى قويّ، وكان قبل أن الإصابة برجله اليسرى يَصْعَدُ السُّلَمَ وَثْبًا، وينزله ركضًا، وكان حاله رحمه الله، ينظر إليه وهو يفعل ذلك في منزلهم بشيرا، ويقول: الحمد لله، الذي حفظ عليه صحته! قال الشيخ القرضاوي: ولكن كلّ بناية وإن شمخت، وكلّ ماكينة وإن اتقن صنعها، لها عمر افتراضي ... وأحمد الله أننا أفضل كثيرا من أبنائنا وأحفادنا، فإني أراهم يشكون صغارًا، مما نشكو منه كبارًا، يشكون من عظامهم وأسنانهم وأضراسهم، وأنا بفضل الله لم أخلع إلا ضرسين أو ثلاثة حينئذ، ولا تزال أظافري قويّة صلبة حتى إني لا أستطيع أن أقصّ أظافر رجليّ إلا بعد أن أنفعلها في الماء مدّة من الزمن حتى تلين، وَيَسْهُلُ قَصَبُهَا في ذلك الوقت.^٢

١ القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (فطر، دار الكتب القطرية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م، ج ١، ص ٩١ - ٩٢) (مختصرًا، بتبديل وتعديل).

٢ المرجع السابق، ج ٤، ص ٥٨١ - ٥٨٣

المبحث الثاني: مؤهلاته العلميّة والدراسيّة والبحثيّة

هذا المبحث يتضمّن أحد عشر مطلبًا، وتفصيلها فيما يلي:

المطلب الأول: الجانب التعليمي أو التربوي في قرية القرضاوي

هذا هو المبحث الذي تركته عند المبحث السادس في الفصل الأوّل وذكرتُ هناك سياقي هذا البحث إلى الأمام، والآن أودّ أن أذكر هذا المبحث هنا إن شاء الله.

وهذا المطلب يحتوي على ستّ مسائل كما في التالي:

المسألة الأولى: الأوضاع التعليميّة في الزمن الماضي في قريته

كان طالب العلم في الزمن الأوّل يختار شيوخه في كلّ علم، ينتقي أعلمهم، وأشهرهم فيه، ليضرب أكباد الإبل راكبا إليه، أو يمشي على قَدَمَيْهِ راحلا إلى بلده، ليأخذ عنه، وينهل من مَعِينِهِ، وهو لا يكتفي بشيخ واحدٍ في كلّ علم، بل يجتهد أن يأخذ عن أكثر من شيخ، يأخذ من كلّ أفضل ما عنده. ويباهي كلّ واحد منهم بكثرة شيوخه من جهة الكَمِّ، وبفضلهم وامتيازهم من جهة الكيف.

المسألة الثانية: إلى الكُتَّاب

وكانت في قرية الشيخ يوسف القرضاوي حينئذ أربعة كُتَّابٍ لتحفيظ القرآن الكريم:

١. كُتَّابٌ في غرب القرية "الشيخ دسوقي"

٢. وَكُتَّابٌ في شرقها "الشيخ نور الدّين"

وَكُتَّابَانِ في وسط القرية:

٣. كُتَّابٌ "الشيخ حامد أبو زويل" - وهو كُتَّابه الَّذِي تعلّم الشيخ يوسف القرضاوي فيه.

٤. كُتَّابٌ الشيخ "بماني مراد"^١

وكانت في قريته نحو مائة حافظ للقرآن أو أكثر حينئذ. وكانت الكُتَّابُ تنسب إلى مُعلِّمِها، وهم في الواقع أصحابها ومُلاكها. وهي في العادة ملاصقة لبيوتهم أو جزء منها. وفي مَنْطِقَتِهِ كان كُتَّابُ الشيخ "بماني مراد"، وَكُتَّابُ "الشيخ حامد أبو زويل". وقد ذهب القرضاوي أوّلا إلى كُتَّابُ الشيخ "بماني مراد" بإغراء من أقرابه الذي كان من تلاميذ هذا الكُتَّاب. ولكنّه انتسبه إليه يوما واحدا فقط. ولم يعد إليه بعد ذلك، وذلك لأنّ الشيخ بماني ضرب التلاميذ جميعا لتنشيطهم وكان بالطبع من المضروبين. فعزّز عليه أن يضرب ظلما وبلا سبب، وفي أوّل قدومه، ورفض أن يعود إلى هذا الكُتَّاب مرّة أخرى.

ويبدو أن كراهيّة الظلم والنفور منه، والثورة على مُرتكِبِهِ - ولو كان ظلما صغيرا - قال الشيخ: خصلة قديمة عندي، أو هي فطرة فطرني الله عليها، فلا أحبّ أن أظلم أو أُظلم، لأنّ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يستعيز بالله أن يظلم أو يُظلم، أو يُجْهَل أو يُجْهَل عليه.

فَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ قَالَ: «بِسْمِ اللهِ، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أَرَلَّ أَوْ أُضِلَّ، أَوْ عَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ، قَالَتْ: مَا خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ بَيْتِي قَطُّ إِلَّا رَفَعَ طَرَفَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُضِلَّ، أَوْ أُظْلَمَ أَوْ

١ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٩٢ بالاختصار.

أُظْلِمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ»^١ أَوْ أَضَلَّ، أَوْ أزلَّ، أَوْ أزلَّ، أَوْ أَظْلِمَ، أَوْ أَظْلِمَ، أَوْ أَجْهَلَ، أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ»^٢.

وهذا الظلم الذي وقع عليّ جعله ينقطع عن الذهاب إلى أيّ كُتَّابٍ مدّة من الزمن، حتى حرّضته والدته - رحمها الله - على الذهاب إلى كُتَّابٍ "الشيخ حامد، وهو جار لبيت جدّي (والد أمّي) وأتمّ ستوصيه به خيراً، وستوصي والدته - خالته ربّاً - به أيضاً، وكانت أمّه حريصة كل الحرص على أن يتعلّم. وبالفعل أخذت بيده في زيارتها لبيت أبيها وسلّمته إلى الشيخ حامد، وقالت له: هو أمانة عندك... قال لها إنّه ابننا، وهو في أعيننا.^٣

وفعلاً استقبله الشيخ حامد رحمه الله استقبالا حسنا، وكان محظيا عنده، وعند والدته - رحمها الله - وقد لاحظ الشيخ حامد أنّه تلميذ مجتهد، فقد لاحظ سرعة حفظه، وسلامة نطقه، كما لاحظ أنه أوّل صبيّ يحضر إلى الكُتَّاب.

كان الكُتَّابُ بمثابة مدرسة خاصّة، ولكن رسومه وأجوره كانت زهيدة بسيطة، فهو يأخذ نصف قرشٍ في يوم الأربعاء من كلّ أسبوع، وذلك لأنّ الأربعاء يوم سوق القرية، ومع هذا كان نصف القرش هذا ثقيلًا على بعض الناس، والقرضاري منهم. ولكن الشيخ حامدا كان يتسامح معه إذا يجد نصف القرش، لأمرين: لأنّه يعرف أنّه يتيم، والثاني: لِتَجَابِيهِ بين تلاميذه. وكان هذا من فضل الشيخ حامد ومكارم أخلاقه، حتى إنّه أصبح يأخذ منه نصف قرش كلّ أسبوعين.

ومن فضل الشيخ حامد عليه: أنّه لم يضره قط، رغم أنّه كان يضرب كثيرا من أبناء الكُتَّابِ، والقرضاي في الحقيقة لا يحبُّ أن أُضْرَبَ ويَعْرُ عليه أن أضرب. وجليد بالذکر أن الشيخ حامد مدّه مرّة في (الفلكة) ليضره، ولكن نجاه الله من الضرب. ولم يكن الضرب بسبب تقصير في واجبه الكُتَّابِي اليوميّ، بل سبب آخر.^٤

المسألة الثالثة: نظام تحفيظ القرآن الكريم في الكُتَّابِ

كان العلماء في الكُتَّابِ: حفظ فقرة مناسبة من القرآن الكريم، هذه الفقرة يكتبها الطلاب بأيديهم في لوح مدهون بالزيت، بحيث يصلح للكتابة بالحرير. وكانوا يشترطون الحرير من الصَّبَاغِيْنَ في القرية ويضعون في الدَّوَاةِ أو المَحْبَرَةِ ويأتون بأقلام البوص و يَبْرِيُونَهَا، وأحيانا يَبْرِيُونَهَا لهم الشيخ حامد نفسه. ويكتبون كلّ يوم القدر المطلوب حفظه، ويصَحِّحُونَهُ على الشيخ قبل أن يحفظونه، ثم يحفظونه في المنزل بعد عودتهم من الكُتَّابِ، وفي اليوم الثاني يُسَمَّعُونَهُ على العريف. فمن لم يكن حفظه جيّداً، رُدَّ لِجُودِ حفظه. ثم إذا سمعوا الحفوظ اليوميّ، رجعوا ما حفظوا من قبل، ويُسَمَّى "الماضي".^٥

وكانوا يردّدون كلّ يوم كلمات كالبيغاوات، نلقنها بطريقة ملحنة بطريقة الأناشيد ولا يفهمون لها معنى. يقولون بصوت جماعيّ: با: با ألف، بي با بي بو با واو. تا: تا ألف تي: تا بي، تو: تا واو.

١ النسائي، *المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي*، [تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة]، باب الاستعاذة من دعاء لا يستجاب، (حلب - مكتب المطبوعات الإسلامية)، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م)، رقم الحديث: ٥٥٣٩، ج ٨، ص ٢٨٥، [حكم الألباني: صحيح]. أبو داود، *سنن أبي داود*، [محمد محيي الدين عبد الحميد]، باب ما يقول إذا خرج من بيته، (بيروت - المكتبة العصرية)، رقم الحديث: ٥٠٩٤، ج ٤، ص ٣٢٥، [حكم الألباني: صحيح].

٢ أبو داود، *سنن أبي داود*، [محمد محيي الدين عبد الحميد]، باب ما يقول إذا خرج من بيته، [بيروت - المكتبة العصرية]، رقم الحديث: ٥٠٩٤، ج ٤، ص ٣٢٥، [حكم الألباني: صحيح].

٣ القُرْضَاوي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٩٤

٤ قُرْش: (بكسر القاف وسكون الراء): فلس من عُملّة المصريّة. مثل (Coin Bangladeshi)

٥ القُرْضَاوي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، المرجع السابق، ج ١، ص ٩٥

٦ المرجع السابق، ص ٩٦

وكانوا يلقنون الطلاب كلمات يحفظونها في العقيدة ولا يفهمون لها أي معنى، مثل: صفات الله تعالى عشرون: الوجود والقدم والبقاء ومخالفته تعالى للحوادث، وقيامه بنفسه، والوحدانية، والعلم والإرادة والقدرة والحياة والسمع والبصر والكلام، وكونه تعالى عالما ومريدا وقادراً وحياً وسميعاً وبصيراً ومتكلماً. كما كانوا يحفظونهم من السيرة النبوية: أولاد النبي سبعة: عبد الله والقاسم وإبراهيم، وفاطمة وزينب ورقية وأم كلثوم، وكلهم من السيدة خديجة، إلا إبراهيم، فإنه من مارية القبطية.

أما العقيدة فلا يعني فيها (الصم) والحفظ بغير فهم، والذين يلقنون الصبيان العقيدة بهذه الصورة على المذهب الأشعريّ أخطأوا الطريق، بالإيمان لا ينشأ بهذه الطريقة، ولا يتكون على هذا التلقين فكر سليم، ولا عاطفة حيّة.

بدأ الشيخ حامد رحمه الله معه حفظ القرآن من جزء "عَمَّ" بحفظه منكوساً أي سورة الناس، فسورة الفلاق، فالإخلاص فالمسد، فالنصر، فالكافرون، إلى فرغت من حفظ جزء "عَمَّ" ثم تبارك، ثم قد سمع، بهذه الطريقة، ثم جزء الذاريات، إلى سورة النجم. ثم قفز بـ القرضاوي الشيخ حامد إلى سورة الأنعام، ثم المائة، ثم النساء، ثم آل عمران، ثم البقرة. وعندما ختمت البقرة، أقام الكُتَّابُ حفلاً صغيراً بهذه المناسبة، فقد كان أهل القرية يُسَمُّونَ ختمة سورة البقرة "الختمة الصغيرة" وختم القرآن كله "الختمة الكبيرة".

ويوجد لهذا أصلاً، وهو أن سيدنا عمر حين ختم سورة البقرة حفظاً، نَحَرَ جَزُورًا، أي ناقه، ابتهاجا بما وفقه الله إليه.^١ وهم لم ينحروا جزورا ولا شاة ولا دجاجة، إنما وَرَعُوا بعض الحلوى، على الأولاد في الكُتَّابِ، ومن حضر من الأقارب.

وكان الشيخ حامد يعطي الطلاب بعض الضوابط في الآيات المشتبهة، التي كثيرا ما يحدث فيها الخطأ من التلاميذ، ويلتبس بعضها ببعض، مثل كلمة "ضَرٌّ وَ لَا نَفْعًا" أو "نَفْعًا وَلَا ضَرًّا" فقد يضع التلميذ هذه موضع تلك، فَحَفَظَهُمُ الشيخ حامد تلك الجملة لضبط ذلك: والنفع قبل الضرِّ بإذ النبا في سورة الأعراف والرعد سبأ.

والمراد مما في سورة الأعراف قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [١٨٨].^٢ وكذلك البواقي. ثم بدأ القرضاوي بعد ذلك حفظ القرآن غير مكنوس، ابتداء من سورة الأعراف ثم الأنفال ثم التوبة الخ.. حتى وصل إلى نصف القرآن.^٣ ثم بعد الانقطاع الطويل كان الاتفاق أن يُسَمَّعَ كلَّ يوم نصف جزء من الماضي، وفعلا لم يمض أكثر من شهر حتى كان استعدّ نصف القرآن الأوّل حفظاً، وسمّعه على الشيخ حامد. وبدأ النصف الثاني. وكتب نصف ربع (أما السفينة) من سورة الكهف في اللوح كالعادة.

فقاله (القرضاوي) الشيخ حامد: عليك أن تحفظ كلَّ يوم رُبْعًا من المصحف، ولا داعي لكتابته، وأن تقوم بتسميعه مباشرة. ولهذا لم يأخذ النصف الثاني من القرآن معه أكثر من ثلاثة أشهر، إذ كان قد حفظ من قبل من سورة النجم إلى آخر القرآن.

وانتهى به المطاف إلى اللوح الأخير في القرآن الكريم، وهو عادة يكون من سورة الضحى إلى سورة الناس، وفي العادة يكتب في لوح كبير، ويقراه التلميذ في حفل ختام القرآن.

١ أَلْقُرْآنُ، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م، ج ١، ص ٩٧ بالإيجاز والتحويل.

٢ القرآن الكريم، الأعراف (٧)، الآية [١٨٨].

٣ أَلْقُرْآنُ، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (المرجع السابق)، ج ١، ص ٩٨ بالأخصر.

واستعدَّ الكُتَّابُ، واستعدَّ التلاميذ فيه، واستعدَّ الأقارب بإحضار الشربات و(الكرامله) واستعدَّ الشيخ حامد فدعا بعض أحبائه للحضور، واستعدَّ القرضاوي لقراءة اللوح الأخير في اليوم المشهود، يوم الختمة الكبيرة.

وكان حفلا متواضعا، ولكنه كان جميلا زائعا، كان القرضاوي يقرأ السورة وفي ختامها يقول: لا إله إلا الله، والله أكبر والله الحمد. وأولاد الكُتَّابِ يرددون معه هذا الذكر بصوت جماعي مؤثر، من سورة الضحى إلى سورة الناس.

وكان عمره في ذلك الحين تسع سنوات وبضعة أشهر، وكان أصغر طالب حفظ القرآن في القرية، ولولا الأشهر العشرة التي غابها عن الكُتَّابِ لحتم القرآن قبل سنة تقريبًا. وهذا يدل على أذكائه وروائه ونوابغه وعبقريته. ومن ذلك اليوم سُمِّيَهُ (القرضاوي) "الشيخ يوسف" حافظ كتاب الله. كما يلقَّبون كثيرا من المسلمين في بنغلاديش وباكستان والهند وغيرها بعد أتم القرآن حفظا بـ "الحافظ" ويقرونها باسمه حتى تصبح وكأنها جزء منه.^١

كان من حقَّ الشيخ حامد أن يحصل على جنبيه (مصري) مكافأة ختم القرآن، يأخذها عادة من كلِّ تلميذ يتمُّ حفظ القرآن، ولكنه - رعاية لحال القرضاوي - اكتفى بنصف جنبيه.

بعد ختمه للقرآن ظلَّ في الكُتَّابِ، أثبت الحفظ من ناحية، ويساعد الشيخ حامداً في الإشراف على الصغار من الأولاد، ومعاونتهم على الحفظ مع الذهاب إلى المدرسة الإلزامية في فترة بعد الظهر، وهي مرحلة كان قد بدأها منذ سنتين ونصف تقريبًا.

المسألة الرابعة: إلى المدرسة الإلزامية

في السنة السابعة من عُمر القرضاوي، ضمَّ إلى الكُتَّابِ: الكُتَّابُ في المدرسة الإلزامية الحكومية، في قريته، وكانت تتبَّع في ذلك الوقت مجلس مديرية الغربية.^٢

كانت المدرسة تقع في حارته، وكان مُدَرِّس المدرسة "الشيخ عبد الله زايد". وكان شيخا يلبس عمامة وجُبَّةً، وقال له عمُّه: نريد أن يدخل ابننا المدرسة، والقرضاوي معه، فسأله الشيخ عبد الله: كم حفظت من القرآن؟ قال: وصلت إلى سورة الجن. قال: حسن، تعال إلى غدا، وأدخلك المدرسة فوراً. وفي كلام القرضاوي: وفعلاً ذهبت إليه في الغد، وأدخلني الفصل الأول، وكتب لي جدول الضرب في ورقة، وقال لي: تحفظه في أسبوع و تأتيني لأمتحنك فيه، وبعد يومين أو ثلاثة ذهبت إليه، وقلت له: حفظت الجدول، فاختبرني فوجدني قد حفظته عن ظهر قلب، ولم أخطئ في رقم واحد فيه.^٣

كانت المدرسة تُستخدَمُ في الصباح للبنات، وبعد الظهر للبنين. ولهذا كان القرضاوي يذهب إلى الكُتَّابِ في الصباح، وإلى المدرسة في المساء.

قال القرضاوي: وجدت المدرسة غير الكُتَّابِ تماماً. من حيث المبنى، ومن حيث المعنى. كان المبنى واسعاً، هو عبارة عن (فيلا) كبيرة لأحد أقاربه من جهة أمِّه، وهو الشيخ أبو ريتا زغلول، الذي أقام في مدينة المحلة الكبرى، وأجرَّ بيته للمعارف أو لمجلس المديرية، ليكون مدرسة للقرية.

١ القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م، ج ١، ص ١٠٠ بتحويل.

٢ المرجع السابق، نفس الصفحة.

٣ المرجع السابق، ص ١٠١

كان المبنى من دورين، في كلِّ دور عدَّة حجرات، منها حجرة للناظر، وحجرة للمدرسين، وحجرات هي فصول للدراسة. وكان في المبنى (بدروم) يشمل مراحيض ودورة مياه للتلاميذ.

كان الكُتَّابُ كلَّه فصلاً واحداً، وكانت المدرسة خمسة فصول. وكان لِلْكَتَّابِ مدرِّسٌ واحد، هو صاحب الكُتَّابِ، ولكن في المدرسة عدد من المدرِّسين. وكان الكُتَّابُ كله مرحلة واحدة، وكانت المدرسة مراحل أو فرقا، ينتقل التلميذ من مرحلة إلى التي بعدها، أو من فرقة إلى التي تليها. وكان الكُتَّابُ دراسة مستمرة صيفا وشتاء، ليست الإجازة إلا أيام الجمع والأعياد. أما المدرسة فهي تأخذ إجازة في فترة الصيف.

والخلاصة أن الكُتَّابَ مؤسَّسة فردية تقوم على شخص واحد، هو صاحب الكُتَّابِ، وهو المعلِّم والناظر و المفتِّش، وهو واضع المنهج ومطبقه. أما المدرسة فهي مؤسَّسة جماعية، تتوزَّع فيها المسؤولية على الناظر أي المدير والمعلِّمين، وعليها تفتيش من وزارة المعارف. والمدرسة تنفذ مناهج لم تضعها هي وإنما وضعت من لجانٍ مُتخصَّصة من قِبَلِ الوِزارة.^١

ولقد أتيج له أن يجمع بين خيرَي المؤسستين، الكُتَّابُ على ما به، فأعانه على حفظ القرآن وتجويده وحسن ترتيبه. والمدرسة ليتعلَّم فيها ما لا يوجد في الكُتَّابِ من المعارف التي لا بدَّ منها.

ولقد عاب بعض التربويين المُحدِّثين الكُتَّابَ وحفظ القرآن في الصغر، على أساس النظرية التي تقول: لا يجوز أن يحفظ الطفل ما لا يفهم. ولكن هذه النظرية لا ينبغي أن تطبق على القرآن، فإن حفظه في الصغار كالنقش على الحجر، ولقد حفظناه واختزنناه صغارا، فنفعنا كبارا، ومن حفظ القرآن في كبره قلَّما يثبت إلا بمجاهدة ومداومة على تلاوته ومدارسته، وإلا تَفَلَّتْ كما تَفَلَّتِ الإبل من عَقْلِهَا. على أن القرآن ليس كغيره من النصوص، إنه نصٌّ متميِّز، مسير للحفظ والفهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [٢٢].^٢

قال القرضاوي: وأذكر أني كنت أقرأه وأنا أفهم المعنى الإجمالي للآيات الكريمة، وإن كنت لا أفهم معاني بعض الألفاظ، ولكني أفهم الفحوى والمقصود منها.

عندما دخل القرضاوي المدرسة وألحق بالصفِّ الأول فيها، سلَّم عدَّة كُرَّاسات، لكلِّ مادة من الموادِّ كُرَّاسة، كما سلَّم قلم رصاص، ومخاية وكُرَّاسة خاصَّة لتحسين الخطِّ، فيها خطوط من خطِّ النسخ و خطِّ الرُّقعة، وخطِّ الثلث، ويحاول أن يُقلِّدَهَا. وكان مدرس في الفصل الأول اسمه الشيخ علي سليمان خليل، كان يلبس لباس المشايخ الجبَّة والأُفْطُفَانِ. معظم المدرِّسين كانوا من خرَّيجي مدرسة المعلِّمين، وكانت تأخذ طلابها من حُقَاظِ القرآن.

وقد رحَّب به الشيخ علي خليل، وما أسرع ما ظهر تَفَوُّقُهُ على تلاميذ الفصل، ولعلَّ دراسته السابقة في الكُتَّابِ ساعدته على ذلك، وكان يسمَّاه "بيرنجي الفصل" أي أوَّل الفصل. ومعنى بيرنجي^٣: أي الشخص رقم (١) أي الأوَّل.

١ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م، ج ١، ص ١٠٢)

٢ القرآن الكريم، القمر (٥٤)، الآية [٢٢].

٣ اشتقاق هذه الكلمة أعني "بيرنجي"، فهي مأخوذة من كلمة "بير" أي رقم (١)، هنا المعنى: الشخص رقم (١)، في اللغة التركية.

ومن مزايا المدرسة أنها تستخدم المنهج التربوي في تقويم أعمال التلاميذ، وتعطيهم عليها درجات في الأرقام، كانت درجاته عادة عشرة على عشرة، مشفوعة بكلمة حسن أو حسن جدًا، وفي هذا تشجيع وحفز للتلاميذ أن يتفوقوا ويتقنوا، وإذا تفوقوا أن يحافظوا على تفوقهم.^١

وعندما انتقل من الفرقة الأولى إلى الفرقة الثانية وحصل على الإجازة للاستمتاع بحق اللعب والراحة فيها، وعادوا إلى المدرسة، كان مُدَرِّسُهُمْ من أبناء القرية، وهو الأستاذ المرِّي الفاضل سعيد سليمان ثابت، ابن شيخ معلّم القرية الشيخ سليمان تائب أو ثابت. كان الأستاذ سعيد أو سعيد أفندي معلّمًا بفطرته وخبرته، وكانت بينهم وبينه مودة ومحبة، كان يُدَرِّسُ لهم التاريخ والجغرافيا وعلم العلوم الشئى. والصحة والحساب والإملاء والخطّ والمطالعة والمحفوظات. فلم يكن مدرّس مادة إنما هو مدرّس فصل أو صفّ. وقد دَرَسَ لهم سعيد أفندي أكثر من سنة، وكان له حسن أدبي قوي يتجلى في اختياراته لما يحفظونهم من قطع أدبيّة، ومما جدير بالملاحظة ممّا حفظه لهم شعر للإمام الشافعي:

ومن لم يذق ذلّ التعلّم ساعة تجرّع ذلّ الجهل طول حياته
ومن فاتته التعليم وقت شبابه فكبر عليه أربعاً لوفاته
حياة الفتى - والله - بالعلم والتقى إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته.

وفي السنة الثالثة ختم القرآن بالكتاب، وأصبح متفرّغًا للمدرسة. وفي السنة الخامسة انتقل المدرسة إلى مبنى جديد خاص للبنين، وأصبح للبنات مبنى آخر مستقلّ لهن، وبهذا صارت المدرسة صباحيّة، فتعارضت المدرسة مع الكتاب، ومع هذا يذهب القرضاوي إلى الكتاب بعد الظهر.^٢

ذلك زمن ماضي، أما زماننا فلم يعد الطالب هو الذي يختار شيخه في أيّ علم من العلوم أو فنّ من الفنون. فالإدارة المسؤولة هي التي توزع الأساتذة والمعلّمين المعيّنين عندها على فصول الطلاب وكلّ طالب وحظّه.

المسألة الخامسة: ماذا بعد الكتاب والمدرسة الإلزاميّة؟

بعد اختتامه القرآن وإنهائه المدرسة الإلزاميّة - وهو في سنّ الثانية عشرة من العمر. كان قلبه معلقًا بأمر واحد، لا فكرة في غيره، ولا رضا بديلا عنه، وهو الالتحاق بمعهد طنطا الدينيّ، ليكون أحد طلاب الأزهر.^٣ ولكن هذه الرغبة المنطقيّة والمشروعة، لم تكن بالأمر السهل أو الهين، فقد كان يقف دونها عقبات وعقبات.

كان الأزهريون المتخرّجون في ذلك الزمن مضيعي الحقوق، لا يجدون عملا يتعيشون منه، فهم يتخرّجون في كليات الشريعة أو أصول الدين أو اللغة العربيّة. ويقضي الطالب في ذلك خمسة عشر عاما متواصلًا، غير السنوات الأولى التي حفظ فيها القرآن، ثم يعود إلى بلده، ليقعد متعطلا بلا عمل.

ذلك أن فرص العمل أمام علماء الأزهر كانت محدودة جدًا، فإما أن يعيّن مدرّسا في معاهد الأزهر الدينيّة بمُرْتَب ثلاثة جُحَيْهَات،^٤ في حين أن خريجي مدارس المعلّمين الأولية، الذين يُعَيَّنُونَ بالمدارس الإلزاميّة يتقاضون أربعة جنيهاً راتباً لهم عقب التخرّج. وإمّا أن

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م، ج ١، ص ١٠٤

٢ المرجع السابق، ص ١٠٥

٣ المرجع السابق، ص ١١٢

٤ عُمَلَةٌ مصريّة، وهي جمع ومفرده جُحَيْهَات.

يعين إماما وخطيبا في الأوقاف. وإما أن يعين واعظا بالأزهر، وهؤلاء عدد محدود في القطر المصري كله. ولم يكن تدريس الدين بالتعليم العام إجباريًا، وكان التعليم العام ذاته محدود الطائفة أيضا. فلم يصبح التعليم حقًا لكل مواطن، ويصبح كالماء والهواء.

فلا غرو أن يتخرّج أبناء الأزهر، ثمّ يجلسوا على "المصاطب" كما يقول أهل القرية، كأنما كان غرسهم بلا ثمر، وكان في قريته - للأسف - عدد هؤلاء الخريجين العاطلين، منهم الشيخ عبد المطلب البتة، الذي لم يلبث أن عين مدرّسا بمعاهد الأزهر حيث كان الأول على دفعته، ومنهم الشيخ عبد المطلب غانم، وابن عمه الشيخ سليمان غانم. وهذه الصورة المؤسفة البائسة هي التي جعلت عمّه رحمه الله، لا يُشجّعهُ على التقدّم إلى الأزهر، ويقول: إن الأزهر طريقة طويل، ثم هو بعد ذلك عاقبته ما نراه بأعيننا. كان عمّه يُفكّر في طريق يكون أقصر وأقرب إلى كسب العيش بسرعة، من هذا الطريق الطويل، الذي يعرف أوله، ولا يعرف آخره. كان يقول: يمكن أن نفتح لك بابا إلى حارة من (المنظره) ونأتي لك فيه ببعض الخردوات والأشياء التي تباع للناس، مما تحويه عادة البقالات. تبدأ صغيرا ثم تكبر، كما كان فلان وفلان.

وإما أن تتعلم حُرُفة نظيفة مثل خياطة فكلّ الناس محتاجون إليها. وإما أن تتعلم حساب (الدوبيا) وهو حساب يستخدم في الدوائر الزراعيّة وغيرها. وتعمل كاتبا في إحدى هذه الدوائر، أو في أحد المتاجر الكبرى بمدينة المحلة، أو غير ذلك. كلّ هذه المقترحات لم تجد عنده أذنا صاغية، فلم يكن مستريحا لأيّ منها، ولا تتفق واحدة منها مع طبيعته وتطلعاته. وقد شارك في تنقية الدودة من القطن، كما شارك في جني القطن. وهو عمل شاقّ، يكون في شدّة الحرّ.

وقد أغراه بعض الشباب من جيرانه أن يذهب معهم لجني القطن بالأجر. واستجاب لهم، وذهب لجمع القطن بالأجرة، ولكنه لم يصبر على هذا العمل الشاق أكثر من ثلاثة أيّام وانقطع عنه. وعمل في شركة مصر للغزل والنسيج التي وقعت في مدينة المحلة الكبرى بجواره. وقد انضم إليها عدد كبير من أبناء القرية، وكان من هؤلاء ابن خاله، هو عبد الحي الطنطاوي مراد. وبعد إلحاح من ابن خالته، ذهب إلى الشركة المحلّة، وهو كاره وخائف أن يكون ممن يقبلون في هذا المجال، وكان تمنّيه من كل قلبه ألا يقبل، وفعلا جاء الذين يفرزون المتقدمين، ولم يكن واحدا ممن اختارهم، وحمد الله على ذلك، وإن غضب ابن خالته عليه.

كان ذلك عندما بلغت الثانية عشرة من عمره، وقد بقى في القرية معلّقا، لا يدري ما مصيره، تاركا الأمر لله، يُدبّره كيف يشاء. قال القرضاوي: كنت أقضي الوقت أحيانا مع خالي في رحلاته التجاريّة، ولكي لا أحبّ أن أكون تاجرا، وأحيانا مع عمّي وابن عمّي في الأعمال الزراعيّة، وهي مهنة لا أحسنها ولا أحبّها أيضا. لو وجدت من يعلمني لغة أجنبيّة خُطوة فيها خُطوات سريعة، فقد كانت قدرتي اللغويّة فائقة. أو لو وجدت من يُحفظني كتب الحديث كالبخاريّ ومسلم وغيرها، ولو وجدت من ييسر لي كتب الأدب العربي لالتهمتها^١.

١ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م، ج ١، ص ١١٦

المسألة السادسة: الشيخ الذي أقنع عمُّه

وحكى الشيخ القرضاوي: فقد كنت في يوم من أيام الصيف مع عمِّي وابني عمِّي في الحقل، وفي وقت القيلولة، وتحت شجرة من أشجار الجميز ذات الظل الوارف الثقيل، جلسنا نتناول الغداء، وبجوارنا قُلَّةٌ فَخَّارِيَّةٌ اعتاد الفلاحون أن يصطحبونها معهم مليئة بالماء. وفي هذا الوقت مرَّ شيخٌ يلبس جبَّةً وعمامة من قرية. (الهياتم) المجاورة لنا، جاء في زيارة إلى مسجد سيدي عبد الله بن حارث، وزيارة بعض من يعرفهم من أهل صفت. ومال الشيخ إلى مجالسهم، وجلس بجوارهم، وقال: هل عندكم من شربة ماء؟ فقلنا له: نعم، وأعطيناها القُلَّةَ ليشرب منها.

ثمَّ قال له عمُّ القرضاوي: يا سيِّدنا الشيخ! نريد أن تختبر هذا الشيخ الصغير، ابننا.

فقال له: هل هو ابنك؟

قال: نعم.

ثمَّ توجَّه إلى قائلنا: هل تحفظ القرآن؟

قلت: نعم، والحمد لله، ولا أسقط منه حرفاً.

فسألني عدَّة أسئلة من القرآن من أوائله وأواسطه وأواخره، فوجدني أحفظه حفظاً كاملاً، كما رأني أحسن تجويده وتلاوته.

فوجَّه الحديث إلى عمِّه وقال له: ما اسمك؟ قال: أحمد.

قال يا عمُّ أحمد! هذا الولد يجب أن يذهب إلى الأزهر. حرام ألا يتعلَّم في الأزهر. لماذا لا تقدِّم له في الأزهر؟ قال عمُّه: يا سيِّدنا

الشيخ! نحن أناس فقراء، والأزهر طويل، ومع هذا يتخرَّج علماء الأزهر منه فلا يجدون عملاً. وهأهْمُ علماء بلدنا قاعدون بلا عمل.

قال الشيخ: فإذا كنت لا تعرف ماذا يحدث غداً، لأن المستقبل بيد الله، وربُّنا سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ

تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ [٣٤]﴾. ^١ فكيف تتحكَّم فيما سيحدث بعد خمسة عشر عاماً تتغيَّر فيها أحوال، وتزول دُوُلٌ وتقوم دُوُلٌ؟ أَدُّ

الواجب عليك يا عمُّ أحمد وارك المستقبل لمن يدبِّره. ثمَّ توجَّه الشيخ إليه أي القرضاوي، وقال له: هل يكفيك عشرة قروش في الشهر؟

قال له: يكفي له خمسة قروش.

قال يا ابنا عمِّي: نحن نكري أنفسنا ونوفر له ما يحتاج إليه.

هذا خلاصة ما جرى من حوار بين الشيخ وبين الأسرة.^٢

قال القرضاوي: وكأنما كان هذا الشيخ الذي لم نسأله عن اسمه، ولم ألقه ذلك. كان رسولا من السماء لتحريك هذا الأمر، ولو

كنت ممن يبالغون في إثبات الخوارق والكرامات - شأن الكثيرين ممن ينتسبون إلى الدين - لقلت: إن هذا الرجل كان ملكاً تصوّر بصورة

رجل، ليحلَّ الله على يديه مشكلتي ثمَّ اختفى.^٣

ولكن الواقع أنه رجل من بني آدم من قرية الهياتم، وهو سبب من الأسباب ساقه الله ليصنع به قدره، وفق سننه التي لا تتبدل. وبدأ

العمل لتقدِّم الطلِّب إلى المعهد الديني بطنطا، وسأل ابن عمِّته يوسف عبد الله النجار، الذي كان يدرس في المعهد الثَّانَوِي بطنطا:

ماذا يطلب منه ليستوفي أوراق التقديم إلى المعهد؟

١ القرآن الكريم، لقمان (٣١)، الآية [٣٤].

٢ القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريَّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م، ج ١، ص ١١٧ - ١١٩

٣ المرجع السابق، ص ١١٩

فقال أهمّ شيء هو استصدار شهادة ميلاد أو مستخرج رسميّ بشهادة الميلاد من مديرية طنطا، وهذا يستغرق وقتاً طويلاً، ولم يبق إلا الأسبوعان على آخر موعد لتقديم طلبات الانتساب إلى المعهد. وعزموا لتحرك إلى طنطا، وكان في يوم الخميس، ابتداء من يوم السبت، وكانت الإجراءات الروتينية معقدة جداً، فلم يكف الأسبوعان لاستخراج شهادة الميلاد، وضاعت فرصة التقديم لهذا العام. قال القرضاوي: كل ما أحضرته من المطلوب للتقديم: أربع صور شمسية (فوتوغرافية). ولا توجد عندي لفترة الصبا أية صورة لأبي ولا لأمي. ولهذا لم أذهب إلى المسؤول لعدم الصورة المطلوبة منّي لاستمارة الشهادة الابتدائية.

المهم أنهم قالوا: تنتظر هذه السنة، وأحضر الأوراق لأغتنم أول فرصة للتقديم. ولم يكن للسنين قيمة كبيرة عند الناس. أما عندي فكانت السنة طويلة طويلة. في الرابعة عشرة من عمري، ووقته لا أحسن الاستفادة منه.

على كلّ حال، فإنّ هذا قدر الله الذي لا رادّ له، ولا يقابل إلا بالرضا والتسليم. وكما قال الشاعر قديماً:

إذا الجُدُّ لم يك لي مسعداً فما حركاتي إلا سكون
إذا لم يكن ما يريد الفتى على رغبه، فليرد ما يكون

وهكذا مضت السنة بوردها وشوكها، ويحوّها ومرّها، حتى جاء موعد التقديم، وجاء بطلب الانتساب إلى المعهد، وقد ملأه بقلمه وخطّ يده العالم الجليل الشيخ عبد المطلب البتة.^٢

وذهب لإحضار شهادة إدارية، ممضاة من نائب العمدة وشيخ البلد، اسمه الشيخ خضر أبو شادي، وقد أمضى له الشهادة.

وقدم الانتساب وتحدّد امتحان القبول، وجلس لامتحان في القرآن شفهيّاً، وفي الحساب والإملاء تحريريّاً، والحمد لله فقد تمّ الامتحان بنجاح، وأرسلت إدارة المعهد كتاباً إلى ولي أمره يقول له فيه: الطالب المذكور نجح في امتحان القبول، وعليه الحضور إلى المعهد يوم ... مُرتديّاً الرّيّ الأزهريّ، وهو: العِمامة والجبّة ذات الطّوق (الكاكولة).^٣

Routine ١

- ٢ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م، ج ١، ص ١٢١)
- ٣ ولا يُدرى لماذا سُمّيَتْ "كاكولة"، ومن أيّ لغة أُجِدَّت. ويقال: إن أوّل من لبسها وقلده الناس فيها هو الإمام الأكبر الشيخ مصطفى المراغي، شيخ الأزهر في عهده، ونحن (الباحث وزملاءه) أيضاً لبسنا في حفلة خريجيّ الكليات في جامعة الأزهر سنة ٢٠١٠م، التي أعطانا من قِبَل جامعة الأزهر حينئذ، لأنها تُعتبر الرّيّ الأزهريّ أو بدلةً رسميّةً لخريجيّ جامعة الأزهر. وجدير بالذكر هنا - أن الباحث لهذه الرسالة من أحد خريجيّ في قسم كَلّيّة الشريعة الإسلامية بجامعة الأزهر سنة ٢٠٠٦م -

٢٠١٠م

المطلب الثاني: إلى المعهد الديني في "طنطا"، (وفيه أربع مسائل، وبيانها كما يأتي):

المسألة الأولى: المرحلة الابتدائية (السنة الأولى)

أعدَّ العُدَّة الطالب "يوسف القرضاوي" لِلذَّهَابِ إلى مدينة طنطا عاصمة مديريَّة الغربية، وثالث المدن المصريَّة، بعد القاهرة والإسكندريَّة، وفيها يقع المعهد الدِّيَنِيّ. وكانت العُدَّة التي أَعَدَّهَا لهذه المرحلة الجديدة: سَلَّةٌ فيها الزاد اللازم للمسافر، مثل خبز القمح الحافّ وبعض الفُرَصِ والقراقيش، وبعض الجبن (القريش) وبعض البيض والسمن. والمقصود من هذه الأشياء تقليل النفقات، فلا يضطرّ لشراء للغذاء إلا ما لا بدّ منه.^١

ومن العُدَّة التي أَعَدَّهَا: الطُّرْبُوش والشال، وهما المَهْمُومَانِ الأساسيّان لِلعِمَامَةِ المطلوبة. أمَّا الجبَّة ذات الطُّوقِ (الكاكولة) فقد تأخّرت إلى السنة الأولى التَّانَوِيَّة. ومن العُدَّة اللازمة: بَطَانِيَّةٌ صوف خشنة كأن فيها شوكا، وليست من البطاطين هذه الأيّام الناعمة، وكذلك مَخْدَةٌ يَتَوَسَّدُ عند النوم.

وقد حمل هذه الأشياء كلّها إلى محطة القطار، وساعده ابن عمّه في توصيلها إلى المحطة، ثم إلى المنزل الذي سيسكن فيه، أو حجرة التي سيسكن فيها ساعده حمال (شبال) الذي أخذ قرش تعريفة.

وكان ابن عمّته يوسف عبد الله النجار، وهو طالب في السنة الرابعة التَّانَوِيَّةِ بالمعهد، قد سبقه إلى طنطا واستأجر له حجرة بمبلغ ثمانية عشرة (١٨) قِرْشًا.^٢ يسكنها ثلاثة: ابن عمّته وهو أي القرضاوي وزميله في السنة الأولى له صلة قرابة بهم هو منصور السعيد صقر.

كانت الحجرة في الدور الأرضي، وكانت أرضيَّته من التراب. حَقُّهُمُ استخدام مِرْحَاضِ المنزل إلا للضرورة، وفيها ماء بارد وساخن، وهذا من فضل الله عليهم. وكان هذه المغاسل البلديَّة لخدمة أبناء الشعب المناطق الفقيرة. باقوا في هذه الحجرة عدَّة أشهر ثم انتقلوا إلى سكن آخر في نفس المنطقة أو نفس الحارة كان أفضل بكثير من الحجرة الأولى، وأجرتها واحد وعشرون قرشا (٢١)، أي كل واحد منهم عليه سبعة (٧) قروش.

مرّت أشهر العَامِ الدَّرَاسِيّ الأوّل بالمعهد، ودخل الامتحان بقسميَّهِ التَّحْرِيْرِيّ والشَّفَهِيّ، وحصل على أعلى درجة بين أبناء دُفْعَتِيهِ، وكان ترتيبه الأوّل، فقال كلمة الشكر والحمد: "الحمد لله الذي وَفَّقَنِي، وما توفيقِي إلا بالله."^٣

وبعد قضاء الامتحان، عاد إلى القرية، ليمضي بها نحو ثلاثة أشهر هي إجازتهم الصيفيَّة، ولم يكن له فيها عمل إلا قراءة بعض الكتب مثل "إحياء علوم الدين" وبعض الكتب الأدب. وبعد انتهاء الإجازة عاد إلى طنطا لبدء العَامِ الدَّرَاسِيّ الثاني.

المسألة الثانية: السنة الثانية من المعهد الابتدائيّ

بدأ القرضاوي العَامِ الدَّرَاسِيّ الثاني بالمعهد بشراء الكتب المقرّرة، وكانت أثمانها غالية نسبيًّا إلى مثله، ولكن كان يحاول أن يشتري الكتب المستعملة بثمن أرخص. وكما كان يحاول أن يشتري بعض الكتب الحواشي الصفراء، وهي رخيصة الثمن عادة، وفيها علم غزير، مثل حاشية السجاعي على قطر الندى، وحاشية الأمير على شذور الذهب، وحاشية الحضري على ابن عقيل وغيرهم.^١

١ القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م، ج ١، ص ١٢٣

٢ قِرْشًا أي فُلْسًا مِصْرِيًّا.

٣ القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، المرجع السابق، ج ١، ص ١٣١

١ المرجع السابق، ص ١٣٢ - ١٣٣

وقد بدأ ينظّم القراءة في غير الكتب المقرّرة، من كتب الأديب الشهير مصطفى لطفى المنفلوطي المسمّى بـ "النظرات" بأجزائه الثلاثة. وقرأ لأديب طنطا مصطفى صادق الرافعي: وحي القلم، وأوراق الورد والمساكين وغيرها. وقرأ أحيانا لطفه حسين والعقاد وأحمد أمين وأحمد الزيات وغيرهم من كتاب مجلّي "الرسالة" و"الثقافة" الشهيرتين من ذلك الوقت. هذه هي الوسيلة الأولى لحصول العلم دون الكتب المقرّرة.

الوسيلة الثانية: استحضار كتب معيّنة لقراءتها في أيّام معدودة وردها إلى مكتبة فك الأزمة في شارع درب الأثر بطنطا.

وفي هذه السنة بدأ يخطو الخطّوات الأولى في نظّم الشعر، وأن أول أبيات نظّمها كان موضوعها "صقّارة الإندار". فقد كان الزمن زمن حرب. كانت الحياة قد بدأت تغلو قليلا قليلا، نظرا للحرب العالميّة الثانية التي أعلنت منذ سنة ١٩٣٩م. وبدأ الناس يشكون من زحف الغلاء سنة بعد أخرى.

وكان هذا الغلاء الزاحف ببطء بالنسبة إليه امتحانا عسيرا، فما عنده من النفقة محدود، والعين بصيرة، واليد قصيرة. ولكن لله لطاف وأسرار لا يعرفها إلا من عايشها، كما قال الشاعر:

لا يعرف الشوق إلا مَنْ يُكابِدهُ ولا الصبابة إلا مَنْ يُعانيها

وقد قال ابن عطاء الله في حكمه: من ظن انفكاك لطفه عن قدره، فذلك لقصور نظره، حيث قال الله تعالى في كتابه القديم: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ [١٠٠]﴾^١ ولهذا كان من اللطف الإلهي أن نودي عليّ: إن له مكافأة في الإدارة فذهب لقبضها. وكانت هذه مكافأة ثلاثة (٣) جنهات مصرّية بالتمام والكمال، وهي مكافأة (الأوليّة) في الترتيب. فكانت نجدة من السماء، فقد كان هذا المبلغ في ذلك الوقت كبيرا ومجزيا، ويقضي به المرء به أوطارا لا وطرا واحدا.^٢

فاشترى ثلاثة أمتار - إلا رعا - من الصوف الجيد، وفصلها جلبابا يليق بالعمامة التي يلبسها. كما اشترى بعض الملابس الأخرى داخلية وخارجية. وحسن من فراشه وغطائه أي ستارته.

وظلت هذه الجنهات الثلاثة مصدرا ثابتا له، فلم تتخلّف عنه في سنة من السنوات، حتى بعض السنوات التي لم يكن ترتيبه بها الأول - مثل الشهادة الابتدائية - ولم يُجرّم منها، فقد كان تعطى للثلاثة الأوائل.

المسألة الثالثة: السنة الثالثة بالمعهد الابتدائي

وبدأ السنة الثالثة الابتدائية بالمعهد، وذهبوا قبلها بيومين أو ثلاثة لبيحثوا عن مسكن جديد، بعد الإجازة. بعد فصارى الجهد، وفقوا إلى سكن في شارع (الحلو) وهو شارع مشهور في كفرة (علي أغا) في طنطا. فاشترى (كنبة إستانبولي) كما يسمّوه، لأنام عليها، ولكنّه اشترى الكنبة المستعملة، فلم يكلفه كثيرا، كما أنها ليست له تكاليف أخرى شرائها.^٣

١ القرآن الكريم، يوسف (١٢)، الآية [١٠٠].

٢ ألفرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م، ج ١، ص ١٣٥

٣ المرجع السابق، ص ١٤٥ - ١٤٦

المسألة الرابعة: السنة الرابعة الابتدائية

وانتقل إلى السنة الرابعة الابتدائية، وهي السنة التي تتم بها هذه المرحلة ليتهيأ الطالب للقسم الكلية. والحمد لله قد انتهى من المراحل الابتدائية نهائياً بالنجاح، وحصل على الشهادة الابتدائية، وتأهل لدخول الثانوية بالمعهد.^١

المطلب الثالث: إلى المعهد الثانوي

وهذا المطلب يتناول ثلاث مسائل، وبيانها فيما يلي:

حصل على الشهادة الابتدائية، وتأهل لدخول الثانوية بالمعهد. والمعهد الثانوي مقره بجوار محطة سكة حديد طنطا، لقد بُني أساساً ليكون معهداً، بخلاف المعهد الابتدائي، وقد نُصِحَ سنُّهُ الآن لِيُتِمَّ الثامنة عشرة، وهو متهيئ للمرحلة الجديدة بحمد الله عقلياً ونفسياً. كان طلاب كل سنة في المعهد يُقسَّمون إلى فصول، كل فصل فيه نحو أربعين أو خمسين طالباً. وكان نصبه في الفصل السادس، فكان صقّه من الحنفية.

المسألة الأولى: أمنيّة القرضاوي وأحلامه في حياته الطالب (السنة الأولى الثانوية)

كانت أمنيّة الشيخ القرضاوي أن يكون شيخاً للأزهر في حياته! الذي قال جواب سؤال أحد المشايخ، وهو في السنة الأولى الثانوية. قال القرضاوي: من طرائف التي أذكرها - أن جاءنا أحد المشايخ ونحن في السنة الأولى الثانوية، في حصّة إضافية، وكان شيخاً ظريفاً صاحب نُكْتَةٍ، فأراد أن يتسلّى مع الطلاب، فقال أريد من كل طالب منكم أن يذكر أمنيّة التي يريد أن يحقّقها في حياته، وفي مستقبل أيامه: ماذا يريد أن يكون؟ وطفق الطلبة في الفصل يذكر كل منهم ما يريد أن يكون في مستقبل حياته، حتّى جاء عندي وقال لي: وأنت ماذا تريد؟ قلت له: اسمح لي يا فضيلة الشيخ أن أصارحك بما أريد، إني أريد أن أكون شيخاً للأزهر!^٢

وتوقّع الطلاب أن يُعلّق الشيخ الساخر على طريفته، وخصوصاً مع غرابة الأمنيّة، ولكنه فاجأ الجميع بقوله: لا تستبعدوا هذا يا أولاد. فكم من أمل كبير قد تحقّق، وكم من حلم بعيد أصبح حقيقة. وفي التاريخ وفي الواقع أمثلة كثيرة لأناس حلّموا أحلاماً ظلّها الناس شطحات الخيال، أو من توقّعات المُحال، اجتهد أصحابها وجاهدوا حتّى وصلوا إليها.

وقد سألتني الأخ عبد العزيز السيّد المذيع بتليفزيون دولة قطر، وقد كان يُسجّل معي ذكرياتي عن مسيرة الحياة، وجاء ذكر هذه الواقعة، فقال لي: وهل لا تزال هذه الأمنيّة وإرادة؟ قلت له: أولاً قد فات الأوان من ناحية، فأنا في الخامسة والسبعين من عمري، ومن ناحية ثانية، لم يعد شيخ الأزهر وحده قادراً على تحقيق ما يريد من إصلاح وتجديد، حتّى تسانده الدولة، أو على الأقل تطلق يده...ومن مثلي بهذا؟

المسألة الثانية: إلى طنطا استعداداً لامتحان الثانوية

بعد الإفراج عن معتقل الطور، سافر القرضاوي إلى "طنطا" ليتفرّغ تفرّغاً تاماً لمراجعة الكتب المقرّرة في هذه المدّة القليلة، وبخاصة أنه كان قد ألقى هذه الكتب جانباً، بعد أن حرّمه من دخول الامتحان الدور الأول. بارك الله في هذه الأيام القليلة، وواصل الليل بالنهار، لا يكاد ينام إلا القليل.

١ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م، ج ١، ص ١٤٧

٢ المرجع السابق، ص ١٨٥ - ١٨٦

وقد بدأ الامتحان بمادة "الفقه" كما كان هو المعتاد في معاهد الأزهر، ومن قدر الله أن الأستاذ الذي كان يراقب فصله، لاحظ أن استمارته ليس فيها صورة شمسية، فسأله عن سبب ذلك، فقال (القرضاوي) له: ظرف خارج عن إرادته، فقال: أي ظرف يمنع من إصاق صورة بالاستمارة؟ قال: بصراحة كان معتقلاً^١.

وهنا قال الشيخ: واسمه أحمد ربيع: كُنْتُ فِي جَبَل الطور؟ قال: نعم، قال: حدِّثْنا حديثاً حزيناً أو جميلاً عن الطور وبعض ما وقع فيه، والرجل يُصْغِي إلى بتأثر وإعجاب، ونسي القرضاوي ونسي الشيخ ربيع أنه في الامتحان، وأنه في حاجة الوقت، وهنا أدرك الشيخ أن الوقت قد ضاع منه الكثير، فقال أنا أسف يا بني، تَوَكَّلْ على الله واكتب.

وهو عادة يطيل الكتابة في إجابة الأسئلة الأولى، وكانت الأسئلة أربعة، ولما كان في نهاية إجابة السؤال الثالث، دُقَّ الجرس، ولم يجب عن السؤال الرابع، وكان في الميراث، وهو يعرف الإجابة تماماً.

لقد خرج من الحصّة الأولى في غاية الهمّ والحزن على ما ضاع منه من أسئلة الفقه، الذي كان كثيراً ما يحصل فيه ٤٠ من ٤٠.

وقد بدا ذلك على وجهه حينما خرج من الحصّة الأولى، وقد ركب من الغمّ ما ركب، وحاوا إخوانه أن يُهَوِّنُوا عليه الأمر، وظنُّوا أنه حزين على عدم النجاح، وقالوا: إن الكُلَّ يعرف ظروفك، وأنتك أوّل الفصل، فإذا لم توفَّق في سنة ما، لظروف خارجة عن إرادك، فلا جناح عليك، ثمّ ألا تحصل على عشرين درجة - النهاية الصغرى - قال القرضاوي لهم: أنا ضامن نحو ثلاثين درجة، أو تسع وعشرين. قالوا: وتضمّن هذا ثمّ تفكّر وتكدّر هذا التكدّر، قلت: إني حريص على التفوق حريصي على النجاح. وهذا جعله يهتمّ برعاية الوقت في جميع حصص الامتحان القادمة، ووفقه الله غاية التوفيق.

المسألة الثالثة: السنة الثانية الثانويّة

وحينما ظهرت النتيجة كانت المفاجأة السارّة، وهو أنه حصل على الترتيب الثاني في الشهادة الثانويّة، على طلاب المعاهد الدينيّة في المملكة المصريّة في الدورين الأوّل والثاني، ولم يكن بينه وبين الطالب الأوّل إلا نصف درجة، وكان الأوّل في المَحَلَّة أيضاً هو صديقه حامد محمود إسماعيل. (الدكتور حامد الآن).

وكان هناك مكافأةً للأوّل والثاني اقتسماها معا بالتساوي، وكانت حوالي ثلاثة وثلاثين جنيهاً. والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.^٢

المطلب الرابع: وقفة القرضاوي لتقويم الدراسة في المرحلة الابتدائيّة

وفيه أربع مسائل، وتفصيلها كما في التالي:

المسألة الأولى: وقفة دراسة المعهد الأزهر

قسّم الأزهر الدّراسة في معاهده إلى مرحلتين إبتدائيّة وتأنويّة. قياساً على تقسيم وزارة التربيّة التعليم، وإن كان التعليم الابتدائيّ في الأزهر لا يبدأ إلا بعد أن يكون الطالب قد حفظ القرآن الكريم، وأجاد قدرًا من الحساب.^٣ وكانت الحالة الدراسيّة في وقتئذ.

١ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م، ج ١، ص ٣٩٩

٢ المرجع السابق، ص ٤٠١

٣ المرجع السابق، ص ١٥٥

والذي لاحظته "القرضاوي" على مناهج المرحلة الابتدائية:

أولاً: أنها خلّت من تعليم أيّ لغة أجنبية كالإنجليزية، مع حاجة الطالب الأزهرّي إليها في مستقبله.

ثانياً: أنها اهتمّت بالجغرافيا والتاريخ والحساب والرياضيّات، ولم تهتمّ بإعطاء من العلوم في الفيزياء (الطبيعة) أو الكيمياء أو الأحياء (الحيوان والنبات).

ثالثاً: أنها اهتمّت بالنحو والصرف اهتماماً بالغاً، حتى إنّنا درسنا النحو كلّه أربع مرّات في المرحلة الابتدائية: درسناه في السنة الأولى في شرح الأجرومية، وفي السنة الثانية في شرح الأزهرية، وفي السنة الثالثة في شرح قطر الندى لابن هشام، وفي السنة الرابعة في شرح شذور الذهب، ولكنه لم يفد كثيرين في التطبيق.^١ ومثل ذلك يقال عن (النصوص) أو (المحفوظات) فلم يكن لها منهاج معلوم، ولا برنامج مرسوم، وإنما ترك للأستاذ يختار ما يشاء أو يتّخذها للراحة والتّرفّة.

المسألة الثانية: علم الفقه

أمّا علم الفقه فرغم أنه كان حصل فيه على أعلى درجات، يكون مرتاحاً إليه، وإلى الكتب المؤلّفة فيه، وإلى طريقة تدريسه. في السنة الأولى كان يُدرّس لهم الفقه شيخ حسن الطريقة، جيّد الشرح، يحاول أن يصل الفقه بالحياة، وأن يضرب المثل من الواقع، وكان يجذبهم بطريقته إلى فهم الموضوع جذبا. وبخاصّة أنّه كان يُدرّس لهم "فقه العبادات" أي فقه الطهارة، وفقه الصلاة، وفقه الصيام، من كتاب "نور الإيضاح" في الفقه الحنفيّ.

أمّا في السنوات الثلاث بعد ذلك (الثانية والثالثة والرابعة) فقد كان تدرّس في كتاب "اللباب في شرح الكتاب" أو كما يسمّيه الأحناف "الميداني على القدوري".^٢ والمادة "الميراث" إذ كانت أصوله في القرآن الكريم، وكان موصولا بحياة الناس، وكان الناس يسألون فيه دائما، ففهمه وهجمه، وكان يفتي فيه منذ السنة الرابعة الابتدائية.

المسألة الثالثة: علم التوحيد

ومن المعلوم التي لم يتفتّح لها عقله، ولم يطمئنّ بها قلبه: ما يسمّى "علم التوحيد" وهو ما كان يسمّى "علم الكلام"، وهو العلم الذي يتولّى تقديم العقيدة وشرحها والتدليل عليها، والدّفاع عنها. وكان علم التوحيد يقدّم لهم طوال سنوات القسم الابتدائيّ في صورة "المذكّرات" يكتبها الأساتذة، وهي المذكّرات مختصرة، ولكنها مُعقّدة تعتمد على "علم الكلام الأشعريّ" ومقدماته العقلية المتأثّرة بفلسفة اليونان، وقصور نظرتها إلى الوجود والوحي والآخرة، وعموض عباراتها في تقديم هذه الأمور.^٣

بخلاف طريقة القرآن التي تقوم على مقدّمات فطرية، تقتنع بها العقول، وتطمئنّ بها القلوب، كما تقدّم في أسلوب يجمع بين إقناع العقل، وتحريك العاطفة معا. وكانوا يذكرون آيات القرآن في علم التوحيد على أنها مجرد "أدلة نقلية" ولا ينظرون إلى ما تحمله من دلالات عقلية، مثل الدلالة على وجود الله تعالى. في مثل قوله الله: ﴿أَمْ خُلِفُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [٣٥].^٤ وفي مثل قوله الله: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْقِنُونَ﴾ [٣٦].^٥

١ ألفرضَاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م، ج ١، ص ١٥٦

٢ المرجع السابق، ص ١٥٨

٣ المرجع السابق، ص ١٦٠

٤ القرآن الكريم، الطور (٥٢)، الآية: [٣٥].

٥ القرآن الكريم، الطور (٥٢)، الآية: [٣٦].

ومثل الدلالة على وحدانية الله. كما في قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [٢٢].^١
ومثل الدلالة على البعث والجزاء بعد الموت، وضرورة الثواب والعقاب لإثبات عدل الله تعالى وحكمته، كما قال الله تعالى: ﴿أَمْ يُجْعَلُ
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يُجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [٢٨].^٢

قول القرضاوي: لم نكن ندرس من علوم الدين في المعهد غير الفقه والتوحيد، والفقه يدرس على الطريقة المذهبية بعيدا عن الاستدلال بالقرآن والسنة، وعن مقاصد الشريعة، وعن واقع الحياة، كما يدرس التوحيد على طريقة الأشعرية المتأخرين، وفيه نفس فلسفي وحدي، لا ينشئ عقيدة ولا ينميها ولا يُبَيِّنُها.^٣

المسألة الرابعة: دروس فقهية في القرية

قال القرضاوي: ومما أذكره في هذه الفترة: ما بدأت من دروس فقهية في قريننا، وأحسب أن ذلك كان بعد السنة الثانية الثانوية. وقد كانت دروسي دروسا وعظية هدفها الإرشاد إلى تثبيت الإيمان وتصحيح المفاهيم الدينية، وتنمية القيم الأخلاقية والسلوكية، التي دعا إليها الدين ومعتمد تلك الدروس: الرقائق ونصوص الترغيب والترهيب ونحوها، مما يزهّد في الدنيا، ويذكر بالآخرة، ويرقق قلوب الناس.^٤ أمّا هذه الدروس الجديدة، فكانت تدور حول " فقه الأحكام " وخصوصا العبادات، وبالأخص الصلاة. وكان الجديد في هذه الدروس يتمثل فيها يلي:

١. البعد عن الحشو والفضول وما لا حاجة حقيقية بالناس إليه، مثل الكلام عن المياه السبعة التي يجوز بها التطهير، والتي يبدأ بها كثير من كتب الفقه: ماء المطر، وماء النهر، وماء البحر، وماء البئر، وماء العين، وماء الثلج، وماء البرد. فلا حاجة إلى ذلك والمتوضئ يفتح الصُّبُورَ أي الحنيفة فيجد الماء ويتوضأ.

٢. تبني التيسير والتخفيف عن الناس ما وجد سبيل إلى ذلك، وهذا ما أشار إليه القرآن في ختام آية الطهارة: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [٦].^٥

وقال في ختام آية الصيام- ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [١٨٥].^٦ وقال الرسول الكريم: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «يَسْرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَسْرُوا، وَلَا تُنْفِرُوا».^٧

٣. التحرر من التعصب لمذهب إمام بعينه، فإن الله لم يكلّفنا باتباع إمام أو مذهب معين، إنّما كلفنا اتباع كتابه وسنة نبيه. وعلينا أن نستفيد من جميع المذاهب، مرجحين منها ما كان أقوى دليلا، أيّا كان القائل به، فالمسلم يتبع الحجة ولا يتبع الأشخاص غير المعصومين.

١ القرآن الكريم، الأنبياء (٢١)، الآية: [٢٢].

٢ القرآن الكريم، ص (٣٨)، الآية: [٢٨].

٣ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م، ج ١، ص ١٦١

٤ المرجع السابق، ص ٢١٩ - ٢٢٠

٥ القرآن الكريم، المائدة (٥)، الآية [٦].

٦ القرآن الكريم، البقرة (٢)، الآية [١٨٥].

٧ البخاري، *الجامع الصحيح للبخاري*، باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم، (دار طوق النجاة [مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي]، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ)، رقم الحديث: ٦٩، ج ١، ص ٢٥

وقد كان المعتاد لعلماء قريته في دروس الفقه: أن يدرّسوه على مذهب الشافعيّ، حتّى العلماء الأحناف يدرّسون الفقه على المذاهب الشافعيّ، تأسيساً على أن مذهب عوام القرية هو الشافعيّ، مع أن مذهب المحقّقين من العلماء: أن العامي لا مذهب له، وإنّما مذهبه مذهب من يفتيه. ومن المعلوم أن مذهب الإمام الشافعيّ أشدّ المذاهب المتبوعة في العبادات، ولا سيّما في مسائل الطهارة والنجاسة، حتّى قال الإمام أبو حامد الغزالي في "إحياء علوم الدّين" معلّقاً على مذهب الشافعيّ - وهو الشافعيّ - في مسائل الطهارة: كنت أودّ أن يكون مذهبه في المياه كمذهب مالك، وقويّ مذهب مالك بسبعة أوجه.

لهذا اختار الطالب القرضاوي أن يدرس الفقه غير ملتزم بمذهب الشافعيّ، بل على طريقة "فقه السنّة" للشيخ "سيّد سابق"، وقد ظهر الجزء الأوّل منه في الطهارة، وقدّم له حسن البناء، و"الدين الخالص" للعالم الكبير الشيخ محمود "خطاب السبكي" مؤسس الجمعية الشرعيّة في مصر.^١ وكان هذا النهج مخالفاً لما ألّفه الناس من علماء القرية قبلي، كما كان من ثمرته آراء جديدة، استغربها الناس في أوّل الأمر، وإن وجدوا فيها كثيراً من التيسير والتسهيل عليهم، مثل القول بأن كلّ ما يؤكل لحمه فبوله وروثه طاهر، وهو مذهب مالك، ورحّحه ابن تيمية وابن القيم من الحنابلة.

والقول بأنّ الماء إذا وقعت فيه النجاسة - وإن كان قليلاً - لا ينجّس إلّا بتغيير طعمه أو لونه أو رائحته، فإن الله خلق الماء طهوراً لا ينجّسه شيء، كما دلّ عليه حديث بئر بضاعة وغيره. وكذلك القول بأنّ لمس المرأة لا ينقض الوضوء، كما هو مذهب أبي حنيفة وأصحابه.

وقد تحدّث القرضاوي هذه الآراء ضجّة في القرية، وعزّ على بعض الناس أن يخالفوا ما ألّفوه وتوارثوه من قديم الزمان، وقال بعض العوام المنتوّرين من ملازمي المشايخ القدامى ودروسهم: كيف يخالف هذا الشاب الذي لا يزال طالبا كبار المشايخ من علماء المعاهد وكليات الأزهر، ويأتينا بهذه الآراء الجديدة والغريبة؟ واحتشد عدد منهم ليناقدونه، ورحّب بهذا النقاش، وقال لهم: بيني وبينكم كتاب الله وسنّة رسوله صلّى الله عليه وسلّم. وإنّي لا أختار رأياً في مسألة إلا وقد قال به إمام من أئمّة المسلمين، فلا أخرج على إجماع أبداً. وكان أوّل مسألة جادلونه فيها هي قضية عدم نقض الوضوء بلمس المرأة: مذهب الشافعيّ هو الموافق للقرآن الذي قال: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [٦].^٢

قال لهم: اختلف الصحابة والتابعون في المراد باللمس أو الملامسة في هذه الآية -

- * فأخذ ابن عمر رضي الله عنه بظاهر اللفظ، وأنّ اللّمس أو الملامسة هو وضع البشّرة على البشّرة.
- * وقال ابن عباس رضي الله عنه: المسّ واللمس والملامسة في القرآن كناية عن الجماع، ولكنّ الله تعالى حيي كريم يَكْنِي عَمَّا شَاءَ بِمَا شَاءَ.
- * وابن عباس هو ترجمان القرآن، ودعا له النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أن يعلمه التأويل، ويؤيّد تأويله قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَعَّوهُنَّ وَسَرَخُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [٤٩].^٣

فالمراد باللمس هنا: الدخول بالمرأة. وقد تكرر هذا في القرآن. ومثال ذلك قول مريم عليها السلام: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [٢٠].^٤ ثمّ إن الآية على فهم ابن عباس تكون قد أشارت إلى الحدث الأصغر الذي كتّ عنه بقولها: " أو

١ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م، ج ١، ص ٢٢٢

٢ القرآن الكريم، المائدة (٥)، الآية [٦].

٣ القرآن الكريم، الأحزاب (٣٣)، الآية: [٤٩].

٤ القرآن الكريم، مريم (١٩)، الآية: [٢٠].

جاء أحد منكم من الغائط." ومن الحدث الأكبر، الذي كنت عنه بقولها: "أو لامستم النساء." بخلاف الفهم الآخر، فلا يكون في الآية أي دلالة على التيمم من الحدث الأكبر.

ثم ذكر القرضاوي لهم الحديث الذي يتين: أن عائشة رضي الله عنها لمست باطن قدم النبي صلى الله عليه وسلم، وهو في صلاته، ولم يخرج منها، ولو كان لمسها ناقضا للوضوء لخرج من الصلاة، وجدد وضوءه، والقول بأنه كان يحائل خروج عن الظاهر، لا دليل عليه. ولوأخذنا بظاهر الآية "لامستم النساء" كما أخذ الشافعي، لوجب أن ينتقض الوضوء بلمس المرأة المحرم كالأم والأخت والابنة، لأنهن من النساء، كما هو رأي الظاهرية. وبعد هذه المناقشة الساخنة، لم يجد المعارضون في أيديهم حجة، وقالوا: هل نستطيع أن نجادل أزهرياً؟ قال لهم: نحن أسرى الأدلة. فمن كان معه الدليل فهو الأقوى والأبقى.^١

وشاع هذا الفقه الجديد في القرية حتى بين نساءها، وإن كنّ لا يحضرن هذه الدروس، ولا سيما أن لمس المرأة ونقضها لوضوء الرجل، كثيراً ما كان يحدث مشكلة بين الرجال وزوجاتهم، وخصوصاً في فصل الشتاء، عندما يجيء الرجل من الحقل، ويذهب إلى المسجد، ويتوضأ لصلاة المغرب، ثم يصلّيها، ويعود إلى بيته للعشاء كالعادة، وفي أثناء تقديم الطعام قد تلامس المرأة يد زوجها خطأ، وهنا يغضب الرجل، ويثور على امرأته التي أضاعت وضوءه، وهذا يكلفه وضوءاً جديداً في هذا البرد الشديد، وكثيراً ما يقع شجاراً، ويشبّ حريق في البيت بسبب هذا الأمر. وقد حدثه بعض المستنيرين منهم أن فلاناً من القرية كاد يحدث هذا الشجار بينه وبين زوجته بسبب هذا اللبس الخطأ، وما كاد يصرخ في زوجته حتى قالت له: هون عليك. صلّ على مذهب الشيخ يوسف القرضاوي! والحقيقة أنه ليس مذهب الشيخ يوسف، إنما هو مذهب الإمام أبي حنيفة وأصحابه، بل هو مذهب الإمام مالك وأحمد فيمن لمس بغير شهوة. كما في هذه القضية.

المطلب الخامس: مرحلة الكلية

وهي تحتوي على خمس مسائل، وتقريرها فيما يلي:

المسألة الأولى: الالتحاق بكلية أصول الدين

بعد حصوله على الشهادة الثانوية وتفوقه فيها، اقترح بعض الأصدقاء على أن يُقدّم إلى كلية "دار العلوم" وهي تأخذ عادة المتفوقين من أبناء الأزهر، وقالوا له: ستبرز فيها في مجاله تخصصها: مجال الدراسات اللغوية والأدبية، ومجال الدراسات الشرعية، ثم إنهما تُعَيّنُ المتفوقين مُعيدين فيها، والأزهر حتى الآن ليس فيه نظام المُعيدين، إلى آخر الإجراءات التي ظلّ بعض الزملاء يُذوّفها في عينه. ولكنه في قرارة نفسه كان مُصمّماً على ألا يتخلّى عن الأزهر، وأن من حقه عليهم أن يبقوا فيه وأن يعملوا على إصلاحه وتجديده، ولهذا لم يقبل التوجّه إلى "دار العلوم".

واقترح أصدقاء آخرون أن يُقدّم إلى "كلية اللغة العربية" بالأزهر، فهو معروف بتفوقه في علوم العربية نحوها وصرفها وبلاغتها، كما عُرف بأنه أديب وشاعر، وهذا كله يتلاءم مع الكلية العربية، ويُتيح له فرصة للإبداع والبروز فيها. قال القرضاوي: ولكنني كنت أحسّ من نفسي أنني جُلْتُ من علوم العربية وآدابها، ما يروي ظمئي، وعندني منها ما يمتحنني الأهلية للتوسّع والمزيد إن أردت، وقد سمى سلفنا العلوم العربية "العلوم الآلية" يعنون أنها آلة ووسيلة لفهم مصادر الإسلام من القرآن والسنة، وليست مقصودة لذاتها، أقف عند الوسيلة وأدعُ المقصود؟ لهذا كانت نيته مُتجهّةً إلى التقديم لكلية أصول الدين، وهو إنجاء قدّم عنده.

١ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م، ج ١، ص ٢٢٤)

وقد كان يُعجبه في كُليّة أصول الدين أنها كُليّة الثقافة الإسلاميّة الواسعة والمتنوّعة، تُدرّس العلوم العقليّة والنقليّة، تُدرّس التفسير والحديث في كلّ سنواتها، وتُدرّس العقائد والتوحيد في كلّ سنواتها، وتُدرّس الفلسفة في كلّ سنواتها، وتُدرّس العقائد والتاريخ الإسلامي في كلّ سنواتها، وتُدرّس المنطق وأصول الفقه وعلم النفس، ونظريّات الأخلاق وغيره. بأنا لا أعدل بها بديلاً. وكان الأزهر في هذه السنة قد أنشأ ما يشبه مكتب التنسيق لتوجيه الطلبة إلى كُليّتي أصول الدين والشريعة خاصّة. فمن كانت درجاته في الفقه أعلى ألحق بكُليّة الشريعة، ومن كانت درجاته في التوحيد والتفسير والحديث أعلى ألحق بكُليّة أصول الدين.

وكان المعتاد أن تكون درجاتي في الفقه أعلى، ولكن الظروف التي حدثت في امتحان الفقه، نقصت درجاتي في الفقه كثيراً، وجعلت درجاتي في العلوم الأخرى أعلى كثيراً جداً، فحوّل اسمي إلى "كُليّة أصول الدين" بغير معاناة ولا طلب ولا وساطة، على حين التحق أخي أحمد العسال بكُليّة الشريعة.^١

المسألة الثانية: بداية الدراسة بالكُليّة

بدأت الدراسة بالكُليّة مع بداية العام الدّرّاسيّ، وانتظمت صفوف الدراسة من أوّل يوم، وأقبل القرضاوي على الدراسة بشغفٍ وحرصٍ وعزمٍ، بعد أن سلّمهم عدداً من الكتب، واشتروا عدداً منها، وكانت سنة حميدة من الكُليّة أن تُسلّم الطلاب معظم الكتب المقرّرة، وكتباً أخرى للمطالعة والاستزادة.^٢

وكان من هذه الكتب الإضافيّة كتاب "زاد المَعَادِ" للإمام ابن القيم (طبعة صبيح) وهي طبعة غير محقّقة، ولكنّها أفادته كثيراً. وكان هذا من التّطوُّر الذي حدث في عهد "الإمام المراغي (شيخ الأزهر الأسبق): أن تقبل كتب ابن تيمية وابن القيم وتوزّع على طلاب الأزهر، فقد كان الأهر قبل ذلك يُقاومُ فكر هؤلاء، ويحشرهم في زُمرّة (المجسّمين).

المسألة الثالثة: امتحان الشهادة العالميّة

كان من أهمّ الوقائع التي وقعت في تلك المرحلة: امتحان الشهادة العالميّة - أو العاليّة - التي تختم بها الكليّة، وبها يصبح الطالب أحد علماء الأزهر، يستحقّ رسمياً لقب "الشيخ" ويكتب له في شهادته. وكانت شهادة العالميّة لها شأن ووزن كبير، وكان يوقّعها الملك بنفسه في عهد الملكيّة، أما في عهد الثورة فأصبح الذي يوقّعها شيخ الأزهر.

وكان القرضاوي رغم انشغاله بالدعوة وأنشطتها المتنوّعة، ويجامع آل طه بالحلّة الكبرى، حريصاً على التّفوّق في دراسته، وهذا مما أكرمه الله منذ السنة الأولى الابتدائيّة حتى الآن، فقد حافظ في معظم السنوات على ترتيب "الأول" بين فِرَقَتِهِ، وفي قليل من السنوات تأخّر عن "الأول" ليكون الثاني أو الثالث.^٣ ولكنّه في الشهادة العالميّة كان حريصاً كلّ الحرص على أن يكون "الأول"، والمسلم ينشد الأحسن والأمثل دائماً - كما قال الله تعالى: ﴿...فَبَشِّرْ عِبَادِ [١٧]﴾ ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمْ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ أُولُوا الْأَلْبَابِ [١٨]﴾.^٤

١ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م، ج ١، ص ٤٠١ - ٤٠٢.

٢ المرجع السابق، ص ٤٠٦.

٣ المرجع السابق، ص ٤٩٣.

٤ القرآن الكريم، الزمر (٣٩)، الآيات [١٧ - ١٨].

والله تعالى يحب معالي الأمر ويكره سفاسفها، والرسول الكريم يقول: "إذا سألتكم الله الجنة فاسألوه الفردوس الأعلى. كما روي عن ابن أبي عوف، أن سويد بن جبلة، حدّثهم، أن عريضا حدّثهم، يرُدُّ إلى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفَرْدَوْسَ»^١ فلا لومة إذا كان طموحه إلى الأوَّلِيَّة، واشتدَّ حرصه عليها، وقد استعدَّ لها بما يشرُّه الله له ووفقه إليه من الاستدكار ومن المراجعة، التي يعتبرها كافية بالنسبة له، ولتكوينه العلمي السابق المؤسس على قواعد مثبتة، والله الحمد. ولكن كان يخاف من أمر واحد، هو "الامتحان الشفهي" وخصوصا "امتحان التعيين" وكان عندهم امتحان شفهي عادي في بعد المواد مثل "المنطق" و"اللغة الإنجليزية".

وقد أذى امتحان المنطق أمام لجنة كان يرأسها العالم الأزهرى النابه المتألِّق الدكتور حمودة غرابية، أحد الأزهريين المرموقين والمأمولين، لتفوقه العلمي والفكري والأخلاقي، وهو أستاذ الفلسفة والعقيدة، وقد قدم حديثا من لندن بعد أن حصل على الدكتوراه منها، إضافة إلى العالمية من درجة أستاذ، التي كانت رسالته فيها عن "ابن سينا بين الدين والفلسفة".

سأله الدكتور غرابية عدّة أسئلة في "المنطق" فوفق في إجابتها، وخرج من اللجنة مسرورا.^٢

أم اللغة الإنجليزية، فقد كان إجابته على ما يرام، وكان يحصل في التحريي - غالبا - على عشرين من عشرين، ولكن مما يؤسف له: أن ما حصله من الكليّة في سنواتها الأربع من اللغة الإنجليزية، قد ضاع وتبخر من ذاكرته بعد ذلك - إلا قليلا - نتيجة الإهمال وعدم الاستعمال، ولأنّه تعلّمها على كبر، والتعليم في الصغر كالنقش في الحجر كما قيل.

المسألة الرابعة: امتحان التعيين

بقي امتحان التعيين، وكان في مادتين أساسيتين: امتحان التفسير والتوحيد. ومعنى "التعيين": أن يُعيّن للطالب موضوع مُعيّن أو فقرة مُعيّنة من المقرر، وعليه أن يراجعها فيما شاء من مراجع، ويسأل فيها من شاء من مشايخه، بل الكليّة تكلف بعض المشايخ ليراجعهم الطلاب في الموضوع، ويسألوهم عن كلّ ما يعين لهم حوله.^٣

وعلى الطالب أن يستعدّ للسؤال في كلّ ما يُحيط بموضوعه، فقد يسأل في النحو أو الصرف أو البلاغة أو المنطق، أو الحديث أو الفقه، أو ما شاء الممتحن أن يسأله، وعليه أن يجيب في كلّ ما يسأل عنه، فكأن هذا التعيين امتحان عام لمدى تحصيل الطالب العلمي خلال سني دراسته كلّها، وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان. وكان امتحان التعيين في سنتهم في التفسير في آيتين من سورة الرعد، وهما قوله تعالى: "أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها، فاحتمل السيل زيدا رايبا... إلى آخر الآيتين. وفي التوحيد: فقرة من كتاب "العقائد النسفية" فيها خلاف معروف بين أهل السنة والمعتزلة، وهي التي تقول: "المقتول ميت بأجله عندنا أهل السنة." كما أن لجنة التعيين تمتحن الطالب أيضا في حفظ القرآن الكريم.

١ البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، (المتوفى: ٢٥٦هـ)، *تخريج الأحاديث المرفوعة المسندة في كتاب التاريخ الكبير للبخاري*، (الرياض - مكتبة الرشد الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م)، رقم الحديث: ٦٥٥، ج ١، ص ١٠٩٠. والبخاري، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبخاري (المتوفى: ٢٩٢هـ)، *مسند البخاري المنشور باسم البحر الزخار*، (المدينة المنورة - مكتبة العلوم والحكم، الطبعة: الأولى، بدأت ١٩٨٨م، وانتهت ٢٠٠٩م)، رقم الحديث: ٤٢٠٣، ج ١٠، ص ١٣٩

٢ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، *ابن القريّة والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٤٩٤

٣ المرجع السابق، ص ٤٩٤ - ٤٩٥

المسألة الخامسة: عشر لجان لامتحان التعيين

وكان في الكلية عشر لجان قد أُلِّفَتْ لامتحان "التعيين والقرآن"، وكان القرضاوي مستعداً لامتحان أمام أيّ واحدة منها، إلا واحدة، خوفاً زملائه الطلبة من رئيسها، وهو أستاذهم الشيخ صالح شرف، الذي درّسه علم التوحيد في إحدى السنوات، ولكن كان من زملائهم من هو بلديه وقريبه، وهو ممن ينافسونه على الأوليّة، وخاف -أو خوفاً إخوانه - أن ينحاز الشيخ إلى قريبه، ويُبَحِّسُهُ حَقَّةً، وكان هذا من سوء ظنّه، ولكنّ سوء الظنّ عِصْمَةٌ - كما قالوا - في كثير من الأحيان.

بيد أنه ما كان مُهْتَمًّا بهذا الأمر، وقال: هناك عشر لجان، فلماذا يُفْتَرَضُ أن يكون حظه في اللجنة المُخَوِّفَةِ؟ ولم تكن تُعْرَفُ لجنة الطالب إلا في يوم امتحانه نفسه، وفي يوم امتحانه ذهب إلى الكلية، فأجأ بأن اسمه أمام اللجنة التي حَدَّرُوهُ منها. قال القرضاوي: وهنا شاورت بعض الأساتذة الذين هم على صلة طيبة بي، مثل الشيخ مختار بدير الذي قال لي: من حَقِّكَ أن تعتذر عن عدم الامتحان أمام هذه اللجنة دون إبداء الأسباب، وكذلك قال لي الدكتور محمود فياض أستاذ التاريخ.^١

وكذلك سأل قريبه وَبَلَدِيَّتِهِ الشيخ أحمد محمد صقر، أستاذ الحديث بالكلية، فقال له: أحد زملائك (وهو الحسيني عبد المجيد هاشم الذي عين وكيل للأزهر بعد ذلك) دخل على لجنتنا، وكان فيها الشيخ أحمد علي، ونظر إليه الطالب فوجده غائباً، فقال له: يا فضيلة الشيخ مالي أراك مشكراً؟ والله ما أنا ممتحن على هذه اللجنة، وغادرنا، ودخل لجنة أخرى.

كلّ هذا شجّع القرضاوي أن يذهب إلى عميد الكلية، وهو شيخهم الشيخ الحسيني سلطان، (الذي كان شيخاً لمعهد طنطا من قبل، وأصبح وكيلاً للأزهر بعد ذلك) فطلب منه أن ينقل اسمه من اللجنة التي هو فيها إلى لجنة أخرى.

فقال له: وهل نحن على هوى الطلبة؟ إذا لم تُعْجَبْ أحدهم لجنة نقلناه إلى أخرى، كأن الطلاب هم الذين يختارون لجانهم قال القرضاوي له: يا فضيلة الشيخ، هذا لو كنت أطلب منك أن تدخلني لجنة معينة من اللجان العشرة، ولكني أرفض لجنة واحدة فيها لي تحفظ عليها، وأطلب منك أن تضعني في أيّ لجنة أخرى، أو تكون لجنة ترأسها فضيلتك وتمتحن كما تشاء، ثم قلت له: إنها شهادة عالمية واحدة، ولن أرفط في حقي فيها، وضربت بيدي على المنضدة (الطاولة) في شيء من الغضب.

فقام الشيخ رحمه الله من مكتبه في هدوء، وذهب إلى اللجنة، وسحب أوراقه منها، وحوّنها إلى لجنة أخرى، برئاسة الشيخ عبد القادر خليف، عُضْوِيَّةً شيخنا محمد علي أحمدين أستاذ الحديث، والدكتور فياض أستاذ التاريخ. ومن غرائب المُصَادَفَاتِ: أن يكون في اللجنة الثانية الشيخ أحمدين، وكان القرضاوي قد اصطدم به أثناء الدراسة في آخر السنة، وساءت العلاقة بين القرضاوي وبينه، حتى أخرجته من الفصل، فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله. وكان سبب الخلاف بين القرضاوي وبين الشيخ أحمدين: أنه كان يُدَرِّسُ لهم حديث: "خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم".

واشتدّ النزاع بينه وبين الشيخ أحمدين، فطلب إلى أخرج من الفصل، وألا أن يحضر دروسه، وكان على وشك انتهاء السنة الدراسية، فظنّ التوتّر قائماً بينه وبين الشيخ أحمدين، ولكن ها هو القدر وضعه أمامي في اللجنة التي سيؤدّي الامتحان أمامها، وليس مقبولاً ولا لائقاً أن يُرْفَضَها. فليكن ما قدر الله، ودعا الله تعالى أن يُعَلِّمه ما جهل، ويُذكِّره ما نسي، وأن يُسَدِّدَ رَمِيَّتَهُ، ويُلهِمَهُ الصواب، وفصل الخطاب.

١ الشيخ القرضاوي، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م، ج ١، ص ٤٩٦)

وبدأت اللجنة تقوم بواجبها في امتحان الطالب الذي أضيف إليها بأمر من العميد، ولم يكن من طلابها، وكأنها في حالة تحذّر مع هذا الطلب، وتولّى رئيس اللجنة الشيخ معظم الأسئلة، التي شملت العلوم المختلفة التي درّسوها في الأزهر، وكان الشيخ أحمدين يساعده في الأسئلة، وكان التوفيق حليفه في إجاباته، كأنه يَعْرِفُ من بحر، أو يَتَدَقَّقُ من سَيْلٍ، وذلك من فضل الله وعونه.^١ وما أصدق ما قال الشاعر:

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده!

وبعد انتهاء اللجنة من امتحان التعيين في التفسير والتوحيد، أخذ تمتحنه في حفظ القرآن. قال الشيخ خليف: هل تحفظ القرآن أو أنت من الذين يدخلون الأزهر حافظين للقرآن، ويتخرّجون منه ونسوه؟ قال القرضاوي: بل أحمد الله أنّي أحفظه حفظاً جيّداً، تستطيع أن تسألني فيما شئت من القرآن من الفاتحة إلى الناس، وتسألني عن الآية في أيّ جزء؟ وفي أيّ رُجْحٍ؟ وفي الصفحة اليمنى أم اليسرى؟ وفي أوّل الصفحة أو وسطها أو آخرها؟ قال الشيخ: يعني واثق من نفسك؟ قال القرضاوي: نعم بحمد الله.

وبدأ الشيخ يسأله، وينتقل به والمصحف أمامه، وقد أراد أن يُجَرِّبَهُ في أوّل سؤال: في أيّ سورة وأيّ جزء وأين تقع ... الخ، وأجبت به بالتفصيل. وبعد أكثر من عشرين سؤالاً، وأنا أقرأ بترتيل وصوت مُؤَثَّر، كان آخر السؤال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ [١٠]﴾.^٢ وقرأت الآيات إلى قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ [١٣]﴾.^٣

وهنا قال رئيس اللجنة: فتح الله عليك.

وخرج الشيخ القرضاوي من اللجنة، باسم الثَّغْرِ، مُنْشَرِحِ الصدر، مُسْتَبَشِراً بهذه الآية التي ختم بها الامتحان كلّها "وأخرى تُحِبُّونها؛ نصر من الله وفتح قريب وبشّر المؤمنين".

كان عميد الكلية الشيخ الحسيني سلطان قد شهد الامتحان كلّه، كأنما أراد أن يعرف حقيقة هذا الطالب الذي أصرّ على أن ينتقل من لجنة إلى لجنة، حِرْصاً على السبق والتفوق، - والحمد لله - قد ستره الله بستره الجميل، وحسن صورته أمامه، فضلاً منه ومِنَّة. وبعد دقائق قال بعض زملائه: الشيخ أحمدين يسأل عنك، ويريد أن يلقاك، فقال القرضاوي في نفسه: يا ربّ استر، ترى ماذا يريد الشيخ الآن؟ وما إن لقيت الشيخ حتى بادر بمصافحتي وعانقني، وقال ساحني يا ابني، أنا ظلمتك من قبل، وأسأت الظن بك، وما كنتُ أعرفك على حقيقتك، واليوم اكتشفت خطئي وعَرَفْتُ مَنْ أَنْتَ، بارك الله فيك، وجعلك من علماء الأمة العاملين المخلصين.

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م، ج ١، ص ٤٩٧).

٢ القرآن الكريم، الصف (٦١)، الآية [١٠].

٣ القرآن الكريم، الصف (٦١)، الآية [١٣].

المطلب السادس: ما بعد المرحلة الجامعية

وفيه ثلاث مسائل، وتفصيلها كما يأتي:

المسألة الأولى: تخصص للشهادة العالية أو العالمية

حينئذ كان في الأزهر نوعان من التخصص لحملة الشهادة العالية، أو العالمية، أوقف أحدهما وبقي الآخر. أما النوع الذي أوقف، فهو "تخصص المادة" وفيه يتخصص الخريج في مادة معينة، ويقدم فيها رسالة يحصل بها على شهادة "العالمية من درجة الأستاذ." وكان في كلية أصول الدين ثلاث شعب لهذا التخصص: شعبة التفسير والحديث، وشعبة العقيدة والفلسفة، وشعبة التاريخ. كما كان في كلية الشريعة: شعبة الفقه، وشعبة أصول الفقه. في كلية اللغة العربية: شعبة النحو والصرف، وشعبة البلاغة والأدب.

وأما التخصص الآخر، فيسمى "تخصص المهنة." وكان في الأزهر ثلاث تخصصات للمهنة، تخصص تنفرد به كلية الشريعة، وهو "تخصص القضاء"، وهو الذي يعد القضاة الشرعيين بما يلزمهم من دراسات معينة في أصول القضاء والمرافعات والإجراءات والإثبات ونحوها. كان أمام القرضاوي - وقد تخرج في كلية أصول الدين - إذن عليه أن يختار أحدهما: الأول: وهو تخصص الدعوة والإرشاد. والآخر: هو تخصص التدريس. فقد كان فكرته أن يكون التدريس هو مهنته التي يتعيش من ورائها، وأن يقوم بالدعوة محتسبًا متطوعًا، هذه هي الفكرة التي غلبت عليه.

على أية حال، لقد حسم الأمر، وتقدم لتخصص التدريس، وهو يتبع إداريًا كلية اللغة العربية. وكان تخصص التدريس يتكون من سنتين دراسيتين، وتُدْرَسُ مقرراته في سنتين. هكذا منذ نشأ. ولكن ابتداء من هذه السنة التي التحقوا فيها به، ستتم الدراسة على نظام السنتين في سنة دراسية واحدة، بحيث تنتهي السنة الأولى في أوائل أشهر الصيف، ثم تبدأ السنة الثانية، وتنتهي في شهر أكتوبر^١.

ويعتقد أن العلوم التي درّسوها في هذا التخصص قد أفادتهم، وأضافت إليهم جديدا، فقد توسّعهم في دراسة علم النفس، الذي كانوا درّسهم شيئا منه في كلية أصول الدين في إحدى سنوات الدراسة، فدرّسهم هنا علم النفس التربوي، والغرائز أو الدوافع النفسية، وعلم نفس النمو، والصحة النفسية، وغيرها. كما درّسهم أصول التربية، والتربية المقارنة، وتاريخ التربية، والطرق العامة والخاصة للتدريس، والتربية العملية، وغيرها.

والأمر المخزن والمؤسف، لا يوجد هؤلاء الخصوصيات في نظام تعليم وتدريب بلادنا (بنغلاديش) إلا قلة الحظ، وفي النتيجة نحن لا نجد الثمرة المأمولة والمنتمة، وهذا سبب متأخرنا وحبوطنا وتخلّفنا من جوانب شتى.

قال القرضاوي: فمن حقّي - باعتبار تفوّقي - أن أعين مدرّسا في معاهد الأزهر، ومن واجبي: أن أظلّ حاملا راية الإصلاح للأزهر، التي حملتها وأنا طالب، وأن أتعاون في ذلك مع إخواني العاملين فيه من أبناء الأزهر المهتمّين بقضيته وقضية الإسلام معه بل قبله. ولكن الأقدار لم تُسعدني بتحقيق ما أردت وما أعددت له عدتي، فمنعت من التعيين في الأزهر، وإن عُدت إليه فترة قليلة من الزمن" نحو ثلاث سنوات" لا في التدريس ولا في الوعظ، ولكن في الإدارة العامة للثقافة الإسلامية، مع الأستاذ الكبير الدكتور محمد البهي رحمه الله، وفي المكتب الفني لإدارة الدعوة والإرشاد مع مدير الوعظ في ذلك الوقت العالم الجليل الشيخ محمود شلتوت رحمه الله. ومن الأزهر أُعيّر إلى حكومة قطر، للعمل في وزارة المعارف، وإدارة معهدها الديني الثانوي.

١ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٩

المسألة الثانية: الرجوع إلى القاهرة

بعد الإفراج عن المعتقل عاد القرضاوي إلى القاهرة في سنة ١٩٥٤م، ليصل ما انقطع من دروس ومحاضرات في قسم إجازة التدريس، استعدادا لامتحان السنة الأولى في أوائل الصيف، وعكف على ما فاته من محاضرات في المقررات المختلفة، قارئاً لكتبها، ومستعينا ببعض الزملاء فيما عندهم من مُدَكِّراتٍ شارحةٍ عند اللزوم. ومن فضل الله تعالى عليه (القرضاوي) أن وفقه في الامتحان توفيقاً عظيماً، كان عَوْضًا من الله جلّ جلاله عمّا فاتهم وما أصابهم في تلك المرحلة، كما قال الله تعالى في تنزيله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [٨٨].^١

وقد كان في هذه الأيام الساخنة المُتَوَتِّرَة، يتهيأ للامتحان في الفصل الثاني والنهائي في تخصص التدريس وقبل أول أيام امتحانه في تخصص التدريس، حدث حادثة مهمّ بالنسبة له. فقد فَتَشَ المُبَاحِثُ شَقَّتَهُم التي يسكنون فيها، بشارع راتب باشا بشبرا، واعتقل زميله الذي يعيش معه في حجرته، وهو الأخ محمود نعمان الأنصاري، الطالب بكلية الآداب، والذي ضبط بِمُحَوَّرَتِهِ كمية من المنشورات المحظورة، وكان محمود زميله في الحجرة، فلما قبض عليه وسأله: لمن هذا السرير في حجرتك؟ فقال: هو لفلان.

فانتظروه حتى عاد في المساء، ليسوقوه إلى قسم روض الفرج الذي تتبعه. وهو لا يعلم شيئاً من المنشورات التي ضبطت عند زميله محمود. وهذه الأيام في غاية الأهمية عنده؛ لأنها أيام الامتحان النهائي لإجازة التدريس، بعد دراسة سنتين. وقد أوصاه بعض زملائه في الشقة أن يتصلوا بأستاذهم البهي الخولي ليتوسط في الإفراج عنه لأداء الامتحان، وأن يتم ذلك على وجه السرعة، فالامتحان في الساعة الثامنة صباحاً.

وقضى القرضاوي هذه الليلة الليلاء ساهراً، لم يعمض له جفن، لا من أجل عشق ليلى وسعدى، كما قرءوا للشعراء العُشَّاقِ، ولكن خوفاً على الامتحان، الذي لو ضاع، فرمياً لا يُعَوِّضُهُ إلا بعد سنتين أو ربما لا يُعَوِّضُهُ أبداً، فقد كانوا مُهَدِّدِينَ بالاعتقال ما بين حين وآخر. وإن كان القرضاوي في ذلك الوقت مُحْسُوَّبًا على جناح المعارضة الذي يمثله الأستاذ البهي ومن معه، ولكن أجهزة المباحث تعرف جيداً أن ولاءهم إنما هو الدعوة قبل كل شيء، بعرض النظر عمّا يحدث بين قادتها من خلاف. وهذا ما كان يُحْيِفُهُ ألا تنجح وساطة أستاذهم البهي في الإفراج عنه، ولكن القوم أذكى وأدهى، ويريدون للخلاف أن يتعمق ويمتدَّ جُدُورُهُ في الجماعة، فقبِلُوا الوَسَاطَةَ، ولا سيّما مع إلحاح الأستاذ البهي.

وَحَوَالِي الساعة السابعة والنصف صباحاً نودي عليه (القرضاوي) بالإفراج، ولم يكده يغادر باب القسم، حتى رَكَضَ رَكَضَ الفَرَسِ، ليصل إلى شارع شبرا، لآخذ أول سيارة أجرة "ناكسي" ليصل إلى مقر الامتحان في الدَّرَاسَةِ، وقد دَقَّ الجَرَسَ، فَظَلَّ يَعدُّو، حتى دخل (القرضاوي) الفصل وهو يَلْهَثُ ويتصبّب عرقاً، وسمّح له بالدخول بعد مرور عدّة دقائق. وأدى الامتحان على ما يُرَامُ وقد شَعَرَ بتوفيق الله تعالى له في إجابته عن الأسئلة، رَغَمَ يرقى الطويل تلك الليلة. وربما كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي كسبه من وراء الخلاف الذي حدث بين الإخوان، وإن كان الخلاف كما قال ابن مسعود شراً، ولكن كما قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٢١٦].^٢

١ القرآن الكريم، هود (١١)، الآية [٨٨].

٢ القرآن الكريم، البقرة (٢)، الآية [٢١٦].

المسألة الثالثة: إظهار نتيجة تخصص التدريس

وكان حريصًا على ألا يعتقل في ذلك الوقت حتى تظهر نتيجة امتحان تخصص التدريس، ويعين مُدرِّسًا بالمعاهد الدينيّة، ويُثبّت حقّه في ذلك، ثمّ لا مانع أن يعتقل بعدها. هكذا كان يتصوّر الأمر، وقد ظهرت النتيجة بالفعل، وكان ترتيبه الأوّل - بفضل الله تعالى وتوفيقه - على طلاب الكليّات الثلاث: أصول الدين والشريعة واللغة العربيّة، وعددهم في تلك السنة خمسمائة طالب. وبقي انتظار التعيين.

المطلب السابع: مرحلة الدراسة العليا

وفيه إحدى عشرة مسألة، وتفصيلها فيما يلي:

المسألة الأولى: رحلة البحث عن الدراسات العليا

كان من مطّالِبِ شباب الأزهر - وهم طلاب في المعاهد الثانويّة: أن يعاد فتح باب الدراسات العليا لطلاب الأزهر، ليجد المتفوّقون والنوابغ فيها ما يحقّق آمالهم، ويرضي طموحهم المتوثب، فليسوا أقلّ من غيرهم من زملائهم في الجامعات المصريّة الأخرى من جامعات الدولة، مثل جامعتي القاهرة والإسكندرية.

وقد ازداد إصرارهم على هذا المطّلب بعد أن انتظموا في الدراسات الجامعيّة، وفي تخصص التدريس. وقد كان الأزهر فتح باب هذه الدراسات من قدم أيتام مشيخة الإمام المصلح الأستاذ الأكبر الشيخ محمّد مصطفى المراغي، الذي ترك عهده بصمات في حياة الأزهر. فقد سنّ نظام " تخصص المادّة" في كليّات الأزهر الثلاث: أصول الدين، والشريعة، واللغة العربيّة. وكانت الدراسة كلّها مرحلة واحدة، يدرس الطالب دراسة منهجيّة على يد شيوخه، ثمّ يعدّ رسالة في موضوع من موضوعات التخصص يختاره، وتقره عليه الكليّة.^١ وكان في كليّة أصول الدين ثلاث شُعَبٍ للتخصص: الأوّل. شعبة القرآن والسنة أو التفسير والحديث، الثاني: وشعبة العقيدة والفلسفة وعلم الكلام، الثالث: وشعبة التاريخ الإسلامي. وكان في كليّة الشريعة شعبتان: الأوّل: شعبة للفقّه، الثاني: وشعبة لأصول الفقّه.

وكان الطلب يحصل بعد نجاحه على شهادة "العالميّة من درجة أستاذ"، أو الأستاذيّة. " وكان قانون الأزهر يَحْتِمُ أن يكون كلّ أساتذة الكليّات في المستقبل من خريجي تخصص المادّة، وأن يكون شيوخ المعاهد منها. ودخل عدد كبير من أبناء الأزهر في كلّ الكليّات هذا التخصص، وحصلوا على "الأستاذيّة" منها، بدرجات متفاوتة، بين الامتياز وما دونه.

ولكن للأسف لم يُطبّق معهم الأزهر ما قرّره لهم القانون، جدير بالذكر أن كثيرا منهم يُعَيَّنُونَ في المعاهد الدينيّة، وقد درس بعضهم في معهد طنطا. وهذا ما جعل الأزهر يوقف تخصص المادّة، إذ أصبح خريجه أكثر من الحاجة، ووقف معه مسيرة الدراسات العليا تلك السنين الطويلة. وهو ما جعلهم يطلبون وَيَلْحُقُونَ في طلبهم: أن يعاد فتحها من جديد، تَسْوِيَةً بين أبناء الوطن الواحد. وشاء الله ألا يستجاب لطلبهم، ويعاد فتح الدراسات العليا من جديد، إلا وهم وراء الأسوار، في السجن الحربيّ. فقد افتتحت منذ بداية السنة الدراسة (١٩٥٥ - ١٩٥٦م)، فلمّا خرجوا في النصف الثاني من شهر يونيو سنة ١٩٥٦م، كان أوّل ما شغل القرضاوي هو قضية الدراسات العليا، فما كاد يقضي أيتامًا في القرية للسلام على الأهل والأقارب، حتّى أسرع الرجيل إلى القاهرة، ليبحث في إمكان لحاقه بركب الدارسين في تخصص المادّة، وهل يمكن أن يساعوه في تأخّر التقديم نظرًا لظروف الاعتقال؟

١ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٢٢٩

قال القرضاوي: وكان عميد كلية أصول الدين الفقيه العلامة الشيخ محمد علي السائس رحمه الله، فذهبت إليه، ودخلت عليه، وَعَرَفْتُهُ بنفسِي، وشغفي من قلم بالدراسة العليا، وأني لا أستطيع أن ألتحق الآن بإخواني في السنة الأولى، وأن أدخل معهم الامتحان المقرر في سبتمبر أو أكتوبر. حتى لا تضيع عليّ سنة لا ذنب لي فيها.

فقال الشيخ برقةً ولطفٍ: يعلم الله يا بني أي متعاطف معك غاية التعاطف، ولو كان الأمر بيدي لَقَلَّبْتُكَ منذ الساعة، ولكننا تحكّمنا أنظمة حديده لا تلين لأحد، ولا نملك إلا أن ننقذها ونخضع لحكمها، وهذه الأنظمة قد حدّدت مواعيد للقبول لا يجوز اختراقها، وقد انتهت منذ العام الماضي. فما عليك إلا أن تصبر الشهرين أو ثلاثة القادمة، وتقدّم طلبك في الموعد المحدد أول السنة الدراسية القادمة. وتحسب السنة التي ضاعت منك عند الله تعالى، الذي لا يضيع عنده مثال ذرة، بجملة ما ضاع منك بسبب ما نزل بك من ابتلاء، وأنا مؤمن بأن الله تعالى سيعوّضك خيرًا مما فاتك، حسب سنته في خلقه.^١

وكانت كلمات الشيخ بردًا وسلامًا على صدر القرضاوي، وأزاح عن نفسه همًّا كان يشعر به من ضياع فرصته بلا جرم منه. وشاء الله ألا يمتحن طلاب السنة الأولى في الدراسات العليا بالأزهر في صيف سنة ١٩٥٦م كما هو مقرّر ومعتاد، بل أجّل وامتدّ إلى صيف ١٩٥٧م. ولا يُدرى لأيّ سبب حدث هذا، إلا التسبّب الذي لا يبالي بمصالح الناس، واعتبار الأوقات أرخص من التراب في الطرقات. فما قيمة سنة تذهب في حياة الناس سُدىً، وتضيع هدرًا، دون أن يحاسب عليها أحد؟

هذا مع أن سلفنا كانوا يقدرون قيمة الوقت، ويقولون: من علامة الممّت: إضاعة الوقت... الوقت كالسيف، إن لم تقطعه قطعك. ويقولون: يا ابن آدم! إنّما أنت أيام مجتمعة، كلّما ذهب يوم ذهب بعضك! ويقول ابن عطاء في حكمه: "حقوق في الأوقات يمكن قضاؤها، وحقوق الأوقات لا يمكن قضاؤها، إذ ما من وقت يردّ، إلا والله فيه عليك حقّ جديد، وواجب أكيد."

المسألة الثانية: التقديم لمعهد الدراسات العربيّة العالية

وشعّر القرضاوي كان عليه أن يستفيد من وقته في دراسة أخرى مُتّاحة، فعرف من أخيه وصديقه الجزائري محمد الأقصري، أن الجامعة العربيّة افتتحت معهدًا للدراسات العربيّة، يعطي "دبلومًا" عاليًا في عدّة شعب، ويمكن الحصول منه، على الماجستير. وإنه قد قُبِلَ استثناء في قسم القانون والفقه الذي يرأسه القانوني الكبير الأستاذ الدكتور عبد الرزاق السنهوري، وإن كان طلاب أصول الدين لا يقبلون أساسًا فيه، لكن يقبلون في شعبة اللغة والأدب، أو في شعبة التاريخ.

وكان القرضاوي حريصًا على الالتحاق بقسم القانون، للاستفادة من علم الدكتور السنهوري ومنهجيته، ومقارنته بين الفقه والقانون، وهو الآن في قِمّة عطائه ونضجه، فقابله، وأبدى له رغبته في الالتحاق بالقسم، واهتمامه الكبير بدراسة الفقه وتضلّعه فيه، برغم تحرّجه في كلية أصول الدين، ورَجَا منه أن يستثنيه كما استثنى زميله الجزائري محمد الأقصري. ولكنّ السنهوري اعتذر بلطفٍ، وقال: إن القسم مفتوح لطلاب الحقوق، وطلاب الشريعة، وإنه اختار الأقصري لأنه جزائري، وأنه لا يستطيع أن يفتح هذا الباب للمصريين، خشية أن يجيئه آخرون لا يملكون ما أملك، فيطلبون منه قبولهم لديه كما قُبِلَ فلان. وعبئًا حاوله أن يقنعه فلم يقنع. ولا سيّما أنه لا يعرف عن القرضاوي شيئًا. في حين قُبِلَ الأخوان: أحمد العسال، وأحمد حمد في هذا القسم بسُهُولة؛ لأنهما خزّينا الشريعة.^٢

١ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٢٣١

٢ المرجع السابق، ص ٢٣٣

وقال القرضاوي: قدر الله وما شاء فعل، ولا بدّ أن أختار أحد القسمين: قسم التاريخ الذي يُشرفُ عليه المؤرّخ الكبير الأستاذ الدكتور شفيق غريال... أو قسم الدراسات الأدبية واللغوية الذي يُشرفُ عليه الناقد الكبير الأستاذ الدكتور إسحاق موسى الحسيني. وبعد استشارة واستشارة - وما خاب من استجار، ولا ندم من استشار - اختار قسم اللغة والأدب. وكانت الدراسة في هذه المعهد مُتَّعَةً، فُتِّحَ له آفاقاً جديدة في دراسة الأدب واللغة، لم تُتَّخَ لهم في الأزهر. على كلّ حال، اعتقد أنّه انتفع بالدراسات المتنوعة التي قدّمت إليه في المعهد من كبار العلماء والنقّاد والأدباء في العالم العربيّ.

في لسان القرضاوي: وقد انتهيت من دبلوم المعهد بعد أن أكملت دراسة السنتين في أربعة فصول، واستدعاني الأستاذ الدكتور إسحاق الحسيني رئيس القسم، وحثني على أن أستمّر في دراستي لنيل الماجستير، وقال: إن لديك استعداداً قوياً لمواصلة المسيرة، بل اتفق معي على الموضوع الذي أكتب فيه، وهو "النقد اللغوي" في مقابل "النقد الأدبي". ويريد: أن أعالج ظاهرة الأخطاء اللغوية الشائعة، والتي عاجلها الأقدميون مثل ابن قتيبة، ومثل الحريري في كتابه: "درّة الغواص في أوهام الخواص"، وعاجلها المحدثون في كتب نشرت، وفي المجالات ومثل كتابات العلامة الشيخ محمّد علي النجار، في مجلّة الأزهر تحت عنوان: "لغويات".

واتفق القرضاوي مع الأستاذ الحسيني على التفكير الجدّي في الموضوع، ولكنه بعد تقليب الأمر على وجوهه، وبعد أن أصبح مرتبطاً بالدراسات العليا في كليّة أصول الدين، وما تتطلّبه من جهد وتفريغ، رأى - بعد استشارة الله تعالى واستشارة أقرب الناس إليّ - أنّه ليس من الحكمة، ولا من المصلحة تشييت الجهد في أكثر من جهة، بغير ثمرة تجتني، إلا كثرة الشهادات! وأن الخير كلّ الخير في عودتي إلى دراستي الأصليّة في الأزهر، وحسي ما حصلت من معرفة نافعة باللغة وبالأدب وباتجاهاته في البلاد العربيّة، وكان الخير فيما اختاره الله. فاعتذرت للدكتور الحسيني بانشغالي الآن بدراستي في كليّة أصول الدين، وقد يكون لنا عودة في المستقبل إذا أذن الله.

المسألة الثالثة: العودة إلى الدراسة العليا بالأزهر

بعد أن أجزأت امتحان طلبة السنة الأولى في الدراسة العليا بالأزهر إلى صيف ١٩٥٧م، وضاعت عليهم - وعليه (القرضاوي) معهم - سنة كاملة، أجزأت لهم الامتحان، ونجح من نجح، ورسب من رسب، وأصبح في مقدوره أن يتقدّم بطلبه للالتحاق بالشعبة التي يريد (القرضاوي).^١

المسألة الرابعة: أيّ شعبتين يختار؟

وقد كان بكليّة أصول الدين شعبتان، على القرضاوي أن يختار إحداهما، ليقدم طلبه إليها: شعبة علوم القرآن والسنة أو (التفسير والحديث)، وشعبة العقيدة والفلسفة.

فمن كانت درجاته أي (القرضاوي) أعلى في موادّ التفسير وعلوم القرآن، والحديث وعلومه، قدّم أوراقه إلى هذه الشعبة، ومن كانت درجاته أعلى في التوحيد والفلسفة والمنطق، تقدّم إلى الشعبة الأخرى. هناك شرط: ألا تقلّ درجات الطالب في موادّ الشعبة عن حدّ معيّن، لعله (٨٠%)، ثمانون في المائة، و (٧٠%) سبعون في المائة في التقدير العام. كانت كلّ هذه الشروط في كلتا الشعبتين عنده (القرضاوي) موفورة بأكثر من المطلوب، ولكنه توقّف كثيراً في ترجيح اختيار إحدى الشعبتين.

أأختار شعبة القرآن والسنة؛ لأنها تصلّهُ مباشرة بمصادر الإسلام الأصليّة، وتبيح له فرصة التعمّق في دراستهما، وتصحيح ما طرأ على فهمهما من أغلاط، والردّ على ما يثار حولهما من شبهات وافتراءات؟ ولا يمكن للعالم المسلم أن يكون عالماً حقاً إلا إذا أتقن علوم القرآن والحديث، فهي ضرورة للفقهاء، وضرورة للداعية.

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٢٤٠

المسألة الخامسة: الدكتور محمد يوسف موسى يَحْسِمُ الأمر

كان الاختيار بين الشعبين صعبًا، وكان الأمر مُخَيَّرًا للقرضاوي، ولم يُحَسِّمُ هذا الأمر عنده إلا باستشارة أهل الذكر والخبرة، كما قال تعالى: ﴿فَأَسْأَلُ بِهِ خَيْرًا﴾ [٥٩].^١

وقال الله تعالى: ﴿وَلَا يُبْتِغُكُم مِثْلُ خَيْرٍ﴾ [١٤].^٢ ولهذا القرضاوي توكل على الله، وعزَمَ على زيارة أستاذهم الدكتور محمد يوسف موسى، وكان بينه وبين القرضاوي مَوَدَّةً، رغم أنه لم يدركه في كلية أصول الدين، ولم يُشْعِدْ بتدريسه القرضاوي، وإن كان سعد بتدريس كتبه، درّسها لهم غيره، وقد زاره القرضاوي قبل ذلك في منزله بالروضة.

كان الدكتور موسى راهبًا من رهبان العلم والفكر، وكان ضليعًا متمكنًا في علوم الفقه والشريعة، وعلوم الفلسفة والعقيدة، وقد حصل على الدكتوراه من فرنسا، ومن ثمَّ كان أهلاً لأن يستشار في قضيته (قضية القرضاوي). قال القرضاوي: جئتك أستشيرك في قضية في غاية الأهمية بالنسبة لمستقبلي، ولم أجد غيرك يفتيني فيها! قال الدكتور موسى: خير. ما هي؟

قال القرضاوي: أمامه اختاران في الدراسة العليا بكلية أصول الدين: علوم القرآن والسنة، أو علم العقيدة والفلسفة. وهو مستوف الشروط للدراسة في كلتا الشعبتين، وربما كانت درجاته أعلى في شعبة الفلسفة، وقد احترت بينهما حيرة شديدة، فأتيهما تختار له يا أستاذ؟^٣ فقال الدكتور موسى: اسمع يا يوسف، لقد عرفت أي عشيت أكثر عمري في كلية أصول الدين أدرس الفلسفة ونظريات الأخلاق، وتاريخ الفلسفات، وما إلى ذلك، وألّفت في ذلك ما ألّفت من كتب، لعلك بعضها درست في الكلية. قال القرضاوي: نعم، درسنا أكثر من كتاب منها حول فلسفة الأخلاق، وتاريخها. قال الدكتور موسى: والآن أجد أن ما درسته من قبل في الفلسفة ومذاهبها ومدارسها الفكرية، كأنما كان تمهيدا أو مقدمة لدراسة الشريعة، فالشريعة هي الغاية، وهي اللبّ والجوهر، وكلّ ما عداها يجب أن يكون وسائل إليها.

واعتقد أنك قد درست في كلية أصول الدين من مذاهب واتجاهات الفلسفة الشرقية واليونانية والإسلامية والحديثة ما أطلعك على أصول الفكر الإنساني والمذاهب الفلسفية الكبرى، والنظريات الأخلاقية المختلفة، وأن لديك الآن من الإمكانيات المعرفية ما تستطيع أن تتابع به حركة الفكر الإنساني في تطورها. وإنما الذي يحتاج إلى خدمة حقًا هو: الشريعة وفقهها وأصولها، ومصدر الشريعة: القرآن والسنة، إذا تطلعت في علوم القرآن والسنة أمكنك أن تُخَدِّمَ رسالة الإسلام حقًا، وأحسب أن لك دورًا - إن شاء الله - في الاجتهاد والتجديد لهذا الدين، أرجو ألا يخيب ظني... إلى آخر ما قال رحمه الله رحمة واسعة.

وكانت كلمات الدكتور موسى أشعةً من نور أزال غيابه الشك والتردد والحيرة من ذهن القرضاوي ونفسه تمامًا، وأقنعه أن لا يتغنى بالقرآن والسنة بدلاً، ولا يبغي عنهما جولا. وودَّع الأستاذ الكبير وشكر له، ودعا له من كل قلبه، وخرج من عنده منشراح الصدر، مطمئن الضمير، مُسَدَّد الوِجْهَة، مستبين الغاية والطريق.

١ القرآن الكريم، البقرة (٢٥)، الآية [٥٩].

٢ القرآن الكريم، فاطر (٢٥)، الآية [١٤].

٣ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٢٤٤

المسألة السادسة: التقديم لشعبة القرآن والسنة

وقدّم القرضاوي إلى كلية أصول الدين في شعبة التفسير والحديث وعلومه.^١ وكانوا نحو ثلاثين طالبًا مسجّلين في هذه الشعبة بعضهم من خريجي أصول الدين، وبعضهم من خريجي الشريعة. وكانت شروط الدراسة والامتحان صعبة ومُعقّدة، فمن رسب في الامتحان التحريريّ أو الامتحان الشفهيّ، أو امتحان التعيين، فقد سقط في امتحان السنة كلّها، وليس له فرصة أخرى، وسقط حقّه في الدراسات العليا في هذه الشعبة. وفي هذا من التشديد والتعسير ما فيه.

وهذا ما دفع أكثر طلاب الشعبة - أكثر من عشرين منهم - أن يقدّموا قبل الامتحان إجازات مرضيّة، لإعفائهم من دخول الامتحان، ولكن فضيلة الشيخ الأكبر عبد الرحمن تاج شيخ الأزهر، قال: ليس معقولاً أن يمرض هؤلاء جميعاً في وقت واحد، واعتبر هذه الإجازات مُتعلّقةً أو مُزوّرةً، ورفضها جميعاً. والذي دفعهم إلى ذلك هو خوفهم من النتيجة، فإن من لم ينجح ضاعت عليه السنة، بل ضاع حقّه نهائيّاً في الدراسة العليا في الشعبة.

وبقي ستّة طلاب، الذين دخلوا الامتحانات التحريريّة، والشفهيّة والتعيين، وكان الامتحان الشفهيّ في حفظ القرآن، وفي الحديث وعلومه، وكان التعيين في التفسير في السنة الأولى في تفسير "آية الكرسي" سيّدة آي القرآن.

وكان التعيين - كالعادة - امتحاناً لمدى معرفة الطالب بالعلوم الشرعيّة والعربيّة، فهو امتحان في اللغة والنحو والصرف والبلاغة والفقه والحديث والمنطق والتوحيد. إلى جانب التفسير، ويجب أن يكون الطالب مستعدّاً لأيّ سؤال يُوجّه إليه، ممّا يتصل بهذه العلوم كلّها.

قال القرضاوي: فقد وقّفتُ في إجاباتي في امتحان التعيين، والامتحان الشفهيّ، وكذلك في الامتحان التحريريّ، وظهرت النتيجة بنجاحي وحدي في الشعبة، وكلّ زملائي للأسف أخفقوا. إمّا في الامتحان التحريريّ، وإمّا في الامتحان الشفهيّ أو التعيين. ومعنى رسوبهم: أنهم "شطبوا" من هذه الشعبة إلى الأبد، ولم يعد لهم أيّ حقّ في استئناف الدراسة. وهذا تشديد وتعقيد لا ضرورة له فيما أرى، ولا أرى أيّ جامعة تعامل طلابها بمثل هذه القسوة، والحمد لله الذي نجّاني بفضلته من هذا البلاء، وهداني بنوره غب هذه الظلماء، وما كنا لنهتدي لولا هدايا الله.^٢

المسألة السابعة: في السنة الثانية وحده «أي القرضاوي»

في السنة الثانية، كان القرضاوي وحده في الشعبة، فإذا حضر القرضاوي وُجِدَت الشعبة، وإذا غاب فقدت. ولذا كان شيوخه يقولون له: مر علينا ولو في كلّ أسبوع مرّة "تحلة القسم" حتى نقول: حضرنا ودرسنا. وكان يفعل ذلك كلّما استطع. وجاءت الامتحانات، وانتهى القرضاوي بسلام، وانتقل إلى السنة الثالثة والأخيرة في الدراسات المنهجية المطلوبة للحصول على درجة الأستاذية أو "الدكتوراه".^٣

١ القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٢٤٥

٢ المرجع السابق، ص ٢٤٧

٣ المرجع السابق، ص ٢٤٨

المسألة الثامنة: السنة الأخيرة وبحث الشفاعة

في السنة الأخيرة، كان على القرضاوي - مع الامتحان التحريري والشفهوي والتعيين - امتحان آخر، هو تحضير موضوع يحدّد للطالب، يعدّ مادته في ظرف أسبوع أو عشرة أيام على الإمكان، ويلقيه في صورة محاضرة عامة أمام لجنة من كبار الشيوخ، تسأله في الموضوع، بعد إلقاءه، ويدعى مجتمهؤر من الطلاب والدارسين لشهود المحاضرة، وهي عادة تكون في قاعة الشيخ محمد عبده.^١

والحمد لله، أنا (الباحث - محمد أبو جعفر) شاركت في كثير من المؤتمرات المنعقدة في قاعة الشيخ محمد عبده. حينما كنت طالباً في كليّة الشريعة الإسلاميّة في جامعة الأزهر (من سنة ٢٠٠٦م إلى ٢٠١٠م).

وعندما جاء الموعد حدّد للقرضاوي موضوع في الحديث، هو "أحاديث الشفاعة في صحيح البخاري"، وما قيل حولها من كلام بين أهل السنّة والمعتزلة. وقد قرأ القرضاوي الموضوع في شروح البخاري ومسلم، وفي كتب التفسير، وفي كتب علم الكلام، ولا سيّما الموسعة منها، مثل: "شرح المقاصد لـ"سعد الدين التفتازاني"، و"شرح المواقف" للشريف الجرجاني. وكتب فيها كراسة كاملة. وألقاها محاضرة مرتجلة أمام لجنة من أربعة من كبار شيوخ الأزهر على رأسهم فضيلة الشيخ محمد نور الحسن، وكيل الأزهر، ومن أعضائها: الشيخ أحمد عليّ، أستاذ التفسير بالكليّة، والشيخ السنوسي، أستاذ علم التوحيد بالكليّة.

وبعد انتهائه من إلقاء المحاضرة في قاعة الشيخ محمد عبده الشهيرة، وحضور جمّ غفير من الطلاب وغيرهم، صَفَّقَ الحاضرون طويلاً؛ دلالةً على إعجابهم بما ألقى (القرضاوي) وبدأ أعضاء لجنة الامتحان يناقشونه، ويسألونه ويُجيبُهُمُ القرضاوي، وكان توفيق الله حليفه، والله الفضل وَالْمِنَّةُ.

وكان بعض أساتذة جامعة القاهرة حاضراً، فقال: إن هذا البحث وحده يكفي الطالب للحصول على الماجستير. وانتهت هذه السنة الأخيرة بالنجاح والتوفيق، ومع هذا العناء كلّ في السنوات الثلاث، لا تنتهي هذه المرحلة بشهادة "الماجستير" أو ما يعادلها، بل تسمّى "تمهيدي دراسات عليا!"

المسألة التاسعة: تسجيل رسالته عن الزكاة

وكان على القرضاوي بعدها أن يبدأ باختيار موضوع يُسجّلُهُ لرسالة الأستاذيّة أو "الدكتوراه". وكان في أوّل الأمر مُتَّجِهاً إلى أن يكتب في موضوع يتصل بالعقيدة، وهو "براهين القرآن على نُبوّة محمد" وأعدّ فيه مسودات لها قيمتها، لا تزال عنده حتى اليوم.^٢ ثمّ تغيّر إجمّاهه إلى موضوع آخر يتصل بالشريعة وفقهها، وهو موضوع حول الزكاة، الركن الثالث في الإسلام، وهو ما ترجّح له اختياره وتقديمه إلى الكليّة بعنوان: "الزكاة في الإسلام" وأثرها في حلّ الاجتماعيّة.

بعد إصدار أوّل الكتاب للقرضاوي "الحلال والحرام في الإسلام" سلّمه لفضيلة الشيخ أحمد عليّ هديّةً، الذي كان أستاذاً بكليّة أصول الدين في ذلك الوقت. تصفّح الشيخ رحمه الله الكتاب، وأطال التصفّح فيه، ثمّ قال كان يمكنك أن تقدّم هذا الكتاب باعتباره أطروحةً أو رسالةً للدكتوراه، وهو جدير بذلك، كلّ ما في الأمر بعض الجوانب الشكليّة، كأنّ تهتمّ بذكر المراجع وتوثيقها، وهذا أمر سهل عليك.

١ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٢٤٨ - ٢٤٩

٢ المرجع السابق، ص ٢٥٠

قال القرضاوي له: يا فضيلة الشيخ، أنا أريد أن أقدم للدكتوراه رسالة في موضوع أتعبُ فيه، ويكون من خصائصه كذا وكذا ... قال الشيخ للقرضاوي: يا يوسف! المهمّ أولاً أن تأخذ "رخصة" حتى يسمّوك: "الدكتور" يوسف القرضاوي، ثمّ أَلْف بعد ذلك ما تشاء. ولقد تبين للقرضاوي بعد ذلك صدق نصيحة الشيخ أحمد عليّ - رحمه الله - حين رفض مشايخ بكلّيّة أصول الدين كتابه الذي أعدّه عن "الزكاة" لتكون رسالته للدكتوراه، فقالوا: إن هذا فقه، وليس بتفسير ولا حديث، ولا يدخل في علوم القرآن ولا السنّة. قال القرضاوي لهم: إنه يدخل في فقه القرآن وفقه الحديث. قالوا: هذا أقرب إلى الكلّيّة الشريعة منه إلى كلّيّة أصول الدين، وكتب أحد المشايخ - رحمه الله - إلى الشيخ الدكتور عبد الحليم محمود عميد كلّيّة أصول الدين يعتذر إليه من عدم الإشراف على رسالته عن "الزكاة"؛ لأنّ بها آراء دينيّة خطيرة لا يستطيع أن يتحمّل مسؤوليتها.

وأخيراً قَبِلَ أحدهم أن يشرف على الرسالة بعد حذف عدد من فصولها، وإخراجها من صلب الرسالة. ثمّ قد تقدّم القرضاوي بموضوعه إلى إدارة الكلّيّة مشفوعاً بِحُطّة البحث، وعيّنت له الكلّيّة مُشرفاً هو شيخه الشيخ أحمد عليّ، أستاذ التفسير وعلوم القرآن.

المسألة العاشرة: مشرف جديد

كان من الأمور التي تهمّه القرضاوي وتشتغل باله، وهو في قطر: ما يتعلّق بدارسته العليا في الأزهر، ورسالته للدكتوراه، فكان يتابع الأمور من قطر، ليعرف ماذا جرى.

وقد عيّنت إدارة كلّيّة أصول الدين مشرفاً جديداً. يشرف على رسالته من أساتذة الكلّيّة، بعد وفاة مشرفه الأول الشيخ أحمد عليّ رحمه الله، كان المشرف الجديد هو أحد شيوخه في الكلّيّة، الذي درّسه مقرّر التفسير في أكثر من سنة، وقد تحدّث عنه من قبل، ذلكم هو فضيلة الأستاذ الشيخ محمّد أمين أبي الروس، فقرأ الرسالة بعناية، وأرسل إلى القرضاوي كتاباً يتضمّن بعض ملاحظاته، ومنها: ملاحظات لغوية، وبعضها ملاحظات علميّة، وأخرى ملاحظات شخصيّة، اعتبرها الشيخ بمثابة مقترحات، إن شاء القرضاوي أخذ بما وإن شاء لم يأخذ.^١

ولقد سرّه من شيخه أبي الروس اهتمامه بالرسالة وسرعة قراءته لها، وإبداء ملاحظاته عليها، وإن اختلف القرضاوي معه في أكثرها، أو على الأقلّ في الكثير منها. قال الشيخ القرضاوي: ومّا أذكره من رسالته - أني كنت كتبت تمهيداً عن "مشكلة الفقر"، موقف الديانات والفلسفات والأنظمة منها، وموقف الإسلام منها، وكيف تصدّى الإسلام لعلاجها بوسائل عمليّة تشريعيّة وأخلاقيّة ... إلخ وقد اعترض الشيخ أبو الروس على اعتباره الفقر مشكلة، وقال: إن الفقر ليس مشكلة، وإنما هو ابتلاء يبتلى الله به الإنسان، كما قد يبتليه بالغي. وكان هذا من أثر النزعة الصوفيّة عند الشيخ أبي الروس. وهو عكس ما ذهب إليه الشيخ القرضاوي إليه في بحثه، فقد رأى القرضاوي أن الإسلام اعتبر الفقر بلاءً، يُستعاذ بالله من شرّه، وقد علّمنا النبيّ صلى الله عليه وسلّم أن نستعيد بالله من شرّ فتنة الفقر، ومن شرّ فتنة الغني، ونعوذ به من القلّة والذلّة. وقال عليّ رضي الله عنه: لو تمثّل لي الفقر رجلاً لقتلته! وقال أبو ذر رضي الله عنه: إذا ذهب الفقر إلى بلد قال له: الكفر خذني معك، ولا سيّماً إذا كان الفقر ناشئاً من سوء توزيع الثروة، فالذين يعملون لا يملكون، والذين يملكون لا يعلمون!

واقترح الشيخ على القرضاوي أن يحذف هذا التمهيد، كان في اقتراحه الخير، فاستجاب له، وطوّره وأضاف إليه، وأصدره في كتاب خاصّ تحت عنوان: "مشكلة الفقر، وكيف عالجها الإسلام؟" وبحذف هذا التمهيد خفّف حجم الكتاب أو البحث الذي طال كثيراً.

١ ألف القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٥٣١

كما اقترح الشيخ محمد أمين أبي الروس عليه أن يحذف معظم المقدمة التي تتضمن أشياء أكثر تعلقًا بعلم أصول الفقه، مثل: الحديث عن مقاصد الشريعة، والأخذ بالمصلحة، وغير ذلك، وقد أجابه إلى هذا الاقتراح أيضًا.

ولكن شاء الله أن ينتقل الشيخ أبو الروس إلى رحمة الله تعالى، قبل أن يكمل القرضاوي المشوار معه، مع ما لمسّه فيه من جديدة وإيجابية. وهذا هو حظّه!

المسألة الحادية عشرة: واختيار الشيخ البحيري مشرفًا على رسالته

وكان على الكلية أن تختار لرسالة القرضاوي مشرفًا آخر، يحل محلّ الشيخ أبي الروس، فاختارت في هذه المرّة أستاذًا من أساتذة الحديث، فالقسم الذي سجّل القرضاوي فيه: يشمل التفسير والحديث معًا، ذلكم هو فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الوهاب البحيري رحمه الله.^٢

ويبدو أن الأستاذ الشيخ البحيري قرأ نسخة الرسالة الموجودة بالكلية، فأزعجه القرضاوي إزعاجًا شديدًا، وكتب إلى فضيلة عميد الكلية الشيخ الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود: رسالة يبلغه فيها اعتذاره عن عدم إشرافه على هذه الرسالة "لما تتضمنه من آراء دينية خطيرة لا يستطيع أن يتحمّل مسؤوليتها." وأرسل إلى القرضاوي عميد الكلية - بواسطة مراقبة البحوث والثقافة بالأزهر - نصّ رسالة الشيخ البحيري. وحين قرأها لم يملك إلا يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله! لقد اعتبر الشيخ البحيري اجتهاداته في الأموال الجديدة: مثل الأسهم والسندات والمستغلات من العمارات والمصانع، ورواتب الموظفين التي أدخلها القرضاوي ضمن المستفاد، ونحو ذلك: "آراء دينية خطيرة" لا يحتمل تبعاتها. مع أن المشرف - وفق التقاليد الجامعية - لا يحتمل مسؤولية آراء الطالب في رسالته لا قانونًا ولا عرفًا.

وهذا ما كان، عندما نزل الشيخ القرضاوي إلى القاهرة في صيف سنة ١٩٦٤م أخطرته الكلية أن يلقي الشيخ البحيري ليتفاهم معه على ما يريده من تعديل. وبالفعل سأل عن منزل الشيخ، وكان قريبًا من بيت القرضاوي في شارع شبرا الرئيسي، وزاره في بيته، فرحّب به وأحسن استقباله، وجلسا ويتحدّثا بمودّة ومحبة، كما يتحدّث الأستاذ مع تلميذه، وقال للقرضاوي الشيخ البحيري: "اسمع يا شيخ يوسف، لقد سمعت عنك من الثناء الكثير ما شجّعني أن أتعاون معك لإنجاز رسالتك، ولكن أرجوك أن تستجيب لما أطرّخه عليك." قال القرضاوي له: تفضّل يا مولانا، فكلي سمع وإصغاء إليك. قال: أقترح عليك أمرين:

الأول: أن تحذف هذه الفصول التي تحمل آراءك واجتهاداتك الجديد، وذلك لسببين، أحدهما: أن هذه الآراء والاجتهادات جريئة أكثر من الازم، وخالفة للمألوف فقهننا التقليدي، وتحتاج إلى مجامع تقرها، وثانيها: أنها ألصق ما تكون بعلم "الفقه" وليس بالتفسير ولا الحديث، وأنت طالب في شعبة التفسير والحديث في كلية أصول الدين، ولست طالبًا في شعبة الفقه وأصوله في كلية الشريعة.

وقال للقرضاوي: بقي الأمر الثاني، وهو: أن نجلس معًا لنقرأ الرسالة قراءة مشتركة، فإذا وجدنا فيها ما يستحقّ التعديل عدّلنا. وها هو بيتي مفتوح لك لتزورني في كلّ أسبوع مرّة نجلس فيها ساعتين أو أكثر للقراءة. فقال القرضاوي له: وأنا أرحّب بذلك، وأعتبر هذا فائدة كبيرة لي: فمن ذا الذي يتاح له أن أجد شيخًا يقرأ عليه ما كتب؟ قال: اتفقنا. ونفذا ما اتّفقا عليه بالفعل، وذهب لزيارة الشيخ عدّة مرّات، يجلسان فيها طويلاً للقراءة والمراجعة، ويشهد القرضاوي أنه استفاد كثيرًا من علم الشيخ وملاحظاته وتدقيقاته في العبارات، وخصوصًا في هذه الموضوعات العلمية الدقيقة، ولم يكن يتردّد في النزول على رأيه، وتغيير ما يطلب، من تقييد مطلق، أو

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٥٣٣

٢ المرجع السابق، ص ٥٣٣

تخصيص عام، أو ضبط مفهوم، أو شرح مصطلح، إلا فيما يعتقد القرضاوي أن الصواب معه فيه، فكان يناقشه وأحاوره حتى يقتنع أو يترك له الخيار.

وقطعا شوطاً لا بأس به في الرسالة، وقرب أوان السفر، والعودة إلى قطر، وقال للقرضاوي: تستطيع أن تراجع الرسالة نفسك على هذه الطريقة التي تفاهمنا عليها، وأنت أمين نفسك، ولديك من الإمكانيات الذهنية والعلمية ما يمكنك من إتمام الرسالة على هذا النحو وحدك. والله معك. وودّع القرضاوي الشيخ شاكراً له حسن إستضافته له، وصره عليه، وحرصه على معاونته، داعياً الله تعالى أن يجزيه عنه وعن العلم خير ما يجزي العلماء الأخيار الصادقين.

وسافر القرضاوي إلى قطر، ثم عرف بعد فترة قصيرة: أن الشيخ البحيري أعير إلى العراق، ليدرس الحديث في إحدى جامعات بغداد، ومعنى هذا: أنه لم يعد قادراً على الإشراف على رسالته! ولا بد لإدارة الكلية أن تبحث عن مشرف جديد.^١

المطلب الثامن: مرحلة الدكتوراه

وهذا المطلب يتضمّن أربع مسائل، وبيانها فيما يلي:

المسألة الأولى: محاولة للحصول على الدكتوراه من جامعة البنجاب بلاهور

في السنة الدراسية ١٩٦٨م - ١٩٦٩م أن بعض الإخوة اقترحوا على الشيخ القرضاوي أن يرأسل جامعة "البنجاب" في لاهور بجمهورية باكستان الإسلامية، وهي جامعة عريقة، وفيها قسم للدراسات الإسلامية، ورئيس الجامعة العلامة علاء الدين الصديقي، الذي كان رئيساً لقسم الدراسات الإسلامية من قبل، حين حصلت بعض طالبات القسم - جميلة شوكت - على درجة الماجستير عن بحثها حول كتاب "الحلال والحرام". قال المُحَبِّدُون: بالجامعة تعرفك ولا تَجْهَلُكَ، ورئيسها يعرفك ولا يَنْكُرُكَ، وهو على صلة طيبة بالأستاذ العلامة أبي الأعلى المودودي، أمير الجماعة الإسلامية، الذي يمكن له كلّ مَوَدَّةٍ وتقديرٍ.

ورأى هؤلاء الإخوة أن من الخير أن يكتب للأستاذ أبي الأعلى المودودي، ويُعْرِضَ عليه الأمر، طالباً مَشَوْرَتَه بعد أن يكلم العلامة الصديقي. وبادر الشيخ القرضاوي بكتابة رسالة إلى العلامة المودودي، وشرح له فيها الموقف، وانسداد الطرق في وجهه بالنسبة للدراسات العليا في مصر، ما دام الوضع الحالي باقياً، وانفتاح فرجة أمامه في جامعة البنجاب..... إلى آخر ما جاء في الرسالة.

وسرعان ما أجابته الأستاذ المودودي: أنه كَلَّمَ صديقه البروفسور علاء الدين الصديقي، وأنه يرحّب كلّ الترحيب بكم، وهو يعرفكم جيّداً، وكذلك أساتذة القسم الإسلامي في الجامعة، كلهم مُرْحَبُونَ ومتعاونون، ونصح القرضاوي أن يسارع بالجيء إلى لاهور، للتفاهم مع المختصين حول الحُطُوات التي يجب اتخاذها للوصول إلى الهدف. وحمّد الشيخ القرضاوي الله أن فتح له هذا الباب، وعقد النية على الذهاب لاهور بمجرد انتهاء العام الدراسي، وكان في أواخره.^٢

وطويث صفحة السنة الدراسية في منتصف يونيو كالمعتاد، وبدأ القرضاوي أن يُعِدَّ العُدَّةَ للسفر باكستان لأول مرة، ويرى هذا البلد الكبير الذي انفصل عن الهند الكبرى ليستقلّ بشعائره وشرائعه ومقوماته وخصائصه، دون أن يتعصّب أحد ضده. وكانت باكستان في ذلك الوقت تُعَدُّ أكبر دولة إسلامية في العالم، فقد كانت لا تزال تضمّ باكستان الغربية، وباكستان الشرقية، التي انفصلت بعد ذلك جمهورية بنجلاديش.

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٥٣٦

٢ المرجع السابق، ج ٣، ص ١٨٥

المسألة الثانية: لقاء رئيس الجامعة العلامة علاء الدين الصديقي

ثمّ لقي الشيخ القرضاوي العلامة علاء الدين الصديقي، الذي استقبله، وهشّ له وفتح صدره وجامعته لمساعدته، وقال: نحن نضع كلّ ما في إمكاننا في معاونتك، ثمّ شرح له الوضع في الجامعة، من ناحية الدراسات العليا، وقال نحن عندنا نوعان من الدكتوراه: الدكتوراه المعتادة، وهي التي يقدّم الدارس فيها أطروحةً تحت إشراف أستاذ، حتى إذا أكملها، حدّدت له لجنة لمناقشتها، وفي النهاية يحصل على الدكتوراه بالدرجة التي يستحقّها.

وهناك نوع آخر من الدكتوراه أعلى من الأولى، ويسمّى: "دي لت"، وهذه درجة لا تعطى على أطروحة أو رسالة معيّنة، ولكنها تعطى على مجموع إنتاج الباحث، يقدر ذلك عدد من كبار العلماء. وهذه لا تمنح إلا للقلائل الذين لهم عطاء علمي متميّز.

قال: أما النوع الأول، فهو يسبب لنا - بالنسبة لك - مشكلة؛ لأننا لا نجد من يشرف عليك، من هيئة التدريس عندنا، وهم يُعَدُّون أنفسهم في منزلة تلاميذك، ولذا أنا أقترح: أن تمنحك الجامعة الدكتوراه من النوع الآخر، وهو الأليق بك وياحتاجك، وهذا يتطلب أن تقدّم لنا عدّة نُسخٍ من كلّ ما كتبت، لِنَعْرِضَهُ على عدد من كبار الأساتذة.

قال الشيخ القرضاوي: إن كان ولا بدّ، فليكن على رأس هذا الإنتاج بحثي الكبير عن "فقه الزكاة" وقد تعبت فيه نحو عشر سنوات، ولكنه لم يطبع بعد. وقال أيضًا: هذا أفضل، ويجب أن تبادر بطبعه، وتقدّمه مع سائر كتبك، وكلّما سارعت كان أجدر بإنهاء الأمر على ما تحبّ، فإن الظروف قد تتغيّر.^١ أمهلوني نحو خمسة أشهر أو ستّة أشهر حتى يتمّ طبع الكتاب، وعلى الله التسهيل.

ولكنّ الإخوة العارفين في الجماعة قالوا: إن تكثيف الشيخ نشاطه الدعوي والسياسي في هذا الوقت قد يعكّر على الموضوع الذي جاء من أجله، وهو الحصول على الدكتوراه، فربّما شوّش بعض المفرضين أو الخصوم على الشيخ، ووضعوا العقبات في طريقه. ومن الأصبوب والأرشد أن يخفّف الشيخ من نشاطه في هذه الآونة، حتى يقضي حاجته. وبعد لقائه مع رئيس الجامعة العلامة الصديقي، وغير باقتراحه المسار المعتاد للحصول على الدكتوراه، قرّر الشيخ القرضاوي عائداً إلى قطر، ومنها إلى بيروت، سعياً إلى تقديم كتاب: "فقه الزكاة" للمطبعة.

المسألة الثالثة: عودة البحث عن الدكتوراه في الأزهر

بعد موت عبد الناصر، وتولي أنور السادات، وإزاحة مراكز القوى، التي كانت امتداداً لحكم عبد الناصر، والإفراج عن المعتقلين، وإعلان سيادة القانون، تنفست مصر الصعداء، وأحسنّ الناس أن العُلّ الذي كان يُطَوَّقُ أعناقهم قد فك عنهم. وفي هذا الجوّ الذي هبّت فيه نسيمات الحرّيّة، التي طالما حرّمتها أهل مصر: بدأ الشيخ القرضاوي أن يفكّر في العودة إلى الأصل، لأخذ الدكتوراه من الأزهر، ومن كليّة "أصول الدين"، التي سجّل فيها أطروحة عن: "الزكاة وأثرها في حلّ المشكلات الاجتماعيّة".

ولكنّ كان أمامه عقبات، منها: أن أقصى مدّة يسمح فيها لطالب الدراسات العليا بتقديم رسالته، هي ستّ سنوات، وقد مضى حوالي ضعف هذه المدّة، فهل يمكن الاستثناء؟ والعقبة الأخرى: أن بحثه عن الزكاة قد نشر، وشرط قبول الأطروحة: ألا تكون منشورة.^٢

١ ألفردّواوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م، ج ٣، ما في م ص ١٨٩ - ١٩٠

٢ المرجع السابق، ص ٢٩١

وكان من فضل الله ورحمته: أن وجدوا قانون أقصى مدّة للتقديم قد عدّل في عهد وزارة الشيخ عبد الحليم محمود، للأوقاف وشؤون الأزهر: من ستّ سنوات إلى اثني عشر عامًا، وهذا يكن يعلمه. ولكن حتى هذا القانون لا يسمح له بالتقديم، فقد مضى اثنا عشر عامًا أو أكثر على التقدّم بأطروحته لكلّيّة أصول الدين.

ولكنّ المفاجأة الغريبة التي لم يكن يتوقّعها قطّ: أنه وجد الشيخ القرضاوي مجلس الكلّيّة لم يعتمد الموضوع الذي تقدّم به إلا بعد سنة من تقديمه إلى الكلّيّة، وهذا أمر لو عرفه الشيخ القرضاوي في حينه لضغّب أشدّ الغضب، وأنحى باللائمة على مَنْ أخره كلّ هذل الوقت.

ولكن كان الله حكمة لا يعلمها في هذا التأخير، وكما يقول في المثل: كلّ تأخير فيها خيرة، فقد أتاح الله له هذا التأخير أن يجد بصورة قانونيّة فرصة للتقدّم من جديد إلى الكلّيّة لتعيين مشرف جديد على رسالته، واستجابت الكلّيّة بسرعة، وعيّن الشيخ القرضاوي أحد شيوخه الفضلاء مُشرفًا هو الشيخ الدكتور عبد الرحمن عثمان، أستاذ التفسير المساعد الكلّيّة.

وكان الذي يركض وراء ذلك كلّهُ، ويُحرّك العُجَلَة إلى الأمام، ويحلّ المشكلات المُعقّدة، هو حبيبه، وصديقه الصدوق، الشيخ حسن عيسى عبد الظاهر، الذي كان يعمل مدرّسًا مساعدًا بالكلّيّة، ولم يأل جهدًا في تتبّع الأمور، وتسهيل كلّ صعوبة تعترض الطريق.

بقي موضوع الرسالة التي يشترط ألا تكون منشورًا قبل، وقد نشر الشيخ القرضاوي بحثه الأصلي. ومن حسن الحظّ: أن البحث الذي نشره كان بعنوان: "فقه الزكاة"، والبحث الذي سجّله في الكلّيّة كان بعنوان: "الزكاة وأثرها في حلّ المشكلات الاجتماعيّة".

ولهذا صمّم بحثًا جديدًا، استقاه من ثلاثة مصادر: أولها: من كتابه: "فقه الزكاة"، وثانيها: من كتابه: "مشكلة الفقر"، وثالثها: ومن بحوث جديدة لم تنشر من قبل.

وأكمل الشيخ القرضاوي الرسالة المطلوبة من ناحية البحث، ثمّ من ناحية الطّباعة على الآلة الكاتبة، وهي تحتاج إلى وقت غير قليل، حتى يسرّ الله طباعتها ومراجعتها، ثمّ فهِرَسَتَهَا، ثمّ إرسالها إلى القاهرة لتسلّم إلى الكلّيّة، لِتُعَيِّنَ لجنة المناقشة، وترسلها إلى الأعضاء، حتى يمكن مناقشتها في إجازة الصيف.

قال الشيخ القرضاوي: والحمد لله، تمّ إرسالها إلى القاهرة مع حماي رحمه الله، وتسلّمها صديقي الشيخ حسن عيسى، سلّمها في الحال إلى الكلّيّة، لتتخذ إجراءات تعيين لجنة المناقشة، وقد عينت برئاسة شيخنا العلامة الشيخ محمّد علي السائس، وعضو مجمّع البحوث الإسلاميّة، وعميد كلّيّة أصول الدين من قبل، وعضويّة أستاذنا الدكتور عوض الله حجازي، عميد كلّيّة أصول الدين وقتئذ، والمشرف على الرسالة الأستاذ الدكتور عبد الرحمن عثمان، وأبلغت بذلك وأنا في قطر. وهذه في السنة الدراسيّة ١٩٧٢م - ١٩٧٣م.^١

١ ألفردّواوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٢٩٣

المسألة الرابعة: مناقشة الدكتوراه في ٢٣ يوليو، سنة ١٩٧٣م

وسرعان ما أبلغ القرضاوي بتعيين موعد المناقشة لرسالته الدكتوراه، وذلك يوم ٢٣ يوليو، وكان الفضل في هذا التعجيل يرجع إلى سعي أخيه الحبيب صديقه القديم: الأستاذ عبد العظيم الديب، الذي كان يعرف الشيخ السائس رئيس اللجنة، فزاره في بيته، وأعطاه فكرة كافية عن القرضاوي، وعرفه بأن وقته في القاهرة محدود، وأن السرعة من صالح الشيخ القرضاوي، فقرأ الشيخ السائس الرسالة بسرعة، وحدد مع العضوين الآخرين يوم ٢٣ يوليو للمناقشة.^١

وتوكل الشيخ القرضاوي على الله، وذهب إلى قاعة المناقشة في اليوم الموعد، فوجد قاعة الشيخ محمد عبده شبه ممتلئة، برغم أن اليوم يوم الإجازة؛ لأنه يوم عيد الثورة، وكذلك تتم المناقشة في عطلة الصيف، ومع هذا كان الحضور كبيراً، ولبس الشيخ القرضاوي "الروب" الأسود المعتاد في مثل هذه المناسبة، وكان المفروض أن يُعدَّ بياناً مكتوباً لإلقائه، ولكنه اعتمد على قدرته في الخطابة، والارتجال، فارتجل بياناً شفهيّاً أعدّه في نفسه، لخصّ فيه الرسالة، وما انتهى إليه من نتائج، وقد لاقى البيان استحسان الحاضرين. وتكلّم رئيس اللجنة العلامة الشيخ محمد السائس رحمه الله، ففاجأ الحاضرين بما ليس معتاداً في هذه المناسبات، أثنى ثناءً عاطفياً على مُقدّم الرسالة، ودوره في خدمة العلم والإسلام، وأن الله تعالى كتب له المحبة والقبول عند الناس، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [٩٦].^٢

وقال الشيخ فيما قاله: إن الأستاذ القرضاوي فعل كذا وكذا، فقال الشيخ الدكتور عوض الله حجازي مُداعباً: يا مولانا، هو لم يصر أستاذاً بعد! فقال: بل هو أستاذاً ونصّ!! وقد سأله بعض أسئلة فأجاب عنها، وكان منها: لماذا لم تتحدّث عن زكاة العَقَارَاتِ والمَصَانِعِ، وعن زكاة الأسهم والسندات، وعن زكاة الأموال الحديثة التي لم يكن يعرفها الناس من قبل؟

فقال الشيخ القرضاوي: يا مولانا، لقد تكلمت عن هذه الأشياء، وأبدت فيها رأبي، ولكن أجبرني مشرفي من قبل أن أحوذف هذه الفصول من رسالتي، وإلا رفض الإشراف عليها، فاضطرت إلى أن أحوذفها تنفيذاً لرغبة مشرفي. وسألني الدكتور عوض الله حجازي بعض الأسئلة أجبت عنها. ولم يوجّه المشرف أيّ سؤال إليّ. وانتهت المناقشة، بقيام اللجنة لصلاة المغرب، ثمّ للتداول، وأخيراً عادت فأعلنت نجاح الطالب بامتياز مع مرتبة الشرف الأولى في الحديث وعلومه. وقد علّم القرضاوي أن اللجنة تردّدت: لأيّ القسمين تُنَسِبُ: لقسم التفسير وعلوم القرآن، أم لقسم الحديث وعلومه؟ وذلك أنه حين انتسب إلى الدراسات العليا، كانت الشعبة التي تقدّمت إليها تشتملُ القسمين معاً: القرآن وعلومه، والحديث وعلومه، ولكنهم وجدوا أن العمل الحديثي في الرسالة أوسع بكثير من العمل التفسيري، فنسبوه إلى الحديث.

وكان من حضور المناقشة أستاذ القرضاوي وشيخه البهي الخولي، الذي قال: إن هذا لم يكن يوم مناقشة، إنه كان عُرُسُ القرضاوي، إنه كان يوم احتفال بك في الأزهر! قال القرضاوي له: هذا بعض ثمار عَزْسِكُمْ يا أستاذ، قال: بل هو ثمرة جدك واجتهادك، ومن زرع حصّد. وكان صهره سامي عبد الجواد يصوّر الحفل تصويراً سينمائياً، فلم تكن كاميرات الفيديو قد ظهرت بعد. وكان هذا المهرجانات فرصة ليرى فيه كثيراً من الأقارب والأحبة الذين انقطع عنهم من سنين من أهل قريته، خاله عبد الحميد، والحاج سيّد مولانا، ومن أهل طنطا والمحلة الكبرى.^٣

١ القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٢٩٨

٢ القرآن الكريم، البقرة (١٩)، الآية [٩٦].

٣ القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٣٠٠

المطلب التاسع: حصول درجة أستاذ في العام الدراسي ١٩٧٥م - ١٩٧٦م

بعد سنتين في الكليّة في قطر أحسّ الشيخ القرضاوي بفارق الدرجات في الدكتوراة الجامعيّ، فدرجة المدرّس غير درجة الأستاذ المساعد، وهي غير درجة الأستاذ، وقد كان عيّن الشيخ القرضاوي بدرجة أستاذ مساعد، ولم يبال بذلك يومها، ثمّ تبيّن الفرق بينهما وبين درجة الأستاذ، لا في الناحية الماديّة فحسب، ولكن في القيمة الأدبيّة.

وكلمّ الدكتور إبراهيم كاضماً في ذلك، وأن الجامعات السعودية تعطي الدرجات بالأهليّة والشهرة العلميّة، وليس بالشهادات ولا بالأقدميّة، فالشيخ الشعراوي، والشيخ الغزالي، والشيخ سيّد صقر، والشيخ عليّ الطنطاوي، والأستاذ محمّد مبارك، والأستاذ محمّد قطب، وغيرهم لا يَحْمِلُونَ شهادة دكتوراه، ولكنهم جميعاً يُعَيَّنُونَ في درجة أستاذ، لما تميّز به عطاؤهم العلميّ، والشيخ القرضاوي لِيَرْجُو أن يعامل كهؤلاء! وإذا كانوا محتاجين إلى أبحاث للترقية، فكان عند الشيخ القرضاوي أبحاث جاهزة، وكثر من المطلوب.

وتحاوَبَ معه الدكتور كاظم، وقال: نزور معاً، الشيخ قاسم بن حمد وزير التربية، والرئيس الأعلى للجامعة في ذلك الوقت، كلّما معه في هذا الأمر، فكانت استجابة الرجل أسرع مما توقّعا، وقال لهما: يا دكتور كاظم، والشيخ يوسف القرضاوي عندنا شيخ الأساتذة! وما هي الأيّام حتى صدر القرار بتعيينه في درجة أستاذ.^١

المطلب العاشر: استجازة القرضاوي من الشيخ عبد الفتاح أبي غدة

وقد انتهر الشيخ القرضاوي وجود الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في الدوحة حينما قدِمَ إلى قطر مستجيباً الدعوة من قِبَل مركز بحوث السنّة والسيرة في قطر في سنة ١٤١٣هـ الموافق ١٩٩٣م. فطلب الشيخ القرضاوي منه أن يجيزه في علم الحديث، على طريقة أسلافنا في ذلك.

والحقيقة أن الشيخ القرضاوي لم يُعَنَّ من قبل بطلب الإجازات من العلماء، وإلا لكان أخذ من عدد من المحدثين الكبار الذين لقيهم، مثل الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا «الساعاتي»، والشيخ أحمد محمّد شاكر، والشيخ حبيب الرحمن الأعظمي، وغيرهم.

ولكنه رأى في إجازة الشيخ عبد الفتاح أبي غدة شرفاً وبركةً. لما يعتقد فيه من فضل وخير وصدق، وقد رفض أول الأمر، وقال: 'مثلك يُجيز ولا يُجاز، أنا الذي أطلب منك...' وهذا من تواضعه رحمه الله، ولكنه أي الشيخ القرضاوي أصرّ علي طلبه، وقال الشيخ القرضاوي: 'أنا أتبرك وأتشرّف بهذه الإجازة، فلا تحرمي منها، فكتب لي هذه الإجازة بخطّه، تقبّله الله تعالى في العلماء الرّئاسيين الصادقين.^٢

١ القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م، ج ٣، ص ٣٦٧ - ٣٦٨

٢ المرجع السابق، ج ٤، ص ٧٢٢ - ٧٢٣

نصُّ الإجازة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا سيّد الأوّلين والآخريين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى تابعيهم بإحسان من العلماء العاملين من الفقهاء والمحدّثين، وسائر المتّقين.

أما بعد! فيقول العبد الضعيف عبد الفتاح محمّد أبو غدة الحالي منشأً ودارًا، باب الله عليه، وغفر له ولوالديه: قد طلب مني الإجازة في الحديث الشريف وعلومه أخي وصديقي العلامة الدّرّاعة الداعية الجليل، والمحدّث الفقيه الحاذق النبيل، الأستاذ المفضّل الشيخ جمال الدين أبو المحاسن يوسف عبد الله القرّضاوي، العُنيّ عن التعريف، حفظه الله تعالى ورعاؤه، ونفع به العباد والبلاد وأولاده، وهو صاحب التصانيف المفيدة الرائقة، والآثار النافعة الفائقة، الشاعر المفكّر الإسلاميّ، الموهوب المحبوب. وهو عنيّ عَمَّا طلب، بما آتاه الله تعالى من العلوم الواسعة، والمواهب العالية الساطعة. فامتنعتُ أوّل الأمر من تلبّيته، إجلالا وتقديرا لفضله ومنزلته؛ متى استقت اليحاز من الرّكايأ؟! ولكنه أصرّ واستمرّ، فأجبتّه إلى طليّته، فأقول: أجزتُ أخي العلامة الجليل الشيخ يوسف القرّضاوي بما أجازني به شيوخه الأجلّة رحماتُ الله عليهم، في بلاد الشام ومصر والحرمين الشريفين والهند وباكستان والمغرب واليمن والعراق وغيرها من البلدان، ليكون ذلك اتّصالا منه بساداتنا المحدّثين الكبار، وعلمائنا الأفاضل الأخيار. والإجازة لمستحقّها وأهلها سنة أولئك الأئمّة الأبرار.

فأجزيه بما أجازوني به، وبكلّ ما صحّ لي وعنيّ روايته وكتابه، ليتّصل سنده بسندهم، ويكون في سلك قافلته، وتنالني دعوتهم الصالحة. وأوصيه ونفسي - كما أوصاني شيوخه وأساتذتي - بتقوى الله تعالى في السرّ والعلن، والتوقير لأهل العلم والدين، والسلف الصالحين، وأن يكون خير معلّم لمن يتعلّم منه العلم والدين، رحمةً وشفقةً وأمانةً وورعًا وإتقانًا في التوقيع عن ربّ العالمين، والله وليّ المتّقين، والحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم.

في الدوحة من قطر يوم الثلاثاء ٤ من ذي الحجّة سنة ١٤١٣ هـ

الفقيه إلى الله تعالى: عبد الفتاح أبو غدة^١

طلبه الإجازة عند المحدّث المغربي:

وكان قد أخذ إجازة قديماً من المحدّث المغربي المعروف الشيخ أحمد بن الصديق العُمّاري، حين زار مصر أيّام رئيس جمال عبد

الناصر حوالي ١٩٥٧ م.^٢

١ القرّضاوي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٨٨٤ - ٨٨٥

٢ وقد أصدر له تلميذه الحب المحدّث المحقّق محمّد أكرم الندوي ثبّأ سَمَاهُ: «كفاية الراوي في إجازة الشيخ يوسف القرّضاوي». وقد طلب - لكثرة المستجيزين - من أنجب تلاميذ الشيخ عبد الفتاح أبو غدة العالم المحقّق المحدّث الشيخ محمّد عوامة أن يجيزه، وألح عليه في الطلب فأجازته موسّعة.

المطلب الحادي عشر: السعي لتعلم اللغتين

وهذا المطلب يتناول مسألتين، وبيانها كما في التالي:

المسألة الأولى: مدارس "فاكس" لتعليم اللغات

وكان من الأهداف التي اتفقا عليها القرضاوي وصديقه أحمد العسال: أن يعمقا معرفتهما باللغة الإنجليزية، وقد كانا بدأ دراستها معاً في معتقل هايكستب على يد الأخ محمود عباس الطالب بكلية الهندسة، وهو من حلوان، وقد بدأ معهما شوطاً طيباً، ثم توقفوا عندما انتقلوا إلى معتقل الطور.^١

ثم بدأ دراسة الإنجليزية مرة أخرى في الكلية، درّسها العسال في الشريعة، ودرّسها القرضاوي في أصول الدين، وكانا يمتحنان فيها تحريرياً وشفهياً، والقرضاوي كان يحصل فيها على عشرين من عشرين، وقد شهد الذين درّسوه بأن لديهم قدرة لغوية غير عادية، تتجلى في دراسة اللغة العربية، كما تتجلى في غيرها من اللغات، فالقدرة اللغوية لا تنجزاً. وكان يدرّسهم شابٌ أرمني متمكن حسن الطريقة: اسمه "هارولد". فقد كان رئيس الوزراء البريطاني في ذلك الوقت "هارولد ماكميلان".

المسألة الثانية: محاولة تعلم التركية

في السنة ١٩٦٧م بدأ الشيخ القرضاوي أن يتعلم شيئاً من اللغة التركية، وقد أعطى له بعض الإخوة كتاباً في تعلم التركية، واستفاد منه كثيراً، والحقيقة أن اللغة التركية لغة سهلة جداً، ومما يزيد في سهولتها: وجود كلمة عربية كثيرة بها، فهي مزيج من العربية والفارسية والطورانية القديمة، وإن كان العلمانيون منذ أتاتورك يحاولون أن يفرغوها من الألفاظ العربية، كما حرّموا كتابتها بالحروف العربية، فقطعوا أجيال الأمة عن تراثهم كلّه، وعزلوها عزلاً تاماً، وكان هذا مقصوداً لهم. عرف الأوقام، وحفظها سهل، وبعضها مستعمل في بلاد مصر، مثل: كلمة "بير" واحد، "بيرنجي" أي الأول، كما يقال في المدرسة: فلان بيرنجي الفصل، أي الأول عليه. هكذا تعلم الشيخ القرضاوي من اللغة التركية.^٢

١ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م، ج ٢، ص ٢٣٩

٢ المرجع السابق، ٢٠٠٥م، ج ٣، ص ١٤٥ - ١٤٦

المبحث الأول: حياته العمليّات

* رحلة بحثه عن عمل يتعّيش منه:

كلّ كائن حيّ له مطالب وحاجات تتنوّع وتكثُر بمقدار رُقيّ حاجته، فحاجة النبات أقلّ من حاجة الحيوان، وحاجة الحيوان أقلّ من حاجة الإنسان، وحاجة الإنسان البدويّ أقلّ من حاجة الإنسان الحضريّ، وحاجة الإنسان الأميّ أقلّ من حاجة الإنسان المتعلّم. صحيح أن الله تعالى قد ضَمَّن لكلّ كائن حيّ رزقه، كمل قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [٦].^١ وقال الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَكَايُنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [٦٠].^٢

ولكنّ معنى ضَمَانِ الرزق: أنه هياً موارده وأسبابه في هذه الأرض، منذ خلقها وبارك فيها وقَدَّرَ فيها أوقاتها، وجعل لأهلها معاش تكفيهم. بيّد أنّ سنّته تعالى: أن رزقه المضمون لا ينال إلا بالسعي والكسح والمشى في مناكِبِ الأرض، والتماسِ الرزق في خبائِها. كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [١٥].^٣ فمن سعى ومشى في مناكِبِ الأرض استحقّ أن يأكل من رزق الله فيها، ومن قعد وتكاسل، كان خليفاً أن يُحْرَمَ من رزقه.

وقد رأى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه جماعة قاعدين في المسجد بعد صلاة الجمعة، فسألهم: من أنتم؟ قالوا: متوكّلون! فقال: بل متأكّلون! لا يقعدنّ أحدكم عن كلب الرزق، ويقول: اللهم ارزقني، وقد علم أن السماء لا تمطرُ ذهباً ولا فضةً. إنما يرزُقُ الله الناس بعضهم من بعض. أما قرأتم قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [١٠].^٤ ولهذا كان على القرضاوي وعلى كلّ واحد منّا أن يسعى للحصول على ما يكفي حاجته في هذه المرحلة، وقد أصبح حاجته اليوم أكثر منها عندما كان طالباً. فقد كان يكفيه من قبل نصف حجرة وهو يطلب الآن نصف شقّة.

وليس القرضاوي ممّن سمّوه بعد الثورة "العاطلين بالوراثة" فلم يرث من أبيه وجدّه من الأرض الزراعيّة أو من العقارات أو من الأموال السائلة في الخزائن الخاصّة والبنوك العامّة ما يلي حاجته، ويُعنيه عن طلب العمل. وحتى لو كان له مثل هذا لكان عليه أن يطلب العمل؛ لأن العمل في ذاته واجب على الإنسان كما أنّه حقّ له، وهو كذلك شرفٌ له.^٥ وما ينبغي للإنسان أن يأخذ من الحياة ولا يعطيها. والتوكّل على الله لا يعني: إهمال الأسباب، والحديث الذي يتوكّل عليه المُتَبَطِّلُونَ يزُدُّ عليهم، حيث يقول: كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرْوِحُ بِطَانًا».^٦ فهو لم يضمن لها الرّواح والعودة بطاناً أي ممتلئة البطون؛ إلا بعد غدوها وسعيها خماصاً، أي فارغة البطون. ومن ثمّ جاء القرضاوي من القرية إلى القاهرة،^٧ بحثاً عن العمل، وأخذاً بالأسباب رجاءً في فضل الله، الذي يرزق من يشاء بغير حساب.

١ القرآن الكريم، هود (١١)، الآية [٦].

٢ القرآن الكريم، العنكبوت (٢٩)، الآية [٦٠].

٣ القرآن الكريم، الملك (٦٧)، الآية [١٥].

٤ القرآن الكريم، الجمعة (٦٢)، الآية [١٠].

٥ القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٢٥٢

٦ الكلاباذي البخاري الحنفي، أبو بكر محمد بن أبي إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب (المتوفى: ٣٨٠هـ)، *بحر الفوائد المشهور بمعاني الأخبار*، (بيروت - دار الكتب

العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م)، ج ١، ص ٩١

٧ القاهرة: عاصمة جمهورية مصر العربيّة.

وهذا المبحث يشتمل على ثلاثة مطالب، وتفصيلها كالآتي:

المطلب الأول: عمليّاته في وطنه جمهورية مصر العربيّة وإجراءاته، وهذا المطلب يحتوي على إحدى وعشرين مسألة، وبيانها فيما يلي:

المسألة الأولى: مسجد آل طه بالمحلّة

كانت نفقات الحياة بالقاهرة كثيرة، المسكن والمعيشة والتنقل والملبس، والكتب، وغيرها، وليس له (القرضاوي) مورد أن يُغطّي هذه التكاليف. وزميله محمّد الدمرداش حلّ هذه المشكلة بالتقدّم إلى وزارة التربيّة والتعليم بالثانويّة مُدرّسًا، وعيّن بالصعيد، ولكن مثل هذا العمل لا يلائمه بالمرّة، فهو لا يريد عملا يقطعه عن الحضور بالكلّيّة، ويبعده عن القاهرة مركز الدعوة والنشاط والحركة.

ولهذا فكّر الشيخ القرضاوي في أن يعمل خطيبًا بأحد المساجد الأهليّة، آخذ مكافأة تكفيه لإتمام التكاليف، وقد دلّه بعض الإخوة على مسجد ينشأ في المحلّة الكبرى، وسيحتاجون قطعًا إلى خطيب للمسجد، ودلّوه على الحاج رشاد طه. وتمّ الأمر، وافتتح المسجد بأوّل خطبة حضرها عدد مائة المسجد، وهو صغير نسبيًّا، وفي الجمعة التالية، صلّى الناس خارج المسجد، وما زال العدد يتضاعف، حتى أصبح الذين يصلّون في الشارع أضعاف الذين يصلّون داخل المسجد، مما اضطرّ أصحاب المسجد أن يبنوا مُلحقًا بجواره من عدّة طوابق، حتى يتّسع للناس.^١ وكان شهر رمضان شهر النشاط المضاعف، درس بعد صلاة العصر، وصلاة التراويح بجزء من القرآن، ودرس في الترويحة، وفي بعض الليالي يذهبون إلى قرية من قرى مركز المحلّة، أو سمود وخصوصًا ليالي الاحتفال بغزوة بدر، وفتح مكّة، وليلة القدر.

المسألة الثانية: التعيين في الأزهر ثم إلغاؤه

ثمّ كان أوّل ما أبّجه القرضاوي إليه: أن يقدّم أوراقه إلى إدارة الأزهر، ليعيّن في معاهده مدرّسًا، فقد كان عيّن قبل الاعتقال، ولكنّه لم يتسلّم العمل، فسقط حقّه، على أنه لو كان تسلّمه، لفصله منه، كما فصل كثير من إخوانه.^٢ أما المسجد الذي كان يخطب فيه في مدينة المحلّة - وهو مسجد أهلي ضمّ إلى وزارة الأوقاف بعد - فقد فصلوه منه لإغايه.

وبعد تقديم أوراقه إلى الأزهر انتظر نحو أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، وإذا إدارة الأزهر تعلّق كشفًا بالمقبولين للتعين في معاهدها، وكان أوّل اسم في الكشف هو: اسمه "القرضاوي"، ومعه أحمد العسال: قال القرضاوي: الحمد لله، قد حقق الله الرجاء. فقال له الموظفون المختصّون: لقد كان اسمك أوّل الأسماء المرشحة، لأنك حاصل على أكبر مجموع في المتقدّمين من الكليّات الثلاث، سواء في سنة تخرّجك أم في هذه السنة. فقد كان ترتيبه الأوّل في العالميّة، وفي تخصصّ التدريس، ولكنّ هناك عقبة يجب أن تجتازها. قال القرضاوي: ما هي؟ موافقة جهات الأمن "المباحث العامّة". فقال القرضاوي: وَقَعْنَا فِي الْفَحْخِ. هذه هي العقيدة، وعلى كلّ حال، يقضي الله ما يشاء، ولن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا. وبعد أيام جاء الرّد من المباحث العامّة بحذف اسمه أيّ القرضاوي واسم أحمد العسال من المعيّنين، ولأمّوا الأزهر على إعلانه النتيجة بالأسماء المقبولة، قبل مُراجعة جهات الأمن المختصة في وزارة الداخليّة. ولذا أضحيّ المعمول به بعد ذلك: إرسال أسماء المعيّنين أوّلاً إلى الداخليّة، فمن قبلته منهم أعلن عنه، وإلا فلا. وقد أعلموهما أن أيّ عمل يتّصل بالجماهير هو محظور عليهما، فلا يطمعان يومًا أن يعيّن مدرّسين أو وعظًا في الأزهر، أو خطباء في وزارة الأوقاف؛ لأن هذه الأعمال لها تأثيرها في الجمهور، وهما غير مأمونين عليها في نظرهم!

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٤٣٨

٢ المرجع السابق، ٢٠٠٤م، ج ٢، ص ٢٥٣

المسألة الثالثة: البحث عن المدارس الخاصة

وهنا لم يكن أمامهما باب مفتوح إلا المدارس الخاصة، التي تحتاج إلى مدرّسين للغة العربية، فلم يكن الدين يحتاج إلى مدرّس خاصّ به، فإن حصصه محدودة جدًّا، يأخذها مدرّس اللغة العربيّة مضافة إلى جدوله، وربما لم تكن إجباريّة في بعض السنوات. وظلّ القرضاوي وأحمد العسال يقرّان الصحف كلّ يوم يفتّشان في "إعلاناتها المُبَوَّبة" لأول مرّة، عن مدرسة خاصّة تطلب مدرّسين للغة العربيّة، فإذا وجدا مدرسة في أيّ مكان في القاهرة أو الجيزة، سارعا للذهاب إليها، ليقدمًا إليها أوراقهما، وقد صوّرا منها عدّة نسخٍ على صُغُوْبَةِ التصوير في ذلك الوقت.^١

ولكنّا كانا يرجعان بخفيّ حنين، إذ تعدّرت إدارات المدارس عن عدم قبولهما، بسبب واضح، وهو أنهم يحتاجون إلى مدرّس للغة العربيّة، ولذا هم في حاجة إلى خريجي اللغة العربيّة من الأزهر، أو كليّة دار العلوم من جامعة القاهرة، وهو خريج أصول الدين وأحمد العسال خريج الشريعة! وهذا ما جعله يقول عبارة تناقلها الإخوة الزملاء بعد ذلك، وهي: أبأس الناس: الموظفون، وأبأس الموظّفين: المدرّسون، وأبأس المدرّسين: مدرّسو اللغة العربيّة، وأبأس مدرّسي اللغة العربيّة: خريجو أصول الدين والشريعة!

المسألة الرابعة: مدارس الشرق الخاصة بالزمالك

ثمّ الله تعالى أن يقرّ إعلانًا عن حاجة مدارس الشرق الخاصة بالزمالك والمنيّة - التي يملكها الأستاذ يس سراج الدين، العضو الوفدي المعروف، إلى مدرّسين للغة العربيّة. وكان زميله أحمد العسال يئس من كثرة تقديمهما لمثل هذه المدارس ورجوعهما منها بالرفض والاعتذار، ولكنّ القرضاوي توكلّ على الله وقدم الطلب لمدير المدرسة بالزمالك، وجلس وانتظر ماذا يقول المدير بعد أن يقرأ الأوراق، ولم يكن يتوقّع إلا أن يعتذر كما اعتذر إخوة له من قبل.

ولكن فوجئ بمن يناديه باسمه، ويقول له: إن المدير يطلبك، وكان اسمه الأستاذ: عبد الحليم بشير، من رجال التربية، ومن خريجي دار العلوم القدامى، وقد رحّب به، وقال له: يا شيخ يوسف، نحن عادة لا نقبل خريجي أصول الدين في تدريس اللغة العربيّة؛ لأنهم في الغالب غير متخصصين، ويبدو ضعفهم في التدريس، ولكني حين نظرتُ في أوراقك وجدتُ أنك أوّل زملائك في الشهادة العالميّة من كليّة أصول الدين، كما أنّك أوّل زملائك في العالميّة مع إجازة التدريس، وهذا يدلّ على أنك شخص متميّز، ولست بالرجل العاديّ، ولهذا سأخرق القاعدة وأقبلك مدرّسًا بمدرستنا على مسؤوليتي.^٢ قال القرضاوي له: شكر الله لك حسن ثقّتك بي، وأرجو أن أبيض وجهك وأكون عند حسن ظنّك إن شاء الله.

وكان المدير الإداريّ والماليّ للمدرسة موجودًا - واسمه: صلاح ذهبي - فقال لي: لكني يا أستاذ يوسف أريد أن أسدي إليك نصيحة أريد ألا تفسرها خطأ، قال القرضاوي: خيرًا، ما هي؟ قال: تعلم أن هذه المدرسة في حيّ الزمالك، حتى الأعيان والطبقات الرافية، وربما زيّك الأزهريّ هذا - الجبّة والعمامة - مناسبًا لهذه البيئة، ولذا أنصحك أن تُغيّر زيّك هذا، وتلبس "البذلة" الإفرنجيّة. وقال الأستاذ عبد الحليم: وأنا أوّيد الأستاذ صلاح في هذا، ولعلّك تحفظ قول الشاعر العربيّ قديمًا. البس لكلّ حالة لبوسها إمّا نعيمها وإمّا بوسها!

قال القرضاوي: نعم، أحفظه، وأحفظ قول فقهائنا بمراعاة العرف، ما لم يكن مخالفًا للشرع، وقول الناظم في الفقه:

العرف في الشرع له اعتبار لذا عليه الحكم قد يُدار

١ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٢٥٤

٢ المرجع السابق، ص ٢٥٥

هكذا غيّر القرضاوي لِبَاسَهُ بِبَدَلَةٍ مع رباط الغنق "الكرافته" أولاً في حياته للوظيفة، حتى لَبَسَ هذه الحُلَّةَ، شَعَرَ كَأَنَّهُ إنسان آخر، لم يُعَدَّ هو الشيخ يوسف القديس، وخبَّئَ إليه أن الناس كلَّهم ينظرون إليه، ويقولون: هذا هو الرجل الذي غيَّرَ زِيَّتَهُ، وتزايد هذا الشعور عنده عندما ذهب إلى قريته، وراه أهلها لأول مرة بهذا الزيِّ الجديد.^١

وعندما بدأ العام الدراسي، ذهب إلى المدرسة بالزمالك، وكان مشوارها طويلاً شاقاً، إذ كان عليه أن يركب من شبرا إلى ميدان التحرير، بعد أن يمشي على قدميه من المنزل إلى شارع شبرا لِيَمْتَطِي الأوتوبيس، ثم يركب مرة أخرى من التحرير إلى الزمالك، ثم يمشي إلى المدرسة. ثم عليه أن يُحصِرَ الدروس وأن يُصحِّحَ الكُرَارِيَسَ، كلَّ هذا من أجل اثني عشر جُنَيْهًا. إلا أن ميزة هذه المدارس عند أكثر المدرسين: أنها فرصة للدروس الخصوصية، فطلابها من الأسر الثريَّة، وعلَّهم يحتاجون إلى الدروس لرفع مستواهم، ولا سيَّما إذا عُرفَ المدرِّس بينهم بالتميز في تدريسه، وانتشر صيته بين التلاميذ. وقد بدأ اسمه يَظْهَرُ بين تلاميذ المدرسة وتلميذاتها، وهي مدرسة إعدادية، وهي مختلطة تجتمع بين البنين والبنات. وطَفِقَ التلاميذ يطلبونه ليعطيهم دروسًا خصوصيةً، ولكنه لم يكن من النوع الذي يركض وراء هذه الدروس؛ لأنها تكسب النقود، وتأكل الأوقات، وهو في حاجة إلى وقته للاطلاع والقراءة، وهو أعلى عنده من بضعة جُنَيْهَاتٍ يضعها في جيبيه. هذا مذهبه.

ولهذا لم يقبل من الدروس إلا درسًا واحدًا، كلَّفَهُ به المدير لبنت صاحب المدرسة الأستاذ يس سراج الدين، وكانت في المرحلة الإعدادية، وهي كبرى بناته، وكانت صغيرة، وعلى غاية من الأدب. ولم يملك القرضاوي أن يقول: لا. إلا أن بقائه في مدرسة الزمالك هذه لم يطل أكثر من شهر كما في ذهن القرضاوي، ثم حدث "العدوان الثلاثي" الشهير على مصر، انتقامًا لتأميم قناة السويس. فقد هاجمت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل منطقة القناة، وخصوصًا مدينة بور سعيد، وأمطرها بوابل القنابل.

المهم أن مدارس الشرق الخاصة عطلت كما عطل غيرها من المدارس. ومعنى تعطيلها: أن لا راتب لهم يقبضونه منها، كما يقبض المدرسون في مدارس الحكومة، وإن عطلت الدراسة، ولذا بقي القرضاوي أيامًا في القاهرة، ثم رأى الأصلح له أن يدعها إلى القرية، فالمعيشة في القاهرة تكلفه تبعه، وفي القرية لا يتكلف شيئًا، فهو آكل مما تأكل العائلة.^٢

وما هي إلا أيام حتى جاءته بركة من وزارة الأوقاف تطلب إليه أن يحضر بسرعة إلى القاهرة ليتسلم منبر الأزهر، لرفع الروح المعنوية في الشعب في هذه المرحلة الخطيرة في تاريخ مصر، وكان هذا بتوجيه من شيوخهم: البهي الخولي، ومحمد الغزالي، وسيّد سابق، الذين أشاروا على الباقوري أن يستدعيه للأزهر. بيد أن القرضاوي لم يتجاوب مع هذه البرقية، وقال في نفسه: إنهم يستنجدون به الآن، حتى إذا انكشفت العمة طرحوهم وراء ظهره!

ولما لم يرد عليهم، كلفوا شيخهم الشيخ محمد الغزالي الذي اعتلى منبر الأزهر، وظلَّ يخطب فيه عدّة سنوات، وقد كان الشيخ الغزالي يخطب في جامع الزمالك الكبير، فخلاً مكانه، فأرسلوا إليه في القرية أحد الإخوة ليبلغ عنده بضرورة الاستجابة إلى طلب الأوقاف، وإلحاحهم في أن أحل محلَّ الشيخ الغزالي في مسجد الزمالك، وكان الذي حمل إليه الرسالة هو الأخ إسماعيل حمد. واستجاب إلى رغبة شيوخهم، وسافر القرضاوي إلى القاهرة، تسلم مسجد الزمالك ليخطب فيه، بمكافأة قدرها عشر جُنَيْهًا، قدرها اثنا عشر جُنَيْهًا، عرف الناس يتوافدون على المسجد من أنحاء القاهرة وضواحيها، بل من خارج القاهرة أيضًا، وقد كانت إذاعة القاهرة

١ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٢٥٧

٢ المرجع السابق، ص ٢٥٩

تذيع منه خطبة الجمعة كلِّ عِدَّة أسابيع، وكان الذي يضايقه من إذاعة الخطبة: أنهم يطلبونها مكتوبة قبل أن تذايع، ويريدونه أن يقرأها عند إذاعتها، وهو لم يتعوّد أن يقرأ الخطبة من ورقة، ولهذا كان أحياناً يخرج على النص، ويرتجل كلمات من عنده، وقد لاحظوا ذلك يوماً فَلَقُّوا نظره إلى ذلك. وظلَّ القرضاوي أكثر من سنة يخطب الجمعة بمسجد الزمالك.^١

وأخيراً ضاق صدرهم، ونَفِدَ صبرهم، فأجبروا الأوقاف أن تمنعه من الخطابة، فقد انتهت مهمته بعد أن أصرَّت أمريكا على دول العدوان الثلاثي أن تجلُّوا عن مصر، وهذا ما كان القرضاوي يتوقَّعه منهم.

ومع تركه لمدارس الشرق الخاصَّة، وقبولهم استقالته، فقد طلبوا من القرضاوي أن يستمرَّ في درسه الخاصِّ مع ابنة يس سراج الدين، وبقي معها لأكثر من عِدَّة أشهر، ثمَّ رشَّحته الأوقاف لِلدَّهَابِ إلى مدينة العريش في بَعَثَةٍ وَعَظِيَّةٍ بمناسبة شهر رمضان، ولم يكن قد قبض من دروسه الخصوصيَّة كثيراً ولا قليلاً، وهو يَسْتَحْي أن يطلب، وهم لعلَّهم غافلون. ثمَّ ضَعَطَ على نفسه، وغالبت طبيعة الحياء عنده، وكتب القرضاوي كلمات للأستاذ سراج الدين، قال فيها: لولا ما تعرف من غلاء المعيشة، وضغط تكاليف الحياة، لمعه الحياء أن يذكرها بقول الشاعر: وفي النفس حاجات وفيك سكويتي بيان عندها وخطاب! مع خالص تحياتي.

وأعطى القرضاوي الورقة لتلميذته لتسلِّمها إلى أبيها وعندما حضر القرضاوي الدرس التالي وجدها الرجل قد ترك له عشرة جُنِيَّهَات، مع ورقة تتضمن شكراً واعتذاراً عن التأخير.^٢

المسألة الخامسة: مُسَابَقَةُ لَتَعْيِينِ وَعُغَاظِ وَخَطَبَاءِ

ومن المهمَّ أنه في هذه الفترة عَقَدَتْ مسابقة لتعيين عُغَاظِ بالأزهر، وأئمَّة وخطباء بالأوقاف، وقدم فيها القرضاوي وعدد من الإخوان، وهم يعلمون أنهم ممنوعون من الوظائف المتصلة بالجماهير، ومنها: الخطابة والوعظ، ولكن فكَّروا: لن يخسروا شيئاً إذا قدَّموا، فرمَّوا بنحوها وقبلوا. ودخلوا الامتحان دخول من لا يعتقد أن وراءه جدوى، وسرعان ما ظهرت النتيجة، ونجح فيه عشرة من الإخوان: وهم - هو (القرضاوي) وأحمد العسال، وسليمان عطا، وعبد الرؤوف عامر، وعبد التواب هيكل، ومحمود جودة، وعبد الحميد شاهين وغيرهم. وكان ترتيبه هو الثاني في هذه المسابقة،^٣ فقد كان الأوَّل هو زميلهم الأخ العالم الفاضل الشيخ إبراهيم الدسوقي جلهوم، خطيب مسجد السيِّدة زينب فيما بعد.

وبعد نجاحهم كان الشيخ الباقوري وزير الأوقاف موقف رُجُولَةٍ وإِنْسَانِيَّةٍ لا يُنْسَاهَا، وهو آتِه عارض رجل الأمن، وقال: أنا سأعيتهم على مسؤوليتي، في أعمال غير الخطابة والتدريس. وفعلاً كانت وظيفتهم الرسميَّة: الإمامة والخطابة، ووظيفتهم الفعلية التي انتدبهم لها - هم العشرة - العمل بقسم النَّظَارِ والأوقاف، ومَقَرَّه سَطُوحِ وزارة الأوقاف.

وقد حضر القرضاوي وأحمد العسال يوماً واحداً في هذا القسم، ثمَّ انتدبا للعمل في مراقبة الشؤون الدينيَّة، وكلف القرضاوي المراقب العام للشؤون الدينيَّة الأستاذ البهي الخولي بالإشراف على "معهد الأئمَّة" وكلف العسال بالإشراف على مكتبة إدارة الثقافة بمسجد عمر مكرم.

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريَّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٢٦٠

٢ المرجع السابق، ص ٢٦٢

٣ المرجع السابق، ص ٢٧٧

ومعهد الأئمة ليس له مبنى، ولكنه "فكرة" تقوم على أساس النهوض بمستوى الأئمة، والرقي بثقافتهم، على أساس تنظيم محاضرات لهم في موضوعات إسلامية وفكرية متنوّعة: من علماء ومفكرين كبار، وتوسّع من آفاقهم، وتير من بصائرهم، في فقه حقيقة الدين، وحقيقة الواقع. وكان من هؤلاء الأعلام: الشيخ أبو زهرة، والشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز، والدكتور البهي، والشيخ محمد المدني، والدكتور عليّ عبد الواحد وافي، وبالإضافة إلى محاضرات الأستاذ البهي الخولي، والشيخ الغزالي، والشيخ سيّد سابق.

المسألة السادسة: كتاباته بمجلة "منير الإسلام"

كان من فضل أستاذهم البهي الخولي، عليه أي القرضاوي: أن طلب منه أن يكتب مقالات لمجلة وزارة الأوقاف، والتي تصدر عن مراقبة الشؤون الدينية بالوزارة، باسم "منير الإسلام". وقد بدأ القرضاوي أول مقالة للمجلة تحت عنوان: "أمّية عمريّة".^١ ثمّ حتّهُ الأستاذ البهي أن يكتب فتاوى للمجلة بلغة العصر، فإن الذين يكتبون الفتاوى في المجلة يكتبونها بلغة قديمة، وكثيراً ما تحمل التشديد، ولا تلائم روح العصر، فشرع القرضاوي يكتب تحت عنوان: "يستفتونك؟" وهي البواكير التي تشير إلى اتجاهه الذي تبناه وعرف القرضاوي بعد ذلك، وهو "التيسير في الفتوى" و"التبشير في الدعوة". وكان الشيخان: البهي، والغزالي يعجبان بها، ويشجعانه عليها.

ولم يشأ القرضاوي أن يوقع باسمه الصريح، حتى لا أثير نائرة رجال المباحث العامة، الذين يقفون لهم بالمُرصَاد، ويريدون أن يغلقوا في وجوههم كلّ الأبواب، فوقع القرضاوي المقال باسم: "يوسف عبد الله" دون أن يذكر القرضاوي. وكانت مكافأة المقالة في ذلك الوقت "خمسة جنيهات"، وهي مبلغ جيّد لمثله. وكذلك في تلك الفترة: أنه كتب مقالةً لمجلة "منير الإسلام" بعنوان: "يا أصحاب الفضيلة، اقرأوا!" وقد عيّن القرضاوي بهذا الأمر، وفصله وعمقه في كتابه: "ثقافة الداعية" الذي أعده ليشارك به في "المؤتمر العالميّ الأوّل لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة"، الذي عقّد في المدينة المنورة في أواسط السبعينات من القرن العشرين.

وكانت بعثته إلى العريش^٢ في رمضان تجربة فريدة، فهي أول مرّة يتعرّف فيها على جزيرة سيناء، هذا الجزء العزيز من أرض مصر، الذي فصله الإنجليز عن الوادي. وقد ذهبوا إلى هذه المنطقة في صيف سنة ١٩٥٧م. وكانوا مجموعة من المشايخ المختارين، بعضهم من وعظّ الأزهر مثل الشيخ النشار، وبعضهم من خطباء الأوقاف مثل الشيخ عبد المطاب صلاح، خطيب مسجد حسين، والشيخ إبراهيم الدسوقي، المفتش بالمساجد، والذي أصبح بعد ذلك وزير للأوقاف في عهد أنور السادات. وقد زار القرضاوي "غزة" لأول مرّة، وألقى فيها درساً، وأفطروا عند الأخ الفاضل العالم الشيخ هاشم الخازندار، ثمّ عادوا إلى العريش، وكان هذا رمضان أخصب الرمضانات، وأكثرها بركة، وقد ترك في نفسه وفي أنفس أهاله العريش أثراً حسناً، وذكرى طيبة.

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٢٨٧

٢ منطقة شاطئ البحر الأبيض المتوسط في مصر، وهي معروفة للسياحة.

وفي هذه المسألة نقطة، وهي: واقعة مُؤسفة من مجلة "منير الإسلام"

كان من أشد ما ساء الشيخ القرضاوي وآذاه في سنة ١٩٦٥م: ما رأى في مجلة "منير الإسلام" التي كانت تصدر من وزارة الأوقاف قديمًا، وكان القرضاوي يكتب فيها بتوقيع "يوسف عبد الله"، وقد أمست تصدر الآن عن "المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية"، الذي يديره الضابط المعروف توفيق عويضة أمينه العام.^١

أصدرت المجلة ملحقةً خاصًا مثيرًا، عنوانه: "رأي الدين في إخوان الشياطين!" وقد كتب فيه عدد من العلماء والمشايخ، كان الشيخ القرضاوي يربُّنا ببعضهم أن ينساقوا في هذا التيار، ويُستخدَموا أدوات في أيدي الظلمة الجبارين.^٢ وقد قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [١١٤].^٣

المسألة السابعة: الانتقال من الأوقاف إلى الأزهر

كان وَضْعِي هو (القرضاوي) وأحمد العسال في وزارة الأوقاف مُرِيحًا، ولكنّه قلق غير مستقرّ، فالعمل الذي يزاوله كِلَاهُمَا ليس واضح الأهداف، محدّد المعالم، ف أحمد العسال يُشرفُ على مكتبة لا تحتاج إلى مُتَفَرِّغٍ مثله، والمعهد الذي أشرف عليه ليس معهدًا حقيقيًا، يحتاج إلى تفرّغٍ مثليّ له. كِلَاهُمَا مرهون ببقاء الباقوري وزيرًا للأوقاف، والبهي الخولي مراقبًا للشؤون الدينيّة، ومعه الغزالي، وسيّد سابق. ولهذا فَكَّرًا جَدِيدًا أن ينتقلا إلى الأزهر، فهو مكانهما الطبيعيّ، ولا سِيَمًا أن شيخهما العلامة محمود شلتوت هو الآن شيخ الأزهر، وإمامه الأكبر، وبينهما وبينه من قدم مودّةً مَكِينَةً، وصِلَةً مَتِينَةً، ويعتقدان أنّهما إذا ذهبا إليه وكَلَّماه في نَقْلِهِمَا إلى الأزهر، فلن يتأخّر عن تَلْيِيَةِ طَلْبِهِمَا، كما أن إخوانهم ومشايخهم في الأوقاف لن يقفوا عَثْرَةً في طريقهم.^٤

المسألة الثامنة: ترحيب الشيخ شلتوت بنقلهما إلى الأزهر

وهذا ما حدث بالفعل، فقد زارا الشيخ في بيته، وحدّثا معه عن وَضْعِهِمَا في الأوقاف، ورغبتهما في الانتقال إلى بيتهما - بيت العائلة - بالأزهر، فرحّب الشيخ بهما كلّ الترحيب، وقال: الأزهر داركم وموئلكم، وأنتم أبناءه البررة، والأب يرحّب بعودة أبنائه، وإن اغتربوا فترة عنه. وطلب الشيخ الأكبر من صهره ومدير مكتبة الأستاذ أحمد نصار: أن يكلم الأستاذ الدكتور محمّد البهي المدير العام لإدارة الثقافة الإسلامية، لينقلهما إلى إدارته، فرحّب بذلك وأيده. بل طلب الإسراع بإنجاز الإجراءات اللازمة التي كثيرًا ما تطول بين المزارات والمؤسّسات المختلفة.

وما هي إلا أسابيع حتى تمّ النقل بسرعة؛ نظرًا لأنّ الجهتين - المنقول منها والمنقول إليها - كانتا تساعدهما بإخلاص، ولا تصع العراقيل الروتينيّة في طريقهما، كما هو المعتاد في مثل هذه الأحوال.^٥ وشكرا لوزارة الأوقاف وشيوخها الكبار - وعلى رأسهم: الوزير - ما قاموا به نحوهما من تكريم ورعاية، ولا يملكان إلا أن يقولان لهم: شكر الله لكم وجزاكم عنّا خيرًا.

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ١٩

٢ من الأسماء التي ساء القرضاوي أن يراها في هذه القائمة: الأستاذ الشيخ عبد الله مشيد، والأستاذ أنور الجندي، والمعروف أنه من الإخوان. ولكن يبدو أن الضغط كان شديدًا! ٣ القرآن الكريم، هود (١١)، الآية [١١٤].

٤ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٣١٧

٥ المرجع السابق، ص ٣١٨

المسألة التاسعة: العمل مع الدكتور محمد البهي

وانتقلا إلى الأزهر ليعملا في مراقبة البحوث والثقافة، التابعة للإدارة العامة للثقافة، تحت إشراف مديرها العام الأستاذ الدكتور محمد البهي، أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية أصول الدين وكلية اللغة العربية، ومؤلف الكتب الشهيرة في الفلسفة والفكر الإسلامي، مثل: "الجانب الإلهي في التفكير الإسلامي" و"الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي" الذي كان له ذوئيه في أوساط الثقافة والفكرية؛ لوقوفه بالمِرْصادِ للفكر الماركسي الذي يقول: "الدين خُرَافَةٌ، والدين مُخَدَّرٌ." والفكر العلماني الذي يقول: "الإسلام دين لا دولة."^١

وكان الدكتور البهي مشهورًا بالشدّة - زُبْمًا العُنْف - في الإدارة. ولكن - ولا يقول القرضاوي إلا الحقّ - : إنه كان معه في غاية الدّمائيّة واللطف، وما دخل عليه إلا أجلسه بجوّاره، وإذا كان عنده ضيوف كبار قدّمه إليهم تقديمًا يشعر القرضاوي بالحجل منه، فهو يُضْفِي على القرضاوي من الأوصاف أكثر ممّا يستحقّ، ولم يفعل ذلك مع أيّ موظّف يعمل معه، حتّى رؤساء الأقسام عندهم كانوا يقفون أمامه وجِلِين، و القرضاوي جالس بجوّاره. وهذا لا تفسير له عند القرضاوي إلا أنه فضل الله على عبده.

المسألة العاشرة: إخراج كتب الشيخ والإمام الأكبر شلتوت^٢

فكّر الدكتور البهي فيما يَسْتُنْدُ إلى القرضاوي وزميله أحمد العسال من عمل، ثمّ قال لدينا عمل كبير لا ينجزه غَيْرُكُما، وهو أن نَنَشِرَ تراث الشيخ شلتوت على الناس في كتب كبيرة، ولا بدّ أن يَجْمَعَ هذا التراث من مَطَائِنِ المختلفة. في الصحف والمجالات، وفينا لدى الشيخ الأكبر من مقالات أو مُسَوِّدَاتٍ. وأتّما أهل لتجميع ذلك وتنسيقه وطباعته وتصحيحه. ومَطْبَعَةُ الأزهر رهن إشارتكما.^٣

وكان الشيخ شلتوت - رغم شُهْرَتِهِ وذيوع صِيَّتِهِ - لا يكاد يوجد له كتب يقرأها الناس، غير كتاب شارك فيه العلامة محمد علي السبّاس، وهو كتاب "المقارنة بين المذاهب الفقهيّة" المقرّر على السنة الرابعة من كلية الشريعة، جامعة الأزهر. وله كتاب آخر، وكان في أصله محاضرات ألقاها على طلبة الدراسات العليا في كلية الحقوق: "فقه الكتاب والسنة: القصاص". وله رسالة صغيرة عن "القرآن والقتال"، وأخرى عن "القرآن والمرأة"، ثالثها عن: "منهج القرآن في بناء المُحْتَمَع". وما عدا ذلك له فتاوى وبحوث في جوانب شتى، نشرها في بعض المجالات، أو بعض الصحف اليوميّة، أو بثّتها الإذاعة المصريّة، من ذلك ما كان في مجلّة "رسالة" التي كان يُصَدِرُهَا الأستاذ الزيات، وما كان في مجلّة "الأزهر"، وما كان في مجلّة "رسالة الإسلام" التي تُصَدِرُ عن "دار التقريب بين المذاهب الإسلاميّة" بالقاهرة.

وكانت الخطوة الأولى هي التنقيب عن هذا التراث في مَطَائِنِ المختلفة، وتجميعه من كلّ من عنده شيء منه. وبعد أن تجمع لديهم كمّ كبير من تراث الشيخ، ترجح لهم أن يضعوا في أربعة كتب كبيرة:

الأول: يتضمّن الجانب العقديّ والفقهيّ والأصوليّ أو التشريعيّ من كتابات الشيخ، والذي كان قد كتب فيه رسالة صغيرة الحجم، سمّاها: "الإسلام عقيدة وشريعة"، وفيه أفرغوا كتاب: "فقه القرآن والسنة"، وبعض ما كتبه الشيخ حول هذا الجانب من العقيدة والشريعة.

١ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٣١٨

٢ الشيخ الأكبر أو الإمام الأكبر: كان لَقَبُ رئيس جامعة الأزهر، وهذا اللقب جارياً حتى الآن.

٣ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، المرجع السابق، ج ٢، ص ٣١٩

والثاني: يتضمّن "فتاوى الشيخ" التي أصدرها ونشرها في مناسبات مختلفة، وهي فتاوى تتّسم بالجديد والجرأة، وتجمع بين الأصالة والمعاصرة معاً، وقد أودعوا فيه كلّ ما عثروا عليه من فتاوى الشيخ.

والثالث: يتضمّن المقالات الدعويّة والتوجيهيّة في شتى جوانب الدين والحياة، وهو الذي اختار له الدكتور البهي عنوان: من توجيهات الإسلام.

والرابع: يتضمّن مقالات "التفسير" للقرآن، التي نشرت في مجلّة "رسالة الإسلام"، وكان جمعها أسهل من غيرها؛ لأنها مكتوبة منشورة مرتّبة، فلا تحتاج أكثر من التجميع.

وكان عليهم في هذا المجال عدّة أمور:

أولاً: أن يقسموا الكتاب تقسيماً علمياً منطقيّاً إلى أبواب أو فصول، أو أجزاء يسهل الرجوع إليها.

ثانياً: عليهم بعد هذا التقسيم والتبويب: عمل آخر، وهو وضع العناوين الجانبية لتفصيلات كلّ موضوع؛ لتعيّن القارئ على حسن الفهم والاستيعاب. وقد عرضوا تبويبهم وتقسيمهم وطريقة عملهم على الدكتور البهي فأقرّها.

ثالثاً: عليهم أن يُشرّفوا على الطّباعة والتصحيح، حتّى يخرج الكتاب للناس في صورة مقبولة. وكان القرضاوي يرى أنّ من الثّمرات إلى الله أن يعملوا على إخراج علم الشيخ شلتوت إلى النور، لتنتفع به الأمة، وأن أيّ جهد يبذلونه فهو - إن شاء الله - في ميزانهم، وإن ضاع عند الناس فلن يضيع عند الله. ولقد نوه الأستاذ البهي بما قاما به - القرضاوي وأحمد العسال - من جهد في تجميع هذه الكتب وتنسيقها حتّى خرجت الناس بصورتها المشرقة مُبَوَّبَةً ومُفَهَّرَةً.^١

المسألة الحادية عشرة: العمل بالمكتب الفني للوعظ والإرشاد

بعد مدّة لم تطل كثيراً حولهم (القرضاوي وغيرهم) إلى العمل في المكتب الفني لإدارة الوعظ والإرشاد، ليعملوا مع مدير الوعظ والإرشاد في ذلك الوقت، وهو الشيخ عبد الله المشد، وينتقلون من مبنى إدارة الأزهر الذي كانوا يداومون به حيث مراقبة البحوث والثقافة، إلى مبنى "الرواق العباسي" في الأزهر القديم، وكانت إدارة الوعظ والإرشاد إحدى الإدارات التابعة للإدارة العامّة للثقافة الإسلاميّة.^٢

وكان معهم في المكتب الفني عدد من العلماء الأفاضل، منهم فضيلة الشيخ عطية صقر، والشيخ محمّد رمضان، مدير تحرير مجلّة "نور الإسلام" لسان حال علماء والوعظ والإرشاد، والأخوان: أحمد حمد، وعبد الحميد شاهين. وكان أهمّ ما بدأوا به: تطوير مجلّة "نور الإسلام" وتحسين أدائها، وإضافة موضوعات جديدة إليها، وجلب أقلام جديدة للكتابة فيها. وقد بدأ القرضاوي يكتب فيها سلسلة مقالات تحت عنوان: "العقيدة الحياة"، وهي التي نشرها بعد ذلك في كتاب "الإيمان والحياة".

سافر زميل القرضاوي وصديقه أحمد العسال إلى قطر في السنة الدراسيّة (١٩٦٠م - ١٩٦١م)، وبقي القرضاوي في مصر، يعمل بين المكتب الفني للوعظ والإرشاد، ومراقبة البحوث والثقافة، فكثيراً ما كلّفه الدكتور محمّد البهي بتقديم بعض المحاضرين في موسم المحاضرات بقاعة الشيخ محمّد عبده، وهي السُنّة الحسنة التي استنّها الدكتور البهي لإحياء الجانب الثقافيّ في الأزهر، واستغلال قاعة

١ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٣٢٢

٢ المرجع السابق، ص ٣٢٧

الشيخ محمد عبده لدعوة كبار المفكرين والعلماء لإلقاء المحاضرات العلمية بها في مختلف التخصصات، وقد ظلت سنوات، وهي مهجورة، لا يدخلها أحد.

وقد شهد القرضاوي هذه القاعة محاضرات لبعض الرجال الكبار من مصر، ومن البلاد العربية، منهم: الكاتب العملاق عباد العقاد، الذي ألقى محاضرة قيمة عن "فلسفة الغزالي". ومنهم: الأستاذ محمد المبارك، الذي كان موضوعه: "نحو وعي إسلامي جديد". ومنهم: الأستاذ السيد علي السيد، رئيس مجلس الدولة، الذي تكلم عن "العلم في القرآن". ومنهم: الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، التي تحدت عن "القرآن"، وكانت حاضرة الرأس، ومنهم: الأستاذ عمر بهاء الدين الأميري.^١

المسألة الثانية عشرة: كتاب "الحلال والحرام"

في هذا الوقت عرض عليهم الدكتور البهي أن يشترك القرضاوي والعسال في مشروع تنقيفي إسلامي كبير، فقد طلبت بعض سفارات مصر في بلاد الغرب: في أمريكا أو لندن: الكتابة في ثلاثين موضوعًا تحتاج إليها الجالية الإسلامية في الخارج، على أن تكتب بلغة سلسلة ميسرة، ملائمة لروح العصر، وموثقة من الناحية العلمية. منها موضوعات في العقائد والعبادات، والأسرة والمعاملات وغيرها من كل ما يفتقر المسلمون إلى معرفته خارج الوطن العربي والإسلامي.

وكان الذي عرضه على القرضاوي الدكتور البهي وطلب إليه أن يكتب فيه هو: ما يحل للمسلم، وما يحرم عليه. كما عرض على العسال: أن يكتب عن العبادات. وقد وقَّعه الله حلَّ شأنه لكتابة الموضوع الذي كلفه به، وإن كان رأى القرضاوي أن يغير عنوان من: "ما يحل للمسلم، وما يحرم عليه" إلى "الحلال والحرام في الإسلام"، وقد سلم القرضاوي مسودَّة ما كتب إلى أستاذهم الدكتور البهي، وبعث به إلى الأستاذ محمد المبارك عميد كلية الشريعة في دمشق والمفكر الإسلامي المعروف، ليرى مدى ملاءمته لمخاطبة العقل الغربي، ومدى أصالته العلمية، وقد أثنى الأستاذ المبارك على الكتاب، وكتب فيه تقريرًا إلى إدارة الثقافة، قال فيه: إن الكتاب جيد في بابه، ضروري في موضوعه، ولو استدرك بعض الملاحظات لكان خير في موضوعه.^٢

وهذا ما دفعه القرضاوي ألا ينتظر الكتاب حتى يترجم، فدفع به إلى دار إحياء الكتب العربية، "عيسى الباي الحلبي" لينشره بالعربية كما كتب، وقد أقرته اللجنة المتخصصة بالكتب عند الحلبي، رغم أنه أول كتاب لمصنّفه. وكانت الطبعة الأولى من الكتاب الذي طبع منه ثلاثة آلاف نسخة، وحصل القرضاوي في مقابلها على "ستين جنيهًا" كانت أول مبلغ أخذه من حقوق التأليف، وكان يمثل له ثروة معقولة في ذلك الزمان.

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٣٦٤

٢ المرجع السابق، ص ٣٢٩

المسألة الثالثة عشرة: الامتحان من أجل الابتعاث للبلاد العربية

كان من حقّ الشيخ القرضاوي بعد مضي ثلاث سنوات عليه في العمل: أن يتقدّم بطلب ليكون له حقّ الابتعاث أو الإعارة لبعض البلاد العربية التي تطلب مدرّسين لمدارسها أو معاهدها من الأزهر. وما إن اكتملت له مدّة السنوات الثلاث - منذ بدء تعيينه في الأوقاف - حتى تقدّمه بهذا الطلب، ليلحق بالمعارج إلى السعودية والكويت وغيرهما. وبخاصّةٍ أنه قد تأخّر في التعيين، وفي حاجة ماسة إلى سند مادي يشدّ ظهره في مواجهة مطالب الحياة، وكلّ منه يريد أن يكون له بيت يملكه، لا مجرد شقّة يستأجرها، وأن يكون له قدر من المال يدخّره لمفاجآت الحياة.^١ على أن السفر لا يفيد الإنسان مالا فقط، بل يفيد علمًا وخبرةً وتجربةً، وكان القرضاوي يحفظ شعرًا ينسب إلى الإمام عليّ رضي الله عنه يقول فيه:

تغرّب عن الأوطان في طلب ومسافر، ففي الأسفار خمس
تفرج همّ، واكتساب معيشة وعلم، وآداب، وصحبة ماجد

في لسان الشيخ القرضاوي: على أن في البعثة بالنسبة إلينا - معشر الإخوان - فائدة أخرى غير مصرح بها، وهي الفرار من ملاحظات الباحث والمخبرين، والنجاة بالرأس من احتمالات الاعتقالات التي قد تكون بسبب أو بغير سبب، وقد يكون السبب أمرًا لا علاقة لك به، ولا تعلم عنه شيئًا. ولا عجب أن قدّم القرضاوي وغيرهم طلب الإعارة أوّل استحقاق ذلك. وكان المتبع في الأزهر: أن المتقدمين للبعثات أكثر من المطلوبين عادة، وفي بعض العهود كان الابتعاث مؤكّولًا إلى بعض الأشخاص في الإدارة يتكفون فيه.

المسألة الرابعة عشرة: أوّل المتسابقين

ناقش القرضاوي مع اللجنة التي امتحنته، وكان على رأسها الشيخ محمد يوسف الأستاذ بكلية أصول الدين، وأستاذ العقيدة وعلم الكلام والمنطق. ولم تؤثر هذه المناقشة التي خالف القرضاوي فيها رئيس اللجنة في تقديرها له، فقد منحه اللجنة أعلى درجة نالها ممتحن، وكان أوّل المتقدمين في هذا الامتحان.

ومن ثمّ كان من حقّه أن يختار أيّ بلد أحبّ من البلاد التي يبعث إليها الأزهريون. وكان أفضل بلد يختاره الأزهريون عادة هو "الكويت" فقد كانت الكويت تعطي أعلى الرواتب للمعاريين إليها.^٢

المسألة الخامسة عشرة: اختيار قطر

ولكن القرضاوي لم يختار الكويت، بل اختار "قطر"، ولم يكن لقطر شهرة في ذلك الوقت، ولا يرغب المعارون فيها كغيرها، فقد كانت تخطو الخطوات الأولى في سلّم الترقّي الحضاريّ، وكانت رواتبها أقلّ من غيرها.^٣ ولكن لأن الشيخ عبد الله بن تركي المسؤول عن العلوم الشرعيّة فيها كان قد طلبه (القرضاوي) من قبل من وزارة الأوقاف، ولا يزال حريصًا على استقدامه إلى قطر. ولكن بدت هنا عقبة لم يكن القرضاوي يتوقّعها، ولم تخطر له على بال، وهي أن أستاذه الدكتور البهي رشحه لبلد آخر، هو المملكة الليبية، فقد كان للأزهر هناك معهد يتبعه اسمه: "معهد القويري" بمدينة مصراتة في ليبيا، وكان شيخ هذا المعهد يعيّن من الأزهر، ويكون رئيسًا للبعثة الأزهرية، وكان الأزهر هو الذي يدفع رواتب المبعوثين إلى ليبيا. وكان رئيس البعثة الأزهرية في ليبيا على غير هوى الدكتور البهي، وهو

١ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٣٥٢ - ٣٥٣

٢ المرجع السابق، ص ٣٥٧

٣ المرجع السابق، ص ٣٥٧ - ٣٥٨

محسوب على الشيخ المشد، وقد أرسل إليه الدكتور البهي بتعليمات فلم ينفذها كما ينبغي، لذا أراد الدكتور البهي أن يتخلص من هذا الرجل، ويبحث مكانه شخصًا يعتقد أنه سليمًا مكانه وزيادة، وسيكسب رضا الشعب الليبي وثناءه، فلأجل ذلك حرص على أن يرشحه (القرضاوي) لهذا المنصب.

ولكنه اعتذر (القرضاوي) برفقٍ لأستاذه الدكتور البهي، وقال له: إن بعثة ليبيا لا تنفعه بحال، لأن رواتب مبعوثيها من الأزهر، وهو يعطي ثلاثة أمثال الراتب، والقرضاوي هو ما زال في أوائل الدرجة السادسة، ورواتبه جدّ محدود، فمعنى هذا: أن راتبه سيكون نحو سبعين جنيهًا!! قال الدكتور: هناك علاوةٌ لرئيس البعثة.

قال القرضاوي: هب! أنه صار مائة جنيه، فماذا ينفعني هذا؟ وما أنفق منها؟ وماذا يبقى لي؟ وكان منطقي قويًا مُبرّرًا، فلم يملك أمامه الدكتور أن يقول شيئًا، ولكنّه يظهر - والله أعلم - أنه تأثر بهذا الموقف منّي، أنه كان يتوقع أن أستجيب له فيما أراد، وخصوصًا بعدما قدّم لي من إكرامات في صور شتى. ولكن كانت هذه البعثة غير ملائمة للقرضاوي على كلِّ المُستويات، ابتداءً من المُستوى الماليّ، ثم هي في بلد ليس عاصمة البلد الي سيذهب إليه، ثم ما ذنب القرضاوي هو أن يدخل في تصفية حسابات بين الدكتور البهي والشيخ المشد، وعلاقة القرضاوي بكلّ منهما في غاية الجودة؟^١

ولقد حضر إلى مصر في الإجازة الصيفيّة الشيخ عبد الله بن تركي من قطر، وقابل القرضاوي وأحمد العسال، وكان لقاءً علميًا حيًا، طرّقوا فيه موضوعات في العقيدة والفقه والتربية، وسرّ به الشيخ ابن تركي، وطلبهما رسميًا من الأزهر.

المسألة السادسة عشرة: منعه من السفر إلى قطر

ومضى القرضاوي الأيام ويتخذ الإجراءات للبعثة، ويهيئ الأسباب للسفر القريب، واستخرج جواز السفر له وللعائلة، ولكن فوجئت له عقبه بما لم يكن في الحسبان، فقد مضت أمور أحمد العسال بلا عقبات ولا اعتراض من أحدٍ، أمّا هو القرضاوي فقالوا: أن جهات الأمن معترضة عليك.^٢ وسأل القرضاوي لهم عن سبب الاعتراض، فلم يجد جوابًا، وطلب القرضاوي من الدكتور البهي أن يسأل مكتب السيّد عليّ إمبابي الذي كان دائم الصلّة بمكتب الدكتور البهي، وكانت إشارته حكمًا، وطاعته غنمًا، وتوجيهاته لا تردّ ولا تناقش، وكلّ هذا لم يجد شيئًا. وظلّ الشيخ عبد الله بن تركي يرسل البرقيات تلوّ البرقيات لتسهيل إعارته إلى حكومة قطر، ولا من سميع أو مجيب.

وقد أخبر القرضاوي بعض الرجال في إدارة الأزهر، ممّن لهم صلّات بجهات الأمن: أن الذي حال بين القرضاوي وبين السّفَر إلى قطر هو الدكتور البهي نفسه، أنه هو الذي أوعز إلى جهات الأمن أن تمنعه، وذلك عندما سأله رجال الأمن: هل تضمنه؟ فكان جوابه: لا. وأن الدكتور البهي فعل ذلك، عقوبة له على رفض القرضاوي الاستجابة لرغبته في الذهاب إلى ليبيا شخصًا لمعهد القوييري هناك.^٣

١ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٣٥٩

٢ المرجع السابق، ص ٣٦٠

٣ المرجع السابق، ص ٣٦٠

المسألة السابعة عشرة: قطر تواصل الإرسال في طلب القرضاوي من مصر

في خلال هذه السنة الدراسية (١٩٦٠م - ١٩٦١م) لم تنقطع رسائل وزارة المعارف في قطر عن طلبه من الحكومة المصرية، وبخاصة أن فضيلة الشيخ عبد الله بن تركي مسئول العلوم الشرعية في المعارف، والمسئول عن التعاقد مع علماء الأزهر في مصر، لم يكف عن إرسال البرقيات إلى الأزهر، وإلى السيد حسين الشافعي - عضو مجلس الثورة - والمشرف على الأزهر في ذلك الوقت، يطلب فيها "فك الخطر" عن القرضاوي، والسماح للقرضاوي بالسفر إلى قطر.^١

ونظرًا لكثرة البرقيات وإلحاحها؛ شرع مكتب حسين الشافعي يحقق في أمر منعه، وأسبابه، وانتهى إلى إلغاء قرار المنع، والسماح للقرضاوي بالسفر إلى قطر، ابتداءً من العام الدراسي القادم (١٩٦١م - ١٩٦٢م). وفي ١٢/٩/١٩٦١م سافر القرضاوي إلى قطر مديرًا لمعهدنا الديني الثانوي، ليبدأ هناك مرحلة جديدة من مسيرة الحياة.

المسألة الثامنة عشرة: الاستعداد للسفر إلى قطر

بعد أن وافقت الجهات الأمينة في مصر على سفر القرضاوي معارًا إلى قطر، انزاحت العقبة الكأداء التي كانت تقف في طريقه دائمًا.^٢ بقي عليه أن يعدّ العدة للسفر إلى قطر؛ فالسفر إلى قطر ليس سفرًا لعدة أيام أو أشهر له، كما كانت سفرته السابقة إلى بلاد شام، ولكنه سفر إغارة لمدة أربع سنوات، قد تمدّ فتصبح خمس سنوات أو ستًا. فهو "سفر اغتراب" يلزم المسافر أن يتهيأ له بما يناسبه.

ثم إنه سفر له ولعائلته معه، وكانت عائلته تتكوّن من زوجته وابنتي الصغيرتين: إلهام، وهي لم تكمل الستين، وسهام، وهي تقرب من إكمال السنة. فكان على القرضاوي أن يعدّ جواز السفر، ولم يعدّ هناك عقبة في استخراجها.

المسألة التاسعة عشرة: استدعاء المباحث العامة

ومن المفاجآت التي أزعجته قبل السفر: استدعاء المباحث العامة له في وزارة الداخلية في "لاظوغلي" بالقاهرة، وكان الذي استدعاه هو الرائد أحمد راسخ "اللواء منذ سنوات" المسئول عن إخوان القاهرة خاصة، بالمباحث العامة وقد استقبله بلطف ونعومة. وقال له: أريد أن تتعاون معنا من أجل مصلحة البلد. قال الأستاذ القرضاوي له: كلنا جنود من أجل مصلحة الوطن، ولكنني معار لعمل هناك. وأنتم حدّرتونا أن نشتغل بالسياسة، فلم لكم تريدون أن تعيدونا إليها؟^٣

المسألة العشرون: الوصول إلى الدوحة وحرّ الخليج

كان سفر الأستاذ يوسف القرضاوي بطبيعة الحال بالطائرة، وقرؤوا أدعية السفر والركوب المأثورة، وحفظها لزوجته لتقرأها معه. ووصلوا الدوحة الساعة التاسعة مساءً، وعندما فتح باب الطائرة لينزلوا منها: فوجئوا لأول مرّة بهذا اللهيّب الذي يستقبلهم، وهذا الجوّ الخانق المشبع بالرطوبة والبحار، الذي لم يكن لهم عهد به، وإذا كان هذا هو الحال في الساعة التاسعة مساءً، فماذا يكون الحال في الهجرة والشمس في كبد السماء؟^٤ وكان في استقبالهم بعض الإخوة الأصدقاء، منهم الشيخ محمد مصطفى الأعظمي، العالم الهندي الذي يعمل أمينًا لمكتبة الدوحة، والأخ الشيخ عبد اللطيف زايد، الذي يعمل في وزارة المعارف منذ سنين. والأخ أحمد العسال.

١ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٣٦٦

٢ المرجع السابق، ص ٣٦٧

٣ ملخص ما قال في الجريدة اليومية المسّمي بـ"الأهرام" الموافق ٨ أكتوبر، سنة ١٩٦١م.

٤ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، المرجع السابق، ص ٣٧٢

وأعطوهم حجرة ليناموا فيها هو وزوجته وابنتان، وكانت الغرفة ذات المكيف، وعندما أراد القرضاوي النوم قال لهم: هل ننام وهذا المكيف يزعجنا بصوته، وإنه لا يمكنه أن ينام وهو يسمع أي صوت؟ قالوا: جرب وأغلقه. وجرب القرضاوي وأغلق المكيف، فلم تمر دقائق حتى بدأ الجو يسخن، ثم يسخن، وقال: مستحيل أن ينام في هذا العرق!

وكان وصوله إلى الدوحة في غرة ربيع الآخر سنة (١٣١٨هـ) الموافق ١٢ (١٩٦١/٩م) الثاني عشر من شهر سبتمبر "أيلول" سنة واحد وستين وتسعمائة وألف. ولم يكن يعرف من أهل قطر غير رجلين: أحدهما الشيخ عبد الله بن تركي، مفتش العلوم الشرعية، والآخر الشيخ سحيم بن حمد آل ثاني.

المسألة الحادية والعشرون: البحث عن مسكن ملائم من مساكن الحكومة

بدأ منذ الصباح يبحثان عن سكن مناسب له هو والعسال، بحيث يكونان متجاورين، وكانت وزارة المعارف تسلّم المدرسين سكنًا مؤقتًا، تشرف عليه إدارة الإسكان الحكومي. وبعد أن رأيا عدة شققٍ اختريا شقتين متجاورتين في بيت من أربع شققٍ مكون من طابقين، أخذ القرضاوي والعسال الشقتين العلويتين، وكان البيت ملك الشيخ ابن تركي. وقد قضيا في هذا البيت أربع سنوات.^١ وكان عليهما أن يجهزا البيت بما يلزم من وسائل العيش: من السكر والأرز والسمن والزيت والملح والبصل وغير ذلك. ولم تكن لديهم سيارة، كما لا يعرفان البلد، فكان الإخوة القدامى يساعدهما في إحضار هذه الأشياء.

المطلب الثاني: عمليّاته في بلاد قطر

وهذا المطلب يشتمل على ثماني عشرة مسألة، وتفصيلها كما في التالي:

المسألة الأولى: تسلّم العمل بالمعهد الديني

وقد كان اتفاق الشيخ ابن تركي مع القرضاوي منذ التقيا في مصر، على أن يتسلّم إدارة المعهد الدينيّ الثانوي في قطر، خلّفًا عن مديره السابق فضيلة الشيخ الدكتور عبد الغني الراجحي، الذي تسلّم إدارته لسنة واحدة، هي كلّ عمر المعهد الناشئ.^٢

وقد عيّن براتب قدره ١٤٧٥ روبية "أول راتب السنيار" ورغم أنه مدير لم يكن له راتب المدير، ولا بدل الإدارة، مثل مدير مدرسة الصناعة مثلاً. ولكنّه رضي القرضاوي بهذا، فقد كان خيرًا وفضلًا من الله ونعمة.^٣

في أوّل يوم من أيّام دوامه بالمعهد الدينيّ - (٤/٤/١٣٨١هـ - ١٥/٩/١٩٦١م)، وكان مبنى صغيرًا قديمًا أزيل وبني مكانه رئاسة المحاكم الشرعية القديمة، والتي احتلّ مكانها الآن "صندوق الزكاة" - كان أوّل من زاره رجب مهيب الطلعة، بشوش الوجه، باسم الثغر، دخل على القرضاوي مكتبه وصافحه بحرارة، وقال أنا أخوك عبد الله بن إبراهيم الأنصاري من طلبة العلم. وعرف الشيخ القرضاوي بعد ذلك أن الشيخ الأنصاري من علماء الدين المعدودين في قطر، وأنه أحد العبادلة الثلاثة من أهل العلم: أوّلهم: عبد الله بن زيد المحمود، قاضي المحكمة الشرعية. وثانيهم: عبد الله بن تركي، وثالثهم: عبد الله الأنصاري. وكان الزائر الثاني في نفس اليوم هو الشيخ عليّ بن سعود بن ثاني آل ثاني، الذي كان وصله كتاب القرضاوي: "الحلال والحرام في الإسلام"، وكان يقرأ الكتاب، وهو مُعجّب به. وزار القرضاوي الشيخ قاسم بن حمد، وكان المسئول عن التعليم في قطر، وزير المعارف.

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٣٧٤

٢ المرجع السابق، ص ٣٧٥ - ٣٧٦ بالاختصار

٣ تحويل من مقابلة الشيخ الأستاذ القرضاوي من قِبَل "قناة الجزيرة"، في قطر، الموافق ١٦/١٠/٢٠١٠م.

المسألة الثانية: مشكلات المعهد الجديد في قطر

أودَّ القرضاوي أن يعطي فكرة عن المعهد الذي تسلّم إدارته؛ لقد أنشئ هذا المعهد في سنة ١٩٦٠م في قطر، أي قبل أن أوتيه بسنة واحدة، وأنشئ من صقّين أو فرقتين: الصفّ الأوّل، والصفّ الثاني، وكان هؤلاء الطلاب في الصقّين، هم أصلاً من تلميذ معهد ديني ابتدائي أنشئ قديماً، وكان مديره الشيخ عبد الله الأنصاري، ثمّ رأيه إغلاقه، وحول طلابه، وحول طلابه إلى مدرسة صلاح الدين.

فلمّا أراد القرضاوي إنشاء معهد ثانوي - بدل المعهد الابتدائي القديم - جيء بالطلاب القدامى ليكونوا نواة المعهد الجديد. فنشأ منهم المعهد بصقّيه الأوّل والثاني حسب مستواهم الدراسي الذي كانوا عليه.^١ وكانت فكرة المعهد قائمة على أساس أنه "معهد ثانوي" على غرار معهد الأزهر الثانويّة القديمة، على النظام الذي درّسوه هم في أيامهم. ومدة الدراسة فيه خمس سنوات. ويدرس الطلبة في هذا المعهد ما كان يدرّسه طلاب المعاهد الثانويّة قديماً في الأزهر قبل قانون تطوير الأزهر ومعاهده.

وكان هذا التصوّر للمعهد في قطر خطأ جذرياً؛ لأنه بني على أساس غير سليم، من الناحية العلميّة والموضوعيّة والواقعيّة:

أولاً: لأن المعهد الثانوي في الأزهر مؤسس على مرحلة ابتدائيّة سابقة مدّتها أربع سنوات، مدّتها أربع سنوات، درس الطالب فيها النحو أربع مرّات: في "شرح الأجروميّة"، و"شرح الأزهرية"، و"شرح قطر الندى"، و"شرح شذور الذهب"، ثمّ درس الصرف في كتاب: شذا العرب في فنّ الصرف". ثمّ درس فقه العبادات في السنة الأولى، ودرس الفقه كلّ في السنوات الثلاثة، وتأسس الطالب في العلوم الشرعيّة والعربيّة تأسيساً قوياً مكيناً. وأما طالب معهد قطر، فقد جاء من المدارس الابتدائيّة التي لم تؤهله هذا التأهيل المطلوب؛ ولهذا كانت المقرّرات التي تدرس للطلاب في معهد قطر غير مناسبة إطلاقاً، وفوق مستوى الطلاب بمراحل.

وثانياً: لأن الأزهر غير مناهجه، وأدخل اللغة الأجنبية ابتداءً من أوّل سنة، كما زاد من كمّ العلوم الطبيعيّة والرياضيّة التي كانت تسمّى: "العلوم الحديثة". وسمّى الأزهر المرحلة الابتدائيّة: "المرحلة الإعداديّة"، أمّا الثانويّة فبقيت على الاسم القديم.^٢ وهذا ما دعا القرضاوي إلى التفكير بعمق في تغيير وضع المعهد كلّ، ورسم صورته من جديد. وقد فوجئ بمشكلتين واجهتا القرضاوي في المعهد من أوّل يوم.

المشكلة الأولى: طلب سحب أوراق الطلاب من المعهد

أن ثلاثة طلاب من الصفّ الثاني في المعهد جاءوا، وفي يد كلّ منهم طلب سحب أوراقه من المعهد. قالوا: الدراسة في المعهد لا تناسبهم. قال الشيخ القرضاوي لهم: وما الذي لا يناسبكم؟

قالوا: لا ندرس إلا ثلاثة حصص في اللغة الإنجليزيّة، ولا ندرس من العلوم ما يكفي، وندرس في الشرعيّة والعربيّة كتباً في غاية الصعوبة. قال الشيخ القرضاوي لهم: أنا معكم في هذا كلّ، وأعدكم أن هذا كلّ سيتغيّر، اصبروا عليّ عدّة أسابيع وسترون ما أقوله صحيحاً.^٣ وقد اقتنع هؤلاء الطلاب الثلاثة، وكانوا سبباً في في إقناع عدد آخر من زملائهم كانوا ينوون سحب أوراقهم.

١ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٣٧٩ - ٣٨٠

٢ المرجع السابق، ص ٣٨١

٣ المرجع السابق، ص ٣٨١ - ٣٨٢

المشكلة الثانية: لم يتقدّم طالب للصفّ الأوّل بالمعهد

أشدّ وأنكى من الأولى؛ فالأولى: كانت انسحاب القديم، والثانية: أن لا جديد. ذلك أن القرضاوي لم يجد طالبًا واحدًا تقدّم للالتحاق بالصفّ الأوّل بالمعهد. كلّ ما هنالك أن طالبًا لم يدخل الامتحان في العام الماضي فأعاد السنة، فهذا هو الاسم الوحيد الموجود على قائمة الصفّ الأوّل. وبدأ الشيخ القرضاوي يتهيأ لمواجهة هذه المشكلة العاجلة. فكتب نشرة توزّع على نطاق واسع في المساجد، تبين أهمية الدراسة الدينية والتفقه في الدين، وأنه واجب على كلّ مجتمع أن يهيئ من أبنائه فئة تتفقه في الدين، حتّى إذا سئلوا أفتوا بعلم، وإذا قضاوا بالحق، وإذا دعوا إلى الله دعوا على بصيرة، حيث قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [١٢٢].^١

وفعلا ذهب الأستاذ القرضاوي مع الشيخ ابن تركي إلى الشيخ خليفة، فحياه الرجل ورحّب به، وقال له: سمعنا عنك قبل قدومك، وأرجو أن تجد في قطر وطنك الثاني، وشكر القرضاوي على المحاملة الطيبة. وقال له: يا طويل العمر، أريد أن أشرح لكم موقف المسلمين من العلم الديني طوال العصور الماضية، فقد وقفوا عليه الأوقاف، والصدقات الجارية، ليستمرّ علم الشرع موصولاً متوارثاً جيلاً بعد جيلٍ، فهو فرض كفاية على الأمة، إذا قام به عدد كاف يلي الحاجة، رفع الحرج عن الأمة، وإلا أثمت الأمة كلّها.

المسألة الثالثة: عودة إلى تطوير المعهد

في هذه الفترة (سنة ١٩٦١م) بدأ القرضاوي أعدّ العُدّة لتصحيح النظرة إلى المعهد، وتطويره، تطويراً يساعد أبناءه على أداء رسالتهم الدينية والدنيوية. وبدأ تصحيح النظرة بإلغاء اعتبار المعهد مرحلة ثانوية مدتها خمسة سنوات متصلة، إذ ليس قبلها مرحلة ابتدائية كمعاهد الأزهر.^٢

المسألة الرابعة: تقسيم المعهد إلى مرحلتين إعدادية وثانوية

وبدأ له أن يقسّم المعهد إلى مرحلتين: إعدادية وثانوية. كلّ مرحلة منهما ثلاث سنوات، مثل مراحل التعليم العام. يدرس الطالب في المرحلتين ما يدرسه الطالب في التعليم العام تقريباً، إلا ما ضرورة إليه ممّا يوفّر لهم بعض الحصص ... وتدرّس الكتب المقرّرة على الإعدادي والثانويّ في العلوم الرياضيات والمواد الاجتماعية، واللغة الإنجليزية ونحوها. وفي الثانوي تدرس مناهج القسم الأدبي.^٣

على أن يزيدوا الجُرعات التي يأخذها الطالب من العلوم الشرعية والعربية. وهنا لا بُدّ أن يبذلوا جهداً في تيسير هذه العلوم وتقريبها بحيث لا يرهقون الطالب بتعقيدها. ولا بُدّ من تقرير الكتب المناسبة لذلك. وقد يضطرّهم هذا أن يزيدوا حصّتين في الخطة الدراسية. ومعنى هذا: أن عليهم أن يهيئوا الطالب في الصفّ الثالث بالمعهد هذا العام لامتحان الشهادة. وحصول الطالب على هذه الشهادة سيشعره بأنه قطع مرحلة دراسية مهمة، وحصل على شهادتها. وكلم الأستاذ القرضاوي الشيخ عبد الله بن تركي في هذا التغيير، ورحّب به ووافق عليه، وقال علينا أن نقابل مدير المعارف وتقنعه بهذا الأمر. وكان مدير المعارف هو الأستاذ الدكتور عبد الرحمن عطبة، وقد كان مفتشاً للغة العربية، وكان القرضاوي قد لقيه في القاهرة في الصيف لقاءً عابراً، وكان الأستاذ محمّد المبارك أوصاه به. فذهب إليه، وشرح له فكرته، فشدّ على يد القرضاوي، وشجّع على سرعة التنفيذ.

١ القرآن الكريم، التوبة (٩)، الآية [١٢٢].

٢ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٣٩٢

٣ المرجع السابق، ص ٣٩٣

المسألة الخامسة: بروز المعهد الديني

كان المعهد الديني - على حداثة سنه وعلى صغر حجمه - يمثل نموذجًا حيًا للجمع بين القديم والحديث، أو الأصيل والمعاصر. وكان طلابه نماذج حيّة للاجتهاد في التحصيل وحسن الفهم، والالتزام الديني والخلقي. وكان الطلبة يتنافسون فيما بينهم في التفوق العلمي، والنشاط المدرسي، والسلوك الأخلاقي. وكانوا في كل عام دراسي يختارون "الطالب المثالي" الذي يبرز في العلم والنشاط الطلابي، وحسن العلاقة مع أساتذته وزملائه، يشترك في اختياره الطلاب والأساتذة والإدارة.

كان الشيخ القرضاوي يطلب في بعض الأحيان من المدرسين: أن يؤدي درسًا نموذجيًا، يعده بأناة وتؤدة، ويحضره القرضاوي ويحضر زملاؤه من الأساتذة، ليدونوا ملاحظاتهم عليه: في مادته وفي طريقته وفي شخصيته. استفادة مما تعلموه في التربية العملية في تخصص التدريس.^١ وكان من المأخذ التي أخذها الشيخ القرضاوي على بعض المعلمين: أن أحدهم لا يحضر دريه جيدًا، فإذا دخل الفصل فرغ من درسه في دقائق، وبقي حائرًا، وكان أحدهم بملأ هذا الفراغ بحديثه عن الإسلام، والدعوة الإسلامية. فلقت القرضاوي نظره إلى ذلك. وقال له: الإسلام الذي تتحدث عنه يوجب عليك أن تهتم بإعداد درسك، وأن تتعب في ذلك حتى تفيد طلابك، وتؤدي حق المرتب الذي تقبضه آخر الشهر. وقد كان الطلاب ملّوه، بل كرهوا حديثه عن الإسلام الذي يعطي به فشله وإخفاقه.

وتبّه الأستاذ القرضاوي المدرسين في الاجتماعات الدورية التي كانوا يعقدها: أن يحرصوا على الكلام الفصحي حتى يفهموا، وأن يجتنبوا الكلام بالعامة، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [٤]﴾.^٢ ولسان قومهم هنا هو الفصحي من غير شك.

المسألة السادسة: كتب جديدة للمعهد

وفعلا شرع القرضاوي في التنفيذ، فغيّر الكتب المقررة من قبل على الطلاب، وطلب كتبًا جديدة، منها: كتاب - "النحو الواضح" للأستاذ علي حازم، والأستاذ مصطفى أمين بأجزائه ومستوياته الثلاثة، وألغى دراسة المنطق والبلاغة، أو قل: أجّلها إلى الثانوي، حسب التيسير.

وقرر القرضاوي تغيير كتاب الفقه من "الروض المربع" إلى كتاب "منار السبيل شرح الدليل"، وهو كتاب سلس سهل العبارة، يهتم بالأدلة، وأن يدرس نصف الكتاب في المرحلة الإعدادية، ونصفه في المرحلة الثانوية.^٣ وكان هذا التطوير المقابل لتطوير الأزهر، إلا أن الأزهر طوّز العلوم الحديثة، ولم يمس العلوم الشرعية والعربية القديمة، فبقيت على حالها. واضطرّ الأزهر أن يبقي سنوات الدراسة كما هي: أربع سنوات للإعدادي، وخمس سنوات للثانوي. أي أنها أزيّدت من التعليم العام بثلاثة سنوات.

وقد اضطرّ الأزهر بعد سنوات وسنوات أن يقترب منهم في قطر، ويختصر بعض السنوات في المرحلتين. استبشر طلاب المعهد بالتغيير الذي حدث، وأقبلوا على الدراسة بالمعهد بحماسة وحرص.

١ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٤٢٢

٢ القرآن الكريم، إبراهيم (١٤)، الآية [٤].

٣ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٩٤

المسألة السابعة: تأليف كتب حديثة في العلوم الشرعية

كان من أهل الأحداث التي انتهت بها هذه السنة الدراسية (١٩٦٢م - ١٩٦٣م): صدور القرار من مدير المعارف الأستاذ كمال ناجي، بتأليف عدد من الكتب في العلوم الشرعية، ولا سيّما في الفقه والتوحيد، لسنوات المرحلة الإعدادية الثلاث، والسنة الأولى الثانوية، وتشكيل لجنة لذلك برئاسة فضيلة الشيخ عبد المعز عبد الستار، وعضوية: يوسف القرضاوي، وأحمد العسال، وعليوة مصطفى، وأشار القرار بأن يفرغوا لهذا العمل في إجازة الصيف السنوية.^١

وكانوا قد لاحظوا منذ قدومهم إلى قطر: أن الكتب المقررة على الطلاب لا تناسبهم وقد قُررت اعتباطاً، وليس بناءً على رؤية أو دراسة. أمّا كتب المعهد الديني، فقد تولّى القرضاوي تغييرها بأخرى ملائمة، وقد وُفّق عليها، وطفّق الطلاب ينتفعون بها، مثل: "منار السبيل" في الفقه، وإن بقي "علم التوحيد" يدرّس في مذكرات غير ملائمة.

وأما كتب المرحلة الإعدادية والثانوية العامة، في العلوم الشرعية، فلم تكن مناسبة بالمرّة، فقد ظنّ الذين قرروها أن المدار على الكم على الكيف. فإذا كان الكتاب صغير الحجم كان مناسباً، وإن كان مُلغزاً من ناحية الفهم. وكان الكتاب المقرر في الفقه، اسمه "أخصر المُختَصَرَات". ولذلك تحدّثوا مع الشيخ عبد الله بن تركي في ضرورة تصنيف كتب معاصرة تخاطب الطلاب بما يفهمون، وتستخدم لغة العصر، ومقادير العصر "في الصاع، والوسق، والأوقية، والدرهم، والدينار، وغيرها".

وكذلك في عرض عقيدة التوحيد وشرحها والتدليل عليها، واقتنع الشيخ بما عرضه، وساعد في إصدار هذا القرار الذي كان أوّل قرار من نوعه في بلاد الخليج كلّها. وجاءت إجازة الصيف، فسقّر القرضاوي وبناته إلى القاهرة، ليظلّ متفرغاً لهذا العمل الذي نيّط بهم في حُرّ قطر المعهود، وفي ظلال التكيف المعتاد.

وقد قسّموا العمل على أنفسهم، وإن كانوا مسئولين عنه مسئولية تضامنية.
فأخذ الشيخ عليوة مصطفى: الفقه والتوحيد للصفّ الأوّل الإعدادي.
وأخذ الشيخ أحمد العسال: الفقه والتوحيد للصفّ الثاني الإعدادي.
وأخذ الشيخ يوسف القرضاوي: الفقه والتوحيد للصفّ الثالث الإعدادي.^٢
وأخذ الشيخ عبد المعز عبد الستار: الفقه والتوحيد للصفّ الأوّل الثانوي.
وكان فقه الثالث الإعدادي يتضمّن: فقه الأسرة، وفقه المعاملات.
كما كان التوحيد الثالث الإعدادي يتضمّن: الإيمان بالكتب والرسل (النّبوات).

وكان توفيق الله تعالى مصاحباً لهم، فأجزوا الكتب المطلوبة، في شهر الصيف الثلاثة، أشهر العطلة. وبَيَّضُوهَا، وأعدّوها لِلطَّبَاعَةِ. وسارعت الوزارة فأمرت بِطِبَاعَتِهَا جميعاً. وأصبحت هذه الكتب الجديدة مثلاً يحتذى في أقطار الخليج. ويألفون كتباً في مقرّر "البحوث الإسلامية"، وهو مقرّر لا ينتمي إلى علم من العلوم الشرعية المعروفة، من فقه أو تفسير أو حديث، بل يقدم بحوثاً إسلامية في موضوعات ثقافية، يحتاج إليها المجتمع، ويوحى بها منطلق العصر.

١ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٥١٣ - ٥١٤

٢ المرجع السابق، ص ٥١٦

وقد قسّموها أيضاً على أنفسهم، فاختار القرضاوي أن يكتب في بحوث "السنة الأولى" الثانوية، وأحمد العسال اختار بحوث السنة الثانية، وعبد المعز عبد الستار اختار السنة الثالثة. وقد أُجِّزَتْ بحمد الله، وحازت الرضا والقبول. وقد اجتهد الدكتور عزّ الدين أن يراعي في هذه الكتب كلّ المتطلّبات العلميّة والدينيّة والتربويّة والاجتماعيّة و السياسيّة بدقّة وأمانة وإتقان. وظهرت مجموعة كتب في القراءة والنصوص متميّزة في موضوعها وشمولها وتنوّعها وتوازنها وأسلوبها، كانت نموذجاً يحتذى في المنطقة. وقد اختير للقرضاوي في أحد كتب المرحلة الإعداديّة فقرات من نشيد "مسلمون، مسلمون"، وفي كتاب آخر فقرات من كتابه "العبادة في الإسلام". كان الذي اختار نشيد: "مسلمون" هو الدكتور عزّ الدين نفسه. وكان الذي اختار فقرة العبادة هو الشيخ داود حمدان.

المسألة الثامنة: كيف كان الأستاذ القرضاوي باعتبار المدير والمعلّم أو المدرّس؟

كان الأستاذ الدكتور القرضاوي يدرّس نفساً بعض الموادّ بالمعهد في قطر، وقد لمسَ فيهم ذكاء وانتباهاً وتجاؤباً كبيراً. وشارك الطلبة في أنشطة ثقافيّة واجتماعيّة، وأبلوا فيها بلاءً حسناً، وبرزوا فيها، بل تفوّقوا على كثير من زملائهم، وصدّق القرضاوي وعده للطلبة بالتغيير إلى الأحسن، وقد كان.

وبعد أشهرٍ دخلتْ أوّل دُفْعَةٍ من طلبة المعهد امتحان الشهادة الإعداديّة، ونجحوا جميعاً، وجلّهم - إن لم يكن كلّهم - من الناجحين المتفوّقين، الذين صاروا بعد ذلك وزراء أو سفراء، مثل: عبد العزيز بن عبد الله تركي، ومحمّد سالم الكواري من قطر، ومحمّد عبد الرحمن البكر من الإمارات.

وكان عدد من المدرّسين مثبّتين، وعدد آخر ينتدب من المدرسة الإعداديّة الثانوية، مثل: مدرّس العلوم والرياضيّات والموادّ الاجتماعيّة والإنجليزيّة... ولم يطلب القرضاوي تغيير أحد من المدرّسين الذين كانوا بالمعهد من قبل، وإن كان له ملاحظات على بعضهم، ولكن قال بالتوجيه يمكن أن يتحسنوا ويتطوّروا، وإلا طلب التغيير، وقد كان.

المسألة التاسعة: كيف كان الشيخ القرضاوي يدير المعهد؟

كان الشيخ القرضاوي يدير المعهد بالهيبة والمحبة، ولم يضطر أبداً إلى استخدام العنف أو العقوبة مع أستاذ أو تلميذ. إلا مرّة واحدة.^١

المسألة العاشرة: امتحان الثانوية بالمعهد

وفي هذه السنة الدراسيّة (١٩٦٤م - ١٩٦٥م) عقد أوّل امتحان للشهادة الثانوية لطلاب المعهد الدينيّ، وكانت مجموعة متميّزة فيهم: عبد العزيز عبد الله تركي، وعبد الرحمن المولودي، ومحمّد عبد الرحمن البكر، وغيرهم. وقد سبقهم زميلهم محمّد سالم الكواري، الذي درس سنتين في سنة، وكان النظام يسمح بذلك، ثمّ أصبح في السنة الثالثة يداوم في فصول الثالث الثانوي الأدبي في مدرسة الدوحة الثانوية، وامتحن معهم فيما عدا علوم الدين واللغة. وكان هو "دُفْعَةٌ" وحده من طلبة المعهد.^٢

وكانت الشهادة الثانوية العامّة توضع أسئلتها في مصر، وبعد الامتحان ترسل أوراقها إلى القاهرة سنويّاً، لتصحّح هناك، ثمّ تعاد إلى قطر، وظلّ هذا معمولاً إلى أن أسّست كليتا للبنين والبنات، نواة لجامعة قطر، فاستقبلت قطر بأمر الشهادة كلّه أسئلة وتصحيحاً واعتماداً. أمّا المعهد الدينيّ، فكانت أسئلته توضع في قطر، وأوراقه تصحّح في قطر، من أوّل يوم.

١ القُرْضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٤٢٤

٢ المرجع السابق، ص ٥٤٢

المسألة الحادية عشرة: السنة الدراسية ١٩٦٦م - ١٩٦٧م

عاد الشيخ القرضاوي إلى قطر بعد قضاء الإجازة في "الخليل" وبأشر عمله المعتاد في إدارة المعهد الديني، والمشاركة في النشاط الديني والثقافي العام في قطر. ومضى الأيام في أعنتها، يصبح الصباح، وبمسي المساء، وتشرق الشمس وتغرب، ويعمل الليل والنهار في عمر الإنسان لا يتوقفان، ييليان كل جديد، ويقربان كل بعيد.^١

المسألة الثانية عشرة: إنشاء كليتي التربّي في قطر

في السنة الدراسية ١٩٧٢م - ١٩٧٣م كانتا كليتا التربية للبنين والبنات على وشك الإنشاء في قطر، نواة لجامعتها المنشودة، وقد أخذ المشروع وقتاً كافياً في الدراسات والمناقشات والتهيئة والإعداد، وعقدت اجتماعات شارك الشيخ القرضاوي في بعضها، وشارك فيه عدد من الأكاديميين والتربويين، منهم: الأستاذ الدكتور محمد الشبيني، ومنهم: صديق القرضاوي الدكتور يوسف عبد المعطي، الذي يعمل من زمن طويل في الكويت، ومنهم من قطر: الدكتور كمال ناجي، والدكتور أحمد رجب عبد المجيد، والأستاذ عبد العزيز تركي، وآخرون.

وقد وقع الاختيار على المرّي الكبير الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم كاظم، عميد كليّة التربية بجامعة الأزهر، ليكون عميداً للكليّة، أو قل: للكليتين، وكان الذي رشحه لذلك هو الدكتور كمال ناجي، مدير المعارف في قطر، بناءً على تزكية من الدكتور عبد العزيز كامل، الذي يعرفه معرفةً جيّدةً.

ورأي الجميع أن هذه فرصة لتحسين وضعي المادّي والأدبي، وأن كان الشيخ القرضاوي لم يحصل على الدكتوراه بعد، وبخاصّة أن الكليّة سيكون فيها قسم للدراسات الإسلاميّة، وكلّم القرضاوي الشيخ خليفة في الأمر، فأصدر قراراً بتعيينه (القرضاوي) في الكليّة رئيساً لقسم الدراسات الإسلاميّة بدرجة أستاذ مساعد "أستاذ مشارك" في مصطلح بعض الجامعات، وهذا مع بقائه مديراً للمعهد الديني، إلى عمله الجديد، وكان رقمّ وظيفته في الكليّة رقمّ "٦" بعد التعاقد مع الدكتور كاظم وأربعة آخرين معه.^٢

المسألة الثالثة عشرة: كليتا التربية في قطر

في السنة الدراسية ١٩٧٣م - ١٩٧٤م، رأى المسؤولون في قطر: أن يبدؤوا تعليمهم العالي أو الجامعي بإنشاء كليتي التربية بأقسامها المختلفة: العلميّة والأدبيّة، وبهذا تكون الكليّة كأنما هي نواةً لجامعة مكتملة.^٣ ففي الأقسام العلميّة يوجد في وقتئذٍ: قسم الفيزياء، وقسم الكيمياء، وقسم الحيوان، وقسم النبات، وقسم الجيولوجيا، وعلوم البحار، وقسم الرياضيات. وفي الأقسام الأدبيّة يوجد في وقتئذٍ: قسم الدراسات الإسلاميّة، وقسم اللغة العربيّة، وقسم اللغة الإنجليزيّة، وقسم الجغرافيا، وقسم التاريخ، وقسم الاجتماع، وقسم علم النفس، وأقسام التربيّة المختلفة.

ونظراً لأن دولة قطر دولة محافظة، ولا يوجد فيها اختلاط في التعليم بين البنين والبنات، فمدارس البنات في جميع مراحلها كلّها مؤنثة من التدريس إلى الإدارة إلى التوجيه، كلّها تقوم بها المرأة، حتى الرئاسة العامّة لتوجيه البنات تقوم عليها امرأة. ومن هنا كان التفكير من أوّل الأمر: أن تنشأ الدراسة الجامعيّة بكليتين: إحداهما للطلاب، والأخرى للطالبات. ولم تنزل الكليّة تنمو رويداً رويداً، حتى صدر

١ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٨٠

٢ المرجع السابق، ص ٢٩٤

٣ المرجع السابق، ص ٣٠٤

القرار الأميريّ بأن تصبح جامعة مكتملة، تشمل أربع كليات: كلية للشريعة والدراسات الإسلامية، وكلية للإنسانيات والعلوم الاجتماعية، وكلية للعلوم، وبالإضافة إلى كلية التربية.

المسألة الرابعة عشرة: ماذا كان القرضاوي يُدرّس؟

كان الشيخ الدكتور القرضاوي في السنوات الأولى يُدرّس لجميع طلاب الكلية وطالبتها: الثقافة الإسلامية، كما يُدرّس لطلاب الأدبيّ العام وطالبتها: فقه السيرة النبوية. كما كان يُدرّس للطلاب المتخصّصين والطالبات المتخصّصات في الدراسات الإسلامية: معظم الموادّ، كان يُدرّس لهم التفسير وعلوم القرآن، والحديث وعلومه، والعقيدة، والفقه وأصول الفقه.^١

حتى أنه أشرفَ على الدفعة الأولى من طالبات قسم الدراسات الإسلامية في مقرّر "التربية العمليّة": في السنة الثالثة، والسنة الرابعة، فلم يكن أساتذته التربية قد اتملوا بحيث يَشُدُّونَ الثُّعْرَاتِ المطلوبة كلّها، وقد عرف المسئولون في الكلية أنه درّس علوم التربية في "تخصّص التدريس"، فكلّفوه أن يُنْهَضَ بِعَبءِ الإشراف على الطالبات، وقَبِلَ ذلك، فكان يزور معهنّ مدارس البنات، وكلّف الدكتور القرضاوي إحداهنّ بتحضير درس نموذجي، لتلقيه في الفصل وتناقشها زميلاتها بعد ذلك، لتعرف نقاط القوة، ونقاط الضعف في درسها. ولقد أفادته بالفعل دراسته القديمة في إجازة التدريس، فقد درّسوا هناك أصول التربية، وطرق التدريس العامة، وطرق التدريس الخاصة، والتربية العمليّة، وجدير بالذكر أن الشيخ القرضاوي حصل في مادة "التربية العمليّة" على ٥٠ من ٥٠ في السنة الأولى، وفي السنة الثانية.

المسألة الخامسة عشرة: توديع المعهد والتفرُّغ لكلّيتي التربية

ظَلَّ الشيخ القرضاوي في السنة الدراسيّة ١٩٧٤م - ١٩٧٥م محتفظًا بوظيفته في إدارة المعهد الدينيّ، جامعًا بينها وبين عمله في كلية التربية في قطر، مع ما يُكلّفه هذا من جُهدٍ وجَهدٍ، فقد كان المعهد جزءًا منه، وهو جزء منه، وكان عزيزًا عليه أن يُودِّعُهُ ويتركه بعد اثني عشر عامًا قضاها في إرساء دَعَائِمِهِ، وإِعلاء بُنيَانِهِ، وكان إخوانه في المعهد يَرْعَبُونَ أن يبقى معهم لمصلحة المعهد وطلابه، والاحتفاظ بما كسب من سُمْعَةٍ طَيِّبَةٍ.

ووقَّع الله تعالى أن يؤدِّي لكلِّ عملٍ منهما حقّه، ولكن كان هذا على حساب صحّته من ناحية، وأمور أخرى مثل: الكتابة والبحث؛ ولذا استخار الشيخ القرضاوي الله تعالى، وتوكّل عليه، وقرّر في هذه السنة الدراسيّة ١٩٧٤م - ١٩٨٧م أن يدعَ المعهد لأحد إخوانه يقوم على إدارته، ورشّح الشيخ القرضاوي لذلك العالم الداعية الشيخ علي محمد جماز، المدرّس بالمعهد رحمه الله، ووافقت الإدارة على ذلك، وقام بواجبه خير قيام، ولا سيّما أن هناك من زملاء الشيخ القرضاوي من يعاونه، مثل: الشيخ عبد اللطيف زايد، والشيخ مصباح محمد عبده، والأستاذ رشدي المصري، وآخرين.^٢

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٣٠٦

٢ المرجع السابق، ص ٣٦٣

المسألة السادسة عشرة: نظام الكلية

عاد الشيخ القرضاوي إلى كلية التربية - أو كليتي التربية - وقد زادت السنة، فأصبح الطلاب والطالبات الذين نجحوا فيها في السنة الثانية، وإن كان نظام الكلية لا يحسب بالسنوات، ولكنه يحسب بالساعات المكتسبة. وكان على الطلاب أن يكتسب ١٤٤ ساعة من مدته دراسته، وهي في الغالب موزعة على ثمانية فصول دراسية، كل فصل ١٨ ساعة، ومن شعر بصعوبة هذا المقدار من الساعات عليه، يمكنه أن يأخذ أقل، ويقضي بالجامعة مدة أطول، ومن أراد أن يأخذ أكثر فلا يسمح له، إلا إذا عرف أستاذه أو مرشده الأكاديمي، أن لديه استعداد لذلك، وأن درجاته في الفصول السابقة تشهد له بذلك.

زاد عدد الطلاب والطالبات، كما زاد عدد أعضاء هيئة التدريس، وفي قسم الدراسات الإسلامية ضم إليهم صديقه وزميله الدكتور عبد الستار نصار، المعاز من كلية أصول الدين بالأزهر الشريف، والمتخصص في العقيدة والفلسفة، فأصبحوا ثلاثة في قسم الدراسات الإسلامية بدل اثنين.^١

المسألة السابعة عشرة: إنشاء جامعة قطر بكلياتها الأربع

من المعلوم أن قطر بدأت تعليمها العالي بكليتي التربية للطلبة والطالبات في مبنين منفصلين، وهيئة تدريس مشتركة، وعميد واحد، وهو الدكتور محمد إبراهيم كاظم، وكان ينوب عنه في مبنى البنات الأستاذة الفاضلة الدكتورة كوثر عبد الرسول، زوجة الأستاذ الفاضل الدكتور محمد رياض.

وقد صدر القرار الأميري في أواخر السنة الدراسية ١٩٧٦م - ١٩٧٧م بإنشاء جامعة قطر، التي تبدأ بكليات أربع، هي: أولاً: كلية التربية، ثانياً: كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ثالثاً: كلية العلوم، رابعاً: كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية.

وفي قانون تأسيس الجامعة: أكد بصورة واضحة: هويتها الإسلامية، وانتماءها العربي، وجمعها بين الأصالة والمعاصرة. وأصبح الدكتور إبراهيم كاظم مدير الجامعة، أما الرئيس الأعلى للجامعة، فهو أمير البلاد نفسه الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني.

المسألة الثامنة عشرة: كلية الشريعة

وقد كلف بإعداد كل ما يلزم لتأسيس كلية الشريعة، ووضع المناهج اللازمة لها، لتخريج العالم الشرعي المسلم، الذي إذا استُفتي أفتى بعلم، وإذا دعا إلى الله دعا على بصيرة، وهو الذي ينظر إلى الشرع والتراث بعين، وينظر إلى الواقع والعصر بالعين الأخرى، فيزواج بين الواجب الواقع، كما قال الإمام ابن القيم: "فيرتبط بأصله، ولا ينزله عن عصره".^٢

واستعان الشيخ القرضاوي بمناهج الكليات المناظرة، وانتقى أفضل ما فيها، كما طعمها بأفضل ما رآه ضرورياً لتكوين العالم الشرعي المعاصر، مستعيناً بإخوانه وزملائه في قسم الدراسات الإسلامية.

وكان نظام الجامعة يُفرض على الأساتذة والدكاترة أن يدرّسوا الطالب موادّ مساعدة، وموادّ اختيارية، بالإضافة إلى مُتطلّبات الجامعة، تستغرق ٥٤ ساعة من مجموع الساعات التي يدرسها الطالب، ليتخرّج بعدها، وهي ٤٤ ساعة مُكتسبة. ومعنى هذا: أن عندهم ٩٠ ساعة، تتصرّف فيها الكلية، وقد قسموها إلى تخصصين: تخصص للشريعة، وتخصص لأصول الدين. ولهذا اختاروا

١ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٣٦٣ - ٣٦٤

٢ المرجع السابق، ص ٤٢٩ - ٤٣٠

تسميتها: "كلية الشريعة والدراسات الإسلامية" لتدخل علوم "أصول الدين" ضمن "الدراسات الإسلامية". وكانت فكرة الشيخ القرضاوي تقوم على أن هناك قدرًا من الدراسات الشرعية، يجب أن يدرسه كل طالب في الكلية، أيًا كان تخصصه، من التفسير والحديث والفقه والعقيدة، وهو ما يسمّى في بعض الجامعة "الجذع المشترك". ثم يبدأ التخصص "الشريعة أو أصول الدين" عادة في السنة الثالثة، أو الفصل الدراسي الخامس.

وقد ضمنت الكلية صفوة من خيرة الأساتذة في شتى التخصصات، توافدوا عليها في سنوات عدّة، منهم في العقيدة: الدكتور محمد عبد الستار نصار، والدكتور محمود حمدي زقزوق - وهو كان وزير الأوقاف في مصر، والدكتور محمد أحمد الطيب - وهو كان رئيس جامعة الأزهر سابقًا، والآن شيخ الأزهر، والدكتور عبد الفتاح بركة.

وفي الفقه: الدكتور عبد العظيم الديب، والدكتور علي السالوس، والدكتور علي القرّة داغي، والدكتور محمد الدسوقي.

وفي الدعوة: الدكتور حسن عيسى عبد الظاهر، والدكتور رءوف شلبي، والدكتور عبد الستار نوير.

وفي التفسير: الدكتور إسماعيل الطحان، والدكتور عدنان زرزور، والدكتور محمد البلتاجي.

وفي الحديث: الدكتور موسى شاهين لاشين، والدكتور علي جماز، والدكتور يوسف عبد المقصود، والدكتور إسماعيل الدفتار.

وبعد ذلك ضمنت الكلية عدد من أبناء قطر وبناتها، ومنهم من خريجي الكلية ذاتها وخريجاتها. منهم عمادة الكلية، مثل: الدكتور علي المحمدي، والدكتورة عائشة المناعي، وكانت عميدة الكلية.

وقد بدأت الدراسة في الكلية - كما في سائر كليات الجامعة الأخرى - منذ بدأ العام الدراسي ١٩٧٧م - ١٩٧٨م.

وقد عين الشيخ القرضاوي بقرار أميري عميدًا للكلية، وظلّ عميدًا لها اثني عشرة سنة، حتى أعاره إلى الجزائر من سنة ١٩٨٩م إلى ١٩٩٠م.^١

وكان عمداء الكليات معه في ذلك الوقت: الأستاذ الدكتور جابر عبد الحميد جابر، عميد كلية التربية، الأستاذ الدكتور ماهر حسن فهمي، عميد كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، الأستاذ الدكتور عبد الحليم كامل، عميد كلية العلوم.^٢

المطلب الثالث: عمل الشيخ القرضاوي في الجزائر في السنة الدراسية (١٩٩٠م - ١٩٩١م)

كان لا بدّ للشيخ القرضاوي من أن يسافر إلى الجزائر، بعد موافقة أمير قطر على إعارته لها، ليبدأ مباشرة عمله هناك. وكان عمله يُمَثَّل في أمرين:

الأول: رئاسة المجلس العلميّ بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية في قسنطينة. وهذا لا يتطلّب منه دومًا كاملاً هناك.

والثاني: أن يعمل مستشارًا لوزارة الشؤون الدينية في العاصمة، ووزيرها صديق الشيخ القرضاوي الفاضل الدكتور سيعد شيان.^٣

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٣٣١

٢ المرجع السابق، ص ٤٣١ - ٤٣٢

٣ المرجع السابق، ٢٠١٠م، ج ٤، ص ٦٣٦

المبحث الثاني: حياته الشخصية

وهذا المبحث يتناول سبعة مطالب، وحديثها فيما يلي:

المطلب الأول: أخلاقه

ليس من خُلُقِ القرضاوي أن يسارع باِتِّهام الناس، وإساءة الظنِّ بهم بغير بيّنة، والأصل في الناس عامة: البراءة، كما أن الأصل في معاملة المسلم للمسلم: أن يحمل حاله على أحسن المَحَامِلِ، حتّى يتبيّن منه غير ذلك. وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [١٢].^١ وقال عليه الصلاة والسلام: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ».^٢

والمؤمن أبداً يلتمس المعاذير، والمنافق دائماً يبحث عن العيوب. وقد قال أحد السلف الصالح: ألتمس لأخي من عذر إلى سبعين، ثم أقول: لعلّ له عذراً آخر لا أعرفه! والمؤمن يريح نفسه حين يقول: الخير فيما اختاره الله، ويقرأ قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَجَجَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [١٩].^٣

كان القرضاوي لا يجلس على المَقْهَى، ولا يدخل سينما، ولا يُدَخِّرُ. ولا يكاد ينفق إلا في مأكله ومشربه وملبسه، وشراء كتبه، وغالبًا ما تكون من الكتب القديمة، بعضها من "سور الأزبكية" الشهير، الذي كان سُوقًا معروفة لبيع الكتب القديمة.

كان أهل القرية في هذه الفترة كثيرا ما يقدموه ليؤمهم في الصلوات الجهريّة، وخصوصا صلاة الفجر في رمضان. وعلى الأخصّ في فجر الجمعة. حينئذ وهو في الرابعة عشرة من عُمره. فقد كان يقرأ سورة السجدة كاملة، على حين تعود كثير من الأئمة أن يقرأ جملة آيات تشتمل على أية السجدة.

وكان في ذلك الوقت (يعني حينما عمره أربعة عشر) عميق التأثر بالقرآن الكريم، شديد التجاوب مع وعده ووعيده، يكاد يغلبه البكاء، وتسبقه الدموع، ويتأثر الناس ممن خلفه بتأثره، ويظهر نحيبهم في الصفوف. مما يذكرهم بمن وصفهم الله في كتابه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [٨٣].^٤

وفي ذات يوم من أيّام الإجازة لقيه عالم القرية الشاب، الشيخ عبد المطلب البتة، ليسأله عن الدراسة، فقال له: ممتازة. فسأله بعض المسائل في الفقه الحنفيّ، فأجابه بدِقَّةٍ و تفصيل، فقال الله يفتح عليك. ثمّ التفت إلى من حوله، وقال له: هذا عالم بمعنى الكلمة. ولا ريب أن هذه الكلمة من هذا العالم المتمكن سرّني وشرحت صدري.

١ القرآن الكريم، الحجرات (٤٩)، الآية [١٢].

٢ البخاري، الجامع الصحيح للبخاري، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابير، (دار طوق النجاة [مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي]، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ)، رقم الحديث: ٦٠٦٤، ج ٨، ص ١٩، و مسلم، الصحيح لمسلم، [المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي]، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس، [بيروت، دار إحياء التراث العربي، رقم الحديث: ٢٥٦٣، ج ٤، ص ١٩٨٥، عن نفس الراوي.

٣ القرآن الكريم، النساء (٤)، الآية [١٩].

٤ القرآن الكريم، المائدة (٥)، الآية [٨٣].

ومن جانب أخلاقه الذي يبدو أن كراهية الظلم والنفور منه في سِنِّ صِغَرِهِ، والثورة على مرتكبيه - ولو كان ظلماً صغيراً - خصلة قديمة عند الشيخ القرضاوي، أو هي فطرة فطره الله عليها، فلا يحب أن يُظَلِّمَ أو يُظَلَّمَ. لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يستعيد بالله أن يُظَلِّمَ أو يُظَلَّمَ،^١ أو يجهل أو يجهل عليه.^٢

المطلب الثاني: غلبة عاطفة الحزن

الشيخ القرضاوي أنه رحل تغلب عليه عاطفة الحزن، أكثر مما تغلب عليه عاطفة الفرح والسرور، ولذا تَوَثَّرَ في نفسه الحوادث المؤلمة، والمواقف المحزنة تأثيراً بليغاً، وتحفر في قلبه حفرة عميقة، بخلاف الحوادث السارة. بل هو في الحقيقة رجل قريب الدموع، يبكي لأي موقف الإنساني يهزه، حتى لو كان في تمثيلية أو في فيلم في تلفزيون،^٣ وقد كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستعيد بالله من أربع: «من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن عين لا تدمع ومن نفس لا تشبع».^٤

المطلب الثالث: القناعة بالقليل

كان الشيخ القرضاوي رجل قليل الحاجات، قليل الطلبات، لا يكلف مضيئه ما يرهقه أو يزعجه، وقد نشأ في بيئة ريفية تنفع بالقليل،^٥ وهذا من صفات تقوى الله تعالى كما قال سيدنا علي رضي الله عنه، تقوى الله: الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد لليوم الرحيل، وتعود على التقشُّف في السجون والمعتقلات. ولا غرو أن أصحابه هنا لم يضيعوا به ذرعاً، بل كانوا يُلحُّون عليه: ألا تحتاج شيئاً؟ ألا تريد مزيداً من الطعام؟ ألا تريد؟ ... ألا تريد؟ ... وهو حقيقة لا يريد شيئاً. وقد قالوا قديماً: القناعة كنز لا يُفنى.^٦ وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعُرْضِ وَإِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ».^٧

ويقول أبو فراس الحمداني:

إن الغني هو الغني بنفسه ولو أنه عاري المناكب حافي
ما كل ما فوق البسيطة كافيًا وإذا قنعت فبعض شيء كافي

- ١ النمري القرطبي، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم (المتوفى: ٤٦٣هـ)، **جامع بيان العلم وفضله**، [تحقيق: أبي الأشبال الزهيري]، فصل من هذا الباب في كسب طالب العلم المال، (دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م)، رقم: ١٣٤٠، ج ١، ص ٧٢٧
- ٢ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، **ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة**، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠ م)، ج ١، ص ٩٣
- ٣ المرجع السابق، ٢٠١٠ م، ج ٤، ص ٧٠٢
- ٤ النيسابوري، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري (المولد: ٢٠٤هـ - المتوفى: ٢٦١هـ)، **الصحيح لمسلم**، باب: الذكر والدعاء، (بيروت، دار إحياء التراث العربي) الطبعة: ١، ١٤٢٢هـ)، رقم الحديث: ٢٧٢٢. والنسائي، أبو عبد الرحمن أحمد، **سنن النسائي**، باب: الاستعاذة، (حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية)، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦ م)، رقم الحديث: ٢٤٥٨. «عن زيد بن أرقم» دون لفظة: «ومن عين لا تدمع» فقال بدلها: «من دعوة لا يستجاب لها» ولفظة «عين لا تدمع» ذكرها الحافظ أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي في «فتح الباري شرح صحيح البخاري»، ج ١١، ص ١٣٦
- ٥ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، **ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة**، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠ م)، ج ٤، ص ٤١٩
- ٦ المرجع السابق، ص ٤١٩
- ٧ الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان (المتوفى: ٨٠٧هـ)، **موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان**، [المحقق: محمد عبد الرزاق حمزة]، باب الغني غني النفس، (بيروت، دار الكتب العلمية)، رقم الحديث: ٢٥٢٠، ج ١، ص ٦٢٤

المطلب الرابع: إطلاق اللحية

كانت السنة الدراسية ١٩٦٠م - ١٩٦١م، لما جاء موعد السفر إلى قطر، لبس القرضاوي الجبّة والعِمَامَةَ، وكان قد أعفى لحيته منذ أسابيع، إحياءاً للسنة، ورجوعاً إلى ما كان قد بدأ به من قبل دخوله إلى السجن الحربي... وكان إعفاء اللحية عند سفره أمراً مَنْطِقِيّاً وطَبِيعِيّاً، فقد تغيّرت الظروف التي أجبرته على حلّقها. وهو ذاهب إلى مجتمع أغلب رجاله ملتحون، ولا يستغربون إطلاق اللحية، بل لعلّهم يستغربون من عالم الدين أن يكون حليفاً^١.

المطلب الخامس: ظهور بعض جوانب شخصيته الكريمة بتجربة عدّة أمور

وهذا المطلب يحتوي على ثلاث عشرة مسألة، وتفصيلها كالآتي: وكلُّ هؤلاء يدلُّ على شخصيته المحمودة والبارعة والبارزة.

المسألة الأولى: مذهبه

حينما جاء موعد التقديم للالتحاق في المدرسة الإلزامية، وجاء بطلب الانتساب إلى المعهد، وقد ملأه بقلمه وخطّ يده العالم الجليل الشيخ عبد المطلب البتة. قال القرضاوي: وأذكر أن من (الخانات) التي يجب أن تملأ خانة المذهب الذي يختاره الطالب. والواقع أنّي كنت أريد أن أقول للشيخ عبد المطلب: المذهب الشافعي، على مذهب أهل القرية. ولكن الشيخ عبد المطلب بادرنبي وقال: ما رأيك يا شيخ يوسف، تكون حنفيّاً^٢ كميثلي؟ قلت: على بركة الله، لأكون حنفيّاً مثلك، وهكذا صارت حنفيّاً بهذه المصادفة. وحدير بذكر هنا أنه لم يلتزم مذهباً معيّنًا من المذاهب السائدة، فلا يتصوّر أن يعجب المقلّدين المتمسّكين بمذاهبهم. وهو يتبنى "التيسير".

وفيها ملاحظة: احترامه المذاهب الفقهيّة

هو من أحد المجتهدين، ولكنّ رغم ذلك أنه ليس متعصّباً لمذهبه وأفكاره ومواقفه وأرائه، ولا يكاد أحد يعرف له مذهباً، فهو يحبّ الأئمة جميعاً، ويقدرهم جميعاً، ويحترم المذاهب كلّها، ويأخذ منها ما ترجح دليله لديه، ولا ينمّع العامة من تقليد أيّ مذهب رضوه منها، ولا يطعن في أحد العلماء الأموات أو الأحياء، بل كان عفّ اللسان، لا يحبّ أن يذكر أحداً بسوء، وطريقته أن يضيء الشموع، لا أن يعلن الظلام^٣.

المسألة الثانية: واقعة تذكارية في حالة شبابه

عندما بلغت الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمري الطالب يوسف القرضاوي، كان أهل القرية في هذه الفترة كثيراً ما يقدمونه ليؤمهم في الصلاة الجهرية، وخصوصاً صلاة الفجر في رمضان. وعلى الأخصّ في فجر الجمعة. فقد كان القرضاوي يقرأ سورة السجدة الكاملة، على حين تعود كثير من الأئمة أن يقرأ أن يقرأ جملة آيات تشتمل على آية السجدة. وكان في هذا الوقت عميق التأثير بالقرآن الكريم، شديد التجاوب مع وعده ووعيده، يكاد يغلبه البكاء، وتسبقه الدموع، ويتأثر الناس خلفه بتأثيره، ويظهر تحييبهم في الصفوف. ممّا يذكرنا بمن وصفهم الله في كتابه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ [٨٣]﴾^١.

١ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٣٧١

٢ تابع مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله، ومُنشئهُ الإمام الأعظم أبو حنيفة نعمان بن ثابت بن زوطا بن مرزبان. الذي ولد في كوفة الموافق سنة ٦٩٩م الموافق ٨٠ هـ في خلافة الأمية - وتُوّي المتوفى في بغداد الموافق سنة ٧٦٧م الموافق ١٥٠ هـ في خلافة العباسية، فكان له أتباع منذ عهد الدولة العثمانية.

٣ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٥٥٤

١ القرآن الكريم، المائدة (٥)، الآية [٨٣].

المسألة الثالثة: أجهزة تمويل الأسر

كان مما يُنْفَخُ في الجُمُرِ فَيَتَوَقَّدُ: القبض على بعض الإخوة الذين يساعدون أسر المعتقلين، ويُطْلَقون على كلِّ مجموعة منهم (وكان الشيخ القرضاوي أحد منهم) اسم: "جهاز التمويل" أي تمويل الأسر، حتى لا تموت من الجوع والعُزِّي والمَرَضِ والحاجة.

فقد رَسَمُوا سياستهم على إذلال هذه الأسر، حتى تَفْهَرَهَا الحاجة، وَيَكْسِرَ أَنْفَهَا الجوع، والجوع كافر، وَيَتَعَرَّضَ الأطفال للضياع، والنساء لمد الأيدي، وكاد الفقر أن يكون كَفْرًا. ولا عجب أن كان يُزْعَجُهُمْ كلُّ الإزعاج: أن يجدوا من شباب الإخوان مَنْ نَدَرَ نفسه ليأخذ المساعدات من أهل الخير من الإخوان، ويوصلها لهذه الأسر المتعقفة، فكانوا يأخذون المحسنين إذا عرفوهم، والمحصلين للمال من الشباب، ومعظمهم من طلاب الجامعات.^١

المسألة الرابعة: صلاة المغرب جماعة بالسجن

في قول القرضاوي: هناك حدثت الواقعة من الوقائع التي لا أذكرها ولا أنساها، ويذكرها معي كثير من الإخوة، ويذكرونني بها كُلِّمَا لَقُونِي: صلاة المغرب الوحيدة التي سمح لنا أن نؤدِّيها كُلِّنا جماعة في السجن الحرِّي، بعد أن بدأت الغيوم تتكشَّف، والأحوال تتحسن، وكان باكورة ذلك أن نودي علينا لنقيم الجماعة في ساحة السجن، ودوى الأذان في ساحة السجن: الله أكبر، الله أكبر، وتجمع كلُّ الإخوان من أدوار السجن الثلاثة، ونحن لا نكاد نصدق ما يجري: أحلم هذا أم حقيقة؟

وقدّمه أي الشيخ القرضاوي الإخوان ليؤمهم في صلاة المغرب، واعتزته حالة من الرِّقَّة والخشوع لا ينسى حلاوتها، وتلا القرآن بصوت مؤثّر يكاد يهزُّ أركان السجن الأربعة، قرأ في الركعتين الربع الأخير من سورة آل عمران: ﴿لَتَبْلُؤُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ [١٨٦]﴾.^٢

ومرت بالآيات التي تتضمن دعاء أولي الألباب: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ [١٩١]﴾.^٣ وكان من هذه الأدعية: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ... [١٩٣]﴾ (إلى قوله) ... إِنَّكَ لَا تُخَلِّفُ الْمِيعَادَ [١٩٤]﴾.^٤

قال الشيخ القرضاوي: كنت أشعر كأني لا أقف على الأرض، ولكني أحلق في أفق عال، وكنت كأنما أسمع رجفات قلوب الإخوان من خلفي، أتلو الآيات من خواتيم سورة عمران. وكأنما أجد في الآيات معاني جديدة ما كنت أجدها من قبل، حتى انتهيت إلى ختام السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [٢٠٠]﴾.^١ وسلّمت وسلّم الإخوان، ووجدت الدموع على الخدود، لا أدري أهي دموع الخشية، أم دموع الرحمة، أم دموع الفرح؟

١ ألفقرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ١٧٥

٢ القرآن الكريم، آل عمران (٣)، الآية [١٨٦].

٣ القرآن الكريم، آل عمران (٣)، الآية [١٩١].

٤ القرآن الكريم، آل عمران (٣)، الآياتان [١٩٣-١٩٤].

١ القرآن الكريم، آل عمران (٣)، الآية [٢٠٠].

المسألة الخامسة: واقعة دعوية ذكرى

من الوقائع الذكريات التي حدثت في مجال الدعوة: ما وقع له (القرضاوي) في أحد الرمضانات، وقد كان في الإجازة الصيفيّة مقيماً في القرية، وأرسل إلى الإخوة في طنطا: أن الإخوان في كفر الشيخ يطلبونه لخطبة الجمعة في أحد البلاد هناك، وسيبتظره أحدهم في موقف الأوتوييس القادم من المحلّة إلى "كفر الشيخ".^١ بعد الذهاب قد ألقى الخطبة في القرية التي احتشدت لذلك، ثمّ كلمة قصيرة بعد الصلاة. وبعد ذلك قال له الأخ المُرَافِقُ: يمكنك أن تعود إلى كفر الشيخ، وتركب أوتوييسا من هناك، إلى المحلّة كما جئت، ويمكنك أن تمتطي قطار "الدلتا" من هنا، من "سخا" إلى المحلّة مباشرة، قال له: كم ثمن التذكرة من هنا إلى المحلّة؟، وقيل له: ثمنها ستّة قروش. قال: الحمد لله. ذلك أن كلّ ما كان معه من نقود هو ستّة قروش ونصف. فقال: يسافر إلى المحلّة، ويقضي الله ما شاء، فقد خرج من البيت بكلّ ما يملك من النقود في ذلك الوقت. وكان المفروض أن يرسل له الإخوة من طنطا مع نفقات هذه الرحلة، فكان الشيخ القرضاوي في حينئذ طالبا وليس موظفا، ويبدو أنّهم اتكّلوا على الإخوة في "كفر الشيخ"، والإخوة هناك اتكّلوا عليهم، وضع هو في الوسط. فالأخ الذي رافقه من كفر الشيخ خالي الذهن تماما عن هذا الموضوع.

وذهب إلى هذا الحيّ، وعند مسجد التوبة، وذرع المنطقة يمينا وشمالا، ليهتدي إلى البيت، أو يستدلّ عليه، فلم يوفق. قال القرضاوي: ثمّ ذهبت بعد ذلك إلى دار الإخوان بالمحلّة، وبعد قليل حضر عدد منهم، فرحبوا بي وطلبوا لي (الكازوزة)^٢ لأشرب، وعلام أشرب وبطني فارغ، ومعدتي حاوية؟ كدت أقول لهم: إنّني لم أفطر بعد، ولكن منعي الحياء، وهو خلق فطري عندي. وقد وصف الصحابة النبيّ صلى الله عليه وسلّم بأنّه كان أشدّ حياء من العذراء في خدرها. فهذا الخلق المحمديّ هو الذي حال بيني وبين مصارحة الإخوة بأني خالي البطن بعد يوم حافل بوعثاء السفر، وشدّة الحرّ، ومتاعب الطريق، وهو الذي منعي أن أطلب من مرافقي في كفر الشيخ أن يقطع لي هو تذكرة السفر من سخا إل المحلّة كما تقتضيه الأصول، حتّى لا أظهر بمظهر من يكتسب بالدعوة. وحاول الشيخ القرضاوي أن يغالب حيائه ويطلب من الإخوة في شعبة المحلّة أجرة السفر إلى صفت - وهي قرشا ضاع - فلم يستطع، وكان حيائه أقوى من حاجته. ولم تكن صلته بأحدهم وثيقة.^٣

المسألة السادسة: قراءة بعض سور القرآن من حفظه أو الكتابة في أثناء أسفاره

قد يعتد الشيخ القرضاوي في الساعات الطويلة التي يتوقّف فيها في المطارات: أن يخرج قلمه وورقه ويكتب، فلا يكاد يحسّ بالوقت، ولكن من فرط الإعياء الذي حلّ به من الناحية الجسميّة والنفسيّة، لم يكن عنده قابلية للكتابة. كلّ ما يستطيع أن يفعله أن يشغل نفسه بقراءة القرآن من حفظه... لم يزل قادراً على أن يتلو سوراً وأجزاء كاملة بدون الحاجة إلى مصحف، من غير أن يضع منه حرف واحداً، وهذا من فضل الله تعالى عليه، ثم بفضل الحفظ في الصغر، فهو كالنقش على الحجر، كما يقال في المثل^٤. وكثيراً ما تشجّع الرحلات الطويلة على إخراج ورقه وقلمه من حقيبته، ليبدأ الكتابة. إذ كيف يقضي ساعات كثيرة، إن لم يستعن فيها بالقلم؟ سيحاول ما استطاع أن ينام في أثناء أسفاره، ولكن عنده وقت يمكنه أن يستفيد منه للكتابة. وخصوصاً أنه ليس من الذين يشاهدون الأفلام التي تعرض في الطائرات. فما له رغبة فيها، ولا صبر عليها.^٥

١ أحد من أسماء الحيّ في مصر.

٢ قسم من الشراب

٣ القُرْضَاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ملخصاً ما في ص ٢٦١ - ٢٦٣

١ المرجع السابق، ٢٠١٠م، ج ٤، ص ٤٢٦

٢ المرجع السابق، ص ٤٨٠

المسألة السابعة: محاولة إقناع الشيخ القرضاوي بتولي منصب المرشد العام لجماعة إخوان المسلمين

ومّا جدّير بالذكر - أنّ فئة من الإخوان القدامى - حين مرض الأستاذ عمر التلمساني ودخل في المستشفى - اجتمعوا في بيت أحد القياديين الإخوانيين الكبير الأستاذ فريد عبد الخالق، وقرّروا أمرًا، ثم أرسلوا بعضهم ليعلموه (الشيخ القرضاوي) به، وكان الشيخ القرضاوي في القاهرة يومئذ، ولا يذكر الشيخ القرضاوي من هؤلاء الإخوة الذين زاره في بيته مدينة نصر، إلا الأخ الكريم القديم الذي أصابه ما أصابه من بلاء في سبيل الدعوة، وهو الناشر الإسلامي المعروف الحاج وهبة حسن وهبه «مكتبة وهبة» الشهيرة رحمه الله. وكان الذي قرّره أن يقبل الشيخ القرضاوي منصب المرشد العام للجماعة الإخوان المسلمين بعد الأستاذ التلمساني، وأن عليهم هم أن يقنعوا الإخوان بذلك، وإن كانوا يعتقدون أن القواعد الإخوانية كلّها ترخّب بذلك.^١

المسألة الثامنة: اعتذار القرضاوي عن عدم قبوله منصب المرشد العام لجماعة إخوان المسلمين

بعد طول التفكير، واستخارة، واستشارة، على ما جاء في الأثر: "ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار، وإن كان الشيخ القرضاوي لم يستشار إلا قليلين جدًّا؛ لأنّ جلّ من يستشيرهم يخثونه على القبول، ولكنه لم ينشر صدره لهذا الأمر.

واعتذر عن عدم قبوله لعرض الإخوان المسلمين، اقتناعًا منه بأن ما يقوم به من عمل إسلامي عام: أنفع له وللأمة من تولّي منصب المرشد العام. وقد قال رفيقه وزميله الشيخ أحمد العسال فعلا في موقف شاهده من هذه المواقف: إني أؤثر أن تكون مرشدًا للأمة، بدل أن تكون مرشدًا لجماعة بعينها... قال الشيخ القرضاوي: هو مستريح إلى هذا، ومطمئن إليه. وهكذا حاول المفكر الإسلامي الكبير والداعي العريق والمشهور في العالم الإسلامي الدكتور محمد عمارة جاهدًا أن يزحزحه عن موقفه لمصلحة الدعوة ولمصلحة الأمة.^٢

فأبلّغ إلى الدكتور أبو السعود بواسطة الرسالة: هذا وقد فكّر طويلاً فيما عرضوه عليه عند لقاءهم ذاك، وقلّب الأمر على وجوهه، كما استخار الله تعالى في الأمر، وتبيّن له بعد ذلك ما أبدى عندهم سابقًا لأوّل وهلة، وهو أنه ليس الرجل المنتظر للمسئولية التي تحدّثوا عنها، ولا يرى نفسه أهلاً للقيام بها. ورحم الله امرئًا عرف قدر نفسه.

إن الله تعالى قد ورّع المّواهب والقدرات على عباده، فمنهم من فتح له في مجال العلم، ومنهم من فتح له في مجال السياسة، ومنهم من فتح له في مجال الإدارة، ومنهم من جمع له أكثر من مؤهبة، وهو سبحانه يختصّ برحمته من يشاء، وحسب الشيخ القرضاوي أنه إن كان له مؤهبة، فهي في المجال الأول أي مجال العلم.

قال الشيخ القرضاوي: إن دعوتنا - وإن كانت دينية المصدر والغاية - فهي سياسة من حيث الوسيلة والمواجهة؛ ولذا تحتاج إلى رجل يعرف السياسة وألاعيبها وأغوارها، بجوار معرفته للدين ومصادره، وأنا لا أحسن هذا الفنّ، إلا في خطوطه العائمة، ولم أتمرس به، ولا أظنّ طبيعيّ تُصلح له. ولا أرضى لنفسي - ولا ترضى لي أنت أيضًا - أن أكون جهّازًا في أيدي آخرين، يحركونه فيتحرّك، ويوقّفونه فيتوقّف!^١ وفضلا عن هذا كلّه، فإن هذه الدعوة الرّبانية التي جعلت شعارها من أوّل يوم "الله غايتنا" تحتاج إلى أن يكون على قمّتها

١ ألقّرّضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٤١٥ - ٤١٦

٢ المرجع السابق، ص ٣٢

١ المرجع السابق، ٢٠٠٥م، ج ٣، ص ٤٢٠ - ٤٢١

رجل غامر الروحانيّة، عامر القلب بالخشية والتقوى، متألق الجوانح بمعاني اليقين والإنابة، ليستطيع أم تفيض من قلبه على قلوب من حوله، وأراني دون هذا الأفق بمراحل، وفاقد الشيء لا يعطيه.

في لسان القرضاوي: لا تظن يا أخي أن ما أقوله لك من باب التواضع أو هضمّ النفس، وإنما هو من باب تقرير الحقائق، ووصف الأشياء بما هي عليه، وقدبمًا قالوا: "من سعادة جدك، وقوفك عند حدك".

وإن الشيخ القرضاوي يَعتقِدُ أن من مصلحة الدعوة التي ينتمي إليها، ومصلحة الإسلام عامّة، الذي نذر نفسه لخدمته: أن يَظِلَّ مشغلا بالعلم وبالبحث، لإتمام ما عنده من مشروعات علميّة يراها مهمّة ونافعة إن شاء الله.

وقد أتيج له الآن - من خلال موقعه ومعرفته الناس به - أن يتّصل بالمجتمعات العلميّة في مؤتمرات عربيّة وإسلاميّة وعالميّة شتى. ومن الخير أن يستمرّ هذا الاتّصال بعد أن فرضت على العزلة مدّة طويلة في مكان قصيّ مُعزّل.

وقال الشيخ القرضاوي أخيراً: إن جماعتنا لم تخل - ولن تخلو إن شاء الله - من الكفايات القادرة على قيادة السفينة بقوّة وأمانة، ولن تعدموا "القويّ الأمين" أو "الحفيظ العليم" في صفوف الحركة، بعون الله. والله يتولّى الجماعة ويرعاها بعينه التي لا تنام، وهو ولي الصالحين. وأشار الشيخ القرضاوي بتولية هذا المنصب للشيخ محمّد الغزالي لصالح الدعوة، ولمصلحة الإسلام العليا.^١

وقد علّق الأستاذ محمود أبو السعود برسالة الشيخ القرضاوي في ٢٠/٤/١٩٧٦م. جاء فيها:
الأخ الكريم فضيلة الشيخ يوسف القرضاوي!

وعليكم من الله السلام والبركات - أعزك الله، ونفعك ونفع بك، وأعانك على ما فرغت له نفسك من خيرٍ وعلمٍ، وجعلك أبداً مهوياً للقلوب، ومفصّداً للحقّ، وواسطة عقّد الأَحْلاء. يا أخي: "لقد أسكتت جهيزة قول كلّ خطيب" ولم يعد لي ما أقول، وما حدثت في أمر تمناه غيري كما تمنيته، أما وقد قطعت فيه برأي، فالخيرة ما اختاره الله. وإني لأعلم - كما تعلم أنت - أن ليس لما دعوناك إليه من يرتضيه الخاص والعام غيرك، ولا من أوتي ما أوتيته من تجرد وفضل، وعلم وخلق، لا أمتدحك سعيّاً وراء مَعْنَمٍ، وإنما هكذا عهدناك وخبرناك. والأغلب أن يَظِلَّ الوضع الراهن كما هو، حتّى يقضي الله أمراً كان مفعولاً. على كلّ حالٍ يا أخي شكر الله لك، وجزاك بنيتك أضعاف ما يجزيك بحس عملك.^٢

المسألة التاسعة: استعفاءه من العمل التنظيمي لجماعة إخوان المسلمين

في حين من الأحيان رأى الشيخ القرضاوي أن يستعفي من العمل بالتنظيمي في جماعة الإخوان، وأن يتحرّر من الالتزام بأيّ عمل رسمي في تنظيم الإخوان، وأن يتفرّغ للعمل الإسلامي العام، فوضعه اليوم يقتضي منه أن يكون للمسلمين جميعاً، على اختلاف اتجاهاتهم، واختلاف أقطارهم، واختلاف مذاهبهم. هذا مع أنه لا ينكر انتمائه لدعوة الإخوان نشأة وفكراً وولاءً. وسيظلّ أعمل لترشيد مسيرة الإخوان، ضمن مسيرة الصحوة الإسلاميّة العامّة، وتسديد خطاها، وتحذيرها من المزالق والمضايق... وهذا لا ينافي أن ينقدها كما أنقدها غيرها من الحركات والجماعات.^١

وقد رضي منه الإخوان هذا الموقّف الذي يراه كلّ الراشدين أنفع للإسلام ولأمّته، وإن كان بعض رجال الأمن يعتبرون ذلك من باب "توزيع الأدوار". وردّ الشيخ القرضاوي هؤلاء بالأيمان المغلظة، أو أتى بكلّ آية وبيّنة، لم يصدقوه.

١ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٤١٦

٢ المرجع السابق، ٢٠٠٥م، ج ٣، ص ٤٢٣

١ المرجع السابق، ٢٠١٠م، ج ٤، ص ٢٨

المسألة العاشرة: زيارة الورتلاني وتوصيته بالأقصري

ذات يوم من الأيام زار القرضاوي الداعية المجاهد الشيخ الفضيل الورتلاني، أحد رجالات الجزائر ومجاهدي علمائها المرموقين. وفي هذا اللقاء حاول الشيخ الورتلاني أن يملأه ثقة بنفسه، فقال: أرى فيك متشابه من الأستاذ حسن البناء، وهذا يلقي عليك تبعات، فقال القرضاوي له: يا أستاذ وأين يوسف القرضاوي من الأستاذ حسن البناء؟ وأين الثرى من الثرى؟ فثار عليه وقال: لا تُحَقِّرْ نفسك، إن حسن البناء عنده قدرات ليست عندك، وأنت عندك قدرات ليست عنده، ومجموع مواهبك يُؤَهِّلُكَ لتقوم بدورٍ، فلا تُنَحِسِبْ منه، ولا تَبَخَسْ نفسك حقها. ^١ قال القرضاوي: أسأل الله أن يجعلني أهلاً لثقتك وحسن ظنك. قال الشيخ الورتلاني: ستثبت لك الأيام حسن ظني. قال القرضاوي: أرجو الله. وقد قرأت في حكم ابن عطاء الله الإسكندري: إن الناس يمدحونك لما يظنونهم فيك، فكن أنت ذاماً لنفسك لما تستيقنهم منها، أجهل الناس من ترك يقين نفسه لظن ما عند الناس. قال: وهذا يزيدني ثقة بك. حضر القرضاوي أول (ملتقى للفكر الإسلامي) في سنة ١٩٨٢م، وكان في مدينة تلمسان، وشهد في الجزائر من جماهير الصَّخْوَةِ، ما لم يشهده في بلد آخر، حتى كان يحضر أحيانا نحو مائتي ألف شخص يستمعون إليه في خطبة الجمعة.

المسألة الحادية عشرة: نزع بئر الصرف الصحي

ومَّا لا ينسأه القرضاوي أن فتحت الزنزانة في صباح يوم، وكان يوم الجمعة، وأشار العسكري إليّ، وقال تعال أنت، فسأله الإخوة: ماذا تريدون منه؟ قال: تنظيف "البكايرت". قالوا له: إنه لا يصْلُحُ لهذه المُهْمَةِ، خذ أحدنا مكانه، فهذا شيخنا وعالمنا. قال: لا، لا أريد غيره. وذهب القرضاوي معه إلى هذا البئر الذي سدَّته بعض الأوساخ والقاذورات، وكان لا بدَّ من تسليكه، وقد وجد هناك عددا من الإخوة كأنهم انتقوهم انتقاءً، كلَّهم من الأطباء والمهندسون والمُحَامِلِينَ، ومنهم: الأخ أحمد حشاد "الدكتور العالم أحمد حشاد بعد ذلك. قال القرضاوي: وكنا نوذي علمنا بهمة ونشاط، ونحن نضحك ونمزح، وماذا جرى؟ ذهبت وأنا يوسف القرضاوي، ورجعت وأنا يوسف القرضاوي! وشكر الله لإخواني الذين حرصوا على أن يعفوني من هذه المُهْمَةِ الكريهة في نظريهم، فأجروا بنيتهم، إنما لكل امرئ ما نوى.

المسألة الثانية عشرة: طلب التوقيع

في حفل صلاة الجنائز على الإمام المودودي في سنة ١٩٧٩م: أن بعض الباكستانيين الحاضرين طلب من الشيخ القرضاوي أن يوقع لهم على مُفَكَّرَةٍ معهم، كما يفعل الناس عادة مع المشاهير، وهو غب العادة لا يستجيب لِرَغَبَاتِ الجمهور في هذا الأمر، لما يدخله من اعتبارات لا يستريح إليها، مثل اعتقاد الناس التبرُّك بهذا التوقيع، وما قد يدخل على نفس الموقع من حبِّ الجاه والشهرة عند الناس، وهو آفة من آفات النفوس، ومرض من أمراض القلوب.

ولكن بعض الإخوة أثار أن أجبر خاطر بعضهم، إكراماً للأستاذ المودودي، وللذين حضروا مِنْ كُلِّ حَدَبٍ وَصَوَّبٍ لِيُصَلِّوا عليه. وما إن وقَّع لإثنين أو ثلاثة، حتى تراحم عليه العشرات والمئات، بل قُلُّ الآلاف، وحاصروه ليوَقَّع لهم على ما تيسر لهم من مجلة أو صحيفة، أو يوقع لهم على أوراق البنكنوت "الروبيات" وكلَّ الناس معهم هذه الروبيات من فئات مختلفة، ومطلوب منه أنه يوقع على أوراق كلِّ هؤلاء المتجمعين حوله، وقد بدءوا يتكاثرون ويتزايدون بشكل مخيف، وبدأ يحسَّ كأنه يحتنق.

حتى رآه بعض الإخوة الباكستانيين على هذه الحالة، فأحاطوا به إحاطة السَّوَارِ بالمعصم، وابعدوا الناس عنه بشيء من الشدَّة، وانتزعه من بينهم انتزاعاً، والحمد لله أن الشيخ القرضاوي خرج سليماً.

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٤٩٠

١ المرجع السابق، ٢٠١٠م، ج ٤، ص ٨٢ - ٨٣

المسألة الثالثة عشرة: حوار بين الشيخ القرضاوي وبين الدكتور فهد الفانك^١، المظهر شَخْصِيَّتِهِ البارزة

كان من أهم ما وقع له في ندوة «الصحة الإسلامية وهموم الوطن العربي» في عَمَانَ، المنعقد في سنة ١٩٨٧ م: ما دار بين الشيخ القرضاوي وبين الدكتور فهد الفانك من حوار.

وقد خلا بـ "القرضاوي" في إحدى الاستراحات مرجحاً به، ثم قال: لقد كان لهذه الندوة ثمرات كثيرة لمسناها.

قال الشيخ القرضاوي ضاحكاً: منها؟

قال الدكتور فهد الفانك: منها: أننا عرفناك على حقيقتك، وغيّرنا فكرتنا عنك تمامًا.

قال الشيخ القرضاوي: وماذا كانت فكرتكم عني؟

قال الدكتور فهد الفانك: بصراحة، كنا نعتقد أنك شيخ مُشَدَّدٌ ومُتَعَصِّبٌ، ضيق الأفق، غريق في التراث، لا تعرف العصر وتياراته، لا تقبل التعايش مع المخالفين من أصحاب الديانات أو المذاهب أو الاتجاهات الأخرى.

قال الشيخ القرضاوي: يا دكتور، هل قرأتم شيئاً من كتبي؟

قال الدكتور فهد الفانك: في الحقيقة، لا.

قال الشيخ القرضاوي: هل سمعتم شيئاً من محاضراتي أو خطبي؟

قال الدكتور فهد الفانك: في الحقيقة أيضاً، لا.

قال الشيخ القرضاوي: هل تابعت بعض برامجي في الإذاعة أو التلفزيون؟

قال الدكتور فهد الفانك: في الحقيقة كذلك، لا.

قال الشيخ القرضاوي: فمن أين كوّنتم فكرتكم عني؟

قال الدكتور فهد الفانك: لا أكذب عليك، إنما كوّنناها بالتسامع والتناقل من بعض الناس لبعض. وهو منهج غير سليم بلا شك؟

قال الشيخ القرضاوي: والآن؟

قال الدكتور فهد الفانك: أصدقك القول يا شيخ يوسف: أننا غيّرنا فكرتنا عنك ١٨٠ درجة.

ولهذا أنصحك أن تحرص على حضور مثل هذه الندوات التي لا تقتصر على الإسلاميين وحدهم، والتي يراك فيها المخالفون من ذوي الاتجاهات المختلفة، ويعرفونك عن كَثْبٍ، ويسمعون منك مباشرة، ويتحدّثون معك وجهاً لوجه^٢.

قال الشيخ القرضاوي: صدقت، والحديث الشريف يقول: «ليس الخبر كالعيان»^٣.

١ الدكتور فهد الفانك من مثقفي الأردن المشهورين، وهو نصاريّ الديانة، قومي الاتجاه، تحرّري النزعة.

٢ القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٤٧٠ - ٤٧١

٣ رواه أحمد في «المستند»، رقم الحديث: ١٨٤٢، وقال مخرجه: صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين عن ابن عبا.

المطلب السادس: عِبْقَرِيَّتُهُ وَمَوْهَبَتُهُ

وهذا المطلب يحتوي على أربع مسائل، وحديثها كما في التالي:

المسألة الأولى: طَالِبٌ مُرْتَجِلٌ

في الفصل المعهد الثانوي تَعَرَّفَ الشيخ القرضاوي على صديق جديد، هو الأخ "محمد الدمرداش مراد" فقد كان مدرِّس مادة "الإنشاء" يطالبهم بأن يتحدث بعضهم عن موضوع معيَّن قبل أن يكتبوا فيه، في حصَّة الإنشاء الشفهي، ثم يكتبوا الموضوع في حصَّة الإنشاء التحريري. في يوم من الأيام طلب من القرضاوي أن يتكلَّم في موضوع معيَّن، فوقف وارْتَجَلَ كلمة في دقائق، وأعجب بها أخيه الدمرداش إعجابًا بالغًا، وسأله: من أين لك هذا الأسلوب؟ وكيف تستطيع أن تأتي بهذه الجُمَلِ البليغة بلا تحضير، وقال له: هذا نتيجة محصول من القراءات الأدبيَّة، وليس أمرًا مستحيلًا، ولا معتذرًا لمن أراده، فإنما العلم بالتعلُّم. قال القرضاوي: أذكر أن بعض الطلاب سألني عن إعراب قوله تعالى في سورة "المعارج" (يُبَصِّرُونَهُمْ) فأجبت على الفور: "يُبَصِّرُونَ" فعل من الأفعال الخمسة مرفوع بثبوت النون، واو الجماعة فيه نائب فاعل سَدَّ مَسَدَ المفعول الأوَّل، وضمير الجمع "هُمْ" مَفْعُولٌ ثَانٍ. فدهش ودهش الحاضرون من قدرتي على الإعراب وسُرعتي فيه.

المسألة الثانية: أوَّل درس ديني ألقاه في حياته

وقد حدث له في الإجازة أمر مهم، بل في غاية الأهميَّة في حياته، وهو إلقاء أوَّل درس ديني على الناس في مسجد جامع. وكانت مساجد القرية تعمرها الدروس الدينيَّة بعد العصر حينًا، وبعد المغرب دائمًا.^١ وكان مسجد المتولِّي - وهو مسجد ناحيته الكبير - يجمع بين المدرسين عصرًا وعشاء، وكان حريصًا منذ صباه على ملازمة هذه الدروس، والاستفادة منها، وكان أفضل هذه الدروس بلا شكَّ درس الشيخ عبد المطلب البتة بعد عصر كل يوم. ويتحلَّق حوله عدد من الناس المهتمِّين بالدين والعلم.

وفي يوم من الأيام تحلَّقَ الناس كعادتهم، ينتظرون الشيخ عبد المطلب البتة، ولكنه لم يحضر، فالتفت بعض كبار الحاضرين إليه، وقالوا له: ما رأيك يا شيخ يوسف، تجلس مكان الشيخ، وتلقي علينا درسًا مما تعلمته في الأزهر؟ قال لهم: لا مانع، وعلى بركة الله ويتوفيقه وعونه. وبدأ الدرس حول "التوبة" من المعاصي، وهو درس مُرْتَجِلٌ طبعًا، واستشهد بالآيات والأحاديث، الذي كان طبيعته، وكان قرأ عن التوبة في الإحياء والمنهاج للغزالي، وكوَّن فكرة واضحة عن الموضوع.

وقد سأله عدَّة أسئلة وقَّعه الله تعالى في الإجابة عنها. وقد كان أثر هذا الدرس طيبًا جدًّا، وهنَّأه عليه كل من حضره، وبلغ ذلك الشيخ البتة، فشجَّعه على ذلك، وأصبح هذه عادة، كلما تأخَّر الشيخ البتة عن حضور الدرس قدَّمه أهل المسجد لأحل محله.^٢

المسألة الثالثة: أوَّل خطبة منبريَّة التي ألقاها في حياته

في السنة الرابعة الابتدائيَّة كانت أوَّل خطبة منبريَّة في حياته، فقد ذهب إلى القرية، طلب إليَّ أن أخطب الجمعة، قال القرضاوي: فرحبت بذلك، وألقيت خطبة موضوعها "الشكر لله". وقد لاقَتْ قبولًا حسنًا من الناس، وأثنى عليها العلماء وطلَّاب الأزهر، وقالوا إنها فريدة في مضمونها وفي طريقتها وفي إلقائها، ألا يُحاول تَقْمُصَ شخصيَّة غيره، وكان ذلك في "مسجد المتولِّي".^٣

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريَّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ١٤٤

٢ المرجع السابق، ص ١٤٥

٣ المرجع السابق، ص ١٤٩

المسألة الرابعة: دروس توجيهية

وفي فترة الحرية والبحبة لم يُضَيِّعَهَا الإخوان سُدىً، بل اجتهدوا أن يستغلوها استغلالاً، ولا سيَّما بعد المدَّة الطويلة التي أرادوا أن يحو فيها معارفهم، وينسوهم ما تعلموا حتَّى حرّموهم من المُصاحِف.

ولهذا نَظَّم الإخوة بعض الدروس العلميَّة المنهجية للارتفاع بمستوى الإخوان الثقافيِّ والعلميِّ، فكان القرضاوي يشارك في هذه الدروس بإلقاء أضاء على علوم القرآن وضوابط فهمه وتفسيره، وأضاء على علوم الحديث أو علم مصطلح الحديث.^١

وكانت هذه الدروس تشمل الإخوان عموماً، والشباب والطلبة خصوصاً، وكان معظم الطلبة من الجامعات، ولكن كان قليل منهم من المدارس أو المعاهد الثانويَّة، مثل الأخ سعد زين العابدين سلامة، الطالب بمدرسة طنطا الثانويَّة، و مثل الأخ عبد الشفوق الشحات من طلبة معهد دمياط الثانوي، وكان الأخ وائل شاهين - الطالب بكلية الطب من الإخوة الحريصين على تنظيم هذه الدروس، وتحديد أوقاتها وموضوعاتها، وإحضار المستفيدين منها.

كما كان يشرح القرضاوي للإخوان بعض المفاهيم الإسلاميَّة، وخصوصاً ما كان منها حول "الأصول العشرين" للإمام البناء، وكان معيِّناً بها من قديم.

المطلب السابع: تَفَوُّهُ، وهذا المطلب يشتمل على خمس مسائل، وبيانها فيما يلي:

المسألة الأولى: ما بعد المرحلة الجامعية

في أواخر الفصل الدراسي لتخصّص التدريس، كان في إحدى مدارس العباسية بالقاهرة، وكانوا أربعة من طلاب التخصّص، وبعد أن ألقوا دروسهم اجتمعوا كالعادة، ونقد بعضهم بعضاً، ثم استمعوا إلى نقد الأستاذ الدكتور محمّد قدرى لطفى، فقال: القرضاوي، كان درسه مثلاً يُتَدنى؛ وفي شخصيته، وفي وقفته، وفي ابتسامه وجهه، وفي إقباله على التلميذ، وفي إشراكهم معه في كلّ الخطوات، في تلخيص درسه في النهاية. لا يسعني إلا أن أشكر له، وأن أتمنى له دوام التوفيق في مستقبل حياته، وقد أعطاه (القرضاوي) الدرجة النهائيَّة خمسين من خمسين. كما فعل مع القرضاوي ذلك في الفصل الثاني - أو قلَّ في السنة الثانية - الدكتور الريدي، رحم الله الجميع، قد أعطاه خمسين من خمسين.

المسألة الثانية: إظهار خبَر التعيين بالأزهر

كان القرضاوي ينتظر التعيين بالأزهر الذي يعتبره باب مستقبله، وقد عرف من صديقه الشيخ مصباح عبده الذي كان يعرف مكانه وزاره فيه، أنه عُيِّن بالفعل في معهد بناها الدينيِّ، وأنّه مكتوب أمام اسمه أي القرضاوي عند المسؤولين في الأزهر: إذا حضر ليتسلّم العمل يُسلّم إلى المباحث!

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٢٠٤

المسألة الثالثة: حصوله على الجوائز والمكافآت، وهذه المسألة تشتمل على خمس نقاط، وبيانها كالآتي:

النقطة الأولى: أول جائزة في حياته

حفظ القضاوي في صباه للقرآن في الغربية، وفي هذه المرحلة: ما بعد ختم القرآن، ولم يزل في المدرسة الإلزامية: ويمكن أن ذلك كان في صيف سنة ١٩٣٧م وهو في الحادية عشرة من عمره، استدعاه إلى إدارة المنطقة التعليمية بمجلس مديرية الغربية بمدينة طنطا، للامتحان في القرآن الكريم. وسافر مع الشيخ حامد أبو زويل مُحَفِّظُهُ للقرآن.^١ ووصلا إلى موقع الإدارة، ناداه المفتش المسؤول عن الامتحان، الذي معروف لديه، فقد زار مدرسته من قبل، وهو الشيخ عبد المقصود سليمان عيد.

قال القضاوي: ولما دخلت عليه هَشَّ في وجهي، وأراد أن يزيل الرهبة من نفسي، وقال لي: طبعاً أنت حافظ القرآن يا بني؟ قلت له: الحمد لله، أحفظه جيّداً. وهنا وجّه إلى نحو ثلاثين سؤالاً من مختلف أجزاء القرآن وسورة، فقال في النهاية: فتح الله عليك يا بني، وبارك فيك، ولك عندنا مكافأة. وقدراها جنيه وربع جنيه وهي أول جائزة التي تَسَلَّمَهَا الشيخ القضاوي في حياته.^٢

ومنذ سنوات حضر الاحتفال الأول لجائزة دُبِّيّ الدولية للقرآن الكريم، حيث كُرِّمَ شيخه الشيخ محمد متولي الشعراوي باعتباره شخصيّة العالم الإسلاميّة، وكُرِّمَ أوائل الحفّاظ للقرآن من أنحاء العالم، ممن لا يزيد عُمرُهُمْ على ٢١ عاماً، وكان له كلمة في ذلك الحفل، هنأ القضاوي فيها صاحب الجائزة الشيخ محمّد بن راشد المكتوم والشيخ متولي الشعراوي والحفّاظ الفائزين، وكان نصيب الأول ٢٥٠ ألف درهم إمارتيّ (ربع مليون).

قول القضاوي - قلت لهم: إني حصلت على الجائزة الأولى في صباي وكانت جنيها وربعاً، صحيح أن الجنيه والربع الآن قد تساوي نحو ألف درهم، ولكن جائزة الأول ٢٥٠ ألفاً. فهذا من فضل الله تعالى على حفاظ كتابه، والدول العربيّة تتنافس في ذلك. وقد وسع الله عليها فلتوسع على أهل القرآن.

المهم أن فرحتي بهذه الجائزة كانت لا تقدر، لأنها جاءت على غير توقع، ودلّت على أن الله لا يضيع أهل القرآن. كيف وهم أهل الله وخاصته؟

النقطة الثانية: مسابقات في الكُليّة

لم تكن كُليّة تمنح مكافآت لأوائل الكُليّة، كما كان الحال في المعهد الابتدائي والثانويّ، فلم يكن لديها مثل هذا الوقف، ولكن عوّضتهم الكُليّة عن ذلك بمسابقات علميّة تعقدها كلّ سنة، في كتب علميّة تحدّدها، ويقدم إليها الطلاب المُتَفَوِّقُونَ عادةً، وتعطي الأول منهم خمسة وعشرين جنيهاً، والثاني عشرين جنيهاً، والثالث خمسة عشر جنيهاً.

وقد دخل القضاوي هذه المسابقات التي أُتيح له ثلاثة مرّات: مرّتين في " تفسير المنار"

أولهما: في (الجزء الخامس) من التفسير والأخرى في (الجزء الثامن) منه.

والمرّة الثالثة: كانت في (علم المنطق).

وفَقَّ القضاوي في المرّات الثلاث، وحصل على الترتيب الأول، وحظّي في كلّ مرّة بخمسة وعشرين جنيهاً، وكانت يومها تسدُّ

مَسَدًا، وتقضي حاجات.^٣

١ القُرْضَاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ١٠٦

٢ المرجع السابق، ص ١٠٦ - ١٠٧

٣ المرجع السابق، ص ٤٥٣ - ٤٥٤

النقطة الثالثة: من مشروعات مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية

وقد تبنى المركز عدّة مشروعات، منها: مشروع كتابة كتاب عن التاريخ الإسلام.

ومنها: جائزة سلطان بروناي في مجال الدراسات الإسلامية، وقد حصل عليها في الحديث الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، وفي التفسير ثلاثة، أحدهم: الدكتور عدنان زرزور، والآخر: الدكتور أحمد خراط، وفي التاريخ العلامة أبو الحسن عليّ الندوي، وفي الفقه فضيلة الشيخ يوسف القرضاوي، ولا تزال الجائزة مستمرة. وبعد وفاة العلامة الندوي رحمه الله، وتولّى رئاسة مجلس الأمناء من بعده: نائبه الرجل الإسلاميّ الواعي النشط الأستاذ الدكتور عبد الله عمر نصيف.^١

النقطة الرابعة: جائزة البنك الإسلاميّ للتنمية في الاقتصاد الإسلاميّ لعام ١٤١١ هـ

أبلغ عند الشَّيخ القرضاوي معالي الدكتور أحمد محمد عليّ رئيس البنك الإسلاميّ للتنمية برسالة منه: أن البنك قد اختاره لنيل جائزة البنك في الاقتصاد الإسلاميّ؛ لما بذله من جهد في خدمة هذا الاقتصاد. وسيعلم عن هذا في اجتماع محافظي البنوك الإسلامية في مدينة طرابلس عاصمة الجماهيرية الليبية فيرجى حضوركم.

وكانت الجائزة مقدارها عشرون ألف دينار إسلاميّ في ذلك الوقت، وقد أصبحت الآن أربعة أضعاف ما كان عليه تقريباً. وقد أعلن عن الجائزة في المؤتمر، وطلب من الشيخ القرضاوي أن يقول كلمة، فارتجل كلمة مناسبة.^٢

النقطة الخامسة: جائزة الملك فيصل في الدراسات الإسلامية

وفيهما ستّ ملاحظات، وهي فيما يلي:

الملاحظة الأولى: ترشيحه لجائزة الملك فيصل لخدمة الإسلام

رَشَّحَت الشَّيخ القرضاوي جهات عدّة لجائزة الملك فيصل لخدمة الإسلام، وأول من رَشَّحَتْ لها من قديم: جمعيّة الإصلاح الاجتماعيّ بالكويت. ثمّ رَشَّحَتْ عدّة جامعات إسلاميّة ومدينة أكثر من مرّة، حتّى قال له صديقه العلامة الشيخ عبد الله بن بية: 'ظللنا في جامعة الملك عبد العزيز نرَشِّحك لجائزة خدمة الإسلام لعدّة سنوات، ولا أدري من الذي يقف في سبيل هذا الترشيح، مع أن أهليّتك للجائزة واضحة للعيان؟!'

الملاحظة الثانية: حجب الجائزة عنه!!

وفي إحدى السنوات، رَشَّحْت سبع جامعات لهذه الجائزة، منها: جامعة قطر، وجامعة أسيوط، وجامعة إسلام آباد، وجامعة الملك فهد للبترول، وجامعة الملك عبد العزيز، وغيرها، ولكن لاعتبارات عندهم لا يعلمها الشيخ القرضاوي، حجوبها عنه! وفي هذه السنة ١٤١٤ هـ رَشَّحْت جامعة الأزهر لجائزة الدراسات الإسلامية في الفقه، كما رَشَّح آخرون الشيخ الكبير سيّد سابق رحمه الله، على كتابه النافع «فقه السنّة».^٣

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٣٧٧

٢ المرجع السابق، ٦٦٨ - ٦٧٩ مختصراً

٣ المرجع السابق، ص ٧٤١

الملاحظة الثالثة: اشتراك الشيخ القرضاوي مع الشيخ سيّد سابق في الجائزة

وقد اشتركا هما الاثنان في هذه الجائزة، وفي الحقيقة لم يفرح بها كثيراً؛ لأنها تحمل اسم رجل أحمده في الله، لموافقته الصادقة في صفّ القضايا الإسلاميّة، وتبنيّه الدفاع عن الإسلام وحرماته ورجالاته في كلّ مكان.

وفي الموعد المحدّد دُعِيَ الشيخ القرضاوي إلى حضور الاحتفال - بمدينة الرياض - لتسلّم الجائزة مع الفائزين الآخرين: الشيخ سيّد سابق، والدكتورة عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطي»، والدكتورة وداد القاضي من أمريكا «لبنانية الأصل»، كلتاها في الأدب والنقد، وآخرين من الأوروبيين والأمريكان في الطبّ والعلوم.^١

الملاحظة الرابعة: سفر الشيخ القرضاوي إلى الرياض

وقد سافر الشيخ القرضاوي إلى الرياض ومعه اثنان من أبنائه: هما: محمّد ابنه الأكبر، وابنه الأصغر أسامة. وكان الأمير سلطان بن عبد العزيز النائب الثاني ووزير الدفاع والطيران، والمفتّش العام، هو الذي سلّم الجائزة إليهم، بحضور الأمير خالد الفيصل الأمين العام لمؤسّسة الملك فيصل الخيريّة.^٢

الملاحظة الخامسة: كلمة الشيخ القرضاوي بهذه المناسبة

وقد كتب الشيخ القرضاوي كلمة بهذه المناسبة، ولم يرتجلها كعادته، فهم لا يرضون بالارتجال، وألقاها على جمهور المدعوّين لهذا الحفل، وكلّهم شخصيّات مرموقة من المملكة ومن خارجها. ومن فضل الله: أن لاقت كلمته استحساناً ملحوظاً من الحضور، وصقّق لها الجميع تصفيقاً طويلاً، وبعضهم كان من العلمانيّين الأفحاح الذين يشاركون في مهرجانات الجنادرية المعروفة. وقال كثيرون له: إن كلمتك لم تكن مجرد كلمة مدح وشكر، بل كانت تعبيراً عن منهج في الفقه الإسلاميّ، ما أشدّ حاجة المسلمين في عصرنا إليه.^٣

الملاحظة السادسة: مقدار الجائزة

وكانت مقدار كلّها نحو (٧٥) خمسة وسبعين ألف دولار. واقتسما الشيخ القرضاوي والشيخ سيّد سابق هذه الجائزة الماليّة. على أن أهمّيّتها ليست في قيمتها الماديّة، بل في قيمتها المعنويّة.^٤

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٧٤٢

٢ المرجع السابق، ص ٧٤٢

٣ المرجع السابق، ص ٧٤٢ - ٧٤٣

٤ المرجع السابق، ص ٧٤٣

المسألة الرابعة: حصوله على التكريم وخطابات التهئة، وهذه المسألة تحتوي على ثلاث نقاط، وبيانها كالآتي:

النقطة الأولى: تلقبه بـ "الشيخ"

كان القرضاوي أحد من روائع ونوابغ وعباقرة الطلاب منذ أيام طفولته، وكان أصغر طالب حفظ القرآن في القرية حيث كان عمره في ذلك الحين تسع سنوات وبضعة أشهر، ولولا الأشهر العشرة التي غابها عن الكُتَّابِ لَحْتَمَ القرآن قبل سنة تقريبًا. وهذا يدل على أذكيائه. خريج من "كُتَّابِ الشيخ حامد أبو زويل". ولولا الأشهر العشرة التي غابها عن الكُتَّابِ لَحْتَمَ القرآن قبل سنة تقريبًا. وهذا يدل على أذكيائه وروائعه ونوابغه وعباقرته. ومن ذلك اليوم سمَّوه أي الشيخُ حامد أبو زويل وغيره (القرضاوي) "الشيخ يوسف" حافظ كتاب الله. كما يلقبون كثيرًا من المسلمين في بنغلاديش وباكستان والهند وغيرها بعد أتم القرآن حفظًا بـ "الحافظ" ويقرنونها باسمه حتى تصبح وكأنها جزء منه.^١

النقطة الثانية: حكاية أخرى لتلقيه بـ "الشيخ":

شارك الشيخ القرضاوي في ندوة عقدها التلفزيون المغربي حول "غزوة بدر" والدروس المستفادة منها، وكان معه فيها مؤرخ الفتوحات الإسلامية اللواء الركن محمود شيت خطاب، المعروف بمؤلفاته ودراساته في السيرة والتاريخ، والعالم المعروف الدكتور عبد السلام الهراس. وكانت الندوة في شهر رمضان سنة ١٤٠٣ هـ الموافق ١٩٨٣ م.

ومن اللطائف: أن الأخ المذيع الذي يدير الندوة، ارتبك عند تقديمهم، فقال: يشترك في هذه الندوة: اللواء الركن يوسف القرضاوي وفضيلة الدكتور محمود شيت خطاب! وضحكوا من ذلك، وألغيت هذه المقدمة. وَقَدْ عَلَّقَ اللواء شيت خطاب قائلًا: إنه ليشرفني أن يطلق على الشيخ محمود خطاب، لا فضيلة الدكتور، فلقب "شيخ" عندي أفضل من دكتور، ومن لواء، ومن أي لقب دنيوي يحرص عليه الناس. وأحب أن يخاطب الشيخ القرضاوي بلفظ الشيخ لا بلفظ الدكتور.^٢

النقطة الثالثة: تكريم شعبي في جدّة بـ "اثنية الشيخ عبد المقصود خوجة، وهنا أربع ملاحظات، وهي:

الملاحظة الأولى: الصديق الوجيه للقرضاوي "عبد المقصود خوجة"

من الشخصيات التي يعزّز الشيخ القرضاوي بصداقتها الأديب والوجيه السعودي المعروف الشيخ عبد المقصود خوجة، الذي يسعى أبدأ إلى صداقة العلماء والدعاة والمفكرين والأدباء والشعراء من بلاد العرب والمسلمين، لا يبغى من وراء ذلك نفعًا ماديًا، ولا مكسبًا أدبيًا، إلا التعرّف على هؤلاء الصّفوة من رجال الأئمة والتعريف بهم، والتنويه بشأهم، وفاءً لهم بما ينبغي لهم من تكريم، وتنبيه الأجيال العربية والمسلمة على مكانهم ومكانتهم، ودورهم ورسالتهم، وأثرهم في أمتهم.^٣

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٩٩ - ١٠٠ (بتحويل).

٢ المرجع السابق، ٢٠١٠م، ج ٤، ص ٢٦٦

٣ المرجع السابق، ص ٧١٠

الملاحظة الثانية: ندوة الاثنيينية

وقد اعتاد الشيخ عبد المقصود أن يعقد في بيته بجدة ندوة تجمع صفوة من المثقفين المستنيرين الفكر، المتنوعي الثقافة، المشغولين بالإصلاح، ليتدارسوا موضوعًا من الموضوعات التي تشغل المجتمع، وذلك في مساء كل اثنين من الأسبوع، لهذا عرفت باسم بإقامة «الاثنيينية». كما اعتاد الشيخ حوجه أن يكرم في كل مدة في إحدى «الاثنيينات» أحد العلماء أو المفكرين البارزين الذين لهم أثرهم في تنوير الأمة، وهدايتها إلى الحق والخير، ومقاومة الباطل والشر. وذلك احتفال كبير، يُدعى إليه جم غفير من الرجال المرموقين في جدة ومكة، وتلقى فيه الكلمات من عدد من المدعوين، ثم تصدر بعد ذلك في كتاب. ويعطى لوحة تذكارية بهذه المناسبة.^١

الملاحظة الثالثة: تكريمه أعلام الأمة

وقد كرم عددًا من أعلام الأمة في الفقه أو الدعوة أو الفكر أو الأدب أو التربية أو غير ذلك من الميادين، فمنهم: الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي، والفقيه الكبير الأستاذ مصطفى الزرقا، والداعية الكبير العلامة الشيخ أبا الحسن الندوي، والداعية والشاعر الكبير الأستاذ عمر بهاء الدين الأميري، والحدّث الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ...

الملاحظة الرابعة: تكريم الشيخ القرضاوي في حفل الاثنيينية

وفي مساء يوم ٢٥ من شهر ربيع الآخر سنة ١٤١٤ هـ أراد الأستاذ خوجة أن يلحقه أي الشيخ القرضاوي بهؤلاء الكبار الأجلاء، فحشره في زمرتهم، ودعا إلى حفل تكريمه الذي حضره عدد كبير من أهل جدة، قيل له: إنه لم يحضر مثله في مثل هذه المناسبة.^٢

المسألة الخامسة: من ملاحظات وتعليقات العلماء الوجهاء عن الشيخ يوسف القرضاوي

وهذه المسألة تحتوي على ست نقاط، وبيانها كالآتي:

النقطة الأولى: قول الدكتور محمد البهي في القرضاوي

حينما رأى الدكتور محمد البهي^٣ نشاط القرضاوي في قطر، سرّ به سرورًا بالغًا، وقال له يومًا: كان ظني بك في محله، وأنتك العالم المرجو لغد هذه الأمة إن شاء الله.

قال القرضاوي له: إنما أنا تلميذ لكم، مستفيد من فكريكم، وأرجو أن أكون عند حسن ظنكم بي. وكان يقول للأزهريين الذين يزورونه: إن القرضاوي لم يأخذ حقّه. إن مكانه الصحيح هو مشيخة الأزهر! (يعني أن يكون شيخًا أي رئيسًا لجامعة الأزهر)! إن الأزهر في حاجة إلى قيادة تجمع بين الفكر والدعوة، وبين الأصالة والتجديد، - وإن علينا - نحن علماء الأزهر - أن نرشح القرضاوي ليقود سفينة الأزهر التي تميل بها الرياح. وكان هذا من حسن ظنه بالقرضاوي، - غفر الله له.

١ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٧١١

٢ المرجع السابق، ص ٧١٢

٣ "الشيخ البهي الخولي"، وكان زميلًا للإمام حسن البنا في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة. وكان الشيخ البهي صافي الذهن، دقيق الفهم، مشرق النفس، قوي الإيمان، عميق اليقين، أحسن الله مثوبته، وأجزل مكافأته. الذي كان الشيخ القرضاوي يزور في بيته بالمطرية، قبل أن ينتقل إلى شارع القصر العيني. وكان ممن تنبّهوا مبكرًا للكتابة في مفهوم الدعوة وغاياتها وأساليبها، وما يجب أن يكون عليه الداعية، فكتب كتابًا بأسلوب أدبي رائع، وهو كتابه الشهير "تذكرة الدعاة". وقد ألف كتاب "المرأة بين البيت والمجتمع". وقد اختير البهي أميرًا على الإخوان في معتقل الطور في سنة ١٩٤٩م. وقد نُويّ الأستاذ البهي الخولي في يوم ٢٧/١٢/١٩٧٧م في مصر رحمه الله وغفر له وجعل مثواه في الجنة.

وكان الزملاء ينقلون إلى القرضاوي قوله. وقد صارحني بذلك في إحدى زيارته له في الفندق، وقال القرضاوي له: يا فضيلة الأستاذ شكر الله لك، حسن ظنك بي. ولكن هل ترى مثلي يصلح لهذا المنصب في هذه الظروف التي تعرفها؟ وهل يقبلون مثلي لهذا الأمر؟! قال الشيخ محمد البهي: هم لا يقبلون، ولكن علينا نحن أن نقنعهم! قال القرضاوي: وهبهم اقتنعوا، هل يطلقون يدي لأنفذ ما أريد؟

النقطة الثانية: الشيخ القرضاوي في نظر إخوان المسلمين

هذا ما يجعل كثيراً من الإخوان يعتبرونه واحداً منهم، وإن أعلن الشيخ القرضاوي استقلاله عنهم، بل ربما اعتبروه كثيرون: مفتيهم الأول الذي يأخذون عنه الأحكام، ويفتون بفتواه، وربما اعتبره الآخرون: مُنظّر الدعوة، الذي يؤصّل مفاهيمها، ويعمق أفكارها، ويرد فروعها إلى أصولها، ويدلّل عليها بالأدلة الشرعية الموثقة، كما يتجلّى ذلك واضحاً في سلسلة: "نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام" وهي تدور حول "الأصول العشرين" للإمام حسن البنا.^١

النقطة الثالثة: كلمة معالي أمير قطر عن الشيخ القرضاوي

اتّصل بالشيخ القرضاوي الدكتور حسن كامل مستشار الأمير، طلب منه لئبعد كلمة مناسبة ليلقيها الأمير في هذا الحفل، وهو كان المؤتمر العالميّ للسنة والسيرة في قطر في سنة ١٩٧٩م، وقال: إن الأمير بنفسه وقع اختياره عليك خاصّة، لما يعلم أن أدري بما يقال في مثل هذه المناسبة. وفعلاً أن الشيخ القرضاوي أعدّ كلمة، وسلّمها للدكتور حسن كامل مستشار الأمير، فقرأها وسرّ بها جدّاً، وقال للشيخ القرضاوي: كنتُ أظنك رجل دين ممتازاً، والآن علمتُ أنك تفهم في السياسة أيضاً.

النقطة الرابعة: تصريح الأستاذ عمر عبيد حسنة عن الشيخ القرضاوي

ولا شكّ في أن الأخ الدكتور يوسف القرضاوي يعتبر من أبرز الفقهاء المعاصرين الذين يتمتعون بقدرة متميّزة على النظر الدقيق من خلال كسبه المتعمّق للعلوم الشرعيّة، وتجربته الميدانيّة في مجال العمل الإسلاميّ، كما هو يعتبر من المفكرين الذين يمتازون بالاعتدال، ويجمعون بين محكمات الشرع ومقتضيات العصر، وتجمع مؤلّفاته بين دقّة العالم، وإشراق الأديب، وحرارة الداعية.^٢

النقطة الخامسة: ملاحظة الشيخ محمد يونس عن الشيخ القرضاوي

قال الشيخ محمد يونس الذي كان رئيس "جامعة فئياً الإسلاميّة" في شيتاغونغ بجمهورية بنغلاديش الشعبيّة مخاطباً لطلابها: هذا الرجل يعني الأستاذ الدكتور الشيخ القرضاوي آية من آيات الله وهو في شيتاغونغ في ذلك الوقت، كنتنا نظنه داعية عصرئاً قليل البضاعة من العلوم الأصليّة، فإذا هو بحر ثجاج جمع بين القدم والحديث، وما رأيت مثله!

النقطة السادسة: ملتقى الفكر الإسلاميّ ١٩٨٨م في مدينة «بو حنيفة» عن الحياة الروحيّة في الإسلام

انعقد هذا المؤتمر في هذه المدينة «بو حنيفة» في ولاية «معسكر» وهي بلدة مشهورة بما فيها من حماحات معدنية، يأتي إليها الناس قاصدين من داخل الجزائر وخارجها. وكان موضوع الملتقى من الموضوعات المهمّة، والموضوعات الشائكة أيضاً، وهو ما يتّصل بما يسمّى «الحياة الروحيّة في الإسلام» أي: بالتصوّف والسلوك، وهو موضوع مختلف فيه بين الطرفين وواسطة.

١ ألفقرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٣١

٢ فقه الدعوة: ملامح وآفاق، مجلّة القطرية الشهيرة، «الأمّة»، عدد ١٩، فبراير ٢٠٠٢م، ص ١٥١

وفيها ثلاث ملاحظات، وهي:

الملاحظة الأولى: تعليق دعاة التصوّف ومعارضيه على محاضرة الشيخ القرضاوي

بعد محاضرة الشيخ القرضاوي بمناسبة المذكورة، علّق عليها كثيرون من دعاة التصوّف من يعارضيه، مثنين عليها وعلى توازنها، وعلّق صديق الأستاذ القرضاوي الدكتور محمّد سعيد رمضان البوطي، فقال: 'لقد كشف لنا الدكتور يوسف القرضاوي أن بداخله صوفيًا عميقًا، يُخفيه عنا بأقواله حول السلف والسلفية، والعقل والعقلانية.

وقام الشيخ محمّد الغزالي وعانقه، وقال له: 'لقد كنت موفقًا غاية التوفيق في عرض الموضوع، وترتيب أفكاره، وشرحها والاستدلال عليها، وكنت أنظر إليك كأن ملكًا يسدّدك..

وقال عبد الوهاب حمودة: إنك لم تكن تتكلّم، ولكن كنت تتدقّق كالسحاب المطر، أو تفيض كالبحر الزاخر.

وقال الشيخ عبد الرحمن شبّان، وغيرهم من الحاضرين ما قالوا، وأنا أقول للجميع ما قلّه سيّدنا شعيب عليه السلام، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [٨٨].^١

الملاحظة الثانية: تعليق «بو القايد» على محاضرة الشيخ القرضاوي

وكان من أهم التعليقات التي سمعها في ذلك الملتقى: 'كلمة سمعها وهم على الغداء من الرجل الصوفي الأوّل في الجزائر، والذي يتبعه الكثيرون من أبناء الجزائر، وكان الشيخ الروحي المفسّر الكبير الشيخ محمّد متولي الشعراوي، وأخذ عليه العهد عندما كان معارًا من الأزهر إلى الجزائر رئيسًا لبعثتها، ذلكم هو الشيخ «بو القايد»... لقد جلسوا على مائدة واحدة عند الغداء، وجرى الحديث عن محاضرة الشيخ القرضاوي، ومدى ما كان فيها من توفيق في حسن شرح المنهج الإسلاميّ حول الجانب الربّاني، الذي هو لباب الدين كلّّه، حيث قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٦٢].^٢

الملاحظة الثالثة: نعمة اللّوعة

وهنا قال للشيخ بو القايد: 'اسمع يا شيخ يوسف، أقول لك: إن الله أعطاك نعمة خاصّة، لا يعطيها إلا القليلين من عباده، ولم أراه أعطاها لأحد ممن سمعت.' قال الشيخ القرضاوي: حفظك الله، هل لي أن أعرف هذه النعمة؟ قال: ربي أعطاك «اللّوعة» التي تجعل لكلامك مذاقًا غير مذاق الآخرين، ووقعا في النفوس غير وقع الآخرين... فالحمد لله على هذه النعمة، التي لست تتكلفها تكلفًا، بل هي منحة من الله، لو تكلفتها لفسدت.^٣ قال الشيخ القرضاوي: 'أرجو أن يعينني الله على شكرها' وأن تجعلني أهلا لها، وأن أكون عند حسن ظن إخواني المسلمين، وأن يغفر لي ما لا يعلمون.

١ القرآن الكريم، هود (١١)، الآية [٨٨].

٢ القرآن الكريم، الأنعام (٦)، الآية [١٦٢].

٣ القُرْصَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٥٤١ - ٥٤٢

المبحث الثالث: نشاطاته المتنوعة والمتعددة

وهذا المبحث يحتوي على نشاطاته المتعلقة بالجلسات والحلقات والمحاضرات والدروس والمؤتمرات والندوات والملتقيات والخطب وغيرها، وفيه سبعة مطالب، وتفصيلها كالآتي:

المطلب الأول: القرضاوي وإخوان المسلمين، وهذا المطلب يتناول اثنتي عشرة مسألة، وبيانها كما يأتي:

المسألة الأولى: مع الإخوان... حسن البناء شيخ وأستاذ وقائد

قال الدكتور يوسف القرضاوي: حظيت بالاستماع إلى الشيخ الإمام حسن البناء، منذ كنت طالبا في السنة الأولى الابتدائية. وأعجبت بشخصية الرجل، وملك حبه قلبي، وإذا كانوا في عالم العشاق يتحدثون عن الحب من أول نظرة.

لقد تعلق فؤادي بحسن البناء، تعلق المرید بالشيخ، والتلميذ بالأستاذ، والجندي بالقائد، وإن كنت لم أصبح جندياً في جماعته إلا بعد ثلاث سنوات، ولكنني كنت أترقب قدومه إلى طنطا، لأسعى إلى الاستماع إلى حديثه المنفرد، وقد جاء مرة إلى طنطا لإحياء ذكرى الإسراء والمعراج، وسمعت منه ما لم أسمع من غيره في هذه المناسبة. وأهم ما تبّه عليه في هذه المناسبة: التذكير بقضية المسجد الأقصى، منتهى رحلة الإسراء، ومبتداء رحلة المعراج، وواجب الأمة المسلمة نحو مقاومة المشروع الصهيونيّ وقد كان الرجل من القلائل الذين أدركوا خطر الصهيونية، وحذروا منه وأندروا في وقت مبكر، وكان يعيش في قضية فلسطين، أو قل: تعيش فيه قضية فلسطين.^١

على أن أعظم زيارة لمدينة طنطا، تجلّت فيها عبقرية حسن البناء، وتحدّث فيها فأبلغ وأبداع وأشبع، كانت حين عقد المؤتمر العام للإخوان المسلمين لشرح المطالب القوميّة. وكان هذا أحد مؤتمرات الإخوان التي تعقد في عواصم المديریات في مصر لشرح الأهداف الوطنيّة، التي هبت الأمة بعد انتهاء الحرب العالميّة الثانية للمطالبة بها.

أقيم سُرَادِقٌ كبير في ميدان البلدية بطنطا، حضره جمٌّ غفير من أبناء طنطا ومن الغريّة من مراكزهم المختلفة، وتحدّث فيه عدد من خطباء الإخوان، منهم الأستاذ أحمد السكري وكيل الإخوان، والأستاذ نصيب ميخائيل، وهو باحث قبطي مصريّ كان يصطحبه الأستاذ البناء في مؤتمراته المختلفة، ليتحدّث عن قضية قناة السويس وحقّ مصر فيها، وهو من المتخصّصين في هذا المجال الذي يهتمّ به البناء ويعرف قيمته. وكان يهدف بهذا إلى تجميع عنصريّ الأمة من المسلمين والأقباط لمواجهة الاستعمار البريطانيّ، وقطع الطريق على الذين يصيدون في الماء العكّر، ليفرّقوا بين أبناء الشعب الواحد، وإشعال نار الفتنة الدينيّة بينهما. وكان الأستاذ البناء على وعي بالأعياب الاستعماريّة الذي جعل شعاره (فرق تسد)؛ فكان على صلة حسنة بزعماء الأقباط، حتى أشرك بعضهم في اللّجنة السياسيّة للإخوان. وقد احتفى الشيخ القرضاوي به طنطا، واحتشد له جمع كبير من الشباب وغير الشباب، وأقيم له سرادق كبير، تكلم فيه أكثر من واحد، منهم الطالب محمود دبور بالمدرسة الثانويّة. كما ألقى في هذا الحفل قصيدة وطنيّة.

المسألة الثانية: قصيدته في دار الإخوان وانضمامه إليهم

فقد دعاه بعض شباب الإخوان المسلمين إلى إلقاء قصيدة في افتتاح الموسم الثقافيّ بدارهم قرب "ميدان الساعة" بعد أن ذاع صيته أي شُهْرته بين طلاب المعهد بقول الشعر. وفعلاً أعدّ قصيدة قافية القافية، وألقاها بالدار، وكان لها وقع طيّب في نفوس الإخوان، ولا سيّما بين الشباب. فمنها: قلبي يحسُّ برحمة تتدفّق ويرى الملائكة حولنا قد أحدقوا

١ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٢٢٩

وقد سأله الإخوان في هذه الليلة: لماذا لا تنضم إلى الإخوان؟ فقال لهم: وكيف المرء ينضم إلى الإخوان؟ قالوا: تملأ استمارة انضمام إليهم، فتصبح بذلك واحدا منهم. فقال لهم: هاتوا لي استمارة وأنا أملاها في الحال، فالواقع أنه يعتبر نفسه واحدا من الإخوان، وإن لم يكتب هذه الاستمارة، منذ سمع المرشد العام الأستاذ حسن البنا رحمه الله في السنة الأولى. وملأ الاستمارة وأصبح من ذلك الوقت عضواً رسمياً في الإخوان، وقالوا له: يمكن أن تمارس نشاطك في قسم الطلاب باعتبارك طالباً في المعهد.^١

وكان رئيس قسم الطلاب شاباً ذكياً نشيطاً، اسمه إبراهيم مصطفى، وقد بدأ يلتقى به، ويتلقى التعليمات منه. وفي دار الإخوان التي جُمعهم في المساء، وخصوصاً أيام الخميس والجمعة، تُعرّفهم على عدد من الطلاب، منهم محمد الصفاوي، وسعد الدين العراقي، وعبد العزيز الزير، وغيرهم.

المسألة الثالثة: درس له في معتقل الطور

وفي بعض الأيام طلب الشيخ الغزالي من الشيخ القرضاوي أن يلقي درساً بالنيابة عنه، فألقى درساً لا يزال يذكر عنوانه: لا ندم على الماضي، ولا جزع من الحاضر، ولا يأس من المستقبل.^٢

واستدللت بالقرآن والحديث والحكم والشعر على ما أوردت من مفاهيم، ومما أذكره ما قتله في الندم على الماضي: التذكير بالحديث الصحيح عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وَأَسْتَعِنُ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَتْ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلْ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ».^٣

المسألة الرابعة: صلاة التراويح بجزء من القرآن كل ليلة

كان للشيخ القرضاوي نشاط آخر بجوار درس العصر، هو صلاة التراويح، فقد اقترح الأخ أحمد العسال، وكانوا يسكنون متجاورين في منطقة أم غويلينة: أن يؤمهم في صلاة التراويح بجزء من القرآن كل ليلة، كما كانوا يفعلون في رمضان الثاني بالسجن الحربي في مصر. فقال الشيخ القرضاوي له: هذا اقتراح طيب، ولكن علينا أن نستأذن الإخوة القطريين الذين يصلون معنا في المسجد عادة، فرمما يستطيعون هذه الصلاة، واستأذناهم ورحبوا.^٤ وبدأوا الصلاة بصف أو صفين ونصف في هذا المسجد الصغير - وهو مسجد جماعة - بمنطقة أم غويلينة، ويسمى: "مسجد الرفاع". وما هي إلا أيام حتى ازداد عدد المصلين، خصوصاً من المصريين والفلسطينيين والباكستانيين والهنود.

وكان القرضاوي يصلي ثماني ركعات، غير الشفع والوتر، وبعد الأربع الأولى يلقي درساً يدور حول آية أو أكثر من الآيات التي قرأها، وأحياناً يقدم الشيخ عبد المعز عبد الستار إذا حضر معهم، أو الشيخ العسال، لإلقاء الدرس. وفي السنة الثانية، كثر رؤاد صلاة التراويح. وفي كل سنة يزداد العدد، وقد وسع المسجد أيضاً، ولكنه ضاق بالمصلين، فانتقل إلى مسجد أكبر في نفس المنطقة التي يسكنون فيها، وهو مسجد "بنة الدوريش".

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ١٤٨ - ١٤٩

٢ المرجع السابق، ص ٣٨٧

٣ النيسابوري، مسلم، الصحيح لمسلم، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، (بيروت، دار إحياء التراث العربي)، رقم الحديث: ٢٦٦٤، ج ٤، ص ٢٠٥٢

٤ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (المرجع السابق، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٤١٦ - ٤١٧

ثمَّ ازداد العدد والإقبال مع بروز الصحوة الإسلاميَّة المعاصرة في أواسط السبعينات من القرن العشرين، فانتقلوا إلى جامع الشيوخ، وهو أكبر المساجد وأوسعها، ومع هذا كان يضيق بهم، ولا سيَّما في بعض الليالي مثل ليالي الجمعة والسبت، ويضيق أكثر وأكثر في ليلة السابع والعشرين من رمضان، وليلة ختم القرآن في آخر رمضان.

وفي سنوات الأخيرة بعد أن ابتلي بوجع الركبة، أصتح القرضاوي يوكل بعض الإخوة من أئمة وزارة الأوقاف في القيام بنصف الصلاة، ويقوم هو بالنصف الآخر، فيما عدا ليلة الختم، فهو حريص على أن يقرأ الجزء الثلاثين - جزء عم - كله، وأن يدعو ويطلب الدعاء.

المسألة الخامسة: حلّ الإخوان ومعتقل الطور

أثمَّ الإخوان بالعنف ووصفهم بالإرهاب افتراء عليهم لأنهم لم يفكروا في الانتقام من جلاديهم. لم تنته المرحلة الثانويَّة بالنسبة للشيخ القرضاوي بعد، ولكنه أراد أن يفرد الفترة القادمة منها بفصل خاص، لما وقع فيها من أحداث كبار، وأهوال جسام، كان لها أثرها في حياته ومسيرته خاصَّة، وسيرة الدعوة الإسلاميَّة والشعب المصريِّ والعربيِّ عامَّة.^١

المسألة السادسة: نشاط دعوى مكثف

كانت المرحلة الثانويَّة بالنسبة له منطلق النشاط الدعوى الإخواني المكثف، فقد كان يعمل (القرضاوي) في الإخوان في ميدانين أو قسمين أساسيين: قسم الطلاب، وقسم نشر الدعوة. وكان يتحرَّك في نشر الدعوة على مستوى مديريَّة الغريَّة. وكانت الغريَّة في ذلك الوقت تشمل كلَّ ما يسمَّى اليوم محافظة "كفر الشيخ" وكذلك محافظة "دُمياط" ما عدا مدينة دمياط نفسها، وجزءاً ممَّا دخل اليوم في محافظة "الدقهلية".^٢

وكانت طلبات البلاد المختلفة تأتي إلى قسم الدعوة بطنطا تلح عليهم بإرسالة (الداعيَّة المحبوب) يوسف القرضاوي. وكان الإخوة المسؤولون عن الدعوة في طنطا يقولون له: ماذا نفعل أمام هذه الطلبات المتكاثرة والمتكررة، وقد رزقت حبَّ الناس؟

المسألة السابعة: ما بعد المرحلة الجامعيَّة:

استمرَّ نشاطيَّ المعتاد داخل الإخوان في المجالات التي كان للقرضاوي بها صلة قويَّة: في قسم نشر الدعوة، حيث يذهب إلى بعض المحافظات في مناسبات مختلفة، وفي قسم الاتِّصال بالعالم الإسلاميِّ، حيث كان يُشرف على عدد من الإخوة السوريِّين، وفي قسم الطلاب، حيث كان مسؤولاً عن طلاب الأزهر في كليَّاته الثلاث، وفي معهد القاهرة، وهو مجال نشاطيَّ الأول.

وكان من أهمِّ الأنشطة التي أقاموها في هذه المرحلة: المؤتمر الأزهرِّي العام، الذي كان عقَّد في ساحة كليَّة الشريعة وكليَّة اللغة العربيَّة، في مبانيهما الجديد بالأزهر، وقد حضر هذا المؤتمر طلاب الكليَّات الثلاث، وطلاب معهد القاهرة الدينيِّ، وكان مطالب أبناء الأزهر فتح باب الدراسات العليا، لطلاب الأزهر كغيرهم، وفتح باب الكليَّات العسكريَّة - مثل: الحربيَّة، والشرطة - أمامهم، والعمل ملحقين دينيِّين سفارات مصر، وفتح مجالات العمل في المصالح والوزارات المختلفة أمام أبناء الأزهر، وفتح معاهد للطلبات... إلخ

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريَّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٣١٣

٢ المرجع السابق، ص ٢٦٠

المسألة الثامنة: تأييد مرشحي الإخوان في الانتخابات ودور القرضاوي فيها

وكان من أهمّ جُلُوات النشاط العلنيّ الذي قام القرضاوي به في هذه الفترة: تأييد مرشحي الإخوان في الانتخابات، فقد رشّح عدد منهم في بعض الدوائر، وكان ذلك لغاية مهمّة، وهي أن الانتخابات تتيح لهم - رسميًا - الحديث عن الدعوة وأهدافها ومُجَرّاتها ومستقبلها، وإن لم يكن لديهم أمل في النجاح.^١

رشّح الشيخ الباقوري في دائرة القلعة، والأستاذ طاهر الخشاب في العباسية، والأستاذ مصطفى مؤمن في الجيزة، والأستاذ علي شحاته في شبرا، والشيخ عبد المعز عبد الستار في فاقوس، والأستاذ فهمي أبو غددير في الواسطي وأسيوط. وكانوا ينتقلون من دائرة إلى أخرى ليشاركون في المسيرات المؤتدة، أو في حملات الدعاية، بدفّاع من أنفسهم، ورغبة صادقة في مساندة إخوانهم، الذين لا يملكون من وسائل الدعاية والتجنيد ما يملك خصومهم المرشّحون. ثمّ إن الإخوان طلبوا إلى القرضاوي أن يسافر إلى أسيوط ليسهم في تأييد مرشّح الدعوة المحامي فهمي أبو غددير، الذي رشّح نفسه في دائرتين، وقال أبو غددير: إن قصدي ليس النجاح، ولكن إحياء الدعوة في الدائرتين، وكان معه في هذه الرحلة الأخ أحمد العسال.

وقد قاموا بجهد طيّب - والله الحمد - في زيارة قرى دائرة الوسطى، حدّثوا الناس عن الإسلام، ودوره في علاج مشكلاتهم، وبناء حياتهم على أسس صالحة، كما أن الأمة في حاجة إليه لتحريرها من الاحتلال البريطاني، وتحرير فلسطين من الاحتلال الصهيوني.

وبعد رجوعه (القرضاوي) من أسيوط كلّف أن يسافر إلى "فاقوس" بالشرقية، لتأييد مرشحها، فضيلة الشيخ عبد المعز عبد الستار، وبقي هناك نحو أسبوع، ينتقل في أحياء فاقوس، وفي قرى الدائرة، لمساندة ابنها البار، علمها الحليل، وخطيبها المُفَوّه، الذي دوى صوته في جنبات الأزهر، وفي أنحاء مصر، ووصل إلى فلسطين، فهزّ المنابر، وأيقظ المشاعر، وزلزل عروش الظالمين. وعاد بعد ذلك إلى القاهرة، ليوصل نشاطه الدراسي والدعوي.

وقد جرّت الانتخاب بعد أيام قليلة، ولم ينجح أي مرشّح من الإخوان، وهو ما كان متوقّعا، فالانتخابات فنّ لم يُتقنه الإخوان بعد، ويحتاج إلى تهيئة وإعداد طويل.

المسألة التاسعة: اجتماع تاريخي للإخوان مع الشيخ القرضاوي

التقى بـ الشيخ القرضاوي ثلاثة من كبار الإخوان المسلمين في خلال المؤتمر العالميّ الأوّل في الاقتصاد الإسلاميّ تحت إشراف المملكة العربيّة السعوديّة في السنة ١٩٧٦م. وهم: الأستاذ هارون المجددي، الذي كان مسؤولاً عن الإخوان المصريين في خارج أيام محنة ١٩٦٥م وأعقابها، والأستاذ صالح أبو رُقَيْق عُضُو مكتب الإرشاد، وأحد القيادات التاريخيّة في الإخوان، والذي كان قريباً من الأستاذ الهضيبي،^٢ والأستاذ محمود أبو السعود عضو الهيئة التأسيسية، وأحد الإخوان القدامى، والاقتصاديّ الإسلاميّ البارز، وقد عرّضوا على الشيخ الدكتور القرضاوي أمراً في غاية الأهميّة، قالوا: إن الأستاذ الهضيبي المرشد الثاني للإخوان قد انتقل إلى رحمة الله تعالى، وأصبحت الجماعة في فراغ من القيادة، والإخوان في هذه المرحلة في حاجة إلى قيادة شابة واعية مؤمنة، تجمع بين فقه الشرع، وفقه العصر، والإخلاص للدعوة، تجتمع عليها كلمة الإخوان، ولم نجد أحداً تجتمع فيه هذه الصفات غيرك (أي الشيخ الدكتور القرضاوي)، ونحن نتحدّث بلسان من وراءنا من الإخوان، وهم كثيرون، فإن كنت حريصاً على مصلحة الدعوة التي نشأت فيها، وأفنيّت زهرة شبابك في

١ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٤٢٤

٢ هو كان مرشد الثاني للإخوان المسلمين (Muslim Brotherhood) بعد المرشد الأوّل "حسن البنا".

إعزازها ونشرها والدُّؤدُ عنها، حريصًا على جمع كلمة أبنائها، حريصًا على أن تستمر الدعوة وتتقدّم إلى الأمام بوعْيٍ وبصيرة وتبّاتٍ وقوّة، فتوكّل على الله، وأقبل هذا الأمر، مُحتسبًا عند الله، مُبتغيًا الأجر منه، لتكتمل الطريق الذي بدأه حسن البناء، وخلفه حسن الهضيبي!

واستمرّ الإخوة يتحدّثون بعضهم وراء بعضٍ، ليقنعوا الشيخ القرضاوي بقبول ما عرضه عليه، وأن في ذلك الخير للإسلام ودعوته وأمته أن شاء الله، وإنما لكلّ امرئ ما نوى.

قال الشيخ القرضاوي للإخوة: إن ما عرضتموه عليّ ليس بالأمر الهين، بل هو أمر جليل، وهو قيادة دعوة علميّة في ظروفٍ غير مُرتابّة، وقد فاجأتموني بهذا الطلب، الذي ما فكّرْتُ فيه قطّ، فما كنت في الجماعة إلا جندياً من جنودها، لم أتطلع يوماً إلى زمام القيادة، لتكون في يدي، وهذه منّة من الله عليّ، أي لست من الذين يجرون خلف سراب الرّعاة وكأنها طبيعة في لا مُتكلّفة ولا مُفتعلة.

قال الإخوة: وهذا مما يزيدنا تمسكًا بك، وإصرارًا عليك، وأنت تعرف الحديث الذي يقول ما معناه: "إن أعطيتها بغير سؤال أعنت عليها، وإن أخذتها بسؤال وكلت إليها. والحديث ما حدّث الرّحمنُ بنُ سُمرة، قال: قال لي رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سُمَرَةَ لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ، فَإِنْ أُعْطِيَتْهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وَكَلْتِ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيَتْهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعْنِتْ عَلَيْهَا، وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، فَأَتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ».^٢

قال الشيخ القرضاوي لهم: أعطيني مُهلهة أفكّر فيها على مهلٍ، أشاور نفسي، وأراجع حساباتي، وأستشير ربّي، وأستشير بعض إخواني، ثمّ أردّ عليكم، وإن كنت مبدئيًا لا أراي أهلاً لهذا الأمر. قالوا: نعطيك شهرين للتفكير والمراجعة. قال الشيخ القرضاوي: لا بأس بذلك.^٣

المسألة العاشرة: القرضاوي والجهاز السريّ "النظام الخاص"

أما تهمّة الاشتراك في الجهاز السريّ أو النظام الخاص، المذكور علاقته به كيف كانت، ومتى كانت. في يوم من الأيام، وهو في مدينة المحلّة الكبرى، على الإمكان ذلك كان بعد أن خروجه من الاعتقال الأول في مارس ١٩٥٤م، جاء عنده أحد الإخوان القدامى المعروفين في المحلّة، وهو الأخ سليمان مطاوع، وقال له: إن أخًا مهمما هنا يريد أن يلقاه على انفراد.

قال القرضاوي له: هل جاء من طنطا أو من القاهرة؟

قال سليمان مطاوع: لا، بل هو يعمل في المحلّة ذاتها.

قال القرضاوي له: هل هو من الإخوة الذين يعرفه؟

١ ألفردّناوي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٤١٧ - ٤١٨

٢ البخاري، *الجامع الصحيح للبخاري*، [المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي]، باب من سئل الإمارة وكل إليها، (دار طوق النجاة [مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي]، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ)، رقم الحديث: ٧١٤٧، ج ٩، ص ٦٣، والنيسابوري، *الصحيح لمسلم*، باب نذب من حلف بيمينًا فرأى غيرها خير، [بيروت، دار إحياء التراث العربي، رقم الحديث: ١٦٥٢، ج ٣، ص ١٢٧٣

٣ ألفردّناوي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (المرجع السابق، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٤١٨

٤ كان النظام الخاص يشكّل جماعة داخل الجماعة، أو كما يقولون: دولة داخل الدولة، بل كان يعتبر نفسه هو الجماعة الحقّة، وما الآخرون إلا "ديكور" وزينة، أو كثرة كغشاء السيل.

قال سليمان مطاوع: لا، إن ظروفه تحتم عليه ألا يظهر مع الإخوان.
قال القرضاوي له: لا بأس ولا حرج أن يلقاه. عرفه "عبد الحميد الرفاعي" بعد الذَّهَابِ إلى منزله. وقال: وهل يعرف الأستاذ محمد عبد العال - رئيس الإخوان بالحلَّة - بهذا الأمر؟
قال سليمان مطاوع: لا؛ لأن الأوضاع من حولنا تقتضي أن يكون عملنا سرِّياً.
قال القرضاوي له: لا مانع أن يكون العمل سرِّياً في بعض الأحيان، وقد قال سيّدنا يعقوب لابنه يوسف: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [٥].^١
ولكن ألا يعلم المسئول في الإخوان ما يجري في منطقتهم؟
قال سليمان مطاوع: في بعض المناطق يكون المسئول عن المنطقة هو المسئول عن التنظيم الخاصّ، ولكن ليس في كلّ منطقة.
قال القرضاوي له: وما هو المطلوب منّي؟
قال سليمان مطاوع: العناية الثقافيّة والروحيّة بأعضاء التنظيم.
قال القرضاوي له: هذا ما أقوم به بالنسبة لجميع الإخوان.
قال سليمان مطاوع: نريد جَرَعاتٍ أقوى، وعناية أكبر للشباب المنتظمين معنا. وقد قال لي الحاج: إنك الموجه الروحيّ للنظام في مديرية الغربية.

قال القرضاوي له: من الحاج؟

قال سليمان مطاوع: الحاج أحمد البس.

هذا مع أن القرضاوي لم يبايعه لا هو ولا غيره، والبيعة من شروط الانضمام إلى التنظيم. كما لم يقل له أيّ كلمة تفيد قبوله الانضمام إليه، ولم يشارك في أيّ عمل خاصّ ينفرد به النظام، ولا طلب من القرضاوي ذلك.
هكذا كانت العلاقة بين القرضاوي وبين "النظام الخاص" أو "الجهاز السريّ". ونستطيع أن نقول باعتبار الحوار المذكور: وهي علاقة لا في العير ولا في النفير.^٢

المسألة الحادية عشرة: الحملة على القرضاوي والعسال

قال القرضاوي: ومن الدُّكْرِيَاتِ الْمُؤَلِّمَةِ التي لا أنساها: أن الإخوان كان لهم نَشْرَةٌ سِرِّيَّةٌ تصدر في هذا الوقت تحت عنوان: "الإخوان في المعركة" تهاجم الثورة ورجالها بِعُنْفٍ، وتتضمّن المنشورات الثورة التي تصدر عن قيادة الإخوان، مثل: منشور عنوان: "هذه الاتفاقية لن تمرّ؛ يعني: الاتفاقية التي عُقِدَتْ مع الإنجليز" وآخر بعنوان: "خمسة وعشرون مليوناً يُباعون في سوق الرقيق". وكان ينسب إلى الأستاذ سيّد قطب أنه محرّر هذه المنشورات الثوريّة بقلمه.

وقد أذاعت هذه النشرة نبأ قالت فيه: إن القرضاوي والعسال قد مرّقا من الدعوة، انضمّا إلى رُكْبِ الخونة، وعلى الإخوان أن يَحْدُرُوا منهما! وقد استجاب الإخوان لذلك حتى قابلني بعض الإخوة الذين كانوا يعتبرون من تلاميذي، فأعرضوا عني، وأنا وبجانهم، وبعضهم قال لي: لن يعدّ بيننا وبينك رباط.^٣

١ القرآن الكريم، يوسف (١٢)، الآية [٥].

٢ الْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ١٤٢-١٤٦ باختصار

٣ المرجع السابق، ص ٧٩

وهذا أمر شائع في الإخوان، المذكور أنه بعد أن صدر أمر بفصل الشيخ الغزالي، والأستاذ صالح ع شماوي، والدكتور محمد سليمان، والأستاذ أحمد عبد العزيز جلال، وكانوا في معتقل العامرية، وكان القرضاوي يتحدث مع أحد وعَاطِ الإخوان المعروفين، وجاء ذكر الشيخ الغزالي لم يعدّ أبا لهم، لا هو ولا إخوانه المفصولون من الجماعة.

قال القرضاوي: لم يعدّ أبا لنا في الجماعة، ولكنه بقي أبا لنا في الإسلام.
قال الغزالي: إن عمله فصل ما بيننا وبينه.

قال القرضاوي: هل يهدم تاريخ الشخص وجهاده كلّ بَزَلَةٍ واحدةٍ يُزْهَأُ؟ إن الله سبحانه لو عامل الناس بهذه الطريقة لدخلوا جميعاً جهنم.

إن الرسول الكريم الله علّمنا أن الإنسان تُشْفَعُ له سَوَابِقُهُ، وتُغْتَفَرُ له بعض سيئات حاضره من أجل مآثر ماضيه، وقد قال لعمر في شأن حاطب بن أبي بلتعة، وقد ارتكب ما يشبه الخيانة للرسول وجيشه: قال عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَافِعٍ، وَهُوَ كَاتِبُ عَلِيٍّ، قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ يَقُولُ: قَالَ عُمَرُ: دَغْنِي، يَا رَسُولَ اللَّهِ أَضْرِبَ عُتُقَ هَذَا الْمُتَافِقِ، فَقَالَ: «إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ عَفَرْتُ لَكُمْ»^١.

المسألة الثانية عشرة: صلاة عيد الأضحى في ميدان عابدين

في سنة ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧م دُعي الشيخ القرضاوي من الدوحة إلى القاهرة ليؤمّ الناس في صلاة عيد الأضحى في ميدان عابدين الشهير، حيث يجتمع عشرات الألوف من الشباب لأداء صلاة العيد حسب السنّة في الخلاء لا في المساجد، ليجتمع المسلمون في هذه المناسبة السعيدة، في صورة مهرجان إسلامي بهيج. وقد بدأوا في أوّل الأمر بأعداد محدودة، ظلّت تتكاثر عيداً بعد عيد، يحتشد فيها الرجال والنساء والصبيان، فرحين مستبشرين، لا يهتفون باسم مخلوق، ولا يرفعون لافتة بلد أو جنس أو حزب بل يهتفون باسم الله وحده: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر، الله أكبر، والله الحمد!

وكان أوّل تجمع جماهيري فاق ما قبله من تجمّعاتٍ في عابدين سنة ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م، وقد سبقته دِعاية واسعة، وفكر الشباب في خطيب يجتمع الناس عليه، ويهرعون إلى استماعه، فكان فضيلة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي هو الذي اختاروه، واستدعونه من قطر، ليشاركهم في احتفالهم الكبير، ويخاطب هذه الجماهير.

والواقع أن الشيخ القرضاوي اعتاد أن يؤمّ الناس في صلاة العيد في قطر في أحد مُصَلِّيَاتِ العيد المهيأة خارج المساجد، ولا يحبّ أن يغادر الدوحة الأعياد. ولكن هذه المناسبة التي ذكرها له الشباب، وحرصه على ألا يخيب أمل هذا الشباب المؤمن الواعد الصاعد؛ جعلته يُلبّي دعوتهم بصدر منشرح، ونفس مطمئنة، مُحْتَسِبًا هذه الرحلة عند الله سبحانه، وقال تعالى في شأن أهل الجهاد: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [١٢١].^٢

١ البخاري، الجامع الصحيح للبخاري، باب لا تتخذوا عدوّي وعدوكم أولياء، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ)، رقم الحديث: ٤٨٩٠، ج ٦، ص ١٤٩، والنيسابوري، مسلم، الصحيح لمسلم، باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم، (بيروت، دار إحياء التراث العربي)، رقم الحديث: ٢٤٩٤، ج ٤، ص ١٩٤١

٢ القرآن الكريم، التوبة (٩)، الآية [١٢١].

وهكذا ألقى الشيخ القرضاوي الخطبة عيد الأضحى في نفس المكان "عابدين" في سنة ١٣٩٨ هـ الموافق ١٩٧٨ م وفي سنة هـ في سنة ١٤٠٠ هـ الموافق ١٩٨٠ م.

قال الشيخ القرضاوي في هذه الخطبة: من أراد أن يرى مصر على حقيقتها بدون تزويق ولا تشويه، فليرها هنا، في هذا الشباب، الذي أثر آخرته على دنياه، وأثر الخالق على الخلق... شباب اختارهم الله لنصرة دينه، يحبهم ويحبونه، لا يخافون في الله لومة لائم، تائبون عابدون حامدون، راعون ساجدون، أمرون بالمعروف، ناهون عن المنكر، حافظون لحدود الله... هذه هي مصر الحقيقة، من أراد أن يعرف حقيقة مصر وجوهرها، فلا يبحث عنها في شارع الهرم، ولا في ملاهي الليل، ولكن ليبحث عنها هنا. هذا الشباب هو أغلى ثورة لمصر. إنه أغلى من الذهب الأبيض "القطن" وأغلى من الذهب الأسود "البترو" وإلى من الذهب الأصفر المعروف.

وكان السنن الحميدة التي أرساها هؤلاء الشباب: دعوة المرأة للمشاركة في صلاة العيد، كما كانت في العهد النبوي، وإنما النساء شقائق الرجال، والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض. وقد خصصوا للنساء أماكن، تجتمعن فيها بعضهن مع بعض، كما أغروا الصبيان والبنات بالهدايا الملائمة ليحرصوا وليحرصن على الحضور والمشاركة... وبعد الصلاة والخطبة والمصافحة: انصرف الجميع بسلام وهدوء.^١

المطلب الثاني: القرضاوي وطلاب المعهد وجامعة الأزهر

وهذا المطلب يتضمن سبع مسائل، وبيانها كالآتي:

المسألة الأولى: زعامة المعهد

كان الطلبة - ولا يزالون - صوت الأمة الحي، والمعبر عن إرادتها وحيويتها، ولا سيما في أوقات الأزمات التي تحيط بالوطن، والأخطار التي تُهدد به، وهم الذين يقودون الرأي العام الوطني، في مواجهة الاستعمار، وذلك لأسباب ثلاثة تتوافر في الطلبة دون غيرهم:

- الأول: أن الطلبة شباب، والشباب يتميزون بالمشاعر الثورية، والعزائم الفتية، والنفوس الأبية.
- الثاني: أنهم - لأنهم على حظ من التعليم - أكثر وعياً بقضايا وطنهم وأمتهم.
- الثالث: أنهم مجتمعون في مكان واحد، وتجمعهم بمنحهم قوة وقدرة على الحركة والتأثير.

وقد كان من فضل الله تعالى على القرضاوي أن رشحه طلاب المعهد بكامل حريتهم وإرادتهم لقيادتهم عنهم، وقد أتاه الله القدرة على خطاب الجماهير وتحريكهم بمثيرات الشعر والنثر. ومعه من الأعوان والأقوياء الأمناء أمثال العسال والصفطاوي والعراقي وغيرهم ما يمكنه من ذلك.^٢ وقد استمر ذلك طوأل السنتين الثالثة والرابعة، وجزء من السنة الخامسة الثانوية، حتى كان حلّ الإخوان وبداية اعتقالهم منذ ديسمبر سنة ١٩٤٨ م.

١ القرضاوي، يوسف بن عبد الله بن علي بن يوسف (المولد: ١٩٢٦ م - ما زال على قيد الحياة)، *خطب الشيخ القرضاوي*، (القاهرة - مكتبة وهبة، الطبعة: الثالثة،

١٩٩٥ م)، ج: ٣، ص: ٢٧٢

٢ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠ م)، ج: ١، ص: ١٩٦

المسألة الثانية: مَطَالِبُ الْأَزْهَرِيِّينَ

في لسان القرضاوي: ومن الأمور التي شغلت تفكيرنا- نحن طلاب المعهد الثانويّة في المعاهد الدينيّة - مَطَالِبُ سبَابِ الْأَزْهَرِ فِي التطوير والإصلاح، والنهوض بمستقبل الأزهر.

وكنا - نحن الطلاب الذين يعتبرنا إخواننا زعماء المعاهد الإقليميّة - نَعْقِدُ الْمُؤْتَمَرَاتِ فيما بيننا لبحث هذه مَطَالِبِ وإيضاحها، والإرسال بها إلى مشيخة الأزهر، وإعلانها على إخواننا الطلاب. وقد عَقَدْنَا أكثر من جلسة لذلك، أذكر منها مرّة في طنطا برئاستي، ومرّة في شبين الكوم برئاسته زعيم معهدنا الأخ عبد المنعم الدغدي.

وكان لنا مَطَالِبُ كثيرة، منها:

١. إدخال اللُّغَةَ الإنجليزيّة في مناهج المعاهد الأزهرية.
٢. تطوير مناهج العلوم الدينيّة والعربيّة بما يتلاءم وروح العصر.
٣. فتح باب الدراسات العليا للمتفوّقين من طلبة الأزهر، وتعيينهم مُعيدين في كلياتهم.
٤. قبول الطلبة الأزهريين في الكليات العسكريّة (الحرية والشُرطة)
٥. التوسُّع في إنشاء المعاهد الدينيّة في عواصم المديرّيات.
٦. إنشاء معاهد للفتيات المسلمات، ليُكْرَنَ نواة لجامعة الأزهر.^١

وقد أعلن هذا على طلاب المعاهد، وبعثنا بمذكرة إلى المشيخة تتضمّن هذه مَطَالِبِ. وكانت في ذلك الوقت تعتبر من الأمانيّ والأحلام البعيدة المنال، ولكن من سار على الدّرب وصل، وما ضاع حق وراءه مَطَالِبِ، والزمن جزء من العلاج.

المسألة الثالثة: توديع كُتَيْبَةِ الْأَزْهَرِ

قد هيّا المعسكر عددًا من الشباب الذي أخذ نصيبًا كافيًا من التدريب، ليسافر قريبًا من القناة، ليستكمل تدريبه، ويستعدّ لمهمته في الجهاد، وَفَقَّ أوامر القادة في الميدان، وكان الطالب القرضاوي أحد منهم. ولقد أرادوا أن تكون هذه المناسبة طيبة لإبراز مكانة الأزهر ودوره في هذه المرحلة الحسّاسة من حياة مصر.^٢ ودعوا عددًا من كبار الشيوخ في الأزهر والدعاة من خارج الأزهر. وكان شيخ الأزهر في تلك الفترة هو الشيخ إبراهيم حمروش.

المسألة الرابعة: العمل الطلابي في الأزهر

كان يعمل القرضاوي في مجال النشاط الإخواني في المركز العام على مستويات عدّة، ومع جملة من أقسام الجماعة.

١- فقد كان يعمل في قسم نشر الدعوة، الذي يبعث به إلى البلاد المختلفة في أنحاء مصر، وربّما في خارجها.

٢- وكان يعمل في قسم (الاتصال بالعالم الإسلامي)، وهو قسم أنشأه الإخوان، ليهتمّ بقضايا العالم الإسلاميّ مشرقه ومغربيه، ويجمع معلومات عنها، ويتّصل بالجهات المؤثّرة فيها، وبخاصّة الإسلاميّة منها، ويستقبل الوافدين منها، ولا سيّما الطلاب الذين يدرسون في مصر عامّة وفي الأزهر خاصّة، فالمسلمون أمّة واحدة، جمعتهم العقيدة الواحدة والشريعة الواحدة، والقبلة الواحدة، يسعى بذمتهم

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ١٩٨ - ١٩٩

٢ المرجع السابق، ص ٤٥٠

أذناهم، وهم يد على من سواهم، ومن لم يهتمّ لأمر المسلمين فليس منهم حيث قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [١٠].^١ وقد كلفه القسم برئاسة الأستاذ عبد الحفيظ الصيفي، بالإشراف على الطلبة السوريين، ولا سيّما بعد زيارته لسورية، ومعرفته بعدد منهم.

٣ - كما كان يعمل مع قسم الأسر، وهو الذي يعني بتربيّة شخصيّة الأخ المسلم، وتكوينه تكويناً متكاملًا في روحه وعقله وبدنه، وهو الذي رشّحه للذهاب إلى سورية، حيث كان لقاءاته هناك خاصّة بالأسر.

٤ - وكان أهمّ الأقسام التي تُركّز فيها نشاطه: قسم الطلاب الذي كان يرأسه الأستاذ محمّد فريد عبد الخالق، ثمّ رأسه الأستاذ أحمد عبد العزيز جلال، وقد حمله الإخوان مسؤوليّة الدعوة في الأزهر وطلّبه، بعد تخرّج الأخ الشيخ مناع القطان الذي كان مسؤول الأزهر قبله.^٢

وكان يحمل العبء معه عدد من الإخوة الأقوياء الأماناء، من أبناء الأزهر: أحمد العسال، ومحمّد الصفطاوي من كليّة الشريعة، وصلاح أبو إسماعيل، وإسماعيل الطحان، والمحروقي من كليّة اللغة العربيّة، وحسن الشافعي، ومحمّد المطراوي وعلي عبد الحليم من معهد القاهرة، وكانت لهم كتب ورحلات إلى المقطم وجزيرة الجبل وتدريبهم على الحياة الحثيثة والتعاونيّة، وغرس روح الجماعة فيهم.

قال القرضاوي: وكان نشر الدعوة بين طلاب الأزهر قائما على قدم وساق، حتى أصحابنا في وقت من الأوقات، وكأنّ الأزهر أصبح بطلابه وشيوخه قلعة إخوانيّة، حتى شيوخنا كانوا متجاوبين معنا إلى حدّ كبير، وكان شيخ الأزهر الأكبر في ذلك الوقت: الشيخ محمّد الخضر حسين، مواليا لنا، فهو أصلا من رجال الدعوة، ورجال الإصلاح، ورجال المقاومة للاستعمار، وقد أخرج من بلده الأصلي تُونس، لمحاربه للاستعمار الفرنسيّ، وعاش في مصر داعية إلى الإسلام وإلى التجديد والإصلاح، وكان هذا توفيقا من الله لهم، وكان هو الذي يتفق مع طبيعة الأشياء، فالأصل في الأزهر أن يكون حصنًا للإسلام، ومقلا لدعوة الإسلام، ودعاة الإسلام، وقد تعلمنا في الأزهر: أن ما جاء موافقا للأصل لا يسأل عن علته.

المسألة الخامسة: مؤتمر طلاب الأزهر

وكان من أهمّ المؤتمرات التي أقاموها في هذه المرحلة: المؤتمر الأزهريّ العام، الذي عقد في ساحة كليّة الشريعة وكليّة اللغة العربيّة، في مبانيها الجديدة بالأزهر، وقد حضر هذا المؤتمر طلاب الكليّات الثلاث، وطلاب معهد القاهرة الدينيّ، وكان من مطالب أبناء الأزهر، التي طالبوا بها من قديم، منذ كانوا طلابا في القسم الثانوي، ولم يستحب لها، وقد ذكرت طائفة منها في حديث القرضاوي عن المرحلة الثانويّة من قبل، مثل فتح باب الدراسات العليا، لطلاب الأزهر كغيرهم، وفتح باب الكليّات العسكريّة - مثل الحربيّة والشريعة - أمامهم - والعمل ملحقين دينيين في سفارات مصر، وفتح مجالات العمل في المصالح والوزارات المختلفة أمام أبناء الأزهر، وفتح معاهد للطلّبات... الخ

١ القرآن الكريم، الحجرات (٤٩)، الآية [١٠].

٢ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٤٥٥

وكان القرضاوي المتحدث الرئيسي في هذا الملتقى، تولى شرح المطالب، وضرورة إرسال نسخة من مطالبهم إلى شيخ الأزهر.^١ وكان مما قاله في هذه المناسبة قصيدة كان لها وقعها وصددها بين طلبة الأزهر، ومنها:

صبرنا إلى أن ملّ من صبرنا الصبر وقلنا غدا أو بعده ينجلي الأمر
فكان غد عاماً، ولو مد حبله فقد ينطوي في جوف هذا الغد الدهر

ووصلوا مطالبهم إلى الأستاذ الأكبر شيخ الأزهر الخضر حسين، وكان مُتَجَاوِبًا معهم في كلِّ مَطَالِبِهِمْ، وكان رجلاً له هيئته ومقامه العلمي والديني الكبير، وصاحب تاريخ مجيد في العلم والجهاد، ولكن الدولة لم تكن تتجاوب مع آماله، وهو صاحب المقولة الشهيرة التي قالها لرجال الحكومة: إن لم يزد الأزهر في عهدي فلا ينقص منه!

وفي أوائل ثورة يوليو ذهب إليه اللواء محمد نجيب قائد الثورة وزاره مكتبه في مشيخة الأزهر، وقال: إن من واجب الرؤساء أن يزوروا العلماء.

المسألة السادسة: مُعَسِّكَرَاتُ للتدريب

كان من النشاط الذي شارك القرضاوي فيه هذه الفترة: معسكر أقيم للتربية والتدريب في أحد الجبال الغربية من "عَمَّان"، واشترك فيه عدد من الإخوة من مَنَاطِقٍ مختلفة من أنحاء الأردن، وكان الأخ أبو أسامة عبد العزيز علي، المُدَرَّب العريق في دعوة الإخوان، والذي تخرج على يديه أجيال، وشارك في معارك شتى من معارك الجهاد، وهو الذي يقوم بالتدريب الرياضي العنيف الذي يربّي الشباب على الحُشُونَةِ والتحمُّل والمُخاطرة.

وكان القرضاوي يقوم بالتوجيه الروحي والثقافي في المعسكر، ويشارك الشباب في تدريباتهم الرياضية.^٢ وبقوا أياماً طيبة في ظلّ هذا المعسكر، ثمّ انتهى، وعاد الإخوان إلى مدّهم ومناطقهم، حاملين ذِكْرِيَاتٍ طيبة، وربما بعض إصابات في أبدانهم تذكّرهم بأبي أسامة ومخاطراته. وجدير بالذكر ممن كان معهم في هذا المخيم الأخ عبد الله خليل شبيب الأديب والكاتب. ثم عاد إلى "عَمَّان"، لترتيب زيارات إلى مدن الصَّفَّةِ الغربية، ولقاء الإخوان بها خاصّة، والمسلمين العامّة.

المسألة السابعة: صَحْوَةُ الشباب الجامعي في مصر

في مُنتَصَفِ عقد السبعينات من القرن العشرين: كانت الصحوة الإسلامية، قد بدأت تَبْرُغُ شمسها في أفق مصر؛ وكان ذلك نتيجة لِحَوِّ الحريّة الذي أحسّ الناس، وكانوا يستنشقون نَسَائِمَهُ، بعد الحوِّ الخانق الذي كانوا يعيشون في دخانه أيام عبد الناصر. ودائمًا تنتعش الدعوة الإسلامية وتزدهر في مُنَاخِ الحريّة. وتُذْبِلُ - وقد تموت - في جوّ الفاشية والاستبداد. وكان أول ظهور الصحوة بين الشباب، فهم أقرب استحابة من غيرهم للدعوات الدينية والإصلاحية، وهم أقدر على حمل أعبائها بما حَبَّاهُمُ اللهُ من قوّة وحيويّة. وأول ما يَظْهَرُ هذا في الشباب الذي استنار بنور العلم، وأمسى لديه قدر من الوعي بنفسه وبأمته ورسالته. وهو شباب الجامعي بخاصّة.

١ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٤٥٦

٢ المرجع السابق، ص ٤٧٦

وقد كان الشيخ القرضاوي يرى لزاماً عليه: أن يقترب من هؤلاء الشباب ما استطاع وأن يستجيب لهم إذا دعوه، لمحاضرة في الجامعة، أو لزيارتهم في مُخَيَّمَاتِهِم التي يقيمونها في الصيف، أو لجلساتٍ خاصةٍ يجيب فيها عن أسئلتهم، ويردّ فيها على شُبُهَاتِهِم، ويصحّح فيها المفاهيم التي التبسَتْ عليهم، بل كثيراً ما كان الشيخ القرضاوي يستقبلهم في منزله، ليفضوا إليه بما عندهم، فهم يحبّون أن يفهموا وأن يستوثقوا، ولهذا يستفسرون عن أمور كثيرة، ولا يسلمون بما يقال لهم بسهولة، بل يناقشون ويجادلون، ولكنهم - والحق يقال - ليسوا مكابرين، ولا ممارين بالباطل. بل يذعنون للحقّ إذا تبَيَّن لهم، ويركضون وراء الدليل، ولا يجيدون عنه، وهذا ما يحمدهم - ومثله يرحّب بهذه النوعية من الشباب، ويفرح بها فرح من فقد ضالته ثمّ وجدها. ^١ كان هؤلاء الشباب صوّاماً وقوَّاماً قراء للقرآن والحديث، مستغفرين بالأسحار، متحمسين لقضايا الإسلام: عقيدة وشريعة، ودعوة ودولة، حضارة وأمة. وقد كان يرى فيهم مستقبل مصر. وكثيراً ما قال: إن أعظم ما في مصر، وأعلى ما في مصر، ليس ذَهَبُهَا الأبيض: أَلْفُطْن، ولا الأسود: أَلْفُطْ، ولا الأهرام، ولا أبا الهول، ولكنّه هذا الشباب المؤمن المستقيم المستعد للبدل في سبيل الله. إنهم ثروة مصر الأولى، وغدها المشرق.

المطلب الثالث: مع قضية فلسطين

المسألة الأولى: القرضاوي وقضية فلسطين

كانت قضية فلسطين طليقة المرحلة الثانوية قضية هامة وحية وساخنة في نفوسهم. وكان (الإسلاميون) أكثر اهتماماً بها من الوطنيين. فكثير من الوطنيين لم يكونوا يدركون بوضوح خطورة المشروع الصهيوني على المنطقة، ولا عجب أن كانوا يسيرون من أجلها المظاهرات، وتدوي الهتافات، ويلقون الخطب النارية، وينشئون القصائد الثورية، ويشيرون الطلاب والجماهير، لتتهدف لفلسطين، وكانوا تنتهز فرصة ذكرى وعدّ « بلفور » وغيرها لإحياء القضية. ^٢ كان الإسلاميون هم الذين يعون تماماً الخطر اليهودي وأطماعه وأهدافه في المنطقة العربية، والإسلامية، وكان في مقدّمة هؤلاء الإسلاميين الوعاة لهذا الخطر وأبعاده: الشيخ حسن البنا.

والعجيب أن السياسية الاستعمارية والصهيونية التي استجاب لها العرب وقادتهم هي أن يعزل الشعب الفلسطيني عن قضيته، ويبعد عن ممارسة حقّه في الدفاع عن أرضه ومقدّساته، على خلاف السياسة المتبعة اليوم، والتي توحى بما بل تفرّضها القوى المعادية للإسلام والعروبة، وهي ترك القضية للفلسطينيين وحدهم، بعد أن تحوّلت (إسرائيل) إلى أخطبوط في المنطقة، وإلى ترسانة عسكرية ضخمة، وهذا في الوقت الذي تعتبر إسرائيل كلّ يهودي في العالم مسؤولاً عنها.

وفي سنة ١٩٤٧ م بدأ الاستعداد بتهيئة الإخوان لمعركة قادمة لا ريب فيها. ولا سيّما بعد رفض قرار التقسيم، وبعد استفحال أمر العصابات الصهيونية التي تعمل بدهاء وتخطيط ومكر، في حماية الانتداب البريطاني، الذي أفسح المجال للهجرات الجماعية لليهود من أوربا - وخصوصاً الشرقية - وأمريكا وغيرها، لينبؤ مستعمراتهم في سائر أرض فلسطين، ومكنهم أن يسلحوا أنفسهم، في حين حرّم على أهل البلاد من حمل أي سلاح، ولو كان قطعة صغيرة.

وجاءت سنة ١٩٤٨ م وألْقُدُرُ تزداد غليانا، ومعسكرات التدريب تستقبل الشّباب ليوم معدود، وكان كثير منا متحمسين لخوض المعركة ضدّ اليهود، ولكن قرار (مكتب الإرشاد) بالقاهرة: ألا يشارك طلاب الثانوي في الجهاد، ويكتفي بطلاب الجامعة وغيرهم من أبناء الشعب. وكانوا هم دعاة الإخوان و" يوسف القرضاوي " أحد منهم، يطوفون المدن والقرى، يحرضون على الجهاد بالنفس

١ أَلْفُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٤٣٦ - ٤٣٧

٢ أَلْفُرْضَاوِي، خطب الشيخ القرضاوي، (القاهرة - مكتبة وهبة، الطبعة: الثالثة، ١٩٩٥م)، ج: ٣، ص: ١٠١ - ١٠٢

وبالمال، وأحياناً يركّزون على المال لشدة الحاجة إليه لشراء السلاح للإخوان في فلسطين و يجمعون لهم السلاح إن وجدوه، ويعتقون مشاعر الأمة وأفكارها، لتستعدّ لمعركة آنية عن قريب مع بني صهيون، الذين زرعهم الغرب في المنطقة، ولا يزال يساندونهم ويؤيّدونهم عسكرياً واقتصادياً وسياسياً.

وقد تجلّى ذلك للعيان، حين قيام الكيان الصهيونيّ العدوانيّ الذي سُمّي (إسرائيل) فاعترفت أمريكا بها في الحال، وبعدها بريطانيا وفرنسا وروسيا وغيرها، وأعلن الجميع أنها خلقت لتبقى. لهذا كان التفكير في حركة جهاديّة يقوم بها الفلسطينيون أنفسهم، دفاعاً عن أرضهم وعرضهم ومقدّساتهم، وهو الأمر الواجب، والحلّ العمليّ والضروريّ. فأصحاب الأرض أولى الناس بالدفاع عنها، وعلى كلّ من كان حولهم من العرب والمسلمين أن يناصروهم، ويساعدوهم بالمال والسلاح والخبرات العسكريّة والفنيّة، حتى ينتصروا على عدوّهم، المؤمنون إخوة، والأمة الإسلاميّة أمة واحدة، والمسلمون يسعى بدمتهم أدنانهم، وهم يد على من سواهم.

وتحتوي هذه المسألة على تسع نقاط، وحديثها كالاتي:

النقطة الأولى: أولى القضايا التي تشغل فكر الشيخ القرضاوي وقلبه

كانت قضية فلسطين من قدم، أولى القضايا التي تشغل فكر الشيخ القرضاوي وقلبه، ومنذ دخل المعهد الدينيّ في طنطا ١٩٤٠م ، وجد نفسه أسير مع الطلبة في ٢ نوفمبر من كلّ عام، احتجاجاً على وعد «بلفور»، وزير الخارجية بريطانيا، الذي وعد اليهود في العالم بإنشاء وطن قوميّ لهم في فلسطين. هكذا فهّمهم طلبة القسم الثانويّ في المعهد، الذين جاءوا إليهم، في المعهد الابتدائيّ، وأخرجوهم ليشاركوهم في مظاهراتهم المحتجة على تغلغل اليهود في فلسطين.^١

النقطة الثانية: اهتمام طلبة إخوان المسلمين بفلسطين

وعندما كان الشيخ القرضاوي في السنة الثالثة الابتدائية، بدأ يشارك بإلقاء الخطب، وإنشاد القصائد، والمشاركة في قيادة المظاهرات اللاهبة، والهاثف الصاحب بحياة فلسطين وسقوط الصهيونية.

النقطة الثالثة: جمع التبرعات لخدمة قضية فلسطين

وبعد ذلك تطوّر عملهم لخدمة قضية فلسطين، وبعد أن التحقت الإخوان. وكان الإخوان يجمعون السلاح من كلّ حدبٍ وصوبٍ، اتسليح الفلسطينيين، وكان شراء هذه الأسلحة يحتاج إلى مالٍ، فكانوا يذهبون إلى المدن والقرى في مصر لجمع التبرعات لمعونة فلسطين. وبعد ذلك فتح الإخوان باب التطوع لمن يريد الجهاد في فلسطين، واستجاب الألوّف لهذا النداء، ولكن الإمام حسن البنا رفض قبول طلاب المراحل الثانوية في التطوع.^٢

النقطة الرابعة: قيام دولة «إسرائيل»

وما زالوا كذلك حتى انتهت الحرب العالمية الثانية، وقامت الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي، ثم قامت دولة إسرائيل ١٥ مايو سنة ١٩٤٨م، واعترفت بها بعد دقائق: أمريكا، كما اعترفت بريطانيا وروسيا وأورتا، وأعلن الجميع: أنها خلقت لتبقى!

١ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٤٩٧

٢ المرجع السابق، ص ٤٩٨

النقطة الخامسة: الدفاع عن قضية فلسطين فريضة

ولم نزل على وفائنا لقضية فلسطين، التي نراها قضيتنا، ونرى الدفاع عنها فريضة علينا، فإن الشريعة الإسلامية تفرض على المسلمين أن يجاهدوا لتحرير كل قطعة أرض يحتلها الأعداء، إذا لم يقدر أهل الأرض على مقاومتهم، وإخراجهم من أرضهم، فتنقل الفريضة منهم إلى جيرانهم، الأقرب فالأقرب، حتى يشمل المسلمين كافة^١.

هذا هو الواجب مع كل جزء من أرض الإسلام، باعتبار المسلمين أمة واحدة، حيث قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ [٥٢]﴾^٢. يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم، كما أن الإسلام يعتبر بلاد المسلمين دارًا واحدًا، ويسمها الفقهاء «دار الإسلام». وحمايتها وتحريرها مسئولية جميع أبنائها بالتضامن. فكيف إذا كان هذا الجزء هو أرض الإسراء والمعراج وأرض المسجد الأقصى؟!

هذه نظرنا إلى قضية فلسطين: إنها قضيتنا، وليست قضية إخواننا ونحن نساعدهم! وهذه هي النظرة الإسلامية الصحيحة. وكم حاول بعض الذين لا يعلمون، أن يثنوا أعناقًا عن هذا الموقف، ويقولون: إن أصحاب القضية لا يعتنون بما مثل عنايتكم، والشيخ القرضاوي يقول لهم: 'إنكم غالطون، نحن أصحاب القضية، ولسنا غرباء عنها، أو دخلاء عليها.'^٣

النقطة السادسة: الدعوة إلى مؤتمر إسلامي عالمي

وظلّ الشيخ القرضاوي بعقله وقلبه، وجهده وفكره، وشعوره وعزمه، وفي بعض الأوقات أصاب القضية ركود وتور، ففكر الإخوة الإسلاميون في فلسطين أن يجزّكوا القضية، وخصوصًا قضية القدس والأقصى. ويجزّكوا لعالم الإسلامي لمناصرتها. وكان هذا التفكير: الدعوة إلى مؤتمر إسلامي عالمي، تدعو إليه شخصية إسلامية مقبولة من عامة المسلمين وخاصتهم، ووقع اختيارهم على الشيخ القرضاوي، ليقوم بهذه المهمة^٢.

وفيها ملاحظة، وهي:

ترشيحه أبا الحسن الندوي لرئاسة المؤتمر والدعوة إليه:

وفي رحلة من رحلات الشيخ القرضاوي إلى عمّان التقاهم ليرتبوا معه هذا الأمر، وتعيين مكانه وزمانه والمدعوين. ولكنه اقترح الشيخ القرضاوي عليهم شخصية أخرى غيره في أحقّ وأولى، وإن كانوا في أول الأمر توقّفوا واعترضوا، وقالوا: 'إننا استعرضنا الشخصيات الإسلامية بحياذ وموضوعية'. قال الشيخ القرضاوي لهم: 'أنتم حصرتم أنفسكم في الشخصيات العربية، ولكن عندي شخصية إسلامية عالمية غير عربية'. قالوا: من؟ قال الشيخ القرضاوي: الشيخ العلامة أو الحسن الندوي.

والحقّ أن اسم الشيخ لقي القبول من الجميع، ومثله لا يختلف عليه اثنان. هذا الشخص بعلمه وزهده ودينه وتاريخه وسنه وموضع إجماع عند المسلمين. ثمّ هو بوصفه غير عربيّ يعطي للقضية بُعدًا إسلاميًّا عالميًّا. ثمّ هو غير منسوب إلى جماعة من الجماعات أو حركة من الحركات. وهذه ميزة أخرى. فعلى بركة الله تعالى يختاروه ليكون رئيس المؤتمر وباسمه توجه الدعوات. وبدءوا يفكّرون في المكان،

١ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٤٩٩

٢ القرآن الكريم، المؤمنون (٢٣)، الآية [٥٢].

٣ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (المرجع السابق، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٥٠١

ثم اقترح اسم باكستان، ورأي الشيخ القرضاوي أنها أنسب من غيرها، واتّصل بعض الإخوة بالجماعة الإسلامية، ورحّبوا بذلك، وكان ذلك في عهد نواز شريف، وهو أقرب إلى الإسلاميين.

وبدءوا يفكّرون في أيّ مدينة في باكستان يَعْقِدُ المؤتمر، فرشّح الشيخ القرضاوي إسلام آباد، وهي عاصمة، ولها مزايا بهذا الاعتبار، ولكن رأوا أن انتقال الناس من مطار إلى مطار، سيكون شاقًّا على الناس، وقد لا يجدون أماكن، والانتقال بالسيّارات متعب جدًّا، ويحتاج إلى وقت طويل. ولهذا رأوا أن يكون في كراتشي، لأنها محطة الوصول للجميع.^١

النقطة السابعة: الانتفاضة الفلسطينية الأولى

كانت الانتفاضة الأولى للشعب الفلسطيني: ثورة تلقائية على المظالم المستمرة، التي تركبها الدولة الصهيونية الفاشية في حقّه. وهو يَصْبِرُ ويصابر، ويكْظُمُ غيظه، ويحاول أن يشتكي إلى مجلس الأمن أو الأمم المتحدة، أو للجامعة العربية، أو إلى من بيدهم الأمر، مثل الأمريكان، والاتّحاد السوفيتي، ولكن أحدًا لم يسمع لشكواه، ولم يُنصتْ إلى صراخه، وما زال المَرْجَلُ يغلي في صدره ويغلي، حتّى تفجّر المَرْجَلُ، وكانت الانتفاضة أو الثورة، التي انطلقت من غزّة، ومن جامعتها وجوامعها، ولهذا أطلقوا عليها في أول الأمر: أنها ثورة المساجد، فقد انطلقت أول ما انطلقت من المساجد، قامت بها الأيدي المتوضّعة، والقلوب المؤمنة، وجعلت راياتها المَصاحف، وهتافاتهما: لا إله إلا الله، والله أكبر.^٢

النقطة الثامنة: وقوف الشيخ القرضاوي مع الانتفاضة

وكان الشيخ القرضاوي يرى من واجبه أن يقف بكلّ قوّته مع هذه الانتفاضة الشعبية العارمة، وأن يشدّ عضدها، ويُقوِّي ظهرها، بلسانه وقلمه، وحركته، واتّصاله، وأن يجمعوا لها العون، من العرب والمسلمين حيثما كانوا.

وما كان يحبّ أن يسمّي «تبرّعًا» بل يراه فرضًا على الأمة، وهو لون من الجهاد بالمال الذي أوجبه الله على الأمة: كما في التنزيل العزيز: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ [٤١]﴾.^٣ وإذا كان الإخوة في فلسطين يبذلون - عن طواعية - أنفسهم ودماءهم، فلا أقلّ من أن نبذل نحن بعض أموالنا. وكان يقول الشيخ القرضاوي: أن نعطيهم من زكوات أموالنا، ومن زكاة فطرنا، ومن وصايا أمواتنا، ومن عوائد الأوقاف، ومن الحقوق الواجبة في المال بعد الزكاة، ومن الصدقات التطوعية، وغيرها.^٤

بل هم أولى بالزكاة من غيرهم، لأن كثيرًا منهم أصبحوا فقراء ومساكين وغارمين وأبناء السبيل «مُشَرَّدِينَ» ويوصفهم أيضًا من مصرف «في سبيل الله». بل إذا كان هناك مال مكتسب من شبهة أو حرام، مثل فوائد البنوك، فهم أولى بأن تصرّف إليهم، بدل أن نتركها للبنوك، لأن المال مصرفه شرعًا: الفقراء وجهات الخير، وهم في مقدّماتها.^٤

١ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٥٠٢ - ٥٠٣.

٢ المرجع السابق، ص ٥٠٣ - ٥٠٤.

٣ القرآن الكريم، التوبة (٩)، الآية [٤١].

٤ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (المرجع السابق، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٥٠٥.

النقطة التاسعة: إلى القدس الشريف

سافر القرضاوي إلى القدس، ونظمت له محاضرة فيها شهدها جم غفيرٍ وبات بها، وصلّى في المسجد الأقصى، لأول مرّة في حياته، وزار مسجد قُبّة الصخرة. وهو تحفة فنية رائعة حقًا، وصلّى فيها، وزار رئيس الهيئة العلميّة الإسلاميّة في رحاب المسجد، الشيخ عبد الله غوشة، وسرّ الرجل بلقائه. كما زار مسجد عمر بن الخطاب وصلّى ركعتين، ثم زار كنيسة القيامة، وأهمُّ معالم المدينة العربيّة الإسلاميّة، ورأى السلك الشائك الحاجز بين القدسين الشرقيّة والغربيّة، ولكن على قرب المسافة بينهما، ما كان أعظم الفرق بينهما في اليقظة والحذر والإعداد والتخطيط للمستقبل.^١

كان أهل القدس الشرقيّة يمارسون حياتهم العاديّة، يغدون ويروحون، ويبيعون ويشترتون، وهم في غفلة عمّا يجري من حولهم، وما يدبر لهم من مكائد العدو الذي يحيط بهم إحاطة السُّورِ بالمعصم، كان أهل القدس الغربيّة في عمل دائم، وسهر دائم، يواصلون الليل بالنهار، لبناء المستقبل على أنقاض فلسطين وفلسطينيّين. وكان يهود المعتصِبون للأرض يعملون لأهداف حدودها، في ضوء تخطيط واضح الطريق، بيّن المراحل، كانوا يعملون للحاضر مستشرّفين المستقبل، قال القرضاوي: وكنا - نحن العرب والمسلمون - مشغولين بتوافه الأمور عن كبارها، وبأعراضها عن جواهرها، حتى فوجئنا يوما باجتياحنا واغتصاب القدس منّا، واحتلالها بجيوشهم، حتى غدونا لا نستطيع أن نقيم صلاتنا في مسجدنا الأقصى إلا بإذن منهم.

المطلب الرابع: نشاطاته في قطر

وهذا المطلب يشتمل على سبع مسائل، وتفصيلها كما في التالي:

المسألة الأولى: إلقاءه الدرس بمناسبة قضية فلسطين في قطر

الواقع أن القرضاوي كان واهمًا، فقد سبقته شُعبته قبل أن يحضر، وسرعان ما اكتشفه الناس بدون جهدٍ، فمنذ أول درس ألقاه في جامع الشيوخ بعد خطبة الشيخ ابن تركي، ومنذ أول خطاب ألقاه في المدرسة الثانويّة بمناسبة انفصال سورية عن مصر، وكان هذا الخطاب ذا طابع سياسيّ، كما كان درس جامع الشيوخ ذا طابع دينيّ، عرف أهل قطر شيئًا عن هذا القادم الجديد.^٢

وبعد فترة قليلة، دعاه الشيخ ابن تركي إلى إحياء ذكرى الإسراء والمعراج في المدرسة الثانويّة. وكلّما جاءت مناسبة دينيّة أو وطنيّة أو اجتماعيّة، دعي القرضاوي إلى المشاركة فيها.

فلما جاء أول رمضان على القرضاوي في قطر، بعثه ابن تركي إلى مسجد الشيخ خليفة بن حمد ولي العهد نائب الحاكم المقام أمام قصره، الذي فيه مسكنه ومكتبه. فكان القرضاوي يذهب ليصلّي العصر بالشيخ، ثم يلقي درسًا في تفسير آية، أو شرح حديث، أو الحديث عن موضوع معيّن بمناسبة، مثل الحديث عن غزوة بدر، أو فتح مكّة، أو ليلة القدر، وهي مناسبات رمضانيّة معروفة، وكذلك الحديث عن فضل شهر رمضان أو أحكام الصيام في أول الشهر، وأحكام زكاة الفطر، وصلاة العيد في أواخر الشهر.

وكان هذا الدرس مفتوحًا للجميع يحضره جم غفيرٌ من الناس. وكان الشيخ خليفة نفسه حريصًا على حضوره باستمرار، لا يتخلّف عنه إلا لمرض أو عذر.

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٤٨٢

٢ المرجع السابق، ٢٠٠٤م، ج ٢، ص ٤١٤

وفي هذا المسجد تعرّف القرضاوي على عدد من الأصدقاء، الذين كانوا جِزَاصًا على حضور الدرس، منهم: الشيخ سلمان بن جاسم، الذي يحضر من أمّ قرن، ومنهم: الشيخ خالد بن حمد، أحد إخوة الشيخ خليفة، والذي توطدت علاقته به، حتى أمسى صداقة حميمة، وثيقة العرا، وقد كان يحضر من الريان القديم.

المسألة الثانية: نشاطاته المتنوّعة في المعهد في قطر

في فترة الشيخ القرضاوي أصبح المعهد الدينيّ في قطر ساحة لأنشطة متنوّعة، يشغل بها طلابه، ويحرك حوافزهم، وينمي قدراتهم ومواهبهم، كما فتح أبوابه في المساء لنشاط ثقافيّ يسهم في التوعية والتنوير للجمهور القطريّ.

على المستوى الطلابيّ، كانوا يقيمون بين الحين والحين مسابقات أدبيّة للطلبة، بعضها لأحسن خطيب، وبعضها لأحسن من يكتب مقالاً، وبعبارة أخرى: يكتب موضوع إنشاء. من هؤلاء الطلبة: الشاب الهنديّ اللامع محمّد سليم، وزميله محمّد عليّ وغيرهما.

ومن الأنشطة الطلابيّة التي عني بها الشيخ القرضاوي: المُطَارَحَاتُ الشعريّة بين الطلبة بعضهم وبعض، إمّا بين طالبين متميّزين، أو بين فريقين من الطلاب، وهو الغالب، وفكرة المطارحة تقوم على أن يلقي أحد الطرفين بيتاً من الشعر، ويردّ عليه الطرف الآخر بيتاً بحرف القافية التي انتهى به بيت صاحبه.^١

المسألة الثالثة: نشاط ثقافيّ عام بالمعهد

أما النشاط الثقافيّ العام، فقد أخذ عدّة صور، منها: احتفاء بالمناسبات الإسلاميّة من قبيل المعهد، مثل: الهجرة النبويّة، وذكرى الإسراء والمعراج ونحوها، ويدعون من يتحدّث فيها الخطباء المرموقين، مثل: فضيلة الشيخ عبد المعز عبد الستار، والدكتور عز الدين إبراهيم، وكثيراً ما يدعون بعض علماء قطر، مثل: الشيخ عبد الله بن تركي، والشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، وغيرهما.

ومنها: إقامة موسم محاضرات، كما ألقى الشيخ القرضاوي المحاضرة الأولى في ذلك، وعنوانها: "نظرات في الاقتصاد الإسلاميّ". ومنها: إقامة ندوات شعريّة، يتبارى فيها الشعراء بإلقاء أروع قصائدهم. وكان لهذه الندوات صداها الواسع في الأوساط الثقافيّة والأدبيّة في قطر. وتكرّرت هذه الندوات ما بين الحين والآخر، ولا سيّما إذا وجدت مناسبة إسلاميّة، لأو مناسبة وطنيّة، وكانت المناسبة الحية والحاضرة باستمرار هي قضية القضايا، قضية العرب والمسلمين الأولى: قضية المسجد الأقصى، قضية أرض النبوات، قضية فلسطين.

المسألة الرابعة: مسابقات في القرآن

مسابقات حفظ القرآن التي اقترحتها تفتيش العلوم الشرعيّة برئاسة الشيخ عبد الله بن تركي على الشيخ قاسم بن حمد آل ثاني وزير المعارف، فما كان أسرع من استجابة الوزير وتشجيعه ورصده الميزانيّة اللازمة لهذه المسابقة.^٢

١ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٤٢٧ - ٤٢٨

٢ المرجع السابق، ص ٤٣٠

وهذه المسألة تحتوي على نقطة، وهي: كانت المسابقة على مستويين، وهما:

الأول: مستوى طلبة وطالبات المدارس. وهؤلاء يمتحنون في المقرّر عليهم، وهو: سور من جزء عم، وجزء تبارك، لتلاميذ وتلميذات القسم الابتدائيّ، بحيث يحفظ من أتمّ الدراسة الابتدائيّة "الجزأين": عمّ وتبارك. وفي الإعدادي والثانويّ تقرّر سور أخرى أو فقرات من سور.

الثاني: مستوى الجمهور العام، ويدخل فيه من أراد الطلبة والطالبات. وهؤلاء يمتحنون فيما هو أكثر من المقرّر، ابتداءً من خمسة أجزاء، إلى عشرة، إلى خمسة عشر جزءاً، إلى عشرين، إلى خمسة وعشرين، إلى القرآن كلّ، والامتحان يكون في قوّة الحفظ وجودة التلاوة.

وكان يصرف للأوائل من المتقدّمين إلى المسابقة على المستويين: مكافأة مالية مقدّرة، يتميّز الأول فيها عن الثاني، والثاني عن الثالث. من بعد الثالث لا مكافأة له. أمّا حافظ القرآن كلّ، فيأخذ ثلاثة آلاف ريال، وكان هذا مبلغاً مجزيّاً في ذلك الوقت.^١

المسألة الخامسة: نشأة إذاعة قطر

في سنة ١٩٧٠م أنشأ الشيخ يوسف القرضاوي لأوّل مرّة محطة إذاعة في قطر تسمع صوت قطر من الدوحة لأهل قطر، وبلاذ الخليج، وديار العرب، وأقطار العالم. وسمع الناس: هنا إذاعة قطر من الدوحة.

وكان هذا بداية الإعلام المسموع في قطر، وقد بدأ يباشر أوّل نشاطي الإعلاميّ فيها، عن طريق برنامج "نور وهداية" الذي كان يعدّه ويقدمه الإذاعيّ اللامع المعار من الأردن الأستاذ محمود الشاهد مراقب البرامج في الإذاعة، وكان البرنامج يقوم على الردّ على رسائل المستمعين التي تتعلّق بأمر الدين والحياة، يتلقاها الأستاذ الشاهد "أبو توفيق" ويهيئها للقرضاوي ويُعرضُها عليه ليجيب عنها مسجّلة لتذاع في حينها.^٢

وكان البرنامج يُقدّم مرتين في الأسبوع، كلّ مرّة رُبع ساعة: مرّة يوم الجمعة قبل الصلاة، ومرّة يوم الإثنين مساءً، ثمّ رأوا أن يجعلوه نصف ساعة يوم الجمعة. وكان لهذا البرنامج عشّاقه ومتابعوه في قطر، وفي منطقة الخليج ومن حولها، ولا سيّما البحرين والمنطقة الشرقيّة من السعودية.

وقد ظلّ يقدّم القرضاوي هذا البرنامج، حتى بعد أن ينشئ تليفزيون قطر، ولما أسند إليه تقديم برنامج "هدي الإسلام" مساء كلّ الجمعة، لم ينقطع عن برنامج الإذاعة. وقد كلف بتقديمه في السنوات الأخيرة المذيع المعروف الأستاذ زهير قدورة. ثمّ بعد أن كثرت أعباء الشيخ القرضاوي، وازدحمت أوقاته: رأى أن يعتذر عن عدم تقديم برنامج "نور وهداية" بعد أن قام به حوالي سبعة عشر عاماً، مكتفياً ببرنامج "هدي الإسلام" في التليفزيون، الذي لا يزال مستمرّاً إلى اليوم.

وكان يقدّم في الإذاعة برنامج أخرى بمناسبة مختلفة، منها: "حديث الغروب" في شهر رمضان، كان يقدّم قبل أذان المغرب، قدّمه خمس سنوات، تحت عنوان: "في رحاب القرآن" ثمّ "في رحاب السنّة".^٣

١ ألفقرضاوي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٤٣١

٢ المرجع السابق، ٢٠٠٥م، ج ٣، ص ٢٠٣

٣ المرجع السابق، ص ٢٠٤

وكان لهد الأحاديث قبول حسن عند الناس، وكان الكثيرون يحرصون على سماعها في كل مساء، ولكن من المؤسف: أن لم يحرص على أن آخذ نسخًا منها بعد تسجيلها، فلما طُلبتْها بعد ذلك، قالوا إن كلَّ أشرطة الإذاعة نُقلتْ إلى مكان آخر، غير مرتبة ولا مصنفة، ومن الصعب استخراجها، وهكذا ضاعت عليه "مائة وخمسون" حديثًا، ليس عند القرضاوي أي أصل لها، فقد كانت مُزجَلَّة، ولم تكن مكتوبة. مثل كلَّ أحاديث القرضاوي في الإذاعة والتلفزيون.

المسألة السادسة: تأسيس تلفزيون قطر

بعد نجاح قطر في إذاعتها التي سمع العالم صوتها من الدوحة، كان لا بدَّ أن تستكمل مسيرتها الإعلامية بـ"تلفزيون قطر" الذي أنشئ له مبنى خاص قريبًا من الإذاعة. وقد افتتح مبنى التلفزيون الجديد في شهر يوليو (تموز) سنة ١٩٧٠م، وكان الشيخ القرضاوي يقضي إجازة الصيف في لبنان، وكان المسؤولون عن التلفزيون، وعن الإعلام عاقبة، يرون ألا يظهر التلفزيون إلا وفيه برنامج ديني يتور المشاهدين فيما يتعلق بالدين، ويجيب عن تساؤلاتهم. فأرسلوا إليه (الشيخ القرضاوي) في لبنان أن يسجل ست حلقات في أحد أستوديوهات بيروت، فسجل هذه الحلقات بالثوب والغطرة، إذ لم يحمل الجبة والعمامة معه في ذلك الصيف، بل كان يلبس "البذلة الإفريقية" في الإجازة، وليس مناسبًا له أن يُظهر بها على الشاشة. فسجل هذه الحلقات الستة، وأرسل إلى الدوحة.^١

ولأول مرة يكتشف المعاناة في تسجيل للتلفزيون، فقد كان التسجيل للإذاعة في غاية السهولة واليسر. أما في التلفزيون، فقد عانى ما عانى في ترتيب الأضواء، وضبط الصورة، والاطمئنان على الصوت، و... و... وكان الأستديو غير ومكيف، فكان يتصبب عرقًا، برغم أن لبسه خفيف، وكانت هذه الأحاديث: عبارة عن "دروس إسلامية" كلَّ درس يعالج موضوعًا معيَّنًا.

وبعد العودة إلى الدوحة لقي الشيخ القرضاوي مدير الإعلام، وهو الصحفي الإعلامي الكبير الأستاذ محمود الشريف، وزير الإعلام في الأردن فيما بعد، شقيق صديقه الأستاذ محمود الشريف، فتعرّف عليه لأول مرة، وكان معه مدير التلفزيون: الأستاذ جواد مرقعة، وتحدثوا حول البرنامج الديني والصورة التي ينبغي أن يقدم بها.

فاقترح الشيخ القرضاوي عليهم أن يكون البرنامج إجابة عن الأسئلة المشاهدين، التي تأتي إلى البرنامج عن طريق رسائلهم المكتوبة، وهو الذي يتلقاها من التلفزيون ويجيب عنها، دون الحاجة إلى محاور. واستحسن مدير الإعلام ومدير التلفزيون هذه الفكرة، وقالوا: يمكننا أن تأتي بمن يساعدك في تلقي الرسائل وترتيبها، ويمكن أن ندفع له مبلغًا مقابل ذلك. واقترح عليهم سكرتيره (القرضاوي) في المعهد الديني: الأستاذ يوسف السطري (الحمايدة). وقام بهذا فترة ثم انقطع، وأصبح أعدّه بلا مساعد.

واقترح الأستاذ محمود الشريف أن يطلق عليه: "هدى الإسلام" ورحب الشيخ القرضاوي بالتسمية، وقالوا: بركة الله. كان البرنامج في أول الأمر: ثلث ساعة، ثم وجد أن هذا الوقت لا يكفي للرد على الرسائل التي كانت تأتي بكثافة، فزيد إلى نصف ساعة، ثم زيد بعد سنوات إلى خمسين دقيقة. وكان لهذا البرنامج عشاقه ومريده ومتابعوه من قطر، ومن بلاد الخليج، وخصوصًا البحرين، والإمارات، والمنطقة الشرقية من السعودية، وبعد أن تحوّل تلفزيون قطر إلى "قناة فضائية" أصبح هذا البرنامج يشاهد في بلاد المغرب العربي وغيرها، وغدت تأتي عنده أسئلة شتى من هذه البلاد.

وفقد هذا البرنامج بريقه نسبيًا بظهور "قناة الجزيرة"، وبرنامج "الشريعة والحياة" بها، الذي أمسى يشاهده الملايين من أنحاء العالم، من كل من يعرف العربية، وذلك لمزية فيه لا توجد في "هدى الإسلام"، وهي أنه برنامج على الهواء، وهذا يمنحه جدة وحيوية.

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٢٥٨ - ٢٥٩

كما قدّم الشيخ القرضاوي للتلفزيون القطريّ: برامج رمضانيّة تحت عنوان: "في رحاب القرآن"، وبعضها تحت عنوان: "من مشكاة النبوة". وقد استمرّها الشيخ القرضاوي سنين طويلة، ولم ينقطع عنها إلا منذ بضع سنوات، بعد أن تضاعفت عليه الواجبات، وضاقّت الأوقات.^١

المسألة السابعة: مركز بحوث السنّة والسيرة بجامعة قطر

وكان من ثمرات المؤتمر العالميّ الثالث للسنّة والسيرة المنعقد ١٤٠٠ هـ في قطر: أن تبنت دولة قطر وأميرها الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني: تأسيس "مركز بحوث السنّة والسيرة" الذي أوصى المؤتمر بضرورة إنشائه لخدمة السنّة وعلومها بمنطق العصر وآلياته، والقيام على عمل الموسوعة الحديثيّة.

وكان ممن ساعد في تسهيل ذلك: الدكتور حسن كامل الذي تعرف على الشيخ القرضاوي في أثناء التحضير للمؤتمر، وفهم منه ما يمكن أن يقدمه هذا المركز، وما يمكن أن تؤدّيه الموسوعة - لم تتم - من خدمة دينيّة ولغوّيّة ودعويّة وتربويّة واجتماعيّة وثقافيّة للمسلمين.^٢ وفي ١٣/٧/١٩٨٠م صدر القرار الأميريّ رقم ١٢.

المطلب الخامس: نشاطاته في أقطار العالم

وهذا المطلب يتناول تسع وعشرين مسألة، وهي فيما تلي:

المسألة الأولى: نحو مشروع موسوعة للحديث النبويّ

قد بدأ الشيخ القرضاوي هذا العمل بكتابة بحث علميّ عنوانه: "نحو مشروع موسوعة للحديث النبويّ:" وحدّد فيها معالم هذا المشروع، وكيف يبدءون السير فيه، ونشر هذا البحث على أوسع نطاق ممكن، وكتب في آخر: أسئلة لكلّ قارئ حول المشروع: ماذا يضيف إليه؟ وماذا يحذف منه؟ وما ينتقده فيه؟ وأسئلة عدّة: يُجيب عنها بـ "نعم" أو "لا"؟^٣

وهذه المسألة تحتوي على ست نقاط، وبيانها فيما يلي:

النقطة الأولى: مجلّة المركز

وبدءوا إصدار "مجلّة المركز" وهي مجلّة علميّة سنويّة متخصصة، يكتب فيها كبار المتخصّصين، وقد نشر فيه هذا البحث مع كراسة الأسئلة الأخيرة.^٤ وكتب الدكتور عبد العظيم الديب بحثه القيم "حافظ عصرنا ... الكمبيوتر".

النقطة الثانية: إمكانات محدودة

كل ما أعطِيَ للمركز - بعد مديره غير المتفرغ - سكرتير وطابع. وكان الشيخ القرضاوي في ذلك الوقت عميدًا لكلّيّة الشريعة. كما كان يدرّس بعض المحاضرات للطلبة أو الطالبات، إلى جوار إدارة المركز. كما انتدب إلى المركز واحد من أساتذة الكلّيّة المتخصّصين في الحديث - غير متفرغ - وهو الأستاذ الدكتور موسى شاهين لاشين رحمه الله.

١ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٢٦٠

٢ المرجع السابق، ٢٠١٠م، ج ٤، ص ١٠٣

٣ المرجع السابق، ص ١٠٣

٤ المرجع السابق، ص ١٠٣ - ١٠٤

وبهذه الإمكانيات المحدودة لم يستطيعوا أن ينجزوا عملهم الكبير: الموسوعة المنشودة، وقاموا ببعض الأعمال التي تناسب قدراتهم، وهو إخراج المجلّة التي تحتوي عددًا من البحوث العلميّة المخدومة في موضوعها، والتي لقيت قبولا لدى الدارسين والمهتمين في العالم الإسلامي، كما نشروا عددًا من الكتب حول السنّة والسيرة، مثل: المنتقى من الترغيب والترهيب للحافظ المنذري، في جزأين لمدير المركز.

والسيرة النبويّة الصحيحة للأستاذ الدكتور أكرم ضياء العمري. السنّة مصدرًا للمعرفة والحضارة لمدير المركز. الدكتور يوسف القرضاوي. كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ لمدير المركز الدكتور يوسف القرضاوي.^١ التربية الروحيّة والاجتماعيّة للدكتور أكرم ضياء العمري.

كما قام المركز بتدريب بعض الخريجين القطريين والخريجات القطريّات في كليّة الشريعة على فنّ التخريج والتعامل مع المصادر... وقد استطاع الشباب الباحثون تحقيق مخطوطة قديمة، وقد انتدب الشيخ القرضاوي لهم في بعض الفصول: العلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، وهو علامة في الحديث، عالم بالفقه، عالم باللغة والنحو؛ فأفاد الباحثين والباحثات في المركز في هذه علوم كلّها، في فصلين دراسيين. كما استطاعت الأخوات الباحثات: تجميع الأحاديث المتعلقة بشؤون المرأة في مختلف الجوانب: إنسانًا وأنثى وبناتًا وزوجة وأمًّا وعضوًا في المجتمع.

النقطة الثالثة: ندوة "نحو مشروع متكامل للسنّة النبويّة"

بعد إنشاء المركز بعدة سنوات: رأى الشيخ القرضاوي أن مراكز عدّة أنشئت في داخل العالم الإسلامي وخارجه لخدمة السنّة، بعضها تقوم عليه دول وجامعات أو مؤسسات رسميّة، وشعبية وبعضها يقوم على جهود أفراد نذروا أنفسهم لخدمة الحديث، مثل: العلامة الدكتور محمّد مصطفى الأعظمي.^٢

وقد دعوا: ثلاثة أصناف من الناس:

أولًا: علماء الحديث المشغولين بمثل ما هم مشغولون به، سواء كانوا يمثلون دولاً أم مؤسسات، أم يعملون فرادى لحساب أنفسهم. ثانيًا: العلماء الفنيّين من رجال الحاسوب، المهتمّين باستخدامه في خدمة السنة والعلوم الإسلاميّة.

ثالثًا: المشرفين على إدارة هذه المؤسسات من مديري المراكز، أو من الممولّين والمسؤولين عنها، مثل الشيخ صالح كامل، مؤسس مركز صالح كامل لخدمة الحديث في جامعة الأزهر، والدكتور محمّد عبده يماني المشرف على مؤسّسة "اقرأ". وشارك في هذه الندوة نحو ٣٥ شخصًا، وكان مُقرّرها الأستاذ الدكتور عبد العظيم الديب.

النقطة الرابعة: اتّحاد عام العاملين في خدمة السنّة

وقدم إلى هذه الندوة عدد من البحوث المتنوّعة، نُوقِشت مناقشة مستفيضة، وصدرت قرارات وتوصيات مهمّة، أهمّها كان: ضرورة إنشاء اتّحاد عام للعاملين في خدمة السنّة، من مراكز أو مؤسسات أو أفراد. وكلف الأستاذ الدكتور جمال عطية - المشارك في الندوة - بوضع الخطوط العريضة للنظام الأساسي لهذا الاتّحاد.

١ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ١٠٥

٢ المرجع السابق، ص ١٠٥ - ١٠٦

ثمّ تباحث المجتمعون حول مَثَرِ هذا الاتّحاد، وبعد نقاش حُرٍّ: اتَّفَق الجميع على أن الأليق مكان لهذا الاتّحاد هو القاهرة، لما لها من مكانة ثقافيّة ولوجود الأزهر فيها، ولوجود مركز صالح كامل بها، ولسهولة الوصول إليها من كلّ الجهات ... إلخ.^١

النقطة الخامسة: مشكلة تسجيل الاتّحاد بمصر

ولكن بقيت مشكلة، وهي تسجيل هذا الاتّحاد بمصر، وما قد يعتريه من عقبات، وتعهد الشيخ صالح كامل - بماله من ودّ وقرب لدى المسؤولين في القاهرة - أن يذلل العقبات، ويستصدر التصريح في أقرب وقتٍ ممكنٍ.

وذهب الشيخ صالح كامل، ليقوم بدوره في القاهرة في الاتّصال بالمسؤولين، وقد تبين له أن الأمل ليس بالسهل، فعلى رغم معرفته بكبار القوم، ظلّوا يحيلونه من جهة إلى جهة، ومن وزارة إلى وزارة، فهل هذا الأمر يتبع وزارة الأوقاف أو الأزهر، أو وزارة الثقافة أو وزارة الشؤون الاجتماعيّة، أو رئاسة الوزراء أو جهة أخرى. وظلّ في هذا الركض نحو سنتين، ثمّ انتهى به المطاف إلى إحدى هذه الجهات - وزارة الشؤون الاجتماعيّة بوصفهم جمعيّة أهليّة - ووعدوه خيرًا، وبدعوا في إجراءات التسجيل والتصريح. وبشّرههم الشيخ صالح أخيرًا بأن التسجيل أو شك أن يتمّ ... ثمّ ... ثمّ تراجعوا وسحبوه بعد ذلك!!^٢

النقطة السادسة: أمنيّة الشيخ القرضاوي لم تتحقّق كما كان يحبّ

ومّا يؤسف له: أن هذا المركز الذي كان الشيخ القرضاوي قد رَسَمَ له صورة في ذهنه: تقوم على فريق عمل متكامل متفاهم من الشرعيّين المتخصّصين في علوم الحديث والدراسات الإسلاميّة، يساعدهم متخصّصون في العلوم الإسلاميّة الأخرى كالقرآن وعلومه، والفقه وأصوله، و من الفنيّين المتخصّصين في علوم الحاسوب، والتصنيفات الفنيّة، وأن تكون تحت أيديهم مكتبة متكاملة، وأجهزة على أحدث طراز، وموظفون علميون وفنيّون مساعدون، يكونون "روشة عمل" متميّزة، لأن أفرادها يؤمنون بأن عملهم عبادة وجهاد في سبيل الله: لم يسر في واقع الأمر على ما كان يتمنى، فقد وقف الروتين المالي والإداري عائقًا دون ذلك.^٣

المسألة الثانية: ندوة التشريع الإسلاميّ في ليبيا

في أوائل سنة ١٩٧٢م وصلت الدعوة إلى الشيخ القرضاوي من ليبيا، للمشاركة في ندوة "للتشريع الإسلاميّ". دعي إليها عدد من كبار العلماء من مصر، وسوريا، ولبنان، والعراق، وغيرها من أنحاء العالم الإسلاميّ، لمساعدة اللجنة العليا التي أنشئت بقرّار من العقيد القذافي قائد الثورة الليبية، برئاسة المستشار عليّ منصور، وكانت مهمة هذه اللجنة: تنقية القوانين الوضعيّة في ليبيا من كلّ ما يخالف الشريعة الإسلاميّة. والمفروض أن هذه المرحلة تتبعها مرحلة أخرى تقوم على استنباط تشريعات وقوانين إسلاميّة، مؤسسة على اجتهاد إسلاميّ معاصر، وهذه تحتاج إلى وقت وإعداد. وإلى علماء يجمعون بين الأصالة والمعاصرة.

المُهمُّ أن الشيخ القرضاوي تلقّي الدعوة، وعرضها على المسؤولين في وزارة التربيّة والتعليم، فسمحوا له بإجابة الدعوة، ولا سيّما أن ليبيا هي التي ستكفّل بتذكرة الطائرة، وتفقات الإقامة، ولن تتكفّل قطر شيئًا.^٤

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ١٠٧

٢ المرجع السابق، ص ١٠٨

٣ المرجع السابق، ص ١٠٨ - ١٠٩

٤ المرجع السابق، ٢٠٠٥م، ج ٣، ص ٢٧٠

وكان هذه أول مرة يخرج فيها من صومعة قطر - في أثناء العام الدراسي - إلى العالم من حوله، للمشاركة في عملٍ علميٍّ، وتعدُّ الخطوة الأولى للانطلاق الكبير بعد ذلك. كانت رسالة الدعوة الليبية، تشتمل على عدّة موضوعات، طلبت إليه الكتابة في أحدها، وهو الموضوع الأوّل: الشريعة صالحة لكلّ زمان ومكان.

واستخار الله، وبدأ في الكتابة في الموضوع، وأرسله إليهم، فلقى القبول من اللجنة المشرفة، وفي شهر مايو من هذه السنة ١٩٧٢م توكلّ الشيخ القرضاوي على الله، وسافر إلى ليبيا عن طريق بيروت.

وكانت الندوة مقامة تحت إشراف "كلية الدراسات العربية والإسلامية" في مدينة البيضاء، وهذه الكلية تسمى قديماً: الجامعة السنوسية، وكانت تضمّ عدّة كليات فاختصرت في كلية واحدة، وحذف عناؤها، حتى لا يبقى للسنوسيين ذكر ولا أثر.

وقد ضمتّ هذه الكلية إلى الجامعة الليبية، وهي الجامعة الوحيدة في البلاد، فأصبحت إحدى كلياتها، وكان مدير الجامعة الأستاذ الدكتور عمر التومي الشيباني، الذي ساهم مع الشيخ القرضاوي من بعد في إعداد منهج مقرّر الثقافة الإسلامية في جامعة قطر، وعميد الكلية فضيلة الشيخ إبراهيم^١.

المسألة الثالثة: عضوية المجلس الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة

وفي شهر ذي القعدة من سنة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م وصلت الرسالة عند الشيخ القرضاوي من فضيلة الشيخ الدكتور عبد المحسن بن حمد العباد، نائب رئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. وما كان نصّ الرسالة بعد الخطاب التحية يشرّني أن أبلغ فضيلتكم أنه صدر الأمر المملكي رقم (أ/١٣٣) في ٢٩/٩/١٣٩٥هـ بتعيينكم عضواً بالمجلس الأعلى للجامعة الإسلامية - بالمدينة المنورة - لمدة ثلاثة سنوات طبقاً للمادة ١٣ من نظام الجامعة.

ومع الخطاب الأمر المملكي الصادر من الملك خالد بن عبد العزيز آل سعود بتعيين ثلاثة عشرة عضواً، بعضهم بشخصه، مثل: الشيخ أبو الحسن علي الندوي، والشيخ الغزالي، والشيخ ناصر الدين الألباني، والشيخ ابن الخوجه، والشيخ غوشه، والدكتور كامل الباقر، والشيخ صالح الحصين، والدكتور أحمد الكبيسي، والشيخ الدكتور يوسف القرضاوي. وبعضهم لوصفه، مثل: مدير جامعة الأزهر، ومدير جامعة الرياض، ومدير جامعة الملك عبد العزيز. وكان يمثّل هذه الجامعات في هذه الندوة: الشيخ محمد فايد، عن جامعة الأزهر، والدكتور عبد العزيز الفدا، عن جامعة الرياض، والدكتور محمد عمر زبير، عن جامعة الملك عبد العزيز. وكان رئيس المجلس الأعلى هو الأمير فهد بن عبد العزيز وليّ العهد والنائب الأوّل لرئيس الوزراء، وقد التقى به أكثر من مرّة في المجلس. ونائب الرئيس هو سماحة العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز رئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

وقد سجد الشيخ القرضاوي بعضوية المجلس الأعلى للجامعة الإسلامية خلال هذه الدورة، للعمل مع الإخوة الأعضاء، وكلّهم خيار من خيار، وخصوصاً أنهم يجتمعون في رحاب مسجد الحبيب المصطفى وقبره عليه السلام، ويعملون في خدمة جامعة أنشئت للمسلمين في كلّ مكان، فكان فيها طلاب من ثمانين جنسيّة^٢. وقد رأس مجلسهم الأمير فهد بن عبد العزيز أكثر من مرّة، على الأقلّ يحضر جلسة الافتتاح، ثم يُيَّب عنه نائبه الشيخ عبد الله بن باز رحمه الله.

١ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٢٧١

٢ المرجع السابق، ص ٤٠٨

المسألة الرابعة: اجتماع لوجانو^١

في صيف سنة ١٩٧٧م تنادت مجموعة من الْمُتَّفَعِّينَ الإسلاميين المعنيين بأمر الدعوة والفكر، في ضَوْءِ مقتضيات العصر وتطوّراته التي لا تتوقّف ولا تتناهى، وفي إبطار الثوابت الشرعيّة، التي لا يجوز الخروج عليها وإن تغيّر الزمان والمكان والإنسان. تنادت هذه المجموعة بضرورة التلاقي لعدّة أيّامٍ للحوار والمراجعة حول قضايا حيّة وجوهريّة؛ يدور حولها الجدل في كثير من الأقطار، ولدي كثير من الناس، وتستحقّ من أهل العلم والفكر والدعوة: البحث الدقيق، والفقّه العميق والنقاش الطويل، حتّى تُنصَحَ حولها رؤية مستبصرة، وفكرة جليّة، يمكن أن تنبثق منها أحكام شرعيّة اجتهاديّة لها اعتبارها وفقّ الأصول المتّبعة، والقواعد المرعية، في استنباط والاجتهاد، تتحدّد على ضوئها مواقف عمليّة، وتنشأ على أساسها هياكل ومؤسسات فكريّة ودعويّة وتربويّة. وكان من أهمّ هذه القضايا: "أسلمة المعرفة" أو "إسلاميّة المعرفة" ولا سيّما بالنسبة للعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، وأهميّة هذا الموضوع وضرورة الإعداد له، وبذل الجهود العلميّة من أهل الاختصاص؛ لإيجاد علوم إنسانيّة مؤسّسة على منظور إسلامي.

كما بحثوا قضية "الوجود الإسلامي" في الغرب؛ في أوروبا وأمريكا، وضرورة توطينه، وأهميّة الربط بين المسلمين، وإزالة الخلافات والفجوات القائمة بينهم، ووجوب إدماجهم في المجتمعات التي يعيشون فيها، وخروجهم من صومعة العزلة التّفوّع إلى باحة التفاعل والتأثير والتأثر، مع الاحتفاظ بالعميقة والهويّة الإسلاميّة، وضرورة تبني رؤية وسيطة مستنيرة للإسلام، تقوم على التسامح لا التعصّب، والانفتاح لا الانغلاق، والحوار لا الرفض، والاعتدات لا الغلو والتسبّب.

وكان الذين فكّروا في هذا اللقاء، ودعوا إليه، هم الإخوة في أمريكا، الذين كانوا في حالة نموّ وتطوّر بسمح لهم بهذا النوع من التفكير "الإستراتيجي"، والرؤية المستقبلية، وبخاصّة "الجمعيّة الثقافيّة" التي كان يرأسها في ذلك الوقت الدكتور محمود أبو السعود، ومن حوله الإخوة الذين قادوا أو يقودون "اتّحاد الطلبة المسلمين" الذي انبثق عنه عدد من المؤسسات المهمّة، مثل: الجمعيّة الطبيّة الإسلاميّة، وجمعيّة العلماء الاجتماعيين، وجمعيّة العلماء ولاهيندسين، ومؤسّسة الوقف الإسلامي، وغيرها.^٢

وقد حضر هذه الندوة أو هذا اللقاء عدد من الإخوة، ومنهم: فضيلة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي، وفضيلة الدكتور الشهيد إسماعيل الفاروقي العالم الاجتماعي رحمه الله، وفضيلة الدكتور محمود أبو السعود العالم الاقتصادي رحمه الله، والمفكر السوري المعروف الأستاذ محمّد مبارك، والدكتور خورشيد أحمد، فضيلة الشيخ الدكتور أحمد العسال، الدكتور التيجاني أبو غديري، والدكتور عبد الحميد أبو سليمان، والدكتور أحمد التوتنجي، الدكتور أحمد القاضي، والدكتور جمال برزنجي، والدكتور هشام الطالب، والدكتور منذر قحف، والدكتور محمود رشدان، والدكتور رشيد بن عيسى تلميذ مالك بن نبي بالجزائر، والدكتور طه جابر العلواني.^٣

وقد بقوا نحو ثلاثة أيّام في "لوجانو"، وانتهوا فيها إلى توصيات التقت عليها المجموعة المشتركة في الندوة، كان له أثرها وصددها في العمل الدعوي والفكري فيما بعد. وكان ثمار هذا اللقاء: التفكير في إنشاء "المعهد العالمي للفكر الإسلامي"، الذي أسّس في واشنطن

١ كانت "لوجانو" في سويسرا - المنطقة الإيطالية، وكلمة "لوجانو" بالجمجمة القاهريّة غير المعطّشة، ولا يوجد في الحروف الهجائيّة العربيّة المعروفة: حرف يعبر عنها؛ ولذا يكتبها بعض العرب "غينا" ويضع آخرون تحتها ثلاثة نُقْط، ولكن هذه لا توجد في حروف طباعة الكمبيوتر.

٢ يراد بـ "أسلمة الشيء" جعله إسلاميًّا. وإن كانت كلمة "أسلم" هنا في الأصل فعلا لازماً، يقال أسلم الرجل: أي دخل الإسلام. أمّا "أسلم" التي مصدرها "أسلمة" فتستعمل مُتَعَدِّيّة، ومضارعها "يؤسلم" ولذا لم يقرأ اللغويون، أو كثير منهم. فاستُخْدِمَتْ بدلها كلمة "إسلاميّة المعرفة".

٣ القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٤٥٩

٤ المرجع السابق، ص ٤٦٠

برئاسة الدكتور عبد الحميد أبو سليمان، ثمّ الدكتور طه جابر العلواني، وكان له فرع ناشط في القاهرة، قام عليه الدكتور جمال الدين عطية لعدّة سنوات، ثمّ تولاه من بعده فضيلة الشيخ الدكتور علي جمعة "مفتي جمهورية مصر".^١

المسألة الخامسة: إلى مدينة البيضاء

وسافر الشيخ القرضاوي إلى مدينة البيضاء بالسيارة، حتى وصل إليها، وقد حضر معظم المدعوّين، ثمّ اكتمل عددهم يوم الافتتاح، وكان القذافي غائبًا عن البلد، فتاب عنه أحد قادة الثورة.

وبدأت جلسات الندوة بعد ذلك، وقد شارك فيها عدد من العلماء المرموقين، من أبرزهم: الشيخ محمد أبو زهرة، والشيخ عليّ الخفيف، والدكتور محمد بيسار، والشيخ مصطفى زرقا، والدكتور صبحي صالح، والدكتور حسين حامد حسان، وغيرهم. وشارك عدد من العلماء الذين يعملون في ليبيا مثل: دكتور عبد العزيز عامر، ودكتور عبد الجواد محمد، وبعض رجال الاقتصاد الليبيين. وكان نجم الندوة - دون منازع - هو الشيخ أبو زهرة، الذي كان يُعلّق على المتكلّمين، ويتدفّق كالسيل العرّم، وهو يتكلّم، أذن له أم لم يؤذن، فلا يملك أحد أن يمنعه، ومن يمنع السيل من التدفّق، أو النجم من التألق؟

وقد ألقى الشيخ القرضاوي بحثه، وكان كلّ بحثٍ يمتدّ ربع ساعة لإلقائه، لتكون هناك فسحة مناسبة للمناقشة، ولكن بحثه كان طويلًا، فقال لهم: إني قطعت إلى هنا أطول مسافة قطعها أحد المدعوّين، وبجتي طويل، فينبغي أن تعطيني فرصة مناسبة لطول المسافة التي قطعتها! وضحك الجميع، وقابلوا اقتراحه بالقبول، وأخذت نصف ساعة في عرض الموضوع، وعلّق الأستاذ الزرقا على البحث، فقال: كان القرضاوي مؤفّقًا في تحريره، كما كان مؤفّقًا في تمريره. ولقي البحث القبول من الحضور.

المسألة السادسة: جلسات روحية

كان لهم مع الدكتور عزّ الدين جلسات أخوية روحية فكرية، فكانوا يتبادلون فيها الأحاديث ويتذكرون فيها المعارف، ويتواصون فيها بالحقّ والصبر، ويتعاونون على البرّ والتقوى، وكان عزّ الدين يسمّي هذه الجلسات: "جلسات التسليك"، أخذًا من "تسليك" الصوفية لمريديهم في الطريق، حين يَرْتَفُونَ بأتباعهم من درجة "مريد" إلى درجة "سالك".^٢

وكان حضور هذه الجلسات هم: عبد الحليم أبو شقة، وحسن المعايروجي، وعز الدين إبراهيم، وأحمد العسال، ويوسف القرضاوي. وكلّ واحد من هؤلاء "شيخ" في نفسه وفي حقيقة الأمر، فلم يكن بينهم شيخ ومريد. ولكن إخوة متحابّون، يتناصحون ويتذكرون، وإن كان أنشطهم هو عبد الحليم أبو شقة رحمه الله. وقد جاء عن سيّدنا سلمان الفارسي: مثل الإخوين المؤمنين كمثل اليدين تغسل إحداها الأخرى، وما التقى مؤمنان قط، إلا أفاد الله أحدهما من صاحبه خيرًا.

المسألة السابعة: محاضرة في إستانبول

بعد العودة إلى إستانبول في سنة ١٩٦٧م، أراد إخوان الأتراك: الشيخ أمين سراج وإخوانه: أن ينظّموا للشيخ القرضاوي محاضرة عن "الزكاة"، حضرها عدد من جيّد من المشتغلين بالعلم والفكر الإسلاميّ، الذي كان يقوم بالترجمة هو الدكتور علي أرسلان أيدن. وعقب المحاضرة وجّه الشيخ القرضاوي إلى بعض الأسئلة، أجاب عنها، وانصرف الجميع بعد ذلك بسلام.

١ القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٤٦٠

٢ المرجع السابق، ٢٠٠٤م، ج ٢، ص ٥٤٠

المسألة الثامنة: نشاطه في باكستان في السنة الدراسية: ١٩٦٨م - ١٩٦٩م

قام الشيخ القرضاوي بنشاط متعدّد الذي تنظّمه "الجماعة الإسلاميّة" في باكستان، فمن الأنشطة: ألقى القرضاوي عددًا من المحاضرات مع الطلبة المسلمين وغيرهم، ودكّر للإخوة التلاقي بين أفكار الجماعة الإسلاميّة، وأفكار الإخوان المسلمين، حتى قال لهم: إن الإخوان المسلمين هم الجماعة الإسلاميّة في الشرق العربيّ، والجماعة الإسلاميّة هم الإخوان المسلمون في شبه القارّة الهنديّة.

وأجرث بعض الصحف وبعض المجلّات حوارات معه، كانت إجابته فيها مسدّدة بفضل الله تعالى وتوفيقه، كما نظّم الإخوة مؤتمراً صحفياً له: أجاب الشيخ القرضاوي فيه عن عدد من التساؤلات، التي طرحت، وكان إخوة باكستانيين مسرورين بنتائج ذلك كلّهم.^١

المسألة التاسعة: مساهمة في مؤتمر "الحضارة العربيّة بين الأصالة والتجديد" في بيروت

دعت الجامعة اللبنانيّة في بيروت في السنة الدراسية (١٩٧٣م - ١٩٧٤م) إلى مؤتمر كبير، يدور حول موضوع أساسيّ و مهمّ هو: "الحضارة العربيّة بين الأصالة والتجديد"، وكان يشتمل على عدّة محاور علميّة، وأدبيّة، ودينيّة، وفلسفيّة، واقتصاديّة، واجتماعيّة. ودعت للمشاركة فيه عددًا من كبار الباحثين والمفكرين، وممثليّن عن الجامعة العربيّة في الوطن العربيّ.

وكانت كليّة التربية في جامعة قطر ممن دعي إلى هذا المؤتمر، وكان الأستاذ الدكتور القرضاوي قرأ الدعوة، ووجد من عناصر البحث: الفقه الإسلامي، فأعدّ الشيخ بحثًا عن "الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد". وكانت الكليّة قد رشّحت لهذا المؤتمر الزميل الكريم والصدّيق العزيز الدكتور ماهر حسن فهمي، رئيس قسم اللغة العربيّة، وأستاذ الأدب العربيّ، وقد أعد هو الآخر بحثًا حول تخصّصه في "الأدب العربيّ". وذهب الأستاذ الدكتور القرضاوي على حساب الجامعة وفقًا لقرار الدكتور كاظم، الذي كان عميد الكليّة في جامعة قطر، وإن كان الشيخ القرضاوي لم يحصل من الجامعة على ثمن التذكرة، والدكتور ماهر حسن فهمي على حساب الدولة. وسافرا الدكتور القرضاوي والدكتور ماهر، وحضرا المؤتمر الذي استمرّ عدّة أيّام، وكان مؤتمراً حافلاً بالشخصيّات العلميّة والفكريّة، وبالبحوث الأصليّة والمجدّدة، والحوارات الحيّة.^٢

المسألة العاشرة: دخول التلفزيون المصريّ لأوّل مرّة

في صيف سنة ١٩٧٤م، دخل الشيخ القرضاوي مقرّ التلفزيون المصريّ في القاهرة، لأوّل مرّة، ليُسجّل مع الإعلامي الذائع الصّيّت، الأستاذ أحمد فراج، ثلاث حلقات في برنامجه الشهير "نور على نور" الذي كان يستضيف فيه كبار علماء الأُمَّة أوّل ما ظهر، مثل المشايخ: المتولّي الشعراوي، وأبي زهرة، والخفيف والمدني، وفرج السنهوري، وغيرهم. وقد اتّصل بالقرضاوي الأستاذ فراج، وقال: إن كثيرين في مصر والوطن العربيّ، كتبوا إلينا يُعْتَبُونَ علينا، قائلين: لماذا لا نرى فلانًا (الشيخ القرضاوي) ضِمْنَ علماء الذين يُظْهَرُونَ في هذا البرنامج؟ ومن المعلوم أن المانع هنا كان مانعًا سياسيًا أو قلّ: أمنيًا. بحمد الله كان الجوّ هادئًا ومناسبًا في سنة ١٩٧٤م للظهور دون أدنى حرج إن شاء الله.

وكانت الحلقات التي سجّلها الشيخ القرضاوي ان "الزكاة" بمناسبة ظهور كتابه: "فقه الزكاة"، وانتشاره في الأوساط العلميّة، واعتماده مرّجعا لدى رجال الشريعة ورجال الماليّة الاقتصاد. ولم يقدر الشيخ القرضاوي أن يدخل التلفزيون المصريّ إلا بعد أكثر من

١ بشارت، اسم جريدة باكستانيّ اليوميّة، الموافق سنة ١٩٦٨م.

٢ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٣١٤

٣ المرجع السابق، ص ٣٣٤

عشرات سنوات، حين سجّلت مع الإعلامية المتألقة الفاضلة كريمان حمزة، ثلاث حلقات عن "الوسطية في الإسلام" أذيعت منها حلقتان، ومنعت الثالثة، وأحبرته الأخت كريمان: أن جهات الأمن هي التي منعت إذاعة الحلقة الثالثة، في حين أرسلت إليها رئاسة الجمهورية. كما أحيث كريمان الشيخ القرضاوي: أن دخول التلفزيون أمسى محرّمًا عليه وعلى مجموعة من الإسلاميين الملتزمين.

أما الإذاعة المصريّة، فلم يقدر له دخولها إلا في شهر ربيع الأوّل سنة ١٤٠٧ هـ - نوفمبر ١٩٨٦م، من خلال برنامج "شاهد على العصر" الذي كان يُعده ويُقدّمه الإذاعيّ الأديب الشاعر، الأستاذ عمر بطيشة، وقد سجّل مع القرضاوي لقاءً طويلاً حول الإسلام والصّحوة والقضايا المعاصرة، استغرق حلقتين من برنامجه. وكان صدّي هذه الحلقات طيّبًا لدى جمهور الناس.^١

المسألة الحادية عشرة: الخطّابة في مسجد أبي بكر الصّدّيق

في العام الدراسي ١٩٧٤م - ١٩٧٥م، شرع الشيخ القرضاوي رئاسة المحاكم الشرعيّة والشؤون الدينيّة المسئولة عن المساجد، في إنشاء جوامع كبيرة تتسع لعدد كبير من المصلّين في صلاة الجمعة في قطر، وكان مسجد أبي بكر الصّدّيق هو أوّل هذه المساجد، وقد طلب من الشيخ القرضاوي أن يتطوّع بخطبة الجمعة فيه، ورضي بذلك، والتزم بخطبة الجمعة فيه، ما دام في الدوحة إلا مريضًا أو على سفّر.

وهو يؤيّد السياسة الجوامع الكبيرة التي تجمع ألوف المصلّين فيها كلّ جمعة؛ فهذا يتفق مع كان عليه سلف الأمة، فالأصل أن يبني المسجد ليُسّع أهل البلد جميعًا، كما رأينا المسجد النبويّ في المدينة قد بني ليُسّع أهلها في الجمعة، فلمّا كثرت الناس في عهد الصحابة وسعوا المسجد.

المهم، أنه ظلّ يخطب في جامع أبي بكر الصّدّيق، حتى ينشئ مسجد عمر بن الخطاب، وكان يرحّب منه ويوسع، وفي منطقة أكثر حيوية، فطلب من الشيخ القرضاوي أن يقوم بالخطبة فيه احتسابًا، فلم يملك إلا الترحيب بذلك، وظلّ يخطب في هذا المسجد احتسابًا، وإن كانت كثرة الأسفار والمشاغل تحرّمه من المُواظبة على الخطبة فيه. واعتاد تلفزيون قطر يذيع هذه الخطبة على الهواء، وأصبح الناس يتربعونها في بقاع شتى، وخصوصًا بعد أن تحول تلفزيون قطر إلى قناة فضائيّة تشاهد في أنحاء كثيرة من العالم، وكان هذا من فضل الله عليه أن غدت الكلمة الإسلاميّة الموجهة تسمعها آذان العالم مباشرة.^٢

المسألة الثانية عشرة: مؤتمر تنصير المسلمين في كلورادو ١٩٧٨م

من الأحداث المهمّة المعترية التي وقعت خارج العالم الإسلاميّ، وكان لها صدّي كبير، وأثر خطير لدى المسلمين، وخصوصًا الدعاة والمهتمّين بالشأن الإسلاميّ: المؤتمر الذي عقد في ولاية كلورادو بأمريكا، وفي مدينة "جلن أيري" لتنصير المسلمين في العالم، والذي استمرّ مدّة أسبوع كامل، وقد اجتمع نحو مائة وخمسين (١٥٠) منصرًا، وهو تنمة للمؤتمر الذي عقد في لوزان بسويسرا عام ١٩٧٤م لتنصير العالم، أو قلّ: هو بداية لتنفيذ ما اتفق عليه هناك.^٣

وقد أُعدّ للمؤتمر أربعون بحثًا، تعين على توضيح الرؤية، وتمهيد الطريق لتنصير المسلمين، الذين أحزن المنصرّين إخفاقهم إلى اليوم في هدايتهم! وعدم استحابتهم لدعوتهم، وإيمانهم بالمسيح إلهًا ومخلصًا!!

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٣٣٦

٢ المرجع السابق، ص ٣٦٥

٣ المرجع السابق، ٢٠١٠م، ج ٤، ص ٤٩

لقد كانت أيام المؤتمر السبعة مشحونة بالعمل والإنجاز، جلسات متتالية في تسلسل صارم، وفيها قرروا إنشاء معهد للأبحاث والتدريب متخصص في تنصير المسلمين أطلقوا عليه اسم أحد عتاة التبشير، وكبراء التنصير، وهو صمويل زويمر، فأرادوا إحياء ذكره بهذا المعهد الذي اعتبروه بمثابة "جهاز مركزي" لتنفيذ قرارات المؤتمر، تمّ إنشاؤه بالفعل في جنوب كاليفورنيا، واختير "دون ماكري" رئيس مؤتمر كلورادوا مديرًا له.^١

وهذه المسألة تشتمل على ثلاث نقاط، وهي فيما يلي:

النقطة الأولى: جاء في التعريف بهذا المعهد هذه الفقرة

"إن الهدف الرئيسي لمعهد صمويل زويمر، هو مساعدة الرجل المسلم، والمرأة المسلمة، والطفل المسلم، في كل مكان، لتوفير الظروف التي تجعلهم يقبلون المسيح إلهًا ومخلصًا لهم، وأن نرى الكنيسة مزروعة بين كل جماعة مسلمة!!" وللمعهد شعارًا مكتوب على لوحة كبيرة حضراء اللون، وباللغتين العربيّة والإنكليزيّة، ونصّ هذا الشعار: "لأنه ليس شيء غير ممكن لدى الله، فاذهبوا وتلمذوا [اجعلوهم تلاميذ] كل مسلمين، من كل قبيلة ولسان وشعب وأمة".^٢

وقد رصدوا لهذه الغاية مليار دولار "ألف مليون دولار" جمعت بسهولة، ووضعت في أحد البنوك. إن أخبار هذا المؤتمر تناقلتها وكالات الأنباء، ونقلت إلى العالم الإسلامي، وأقضت مضاجع الغيورين من المسلمين هنا وهناك، والشيخ القرضاوي منهم، إن لم يكن في مقدمتهم، لما يبني للإسلام من مكاييد، وما يرصد من أموال، وما ينشأ من معاهد، وما يعدّ من رجال مدرّبين لتحويل المسلمين عن دينهم إلى المسيحيّة التي لم تعدّ مسيحيّة عيسى بن مريم، بل مسيحيّة "سانت بولس"، والتي لا يذهب من أهلها إلى الكنائس في أيام الأحد إلى نحو خمسة (٥٥%) في المائة منهم، كما قالت الإحصاءات في أورتا.^٣

النقطة الثانية: بزوغ فجر الصحوة الإسلاميّة

وقد كان الشيخ القرضاوي يتوهم أن دعاة التنصير بدءوا حملتهم في الوقت الغلط، ففي هذا الوقت ١٩٧٨م، كانت "الصحوة الإسلاميّة" الجديدة قد بزغ فجرها، وأشرقت شمسها، وبدأت أنوارها تمتدّ شرقًا وغربًا، وشمالًا وجنوبًا، داخل العالم الإسلامي وخارجه... وهي صحوة انبثقت من ضمير الشعوب، ومن قلب الجماهير. وهي صحوة عميقة وشاملة، شملت إيقاظ العقول والمشاعر، وإحياء العزائم والضمائر، فهي صحوة علم وعمل، وفكر وحركة، وغيره ودعوة، وكفاح وجهاد، ظهر أثرها في المعارك التحريرية ضد أعداء الأمة، وفي ميادين المال والاقتصاد، وميادين الثقافة والفكر، وفي ميادين الخلق والسلوك.

وقد جاء صحفِيُّونَ وصحفيّات عند القضاوي من أمريكا وأورثيا، يسألونه - كما سألوا غيره - عن سرّ هذه الصحوة، التي جعلت الشباب يتردّدون إلى المساجد، ويرجعون إلى القرآن والسنة، ويتمسكون بأداب الإسلام، الفتى يتلحي، والفتاة تحتمر "أو تتحجب" والجميع يؤدّون الفرائض، ويتجنّبون محرّمات، بل يتقون الشبهات، ويقرءون الكتب الإسلاميّة، ويسمعون ويشهدون العلماء والدعاة المسلمين.^٤ وبدأ الغرب بمؤسساته السياسيّة والثقافة والدينيّة، يرقّب هذه الحركات عن كثب، ويخصّص لها الدارسين، وتعدّ لها الحلقات،

١ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٤٩

٢ المرجع السابق، ص ٥٠

٣ المرجع السابق، ص ٥٠

٤ المرجع السابق، ص ٥١

فلم يكن في عزلة ولا غفلة عن هذه الصحوة. وخصوصًا المسؤولين عن "التنصير" فيه. ومن هنا كانت حماسهم البالغة لعقد المؤتمر الأمريكيّ للمنصرّين البروتستانت في ولاية كلورادو، بادرة منهم ليقطعوا الطريق على الصحوة الإسلاميّة الواعدة الصاعدة.

وفي أول كلمة لرئيس المؤتمر "دون ماكري" قال في مفتح خطابه: بلغت الصحوة الإسلاميّة التي تجيش في أعماق ٧٢٠ مليون مسلم شأوا لم تبلغه لعدّة قرون مضت. ثم يتحدّث عن البترول الذي يملك المسلمون معظمه. وعن بروز القضايا الإسلاميّة في العالم من تمرّد جبهه مورو لتحرير المسلمين في الفلبين، إلى صراع بين العلمائيين والإسلاميين الذي كان أن يفرض تطبيق الشريعة الإسلاميّة في مصر، كما ستقوم باكستان بتطبيق الدستور الإسلاميّ، لأول مرّة في تاريخها، ابتداء من آذار عام ١٩٧٨م.^١

النقطة الثالثة: التحرك لمقاومة التيار التنصيريّ

على كلّ حالٍ لقد أقلقته أي الشيخ القرضاوي أخبار مؤتمر كلورادو كما أقلقت غيره من العلماء والدعاة وأهل الغيرة على الإسلام وأمته، وكلّ الحراس الأيقاظ الذين عدّوا أنفسهم مسئولين عن هويّة الأمة وعن الحفاظ على عقيدتها ورسالتها مرابطين على ثغورها. وهذا ما حرّكه لعمل شيء لمقاومة التيار التنصيريّ، الذي يستغل فقر المسلمين وجهلهم ومرضهم ومشكلاتهم، للتسلل منه إلى فنتتهم عن دينهم، بوسائل غير أخلاقيّة، وأساليب لا يرضاها الله ولا رسوله، ومنهم المسيح عليه السلام. وهو ما انتهى إلى تأسيس "الهيئة الخيريّة الإسلاميّة العالميّة" بالكويت.

ويذكره هذا المؤتمر وطموحاته في تنصير أمة الإسلام الكبرى، ما كان قد قرّره المُنصرُّون في إندونيسيا أن يحولوها إلى بلد نصراني في حدود خمسين عامًا، وضعفوا لذلك الإرساليات، واستعدّوا بمضاعفة الميزانيات، وأسّسوا عشرات المطارات، ووفروا أعدادًا من الطائرات، ينتقلون بها بين الجزر. مستغلين فقر الفقراء، وضعف المرضى، وضياح اليتامى والأرامل، وجهل الأميين، وفراغ القبائل الهمجيّة، وعلمائيّة الحكّام، الذين لم يعد يهمهم أمر الدين، ولا الحفاظ على هويّة الإسلام، فقرّروا غزو هذا البلد، الذي أصبح بعد ذلك أكبر بلد إسلاميّ في العالم، وتحويل مساجده إلى كنائس، وأبناءه من مؤمنين بالله الواحد الأحد إلى مؤمنين بلأله الثلاثة: الإله الأب والإله الابن، وإله الروح القدس.^٢

المسألة الثالثة عشرة: مجلّة "الأمة":

كان من البشائر التي صاحبت مطلع فجر القرن الخامس عشر الهجري: مولد مجلّة "الأمة" القطريّة، التي صدرت عن رئاسة المحاكم الشرعيّة والشئون الدينيّة في دولة قطر. بإشراف النابه: الشيخ عبد الرحمن المحمود وكيل رئاسة المحاكم والشئون الدينيّة، ورئاسة التحرير الإعلاميّ: الشيخ يوسف المظفر، وإدارة تحرير الأستاذ عمر عبيد حسنة، وهو العنصر الفعّال في تحرير المجلّة. ولقد وفق الإخوة المسئولون في تسمية المجلّة "الأمة" فهي تسميّة، فهم في حاجة إلى تجاوز الأوطان الضيقة، والقوميّات المحليّة، ليوسّعوا دائرة اهتمامهم إلى "الأمة".

صدرت مجلّة "الأمة" من قطر، فسدّت فراغًا فكريًّا قائمًا، وشعر الناس بأن المجلّة تحوي فكرًا جديدًا غير الفكر التقليديّ، الذي عرف الشيخ القرضاوي به المجلّات الدينيّة أو الإسلاميّة، وهو "الحركية".

١ ألفردّواوي، يوسف بن عبد الله، التنصير: خطة لغزو العالم الإسلاميّ، (القاهرة، دار الشروق - ١٩٧٦م)، ص: ١٣

٢ ألفردّواوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٥٣ - ٥٤

إذ من المهم في مخاطبة العقل المسلم المعاصر: أن يربط العلم بالعمل، وَيَرْبُطُ العلم بالعمل، ويربط الفكر بالحركة، فليس الفكر شيئاً معلقاً في الهواء، بل هو شيء يتعامل مع الواقع المعيش، ويتعامل معه بصورة إيجابية يتأثر به ويؤثر فيه.

وكان من المقالات المُبَكَّرَة التي كتبها الشيخ القرضاوي فيها: أمة لن تموت. صحوة الشباب الإسلامي: ظاهرة صحية يجب ترسيدها لا مقاومتها - نشرت في عدددين. وقد تَلَقَّفَهَا شباب الجماعة الإسلامية في مصر، فطبعوا منها عشرات الآلاف.

كما أن المجلة كانت تثير قضايا مهمة، توقظ الحاسة النقدية عند المتدينين عامة، ودعاة الإسلام خاصة. مثل سؤال: "أين الخلل؟" الذي عرضه الشيخ القرضاوي على عدد من العلماء والمفكرين، ليجيبوا عنه إجابات متنوعة، كل حسب منظوره ورؤيته.^١

المسألة الرابعة عشرة: مجلة "الدَّوْحَة"

وظلت المجلة تصدر تباعاً لمدة ست سنوات كاملة، ثم صدر قرار بتوقيفها مع مجلتيْن أُخريْن كان لهما في محيطهما نفس التأثير، ونفس الصدى، وهما مجلة "الدَّوْحَة" وهي مجلة ثقافية، وقد انتشرت وذاع صيتها في العالم العربيّ كلّهُ من الخليج إلى المحيط وربما خارج بلاد العرب. ومجلة "الدَّوْحَة" هي مجلة أدبية ثقافة عامة. تسدّ ثغرة مهمة في هذا المجال. ومجلة "الدَّوْحَة" لا تلتزم بما يلتزم به مجلة "الأمة"، بل ربما غلب عليها الطابع العلماني، وهي على كلّ حالٍ مفتوحة لكلّ الاتجاهات المعاصرة والحداثيّة، ومن كتابها علمانيون، وتغريبيون، وقوميون، ولا مانع أن يكون فيهم إسلاميون، إن وجدوا.

وكان رئيس تحرير مجلة "الدَّوْحَة" الأديب السوداني الدكتور محمد إبراهيم الشوش الذي دعا الشيخ القرضاوي أكثر من مرّة إلى الانضمام إلى أسرة كتّاب المجلة، وكان الشيخ القرضاوي في أوّل الأمر متردّداً، لأن المجلة قد تنشر أشياء لا يرضاها، ولا تتفق مع الخطّ الإسلاميّ، ولكنّه فكّر الأمر جيّداً، واستخار الله تعالى، وقرّر أن يشارك بالكتابة في هذه المجلة؛ لأنه فيها يستطيع أن يخاطب جمهوراً غير جمهور مجلة "الأمة"، وهم الجمهور الأعرض في الأمة، وتبلغ هؤلاء كلمة الإسلام الوسطية المستنيرة: فرض كفاية على علماء الأمة ومفكرها ودعاتها. وهذه المجلة منبر قوي لإبلاغ هؤلاء دعوتهم.

وقد وجد الشيخ القرضاوي صدى ذلك وأثره من أوّل مقال كتبه في المجلة. وكان عن الاجتهاد أو التجديد، وقد ختمه بهذه الكلمة: إن جمودنا ووقوفنا في مكاننا لا يمنع الفلك من السير، ولا الأرض عن الدوران! وقد جاءته اتّصالات شتىّ تشني على المقال، وتلح على القرضاوي أن يستمرّ في هذا الاتجاه، فوجود هذا اللون من الكتابة الإسلامية التي تزاعي الأصول، وتخطب العقول، ولا تناقض النقول: أمر مطلوب في مثل هذه المجالات المقروءة.^٢

المسألة الخامسة عشرة: صفوة من خيار علماء الأمة

كانت ملتقيات الفكر الإسلاميّ في تلمسان ١٩٨٢م، تجمع صفوة من خيار علماء الأمة في العادة من أقطار عربيّة وإسلاميّة مختلفة، وكانت تُطْرَحُ فيها موضوعات حيّة، تقدّم فيها البحوث، تتناقش من العلماء، وتصدر بعد ذلك التوصيات من الملتقى. وقد قالوا: إن الذي أشار بفكرة الملتقى الإسلاميّ السنويّ هو لمفكّر الجزائريّ الشهير مالك بن نبي رحمه الله. رأى فيه فرصة يلتقي فيها رجال السياسة - أو بعضهم - ورجال الفكر على بساط واحد، ليفيد بعضهم من بعض.

١ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ١٢٤

٢ المرجع السابق، ص ١٢٧ - ١٢٨

وكان شعار الملتقى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَاٍ [١١]﴾^١. وهو نفس شعار جمعية العلماء الجزائريين.

وفي اليوم المحدد نقلتهم الطائرة إلى مدينة تلمسان في غربي الجزائر، وإليها ينتسب حدود مرشد الإخوان الأسبق الأستاذ التلمساني. ولم يكن لدى الشيخ القرضاوي وقت لكتابة بحث حول أحد محاور الملتقى، وهو: موضوع "السنة النبوية" وهو من اهتماماته الأصلية، واكتفى بالمناقشة.^٢ وكان الشيخ الغزالي بحث عنوانه: "لا سنة بغير فقه" يؤكد فيه نزعتة الناقدة للاتجاه الظاهري في فهم الحديث، دون ربطها بالقرآن وبمقاصد الشريعة العامة. وكان من المشاركين: الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، والدكتور أحمد عمر هاشم، وغيرهما من أساتذة الحديث في كليات الشريعة وأصول الدين في الجامعات المختلفة.

وهذه المسألة تتناول نقطتين، وهما:

النقطة الأولى: إلقاء كلمة الضيوف

كانت الواقعة بمناسبة "ملتقى الفكر الإسلامي في تلمسان" في الجزائر الموافق ١٩٨٢م، وبدأ المؤتمر، وتفضل الوزير رئيس المؤتمر، فأسند إلى الشيخ القرضاوي أن يقول كلمة الضيوف، فألقى كلمة ضيافة مرتجلة عن الجزائر وأصالتها وجهادها، ودور جمعية العلماء فيها وابن باديس والبشير الإبراهيمي، والعربي التبسي، الذين حفظوا على الجزائر هويتها: الممثلة في الدين واللغة.^٣

النقطة الثانية: نشاط مكثف في الملتقى

والحقيقة أن الشيخ القرضاوي قام في هذا الملتقى بنشاط موفور مكثف، في لقاءات مسائية بالطلاب في مدارسهم أو جامعتهم، والطلبات في مدارسهن أو جامعتهن اللاتي ينزلن بها. وقد جرت سنة الملتقيات أن تدعو عددًا كبيرًا من الطلاب والطلبات من الجامعات المختلفة، يشاركون في أنشطتها، ويتوجهون بأسئلتهم المباشرة إلى العلماء المشاركين، ليتلقوا الإجابات عنها.

وزار الشيخ القرضاوي بعض القرى القريبة من تلمسان، وألقى فيها محاضرات. وفي الاستراحات المعتادة بين الجلسات، يلتفتُ حوله الطلاب والطلبات، ويمطرونه بأسئلتهم، ولا يضمنه الشيخ القرضاوي عليهم بالإجابة ما استطاع.^٤ وقد نوه الوزير ما قام الشيخ القرضاوي به من نشاط مكثف على كل المستويات، وشكره على ذلك، وفي الملتقى تعرّف على عدد من الجزائريين، منهم الأستاذ مولود قاسم وزير الشؤون الدينية السابق.

ورتب الشيخ القرضاوي عودته بالطائرة الخاصة إلى الجزائر العاصمة، وبقي يومين أو ثلاثة أيام في فندق الأوراسي، وفيها نظم الإخوة في وزارة الشؤون الدينية: محاضرة عامة في أحد المساجد، وعرضوا عليه الأمر، فرحب الشيخ بذلك، وكان منطقتهم: أن أهل العاصمة يجب أن ينالهم نصيب من حضوركم إلى الجزائر، ولا يستأثر أهل تلمسان ومن حولها بكل الغنيمة.

١ القرآن الكريم، الرعد (١٣)، الآية [١١].

٢ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٢٤٩

٣ المرجع السابق، ص ٢٥٢

٤ المرجع السابق، ص ٢٥٢

المسألة السادسة عشرة: نادي الإصلاح في البحرين

كان النادي يقوم بخدمات جليلة لِلْمُؤَاطِنِينَ، ولا سيَّما لجيل الشباب، الذي يمثل مستقبل الوطن والأمة، يعلمهم الإسلام الصحيح بعيداً عن الغلو والتَّسَيُّبِ، ويربطهم بتراث الثقافى والحضارى، فى غير تعصّب ولا إعراض، كما يصلهم بالعصر وحضارته وإنجازاته فى مختلف الميادين، ويمحيهم من التيارات الهدامة والغازية التى تريد أن تقتلعهم من جذورهم العقديّة، ومن هُويّتهم الدينيّة والحضارة.^١

وهذه المسألة تتضمّن نقطة، وهى:

جمعيّة الإصلاح الاجتماعى بالبحرين:

ولكن المبنى ضاق بأنشطته المتعدّدة والمتنوّعة والمطوّرة استمرار، فقرّرت الدولة أن تمنح النادي أرضاً، وتقيم عليها مبنى حديثاً يتّسع لمجالات النشاط والعمل الدعوى والفكرى والخيرى والاجتماعى، وأن تهبه للنادى الذى أثر أن يغير اسمه إلى "جمعيّة الإصلاح الاجتماعى" تأسياً بإخوانه فى دولة الكويت التى سبقت بتأسيس جمعيّة بهذا العنوان.

لقد دُعِيَ الشيخ القرضاوى إلى الحضور والمشاركة فى افتتاح الجمعيّة برعاية أمير دولة البحرين الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة رحمه الله وبحضوره شخصياً، وحضور أخيه رئيس وزرائه الشيخ خليفة بن سلمان، وولي العهد الشيخ حمد بن خليفة. وكان الافتتاح عصر يوم الثلاثاء ٢٧ رجب ١٤٠٣ هـ الموافق ١٠ مايو ١٩٨٣ م.^٢ ودُعِيَ عددٌ كبير من الشخصيات الإسلامية والعامة من العالم العربى والإسلامى، ولا سيَّما من دول الخليج العربيّة: السعودية والكويت وقطر والإمارات وعمّان.

المسألة السابعة عشرة: ندوات المنظمة الإسلامية للعلوم الطبيّة بالكويت

من أنفع المؤسّسات الإسلامية العلميّة التى ظهرت فى القرن العشرين: "المنظمة الإسلامية للعلوم الطبيّة"، وهى مؤسّسة كويتيّة المنشأة، عالميّة الاتجاه، إسلاميّة المطلق والمنهج. وهى بلا محاملة تعدّ من المنجزات والحسنات التى تضاف إلى الكويت ضمن المؤسّسات التى أنشأها واحتضنتها، مثل الهيئة الخيرية الإسلامية العالميّة، وموسوعة الفقه الإسلامى، ولجنة مسلمي إفريقيا، وبيت الزكاة، واللجنة العليا لاستكمال تطبيق الشريعة، وغيرها.

وقد رأس هذه الهيئة منذ تأسيسها الأخ الكريم وصديق الشيخ القرضاوى العزيز، صاحب الهمة العالية، والقلب الطموح، الدكتور عبد الرحمن عبد الله العوضى، الدكتور أحد رجائي الجندي، الذى يعمل أميناً عامّاً مساعداً للمنظمة، وهو المسئول عن إدارتها وتنظيم شؤونها، واختار موضوعاتها، وتنفيذ برامجها، وتحقيق أهدافها.

كان ممّا سنّته المنظمة، وهى سنّة حسنة لها أجرها وأجر من اتّبعها فيها: الجمع بين علماء الفقه وعلماء الطبّ ومن يساعدهم من علماء البيولوجيا ونحوهم، يجتمعون فى صعيد واحد لعدّة أيام، يَعْرضُ فيها عليهم الموضوع الذى يراد بحثه لبيان حكمه شرعاً من ناحية الفقهاء، بعد أن يَعْرضُهُ عليهم الأطباء ويشرحوه شرحاً تفصيلياً، ويتمّ فيه نقاش حرّ بين الفريقين، وبعد الأخذ والردّ، والجذب والشدّ، يلتقى الجميع عادة على كلمة سواء، وعلى نقطة التقاء، يخرجون بها على الناس، ويكون فيها النفع والخير للمسلمين، بل ولغير

١ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٢٥٦

٢ المرجع السابق، ص ٢٥٨

المسلمين. حدث ذلك في قضية الإسلام والإنجاب، وقضية بداية الحياة ونهايتها، ومسألة موت الدماغ، وقضية زرع الأعضاء. وقضايا أخرى كثيرة. وكان موضوع الشيخ الدكتور القرضاوي في حكم "بنوك الحليب" للبحث والدراسة.^١

المسألة الثامنة عشرة: درس الشيخ القرضاوي عن حديث تجديد الدين

سافر الشيخ القرضاوي عليه إلى المغرب أي المرّاكش بمناسبة "المشاركة بدرس من الدروس الحسنية" المنعقدة في سنة ١٤٠٣ هـ الموافق ١٩٨٣م، وكانت الدروس عادة تنطلق من آية كريمة، أو من حديث شريف، وقد سألوا الشيخ القرضاوي عن منطلق الدرس، وهل هو مكتوب أم مرتجل، فأخبرهم أنه مرتجل، وأنه ينطلق من الحديث النبوي الذي رواه أبو داود والحاكم وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، فِيمَا أَعْلَمُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةٍ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا».^٢

والذي رجّح اختياره لهذا الحديث: أنهم في أوائل القرن الخامس عشر الهجري في ذلك الوقت، فلم يمض منه إلا سنتان وبعض الثالثة. ثم أورد الشيخ القرضاوي الحديث كما هو في "سنن أبي داود" وأخذ يشرح ويترنّطه بالواقع، مبيّنًا معنى التجديد وجوانبه المختلفة، وهل المجدد فرد أو جماعة أو مدرسة؟ واختار الاتجاه الثاني، وكلمة "من" في الحديث، تصلح للجمع كما تصلح للفرد،^٣ وعرّج على قضايا واقعية حيّة، في الخمسين دقيقة التي استغرقها حديثه، وقد كان الملك يصغي إلى الشيخ القرضاوي باهتمام: بوجهه وعينه وأذنيه، وكذلك الحاضرون جميعًا، وكان حديثه يحمل نقدًا للواقع، الذي نعيشه في ديار العرب والإسلام، وهو حديث عالم مشغول بالدعوة والإصلاح والتجديد، فلا يُصوّر أن يفصل عن واقع الأمة وأدائها وآمالها.

وفي هذه المسألة نقطتان، وهما:

النقطة الأولى: مناقشة مع الملك

وفي آخر الدرس، أو قَلَّ: بعد أن ختمه الشيخ القرضاوي، سأله الملك سؤالًا مهمًا على عادته، في مناقشة العلماء، وذلك حين قال: أن الذي نحفظه في رواية هذا الحديث: أنه بلفظ: "يُجَدِّدُ لَهَا أَمْرَ دِينِهَا" قال الشيخ القرضاوي له: هذا هو المشهور على الألسنة، ولكن الذي رواه أبو داود في كتاب الملاحم من "سننه"، ورواه الحاكم في "مستدرکه" ورواه البيهقي في "معرفة السنن والآثار"، كلهم متفقون على هذه الصيغة: "يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا". وفي ختام المجلس: صافحه الملك بجملة، وقال له: نريدك أن تكون معنا في الموسم القادم. وطلب من الشيخ القرضاوي أن يبلغ سلامه إلى سمو أمير قطر الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني.

١ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٢٦٢

٢ السَّجِسْتَانِي، أبو داود، *سنن أبي داود*، [محمد محيي الدين عبد الحميد]، باب ما يذكر في قرن المائة، [بيروت - المكتبة العصرية، صيدا]، رقم الحديث: ٤٢٩١، ج ٤، ص ١٠٩، [حكم الألباني]: صحيح. والطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم (المتوفى: ٣٦٠هـ) *المعجم الأوسط*، (القاهرة - دار الحرمين)، رقم الحديث: ٦٥٢٧، ج ٦، ص ٣٢٣

٣ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا*، (شرح هذا الحديث ومعنى التجديد فيه وجوانبه)، فصل: تجديد الدين الذي ننشده، (القاهرة - دار القلم، الطبعة: الثالثة، سنة ١٩٨٢م)، ص ١٠٤

النقطة الثانية: صدى الدرس في المغرب

كان لهذا الدرس - الذي يُعدهُ الشيخ القرضاوي عاديًا بالنسبة له - صدى واسع عند الناس كافة المغرب، حتى قابلتُ بعض أساتذة الجامعة بعد ذلك، ووجدتهم مسرورين من حديثه، ومُعجَبِينَ به، ولا سيَّما أن لم يراع فيه إلا وجه الله تعالى، ولم يلو فيه عنق الحقائق، ولم يُحرِّفِ الكلم عن مواضعه، ولم ينحن ولم ينثن. ونوّهت مجلّة العدل والإحسان، على لسان مؤسس الجماعة الشيخ عبد السلام ياسين وبموقفه في هذا الدرس.^١

قال الشيخ القرضاوي لإخوة المغربيين: إن المَلِكَ قال: نريد أن نراك معنا في رمضان القادم. قالوا: ثمّ بأنهم لن يدعوك مرّة أخرى. ستعرّفه المخابرات: من أنت؟ وما أفكارك؟ وما دعوتك، وما تاريخك؟ قال الشيخ القرضاوي لهم: لست حريصًا على الحضور، إذا دعوني فأهلاً وسهلاً، وإلا فحسبي أني قلت كلمتي، أدبتي واجبتي. وما أريد للمغرب إلا الخير.

المسألة التاسعة عشرة: ملتقى الفكر الإسلامي السابع عشر عن "الاجتهاد" في قسنطينة^٢ صيف ١٩٨٣م، وفيها أربع نقاط فيما يلي:

النقطة الأولى: مشاركة مثمرة بإقبال كبير

كانت مشاركة الشيخ القرضاوي الأولى في ملتقى الفكر الإسلامي السادس عشر في تلمسان: مشاركة مثمرة، وكان إقبال الناس عليه كبيرًا. وكان الجميع وعلى رأسهم الشيخ عبد الرحمن شيبان، يؤكّدون على ضرورة وجوده في الملتقيات القادمة، وألا يغلب عنها، ما لم يقهره قاهر لا أقدر عليه. ولذلك ربّ الشيخ القرضاوي أموره على حضور ملتقى قسنطينة في شوال ١٤٠٣ هـ الموافق يوليو ١٩٨٣م، وقد أعلن عن موضوعه، هو "الاجتهاد" وأعدّ الشيخ القرضاوي بحثًا في الموضوع.^٣

فلا غرو أن أعدّ الشيخ القرضاوي العُدَّة للسفر إلى الجزائر، ولا سيَّما أن الدعوة قد بلغت مُجَدِّدًا، والتذكرة وصلت، وفي الموعد المحدّد سافر من القاهرة إلى الجزائر، حيث كان مع الأسرة يقضون الإجازة - كالعادة - في مصر. وصل إلى مطار الجزائر، فوجد الإخوة كالعادة في استقباله، وقد أوصله إلى الفندق الأوراسي، وفي الجناح المجاور للشيخ الغزالي، كما في المرّة السابقة، ونعمّ به من جوار، والمثل يقول: من جاور السعيد يسعد. وهو يحبّ الغزالي من قديم، ويسعدُ بالقرب دائمًا، فالقرب منه قربة إلى الله تعالى.

النقطة الثانية: إلى قسنطينة بلد ابن باديس^٤ ومكان ملتقى الاجتهاد

وصل الشيخ القرضاوي إلى الجزائر العاصمة قبل موعد الملتقى بيومين أو ثلاثة، وانتهاز الإخوة وجود فسحة في الوقت قبل الذهاب إلى مكان الملتقى، فرتّبوا له محاضرة في أحد المساجد الكبرى، وقد ذهب إلى المسجد في الموعد المحدّد، فوجد بحرًا زاخرًا من الشباب والشابات امتلأ بهم المسجد وساحاته، وقد قدّر العدد بأكثر من عشرين ألفًا. وكانت استجابتهم رائعة، وحماسهم دافقة، وهتافاتهم بالتكبير والتهليل تكاد تبلغ عَنان السماء.

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٢٧٣

٢ قسنطينة نسبة إلى قسطنطين إمبراطور الروم الشهير الذي انتقل من الوثنية إلى النصرانية، وإن لم يتنازل عن كلِّ وثنيته، التي طعمَ بها النصرانية. ولذا علّق بعض علمائنا قديمًا فقال: إن رومًا لم تنتصر، ولكن النصرانية تروّمت! وإلى هذا الملك تنسب أيضًا مدينة القسنطينية الشهيرة، عاصمة الدولة الرومانية البيزنطية، لعدّة قرون، والتي افتتحها العثمانيون عام ١٤٥٣م، وسُمّيت إسلامبول أو إستنبول.

٣ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (المرجع السابق، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٢٨٠

٤ هو الشيخ عبد الحميد بن باديس (المتوفى ١٣٥٩ هـ الموافق ١٩٤٠م) المصلح الجليل، والمجدّد الكبير، ومؤسس جمعية العلماء، ومحى النهضة الجزائري، ومؤسس مجلّة "شهاب".

كان موعدهم إذن مع الملتقى الفكر الإسلامي الثامن عشر في قسنطينة شرقي الجزائر، موضوعه "الاجتهاد". وكان المسؤولون في وزارة الشؤون الدينية قد دعوا إلى ملتقى للقرآن الكريم في عام ١٩٨١م، ولم يشهده الشيخ القرضاوي، وإلى ملتقى للسنة الثانية في مدينة تلمسان ١٩٨٢م، وقد سَعِدَ بشهوده والمشاركة فيه.^١

النقطة الثالثة: بحث القرضاوي في الملتقى

شارك الشيخ القرضاوي في الملتقى بإلقاء بحثه، وبالتعقيب على بحوث المشاركين، والردود على أسئلة الطلاب والطالبات في الجلسات المخصصة لهم. وقد حضر هذه المرة منهم أعداد أكبر ممن حضر في الملتقى السابق، وقد خصوه بعدد أكبر من الأسئلة.^٢

النقطة الرابعة: النشاطات المصاحبة للملتقى

كما شارك في الأنشطة المصاحبة للملتقى من لقاء الطلاب والطالبات في المساء حيث يقيمون في مواقعهم أو مواقعهم، وفي إلقاء بعض المحاضرات الجانبية، وفي إلقاء كلمة قبل الجمعة في المسجد الذي تذاق فيه الخطبة، حيث يمنح المالكي السائد في الجزائر: أن يكون المسافر إمامًا للمقيمين في الجمعة. وكان إقبال الطلبة عليه في هذا الملتقى أكثر من قبل، وخصوصًا في الاستراحات، فيجتمع الشباب من حوله لتوجيه أسئلة، أو أخذ صورة معه. وكان رجال الأمن هذه المرة قد تنهبوا لوجوده، فكلما وجدوا الشباب من حوله يتحدثون إلى الشيخ القرضاوي أو يستمعون إليه: وحاولوا أن يفرقوهم عنه برفق، بحجة الإشفاق عليه، قائلين: ارفقوا بالشيخ، لا تزعجوا الشيخ.^٣

المسألة العشرون: الاحتفال بفتح القسطنطينية

كان من السنة الحسنة التي سنّها الدكتور نجم الدين أربكان، لإحياء الروح الإسلامية في تركيا: الاحتفال بالذكرى السنوية لفتح «القسطنطينية»، وقد فُتِحَتْ في ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣م. وقد حاول الكماليون أن يهيلوا التراب على كل ما هو إسلامي، كان يحمل الأجداد والمآثر لتركيا!^٤

وفيها نقطتان، وهما:

النقطة الأولى: ملحة تاريخية فريدة

فتح القسطنطينية ملحة تاريخية فريدة، جديرة بأن تعرف، ويذكر بها الناس؛ لما فيها من دروس وعبر، كيف فكّر الشاب العثماني محمد بن مراد، وهو لم يتجاوز العشرين، ولم يزل عهد والده، وفي فتح هذه المدينة الحصينة العريقة، ولم يزل يفكر ويدبر، حتى تولى الحكم، ووضع خطة محكمة لفتحها؛ ولذا أطلق عليه اسم: «محمد الفاتح».^٥

يقيم الدكتور أربكان هذا الاحتفال في أكبر ملاعب «إستادات» إستانبول، ويحضره مئات الألوف، ويعاد تمثيل قصة الفتح أمام الجمهور، حتى يدخل السلطان على فرسه إلى المدينة، وتعالى صيحات التكبير فيرتجئ الإستاذ.

١ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٢٨٣

٢ المرجع السابق، ص ٢٨٩

٣ المرجع السابق، ص ٢٨٩ - ٢٩٠

٤ المرجع السابق، ص ٧٨٢

٥ المرجع السابق، ص ٧٨٢

النقطة الثانية: مشاركة الشيخ القرضاوي في هذه المناسبة مرتين

ويدعو الدكتور أربكان كلَّ عام عددًا من القادة والعلماء والدعاة الإسلاميين من أنحاء العالم العربي والإسلامي، وقد سَعَدَ الشيخ القرضاوي بالمشاركة في هذه المناسبة مرتين. ألقى في كلِّ منهما كلمة مناسبة ترجمت للجماهير، التي قابلتها بالحماسة والاهتمام: الله أكبر، الله أكبر.^١

المسألة الحادية والعشرون: ملتقى الصحوة الإسلامية بالجزائر سنة ١٩٨٤م

كانت وزارة الشؤون الدينية المنظمة للملتقيات الفكر الإسلامي في الجزائر، وقد اختار الشيخ القرضاوي موضوع "الصحوة الإسلامية" ليكون محور الملتقى في هذا العام ١٩٨٤م، وكانت الوزارة وجهازها المعنى بالملتقيات، وعلى رأسه الشاب النابه المثقف المتوقد، عبد الوهاب حمودة وإخوانه، ومعهم الوزير العالم الشيخ عبد الرحمن شيبان، يحسنون اختيار الموضوعات، فقد عقدوا مؤتمرًا عن القرآن، ثمَّ عن السنة، ثمَّ عن الاجتهاد، ثمَّ هذا عن الصحوة.^٢

وكانت الصحوة قد فرضت نفسها على الواقع العربي والإسلامي، والواقع العالمي، حتى إن أمريكا رصدت عشرات الملايين - إن لم تكن مئاتها - من الدولارات لرصد هذه الصحوة ودراسة نواحي قوتها وضعفها. وعقدت لذلك عشرات الندوات وأصدرت كثيرًا من الدراسات. فلا غرو أن تكون الصحوة محور ملتقاهم هذا العام في الجزائر الشقيقة. وقد أصبح حضور الشيخ القرضاوي في هذه الملتقيات فرضًا عليه، بعدَما حضر أول مؤتمر في تلمسان، والثاني في قسنطينة، وعرف الشيخ القرضاوي مدى أهمية مشاركته، وأن غيابه عن هذه الملتقيات بغير عذرٍ قاهرٍ يُعَدُّ فرارًا من الميدان. وخصوصًا بعدما شاهده من استقبال الشعب الجزائري له، ولا سيَّما شبابه، واحتفاء وزارة الشؤون الدينية به وحرصها على حضوره، وتأكيدها لذلك بكلِّ وسيلة، ولا سيَّما وزيرها ابن جمعية العلماء، وتلميذ الشيخ ابن باديس رحمه الله. الشيخ عبد الرحمن شيبان، الذي كان يعامل مع الشيخ القرضاوي والشيخ الغزالي معاملة متميزة.

ويزداد حرصه على هذا الملتقى أكثر من غيره؛ لأن موضوعه من الموضوعات التي تهَمَّه، وتشغل فكره وقلبه، فهو ينظر لهذه الصحوة كما ينظر لولده وفلذة كبده. ويحنو عليها ويجرسها من كلِّ ما يسوها أو يسيء إليها، من خصومها أو من أنصارها. وقد نذر نفسه لإمدادها بالوقود حتى لا تحمد شعلتها، وإمدادها بالغذاء حتى لا تضعف قوتها، إضاءة المصاييح في طريقها حتى لا تتعثَّر مسيرتها.^٣

وفيها أربع نقاط، وحديثها كما في التالي:

النقطة الأولى: محاضرة حاشدة في أحد المساجد

وكان الموقف الثاني في هذا الملتقى، هو: أن الإخوة في الشؤون الدينية، قد فكروا أن يكون له بعض النشاط الخاص قبل الملتقى وفي أثنائه، لهذا دعوا لإلقاء محاضرة حاشدة في أحد المساجد الكبرى في العاصمة، قبل أن يبدأ المؤتمر، فقد حضر الشيخ القرضاوي قبله بعدة أيام، كما فعلوه في السنة الماضية. وقد تسامح الشباب بهذه المحاضرة، فجاءوا من كلِّ حدبٍ وصوبٍ، وامتأل بهم المسجد، وما حوله من الميادين والطرفات، فكان هذا دليلًا على قوَّة الصحوة في الجزائر، وأنها طفقت تستقطب الشباب والشابات، وتصهرهم في بوتقتها، وتميهم في تربيتهما، حيث قال الله تعالى: ﴿كَرَزِعَ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ [٢٩].^١

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٧٨٢

٢ المرجع السابق، ص ٢٩٣

٣ المرجع السابق، ص ٢٩٤

١ القرآن الكريم، الفتح (٤٨)، الآية [٢٩].

وكان موضوع محاضراته عن "الجيل المسلم الذي ننشده" لنصرة الإسلام، وما يجب أن يكون عليه من الصفات الإيمانية، والخلقية والفكرية، أكد وركز الشيخ القرضاوي على قائلنا: وأتينا لا نريد جيلا مُنْعَلِقًا على نفسه، أو معزولاً عن مجتمعه، أو متعالياً على أهله ومن حوله. بل نريده عضوًا حيًّا في جسم الأمة، تمدّه بالغذاء، ويمدّها بالدم في عروقها.^١

النقطة الثانية: متابعة أحداث الجزائر المؤلمة

كان الشيخ القرضاوي يتابع الجزائر وأحداثها، يتألم لآلامها، وما يسفك فيها من دماء، وما يحدث فيها من فتن ومذابح، لا يدري من المسئول عن إشعال نارها: أهي السلطة ورجال الأمن والجيش؟ أم هي الجماعات المسلحة التي تنتمي إلى الإسلام؟ فقد اختلط الحابل والنابل، ووقع من الفظائع ما تقشعر من هول الأبدان، وما تشيب لشناعته الولدان، من قتل الأطفال والنساء والشيوخ ومن لا ناقة له ولا جمل في السياسة ولا في جهاد.^٢

النقطة الثالثة: القتال بين الإسلاميين

وكان أشد ما ألم الشيخ القرضاوي واعتصر قلبه من الأسي والأسف: أن يقتل الإسلاميون بعضهم بعضًا، بمجرد البون والشبهات، مع أن الأصل في النفوس هو العصمة، والأصل في الدماء هو الحرمه، ولا يباح قتل امرئ مسلم إلا ببينة ظاهرة، تقطع الشك باليقين، فليست استباحة دماء الناس بالأمر الهين، وقد قرّر القرآن مع كتب السماء: أنه ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [٣٢].^٣ وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَزَوَالِ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ». وفي رواية أخرى «امرئ مسلم بغير حق».^٤

النقطة الرابعة: التحسّر الشيخ القرضاوي وإنكاره على قتل الأخ محمد أبي سليمان

ولهذا وذرفت عيننا الشيخ القرضاوي عبرات وتحسّر نفسه حسرات على حين سمع نبأ قتل الداعية الصالح، والمسلم الملتزم، ذي الخلق الكريم، والسلوك المستقيم: الشيخ محمد أبو سليمان نائب الشيخ محفوظ نخناح زعيم حركة المجتمع المسلم «حماس».

ولقد عبّر الشيخ القرضاوي عن فيض مشاعره برسالة تقطر أسى وحزنًا وإشفاقًا على الجزائر، وأرسلها إلى الإخوة هناك، ونشرتها الصحف المعنية، تتضمن مواساة وتعزية من ناحية، وتضمن إنكارًا وغضبًا للحادثة من ناحية ثانية، كما تتضمن نصيحة وتوجيهًا وتحذيرًا من ناحية أخرى.^١ وبعد مدة قليلة فاجأته الصحف وأجهزة الإعلام بنبا اغتيال الشيخ الحسن بن سعد الله النائب الثاني لرئيس جمعية الإصلاح والإرشاد، الذي اغتيل أمام داره بست رصاصات قضت عليه في الحال.

١ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٢٩٦-٢٩٧

٢ المرجع السابق، ص ٦٧٨

٣ القرآن الكريم، المائدة (٥)، الآية [٣٢].

٤ الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك (المولد: ٢٠٩هـ - المتوفى: ٢٧٩هـ)، سنن الترمذي، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٨م)، رقم الحديث: ١٣٩٥، مرفوعًا وموقوفًا وقال بعد سند الموقوف: هَذَا أَصَحُّ مِنَ الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ. والنسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني (المولد: ٢١٥هـ - المتوفى: ٣٠٣هـ)، سنن النسائي، باب: تعظيم الدم، (حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية)، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م)، رقم الحديث: ٣٩٨٧، ج ٧، ص ٨٢، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب»، رقم الحديث: ٢٤٣٩

١ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (المرجع السابق، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٦٧٩ - ٦٨٠

وقد أرسل الشيخ القرضاوي إلى الإخوة في الجزائر نداء بمناسبة هذه الفاجعة، يدعوهم إلى أن يتقوا الله في أنفسهم وإخوانهم، وأن يكفوا عن سفك دمائهم بعضهم بعضاً، فهذا من عمل الجاهلية التي أوصانا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في خطبة الوداع ألا نعود إليها: عَنْ جَرِيرٍ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فِي حَجَّةِ الْوُدَاعِ لَجْرِي: «اسْتَنْصِتِ النَّاسَ» فَقَالَ: «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»^١.

المسألة الثانية والعشرون: المسيرة المليونية في السودان تأييداً لتطبيق الشريعة الإسلامية

في سنة ١٩٨٤م دعي الشيخ القرضاوي إلى السفر إلى الخرطوم للمشاركة في "المسيرة المليونية" التي دعا إليها الرئيس السوداني جعفر نميري، وشارك فيها بقوة: الإسلاميون، وكلّ فئات الشعب، وحضر عدد كبير من العلماء من بلاد عربية إسلامية شتى، منهم: الشيخ محمد الغزالي، والداعية الكبير الشيخ صلاح أبو إسماعيل، وكثيرون من علماء العالم الإسلامي.^٢

وكان النميري في أواخر عهده قد اختار طريق الشريعة الإسلامية، حين رأى أن هذا الطريق هو الذي يحلّ المشكلات من جذورها، ويقطع الجريمة من دابرها، ويؤسس لتكافل اجتماعي حقيقي بين فئات الشعب، ويدعم مسيرة الطهر والاستقامة في المجتمع، ويقاوم الانحراف الرذيلة فيه، ولا سيما بين القادة والمسؤولين. ثم إن هذا هو "حكم الله" الذي أمر به عباده، وليس "حكم الجاهلية" المستورد، من الغرب أو الشرق، وقد قال الله تعالى في محكم تنزيله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [٥٠].^٣ وقد أقيم للمدعوين سُرَادِقٌ في مكانٍ متميّز في الخرطوم، بحيث يشرفون من موقعهم على المسيرة وهي تمر أمامهم، ممثله لفئات المجتمع المختلفة، ومهنة المتنوعة، من الجمعيات الخيرية، ومن الطرق الصوفية، ومن النقابات المهنية، ومن التجمعات القبلية، من الجماعات السياسية، ومن غير ذلك من الفئات والجهات، التي شملت الشعب كله، وكلها تحتف من أعماقها للشريعة الإسلامية، وللدعوة الإسلامية، وعلى وجوه الناس الفرحة والثقة، وهذا استفتاء صادق للشعب... وقد كان الجوّ حارّاً، والمسافة طويلاً من بداية المسيرة في الخرطوم إلى منتهاها في أم درمان، ولكن الناس كانوا أقوى الحر، وأقوى من طول المسافة.

وفي الحقيقة كان يوماً حافلاً، ويومًا رائعًا، ويومًا من أيام الله، وكان كثير من المدعوين - والشيخ القرضاوي منهم - تغرورق عينه بالدموع، كلّمّا رأى هذه المناظر الشعبية التلقائية، المؤيدة لشرع الله، وأحكام الله.^٤

وفيها نقطة، وهي:

من أخطاء التطبيق السوداني للشريعة في عهد النميري عند الشيخ القرضاوي:

يؤدّد الشيخ القرضاوي أن يقول: أن مسيرة الشريعة في عهد النميري، لم يقدر لها أن تستمرّ في حطّها الصحيح، لأن التصوّر للشريعة لم تكن واصحًا تمام الوضوح للسلطة التنفيذية، فظنّت أنّها بمجرد الجلد والقطع، تنفيذ الشريعة حقًا. وليس هذا هو كلّ شيء،

١ البخاري، الجامع الصحيح للبخاري، باب: حجّة الوداع، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ)، رقم الحديث: ٤٤٠٥، ج ٥، ص ١٧٧، والنيسابوري، مسلم، الصحيح لمسلم، باب: ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضهم، (بيروت، دار إحياء التراث العربي) الطبعة: الأولى)، رقم الحديث: ٦٥، ج ١، ص ٨١

٢ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٣٠٩

٣ القرآن الكريم، المائدة (٥)، الآية [٥٠].

٤ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (المرجع السابق، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٣١٠

فقبل أن نقطع يد السارق، لا بدّ أن نوَقِّر الخبز للجائع، والعمل للعاطل، والسكن للمُشَرَّد، والكفالة لليتيم، والرعاية للمحتاج، ونقيم التكافل الاجتماعيّ في الشعب.

فقبل أن ينزل الله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [٣٨].^١ أنزل قوله تعالى: ﴿وَأْتُوا الزَّكَاةَ﴾ [٤٣].^٢ ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [٦]. ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [٧].^٣ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ بل هو شرّ لهم [١٨٠].^٤ ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ﴾ [١]. ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ [٢]. ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ [٣].^٥

فلا بدّ إذن أن نُكْفِلَ حاجات الناس، ونُسَدَّ الثُّغْرَابَ في حياتهم، وأن نعلّمهم ونكفيهم، ثم نطبّق عليهم العقوبات التي شرعها الله تعالى. ثم إن العقوبات إنما هي لغير الأسوياء، أي لمن سَدُّوا عن القاعدة العامة. والشريعة إنما جاءت لتجعل الناس أسوياء مستقيمين.

وكان من أخطاء التطبيق السودانيّ للشريعة: أن الدولة في عهد نميري، أفرجت عن المساجين الذين حكم عليه القضاء السودانيّ في جرائم السرقة ونحوها، وهو ألاف مؤلفة، فلما أفرج عنهم دفعة واحدة، عادوا إلى مزاولة مهنتهم، وعاثوا في الأرض فسادًا، ولم يصدّقوا أن أيديهم ستقطع، فقطعت أيد كثير في زمن قصير، على غير المعهود في البلاد التي تطبع الشريعة كالسعودية.

كان الإفراج الجماعيّ والفوري عن هذه الأعداد الكبيرة التي تمرّست بالإجرام، خطأ بيّنًا، ولا سيّما في أوّل عهد التطبيق الشرعيّ، إذ كانوا يحتاجون إلى أن يوضعوا تحت رعاية إسلاميّة فترة من الزمن، وألا يخرجوا إلا بعد أن يصلوا مرحلة معيّنة تظهر معها علامات التوبة عليهم، وأن تهيأ لهم أعمال مناسبة يزاولونها، وأن يؤخذ عليهم تعهّد بالاستقامة والبعد عن الرفقة المنحرفة، وأن يوضعوا تحت المراقبة فترة من الزمن، حتّى نعيّنهم على أهواء أنفسهم. ولكن ذلك لم يحصل.^٦

المسألة الثالثة والعشرون: نشاطه في ماليزيا بدعوة من أنور إبراهيم

وفي شتاء سنة ١٩٨٥م اتّصل بـ الشيخ القرضاوي من سويسرا: الأخوان الكريمان يوسف ندا وغالب همت، وقالاه: إن الأخ إبراهيم - مؤسس جمعيّة "أبيم" الشبيبة الإسلاميّة - في ماليزيا، وكان الوزير في الحزب الحاكم وقتئذ، وهو يلح في ضرورة زيارتك لماليزيا، لإطفاء فتنة بين الماليزيين المسلمين بعضهم وبعض، فقد انتشرت بين جماعة منهم: بدعة التكفير لإخوانهم المسلمين، وخصوصًا شباب "الحزب الإسلاميّ" المتحمّسين، فهم يكفّرون حزب "أمنو" الحاكم لماليزيا، ويطالبونهم بتحكيم الشريعة فورًا، وإلا حكموا عليهم بالكفر البوّاح، واستدلّوا بالآيات الكريمة: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [٤٤]. ﴿هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [٥٤]. ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [٤٧].^١

١ القرآن الكريم، المائدة (٥)، الآية [٣٨].

٢ القرآن الكريم، البقرة (٢)، الآية [٤٣].

٣ القرآن الكريم، فصلت (٤١)، الآيتان [٦ - ٧].

٤ القرآن الكريم، آل عمران (٣)، الآية [١٨٠].

٥ القرآن الكريم، الماعون (١٠٧)، الآيات [١ - ٣].

٦ أَلْقُرْطَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٣١٢ - ٣١٣.

١ القرآن الكريم، المائدة (٥)، الآيات [٤٤ - ٤٥، ٤٧].

قال الشيخ القرضاوي للأخوين: نعم، أنا أعرف أنور إبراهيم، لقيته أكثر من مرة في ماليزيا، أعرف حُسن فهمه وحماسه الإسلام، كما أني ضدُّ بدعة التكفير والعلوِّ فيه، وقد كتب الشيخ القرضاوي فيه رسالته المركزّة المعروفة: "ظاهرة الغلوِّ في التكفير". ولكنه يتخوَّف دائماً من دخول مثل هذه المعتركات، خشية أن يستغل سياسياً في تأييد طرف ضدَّ طرف آخر، ويكون هو أداة في يد أحد الفريقين لضرب الفريق الآخر، وهو لا يدري. قالوا: إننا مهمتك هي الإصلاح، وتجميع القوي الإسلاميّة، ولا سيَّما أن لماليزيا وضعاً خاصاً لا يخفى عليك، ولا بدَّ لإخوتنا في الحزب الإسلاميّ أن يدركوا هذا الوضع، ويراعوا هذه الظروف. وليس مهمتك أن تهاجم الحزب الإسلاميّ أو تناول منه بكلمة واحدة، وأنت حرّ تمام الحرّيّة فيما تقول، وليس من حقِّ أحد أن يُفرضَ عليك، أو حتّى يقترح عليك ما تقول.

قال الشيخ القرضاوي: دعوني أصليّ صلاة استخارة، فما خاب من استخارة، ولا ندم من استشار، ثمّ أجيبكم بموقفي بعدها. وبعد يومين أو ثلاثة اتّصلا به، وسألاه عن رأيه، فقال الشيخ القرضاوي: على بركة الله.^١

وفي هذه المسألة تشتمل على نقطة، وهي:

نشاط مكثف

بدأ الشيخ القرضاوي أوّلاً نشاطه في العاصمة كوالامبور، وقد جمع الأستاذ أنور: كبار المسؤولين في الوزارات المختلفة - مستوى وكيل وزارة ومدير عام، وأمثالهم - ليلتقي بهم، ويوجههم الوجهة التي يحبّ، ويستمع إلى أسئلتهم يُجيب عنها. وقد اجتمع الشيخ القرضاوي بمؤلاء الموظفين الكبار، وألقى عليهم كلمة توجيهيّة مناسبة، وتتضمّن ما يطلبه الإسلام من المسلم في أداء عمله، حتّى يكون الشخص القويّ الأمين، والحفيظ العليم، وأن إتقان العمل في الإسلام عبادة وفريضة، فإن الله كتب الإحسان - الإتقان - على كلّ شيء، والله تعالى يحبّ من أحدنا إذا عمل عملاً أن يُحسِنَهُ ويُثِقِنَهُ، فإن الله يحبّ المحسنين.

وبعد كلمته تلقى سيلاً من الأسئلة من الحضور حول أمورٍ إسلاميّة شتى، أجاب الشيخ القرضاوي عنها كلّها بما وفقه الله إليه. وكان الجميع مستريحين لإجابته، حتى قال بعض كبارهم: إذا كان هذا هو الإسلام، فكأننا دعاة للإسلام.

قال الشيخ القرضاوي لهم: هو لم يقل شيئاً من عنده أم من بنات أفكاره، كلّ ما قاله لكم، قد دلّ عليه، وردّ إلى أصله من الكتاب والسنة، وقال: فنحن لا ننشئ إسلاماً، فإن الإسلام قد أنشأه الله تعالى وأكمله من قديم، حيث قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [٣].^٢ ولكن مهمتنا أن نبين حقائق الإسلام، ونشرحها للناس، ونبلّغها لهم بلسانهم الذي يفهمونه، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا يَلْسَنانِ قَوْمِهِ لِيبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [٤].^٣

وقال بعضهم: ليتنا نلتقيك مرة أخرى، لنستزيد معرفة بديننا وواجباتنا.^١

١ ألفردّواوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٣١٥

٢ القرآن الكريم، المائدة (٥)، الآية [٣]

٣ القرآن الكريم، إبراهيم (١٤)، الآية [٤].

١ ألفردّواوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (المرجع السابق، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٣١٧

المسألة الرابعة والعشرون: محاضرة عامة في المركز الإسلامي بميونخ في ألمانيا في سنة ١٩٨٥م

بعد أن استعادة عافية الشيخ القرضاوي بحمد الله تعالى، ومرّت الأيام بعد العمليّة دعاه الإخوة في المركز الإسلاميّ لإلقاء محاضرة عامة في المركز، فاستجاب لهم، فهذا حقّهم عليه، وهذه زكاة عن نعمة العافية، وفي الإسلام كلّ نعمة لها زكاة. ولهذا تجد عوام الناس يقولون: زك عن عافيتك... وقد احتشد لهذه المحاضرة جمّ غفير، وبعد المحاضرة، قُدِّمَتْ له على العادة أسئلة عدّة من الحاضرين أجاب عنها ما استطاع.^١

المسألة الخامسة والعشرون: عضويّة أمناء مركز أوكسفورد للدراسات الإسلاميّة

أبلغ شيخ الأستاذ القرضاوي الداعية الإسلاميّ الكبير، رجل الإسلام الأوّل في الهند العلامة الشيخ السيّد أبو الحسن علي الندوي عنده: أن مجلس أمناء مركز أوكسفورد للدراسات الإسلاميّة، قد اختاره بالإجماع لعضويّته، وهو يرجو من الأستاذ القرضاوي أن يحرص على حضور جلساته، وأن يتعاون مع الأخ الذي اختير من قبل المجلس لإدارة المركز، وهو الدكتور فرحان نظامي. وهو أستاذ من أصل هندي يعمل في جامعة أوكسفورد.

وبالطبع، قَبِلَ الشيخ القرضاوي العضويّة، وشكر الشيخ أبي الحسن علي الندوي على حُسْنِ ثقته به، ووعدّه الأستاذ القرضاوي بأنه سيبدل الجهد في معاونة المركز حتّى يقف على قدميه... قال للشيخ أبي الحسن علي الندوي: وإن كان لديه مشكلة يودّ أن يصارحه بها. قال الشيخ أبي الحسن علي الندوي: وما هي؟ قال الشيخ القرضاوي: مشكلة اللغة، وطبعًا لغة المركز هي الإنجليزيّة. قال: هذه تحلّ ببساطة عن طريق الترجمة.

وكان الشيخ الندوي قد حدّثه من قبل: أن هناك في بريطانيا مجموعة من علماء المسلمين ومفكرهم وأهل الرأي فيهم، يفكرون جديدًا في تأسيس مركز علميّ لخدمة الثقافة الإسلاميّة، وتجلية الإسلام الصحيح، وإعطاء صورة مضيئة عن الإسلام وحضارته وأمته للغرب، بعد أن تقارب العالم واتّصل بعضه ببعضه... وقد وجد أن بريطانيا هي أنسب البلاد لذلك، لأن اللغة الإنجليزيّة هي أشهر اللغات في العالم، ويتكلّم بها أكثر من مئات الملايين من المسلمين، ولأن في بريطانيا عدّة ملايين من المسلمين.

ورأى الإخوة الذين فكّروا في هذا المركز: أن يرتبط بجامعة عريقة من الجامعات المعروفة في العالم، فوقع الاختيار على جامعة "أوكسفورد" العريقة، وجسّؤا النبض لدى المسؤولين فيها، فوجدوا قبولاً لديهم... وبعد شوط من المفاوضات: جاءت الموافقة على إقامة هذا المركز، ليكون إحدى مؤسسات الجامعة، على أن يكون له استقلاليتة وشخصيّته المتميّزة، ويرسم سياسته مجلس أمناء، بعضه من أساتذة جامعة أوكسفورد، تعينهم الجامعة ممثلين لها، وبعضهم شخصيات علميّة واجتماعيّة وسياسيّة من أنحاء العالم الإسلاميّ، وهم الأكثرية.^٢

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٣٧٠ - ٣٧١

٢ المرجع السابق، ص ٣٧٦

المسألة السادسة والعشرون: مناظرة دار الحكمة في القاهرة بين الإسلاميين والعلمانيين، وفيها نقطتان: وهما:

النقطة الأولى: تَوَثُرُ الأجواء بين الإسلاميين والعلمانيين

في صيف سنة ١٩٨٥م، بعد عودة الشيخ القرضاوي من ألمانيا، كان الجو في القاهرة متوترًا بين الإسلاميين والعلمانيين، ولا سيَّما بعد المقالات التي كتبها الدكتور فؤاد زكريا أستاذ الفلسفة في جامعة القاهرة في صحيفة الأهرام، يهاجم فيها الصحة الإسلامية ودعاتها ومؤيديها. وقد تنادى الفريقان: الإسلامي والعلماني، إلى مناظرة تعقد بين الفريقين في إحدى القاعات الكبيرة، يعرض كل منهما ما عنده، ويردّ عليه الآخر، ويحتكم الجميع إلى جمهور الحضور.

وقد عرضت نقابة الأطباء أن تستضيف الفريقين في قاعتها الشهيرة 'دار الحكمة' ودعت عددًا من دعاة الإسلام ومن دعاة العلمانية... كان أبرز الإسلاميين هو الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي، وأبرز العلمانيين هو الدكتور فؤاد زكريا، الذي لم يحضر في النهاية من العلمانيين غيره. وقد وُجِّهت الدعوة إلى الشيخ القرضاوي، وقد حضر للتو من أوروبا، وقال له الإخوة في نقابة الأطباء: إن حضورك ضروري، لنشدَّ عضد الشيخ الغزالي، كما قال تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ [٣٥]﴾... واستجاب الشيخ القرضاوي الدعوة مستعينًا بالله، وسائلًا أن يمدّه بروح من لديه، زأن يُسَدِّدَ لسانه، ويُقَوِّي حُجَّتَهُ، وتوجّه إلى الله تعالى بدعاة موسى حين أمره ربّه أن يذهب إلى فرعون، حيث قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي [٢٥]﴾ ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي [٢٦]﴾ ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي [٢٧]﴾ ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي [٢٨]﴾.^٢

وفي الموعد المقرّر وصل الشيخ القرضاوي إلى قاعة دار الحكمة، فوجدها مزدحمة بال جماهير الغفيرة من كلّ حَدَبٍ وَ صَوْبٍ، ومن كلّ أجنّاه ولون، ووجد الشيخ القرضاوي عددًا من قادة الرأي والفكر، مثل: المستشار طارق البشري، والأستاذ فهمي هويدي، والأستاذ عادل حسين، والدكتور أحمد العسال، فضلًا عن المناظرين الأساسيين الثلاثة، وهم الشيخ محمد الغزالي، والشيخ يوسف القرضاوي، والأستاذ فؤاد زكريا.^٣

النقطة الثانية: الدعوة إلى تحديد المفاهيم والمعايير والمواقف

وقد افتتح المناظرة زكريا، وثنى الشيخ الغزالي، وقد بدأ يناقش الشيخ القرضاوي ما طرحه الدكتور زكريا بالمنطق والحجّة، وقلّ أن يناقشه بنصوص الشرع. ودعا قبل المناظرة إلى تحديد المفاهيم، ثم إلى تحديد المعايير التي يحتكم الفريقان إليها. ثمّ تحديد المواقف.

وكانت الجماهير متجاوبة معه كلّ التجاوب، لسلامة منطقته، وقوّة حجّته، ووضوح عبارته، لا لأيّ اعتبار آخر، وهو ما جعل الدكتور زكريا يقول بعد ذلك: إني خاطبت مشاعر الجمهور العاطفي، والله ما خاطبت إلا العقول وما استخدمت غير الحجّة والبرهان. وقد شهد أهل الرأي والفكر الحاضرون بذلك.^١

١ القرآن الكريم، القصص (٢٨)، الآية [٣٥].

٢ القرآن الكريم، طه (٢٠)، الآيات [٢٨ - ٢٥].

٣ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٣٧٩

١ المرجع السابق، نفس الصفحة

المسألة السابعة والعشرون: المشاركة في الاجتماع السنويّ لرابطة الشباب المسلم العربيّ

في شتاء سنة ١٩٨٩م جاءت الدعوة عند الشيخ القرضاوي للمشاركة في الاجتماع السنويّ لرابطة الشباب المسلم العربيّ في أمريكا، وعلى رغم ما يشكو من وجع الرجل، فإنه عزم على السفر لحضور هذا اللقاء، الذي يجمع في العادة صفوة من شباب المسلمين العرب الذين يدرسون في أمريكا، وأكثرهم يدرسون دراسات عليا، وبعضهم يدرس الدراسة الجامعة.

من أهداف زيارته:

وكان من أهداف زيارته: قد اتفق الشيخ القرضاوي مع الإخوة في المعهد العالميّ للفكر الإسلاميّ في واشنطن - وقد اعتاد أن يمرّ عليهم في كلّ زيارة، ويلتقي العاملين في المعهد، ويلقي فيهم كلمة، ويتلقّى أسئلتهم.^١

المسألة الثامنة والعشرون: مشاركة الشيخ القرضاوي في مؤتمر الإمام البخاري بسمرقند في أوزبكستان، سنة ١٩٩٣م

مشروع تجديد وتوسعة مسجد الإمام البخاري

كان مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية قد تبني مشروعًا مهمًا، ولكنه بعد أن مشى خطوات طيبة أصيب بما عطله عن النجاح، وهو مشروع «تجديد وتوسعة مسجد الإمام البخاري وبناء معهد علميّ بجواره». وذلك بولاية سمرقند من جمهورية «أوزبكستان» التي كانت إحدى جمهوريات الاتحاد السوفيتي، وقد استقلت في التسعينات.^٢

وهذه المسألة تحتوي على ثلاث نقاط، وهي:

النقطة الأولى: تفاهم إدارة مركز أكسفورد مع رئيس جمهورية أوزبكستان

تفاهمت إدارة المركز مع رئيس الجمهورية «إسلام كريموف» على إقامة هذا المشروع، على اعتبار أنه يُحسّن صورتهم عند المسلمين، وهم لن يتكفّوا فيه شيئًا، بل على المركز أن يجمع التبرّعات من بلاد الخليج ومن العالم الإسلاميّ كلّه، ولا سيّما أنه مرتبط باسم «الإمام البخاري» الذي له دين على المسلمين جميعًا بخدمته للسنة بكتابة «الجامع الصحيح» الذي هو أصحّ كتاب في الإسلام بعد كتاب الله.^٣

النقطة الثانية: مؤتمر الإمام البخاري

وقد رأت إدارة المركز: أن تبدأ هذا المشروع بإقامة مؤتمر عن «الإمام البخاري» يتسع فيه المقام للحديث عمّا قدّمه البخاري للأمة الإسلامية من كتب في الحديث وعلومه: أعظمها «الصحيح البخاري»، وكتبه في تاريخ الرجال، ومنهجه الذي تميز به، وفقهه الذي وضعه في مصافّ المجتهدين الكبار.

ودُعِيَ إلى ذلك عدد من كبار العلماء، ولا سيّما المشتغلين بعلوم السنّة، وعلى رأسهم رئيس مجلس أمناء المركز الشيخ أبو الحسن الندري رحمه الله، ومنهم العلامة الشيخ يوسف القرضاوي، والعلامة الشيخ عبد التفاح أبو غدة، والأستاذ محمد ناصر الدين الأسد.^١

١ القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القريّة والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٦١٩

٢ المرجع السابق، ص ٧٢٦

٣ المرجع السابق، ص ٧٢٦-٧٢٧

١ المرجع السابق، ص ٧٢٧

النقطة الثالثة: افتتاح المؤتمر

بدأ المؤتمر العلمي، الذي افتتحه الإمام أبو الحسن علي الندوي بكلمة قيّمة، وقَدَّمَ الشيخ القرضاوي ليلقي كلمة بمناسبة مشروع تجديد وتوسعة مسجد الإمام البخاري، وكان ذلك في شهر أكتوبر سنة ١٩٩٣ م. ثمّ قدم أصحاب البحوث بحوثهم أو مختصرات لها، جُلِّوا فيها ما قام به هذا الإمام الجليل من خدمة لعلوم السنّة، وكيف قَيَّضَ علماء العجم لخدموا حديث نبيّه: فأصحاب الكتب السنّة كلّهم أعاجم: محمّد بن إسماعيل البخاري، ومسلم بن الحجاج النيسابوري، وأبو داود السجستاني، وأبو عيسى الترمذي، وأحمد بن شعيب النسائي، وابن ماجه القزويني.^١

إن مشروع تجديد وتوسعة مسجد الإمام البخاري قد توقّف بعد ذلك، ولم يسر إلى الأمام خطوة واحدة، على الإمكان انتهى إلى الإخفاق.

المسألة التاسعة والعشرون: المرأة ومؤتمر السُّكَّان في القاهرة سنة ١٩٩٤ م

وفيها نقطتان، وهما:

النقطة الأولى: خطورة أهداف المؤتمر وقراراته

في سبتمبر سنة ١٩٩٤ م انعقد مؤتمر المرأة والسُّكَّان في القاهرة، الذي كان له صدى كبير في مَنَاطِق العربيّة والإسلامية، ونظرًا لأهميته وخطورة أهدافه، فقد تحدّث الشيخ القرضاوي عنه في برامجه التلفزيونية، وفي خطبة الجمعة في مسجد عمر بن الخطّاب في قطر، وفي تصريحاته للصحف القطريّة وغيرها.

فقد أرادت الأمم المتحدّة أن تُمرَّرَ - من خلال هذا المؤتمر - قرارات جد خطيرة، تتعلّق بالمرأة والأطفال والأسرة والحياة الاجتماعيّة مُعَقَّلة خصوصيات الأمم، ضاربة عرض الحائط بعقائد الديانات التي تدين بها هذه الأمم، وتتغلغل في حياتها، وتسرّي في كيانها مسرى الدم في العروق. كان اتّجاه المؤتمر أن يحصل على قرار بإباحة الإجهاض بإطلاق، وأن يسحب من الوالدين حقّ التوجيه الأخلاقيّ لأولادهما، ولا سيّما فيما يتعلّق بالناحية الجنسيّة، وحرّيّة المرأة أن تتزوّج من تشاء، فتتزوّج المسلمة بالنصرانيّ أو اليهوديّ أو الوثنيّ، إلى غير ذلك من التوجهات. وقد ذكره أي الشيخ القرضاوي بعض إخوانه أنه أصدرَ بيانًا إسلاميًا بهذه المناسبة، نشر في صحيفة الشعب المصريّة وَقَّعَهُ، وَقَّعَ معه الدكتور محمّد عمارة، والأستاذ عبد العليم أبو شقة.^٢

النقطة الثانية: الاتّفاق الإسلاميّ المسيحيّ في وجه التيارات الإباحيّة

ومن إنجازات المهمة واللافتة للنظر في هذا المؤتمر: الاتّفاق الإسلاميّ المسيحيّ للوقوف في وجه التيارات الإباحيّة. وشهد التاريخ أن مشيخة الأزهر الشريف، ورابطة العالم الإسلاميّ، وجمهورية إيران الإسلاميّة، ومعهم الكنيسة الكاثوليكيّة ومدوب الفاتيكان والبابا في رُومًا، يتفقون جميعًا حبّنا إلى جنبٍ لنصرة القيم الدينيّة والأخلاقيّة، ضدّ دعاة الإباحة والشذوذ والمثلية، واستطاع هذا التكتل أن يُحِبِّطَ تلك التوجهات. وهذا يؤدّن بأن هناك مجالات عمليّة للتفاهم بين الدينين، إذا صفت النّيّات، وصحّت العزائم.^١

١ القُرَضَاوي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٧٣١

٢ المرجع السابق، ص ٨٠٠

١ المرجع السابق، ص ٨٠٠ - ٨٠١

المطلب السادس: أداء الحج والعمرة

رحلة حجّ الفريضة

وكان من أهم أعمال سنتي الأولى في قطر: رحلته لأداء مناسك الحجّ: حجّ الفريضة، فقد استطاع "السبيل" إلى الحجّ، فلا ينبغي أن يؤخّره، وقد نوى أن يحجّ وحده دون اصطحاب العائلة، فقد كانت زوجته تُرضع ابنتهما الثالثة "عُلاً" وكان عندها طفلتان: إلهام وسهام، فلم يكن معقولاً أن تحمل على يديها واحدة، تسحب اثنتين، وتحتمل مشاقّ الرحلة، فأجلت حجّها إلى حين، وكان الشيخ القرضاوي في أواخر السنة الدراسية (١٩٦١م - ١٩٦٢م)، فرأى أن سفرها إلى مصر مدّة غيبته في الحجّ أوفق وأولى، بدل أن تبقى وحدها. وسافر الشيخ القرضاوي إلى الحجّ، وكان الجوّ حارّاً، فقد كان في شهر الخامس (آيار - مايو)، وجدير بالذكر أن ممّن حجّوا معه في تلك السنة: عبد الحلیم أبو شقّة، ومحمد الشافعي صادق.^١ ولم تكن هناك في ذلك الوقت رحلات مباشرة من الدوحة إلى جدّة، فركبوا إلى الظّهْران،^٢ ثمّ من الظّهْران إلى الرياض، ثمّ من الرياض إلى جدّة. أخذ سفرهم إلى جدّة قرابة يوم كامل.

الحجّ مع العائلة سنة (١٣٨٤هـ)

وبعد سنتي من حجّته (القرضاوي) الأوّل بمفرده، اجتهد أن يحجّ هو والعائلة، وقد فكّر مجموعة من المدرّسين وموظفي وزارة المعارف في قطر، أن يخرجوا باعتبارهم بعثة من وزارة معارف قطر، وترسل الوزارة إلى وزارة معارف السعودية لتؤدّي لهم بعض الخدمات، مثل: إعطائهم مدرسة في مكّة، وأخرى في المدينة. وكلموا الوزارة في ذلك، فرحبت بالفكرة، وكلفت القرضاوي برئاسة البعثة، وخاطبت الجهات المسئولة في معارف السعودية، ورحّبوا بهم ووعدوا أن يقدّموا لهم من التسهيلات ما يساعدهم على أداء مناسكهم بيسر وسهولة.^٣

كان هذا هو الحجّ الوحيد الذي عانى فيه كما يعاني الناس، وربّما أكثر من الناس في بعض الأحيان، فقد ناموا على البِلاط في هذه المدرسة، وعانوا أحياناً من قلة الماء، وفي منى وعرفات، كانوا أحد المطوّفين ونزلوا في الخيام، وناموا على الحصى، وشعروا بمشقّة الحجّ، كما يشعر الآخرون. وهذا من الحكم التي شرعت لها هذه العبادة العظيمة، حيث قال الله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ [٢٨]﴾.^٤

وفي المدينة نزلوا في إحدى المدارس عدّة أيّام ثمّ رأوا أن يرفقوا أنفسهم، فانتقل هو وأولاده إلى فندق التيسير القديم، لعدّة أيّام أحسّوا فيها بالرّفاهيّة والراحة.

١ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٤٣٦

٢ الظّهْران: اسم مدينة المملكة العربية السعودية.

٣ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (المرجع السابق، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٥٢٥

٤ القرآن الكريم، الحج (٢٢)، الآية [٢٨].

الحجّ سنة (١٣٩٣هـ، [السنة الدراسيّة ١٩٧٣م - ١٩٧٤م])

في السنة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م جاءت الدعوة عند الأستاذ القرضاوي من لجنة التوعية بالحجّ، وكانت قد تكوّنت عن طريق الرئاسة العامّة للإفتاء والبحوث والدعوة والإرشاد. وقد استجاب الشيخ القرضاوي للدعوة، وكان لم يحجّ من سنة ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م، كان الوقت مناسباً بالنسبة للحجّ، فقد كان في فصل الشتاء، وهو مما يُعزّي الناس بالإقبال على الحجّ؛ لأنّ حجّ مكة دائماً أقرب إلى الحرّ. وكان معه وفد إعلامي مسافر من قطر، يمثل الإذاعة والتلفزيون.

وقد انضمّ إلى العلماء الذين دعوا إلى ما دعا الشيخ القرضاوي إليه، وكان منهم بعض إخوانه وأصدقائه الذين يعرفهم من قدم، مثل: الشيخ محمّد الراوي، وقد قدم من الرياض، والشيخ محمّد السيّد الوكيل، وقد قدم من المدينة، وبعض الإخوة من مشايخ السعودية وغيرهم. وكانوا يقومون بإلقاء محاضرات، لتوعية الحجّيج، في حَيَمٍ كبيرة تعدّ لذلك، وخصوصاً في أيّام منى^١.

حجّ بدعوة من رابطة العالم الإسلاميّ

وفي موسم حجّ سنة ١٣٩٥هـ - ديسمبر ١٩٧٥م دعت رابطة العالم الإسلاميّ الشيخ القرضاوي إلى الحجّ والمشاركة في مؤتمرها الثقافيّ الذي تَعقده كلّ عام، وتقيم فيه محاضرات ندوات في موضوعات إسلاميّة مختلفة، ويكون فرصة لالتقاء عدد من رجال العلم والدعوة والفكر من أنحاء العالم الإسلاميّ. ^١ ولقد استجاب الشيخ القرضاوي للدعوة، وصحّبت زوجته معه، ونزلوا ضيوفاً على الرابطة العالم الإسلاميّ في مبناها الكبير بمنى، الذي أعطوهم حجرة منه للشيخ القرضاوي ولزوجته.

وعندما أوشكت الشمس أن تَصَيِّفَ للغروب، استعدّوا للرحيل، ولم يكن يسمح لأحد أن يرحل من عرفات قبل غروب الشمس على ما هو مذهب الجمهور، وإن كان مذهب الشافعيّ يبيّن ذلك وفيه تيسير للناس. قد استعدّوا بِرُكُوبِ السيّارات حتى إذا غرّبت الشمس، وأذن مؤذنّ الرحيل أن ينفروا من صعيد عرفات: انطلقت بهم السيّارات إلى "مشعر الحرام" إلى مزدلفة لِنَحْطِ رحالهم، ويذكرون الله كما أمرهم، ويصلّون المغرب والعشاء جمع تأخيراً. وقد جمعوا به الصلاتين، وتناولوا بعض الطعام، والتقطوا حصى جمرّة العقبة يوم العيد، وخصى اليوميّن بعدها، فهم عادة يتعجّلون كمعظم الناس، فالتقطوا لكلّ منهم ٤٩ حصاة. وفي اليوم التاليين ليوم العيد، كان يذهب من الصباح هو وزوجته ليرميا الجمرات الثلاث، عملاً بقول الأئمة الذين رأوا مشروعيّة الرمي في أيّام منى قبل الزوال، وهم عطاء، وطاوس، وابو جعفر الباقر، ورجّح ذلك بعض علماء الشافعيّة وغيرهم، وتبينوا الأخذ بالأيسر في أمور الحجّ، وخصوصاً في هذه السنين التي يشكو فيها الحجّاج من شدّة الرّحام، ويموت منهم من يموت تحت الأقدام!

وقالت زوجته: هل يُثابُّ على هذا الحجّ الذي لم ينمو فيه على الحصى؟ ولم يشكّوا فيه زحمة الرفقاء معهم على المَرافِقِ المحدودة، وقد وفّر رابطة العالم الإسلاميّ لنا المطعم والمشرب والمركب وكلّ ما يحتاجوا إليه؟

قال الشيخ القرضاوي لها: أما أجزاء ذلك الحجّ، فلا شكّ فيه، إن كان حجّاً مُرِيحاً ومُرَفِّهاً، ولكن ثوابه ليس كثواب من يعاني المَشَقَّات في حجّه: في طريقه وتنقله، وفي مأكله، ومشربه، ومسكنه؛ فكلّ ينال أجره على وفق أمرين:

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٣٢٧ - ٣٢٩ (مختصراً ما في هذه الصفحات)

٢ المرجع السابق، ص ٤٠٨

الأول: على قدر حَجْمِ النُّصْبِ وَالْمَشَقَّةِ، كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعائشة رضي الله عنها: قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَظُنُّهُ «قَالَ عَدًّا - وَلَكِنَّهَا (أَجْرَكَ) عَلَى قَدْرِ نَصْبِكَ أَوْ - قَالَ - نَفَقَتِكَ»^١.

الثاني: على قَدَرِ خُلُوصِ النِّيَّةِ، كما في الحديث الصحيح: وفي الحديث الصحيح: عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَلَى الْمِنْبَرِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»^٢.

الحج سنة ١٤٠١هـ / ١٩٨١م

في مَوْسِمِ حَجِّ سنة ١٤٠١هـ، -١٩٨١م دعي الشيخ القرضاوي لِمَوْسِمِ الْحَجِّ من رابطة العالم الإسلامي، فلبى الدعوة شاكراً، واصطبحت معه زوجته "أم محمد" وابنتاه "إلهام وسهام"، بعد أن حصلتا على بكالوريوس بامتياز، وعُهِدَتَا معيدتين في كلية العلوم بجامعة قطر، رأى الشيخ القرضاوي أن يكافئهما على توفوقهما، بأن يتيح لهما أداء فريضة الحج هذا العام، فَتَنَعَّمُوا بالتيسيرات التي تقدمها لهم الرابطة بما لديها من إمكانات.^٣

وهيأت لهم الرابطة: حجرتين في مبناها المعروف بمبنى: حجرة له ولزوجته، وحجرة لابنتاه.

وقد كانوا نَوَّاءَ العِمرَةِ، وهم الطائفة، وإن كان الشيخ القرضاوي يجيز أن يؤخروا لبس ملابس الإحرام بعد نزول جدّة، كما هو رأي العلامة الشيخ عبد الله بن زيد المحمود رئيس المحاكم الشرعية في قطر.

وكانت نيتهم: التمتع بالعمرة إلى الحج، فبعد أن أدوا مناسك العمرة تحلّوا وقصّروا، والسنة لمن تمتع أن يقصّر بعد العمرة، وإذا حلق الرأس فليؤخّرهُ إلى الحج، أما المرأة فليس لها إلا التقصير، إذ الحلق ليس من شأنها، وهو يكره لها، وربما حرم.

وبقوا بعد العمرة عدّة أيّام في مبنى الرابطة بمبنى، يصلّون فيها الصلوات الخمس، وهم يؤدّونها جماعة في الرابطة، ومعلوم أن منى من الحرم، فالصلاة فيها كالصلاة في الحرم، ومع هذا قد هيئوا لهم السيارات لمن يريد أن يصلّي في الحرم.

وفي اليوم التروية - الثامن من ذي الحجّة - أحرموا بالحج من حيث يقيمون في منى، كما علّمتنا السنّة النبويّة، وحين يحرم الإنسان بالحج يشعر بأنه قد انتقل من حالة إلى حالة. إن مجرّد النّيّة والتلبّيّة "لبيك اللهم حجّاً" يدخل الإنسان في حالة روحانيّة، تجعله يخلّق في أجواء عالية من الرئائيّة، ذاكراً لله بقلبه ولسانه، مستحضراً الآخرة بين عينيه، مستغفراً لربّه من كلّ ذنب وقع فيه، مرتبطاً لسانه بالدعاء إلى الله تعالى لنفسه ولأهله ولمن يحبّ وللمؤمنين والمؤمنات، بل هو يسأل الله الهداية والنور والسلام للناس جميعاً.^١

١ النيسابوري، مسلم، الصحيح لمسلم، باب بيان وجوه الإحرام وأنه يجوز، (بيروت، دار إحياء التراث العربي) الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ)، رقم الحديث: ١٢١١، ج ٢، ص ٨٧٦

٢ البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، الجامع الصحيح للبخاري، [المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر]، باب: بدء الوحي، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ)، رقم الحديث: ١، ج ١، ص ٦. ومسلم في كتاب الإمارة بقوله قوله صلى الله عليه وسلم إنما الأعمال بالنية رقم ١٩٠٧

٣ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ١٩٠
١ المرجع السابق، ص ١٩١

المطلب السابع: مُعَانَاتُهُ وَمُكَابِدَتُهُ لانضمامه بجماعة إخوان المسلمين والصحوّة والحركة الإسلاميّة

وهذا المطلب يشتمل على اثنتين وأربعين مسألة، وبينها كالاتي:

المسألة الأولى: الاختفاء من المعهد بالسملالويّة

اتّسعت دائرة الاعتقال في سنة ١٩٤٩م في عهد المَلِكِيَّةِ، لتضمّ أعدادا أكثر من الإخوان، في أرجاء المملكة المصريّة، واعتقل عدد من الإخوان في طنطا، وقال له (لقرضاوي) بعضهم: الدّور عليك لا محالّة. وفكّر في الأمر "هو" وأخوه ورفيقه "محمد دمرداش مراد"، وتشاورا في الأمر، وقرّرا أن يغيبا عن المعهد، ويختفيا معا في قرية الأخ الدمرداش (السملالويّة)^١ ويستطيعان أن يدخلها خُلُسَةً بحيث لا يراها أحد ولا يخبران بوجودهما أحدا إلا بعض الثقات المأمونين من الإخوة، وهناك يبقيان فترة من الزمن، حتى تهدأ الأمور، أو يهيئ الله حلا للمشكلة.^٢

ونفذا ما اتفقا عليه بالفعل، بعد أن اصطحبا ملابسهما وكتبهما ليستذكرا فيها ما يفوتان من دروس، وغاب عنهما: أن اختفائهما معا، سيوجّه رجال الأمن إلى البحث عنهما في قرية كلّ منهم، وقد علّمَا أنّهم ذهبوا إلى قريتها "صفت تراب" وسألوا عنه (القرضاوي)، فقالوا لهم: إنّه يدرس في طنطا، قالوا: إنّه مُخْتَفٍ عنكم، واختفاؤه لا يفيد فأيّن هو؟ قالوا: الدار أمامكم ففتشوا كيف شئتم؟ وفتشوا الدار، وقلبوها رأسا على عقب، ولم يجدوا فيها شيئا إلا بعض الأوراق الخاصّة به (القرضاوي)، أخذوها معهم، ودور الأرياف غاية في البساطة، فليس فيها من الأثاث والأدوات، ما يجعل التفتيش فيها عسيرا، ففي دقائق معدودة تمّ كلّ شيء.^٣ ولما لم يجدوه في "صفت تراب"، اتّجه تفكيرهم إلى "السملالويّة"، وكانا يجلسان هو وأخوه "الدمرداش" في مقعد في الطابق الثاني، يتدارسان في بعض ما صحبا من الكتب، إذا طرق شديد عنيف على باب الدار، فأدركا أنّهم رجال الأمن السياسيّ أو القسم المخصوص، كما كان يسمّى في ذلك الحين.

وقال الأخ "محمد الدمرداش" يمكننا أن نختفي عند الجيران بواسطة (سلام السطح)، وكانت سطوح منازل القرى في الريف المصري متّصلة، فليس هناك أسوار تعزل البيوت بعضها عن بعض، وكانت السطوح مغطاة بالقشّ والحطب ونحوها، ممّا يعرضها للخطر عند وجود أيّ حريق في أحدها. وصعدا سلّم سطح الأخ "محمد" لينزلا من سلّم سطح الجيران، إلى الطابق الثاني، فالطابق الأرضي، فأدخلتهما جارّتهم إحدى الحجرات ثمّ أغلقت عليهما بالمفتاح، وخرجت من المنزل ذاهبة إلى الحقل. فتحت الحاجة أم الدمرداش الباب بعد الطرق الشديد، لتجد أمامها رجال الأمن، فسألوها: أين ابنك وصديقه؟ قالت: ابني في معهده في طنطا، أسألوا عنه هناك. ففتشوا الدور الأول من المنزل، فلم يجدوا فيه شيئا، ثمّ صعدوا إلى الدور العلويّ، فوجدوا أحذيتهما وكتبهما وملابسهما موجودة، فتوجهوا إلى أمّ الدمرداش، وقالوا لها: تكذابين وأنّ امرأة كبيرة، هذه آثارهم تدلّ عليهم، فقولي أين هما؟ وإلا أخذناك بدّيلا عنهما. قالت لا أعرف عنهما شيئا.

واتّجه تفكيرهم إلى البيت المجاور، فدخلوه وفتشوا حجراته تحت وفوق، فلم يجدوا إلا حجرة كانت مغلقة، لم يتمكّنوا من دخولها أو فتحها.

١ هي قرية صغيرة بعيدة عن أعين الرقباء في جمهورية مصر العربيّة.

٢ أَلْقَرُضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٣٢٠

٣ المرجع السابق، ص ٣٢١

وبعد هذه الجولة، غادروا القرية مصطحبين معهم المرأة الطيبة الصالحة أم الدمرداش إلى نقطة البوليس في (نخطاي) القرية المجاورة، وبقيتا هما حبسسي الحجر التي أغلقت عليهما، ولا يدریان ماذا حدث في الخارج، وقال "القرضاوي" للأخ "محمد الدمرداش": لم يعد أماننا بُدُّ من تسليم أنفسنا، ولا يجوز أن تبقى والدتك ليلة واحدة في الحجز، فلنتوكّل على الله، ولنبادر بالذهاب إلى نخطاي، لكيلا ندع حجة في إبقاء الوالدة عندهم. وفعلا أبلغا عمدة القرية، وبعث بهم إلى نقطة نخطاي، فسَلِّما نفسيهما، وأفرجوا عن الحاجة رحمها الله.^١

المسألة الثانية: إلى حجز مركز زفتي

وبعد أن سلّمهما أنفسهما إلى النقطة، أرسلت بهما إلى (مركز زفتي) ليتولّى أمرهما، ويرسل بهما إلى طنطا، عاصمة المديرية. وكان اليوم يوم خميس، وقد وصلا إلى مركز زفتي في المساء، فلم يكن مأمور المركز ولا نائبه، ولا أحد المسؤولين موجودا، ما عدا الضابط التوتيجي، الذي سلّمهما إلى جاويش المركز، ليضعهما في الحجز، حتى صباح يوم السبت، ليسلّم إلى طنطا.

ودخلا حجز المركز، ليجدا فيه أكثر من أربعين شخصا، معظمهم ليسوا من أهل الجريمة، بل من الفلاحين الذين ارتكبوا مخالفات تتعلّق بالزراعة أو بالري أو نحو ذلك،^٢ واغتنامه (أي القرضاوي ودمرداش) فرصة ليحدّثاهم عن الدعوة، وقد كان يوسف عليه السلام في سجنه يبلغ دعوته إلى من حوله من السجناء. كما حكى الله عنه في قوله: ﴿يَا صَاحِبِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ [٣٩]﴾.^٣

المسألة الثالثة: لقاء حادّ مع سعد الدين السنباطي

قال القرضاوي: وبعد أن رحلنا إلى طنطا، أخذنا لمقابلة سعد الدين السنباطي، رئيس قسم المخصوص بمديرية الغربية، وكان مشهورا بالقسوة والإجرام، ولا أذكر ما كانت رتبتة في ذلك الوقت، أظنه كان رائدا (صاغ)، ويبدو أن تقارير شتى رفعت إليه عني وعن نشاطي في قسم الطلاب، ونشاطي الدعوي في أنحاء المديرية، فكون عني فكرة أحسبها أكبر من الواقع.

ولعلّ هذا ما جعله يلقاني لقاء حادا عاصفا، فكان يخاطبني وكأني قائد في الإخوان، وأنا مجرّد جنديّ صغير فيهم. أول ما لقيني تبهم في وجهي، وقال لي: حضرتك عامل زعيم!^٤ قلت له: أنا طالب مجتهد في دروسي بشهادة جميع أساتذتي. قال: ماذا يريد مرشدكم، يريد أن يكون (إلها) مثل (سليمان المرشد) في سوريا! قلت له: حسن البناء رجل متواضع، يقول: الله غايبي، والرسول قدوتي. قال: بتدافع عنه، لأنه سحركم، وسحركم لتحقيق مآربه. قلت: ليس للرجل مآرب إلا نصرّة الإسلام، وهو لم يسحرنا، بل سرّنا وراءه طائعين لخدمة ديننا ووطننا.

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٣٢٢

٢ المرجع السابق، ص ٣٢٣

٣ القرآن الكريم، يوسف (١٢)، الآية [٣٩].

٤ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (المرجع السابق، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٣٢٥

المسألة الرابعة: في سجن قسم أول طنطا

أدخلهم حجز قسم أول طنطا، مع من فيه من المجرمين والمتهمين أيا ما قليلة، ثم نقلهم إلى سجن خاص بهم، داخل القسم نفسه، ووجدوا فيه بعض الإخوان قد سبقوهم إليه، بعضهم من مدينة طنطا، وبعضهم من "كفر الزيات"، ومن "بسيون" ومن "شربين".

كان السجن عبارة عن حجرة واحدة متسعة معزولة عن العالم، لا يدخلها الشمس ولا الهواء، إلا من نافذة واحدة صغيرة عالية، وكانوا لا يدرون شيئا عما يجري في العالم من حولهم، فلم يكونوا يسمحون لهم بدخول الصحف. وقد مكثوا في السجن الطنطاوي نحو أربعين يوما، حتى نودي عليهم يوما بأن نتأهب للرحيل إلى القاهرة، لينضموا إلى سائر إخوانهم هناك.^١

المسألة الخامسة: إلى الطور

وعندما وصلت الباخرة "عايدة" إلى الطور نزلهم منها، ليضع في الأماكن التي أعدت لتكون معتقلاتهم، وهي الأماكن التي كان يحجز فيها الحجاج قبل نزولهم إلى مصر، لتكشف عليهم السلطات الصحية، فتستوثق من خلوصهم من الأمراض الخطيرة المعدية، التي قد تكون تسربت إليهم من حجاج آخرين جاءوا من قارات العالم.^٢

المسألة السادسة: مظاهرات ضد سياسة التجويع

وقد لاحظ المعتقلون أن ما يصرف لهم من أطعمة غير مقبول كميًا ولا كميًا، وكان القرضاوي والشيخ الغزالي معهم، فمن ناحية الكم لا يكاد يعطى كل معتقل ما يشبعه، أو يقرب من الشبع، ومن ناحية الكيف كانت الأطعمة غاية في الرداءة. ومن هنا خطب الشيخ الغزالي خطبة الجمعة، ثم قاد المعتقلين في مسيرة أو مظاهرة، يطالبون بحقوقهم المهنية، ويشهرون باللصوص الذين يتاجرون بأطعمة المعتقلين، وهتف الشيخ الغزالي ورددوا وراءه: تسقط اللصوصية المنظمة، وتسقط سياسة التجويع.^٣

وبلغ القائد العسكري للمعتقل - ويسمونه (القومندان) واسمه عباس عسكر بلغه ما جرى بعد صلاة الجمعة، وهيجان المعتقلين ومطالبهم، فجاء إلى المعتقل، ليفاوض ممثلي المعتقلين، ففاوضه الشيخ الغزالي وبعض الإخوة، واتفقوا على أن تتخلى قيادة للمعتقل عن التصرف في الأشياء المصروفة للإخوان من قبل الحكومة، وتسلمها إليهم (عينية) ويتولى الإخوان طهيها وتوزيعها بأنفسهم.

وكانت معظم الأغذية جافة من الفول والعدس والفاصوليا الجافة والبطاطس والحلبة والحلاوة الطحينية وعلب اللحم المجفف (البلوبيف) ونحوها. وقليل منها ما كان طازجا، ولكن الكميات كانت كافية ومثعبة، وخصوصا في يد الإخوان، وما كان يفضل من طعام يوصي الإخوان بالمحافظة عليه نظيفا ليعطى لأهل هذه المنطقة.

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٣٢٨

٢ المرجع السابق، ص ٣٣٨

٣ المرجع السابق، ص ٣٤٠

المسألة السابعة: مُعْتَقَلُ الطور هو الْمُخَيَّمُ الدَّائِمُ للإخوان
كيف كانوا يقضون يومهم في الْمُعْتَقَلِ؟ والقرضاوي معهم.

إنَّ يومهم يبدأ من قبل الفجر بأكثر من ساعة، كانوا يستيقظون تَبَاعًا استعدادًا لصلاة الفجر، وقيام الليل، وجدير بالذكر أنَّ
أحد الإخوة الذي كان يمْرُّ على العنابر في السحر، ويُشِدُّ بصوت ندي رخييم:

يا نائما مستغرقا في المنام قم فاذكر الحي الذي لا ينام
مولاك يدعوك إلى ذكره وأنت مشغول بطيب المنام

وحين يسمعون صوته ينهضون من نومهم، ليتوضأوا، ولْيُصَلُّوا مَنْ شاء منهم ما يتيسر لهم، أو ليتلوا كتاب الله تعالى، أو ليذكروا
الله كثيرا. وما أن يؤذن الفجر، حتى يهرع الجميع إلى المسجد، لصلاة ركعتين قبل صلاة الفرض، ثمَّ يتقدّم الشيخ الغزالي ليصلي بهم،
ويقرأ من القرآن ما توقّف عنده وردّه، كما هي عادته، فهو يقرأ من حيث انتهى. وكان قنوت الشيخ الغزالي أو دعاؤه مختصرا جامعاً،
يقول: اللهم افكك بقوتك أسرنا، واجبر برحمتك كسرنا، وتولّ بعنايتك أمرنا، اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، اللهم عليك بالظالمين.
وبعد صلاة الفجر وختام الصلاة، يقرؤون المأثورات، ثمَّ يجتمعون في حلقات دراسة مع المشايخ (الشيخ الغزالي والشيخ سيّد
سابق)، حول بعض الموضوعات الدينيّة والعلميّة. وقبل طلوع الشمس كانوا يَنْفَضُونَ من هذه الحلقات، كي يبدأ نشاط آخر، هو
النشاط الرياضي. ثمَّ ينصرفون لتناول الفطور، وغالبا ما يكون من الفول أو العدس، أو نحو ذلك.

القرضاوي ومحمد الدمرداش ومصباح كانوا يدرسون معا- بعض الكتب المقررة عليهم في السنة الثانويّة، أملا في أن يتاح لهم دخول
الامتحان في وقته. وبعد وجبة الغداء تكون هناك قيلولة، يستعان بها على قيام الليل، وصلاة الفجر، وقد أشار إليها القرآن في قوله
تعالى: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهيرةِ [٥٨]﴾.^١

وقبل صلاة العصر يهب الجميع مستعدّين لصلاة العصر، وبعد صلاة الجماعة، تبدأ فترة ثقافيّة جديدة، محاضرات يلقيها الدعاة
من تأملاتهم ومخزون قراءاتهم، أو ممّا توافر عندهم من مراجع محدّدة. وبعد المغرب يتناول الجميع وجبة العشاء من أطعمة خفيفة، مثل:
الجبنة أو الحلاوة أو الزيتون أحيانا، ونحو ذلك. ثمَّ كانوا يجتمعون اليوم يصلاة العشاء، وبعد صلاة العشاء بقليل، يطلب الجميع النوم،
فلا سمر بعد العشاء، إلا أن يكون هناك مناسبة معيّنة.

لقد حول الإخوان معتقل الطور إلى جامع للعبادة، وجامعة للعلم، وجمعية للتعاون، ومنتهى للثقافة، وناد للرياضة، وملتقى للتعاون
والترابط، وبرلمان للتشاور والتفاهيم، وعاشوا تلك الفترة من حياتهم متعاونين على البرّ والتقوى، متواصلين بالحقّ والصبر، متواسين في
السراء والضراء، متآخين في الحقّ والخير، ومتعاهدين على الثبات على الدعوة في العسر واليسر، ولا عجب أن قلَّهمم بحقّ معتقل الطور
هه المخيم الدائم للإخوان المسلمين لسنة ١٩٤٩م، السفر والمصاريف، والنفقات، والتكاليف، على حساب الحكومة المصريّة.^١

١ القرآن الكريم، النور (٢٤)، الآية [٥٨].

١ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٣٥٢

المسألة الثامنة: الوصول إلى هايكستب

على كلِّ حال وصلوا إلى مُعْتَقَلِ "هايكستب" بالقرب من القاهرة، وهايكستب كان معسكرا للجيش الإنكليزيّ (كامب) تخلّى عنه، فاستخدمته الحكومة المصريّة معتقلا لبعض المصريين. ووضعوا في أحد عنابرهم،^١ والقرضاوي معهم، وجدوا بعض الإخوان قد سبقوهم إليه، منهم الطبيب الأديب الشاعر الدكتور حسان تحتوت الذي تخرّج حديثا، ومنهم العالم الداعيّة الشيخ محمّد جبر التيميّ، ومنهم العربيّ الأصيل الأستاذ صالح أبو رقيق، ومنهم الطالب الأزهرّيّ الأديب الشاعر عبد الودود شلي. وبدعوا ينظمون حياتهم في هذا المعتقل، مستفيدين من تجربتهم في الطور. وكانوا يصلّون الصلوات في جماعة، وقد اختار القرضاويّ الإخوان إماما لهم، كما كان يخطبهم الجمعة، وأحيانا يساعده بعض الإخوة مثل الأخ العسال، أو عبد الودود. وكان الأخ مصباح قد اشتدّ به مرض "الروماتيزم". وكان من طرائفه أنّه إذا سئل عن تربيته في الدُفْعَةِ، يقول الدكتور تحتوت: أنا والشيخ يوسف نحيط بالدفعة من طرفيها، هو في أولها، وأنا في آخرها، فأنا الأول ولكن في الطرف الآخر! وكانوا يَأْمَلُو أن يسمحوا لهم بدخول امتحان الشهادة الثانويّة، بأن يأخذوهم تحت الحراسة إلى لجنة الامتحان بمعهد القاهرة، أو يأتوا إليهم بلجنة تمتحنهم في المُعْتَقَلِ، وكلا الأمرين حدث لمعتقلين قبلهم، وهو من حقّهم.

ولهذا ظلّوا يتذكرون المقررات الدراسيّة في الكتب التي معهم، يسأل بعضهم بعضا، ويُعيّن بعضهم بعضا، حتى اقترب موعد تقديم "استمارات الشهادة الثانويّة، فطلبوا من إدارة المعتقل أن تحضر لهم هذه الاستمارات، فاستجابت لهم، وأحضرتها وملئوها، وبقيت "الصورة الشمسيّة" التي توضع في الاستمارة، فطلبوا منهم أن يأتوا بمصوّر يُصَوِّرُهُمْ في المعتقل، حتى تستكمل الاستمارة مقوماتها، فرفضوا. وقدّموا الاستمارات بدون صور. وبقوا ارتقاب الامتحان، ويستعدّون له ما تسعفوا ظروفهم، راجين أن تنفج الأمور، فيأذّنوا لهم بأداء الامتحان، حتى جاء موعد الامتحان بالفعل، والباب مغلق أمامهم ولم يحدث أيّ انفراج.

وألقوا كتبهم واعتقدوا أن هذه السنّة قد ضاعت منهم، ولا بأس بذلك في الدعوة في سبيل الله، وعلى الجميع أن يصبروا على ما أصابهم، ويسألوا الله أن يعوّضهم خيرا، فهناك من الإخوة من كسدت تجارته وأغلق محلّه، ومنهم من أوقف مرتبه، ولا دخل لأهله غيره، ومنهم... ومنهم... وعليهم هم الطلبة أن نصبر على ما يضيع من سنوات عُمرهم. وكان المعتقلون في الهايكستب يقضون أوقاتهم في أنشطة مختلفة، كان منهم من يقرأ بعض الكتب إذا تيسّرت، وقد كان مع القرضاوي كتابان اصطحبهما، وهما: (١) إحياء علوم الدين ل"أبو حامد الغزالي". (٢) وأجزاء من كتاب "العقد الفريد" ل"ابن عبد ربه في الأدب". فكان القرضاوي استفاد من الوقت بالقراءة في هذا فترة، وفي ذلك أخرى أحيانا وحده، وأحيانا مع بعض الإخوة.

وكانوا يقيمون بعض أحفال السمر في الليل، للترويح عن الأنفس، كما قال الرسول صلّى الله عليه وسلّم لحنظلة: عَنْ حَنْظَلَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَيَّ مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الدُّكْرِ، لَصَافَحْتَكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرْشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.^١

وكان الشاعر عبد الودود شلي يُنشدُهم من شعره أحيانا، ومن شعر اليساريّين النائر حينما آخر. وكان من بجوارهم جماعة من كبار الإخوان، وهم من العلماء البارزين، اعتقلوهم بعيدا عنهم، تنكيلا بهم، وتكديرا لهم، وعلى رأسهم الأستاذ "عبد الحكيم عابدين"

١ عنابر جمع عنبر، والعنبر: قاعة أو حجرة واسعة.

١ النيسابوري، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري (المولد: ٢٠٤هـ - المتوفى: ٢٦١هـ)، الصحيح لمسلم، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور، (بيروت، دار إحياء التراث العربي)، رقم الحديث: ٢٧٥٠، ج ٤، ص ٢١٠٦

السكرتير العام للإخوان، وصيَّههُ الأستاذ البنا "زوج أخته" والشيخ الدَّاعية "عبد المُعزَّ عبد الستار". وقد ضيَّقوا عليهم في المأكل والمشرب، حتى سمع القرضاوي من الشيخ عبد المُعزَّ أنه قال: حاولوا يوماً أن يشربوا من الماء المخزن في "سيفون" المُرْحاض، فوجدوه كأنَّه طين لا يمكن شربه. وكانوا سمعوا أنهم ركبوا لهم "أجهزة تسجيل" خيِّفة، تُسجِّلُ أحداثِهم بعضهم مع بعض، فأردوا أن يبلِّغوهم بذلك، فأبلِّغوهم بذلك بطريقةٍ مُلحَّنةٍ كأنما يقرءون القرآن، حتى لا يُحسُّ الحُرَّاسُ، وقد فهموا عنهم ما أرادوا.^١

المسألة التاسعة: العلقه

ومن الأحداث المهمة والأليمة والتي لا تنسى في معتقل "هايكستب": حادثة "العلقة الساخنة" التي تَلَقَّيُوهَا في أحد الأيَّام، والتي سَلَّطَ عليهم فيها جنود "بلوك النظام" وهم جنود تابعون للشرطة، يُجَنِّدُونَ عند الأزمات فقط، لفضِّ المظاهرات، أو مُقاوَمَةِ الشَّعْبِ، أو نحو ذلك، وهم في غالبهم أُمِّيُونَ قُساةٌ، كأنما هم أدوات في أيدي قَادَتِهِمْ، ينفذون بهم ما أرادوا.

ولا يدرون حقيقة السبب الذي اسْتَدْعَى من أجله هؤلاء الجنود للانقضاء عليهم، كأنهم وحوش مُفْتَرَسَةٍ أو كأنما يهاجمون عُدُوًّا، قد اعتدى على أرض الوطن، وانتهك حُرْمَاتِهِ.^٢ قيل: إن الأخ عبد الودود شلبيّ- الذي كانوا يَغْلُطُونَ في اسمه إذا نادوه، ويقولون: عبد الودّ ودّ - تشاجر مع إدارة المعتقل لسبب من الأسباب، فأراد الضابط المسؤول- واسمه فريد القاضي- أن ينتقم من الجميع، ويعلمهم أدب التعامل مع القادة. أيّا كان السبب، فقد فُوجِئَهُمْ بالجنود يدخلون عنبرهم^٣ الرئيس كالتتار، يحملون العَصِيَّ الغليظة والأهْرِيَّاتِ الطويلة، يضربون بها الكبير والصغير، والصحيح والمريض، لا يتحاشون أحداً. كما لا يُنسى موقف الأخ عبد الودود حين نزلت عليه الضربات، وهو يصيح ويقول: عثمان بن عفَّان، شهيد الدار من جديد! وانفضَّتْ المعركة المُفْتَعَلَةُ بقليل من الإصابات والجراحات الخفيفة، وكثير من العجب والاستغراب لما حدث، ولكن في عهود الظلم والاستبداد لا يستغرب أيُّ شيء يقع، لأنَّه لا يوجد من يحاسب الظالم، ولا من ينصب المظلوم.

وقد نَظَّمَ الشيخ يوسف القرضاوي: قصيدة طويلة بهذه المناسبة:^١

ما كنت بالباغي ولا المحتال؟!

متوتِّبين كهجمة الأغوال!

ببسالة للثأر من أمثالي!

المسألة العاشرة: العُودَةُ إلى الطور

فوجئهم في أحد الأيَّام بالنداء عليهم ليرحلوا من هايكستب إلى الطور، ويعودون إلى قواعدهم سالمين، وكانوا فرحين بهذه العُودَةِ، ليأخذوا مكائهم في القافلة الإخوانية الكبرى، ويستقبلون رمضان فيها في رحاب الطور، ويستعدُّون بالحياة الإسلامية التي عاشوا من قبل.^٢

١ القُرْضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ما في ٣٦٤ - ٣٧٦ باختصار

٢ المرجع السابق، ص ٣٧٦

٣ عنبر مفرد عنابر، والعنبر: قاعة أو حجرة واسعة.

١ القُرْضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (المرجع السابق، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٣٧٩

٢ المرجع السابق، ص ٣٨٥

وعادوا إلى الطور ليستقبلوا فيه شهر رمضان المبارك، ومن حسن حظهم: أن وضعوا في حذاء رقم (٢) الذي يؤمه الشيخ الغزالي، واستمتع القرضاوي بصلاة التراويح خلفه، ثماني ركعات يتلو فيها جزءا من القرآن، بحيث يختم القرآن في آخر ليلة، كما استمتعوا بِحُطْبِهِ للجمعة، ومواعظه القصيرة في الترويجة كل ليلة، وكان إمام حذاء رقم (١) هو الشيخ عبد المعزّ عبد الستار، وإمام حذاء رقم (٣) هو الشيخ عبد اللطيف الشعشاعي الداعية الكفيف، وكان من أحلى الشهور الرمضانية التي قضاءواها في حياتهم صياما وقياما وتلاوة وذكرًا ونشاطا.

المسألة الحادية عشرة: كيف كانوا يقضون ليلة القدر في المعتقل؟

دخلوا في العشر الأواخر من رمضان، وهي أفضل لياليه، وهي ختام الشهر، والأعمال بالحواتيم، وفيها تلمس ليلة القدر، وهي خير من ألف شهر، وهي أفضل ليالي العام بإطلاق، وفيها أنزل القرآن. وكان الرسول الكريم إذا دخل العشر، شدّ المُعَزَّرَ، وأحيا ليلة أي كَلَّه، وأيقظ أهله.

لهذا تَوَقَّرْتُ الهِمَمَ للتفرغ للعبادة والطاعة وذكر الله في هذه الليالي المباركة، وكثر فيها دعائهم وتضرعهم إلى الله تعالى، ولا سيما في ساعات الأسحار والثلث الأخير من الليل، إلى جانب الدعاء عند الإفطار، وللصائم عند فطره دعوة لا تردّ، وقد روي الحديث عن أبي هريرة، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ، وَالْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ يَرْفَعُهَا اللَّهُ فَوْقَ الْعَمَامِ وَيَفْتَحُ لَهَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَيَقُولُ الرَّبُّ: وَعَزَّيْتُ لَأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعَدَ حِينٌ» [هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ].^١

وهم صائمون ومظلومون، فأخلق أن يستجاب لهم، وفيهم رجال صالحون، إن شاء الله يستنزل بهم الغيث.

المسألة الثانية عشرة: الإفراج عنه (القرضاوي) في الفوج الأول

سجن الخليفة حيث تمّ الإفراج عن القرضاوي بعد سقوط وزارة إبراهيم عبد الهادي. ولم تمض أيام حتى جاء أول كشف يتضمّن أسماء المُفْرَجِ عنهم، الذين يمثلون الفوج الأول، وكان اسمه ضمن هؤلاء ومعه عدد من الزملاء: محمد الدمرداش، مصباح عبده، السيد نفاض، وعدد من الإخوان من مختلف المديرّيات.

وكان من الذين أفرج عنهم معهم الأستاذ حسني الزمزمي، ولم تفارقوا طرائفه، طوال رحلتهم من الطور إلى القاهرة ثمّ إلى طنطا. إنه أبداً ساخط ثائر، إنه يعترض على ترحيلهم في وسائل نقل مريحة ولا مناسبة، ثمّ عندما وصلوا إلى القاهرة، بيّثوا في أحد أقسام الشرطة، هو قسم الخليفة، وقد وضعوهم في حجز القسم، وكان ردينا جدّاً، فلم يحتمل الأستاذ الزمزمي هذا الجوّ الخانق، وهذا المكان غير نظيف، فكان يقول عن قسم الخليفة هذا: لعن الله خليفة هذا قسمه، هذه صدقة مُلَوَّنَةٌ بالدم، هذا بمثابة من يتصدّق عليك ثم يصفّعك على قفاك، وهكذا هؤلاء أفرجوا عنهم ثم وضعوهم هذا الموضع المزري.^١

١ الترمذيّ، سنن الترمذيّ، باب [تحقيق وتعليق: وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (ج ٤، ٥)]، (مصر- شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م)، رقم الحديث: ٣٥٩٨، ج ٥، ص ٥٧٨ [حكم الألباني]: ضعيف لكن صح منه الشرط الأول بلفظ المسافر مكان الإمام العادل وفي رواية الوالد.

١ الْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠ م)، ج ١، ص ٣٩٧ - ٣٩٨

ويبدو أن الوزارة تعيّرت، ولكن رجال القسم المخصوص - أمن الدولة - لم يتغيروا، فلا زالوا هم المتحكّمين. وبعد هذه الليلة المُتعبّة في قسم الخليفة، نقلوهم إلى طنطا، وأخذ عليهم تعهد ألا يمارسون أيّ نشاط سياسيّ، ثم فكّ أسْرهم، وذهب كلّ منهم إلى مَوْطِنِهِ أَوْ مَنزِلِهِ.

المسألة الثالثة عشرة: إلى قريتهم أي قرية القرضاوي

وعاد إلى قريته "صفت تراب" بعد غيَابِ هذه الأشهر، وجاء الناس إلى دارهم لِيُسَلِّمُوا عليه ويُهَيِّئُوهُ بالعودة، وحسب بعض الناس أنّهم سيجدون إنسانا قد قهره الاعتقال، وأحرس لسانه، وَهَدَّ كِيَانَهُ، ولكنه فوجئوا بأنه يحدّثهم عما صنع الإخوان في المعتقل، وكيف حوّلوه إلى جامع وجامعة وجمعية ومنتدى، حتى أسر بعضهم إلى بعض قائلا: إن الاعتقال لم يغيّره، وبعضهم خشي على نفسه أن يسمع مثل هذا الكلام، ويسكت عليه فأسرع بالقيام، حتى لا يَتَّهَمُ بأنه سمع هذا.

ولم يبق في القرية غير يومين فحسب، فقد كان ورائه أمر مُهمٌّ جدًّا، وضروريّ جدًّا، وهو الاستعداد لدخول امتحان الدور الثاني للشهادة الثانوية، فلم يبق على موعد الامتحان سوى خمسة عشر يوما، لا بُدَّ أن يَتَقَرَّعَ فيها لمراجعة المقررات الدراسية، متوكِّلا على الله تعالى، مستمداً منه التوفيق، وما توفيقى إلا بالله^١.

المسألة الرابعة عشرة: أَلْعُودَةُ إِلَى مِصْرَ

خرج القرضاوي من زيارة المخيمات (الكرامة عقبة جبر) حاملا أمرين: أولهما: هم ثقيل، لمعانة اللاجئين. والثاني: عدوى حُمى الملاريا، التي بدأت الشعور بها، ثم اشتدّت عليه بعد عودته إلى "عمّان"، وأصابته الرَّعْشَةُ الشديدة المصاحبة عادة للملاريا، وعُوْلَجَ منها في جبال الأردن. قال القرضاوي: عدت - والحمد لله - إلى مصر، وقَدِّمْتُ تقريرا إلى فضيلة المرشد العام عن الرحلة، وقد لقيت المرشد العام بعد ذلك، وعلمت منه أنه قرأ تقريري، واهتم منه بما جاء عن حزب التحرير ومقولاته ومحاولاته.

وكانت الخلافات قد بدأت تبرز بين الإخوان ورجال الثورة، وخصوصا بعد أن طلبوا من الإخوان أن يرشّحوا لهم أسماء للاشتراك في الوزارة، فرشّح مكتب الإرشاد لهم ثلاثة من أعضاء الجماعة، هم الأساتذة منير دلّة، وحسن العشماوي وأحد آخر^٢.

المسألة الخامسة عشرة: الاعتقال الأوّل في عهد الثورة

كان من أهمّ الأحداث وأخطرها الموافق ١٢ يناير في سنة ١٩٥٤م، بجامعة القاهرة. وفي مساء التالي، ذهب القرضاوي والأخ أحمد العسال، وكانا زميلين في الدراسة - إلى كليّة اللغة العربيّة في الدارسة، ليحضرا كعادتهما المحاضرات المقرّرة عليهما في تخصّص التدريس. وما كادا أن ينزلا من الحافلة (الأوتوبيس) ويَصِلانِ إلى الباب، حتّى وجدا من يتقرّبهما، من رجال المباحث، ويأخذ بأيديهما في يسر، ويقول: تَقْضُبا معنا، ولم يكن لهما بُدٌّ من أن يَتَقَضَّبا معهم. كل ما طلباه منهم أن يذهبا إلى البيت، ليضعا كتبهما الدراسية هناك، ويأتيا ببعض الملابس، ولم يمانعوا في ذلك، وأخذهما إلى السجن الحربيّ، لمجرّد أن يبيتا فيه ليلة أو ليلتين، ثمّ أخذوهما بعد ذلك إلى معتقل "العامرية" بالقرب من الإسكندرية^١.

١ القُرْضَاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٣٩٨ - ٣٩٩

٢ المرجع السابق، ص ٤٨٦

١ المرجع السابق، (الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٣٧

المسألة السادسة عشرة: معتقل "العامرية"

قد حُيسَّ القرضاوي أكثر من مرّات مثل: في مُعتَقَلِ العامرية في يناير ١٩٥٤م، وهناك عملهم على تحويل المعتقل إلى جامع وجامعة وجمعيّة: جامع للعبادة، وجامعة للتثقيف، وجمعيّة للتعاون على الخير.

يبدأ يومهم من قبل الفجر في التهجد وتلاوة القرآن، وذكر الله، والتضرّع إليه بالدعاء والاستغفار، ثمّ صلاة الفجر في جماعة، ثمّ قراءة الأذكار والأدعية المأثورات، ثمّ دُرس علمي روحيّ، يلقاه الشيخ القرضاوي أو الأخ أحمد العسال، أو الأخ عزّ الدين إبراهيم، أو الأستاذ عطية الشيخ، أو غيرهم من دعاة الإخوان. ثمّ طابور الرياضة، فالإفطار، لفترة حرة للقراءة والمناقشة والتزاور، ثمّ صلاة الظهر في جماعة، وبعدها الغداء والقبولولة. ثمّ تأتي فترة العصر للمحاضرات والندوات والأنشطة الثقافية المختلفة حتى صلاة المغرب. وبعد صلاة المغرب وقراءة المأثورات، يكون العشاء ثمّ العشاء، ثمّ قد يكون هناك درس علمي مركز، ثمّ يخلدون إلى النوم.

لقد استفاد الإخوان من معتقل الطور، وأرادوا أن ينقلوا التجربة إلى معتقل العامرية، فكانت صورة أخرى منه. وما هي إلا أيام قليلة وهم في مَعْمَعَة هذا النشاط، حتى نودي على ستّة من المعتقلين دون غيرهم، لينقلوا إلى القاهرة، وكان القرضاوي واحدا منهم. وهم: محمود عبده، عزّ الدين إبراهيم، ومحمود حطّيبية، ومحمود نفيس حمدي، وأحمد العسال، ويوسف القرضاوي.^١

في أول الأمر ظن الإخوان أن هذا أوّل كشف من كشاف الإفراج! قال بعضهم: إنهم أخذوهم ليحرموا الإخوان في المعتقل من نشاطهم ومحاضراتهم، ولكن قد ينطبق هذا على عزّ الدين إبراهيم، وأحمد العسال، والشيخ يوسف القرضاوي. وقال بعض الإخوان: لعلمهم يريدون أن يتفاوضوا مع شباب الإخوان خاصّة، وكلّهم ظنّ وتحمين، والظن لا يغني عن الحق شيئا.

المسألة السابعة عشرة: فترة ما قبيل الاعتقال

ترك القرضاوي الشقة التي كان فيها بشارع راتب باشا في حدائق شبرا، حين عَرَفَ أنهم يسألون عنه؛ لأنها أمسى مَصِيدَةً لرجال المُبَاحِثِ، فمن دخل إليها فقد ذهب إلى المعتقل برجله، وكان حريصًا على ألاّ يعتقل في ذلك الوقت حتى تظهر نتيجة امتحان تخصصّ التدريس، ويعيّن مُدَرِّسًا بالمعاهد الدينية، ويُثَبَّتَ حقّه في ذلك، ثمّ لا مانع أن يعتقل بعدها.^٢

هكذا كان يتصوّر الأمر، وقد ظهرت النتيجة بالفعل، وكان ترتيبه الأوّل - بفضل الله تعالى وتوفيقه - على طلاب الكليات الثلاث: أصول الدين والشريعة واللغة العربيّة، وعدددهم في تلك السنة خمسمائة طالب. وبقي انتظار التعيين.

وكان في هذه الفترة يبيّث عند الأصدقاء من الإخوان الذين يَحْسَبُ لهم مطلوبين للاعتقال، ويُقيم في بيت أحدهم عدّة ليالٍ ثمّ يغادره، ولا يكاد يغادره حتى يُدَاهِمُهُ البوليس ويقبض على مَنْ فيه. وضافت القاهرة عليه (القرضاوي) بما رَحِبَتْ، وفكّر في الاختباء بعيدا عن القاهرة حتى يتمّ التعيين من ناحية، وحتى تُخْفَ وَطْأَهُ الإذاء والتعذيب، حيث تكون على أشدّها في الفترة الأولى، ثمّ الاسترخاء شيئا فشيئا.^١

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٣٨

٢ المرجع السابق، ص ١٠٦

١ الصحافة على أن تَبَدَّدَ من عقول الناس فكرة التعذيب، وذلك بنشر صور وتقارير تظهر الأحوال الطيبة للسجون والمسجونين. انظر: مجلّة المصوّر ٢٦ نوفمبر ١٩٥٤م (١٠-٢١)، ٣ ديسمبر ١٩٥٤م (١١-١٥)، حيث نشرت صوراً للمسجونين يشربون الشاي، ويتجولون في الحدائق، كما نشرت صورة المتهم بمحاولة القتل.

المسألة الثامنة عشرة: إلى منزل خالته واختباء القرضاوي في طنطا

فكّر القرضاوي أن يدعّ القاهرة ويذهب إلى منزل خالته، اسمها "بدوية" بطنطا لمدة من الزمن للنجاة من الاعتقال، على أن يتبع داخل البيت ولا يخرج منه، حتى لا ينتشر خبر وجوده هناك. وهذا ما حدث، رغم ما في ذلك من خطر على خالته وعلى زوجها، فإن إيواء أي مطلوب للاعتقال جريمة يعاقب عليها بكذا وكذا سنة، بثمة التستر على مجرم! ولكن خالته رحمها الله تعالى، لم تبال بالعقوبة لا هي ولا زوجها، فقد كانت تعتبره بمثابة ابنها، وقالت مخاطبة لشريط: وهل رأيتم أمّا تغلق بابها في وجه ابنها؟^١ الحقيقة أن فكرة الاختباء لم يكن موفّقاً، وقد جرّها من قبل سنة ١٩٤٩م في عهد الملكيّة، حين اختبأ هو وصديقه محمد الدمرداش، ثم اضطّرهما لتسليم أنفسهما حينما أخذوا والدته، والوضع الآن أشدّ وأقسى بما لا يوصف من ذلك العهد، فلماذا يُعزّضُ خالته للأذى والبلاء؟ على أنه في الواقع كان معتقلا، اعتقل هو نفسه في المنزل، مع الخوف والقلق على نفسه وعلى من حوله، وقد بما قالوا: وقوع البلاء، ولا انتظاره.

وفي إحدى الليالي وجدوا من يقرع باب المنزل الخارجي بشدة، وينادي: يا بدوية، وهو اسم خالته، الذي يعرفه أهل قريتهم، أما أهل طنطا فينادونها: أم عبده، على اسم خاله عبد الحميد شقيقها، وهذا عرفه أن دليل الحُمَّلة التي جاءت في جُنح الليل، كان من صفت تراب.^٢ فكان الناس يسمّون هؤلاء "زوّار الفجر" وهو يَصْنُ عليهم أن ينسبوا إلى الفجر والنور، بل ينبغي أن يسمّوا: "زوّار الظلام".

المسألة التاسعة عشرة: اعتقال القرضاوي وتسليمه إلى مباحث المحلة الكبرى

كان الذين جاءوا للقبض على القرضاوي هم مباحث المحلة الكبرى، وسرعان ما استاقوه إلى تفتيش المباحث العامة بالمحلة، وكان على رأسه: ضابط شرس، كأنه وحش مفترس، اسمه: محمد شديد، وكان له من لقبه نصيب أي نصيب، فهو شديد فظ غليظ، ولكن على أهل الإيمان والدين، وليس كما وصّفَ الله أصحاب محمد، قوله: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [٢٩].^٣ ثم بدأ يحقّق مع القرضاوي بتهمة الانضمام إلى الجهاز السري، وليس عنده من الوقائع أو الأدلة ما يثبت عضويته في هذا الجهاز، إلا دعوى رئيس الجهاز بالمحلة عبد الحميد الرفاعي، واتخذ من أساليب الإيذاء والتهديد كل ما في وسعه، ليجعل منه عنصراً فعّالاً في هذا الجهاز، ولم يكن القرضاوي كذلك.^٤

المسألة العشرون: قضية خالة القرضاوي الشفيقة التي آوتها

هذه الواقعة التي جرّت لخالته التي آوتها في بيتها، ما طلع النهار، حتى قبضوا عليها هي وزوجها، ثم أفرجوا عن زوجها؛ لأن البيت بيتها هي، وبقيت هي حبيسة على ذمة قضية إيواء مجرم مطلوب للاعتقال، ووقفت أمام القاضي، الذي سألها: كيف فعلت ذلك؟ وأنت تعلمين ما في هذا الفعل من عقوبة قاسية؟ قالت له: يا سيادة القاضي، إنه ليس شخصا غريبا آويته، إنه ابني، ماتت أمه وتركته لي، أفتطرد الأم ابنها إذا أوى إليها؟ ثم إنه بريء لم يرتكب جرما.

وتأثر القاضي بكلامها، ولكن الجوّ كان مشحوناً ضدّها، وضدّ أمثالها، فما كان من القاضي إلا أن أجل القضية، وظلّ يؤجّلها حتى هدأ الجوّ، وبدأ الإفراج عن بعض المعتقلين، ثم حكم لها في النهاية بالبراءة.^١

١ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ١٠٧

٢ المرجع السابق، ص ١٠٨

٣ القرآن الكريم، الفتح (٤٨)، الآية [٢٩].

٤ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (المرجع السابق، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ١٠٩

١ المرجع السابق، ص ١١٣

المسألة الحادية والعشرون: إلى السجن الحربي

عرف القرضاوي السجن الحربي في اعتقال يناير سنة ١٩٥٤م، وكان اعتقالهم في عنبر رقم "٤"، وكان سجنًا انفراديًا، وكلّ معتقل في زنزانه، ولكن السجن في تلك الفترة خلا الإيذاء والتعذيب، وبقي به حتى الإفراج في أواخر مارس، حتى كتب قصيدة يتغزل فيها بـ "زنزاني" نشرتها مجلّة السجن التي كان يشرف عليها الأستاذ عز الدين إبراهيم.

أما السجن الحربي الذي رحلوا إليه اليوم، فشيء آخر تمامًا، لا يمكن وصفه ولا تصويره بالكلمات والحروف، نثرًا أو شعرًا. لقد عرف الناس من قديم الزمن السجون، وما يجري فيها من فنون الأذى، وألوان العذاب، سمعنا عن سجن "الباستيل" في فرنسا، وعن سجون الأكايسرة والقياصرة والفراعنة وغيرهم. و"السجن الحربي" في مصر بناه الإنجليز أيام الاحتلال، ليعاقب فيه العساكر الذين يخالفون القانون، وقد قسم على أساس أن يكون لكلّ سجين زنزانه يسجن فيها انفراديًا.

وكان القرضاوي ومعظم المعتقلين في السجن الكبير: وهو مبنى مرّبع مكوّن ثلاثة أدوار، كلّ دور مكوّن من أربعة أضلاع، كلّ ضلعٍ فيه خمسة وعشرين زنزانه أو أكثر، وأما الزنازين في الدورين الثاني والثالث "فراندة" يحوّطها سور يطلّ على ساحة السجن، وللسجن سُلمان، لكلّ ضلعين سُلمٌ ينزل السجناء منه إلى الساحة "أو الحوش" وفيه دورتان للمياه، في كلّ دورة تسعة مراحيض، وقد أنشأتها لتكفي نُزلًا السجن كلّه إذا امتلأ، أي نحو ثلاثمائة شخصًا، وهيئات أن يمتلئ. فكيف يكفي الآن أكثر من ألفين؟ إذ كلّ زنزانه فيها سبعة أو ثمانية. لهذا كان من أسباب العذاب في السجن الحربي كيف يمكن الإنسان أن يقضي حاجته البشريّة في دورة المياه؟^١

المسألة الثانية والعشرون: الاستقبال في السجن الحربي

وصل القرضاوي السجن الحربي في مساء اليوم الذي صدر الحكم فيه على الأستاذ الهضيبي والإخوة الستّة بالإعدام، وهم: عبد القادر عودة، ومحمد فرغلي، وإبراهيم الطيّب، ويوسف طلعت، وهنداوي دوير، ومحمود عبد اللطيف، حوّلوا من السجن الحربي إلى سجن آخر. ولهذا لم يُقدّر له أن يلتقي بهم، أو يراهم ولو من بعيد، كما رآهم الكثيرون، وهم صفوف أمام السجن. عندما دخل القرضاوي باب السجن الحربي كان جنود السجن يَرْتَبُونَهُمْ على أحرّ من الجمر، ليستقبلوهم بالتحية اللازمة لأمثالهم: بالكراييج تلهب ظهورهم، وبالشتائم تحرق أسمعهم، وبالمشاهد الرديئة تؤذي أبصارهم.^٢ كان الوطيس لا يزال حاميًا، والرحى الطحون تدور بقوة، لا تطحن الحبّ، بل تطحن البشر تحت حجريّتها: التعذيب البدنيّ، والإهانة النفسيّة. إذ المقصود أن يسألح الناس من آدميتهم، أن يعاملوا كأنهم مرآش في حظائر، لا حرمة لهم ولا كرامة ولا حقوق. على أن المواشي في الحظائر يجب الرحمة بها والعناية بها، وإلا احتجت لأجلها جماعات الرّفق بالحيوان في العالم. أما هم فلم يروا ولم يسمعوا ولم يقرؤوا أن أحدا احتج لما يلقونه من عذاب وهوان.

المسألة الثالثة والعشرون: الإفراج عن المُعتقلين إلا واحدا هو القرضاوي

في يوم ٢٥ مارس سنة ١٩٥٤م، أي بعد حوالي شهرين ونصف من بدء الاعتقال، صدرت الأوامر من قيادة الثورة بالإفراج عن الإخوان في كلّ المُعتقلات سواء من كانوا في السجن أم في العامرية أم في غيرها. ونودي على جميع الإخوان الذين كانوا في السجن الحربي، فأفراج عنهم إلا واحدا، لم يناد عليه، وهو يوسف القرضاوي. وأسقط في يد المسؤول عن السجن، حين لم يجد اسمه في كشف

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ١١٧

٢ المرجع السابق، ص ١١٧ - ١١٨

المُفْرَج عنهم، فقد كان يظن أن الكشف يستوعب جميع المعتقلين، وأبدى تأسّفه له أي للقرضاوي، وقال: لا بدّ أن اسمك سقط سهواً... ولا بدّ أن تبقى ضيفا علينا الليلة حتى نتصل بالمستولين في الصباح لتدارك الأمر.^١

وفي حوَالِي الساعة العاشرة من صباح العَدِ جاء عند القرضاوي الضابط المسئول، وقال له: لقد صحح الخطأ، وجاءت الأوامر بالإفراج عنك، ونأسّف لما حدث، وسنأمر بسيارة توصلك إلى منزلك، تكفيرا عن غَلْطَةِ الأَمْس.

وقد تمّ الاتفاق معهم على ثلاث نَقَطٍ:

النقطة الأولى: أن تعود الجماعة إلى سابق نشاطها وكيانها بدون أيّ حدّ من حُرِّيَّاتِهَا، وإعادة أموالها المصادرة وشُعْبَها ومركزها العام.

النقطة الثانية: الإفراج فورا عن جميع الإخوان مدنيّين أو عسكريّين، مع إعادة فصل منهم إلى الخدمة العسكريّة.

النقطة الثالثة: أن يصدر مجلس الثورة بيانا يوضح فيه حقيقة الأسباب التي اعتبرها داعية إلى حلّ الإخوان. ويكون هذا بيان بمثابة الختام في هذه المسألة المؤسّفة.^٢ وبعد هذا الإفراج عاد القرضاوي إلى حياته العاديّة: عاد إلى القرية ليراه الأهل والأقارب والأحبة وأراهم، وعاد إلى الخطابة في مسجد آل طه بالمحلّة كالمعتاد، بل بصوت أجهز، ونشاط أظهر، ووجد مكتبته، ولكن لم يجد فيها المبلغ الذي كان فيها، فقد نبّههم عليه، فاستحلّوا أخذه ولم يعترف أحد منهم بذلك، واستضعه عند الله، وهو مبلغ بسيط - أكثر من خمسين جنيها - ولكنه كان في ذلك الوقت يعتبر ثروة بالنسبة لمثلي.

ومّا جدّير بالذكر في تلك الفترة، أنهم أردوا أن يبنوا داراً للإخوان في قريتهم "صفت تراب" وذلك في مكان ليس مملوكا لأحد، إمّا هو ملك عام، كان مقابر قديمة جدّاً. وجّهزوا الحجارة، وأحضروا الطين اللازم للبناء، وأعدّوا العدة لذلك، ولم يعلنوا عنها، إلا قبلها بقليل، وكان البناءون والمساعدون لهم جاهزين، فبدّءوا في الليل، ولكن شيخ الحُقْرَاء، وحُقْرَاءُهُ جاءوا واصطدموا بهم، وكانوا قد بلغوا مركز المحلّة الكبرى، فجاءت الشرطة، وكانوا تفرّقوا، فأخذوهم من بيوتهم، وذهبوا بهم إلى حجز مركز الشرطة المحلّة، وباتوا به ليلة، وقد حقّقوا معهم ثمّ أفرجوا عنهم، وعادوا إلى القرية يَهْتَفُ الشباب بحماس: الله أكبر والله الحمد، إخوان مسلمون ولو كره المجرمون، وكانت هذه الحادثة في بداية التوتوات بعد الإفراج في مارس.^٣

المسألة الرابعة والعشرون: حمزة البسيوني

كلّ الناس هنا خانعون خاضعون، لا يملكون أن يقولوا: لم؟ بله أن يقولوا بله أن يقولوا: لا. فقد أعاشوهم في رُعبٍ رَعِيب، أحرص الألسنة، وُرْكَزَالِ القلوب، وشلّ الأيدي.

هنا واحد فقط هو الحاكم بأمره، الذي لا يحاسب على ما يقول، ولا يجازي على ما يقترف، بل لا يسأل عمّا يفعل، فله كلّ سُلْطَةِ الإله! إنه "البشا" قائد السجن حمزة البسيوني، الذي يتحدّى القانون، ويتحدّى النظام، يتحدّى الدين، ويتحدّى كلّ شيء، حتى الله تعالى في عرشه، فقد ردّ بعض الإخوة حين قالوا: يا رب، يا رب، قال: هاتوا لي ريكّم وأن أخطّ في زنّانة!! لعنه الله وأحزاه، وكلّما رأى القرضاوي تذكّر قول الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ [٣٥]﴾.^١

١ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٤٧

٢ المرجع السابق، ص ٤٩ - ٥٠

٣ المرجع السابق، ص ٥٤

١ القرآن الكريم، غافر (٤٠)، الآية [٣٥].

وينوب عن حمزة البسيوني في حُكْمِ السَّجْنِ عسْكَرِيٍّ بَرُّبَّةٍ رَقِيبٍ أَوَّلٍ أو "باشا جاويش" اسمه أمين السيّد، الذي يستطيع بصْفِيرٍ صَفَّارْتِهِ أن يدخل المعتقلين إلى الزنازين، وأن يخرجهم منها، وأن يقيمهم ويقعدهم كما أراد، وكلّما أراد، وكيفما أراد. هو شابٌ نحيف نحيل، ولكنّه مُنْتَفِحٌ بِالْعُرُورِ وَالْعُجْبِ وَالرَّهْوِ بِنَفْسِهِ. إنه يعتبر نفسه كأنّه عُضْوٌ في مجلس الثورة، قال لهم يوماً: تسعون إلى الحُكْمِ، ها نحن معنا الحُكْمِ أخذنا إيه؟^١

قال القرضاوي: بقينا في ساحة السجن الكبير، وكلّ من يَمُرُّ بنا من العساكر يَجْرِبُ سَوَطُهُ فِينَا، وقد سجّلوا أسماءنا وبياناتنا المختلفة، وغدا لكلّ منا مَلَقَهُ عندهم، ثمّ حوّلونا إلى سجن رَقْم (٤) الذي يستقبل المُتَهَمِينَ الجدد، حتى يُصَفَّى التحقيق معهم، ثمّ ينتقلون عادة إلى السجن الكبير، وهذا ما يحدث لي، فقد ذهبت إلى سجن رَقْم (٤) لعدّة أيّام لا أذكرها، ثمّ عدتُ إلى السجن الكبير، ووُضِعْتُ في زنزانه في الدور الثالث أظنّها رَقْم ٢٤٢ مع عدد من إخوان المحلّة المُتَهَمِينَ معي. وكان في كلّ زنزانه عادة سبعة أو ثمانية.

المسألة الخامسة والعشرون: فنون التعذيب وأدواته في السجن الحربيّ

وكان من أدوات التعذيب التي استخدمها زبانية السجن الحربيّ: الكلاب المُتَوَحِّشَةُ، يُسَلِّطُونَهَا على المعتقل، لتنهش من لحمه، وقد دُرِّيَتْهَا على ذلك، حتى أصبحت مَسْخَرَةً لهم في مهمّتهم.^٢

بَيِّدَ أَنَّ هَذِهِ الْكِلَابَ لا ذنب لها فيما تفعل، فهي مَسْخَرَةٌ لِلإِنْسَانِ، إنّما ذنب الإنسان الذي سَلَّطَهَا على أخيه الإنسان لتؤذيه وتُرْهِبُهُ بغير حقّ. ومع هذا كثيراً ما رأوا هذه الجوارح من الكلاب تُخَذِّلُ أصحابها ومُعَلِّمِيهَا فيما أرادوه منها، ولا تستجيب لهم في إنفاذ ما طلبوه منها من شرٍّ وإيذاءٍ. وقد جرى هذا مع أكثر من أخ من الإخوان الذين أَعْرَضُوا بهم الكلاب، فكانت الكلاب خيراً منهم وأرقّ وأرقي. منهم الأخ الفاضل الدكتور مصطفى عبد الله، وكان رئيساً لإخوان مديرية الغربية.

جاء بالّدكتور مصطفى من القاهرة، وأدخلوه في زنزانه انفراديّة، وأدخلوا معه الكلب بعد أن جَوَّعُوهُ، ولكنّ يبدو أن الكلاب يَفْطَرُهَا حَسُّ بِالإِنْسَانِ الطَّيِّبِ، وتَأَنَسُّ به، وترقُّ له، وبعد مُدَّةٍ فتحوا الزنزانه لينظروا مدى الجراح التي أصيب بها الدُّكتور، فوجدوا أن الكلب يجلس أمام الدُّكتور وَدَاعَةً وَسُكُونًا، وينظر إليه في وُدٍّ وَحَنَانٍ، والدكتور مشغول بالذكر والتسبيح والاستغفار.

أَجَلْ، لقد كان الكِلَابُ أَرْقَى وَأَحْسَنُ من هؤلاء الذين ينتسبون إلى بني الإنسان! وفي النهاية لم يجد البسيوني المُتَجَبَّرُ — أو "الباشا" كما يسمّونه — أمامه إلا الإفراج عن الدُّكتور مصطفى من السجن الانفرادي مع الكلب.^١

المسألة السادسة والعشرون: تعذيب حتى الموت

كلّ من يدخل السجن الحربيّ لا بدّ أن يمسه بعض ألوان العذاب، مادّيّاً ومعنويّاً، جسديّاً ونفسيّاً، وإيجابيّاً وسلبيّاً، وإن كان المعتقلون يتفاوتون في ذلك تفاوتاً كبيراً. على أن أقسى صنوف العذاب كان مع المُتَهَمِينَ الذين يُحَقِّقُ معهم للحصول على اعترافات مُعَيَّنَةٍ، على اعتبار أن لديهم أسراراً يكتُمونها عن التحقيق، فلا ينطقهم إلا التعذيب الذي يحلّ عُقْدَةً أَلَسْتُمْ بالرغم عنهم. وكان بعض المُعَذِّبِينَ لا يوجد لديه أسرار أو معلومات، كما تَوَهَّمُوا ولكنّ لا بدّ أن يعترف، فأحياناً يعترف لهم بوقائع وهميّة من صُنْعِ خَيَالِهِ، حتى يرفعوا أيديهم عنه، وبإيائه لو اكتشفوا كِذْبَهُ. وبعضهم لديه أسرار ومعلومات، ولكنّه يريد أن يحمي إخوانه من

١ إيه: كلمة عربيّة عامّيّة، يعني ماذا؟

٢ الْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ١٢٠

١ المرجع السابق، ص ١٢١

السجن والتعذيب والعقوبة المُرتَبَّة. وما هي إلا أيام، حتى تَفَاقمت جراحه، وتضاعفت آلامه، وفاضت روحه إلى بارئها، تشكو إلى الله ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، والمصريّ لأخيه المصريّ!^١

المسألة السابعة والعشرون: هل كان تعذيب بعلم عبد الناصر؟

قال القرضاوي: لقد حكى الثقات أنهم رأوا عبد الناصر، وهو يشهد التعذيب بعيني رأسه، ويتلذذ به، كأنما يشاهد فيلمًا سينمائيًا للتسلية والترفيه! يقول الرائد المجاهد الصادق معروف الحضري: أشهد الله أن جمال عبد الناصر كان يحضر شخصيًا إلى السجن الحربي! وكذلك جمال سالم، وعلى صبري، ليتلذذوا بالتعذيب الذي يقع على الإخوان.^٢ ويقول المستشار علي جريشة: إنه شاهد الطاعوت "ناصر" ونائبه "عامر" يشهدان صور التعذيب في غرفة حمزة البسيوني.^٣

على أن القرآن الكريم يحمل فرعون وهامان وجنودهما المسؤولية جميعًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [٨].^٤ وفرعون يحمل التبعة يصدر من أوامر، وما يولي من مناصب، وهامان بما يُنفذ من تعليمات الفرعون، والجنود بما يباشرون من الإيذاء والمظالم. وقال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَا هُوَ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانَظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [٤٠]. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [٤١].^٥ فإذا كان جنود فرعون يتحملون المسؤولية، فكيف بفرعون نفسه؟

المسألة الثامنة والعشرون: مُحاكَمَةُ القرضاوي

بعد أن مكثوا أيامًا في السجن الحربي لا يُعلم عددها، ولكنها ليست كثيرة، نودي عليهم لِلذَّهَابِ إِلَى الْمَحْكَمَةِ، فحشروهم في "لوريات عسكرية" ونزَّههم منها محلوقة رءوسهم جميعًا بالموسي، وكان المحاكمون في هذا اليوم من إخوان المحلة، وإخوان بسيون بالغربية، وإخوان بين السرايات بالقاهرة. وكانت الأعداد كبيرة، والمحاكمات سريعة، قد لا تستغرق مُحَاكَمَةَ الفرد أكثر من ثلاث دقائق أو خمس دقائق على الأكثر، وربما كانت مُحَاكَمَتُهُ أَي القرضاوي من أطول المحاكمات نسبيًا؛ لما جري فيها من نقاش لم يكن مُعتادًا، وأن كانت لم تلبث أكثر من دقائق معدودات.^١

وهذه المسألة تشتمل على ثلاث نُقْطٍ: وحديثها كما في الآتي:

النقطة الأولى: تلا مُمَثِّل الادعاء التهمة الموجهة إليه أي القرضاوي وإليهم جميعًا، وهي:

١. الاشتراك مع آخرين في اتفاق جنائي لقلب نظام الحكم عن طريق إحداث فتنة دامية، والقيام باغتيالات واسعة النطاق، وارتكاب عمليات تدمير بالغة الخطورة للمرافق العامة، وتخريب شامل في جميع أنحاء البلاد، تمهيدًا لاستيلاء الجماعة التي ينتمي إليها على مقاليد الحكم بالقوة.

٢. والاشتراك في جهاز سرّي مُسلح مُناهض للدولة ومُخالف لقوانينها، بهدف قلب نظام الحكم بالقوة.

١ الأستاذ عبد العليل، *أعلام الحركة الإسلامية*، (مصر - طبعة دار التوزيع والنشر الإسلامية)، ص ٥٩١ - ٦٠٠

٢ جابر رزق، *مذابح الإخوان في سجون ناصر*، (مصر - مكتبة النهضة)، ص: ٢٦

٣ علي جريشة، *عندما يحكم الطغاة*، ص ١٧ - ١٨، يؤكد هذا ما ذكرته السيدة زينب الغزالي في محنة ١٩٦٥م. قالت: إني كنت ملقاة على الأرض حقة هامدة، وأحسست بحركة غير عادية، فتحت عيني بصعوبة، فوجدت أمامي جمال عبد الناصر، يتكئ على كتف عبد الحكيم عامر، ويمسك في يده نظارة سوداء. [السيدة زينب الغزالي، *أيام من حياتي*، ص: ١٤٣].

٤ القرآن الكريم، القصص (٢٨)، الآية [٨].

٥ القرآن الكريم، القصص (٢٨)، الآيتان [٤٠ - ٤١].

١ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ١٣١

قال ممثل الادعاء كلاما كثيرا يطلب فيه له ولاخوانه أقصى العقوبات، وقال عن القرضاوي أكثر مما قال عن غيره من المتهمين،
وإنه كان يهياً الإخوان لعمليات الاغتيال والتخريب، ويُعدُّهم لليوم الموعود، ويُعدُّهم على ذلك بِجَنَّةِ الفردوس، إلى ما قال مما لم يُعدَّ
أدَّكرُهُ.

وقال رئيس المَحْكَمَةِ: مُذْنِبٌ أو غير مُذْنِبٍ؟

قال القرضاوي: غير مُذْنِبٍ.

وسئله رئيس المَحْكَمَةِ - وقد نسيثُ اسمه - : ألم تكن عُضْوًا في الجهاز السِّرِّي للإخوان؟

قال القرضاوي: أنا من الإخوان منذ سنة ١٩٤٣م أخطب وأحاضر وأدرّس، وأنظِّمُ القصائد، وأجُوبُ البلاد، في وضع النهار،
وتحت الأسماع والأبصار.

قال رئيس المَحْكَمَةِ: حضرتك! تخطب لي خطبة؟

قال القرضاوي: لا، ولكي أشرح لسيادتك أن عملي في الإخوان عمل عليّ بطبيعته.

قال رئيس المَحْكَمَةِ: ولكن عبد الحميد الرفاعي رئيس الجهاز في المحلّة قال: إنك عُضْوٌ في الجهاز، وإن رئيس الجهاز في الغريبة
قال له: إنك الموجّه الروحي للجهاز في الغريبة.

قال القرضاوي: يا سيادة الرئيس! أنا المُوجَّهُ الروحي للإخوان كلّهم في الغريبة، ولكي لم أبايع أحدا للانضمام إلى الجهاز السِّرِّي.^١

النقطة الثانية: البسيوني يحاكمهم بعد المحكمة

وعادوا إلى السجن، ودخلوا زنازينهم، وأخلدوا إلى النوم قليلا، وإذا بالزنازين تفتح عليهم فجأة، وقالوا: يا ستار استر، اللهم إنا
نعوذبك من شرّ هذه الليلة وشرّ ما فيها. فتح الزنازين في هذا الوقت قبل مُنتصفِ الليل لا يكون إلا لشرّ.

وما هي إلا ثوان حتى نودي عليهم بالنزول إلى صَحْنِ السجن، فوجدوا قائد السجن حمزة البسيوني ينتظرهم في ساحة السجن،
وحوله زبائنه وعساكره، وعلى رأسهم "صول" السجن أمين السيّد، وصدر إليهم الأمر أن يركضوا ويعدّوا بأسرع ما يمكنهم في صورة
دائرة أو حلقة مُفَرَّغَةٍ في ساحة السجن، والعساكر بالكراييج من حولهم يضربوهم ليسرعوا أكثر أكثر، وإذا سقط أحد منهم أنهالوا
عليه بالكراييج حتى يقوم، ولا يدزؤون كم مضى عليهم من الوقت وهم يلهثون تحت السّيّاط^١ من الأعباء، وعساكر البسيوني لا
يرحمونهم، ولا يُشفقون عليهم، بل يزيدونهم عذابا على عذابهم بمضاعفة الضرب عليهم، ولا حول ولا قوّة إلا بالله. ثم أوقف القرضاوي
هذا الطابور، وهم يسمّونه "طابور تكدير" وأمرهم أن يقفوا صفوفًا، ليأخذوا حظوظهم ممّا يقسمه أو "يصرفه" لهم القائد البسيوني من
الكراييج، فمنهم من كان حظّه "عشرة كراييج" وهذا نصيب الأغلبية، ومنهم من نصيبه خمسون كِرْبَاجًا، منهم: الأخ خليل دبايح، من
بين السرايات، والشيخ القرضاوي.

وأصحاب العشرة عليهم أن يقعدوا في الأرض ويمدّوا أرجلهم ليضربهم الجنود، واحدا بعد الآخر. أما أصحاب الخمسين، فتنصّب
لهم "الفلكة" وتُقيّد فيها أرجلهم، ويجلدون بإشراف حمزة البسيوني نفسه.

١ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ١٣٢ - ١٣٣

١ المرجع السابق، ص ١٣٤

وقد جاء دور القرضاوي ووضِع في الفلحة، واستمر الضارب يضرب، ولا يدري هل أكمل الخمسين أو وقَّف دوَّها، قال القرضاوي : ولا أذكر أنها أمتني كثيرا، إلا أني رأيت الدَّم يسيل من ساقي بعزَّارة. ووقَّف حمزة البسيوني يخطب فيهم: هم الذين حوكمهم في ذلك اليوم من إخوان الغريبة وبين السرايات، والذين سيحاكمون غداً، فقد أحضرهم حمزة البسيوني ليشهدوا بأعينهم ما نزل بهم، ليتخذوا منهم عبرةً.

يقول حمزة البسيوني: تريدون أن تجعلوا من أنفسكم أبطالا بالإنكار أمام المحكمة. أنا سأحاكمكم هنا، وأصدر عليكم ما شئت من أحكام، حتى الإعدام، ولن يحاسبني أحد. أنا هنا القانون، لا قانون غيري!

ثم التفت إلى القرضاوي، وقال: حضرتك رايح تخطب لي أمام المحكمة وتتكبر ما نسب إليك؟ قال القرضاوي: من حق كل إنسان أن يدافع عن نفسه.

قال حمزة البسيوني: فاحطب لنا الآن خطبة من خطبك التي كنت تخطبها في المحلة أو في الأزهر. قال القرضاوي: المجال ليس مجال خطابة.

قال حمزة البسيوني: اختر لك واحدة من الاثنين: إما أن تخطب لنا خطبة، وإما أن تعني لنا أغنية!! قال القرضاوي: لست من أهل الغناء حتى أعني.

قال حمزة البسيوني: فأسمعنا خطبة من خطبك.

قال القرضاوي: لا بأس، وماذا تملك إذا سلط عليك متكبر جبار، مطبوع على قلبه، لا يخشى خالقا، ولا يرحم مخلوقا، جنوده من حوله مطيعون له كأدوات في يديه، وأنت أسير عنده، وهو يقول عن نفسه: أنا القانون. وهو كذلك فعلا، فلا رقابة عليه، ولا أحد يحاسبه، وكم من شاب قضى نَجْبُهُ في زنازين التعذيب، وشطب من سجلات السجن، ولم يسأله أحد. فهل تملك أمام جبروته وتأله إلا أن تؤمر فتطيع؟!!

لهذا لم أملك حين أصرَّ أن أخطب أو أعني، إلا أن أختار الخطبة، وحمد القرضاوي الله تعالى وأثنى عليه، وصلى على نبيه، ثم قال مخاطبًا الإخوان الموجودين في ساحة السجن، وبالقرب منهم إخوان داخل الزنازين يسمعون ما يجري: قال العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يرفع إلا بتوبة. وإن أحوج ما يكون المؤمن إلى التوبة والاستغفار إذا نزلت به الشدة، وحلَّ به الكرب، فعليه أن يقول ما قاله أبوه آدم وأمه حواء: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [٢٣].^١

وقد قصَّ عليهم القرآن قصة نبي الله يونس ذي النون، حين التقمه الحوت، فنادى في الظلمات: ظلمة البحر، وظلمة الليل، وظلمة بطن الحوت: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [٨٧].^٢ قال تعالى: ﴿فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَبَجَيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٨٨].^٣

قال صلى الله عليه وسلم: دعوة أخي ذي النون، ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه، كما روي عن سعد بن أبي وقاص، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

١ القرآن الكريم، الأعراف (٧)، الآية [٢٣].

٢ القرآن الكريم، الأنبياء (٢١)، الآية [٨٧].

٣ القرآن الكريم، الأنبياء (٢١)، الآية [٨٨].

[٤] ﴿﴾^١ فتضمّنت هذه الكلمة: التوحيد بقوله: "لا إله إلا أنت"، والتنزيه عن كلّ نقص بقوله: "سبحانك" والاعتراف بالذنب بقوله: "إني كنت من الظالمين".

قال القرضاوي: ولا أدري أكان البسيوني يسمع ما أقول أم لا؟ وإذا سمع هل فهم أم لا؟ على كلّ حال لقد أَرْضَى غروره بإغرامي على الخطابة. وربما فهم من كلمتي أنها اعتراف منا نحن بأننا كنا من الظالمين، فسكت عني. وعادوا إلى زنازينهم بجراحاتهم، وحاول إخوانه أن يخففوا عنه ما نزل به من صرّاء وآلم، وقال لهم: هو والله، في غاية السكينة والطمأنينة القلبية، ولا يشعر بأيّ ألم، ولا يقول إلا ما قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد خرج أصبعه: عَنْ جُنْدَبِ بْنِ سُفْيَانَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ فِي بَعْضِ الْمَشَاهِدِ وَقَدْ دَمِيَتْ إِبْصَعُهُ، فَقَالَ: «هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِبْصَعٌ دَمِيَتْ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِمَتْ»^٢.

وكان للسجن الحرّيّ طبيب يفترض أن يأتي كلّ يوم ليُشْرِفَ على صِحّة المساجين، يعالج مرضاهم، ويُدَاوي جرحاهم، وَيَجْبُرُ كَسْرَاهُمْ. ولكنّه لم يكن يأتي كلّ يوم، كما هو المعتاد والمطلوب، وخصوصًا مع كثرة الجرحى والمصابين من جراء التعذيب، ولكنّ إهمال الْمُصَابِينَ والجرحين كان من جملة التعذيب المفروض عليهم.

وهذا جعل الجرح في ساقه اليمنى يشتدّ وَيَتَفَاقَمُ وَيَتَقَيِّحُ، وَيَنْدُرُ بعواقب خطيرة، وأخيرًا وصل القرضاوي إلى طبيب السجن، وأعطاه بعض المراهيم والبوذرة ونحوها ممّا ساعد على التئام الجرح، وكان يراجع الطبيب كلّ عدّة أيّام، ويغيّر على الجرح، حتى التأم، وقال: والحمد لله، وإن بقيت آثاره معه بعد ذلك غائرة، وظلّ موضعه حساسًا لأيّ لمسة أو حركة غير محسوبة، فسرعان ما تَوَثَّرَ فيه، وربما سأل منه شيء من الدم. والحمد لله على كلّ حال.

قال القرضاوي: وممّا أذكره في تلك الأيّام: أيّ كنت يوما مع مجموعة كبيرة من الإخوة ننتظر الطبيب لنراجعه، في طاور طويل، وكنا نزلنا من زنازيننا قبل العصر، وأوشكت الشمس أن تغرب ولم يجرى دورنا، وخفنا على العصر أن يضيع، فقلت للإخوة: هذه الفرصة ونصلّي العصر في جماعة، وكنا ننتظر في أحد العنابر، وصلّيت إمامًا بالإخوة، ورأنا أحد العساكر القساة المشهورين بالجبروت وشدة الأذى، واسمه "دياب" فلما نظر إلينا من النافذة قال: يا أولاد الكلب، أنتم قَلْبْتُمْوهَا جامع!

وانتظرنا دياب حتى خرجنا من الصلاة، ويعتبر هذا فضلًا منه، حيث لم يَجْبُرْنَا على الخروج من الصلاة، ثم أمرنا نحن المصلّين أن نصطفّ صقّين، كلّ صفّ في مقابل الآخر، وكلّ معتقل في مواجهة معتقل آخر. وقال: سَأَصْفُرُ بِصَفَّارِيّ لِيضْرِبَ كُلَّ مَعْتَقَلٍ صاحبه على وجهه، ثُمَّ أَصْفُرُ آخَرِي، ليردّ عليه من يقابله بمثلها. وكانت لعبة مُسَلِّيَّةٌ لهذا الذئب أو الدياب، أن يتفرّج علينا.^١

١ الترمذيّ، سنن الترمذيّ، (مصر - شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م)، [تحقيق وتعليق: إبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف، ج ٤، ٥]، رقم الحديث: ٣٥٠٥، ج ٥، ص ٥٢٩، [حكم الألباني]: صحيح.

٢ البخاري، الجامع الصحيح للبخاري، باب من ينكب في سبيل الله، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ)، رقم الحديث: ٢٨٠٢، ج ٤، ص ١٨، والنيسابوري، مسلم، الصحيح لمسلم، باب ما لقي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (بيروت، دار إحياء التراث العربي)، رقم الحديث: ١٧٦٩، ج ٣، ص ١٤٢١، و الترمذيّ، سنن الترمذيّ، [تحقيق وتعليق: إبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف، ج ٤، ٥]، باب ومن سورة والضحي، (مصر - شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م)، رقم الحديث: ٣٣٤٥، ج ٥، ص ٤٤٢، عَنْ جُنْدَبِ الْبَجَلِيِّ، وقال الترمذيّ: [هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ]، و [حكم الألباني]: صحيح.

١ الْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ما في ١٣٤ - ١٤١ مختصرًا

النقطة الثالثة: وَفَقَّةٌ مَعَ جَرِيمَتِهِ الَّتِي حَوَكَمْتَ عَلَيْهَا

في لسان القرضاوي: كانت تهمتي التي قدّمت بها للمحاكمة تتمثل في جريمتين:

الأولى: أنه اشترك مع الآخرين في إعداد خطة تقوم على تخريب البلاد، واغتيال العباد، وقائمة طويلة من التهديم والتقتيل والإفساد.

والثانية: أنه اشترك مع الآخرين في إنشاء جهاز سرّي مُسلّحٍ مخالف لقوانين الدولة.

أما الجريمة الأولى فلا علم لي بها، ولا أعرف عنها شيئاً من أيّ مصدر، ولا أعلم - وما علمت بعد ذلك - أن أحداً في الإخوان قد أعدّ مثل هذه الجريمة الكبرى من التخريب والاعتيالات والإفساد في الأرض.^١

المسألة التاسعة والعشرون: في حجز المحلّة أيّاماً

بعض المتجبرين الذين رآهم القرضاوي يمدّون إليه بالأذى، ليسوا أشراراً في حقيقتهم، ولكنهم قهروا على الشّرّ قهراً، بحكم عملهم ووظيفتهم، والعامّة في مصر يقولون: أكل العيش مر. وأكل عيشهم يضطرهم أن يفعلوا ما لا يُحبّون، وأن يُنفذوا ما يؤمرون، وأن يسارعوا إلى تنفيذه، ويظهروا نجاًؤبُهُمْ معه، وتلذّذهم به، حتى لا تلحق بهم تُهْمَةٌ قد تحزّمهم من عملهم.

على أيّة حال، بقّي القرضاوي في حجز المحلّة أيّاماً لا يمكن أن يذكر عددها بالضبط، لم يستطع أحد من الأهل والأقارب أن يصل إليه أو يعرف عنه شيئاً، رغم أنهم يمّرّون على تفتيش المباحث غادين ورائحين، ولكنهم لا يدرون ما يدور فيه، فهو أشبه بما وصفه ابن الرومي من قبر ابنه القريب منه، والذي أصبح كما قال: بعيداً على قرب، قريباً على بعد! ثم انتهت مهمّتهم في مباحث المحلّة، بعد أن انتهى التحقيق معهم، وأن الآوان، ليرحلوا إلى طنطا، ومنها إلى القاهرة، ليدخلوا مع إخوانهم هناك، في الأتّون الكبير الذي ينتظرهم، "السجن الحربي".

المسألة الثلاثون: عَيْشَتُهُمْ فِي السَّجْنِ

كان المعتاد أن ينزلوا لدورة المياه مرّتين كلّ يوم: مرّة قبل الفجر، ومرّة بعد العصر، ويا ويل من يصيبه إسهال أو يغلبه البول لسبب من الأسباب. وكان من فضل الله عليهم أن معظمهم شباب، فكانت تكفيهم المرّتان، ولكنّ كان فيهم شيوخ أيضاً، من المبتلين بالبورستا وغيرها، على أن الشباب لا يخلو من وعكات تنزل به، فكلّ إنسان مُعرّضٌ لآفات والنزلات. وكان من لطف الله بهم: أن أكلهم كان قليلاً جداً، كما كان رديّاً جداً، وكانت قلته هذه من رحمة الله لهم، حتى لا يحتاجون إلى دورة المياه كثيراً.

على أن مشكلة البول كانت محلّولة عند الضرورة، فقد كان في كلّ زنزانة إناء للبول يستعملونه عند اللزوم، وأن كان قلماً يستعمل من أجل سوء الرائحة، ولكن المشكلة تمكّن في الغائط، وخصوصاً عند الإسهال. على أن إناء البول - أو قَصْعَةُ البول وكانت من الجلد - كانت تستعمل عادة بالليل، وتغسل في الصباح، وكانت هناك قَصْعَةٌ أخرى من نوعها، تملأ بالماء الذي يشربون منه طول النهار!

قال القرضاوي: ومّا لا أنساه أني أصبت يوماً بإسهال مصحوب بمُعْضٍ شديد، ودققتُ على الزنزانة أطلب منهم أن يسمحوا لي بالنزول إلى الدورة لهذا المُعْضِ الطارئ، فلم ينلني منهم إلا السبّ والشتّم الذي هو دَيْدَنُهُمْ، فقلت لهم: ماذا أفعل؟ فقالوا: تصرف في

١ القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ١٤١

أَيُّ شَيْءٍ عِنْدَكَ، الْمُبَوَّلَةُ أَوْ غَيْرَهَا، وَقَالَ الْإِخْوَةُ: لَا تُعَدُّبُ نَفْسَكَ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا، نَحْنُ نَوَارِي عَلَيْكَ بِالْبَطَّائِنَةِ، وَأَنْتَ تَقْضِي حَاجَتَكَ فِي هَذِهِ الْمُبَوَّلَةِ، قُلْتَ لَهُمْ: وَتَبْقَى بِجَوَارِنَا حَتَّى الْمَسَاءِ! قَالُوا: الضَّرُورَةُ أَحْكَامٌ، أَلَمْ تَعْلَمْنَا أَنَّ اللَّهَ أَبَاحَ لَنَا أَكْلَ الْمَيْتَةِ وَلَحْمَ الْخَنْزِيرِ عِنْدَ الضَّرُورَةِ؟^١

وعلى الرغم مني قضيت حاجتي بهذه الصورة الكريهة، وأنا أتصبب عرقاً، وأتمزق خجلاً، ولا سيما أن الحياء من أبرز الخصال عندي، فطرة فطري الله عليها، لم أتكلفها، ولكن المكوه له عذره، والمضطر يركب الصعب، والمريض لا حرج عليه.

وكلهم عانوا من أمر آخر هو حشرة "البق" التي تختفي في الخشب، وتظهر في الليل، فتقرص القرصة المؤلمة، فتذهب النوم من عين مقروصها، وكان هذا البق مُعَشِّشًا ومُفْرِخًا في الألواح الخشبية التي فرشوا بها الزنازين، فأجمع المعتقلون أن ارحمهم من هذه الألواح وما فيها من خلق الله المستور، وكان من كرمهم أن استجابوا لطلبهم، وأراحهم منها، وإن كان هذا جعلهم نقاسي من لدعة الإسمت ويرده في الشتاء، لكنه أخف من لدعة البق.

وهذه المسألة تحتوي على عشر نَقَطٍ، وبيانها فيما يلي:

النقطة الأولى: طعام السجن

كان طعامهم في السجن قليلا من حيث الكمية، رديئا من حيث الكيفية. كان فطورهم غالبا من العدس المليء بالحصى والرمل، قال القرضاوي: ولا أدري أذلك لرداءة نوع العدس أم هم يتعمدون إلقاء الرمل فيه، ليحرمونهم لذة الطعام؟ وأحيانا يأتون لهم بالفول بدل العدس، ولا أسوأ من هذا إلا هذا. وفي العداة كانت الفاصوليا الجافة مع الأرز، هي الطعام اليومي المقرر إجباريا عليهم. وقد كانت الفاصوليا هي طعامهم اليومي حينما اعتقلوا في الطور سنة ١٩٤٩م في عهد الملكية. وفي العشاء كانوا يأتونهم بطعام لعله من بعض الخضار المطهوء، أو من شيء لا يعلمونه.

وكل زنانة يعرف لها نصيبها في صحن متوسط الحجم، أو قل: في صحنين، صحن للفاصوليا أو الخضار، وصحن للأرز. أما خبزهم فكان عجيبا حقا، من أي مادة عجنوه وخبزوه، حتى يحسبه أحيانا كأنما صنع من مادة الإسمت. مع هذا، كان هذا الطعام يؤكل ولا يبقى منه شيء؛ لأن قلة وعدم كفايته جعلته مرغوبا، ومن أكل أي طعام وهو جائع شعر بلذته، وأن لم يكن من الطيبات المستلذات.

في قول القرضاوي: ولقد مر علينا شهر رمضان - وكان في عز الصيف - ونحن على هذا الحال من التفتش والإقلال، قد مر بنا - بحمد الله - خفيظا ظريفا، رقيقا كنعسات الفجر، لا أذكر أننا شوكننا فيه جوعا أو عطشا، رغم ما هو معلوم من طول أيام الصيف وشدها، ولم نشعر بأننا فقدنا شيئا كبيرا حين مر علينا رمضان بلا تمر ولا زبيب ولا تين، ولا قمر الدين، ولا كنافه ولا قطائف. وأشد من هذا كله وأقسى: أننا قضينا بعيدا عن أسرنا وأهلينا، ولا نستطيع أن نصلي التراويح جماعة في زنازيننا، هذا محظور.

النقطة الثانية: الماء والنظافة في السجن

كان الماء في السجن إحدى المشكلات العويصة، فالسجن لم يهيبا ليستقبل هذا الضخم من التزلاء، الذي يزيد على عشرة أضعاف طاقته العديّة. ولا يكفي الماء الواصل إلى السجن للشرب والطبخ والطهارة، وغسل الثياب، وغيرها. مهما فتر المقترون في استخدام المياه إلى الحد الأدنى. وكانوا يقضون مددا طويلة دون استحمام، كما تبقى ثيابهم كذلك دون غسل وتنظيف، وكانوا في أول الأمر

١ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ١٦٣ - ١٦٤

١ المرجع السابق، ص ١٧٦ - ١٧٧

يتلذذون بإبقائهم دون نظافة في أجسامهم وثيابهم، وتَشَفِّيًا فيهم، وانتقامًا منهم.^١ وكانوا يَسْمَحُونَ لهم في كلِّ أسبوعٍ مرّةٍ لِمُدَّةٍ قليلةٍ للنزول لِعَسِيَلِ الملابس والاستحمام إن أمكن ذلك. وكانوا يعطونهم قطعة رديئة من الصابون مصنوعة خصيصًا لعساكر الجيش، قلّمًا تُصَدَّرُ منها رَعُوَّةٌ.

النقطة الثالثة: تَمَرُّقُ الملابس

وكان الكثير منهم لم يحمل معه ملابس كافية، فلم يكونوا يقدرّون أن الزمن سيطول بهم، ولم يكونوا يحسبون أنهم سيمنعون من زيارة أهليهم وأقاربهم، وبعضهم أخذ من عمله أو منزله أو من الطريق، على أساس أنه مطلوب لخمس دقائق، ولم يَصُدُقُوهُ فَيُنَبِّئُوهُ بما نووه وصَمَّمُوهُ عليه من سجن طويل. ولهذا بدأت ثياب الإخوان تنحرق وتبلى، وطفق الإخوان يَرَقَعُونَ ما معهم من ملابس. والقرضاوي من هؤلاء، ولم يعد منظرا غريبًا أو شاذًّا أن تجد أحًا يلبس جِلْبَابًا مرقوعًا، كما كان سيّدنا عمر رضي الله عنه. وكان القرضاوي شخصيًا مَمَّن حمل معه من الملابس ما يكفي لِسَنَةِ على الأكثر، وكانت من الملابس المستعملة لا الجديدة، وبعد سَنَةٍ بدأ البلى يظهر على الثياب، وخصوصًا مع بدء الشتاء الثاني في السجن، وقد رآه بعض الإخوة الأصدقاء من زنزانتهم يَنْتَفِضُ من البرد، فَأَسَعَفَهُ وَأَنَحَفَهُ بِجِلْبَابٍ من عنده من الكستور المصريّ الحلاوي.^٢

النقطة الرابعة: أخذ الكتب التي معهم

كان حمزة البسيوني وزبائنه يتفننون في تعذيبهم بكلِّ وسيلة يقدرّون عليها، ويبحثون عن كلِّ ما يُكَدِّرُ خواطرهم، ويزعج سرائرهم. من ذلك أن عددا منهم كان يحمل معه بعض الكتب ليشغل الوقت بقراءتها، وينفع نفسه، ويفيد إخوانه، وكان بعضهم يعير لإخوانه ما لديه من كتب ويستعير منهم، وكان مع القرضاوي كتابان حرص على اصطحابهما، ليقراهما بإمعان وأناة، وهما "المواقفات" للشاطبي، و"إعلام الموقعين" لابن القيم رحمه الله، فلمّا عرفوا ذلك حرصوا على أن يُجرّمونهم من هذه المتعة العقليّة التي لا تكلفهم شيئًا، ولا ترهقهم عسرا.^٣

وكانوا يعلمون أن الأشهر الأولى لن تُتَاحَ لهم فيها القراءة، لأن الجوّ فيها مُلْتَهَبٌ شديد السخونة، والتعذيب على قدم وساق، والسّيَّاطُ تأكل اللحم، وتشرب الدم، والأدوات الحديدية الأخرى المستوردة من النازية والشُّيُوعِيَّة تعمل عملها في الأجساد والنفوس، ولكن الساجن لن يظللّ ساخنا أبد الدهر، لا بدّ له أن يبرد، ولا بدّ للقائمين على التعذيب أن يملُّوا، ولا بدّ من وقت يسوّد فيه الهدوء. وسرعان ما فتشوا الزنازين، وأخرجوا كلَّ ما فيها من كتب وأخذوها، ما عاد المصاحف، أخذوها منهم، وتذكّرهم قول سلفهم: "العلم ما طوته الصدور، وليس ما حوته السطور." وقول أحد الحكماء: "العلم ما يدخل معك الحمام، أي ما في رأسك وصدرك."

النقطة الخامسة: إحراق المصاحف

ولما أخذوا منهم الكتب بقيت معهم المصاحف، فيكاد كلُّ واحد من الإخوان يحمل معه مَصْحَفًا، يقرأ فيه ورده اليوميّ وما تيسر من كتاب الله. فأمر حمزة جنوده أن يجمعوا المصاحف - كلِّ المصاحف - من المعتقلين، ودخلوا الزنازين يفتشونها خشية أن يكون أحدهم خبأ مَصْحَفًا، ثمّ جمع القائد الهمام عددا كبيرا من هذه المصاحف في ساحة السجن، وصبّ عليها البترول وأشعل فيها النار قائلا: حتى يبتلوا زن!!^٤

١ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ١٧٩

٢ المرجع السابق، ص ١٨١

١ المرجع السابق، ص ١٦٥

٢ المرجع السابق، ص ١٦٨

قال الله تعالى: ﴿قَتِيلٌ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ [٤]﴾ ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوُفُودِ [٥]﴾ ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ [٦]﴾ ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ [٧]﴾ ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ [٨]﴾.^١

النقطة السادسة: تكديرات مستمرة

في بعض الأوقات فرضوا على المعتقلين إذا فتحوا عليهم الزنازين: أن يقوموا وقفا، ويديروا وجوههم إلى الحائط، ويرفعوا أيديهم، ويلصقوها بالجدار، وأيِّ معتقل تكأ في ذلك فجزاؤه أن يضرب على يديه بما في أيدي الجنود من عصي هي في حقيقتها خشب غليظ، وقد أخذ القرضاوي حظّه من هذا الضرب في أحد الأيام.

وكانوا يصلّون جماعة، ونقرأ القرآن في داخل الزنزانة، ولكن بصوت لا يخرج من الزنزانة، حتى لا يسمعوهم، وهم يتلون القرآن، وإلا فالويل لهم جميعا.

كان من وسائل التكدير والإذاء: أن يجمع المعتقلون في ساحة السجن، فيوقفوا قياما على أرجلهم مدة طويلة في هجير الصيف، دون أن يسمح لهم بالتحرك أو يمتنّ ولا يسرّة، فيسقط بعضهم إعياءً، ويسقط غيرهم إغماءً، ويظّلون هكذا ربّما ساعتين أو أكثر حتى يتفضّلوا عليهم، فيصرفوهم إلى زنازينهم.^٢

وأحيانا يُؤمّر المعتقلون بالقيام والقعود ثلاثين أو أربعين مرّة، وهذه تحتاج إلى زكّبٍ قويّة، فقد كانوا شبابًا، وكانوا مُتمرّنين على هذه الحركات في شعب الإخوان وفي رحلاتهم، وكان القرضاوي يؤدّيها يُيسرٍ وسهُولة، ولكنّه كان يجده في غاية الإشفاق على الإخوة كبار السنّ والمرضى، والذين يشكون من البدانة والسمن، ممن لا يستطيعون القيام بهذه الحركات، ولا يقدرّون عليها، والجنود بكرايبجهم لا يرحمون شيخًا ولا ضعيفا ولا مريضا. ولا حول ولا قوّة إلا بالله. وكان النداء على أيّ اسم مطلوب يُكُونُ مشكلة، ويحدث بلبلّة في السجن، فقد كان المسئولون في مكاتب الإدارة في السجن، يطلبون اسما معيّنًا، فيردّ عليهم العسكريّ أو "الأومباشي" المكلف بتلقّي المكالمات، فيسمعه على غير ما يميله المسئول، وقد يُكَنِّيهِ غير ما يسمعه، وربّما يقرأ على غير ما كتبه، وقد يميله على عسكريّ آخر لينادي عليه في ساحة السجن، فيكون النداء شيئا آخر. وهذا يُدكّرُهُ (القرضاوي) بقول الشاعر:

أقول له: زيد، فيسمع: خالداً ويكّنيه بكراً، ويقرأه عمر!!

النقطة السابعة: وصايا البسيونية باستمرار الإذاء

وكانت وصايا حمزة البسيوني لزباينته: ألا يدعوهم بنعم بالهدوء، وراحة البال، وطيب الحاطر، وأن يجتهدوا في التفتيش عن أسباب "التكدير" والإذاء لهم، فإن لم يجدوا سببًا مختلفوه اختلافًا، على طريقة الذئب مع الحمل، حين قال له: عكّرت عليّ الماء، والذئب في الأعلى، والحمل في الأسفل! من ذلك أن بعض الإخوة احتاجوا إلى الماء لضرورة الشرب، فقرعوا باب الزنزانة ليسمعهم الحُرّاس، ويطلبوا منهم أن يمدّوهم بقليل من الماء، الذي جعل الله فيه كلّ شيء حيّ. وكان هذا سببًا كافيًا لإشعال معركة مع هؤلاء الإخوة، ومع الدور الذي كانوا فيه، وقد كانوا في الدور الأرضي.

١ القرآن الكريم، البروج (٨٥)، الآيات [٤ - ٨].

٢ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ١٧٠

١ المرجع السابق، ص ١٧١

النقطة الثامنة: مَرَضُ الصِّدْرِ

كان القرضاوي في السجن يدعو الله تعالى دائما أن يعافيه وإخوانه من الأمراض كلها، وأن يمنحهم من فضله والعافية، وهذا شأن المسلم في كلِّ حين وكلِّ حال: أن يستلَّ ربَّه العفو والعافية والمعافة في الدنيا والآخرة.

ومن الأدعية الماثورة التي يرددها ولا يُجِلُّ من ترديدها أبدا: كما ورد سُلَيْمَانُ بْنُ جُبَيْرٍ بْنِ مُطْعِمٍ، قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ، يَقُولُ: لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُ هُوَ لِأَيِّ الدَّعَوَاتِ، حِينَ يُمْسِي، وَحِينَ يُصْبِحُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَتِي»، وَقَالَ عُثْمَانُ: «عَوْرَاتِي وَأَمِنْ رَوْعَاتِي، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيْ، وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي، وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُعْتَالَ مِنْ تَحْتِي»^١.

ومن الأدعية الماثورة في قيام الليل: عن عائشة رضي الله عنها: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَاهْدِنِي وَارْزُقْنِي وَعَافِنِي»^٢. وفي القنوت الذي علَّمه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَلِمَاتٍ أَقْوَمُ فِي الْوَتْرِ فِي الْقُنُوتِ: «اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أُعْطِيتَ، وَفِي شَرِّ مَا قَضَيْتَ، إِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، وَإِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ»^٣. ولكن شاء الله سبحانه في الأشهر الأخيرة أن أصابَ بِمَرَضٍ فِي صدره، ولم يعرف له سببا، حيث ابتليه بنوع من السُّعالِ أَمسى يَثَلِّفُهُ فِي ليله وَيَكْدُرُ عَلَيْهِ نهاره، أشبه بالرُّبو، وما هو بِرَبُو. وكان الجوّ قد هَدَأَ كثيرا، وأضحى بإمكانهم أن يذهبوا إلى الأطبَّاء من الإخوان في السجن لِيَفْخَصُوها، كما كان بالإمكان الإرسال إلى الخارج لشراء بعض الأدوية الضرورية.

وكان معالجه هو الدكتور العشماوي، الذي أخذ الأمر بعين الجِدِّ، وقال له: الحمد لله الذي أتاح لنا كشف المَرَضِ قبل أن يَسْتَفْجِلَ، طلب عددا من الإبر، فأحضر القرضاوي من الخارج، ودفع ثمنها من الموسرين من الإخوان، وظلَّ آخذ إبرة كلَّ يوم أو كلَّ يومين. وما هي إلا مدّة لم تطلَّ، حتى بشره الدكتور - جزاه الله خيرا - بأنَّه شَفِيهُ (القرضاوي) تماما، وفي وقت قياسي، وقال له: إن

١ السَّجِسْتَانِي، أَبُو دَاوُدَ، سنن أبي داود، [المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد]، باب ما يقال إذا أصبح، (بيروت - المكتبة العصرية)، رقم الحديث: ٥٠٧٤، ج ٤، ٣١٨، [حكم الألباني]: صحيح.

٢ السَّجِسْتَانِي، أَبُو دَاوُدَ، سنن أبي داود، [المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد]، باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء، (المرجع السابق)، رقم الحديث: ٧٦٦، ج ١، ص ٣٠٢؛ [حكم الألباني]: صحيح. والنسائي، المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي، [تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة]، باب ذكر ما يستفتح به القيام، (حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية)، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م)؛ رقم الحديث: ١٦١٧، ج ٣، ص ٢٠٨، [حكم الألباني]: صحيح. القزويني، ابن ماجه، سنن ابن ماجه، باب ما جاء في الدعاء إذا قام الرجل، (دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي)، رقم الحديث: ١٣٥٦، ج ١، ص ٤٣١، [حكم الألباني]: حسن صحيح.

٣ الترمذي، الجامع الكبير - سنن الترمذي، [المحقق: بشار عواد معروف]، باب ما جاء في القنوت في الوتر، (بيروت - دار الغرب الإسلامي، سنة النشر: ١٩٩٨ م)، رقم الحديث: ٤٦٤، ج ١، ص ٥٨٧، [وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ]. والنسائي، أبو عبد الرحمن أحمد، المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي، [تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة]، باب الدعاء في الوتر، (حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية)، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م)؛ رقم الحديث: ١٧٤٥، ج ٣، ص ٢٤٨، [حكم الألباني]: صحيح. والسَّجِسْتَانِي، أَبُو دَاوُدَ، سنن أبي داود، [المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد]، باب القنوت في الوتر، (بيروت - المكتبة العصرية)، رقم الحديث: ١٤٢٥، ج ٢، ص ٦٣، [حكم الألباني]: صحيح. والشيباني، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد، (المتوفى: ٢٤١هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، [المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون]، (مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م)، رقم الحديث: ١٧١٨، ج ٣، ص ٢٤٥. والدارمي وغيرهم.

٤ الْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ١٩٢

هذا المرضُ عادةً يحتاج على الأقلّ إلى شهرين كاملين، مع الراحة التامة، والغذاء الجيّد، بحيث يطلب من المريض أن يأكل في كلّ يوم فَرْخَةً! وأوصاه أن يتابع الفحص بعد خروجه من المعتقل، حتّى يطمئنّ تماما إلى كمال الشفاء واستقراره، فعلا بعد الإفراج ذهب القرضاوي إلى الدكتور فتحي قداح طبيب الصدر بالحلّة، وفحصه فحصًا كاملا، وزاده اطمئنانا إلى أنه سليم الصدر تمامًا. نسأل الله جلّ وعلا سلامة الصدر من الأمراض من الماديّة، ومن الأمراض المعنويّة جميعا.

النقطة التاسعة: السّمّاحُ بزيارة الأقارب المعتقلين لهم

ومّا سَمَّحَ به أخيرا للمعتقلين: زيارة أقاربهم لهم، وقبول الرسائل والطرود الواصلة من ذويهم إليهم، وكان هذا محظورا تمامًا. وكان جُلُّ الذين انتفعوا بهذه الزيارات - وخصوصًا في مناسبات معيّنة مثل: عيد الفطر، وعيد الأضحى، وما سمّي: عيد الأم في ٢١ مارس إخوان القاهرة والجزيرة؛ فهم الذين عملوا بهذا الإذن وأبلغ بعضهم بعضًا بذلك.

وقد التقى القرضاوي في هذه الزيارات الوجوه بالوجوه، وتصافح الأيدي، وتعانق الأبدان، ودَرَفَ الأعين الدموع، دموع الفرح باللقاء بعد الشوق والحزْمَانِ الطويل على نحو ما قال القائل:

ورد الكتاب من الحبيب بأنه سيزورني فاستعرت أجفاني
غلب السرور عليّ حتّى إنه من فرط ما قد سرتني أبكاني
يا عين قد صار البكا لك عادة تبكين في فرح وفي أحزان^١

وفي الأيام الزيارات حدثت مفاجآت مذهلة، ومفارقات عجيبة، خليقة أن تفتت الأكباد، وتقطع نياط الفؤاد. فكم من الإخوة جاءوا ليزوروا أحاهم الذي اعتقل من بينهم فلم يجدوه، وكم من أم اختطف وحيدها من بين أحضانها، فلم تجد له أثرًا، ولم تسمع عنه خبرًا، ولم يجرؤ أحد أن يفضي إليها بسرّه، فقد خر شهيدا في أتون العذاب، وروي جسده التراب.

النقطة العاشرة: إعادة الكتب إليهم "قراءات مشتركة"

من دلائل الانفراج، وبشائر الإفراج: عودة الكتب التي كانوا قد صادروها منهم، وقد فَرِحُوا برجوعها إليهم كما تفرح الأم بوحيدها إذا عاد إليها بعد سَفَرٍ وطُولِ الاغتراب وشرعوا يُنظَّمُونَ القراءة فيها، ويتبادلها بعضهم من بعض. أنهم قرءوا في تلك الفترة بعض الفصول من كتاب: "نيل الأوطار" للشوكاني.^٢

المسألة الحادية والثلاثون: آخر فوج يغادر السجن الحرّي

ظَلَّت أفواج الإفراج من "السجن الحرّي"^٣ تتوالي، في كلّ أسبوعين يغادر فوج السجن الحرّي، لا إلى فضاء الحرّيّة مباشرة، ولكن إلى سجن آخر هو "سجن القلعة"^٤ الذي يقضي فيه المغادرون أسبوعين، قبل الإفراج النهائي عنه.

ولهذا أرادت الداخليّة وجهاز "المباحث العامّة" فتحنا لكلّ معتقلٍ مَلَقًا، ووضعنا فيه ما شاءنا من المعلومات، واستكملنا بالأسئلة كلّ ما ينقصها. وكان سجن القلعة سجنًا قديمًا كرهبها ليس فيه من الشمس والهواء والفسحة خارج الزنازين، ما في السجن الحرّي. ولهذا كانت أيام سجن القلعة أيامًا كئيبة، وختامًا سيئًا، هوّنها على المعتقلين وعلموا بأن وراءها الإفراج المرتجى، وكانوا يقولون ما قال العرب

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٢٠١

٢ المرجع السابق، ص ٢٠٤

٣ السَّجْنُ الحُرِّيُّ: هو يتبع الجيش ووزارة الحرّيّة.

٤ سِجْنُ القَلْعَةِ: فهو تابع لوزارة الداخليّة.

من قديم: إن مع اليوم غداً، وإن غداً لناظره قريب. وكانوا هم آخر مجموعة تغادر السجن الحربي في أوائل شهر يونيو (حزيران) ١٩٥٦م، وبقوا في سجن القلعة أسبوعين، تم الإفراج عنهم الموافق ١٦ يونيو في سنة ١٩٥٦م.^١
على كل حال، بخروجهم من السجن الحربي، انتهت مرحلة أليمة مريرة من حياة القرضاوي، وأن كانت آثارها ستظل غائرة في الجسم وفي النفس إلى مدى لا يعلمه إلا الله تعالى.

المسألة الثانية والثلاثون: فترة ما بعد الاعتقال

نظراً لأن الذي تسلم القرضاوي من منزل حالته في طنطا، وسلمه إلى السجن الحربي هو: تفتيش مباحث المحلة الكبرى، فقد سلكت إلى طنطا أولاً، ومنها إلى مباحث المحلة، ليؤخذ عليهم التعهد اللازم بأن لا يماسون نشاطاً سياسياً.

فرغ القرضاوي من إجراءات المباحث، وكان بعض أقاربه ينتظرونه، فذهب إلى قريتهم: صفط تراب التي استقبلته بالفرحة من الرجال، والزغاريد من النساء، وكان الناس ينظرون إليه كأنما وُلد من جديد.^٢

المسألة الثالثة والثلاثون: المفاجأة الثانية في إجازة الصيف سنة ١٩٦٢م

لقد جاء واحد من قبيل عمدة القرية، وهمس في أذن خال الشيخ القرضاوي: إنهم في دوار العمدة يحتاجون إلى فضيلة الأستاذ القرضاوي، لمدة خمس دقائق. ورأى وجهه حاله قد تغير وأكفهر، فسأله: ماذا في الأمر؟ فأخبره الخبر. فقال القرضاوي: لا بأس، أذهب إلى دوار العمدة، وهي فرصة للسلام عليه، ولبس حُلته الإفرنجية "البذلة" مستعداً لهذا اللقاء. وعندما ذهب القرضاوي إلى دوار العمدة قالوا: الحقيقة أن مركز المحلة هو الذي طلب الأستاذ. وهم ينتظرونه عند المحطة، حتى لا تحدث ضجة في البلد، وأمر العمدة بعزبة "الحنطور" أن توصله إلى المحطة.^٣

المسألة الرابعة والثلاثون: الاستدعاء إلى مباحث طنطا

وعند المحطة وجد الشيخ القرضاوي بالفعل سيارة تنتظره، ووجهها جهة المحلة، فلما ذهب القرضاوي إليها وركبها، حتى غيرت وجهتها، واتجهت إلى طنطا، وقال له: رجال الأمن الذين فيها: حضرتك مطلوب في طنطا. قال القرضاوي لهم: على بركة الله، ربنا يُفدّر الخير. وذهبوا إلى تفتيش المباحث العامة في طنطا، وكان رئيسه يعرفه منذ اعتقال سنة ١٩٥٤م.

ولما دخل عليه رحب به، وسأله في دهشة: هل فعلت شيئاً يا شيخ يوسف في قطر قبل أن تأتي؟ قال القرضاوي له: لو كنت فعلت شيئاً يؤاخذ به الإنسان في مصر، لبقيت في قطر، ولم أنزل برجلي إلى مصر مختاراً! قال: معقول. طيب، هل فعلت شيئاً في مصر بعد أن وصلت؟ قلت: وهل أنا لحقت أفعل أي شيء؟ إن لي أياماً معدودة في مصر، شغلت فيها بمرض صديق لي، ثم وفاته ودفنه من يومين. قال الرجل: فلماذا يطلبك الجماعة في مصر "القاهرة"؟ وهم يطلبون معك زميلك في قطر: أحمد العسال! على كل حال أعتقد أن الأمر بسيط، ولهذا لم يشددوا في طلبك، وأنت لك خالة هنا أخذناك من بيتها أيام "الهوجة" وتستطيع أن تخرج من هنا، وتذهب إليها، وتبيت عندها، وغداً في الثامنة صباحاً تكون عندنا. قال القرضاوي له: أفعل إن شاء الله.

١ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٢١٩

٢ المرجع السابق، ص ٢٢٢

٣ المرجع السابق، ص ٤٦٥

خرج القرضاوي من تفتيش المباحث، لا متجهاً إلى بيت خالته، ولكن إلى سنترال^١ الهاتف "التليفون" ليكلّم جماعتهم في القرية، فلا بدّ أنّهم في غاية القلق، إذ ذهب إلى دوار العمدة لخمس دقائق، كما قالوا، ولم يعد، ولا يعرفون ماذا حدث، وليس في منزل خالته تليفون حتى يتكلّم منه، فليس أمامه إلا السنترال، ليكلّم منه أقرب تليفون إلى جماعتهم في القرية. وقد عرف منهم أنّهم ذهبوا إلى المحلّة بحثاً عنه، وأنهم لم يجدوه هناك، وقال لهم بعض الناس: أنّهم أخذوه إلى طنطا. كان تليفونه هذا مهمّاً، ولا سيّما لزوجته التي أصابها من الاضطراب والقلق ما أصابها، وهي بعيدة عن منزلها ومستقرّها. طمأنّتهم أنه بخير، وأنه سيبيت عند خالته ليذهب إلى القاهرة في الصباح، ليجيب عن سؤالهم، ثم يعود في المساء إن شاء الله. وبعد ذلك ذهب القرضاوي إلى خالته ليبيت عندها كما اتفق مع رئيس المباحث.

وَمَ يَكْذُ يدخل خالته، حتى وجد الجوّ مكهّراً، والأعصاب مُتوتّرة، وقد بادروه بالسؤال: ماذا حدث؟ إن القوم جاءوا يسألون عنك. وعجّب ممّا جرى، هل غير القوم رأيهم بهذه السرعة؟ وقالت خالته: يمكنك أن تخرج من هنا الآن، لتذهب إلى بيت واحدة من ابنتي خالتك، حتى الصباح.

قال القرضاوي لها: لا داعي، سيبقى هنا حتى يأتيوا ليطلبوه، ولتجّر المقادير في أعنتها، ويقضي الله ما يشاء. وما هي إلا دقائق، حتى حضر رجال المباحث، ولم يُهنئوه بتناول العشاء، وذهب القرضاوي معهم إلى تفتيش المباحث، واعتذوا له بأن الرئاسة في مصر، بعد أن وافقوا على أن تذهب إليهم غداً، فطلبوا إرسالك إليهم على وجه السرعة.

والآن هم ينتظرون زميل القرضاوي العسال، ليرحلها معاً إلى القاهرة. وقد أبقوه في حجرة المكتب، وظلّ القرضاوي أكثر من ثلاث ساعات، وهو يتابع بحثهم عن العسال، وكيف لم يجدوه عند أصهاره في طنطا، وبعد مزيد من البحث لم يعثروا له على أثر، فطلبوا من مركز بسيون الاتصال بقرينته في الفرستق، وتكيف شيخ الخُفراء بالذهاب إلى بيت والده، فإن كان موجوداً أتوا به إلى طنطا فوراً.^٢

المسألة الخامسة والثلاثون: الترحيل إلى القاهرة

كان مكتب المباحث بطنطا مشغولاً بالبحث عن العسال، ومكتب القاهرة يستعجل وصولهما هو والعسال. فلمّا لم يجدوا العسال، قرّروا أن يرسلوا القرضاوي وحده، وفي الغد يرسلون صاحبه.

وكلف أحد الضابط أن يرافقه في سيّارة الشرطة "البوكس" ليوصله إلى المكان المقصود: ومعه عدد من الشرطة الحراس بأسلحتهم. وقد ركب مع الشرطة في الخلف، حتى خرجوا من المدينة، فأمر الضابط السائق بالوقوف، ثمّ جاء إلى القرضاوي فناداه باسمه، وطلب إليه أن يركب إلى جواره بالأمام، وتأسّف للقرضاوي أن اضطرته الظروف أن يقوده في هذه الرحلة، قال القرضاوي له: لا داعي للأسف، فأنت تؤدّي واجبك.

ووصلوا إلى القاهرة، وسلّمه إلى مكان معيّن، ومن هذا المكان نقله إلى موضع آخر، ومنه إلى مكان هو السجن الحربيّ، وله به نسب وصلة قديمة، وقد وصل إليه مع تباشير الفجر. ووُضِعَ القرضاوي في زنزانه من زنازين الحربيّ التي جرّها طويلاً من قبل، وفي الصباح ألقوا إليه بقطعة من الخبز جافّة صلبة كأنها الحجر. ولا يذكر الشيخ القرضاوي هل كان معها إدام أو لا؟ ولم يكن عنده رغبة في تناول أيّ طعام.

١ شُكِّتُ (الباحث) "سنترال الهاتف" يعني التليفون في شوارع مختلفة في مصر، ويمكن به أن يتكلّم بالقرش أي بالفلس المصري في داخل مصر، حينما كنت في مصر من سنة ٢٠٠٦م إلى سنة ٢٠١٠م.

٢ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ما في ٤٦٥ - ٤٦٧ بالإيجاز.

ثُمَّ لَبِثَ أَنْ جَاءَ حَلَّاقُ السَّجْنِ، وَعَرَضَ عَلَى الْقُرْضَاوِيِّ أَنْ يَخْلُقَ لِحِيَّتَهُ، فَأَبَى الْقُرْضَاوِيُّ، وَظَلَّ الرَّجُلُ يَلْحُقُ عَلَيْهِ أَنْ يَلْحَقَهَا لَهُ حَتَّى
لَا تَسْبَبُ لَهُ الْأَذْيَ، كَمَا سَبَبَتْ لِآخَرِينَ، كَلَّفُوا أَنْ يَنْتَفُوها بِأَيْدِيهِمْ. وَمَا زَالَ الْحَلَّاقُ يَغْرِيه وَيَحْذَرُه حَتَّى سَلِمَ لَهُ لِحِيَّتُهُ فَحَلَّقَهَا، وَكَانَ قَدْ
عَدَّ لِإِطْلَاقِهَا عِنْدَ سَفَرِهِ إِلَى قَطْرِ، بَعْدَ أَنْ اضْطُرَّ إِلَى حَلْقِهَا قَدِيمًا (نوفمبر ١٩٥٤م) قُبَيْلَ اعْتِقَالِهِ.^١

المسألة السادسة والثلاثون: إلى مبنى المُخَابِرَاتِ المِصْرِيَّةِ

وما هي إلا ساعات، حتى نودي على القرضاوي للرحيل إلى مكان آخر، وركب سيّارة عسكريّة وجد فيها أحمد العسال، بعد أن
جاءوا به، دون أن يستطيع أحدهم أن يكلم الآخر، وأخذوا إلى مكان جديد، لا عهد لهم به من قبل، فليس هو سجن مصر، ولا
سجن القناطر، ولا سجن القلعة، ولا طرّة ولا غيرها. ولكنّه مبنى في شكل عمارة كبيرة، فيها حجرات كثيرة، وقد وضع القرضاوي في
حجرة منفردة، ووضع أحمد العسال في حجرة أخرى بجوارها، وقد عرف القرضاوي في آخر المدّة أنه مبنى المخابرات في منطقة سراي
القبّة.^٢

وفي المساء نودي عليه للتحقيق معه، والشيخ القرضاوي لا يدري في أيّ شيء سيحققون معه، وعن أيّ شيء سيسألونه؟ ويبدو
أن الذين يسألونه من الضابط الذي يلبسون ملابس مدينة، وهم كانوا ثلاثة أو أربعة. وقد بدأوا أسئلة مختلفة، منها: ها تعرف أحدًا في
الدقي؟ قال: نعم، أعرف جماعة سعودي: الحاج سعودي وإخوانه؟ قالوا: ألا تعرف أحدًا آخر؟ قال القرضاوي: لا أذكر الآن؟ هكذا
أسئلة كثيرة ...

المسألة السابعة والثلاثون: النوم على الكرسي وفوق المكتب بالبدلة

وعادوا بالقرضاوي إلى الحجرة التي خصصت له، ويظهر أنها حجرة لبعض الموظفين، فيها كرسي ومكتب كبير، فكان هو على
الكرسي أحيانًا، وأحيانًا أخرى هو فوق المكتب، يُفَرِّدُ عليه ظهره، وإن كان طوْلُهُ لا يَتَّسِعُ لَهُ، يَجْتَهِدُ أَنْ يَنْكَمِشَ وَيَضْمَمَ بَعْضَهُ إِلَى
بَعْضٍ.

ولكنّ أنّها لم تَطُلْ فَقَدْ مَنَوُا عَلَيْهِ بِفِرَاشٍ وَغِطَاءٍ وَ مَحْدَّةٍ عَلَى الْأَرْضِ، فَكَانَ هَذَا نَعِيمًا وَرَفَاهِيَّةً بِالنِّسْبَةِ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ أَوْلًا.

أما طعامهم، فالحقّ أنه كان جيّدًا، فكثيرًا ما كانوا يطعمونه الكباب والكفتة والسمك وغير ذلك، ممّا لم يكن يخطر ببالهم أيتام
السجن الحربيّ. ولكن مشكلته أنه بلا ملابس، فقد خرج من بيت خاله على أنه ذاهب لدوارالعمدة لدقائق ثمّ يعود، ثم انتهى الأمر إلى
ما انتهى إليه.

وَمِنَ الْمُؤَسِّفِ أَنْ يَبْقَى عَلَى هَذِهِ الْحَالِ مَا يَقْرُبُ مِنْ أَسْبُوعَيْنِ، يَنَامُ وَيَسْتَيْقِظُ فِي مَلَابِسِهِ نَفْسَهَا، وَلَوْلَا أَنَّهُ بِفَضْلِ اللَّهِ قَلِيلَ الْعَرَقِ
بِالْفَطْرَةِ، لَكَانَتْ حَالَتُهُ يَرْتِي لَهَا. وَالْغَرِيبُ أَنَّهُ لَا يَجِدُ مَسْئُولًا يَشْكُو إِلَيْهِ حَالَهُ، غَيْرَ الْحُرَّاسِ الَّذِينَ يَقْفُونَ عَلَى أَبْوَابِ حَجْرَتِي، وَهُمْ يَحْلُونَ
وَلَا يَرِيطُونَ.^٣

١ الْقُرْضَاوِيُّ، يَوْسُفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٤٦٩

٢ المرجع السابق، نفس الصفحة

٣ المرجع السابق، ص ٤٧٢

المسألة الثامنة والثلاثون: لماذا كان هذا الاعتقال شديداً على القرضاوي؟

الحق أن هذه الفترة التي اعتقل القرضاوي فيها، وإن لم تُطَّلْ كثيراً، فقد استمرّ نحو سبعة أسابيع أو خمسين يوماً، كانت من أشدّ الفترات قسوة على نفسه، رغم أنه لم يُمسَّ بإيذاء بدنيّ، ولا بأيّ آلة من آلات التعذيب، لكنها مرت بطيئة ثقيلة، فيومها بشهر، وليلها بدهر، وكان هذا الاعتقال الذي آكل فيها الكباب شديد الوطأة على القرضاوي، على خلاف اعتقاله السابقة في عهد الملكية ١٩٤٩م، وعهد الثورة أوائل ١٩٥٤م، وأواخرها، وهو الاعتقال الذي استمرّ نحو عشرين شهراً في السجن الحربي.^١

المسألة التاسعة والثلاثون: فما سرّ هذه الشدّة والقسوة؟

يعتقد القرضاوي أن سرّ ذلك يرجع إلى جملة أسباب أساسية.

أولاً: إنه أخذ في هذا الاعتقال غدراً، بلا تَقْدِمة، ولا سببٍ يعرفه، وقديماً قالوا: إذا عُرفَ السبب بطل العجب. وهو لم يعرف سبباً لا قريباً ولا بعيداً لاعتقاله، إنما أخذ من الدار إلى النار، كما يقولون، ومهدومه التي عليه.

ثانياً: كان الاعتقال في المرّات الماضية ضِمنَ مجموعات كبيرة من الإخوان، فالإنسان يَعْرِضُ نفسه بالتأسي بهم، وقد قيل: البلاء إذا عمّت طابت. والشرّ خير إذا كان مشتركاً. وقد قال الله تعالى للكفار يوم القيامة: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [٣٩].^٢

أي أنهم في الدار الآخرة لن ينفعمهم ما ينفع الناس في الدنيا من تخفيف العذاب عنهم إذا اشتروا فيه. فهذا الاعتقال لم يكن بهذه الصورة الجماعية، بل هو اعتقال خاص.

ثالثاً: إن اعتقاله هذه المرّة، وهو زوج وأب، غير اعتقاله فيما مضى، وهو خالٍ من المسؤولية. فقد كان دائم التفكير في زوجته وبناته الصغيرات، اللاتي تركهنّ في القرية. واحتطفه من بينهن فجأة. ولا يدري ما وقع هذا الأمر عليهنّ؟ وماذا فعلت زوجته؟ هل عادت إلى القاهرة أو لا؟ وهل علم أهلها بما حصل أو لا؟ وكيف واجهت الموقف وحدها؟ لا بدّ أنها مهمومة بأمره، وبخاصّة أنه فارقتها بالملابس التي على جسده. إلى غير ذلك من التساؤلات الكثيرة التي كانت تشغل باله وتؤرقه في هذا الاعتقال دون الاعتقالات الماضية.

رابعاً: إن أقسى ما في هذا الاعتقال هو: الحبس الانفرادي، فقد كان السجن الحربي - على مرّاتِهِ وقسوته - يعيشون فيه مجموعات في داخل الزنازين: سبعة أو ثمانية. وكان في هذه الزحمة رحمة، وفي هذا التكسد إيناس لهم، وتحويل لما هم فيه من بلاء، حيث يأنس كلّ منهم بأخيه، ويتأسّى به، ويأخذ القوي بيد الضعيف، ويتعلّم كلّ منهم من إخوانه، فيصبر الخروع، ويتشجّع الجبان، ويرضى الساخط.^٣

لقد قال علماء الاجتماع المحدثون: إن الإنسان حيوان اجتماعي، وقال الأقدمون: الإنسان مدني بطبعه، أي لا يستطيع أن يعيش وحده، بل يحيا مع غيره في جماعة. لهذا كان السجن الانفرادي عقوبة في غلية القسوة، ولا سيّما إذا طال.

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٤٧٣

٢ القرآن الكريم، الزخرف (٤٣)، الآية [٣٩].

٣ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٤٧٤

المسألة الأربعون: قضاء الوقت مع التصبر والرضا في مبنى المخبرات المصرية

ومع قسوة هذه الفترة كان لا بد للإنسان أن يرضي نفسه بالواقع، وأن يتصبر ويروض نفسه على الصبر ليصبره الله، كما وعد بذلك الحديث الصحيح: كما ورد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «مَا يَكُنْ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ لَا أَذْخِرُهُ عَنْكُمْ، وَإِنَّهُ مَنْ يَسْتَعِفَّ يُعَفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَعِنْ يُعِنِهِ اللَّهُ، وَلَنْ تُعْطُوا عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»^١.

إن السخَطَ على الواقع لا يجلبُ على صاحبه إلا الشعور بِالْمَرَارَةِ والكآبة واليأس، وهذه آفات خطيرة تكدر على المرء عيشه، وتضيِّق عليه الأرض بما رُحِبَتْ. والمؤمن يرضى بما كتبه الله له، ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. وقد ورد: إن الله عزَّ وجلَّ يقيسُ عليه جعل الفَرْحِ وَالرَّوْحِ "راحة النفس" في الرضا واليقين، وجعل الغمَّ والحزن في السخط والشكَّ. ولا غرو أن أسلمَ القرضاوي زمامَهُ لله، وفَوَّضَ أمره إلى الله، وترك أمر أهله وعياله إلى ربِّ كريم لا ينسى أحدًا من خلقه، وقد عَوَّدَهُ سبحانه أن يجعل له من كلِّ عسرٍ يسرًا. ومن ضيقٍ فرجًا، ومن كلِّ محنةٍ منحة. وقد قال الله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٢١٦].^٢

وقد قال عمر رضي الله عنه: ما أصبت ببلاءٍ إلا وجدت لله عليَّ فيه أربع نِعَمٍ: أنه لم يكن في ديني، وأتته لم يكن أكبر منه، وأني لم أحرم الرضا به، وأني أرجو ثواب الله عليه!

وبهذا يُفَلِّسُ المؤمن المصيبة تنزل به، فيحوّلها إلى نعمة تستحقُّ الشكر لله، إذا نظر إليها من زوايا غير تلك التي ينظر منها عوام الناس. قال الشيخ القرضاوي: كنت أفضي وقتي في تالارة القرآن وذكر الله تعالى، أُزْطِبُ بهما لساني، وأُنَوِّرُ بهما قلبي، وأرضي بهما ربي.^٣

لم يكن معي مصحف، ولكنني كنت أحفظ القرآن جيّدًا بحمد الله وفضله، فلم أجد لي مؤنسًا في هذه الخلوة أفضل من كتاب الله، فهو الذي يقوِّيني إذا ضَعُفْتُ، وينبّهني إذا غَفَلْتُ، ويذكّرني إذا نسيت، ويملؤني ثقةً وأملًا بالغد، ويَطْرُدُ عني كلَّ شعور القنوط والإحباط، حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [٨٧].^٤

ثمّ طلب الشيخ القرضاوي من سَجَّانِهِ حين رآهم يحسنون المعاملة معه: أن يُوفِّرُوا له بعض الورق الأبيض مع قلمٍ ليكتب. وكان القوم كرامًا فلم يَضُنُّوا عليه بما طلب. وجاءوه بورق مسطور، وقلم رصاص، وشكرهم على حسن استجابتهم. وهكذا طَفِقَ يستفيد من وقته بالكتابة، ومنتفعًا بهذه الخلوة الإيجابية. فكتب شعرًا، وكتب نثرًا.

١ البخاري، **الجامع الصحيح للبخاري**، باب الصبر عن محارم الله، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ)، رقم الحديث: ٦٤٧٠، ج ٨، ص ٩٩. و الترمذي، **سنن الترمذي**، [تحقيق وتعليق: إبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف ج ٤، ٥]، باب ما جاء في الصبر، [مصر - شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م، رقم الحديث: ٢٠٢٤، ج ٤، ص ٣٧٣، [حكم الألباني : صحيح]. والسَّجَّانِي، أبو داود، **سنن أبي داود**، [المحقّق: محمد محيي الدين عبد الحميد]، باب في الاستغفار، (بيروت - المكتبة العصرية، صيدا)، رقم الحديث: ١٦٤٤، ج ٢، ص ١٢١، [حكم الألباني : صحيح].

٢ القرآن الكريم، البقرة (٢)، الآية [٢١٦].

٣ القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، **ابن القريّة والكتاب ملامح سيرة ومسيرة**، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٤٧٦

٤ القرآن الكريم، يوسف (١٢)، الآية [٨٧].

كتب ثلاث قصائد: **أولها**: في رثاء صديقه محمد الدمرداش الذي ودَّعه قبل اعتقاله بيومين. **وثانيها**: قصيدة غزلية في "بنت قنا". وبنت قنا هي "القلة القناوية" البيضاء الشهيرة ذات العنق الطويل. **والقصيدة الثالثة**: عنوانها "ثورة لاجئ" وقد نشرتها أكثر من مجلة وألقاها القرضاوي في ندوة شعرية في قطر.

كما كتب مقمّمة لبحثه عن الزكاة الذي أعدّه لرسالة الدكتوراه، وكان عن مشكلة الفقر، وكيف عاجلها الإسلام؟ ثم رأى بعد ذلك أن يطوره ويوسّعه ويفصله عن بحث الزكاة، وأصدره في كتاب مستقلّ.

المسألة الحادية والأربعون: الإفراج عن مبنى المخبرات المصرية

وما هي إلا أيام قليلة حتى عاد بسلامة الله. ثمّ نودي عليهما - هو وأحمد العسال - ليقابلا الضابط المسئول، والقرضاوي لا يعرف اسمه ولا رتبته. ولكنه قال لهما: سيُفرج عنكما الآن. ولا نريد أن يعرف أحدا أين كنتما. ولا ماذا قلتما وماذا قيل لكما. واعتبرا هذه الفترة إجازة إجبارية خاصة أخذتموها. ولم يقلا شيئاً، وخرجا من المكان الذي عرفا من قريب أنه مبنى المخبرات، وكان بعيداً عن العمران وسط المزارع، بمنطقة قصر القبة أو سراي القبة، وإن كان اليوم قد أحاط به العمران من كلّ جانب. وتعانق القرضاوي وأحمد العسال عنقاً حاراً، بعد أن غادرا باب المخبرات، وودّع كلاهما أخاه، لأنه سيأخذ مواصلة غير مواصلة القرضاوي. ولم يجد القرضاوي في جيبه غير خمسة قروش. على أية حال، حمد الله على القروش الخمسة، فهي تكفيه أجرة للأوتوبيس الذي يوصله إلى العباسية، ثمّ يركب ترام (٢١) من العباسية إلى منزلته "شبرا".^١

وفيها نقطة، وهي:

مُتَّهَمٌ فِي انْقِلَابٍ لَا يَعْرِفُ الْقِرْضَاوِي عَنْهُ شَيْئاً:

الأستاذ القرضاوي في الحقيقة لم تُوجَّه له تهمّة، ولا يعلم: لماذا أخذوه وحجزوه عندهم هذه المدّة؟ وكلّ ما سألوه عنه شخصان، لا يعلم عنهما شيئاً، ولا يعرف لهما جرماً، وهما: الأستاذ عبد العزيز كامل، والضابط محمود يونس، ولا يدري سرّ السؤال عنهما، ولا الربط بينهما.

وما هي إلا أيام حتى عرف من الناس التهمّة التي أُخِذَ بها، وهي شبهة المشاركة في انقلاب ديني الطابع، دبره بعض الضباط في الجيش، مع فئة من القيادات الدينيّة الصوفيّة، وعلى رأسهم: الدكتور حسن عباس زكي، وزير الاقتصاد السابق، والأستاذ عمر مرعي، رئيس مجلس الشعب، ومعهما الأستاذ عبد العزيز كامل، وقال الأستاذ عبد العزيز الشوربجي، المحامي المعروف: إن هذا الانقلاب لا وجود له إلا على ورقات تحمل مجرّد أفكار وتخيلات، لدى بعض الضباط!

ولم يثبت التحقيق على أيّ من هؤلاء ما أخذوا به، وقد أفرج عنهم جميعاً بعد ذلك دون أن يدانوا بشيء. أما تهمته هو والعسال - كما تخيلوها - فهي أنهم ممولون من الخليج للانقلاب المزعوم. وذلك لما لهم من صلة بالأستاذ عبد العزيز كامل، والضابط محمود يونس!!

قال القرضاوي: وكيف نكون ممولين، ونحن لا زلنا حديثي عهد بالخليج، فلم يمض أكثر من تسعة أشهر لي قطر، والعسال كان قلبي بسنة دراسية. فماذا عسى أن يكون لنا من مال نسهم به تمويل انقلاب؟! إنها الأوهام والخيالات التي يركض وراءها أحياناً رجال الاستخبارات، يحسبون السراب ماء، حتى إذا جاءوه لم يجدوه شيئاً.^٢

١ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٤٨٠

٢ المرجع السابق، ص ٤٨٤ - ٤٨٥

المسألة الثانية والأربعون: عودة الشيخ القرضاوي إلى مصر بعد انقطاع عن زيارتها

بعد انقطاعه عن زيارة مصر تسع سنوات «من سنة ١٩٦٤م إلى سنة ١٩٧٤م» وفي شهر يونيو ١٩٧٣م عاد الشيخ القرضاوي إلى مصر، ودخلها كما دخل سيدنا يعقوب عليه السلام وأولاده إخوة يوسف عليه السلام، حين قال لهم: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مَعِيَ إِنِّ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [٩٩].^١

ولم يسأله أحدٌ أيّ سؤال: لماذا غيبت هذه المُدَّة؟ أو نحو ذلك. ولم يستدعه أحدٌ من الداخليّة أو غيرها، ليوجّه إليه سؤالاً. وهو لم يُسأل، وظلّ هكذا طوال عهد الرئيس أنوار السادات، ولم يكن يقف في المطار، ولا يعوّقه عائق في السفر أو القدوم.

١ القرآن الكريم، يوسف (١٢)، الآية [٩٩].

المبحث الأول: أساتذة يوسف القرضاوي

من أساتذته في مراحل الدراسة المختلفة

أساتذته للكُتاب:

في منطقتيه الشيخ القرضاوي، كان كُتَّابُ الشيخ "يماني مراد"، وكُتَّابُ "الشيخ حامد أبو زويل". وقد ذهب القرضاوي أولاً إلى كُتَّابُ الشيخ "يماني مراد" بإغراء من أقاربه الذي كان من تلاميذ هذا الكُتَّاب. ولكنه انتسب إليه يوماً واحداً فقط. ولم يعد إليه بعد ذلك، وذلك لأنَّ الشيخ يماني ضرب التلاميذ جميعاً لتنشيطهم وكان بالطبع من المضروبين. فعزَّ عليه أن يضرب ظلماً وبلا سبب، وفي أوَّل قدمه، ورفض أن يعود إلى هذا الكُتَّاب مرَّةً أخرى.

* باعتبار هذا أن الشيخ "يماني مراد" كان أوَّل الأستاذ من أساتذته. وإنَّ انتسب الشيخ القرضاوي إليه يوماً واحداً فقط.
* والشيخ "حامد أبو زويل" هو الأستاذ الذي حفظ القرضاوي القرآن به، وكان عمره في ذلك الحين تسع سنوات وبضعة وأشهر.

أساتذته للمدرسة الإلزامية:

في السنة السابعة من عُمر القرضاوي، ضمَّ إلى الكُتَّاب: التعلُّم في المدرسة الإلزامية الحكومية، في قريته، وكانت تتبَّع في ذلك الوقت مجلس مديرية الغربية.

* كانت المدرسة تقع في حارته، وكان مُدرِّس المدرسة الشيخ "عبد الله زايد"^١. وكان شيخاً يلبس عِمامةً وجبَّةً، وقال له عمُّه: نريد أن يدخل ابننا المدرسة، والقرضاوي معه، فسأله الشيخ عبد الله: كم حفظت من القرآن؟ قال: وصلت إلى سورة الجنِّ. قال: حسن، تعال إلى غدا، وأدخلك المدرسة فوراً.

* وكان مدرس في الفصل الأوَّل اسمه الشيخ علي سليمان خليل^٢، كان يلبس لباس المشايخ الجبَّة والْقُطْفَانِ. معظم المدرِّسين كانوا من خريجي مدرسة المعلمين، وكانت تأخذ طلابها من حُقَاطِ القرآن. وقد رحَّب به الشيخ علي خليل، وما أسرع ما ظهر تَفَوُّقُهُ على تلاميذ الفصل، ولعلَّ دراسته السابقة في الكُتَّاب ساعدته على ذلك، وكان يسمِّاه "بيرنجي الفصل" أي أوَّل الفصل. ومعنى بيرنجي^٤: أي الشخص رقم (١) الأوَّل.

* وعندما انتقل من الفرقة الأولى إلى الفرقة الثانية وحصل على الإجازة للاستمتاع بحقِّ اللعب والرَّاحة فيها، وعادوا إلى المدرسة، كان مُدرِّسُهُم من أبناء القرية، وهو الأستاذ المريُّ الفاضل سعيد سليمان ثابت^٥، ابن شيخ معلِّم القرية الشيخ سليمان تائب أو ثابت. كان الأستاذ سعيد أو سعيد أفندي معلِّماً بفطرته وخبرته، وكانت بينهم وبينه مودَّة ومحبة، كان يُدرِّس لهم التاريخ والجغرافيا وعلم العلوم الشَّتِي. والصحَّة والحساب والإملاء والخَطِّ والمطالعة والمحفوظات. فلم يكن مدرِّس مادَّة إنما هو مدرِّس فصل أو صفِّ.

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٩٢ - ٩٣

٢ المرجع السابق، ص ١٠١

٣ المرجع السابق، ص ١٠٤

٤ اشتقاق هذه الكلمة أعني "بيرنجي"، فهي مأخوذة من كلمة "بير" أي رقم (١)، هنا المعنى: الشخص رقم (١)، في اللغة التركيبية.

٥ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (المرجع السابق، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ١٠٤

أساتذته للمعهد الابتدائي:

لعلم الفقه:

* في السنة الأولى كان يُدرّس لهم الفقه شيخ "حسن الطريقة"،^١ جيّد الشرح، يحاول أن يصل الفقه بالحياة، وأن يضرب المثل من الواقع، وكان يجذبهم بطريقته إلى فهم الموضوع جذبا. وبخاصّة أنّه كان يُدرّس لهم "فقه العبادات" أي فقه الطهارة، وفقه الصلاة، وفقه الصيام، من كتاب "نور الإيضاح" في الفقه الحنفي. وموضوع العبادات متّصل بحياة الناس وواقعهم المعيش. هو الشيخ "محمد الشناوي" من "محلة روح" بجوار قريته.

لعلم النحو والصرف:

* كان مدرسو النحو والصرف من أحبّ المدرّسين إلى قلبه، ابتداء من الشيخ "محمد شعت" درّس السنة الأولى، إلى صهره الشيخ "رجب زبادي" مدرّسي في السنة الثانية.

* وكان يدرّس علم النحو والصرف في السنة الثالثة لهم مدرّس مجتهد نشيط يشدّ الطلاب إليه بحسن طريقته وسهولة إيضاحه، وهو الشيخ "مصطفى غبارة"، من أبناء مركز طنطا، وكان يحبّ القرضاوي ويعتّزه.^٢

لمادّة "المحفوظات":

* في السنة الثانية تعرّف القرضاوي على أستاذ جليل الشيخ الداعيّة المربي "البهي الخولي"، خرّيج دار العلوم، وزميل الأستاذ "حسن البناء". كان يدرّسهم مادة^٣ "المحفوظات" وكانت هذه الحصّة حصّة للراحة لمن يأخذها من المدرّسين، ولكنّ هذا الأستاذ حول هذه الحصّة إلى محفوظات حقيقة، في كلّ أسبوع يختار لهم قطعة من النثر أو الشعر ليحفظوها ويسوقهم بالترغيب والترهيب لحفظها. مثلا: أوّل قطعة طلب منهم حفظها، وكتبها لهم على السبورة، كانت من أدب المنفلوطي، ومن موضوع "الرحمة" في كتابه (النظرات):

أرحم الحيوان، فإنّه يحسُّ كما تحسُّ، ويتألّم كما تتألّم، ويكيّ بغير دموع ويتوجع ولا يكاد يبين.

كما أعطاهم فرات من قصيدة حافظ إبراهيم (العمرية) وقد كان مزهوّا، وكان يشرحها لهم شرح المتيم بشخصيّة عمر ومواقفه وروائعه.

وهكذا كانت دروس المحفوظات دروسا في الأدب والتربيّة والسلوك.

لعلم الرياضيات والهندسة والجبر:

* كان يدرّس أحد الشيوخ الرياضيات والهندسة والجبر لهم في السنة الرابعة، وهو نابغة في الرياضيات وهو الشيخ "عبد الوهاب غانم".

١ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ١٥٨

٢ المرجع السابق، ص ١٤٦ - ١٤٧

٣ المرجع السابق، ص ١٣٥

لِعِلْمِ الْجغرافيا:

* كان يُدَرِّسُهُمْ علم الجغرافيا الأستاذ "البهي الخولي"،^١ في المرحلة الثانوية للمعهد الابتدائي، وكان شديداً جداً في المحاسبة على ما يُكَلِّفُهُمْ بِهِ، ولم يكن القرضاوي يُحِبُّ الجغرافيا لسببين:
الأول: وهو لم يكن مُحَسِّنًا رسم الخرائط.

والثاني: أنه يقوم على حفظ أسماء البلدان والمواقع ونحوها، ولم يكن رَاعِيًا عن حفظ ما لا يشعر بحاجة إلى حفظه. وكان الشيخ البهي هو المسؤول عن نشر الدعوة في مديرية الغربية، أو بتعبير الإخوان.

أساتذته للمرحلة الثانوية:

كان معظم أساتذته في المرحلة الثانوية رجالا فضلاء طيبين تقليديين، لم يستطع أكثرهم أن يترك في نفسي أثرا ملموسا، أو موقفا أو عمليا، لا يوجد أسماءهم إلا القليل، رحم الله الجميع وغفر لهم.

* جاء الشيخ "محمد متولي الشعراوي" إلى معهد طنطا الثانوي، والقرضاوي في القسم الابتدائي، واستمرّ يدرس فيه "علم البلاغة" لطلاب الثانوي، إلى وصل إلى السنة الرابعة الثانوية، التي يدرس فيها الشيخ البلاغة من كتاب "تهذيب السعد" قسم علم المعاني.^٢

وكان "الشيخ الشعراوي" مدرّسا ناجحا تماما، متمكنا من مادّته، حسن التعبير عن مراده، محترما من الطلاب، قادرا على ضبط الفصل، فقد كان رجلا ملتزما بشعائر الدين، محافظا على الصلوات في أوقاتها، يتحرك يمنة ويسرة أثناء شرحه، أشبه ما يكون بطريقته في دروس التفسير التي شهدتها الناس منه في حلقات التلّفة. وقد كان "الشيخ الشعراوي" في تلك الفترة من حياته بالشعر والأدب، ولم يكن معروفا بالدعوة الدينية لدى كل من عرفه.

* وكان يرّس في السنة الخامسة الفقه الحنفي مدرّس كفاء وإن كان مكفوف البصر، وهو الشيخ "محمود الدفتار"، وهو من آل الدفتار، وهم أسرة معروفة بالانتساب إلى المذهب الحنفي، والاعتزاز به.

وهو كان من أحباب السيد "أحمد البدوي" والمدافعين عنه، وقد اجترأ القرضاوي مرة، فناقشه في أن الأضرحة التي تقام للأولياء ويدفنون فيها، ليست على منهج السنة، وأن النبي صلى الله عليه وسلم نهي عن الصلاة إلى القبور، والصلاة عليها، كما نهي عن إضائها وإيقاد السرج عليها، ولعن من اتخذ قبور الأنبياء مساجد.

* وكان يدرّسهم "الشيخ المنوفي" مادة "تاريخ الأدب العربي"، وهو زميل وصديق الشيخ "محمد متولي الشعراوي". - رحمهم الله تعالى!^٣

* وقد كان الذي يدرّسهم مادة "العروض والقافية" في السنة الأولى والثانية، هو الشيخ "أمين الدفتار"، وكان يختار أمثله من شعر الصوفية الذي ينزع المنزع، فهو يمثل لهم عن بحر (الكامل) بقول الشاعر: لذ بالمقام الأحمدى وقل: مدد يا سيّد الأقطاب يا نعم السيّد!

١ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ١٤٧

٢ المرجع السابق، ص ١٧٨

٣ المرجع السابق، ص ١٧٩

وكان لا يقبل أيّ مناقشة حول هذه القضية، وكان يذهب كلّ ليلة ليجلس في مقام "السيد البدوي" ما بين المغرب والعشاء، لا يكاد ينقطع عن ذلك إلا لسبب.

* الشيخ عبد الجليل عيسى، وهو العالم الأزهرى البَحَّاثُ، مؤلّف كتاب "صفوة صحيح البخاري" الذي كان مقرّرًا على الطلاب في المرحلة الثانويّة، وكتاب "اجتهاد نبي الإسلام"، وكتاب "ما لا يجوز الخلاف فيه بين المسلمين"، و "تيسير التفسير"، وغيرها.^١

* الشيخ الحسيني سلطان، الذي كان أستاذًا لمعهد طنطا.

شيخ كان يتمني القرضاوي أن يُدرّسه:

وقد كان في معهد طنطا شيخوخ مبرّزون في علمهم وطريقة تدريسهم، كانت لهم شهرة واسعة، وسمعة حسنة بين طلابهم، يوسف القرضاوي تمخّي أن يكون تلميذا لهم ولو في سنة واحدة من السنوات الدّراسة الخمسة، ولكنّه لم يحظّ ذلك.

* من هؤلاء: "الشيخ عبد الباسط سليم" الذي كان يدرّس الفقه الحنفيّ، يطريقة حيّة يجذب الطلاب إليه، وتحبيب إليهم الفقه على جفافه. وكان يحدث عنه زميله معه في السكن "كمال عبد المجيد المصري". ولكن القدر لم يُخّ له هذه الفرصة.

* "الشيخ فوزي خشبة" مدرّس الأدب العربيّ المحبوب من طلبته، وذو التأثير القويّ فيهم، والذي كان يقارن بأساتذة الأدب العربيّ في الكليات الجامعيّة، وكان رجلا جادًا مهيبًا رغم لطفه ودمائته، وذا عبارات ساخرة يحفظها طلابه، وكان يهتم بمادّة "الإنشاء" ويدفع طلابه دفعا إلى إتقان الكتابة، والتفنن فيها.

ولكن "الشيخ خشبة" رجل ملتزم لا يسمح لنفسه إلا أن يعطي كلّ شيء حقّه، فهذه مسؤوليّة أمام ربّه، وأمام ضميره.^٢

تغيّر مشيخة المعهد وإدارته:

بعد مُظاهرة وحركة طلاب المعاهد وإضرابهم عن الدّراسة، قد تغيّرت مشيخة المعهد وإدارته؛ فذهب الشيخ "عبد الحفيظ الدفتار" المحسوب على حكومة الوفد، وجاء الشيخ "محمد الجهني" شيخا للمعهد. وكان شيوخ المعاهد في ذلك الزمن لهم مهابة في صدور الناس. وقرّت أعين الطلاب بالجوّ الجديد.

من أساتذته في الكليّة:

كان يُدرّسُهُم عدد من الأساتذة بعضهم من خريجي (تخصّص المادّة) أو حملة (العالميّة من درجة أستاذ) وأكثرهم من مشايخ الأزهر القداماء.

* وكان من الأوّلين الأستاذ الشيخ محمّد بيسار، (الذي عيّن شيخا للأزهر فيما بعد)، الذي كان يدرّسهم علم التوحيد في كتاب (العقائد النسفيّة) وهو كتاب قديم مصوغ صياغة مركّزة على مذهب الأشاعرة، وقد شرّحه علامة عصره سعد الدين التفتازاني، ثم وُضِعَتْ عليه حاشيتان: حاشية للخيالي، وحاشية أخرى للعصام الإسفراييني.

ظلّ الشيخ بيسار عدّة أسابيع يشرح لهم الجملة الأولى من العقائد النسفيّة، وهي: قال أهل الحقّ: حقائق الأشياء ثابتة، والعلم بما متحقّق، خلافاً للسُّوفسطائيّة.

* الشيخ محمّد أمين أبو الروس، الذي درّسه "التفسير".

١ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٢٠٤

٢ المرجع السابق، ص ١٨٣

* الشيخان محمد أحمدين، وعبد الحميد الشاذلي، درّساه "الحديث".

* الشيخ صالح شرف والعيسوي، ومحمد يوسف الشيخ والشافعي والظاهري درّسوه "التوحيد".

* الشيخ عبد الفتاح شحاته ومحمود فياض وأبو زيد شَلبي، درّسوه "التاريخ".^١

* الشيخ أبو بكر ذكري درّسه "النظريات الأخلاقية".

* الشيخ منصور رجب درّسه "علم الأخلاق".

* الدكتور محمد غلاب درّسه "الفلسفة الشرقية واليونانية".

* الدكتور عبد الحلیم محمود درّسه "الفلسفة الإسلامية والحديثة". وكان من أبرز من درّسه، فقد درّسه في السنة الثالثة:

"الفلسفة الإسلامية" وقد اختار لهم كتاب الدكتور إبراهيم بيومي مذكور: "الفلسفة الإسلامية: منهج وتطبيقه" ليكون موضوع دراستهم، كما درّس لهم فضلا من كتاب "الإشارات والتنبيهات" لابن سينا، يتعلّق بالتصوّف.

كما درّسهم في السنة الرابعة: فصولا في التصوّف في ضوء "المنقذ من الضلال" للغزالي، كما أعطاهم فكرة عن فلسفة الأندلس،

في ضوء "قصة حي بن يقظان لابن طفيل"، بالإضافة إلى نظرات في الفلسفة الحديثة، التي درّسهم فصولا منها في "النظريات الأخلاقية".

وكان الدكتور عبد الحلیم في تلك الآونة، يلبس الحُلَّة (بذلة) الإفريقية، كما كان حليق اللحية، ولكنه كان رجلا مُتصوّفاً، فكرا

وعاطفة وعملا، وكان لا يهتمُّ بالمظاهر لا في نفسه ولا في بيته. فكان بيته متواضعا في أثائه وفراشه، لا يليق برجل تخرّج من فرُنسا.

وكان كثير الصمت، لا يتكلّم إلا قليلا، وقد عيّن بعد ذلك عميدا لكلية أصول الدين، ثم وزيرا للأوقاف، ثم شيخا للأزهر، وكان من

أبرز شيوخ الأزهر، الذين لهم مواقف تدكّر، وإن أخذ بعض الناس عليه - والقرضاوي منهم - في تصوّفه ما أخذوا مما قد يُعدُّ من

الغلو يغفر الله له ولنا معه، ومَنْ ذا الذي أجمع عليه الناس؟

* الشيخ الطيّب النجار درّسه "أصول الفقه".

* الدكتور جمال الدين درّسه "علم النفس".

* الشيخ علي الغرابي درّسه "الفرق الإسلامية".^٢

وكان لبعضهم طرائف في حياتهم يَحْكِيهَا لهم، توثيقا للصلة بين الشيخ وتلامذته، مثل ما حكاها لهم الشيخ أبو الروس: أنه تزوّج

مبكرًا، وكان يدرّسون، وهو يدرّس أيضًا، فكلّهم طلبة، يقول الشيخ: فقد تكون النتيجة في بعض الأحيان أن أُرْسَب أنا وينجح

الأولاد، وأحيانًا يعرف زملاؤهم ذلك فيقولون معبرين لهم: يا أولاد الساقط!

ومما حكاها لهم أنه كان يكره مادّة الفلسفة ولا يطيقها، فرسب فيها وحدها مرّة، إذ لم يحصل على النهاية الصغرى، ولم يكن هناك

دور ثان، وكان الذي يرْسَب في مادّة يُعيد السنته كلّها من أجلها.

* الأستاذ الشيخ محمد يوسف، الأستاذ بكلية أصول الدين، وأستاذ العقيدة وعلم الكلام والمنطق، الذي كانت شهرته في

التدريس في الكلية.

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (فطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٤٠٩

٢ المرجع السابق، نفس الصفحة

من أساتذته بعد المرحلة الجامعية:

* كان يدرّس "التربية العملية" الأستاذ الدكتور **محمد قدرى لطفى**، وكان من أعلام التربية العملية في تدريس اللغة العربية، وله مؤلفات في ذلك، وفي أواخر الفصل الدراسي يأخذ طلبته (القرضاي) إلى المدارس الحكومية، ليلقي كل منهم درساً نموذجياً يختاره ويحضره، ثم يلقيه أمام الأستاذ وأمام زملائه، وفي اليوم الواحد يحضرون عدّة دروس، ثم يجتمعون مع الأستاذ في جلسة خاصة للنقد والتقويم، وتعطى الفرصة أولاً للطلاب ليقوموا بعمل زميلهم، ويبدوا ملاحظاتهم عليه، ثم يبدأ الأستاذ.

* ومن أهم ما استفد القرضاي في تخصص التدريس: أن كان من أساتذته فيه الشيخ الدكتور العلامة **محمد عبد الله دراز**، الذي كان يدرّسهم "علم الأخلاق". وكان يتدقّق في معارفه كأنما يعرّف من بحر، ويهّج سامعه كأن كلامه السحر. ويشرح الدقائق فيجليها، والغوامض فيكشف عن خوافيها، ويبين عن معانيها، وحصل بالعلوم الإنسانية العصرية على الدكتوراه، وقدم فيها أكثر رسالة، وبخاصة رسالته الدكتوراه "دستور الأخلاق في القرآن الكريم" لقد كان القرضاي يستمع إليه، وهو مُعجب ومتابع. وكان الشيخ دراز علماً من أعلام الفكر، وإماماً من أئمة الدين، وبحراً من بحور العلم والثقافة، جمع حقاً بين الأصالة والمعاصرة. وكان الشيخ متمسكاً بزِيّه الأزهرى الأصلى، بجبته وعمامة، وكان صبيح الوجه، يتلأأ نورا وإشراقاً لكل من يراه، وتبدو عليه ملامح الربانية.

من أساتذته في مرحلة الدراسات العليا:

* كان يدرّسهم مادة "القومية العربية" وهي مادة أساسية في المعهد: أبو القومية العربية المعروف: الأستاذ **ساطع الحصري**. الذي كان هذا المعهد من ثمره سعيه وجهده. الذي درّس لهم نظريات القومية المختلفة لدى الأوروبيين، وأهمها: النظرية التي تقوم على اللغة والتاريخ. كما درّس لهم "البلاد العربية" وعلاقتها بالدولة العثمانية.

* وكذلك **الأمير مصطفى الشهابي** الذي حاضرهم في الفصل الثاني عن "الاستعمار" وأهدافه وآثاره في البلاد العربية.

* كما درّس لهم الشيخ **أمين الخولي** "قضايا لغوية"، وهو أزهري محافظ على جبته وعمامته، ولكنه يميّز بعقل ناقد، ولكنه كثيراً ما كان يبالغ في النقد، ويتحدّى العلماء وإن أجمعوا.

* وكان من أساتذتهم: الدكتور **محمد مندور**، الذي درّسهم طوأل الفصول الأربعة التي قضوها في المعهد: الشعر المصري بعد شوقي. وجماعة "أبو لولو". والدكتور **محمد مندور** أحد النقاد الأدبيين المعروفين، وله في ذلك أكثر من كتب.

* ومنهم: الأديب الناقد الكبير الدكتور **عبد القادر القط**، الذي درّس لهم القصة المصرية، ابتداءً "زينب" قصة الدكتور محمد حسين هيكل.

* ومنهم: الدكتور **محمد النويهي**، الذي درّس لهم فلسفة النقد الأدبي، وعلاقة النقد بالقيم الأخلاقية، ومدى التزام الفنان بالأخلاق، كما درّس لهم "الاتجاهات الشعرية في السودان".

* ومنهم: "الأستاذ الدكتور **ناصر الدين الأسد**، الذي درّس لهم: الاتجاهات الأدبية في فلسطين والأردن."

* ومنهم: "الأستاذ **جميل صليبا**، الذي درّس لهم: "الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام."

* ومنهم: "الأستاذ **سامي الكيالي**، الذي درّس لهم: "النهضة الأدبية في حلب."

* وكان الدكتور **الحسيني** رئيس القسم نفسه يدرّس لهم "النهضة الأدبية في فلسطين"، مركزاً على عالَمين كانا متعاصرين من أعلام الأدب والنقد، وهما: إسعاف النشاشيبي، وخليل السكاكيني. وكان أولها أميل إلى مخاطبة القلب، والآخر أميل إلى مخاطبة العقل.

* كان الذي يدرّس لهم التفسير: هو أستاذهم **الشيخ أحمد علي**، وهو كان أستاذهم في الكلية من قبل.

* والذي يدرّسهم علوم القرآن: هو أستاذهم الدكتور أبو شهبه.

* والذي يدرّسهم الحديث: هو شيخهم **محمد عليّ أحمددين**، وكان أستاذه في الكلية.

* وكان الذي يدرّسهم مصطلح الحديث: هو أستاذهم **الشيخ السماحي**. وكان الكتاب المقرّر: هو "تدريب الراوي على تقريب

النواوي" للحافظ السيوطي، وهو من خيرة الكتب في بابه.

* فضيلة **الشيخ صالح شرف**، وهو كان السكرتير العام للمعاهد الدينيّة، وكان عالماً فاضلاً أيضاً، وهو الرجل الثالث في الأزهر

بعد شيخ الأزهر ووكيل الأزهر. وهو درّس القضاوي علم التوحيد.

من أساتذته في مرحلة الدكتوراه:

* قد عيّنت إدارة كليّة أصول الدين لجامعة الأزهر مشرفاً فضيلة الأستاذ **الشيخ أحمد عليّ** على رسالة القضاوي لأوّل مرّة، ثمّ

عيّنت الإدارة فضيلة الأستاذ **الشيخ محمد أمين أبي الروس** مشرفاً جديداً لمرة ثانية، ليشرّف عليها، بعد وفاة مشرفه الأوّل، وهو كان

من أساتذة الكلية أستاذ التفسير وعلوم القرآن، الذي درّسه مقرّر التفسير في أكثر من سنة.^١

ولكن شاء الله أن ينتقل الشيخ أبو الروس إلى رحمة الله تعالى، قبل أن يكمل القضاوي المشوار معه، مع ما لمسته فيه من جديدة

وإيجابية. وهذا هو حظّه!^٢

* ثمّ كان على الكلية أن تختار لرسالة القضاوي مشرفاً آخر، يحل محلّ الشيخ أبي الروس، فاخترت في هذه المرة أستاذاً من أساتذة

الحديث، فالقسم الذي سجّل القضاوي فيه: يشمل التفسير والحديث معاً، ذلكم هو فضيلة الأستاذ **الشيخ عبد الوهاب البحيري** رحمه

الله.^٣ ثمّ سافر القضاوي إلى قطر، ثمّ عرف بعد فترة قصيرة: أن الشيخ البحيري أعير إلى العراق، ليدرّس الحديث في إحدى جامعات

بغداد، ومعنى هذا: أنه لم يعد قادراً على الإشراف على رسالته! ولا بدّ لإدارة الكلية أن تبحث عن مشرف جديد.^٤ حتى لم يستطع

القضاوي أن يُكْمِلَ الدكتوراه لعقبات طارئة في ذلك الوقت.

* وأخيراً وقّعه الله لحصولها، وكان رئيس للجنة الدكتوراه هو العلامة **الشيخ محمد علي السائيس**. وعضو بجمّع البحوث

الإسلاميّة، وعميد كليّة أصول الدين من قبل.

* وكان عضواً للجنة الدكتوراه أستاذه الدكتور **عوض الله حجازي**، عميد كليّة أصول الدين وقتئذ.

* وعيّن الشيخ القضاوي أحدَ شيوخه الفضلاء مُشرفاً هو **الشيخ الدكتور عبد الرحمن عثمان**، أستاذ التفسير المساعد الكلية.

وانعقدت مناقشة حصول الدرجة الدكتوراه ٢٣ يوليو، في السنة ١٩٧٣ م.

شيوخه في جماعة إخوان المسلمين:

* الأستاذ **الشيخ حسن البنا** رحمه الله

* الأستاذ **سيد قطب** رحمه الله

١ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٥٣١

٢ المرجع السابق، ص ٥٣٣

٣ المرجع السابق، نفس الصفحة

٤ المرجع السابق، ص ٥٣٦

* الشيخ محمد الغزالي رحمه الله

* الشيخ سيد سابق رحمه الله

* الشيخ البهي الخولي رحمه الله

تبع النشاط الثقافي في القاهرة باعتبار شيوخه:

الشيخ القرضاوي وزملاءه كانوا يتبعون النشاط الثقافي في القاهرة ويبحثون عنه ليغترفوا من معينه حيثما وجدوه، ليتعلموا من شيوخ العلم ، ورواد الفكر، ما وجدوا إلى ذلك سبيلا. وكان من الموارد العذبة التي ازدحم عليها المُصَاد في تلك الفترة: محاضرات "دار الحكمة" في تفسير القرآن الكريم. وكان الذي يقوم بهذه المحاضرات أربعة من رجال العلم المشاهير في ذلك الوقت.

* أولهم: الفقيه المفسر الشهير الشيخ محمود شلتوت (شيخ الأزهر الأسبق).

* والثاني: الفقيه المفسر المعروف الأستاذ الشيخ عبد الوهاب خلاف، وكان أستاذ الشريعة الإسلامية في كلية الحقوق.

* والثالث: الأستاذ عبد الوهاب حموده، وكان أستاذ اللغة العربية بكلية الآداب.

* والرابع: نسي الشيخ القرضاوي اسمه^١.

وكان الشيخ القرضاوي يعتبر هؤلاء الشيوخ خاصة وأخذ عنهم واقتبس منهم.

١ القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، كل مأخوذة ما في ص

المبحث الثاني: تلاميذه المشهورون

* قد ناقش القرضاوي في معهد الدراسات الإسلامية المعروف بـ "معهد الباقوري" رسالة ماجستير في الاقتصاد الإسلامي قدّمها الطالب النابه **محمد عبد الحكيم زعيم** - المراقب الشرعيّ الآن لبنك دبي الإسلامي - وكان القرضاوي مع الأستاذ الدكتور عيسى عبده إبراهيم، رئيس لجنة المناقشة، والزميل الكريم الأستاذ الدكتور حسين حامد حسان. وهذا يدلّ على أن محمد عبد الحكيم زعيم أحد طلاب الشيخ القرضاوي.

* شارك الشيخ القرضاوي في السنة الدراسية ١٩٩٠م - ١٩٩١م التي بقي في قسنطينة الواقعة في الجزائر: وهنا ساهم الشيخ القرضاوي عُضْوًا في مناقشة رسالة طالب جامعة الجزائر للماجستير في علم الفقه، وكانت في فقه الأسرة والأحوال الشخصية، وحول ضرب المرأة آثاره، وأنه مما يستوجب التفريق بينها وبين زوجها إذا ضربها بغير مُبَرَّرٍ، أو تجاوز الحدّ في ضربها، إلى غير ذلك من ألوان الإهانات للمرأة، ولو بالكلمة.

وكانت الرسالة موثقة بالنقل من كتب الفقه المتقدمة والمتأخّرة. وقد سرّ الشيخ القرضاوي بالرسالة وأثنى على الطالب. وكان اسم الطالب **عبد الباقي**، الذي استكمل الدكتوراه بعدها.^١

- * الشيخ عصام تليمة
- * عتيق ناصر البدر، الذي صار سفير بوزارة الخارجية.
- * موسى زينل موسى، الذي صار مدير إدارة الثقافة والفنون.
- * أحمد عبد الله عسكر، من خور فكان.
- * محمد عبد الرحمن البكر، من رأس الخيمة.
- * محمود هزاع، من اليمن.
- * الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله تركي، الذي صار بعد ذلك وزير التربية والتعليم لدولة قطر.
- * محمد سالم الكواري من قطر، الذي صار بعد ذلك سفراء أو وزراء.
- * محمد عبد الرحمن البكر من الإمارات، الذي صار بعد ذلك وزراء أو سفراء .
- * الدكتور عبد العزيز الكواري، الذي صار وزير الإعلام والثقافة لدولة قطر.
- * الأستاذ أحمد عبد الله المحمود، الذي صار وزير الدولة للشؤون الخارجية لدولة قطر .
- * اللواء حمد بن عبد الله بن قاسم آل ثاني، الذي صار وزير الدولة لشؤون الدفاع لدولة قطر.
- * الشيخ عبد الرحمن عبد الله المحمود، هو الذي كان رئيس المحاكم الشرعية والشؤون الدينيّة لدولة قطر.
- * الشيخ محمد بن عيد آل ثاني، الذي صار رئيس الهيئة العامّة للشباب والرياضة لدولة قطر.
- * الدكتور محمد عبد الرحيم كافور.

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٦٣٩

■ كان عدد من السفراء من طلاب الأستاذ القرضاوي: جدير بالذكر منهم الأساتذة:

* محمد سالم الكواري

* عتيق ناصر البدر

* أحمد غانم الرميحي

* عبد الله طالب المري

* حسن إبراهيم التميمي

■ منهم عدد من الملحقين والمستشارين في شتى السفارات. وعدد من القيادات في الوزارات المختلفة:

* العميد مقرن هجرس العتيق في القوات المسلحة.

* ويوسف عبد الرحمن الملا

* ومحمد عبد الله الأنصاري

* وعبد الرحمن عبد الله المولوي، هو الذي كان في وزارة التربية.

■ في الجامعة:

* الدكتور عبد الحميد إسماعيل الأنصاوي

* والدكتور علي محمد يوسف المحمدي

* والدكتور عبد العزيز عبد الرحمن كمال

* والدكتور مصطفى عقيل الخطيب

* والدكتور عبد الرحمن الدرهم

■ في وزارة الإعلام ثم الأوقاف:

* مانع عبد الهادي

* ويوسف عبد الرحمن المظفر

■ في رعاية الشباب:

* محمد فرج قاسم

■ طلابه في الإمارات المتحدة، فقد كانوا من أبناء المعهد:

* الدكتور محمد عبد الرحمن البكر (وزير العدل والشئون الإسلامية بعد)

* الدكتور سعيد عبد الله سلمان (وزير التربية والتعليم والتعليم العالي)

* الأستاذ شبيب عبد الله المرزوقي، الذي كان الأمين العام لجامعة الإمارات.

■ الأساتذة: الذين انتسبوا أنفسهم إلى مهنة المعلم.

* ماجد الخزرجي

* وخليفة سيف

* وأحمد ناصر النعيمي

* وصقر المري

* وجمعة بطي

■ طلابه من بلاد الهند:

* الشاب الهندي اللامع محمد سليم

* محمد علي

■ الطلاب المتفوقون من شباب الهند بعد ذلك في جامعة قطر، في كلية الشريعة مثل الشاب النابه:

* عبد الغفار عزيز، أحد مساعدي أمير الجماعة الإسلامية في لاهور، وسيما فيما يتعلق بالعرب والعروبة والعربية.

* وكذلك في كلية اللغة العربية، مثل: الطالب اللامع: علي باوتي

* والطالب النابه: عبد الله كنهاين

* عصمت عبد الرحمن

* النجيب فريد شكري

* محمد صائب، من أحد تلاميذه الجزائريين.

مُؤَلَّفَاتُ الأُسْتَاذِ الدُّكْتُورِ يُوْسُفِ القُرْضَاوِي:

قال الشيخ القرضاوي: 'المكتبات كالإنسان، تحتاج إلى زاد مستمر، حتى تحيا وتنمو.'

أَسْئَلَةُ مَهْمَةً مِنْ أَسَاتِذَةِ الْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِكُوَالَا لَامْبُورِ إِلَى القُرْضَاوِي:

وجّه بعض الناشطين من أساتذة الجامعة إلى الشيخ القرضاوي أسئلة مَهْمَةً، وكان هذا في سنة ١٩٨٥م عند زيارته الجامعة الإسلامية بكوالا لامبور، اطّلع علينا شَخْصِيَّتُهُ البارزة والمحمودة بإجابته هؤلاء الأسئلة. وكان منها:

السؤال الأول: كيف تؤلّف؟ وما سرّ غزارة الإنتاج مع انشغال الوقت؟

وكانت خلاصة سؤالهم الأول: أننا نراك رجلاً متعدّد النشاط، كثير الأسفار، ونكاد نرى مؤتمراً إسلامياً أو عالمياً يتصل بالإسلام وثقافته ودعوته وأمته، إلا ونراك حاضراً مؤثراً فيه، ولا تكاد تعقد ندوة فكرية ولا حلقة علمية إلا شاركت فيها، عدا الأنشطة الخيرية والإنسانية والاجتماعية التي تتحمّل مسؤوليتها، مع هذا نرى لك هذا الإنتاج العلميّ الغزير، الذي يميّز بالأصالة والشمول والتنوع والمعاصرة، والعلمية، في شتى جوانب الثقافة الإسلامية: في الفقه وأصوله، في العقيدة والدعوة وفي القرآن والسنة، وفي الاقتصاد الإسلاميّ، في ترشيد الصحوة الإسلامية والحركة الإسلامية، وفي الإسلاميات العامة وقضايا الفقه المعاصر، وفي الردّ على خصوم الإسلام من كلّ لون... ونحن أكاديميون مثلك، وليس لنا مثل مشغولياتك ومسؤوليتك، وإذا ألّف الواحد منا أربعة كتب أو خمسة، يعتبر نفسه قد أنجز شيئاً مهمّاً، وأنت أصدرت كثيراً من الكتب، بعضها موسوعات!!

السؤال الثاني: وسؤالهم أيضاً: من أين لك الوقت الذي يتسع لكلّ هذا الإنتاج؟ كلنا يحتاج إلى معرفة الجواب؟

إجابة الشيخ القرضاوي: توفيق الله وعونه

قال الشيخ القرضاوي للسائل وإخوانه: أول ما يجب به المسلم في مثل هذا المقام هو ردّ الفضل إلى صاحب الفضل الأول، وهو الله عزّ وجلّ، فهو الذي يمدّ الإنسان بتوفيقه، ويؤيّد بروح منه، ويشرح له صدره، ويسر له أمره، ولهذا قال شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [٨٨].^١ ولهذا أيضاً دعا سيّدنا موسى عليه السلام ربّه حينما وجهه إلى فرعون: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [٢٥] ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ [٢٦] ﴿وَاجْلُزْ عُنُقَهُ مِنْ لَسَانِي﴾ [٢٧] ﴿يَقْفُوهَا قَوْلِي﴾ [٢٨].^٢ فطلب من ربّه هذه الأمر التي تعينه على أداء مهمّته الصعبة.

البركة في الوقت والاستخدام الأمثل للنعم والمواهب والقدرات:

وهناك أسباب أخرى متفرّعة من هذا السبب، وهو ما سمّيته "البركة"؛ فإن الله تعالى قد يبارك في القليل، فيصبح كثيراً، وبارك في الضعيف فيصبح قوياً... قد يعيش بعضهم مائة عام، ولكن لا بركة فيها، ولا أثر له في هذا العمر ينفع الناس، وقد يعيش بعضهم عمراً أقصر، فيبارك الله فيه، وينتفع الناس منه بما لا ينتفعون من المعمّرين. مثلاً: عمر بن عبد العزيز، وقد ولي الخلافة ثلاثين شهراً، فبارك الله فيها، ونفع المسلمين بها، وما مات حتّى قالوا: أغنى عمر بن عبد العزيز الناس.

١ القرآن الكريم، هود (١١)، الآية [٨٨].

٢ القرآن الكريم، طه (٢٠)، الآيات [٢٨ - ٢٥].

ومثلاً: الإمام النووي، وقد عاش نحو خمسة وأربعين عاماً ترك فيها من الآثار في الفقه والحديث والتاريخ ما نفع الناس من بعده قروناً إلى اليوم، من "الأربعين النووية" إلى "المنهاج"، على "المجموع". والبركة إذا عبرنا عنها بمفاهيم عصرنا، قلنا: إنها الاستخدام الأمثل للنعم والمواهب والقدرات، بحيث تعطي أفضل إنتاج في أحصر زمن ممكن.

المثابرة والاستمرار في العمل:

ثمّ هناك سبب آخر، وهو المثابرة والاستمرار في العمل، فكان الشيخ القرضاوي في الحقيقة لا يأخذ إجازة، هو يعمل صيفاً وشتاءً، ويعمل صباحاً ومساءً، ويعمل أيام الجمع والإجازات الأسبوعية، وكذلك الإجازات السنوية، وأحياناً تؤزّقه الفكرة وتسيطر عليه، فتطير النوم من أجفانه، فيجده مضطرب للقيام من سريره ليذهب إلى مكتبه.^١

الكتابة في أسفاره:

وفي أسفاره، كان يكتب في المطارات حين انتقل من طائرة إلى أخرى، ويكون هناك فرق زمنه قد يكون عدّة ساعات، فينتهز الفرصة ويكتب، ويكتب في الطائرة، وخصوصاً في المسافات والطويلة، كالسفر إلى أوروبا وأمريكا والشرق الأقصى، وإفريقيا، وغيرها.

وفي ذات مرّة أنه كان مسافراً من القاهرة إلى لندن، وكان معه على الطائرة في الدرجة الأولى صديقه العالم الباحث الداعية المريّ المعروف: الدكتور عز الدين إبراهيم. وكان كلّما مر به ذاهباً إلى الحمّام: وجده يكتب، وأخيراً سأله: ماذا تكتب يا شيخ يوسف؟ قال له: أكتب علماً، أولّف يا دكتور!

قال: تكتب علماً تؤلف بلا مراجع؟!

قال: نعم، من المخزون، ومن التأملات. ثم بعد الرجوع، أوثّق ما يحتاج إلى التوثيق. قال: وتفعل ذلك في كلّ أسفارك؟

قال: نعم، أفعل ذلك في كلّ أسفاري، وخصوصاً في الذهاب، فكثيراً ما يكون في حالة الإياب مُنهكاً ومهدوداً.

قال: الآن أدركت سرّ هذا العطاء السّرّ، إنك لا تُضَيِّع وقتاً، وأنك في عمل متّصل.

قال الإخوة المالىزيون: ونحن أيضاً أدركنا سرّ هذا الإنتاج المبارك. وندعو لك بدوام التوفيق والبركة، والمثابرة.^٢

السؤال الثالث: لماذا تؤلّف؟ أو ما الذي يدفعك إلى التّأليف؟

إجابة الشيخ القرضاوي: يدفعه إلى التّأليف عدّة أمورٍ

أولها: أن يطلب منه ذلك، ويجد في نفسه الرغبة في تلبية الطلب، والقدرة على الوفاء به، كما في كتب كثيرة من كتبه، أوّلها: "الحلال والحرام في الإسلام" فقد طلبته منه مشيخة الأزهر، بواسطة الإدارة العامّة للثقافة الإسلامية بالأزهر، ليترجم إلى الأقليات الإسلامية في الغرب. وفي الحقيقة لو لا هذا الطلب، ما فكّر في الكتابة في هذا الموضوع في ذلك الوقت. ومثل كتاب: "شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كلّ زمان ومكان"، فقد طلب منه ليشارك به في ندوة التشريع الإسلامي في ليبيا. ومثل كتابه: "ثقافة الداعية"، فقد طلب منه، ليشارك به في المؤتمر العالميّ الأوّل لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة، الذي عقد بالمدينة المنورة. ومثل كتابه: "تاريخنا المفترى عليه" فقد كان الذي حرّكه للكتابة فيه سؤال من بعض المثقفين في نقابة الأطباء في مصر.

١ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٣٢٥ - ٣٢٦

٢ المرجع السابق، ص ٣٢٦ - ٣٢٧

وثانيها: أن يكون ردًا على موقف خصوم الإسلام، أو حتى من أبنائه الذين يسيئون فهمه، مثل كتابه "الإسلام والعلمانية وجهًا لوجه"، و "التطرّف العلمانيّ في مواجهة الإسلام" والبابا والإسلام"، و"فوائد البنوك هي الرّبا الحرام".

وثالثها: أن يكون عنده شيء يقوله في تجلية جانب من جوانب، الثقافة الإسلامية أو الرسالة الإسلامية، يصحّ مفاهيمها، أو يَنْفُضُ الْعُبَارَ عنها، أو يجلو غوامضها، أو يَحُلُّ إشكالات فيها، أو يجيب عن أسئلة لم توجد لها إجابة صحيحة، أو يعمق أفكارها بما يتناسب مع أهميتها، أو كتابتها بلغة العصر، وبروح العصر... إلى آخر تلك المعاني والاعتبارات التي يجدها في نفسه، ولا يستطيع الشيخ القرضاوي أن يكتمها عن الناس، بل لا بدّ له من أن يسعى إلى إخراجها من صدره. بل إنَّها لتلخّ عليه إلحاحًا، حتى تولد وتبرز إلى الحياة، بل إنَّها لتطير النوم من عينه حتى يكتبها. وإذا لم يكن جديد، يقوله فلا ينشره صدره للكتابة، ولا يتماسك القلم في يده... هكذا في كتبه "الإيمان والحياة" و"مشكلة الفقر"، و"الخصائص العامة للإسلام" و"ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده" و"الصحة الإسلامية بين الجمود التطرّف" و"الصحة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفوق المذموم". وغير ذلك. هكذا كان يكتب ويؤلّف، لا لمجرد تسويد الأوراق، ولا يحبّ يومًا أن يكرّر غيره، عني يكرّر نفسه، إلا أن يكون وراء ذلك هدف.^١

السؤال الرابع: ما سرُّ هذا التنوع أو الموسوعيّة الثقافية؟

قال العلماء الماليزيون له: المفروض أنك عالم أزهريّ، وأن ثقافتك منحصرة في الثقافة الشرعيّة واللغويّة، ولكن من يقرأ مؤلّفاتك، أو يسمع محاضراتك، تتجلى له موسوعيّة قلّمًا تتوافر إلا للنوادير من الشخصيات، ولهذا وجدنا في كتبك الدين واللغة والأدب والتاريخ والاقتصاد والفلسفة وعلم النفس والاجتماع والتربية وغيرها.

* منهج القرضاوي في تصنيفاته:

لا يَزَعُمُ الأستاذ القرضاوي أن كتاب: "الحلال والحرام في الإسلام" قد حاز رضا جميع الناس، فهذا غير صحيح، وغير ممكن، فإن رضا الناس غاية لا تدرك. والكتاب ينهج المنهج الوسط في الأخذ بالأحكام، والوسط لا يعجب الطرفين: طرف اليمين، وطرف اليسار. كما أنه لم يلتزم مذهبًا معيّنًا من المذاهب السائدة، فلا يتصوّر أن يعجب المقلّدين المتمسّكين بمذاهبهم. وهو يتبنى "التيسير" ولا غرو أن يقف ضده المتشدّدون، حتى قال عنه من قال: هو كتاب "الحلال والحلال في الإسلام" إشارة إلى تضييق دائرة الحلال. وقد ردّ القرضاوي على هؤلاء قائلًا: نصحهم أن يؤلّفوا كتابًا يسمّونه "الحرام والحرام في الإسلام"! ومنها: ردّ الشيخ صالح الفوزان، من كبار علماء المملكة السعوديّة المسمّى "الإعلام بنقد كتاب الحلال والحرام". ومنها: تعليق "دار الاعتصام" التي طبعت الكتاب سنة ١٩٧٢م.

قال الأستاذ القرضاوي: والحقيقة أني لم أعقب على هذه الرّدود؛ لأنها ركّزت على الأمور الخلاقية التي سيظلّ الناس يختلفون فيها إلى ما شاء الله، وقد ملّتُ فيها إلى جانب التيسير وفقّ منهجي الذي اخترته لنفسي، واطمأننت إلى صوابه، وهو: التيسير في الفتوى والتبشير في الدعوة، اتباعًا للأمر النبوي الكريم: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «يَسْرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا».^٢

١ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٣٢٧ - ٣٢٨
٢ البخاري، *الجامع الصحيح للبخاري*، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَسْرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا»، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترميز محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ)، رقم الحديث: ٦١٢٥، ج ٨، ص ٣٠. والنيسابوري، مسلم، *الصحيح لمسلم*، باب في الأمر بالتيسير، ترك التنفير، (بيروت، دار إحياء التراث العربي)، رقم الحديث: ١٧٣٤، ج ٣، ص ١٣٥٩، عن نفس الراوي ولكن "وَسَكَّنُوا" بدل "وَبَشَّرُوا".

ولأن منهجي العام: ألا أضيع الوقت في الردّ، وردّ الردّ، ولا سيّما في القضايا التي لا ينتهي الخلاف فيها، نظراً لتعدد زوايا النّظر، بين المقاصديين والحرفيين، زين من يأخذون بالأسر ومن يأخذون بالأحوط، وبين من يعيشون في الماضي ومن يعيشون في الحاضر، والأعمار أقصر وأنفس من تنفقها في جدال ليس له ثمرة عمليّة في النهاية.

ولكنه عنى القرضاوي فقد بالردّ على تعليق "دار الاعتصام"؛ لأنه نشر مع كتابي وفي جلدته، ولم يكن تعليقا منفصلا، وقد نشر كذلك دون إذن منه، وهولا يليق، وقد أغضبه وضاق به. وحين أعطى الكتاب بعدها لمكتبة "وهبة"، واقترحت عليها أن تنشر تعقيب دار الاعتصام وردّي عليها: أفتعني الأخ الحاج وهبة صاحب المكتبة. أن هذا سيزيد الكتاب في الحجم والسعر، ولا أرى ضرورة لذلك، فأراؤك واضحة ومدلّلة ومقنعة.

وفي نية القرضاوي - إذا مدّ الله في العمر وورقه البركة والتوفيق - أن ينشر طبعة تتضمّن هذا الردّ، وبعض الرّدود على الانتقادات الأخرى، وعلى بعض تعليقات الشيخ الألباني على الأحاديث.^١

وقد ردّ الأستاذ القرضاوي على الشيخ برسالة قابلت فيها مودّة بأحسن منها، أو بمثلها، وذكر له أن من أحبّ الناس إليه أن يوافقهم في اجتهاده هو الشيخ ابن باز، لما يكن له من محبّة وإجلال، ولما اعتقد فيه من صدق وإخلاص وغيّرة على الإسلام والمسلمين، ولكن سنّة الله أن يختلف أهل العلم بعضهم مع بعض منذ عصر الصحابة وإلى اليوم، وما ضرّ الصحابة ولا الأئمّة من بعدهم أن اختلفوا، فقد اختلف آراؤهم؛ ولم تختلف قلوبهم.

وقد قال العلامة ابن قدامة في آخر "لمعة الاعتقاد": اختلافهم رحمة واسعة، واتفاقهم حجة قاطعة. وكذلك قال في مقدّمة: "المعنى".

وقد رحا القرضاوي سماحة الشيخ ألا يكون خلافه في بعض المسائل سببا في منع دخول كتابه إلى القراء الأشقاء في المملكة... فقد قال العلماء: لا إنكار في المسائل الاجتهاديّة، والشيخ الألباني يخالف المشايخ في بعض الآراء ولا تمنع كتبه. على أن بعض هذه المسائل قد أخطأ المشايخ فيها فهمهم عن القرضاوي، مثل مسألة "التدخين" فأما من المتشدّدين فيه، وقد ذهب القرضاوي إلى تحرّمه بالدليل. وبعض المسائل أطلقوها، وهو القرضاوي يقيدّها، فهو لم يقل بمودّة الكافر بإطلاق، فالكافر المُعادي للمسلمين المُحدّاد لله ولرسوله لا يُؤاد كما نطق القرآن، أمّا الكافر المُسالم فلم ننه عن برّه والإقسط إليه كما قال الله تعالى:

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [٨].^٢

ولهذا أجاز القرآن للمسلم تزوّج الكتابيّة، كما تقرّر سورة المائدة: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ [٥]﴾.^٣

ومن كفضيّة الزواج: المودّة بين الزوجين، كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَقِرُونَ﴾ [٢١].^٤

١ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، فتاوى معاصرة، ج ٢، نبذة عن "أحاديث كتاب الحلال والحرام". وتلميذهم الشيخ عصام تليمة ردود على عدد من الأحاديث ذكرها في كتابه: "القرضاوي فقيهاً".

٢ القرآن الكريم، الممتحنة (٦٠)، الآية [٨].

٣ القرآن الكريم، المائدة (٥)، الآية [٥].

٤ القرآن الكريم، الروم (٣٠)، الآية [٢١].

ويحسب أن الشيخ عبد العزيز بن باز - رحمه الله - قد استجاب لرسالة القرضاوي، ولم يمنع الكتاب في تلك المدّة من دخول المملكة العربيّة السعوديّة.

● جدير بالذكر هنا أن الشيخ القرضاوي هو المرّيّ الكبير والمشهور والمثقّف الإسلاميّ المعروف في العالم، والمُناوِرُ المفلح والمدير الفائق الراسخ. وهو صاحب القلم السيّال والتّجّاج الدافق والأسلوب الرفيع والتصانيف المفيدة الرائقة، والآثار النافعة الفائقة، الشاعر المفكّر الإسلاميّ، حتّى أُلّفَ نَيْفَ على مائة وخمسين كتابًا، فبعضها موسوعة في موضوعات متعدّدة ومواد وفنون شتى ومجالات متنوّعة.

المبحث الأول: مؤلفاته في "الفقه وأصوله"

فمن مؤلفاته الثمينة والنفيسة والقيّمة:

١. قصة تأليف كتاب: "الحلال والحرام في الإسلام" كما يحكيها مؤلفه:

اعتبر نفسه (القرضاوي) بدأ الكتابة والتأليف متأخرًا نسبيًا، ذلك أنه كان مشغولًا بالدعوة الشفهية، وبالخطاب الارتجالي، طوال المرحلة الثانوية والمرحلة الجامعية بالأزهر. فكان يخطب ويُدرّس ويُحاضر ارتجالًا، إلا ما قد يعدّه من محاور ونقاط رئيسية في مذكرات خاصة.

ولم ينبّه أحد - ممن هم أكبر منه - أن لديه ما يمكن أن يكتب ويحرّر، وأن من المهمّ للداعية أن يستخدم القلم، كما يستخدم اللسان، وقد قال العرب قديمًا: القلم أحد اللسانين. وأقسم الله في كتابه الكريم بالقلم: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [١]. وكان من دلائل ربهيته تعالى أنه: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [٤].^٢

ولقد كتب القرضاوي بعض رسائل صغيرة أشرّث إليها من قبل، مثل رسالة "قطوف دانية من الكتاب والسنة"، مثل: "رسالتك أيها المسلم" التي صودرت في المباحث العامة، ولم ترجع إليه، ومثل: "رسالتكم يا شباب الأزهر" التي نشرتها بعد بعنوان: "رسالة الأزهر بين أمس واليوم والغد". ولكن الكتاب الذي يعتبره القرضاوي بداية حقيقية للتأليف، والذي دخل به سوق الكتاب والمؤلفين، كتابه الأول الذي دخل به مُعْتَرِكُ التّأليف أو التصنيف العلميّ هو: "الحلال والحرام في الإسلام".^٣ من مكتبة "دار الإرشاد" في بيروت، للأستاذ عادل عاقل. ولم يكن يخطُرُ في باله في (١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م) أن يكتب في أمر الحلال والحرام، بل كانت الكتابة في الفقه لا تحتلّ منزلة أوليّة عنده، وإن كان قد بدأ شيئًا من ذلك فيها كتبه في مجلّة "منير الإسلام" من فتاوى وأحكام تحت عنوان: "يستفتونك" باسم: يوسف عبد الله، دون التوقيع باسمه الكامل: "القرضاوي" لما يثير من حساسيّات لدى جهات الأمن التي تقف بالمرصاد لأيّ نشاط له ولأمثاله يتعلّق بالجماهير.

وكانت كتابة هذا الباب بتوجيه من أستاذهم "البهّي الخولي" مراقب الشؤون الدينيّة في وزارة الأوقاف في ذلك الوقت، الذي لاحظ عقلية الفقهية من مناقشاته معه في الدروس واللقاءات الخاصة. ومع هذا لم يكن ينوي أن تكون بداية تأليفه في "الفقه"، ولكن هكذا قدر الله أن يكون أول كتاب حقيقيّ يدخل به ميدان التأليف العلميّ هو: "الحلال والحرام في الإسلام"، وهو كتاب فقهيّ، فكيف تمّ ذلك؟

قال الشيخ القرضاوي: إن لتأليف هذا الكتاب قصّة طريفة جديدة أن تحكى، فقد وردت إلى وزارة الخارجية، فقد وردت إلى وزارة الخارجية المصرية من بعض سفاراتها في أوروبا وأمريكا؛ أن المسلمين في تلك البلاد يحتاجون إلى كتب علمية مسرّة معاصرة في ثلاثين موضوعًا من الموضوعات حدّدها، بعضها في العبادات، وبعضها في المعاملات، وبعضها في الآداب والأخلاق، وكان من هذه الموضوعات الثلاثين؛ موضوع تحت عنوان: "ما يحلّ للمسلم وما يحرم عليه".^٤

١ القرآن الكريم، القلم (٦٨)، الآية [١].

٢ القرآن الكريم، العلق (٩٦)، الآية [٤].

٣ ألفَ قرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٣٣١

٤ ألفَ قرضاوي، يوسف بن عبد الله، الحلال والحرام في الإسلام، مقدمة، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٩٦١م)، ص ٣

وقد كتبت الخارجية المصرية مذكرة بالموضوعات المطلوبة إلى كل من مشيخة الأزهر في عهد إمامه الأكبر الشيخ محمود شلتوت رحمه الله، الذي أحال الموضوع بؤمته إلى الأستاذ الدكتور محمد البهي المدير العام لإدارة الثقافة الإسلامية بالأزهر في ذلك الوقت ... وإلى وزارة الأوقاف المصرية باعتبارها المؤسسة الدينية الثانية في مصر، في عهد وزيرها الشيخ أحمد الباقوري.

وكان الموضوع الذي كلّفه (القرضاوي) به أستاذهم الدكتور محمد البهي رحمه الله، هو "ما يحلّ للمسلم وما يحرم عليه." وهو موضوع لم يخطُرُ بباله أن يكتب فيه من قبل. ولا سيّما أن مفرداته مبعثرة في أبواب الفقه الإسلامي، ومن الضعف نظّمها في عقد واحد، إلا على من شرح الله له صدره، ويسر له أمره، ولهذا دعا القرضاوي بما دعا به سيّدنا موسى عليه والسلام: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي [٢٥]﴾. ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي [٢٦]﴾.^١

وكان أصعب شيء على القرضاوي هو نقطة البداية: من أين يبدأ؟ وكيف يبدأ؟ وفي ليلة من الليالي - وهو مشغول بالموضوع - وقف إلى تقسيم الموضوع، بما يشبه الإلهام، فقد انقذ في ذهنه: أن يبدأ الباب الأول من الكتاب بمبادئ عمّمة في شأن الحلال والحرام، والباب الثاني يتناول: الحلال والحرام في الحياة الشخصية للمسلم بما يشمل المأكل والمشرب والملبس والزينة، والمسكن والكسب، والباب الثالث: الحلال والحرام في الحياة الأسرية من الزواج وما يتعلّق به، وعلاقة الآباء والأمّهات بالأولاد، والعلاقة بذوي الأرحام، وما يتعلّق بذلك من أمور التّبني والتلقيح الصناعي وغيرها، والباب الرابع يتناول: الحلال والحرام في الحياة الاجتماعية والعمامة للمسلم، بما يشمل المعتقدات والتقاليد والمعاملات، واللّهو والترفة، وعلاقة المسلم بغير المسلم، وما إلى ذلك.^٢

وحينما هدى إلى هذا التقسيم، اعتبره قد وفق إلى تأليف الكتاب، فما عليه إلا أن يبحث في هذه المفردات في مظانّها من كتب الفقه - وخصوصاً الفقه العام - والحديث والتفسير ونحوها، وهو ما هدى إليه بالفعل، وجمع مادّة الكتاب من مظانّها، وكتب له مقدّمة بيّن فيها منهجه الذي اختاره وجّحه، وهو منهج يقوم على التوسّط والاعتدال بين الغلاة والمقصرين، أو بين المتشدّدين والمتسيّبين.

وأرسل الدكتور البهي مشروع الكتاب إلى الأستاذ الجليل محمد المبارك عميد كليّة الشريعة في الجامعة السورية بدمشق، وأحد القلائل الذين يجمعون بين الثقافة العربية الإسلامية والثقافة الغربية العصرية، ويدركون ما يحتاج إليه المجتمع الغربي المعاصر ويلائمه من ثقافتنا الإسلامية؛ وهذا سرّ اختياره لمراجعة الكتاب. كما أرسل بعض الكتب الأخرى إلى مراجعين آخرين، منهم: الفقيه الكبير الشيخ مصطفى الزرقا، وقد ردّ الأستاذ الزرقا الكتاب الذي أرسل إليه بأنه دون المستوى المطلوب. قال القرضاوي: ربّنا يسر ولا يردّ كتابي.

وبعد مدّة لم تطل أرسل الأستاذ المبارك إلى إدارة الثقافة، بثني على الكتاب، وبنوّه بحسن أسلوبه وطريقة معالجته، وتوخيه للاعتدال فيما يختار من آراء.^٣ ولما رأى القرضاوي أن هذا الأمر قد يطول، خطّرت لديه فكرة نشر الكتاب بالعربية، عسى أن ينتفع به قراءها، وبالفعل بيّض المسودّة التي عنده، وأعدّها للنشر، وسلّمها إلى دار عيسى الحلبي للطباعة والنشر، لتنشره ضمن كتبها، فسلمت الإدارة الكتاب للجنة المكلفة بمراجعة الكتب، وكانت برئاسة الشيخ طاهر الزاوي العالم اللغوي الشرعيّ اللبّي، الذي كان يعيش في مصر، وقد عُيّن مفتياً للجمهورية اللببية بعد ذلك، وكان من المصحّحين معه: الأخ الباحث الأزهرّي مصطفى عبد الواحد "دكتور مصطفى بعد

١ القرآن الكريم، طه (٢٠)، الآيتان [٢٥-٢٦].

٢ ألفقرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٣٣٣ - ٣٣٤

٣ المرجع السابق، ص ٣٣٦

"فأثنى على الكتاب خيراً، وأوصت اللجنة بطباعته. وصدر الكتاب بعد نحو ثلاثة أشهر في طبعته الأولى، وتسلّم القرضاوي - لأول مرة - حقوق تأليفه ستين جنيهاً (٦٠) مصرياً، وكانت بالنسبة له ثروة لها قيمتها.^١

وبدأ القرضاوي يوزع بعض النسخ من الكتاب هدايا إلى العلماء الذين يعرفهم ويعرفونه، وأول نسخة أهداها إلى شيخهم الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت، الذي تصفح الكتاب طريلاً، ومدحه بكلمات التي شجع القرضاوي، وسرّ بها. والنسخة الثانية ذهب القرضاوي بها إلى الشيخ أبو الوفا المراغي مدير مكتبة الأزهر الذي كان قد قال له: إنك دخلت امتحاناً عسيراً دون أن تدري. والنسخة الثالثة ذهب القرضاوي بها إلى أستاذه الذي أحبه وأقدره: الشيخ الدكتور محمد يوسف موسى، أستاذ الفلسفة من قبل، وأستاذ الشريعة من بعد. والنسخة الرابعة: سلّمها لفضيلة الشيخ أحمد علي الأستاذ بكلية أصول الدين، والذي اختاره القرضاوي مشرفاً على رسالته للأستاذية "الدكتوراه". تصفح الشيخ رحمه الله، وأطال التصفح فيه. والنسخة الخامسة: أهداها القرضاوي لشيخهم البهي الخولي، الذي سرّ بظهور الكتاب سروراً بليغاً، وقال: لن أحكم له علي هحتى أقرأه، أو أقرأ ما يكفي منه للحكم عليه. والنسخة السادسة: أهداها لشيخهم الشيخ محمد الغزالي مدير المساجد في ذلك الوقت، وقد تصفحها بسرعة، وقال: هذا نصح جديد في كتابة الفقه بروح الداعية. والنسخة السابعة: أهداها إلى مدير مجلة الأزهر والعالم والكاتب الأزهرى الأستاذ الشيخ عبد الرحيم فودة.

قال القرضاوي: ومما أذكره هنا: أن الأستاذ الشيخ عبد الرحيم فودة لقيني مرة في إدارة الأزهر بعد صدور كتاب: "الحلال والحرام" وقال لي: أود أن أهنتك يا شيخ يوسف على أمرين:

الأول: على منهجك الرائع، وأسلوبك السلس، وترجيحاتك الموقفة في كتابك: "الحلال والحرام".

والثاني: مخالفتك بصراحة لرأي شيخك وشيخ الأزهر الشيخ محمود شلتوت في مسألة فوائد البنوك الربوية ونحوها. وهذه شجاعة قلماً تتوافر إلا للمثلث.^٢

وأرسل القرضاوي أربع نسخ إلى سوريا مع أحد الأخوة السوريين الذين يدرسون في مصر، لكل من الدكتور مصطفى السباعي، والأستاذ مصطفى الزرقا، والدكتور معروف الدواليبي، وبالإضافة إلى الأستاذ محمد المبارك. وقد صدّاه طيباً عند الأساتذة الأربعة، حتى قال الشيخ الزرقا لتلاميذه: أن اقتناء هذا الكتاب فرض على كل أسرة مسلمة، والحق أن علماء الشام كانوا أكثر احتفاء بالكتاب من علماء مصر.

وكان من مظاهر ذلك: أن الشيخ ناصر الدين الألباني خرّج أحاديثه، وهذا لا يحدث عادة إلا للكتب التي لا قيمة علمية.

وكان الأستاذ الكبير علي الطنطاوي رحّب به ورّكاه، وقرّر تدريسه في مادّة "الثقافة الإسلامية" التي كان يدرّسها في كليّة الشريعة والتربية بمكة المكرمة.

وحين قدّم القرضاوي إلى قطر سنة ١٩٦١م وجد الكتاب قد سبقه إلى قطر، وأوصله بعض المصريين إلى العلامة الشيخ عبد الله بن زيد الحمود رئيس قضاة قطر، ففرح به وأثنى عليه، ومهدّ للقرضاوي الطريق إلى لقائه، فالتقاه بحفاوة وتكريم بالغ. ولهذا أراد بعض

١ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٣٣٧

٢ المرجع السابق، ص ٣٤١

شيوخ آل ثاني في قطر "الشيخ فهد بن علي" أن يطبع الكتاب ليوزعه مجَّاناً على أهل قطر، فطبعه المكتب الإسلامي في بيروت لصاحبه الشيخ زهير الشاويش.

ومن الطرائف هنا: أن الشيخ مصطفى جبر - وهو أحد المصريين الذين وصلوا إلى قطر قديماً مع الأستاذين كمال ناجي، وعليّ شحاتة - قرأ الكتاب فأعجب به إعجاباً شديداً، فاستأذنه أن يرسل مجموعة من النسخ مع أحد الإخوة المسافرين إلى باكستان، فأرسل نسخة إلى العلامة أبي الأعلى المودودي، وعليه إهداء من القرضاوي، ونسخة إلى جامعة البنجاب بلاهور، وأخرى إلى جامعة كراتشي.^١

وقد أرسل إلى القرضاوي الأستاذ المودودي يشكره على إهداء الكتاب له، ويقول في رسالته: إني أعتزّ بهذا الكتاب، وأعتبره إضافة جليّة إلى مكتبي.

وجدير بالذكر هنا: كتاب سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز إلى القرضاوي في أوسط السبعينات، حول كتاب: "الحلال والحرام في الإسلام"، وكان كتاباً يفيض بالمودة والتقدير من الشيخ رحمه الله، ومما قاله الشيخ في مقدمته: إن كتبك لها وزنها وثقلها في العالم الإسلامي، وتأثيرها في مثقفيه وشبابه، ولذا تحتاج منك إلى مزيد من التحري والتثبت، وهذه شهادة من الشيخ الجليل يعتزّ القرضاوي بها.

ترجمة الكتاب "الحلال والحرام في الإسلام" إلى لغات شتى:

وقد تَرجمَ الكتاب إلى عدد لا يمكن حصره من اللغات الإسلاميّة والعالميّة. وعلى الإمكان أن أوّل ترجمة له كانت إلى "التركية" حتى أن القرضاوي حين زار تركيا لأول مرّة في صيف سنة ١٩٦٧م، وجد الكتاب طبع مرتين، طبعة "دار الهلال" التي تملكها الأستاذ صالح أوزجان، عضو رابطة العالم الإسلاميّ. وترجم الكتاب إلى الأوردية في باكستان وفي الهند. وترجم إلى عدد من لغات الهند، ومنها "المالبيارية" لغة مسلمي ولاية كيرلا في الهند. وترجم إلى الماليزية والإندونيسية. ولما ذهب القرضاوي في أوائل الثمانينات إلى "كمبالا" عاصمة أوغندا، في اجتماع مجلس أمناء منظمّة الدعوة الإسلاميّة. وكذلك ترجم إلى اللغة الصينية. كما ترجم الكتاب إلى عدد من اللغات الأوروبية، مثل: الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية وغيرها، كما ترجم إلى البوسنية والألبانية.

نشر الكتاب "الحلال والحرام في الإسلام":

قد نشر هذا الكتاب النفيس أولاً من مكتبة "دار الإرشاد" في بيروت، للأستاذ عادل عاقل. ثم نشر الشيخ زهير الشاويش صاحب "المكتب الإسلامي" في بيروت كتابه "الحلال والحرام في الإسلام" وكانت طبعته الثانية. وكانت مزبة بيت زهير الشاويش: أنه يحوي مكتبة فيها من الكتب ما لا يوجد في غيرها، وقلّما يريد الإنسان كتاباً إلا وجده فيها. فضلاً عن الكتب التي ينشرها، وبالإضافة إلى أن الشيخ زهير رجل كريم مضياف، فكثيراً ما كانت تغذى عقول القرضاوي وغيرهم على مكتبته، وتتغذى بطونهم على مائدته.

أول (مائة جنية) التي ملكها القرضاوي في حياته من حقوق تأليف أول طبعة:

أول (مائة جنية) ملكها في حياته من حقوق تأليف أول طبعة من كتابه "الحلال والحرام في الإسلام". وكانت ستون جنيهاً، مع أربعين أخرى ادخرها، وكانت مائة جنية في هذا الوقت ثروة، هذه مائة جنية، وضعها تأميناً لقطعة أرض في مدينة نصر بالقاهرة أول

١ أَلْقُرْصَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٣٤٢

ظهورها، عن طريق بعض الجمعيات التعاونية، وسلّم المبلغ بواسطة لبنك يسمّى "بنك التعاون." وحاول بعد ذلك: أن يستفيد من ذلك بأخذ قطعة من أرض، فلم يستطع، ثمّ حاول أن يسترد المبلغ فلم أوفق، وخصوصاً أنه سافر بعد ذلك إلى قطر، وضاعت الجنيهات المائة إلى اليوم.

رسالة مهمّة من الشيخ عبد العزيز بن باز حول الكتاب "الحلال والحرام في الإسلام":

في السنة الدراسية ١٩٧٥م - ١٩٧٦م، مما وقعت من وقائع تلك المدّة من الزمن: أن الدكتور القرضاوي تلقّى رسالة من سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، علامة الجزيرة العربية، والمفتي العام للمملكة العربية السعودية، خلاصتها: أن وزارة الإعلام طلبت رأيه في كتابه: "الحلال والحرام في الإسلام"؛ لأن بعض الناشرين طلبوا من الوزارة أن "تفَسِّح" له. وكانت الطبعة التاسعة عام ١٩٧٥م لهذا الكتاب.

فلا غرو أن ذكر الشيخ ابن باز بأدب العالم الكبير، ورفق الداعية البصير: أنه يريد أن يفسح للكتاب، وأن يشتري كمية كبيرة منه لتوزيعه، لما فيه من نفع للمسلمين لسلاسته وجمال أسلوبه، وأخذ بمنهج التيسير، ولكن المشايخ في المملكة العربية السعودية خالفوه في ثمانية مسائل. وذلك بعد إعادة النظر في المسائل الموضحة أدناه، وسرّد الشيخ رحمه الله هذه المسائل الثمانية:

١. تجويز مُؤادَة بعض الكفّار.

٢. عدم تحريم الدخان إلا بعد تقرير دكتور مُسلّم مُضِرٌّ على شخص معيّن.

٣. اختيار بأن حلق اللّحية مكروه، وما نَسَبَ عن السلف أنهم تركوها عادة.

٤. إباحة اللحوم المستوردة مما أزهقت روحه بالصّعق الكهربائي.

٥. وكشف وجه المرأة بحضرة الرجال الأجانب وما يتعلّق بِرِيّ المرأة وعملها.

٦. جواز السُّفُور

٧. إباحة الغناء والموسيقى وسماعه.

٨. جَوَازُ لُعبَة الشُّطْرُنْج^٢

وما يتعلّق بالتصوير، وأن الشيخ القرضاوي لم يَحْسِمَ الرأى فيه بالتحريم، وكذلك لعب الشطرنج، وما يتعلّق بمودّة غير المسلم ... إلخ. والشيخ يؤيّد تحريم هذه الأمور كلّها. وقال الشيخ رحمه الله: وإن كتبك لها وزنها وتقلها في العالم الإسلامي وقبولها العام عند الناس؛ ولذا تنمّي لو تراجع هذه المسائل، لتحتظى بالقبول الإجماعي عند المسلمين.

وقال سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز: مع العلم أنني أعتقد تحريم جميع الأمور الثمانية، فأرجو العناية بهذا الأمر وبذل ما يستطاع من النظر في الأدلّة، وإليكم نسخة مما كتبه في الموضوع فضيلة الشيخ: صالح الفوزان للاطلاع عليه الاستعانة به في تصحيح هذه الأخطاء على ضوء الأدلّة الشرعيّة، ولما كانت مؤلّفاتكم لها ثقلها وفائدتها العظيمة لما فيها من علمٍ وتوجيه، ولما أعرفه عنكم من العيِّرة والاعتدال في الدعوة إلى الله على بصيرة وبيّنة... فإننا نأمل منكم موافاتنا في أقرب وقت ممكن إن شاء الله بنسخة من الطّبعة العاشرة مصحّحة على ما أشرنا إليه، مُضَافاً لها ما يظهر لكم عند المراجعة، لتتمكن بعد ذلك من المساهمة في شراء كمية كبيرة، لتعم

١ كلمة "تَفَسِّحُ" مُشْتَقٌّ من كلمة "فَسَحَ"، التي غدت مصطلحاً معروفاً في المملكة العربية السعودية، يقصد به: الإذن بنشر الكتاب ودخوله في السعودية.

٢ مأخوذ من رسالة الشيخ عبد العزيز بن باز (مفتي ديار مملكة العربية السعودية الأسبق في ذلك الوقت) حول كتاب "الحلال والحرام في الإسلام".

الفائدة إن شاء الله. نفع الله بعلومكم، وأمدنا جميعاً بعونه وتوفيقه لما فيه عزّ الإسلام وصالح المسلمين. كما أسأل الله لنا ولكم التوفيق والسداد والإعانة على إصابة الحق؛ إنه خير مسئول^١.

رسالة جوابية إلى العلامة الشيخ عبد الله بن باز من الدكتور القرضاوي:

بعد إدراك رسالة سماحة الشيخ عبد الله بن باز، قد ردّد الدكتور القرضاوي تحية الشيخ عبد الله بن باز بأحسن منها، وكتب له رسالة رقيقة، تحمّل ما أداه إليه اجتهاده، ويتنازل عنه لحاظٍ من يحبّ، لكان سماحتهم أول من يتنازل له عن رأيه، لما يكون لهم من حبّ وإعزاز واحترام، ولكنّ جرّت سنّة الله في الناس أن يختلفوا، وأوسع الله لنا أن نختلف في فروع الدين، ما دام اختلافًا في إطار الأصول الشرعيّة، والقواعد المرعيّة. وقد اختلف الصحابة والتابعون والأئمة الكبار، فما ضرهم ذلك شيئاً، اختلفت آراءهم، ولم تختلف قلوبهم، وصلّى بعضهم وراء بعضٍ.

قال الشيخ القرضاوي: والمسائل الثمانيّة التي ذكرتموها فضيلتكم وسماحتكم في الرسالة، منها: ما كان الخلاف فيها قديماً، وسيظلّ الناس يختلفون فيها، ومحاولة رفع الخلاف في هذه القضايا غير ممكن، وقد بيّن العلماء أسباب الاختلاف وألّفوا فيها كتباً، لعلّ من أشهرها كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية: "رفع الملام عن الأئمة الأعلام".

والتي تذهبون فيها إلى رأي يخالف ما انتهى إليه اجتهادي في الكتاب. فأحبّ أن أوكد لفضيلتكم: أنكم أول وأولى من أحب وأحرص على موافقته من علماء الإسلام، وذلك لما عرفته ولمسته في سماحتكم من غزارة علم، واستقامة منهج، وعزيمة على الحق، وحِرص على الإنصاف، وسعة صدر، وتقدير لوجهات نظر الآخرين. هذا إلى فضائل ومزايا دينية وأخلاقية. أحسبكم كذلك، والله حسيبكم، ولا أركّيكم على الله. ولكن قضت سنّة الله تعالى أن تختلف الأنظار، وتتعدّد الاجتهادات، وبخاصّة في المسائل الجزئية. ولعلّ الذي حدا بي إلى ترجيح ما رجّحت في هذه المسائل: أن الكتاب ألف في الأصل ليترجم إلى اللغات الأجنبية للجاليات الإسلامية بها، وللدخول الجدد في الإسلام؛ ولهذا توخيت فيه التيسير ما استطعت، ترغيباً في الإسلام.

ثمّ إني بلوت من فتن هذا العصر، ومغرباته ومُعَوّقاته، التي جعلت جمهور الناس - وخصوصاً من يسمّونهم المثقّفين - يعرضون عن الدين؛ ما جعل الشيخ القرضاوي يتخذ منهجاً يقوم على التشديد في الأصول، والتيسير في الفروع، ولا سيّما فيما عمت به البلوى. وهذا كلّ بشرط ألا يخرج على نصّ محكم أو إجماع مُتيقّن. يعني أنه يختار فيما كان للاختيار فيه مجال، فإذا كان هناك رأيان في مسألة أحدهما أحوط، والآخر الأيسر، يختار الأيسر؛ لأنّ الأليق بروح الشريعة السمحة، وبطبيعة الكتاب المؤلّف لعموم المسلمين، وبطبيعة العصر الذي أصبح الإسلام فيه غريباً في أكثر البلدان. وقد صحّ: "أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ما خيّر بين الأمرين؛ إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثماً".

على أنه مما يهوّن الخلاف في هذه المسائل جملة أمور:

١. أنّها قُلٌّ من كُثُر.
٢. وأنّ له فيها سلفاً من قدماء العلماء، ومن مُحدثيهم، وعلى رأسهم: المجدّد العلامة السيّد رشيد رضا رحمه الله.
٣. وأنّه لا يَغْفِلُ الرأي المخالف، بل يذكره، ليعرف القارئ أنّ المسألة ليست إجماعية، بل ربّما ذكر أنه رأي الكثرة أو الجمهور، أو نحو ذلك.

١. القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٤٨٠

٤. وأنه لم يحكم في هذه المسائل بالإباحة المطلقة، بل يضع عادة قيودًا وشروطًا تضيق دائرة الإباحة.

٥. وأن دفعه إلى ذلك - والله أعلم النيات - تقرب جماهير الناس من الإسلام، وتحببهم إليهم عملاً بالوصية النبوية: ما رواه

أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «يَسْرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا، وَلَا تُنْفِرُوا»^١.

ولا يفوت منه أن يذكر أن ما نسب إليه في المسألة وهي: "عدم تحريم الدخان" إلا بعد تقرير دكتور مسلم بأنه مضر على شخص معين، غير صحيح.

وليس هذا رأي الذي أثبتته فقد قرّر مبدأ أو قاعدة مضمونها: أن كل ما يضر تناوله الجسم فهو حرام، وبني عليه حكم التدخين قائلاً بالنص: "وَوَفَّقًا لهذا المبدأ إن تناول التَّبَغِ أي الدخان ما دام قد ثبت أنه يضرّ بمتناوله فهو حرام. وبخاصة إذا قرّر ذلك طبيب مختص لشخص معين. ولو لم يثبت ضرره الصّحّي لكان إضاعة للمال فيما لا ينفع في الدين أو الدنيا. وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن إضاعة المال. ويتأكد النهي إذا كان محتاجًا إلى ما ينفقه من مال لنفسه أو عياله". فقد ذكر مناط التحريم، وهو الإضرار بالصّحّة، وإضاعة المال، وهذا للناس عاقبة. فإذا ثبت ضرره على الخصوص لشخص معين، تأكّد المنع، وكذلك إذا كان محتاجًا إلى المال.

والحقيقة أنه ممن يرون التشديد في موضوع التدخين، وله في تحريمه فتوى مطولة في ضوء النصوص والقواعد الشرعية^٢. ومع كل هذا وعد الأستاذ الدكتور القرضاوي مع سماحة الشيخ عبد الله بن باز رحمه الله بأنه سيعاود النظر في المسائل المذكورة مُقَارِنًا الأدلة، بإذلاً العناية المستطاعة لتهديب ما يمكن تهذيبه من الأراء، أو تعديل بعض العبارات، أو نحو ذلك، على قدر استطاعته، وما يصل إليه ترجيحه مستعينًا بالله، ومبتهلاً إليه أن يُلهمه الصواب. ولا يخرمُه أجر الخطأ في الاجتهاد.

قال الشيخ القرضاوي: كل ما أرجوه من سماحتكم: ألا تكون ملاحظاتكم على الكتاب سببًا في منع دخوله إلى المملكة العربية السعودية. فلا يوجد في الدنيا كتاب من تأليف بشر إلا وعليه مأخذ، وكل واحد يؤخذ من كلامه ويترك، والمهم سلامة الاتجاه في الجملة، وباب النقد مفتوح لمن شاء. والمسائل التي انتقدت على الكتاب موجودة في مثل: "المخلى" لابن جزم، وفي فتاوى السيّد رشيد رضا رحمه الله، وبعضها في كتب الشيخ ناصر الدين الألباني رحمه الله. وما أظن شيئًا من هذه الكتب منع من تداوله في المملكة.

ولا يليق بمثلي - وعلاقته بالمملكة الشقيقة على ما تعلم سماحتكم - أن تمنع كتبه من أكبر هيئة علمية دينية فيها، لخلاف جزئي في بعض المسائل الاجتهادية.

على كل حال، أرجو من فضيلتكم ألا تكون الاختلاف في بعض المسائل الاجتهادية الفرعية حائلا دون الفسح للكتاب، وأعتقد أن الشيخ استحباب لما فيه، وفسح لكتاب: "الحلال والحرام" ولغيره من كتبي^٣.

١ البخاري، **الجامع الصحيح للبخاري**، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «يَسْرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا»، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ)، رقم الحديث: ٦١٢٥، ج ٨، ص ٣٠. والنيسابوري، مسلم، **الصحيح لمسلم**، باب في الأمر بالتيسير، ترك التنفير، (بيروت، دار إحياء التراث العربي)، رقم الحديث: ١٧٣٤، ج ٣، ص ١٣٥٩، عن نفس الراوي ولكن "وَسَكَّنُوا" بدل "وَبَشَّرُوا".

٢ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، **فتاوى معاصرة**، (القاهرة، دار القلم، الطبعة الأولى، سنة ١٩٨٩م)، ج ١، ص: ٦٥٤ - ٦٦٩ (ملخصًا).

٣ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، **ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة**، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٤٠٥.

موقف الشيخ الصالح الفوزان في الكتاب "الحلال والحرام في الإسلام":

كان الشيخ صالح الفوزان من شباب علماء المملكة العربية السعودية حينئذ الذي قد أثار ضجةً بما كتبه في الصحف، وأصدره في كتابه سماه: "الإعلام بنقد كتاب الحلال والحرام"، وهو يُمثّل وجهة النظر السلفية في المسائل الخلافية المعروفة من قديم، مثل: تغطية وجه المرأة، هل هو واجب أو لا؟ وحكم خروج المرأة للتعلّم والعمل، وحكم الغناء بألة وبغير آلة، وحكم التصوير الذاتي والضوئي، وغير ذلك، مما تتفاوت فيه فتاوى المفتين بين ميسر ومعسر، وبين من يميل إلى الظاهر، ومن يرحح الالتفات إلى المقاصد.^١

تعليقات "دار الاعتصام" على كتاب: "الحلال والحرام في الإسلام":

في سنة ١٩٧٢م أرسل إلى الشيخ القرضاوي الأخ أسعد السيّد، وقد خرج من السجن، يخبره أنه يريد أن يبدأ عملاً مستقلاً في الطباعة والنشر، وأنه يريد أن يستهلّ عمله بنشر كتاب ذي قيمة مرغوب فيه، وأنه اختار كتابه: "الحلال والحرام في الإسلام" ليكون باكورة هذا العمل، وبخاصّة أن الكتاب مفقود في السوق المصرية منذ طبعته مكتبة دار العروبة من عدّة سنين.

وكان كتاب: "الحلال والحرام" قد طبع أول طبعة في مطبعة عيسى الحلبي، وثاني طبعة في المكتب الإسلامي في بيروت، وقد طبع على نفقة الشيخ فهد بن علي آل ثاني، الذي قام بتوزيعه احتساباً لوجه الله ولنفع المسلمين. ثمّ ظلّ المكتب الإسلامي يطبعه بعد ذلك، ويحسبه طبع منه خمس طبعات خلال فترة الماضية، غير الطبعة الأولى والثانية، وطلب الأخ أسعد أن يطبعه الطبعة الثامنة، واستجاب الشيخ القرضاوي للأخ الكريم وأعطاه إذناً بالنشر.

ولكن الشيخ القرضاوي فوجئ بعد بضعة أشهر بالكتاب أرسله إليه الأخ أسعد مطبوعاً، وقد أخرجته "دار الاعتصام" التي تنسب إلى إخوان الشيخ القرضاوي في الجمعية الشرعية، وصاحبها المرحوم الشيخ أحمد عيسى عاشور، وأنهم علّقوا على عدّة مواطنٍ في الكتاب، معترضين عليها، ووضعوا هذه التعليقات في صلب الكتاب دون أن يستأذنه فيها. وما أن رأى الشيخ القرضاوي هذه التعليقات وقرأها بسرعة، حتى غلى الدم في عروقِهِ، ثار ثأره، كيف يفعلون هذا دون إذن منه؟ ثمّ إنه لم يعط الكتاب للاعتصام، وإنما يعطيه لأسعد. ولكن لأن أسعد لم يكن أنشأ داره بعد "دار الأنصار" اضطرّ إلى أن يبحث عن دار تتبنى نشر الكتاب إلى التيسير، فردّ عليه في جملة موضوعات، أرسل الشيخ القرضاوي بريقة عاجلة إلى الأخ أسعد، ويقول: أُوقِف توزيع الكتاب، حتى يكتب ردّاً على تعليق "الاعتصام".

وبدأ يكتب الردّ، وطبعته على الآلة الكاتبة، وأرسله بأقصى سرعة ممكنة، وأرسله أسعد ليجمّع، وقد جمع فعلاً، ولكن الكتاب قد نزل إلى الأسواق، ووزّع هنا وهناك، ولم يُعد إلى الاستدراك سبيل، وأرسل إلى القرضاوي أسعد يخبره بذلك أسفًا. ولكن الشيخ القرضاوي حمّل التبعة لأسعد، وكان جزاء ذلك أن سحب الكتاب منه، ومن الاعتصام بالتالي.

وطلب الشيخ القرضاوي من الأخ حسن وهبة رحمه الله: أن ينشر تعليق الاعتصام وردّه عليه، وترك له التعليق والردّ، وبعد فترة مررت عليه، فقال للقرضاوي: إن هذا التعليق والردّ عليه، سيأخذ أكثر من ثلاث مُلازِم، وهذه عبءٌ على الكتاب، ستغلي ثمنه على القارئ المسلم، دون ضرورة إلى ذلك، فالأمور التي علّقوا عليه واضحة في الكتاب، وسوف تُبَلِّلُ القارئ بالتعليق الردّ عليه، ورأي الشيخ القرضاوي أن لا ضرورة لنشره، ولم ينشر الردّ إلى الآن، وهو عنده.^٢

١ ألفَ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٤٠٣

٢ المرجع السابق، ص ما جاء في ٢٩٤ - ٢٩٧ (بالإيجاز).

موقف الشيخ القرضاوي عن تعليق أو ردود الكتاب "الحلال والحرام":

والحقيقة أن الشيخ القرضاوي لم يعقب على هذه الردود والتعليق؛ لأنها ركّز على الأمور الخلاقية التي سيظل الناس يختلفون فيها إلى ما شاء الله، وقد ملأ فيها إلى جانب التيسير وفق منهجه الذي اختاره لنفسه، واطمأن إلى صوابه، وهو التيسير في الفتوى والتبشير في الدعوة، أتباعاً لأمر النبي الكريم: كما روي عن أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «بَسُّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا»^١.

ولأن منهجه العام: ألا يضيع الوقت في الردّ، وردّ الرد، ولا سيّما في القضايا التي لا ينتهي الخلاف فيها، نظراً لتعدد زوايا النظر، بين المقاصديين والحرفيين، وبين من يأخذون بالأيسر ومن يأخذون بالأحوط، وبين من يعيشون في الماضي ومن يعيشون في الحاضر، وقال الشيخ القرضاوي أخيراً: والأعمار أقصر وأنفس من أن ننقها في جدال ليس له ثمرة عملية في النهاية.

ولكن عنى القرضاوي فقد بالردّ على تعليق "دار الاعتصام"؛ لأنه نشر مع كتابه وجلده، ولم يكن تعليماً منفصلاً، وقد نشر كذلك دون إذن الشيخ القرضاوي، وهو لا يلبق، وقد أغضبه وضاق به.^٢

٢. فتاوى معاصرة (١٣ أجزاء):

مزايا فتاوى في نظر الأستاذ أبي شقة:

في أواخر الثمانينات من القرن العشرين، اتجه التفكير إلى تجميع ما تيسر من «فتاوى» القرضاوي المنتثرة، وقد طلب ذلك منه من أصدقائه والمحيطين به، أمهم حبيبه الأستاذ عبد الحليم أبو شقة رحمه الله، الذي ألح عليه بجمع مادّة الكتاب، وخصوصاً ما أذاع التلفزيون قطر في برنامجه الأسبوعيّ المسمّى «هدي الإسلام».

وقال: إن فتاواك تتميز بعدة أمور:

منها: أنها مدلّلة، فكلّ حكم معه دليله.

ومنها: أنها لا تتعصّب لمذهب معيّن، ولا لمدرسة خاصّة.

ومنها: أنها تعيش في واقع الناس وتتعامل مع مشكلاتهم وهمومهم، ولا تحلق في الخيال.

ومنها: أنها تذكر الحكم مقروناً بحكمته ومقصده الشرعيّ.

ومنها: أنها تخاطب العقل المعاصر، وتتحدّث بأسلوب العصر، فهي مفهومة للجميع.

ومنها: أنها تتبني التيسير لا التعسير، أتباعاً للمنهج النبويّ.

وقال الأستاذ عبد الحليم: لقد رحّب الناس بمنهجك الفقهي، وأسلوبك في كتابة الفقه، حين كتب «الحلال والحرام في الإسلام».

وهذه الفتاوى تتمّة لهذا الكتاب.^٣

١ البخاري، **الجامع الصحيح للبخاري**، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «بَسُّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا»، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ)، رقم الحديث: ٦١٢٥، ج ٨، ص ٣٠. والنيسابوري، مسلم، **الصحيح لمسلم**، باب في الأمر بالتيسير، ترك التنفير، (بيروت، دار إحياء التراث العربي)، رقم الحديث: ١٧٣٤، ج ٣، ص ١٣٥٩، عن نفس الراوي ولكن «وَسَكَّنُوا» بدل «وَبَسُّرُوا».

٢ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، **ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة**، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٣٤٦ - ٣٤٧

٣ المرجع السابق، ٢٠١٠م، ج ٤، ص ٦٠١ - ٦٠٢

اختيار الأستاذ أبي شقة عنوان «فتاوى معاصرة»:

وكان الشيخ القرضاوي اختار لها عنوان «من هدي الإسلام» مقتبسًا من اسم البرنامج الذي كان يقدمه في تلفزيون قطر منذ نشأته وإلى اليوم، ولكن الأستاذ عبد الحلیم رأى أن يضيف إلى هذا العنوان عنوانًا آخر أدلّ على المضمون والمقصود، وهو «فتاوى المعاصرة» فقد كان حريصًا على إبراز هذه الصفة: أنها إجابات عن أسئلة الناس، وأن هذه الإجابات بنت عصرها وواقعها. هكذا ظهر الكتاب،^١ وكان ناشره الأستاذ عبد الحلیم شقة نفسه، الذي طبع له قبل ذلك كتاب: «الاجتهاد في الشريعة الإسلامية» مع نظرات في الاجتهاد المعاصر.

اشتغال الشيخ القرضاوي بالفتوى منذ زمن مبكر:

جدير بالذكر أن الشيخ القرضاوي شغل بالفتوى منذ زمن مبكر في حياته. فقد بدأ في ممارسة الدروس الرمضانية في مسجد المتوي بالقرية، وهو ابن السادسة عشرة. ومن جلس مجلس درس لا بد أن يسأله الناس، ولا بد من أن يجيب عن أسئلتهم. كما قام الشيخ القرضاوي بتدريس «الفقه» لأهل القرية، وهو ابن الثامنة عشرة، حيث كان في السنة الأولى الثانوية بالمعهد الديني في طنطا. وكان يستعين في إجاباته بعد توفيق الله تعالى، بما درسه في الأزهر، وبقرائته الخاصة، وبمخزونه مما سمعه من القرية طوال فترة صباه، ولكنه كثيرًا ما كان يخرج عن المألوف من إجابات المشايخ المعتادة إلى إجابات كثيرًا ما كانت تحدث ضجة في المجتمع القروي. وحينما أصبح في كلية أصول الدين، وبات عمره أربعًا وعشرين أو خمسًا وعشرين سنة، وكان يخطب في مسجد آل طه بالمحلة الكبرى، كثيرًا ما كان يقعد جلسة للإجابة عن أسئلة الجمهور فيما يهتمهم في أمور دينهم وإسلامهم. وهذا ما سلكه حين عُيّن خطيبًا بمسجد الزمالك بالقاهرة، فكثيرًا ما كان يقعد جلسة بعد صلاة الجمعة للرد على استفتاءات الناس.

برنامج «نور وهداية» و«هدي الإسلام»:

واستمر هذا الاتجاه في قطر ... وعندما أنشئت إذاعة قطر، ابتدأ معها برنامج «نور وهداية» للإجابة عن أسئلة الناس ورسائلهم، وكان يقرؤها عليه الإذاعي الشهير الأستاذ محمود الشاهد مراقب البرنامج في إذاعة قطر. وقد ظل هذا البرنامج في الإذاعة حوالي سبعة عشر عامًا، لم يطلب الشيخ القرضاوي الإغفاء منه، إذ كان مشغولًا ببرنامج آخر مثله، ولكنه في التلفزيون، وهو برنامج «هدي الإسلام» الذي زال تلفزيون قطر يقدمه إلى اليوم، فاكتمى بالبرنامج المرئي عن البرنامج المسموع، ولا سيّما أن موضوعهما واحد.^٢

برنامج «الشريعة والحياة»:

ولما ظهرت قناة «الجزيرة» عرض على الإخوة المسئولون في الجزيرة: الشيخ حمد بن ثامر، والأستاذ محمود السهلاوي: أن يُقدّم برنامجًا دينيًا يقوم على الحوار، ويتلقى أسئلة الناس على الهواء، مرّة كلّ الأسبوع، فرحب الشيخ القرضاوي بذلك كلّ الترحيب، وقام برنامج «الشريعة والحياة»، الذي كان له صداه في أنحاء العالم، وخصوصًا لدى من يعرفون العربية.

ظهور الجزء الأول من «فتاوى معاصرة»:

المهم أن الشيخ القرضاوي استجاب لطلب «أبو شقة» وجمع مادّة الجزء الأول من إجابات تلفزيون قطر، فُرغ من الأشرطة الورق، ولم يكد يعمل فيها قلمه إلا قليلًا.

١ ألفردّواوي، يوسف بن عبد الله، فتاوى معاصرة، مقدمة، (القاهرة، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م)، ج ١، ص ٥

٢ ألفردّواوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٦٠٣

وظهر الجزء الأول بهذه الصورة، تلمح فيها صورة الارتجال، وبعد أمسى جلّ اعتماده على الكتابة: أن يعيد تحرير الإجابة ويسطرها بقلمه. فهذا أدقّ وأضبط وأقدر على الاستفاء والاستيعاب. لقد صدر من «فتاوي معاصرة»: ثلاثة أجزاء، وكان الجزء الرابع يوشك أن يتمّ ليذهب إلى المطبعة بتيسير الله، وبعد قليل قد صدره بفضل الله وعونه. وكان حال كتابه «فتاوي معاصرة في سنة ١٩٨٩م. وهكذا صدر الأجزاء البواقي بالتدرّج وبالتسلسل.^١

استفتاءات تشمل كلّ جوانب الحياة:

ومن الناس من يضيّقون ذرعًا بالفتاوى عن الإطار الدينيّ المَحْض من الصلاة والصوم والزكاة والرّضاع والزواج والطلاق، لتسأل في أمور اقتصادية، أو أمور سياسيّة أو أمور طيّبة أو أمور فلكيّة، مما للدين صلة به. ويقول هؤلاء، وهم عادةً من أعداء الدين: ما لعلماء الذين يدسّون أنوفهم في كلّ شيء، ويريدون أن يفتوا في كلّ أمر من أمور الحياة؟ ولا ذنب في الحقيقة لعلماء الدين، إنما الذنب للدين نفسه، الذي ألزم الفرد، وألزم الجماعة أن ينقادوا لحكم الدين، وأن يسألوا أهل الذكر فيما مجهولونه أو يشتهه عليهم من الأحكام.

وهؤلاء يريدون أن يسألوا الإسلام من شموله وتكامله، وهو يوجّه الحياة كلّها فردية واجتماعية، وفوق أمر الله ونهيه ... وهذه فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، وفتاوى العلامة رشيد رضا، وفتاوى الشيخ محمود شلتوت وغيرهم، وفتاوى المفتين الكبار، مثل الشيخ عبد المجيد سليم، والشيخ حسنين مخلوف، والشيخ حسن مأمون، والشيخ جاد الحقّ، وغيرهم. وهو ما نشرته وزارة الأوقاف فيما يقرب من عشرين مجلّدًا. وجدها الشيخ القرضاوي وقد شملت كلّ جوانب الحياة. بل إن كثيرًا من المصلحين يأخذون على علماء الدين استغراقهم في أحكام الخيض والنفاس والطهارة والنجاسة والرّضاع وغيرها، مُهمِّلِينَ الأحكام الخاصّة بالمجتمع والأمة.

إن الإسلام ينكر على المسلم - محكومًا كان أم حاكمًا - أن يقتحم الأشياء، ويخوض في الأمور، من دون أن يسأل نفسه: أهذا مشروع أم غير مشروع؟ وإذا كان هو لا يعرف الحكم فلم لا يسأل العالم الثقة: أهذا جائز أم غير جائز؟

كما ينكر الإسلام عليه: أن يسأل غير الثقات من أهل الجهل أو أهل الهوى، فيضلّه على علم، كما جاء في الحديث المتفق عليه: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا».^٢

السؤال عما يهّمُّ أمر الأمة:

وفي مقابل هؤلاء العلمانيّين والليبراليّين، نجد من الإسلاميين: من يضيّق ذرعًا بالفتاوى التي تقتصر على الفرعيّات الجزئية أو الجزئيّات الفرعية، ولا نسأل فيما يهّمُّ أمر الأمة:

لا نسأل عن تزوير الانتخابات: أهو حلال أم حرام؟

لا نسأل عن كِبَتِ الحريّات: أهو معروف أم منكر؟

١ ألفردّواوي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٦٠٤

٢ البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، *الجامع الصحيح للبخاري*، باب: كيف يقبض العلم، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ)، رقم الحديث: ١٠٠، ج ١، ص ٣١، والنيسابوري، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري، *الصحيح لمسلم*، باب: رفع العلم وقبضه وظهور الجهل، (بيروت، دار إحياء التراث العربي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ)، رقم الحديث: ٢٦٧٣، ج ٤، ص ٢٠٥٨

لا نسأل عن إهدار حقوق الإنسان: في أيّ خيانة من الذنوب يوضع؟

لا نسأل بُجَّار المخدّرات: أيجوز انتحاجهم للمجالس النيابية أم لا؟

لا نسأل عن مشروعية محاكمة المدنيين في محاكم عسكرية لا تتوقّر فيها مقوّمات العدالة المحكمة التي تتوقّر في المحكمة المدنية.

لا نسأل عن حكم تعذيب المتهمين - خصوصاً السياسيين - لإكراههم على الاعتراف بما تريده السلطة.

وغير ذلك من الأسئلة التي تخرج أصحاب السلطة التنفيذية^١.

إن الدين ينبغي تحكيمه في حياة الناس حتّى تستقيم على الحقّ، وتمضي على الطهر، وتحرى العدل والبرّ، وتبتعد عن الإثم

والعدوان. وما حكم به الدين يجب أن يتبع وينفذ، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ

أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [٥١]﴾.^٢

٣. منة سؤال عن الحجّ والعمرة والأضحية

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، فتاوى معاصرة، مقدمة، (القاهرة، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م)، ج ١، ص ٣

٢ القرآن الكريم، النور (٢٤)، الآية [٥١].

المبحث الثاني: تصانيفه في "تيسير الفقه للمسلم المعاصر"

١. نحو فقه ميسر معاصر

٢. مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية:

من أهم ما صدر للشيخ القرضاوي في تلك المرحلة (سبتمبر سنة ١٩٩٠ م) وما بعدها. كتاب «مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية» وهو أحد المدخل العلميّة الضروريّة لمن يريد أن يتخصّص في دراسة الشريعة الإسلاميّة. وهو غير «مدخل لدراسة الفقه الإسلاميّ»... لأن الحديث عن الشريعة غير الحديث عن الفقه.

وفي هذا الكتاب عن الشريعة بدأ الشيخ بفصل عن الشريعة وعلاقتها بالشرائع السابقة «اليهوديّة والنصرانيّة» وبالفقه والقانون. كما تحدّث عن مصادر الشريعة المعصومة، وهي تتحدّد في: القرآن الكريم والسنة النبويّة، ثمّ كلمة سريعة عن المصادر الأخرى، وكذلك تحدّث عن «المقاصد العامّة للشريعة» من حيث تحقيقها لمصالح الخلق، ودرؤها المفاسد عنهم. كما تحدّث الدكتور القرضاوي عن خصائص الشريعة، التي تجسّدت في: الرّبانيّة والأخلاقيّة والواقعيّة الإنسانيّة والتناسق والشمول.^١

وكذلك تحدّث الشيخ عن عوامل السعة والمرونة في الشريعة، وهي خمسة عوامل: فصلّها. وأضاف الشيخ الدكتور القرضاوي فصلا عن الشريعة في مجال التطبيق، وفصلا آخر عن شروط النجاح لتطبيق الشريعة. ثمّ خاتمة في تقنين الشريعة الذي بدأ منذ ظهور «مجلّة الأحكام» في أواخر العهد العثماني، ثمّ حدث فيه اختلاف، بين من يوجبه ومن يمنعه، وذكر مخاوف بعض العلماء من التقنين. ثمّ بيّن الشيخ الاعتبارات التي تُرَجِّحُ التقنين. ثمّ وضّح المصنّف ملامع التقنين الشرعيّ الذي نشده.

وهذا مدخل للشريعة، غير المدخل للفقه كما سبق، فهذا يعني أن يتحدّث عن معنى الفقه ونشأته ومذاهبه، ما بقي منها وما انقرض، والفقه غير المذهبي، وتاريخ الفقه وتطوّره من عصر إلى عصر، بين الاجتهاد والتقليد، وقواعد هذا الفقه، وكتبه، ومحاولات تجديد الفقه في عصرنا، ومجامع الفقه الحاليّة ودورها. وقد كتب الشيخ القرضاوي هذا الكتاب ليقدم لطلاب كليّة الشريعة في جامعة قطر، أو لطلاب الدراسات الأدبيّة العامّة. وكان تأليفه أو تمامه تأليفه في الجزائر حين أعار إليها من قطر في السنة الدراسيّة ١٩٩٠م - ١٩٩١م. ومن هناك أرسله الشيخ القرضاوي مع أحد الإخوة المسافرين ليسلمه إلى مكتبة وهبه، ولكن الأخ حدثت له ظروف، وهذا الظروف أخرته عن إيصال الكتاب في مواعده، حتّى خشي الشيخ على الكتاب من الضياع. ورّمّا لم يكن عنده صورة كاملة منه. وهذه مصيبة كبيرة لا يعرفها إلا من يعاني في تأليف الكتب حتّى تكتمل وتتهيأ للطباعة والنشر.

ولقد طبع الكتاب ورأى النور بعد لأيّ، وقرّر في كليّة الشريعة في قطر، كما قرّرت بعض الكليّات في بلاد شتّى، منها كليّة الأوربيّة الإسلاميّة وغيرها. وهو كتاب صالح لأن يكون ضمن مكتبة المثقّف المسلم العادي، فقد تجنّب فيه عورة المصطلحات، وغوامض المفاهيم، والعبارات القديمة التي لا يفهمها إلا المتخصّصون.^٢

٣. فقه الطهارة

٤. فقه الصيام

٥. فقه الغناء والموسيقى:

١ ألفردّواوي، يوسف بن عبد الله، مقدمة، مدخل لدراسة الشريعة الإسلاميّة، مقدمة، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٩٩١م)، ص ٤

٢ ألفردّواوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٦٦٠

جدير بالذكر هنا - أن المؤتمر انعقد في سمرقند بمناسبة مشروع تجديد وتوسعة مسجد الإمام البخاري في أوزبكستان. كان ذلك في شهر أكتوبر سنة ١٩٩٣م. وكان الشيخ القرضاوي من أحد المدعوين لهذا المؤتمر، وشارك فيه. وفي أحد المساء أقام لهم محافظ سمرقند: حفل عشاء مصحوب بالموسيقى، تكريمًا للعلماء الذين قدموا من بلاد العرب والإسلام.

ثورة المشايخ على الموسيقى:

وما إن سمع بعض المشايخ هذه الموسيقى، حتى ثارت ثائرتهم، وهاج هائجهم، وهمس بعضهم في أذن بعض، وسرعان ما تحوّل الحمس إلى الجهر: اللهم إن هذا منكر لا يرضيك، وأقبل بعضهم إلى الشيخ القرضاوي يقول: كيف ترضى يا شيخ يوسف أن تجلس في حفل فيه منكر؟

موقف الشيخ القرضاوي حول الموسيقى:

قال الشيخ القرضاوي لهم: يا جماعة لا بُدَّ أن يكون العالم حكيماً، لا بدَّ أن يراعي الظروف... هذه البلاد حكمتها الشيوعية الملحدة سبعين عاماً، وهي لم تتحرر منها تماماً، لا يزال حكامها القدامى يمسكون بزمامها. وأنتم تعلمون أنه يجوز السكوت على المنكر مخالفة منكر أكبر منه، وهذا منكر صغير، بل أمر الموسيقى مختلف فيه. والمختلف فيه يجوز السكوت عليه. بل الإجماع: ألا ينكر أمر مختلف فيه. قال الشيخ القرضاوي: وقد علمتُ أن هؤلاء يغنون بمدائح نبوية، قصدوا منها تكريمنا والاحتفاء بنا! لا بدَّ أن تصبروا وتسكتوا على هذا حتى لا يخفق مشروعنا. ذكر الشيخ القرضاوي: قلت هذا أو قريباً منه بصوت خافت، بدون أن تحدث ضجة. وكان الشيخ القرضاوي يجلس عن يمين الشيخ أبي الحسن الندوي الذي يجلس عن يمين المحافظ الداعي إلى العشاء. وأبلغ الشيخ أبا الحسن، وفأبدى أسفه، وقال: لا حيلة أمامنا إلا السكوت.

إخراج الفرقة الموسيقية:

ولكن العلماء المخالفون لم يقدروا الأمر، وأرادوا أن يعاملوا هذا البلد كأنه بلد إسلامي، يحاسب على الكبيرة والصغيرة والشبهة. وكان أشدهم في ذلك الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، والدكتور محمود طحان العالم السوري وأستاذ الحديث بالكويت، وغيرهم. ثم لم يكتفوا بالقول، فترك جماعة منهم مائدة العشاء، وخرجوا تبعاً، مما جعل المحافظ يسأل: ما الأمر؟ فأخبروه: أن المشايخ يعترضون على وجود الفرقة الموسيقية! قال: إنما أردنا تكريمهم. ثم أمر بإخراج الفرقة من المكان.

عودة الشيوخ وهدوء ثائرتهم وغضب المحافظ:

وهنا عاد الشيوخ الغاضبون، وهدأت ثائرتهم. ولكن الذي ثار باطنه على الجميع هو المحافظ الذي أنهى العشاء، وقد بدا عليه التأثر والغضب، وإن لم يقل شيئاً، وصافحهم وانصرف.

وقفه نقد وتحليل:

وهنا يقف المرء وقفه نقد وتحليل لما حدث. هل كان الأمر يستحق هذه الغضبة المصيرية من المشايخ العلماء؟ ألم يكن هناك من الأعذار والمخففات ما يستوجب موقفاً أخفّ وأيسر من موقف الإنكار الشديد؟ إن الأمر الذي أنكره المشايخ ليس منكرًا جمعاً عليه، بل هو منكر مختلف فيه قديماً وحديثاً، وحسبنا أن رجلاً مثل ابن حزم يتمسك بظاهر النصوص وحرفيتها، لم يجد عنده نصاً من قرآن ولا سنة يجرم الغناء والآلات «الموسيقية». ويكفي أن نقرأ كتاباً مثل «نيل الأوطار» لنرى الخلاف منتشرًا بين الأئمة والفقهاء في

سائر العصور، وفي الغناء بآلة وبغير آلة.^١ ومن القواعد المتفق عليها: أن لا إنكار في المسائل المختلف فيها. وقد أَلَّفَ الشيخ القرضاوي في الموضوع كتابًا المسمَّى بـ «فقه الغناء والموسيقى». رجَّح فيه أنه لا يوجد نصُّ صحيح الثبوت، صريح الدلالة، على حرمة الموسيقى. وقد أَلَّفَ عدد من العلماء المعاصرين انتهوا إلى ما انتهت إليه.

قال الشيخ القرضاوي: ومن ناحية أخرى: كان يمكن السكوت على هذا المنكر - لو سلَّمْنَا بمنكرِيته - لجملة أسباب، منها: ظروف البلد الذي يستضيفنا، وأنه خارج من شيوعية سافرة حكمته نحو سبعين عامًا، وأنا ضيوف على هذا البلد، وأنا نحاول إقامة مشروع نرجو له النجاح، وأن الرفق في معالجة الموقف أولى من العنف، وما دخل الرفق في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه. ثم هذا أمر عمَّت به ألبُلُوى في داخل بلاد المسلمين التي نعيش فيها، ولا نستطيع أن نمنعه، وعموم البلوى من أسباب التخفيف والتيسير فيه.^٢

٦. فقه اللُّهُو والترويح

٧. الاجتهاد في الشريعة الإسلامية:

عند الشيخ القرضاوي أن الاجتهاد فريضة وضرورة لِلْمُؤَهَّلِينَ يوجبها الشرع، وضرورة يحتمها الواقع، ويحترم نتائج الاجتهاد، وإن خالفت رأيه، ما دام صادرًا من أهله في محلِّه، ويتبني ما قاله أمير المؤمنين في الحديث، وإمام الفقه الورع سفيان بن سعيد الثوري: إنما الفقه الرخصة من ثقة، أما التشديد فيحسنه كل واحد. كما يتبنى قاعدة المنار الذهبية: «تعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه».^٣

وإن أعظم نعم الله علينا هي نعمة الإسلام الذي أكرمنا الله به ارتضاه لنا شرعًا منهاجًا، حيث قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِيمَانِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [٣]﴾.^٤ وإذا كان القرآن آخر كتب الله، ومحمد خاتم رسل الله، فإن شريعته هي خاتمة الشرائع الإلهية؛ لهذا أودعها الله الصلاحية لكل زمان ومكان، فهي شريعة عالمية خالدة.

وأن الشيخ القرضاوي لموقن يقينًا لا شك ولا ريب فيه: أن الفقه الإسلامي المعبر عن هذه الشريعة - بمصادره الغنية، وأصوله المحكمة، وقواعده الضابطة، ومدارسه الاجتهادية، وثروته الفكرية، لجدير أن يمد الأمة بكل ما تحتاج إليه من فتاوى وأقضية وتشريعات، تحقّق المصلحة، وتدرأ المفسدة، وتلائم الفطرة، وتقيم الموازين القسط بين الناس.

كل ما نفتقر إليه هذا الفقه وينمو ويزدهر أمرين:

الأول: اجتهاد معاصر قويم، ينظر إلى الإسلام وأصوله بعين، وينظر إلى العصر بعين أخرى، سواء كان اجتهادًا ترجيحًا يختار من أقوال الفقهاء - على تعدد مشاربهم ومذاهبهم منذ عصر الصحابة رضي الله عنهم من بعدهم - ما كان أقوم قبالًا، وأرجح دليلًا، وأقرب إلى تحقيق أهداف الشرع ومصلح الخلق، ويرعى قاعدة تغير الفتوى بتغيير الزمان والمكان والعرف والحال.

١ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *فقه الغناء والموسيقى*، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٩٩٤م)، ص ٢٨

٢ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٧٣٣ - ٧٣٤

٣ ما قاله محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن ملا علي خليفة القلموني الحسيني (المتوفى: ١٣٥٤هـ)، وهو كان مجددًا وتلميذ الشيخ الإمام محمد عبده. وهو أَلَّفَ تفسيرًا مشهورًا المسمى "تفسير المنار" ويعتبره من التفاسير المعاصر.

٤ القرآن الكريم، المائدة (٥)، الآية [٣].

أم كان اجتهادًا إنشائيًا، يفتي في القضايا الجديدة، وما أكثرها في ضوء النصوص والمقاصد الشرعية، دون تعصّب لرأي قديم، ولا عبودية لفكر جديد مغلبين سعة النصوص على ضيق الأقوال، وتيسير السّلف على تشديد الخلف، وفقه مدرسة المقاصد على حرفية مدرسة الظواهر، وتحرّر المتقدمين على تعصّب المتأخرين، وشجاعة أهل التجديد على تحرج أهل التقليد، مؤكّدين ما قاله الإمام ابن القيم: «إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلّها، ورحمة كلّها، ومصالح كلّها، وحكمة كلّها، فكلّ مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة، وإن أدخلت فيها من التأويل»^١.

والثاني: أن يدخل الفقه ميدان التطبيق، ولا يظل حبيس الكتب، فإن أعظم ما يحمي الفقه العمل به، ووضعه موضع التنفيذ في الفتوى والقضاء والتشريع، وبهذا يمتزج الفقه بالحياة، وتمتزج به الحياة. كما تظلّ كذلك طوال ثلاثة عشر قرنًا لم تعرف الأمة لها فيها مرجعًا قانونيًا ولا قضائيًا، غير الشريعة وفقهها، وإن جار في التطبيق. وآخر ما أصاب الفقه في هذا العصر: عزلة عن التقنين والحكم في مجالات الحياة المختلفة، فيما عدا مجال الأسرة والأحوال الشخصية، وإن كان بعض البلاد فرط فيها هي الأخرى.

وكان أهمّ ما وضعه الاستعمار عند احتلاله للديار الإسلاميّة هو: إبعاد الشريعة وفقهها عن توجيه الحياة بأحكام الله، ولم يكف يسلم من ذلك بلد في العلم الإسلاميّ كلّه إلا هذا البد الذي نجاه الله من الاستعمار، ونجاه بالتالي من الدخول في قفص القوانين الوضعيّة المستوردة.

بمذنبين الأمرين تعود للفقه حيويته وخصوبته وازدهاره، ويغدو قادرًا على مواجهة التطوّر وتوجيهه، في إبطار المشروع الحضاري الإسلاميّ الذي هو حُلْمُ أمتنا الكبرى^٢.

٨. من فقه الدولة في الإسلام

٩. الفتوى بين الانضباط والتسبّب

١٠. عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلاميّة

١١. الفقه الإسلاميّ بين الأصالة والتجديد

١٢. الاجتهاد المعاصرين الانضباط والانفراط

١ الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، *إعلام الموقعين عن رب العالمين*، (بيروت - دار الكتب العلمية،

الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، ج ٣، ص ٣

٢ ألفرّصاوي، يوسف بن عبد الله، *الاجتهاد في الشريعة الإسلاميّة*، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الثانية، ١٩٩٤م)، ص ٤٩

المبحث الثالث: مؤلفاته في "إسلاميات عامة"

١. العبادة في الإسلام:

الأستاذ عادل عاقل، صاحب "دار الإرشاد" في بيروت، وهو الذي بدأ الشيخ القرضاوي عنده نشر كتاب: "الإيمان والحياة" وكتاب "العبادة في الإسلام"، في سنة ١٩٦٥م، ثم نشر له بعد ذلك: عالم وطاغية، و"درس النكبة الثانية" ثم "فقه الزكاة" وغيرها.

كان كتابه الثاني الذي دخل به مُعْتَرَك التّأليف أو التصنيف العلميّ هو: "العبادة في الإسلام". والذي دفعه إلى كتابته: أن مجموعة من علماء الأزهر كان على رأسهم: الأستاذ النابه النشيط رشاد خليفة، قد أسسوا دارًا للنشر سموها: "دار الجميع للنشر والتوزيع". وأرادوا أن يبدأوا نشاطها بكتاب علميّ يخاطب العقل والقلب معًا، ليصدر في غُرّة شهر رمضان بعد أشهر قريبة، وطلبوا من الشيخ القرضاوي أن يكتب شيئًا عن "العبادة" وقيمتها ومكانتها وأثرها في الإسلام بمناسبة شهر الصيام والقيام.^١

واستجاب لدعوة الإخوة، وشرع يكتب عن العبادة، لا عن أحكامها العمليّة، التي يتناولها علم الفقه، ولكن عن "فلسفة العبادة". ولهذا كان على القرضاوي أن يضع أمامه أسئلة يُجهدُ في الإجابة عنها: ما العبادة؟ ومَنْ نعبده؟ فقد عبد الناس في مختلف الأزمنة آلهة شتى ضلّوا بها عن عبادة الله الخالق المعلوم؟ ولماذا نعبد الله؟ وماذا نعبد الله؟ وماذا نعبده إذا عبدناه؟ وما المجالات التي عبد الله فيها: أهي الشعائر التبعديّة المعروفة وحدها أم تشمل مساحة أوسع من ذلك؟ وماذا أصاب العبادة في الأديان السابقة من خلل فساد؟ وما الإصلاح الذي جاء به الإسلام في مجال العبادة؟ فقد حرّرها من رِقِّ الكهنوت وجعل قبولها مُنوطًا بِرُوحها لا بشكلها وطُوقسها، ورفض الابتداع والتزيّد فيها فحماها من المَسْخ والتحريف.

ثمّ ما أثر العبادات الكبرى في الإسلام في حياة الفرد والمجتمع من الصلاة والزكاة والصيام والحجّ؟ ثمّ ما هو المنهج الأمثل لتعليم العبادة؟ فقد لاحظنا أننا نسيء إلى عبادتنا بطريقة تعليمها للناس. وقد أخرج الشيخ القرضاوي الطبعة الأولى من الكتاب مختصرة لاستعمال الأخوة الناشئين له، ثمّ أضاف إليه ما يقرب من حجمه في طبعته الثانية التي صدرت في بيروت.

كان من الرجال الذين حرص القرضاوي على أن يُهديهم كتابه: "العبادة في الإسلام" بمجرّد ظهوره أستاذه البهي الخولي، وقد قرأ الكتاب بعناية، وقال له: إني وجدت في ثنايا الكتاب رُوحًا رتائيّة شَفَافَةً، طالما أحفيتها عنا بمناقشاتك العقلانيّة، لقد خدَعنا عقل الفقيه فيك عن قلب الصوفيّ! قال القرضاوي له: هذه الروح يا أستاذ لا شكّ أنك أحد مصادرها الأساسيّة، فمنك اقتبسنا، وعليك تتلمذنا. ولا أرى تعارضًا بين التوجّه الرتائيّ والنقاش العقلانيّ.

قال الشيخ البهي: هذا صحيح، إذا وضع كلّ منهما في موضعه.^٢ وكانت الطبعة الثانية لـ "العبادة في الإسلام" طبعة موسّعة، بحيث أصبح الكتاب ضعف ما كان في الطبعة الأولى.

٢. الإيمان والحياة:

ثالث كتاب صدر للقرضاوي بعد "الحلال والحرام في الإسلام" و "العبادة في الإسلام" كان: "الإيمان والحياة" وهذا الكتاب لم يطلبه أحد منه، مثل الكتابين السابقين. ولكن فكرته انبثق من الشيخ القرضاوي ومن داخله. التي نشرت مكتبة "دار الإرشاد".

١ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *العبادة في الإسلام*، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الثانية، ١٩٩٥م)، ص ٣

٢ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٥٥٥ - ٥٥٦

فقد رأى جُلَّ الذين يتحدّثون عن العقيدة يعنون بإثبات الأدلّة على صحّتها، ولا سيّما العقيدتين الكبيرتين والأساسيتين للأديان وخصوصاً الكنيّية وهما: وجود الله تعالى، وثبوت الوحي والنبوة.^١ وقد استخدم المتكلّمون قديماً بعض الأدلّة، التي لم تخل من اعتراض، مثل قولهم: العالم متغيّر، وكلّ متغيّر حادث، وكلّ حادث لا بدّ له من محدث، وهو: الله. وركّز الفيلسوف ابن رشد على دليل الإبداع في الكون ودليل العناية. وهما في الحقيقة دليلان قرآنيان.

واتّخذ الفيلسوف الألمانيّ "كانت" من "الأخلاق" أو "الوازع الأخلاقيّ" دليلاً على وجود الله. وتوسّع بعض رجال العلم الغربيّين في تعميق الدليل الكونيّ، وهو ما يشمل عليه الكون من إبداع ونظام يستحيل أن يكون هذا كلّه قد تمّ من باب المصادفة، كما ناقش ذلك الأستاذ كريسي موريسون، رئيس أكاديميّة العلوم بنيويورك في كتابه: "الإنسان لا يقوم وحده" الذي ردّ فيه على كتاب جوليان هيكلّيّ بعنوان: "الإنسان يقوم وحده" أي مستغنياً عن خالق مدبّر. وقد ترجم كتاب موريسون إلى العربيّة تحت عنوان: "العلم يدعو إلى الإيمان".^٢

كما شارك ثلاثون عالماً أمريكياً في كتاب ينحو هذا المنحى، وهو: إثبات وجود الله تعالى عن طريق العلم، ونشرت مقالات هؤلاء العلماء تحت عنوان: "الله يتجلّى في عصر العلم".

وعلى هذا الأساس بدأ يكتب الشيخ القرضاوي هذا البحث و ينشره أولاً مقالات في مجلّة "نور الإسلام" التي تصدر عن إدارة الوعظ والإرشاد بالأزهر، وقد شدّت هذه المقالات إخوانه من علماء الأزهر الناهجين من الدعاة والكتاب والباحثين، منهم: الواعظ الأديب الأستاذ أحمد عبد الجواد الدومي رحمه الله الذي قابله وأصرّ على أن يقبل القرضاوي، لما قرأه من مقالات عن "العقيدة الحياة" وشجّعوه على الاستمرار فيها. ولكنه لم يصدر هذه المقالات في كتاب، إلا بعد أن أعرّ إلى قطر، وأضاف إلى هذه المقالات فصلاً جديدة، وعمد إلى نشرها بعنوان: "الإيمان والحياة" فقد رأى أن القرآن يستخدم بدل كلمة "العقيدة" كلمة "الإيمان" وهي أدلّ على مقصده من كلمة العقيدة، فلماذا لا يستعمل الكلمة القرآنية؟

فلا غرو أن أنّج الشيخ القرضاوي نيته لتسميّة كتابه: "الإيمان والحياة" وهكذا ظهر الكتاب، وعرفه الناس وطبع ما لا يقلّ عن أربعين مرّة.

٣. الخصائص العامة للإسلام:

في أوائل سنة ١٩٧٧م ظهر الكتاب المسمّى: الخصائص العامة للإسلام، الذي كان يدرّس لطلاب الجامعة في المقرّر الأوّل لمادّة "الثقافة الإسلاميّة". وكانوا يدرّسون هذا المقرّر لطلاب كليّتي التربية، قبل أن تنشأ جامعة قطر.

وكانت "الثقافة الإسلاميّة" مقرّراً إجبارياً مطروحاً على طلاب الجامعة، من جميع الكليّات وجميع الأقسام. وهي مادّة جديدة لم تقرّر إلا في بعض الجامعات العربيّة: مثل جامعات السعودية، وجامعة الكويت، وجامعة قطر، وجامعة الليبيّة.

وكانت بعض الجامعات تدرّسها تحت عنوان: "الحضارة الإسلاميّة". وقد اقترح على الشيخ القرضاوي هذا العنوان، ولكنه خشى أن يضيع المقصود من تدريس هذا المقرّر، وراء الاهتمام بالجانب العُمُرانيّ والفنيّ في الحضارة الإسلاميّة. وهو يريد أن يعطون الطالب

١ ألفقرضاوي، يوسف بن عبد الله، الإيمان والحياة، مقدمة، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٩٩٦م)، ص ٤

٢ المرجع السابق، ص ٦٢

جُرْعَة كافية في "فلسفة الإسلام" ونظره الكليّة لله وللإنسان، للحياة وللكون، للدين والدنيا، للفرد والمجتمع، هذا من ناحية وهذا ما يهتمّ به المقرّر الأول في الثقافة الإسلاميّة.

ومن ناحية أخرى: يريدون أن يبيّنوا للطلاب الأخطار التي تُهدّدُ الأمتة الإسلاميّة، والوجود الإسلاميّ؛ من الاستعمار الصهيونيّة، والفلسفات المستوردة، من الماركسيّة والوجوديّة وغيرها، الاستشراق والتبشير، ونحوها وكيف تواجهها الأمتة بوسائل إيجابيّة. وهذا ما يهتمّ به المقرّر الثاني للثقافة الإسلاميّة.^١ وكان كتاب: "الخصائص العامة للإسلام" أنسب وأقرب إلى المقرّر الأول، وهو جزء من المنصوص عليه في المقرّر بالفعل، وهو: الخصائص العامّة للدين الإسلاميّ. وكان كتابه: "الحلول المستوردة، وكيف حنّت على أمتنا؟" أقرب إلى المقرّر الثاني، وإن كان كلّ من الكتابين لا يُوفّيان المقرّر المطلوب حقّه كاملاً.

وقد تناول الشيخ القرضاوي بالشرح والتحليل في هذا الكتاب سبع خصائص هي:

١. الرئائيّة.
٢. الإنسانيّة.
٣. الشمول: ويعني به شمول الزمان والمكان والإنسان، وهو في الواقع يضمّ خصائص ثلاثاً، وهي: الخلود، والعالميّة، والاستعاب.
٤. الوسطيّة والتوازن.
٥. الواقعيّة.
٦. الوضوح.
٧. الجمع بين الثّبات والمرونة.

وبمناسبة كتاب: "الخصائص العامّة": أن الذي نشر الطبعة الأولى منه كانت "مكتبة وهبة".^٢

٤. مدخل لمعروف الإسلام: مقوماته. خصائصه. أهدافه. مصادره.

٥. الإسلام حضارة الغد

٦. الناس والحقّ:

بعد اتّفاق الشيخ القرضاوي مع الشيخ زهير الشاويش صاحب "المكتب الإسلامي" في بيروت على طباعة كتابه الصغير الحجم: "الناس والحياة"، وهو على الأسلوب الحوارية بين الشيخ وتلميذه. وقد احتفى به إخوانهم الأتراك. فترجموه بمجرّد صدوره. فقد أرسل إلى الشيخ القرضاوي في قطر أحد الإخوة الباحثين الناشطين من الأتراك، يطلب الإذن منه بترجمة كتاب "الناس والحياة" إلى تركيّة، وكان الكتاب قد نشره المكتب الإسلاميّ الذي يملكه الأخ الشيخ زهير الشاويش، في بيروت. فأرسل القرضاوي لهذا الأخ التركي بموافقتة على الترجمة، على أن تراجع شخصيّة علميّة تركيّة معروفة، واقترح عليه أن يراجع صديقه الدكتور علي أرسلان أيّدين.^٣

١. ألفَ قَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *الخصائص العامّة للإسلام*، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٩٨٨م)، ص ٢١

٢. المرجع السابق، ص ١ - ٣

٣. ألفَ قَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *الناس والحقّ*، مقدمة، (بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الرابعة، ١٩٧٥م)، ص ٤

وذهب الأخ بعد أن ترجم الكتاب، فعرضه على الدكتور علي أرسلان، فردّه وطلب منه أشياء يجب أن يراعيها، وظلا في أخذ وردّ، وإذا بهم يفاجأون بهذا الأخ الذي ترجم الكتاب دون إذن من أحد! ولكن سأل الشيخ القرضاوي الإخوة عن الترجمة، فأثنوا عليها، فقال: هذا هو المهمّ.

وقد ترجمت عشرات الكتب من مؤلفاته إلى اللغة التركيّة، حتى الكتب الكبيرة مثل: "فقه الزكاة"، و "فتاوى معاصرة"، وغيرها. وإن لم يدفع أيّ ناشر لها، أدنى حقّ للمؤلّف، وقد حرّضه بعض الإخوة أن يرفع دعوى بطلب حقوق التأليف، ولكن الشيخ القرضاوي لم يفعل، فبحسبه أن ينشر الكتاب بلغات المسلمين، وأن ينفع به الناس. المهم أن تكون الترجمة مقبولا لفظاً ومعنى. وهذه القصّة وقعت في سنة ١٩٦٧م.

٧. جيل النصر المنشود

٨. درس النكبة الثانية:

إنه نكبة الخامس من حزيران "يونيو" (١٩٦٧/٦/٥م) الذي عرف بـ"حرب الأيام الستة". والذي هزمت فيه "إسرائيل" مصر وسوريا، هزيمة ثقيلة، واستولت على سيناء في مصر، لقد كانت نكبة ١٩٦٧م كارثة على مصر، وعلى سوريا، وعلى فلسطين، وعلى الأردن، وعلى العالم العربيّ كلّهُ.^١

لقد انتهى مصير القضية إلى نكبة حزيران أو يونيو ١٩٦٧م، واحتلّت إسرائيل ما بين القنطرة في مصر والقنيطرة في سوريا. أي احتلّت سيناء والجولان مع الضفّة الغربيّة وغزة، بل اعترف عبد الناصر بلسانه في خطابه في ٢٣ يوليو ١٩٦٧م: أن الطريق كان مفتوحاً أمام إسرائيل إلى القاهرة ودمشق.

حين وقعت هزيمة ١٩٦٧م، التي سمّوها «النكسة» أصدر الشيخ القرضاوي كتاباً بعنوان «درس النكبة الثانية: لماذا انهزمنا وكيف نصرنا؟» يقصد: أنها النكبة الثانية بعد النكبة الأولى سنة ١٩٤٨م. فقد اغتصبوا ما اغتصبوا من فلسطين بحرب ١٩٤٨م، وبهذا الحرب الخاطفة استولّوا على ما بقي من فلسطين.^٢

وذكر الشيخ القرضاوي – بل أقول: إن أثر هذه النكبة كان أعظم خطراً من النكبة الأولى. فقد ظلّ العرب – بعد النكبة الأولى – متمسكين بأن فلسطين كلّها من التهر إلى البحر: وطنهم المغتصب، وبلدهم المسلوب، وحقهم فيه ثابت لا مرّاء فيه، وأنهم سيظلّون يجاهدون بكلّ ما لديهم من قوّة، لطرد العدو الغاصب، واسترداد الوطن الضائع، وإن طال عليهم الأمد، فإن مُضَيِّ الزمن لا يسقط الحقوق الثابتة، ولا يبطل حقّ المُواطنين في المطالبة بوطنهم المغصوب.^٣ ومعني هذا: أن العدوان الجديد ألغى العدوان القديم، بل أضفى الشرعية عليه، أي عدوان ١٩٦٧م أضفى على عدوان ١٩٤٨م!!

٩. خطب الشيخ القرضاوي (سبعة أجزاء)

١٠. ابتهالات ودعوات

١١. لقاءات ومحاورات حول قضايا الإسلام والعصر (جزءان):

١ أَلْقَرَضَاوي، يوسف بن عبد الله، درس النكبة الثانية، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٩٧٠م)، ص ٣٥

٢ المرجع السابق، ص ٤٩

٣ المرجع السابق، ص ٥٢

* حوارات الشيخ القرضاوي مع الصحف والمجلات

مع رجال الإعلام والصحافة:

أودُّ (الباحث) أن أذكر مرحلة من مراحل سيرة ومسيرة الأستاذ الشيخ يوسف القرضاوي. في هذه المرحلة لقي الشيخ كثيرين من رجال الإعلام والصحافة من عرب وغربيين، أوريين وأمريكان، بعضهم جاء إلى الدوحة لمجرد لقائه وسؤاله، وخصوصاً عن الصحوة الإسلامية، وعودها الذي لفت إليه الأنظار في العالم، حتى قال له صحفي أمريكي باندهاش: 'إن الشباب في العالم كله يتعد عن الدين، وشباب العالم الإسلامي يلتفت حول الدين، ودعاة الدين ما سر ذلك؟'

ومعظم إجاباته عن هذه الحوارات كانت مرتجلة، ولكنها كانت واضحة في ذهنه تماماً، بعضها كتبها ... وجمع بعضها ونشر في كتب ... وبعضها أوصى بجمعه ونشره، وصدر منه: كتاب «قضايا معاصرة على بساط البحث»، وكتاب «حوارات ولقاءات حول الإسلام والعصر» في جزأين، وكتاب «نحن والغرب: أسئلة شائكة وأجوبة حاسمة».

حوار الأستاذ عمر عبيد حسنة:

ومن هذه الحوارات المهمة التي تستحق التسجيل في هذه الرسالة: حوار الكاتب الإسلامي المعروف الأستاذ عمر عبيد حسنة، مدير مجلة «الأمة» القطرية الشهيرة، الذي أجرى معه حواراً معمقاً ومطولاً في رمضان ١٤٠٨ هـ إبريل الموافق ١٩٨٨ م، نشره في «كتاب الأمة» بعنوان: «فقه الدعوة: ملامح وآفاق» الذي جمع فيه مجموعة حوارات «الأمة» مع كبار العلماء والمفكرين المسلمين، وكان حواراً معه حول «الاجتهاد والتجديد بين الضوابط الشرعية وحاجات العصر».

خلاصة آراء الشيخ القرضاوي في الإصلاح والتجديد:

ولعل نظرة سريعة على عناوين الكتب التي قدّمها للمكتبة الإسلامية، وتعطي صورة واضحة عن شمولية واهتماماته.

فهو يرى أن الحركة الإسلامية تعني مجموع العمل الإسلامي الجماعي الشعبي المحتسب المنبثق من ضمير الأمة، والمعبر بصدق عن شخصيتها وآمالها وأمانها وعقيدتها وأفكارها وقيمها الثابتة وطموحاتها المتجددة وسعيها إلى الوحدة. كما يرى أنه ليس من العدل تحمل الحركة الإسلامية مسئولية كل ما عليه مسلمو اليوم ضياع وتمزق وتخلّف، بل إنّ ذلك هو حصيلة عصور الجمود وعهود الاستعمار. ويرى ضرورة أن تقف الحركة الإسلامية مع نفسها للتقويم والمراجعة، وأن تُشجّع أبناءها على تقديم النصح وإن كان مرّاً، والنقد وإن كان موجعاً.

ويقول: إن بعض المخلصين يخافون من فتح باب النقد أن يُلجّه من يحسنه ومن لا يحسنه. وهو لا ينكر تعدد الجماعات العاملة للإسلام، ولا يرى مانعاً من التعدد إذا كان تعدد تنوع وتخصّص: فجماعة تختصّ بتحرير العقيدة من الحُرَافة والشرك، وأخرى تختصّ في تحرير العبادات وتطهيرها من البدع، وثالثة تُعني بمشكلات الأسرة، ورابعة تعني بالعمل التربوي.

ويرى أن الحركة الإسلامية أن تنتقل من مرحلة الكلام إلى مرحلة العمل على مستوى الإسلام ومستوى العصر. ويأخذ على بعض العالمين للإسلام حرمان أنفسهم من العمل لخير الناس أو مساعدتهم حتى تقوم الدولة الإسلامية الموحدة. ويرى ضرورة التخطيط القائم على الإحصاء ودراسة الواقع. ويأخذ على بعض العاملين للإسلام النفور من الأفكار الحرة والنزعات التجديدية التي تخالف المألوف والمستقر من الأفكار، وضيقتهم بالمفكرين، وربما أصدروا بشأهم قرارات أشبه بقرارات الحرمان.

ويقول: إن أتباع أهواء العامة أشدَّ خطرًا من أتباع هوى الشيطان، لأن الذين يتبعون هوى السلطان يكشفون ويرفضون. ويرى أن الاستبداد السياسي ليس مفسدًا للسياسة فحسب، بل هو مفسد للإدارة والاقتصاد والأخلاق والدين، فهو مفسد للحياة كلها. ويرى أن الصحوة الإسلامية تمثل فصائل وتيارات متعدّدة كلّها تتفق في حبّها للإسلام، واعتزازها برسالتها، وإيمانها بضرورة الرجعة إليه، والدعوة إلى تحكيم شريعته، وتحرير أوطانه، وتوحيد أمته. ويعتبر أهمّ تيارات الصحوة وأعظمها هو التيار الذي «الوسطية الإسلامية» لأنه التيار الصحيح القادر على الاستمرار، ذلك أن الغلو دائمًا قصير العمر وفقًا لسنة الله.

ويرى أن أهم المحاور التي يقوم عليها هذا التيار، والمعالم التي تميّزه:

- الجمع بين السلفية والتجديد
- الموازنة بين الثوابت والمتغيّرات
- التحذير من التمجيد والتجزئة والتميع للإسلام
- الفهم الشمولي للإسلام^١

وينصح الحركة الإسلامية أن تعمل على ترشيد الصحوة، ولا تحاول احتواءها أو السيطرة عليها، فمن الخير أن تبقى الصحوة حرة غير منسوبة إلى جماعة أو هيئة أو حزب. ويرى أنه ليس من العدل ولا من الأمانة أن نحمل الشباب وحدهم مسئولية ما تورّطوا فيه، أو تورّط فيه بعضهم من غلو في الفكر أو تطرف في السلوك... ويرى أن الشباب ضاق ذرعًا بنفاقنا وتناقضنا فمضى وحده في الطريق إلى الإسلام دون عون ما. ويرى أن المؤسسات الدينية الرسمية - على أهميتها وعراقتها - لم تعد قادرة على القيام بمهمة ترشيد الصحوة الشبابية، وعلاج ظاهرة الغلو، ما لم ترفع السلطات السياسية يديها عنها. ويرى أن أسباب الخلاف قائمة في طبيعة البشر، وطبيعة الحياة، وطبيعة اللغة، وطبيعة التكليف، فمن أراد أن يزيل الخلاف بالكليّة فإنما يكلف الناس والحياة واللغة والشرائع ضد طبائعها، وأن الخلاف العلمي لا خطر فيه إذا اقترن بالتسامح وسعة الأفق، وتحرر من التعصّب وضيق النظر. ويرى أن الأمة المسلمة اليوم ابتدعت في دين الله، والابتداع في الدين ضلالة، وجمدت في شئون الدين، والجمود في الدنيا جهالة، وكان الأجدر بها أن تعكس الوضع فتتبع في أمر الدين، وتبتدع في أمر الدنيا. ويرى أن من العلماء من قصّر في واجب البلاء المبين، ومنهم من مشى في ركاب السلاطين، ومنهم من جعل من نفسه جهازًا لتفريخ الفتاوى حسب الطلب. والحكام في الغالب أشبه بشعوبهم، وهو إفراز مجتمعيهم.^٢

١٢. قضايا معاصرة على بساط البحث

١٣. قطوف دانية من الكتاب والسنة

١٤. فقه الجهاد، (الذي نشر من مكتبة وهبة)

١ ولقد بلغ الشيخ القرضاوي ثلاثين معلمًا في كتابه «فقه الوسطية والتجديد في الإسلام» الذي صدر من مركز القرضاوي للوسطية الإسلامية والتجديد في مؤسسة قطر للتربية والعلوم وتنمية المجتمع.

٢ فقه الدعوة: ملامح وآفاق، مجلّة القطريّة الشهيرة، «الأمة»، عدد ١٩، فبراير ٢٠٠٢م، ص: ١٤٨ - ١٥١

المبحث الرابع: تصنيفاته في "الاقتصاد الإسلامي"

١. فقه الزكاة (جزءان):

في السنة الدراسية ١٩٦٨م - ١٩٦٩م اتفق الشيخ القرضاوي مع المطبعة ودار النشر على طبع الكتاب الذي اختار له عنوان: فقه الزكاة: دراسة مقارنة لأحكامها وفلسفتها في ضوء القرآن والسنة"، وكان الاتفاق مع الأستاذ عادل عاقل، مدير دار الإرشاد للنشر، على أن يقوم بنشر الكتاب، وقد اتفق هو مع مطبعة "دار القلم" اللبنانية لتقوم بالطباعة.

وسلم الشيخ القرضاوي المطبعة قدرًا مناسبًا من الأصول لتبدأ الطباعة بسرعة ما أمكنها، فالزمن لا ينتظر لأحد، وجامعة البنجاب تستعجله، وكلما فرغوا من ملزمة وصححوها التصحيح الأولي، وسلموا للقرضاوي "البروفة" الأخيرة ليصححها ويعتمدها لتطبع بعد التصحيح. وبدءوا العمل، ولكن الوقت كان قصيرًا، فلم يُنجزوا من طبع الكتاب أكثر من خمس عشرة ملزمة، والكتاب كبير سيصدر في مجلدين..... لهذا اتفق القرضاوي مع المطبعة على أن ترسل إليه ما تنجزه من الملائم إلى الدوحة في أثناء العام الدراسي، ليصحح ويرده على المطبعة، حتى لا تتعطل كثيرًا.

بيد أن هذا الاتفاق لم يتفد إلا في نطاق محدود، ولم يرسلوا إلى القرضاوي إلا عددًا قليلًا من الملائم، معتردين بأعداء شتى، من انقطاع التيار الكهربائي، ومن إضراب العمّال، وغير ذلك. ولم يتحقق ما رجاه أة ظننته من إمكان طباعة الكتاب في نحو ستة أشهر، فهذا كان ضررًا من التمتي، وما كل ما يتمي المرء يدركه. في شهر ديسمبر، سنة ١٩٧٠م، فرغ الشيخ القرضاوي المطبعة من كتابه "فقه الزكاة"، وظهر إلى عالم النشر والتوزيع في مجلدين، والحق أنه فرح به كما يفرح الوالد بولده، وفلذة كبده، ولا سيما أن ولادته لم تكن سهلة، فقد أخذت طباعته حوالي سنة ونصف، بحمد الله قد تم على خير^١.

ولقد استقبل الكتاب بحفاوة وتقدير كبيرين، وجاءت عنده رسائل من عدد من الشخصيات المرموقة التي أهدى الكتاب إليها، منهم:

* الشيخ عبد العزيز بن باز، الذي أرسل رسالة إلى الشيخ القرضاوي يتناهي فيها على الكتاب، ويطلب كمّيّة منه لتوزيعها على الجهات المختلفة في العالم، لتتنفع به.

* والشيخ علي الطنطاوي، وأثنى عليه في برنامجه في إذاعة السعودية، وفي برنامجه التلفزيوني "على مائدة الإفطار" في رمضان أكثر من مرّة.

* والشيخ أبو الأعلى المودودي، وقال عنه: إنه كتاب القرن "أي الرابع عشر الهجري" في الفقه الإسلامي. نقل ذلك عنه الأستاذ خليل أحمد الحمادي، مدير القسم العربي بالجامعة الإسلامية بباكستان.

* والشيخ أبو الحسن علي الندوي.

* والأستاذ محمد مبارك، الذي كتب عن الكتاب المهدى إليه في مقدّمة كتابه عن "الاقتصاد" في "نظام الإسلام" مُنوّهاً به، ومُنَبِّهاً أهل العلم على قيمته، فقال: "ومن الكتب الحديثة ما هو خاصّ بموضوع معيّن، ومن هذا النوع كتاب: "فقه الزكاة" للأستاذ يوسف القرضاوي، وهو موسوعة فقهية في الزكاة استوعبت مسائلها القديمة والحديثة، وأحكامها النصية والاجتهادية على جميع المذاهب

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، فقه الزكاة، مقدمة، (بيروت، دار القلم، الطبعة: الأولى، ١٩٧٠م)، ج ١، ص ٣

المعروفة المدوّنة، لم يقتصر فيها على المذاهب الأربعة، مع ذكر الأدلة ومناقشتها، وعرض لما حدث من قضايا ومسائل، مع نظرات تحليلية عميقة... وهو بالجملة عمل تنوّع بمثله الجامع الفقهيّة، ويُعدُّ حدثاً مهماً في تأليف الفقهي... جزى الله مؤلّفه خيراً.

* والشيخ عبد الله بن زيد المحمود.

* والشيخ محمد الغزالي، وقال: لم يؤلّف في الإسلام مثله في موضوعه. ذكر ذلك في كتابه: "مائة سؤال عن الإسلام".

٢. مشكلة الفقر، وكيف عاجلها الإسلام؟

الأستاذ سعيد العبار صاحب "دار العربيّة" التي نشرت الطبعّة الأولى من كتاب الشيخ القرضاوي "مشكلة الفقر، وكيف عاجلها الإسلام؟" وللأسف كانت طبعّة مليئة بالأخطاء إلى حدّ مثير. والحقيقة أنه لا يزعج الشيخ القرضاوي في النشر شيء كما تزعمه كثرة الأخطاء، ومنها أخطاء لا تغتفر، وأخطاء تفسد المعنى، وتناقض مقصود المؤلّف، ومنها ما يسقط كلمات أو سطرًا أو سطورًا، وهو ما جعل علماء تركيا قديمًا يتوقّفون في قبول "المطبعة" وإجازتها، خوفًا من تشوية كتب العلم والدين، لجهل أكثر عمّال الطباعة، بخلاف الناسخين الذين كانوا ينسخون الكتب قديمًا، فقد كانوا من أهل العلم والمعرفة.

ولا شك أن توقّف علماء تركيب مرفوض، ولا يجوز ترك هذه المصالح العظيمة التي تقوم بها المطبعة خشية مفسدة الأخطاء الطباعية، وعلينا أن نتفادها بما يمكننا من الوسائل، وحسن اختيار العاملين في الطباعة، وتصحيح "البُرُوفات" ومراجعتها مرّة بعد أخرى، حتّى تخرج الكتب أقرب ما تكون إلى السلامة.^٢

٣. بيع المرابحة للأمر بالشراء

٤. فوائد البنوك هي الربا الحرام:

معركة فوائد البنوك والردّ على الشيخ طنطاوي (شيخ الأزهر سابقًا ومفتي مصر):

فليس بين الشيخ القرضاوي وبين الطنطاوي من الناحين الشخصية إلا كلّ مودّة وثقة، ولكن هذا شيء والخلاف العلمي شيء آخر، وليس في العلم، خصوصًا العلم الدينيّ الشرعيّ - مجاملة، فالحقّ أحقّ أن يتبع... وليس في علم كبير، وكلّ أحد يؤخذ منه ويرد عليه إلا المعصوم صلّى الله عليه وسلّم،... فما سرّ الخلاف بينه وبين الشيخ الطنطاوي؟

عدم اشتغاله بالفقه والقضاء:

جدير بالذكر أن فقد عين صديق القرضاوي الشيخ الطنطاوي مفتيًا لمصر، وكان المفتون قبل ذلك من خريجي كليّة الشريعة، ومن المشتغلين بالقضاء الشرعيّ، والشيخ محمد سيّد طنطاوي خريج أصول الدين، ولم يشتغل بالقضاء، ولا بالفقه وأحكامه قبل ذلك، بل كان انشغاله بالتدريس، وخصوصًا في علم التفسير، الذي صنّف فيه تفسيرًا كاملاً سماه: ب «التفسير الوسيط للقرآن»، وكان الشيخ في السنة الأولى من تعيينه مفتيًا، يعتمد في فتواه على العلماء الموجودين في الأمانة العامة لدار الإفتاء، ويكتفي بالتوقيع عليها. ثمّ بدا له أن يكون له شخصيته المستقلّة في الفتوى، وخصوصًا في بعض القضايا الشائكة، مثل قضايا الفوائد وشهادات الاستثمار وما إليها...^٣

٢ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *مشكلة الفقر، وكيف عاجلها الإسلام؟*، مقدّمة، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٩٧١م)، ص ٢

٣ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القريّة والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٥٨٩

حضور طنطاوي إلى منزل القرضاوي:

وفي اليوم المُوعَدِ المُحدَّدِ جاء الشيخ إلى منزل الشيخ القرضاوي في مدينة نصر، وكان الضيفان الغزالي والسالوس قد حضرا، وصلوا المغرب، وبدأت الجلسة، طلب الشيخ أن يعرض ما لديه. وكان مع الشيخ المفتي جملة من الأوراق في ملف، منها: أسئلة يوجهها فضيلة المفتي إلى الأستاذ محمود عبد العزيز مُحَافِظِ البنك الأهلي المصري، وكانت أسئلة غريبة عندهم، فقد رأوا المفتي يسأل المحافظ عن أعمال البنك التي يجريها مع العملاء: هل تُعتبر من المضاربة الشرعية؟ فيردّ المحافظ: نعم هي من المضاربة الشرعية، لأن البنك يستثمرها لصاحبها مُقَابِلِ ربح مُحدّد.

وقد قال فضيلة الدكتور يوسف القرضاوي: يا فضيلة الشيخ، عكست الوضع، فمن الذي يسأل الآخر؟ المفروض أن محافظ البنك هو الذي يسأل فضيلة المفتي عمّا يجريه البنك من المعاملات: هل يدخل في إطار المضاربة الشرعية التي ذكرها الفقهاء في كتبهم أم لا؟ والمطلوب من المفتي أن يجيبه عن هذا السؤال بما يعرفه من أحكام المضاربة المقررة في الفقه الإسلامي، ويبيّن له أحكام الشريعة في هذا المجال، فكيف ينقلب الحال ويسأل المفتي من يجب أن يسأله هو؟^١

نقاش طويل مع الشيخ طنطاوي:

وقد بقوا في نقاش طويل مع الشيخ طنطاوي، وظلّوا ثلاثتهم يحاولون أن يزحزحوه عن مكانه، أو رأيه الذي التزمه، فلم يفلحوا، برغم ما قدّموا له من أدلة واعتبارات فقهية واقتصادية، وما نقلوه له عن الفقهاء، كأخما هو «مُبْرَمَجٌ» بلغة الكمبيوتر. وبعد ثلاث ساعات من الجدل والأخذ والردّ، افرقوا دون أن يحصلوا على نتيجة إذ كان الشيخ مُصمّمًا على موقّفه.

الردّ على الشيخ طنطاوي:

وبعد مدّة لم تطل، أصدر الشيخ فتواه عن شهادات الاستثمار، وأنها كلّها حلال، وعن فوائد البنو، وأنها أيضًا حلال، وهو ما اضطر الشيخ القرضاوي إلى أن يردّ عليه، برغم ما بينهما من مودة وصلّة، وأن يكتب كتابه الموجز المسمّى «فوائد البنوك هي الربا الحرام». ومما قاله في بداية هذا الكتاب هذه الفقرة التي يسجلّها هنا ليعرف قرائه: لماذا غصّب على هذه الحملة الجديدة لتحليل الربا. قال: شعر بكثير من الأسى والأسف، للجدل الدائر في الصحف في هذه الفترة حول «فوائد البنوك»: أهي من الحلال الطيب أم من الحرام الخبيث؟

وهناك أحاسيس وشعور الشيخ القرضاوي: سرّ أسفه وأساه: أنهم كانوا فرغوا من هذا الأمر وتجاوزوه بمراحل، وبدأوا أولى الخطوات العمليّة في إقامة اقتصاد إسلامي، يحلّ ما أحلّ الله، ويحرّم ما حرّم الله، ويؤدّي ما فرض الله. فإذا بنا يرتدون القهقري، ويعودون ربع قرن إلى الوراء مرّة واحدة، ليناقدوا ما خصمته الجامع والندوات والمؤتمرات العلميّة الإسلاميّة المختصّة، منذ ربع قرن وإلى اليوم، وليعيدوا القضية جذعة، وقد انتهوا منها!!^٢

وقال: فهل كتبت علينا أن نظل ندور حول أنفسنا، كالثور في الساقية! فلا نحسم معركة يومًا، ولا نغلق قضية يحال من الأحوال، لنفرغ لقضايا كبرى ننتظرنا، في طليعتها: أن نزرع ما يكفيننا ونصنع ما يحميننا؟!

هل هناك مؤامرة علينا، تُدبّرّها القوى الكائنة لنا، المتربّصة بنا، الخائفة منا، الطامعة فينا، الحاقدة علينا، والتي تملك من أدوات المكر، ووسائل الدفع والتأثير، ما تستطيع به أن تحرك نفرًا منا - من حيث يشعرون أو لا يشعرون - فيرجعوا عقارب الساعة إلى

١ ألفردّواي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٥٩١

٢ ألفردّواي، يوسف بن عبد الله، فوائد البنوك هي الربا الحرام، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٩٩٠م)، ص ٢٠

الخلف، ويحيوا ما مات من أفكار، ويجددوا ما اندرس من قضايا عقى عليها الزمن، وجعلتها الصحوة الإسلامية في خبر كان؟ أو هي «الحَيِّية» التي لا نريد أن تفارقنا، كأن بيننا وبينها حِلْفًا مقدَّسًا، أو رُحْمًا موصولة، ولو أنها فارقتنا لأرسلنا إليها برقيات نستدعيها للحضور على عجل؟! وهذه «الحَيِّية بالويبة» - كما يقول المثل المصري - تجعلنا لا نبرم أمرًا، ولا ننهي عملاً، حتى نبرمه وننهيه نكر عليه لننقضه ونهدمه مثل المرأة الحُمَّاء التي حدثنا عنها القرآن، والتي لا تغزل غزلاً إلا عادت فتنقضه كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَصَتْ عَزَّهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَأًا﴾ [٩٢].^١

قال الشيخ القرضاوي: 'إنني في حَيْرَةٍ، أو في قَلَقٍ وغَمٍّ، من هذا الذي يحدث على الساحة الفكرية الإسلامية: لماذا يحدث؟ ولحساب مَنْ؟ وَمَنْ المستفيد وراء إهداء الطاقات من غير طائل، وليّ زمام القافلة السائرة حتى لا تمضي قدماً، ولا تصل إلى الغاية المنشود؟'

فلسفة الهزيمة الفكرية:

إن الشيخ القرضاوي أعذر الذين حاولوا تسويغ الفوائد الربوية في أوائل القرن الماضي «العشرين الميلادي» وإلى النصف الأول منه، فقد كانت الحضارة الغربية في أوج مجدها وبريقها الذي يخطف الأبصار، وكان تراثنا مغموراً، وشعبنا مقهوراً، وعقلنا بالجديد مبهوراً... وكان النظام الرأسمالي - الذي يقوم على الربا - يسود العالم، ويحرك عجلاته كما يشاء. فلا غرو أن وُجد من أبناء المسلمين من حاول أن «يفلسف» هزيمتنا أمام الفكر الوافد بتخريجات يُعزّوها إلى الشرع، وتأويلات يثني بها عن النصوص «المُحكّمة» ليجعلها «متشابهات» توظف في «تبرير الواقع» الذي لم يصنعه المسلمون بإرادتهم، ولا بعقولهم ولا بأيديهم. إنما صنع لهم وفرض عليهم.^٢

البدائل الشرعية للمعاملات المحرّمة:

ثم فَفَرَّ الفكر الإسلامي ففزة رائعة، حين طفق يفكر في «البدائل الشرعية» للمعاملات المحرّمة. ويضع المواصفات اللازمة لها، والوسائل الاستثمارية التي يمكن أن تقوم عليها، ويستغني بها عن الوسائل المحظورة. ثم وَقَّقَ الله المخلصين من رجال العمل والتنفيذ بالتعاون مع رجال العلم والفكر، فقامت البنوك الإسلامية بديلاً عن البنوك الربوية، وتزايد عددها، واتسع نطاقها يوماً بعد يوم.

وقد قيل لهم مدّة من الزمن خاصّة من قِبَلِ الغربيّون: لا تَحْلُمُوا بِقِيَامِ بَنكِ إِسْلَامِيٍّ. بنك يقوم على غيرالفائدة. وبالتالي لا تَحْلُمُوا باقتصاد إسلاميٍّ يوماً. إن الاقتصاد عَصَبُ الحياة، والبنوك عَصَبُ الاقتصاد والفوائد عصب البنوك. فإذا تَشَدَّتْ بنوكاً بلا فائدة فقد نشدتم المستحيل!

وعشنا، والحمد لله، حتى رأينا البنوك الإسلامية حقيقة واقعة رأينا المسلمين يقبلون عليها إقبالاً متقطّع النظر. ونحن اليوم في مرحلة تحسين البدائل وتطويرها، أعني (الباحث) تطوير البنوك الإسلامية، وتحسين أدائها، وتخليصها من بعض الشوائب التي علّقت بها، وهيئة المُنَاحِ الصحيّ لنشاطها، وهيئة الأطر البشرية التي تحتاج إليها من يجمع بين الالتزام الإسلاميّ فهماً وسلوكاً والخبرة الفنيّة في مجال الاقتصاد والإدارة.

أفبعد أن احتزنا هذه المرحلة كلّها، نعود من جديد إلى «مراحل» التبرير؟!^٣

١ القرآن الكريم، النحل (١٦)، الآية [٩٢].

٢ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، فوائد البنوك هي الربا الحرام، مقدمة، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٩٩٠م)، ص ٤

٣ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٥٩٥

كتابه «فوائد البنوك هي الربا الحرام»:

ومن هنا أَلَّفَ الشيخ القرضاوي كتابه «فوائد البنوك هي الربا الحرام» ليضع النِّقَاطَ على الحروب، كما يقولون، وليبيِّن أن الأمر قد حَسَمَ من قديمٍ. وأن هذا الحُصْمَ قد وُثِّقَ بما قرَّرته المجمع الفقهيَّة الإسلاميَّة، ابتداءً من مجمع البحوث الإسلاميَّة بالأزهر، الذي أعلن في مؤتمره سنة ١٩٦٥م، بالإجماع - وقد حضره مندوبون من ٣٥ دولة: أن فوائد البنوك ربا محرَّم لا شكَّ فيه. وأكَّد ذلك مجلس المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي، وكذلك المجمع الفقهي الدول المنبثق من منظِّمة المؤتمر الإسلامي. كما أكَّده كلُّ المؤتمرات الاقتصاديَّة الإسلاميَّة، ومؤتمرات المصارف الإسلاميَّة في العالم الإسلامي^١.

٥. دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي:

من كتبه المهمَّة في الاقتصاد الإسلامي التي صدرت له في تلك الفترة ١٩٩٤م، ويعتَرُّ بها: كتاب: «دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي» وهو كتاب كبير في (٤٤٠) أربعمئة وأربعين صفحة، وهو أحد كتب الشبه القرضاوي المهمَّة في الاقتصاد الإسلامي.

السبب في تأليفه هذا الكتاب:

والسبب في تأليفه هذا الكتاب: دعوة من مجموعة «دَلَّة البركة» التي يرأسها الشيخ صالح كامل، للمشاركة ببحث حول هذا الموضوع يقدِّم إلى ندوتها التي عقدتها بالقاهرة في شهر أكتوبر عام ١٩٩٣م، بالمشاركة مع بيت التمويل المصري، حول «تعريف الإعلاميين بالاقتصاد الإسلامي». فقدَّم الشيخ القرضاوي لها بحثًا، ثمَّ أضاف إليه بحثًا آخر، قدَّمه لندوتها التي عقدت بعد ذلك في دبي، وبه اكتمل الكتاب.

وقد بيَّن الشيخ القرضاوي في هذا الكتاب أهميَّة القيم والأخلاق ومدى تأثيرها في مجالات الاقتصاد المختلفة، من: إنتاج، واستهلاك، وتوزيع، وتداول. كما بيَّن فيه أن أبرز ما يميِّز الاقتصاد الإسلامي عن غيره من مذاهب الاقتصاد الوضعي: أنه اقتصاد قيِّم وأخلاقي.

وهو بحث مُوثَّق بأدلته من القرآن والسنة، وهما المصدران المعصومان الهاديان، فمن اهتدى بهما فلن يضلَّ، ومن اعتصم بهما فلن يزل^٢.

لماذا اهتمَّ الشيخ القرضاوي بالاقتصاد الإسلامي؟

لأن الاقتصاد الإسلامي جزء من النظام الإسلامي العام، ومن الشريعة الإسلاميَّة، فهو داخل في نظريته الشموليَّة للإسلام. وإذا نظرنا إلى كتابه فنجد حقيقة مَطْلَبِهِ، مثل كتابه: «فقه الزكاة». هل تعدُّه من الفقه أو تعدُّه في الاقتصاد؟ رُبَّمَا تعدُّه في كليهما. على أن الاقتصاد الإسلامي يتضمَّن أمورًا في صُلْب الدعوة، مثل التكافل والعدالة الاجتماعيَّة، وعلاج مشكلة الفقر، وتقريب الفوارق بين الطبقات بعضها وبعض ... إلى آخره.^٣

١ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، فوائد البنوك هي الربا الحرام، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٩٩٠م)، ص ٥

٢ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٩٩٤م)، ص ٤٥

٣ المرجع السابق، ص ١٥

عناية دعاة الإسلام بالاقتصاد:

ولذا رأينا دعاة الإسلام على اختلاف أقطارهم واتجاهاتهم يعنون بالاقتصاد، كما رأينا في تراث المودودي، وسيّد قطب، وحسن البناء، وعبد القادر العوده، ومحمد الغزالي، ومصطفى السباعي، رحمهم الله. والحمد لله أن أصبح الاقتصاد الإسلامي حقيقة واقعة، معلومة للباحثين في شتى الاختصاصات، وقد كان من قبل مجهولاً لكل الجهل. وهذا ما لمس الشيخ القرضاوي بنفسه، عندما إنجّه نيته إلى الكتابة في الزكاة في أواخر الخمسينات، وشرع يبحث عن كتب الاقتصاد الوضعي ليقرأ فيها، وأخذ فكرة عن مضمونها، وعن موقفها من الإسلام وموقف الإسلام منها، وكذلك كتب المالية العامة.

وحاول الشيخ القرضاوي أن يجد في هذه الكتب شيئاً عن الإسلام، اعترافاً به أو تنويهاً بشأنه، ولو كناحية تاريخية، وكمذهب أو فكر ساد هذه الأقطار الإسلامية وحكمها ثلاثة عشر قرناً من الزمان، كان هو الذي يمثل المرجعية العليا لها في تشريعها وتوجيهها وتفكيرها الاقتصادي والسياسي والقانوني والسلوكي.

ولكن وجد الكاتبين على اختلاف مدارسهم وتياراتهم، واختلاف بلدانهم وفلسفاتهم، يهملون أمر الإسلام إهمالاً تاماً، ولا ينكرونه مدحاً ولا قدحاً.

المؤلفات المعاصرة في الاقتصاد الإسلامي:

ولم يكن على الجانب الإسلامي إلا كتب قليلة كتبها بعض العلماء والدعاة، في طليعتها كتب الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: «الإسلام والأوضاع الاقتصادية»، و«الإسلام والمناهج الاشتراكية» و«الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين»... وكتاب الأستاذ سيّد قطب رحمه الله: «العدالة الاجتماعية في الإسلام» وبعض المحاضرات والمقالات في جوانب اقتصادية من وجهة النظر الإسلامية، مثل محاضرة الشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله عن «الربا» التي ألقاها في مؤتمر باريس سنة ١٩٥١م، ومحاضرة المشايخ: أبي زهرة، والدكتور خلاف، والدكتور عبد الرحمن حسن في حلقة الدراسات الاجتماعية بدمشق عن الزكاة، والوقف، ونفقات الأقارب سنة ١٩٩٢م، ومقالات الأستاذ محمود أبو السعود عن «استغلال الأرض في الإسلام» في مجلّة «المسلمون» في خمسينات أيضاً.

ولم يعرف الشيخ القرضاوي رسالة أو أطروحة علمية قُدمت لجامعة من الجامعات في بلاد العرب عن الاقتصاد الإسلامي أو جانب منه إلا رسالة الأستاذ شوقي إسماعيل عن «نظام المحاسبة في الزكاة» قرأ عنها مقالاً، ولم تُنشر إلا أخيراً، وقد قدّمها للحصول على الماجستير في المحاسبة.

هذا في الجانب العربي، وفي القارة الهندية كانت دراسة الأستاذ أبي الأعلى المودودي، وفي مقدمتها: دارسته «الربا» وعن «أسس الاقتصاد في الإسلام مقارنة بالنظم المعاصرة»، وعن «ملكيّة الأرض في الإسلام» وأخرى عن «معضلات الاقتصاد حلّها في الإسلام»^١.

١ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٧٩٥ - ٧٩٦

الاهتمام بالاقتصاد الإسلامي:

ثم بدأ الاهتمام بالاقتصاد الإسلامي ينمو ويزدهر شيئاً فشيئاً، فظهر خلال السنوات العشر التي كان الشيخ القرضاوي يعدّ فيها رسالته عن الزكاة عدد من الكتب في الاقتصاد الإسلامي، منها: كتاب الأستاذ محمود أبي السعود «خطوط رئيسية في الاقتصاد الإسلامي»، وكتاب الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله: «اشتراكية الإسلام»، وكتب «المؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية» بالأزهر، وفيه جملة بحوث أصيلة،^١ وكتاب الأستاذ مصطفى الزرقا عن «عقد التأمين»، وغيرها من كتب ودراسات.

وعندما عُقد المؤتمر الإسلامي العالمي الأول للاقتصاد الإسلامي بمكة المكرمة، تحت رعاية جامعة الملك عبد العزيز سنة ١٩٧٦م قدم الأستاذ الدكتور محمد نجاة الله الصديقي قائمة ببلوغرافية (Bibliography) عما نُشر حول الاقتصاد الإسلامي بفروعه وجوانبه المختلفة من كتب وبحوث ومقالات، باللغات الثلاث: العربية، والأردية، والإنجليزية، فكانت بضع مئات.

وقد قدمت مجلة «المسلم المعاصر» قائمة بالكتب والدراسات التي نُشرت في الاقتصاد الإسلامي، في عديد من ساهم الشيخ القرضاوي في أحدهما.

وأتسع الاهتمام بالاقتصاد الإسلامي، وعُقدت له الندوات العامة والمتخصصة، وأنشأت بعض الجامعات أقساماً علمية له، ونشأت كذلك مراكز لأبحاثه في أكثر من بلد، منها: المركز العالمي لأبحاث الاقتصاد الإسلامي بجامعة الملك عبد العزيز بجدة، ومركز صالح كامل للدراسات التجارية الإسلامية بجامعة الأزهر.

وقدّمت عشرات - وربما مئات - من رسائل الماجستير والدكتوراه في عدد من الجامعات في كليات الشريعة والحقوق والاقتصاد والتجارة وأقسام الدراسات الإسلامية حينئذ حول عدد من موضوعات الاقتصاد الإسلامي.^٢

مؤسسات وبيوت الزكاة:

ومن الناحية العملية أنشئت مؤسسات أو بيوت الزكاة في أكثر من بلد، بعضها عقد المؤتمرات، وأقام حلقات، منها مؤتمر الكويت سنة ١٩٨٤م، الذي انبثق عنه توصيته بإقامة هيئة علمية عالمية لقضايا الزكاة المعاصرة، اختير أول رئيس لها العلامة الشيخ محمد مختار السلامي مفتي تونس لاني وقتها، واختاروا الشيخ القرضاوي نائباً للرئيس، مع أنه كان غائباً. كما عُقدت مؤسسة الزكاة بالسودان ندوات ومؤتمرات عدّة، وآخرها المؤتمر الذي عُقد بالخرطوم في مايو سنة ١٩٩٤م، وقد شارك العلامة الشيخ القرضاوي فيه.

قيام المصارف والبنوك الإسلامية:

كما أُقيمت مصارف وبنوك إسلامية تتعامل بغير الفوائد الربوية، التي أجمعت كلّ الجامع الفقهيّة والمؤتمرات الإسلامية على تحريمها، بدأت بنك دبي الإسلامي، ثم بنوك فيصل الإسلامية، فبيت التمويل الكويتي، والبنك الإسلامي الأردني، وغيرها من البنوك التي انتشرت في العالم الإسلامي، والتي أبطلت مقولة: «لا اقتصاد بغير بنوك، ولا بنوك بغير ربا». وقد عقدت هذه المصارف أو البنوك الإسلامية مؤتمرات عدّة في دبي، والكويت، والقاهرة، وإستانبول، وغيرها، وصدرت عن هيئات الرقابة الشرعية لبعضها فتاوى ودراسات مفيدة.

١ من أهم ما جاء فيه: بحوث الدكتور محمد عبد الله العربي، والشيخ الحنيف، والشيخ السابيس عن الملكية.

٢ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٩٩٤م)، ص ١٠

وقد قدّر للشيخ القرضاوي أن يتّأس هيئة الرّقابة الشرعيّة في عدد من المصارف الإسلاميّة، بلغت ثمانِي ، ربّما أكثر في بعض الأوقات، منها: مصرف قطر الإسلاميّ، والبنك الدولي الإسلاميّ في قطر، والوطني الإسلاميّ في قطر، ومصرف فيصل الإسلاميّ بالبحرين، وبنك التقوى بسويسرا، ومصرف أبو ظبي الإسلاميّ، والبنك الإسلاميّ الأوّل بالبحرين، والهيئة الموحدة لبنوك البركة في جدّة.^١

إحياء فقه المعاملات:

وقد أحييت البنوك الإسلاميّة «فقه المعاملات» المهجور، وأعدت إلى الناس الثقة بإمكان تطبيقها في عصرنا، وخطأ بعض هذه البنوك خطوات جيّدة إلى الأمام، وبعضها ما زال يشكو من ضعف القيادة أو سوء فقهها، ومن العنصر البشري الذي هو المحور الأساسي لكلّ إصلاح أو تجديد، والذي دخل هذه البنوك دون فقه بمضمونها، ولا إيمان برسالتها.

١ القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلاميّ*، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م)، ص ٥٥

📁 المبحث الخامس: مؤلفاته في "سلسلة: حتمية الحل الإسلامي"

تبنى جمال عبد الناصر^٣ في "ميثاقه" الشهير: "حتمية الحل الاشتراكي" وتنادى الناس، وتحذت الألسنة، وكتبت الأقلام، في تمجيد الحل الاشتراكي، وأنه الحل السحري، الذي يملك "عصا موسى" و"خاتم سليمان" فيحل كل عُقدة، ويسد كل ثغرة، ويطعم كل جائع، ويُشغل كل عاطل، ويؤوي كل مُشرّد، ويكفل كل محتاج! وهو القادر على تحويل بلاد مصر من زراعية إلى صناعية، ومن مُستهلكة إلى مُنتجة، من بلاد نامية إلى بلاد متقدمة!

وعندما جرّب الناس هذا الحل، لم يجدوا شيئاً من ذلك: لم يطعموا به من جوع، ولم يُأمّنوا به من خوف، ولم يُعتنوا به من فقر، ولم يُشفوا به من مرض، ولم يرتفعوا إلى الانتاج والصناعة والقدم. لهذا الشيخ القرضاوي أن يُردّ على فكرة "حتمية الحل الاشتراكي"، بسلسلة من الكتب أطلق عليها "حتمية الحل الإسلامي"، تظهر في أربعة أجزاء:

١. جزء يتحدث عن "الحلول المُستوردة وكيف جنت على أمتنا؟" 📁

٢. وجزء يتحدث عن "الحل الإسلامي: فريضة وضرورة" أي فريضة يوجبها الدين وضرورة يَحْتُمها الواقع. 📁

٣. وجزء يتحدث عن "الردّ على شبهات العلمانيين والمغتربين" وإبراز "بيّنات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين والمغتربين". 📁

٤. وجزء أخير يتحدث عن "أعداء الحل الإسلامي" الذين يقفون في سبيله، ويعوّفون طريقه. 📁

وقد ظهر الجزءان الأوّل والثاني: في سنتي ١٩٦٩م و ١٩٧٠م، وتأخّر الجزء الثالث بعض الوقت، أمّا الجزء الرابع فتأخّر كثيراً، فلم يظهر إلا من عدّة سنوات. وقد كان فضيلة الأستاذ الشيخ القرضاوي كتب بعض المقالات في "حتمية الحل الإسلامي" قبل ظهور هذه السلسلة: في مجلّة "المجتمع" التي كانت تصدر في بيروت في الستينات من القرن العشرين، ثمّ خلفها مجلّة "الشهاب" رداً على ما جاء في الميثاق الناصري.

الأستاذ رضوان دعبول، صاحب "مؤسّسة الرسالة" الذي قدّم من الرياض بعد أن كان يعمل بها مدرّساً للرياضيات، وقد بدأ يدخل ميدان النشر بثوّة، ولكنّ بقوة، وكان القرضاوي من أوائل الذين تعاونوا معه، وعقد معه عقداً بنشر سلسلة "حتمية الحل الإسلامي"، وأولها "الحلول المُستوردة وكيف جنت على أمتنا؟" وأصبح لديها مكتب للتحقيق يضمّ رجالاً من خيرة المتخصّصين في العالم العربي، وخصوصاً من بلاد الشام، على رأسهم: المحدّث العلامة الشيخ شعيب الأرنؤوط. وهي سلسلة خطرت للشيخ القرضاوي منذ صدر "الميثاق" في مصر، وفيه تركيز على ما سمّاه "حتمية الحل الاشتراكي".

فأراد الأستاذ القرضاوي إصدار هذه السلسلة، مستخدماً نفس ألفاظها، مبيّناً أن الحل الحتمي، والحل المنطقي، والحل الطبيعي، والحل الشرعي، الذي يتحتم الرجوع إليه شرعاً ووضعيّاً، هو "الحل الإسلامي".^٤

١ كلمة "الحتمية" من "أكليشيات" الماركسيين، ولكنه استخدم الشيخ القرضاوي من باب "المشاكل" كما يقول علماء البلاغة العربية، مثل قوله تعالى: "بخادعون الله وهو خادعهم". [القرآن الكريم، النساء، الآية: ١٤٢]، "وجزاء سيئة سيئة مثلها". [القرآن الكريم، الشورى، الآية: ٤٠].

٢ "الحلّ" التفصيلات الجزئية العملية للمشكلات، بل الاتجاه الكلّي العام؛ ف"الحلّ الإسلامي" مقابل "الحلّ الاشتراكي" أو "الحلّ الرأسمالي" ولكلّ خصائصه ومقوماته وشروطه.

٣ هو جمال عبد الناصر، كان رئيساً لجمهورية مصر العربية، ولقد حكم عبد الناصر جمهورية مصر العربية ثمانية عشر عاماً. وهو مات في الشهر سبتمبر، الموافق ٢٨، سنة ١٩٧٠م

٤ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *الحلول المُستوردة وكيف جنت على أمتنا؟*، (مصر، دار الشروق، الطبعة: الأولى، ١٩٦٩م)، ص ٤

المبحث السادس: تصانيفه في "علوم القرآن والسنة"

١. الصبر في القرآن الكريم (في التفسير الموضوعي)

صدر هذا الكتاب في سنة ١٩٧٧م، وكان من المقررات في قسم الدراسات الإسلامية، ثم في الكلية الشرعية والدراسات الإسلامية: "التفسير الموضوعي" ويُقصدُ بالتفسير الموضوعي: التفسير الذي يتناول موضوعًا من الموضوعات التي يهتم بها القرآن الكريم، وتُجمَع الآيات المتعلقة به من القرآن كله، مكّية ومدنيّة، وتصنف هذه الآيات، بحيث تلقي ضوءًا كاشفًا على عناصر الموضوع، كما عرضه القرآن.

وقد رأى الشيخ القرضاوي أن هذا النوع من التفسير نافعًا للطلاب والدارسين؛ لأنه يطلِّعُهُم الثورة الهائلة، التي يحتويها القرآن من موضوعات.^١ وقد بدأ الكثيرون من الباحثين وطلاب الدراسات العليا يقدّمون أطروحاتهم للماستير والدكتوراه حول موضوع من موضوعات القرآن، وبعد فترة من الزمن سيصبح لديهم كمّ هائل من موضوعات القرآن المخدومة والمشروحة. وقد بدأ الشيخ القرضاوي يدرس هذا المقرر لطلابه وطلباته، وخطر في باله: أن يكون موضوعه هو: "الصبر في القرآن الكريم"، ولما نَصَحَ الموضوع عنده أخرجه في كتاب.

وكان هو بداية لسلسلة التفسير الموضوعي عنده.

٢. العقل والعلم في القرآن الكريم

هذا هو الكتاب المُصنَدُ بعد كتاب "الصبر في القرآن الكريم"، لسلسلة التفسير الموضوعي.

٣. كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟

٤. كيف نتعامل مع السنة النبوية؟

نشاطات المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن:

كان المعهد العالمي للفكر الإسلامي قد أسس في واشنطن، وطفق يمارس أنشطته المختلفة، وكلّها تدور حول محور كبير، وهو «أسلمة» المعرفة، بمعنى جعل المعرفة إسلامية. ففعل «أسلم» هنا متعدّد لا لازم، كما هو الأصل فيه. ويقال: أسلم فلان، أي دخل في الإسلام.^٢ أما هنا، فحين يقال: أسلمه: أي جعله مسلمًا. ولم ترد في المعاجم بهذا المعنى. ولهذا استعنى هؤلاء الإخوان عن لفظ «أسلمة» بلفظ «الإسلامية» فتحدّثوا عن «إسلامية المعرفة».

ومن المعروف: أن معرفتنا في الجملة - للأسف الشديد - غريبة الفلسفة والجذور، وكلّ علومنا الإنسانية والاجتماعية مترجمة أو مقتبسة من الغرب على اختلاف مدارسه.

حتى العلوم الطبيعية في فلسفتها وفي أسلوب عرضها، عليها طابع الغرب، فالتبيعة هي التي تخلق الأشياء، وتمدّ كلّ كائن حيّ بما يدافع به عن نفسه، وليس «الله». ولا تدخل قضية وجود الله تعالى في تفسير الوجود الكونيّ أو الظواهر الكونية.

١ ألفردّواوي، يوسف بن عبد الله، الصبر في القرآن الكريم (في التفسير الموضوعي)، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الثالثة، ١٩٨١م)، ص ٤٠

٢ الدكتور سعدي أبو حبيب، القاموس الفقهي لغة واصطلاحا، باب: حرف السين، (سورية - دمشق، دار الفكر، الطبعة: الثانية ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، تصوير:

١٩٩٣ م)، ج ١، ص ١٨٠

لذا كانت العناية بأن تكون لنا معرفة إسلامية عميقة الجذور، بينة الفلسفة، واضحة الرؤية، مترابطة الحلقات، معروفة الغايات، هو: ما ركّز عليه المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الذي كان الدكتور عبد الحميد أبو سليمان هو أول مدير له، ثم تسلّمه منه الدكتور طه جابر العلواني، وعمل معهم عدد من الإخوة الباحثين والمشغلولين بقضية المعرفة مثل د. هشام الطالب، وزوجته د. إلهام، ود. جمال برزنجي، ود. محيي الدين عطية. وأنشئوا لهم فرعاً نشيطاً في القاهرة، كان مسئولاً عنه العالم الباحث النشيط المنظم الدكتور جمال الدين عطية، ثم الدكتور علي جمعة^١ بعد.

تأصيل مصادر المعرفة الإسلامية:

وكان المعهد يعمل أيضاً على تأصيل المعرفة الإسلامية من القرآن الكريم المصدر الأول للإسلام، وهو مصدر المصادر وأصل الأصول، ومن السنة النبوية المصدر الثاني للإسلام: مصدر التشريع والتفسيّر، ومصدر الدعوة والتوجيه والتربية، ومصدر المعرفة والحضارة.

ونظراً لأن القرآن لا ريب فيه ولا مرء، ولكن شبهات المشبهين، وتخرّصات المتخرّصين، كلّها تحوم حول السنة، حول ثبوتها، حول حجّيتها، حول فهمها. فقد اتّجّهت نيات هؤلاء الإخوان للبدء بهذا الجانب، وإعطائه حقّه، فنشروا كتاب الشيخ عبد الغني عبد الخالق رحمه الله «حجّية السنة». وطلبوا من فضيلة الشيخ محمد الغزالي، ومن الأستاذ الدكتور الشيخ القرضاوي الكتابة في كيفية التعامل مع السنة المشرفة^٢.

نشر كتاب الشيخ القرضاوي «كيف نتعامل مع السنة النبوية»:

وكان في ذلك الوقت (أكتوبر سنة ١٩٨٩م) قد أعدّ كتابه المسمّى بـ «كيف نتعامل مع السنة النبوية» وسلّمه إلى إدارة معهد الفكر، الذي نشره بمعرفة، ولكنه لم يحدث ضجّة، مثل كتاب الشيخ الغزالي^٣، وإن كان بعض السلفيّين الواعين قالوا: إن كتاب القرضاوي قد وصل إلى ما وصل إليه كتاب الغزالي، ولكن من دون ضجيج أو صراخ، وبطريقة أقرب إلى المنهجية العلمية والموضوعية، وهو يراه أشدّ خطراً من كتاب الغزالي، وتبته إخوانه إلى ذلك.

وقد كتب عنه الأستاذ فهمي هويدي أيضاً مقالات نشرت في جريدة «الأهرام» المصرية الشعبية، وفي غيرها من الصحف العربية، التي تنشر مقاله الأسبوعي، في الأردن، وفي الكويت، والبحرين وقطر والإمارات المتّحدة وغيرها.

عرض كتابه في دورة المجمع المالكي:

وقد عرض الشيخ القرضاوي هذا الكتاب في دورة المجمع المالكي لبحوث الحضارة الإسلامية - أو مؤسّسة آل المالكية للفكر الإسلامي في عمان - حيث كانوا يشاركون المعهد في الطلب إلى أن يكتب الشيخ القرضاوي في هذا الموضوع. ونوقش الكتاب من الحضور، وهم نخبة من العلماء والمفكرين من أنحاء العالم العربي والإسلامي، وكثيراً ما يستفيد من هذه النقاشات والمدخلات في التعديل والتحسين، فليس في العلم الكبير، وفوق كلّ ذي علمٍ عليم.

١ مفتي جمهورية مصر العربية حالياً.

٢ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، *ابن القريّة والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٥٩٨

٣ هو كتاب المسمّى بـ «السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث»، وجمع الشيخ الغزالي فيه ما كتبه من قبل حول السنة النبوية. وما له في بعض الأحاديث من فهم خاض يخالف أفهام كثيرين من علماء القدامى، وتوقفه في بعض الأحاديث، وردّه لبعض الأحاديث الثابتة في «الصحيحين» أو أحدهما. وردّ الإخوان السلفيون عليه وهاجمه بعنف، منها: ردّ الشيخ سليمان فهد العودة، جمال سلطان، وآخرون حوالي عشرة زُود.

٥. تفسير سورة الرعد

٦. المدخل لدراسة السنّة النبويّة

٧. المنتقى من الترغيب والترهيب (جزءان)

٩. السنّة مصدر للمعرفة والحضارة:

اهتمام الأستاذ عمر بهاء الدين الأميري بالفقه الحضاري:

وكان مشغولاً في سنّته الأخيرة بإصلاح الأئمة وتحريها من داخلها. مرّكزاً على ما أسماه في عدد من كتبه ومحاضراته: «الفقه الحضاري»، وهو فقه يعني بالتركيز على الأساس الحضاريّة، والخصائص الحضاريّة، وأن على الأئمة أن تبذل جهداً فكرياً وثقافياً حتّى تؤصّل، ثم تفرع عليه، وإن لم يبيّن رحمه الله معالم هذا الفقه وملاحمه.

محاولة الشيخ القرضاوي في هذا الموضوع:

وقد حاول فضيلة الشيخ يوسف القرضاوي حفظه الله في كتابه «السنّة مصدرًا للمعرفة والحضارة» أن يلقي بعض الضوء على معالم «الفقه الحضاري» و«السلوك الحضاري» اقتباساً من السنّة النبويّة وأحاديثها الصّحاح^١.

١٠. نحو موسوعة للحديث الصحيح مشروع منهج مقترح

المبحث السابع: مؤلّفاته في "عقائد الإسلام"

١. وجود الله

٢. حقيقة التوحيد

٣. الإيمان بالقدر

المبحث الثامن: تصنيفاته في "فقه السلوك في ضوء القرآن والسنّة"

١. الحياة الرّبانيّة

٢. النّيّة والإخلاص

٣. التوكّل

٤. التوبة إلى الله

المبحث التاسع: مؤلّفاته في "الدعوة والتربية"

١. ثقافة الداعية

٢. التربية الإسلاميّة ومدرسة حسن البنا

٣. الإخوان المسلمون ٧٠ عامًا في الدعوة والتربية والاجتهاد

٤. الرسول والعلم

٥. الوقت في حياة المسلم

٦. رسالة الأزهر بين الأمس واليوم و الغد

١ ألفقرداوي، يوسف بن عبد الله، السنّة مصدر للمعرفة والحضارة، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الثالثة، ١٩٩٣م)، ص ٣٧

المبحث العاشر: تصانيفه في "ترشيد الصحوة والحركة الإسلامية"

١. الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي:

قد نشر الشيخ القرضاوي البحث الذي أعده للندوة في كتاب تحت عنوان «الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي» أضاف كلمة «الإسلامي» إلى «العربي» بناء على أن لا تناقض بين العروبة والإسلام، وعلى أن هموم الوطن العربي عمومًا هي في الواقع هموم الوطن الإسلامي في الجملة، وكما قال شوقي رحمه الله.^١

٢. أين الخلل:

صدرت مجلة "الأمة" من قطر، فسَدَّتْ فَرَاغًا فِكْرِيًّا قائمًا، وشعر الناس بأن المجلة تحوي فكرًا جديدًا غير الفكر التقليدي، الذي عرف الشيخ القرضاوي به المجالات الدينية أو الإسلامية، وهو "الحركية".

إذ من المهم في مخاطبة العقل المسلم المعاصر: أن يربط العلم بالعمل، وَيَرْبُطُ العلم بالعمل، ويربط الفكر بالحركة، فليس الفكر شيئًا معلقًا في الهواء، بل هو شيء يتعامل مع الواقع المعيش، ويتعامل معه بصورة إيجابية يتأثر به ويؤثر فيه.

وكان من المقالات المُبَكَّرَة التي كتبها الشيخ القرضاوي فيها: أمة لن تموت. صحوة الشباب الإسلامي: ظاهرة صحية يجب ترشيدها لا مقاومتها - نشرت في عددين. وقد تَلَفَّفَهَا شباب الجماعة الإسلامية في مصر، فطبعوا منها عشرات الآلاف. كما أن المجلة كانت تثير قضايا مهمة، توقظ الحاسة النقدية عند المتدينين عامة، ودعاة الإسلام خاصة. مثل سؤال: "أين الخلل؟" الذي عرض الشيخ القرضاوي على عدد من العلماء والمفكرين، ليجيبوا عنه إجابات متنوعة، كل حسب منظوره ورؤيته. وقد وجَّه إلى الشيخ القرضاوي هذا السؤال فأجاب عنه في أربعة مقالات، نشر في أربعة أعداد، ثم جمع الشيخ القرضاوي في رسالة بعد ذلك تحمل نفس العنوان: "أين الخلل؟".^٢

وقد تجاوب المسلمون المسلمون معها في المشارق والمغرب، وكان الناس يتقبونها بحرارة ولهفة. وكانت تحتوي لقاءات وحوارات مهمة، وتحقيقات صحفية حية، إلى جوار المقالات لكبار الكتاب الإسلاميين المعروفين في ساحة الدعوة والفكر.

ومقالات "أين الخلل؟" في مجلة الأمة، التي جمعت في كتاب بعد ذلك، مُنَبَّهًا فيها على "الخلل" في مسيرة "الأمة الإسلامية" والخلل في مسيرة "الحركة الإسلامية".

وظلَّت المجلة تصدر تباعًا لمدة ست سنوات كاملة، ثم صدر قرار بتفريقها مع مجلّتين آخرين كان لهما في محيطهما نفس التأثير، ونفس الصدى، وهما مجلة "الدَّوْحَة" وهي مجلة ثقافية، وقد انتشرت وذاع صيتها في العالم العربي كلّه، ومجلة "الصقر" وهي مجلة رياضية، كان رواجها وقُرَّأوها بين الرياضيين.

٣. أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة

٤. في فقه الأُولِيَّاتِ - دراسة جديدة في ضوء القرآن والسنة:

١ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الثالثة، ١٩٩٥م)، ص ١٩

٢ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، أين الخلل، مقدمة، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الثانية، ١٩٩٧م)، ص ٤

كان من أهم كتب الشيخ القرضاوي التي ظهرت في هذه المرحلة سبتمبر ١٩٩٤م، ولقّيت الشيخ القرضاوي الأنظار إليها: كتابه: «فقه الأولويات». وقد كان قبل صدوره، تحدّث الشيخ القرضاوي عنه في محاضرات وندوات شتّى، حتى إن ندوة «دراسات المستقبل الإسلامي» في الجزائر التي انعقدت سنة ١٩٩٠م حين دعاه إليها الأستاذ محمّد الهاشمي الحامدي: قال للشيخ القرضاوي: لقد اخترنا لك موضوعاً هو من صميم اهتمامك في الفترة الأخيرة، وهو ما سمّيته: «فقه الأولويات»، وقد رأينا أن تكتب في «أولويات الحركة الإسلامية في العقود الثلاثة القادمة». وقد كتّب الشيخ القرضاوي في هذا كتابه: «أولويات الحركة الإسلامية» غير مُقيّد بالعقود الثلاثة؛ لاعتقاده أن العالم يتغيّر بسرعة، ولا تستطيع أن ترصده لعدّة عقود ثلاثة، ونحن نرى أن الأبحاث السوفيتي قد سقطت بسرعة وبدون مقدّمات، وإن كان هناك تنبؤات بالسقوط، ولكن لم يكن متوقّعا أن يتهاوى بهذه السرعة الهائلة.

«فقه الأولويات» هو واحد من «ألوان الفقه» التي يطالب الشيخ القرضاوي بها في برنامجه التجديديّ والإصلاحيّ للأمة، فهناك فقه السنن، وفقه المقاصد وفقه المآلات، وفقه الموازنات، وفقه الاختلاف، وفقه الواقع، وفقه التغيير، وفقه الأولويات. وقد سمّى الشيخ القرضاوي فقه الأولويات قبل ذلك، في بعض كتبه «فقه مراتب الأعمال»، وذلك في كتابه: «الصحة الإسلامية بين الجحود التطرف»، ثم رأى أن «فقه الأولويات» أوفق بما يريد من هذا المصطلح.

وكان من المعلوم عند الشيخ القرضاوي حينئذ أن بعض الإخوة من الشباب الدعاة سارع فألّف كتاباً أو كُتِبَ سَمَاه: «فقه الأولويات»، حتى ظنّ بعد الناس أن الشيخ القرضاوي هو الذي أخذ المصطلح منه! وهذا تكذّب كلّ الوقائع والمعلومات، فقد حاضر في هذا الموضوع، وكتب فيه من عدّة سنوات قبل نشر كتابه هذا، وكان على الأخ الذي سمّى كتابه: «فقه الأولويات»: أن يبيّن من أين أخذ التسمية، فهذا مقتضى الأمانة العلميّة.

وكان الشيخ القرضاوي مما قاله في مقدّمة الكتاب: فهذه الدراسة التي يقدّمها اليوم تتحدّث عن موضوع يُعده غاية في الأهميّة؛ لأنه يعالج قضية اختلال النّسب واضطراب الموازين، - من الوجهة الشرعيّة - في تقدير الأمور والأفكار والأعمال، وتقديم بعضها على بعض، وأيّها يجب أن يُقدّم، وأيّها ينبغي أن يُؤخّر، وأيّها ترتيبه الأوّل، أيّها ترتيبه السبعون، في سلّم الأوامر الإلهيّة والتوجيهات النبويّة. ولا سيّما مع ظهور الخلل في ميزان الأولويات عند المسلمين في عصرنا.^١

وتحاول هذه الدراسة أن تلقي الضوء على مجموعة من الأولويات التي جاء بها الشرع وقامت عليها الأدلّة، عسى أن تقوم بدورها في تقويم الفكر، وتسديد المنهج، وتأصيل هذا النوع من الفقه. وحتى يهتدي بها العاملون في الساحة الإسلاميّة والمنظّرون لهم، فيحرصوا على تمييز ما قدّمه الشرع وما أخّره، وما شدّد فيه وما يسّره، وما عظّمه الدين وما هوّن من أمره. لعلّ في هذا ما يجد من غلّو الغالين، وما يقابله من تفریط المفرطين، وما يُقرّب وجهات النظر بين العاملين المخلصين.

وقد لقي هذا الكتاب قبُولاً واهتماماً من كثير المثقّفين والمفكرين، وترجم إلى عدد من اللغات.

٥. الإسلام والعلمانيّة وجه لوجه:

وقد سُجِّلَتْ ندوة مناظرة دار الحكمة في القاهرة بين الإسلاميين والعلمانيين المنعقدة في صيف سنة ١٩٨٥م في أشرطة فيديو وكاسيت، وأذيعت على نطاق واسع. ثم رأى الشيخ القرضاوي أن الكتابة في هذا الموضوع أصبح فريضة عليه، فكتب في ذلك: كتابه

١ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، في فقه الأولويات - دراسة جديدة في ضوء القرآن والسنة، مقدمة، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الثانية، ١٩٩٧م)، ص ٥

"الإسلام والعلمانية وجهًا لوجه". ناقش الشيخ القرضاوي فيه القضية من جذورها، وكان هذا الكتاب سلاحًا في المعركة المحترمة من قلم وإلى اليوم بين الإسلاميين الذين يريدون الإبقاء على هويّة الأمة وذاتيتها، وبين الذين يريدون أن يذوّبها في غيرها.^١

٦. الثقافة العربيّة الإسلاميّة بين الأصالة والمعاصرة

٧. ملامح المجتمع المسلم الذي نشده:

وفي هذه فترة «يونيو سنة ١٩٩٣م» ظهر كتابه «ملاع المجتمع المسلم الذي نشده» في ٤٠٠ صفحة. وهو يتكوّن من أحد عشر فصلاً، تشمل كلّ مكونات هذا المجتمع بدءًا بـ «العقيدة والإيمان» التي هي أساس هذا المجتمع، ومرورًا بالعبادات والشعائر، ثمّ الأفكار والمفاهيم ... المشاعر والعواطف ... الأخلاق والفضائل ... الآداب والتقاليد ... القيم الإنسانيّة ... ثمّ التشريع والقانون ... الاقتصاد والمال ... اللهو والفنون ... وختامًا: المرأة في المجتمع المسلم.^٢

الإنسان مدنيّ بطبعه:

وقد بيّن الشيخ القرضاوي في مقدّمة الكتاب: "أن الإنسان كما قال القدماء: مدنيّ بطبعه، وكما قال المُحدّثون: حيوان اجتماعي. أي: أنه لا يستطيع أن يعيش وحده، بل لا بدّ أن يتعاون مع غيره، حتّى تستقيم حياته، وتتحقّق مطالبه، ويستمرّ نوعه. وقد قال الشاعر العربيّ: 'الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض - وإن لم يشعروا - خدم!'

٨. في المجتمع الإسلاميّ:

صدر هذا الكتاب في سنة ١٣٩٧هـ - الموافق ١٩٧٧م، وهو كتاب صغيرة الحجم، ولكنه له أهميّة خاصّة، لخطورة الموضوع الذي يعالجه، وهو ما يعرف باسم "الأقليات الدينيّة في المجتمعات الإسلاميّة". وهم الذين أطلق عليهم فقهاؤنا مصطلح "أهل الذمّة" والذمّة معناها: العهد، ومقتضى هذه الكلمة "الذمّة" أن لهم ذمّة الله ورسول وذرّة جماعة من المسلمين، أي: عهدهم وضمانهم.

عند الشيخ القرضاوي: هذه الكلمة - يعني الذمّة أو العهد - لها مدلول الذي لا يجوز أن يستخف به، كما يفعل أولئك الذين ذمّهم الله بقوله: ﴿لَا يَرْفُقُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [١٠].^٣ ولقد أكّدت نصوص القرآن والسنة ضرورة احترام العهود والمواثيق، واعتبرت ذلك من خصال المؤمنين، حيث قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ [٢٠].^٤ وقال تعالى أيضًا: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [٨].^٥

كما اعتبرت النصوص القرآنيّة والنبويّة الغدر ونكث العهد من خصال الكفّار والمنافقين. كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ اللَّعَنَةُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [٢٥].^٦ ومن خصال المنافق الأساسيّة: إنه «إذا عاهد غدر».^٧

وفقهاء المسلمين مجتمعون على أن "عقد الذمّة" عقد لازم دائمًا مؤبّد، لا يحلّ للمسلمين أن ينقضوه بحال ما لم ينقضه الطرف الآخر.

١ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، الإسلام والعلمانية وجه لوجه، مقدّمة، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الرابعة، ١٩٨٩م)، ص ٣

٢ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ملامح المجتمع المسلم الذي نشده، فهارس هذا الكتاب، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٩٩٣م)

٣ القرآن الكريم، التوبة (٩)، الآية [١٠].

٤ القرآن الكريم، الرعد (١٣)، الآية [٢٠].

٥ القرآن الكريم، المؤمنون (٢٣)، الآية [٨].

٦ القرآن الكريم، الرعد (١٣)، الآية [٢٥].

٧ رواه البخاري، رقم الحديث: ٣٤، ومسلم، رقم الحديث: ٥٨ كلاهما في الإيمان عن ابن عمر رضي الله عنه.

تغيير عنوان "أهل الذمة":

ولكن لم يختار الشيخ القرضاوي لكتابه عنوان "أهل الذمة" كما فعل الإمام أبو الأعلى المودودي رحمه الله، لما أصبحت كلمة "أهل الذمة" غير مقبولة عند إخوانهم من مواطنينهم من أهل الكتاب الذين يعيشون بين ظهرانيتهم، وهم من بني جلدتهم، ويتكلمون بلسانهم، ويشعرون بأن هذه الكلمة توحى بأنهم مواطنون من الدرجة الثانية، ولهذا لم ير الشيخ القرضاوي بأسًا حذف هذا العنوان الذي ينفر منه الأقباط في مصر والسودان، والمسيحيون في بلاد شام وغيرها.

أجل، لم ير حرجًا في حذف هذا العنوان، الذي يستنكف منه مواطنونا من غير المسلمين. فقد رأينا سيدنا عمر رضي الله عنه حذف ما هي أهمّ منها، وهي كلمة "جزية" حين طلب منه نصارى بني تغلب، وهم من قبائل العرب المعروفة: أن يأخذ ما يأخذهم باسم الصدقة والزكاة، وليس باسم الجزية، لأنهم قوم عرب، يُأْتَفُونَ من هذه الكلمة، وقد استجاب سيدنا عمر رضي الله عنه ولبى طلبهم، ما داموا يدافعون ما يدلّ على إذعائهم لسلطان الدولة. فالمدار على المسميات والمضامين، وليس على الأسماء والعناوين.

عبارة "الكفار" ومدلولاتها:

كما لم يستخدم القرضاوي تعبيرًا آخر، يستخدمه - للأسف - كثير من الدعاة، وهو تعبير "الكفار"؛ فهذا التعبير يصدّم مشاعر كثيرين، حين تجابههم بوصف الكفر؛ ولا سيّما أن للكفر معاني عدّة منها: الإلحاد والحدود بالله تعالى، ومنها: إنكار النبوة والوحي، ومنها: التكذيب بالآخرة والجزاء والجنة والنار، ومنها: الإيمان بدين لا عبادة فيه ولا تكليف ولا قيم ولا أخلاق، ومنها: عدم الإيمان برسالة نبيّ معيّن، مثل محمد (صلعم)، وبكلّ ما جاء به، كما شأن اليهود والنصارى. وهذا هو المقصود بكفر اليهود والنصارى عند المسلمين: أنهم يكفرون بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ويكذبون أنه رسول من عند الله، وَيَزْعُمُونَ أن القرآن ليس وحياً منزلًا عليه، وإنما هو من صنعه واختلاقه، ويؤمنون ببعض العقائد التي يُنْكِرُهَا المسلمون بشدّة، مثل التشبيه عند اليهود، والتثليث عند النصارى.

استخدام عبارة "غير المسلمين":

لهذا أثر أن يستخدم هذا التعبير "غير المسلمين" وهو تعبير لا يغضب أحدًا، ولا يؤذي مشاعر أحد. وقد استحسنته كثيرون بعد ذلك، واستعملوه، وهو يدخل فيما أمر الله به تعالى في قوله: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ [٥٣].^٢ وقوله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [١٢٥].^٣

٩. شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كلّ زمان ومكان

١٠. الأمة في عام:

قد سنّت المجلّة سنّة حسنة: أن يصدر عنها كتاب لعالم أو مفكّر إسلامي، كلّ ثلاثة أشهر، يعالج قضية من قضايا الفكر الإسلامي، تتسم بالحيوية والمعاصرة، وتكتب بأسلوب علمي موضوعي، بعيد عن الإثارة والتهيج. وقد أحسنت "الأمة" حين كتب جعلت كتابها الأول للداعية الأولى: الشيخ العزالي، الذي كان عنوانه "مشكلات في طريق الحياة الإسلامية" وهو يعالج الخلل الذي أصاب الذهنية الإسلامية، وخصوصًا لدى بعض فصائل الصحوة الإسلامية.

١ الحُسْرُوجَرْدِي الخراساني، البيهقي، رقم الحديث: ٢١٦، ج ٩

٢ القرآن الكريم، الإسراء (١٧)، الآية [٥٣].

٣ القرآن الكريم، النحل (١٦)، الآية [١٢٥].

تقديم الشيخ القرضاوي لكتاب تقرير «الأمة في عام» ونقد الأستاذ سيّد ياسين له وردّ الشيخ القرضاوي عليه:

المبادرات الدكتور محمود عاكف التجديديّة:

صديق الشيخ القرضاوي الدكتور محمود عاكف من الرجال أصحاب المبادرات، الذين يتحرّكون باستمرار، مجتهدين في استحداث وسائل جديدة غير الوسائل التقليديّة، التي يقف عندها الإسلاميون غالبًا، ولا يكادون يبتكرون أسلوبًا جديدًا، بل يكادون يعلنون سخطهم على كلِّ محدّد. وكأنهم يؤمنون بقول القائل: ما ترك الأوّل لآخر شيئًا!

أنشطة المركز المتنوّعة:

وقد قام المركز الدراسات الحضاريّة بأنشطة متنوّعة في سنة ١٩٩٣م، وجعل له فرعًا أو مكتبًا في القاهرة. منها ندوات كانت تبحث في موضوعات يبتعد عنها الإسلاميون، مثل التعدديّة والحريّات، وشرعيّة تكوين الأحزاب في الدولة الإسلاميّة، والموقف عن المرأة، وضرورة النقد الذاتي للحركة الإسلاميّة. على آخره.^١

مشاركة عدد من المفكرين:

وكان يشارك في هذه الحلقات عدد من المفكرين الإسلاميين الأحرار، مثل: الشيخ يوسف القرضاوي في بعض الندوات حين يكون في القاهرة في إجازة الصيف أو عند مروره بالقاهرة لسبب أو لآخر، والمستشار طارق البشري، والدكتور محمّد عمارة، والأستاذ فهمي هويدي، والدكتور أحمد كمال أبو المجد، والدكتور محمّد سليم العوا، والدكتور أحمد كمال إمام، كما شارك فيها عدد من الإخوان الملتزمين بالتنظيم، مثل: الدكتور عبد المنعم أبو الفتوح، والدكتور عصام العريان، حتى الأستاذ مصطفى مشهور نائب المرشد العام، ثم المرشد العام بعد ذلك شارك في بعض الندوات.^٢

ومن الندوات التي شارك الشيخ القرضاوي فيها: ندوة تكوين الأحزاب داخل الدولة الإسلاميّة، حيث قال: إن تعدّد الأحزاب في السياسة أشبه بتعدّد المذاهب في الفقه، ويمكننا أن نقول: إن الأحزاب مذهب في السياسة، والمذاهب أحزاب في الفقه. وقد نقلها الكاتب المعروف فهمي هويدي على لسانه في مقالاته الأسبوعيّة الشهيرة في الجريدة اليوميّة «الأهرام» وغيرها.

إصدار تقرير «الأمة في عام»:

وكان من أعظم ما أنتجه هذا المركز: إصدار تقرير «الأمة في عام»، وهو تقرير إستراتيجي إسلامي، على غرار التقارير السنويّة التي تصدرها جهات مختلفة في مصر وخارجها، وأشهرها: تقرير مركز الدراسات السياسيّة والإستراتيجيّة بالأهرام.

وهذا التقرير يعتبر عملاً علميًّا موضوعيًّا عصريًّا مهمًّا، يشرف عليه أستاذة في العلوم السياسيّة، مثل: أ. د. نادية مصطفى، وأ. د. سيف الدين عبد الفتاح، والدكتور هبة رءوف، وعدد من الشباب الباحثين الواعدين. وقد صدر عن المركز عدّة تقارير في عدّة سنوات، وفي كلّ تقرير يكتب مقدمته أحد المفكرين المعروفين. وفي سنة ١٩٩٤م طلب من الشيخ القرضاوي الدكتور عاكف أن يكتب مقدمة التقرير لذلك العام، كما طلب من المستشار طارق البشري أيضًا، فكان حظّ الشيخ القرضاوي التقرير بمقدمتين.

١ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *الأمة في عام*، مقدمة، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الثانية، ١٩٩٥م)، ص ٤

٢ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٧٣٧

وكتب الشيخ القرضاوي كلمة «الأمة» التي جعلها التقرير عنواناً له، ومحوراً يدور حوله، وما المقصود بهذه الأمة؟ وهي - بغير شك - الأمة الإسلامية، وهل توجد «الأمة الإسلامية» بالفعل أو هي أوهام في رءوس الإسلاميين لا حقيقة لها في الخارج؟

١١. الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم:

وقد بين الشيخ القرضاوي في مقدمته: أن هذه الأمة حقيقة لا ريب فيها: هي حقيقة دينية، وحقيقة تاريخية، وحقيقة جغرافية، وحقيقة سياسية، وحقيقة ثقافية، وحقيقة بمنطق المصلحة المشتركة والمصير المشترك، بل هي حقيقة بمنطق الأعداء أنفسهم التي ينظرون إليها ككتلة واحدة من المحيط إلى المحيط... ولذا يزعم إسرائيل كل الإزعاج أن تمتلك باكستان القنبلة النووية، وأن إيران إلى امتلاك الطاقة النووية.

وقد ذكر الشيخ القرضاوي أن هذه الأمة أمة واحدة بحكم وحدة العقيدة والشريعة والقبلة والمفاهيم والآداب المشتركة. حيث قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [٥٢].^١ وقد فسّر هذه الآية في تفسير "محاسن التأويل": ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ﴾ أي واعلموا أن هذه ملتكم وشريعتكم التي أنتم عليها ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي ملة واحدة، وهي شريعة الإسلام. إسلام الوجه لله تعالى بعبادته وحده.^٢

وفي تفسير المنار: رَجَّحَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْأُمَّةِ فِي الْآيَةِ الْمَذْكُورَةِ الْمِلَّةُ؛ أي: الْعَقَائِدِ وَأَصُولِ الشَّرَائِعِ؛ أي: أَنَّ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ وَرُسُلِ اللَّهِ عَلَى مِلَّةٍ وَاحِدَةٍ وَدِينٍ وَاحِدٍ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [١٩].^٣ وفي تفسير البيضاوي: ﴿أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ملتكم ملة واحدة أي متحدة في الاعتقاد وأصول الشرائع، أو جماعتكم جماعة واحدة متفقة على الإيمان والتوحيد في العبادة.^٤ وأن الإسلام حافظ على وحدتها بأن جسدها في عناصر ثلاثة هي:

* وحدة المرجعية العليا، التي تتمثل في الشريعة الإسلامية المستمدة من القرآن والسنة.

* وحدة الدار، يعني بما: دار الإسلام التي تجعل أوطان المسلمين وإن تباعدت وطناً واحداً، يجب على الجميع أن يدافعوا عنه، ويأتمون إذا فرطوا في ذلك.

* وحدة القيادة التي تتمثل في الخلافة الإسلامية، التي ظلت تجمع الأمة تحت رايتهما ثلاثة عشر قرناً، حتى ألغاهما كمال أتاتورك في سنة ١٩٢٤م، حين هدم الخلافة العثمانية، التي كانت تمثل - على ما بها - آخر تجمع للمسلمين تحت راية العقيدة... إلى آخر ما قال الشيخ القرضاوي في هذه الكلمة.^٥

وقد علّق الكاتب المعروف الأستاذ سيّد ياسين رئيس مركز الدراسات السياسية في الأهرام على مقاله، بأنه يمثل «الحلم الفقيه» بإمبراطورية إسلامية، ولا يستند إلى رصيد من الواقع، على حين مدح مقال المستشار البشري بأنه يمثل تحليل المؤرخ.

١ القرآن الكريم، المؤمنون (٣٢)، الآية [٥٢].

٢ القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق (المتوفى: ١٣٣٢هـ)، محاسن التأويل: المعروف بـ (تفسير القاسمي)، (بيروت - دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ)، ج ٧، ص ٢٩٢

٣ محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني، (المتوفى: ١٣٥٤هـ)، تفسير القرآن الحكيم: المعروف بـ (تفسير المنار)، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٩٠م)، ج ٢، ص ٢٢٠

٤ القرآن الكريم، آل عمران (٣)، الآية [١٩].

٥ البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: المشهور بـ (تفسير البيضاوي)، (بيروت - دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ)، ج ٤، ص ٨٩

٦ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٩٩٦م)، ص ٢٩

ردّ الشيخ القرضاوي على الأستاذ سيّد ياسين:

وقد ردّ على كلّ ما أثاره الأستاذ ياسين في الأهرام في صفحته الثقافية التي يكتب فيها مقالة أسبوعياً، ثمّ ردّ الأستاذ على مقالة الشيخ القرضاوي في الأسبوع التالي، وردّ عليه أيضاً. ويشهد أنه كان يكتب بأدب واحترام، دون إساءة أو إسفاف، وإن كانت زاوية الرؤية تختلف اختلافاً شاسعاً بينه وبين الشيخ القرضاوي، وقال الشيخ: فمنطلقاتنا متباعدة، وغاياتنا متفاوتة، ومصدرنا متباينة، فمن العسير أن نلتقي، كما قال الشاعر:

أيّها المنكح الثريا سهيلاً عمرك الله! كيف يلتقيان؟
هي شامية إذا مات استقلت وسهيل إذا استقلّ يمان!

ولا يتّسع المقام هنا لإيراد هذه المساجلات، وقد تضمّنها جميعاً كتابه: «الأمّة الإسلاميّة حقيقة لا وهم».

١٢. الصحوة الإسلاميّة بين الجمود والتطرّف:

وقد كتب الشيخ القرضاوي في الصحوة الإسلاميّة بعض الكتب إسهاماً منه في إنارة الطريق لأبناء الصحوة، منها كتابه "الصحوة الإسلاميّة بين الجمود والتطرّف" وهو الذي نشرته مجلّة "الأمّة" في كتابها الثاني بعد كتابها الأوّل "مشكلات في طريق الحياة الإسلاميّة" للشيخ الغزالي.

وكان الكتاب الثاني من كتب الأمّة، هو: كتاب الشيخ القرضاوي: "الصحوة الإسلاميّة بين الجمود والتطرّف"، وهذا العنوان هو من اقتراح الشيخ الغزالي نفسه، فقد كان الشيخ القرضاوي سمّى الكتاب: ظاهرة التطرّف الديني: نظرات في أسباب والعلاج". ورأى الشيخ هذا العنوان عنواناً علمياً هادئاً، لا يلفت النظر إلى قيمة الكتاب، فاقترح عنوانه الذي نشر به، ووافق الشيخ القرضاوي.^١

وكان الكتاب الثالث للواء الركن محمود شيت خطاب رحمه الله. والرابع لعماد الدين خليل. هكذا استمرّ كتاب الأمّة إلى يومنا هذا. حتّى بعد توقّف المجلّة.

١٣. الصحوة الإسلاميّة بين الاختلاف المشروع والتفرّق المذموم

١٤. الصحوة الإسلاميّة من المراهقة إلى الرشد

١٥. التطرّف العلمانيّ في مواجهة الإسلام

١٦. من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا

١٧. أمتنا بين قرنين

١٨. ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق

١٩. تاريخنا المفترى عليه

٢٠. الإسلام والعنف

٢١. نحن والغرب: أسئلة شائكة وأجوبة حاسمة

١ ألفردّ قرضاوي، يوسف بن عبد الله، الصحوة الإسلاميّة بين الجمود والتطرّف، مقدمة، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٩٩٨م)، ص ٣

المبحث الحادي عشر: تصنيفاته في "نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام"

١. شمول الإسلام:

سلسلة «نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام»:

هذه السلسلة تعني بأمر كبير له خطره في الفكر الإسلامي، وأثره على الدعوة الإسلامية، وعلى العاملين والناشطين على الساحة الإسلامية. فهي تعمل على توحيد رؤاهم العقديّة والفكرية، وأبحاثهم الأصلية، ومواقفهم الأساسية، وإن اختلفوا في الأمور الفرعية والتفصيلية.

٢. الأصول العشرون للإمام الشهيد حسن البنا:

وتتخذ هذه السلسلة من «الأصول العشرين» للإمام حسن البنا: محورًا تدور حوله، وتنطلق منه للشرح والتأصيل. ويعني الشيخ القرضاوي بهذه الأصول: المفاهيم الأصلية التي جعلها الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله أساسًا «لوحدة الفهم» عند الإخوان المسلمين، بل قدمها لاتحاد الجمعيات الدينية في مصر، لتكون «أساسًا فكريًا تجتمع عليه»، وتعمل تحت رايته، وكون الشيخ القرضاوي ركن «الفهم» في «رسالة التعاليم» التي كتبها حسن البنا لتوجيه الإخوان العاملين، وقال في مقدمة رسالته: «إلى هؤلاء الإخوان فقط أوجّه هذه الكلمات» وهي ليست «دروسًا تحفظ» لكنها «تعليمات تنفذ!» أما غير هؤلاء فلهم دروس ومحاضرات، وكتب ومقالات، ومظاهر وإداريات، ولكن وجهة هو موليها، فاستبقوا الخيرات، وكلا وعد الله الحسنى.

ومن قرأ هذه الأصول وتدبرها حق التدبر، وكان له اطلاع على مصادر المعرفة الإسلامية: أيقن أنها تمثل خلاصة مركزية، لقراءات طويلة، ودراسات عميقة، في أصول الدين، وأصول الفقه، وأصول التفسير، وأصول الحديث، وأصول السلوك، وقواعد الفقه، مع عقلية هاضمة مستوعبة موصولة بالحياة والعصر، قادرة على التأصيل والترجيح.^١

وقد صاغ الأستاذ حسن البنا هذه الأصول صياغة موجزة مركزية حكيمة معتدلة، وحاول فيها أن يبني ولا يهدم، ويجمع ولا يفرق. ولهذا ترك بعض المسائل دون أن يرحح فيها رأيًا، مثل مسألة التوسل بالنبي والصالحين.

عناية بالوصول العشرين:

وقد عنى الشيخ القرضاوي بهذه الأصول وقد شرحها منذ كانوا معتقلين في السجن الحربي، ولا سيما في أواخر مدة الاعتقال أي في سنة ١٩٥٦م. وبدأ يشرحها لبعض الإخوان لبعض الإخوة الذين استحسنوا شرحه، وحثوه على أن يستمر في ذلك، واستكماله بعد خروجهم من السجن بتوفيق الله العزيز العلام.

وعندما زار الشيخ القرضاوي الأردن صيف سنة ١٩٦٦م، مقيمًا في مدينة الخليل العريقة: وزار مدينة إربد، والتقى الإخوة هناك في المدرسة الإسلامية لمدة ثلاثة أيام مخيمين بها. وكان من برنامجه في هذه الأيام شرح الأصول العشرين بطلب من الإخوة. وقد سرّوا بشرحه لها، وطلبوا إليه أن يعمل على كتابة شرح لها، فيستفيد منه الجميع.

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *الأصول العشرون للإمام الشهيد حسن البنا*، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٩٨٠م)، ص ٤١

شرح الشيخ القرضاوي المسجّل للأصول العشرين:

وفي قطر طلب منه عدد من الإخوة أن يلتقيهم، ليشرح هذه الأصول شرحًا شفهيًا يسجّل على الأشرطة، ويعمّم بعد ذلك على الإخوة في أقطارهم. وقد فعل ذلك، وسجّلت في نحو عشرة أشرطة كاسيت، وُرّعت بعد ذلك في نطاق واسع، واستقبلها الإخوة بحفاوة واهتمام. وطلب منه بعضهم أن أفرغها مكتوبة فرفض الشيخ القرضاوي، لأن للكتابة لا تتوافر في الشرح الشفهي المرتجل، وأنه ينوي كتابة شرح خاصّ لها أفيض وأوصل إذا يسّر الله تعالى.

كتابته حول الأصول العشرين في مجلّة الدعوة:

وعند بدأت مجلّة الدعوة في الظهور مرّة أخرى في عهد المرشد الثالث للإخوان المسلمين الأستاذ عمر التلمساني رحمه الله، بدأ يكتب الشيخ القرضاوي فيها بعض المقالات حول هذه الأصول، ثم توقّف ... إلى أن يسّر الله له العودة الكتابة المنهجية المطوّلة حول هذه الأصول، فهي ليست مجرد شروح، بل هي بحوث أصيلة طويلة حول مفاهيم هذه الأصول ومعانيها. بحيث إن بعض الأصول شرح الأصل الواحد فيها كتاب كامل، كما في الأصل الأوّل، الذي يتحدّث عن «شمولية الإسلام»، والأصل الثاني الذي يتحدّث عن «المرجعية العليا للإسلام»، الممثّلة في القرآن والسنة، والأصل الخامس يتعلّق بالسياسة الشرعية، أو برأي الإمام ونائبه، ومتى يعمل به ... إلخ.^١

شرح الشيخ القرضاوي أصلا في ستة أجزاء:

هذا قد صدرت عن شرح هذه الأصول ستة أجزاء تضمّن أربعة عشر أصلاً، وآخرها: الأصل الذي يتعلّق بقضية «التكفير».

٣. المرجعية في الإسلام للقرآن والسنة

٤. موقف الإسلام في الإلهام والكشف والرؤي ومن التمام والكهانة والرقي

٥. السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها

٦. كيف نتعامل مع التراث والتمذهب الاختلاف

٧. فصول العقيدة بين السلف والخلف (آيات وأحاديث الصفات الأولياء وكرامتهم - القبور ومبتدعاتها -

التوسل)

١ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٦٦٦

المبحث الثاني عشر: مؤلفاته في "شخصيات إسلامية"

١. الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه

٢. الشيخ الغزالي كما عرفته: رحلة نصف قرن:

ومن شيوخه في الإخوان "الشيخ محمد الغزالي"، فهو داعية عصره ووحيد دهره، والشيخ الغزالي رجل مُحَبَّب لكل من لقيه وعاشه، فهو رجل هَيِّن لَيِّن متواضع، موطأ الأكناف، حلّو اللسان، طيب العشرة، باسم الثغر، طلق الحيا، فكه الحديث "ابن نكتة" على طريقة المصريين الظرافاء بالفطرة، لا يوجدده يوماً مقطب الجبين، أو عابس الوجه، إلا إذا كان ذلك لبلاء وقع بالمسلمين في أيّ مكان، أو شكاً إليه مسلم من المشكلات والنوازل ما لا يملك له جلاً، فهو يألم لألم الناس، ويفرح لفرح الناس. وهو قرير العين. إنها نعمة من الله تعالى: أن يحبك الناس لله وحده، لا مال، ولا لجاه، ولا لنديا، وما كان لله دام واتصل.

موقفه في التدين المغلوط:

ولا عجب أن وجه الشيخ جُلَّ جهده في سنواته الأخيرة لمطاردة هؤلاء، وكشف عوارهم، والتحذير من تدينهم المغلوط، ابتداء من شرح الأصول العشرين، بكتابه "دستور الوحدة الثقافية للمسلمين" ومروراً بكتاب "مشكلات في طريق الحياة الإسلامية" و"هموم داعية" و"علل وأدوية" و"الطريق من هنا" و"الحقّ المر" وغيرها.

فقد كانوا يزرون أي الشيخ القرضاوي والشيخ العسال وغيرهم في بيته في درب سعادة، قبل أن ينتقل إلى شارع الأزهر ثم إلى الدقي، وكان يكتب - عادةً - للمسلمين عامةً، كان الغزالي يركّز على التوعية العامة. وقد عاش وحدته بعد وفاة زوجته، ومن المعروف: أن المرأة - بعد وفاة زوجها - يمكن أن تعيش وحدها بلا رجل، ولكن من الصعب على الرجل بعد وفاة زوجته أن يعيش وحده؛ فحاجة الرجل إلى المرأة أكثر من حاجة المرأة إلى الرجل، ولا سيّما في حالة الكبر.^١

٣. الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته

الشيخ أبو الحسن علي الندوي، وقعت زيارته مع القرضاوي في مصر في سنة ١٩٥١م، وذلك حين بدأ الشيخ يتحرّك من وطنه بالهند إلى العالم من حوله، وكانت زيارته لمصر. وهو الذي كان عُضْوًا طَوَّلَ الحياة لِمُنْتَظَمَةِ "رابطة العالم الإسلامي". كانت دولة الهند إكرامًا للشيخ أبي الحسن الندوي، اعترافًا بمنزلته في العالم الإسلامي.

ذكر الشيخ القرضاوي "حينئذ كنت طالبا في كُليَّةِ أصول الدين، مشغولا بدعوة الإخوان المسلمين، مسؤولا عن طلبة الإخوان المسلمين في جامعة الأزهر، مع أخي أحمد العسال وعدد من الإخوة الكرام، وأخطب الجمعة في مسجد بمدينة المحلة الكبرى - القرية من قريتي - وكنت قرأت كتاب "ماذا خسر العالم باخطاط المسلمين؟"

وقد أعجب بالكتاب، ودلّ عليه بعض أصدقاءه ليقرووه، وإن كان لا يعرف عن صاحبه شيئا إلا أنه عالم هنديّ مسلم. وقد كتب الأستاذ أحمد أمين مقدّمة للكتاب، ولكنّه لم يوف صاحبه حقّه كما ينبغي.

ولكن الكتاب نظرة جديدة إلى التاريخ الإسلامي، وإلى التاريخ العالميّ من منظور إسلاميّ، وهو منظور عالم مؤرّخ مصلح داعية، يعرف التاريخ جيّداً، ويعرف كيف يستخدمه لهدفه ورسالته. وقد ساعده على ذلك معرفته باللغة الإنكليزية، كما ساعده الحسّ النقديّ،

١ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، الشيخ الغزالي كما عرفته: رحلة نصف قرن، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٩٨٢م)، ص ٢٦

والحسن الحضاري، والحسن الدعوي، والحسن الإصلاحي - وكلها من مَوَاهِبِهِ - على تقديم هذه النظرة الجيدة من خلال كتابه الفريد. هذا الشخص بعلمه وزهده ودينه وتاريخه وسنه وموضع إجماع عند المسلمين. ثم هو بوصفه غير عربي يعطي للقضية بعدها الإسلامي العالمي. ثم هو غير منسوب إلى جماعة من الجماعات أو حركة من الحركات. وهذه ميزة أخرى. وكان رئيس المؤتر والدعوة إليه لإنقاذ فلسطين.^١

٤. الجويني... بين المؤرخين: الذهبي... والسبكي

٥. في وداع الأعلام:

وفاة الأستاذ عبد الحلیم محمد أبو شقة:

الوداع الأخير:

في صباح يوم الاثنين ٢٣ من ربيع الآخر ١٤١٦ هـ - ١٨/٩/١٩٩٥ م جاء عند الشيخ القرضاوي وفاة حبيبه، وصديقه الوفي، ورفيقه الودود، الأستاذ عبد الحلیم محمد أبو شقة. وكل شيء عند الله بأجل مسمى، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [١١].^٢ لا نملك عندما نَفْقِدُ من نحب إلا أن نقول ما علمنا القرآن أن نقوله عندما نزل المصائب، ومنها مصيبة الموت: ﴿قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [١٥٦].^٣

رثاء الشيخ القرضاوي للأستاذ عبد الحلیم أبو شقة:

وقد كتب الشيخ القرضاوي في رثاء عبد الحلیم كلمة يستحق أكثر منها، نشرتها الصحف القطرية وغيرها، وكما نشرت في كتابه: «في وداع الأعلام» الذي نشرت دار الفكر الدمشقية.

لجنة الشباب المسلم:

لقد عرف الشيخ القرضاوي عبد الحلیم قديماً على أنه من «لجنة الشباب المسلم» في الإخوان، وهي اللجنة التي أخذت على عاتقها الاهتمام بالجانب الفكري والثقافي والتربوي، في مقابل الجماعة التي جعلت جل اهتمامها بالجانب الجهادي، وهم جماعة «النظام الخاص» الذي أطلقت الحكومة المصرية عليه فيما بعد: «الجهاز السري».

تعرف الشيخ القرضاوي على عبد الحلیم

وقد دعوا الشيخ القرضاوي ليحضر معهم بعض هذه الدروس، واستجاب لهم، واستفاد منها، وهناك لقي عبد الحلیم، وتعرف عليه لأول مرة تعرفاً سريعاً. حين التقوا، فرأى وجهها بشوشاً، وثرعاً باسمًا ونفساً صافيةً، وشخصية تتراح إليها بمجرد رؤيتها. وهذه هي المرحلة الأولى من تعارفهما.^٤

١ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٩٨٢م)، ص ٣٣

٢ القرآن الكريم، فاطر (٣٥)، الآية [١١].

٣ القرآن الكريم، البقرة (٢)، الآية [١٥٦].

٤ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، في وداع الأعلام، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٩٩٩م)، ص ٤١

في السجن الحربي يعدّ الحلّ الأوّل:

ثمّ ازداد هذا التعارف أكثر حين ضمّما السجن الحربي في العهد الثورة في مصر، في الاعتقال الأوّل يناير ١٩٥٤م، وخصوصاً في الفترة التي سمحوا لهم فيها بفتح الزنازين، والتلاقي فيما بينهما. وتعرّفه أكثر عليه، أنه تخرج في قسم التاريخ من كليّة الآداب.

في قطر:

أما المرحلة الثالثة، فهي التي بدأت بإعارة الشيخ القرضاوي إلى قطر، مديراً للمعهد الديني الثانوي هناك، وكان عبد الحليم قد سبقه، وقد عمّل من قبل نائباً لمدير المدرسة الثانوية الوحيدة بالدوحة، ثمّ مديراً لها، ثم ترك الإدارة واكتفى بالتدريس. وكان يدرّس الموادّ الاجتماعيّة: الجغرافيا والتاريخ. فكان يتعامل مع زملائه بروح الأخوة المحببة، وكان كلّ زملائه يحبّونه ويعتبرونه الأب الروحي لهم.

تقارُب عقلي وقلبي وأسريّ:

كان قريباً إلى عقل الشيخ القرضاوي وقلبه، وكان الشيخ القرضاوي قريباً هكذا إليه، وكانت أسرة القرضاوي وأسرته تلتقيان وتتفاهمان ولا حاجز بينهما، وقد انعقدت الصداقة بين زوجة القرضاوي وبين زوجته، كما انعقدت بين بناته وبنات الشيخ القرضاوي.^١

لقاءات خاصّة:

وكان لهم لقاءات خاصّة في قطر، شبه مُنْتَظَمة، وهم مجموعة تضمّ: عبد الحليم، والعسال، وحسن المعاييرجي والشيخ القرضاوي، وكلّهم مصريّون، وتضمّ معهم العالم البَحَاثَة مُحَمَّد مصطفى الأعظمي، وهو هنديّ، ولكن مصّرّه التعليم في مصر، ودخول السجن الحربي مع الإخوان. وكان يُسمّى هذه الجلسات: جلسات «التسليك» شَبَّهها بجلّسات شيوخ الصُوفِيَّة مع مريدهم الذين «يسلّكوهم» أي يعلمونهم آداب السلوك.

وقد عيّن عبد الحليم مديراً للمدرسة الثانويّة، فقام بمهمّة خير قيام، وتربويّاً وإداريّاً. وكان معه أحد الإخوانم الأزهريين الواعين، وقد سأله الشيخ القرضاوي عنه مرّة، فقال هذا رجل بَنَاء، لا يدع ناحية من النواحي إلا وضع فيها لُبنة.

تحرّره من قيود العمل الوظيفي:

ومع أن عبد الحليم في قطر، كان ملء السمع والبصر، فوجئ بأنه يفكّر في الاستقالة من عمله، وترك قطر ووظيفته فيها، التي يتطلّع إلى مثلها كثيرون، وكانت حجّته أنه يريد أن يتحرّر من قيود العمل الوظيفي، ليتفرّغ للبحث العلميّ، وقد أصبح لديه من مدخراته ما يكفي لإقامة مشروع تجاريّ يتعيّش منه، وينطلق هو في مجاله.^٢

مشروعاته العلميّة:

وكانت لديه مشروعات علميّة أو فكريّة، يريد أن يبدأ بها، أهمّها: موضوع المرأة في الإسلام، ورسالتها فيه، وموقفها من الرجل وموقف الرجل منها. وقد بدأ يجمع المادّة في هذا الموضوع من مظانّها المختلفة. وكان يرى أن يكتفي من المصادر بالقرآن و«الصحيحين»: البخاري ومسلم، وإن لم يمنعه ذلك من الاستفادة ه في بعض الأحيان — من كتب السنن الأخرى، مثل: «موطأ مالك»، و«مسند أحمد»، و«السنن الأربعة»، وغيرها.

١ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، في وِدَاعِ الأَعْلَامِ، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٩٩٩م)، ص ٤٤

٢ المرجع السابق، ص ٤٣

موسوعة «تحرير المرأة في عصر الرسالة»:

وما زال كذلك حتى فرغ من كتابه أو من موسوعته التي سماها: «تحرير المرأة في عصر الرسالة». يريد أن يقول لقاسم أمين وجماعته: إن المرأة قد تحررت قبلك منذ ثلاثة عشر قرناً، منذ أرسل الله محمداً بالهدى ودين الحق. وقد شرف الشيخ القرضاوي بأنه كتب مقدّمةً ضافيةً بجوار مقدّمة الشيخ محمد الغزالي. واستقبلت كتابه كلّ الفئات المختلفة في مجتمعات العربي والإسلامي بالترحاب والتأييد، إلا فئة واحدة، هم «السلفيون» الذين رفضوا الكتاب، وأبوا أن يتلقوا مؤلفه، وقد دعاهم ليحاورهم ويحاوروه حول نقاط الخلاف، فقالوا: إن الكتاب مرفوض عندهم جملة وتفصيلاً. وقد ترك عبد الحليم أوراقاً مكتوبة في موضوعات شتى، بعضها شبه مكتمل، وبعضها يحتاج إلى شيء من الجهد حتى يصلح للنشر. وقد نشر بعده كتابه الفريد «نقد العقل المسلم» الذي كتب مقدمته المفكر المسلم الكبير، الدكتور محمد عمارة، وأثنى عليه.^١

مجلة «المسلم المعاصر»:

كان الأستاذ عبد الحليم مشغول الفكر والقلب بالتجديد والإصلاح، وخصوصاً للحركة الإسلامية، والأمة الإسلامية... وبالتالي أراد هو وأصدقائه أن ينشر مجلة التي ذات وزن علمي وفكري ثقيل، حتى اجتمعوا من أجل اجتماعات شتى في بيروت، وفي الكويت وفي غيرها، تدعو إلى الاجتهاد والتجديد وتمارس الاجتهاد والتجديد. فعينوا تسميتها «المسلم المعاصر»، فهو صاحب الفكرة ومنفذها ومتابعها حتى خرجت. وقد كتب في أعدادها الأولى مقالات فكرية نقدية، كان لها صداها ووقعها في المجال الإسلامي، والمجال الإصلاحي، ولا سيما ما اشتملت عليه من نقد شجاع للحركة الإسلامية، والدعوة الإسلامية، ومن ذلك مقاله: «أزمة العقل المسلم»، ومقالة الأخر: «أزمة الخلق المسلم». ثم اختلف مع صديقه رئيس التحرير الدكتور جمال عطية، فترك له المجلة؛ لأنه لا يحب أن يعمل في جو الخلاف أو الصدام.

سعيه لإنشاء جمعية فكرية:

وبعد ذلك عني بأن ينشئ جمعية فكرية، تضم جماعة من معتدلي أهل الفكر، من المهتمين بالتجديد والتسديد، وكان يراد أن يسجلها في مصر، ولما عجز عن ذلك، سجلها في باريز. وكان الشيخ القرضاوي ممن أسهم معه في تأسيسها. وقرروا أن يخرج باسمه معلناً عن هذا تيار الإسلامي الجديد.^٢

حفاوته بالشخصيات الفكرية:

وكان عبد الحليم حفيظاً بكل شخصيته يمكن أن تنفع الإسلام ولا سيما في الجانب الفكري المشغول به، وكل شخصيته كان لها ميل علمانية أو ماركسية أو ليبرالية، ثم بدأت تتجه إلى الإسلام، يجتهد في الاقتراب منها، ودعوتها إلى منزله، ويحاول أن يعرفها على أصدقائه من الإسلاميين.

٦. عمر بن عبد العزيز الراشد المجدد

٧. نساء مؤمنات

١ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، في وداع الأعلام، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٩٩٩م)، ص ٤٢

٢ المرجع السابق، ص ٤٥

المبحث الثالث عشر: تصانيفه في "الأدب والشعر"

كان جذب ووجدان الشيخ القضاوي ورغبته في الشعر والقصيدة في حياة طالبه، وخاصة في أيام المحن والسجون والمعتقلات، جدير بالذكر أنه عانى ما عاناه وقاسى ما قاساه وأصاب ما أصابه في هؤلاء الأيام من القسوة والشدة والتكبة والنكسة والمأساة والمناعب والكرب والعذاب والاضطراب والقلق والاضطهاد ظلماً وطغياناً وجوراً ووحشياً بلا عدل ولا إنصاف من الحكومة المصرية. حتى يتهمه ويتحامل عليه (أي الشيخ القضاوي) المتعصبون من الأشخاص والأفكار، سواء من الإسلاميين أم من القوميون بالتهمة وبالقذف كذباً والشكاية الزائفة، وأحياناً يدعى وهو كذاً وكذا، وأحياناً يُسند إليه ما لا يليق ولا يلائم بشأن حضرته بلا أدب ولا مُروءة ولا مجاملة. ومعتاد الناس أن يُظهِرَ ويُصدِرَ هؤلاء الأحاسيس والشعور المعاناة والمأساة بإنشاء الأشعار أو القصائد أو الأناشيد. ربّما غيرها من الأغراض المتعلقة بالعلوم المختلفة لسهولة في التعبير والتصوير. وليس الشيخ القضاوي خارج منها، حتى إذا أنشأ الشعر أو القصيدة أو النشيد كان يستذكر أيُّ إنسان أنه أحد من الشعراء والأدباء.

الشيخ القضاوي والشعر:

على كلّ حال، كتب الشيخ القضاوي بعض من الأشعار والقصائد والأناشيد. فمنها: ولقد بيّن موقفه من الشعر في قصيدته بعنوان: «أنا والشعر» وهي قصيدة بائية من بحر الطويل، وفيها قال:

أريد له هجرًا، فيغلبني حبي وأنوي، ولكن لا يطاوعني قلبي
وكيف أطيق الصبر عنه، وإنما أرى الشعر للوجدان كالماء
فكم شدّ من عزم، وبصر من وأيقظ من نوم، وذلك من صعب!

وفي هذه القصيدة أوضح مواقف الشعراء وأصنافهم واتجاهاتهم. وفي نهايتها قال:

وقفتك يا شعري على الحقّ فإن لم أنل إله، قلت لهم:
وإن قال غرّ: ثروتي، قلت: وإن قال لي: حزبي، أقول له:
فعرش كوكبًا يا شعر يهدي إلى وينقض رجماً للشياطين

قال: وكم تمرّ عليّ فترات أنسى فيها الشعر، حين أغرق في بحار العلم والفكر، وأنسى بحور الشعر، وتأتي عليّ أحياناً تستيقظ فيها القريحة، ويتدفق فيها الشعر، وأكثر ما يكون ذلك أيام المحن والمعتقلات.^١

قصيدة «يا نفس»:

ومما جدير بالذكر في الفترة التي يتحدث الشيخ عنها: جملة فصائد أنشأها في مناسبات مختلفة، مثل: قصيدة «يا نفس» بمناسبة بلوغه الستين.

حتّام أنت لعوب وقد تداني الغروب؟!
يا نفس ما لك ظمأى وال ورد منك قريب؟!
يا نفس ما لك غرّثي والكون مرعى خصيب!؟

١ أَلْقَضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٧٨٤

ومنها «أنا بالله عزيز».

هات ما عندك هات يا زمانَ الأزمانِ!
أنا لا أحشاك، فانتز كلّ ما في الجُعبات!
وأرم من نَبْلِكَ ما شئت فلن تشني قناتي

«القصيدة الضادية»:

ومنها بعض القصائد التي نأجى الشيخ القرضاوي فيها ربّه، وخصوصًا في فترة مرضه، حين أصاب بأوجاع الظهر، والعمود الفقريّ. مثل قصيدته الضادية التي قال فيها:

يا جابر العثرات، كن لي كم عاترٍ إن ترضَ عنه
ورافع مكاني - رب - عندك من ترفع اللهم من ذا يخفض؟!
وابسط علي عطاء ربّ باسط فإن تبسيط فمن ذا يقبض؟!
أنا عائد لحماك فاقبلي على ما وأنت تقبل من ذا يرفض؟!^١

وهناك قصيدة «ابتهال»، وفيها:

يا من له تَعَنو الوجوه وتخشع ولأمره كلّ الخلائق تخضع
أعنو إليك بحبهة لم أحنها إلا لوجهك؛ ساجدًا أتضرع
وإليك أبسطُ كفّ ذلّ لم تكن يومًا لغير سؤال فضلك تُرفع^٢

القصيدة «النونية»:

قد صوّر الشيخ القرضاوي في قصيدته «النونية» لحظات دخوله إلى السجن الحرّيّ، واستقباله فيه، وما شاهد من أهوال الاستقبال في أبيات يحسن به أن يذكرها.

يا سائلي عن قصيدي اسمع، إنّها قصص من الأهوال ذات
أمسك بقلبك أن يطير مفرّجًا وتولّ عن دنياك حتى حين
فالهلل عاتٍ والحقائق مرّة تسمو على التصوير والتبيين
والخطبُ ليس بخطب مصر بل خطب هذا المشرق المسكين
في ليلة ليلاء من نوفمبر فزّعتُ من نومي لصوت رنين
فإذا "كلاب الصيد" تهجم بغتة وتحوطني عن يسرة ويمين
فتخطفوني من ذوي وأقبلوا فرحًا بصيد للطغاة سمين

١ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٧٨٥

٢ المرجع السابق، ص ٧٨٦

إنشاء الشيخ القرضاوي قصيدة «نشيد العودة»:

وكان الشيخ القرضاوي في خطبه ومحاضراته، يُدكّرُ أبدأً بقضية فلسطين، وفي شعره كذلك. وفيما أنشأه من أناشيد حماسية يتغنى بها الشباب. مثل «نشيد العودة». الذي يقول:

أنا عائد، أقسمت إنني عائدُ والحقُّ يشهد لي، وَنِعَمَ الشَّاهِدُ
ومعي القذيفة والكتاب الخالد ويقودني الإيمان نِعَمَ القائد
لغة الدِّماء لغتي، وليس سوى أما عن فنون القول أغلقت الفما
وتركت للرشاش لأن يتكلّمَا ليحيل أوكار العدو جهتَمَا
يا إخوتي هَبُّوا ليوم الموعد هذي يدي، فضعوا يديكم في
لا تذكروا لي الأمس نحن مع ولنا صلاح قدوة، فانقتد

وحين أُخذَ الشيخ القرضاوي في صيف سنة ١٩٦٢م بعد عودته من قطر للإجازة وألقيه في سجن المخابرات المصرية حوالي سبعة أسابيع، وأنشأ ثلاث قصائد، إحداها عن فلسطين بعنوان «ثورة لاجئ»^١.

أناشيد الإسلاميّة:

ومنها مجموعة من الأناشيد الإسلاميّة الثوريّة، التي تُحرّضُ الشباب على الاستمسك بالعروة الوثقى، وعلى معاني الإيمان الرئانيّة، وعلى روح القوّة والجهاد. وخصوصًا إذا أنشدها الشباب بصورة جماعيّة، بألحان مؤثّرة قويّة. وقد أنشأ من قبل: نشيد «مسلمون» الذي تغني به الشباب المسلم في أنحاء العالم.

ومن هذه الأناشيد: نشيد «فتى القرآن» أو «أنا مسلم»:

أنا إن سألت القوم عني من أنا مؤمن سأعيش دومًا مؤمنًا
فليعلم الفجّار أنني ههنا لن أنحني، لن أنثني، لن أركنا
أنا مسلم هل تعرفون المسلما؟ أنا نور هذا الكون إن هو أظلمًا

ومنها نشيد «الله أكبر»:

الله أكبر، الله أكبر تسبيحة العابد المطهّر
الله أكبر، الله أكبر أنشودة الفاتح المظفر
الله أكبر ... الله أكبر^٢

ومنها: نشيد "مسلمون مسلمون مسلمون"

أنشأ الشيخ القرضاوي نشيد "مسلمون مسلمون مسلمون"، وهو في قطر. وكان الذي أوحى إليه به، هو: الغلو في القومية العربيّة، حتّى زعم بعضهم أنها نبوة جديدة، وأن الولاء لها كالأولاء لدين الله، وظهر شطط كثير لدى بعض الأقلام والألسنة، وأصبح بعض الناس

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٥٠٠ - ٥٠١

٢ المرجع السابق، ص ٧٨٧

يعتزون بالعروبة ولا يعتزون بالإسلام، وسمي بعضهم ابنة: "لهباً" ليكني بـ "أبي لهب". وهو ما هيّج النزعات القومية الأخرى، مثل: "الكردية" في العراق، و"البربرية" في الجزائر، وغيرها. لهذا كتب الأستاذ الدكتور نشيد "مسلمون مسلمون مسلمون" ليؤكد فيه معنى "الانتماء" الإسلامي، وأولاً لآمة الإسلام، والاعتزاز بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، وأتم به النعمة علينا، حيث قال الله تبارك وتعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا [٣]﴾^١.

بغض النظر عن عروقنا وألواننا وأوطاننا. قال في هذا النشيد:

مسلمون، وسلمون، مسلمون، مسلمون
حيث كان الحق والعدل نكون
نرتضي الموت ونأبى أن
في سبيل الله ما أحلى المنون

وهذه متكررة بعد كل فقرة من فقرات النشيد.

نحن صمنا وأقسامنا اليمين
أن نموت أو نعيش مسلمين
مستقيمين على الحق المبين
مُتَّحدين ضلال المبطلين
جاهدين أن يسود المسلمون

ونحن بالإسلام كنا خير معشر
حكمتنا باسمه كسرى وقيصر
وزرعنا بالعدل في الدنيا فأثمر
ونشرنا في الورى "الله أكبر"
فاسألوا إن كنتمو لا تعلمون

سائلوا التاريخ عنا ما وعى
من حمى حق فقير ضيعا؟
من بنى صرحاً أرفعا؟
من أقام الدين والدنيا معا؟
ذلكم تاريخنا يا سائلون

نحن بالأخلاق نورنا الحياة
نحن بالتوحيد أعلينا الجبابة
نحن بالبشارة أدبنا الطغاة
نحن للحق دعاة ورعاة

جاء هذا النشيد في موعده، وانتشر انتشاراً هائلاً، وتغنى به الشباب المسلم في كل مكان، ولحنه أكثر من واحدٍ، في أكثر بلد، حتى إنه كان نشيد المدارس اليمينية بصفة عامة، أيام رئاسة القاضي عبد الرحمن الإرياني. وكان نشيد المدارس الإسلامية في عدد من البلاد، التي يعيش المسلمون فيها أقليات، مثل المدارس الهندية، ولا سيما أن النشيد يقول:

يا أخي في الهند أو في
أنا منك وأنت مني أنت بي
لا تسأل عن عنصري عن نسي
إنه الإسلام أمي وأبي
إخوة نحن به مؤتلفون

وفي قطر أنشئت لجنة لتطوير مناهج اللغة العربية برئاسة الدكتور عز الدين إبراهيم، فكان نشيد "مسلمون" مما أدخلته اللجنة في مقرر "النصوص". وقد حدث الشيخ الغزالي رحمه الله مع القرضاوي عن أول مرة استمع فيها إلى هذا النشيد، وكيف تأثر به، وذرفت دموعه، عندما ألقاه الشباب في أحد المؤتمرات في الجزائر، وكان تلحينه قوياً، وإنشاده جماعياً، وفي الفقرة التي تقول:

١ القرآن الكريم، المائدة (٥)، الآية [٣].

يا أخا الإسلام في كلِّ مكان قم ن فك القيد قد آن الأوان
واصعد الرُّبُوءَ وَاهْتَفَّ بالأذان وارفح المصحف دستور
واملاً الآفاق: إنا مسلمون

هذا صَعَدَ بعض الشباب، وهتف بالأذان: الله أكبر، الله أكبر بصوت جميل مؤثّر... ورفع عدد من الشباب المصاحف منادين:
القرآن دستور الأمة... وردّد الحضور مع الشباب في النهاية:
مسلمون، وسلمون، مسلمونٌ حيث كان الحقّ والعدل نكوّن

قال الشيخ الغزالي لبعض الشباب الذين نَظَمُوا هذا النشيد وإلقاءه على هذه الصورة: لمن هذا الشعر؟ قالوا له: ألا تعرف منْ صاحب هذا الشعر؟ قال: لو كنت أعرف ما سألت. قالوا: إنه شعر صديقك وتلميذك، الشيخ القرضاوي... فدعوت لك بخير.^١

أرجوزة «الأصوليون»:

ومن أهمّ ما أنشأ الشيخ القرضاوي من الشعر في هذه المرحلة: أرجوزة «الأصوليون»، وهي قصيدة من بَحْرِ «الرجز» في علم العرُوض، المعروف بسهولة واستجابته لكلّ الأغراض، ومن أجل ذلك كان هو معتمد الناظمين في العلوم المختلفة: في النحو، والصرف، والحديث، والفقه، والأصول، والتوحيد، والمنطق، وغيرها.

وقد وجدنا أي الباحث حينما كنا في مصر للدراسة ألفية ابن مالك في النحو والصرف، وألفية العراقي والسيوطي في الحديث، ومراقي السعود في الأصول، والجوهرة في التوحيد، والسلم في المنطق، وغيرها.

المهمّ أن الشيخ القرضاوي أنشأ هذه الأرجوزة عن «الأصوليين» على لسان أهل الاستخبارات وأمثالهم ومن يناصرهم من العلمانيين؛ ولذا اعتمد فيها أسلوب السُخْرِيَّة، كما اعتمد السلاسة والسهولة في التعبير والتصريح؛ ولذا راجت هذه الأرجوزة بين الشباب في البلدان العربيّة كافةً، وحفظها الألوف المؤلفة، وبعضهم أدخل فيها، وأضاف إليها من عنده!^٢

مَطْلَعُ الأرجوزة:

أبلغ رجال الأمن حتّى يزحفوا فههنا جماعة تطرفوا
من الأصوليين أعداء الوطن أخطر من جميع عباد الوثن
قد نأمن الهندوس واليهودا وقد نقيم معهم العهودا
إلا أولاء، فأذاهم يُخَذِرُ فهم علينا من يهودا أخطر!

وقد طوّفت الأرجوزة في جوانب الحياة المختلفة، وموقف الأصوليين منها، إلى أن قالت:

أولفكم هم الاصوليون قد خَرَّبُوا الدنيا وشانوا الدنيا
فاستنفروا لحرهم كل القوى فما لهم غير الفناء من دوا
فكلّ يوم يكسبون أرضاً تمتد طولاً بيننا وعرضاً

١ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٤٣١ - ٤٣٤

٢ المرجع السابق، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٧٨٨

قصيدة «أصولي أصولي»:

وبعد أرجوزة «الأصوليون» الساخرة، أنشأ الشيخ القرضاوي قصيدة أخرى جادة، تتحدث عن الأصولية بلسان الأصوليين، بعنوان:

«أصولي أصولي»، ومطلّعها:

أصولي... أصولي أجل أنا لا وصولي
أصولي، ولي أصلي ولي نسي الحيني
وأصل أصولي القرآ ن، دستوري الإلهي
وسنة أحمد المختا ر لي زاد ولي ري
وقانوني شرع اللد ه لا الشرع الفرنسي
فما يقضيه مقضي وما ينفيه منفي (إلى آخر القصيدة، وهي أكثر من أربعين بيتًا).^١

إخوان المسلمين والقضية الوطنية:

ظللوا فترة مديدة من الزمن، والقضية الوطنية شغلوا الشاغل، وهموا الأول، يبذلون لها الجهود، ويحشدون لها الحشود، ويجندون لها قوي الأمة. ويُذكر أنّ مّا ساهم الشيخ القرضاوي به في تلك الفترة - بجوار الخطب الثورية، وقيادة مظاهرات الطلاب - عدد من القصائد ألقاها في دار الإخوان، أو في المعهد على الطلبة. وفيها أبيات تخاطب الإنجليز ساخرة:

يا أيها الأضياف! لا أهلا ولا سهلا، ولا ترحيب لا إكرام
الضيف إن تمر عليه صبايح يثقل، وقد مرّت لكم أعوام
غصت مساكننا بجندكمو، كما غصت قطارات وغص ترام
وغذت بطونكمو غلال بلادنا وبنو البلاد من الطوى قد صاموا
وغدت مصانعنا تحوك للبسكم والعري فينا قاعد قوام
إن القرى إن لم يكن بسماحة فالسمن سم، والحمام حمام!

١ . نفعات ولفحات (ديوان شعر)

٢ . المسلمون قادمون (ديوان شعر)

إلى السجن الحربي:

قال القرضاوي: على كلّ حال أخذنا نحن الستّة في سيارّة كبيرة، ووصلتنا إلى مكان في ضواحي القاهرة، وأدخلنا إليه، فإذا هو السجن الحربي الذي بتنا فيه ليلة اعتقالنا.

وقد وضعنا في سجن رقم (٤) في زنازين انفراديّة، وكان هذا هو السجن الذي ضمّ بعد ذلك الأستاذ الهضيبي المرشد العام وعددا من قادة الإخوان. ورغم أن كلامًا في زنازنة انفراديّة، فقد سمحوا بفتح الزنازين معظم النهار، وكنا نتزاور، ونصليّ في جماعة، وقد أمرني الأستاذ المرشد أن أكون إماما لهم، فكنت أصليّ بهم. وأراد الشيخ عزّ الدين إبراهيم أن يصدر مجلّة باسم: المعتقل، وطلب إليه

١ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٧٩٠ - ٧٩١
٢ الزنازنة: هي حجرة صغيرة نحو مترين في متر ونصف تقريبًا، فيها نافذة صغيرة عالية قريبة من السقف، مُسوَّرة بالحديد، مفتوحة باستمرار لإدخال الهواء، حيطانها وأرضيتها أقرب إلى اللون الأسود، لها باب أسود أيضا يغلق بقفل من الخارج.

(القرضاوي) أن يشارك فيها بقصيدة، فأنشأ قصيدة "ززانتي" المنشورة بديوانه "المسلمون قادمون" ومن قارن وصف الزنانة في هذه القصيدة ووصفها في قصيدته "النونية" الشهيرة يعرف الفرق بين الاعتقال الأول في يناير سنة ١٩٥٤م، والاعتقال الآخر في أكتوبر سنة ١٩٥٤م، وما بعده.

وفي هذه القصيدة قال القرضاوي:

دارٌ حَلَلْتُ بها أزار وأحدم
ونزلتها ضيفًا أعزّ وأكرم
يسعى إليّ بها المدير وحنده
ويزورني فيها الطبيب يسلم
دار السلام، فليس فيها آلة
تدمي، وأني؟ والمقص محرم!
هي لي، ولي وحدي، فليس
فيها لئيم أو أخ لي مسلم
ملكٌ بها أنا، لا يرد غائي
ومناي، إلا هاشم أو مكرم
حجبت عن الدنيا فلا خبر
ولا أثر، وحتى لست ممن يحلم!!

وفي قصيدته "النونية" قال:

أعرفت ما قاسيتُ في زنانة
كانت هي القبر الذي يؤويني؟!
لا بل ظلمتُ القبر، فهو لذي
روض، وتلك حجيم أهل
هي في الشتاء وبرده "ثلاجة"
هي في هجيم الصيف مثل
نُلقي ثمانيةً بها أو سبعةً
متداخلين كغلبة "السردين"
هي منتدانا وهي غرفة نومنا
وهي "البوفيه" وحجرة
هي مسجد لصلاتنا ودعائنا
وهي ساحة للعب والتمرين

عرف القرضاوي "السجن الحربي" في اعتقال يناير سنة ١٩٥٤م، وكان اعتقالهم في عنبر رقم (٤)، وكان سجنا انفراديًا، كل معتقل زنانة، ولكن السجن في تلك الفترة خلا من الإيذاء والتعذيب، حتى كتب القرضاوي قصيدة يتغزل فيها بـ "ززانتي" نشرتها مجلة السجن التي كان يُشرف عليها الأستاذ عز الدين إبراهيم. أما السجن الحربي الذي رحلوا إليه ذلك اليوم، فشيء آخر تمامًا، لا يمكن وصفه ولا تصويره بالكلمات والحروف، نثرًا أو شعرا.

٣. عالم طاغية (مسرحية تاريخية):

في السنة ١٩٦٨م سلّم الشيخ القرضاوي كتابه السياسيّ المسمّى: "درس النكبة الثانية: لماذا اخزمنا وكيف نتصر؟" لدار الإرشاد لنشره. والمقصود بالنكبة الثانية: نكبة ١٩٦٧م، ولم يشأ الشيخ القرضاوي أن يسمّيها "النكسة" كما سماها الثوريون العرب، إذ لم ينتصروا قبل ذلك حتى ينتكسوا! وأما النكبة الأولى فهي نكبة ١٩٤٨م. والكتاب الثاني: كتاب أدبي، وإن لم يكن موضوعه بعيدًا عن السياسة، وهو مسرحية "عالم طاغية".^٢

١ حارسان من حراس السجن.

٢ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *عالم طاغية (مسرحية تاريخية)*، مقدمة، (بيروت، دار الإرشاد، الطبعة: الخامسة، ١٩٧١م)، ص ٣

مَسْرُحِيَّةُ "عَالِمِ طَاغِيَةِ":

كان الشيخ القرضاوي قد كتب قديماً - وهو في معتقل هايكستب والطور سنة ١٩٤٩م - مَسْرُحِيَّةً تاريخيةً تجسّد قصة العالم الفقيه المؤمن المجاهد: سعيد بن جبير أحد أصحاب ابن عباس، مع الطاغية الجبار الظلّوم: الحجاج بن يوسف، وكيف قتله سقّاح بني أمية. وكان تركها مع بعض الإخوان في الطور، حيث كان في أوّل فوج أفرج عنه، وعلم أن الإخوان الذين بقوا في الطور مثلّوها، وقد لاقت استحساناً وقبولاً.

وكانت أصول هذه المَسْرُحِيَّة قد ضاعت تماماً، ولم يفكر الشيخ القرضاوي في كتابتها من جديد، إلا بعد الحكم بالإعدام على سيّد قطب، وتنفيذ هذا الحكم، برغم نداءات المسلمين، وشفاعات الشافعين، في كلّ مكان. فقام لدى القرضاوي دافع قوي ليعيد كتابة هذه مَسْرُحِيَّة التاريخيّة، لإسقاط التاريخ على الواقع، وكأما هي دِفَاع أدبيّ عن الشهيد سيّد قطب رحمه الله.^١ فكتبها ونشرها بعنوان: "عالم وطاغية" العالم هو: ابن جبير، والطاغية هو: الحجاج. وبعد كتابتها سلّمها إلى "دار الإرشاد" في بيروت لنشرها، في صيف ١٩٦٧م. وقد طُبِعَتْ مرّات عدّة: في بيروت وفي مصر، وفي الجزائر وغيرها كسائر كتب الشيخ القرضاوي.

وأن قُرّاءها استحسّنها وأثنوا عليها، وقد مُثِّلَتْ في عدد من البلدان، أولها: قطر، فقد مثّلها طلاب المعهد الدينيّ - الذي كان مديره - وكان مُخرِجُها الزميل أحمد اليازوري مدرّس الإنجليزي، الذي كان يعرف شيئاً في فنّ الإخراج، وقد نجحت في ذلك الوقت. ثمّ مُثِّلَتْ بعد ذلك بسنوات على يد مُخرِفينّ في المَسْرُح التربويّ. كما مُثِّلَتْ في عدد من الأقطار منها: اليمن، ولبنان، وغيرها.

وكان هذا هو العمل الأدبيّ الثاني، الذي كتبه القرضاوي في صورة "مَسْرُحِيَّة". فقد كان العمل الأوّل "مَسْرُحِيَّةً شعريّةً" أنشأها في عهد مبكّر، وهو في السنة الأولى الثانويّة. وهي تمثّل قصة سيّدنا يوسف بن يعقوب عليه السلام، وسمّاها: يوسف الصّدّيق. ولم تمثّل هذه المسرحيّة؛ لأنها تتعلّق بنبي ورسول من أنبياء الله ورسله. وقد أجمع العلماء في مصر وغيرها من بلاد الإسلام على أن رسل الله لا يمثّلون.

ولم يُجربْ قلم القرضاوي في ميدان "القصة القصيرة" أو "الرّواية"، ويمكن أنّه حاول ذلك في فترة مبكّرة من عمره، فلم يَسْلكْ له قيادها، وكان الشعر غالباً على القرضاوي، وكلّ مسير لما خلق له.^٢

٤. يوسف الصّدّيق (مَسْرُحِيَّةٌ شعريّة)

مَسْرُحِيَّةٌ (يوسف الصّدّيق) ... أوّل ما نشر للقرضاوي:

في لسان القرضاوي: أوّل عمل لي دخل المكتبة العربيّة كان عملاً شعريّاً مَسْرُحِيّاً، فقد قرأت مَسْرُحِيَّةً شوقي "مصرع كليوباترا" و"مجنون ليلي" وتأثرتُ بهما، وأردتُ أن أنسخ على منوالهما مَسْرُحِيَّةً عن قصة سيّدنا يوسف عليه السلام؛ لما فيها من غرائب الأحداث، مما يصلح لمَسْرُحِيَّةٍ شعريّة. وقد شرعت كتابتها وأنا في السنة الرابعة الابتدائيّة، وأكملتُها وأنا في السنة الأولى الثانويّة، ودفعت بها إلى المطبعة، وكانت تسمّى "المطبعة اليوسفيّة" فكان هذا من المفارقات؛ فالموضوع هو "يوسف الصّدّيق" والمؤلف يوسف القرضاوي، والمطبعة "اليوسفيّة" لصاحبها يوسف القرضاوي.

١ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *عالم طاغية (مَسْرُحِيَّةٌ تاريخيّة)*، مقدمة، (بيروت، دار الإرشاد، الطبعة: الخامسة، ١٩٧١م)، ص ٢٩

٢ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ١٦٦

وقد أنتت بعض المجالات الأدبية في حينها على المَسْرَحِيَّة، باعتبارها تمثّل نموذجًا من شِعْرِ الشباب.

كان هذا هو عمله المسرحي الأول، ولقد عمل عملاً مسرحيًا آخر في عالم النثر، وهو مَسْرَحِيَّةٌ تاريخيةٌ مُجَسَّدٌ طغيان الحجاج بن يوسف الثقفي وجبروته وموقف العلماء منه مثلاً في واحد من أبروهم هو العالم الفقيه الشُّجاع سعيد بن جبير، وقد سمّاه هذه المسرحية "عالم وطاغية".

وقد مُثِّلَتْ في أكثر من بلد ولُقِّيتَ قبولا، وأما مَسْرَحِيَّةُ "يوسف الصّديق" فلم يُمَثَّلْ؛ لأن الفتوى المعتمدة أن رسل الله وأنبياءه لا يُمَثَّلُونَ.

٥. مسرحية ابن جبير والحجاج

وكان ممّا كتبه في هذه الفترة في "هايكستب" مشروع مسرحية عن الإمام سعيد بن جبير، ومواجهته للحجاج، وكان هذا من ثمرة قراءته للعقد الفريد، وقد كتبها في مُسَوِّدَةٍ في كِرَاسَةٍ، وقد صحبها معه إلى الطور بعد عودتهم إليه مرّة أخرى، وحين أفرج عنه تركها مع بعض الإخوة، وقد علم أنّهم متلّوها في المعتقل، عقب الإفراج عنه وتحسن الأحوال كثيرا، وذلك بعد أن أضافوا إليها بعض اللّمسات، وهو ما دفعه أن يعود إلى الفكرة بعد ذلك، ويُعيد كتابة الموضوع تحت عنوان "عالم و طاغية"، هي مَسْرَحِيَّةٌ مُثِّلَتْ في أكثر من بلد ولقيت قبولا عاما.

٥. ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة (أربعة أجزاء)

المبحث الرابع عشر: تصنيفاته في "رسائل ترشيد الصحوة"

رسائل ترشيد الصحوة:

اقترح على الشيخ القرضاوي عدد من إخوانه القريين منه، المعنيين بإنتاجه الفكري، منهم عبد الحليم أبو شقة، وعبد العظيم الديب، وعصام البشير، أن يَسْتَلَّ الشيخ القرضاوي بعض الفصول في الموضوعات المهمّة من كتبه الكبيرة، لتصدر في صورة «رسائل صغيرة» يسهل شراؤها وقتنائها، ويسهل قراءتها واستيعابها. وكان كتابه «ملاحم المجتمع المسلم الذي ننشده» قد صدر في سنة ١٩٩٣م، وهو يشمل موضوعات على جانب من الأهميّة للقارئ المسلم، مثل موضوعات «الردّة» وموضوع «المرأة» وموضوع «الفنون»، ونحوها.

وهناك موضوعات في كتب الفتاوى، مثل موضوع النقاب وغيره تحتاج إلى أن تفرد في رسالة، ليقراء عشرات الألوف من الناس الذين قد لا تتاح لهم قراءة الكتاب الكبير. وقد اقتنع الشيخ القرضاوي بهذه الفكرة، وبدأ ينفذها بإصدار سلسلة عنوانها: «رسائل ترشيد الصحوة» بدأها بفصل استلّه من كتابه «بيانات الحلّ الإسلاميّ وشبهات العلمانيّين والمغتربين»، وهو فصل «الدين في عصر العِلْم». ثمّ جعل الشيخ القرضاوي الرسالة الثانية بعنوان: «الإسلام والفن»، وهو فصل انتعزه الشيخ القرضاوي من كتابه «ملاحم المجتمع المسلم» بعد أن نَفَحَهُ وأضاف إليه. وبعض هذه السلسلة: رسائل أو كتب جديدة ألّفها الشيخ لها، مثل: «المبشّرات بانتصار الإسلام» «مستقبل الأصوليّة الإسلاميّة» «القدس قضية كلّ مسلم» «حاجة البشريّة إلى الرسالة الحضاريّة لأمتنا»، و«البابا والإسلام» وغيرها.^١

١. الدين في عصر العلم
٢. الإسلام والفن
٣. النقاب المرأة بين القول ببدعيّته والقول بوجوبه
٤. مركز المرأة في الحياة الإسلاميّة
٥. فتاوى للمرأة المسلمة
٦. جريمة الردّة وعقوبة المرتد في ضوء القرآن والسنة
٧. الأقليّات الدينيّة والحلّ الإسلاميّ
٨. المبشّرات بانتصار الإسلام
١٠. مستقبل الأصوليّة الإسلاميّة
١١. القدس قضية كلّ مسلم
١٢. حاجة البشريّة إلى الرسالة الحضاريّة لأمتنا
١٣. فتاوى من أحلّ فلسطين
١٤. مبادئ في الحوار والتقريب بين المذاهب الإسلاميّة
١٥. الأسرة كما يريد الإسلام
١٦. ظاهرة العُلُوّ في التكفير:

١ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملاحم سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٧٠٨ - ٧٠٩

من أهمّ الرسائل التي ظهرت في السنة الدراسية ١٩٧٦ - ١٩٧٧م، وكان لها أثرها ودورها في مقاومة تيار التكفير خاصة، ومواجهة التطرف الديني عامة، ومُحاضرة الغلو الفكري، والتي نَوّه بها الكثيرون، برغم وِجَارَتِهَا: رسالته أي الشيخ القرضاوي التي سماها: "ظاهرة الغلو في التكفير". وقد نشر الموضوع قبل ذلك في الجزء الأول من كتابه: "فتاوى معاصرة"، كما نشره قبل ذلك في مجلة "المسلم المعاصر"، ثمّ نشره في رسالة مستقلة بعد إضافات مهمّة إليها.

قبل ذلك ناقش الشيخ القرضاوي هذه القضية مع شباب الجماعات الإسلاميّة، التي ساد فكرها الجماعات المصريّة، وكان يعلّب عليها خطّ التشدّد في أوّل الأمر، ثمّ لم يزل العلماء المعتدلون يوالونهم بنصائحهم ومحاضراتهم ولقاءاتهم، حتى مالوا إلى الاعتدال. ومما سرّه وأثلج صدره: أن شباب الجماعة الإسلاميّة في جامعة القاهرة، تبنوا رسالته، ونشروها في سلسلة إصداراتها التي تظهر بعنوان: "صوت الحق" وقد طبعوا منها عشرات الآلاف، وكانت تباع في ذلك الحين بمبلغ ١٢ قرشاً، فحمد الله الشيخ القرضاوي: أن الشباب أنفسهم هم الذين أصبحوا يطاردون الغلو، ولا سيّما الغلو في التكفير، الذي أمسى له جماعة تتحدّث باسمه وتجتهد في إشاعته وتسعى لتبريره.

ومما كتبه في مقدّمة هذه الرسالة المهمّة:

وشغلته قضية التكفير منذ سنوات عديدة عندما حضر إلى بعض الأخوة الذين خرجوا من المعتقلات والسجون بعد محنة الإخوان المسلمين الثالثة^١ في عهد الثورة. وكان مما حدثنا عنه هؤلاء الإخوة: هذه الظاهرة الجديدة التي كانت الشغل الشاغل للمعتقلين والسُجَنَاءِ والسُّلْطَةِ الحَاكِمَةِ آنذاك، ألا وهي ظاهرة "التكفير" أو الغلو فيه، والتفاف طائفة - جُلُهم من الشباب الحديث السنّ، الحديث العهد الدعوة - حول هذا الفكر المتطرف، إلى حدّ جعلهم يرفضون الصلاة مع إخوانهم في العقيدة والفكرة، وشركائهم في الاضطهاد والمحنة، وأساتذتهم في الدعوة والحركة.

ولا يُصعّب على الدارس أن يلمس سبب التطرف، فهو يكمن في المعاملة الوحشية التي عومل بها السجّاء، والمعتقلون، والتي لا تتفق مع دين، ولا خُلُق، ولا قانون، ولا إنسانية. لقد اقتيد هؤلاء الشباب البُرَاء من بيوتهم إلى ساحات التعذيب، وصبّ عليهم من ألوان القهر والإذلال والتنكيل ما لا يكاد يحتمله بشر، لقد تَفَنَّنُوا في إيذاء الأبدان، وإهانة الأنفس، والاستخفاف بالعقول، وتحطيم الشخصية، والاستهانة بالأدمية، إلى حدّ يُعجزُ القلم عن تصويره، ويتوقّف العقل في تصوّره.

ولم هذا كلّهُ؟ إنهم - في نظر أنفسهم على الأقلّ - لم يقرتفوا ذنباً؛ إلا أن يقولوا: ربّنا الله! لم يقرتفوا في حقّ أحدٍ جرماً، ولم يفكروا في شرّ، ولم يجتمعوا على معصية وفُجُور. كلّ ما فعلوه أنهم آمنوا بالاسلام بنظام حياة، التزموا به فكراً وسلوكاً، وَعَدُّوا الدّعوة إليه وإلى تطبيق شرعه واجباً يُأتمُّون بتركه، والتقصير فيه، فلماذا يُشَرِّدُونَ ويعذبون، ويُنكّلُ بهم أشدّ التنكيل؟ وكان السؤال الأول الذي طرَح نفسه: ما حكم هؤلاء الناس الذين يُعذّبونهم بقسوة وجرأة؟ أو على الأصحّ: ما حكم من وراءهم من الحكّام الذين يأمرونهم بتعذيبنا إلى حدّ الموت، لا لشيء إلا لأنّهم ندعوهم إلى الحُكْم بما أنزل الله؟

١ الخنة الأولى المنعقد في مصر، كانت في عهد الثورة (يناير ١٩٥٤م)، والثانية: في عهد الثورة أيضاً، وهي التي ظهرت في أكتوبر ١٩٥٤م وما بعده، وإن كانت قد بدأت بالفعل قبل ذلك. والثالثة: هي التي أعلنت في أغسطس ١٩٦٥م، والتي ساقّت إلى المعتقلات الألوف من الإخوان المسلمين. وفي هذه الخنة: ظهرت بدعة "التكفير" وأعلن "المُكفّرون" عن أنفسهم، وشغلوا سائر المعتقلين بفتنتهم والرّاء عليهم، والنصح لهم، وإن ظلّ كثير منهم مُصِرّاً على موقفه.

وكان الجواب عندهم جاهزاً: أخذوه من ظاهر بعض النصوص: من آيات القرآن، مثل آية: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [٤٤].^١

ومن أحاديث الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كالأحاديث التي أطلقت الكفر على بعض المعاصي. ولم يَقِفِ الأمر عند هذا الحد: فإنَّ الذين لم يوافقوهم على هذا الفهم للنصوص التي استدلُّوا بها، وقالوا: إنها مؤولة عند أهل السنَّة والجماعة لاصطدامها بأدلة وقواعد أخرى أقوى منها وأظهر في الدلالة - هؤلاء الذين لم يوافقوهم اتَّهموهم أيضاً بالكفر يُعَدُّ كُفْرًا كمن شك في كفر المشركين واليهود والنصارى والمجوس وأمثالهم.

سبب تأليف هذه الرسالة:

وكان سبب المباشر لكتابة هذه الرسالة: رسالتين مُلِحَّتَيْنِ وصلتا إلى الشيخ القرضاوي: إحداهما من جماعة الشباب المسلم بالقاهرة، والأخرى من مجموعة من الشباب المسلم اليمن الشماليَّة.

الأولى تقول بعد الدِّيَابِجَةِ:

لعلكم قرأتم وسمعت ما نشرته بعض الصحف، وما تداولته الألسنة حول الظاهرة الدينيَّة الجديدة، التي يتبناها من سمَّوهم: "جماعة التكفير" أو "جماعة الكهف" أو "جماعة الهجرة" أو غير ذلك ما الأسماء، فضلاً عن آخرين لم يعرفوا باسم ولا لقب. وهذه الظاهرة تُمثِّلُ اتِّجَاهًا عامًّا يمكن أن يتخلَّص تحت عنوان: "الغلُوُّ في التكفير"، وإن كان أصحاب هذا الاتِّجَاهِ يختلفون بعد ذلك في أسباب التكفير وموجباته عند كلِّ فئة منهم.

فمنهم: من يكفر مُرْتَكِبُ الكبيرة، على نحو ما كان يذهب إليه الخوارج من قبل. ومنهم: من يقول: أنا لا أكفر مرتكب الكبيرة، بل المُصِرُّ عليها فقط. ومنهم: من يقول: إن جماهير الناس الذين ينتسبون إلى الإسلام ويُسمَّون: "المسلمين" اليوم، ليسوا مسلمين. ولهم على ذلك أدلة ومجادلات لعلكم قرأتم بعضها، وردَّ عليها بعض العلماء في بعض الصحف.

قال فضيلة الشيخ القرضاوي: ولعلِّي لا أكون مبالغاً إذا قلت: إن هذا الأمر ليس بالهين كما يتصوَّره أو يصوِّره بعض الناس، بل هو خطير للغاية، وهو يشغل كثير من الشباب في مجالسهم وحلقاتهم ومنتدياتهم، ويريدون فيه قولاً فصلاً، وحكماً عدلاً. قالوا هؤلاء الشباب: نريد منك أي الشيخ القرضاوي أن تبين لنا موقف الإسلام الحقَّ من هذا الاتِّجَاهِ في ضوء النصوص والأدلة الشرعيَّة المعتمدة عند علماء الأُمَّة. راجين أن ينال هذا الأمر منكم ما يليق به من الاهتمام والعناية، مهما يكن لديكم من المشاغل الأخرى، فهذا - في رأينا - من الأهمِّ الذي يجب أن يقدم على المهمة. ونحن في انتظار بيانكم، داعين لكم التوفيق.

والرسالة الثانية، ونصُّها يقول:

ما رأيكم في مسلم يعتقد أن جميع أفراد الأُمَّة في اليمن وغيره "والجتمتع اليمني" وغيره، كفَّار مرتدِّون، سواء من كان منهم ملتزماً بأركان الإسلام أم لا، وسواء العالم فيهم والجاهل، الذكر والأنثى، وأن الدار دار الحرب أو دار ردة، وأن الجمعة والجماعة في المساجد لا تصحُّ؛ لأنها صلاة وراء كفَّار مرتدِّين، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يجب في مجتمتع مرتدِّ، أو أُمَّة مرتدَّة أو كافرة، بل يدعون إلى "لا إله إلا الله محمد رسول الله" أولاً.

١ القرآن الكريم، المائدة (٥)، الآية [٤٤].

وأن الأمر بالمعروف النهي عن المنكر إنما يلزم في "المجتمع المسلم" والأمة المسلمة "يعني دار الإسلام" فقط. فهل هذا المعتقد صحيح، وله سنده الصريح من الكتاب والسنة الصحيحة وعقيدة السلف الصالح وإجماع الأمة... أم أنه فاسد لفقد سنده من الكتاب والسنة الصحيحة وهدي السلف الصالح وإجماع الأمة؟ نرجو الجواب الكافي.

اكتفى الشيخ القرضاوي بإيراد بعض المقاطع الضرورية من هذه الرسالة: والقضية لها جذورها في تاريخ الفكر الإسلامي منذ عهد الخوارج، ولعلها أول قضية فكرية شغلت المسلمين، وكان لها أثرها العميقة والعملية "عسكرية وسياسية" لعدة أجيال. ثم لم يلبث الفكر الإسلامي أن فرغ منها، واستقر على ما عليه أهل السنة والجماعة.

ظاهرة تحتاج إلى دراسة لأسبابها:

أن هذه الظاهرة - ظاهرة الغلو في التكفير - تحتاج إلى دراسة لأسبابها وعواملها، حتى نستطيع علاجها على بصيرة. أما الذين يفكرون "من رجال السلطة" في علاجها بالقمع والاضطهاد واعتقال الإخوان المسلمين، وما إلى ذلك من ألوان العنف، فهم مخطئون بلا ريب، لأمرين:

أولهما: أن الفكرة لا تقاوم إلا بالفكرة، واستخدام العنف وحده في مقاومتها قد لا يزيدا إلا توسعا، ولا يزيد أصحابها إلا إصرارا عليها، إنما الواجب أن تعالج بالاقناع والبيان، وإقامة الحجّة، وإزاحة الشُّبُهَات.

ثانيهما: أن هؤلاء المكفرين - في مجموعهم - أناس متدينون مخلصون، صوامون وقوامون، غيرون، قد هزهم ما يرونه في المجتمع من ردة فكرية، وتحلل خلقي، وفساد اجتماعي، واستبداد سياسي.

فهم طلاب إصلاح، حريصون على هداية أمتهم، زان أخطأوا الطريق وضلوا السبيل. فينبغي أن نقدّر دوافعهم الطيبة، ولا نصوّرهم في صورة سباع مخالب وأنياب، تريد أن تنقضّ على المجتمع فهدهم وتجعله يبابا!

والدارس المتبع لأسباب هذه الظاهرة يجد أنها تتمثل في أمور:

١. انتشار الكفر والردة الحقيقية جهرة في مجتمعاتنا الإسلامية، واستتالة أصحابها وتبجحهم بباطلهم، واستخدامهم أجهزة الإعلام وغيرها لنشر كفرياتهم على جماهير المسلمين، دون أن يجدوا من يردُّهم أو يردُّهم عن ضلالهم وغييهم.

٢. تساهل بعض العلماء في شأن هؤلاء الكفرة الحقيقيين، وعدمهم من زفرة المسلمين، والإسلام منهم براء...

٣. اضطهاد حملة الفكر الإسلامي السليم، والدعوة الإسلامية الملتزمة بالقرآن والسنة، والتضييق عليهم في أنفسهم ودعوتهم. والاضطهاد والتضييق لأصحاب الفكر الحرّ، لا يولد إلا اتجاهات منحرفة، تعمل تحت الأرض، في جوّ مغلق، بعيدا عن النور والحوار المفتوح.

٤. قلّة بضاعة هؤلاء الشباب الغيورين من فقه الإسلام وأصوله، وعدم تعمّتهم في العلوم الإسلامية واللغوية، الأمر الذي جعلهم يأخذون ببعض النصوص دون البعض، أو يأخذون بالمتشابهات، وينسون المحكمات، أو يأخذون بالجزئيات ويعملون عن القواعد الكلية، أو يفهمون بعض النصوص فهما سطحيًا سريعًا، إلى غير ذلك من الأمور اللازمة لمن يتصدر للفتوى في هذه الأمور الخطيرة، دون أهلية كافية.

فالإخلاص وحده لا يكفي، ما لم يُسندَهُ فقه عميق لشريعة الله وأحكامه. وإلا وقع صاحبه فيما وقع فيه الخوارج من قبل. الذين صحّت الأحاديث في ذمّهم في عشرة أوجه، كما قال الإمام أحمد رحمه الله. هذا مع شدّة حرصهم على التعبّد والتنسك. ولهذا كان أئمة السلف يوصون بطلب العلم قبل التعبّد والجهاد، حتّى لا يُنحرَفَ عن طريق الله من حيث لا يدري.

وأحسن وأزوع ما قد قال الحسن البصري رحمه الله: العامل على غير علم كالسالك على غير طريق، والعامل على غير علم، ما يُفسد أكثر ممّا يُصلح، فالطلبوا العلم طلبًا لا يضرُّ بالعبادة، واطلبوا العبادة طلبًا لا يضرُّ بالعلم، فإن قومًا طلبوا العبادة وتركوا العلم، حتّى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد صلى الله عليه وسلّم، ولو طلبوا العلم لم يدّهم على ما فعلوا.

يعني بهؤلاء القوم: جماعة الخوارج، الذين عرفوا بالعبادة والصيام والقيام، ولكنهم استحلّوا دماء المسلمين.^١

١ الْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ظاهرة الغلو في التفكير*، (القاهرة، مكتبة دار الشروق، الطبعة: الرابعة، ١٩٧٧م)، ص ٣١ - ٣٤ (تلخيصًا).

المبحث الخامس عشر: مؤلفاته في "محاضرات الدكتور القرضاوي"

١. السنة والبدعة
٢. زواج المسير - حقيقته وحكمه
٣. الضوابط الشرعية لبناء المساجد
٤. موقف الإسلام العقدي من كفر اليهود والنصارى
٥. الاستلحاق والتبني... في الشريعة الإسلامية
٦. حقوق الشيوخ والمُسَنِّين في ضوء شريعة الإسلام
٧. لماذا الإسلام؟
٨. الإسلام الذي ندعو إليه
٩. واجب الشباب المسلم
١٠. مسلمة الغد
١١. الصحة الإسلامية بين الآمال والمحاذير:

ندوة الزكاة في الرباط^١:

في أواخر سنة ١٩٨٩م جاءت عند الشيخ القرضاوي دعوة من الاستاذ الفاضل محمد بلبشير الحسني بالرباط، للمشاركة في ندوة عن الزكاة، وكانت ندوة علمية مفيدة، لم يشارك الشيخ القرضاوي فيها ببحث، ولكنه شارك بالتعليق والمناقشة على كثير من الأبحاث. كما شارك في صياغة التوصيات التي صدرت عن الندوة.

محاضرة القرضاوي في كلية الآداب بجامعة محمد الخامس:

وفي هذه الرحلة دُعِيَ الشيخ القرضاوي إلى محاضرة في كلية الآداب بجامعة محمد الخامس، وكانت المحاضرة في قاعة ابن خلدون، وهي قاعة كبيرة معدة للمحاضرات العامة، وقد امتلأت القاعة على آخرها، ملأ الناس المقاعد، وبقي كثير من قاعات القاعة. وظل أضعاف من في القاعة، خارجها.

وقد ذكّر الشيخ القرضاوي الأخ الداعية المغربي المقرئ أبو زيد الإدريسي: أن الشيخ القرضاوي حين رأى هذه الجموع الحاشدة، قال: من أراد أن يعرف حقيقة الشعب المغربي، أو أراد أن يستفتي على الإسلام في المغرب، فليُنظر إلى هذه الجموع التي أقبلت من كل حدبٍ وصوبٍ، لتسمع إلى كلمة الإسلام.

وكان عنوان المحاضرة التي ألقاها الشيخ القرضاوي في الجامعة هو: الصحة الإسلامية بين الآمال والمحاذير. وقد طبعت هذه المحاضرة، ونشرتها مكتبة وهبة، بالقاهرة.^٢

١ الرباط: عاصمة مراكش أو مراكش أو المغرب

٢ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، الصحة الإسلامية بين الآمال والمحاذير، مقدمة (القاهرة، مكتبة دار الشروق، الطبعة: الثالثة، ١٩٩١م)، ص ٥

١٢. قيمة الإنسان وغاية وجوده في الإسلام

١٣. لكي تنجح مؤسسة الزكاة في التطبيق المعاصر

١٤. التربية عند الإمام الشاطبي

التربية عند الإمام الشاطبي:

عقدت ندوة عن الإمام الشاطبي في شهر مايو في السنة ١٩٩١م.

وقد كُلفَ الشيخ الدكتور القرضاوي بأن يكتب بحثًا عن الإمام الشاطبي، فوعدهم أن يكتب عن «التربية عند الشاطبي»؛ إذ الموضوعات الأصولية والفقهية سيجد كثيرين يكتبون عنها، ولكن ربما كان موضوع التربية يَعْمَلُ عنه كثيرون. وقد تنبّه الشيخ القرضاوي إلى هذا الموضوع حين كان يقرأ «الموافقات» في السجن الحربي، وقد صحبه معه، وبدأ أن يقرأ فيه، فوجد في المقدمات العلمية التي قدم بها لكتابه: نظرات تربوية أصيلة، تتفق مع أحداث نظريات التربية. وزاد ذلك تأكيدًا عند الشيخ القرضاوي: أن المجمع المالكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن «مؤسّسات آل البيت للفكر الإسلامي الآن»: كان قد طلب إليه منذ سنوات أن يكتب «مريًا» ضمن عدد من رجال التربية في التراث الإسلامي، ولم تُمكِّنْهُ الظروف والمشاكل المتكاثرة من أن يستجيب الشيخ القرضاوي لطلب المجمع، فاعتذر لهم آسفًا، وبقي الموضوع في ذهنه.

فلما كانت هذه الندوة، وجدها فرصة لإحياء الفكرة القديمة، والبحث عنها في تراث الإمام الذي عرف بالأصول والمقاصد، ولم يعرف بالتربية.

اهتمام الشاطبي بأركان التربية في مقدمات الموافقات:

ورجع الشيخ القرضاوي إلى مقدمات الموافقات، فوجده قد اهتم بكلّ أركان التربية: من المادّة العلميّة، والأستاذ الذي يعلمها، والطريقة التي يوصل بها مادّته، والطلاب الذين يتلقون هذه المادّة، والكتاب الذي ينظر فيه هذه المادّة. وسطر هذه المعاني في بحثه أو محاضراته، التي ألقاها في هذه الفترة، واستحسنها الحاضرون، وعقّب عليها المعقّبون. وقد علم الشيخ القرضاوي من تعقيباتهم: أن الغربيين قد اهتموا بهذا الجانب من جوانب الشخصية العلميّة الشاطبيّة.^١ ولم يَعْمَلُوا عنه، وإن ذكر بعض المعقّبين أن الشيخ القرضاوي قد استوعب في بحثه نقاطًا لم يلتفتوا إليها.

والشيخ القرضاوي في الحقيقة لم يقرأ ما كتبه الغربيون أو المستشرقون عن هذا الموضوع في حياة الشاطبي العلميّة، ويبدو أنه لم يترجم إلى العربيّة، أو تُرجم ولم يطلع عليه. وكان يحبّ الدكتور القرضاوي أن يطلع عليه، ليعرف فيم وافقهم، وفيم خالفهم. ويستفيد من نظراتهم وتحليلاتهم حول الموضوع، فالحكمة ضالة المؤمن، يلتمسها من أيّ وعاءٍ خرجت.

١ يوسف بن عبد الله، التربية عند الإمام الشاطبي، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الثانية، ١٩٩٢م)، ص ٤٠

المبحث الأول: أفكاره المتعلقة بالقرآن الكريم وتفسيره

يقال "الأفكار لا تموت بموت أصحابها. بل يموت العلماء وتبقى آثارهم حيّة." وهذا أمر واقعيّ.

تأصيل مصادر المعرفة الإسلامية:

عند فضيلة الدكتور الشيخ يوسف القرضاوي: القرآن الكريم المصدر الأول للإسلام، وهو مصدر المصادر وأصل الأصول، ومن السنّة النبويّة المصدر الثاني للإسلام: مصدر التشريع والتّفنين، ومصدر الدعوة والتوجيه والتربية، ومصدر المعرفة والحضارة.

ونظرًا لأن القرآن لا ريب فيه ولا مرّاء، ولكن شبهات المشتهين، كما قال الله تعالى في تنزيله الحكيم: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ [٢]﴾^١ وتخصّصات المتخصّصين، كلّها تحوم حول السنّة، حول ثبوتها، حول حجّيتها، حول فهمها.^٢ فلاجل ألف كتابًا المسّمّى بـ «كيف نتعامل مع القرآن الكريم» وأيضًا صنّف الشيخ القرضاوي كتابًا المسّمّى بـ «كيف نتعامل مع السنّة النبويّة»

القرآن الكريم والسنّة النبويّة يعني الحديث، هما المصدران المعصومان الهاديان، فمن اهتدى بهما فلن يضلّ، ومن اعتصم بجهلها فلن يزل. ومن يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلّل فلا هادي له، ولن تجد له ولياً مرشداً، ومن يعصهما فقد غوى وضلّ ضلالاً بعيداً وخسر خساراً مبيئاً. حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا [٩]﴾.^٣

ذكر في تفسير الطبري في تأويل قوله تعالى: إن هذا القرآن الذي أنزلناه على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يرشد ويسدّد من اهتدى به ﴿لَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ يقول: للسبيل التي هي أقوم من غيرها من السبل، وذلك دين الله الذي بعث به أنبياءه وهو الإسلام، يقول جلّ ثناؤه: فهذا القرآن يهدي عباد الله المهتدين به إلى قصد السبيل التي ضل عنها سائر أهل الملل المكذبين به.

كما حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، في قوله ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ قال: التي هي أصوب: هو الصواب وهو الحق؛ قال: والمخالف هو الباطل.

وقوله ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول: ويبشر أيضا مع هدايته من اهتدى به للسبيل الأqvص الذي يؤمنون بالله ورسوله، ويعملون في دنياهم بما أمرهم الله به، وينتھون عما نهاهم عنه بأن ﴿لَهُمْ أَجْرًا﴾ من الله على إيمانهم وعملهم الصالحات ﴿كَبِيرًا﴾ يعني ثوابا عظيما، وجزاء جزيلًا وذلك هو الجنة التي أعدّها الله تعالى لمن رضي عمله. كما حدثنا القاسم، قال: حدثنا الحسين، قال: حدثني حجاج، عن ابن جريج ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ قال: الجنة، وكلّ شيء في القرآن أجر كبير، أجر كريم، ورزق كريم فهو الجنة.^٤ فإن القرآن الكريم وحي الله إلى أكمل رسله، ضمّنه من العقائد والأحكام والآداب والأخبار ما به سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى [١٢٣]﴾.^٥

١ القرآن الكريم، البقرة (٢)، الآية [٢].

٢ القُرْضَاوي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٥٩٨

٣ القرآن الكريم، الإسراء (١٧)، الآية [٩].

٤ الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر، (المتوفى: ٣١٠هـ)، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، (بيروت - مؤسسة الرسالة، الطبعة

الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م) ج ١٧، ص ٣٩٢ - ٣٩٣

٥ القرآن الكريم، طه (٢٠)، الآية [١٢٣].

والاعتصام بهذين الأصلين الريانيين الخالدين لا يغنيانا عن الرجوع إلى علماء الأمة وأئمة الراسخين، للاستفادة من علومهم في الشرح والبيان والاستنباط، ولا يُصوّر في أيّ علم كان - ديني أو دنيوي - أن يبدأ عالم من صفر، وي طرح التراث الهائل الذي تكوّن على مرّ الأجيال.^١

وَقَفُّهُ مَعَ مَنَاهِجِ "كُلِّيَّةِ أَصُولِ الدِّينِ":

لقد اختار القرضاوي كُليَّةَ أصول الدين، لأنها تضمُّ العلوم النقلية والعقلية، ولما في مناهجها من تنوع تُثري به معارف الطالب، وتتسع مداركه وآفاقه. ولا غرّو أن درّسوا التفسير والحديث والتوحيد طوال سنوات الكُليَّة، وكذلك درّسوا الفلسفة في جميع السنوات، ابتداءً بالفلسفة الشرقية القديمة، ومرورا بالفلسفة اليونانية، ثم الفلسفة الإسلامية في المشرق والمغرب، وانتهاءً بالفلسفة الحديثة. كما درّسوا التاريخ في كلّ سنوات الكُليَّة ابتداءً بالسيرة النبوية، مروراً بعصر الراشدين ثم بالدولة الأموية والعباسية وانتهاءً بتاريخ الأندلس. كما درّسوا أصول الفقه والمنطق وعلم النفس واللغة الإنجليزية، ولا شك أن هذا أعطاهم أرضية ثقافية واسعة، ازدادت اتساعاً بدراساتهم لعلوم النفس والتربية في تخصيص التدريس.

ولكن مع هذا كان هناك قصور في هذه المناهج ذاتها أو في تدريسها، أذكره في الملاحظات التالية.

ملاحظة عامة:

قال القرضاوي: قبل أن أبدي ملاحظاتي التفصيلية على المواد والمقررات الدراسية، أودّ أن أبدي ملاحظة عامة وأساسية على طريقة التدريس. فقد وجدت طريقة التدريس في الكُليَّة هي نفس طريقة التدريس المعاهد الثانوية، العُمدة فيه كتاب مقرّر يشرحه الأستاذ، وتدور طريقة الشرح حول الألفاظ، أكثر ما تدور حول المعاني والأفكار، وكثيراً ما يكون الامتحان فيما قرئ من الكتاب، لا فيما هو مقرّر فعلاً. وبهذا يضع على الطالب فقرات كبيرة من المقررات ربّما لا يعوّضها قطّ. لم تكن كليات الأزهر، مثل كليات الجامعة في مصر وفي غيرها، تعتمد على الموضوعات على الكتاب، وتدور على المعنى لا على اللفظ، وتشرك الطالب مع الأستاذ، وتهتمّ بالبحث يقوم به الأساتذة ويتعوّده الطالب. ولم تكن هناك فرق بين المعهد والكُليَّة إلا أن الكتاب في الكُليَّة أكبر كمّاً، وأكثر تعقيداً، وهذا ليس فرقا مؤثراً، ولو طعم النظام القديم والطريقة الأزهرية، ببعض هذه التوجيهات الجامعية الحديثة لكان في ذلك خير كثير على الأزهر وأبنائه. والحمد لله، قد بُدّل بعض المناهج الدراسية والنظامية.

أما الملاحظات المفصلة على المواد، فجملة فيما يلي:

علم التفسير في الثانوية:

وقد كنا ندرس علم التفسير من السنة "الثالثة الثانوية"، واعتقد أنه تأخر كثيراً، ومع تأخره، فلم يكن الكتاب المقرّر كافياً في إفادة الطالب المعاصر ما يحتاج إليه من مادة التفسير. وكان الكتاب المقرّر هو تفسير الإمام النسفي، وهو تفسير مقبول في زمنه، معنىً بالجانب اللغوي، والنحويّ والبلاغيّ، وليس معيّنًا بمفاهيم القرآن ومقاصده في إصلاح الفرد والأسرة والمجتمع.

ولذا كان الأولى في نظر القرضاوي: أن يُدرّس التفسير في كتابين: كتاب قديم كالنسفي أو البيضاوي أو النيسابوري أو غيرها، يتدرّب فيه الطالب على قراءة كتب التراث في التفسير وحسن فهمها. وكتاب آخر حديث، يقدم لنا هداية القرآن ومقاصده، مستفيداً

١ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٧٩٣

من كتب التفسير بالمأثور والرواية، استفادته من كتب التفسير بالرأي والدراية، مكتوبا بلغة عصرية سلسة، رادًا على كل المشكلات التي يثيرها بعض الخصوم على القرآن وعلى الإسلام. وذلك على منهج تفسير الشيخ محمد عبده وتلميذه الشيخ رشيد رضا في " تفسير المنار". كما أرى ضرورة إعطاء طالب المعهد (جرعة كافية) من أساسيات (علوم القرآن) فلا يدرس الطالب تسع سنوات، ثم لا يعرف شيئًا عن المكِّي والمدني، أو عن الناسخ والمنسوخ، أو عن أسباب النزول، وغيرها مما لا بدّ منه.

علم التفسير في كَلِيَّة أصول الدين:

كان التفسير كَلِّه على "الطريقة التحليلية" للألفاظ مع اهتمام بالغٍ بالجانب اللغويِّ والبلاغيِّ، ماضيًا كَلِّه على نَحج التفسير بـ"الرأي"، وكان يودُّ القرضاوي:

أولًا: أن يكون هناك جزء من هذا التفسير التحليليِّ على طريقة "التفسير بالمأثور" كما عند ابن كثير مثلاً، ليجمع الطالب بين الطريقتين، ويجوز الجسنيين.

ثانيًا: أن يستفاد من بعض "التفاسير الحديثة" مثل "تفسير المنار" بما فيها من نظرات تجديديَّة إجابيَّة، كبعض الإشارات والفتاات "العلمية" غير المتكلفة.

ثالثًا: أن يكون هناك جزء من مقرّر التفسير لما سُمِّيَ "التفسير الموضوعيِّ" مثل العلم في القرآن، الإيمان في القرآن، المال في القرآن... الخ.

رابعًا: أن يُقرّر تدريس قدر مناسب من "علوم القرآن" ومنها: أصول التفسير ومناهجه، فهذا لثقافة الطالب المتخرِّج في أصول الدين.

أسئلة من قبيل الشيخ الأستاذ محمّد يوسف في لجنة الترشيح من أجل الابتعاث للبلاد العربية:

فلما انتهى القرضاوي تلاوة هذه الآية في لجنة الامتحان عن القرآن: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَرَزَقْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ [١٢]﴾.^١

سأله الأستاذ الشيخ محمّد يوسف: ألا ترى يا قرضاوي في قوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا﴾: ردًّا على ذلك الزعم الذي يرى أن بإمكان الإنسان أن يصعد إلى القمر، والله تعالى قد بيّن لنا أنه حفظ السماء؟

قال القرضاوي له: اسمح لي يا شيخنا: إني لا أرى كلمة "حِفْظًا" دالّة على عجز الإنسان أن يصل إلى أيّ كوكبٍ فوقنا. فهذا الحفظ مخصوص دلّت عليه الآيات الأخرى مثل قوله: ﴿وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ [٧]﴾ ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْدِفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ [٨]﴾. ^٢ وقال في سورة أخرى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ [١٧]﴾. ^٣ فهو حِفْظًا من استراق السمع.

ولا ينافي هذا الحفظ أن يصل الإنسان، الذي علّمه الله ما لم يكن يعلم - وَفَقًا لسنن الله تعالى في الآفاق وفي الأنفس - إلى بعض كواكب السماء، وقد قال الله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ [٥٤]﴾.^٤

١ القرآن الكريم، فصلت (٤١)، الآية [١٢].

٢ القرآن الكريم، الصافات (٣٧)، الآيتان [٧ - ٨].

٣ القرآن الكريم، الحجر (١٥)، الآية [١٧].

٤ القرآن الكريم، الأعراف (٧)، الآية [٥٤].

قال القرضاوي: وأعتقد أنه من المُجَارَفَةِ يا مولنا - أن نعلن باسم الدين والقرآن: أن الصعود إلى القمر أمر مستحيل، ثمّ يتمكّن الإنسان بعد سنوات - قد تطول أو تقصر - من التحقيق هذا الأمر، فماذا يكون موقف الذين أنكروا هذا الأمر واستبعدوه؟

قال الشيخ: وهل تعتقد أن هذا بالإمكان؟ قال القرضاوي: لا ريب أنه في دائرة الإمكان حَسَبَمَا وصل إليه الإنسان من إنجازات كانت تُحَسَّبُقبل من عداد المستحيلات، وقد قال الله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٨].^١ ولو لم يكن هذا الأمر في دائرة "الإمكان العادي" فهو قَطْعًا في دائرة "الإمكان العقلي" الذي درّستموه في علم الكلام. وسكت الشيخ العلامة في العلوم العقلية، وإن كان القرضاوي لاحظ عليه أنه غير مُصَدِّقٍ بقدرة الإنسان على الصعود إلى القمر. وقد صدّقته الأيام، فقبل مضي عشر سنوات أو أكثر كان الإنسان قد حقّق هذا الإنجاز الخطير، وصعد أول إنسان إلى القمر، وجلب من فوقه صخورًا وأتربه ليحلّلها هنا على سطح الأرض.

صِدَامٌ مع أستاذه التفسير:

ومّا وقع له في السنة الأولى: أنه اصطدم بأستاذه في التفسير، وهو الشيخ محمد مختار بدير، وكان الشيخ بدير رجلًا قارئًا مُطَّلِعًا أديبا شاعرا، ولكنه ضاق صدره بنقاشه في قضية علمية عرض لها، خالفه القرضاوي فيها. وهي: هل كانت دعوة نوح عليه السلام عالمية أم لا؟

وقد رجّح الشيخ محمد مختار بدير أنها عالمية، بدليل أن الطوفان عمّ العالم، فلو لم تكن عالمية ما عوقب العالم كلّ بالطوفان. وكان القرضاوي في مناقشته معتمدا على النصوص المسلمة، فالقرآن يقول: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ [١].^٢

والحديث المروي عن جابر رضي الله عنه يقول في الخصائص الحمديّة، ما رواه جابر بن عبد الله، أنه يقول، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُعْطِيتُ حَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي: كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً».^٣ ولكن في اليوم التالي لقيه الشيخ بدير هاشأً بآشأً، وقال: لقد ظلمتك يا قرضاوي، وراجعت المسألة، فوجدت الحقّ معك، وقد سألت عنك، فعرفت أنك من أهل العلم، كما علمت أنك شاعر مثلي.^٤

وانعقدت بينه وبين الشيخ بدير مَوَدَّةً عميقةً، واستمرّت حتى تخرّج، وكان كثيرا ما يشيد به ويشني عليه عند زملائه من علماء الكُليّة.

١ القرآن الكريم، النحل (١٦)، الآية [٨].

٢ القرآن الكريم، نوح (٧١)، الآية [١].

٣ الدارمي، التميمي السمرقندي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بجرام بن عبد الصمد الدارمي، (المتوفى: ٢٥٥هـ)، مسند الدارمي المعروف بـ (سنن الدارمي)، باب: الأرض كلّها طاهرة ما خلا المقبرة، (المملكة العربية السعودية، دار المغني للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ - ٢٠٠٠م) رقم الحديث:

١٤٢٩، ج ٢، ص ٨٧٣

٤ الْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٤٠٨

* قضية نزول المطر من السماء أم السحاب؟

ومما جدير بالذكر بالنسبة للإذاعة في سنة ١٩٧٠م في قطر، أن الشيخ القرضاوي وجد الشيخ عبد الله بن زيد المحمود، رئيس المحاكم الشرعية، والعالم البَحَّاثَ الكبير. قال الشيخ ابن المحمود للشيخ القرضاوي: إنك تقول: إن المطر ينزل من السحاب، وليس من السماء، والقرآن يخبرنا أن الله أنزل من السماء ماء. ونقل الشيخ كلاماً عن ابن القيم في بعض كتبه حول نزول المطر من السماء. قال الشيخ القرضاوي للشيخ ابن المحمود: يا مولانا، ابن القيم على أعيننا ورءوسنا، وأنا أعتبر نفسي تلميذاً له، وهو حجة في الشرعيات، وليس حجة في العلوم الطبيعية والكونية، وكل علم يؤخذ من أهله، كما قال الله تعالى في محكم تنزيله: ﴿فَأَسْأَلُ بِهِ خَبِيرًا﴾ [٥٩].^١ وفي آية أخرى: ﴿وَلَا يَنْبِتُكَ مِثْلَ خَبِيرٍ﴾ [١٤].^٢

والعلوم الطبيعية التي اقتبسها الغربيون منا ثم تفوقوا فيها اليوم، كما نرى، حتى أمسى الإنسان يطير في الهواء، ويغوص في الماء... هذه العلوم تقول: إن المطر ينزل من السحاب، والسحاب يتكوّن من البُخار الذي يتكوّن من ماء البُحار والمحيطات، حتى إذا وصل إلى درجة معيّنة من البُرُودَةِ سقط مطراً.

والقرآن يشير إلى أن أصل الماء كلّهُ من الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [٣٠]. ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [٣١].^٣

والعرب في شعرها الجاهليّ أشارت إلى هذه الحقيقة الطبيعية، فقال شاعرهم أبو ذؤيب الهذلي في وصف السحاب: شرين بماء البحر ثم ترفعت متى لحجٍ خصر لمن نثيج!^٤ والنثيج: الصوت المرتفع. وهو صوت أمواج البحر، وهي تتلاطم وقال الآخر في العصر الإسلامي في موقفه من ممدوحه: كالبحر يطره السحاب وما له فضل عليه؛ لأته من مائه! وهذه حقيقة أصبحنا نشاهدها بأعيننا حين نركب الطائرات، فتعلو بنا فوق السحاب، فرمّا تكون الأرض مُمطرّة ونحن نشاهد الشمس ساطعة مُشرقة فوق السحاب، فإذا أردنا الهبوط اخترقنا السحاب لننزل إلى الأرض. وأما قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [٤٨].^٥ وأمثالها من الآيات، فلهما تأويلان: أحدهما: أن معنى "من السماء" من جهة السماء.

١ القرآن الكريم، الفرقان (٢٥)، الآية [٥٩].

٢ القرآن الكريم، فاطر (٣٥)، الآية [١٤].

٣ القرآن الكريم، النازعات (٧٩)، الآيتان [٣٠ - ٣١].

٤ قبل هذا البيت:

سقي أم عمرو كلّ آخر ليلة حنتام سودّ ماؤهنّ شجيج

إذا هم بالإقلاع هبت له الصبّا فأعقب نشء بعده وخروج

والحنّام: جمع خنّمة، وأصلها: الجُرّة الخضراء، وأراد بها هنا: السحاب، شبّهها بالجزار، ووصفها بالسواد لِكثافتِها، وماؤهنّ شجيج: أي تحتاج متدقّق. وهذه

السحاب شرين بماء البحر، ثم تصاعدت وارتفعت. ومتى: بمعنى "من" في لغة هذيل.

٥ القرآن الكريم، الفرقان (٢٥)، الآية [٤٨].

وثانيهما: أن السماء يُقصدُ بها السحاب، بناءً على أن السماء عند العرب: كل ما علاها، وفيه جاء قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيُقْطَعْ فَلْيُنظَرُ هَلْ يَدْعُبُ كَيْدُهُ مَا يَعِظُ﴾ [١٥].^١ فالمراد بالسماء هنا: السقف.

وسكت الشيخ عبد الله بن زيد الحمود رحمه الله، ويبدو للقرضاوي كأنه لم يقتنع بما قاله. فهذه أفكار جديدة تصطدم بما استقرَّ عنده من المعلومات راسخة تلقاها عن مشايخه الثقات، وعن كتبه ومصادره التي يعتزُّ بها.

* قضية صعود الإنسان إلى القمر:

أنكر الشيخ عبد الله بن زيد الحمود رحمه الله صعود الإنسان إلى القمر سابقاً، وقال: هذا من أخبار الآحاد، التي يمدح فيها الإنسانية نفسه بما يزعم أنه أنجزه!!

قال الشيخ يوسف القرضاوي له: يا شيخنا! هذا ليس خبر واحد من الآحاد، إنما هو حدث تشارك فيه دول، وتتنافس عليه دول، لو افترضنا أن الأمريكان يكذبون، فكيف يُسلم لهم منافسوه الروس وغيرهم؟ وسمع الشيخ القرضاوي الشيخ عبد الله الأنصاري أيضاً يُنكرُ صعودَ الإنسان إلى القمر! وهذا يدلنا على أن التكوين القديم لمشايخ العلم الديني في منطقة الخليج، كان ينقصه شيء مهم، وهو دراسة العلوم الكونية: من الفيزياء، والكيمياء، والأحياء "علم الحيوان وعلم النبات"، والرياضيات، وكذلك الجغرافيا الفلكية والطبيعية، وغيرها.

وهو ما تنبّه إليه الأزهر من قديم، حيث درس ذلك شيوخنا، وشيوخ شيوخنا، وقد سموا هذه العلوم: العلوم الحديثة، وهي في الواقع علوم قديمة، بل هي علوم المسلمين في الأصل، اقتبسها الغربيون منهم وطوّروها، وأضافوا إليها، حتى بلغت في عصرنا مبلغاً هائلاً، وهو ما سمّوه الثورات العلمية: الثورة النووية، والثورة الفضائية، والثورة الإلكترونية، والثورة البيولوجية، وثورة الاتصالات، وثورة المعلومات.^٢

مناقشة حول قضية موت فرعون مع الأستاذ مالك بن نبي في بيروت:

في الصيف سنة ١٩٧٠م، لقي الشيخ القرضاوي المفكر الجزائري المعروف الأستاذ مالك بن نبي في بيروت. في تلك المقابلة - ملاحظة للقرضاوي على مسألة في كتابه "الظاهرة القرآنية" رأى مخالفة لما يقرّره القرآن، وهي حديثه عن "فرعون" وأنه لم يمض من الغرق، ولكنه نجا ببدنه، وفقاً لما جاء في سورة يونس، قال الله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدْنِكَ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [٩٢].^٣

وأن هذه الحادثة غيرت مجرى حياته، وجعلته داعية إلى الوحيد. وهو الذي عرف في تاريخ القدماء المرين باسم "إخناتون"!! قال الشيخ القرضاوي له: أن من يقرأ القرآن بتدبرٍ، يستيقن أن فرعون هلك غرقاً، ولم يقبل إيمانه الذي أعلنه عند غرقه، كما قال القرآن صراحةً: ﴿الآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [٩١].^٤ وقال تعالى عن فرعون وموقفه من بني إسرائيل: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَ مِنْ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمِن مَّعَهُ جَمِيعًا﴾ [١٠٣].^٥

١ القرآن الكريم، الحج (٢٢)، الآية [١٥].

٢ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٢٠٨.

٣ القرآن الكريم، يونس (١٠)، الآية [٩٢].

٤ القرآن الكريم، يونس (١٠)، الآية [٩١].

٥ القرآن الكريم، الإسراء (١٧)، الآية [١٠٣].

وفي سورة أخرى قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَا هُوَ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانَظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ [٤٠]﴾ ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ [٤١]﴾ ﴿وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ [٤٢]﴾. ^١ وفي سورة أخرى قال الله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ [٩٨]﴾ ﴿وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرُّقْدُ الْمَرْفُودُ [٩٩]﴾. ^٢

ولا يمكن أن يفهم من هذه الآيات: أن فرعون نجح بعد أن نبذ في اليم، وتاب وغير وجهته، ودعا إلى التوحيد، والآيات تجعله من أئمة أهل النار، وتتبعه في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة! قال هذا للأستاذ ابن نبي، وهو كلام واضح مؤيد بالدليل، ولكنّه للأسف قال: أنه اختار هذا الرأي، أو هذا التحليل، لأنه يروق للمستشرقين، وهو أقرب إلى ذهنيّتهم، فأردت أن أكسبهم إلى جانبنا بذلك! قال الشيخ القرضاوي له: تكسبهم، ولو كان على حساب الحقيقة العلميّة؟^٣

١ القرآن الكريم، القصص (٢٨)، الآيات [٤٠ - ٤٢].

٢ القرآن الكريم، هود (١١)، الآيات [٩٨ - ٩٩].

٣ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٢٥٨

المبحث الثاني: أفكاره المُنتسبة إلى الأحاديث المطهّرة

منهج الشيخ القرضاوي في الاستدلال بالأحاديث:

وكان يرى أن يكتفي من المصادر بالقرآن والسّنن الصحاح يعني كلّ من الأحاديث الصحيحة النبويّة: مثل: ما في الكتب السنّة: «الصحيحين»: الجامع الصحيح للبخاري وصحيح لمسلم، وسنن الترمذي، وسنن أبي داود، وسنن النسائي، وسنن ابن ماجه ولم يمنعه ذلك من الاستفادة أيضاً - من كتب السنن والأحاديث الأخرى، مثل: «موطأ مالك»، و«مسند أحمد»، و«صحيح ابن حبان» و«مسند عبد الرزاق» و«مستدرک للحاكم» و«سنن للبيهقي»، وغيرها، وعنده يُعدّ الإجماع والقياس دليلان في الشريعة الإسلاميّة أيضاً، وأحياناً بالاستحسان، ومصالح المرسلّة والعرف ما لم يكن مخالفاً للشرع، بل يكون هؤلاء موافقات بالقرآن والسنة وإلا فلا يعدّ ولا يعتبر من المصادر الشرائع.

كان يلتزم الشيخ القرضاوي على نفسه ألا يستدلّ إلا بحديث صحيح أو حسن في كتبهم، إذ لا حجّة في غيرهما، ولا يحتجّ بحديث ضعيف بيّن الضعف، وإذا ذكر حديثاً ضعيفاً - على ندرّة - فإنما يكون للاستئناس لا للاحتجاج.

وهذا اقتضاه أن يبيّن درجة الأحاديث، ويُسند إلى مصادرها، ويذكر من صحّحها، أو حسّنها أو على الأقل - وثق روايتها. وهذا ما يلتزمه منذ زمن طويل، على ما فيه من جهد، ولكنه جهد غير ضائع.^١

وعلينا أن نتمسك السنّة النبويّة كما حقّها لنجاح في حياتنا الدنيويّة والأخرويّة، لأنه أصل ومصدر ومنبع ثان من أصول التشريع الإسلامي. وحثنا رسولنا صلّى الله عليه وسلّم على الاستمسك والعناية به. حيث قال: عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ، لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ».^٢

قضية حول "السنة" و"الرّدة"

بعد انتهاء ندوة التشريع الإسلاميّ في ليبيا، سنة ١٩٧٢م، كان الشيخ القرضاوي لقي العقيد القذافي. وقد أثار القذافي موضوعات شتى، كان من أهمّها كلام حول أمرين خطيرين: السنّة، وإن لم يُفصّح تماماً عن أفكاره عن حولها، ولكن عباراته وتعليقاته أوجت بأن لديه شكوكاً وشبّهات حول ثبوت السنّة، وحول حجّيتها. قال الشيخ القرضاوي له: أن ثبوت السنّة وحجّيتها أمر معقول بإجماع الأمة، لا شك ولا ريب فيه، لأنه مفسّر آيات القرآنية التي مرتبطة ومنتسبة بالدين الإسلام. إذن فكيف يمكن أن تكون الشريعة الإسلاميّة مُكمّلاً بلا ثبوت السنّة وحجّيتها. وبالتالي لأنها أحد قسم من قسمي الوحي أي وحي غير متلو عند علماء الأمة المسلمة. ونبينا لم يقل شيئاً من نفسه، بل كلّ ما قال أو فعل أو أمر أو شرع فهو كان من إحياء الله تعالى، وأشار الله سبحانه وتعالى إليه بالقرآن الكريم قائلاً: ﴿وَمَا يَنْطَلِقُ عَنِ الْهَوَىٰ [٣]﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ [٤]﴾.^٣

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، كيف نتعامل مع السنّة النبويّة؟، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الخامسة، ١٩٩٤م)، ص ٤٣

٢ مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (المتوفى: ١٧٩هـ)، الموطأ لإمام مالك، باب النهي عن القول بالقدر، (بيروت: دار إحياء التراث العربي،

١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م)، ج ٢، ص ٨٩٩

٣ القرآن الكريم، النجم (٥٣)، الآيتان [٣ - ٤].

علم الحديث في الثانويّة:

كان علم الحديث يدرس لهم في السنة "الأولى الثانويّة"، وهو مختارات من صحيح البخاريّ في كتبه وأبوابه المختلفة في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق والآداب وغيرها. وقد شرح الأحاديث المختارة أحد علماء الأزهر المرموقين، وهو الشيخ عبد الجليل عيسى، الذي استفاد من شروح البخاريّ، ولا سيّما فتح الباري، وسمّى تأليفه "صفوة صحيح البخاريّ". وقد درسناه في السنوات الخمس كلها، واستفادوا منه ولا شكّ. وقد درسوا في السنة "الأولى الثانويّة" كتابا مختصرا في علم "مصطلح الحديث"، ولكنه كان كتابا لا يسمن من شبع، ولا يغني من جوع، ولم يقدوا كثيرا في فهم هذا العلم المهم، لأنه كان أشبه بمن ينقصه الشرح والتمثيل، فبالمثال يتضح المقال. ولم نوفق إلى مدرس يجبر قصور الكتاب، فالمدرّس الناجح يعوض ما في الكتاب من نقص، والمدرّس الفاشل يضيع قيمة الكتاب النافع، ويميت المادّة الحيّة.

وما زال هذا العلم مسيس الحاجة إلى كتاب معاصر، يذكر القاعدة من القواعد، ويدلل عليها، ويمثّل لها بأمثلة واقعيّة موضّحة، فهو مدخل ضروريّ لعلم الحديث؛ ولذا يسميه بعض العلماء: علم "أصول الحديث" إشارة إلى أنّه مثل "أصول الفقه" لعلم الفقه.

علم الحديث في كليّة أصول الدين:

في "كليّة أصول الدين" كان الكتاب المقرّر هو صحيح مسلم بشرح النووي طوال سنوات الكليّة الأربع، ولكنّ كان هناك أبواب كثيرة ومهمّة من الكتاب لا تدرس ولا تقرأ، كما أن شرح النووي عدا الأجزاء الأولى من الكتاب كان خفيفا وغير مشبع، وكان القرضاوي يودّ:

١. أن يقرأ متن الصحيح كلّه بأسانيده، ليتعوّد الطالب ذلك.
٢. أن يحتلّ "فقه الحديث" مكانا أكبر، ولا تهمل أحاديث الأحكام، باعتبار أن ذلك من اختصاص "كليّة الشريعة" فكلّ كُليّة يجب أن يكون لها حظّ من الفقه بوجه من الوجوه.
٣. أن استفاد من بعض النظرات الحديثة في شروح الحديث.
٤. أن يُمرّن الطالب على فنّ "التخريج" ويعرف أصوله، نظريّا وعلميّا.
٥. أن يأخذ من "علوم الحديث" قدرا أكبر ممّا هو مقرّر في الكليّة.
٦. أن يتدرّب الطالب على معرفة "الحديث الموضوعي" بدراسة بعض الموضوعات في السنّة مثل "الزّواج" أو "الأسرة" أو "الجهاد" أو "الحكم" أو غير ذلك.

واقعة نزاعية مع الشيخ أحمدين:

من غرائب المصادفات: أن يكون في لجنة امتحان التعيين "الشيخ أحمدين"، وكان اصطدم القرضاوي به أثناء الدراسة في آخر سنة، وساءت العلاقة بين القرضاوي وبينه، حتى أخرجته من الفصل، فقال القرضاوي: لا حول ولا قوة إلا بالله.

وكان سبب الخلاف بين القرضاوي وبين "الشيخ أحمدين": أنه كان يدرّس لهم حديث: "خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم،^١ برواياته المختلفة، وذكر لهم رأي العلماء في هذه الخيرية، وأن رأي الجمهور أن الخيرية بالنسبة لقرن التابعين إنما هي للمجموع لا للجميع، فلا يمتنع أن يوجد فيمن بعد التابعين من هو أفضل من بعض أفراد التابعين، ولكن لا يوجد قرن بعد التابعين أفضل من قرنهم في مجموعهم. أما بالنسبة لقرن الصحابة، فالخيرية والأفضلية فيه، إنما هي للجميع لا للمجموع، فلا يوجد بعد قرن الصحابة فرد ما - وإن بلغ ما بلغ من الفضل والتقى الجهاد - يبلغ مبلغ أي واحد من الصحابة، مهما دنت منزلته.

وللإمام ابن البرّ رأي خالف فيه الجمهور، وقال هناك من الصحابة من لا يبلغ أحدهم مبلغهم، مثل السابقين الأولين، وأهل بدر، وأهل أحد، وأهل بيعة الرضوان، ومن كان له فضيلة معينة، ثم من عدا هؤلاء يكون التفضيل للمجموع لا للجميع، فلا يمتنع أن يأتي من بعد الصحابة من يفضل على واحد من عامة الصحابة، ممن لم يكن له من الصحبة إلا أنه حجّ معه صلى الله عليه وسلم حجة الوداع، وآه من بعيد.

وهنا قال القرضاوي للشيخ أحمدين: والله يا مولانا، إن رأي ابن البرّ رأي جيد، فقد استثنى من الصحابة من لا يلحق أحد بغيرهم، ولكنه أبقى الباب مفتوحا بالنسبة للصحابة الذين لم يعرف لهم فضيلة معينة، فلا مانع أن يكون مثل عمر بن عبد العزيز أو الإمام الشافعي، أو عز الدين بن عبد السلام، أو صلاح الدين الأيوبي أو ابن تيمية، أو غير هؤلاء ممن حملوا راية الدعوة والجهاد، أفضل من بعض الصحابة الذين ليس لهم فضل الصحبة.

وهذا يفتح نوافذ الأمل للعلماء والدعاة المجاهدين في عصرنا، الذين بذلوا جهودهم في إصلاح أحوال المسلمين والنهوض بهم. وهنا قال أحد الإخوة في الفصل - وهو الأخ محمد حسن راضي من بسيون - مثل الشيخ حسن البنا وما قام به من دعوة وجهاد.

وما إن ذكر اسم حسن البنا، حتى ثار الشيخ أحمدين ثورة عارمة، وقال: تريد أن تجعل حسن البنا أفضل من الصحابة؟ وهاجم الشيخ الأستاذ حسن البنا بعنف، وهنا قال القرضاوي: يا مولانا هذا رجل أفضى إلى ربه، وقد نهيينا عن سبّ الموتى، وما ذنب حسن البنا إذا اختار أحد تلاميذه رأيا يخالف رأي فضيلتك أو رأي الجمهور؟

واشتدّ النزاع بين القرضاوي وبين الشيخ أحمدين، فطلب إليه أن يخرج من الفصل، وأن لا يحضر دروسه، وكان على وشك انتهاء السنة الدراسية، فظلّ التوتّر قائما بين القرضاوي وبين الشيخ أحمدين، ولكن ها هو القدر وضعه أمامي في اللجنة التي سيؤدّي الامتحان أمامها، وليس مقبولا ولا لائقا أن يرفضها. فليكن ما قدر الله، ودعا الله تعالى أن يُعلّمه ما جهل، ويُذكّره ما نسي، وأن يُسدّد رميته، ويُلهمه الصواب، وفصل الخطاب.

١ الحديث أخرجه أحمد من طريق خميل "٣/ ٤٠٧، ٤٠٨"، وقد قال الحافظ في "التقريب": مقبول. وقوله هذا محمول على أن الجهالة في التابعي أقل تأثيرا في صحة الحديث من الجهالة فيمن دونه؛ وذلك لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم". وقد ذكره ابن حبان في الثقات.

المبحث الثالث: أفكاره المتعلقة بالفقه والشريعة الإسلامية

علم الفقه:

أول علوم الدين كان علم الفقه الذي يحظى بنصيب الأسد بين علوم الدين الأخرى، في الخطة الدراسية بحيث يكاد يكون عندهم في كل يوم درس للفقه.

وكان يدرس الشيخ القرضاوي الفقه الحنفي في كتاب قيم، هو كتاب "الاختيار" شرح "المختار" وكلاهما لابن مودود الموصلية، وكان هذا الكتاب يمتاز على "اللباب في شرح الكتاب" أو "الميداني على القدوري" بعنايته بالأدلة النقلية والعقلية، والعقلية التي تؤيد مذهب الحنفيّة، وتردّ على مخالفهم، وخصوصا الشافعية. فهو يجرّن الطالب على الاستدلال والحجاج، ولا سيّما في معتركات النزاع الحادّة.

مثل تزويج المرأة نفسها دون اشتراط الوالي إذا زوّجت نفسها من كفاء. ومثل قتل المسلم بالكافر الذمي ونحوها. ولكن عيب هذا الكتاب وغيره من الكتب في المذهب الحنفيّ وفي سائر المذاهب: أنّه كتب لعصر مضى، ولم يكتب لعصرنا، ولا لعلاج مشكلاتنا التي نواجه الآن، أو الإجابة عن تساؤلاتنا. وليس العيب في مؤلفي هؤلاء الكتب، فهم قد عالجوا مشكلاتهم بلغة عصرهم، وبدلوا ما في وسعهم، وإن كان يعيهم التقليد المطلق للمذهب، وإن ظهر تمافته وضعف دليله.

ولكن العيب فينا نحن، فنحن ندرس الفقه كلّ من ألفه إلى يائه، من كتاب الطهارة إلى كتاب الفرائض (المواريث)، ولكنه فقه نظريّ محض، يعيش في صفحات الكتب ولا يحيا في واقع الحياة.

نحن ندرس كتاب "البيوع" و"المعاملات" ولكن لا نعرف شيئا عن البيوع الحديثة وما يجري فيها، ولا نعلم شيئا عمّا يدور في "البنوك" وماذا فيها من الحلال أو حرام؟ وكذلك الشركات "التأمين" لا نعلم شيئا عنها ولا عن أحكامها. بل حتّى فالعبادات لا ندري شيئا ن الزكاة في الشركات أو المصانع أو العمارات السكنية، أو غير ذلك من الأموال النامية المستحدثة.

المراد بالشريعة عند الشيخ القرضاوي:

للأسف أكثر الناس يفهمون من الشريعة: تطبيق العقوبات والحدود الإسلامية، وهذا جزء من الشريعة، وليس كلّ الشريعة، ولهذا نزلت أحكامها في أواخر العهد النبويّ، وفي أواخر ما نزل من القرآن في سورة المائدة.

إن الشريعة تعني: العبادات والمعاملات والقيم والأخلاق والآداب، وليس مجرد الجانب القانوني، وخصوصا الجزء الجزائي والعقابيّ فيه. على أن القوانين وحدها لا تصنع المجتمعات، ولكن تصنعها التربية والثقافة والتوجيه، والدعوة والإعلام، وهي التي تنشئ العقول المستنيرة والضمان الحية، والإردات الحافزة إلى الخير، الرادعة عن الشر.^١

التصوّر للشريعة ليس واضحا تمام الوضوح لبعض السلطة التنفيذية، فظنّت أنّها بمجرد الجلد والقطع، تنفيذ الشريعة حقًا. وليس هذا هو كلّ شيء، فقبل أن نقطع يد السارق، لا بدّ أن نوثر الخبز للجائع، والعمل للعاطل، والسكن للمُشرّد، والكفالة لليتيم، والرعاية للمحتاج، ونقيم التكافل الاجتماعيّ في الشعب.

١ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٣١١

فقبل أن ينزل الله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [٣٨].^١ وأنزل قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ [٤٣].^٢ ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [٦]. ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [٧].^٣ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْنُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ﴾ [١٨٠].^٤ ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ﴾ [١]. ﴿فَذَلِكِ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ [٢]. ﴿وَلَا يَخْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [٣].^٥

فلا بد إذن أن نُكْفَلَ حاجات الناس، ونُسَدَّ الثُّغْرَابَ في حياتهم، وأن نعلّمهم ونكفيهم، ثم نطبّق عليهم العقوبات التي شرعها الله تعالى. ثم إن العقوبات إنما هي لغير الأسياء، أي لمن شذّوا عن القاعدة العامة. والشريعة إنما جاءت لتجعل الناس أسياء مستقيمين.

التزامه (القرضاوي) المنهج السنّي عن بَيِّنَةٍ:

فقد آمن الشيخ القرضاوي بالإسلام عن بَيِّنَةٍ، والتزم المنهج السنّي عن اقتناع... وهو ليس مُتَعَصِّبًا لِمَدْرَةٍ واحدة، أو لمذهبٍ واحدٍ في العقيدة أو في الفقه، فهو أخذ من الأشاعرة، وأخذ من الماتريديّة، وأخذ من السلفيّة، بل لا مانع أن يأخذ من المعتزلة: ما يكوّن به تصوّرًا صحيحًا عن أصول الإيمان. كما لا يتعصّب لمذهب من مذاهب السنّة في الفقه، بل يوازن بينها، ويتخيّر منها ويدع، ويرجّح ما يراه أقوى دليلًا، وأهدى سبيلًا، وأقرب إلى تحقيق مقاصد الشرع ومصالح الخلق.^٦

نظريّة الشيخ الدكتور القرضاوي في قضيّة "الاجتهاد":

عند فضيلة الشيخ القرضاوي: القرآن والسنّة مصدران يمثلان الوحي الإلهي: الوحي المتلو "القرآن"، والوحي غير متلو "السنّة" أو الوحي الجليّ والوحي الخفيّ، ولكن الاستفادة من الوحيين لا تتم إلا بالاجتهاد. وقد زعم زاعمون أن باب الاجتهاد قد أغلق منذ قرون بعد الأئمّة المتبوعين، وبخاصّة الاجتهاد المطلق، ولكن الاجتهاد باب فتحه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فلا يملك أحد أن يُغلقه. وفي كلّ عصر قد وجدنا علماء كبارًا قد بلغوا مرتبة الاجتهاد المطلق، وامتلكوا شروطه وأدواته، وإن لم يعلنوا أنهم مجتهدون.

وفي أواخر القرن التاسع الهجريّ، وأوائل القرن العاشر: ادّعى الإمام المصريّ الحافظ الكبير، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (المتوفى: ٩١١ هـ) الاجتهاد المطلق، وأنكر عليه كثير من علماء عصره، الذين حصرُوا أنفسهم في دائرة التقليد، فتحدّاهم بكتابه المركز القيم، الذي سمّاه "الردّ على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كلّ عصر فرض!" وقد ذكر في هذا الكتاب جملة وافرة من العلماء الذين ارتقوا إلى درجة الاجتهاد، وأثر الشيخ القرضاوي عنهم اجتهادات خالفوا فيها مذاهبهم التي ينتسبون إليها. ومن هنا: يرى أن الإخوة في الجزائر قد وقّعوا في اختيار هذا الموضوع الحيويّ، وقد دعوا نخبة من العلماء المهتمين بقضايا الفكر والاجتهاد، وعلاج مشكلات العصر في ضوء الشريعة الإسلامية، وكان هذا في ملتقى الفكر الإسلاميّ عن الاجتهاد في قسنطينة في شوال ١٤٠٣ هـ الموافق يوليو ١٩٨٣ م، التي يعلن الجميع أنها صالحة لكلّ زمان ومكان. وإنما تصلح الشريعة فيحياء الاجتهاد. أمّا الجمود والتقليد والتعصّب فلا تحيا بها شريعة، ولا تنهض على أساسها أمة.

١ القرآن الكريم، المائدة (٥)، الآية [٣٨].

٢ القرآن الكريم، البقرة (٢)، الآية [٤٣].

٣ القرآن الكريم، فصلت (٤١)، الآيتان [٦ - ٧].

٤ القرآن الكريم، آل عمران (٣)، الآية [١٨٠].

٥ القرآن الكريم، الماعون (١٠٧)، الآيات [١ - ٣].

٦ ألفقرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٤٣٦

شرح الاجتهاد: أن يكون من أهله في محلّه عند الشيخ القرضاوي

الاجتهاد كما يرى الشيخ القرضاوي: فريضة وضرورة. فريضة يوجبها الدين، وضرورة يَحْتِمُهَا الواقع، وبغير الاجتهاد سنظلّ في مكاننا لا نتحرّك ولا نتقدّم، ولكن جمودنا ووقوفنا في مكاننا: لن يمنع الفلك من التحرك، ولا الأرض من الدوران ... سيتطوّر العالم من حولنا، ونبقى جامدين. والعيب ليس في شريعتنا، ولكن العيب فينا نحن: في عقولنا المتحجّرة، وعزائمنا الواهية. ولكن المهم كلّ المهم: أن الشرط الأساسي في الاجتهاد الذي نسعى إليه: أن يكون صادرًا من أهله في محلّه، حتى يجوز القبول، ويمكن العمل به.

ومعنى "من أهله":

أن يكون المجتهد مستوفيًا لشروط الاجتهاد، التي فصلّها علماء أصول الفقه في كتبهم. وهي ليست مسحيلة على من نذر نفسه للعلم، وكان ممن آتاه الله الفطنة والبصيرة. فربط نصوص الشرع الجزئية بمقاصده الكلية، وجعل التراث الفقهي منارًا يهديه، لا قيّدًا يعوقه، واستفاد من تراث الماضي لعلاج مشكلات الحاضر، وذلك بعد تَصَلُّعِهِ من علوم الشرع ومن علوم اللغة التي هي آلة لفهم الشرع. كما استنار بمعرفة العصر وثقافته وتياراته، فجمع بين ثوابت الشرع ومتغيّرات العصر. وعلم أن الضرورات أحكامها، وأن الله يحبّ أن تُؤتَى رخصه، وأنه يريد بعباده اليُسْرَ، ولا يريد بهم العُسْرَ، وأنه ما جعل عليهم في الدين من حرج.^١

ومعنى: أن الاجتهاد "في محلّه":

أنه في الدائرة التي يجوز فيها الاجتهاد، وهي دائرة "الظنيات" من النصوص، أو الدوائر التي لم يرد فيها نصّ ملزم، وهي ما سميها "منطقة العفو" أحدًا من حديث: عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، رَفَعَ الْحَدِيثَ، قَالَ: «مَا أَحَلَّ اللهُ فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ حَلَالٌ، وَمَا حَرَّمَ، حَرَامٌ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ، فَهُوَ عَافِيَةٌ، فَأَقْبَلُوا مِنَ اللهِ عَافِيَتَهُ، فَإِنَّ اللهُ لَمْ يَكُنْ نَسِيًّا»، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مریم: ٦٤].^٢

أما دائرة "القطعيّات" التي فصلت فيها نصوص قطعيّة الثبوت، وقطعيّة الدلالة، فقد حُسِمَ فيها الأمر، ولا مجال للاجتهاد، والتي أجمعت عليها الأمة، وتوارثتها الأجيال، وأصبحت تُحَسِّدُ وحدة الأمة العمليّة والسلوكيّة، بجوار وحدتها العقديّة. وهذه القطعيّات هي التي تُمَثِّلُ "الثوابت" التي تحدّد هويّة الأمة وشخصيّتها العقديّة والفكرية والأخلاقيّة، فلا يجوز لِمَدَّعٍ - باسم الاجتهاد- أن يخترقها أو يجور عليها.

من أفكاره:

اقترح بعضهم صلاة الجمعة في يوم الأحد:

ولهذا رفض المشاركو ملتقى الفكر الإسلاميّ في قسنطينة شرقي الجزائر في سنة ١٩٨٣ كافة: ما انتهى إليه اجتهاد أحدهم - وهو الأستاذ ظافر القاسمي من سوريا وهو مؤرخ وباحث وابن العلامة جمال الدين القاسمي الشهير- وهو خاصّ بصلاة الجمعة في يوم الأحد.^١

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *الاجتهاد في الشريعة الإسلامية*، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الثانية، ١٩٩٤م)، ص ٢٠

٢ البيهقي، أبو بكر، *السنن الكبرى*، باب ما لم يذكر تحريمه، (بيروت - دار الكتب العلمية، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م)، رقم الحديث: ١٩٧٢٤، ج ١٠، ص ٢١. وابن البيع، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعَيْم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري (المتوفى: ٤٠٥هـ)، *المستدرک*

على الصحيحين، باب: تفسير سورة مریم، (بيروت - دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠م)، رقم الحديث: ٣٤١٩، ج ٢، ص ٤٠٦،

وصحح إسناده، ووافقه الإمام الذهبي، عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *الاجتهاد في الشريعة الإسلامية*، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الثانية، ١٩٩٤م)، ص ٦٠

ذكر الأستاذ القاسمي: أنه كان في سفرة إلى أمريكا، ووجد هناك أحد المسلمين الأخياريين من الأثرياء، وقد وقّعه الله لبناء مسجد يصلي فيه المسلمون ما يشرّ الله لهم من الصلوات الخمس، ومن صلاة الجمعة. ولكن يوم الجمعة يوم عمل في أمريكا، فلذا كان الاجتهاد الذي طرحه الأستاذ: أن يصلي المسلمون الجمعة في يوم الأحد، يوم إحازتهم. ورأى الإصرار على صلاة الجمعة في يوم الجمعة من "الجمود" الذي يجب أن نتجاوزه في عصرنا، لنقدر على حلّ مشكلاتنا العصرية، كما رأى أننا لو أخذنا برأي العلامة الطوفي الحنبلي (٧٢٢ هـ) في تقديم المصلحة على النصّ، حلّوا هذه المشكلة، وغيرها من مشكلاتنا العصرية!! واعترض العلماء الحاضرون جميعاً على الأستاذ القاسمي، لم يشفع له: أنه ابن الشيخ جمال الدين علامة الشام، وصاحب "محاسن التأويل في تفسير القرآن، وقواعد التحديث في علوم الحديث" وغيرها.

وكان الشيخ القرضاوي ممن اعترض على الأستاذ القاسمي^١ في عدّة نقاط أساسية:

أولها: أن هذا اجتهاد في غير محلّه، لأنه اجتهاد في أمر قطعيّ، ثابت بالقرآن والسنة وإجماع الأمة بكلّ طوائفها ومذاهبها. فقد حدّدت جميعاً لصلاة الجمعة يوماً ووقتاً، فمن لم يستطع الصلاة في ليوم المحدّد، والموعود المحدّد: سقطت عنه الفريضة للعدر، ومن لم يمكنه أن يصلي الجمعة صلاها ظهرًا بالاتفاق.

وقد قال للأستاذ القاسمي: ماذا تسمّى هذه الصلاة المقترحة: أنسميها "صلاة الأحد" أم "صلاة الجمعة"؟ وماذا تقول في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [٩].^٢ أنغيّر كلمة "الجمعة" إلى كلمة "الأحد"، وهل نسمّي السورة "سورة الجمعة" أو "سورة الأحد"؟!

ثانياً: ما ذكره الأستاذ عن الطوفي لا يمثّل حقيقة مذهبه في المصلحة:

أ - فهو أولاً: لا يعتدّ بالمصلحة في أمور العبادات، لما فيها من اعتبار التعبّد والتقرب إلى الله، بغض النظر عن المصالح وغيرها، وسواء أدركنا العلة فيها أم لم يدركها وكذلك المقدرات.

ب - وهو ثانياً: لا يقدّم المصلحة على النصّ القطعيّ الثبوت والدلالة، كما توهم بعضهم ممن لم يجمع كلامه كلّه. ويربط بعضه ببعض. وقد أثبتنا بطلان هذا القول القاطع من كلامه في كتاب الشيخ القرضاوي "السياسة الشرعية بين نصوص الشريعة ومقاصدها".

فهذا اجتهاد مردود، وآفة كثير من الاجتهادات المردودة: أنها تصدر من غير متخصصين، بل من أناس مثقفين أقحموا أنفسهم على الشريعة، وهم لم يتفقوا في علومها، بعضهم أساتذة تاريخ، وبعضهم أساتذ أدب، وبعضهم أساتذة فلسفة تصوّف أو غير ذلك.^١ والمشكلة التي ذكرها الأستاذ القاسمي في أمريكا قد حلّها المسلمون هناك: أن من استطاع صلاة الجمعة صلاها، ومن لم يستطع اجتمع مع إخوانه يوم الأحد في محاضرات ونشاط ثقافي ودعوي وتربوي يستغرق اليوم كلّه.

• والآن أودّ (الباحث) أن أذكر بعض أفكاره المتعلقة بالفقه أو الشريعة الإسلامية على نمط الأسئلة والأجوبة أو المناقشة أو غيرها من قبيل فضيلة الأستاذ الدكتور الشيخ يوسف القرضاوي. إن شاء الله تعالى!

١ هو محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى: ١٣٣٢هـ)، المؤلف لـ "تفسير القاسمي" المعروف بـ "محاسن التأويل".

٢ القرآن الكريم، الجمعة (٦٢)، الآية [٩].

١ وقد أورد الشيخ القرضاوي نماذج من هذه الفتاوى الشاذة في كتابه: "الفتاوى الشاذة" (القاهرة - دار الشروق، الطبعة: الثانية ١٩٩٤) ص ٥٧

• تَسْأَلُ مُهِمُّ:

* السؤال: ما العنصرُ الأوّلُ المؤثّرُ في سلوك الإنسان وتحديد مستقبله؟

* السؤال: هل العقل أو الذكاء وحده هو العنصرُ المؤثّرُ في حياة الإنسان وتقرير مصيره؟

* السؤال: أو هناك شيء غير العقل، وهو الإرادة؟

* الأجوبة: الآن نحن نستفهم أجوبة المسائل المذكورة من قِبَلِ الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي حفظه الله. الإنسان لا يُحَقِّقُ

أهدافه، وطُمُوحَاتِهِ بالعقل وحده، بل بالإرادة أيضًا. قال: في اعتقادي أن الإرادة عنصر ضروريّ إلى جِوَارِ عنصر الذكاء، بل ربّما كان أهمّ منه. وكم رأينا من أناس حَقَّقُوا بذكائهم المتوسّط - مع قوّة الإرادة - ما لم يُحَقِّقُهُ الأذكىاء!

وإذا كان ديكارت يقول: أنا أفكر، إذن أنا موجود، فأما أقول: أنا أريد، إذن أنا موجود. وما الذي يكوّن إرادة الإنسان؟ أو قل:

ما تتّجه إليه إرادة الإنسان؟

إنه الإيمان والأخلاق. فالفرد بلا إيمان ولا أخلاق، لن يكون له إرادة. إنّما تَنَبِّئُ الإرادة من رسالة يؤمن بها، ومن أخلاق يلتزم بها.

وإذا كان الناس استحسنا، قول شوقي: فإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فأراه أن هذا ينطبق على الأفراد، كما ينطبق على الأمم، فالإنسان بغير أخلاق أشبه بالحيوان الأعجم، الذي لا تسيّره غير غريزته.^١

على أن هناك عنصرا فوق ذلك كلّه، وقبل ذلك كلّه، أي فوق الذكاء والإرادة، وقبل الذكاء والإرادة، نؤمن به نحن المسلمين، بل

يؤمن به أهل الأديان جميعا، بل يؤمن به أهل الجاهليّة أنفسهم، اسمه "القدر" الذي يهيمن على الكون كلّه، والذي جعل الناس

يقولون: العبد يُدبّر والربّ يُقدّر، ويقولون: إذا نفذ القدر عُمي البصر. وهو الذي جعل الشاعر الجاهليّ "المتنب العبدى" يقول:

ولا أدري إذا يممت أرضا أريد الخير: أيّهما يليني؟

أ الخير الذي أنا أبتغيه أم الشر الذي هو يبتغيني؟

ويقول الشوقي أيضا:

قدرت أشياء، وقدر غيرها قدر يخط مصاير الإنسان!

والشيخ القرضاوي يشهد أن كثيرا من في حياته مما يحبّ وما يكره، كانت من صنع القدر له، ويعتقد أن ما اختاره له قدر الله، خير

مما كان يخطاره لنفسه، وليس معنى هذا الإنسان "مُسيّر" أ "مُجَبَّوَر" مسلوب الإرادة، كلا، فعلام كَلْفَ إذن؟ وفيما كان الثواب والعقاب؟

وعلماء الأخلاق والنفوس والاجتماع اليوم يقولون: إن الإنسان توتّر فيه عوامل كثيرة، تدور جميعها حول أمرين: الوراثة والبيئة.

وقد كشف عصرنا تأثير (جينات) في سلوك الإنسان في عقله وانفعالاته وعواطفه، وفي نزوعه وإرادته، وفي جسده وصحّته.

كما بين عصرنا أثر الجغرافيّة والبيئة والاقتصاديّة، والبيئة الثقافيّة في الأسرة والمجتمع في توجيه حياة الإنسان، وهو ما عبّر عنه

الحديث الشريف ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ

١ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ١٤٠

يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنصِّرَانِهِ، أَوْ يُجَسِّسَانِهِ، كَمَثَلِ الْبَيْهَمَةِ تُنْتَجِجُ الْبَيْهَمَةَ هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ؟^١ ومع هذه المؤثرات يرى القرضاوي أن الإنسان مخلوق ذو إرادة، وأن الله أبقى له قدرًا من الحرّية يُدبِّرُ به حياته وفُقَّ اختياره، فقد وهب الله العقل، ومنحه الإرادة، ورزقه القوّة، وبعث له الرسل، وأنزل له الكتب، وتركه ليقرّر مصيره بنفسه. ربُّنا يقول: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ [١٠٤]﴾.^٢

وبهذا قدر من الإرادة التي منحها لإنسان حمل أمانة التكليف، وبها يؤمر ويخاطب، وعلى أساسها يثاب ويعاقب. ومن هنا أرفض كل الفلسفات (الجبرية) سواء كانت جبرية دينية، كالذين قالوا: إن الإنسان أشبه بريشة في مهبّ رياح الأقدار، تقبلها كيف تشاء، ولا إرادة له ولا اختيار. أم كانت الجبرية اجتماعية، كالفلسفة (دور كايم) ومن تبعه، الذين قالوا: إن الفرد دُمَيَّةٌ يُحْرَكُ خيوطها المجتمع، وكل ما يعمل من صالحات، أو يقترفه من جرائم هو من صمغ المجتمع، وهو أسير المجتمع في الحسنات، وضحيته في السيئات. أم كانت الجبرية سياسية، كالذين يزعمون أن هناك قوّة خفية تحكّم العالم، وأنا مجرد أحجار على رُقعة الشطرنج، فهذا لا دليل عليه، وهو يؤسنا من كلِّ عمل لإصلاح أنفسنا. فالإنسان مُكلّف حرّ ومختار ملكه الله مصير نفسه بلا رب.

ولكن أهل الإيمان مع هذا يوقنون أن الله نفحات يختصّ بها شاء من عباده فضلًا منه وكرما، هي من شأن الألوهية التي لا تسأل عمّا تفعل، ولا حجر عليها فيما تخلق وترزق وتعطي. حيث قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ [٧٣]﴾ ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ [٧٤]﴾.^٣ إن الإنسان ليس مُسَيَّرًا ولا مجبورًا، ولكنّه - كما قال الحديث النبوي - عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «اعْمَلُوا فِكُلُّ مُسَيَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ».^٤

*** السؤال:** ربّما يسأل الكثيرون: هل يجوز للمسلم - ناهيك بالعالم الداعية - أن يقتني جهازًا تليفزيونيًا؛ برغم ما قد يكون فيه من مفاسد؟

وحدير بالذكر هنا - في المؤتمر العالميّ الأوّل لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة المنعقد في المملكة العربية السعودية في سنة، صفر ١٣٩٧هـ/ شبّاط أو فبراير ١٩٧٧م: أن تليفزيون المملكة بالمدينة أرسل جماعة من المصوّرين والمذيعين، لينتقوا صورًا للمؤتمر، ويُجروا بعض المقابلات مع عدد من العلماء، لبيثوها في نشرة الأخبار، أو في برنامج خاصّ عن المؤتمر، فرفض الشيخ عبد المحسن العباد رئيس المؤتمر أن يسمح لرجال التليفزيون بالدخول إلى القاعة وتصوير المؤتمر، ووقف هو وبعض الأساتذة من الجامعة معه سدًا منيعًا، ليصدّدوا هؤلاء عن الدخول. وقالوا لهم: لا يمكن أن تدخلوا أبدًا إلى القاعة ونحن هنا!!

وحجّة الشيخ عبد المحسن ومن معه: أن التليفزيون قائم على "التصوير"، والتصوير محرّم في الإسلام! وأشدّ الناس عذابًا يوم القيامة المصوّرون. وقد ثبت في تحريم التصوير أحاديث صحاح مستفيضة لا يشكُّ من له صلة بعلم الحديث في ثبوتها وصحّتها.

١ البخاري، الجامع الصحيح للبخاري، باب ما قيل في أولاد المشركين، (دار طوق النجاة [مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي]، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ)، رقم الحديث: ١٣٨٥، ج ٢، ص ١٠٠، والنيسابوري، الصحيح لمسلم، [المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي]، باب معنى كلِّ مولود يولد يولد على الفطرة، [بيروت، دار إحياء التراث العربي، رقم الحديث: ٢٦٥٨، ج ٤، ص ٢٠٤٧، بعبارة آخر عن نفس الراوي.

٢ القرآن الكريم، الأنعام (٦)، الآية [١٠٤].

٣ القرآن الكريم، آل عمران (٣)، الآيات [٧٣ - ٧٤].

٤ البخاري، الجامع الصحيح للبخاري، باب: فسنيسه للعسرى [الليل، الآية: ١٠]، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ)، رقم الحديث: ٤٩٤٩، ج ٦، ص ١٧١، والنيسابوري، مسلم، الصحيح لمسلم، باب: كيفية خلق آدمي في بطن أمه، [بيروت، دار إحياء التراث العربي، رقم الحديث: ٢٦٤٧، ج ٤، ص ٢٠٤٠.

*** والجواب:** قال الشيخ القرضاوي: وهذا مُسَلَّمٌ به، ولا نُشَكِّكُ فيه، ولكن التشكيك في دلالة الأحاديث لا في ثبوتها، فهل هي تعني هذا الصورة الفوتوغرافي أو الضوئي؟ أو أن هذا التصوير إنما هو عكس للصورة على الورق كما تَعَكِّسُ الصورة في المرآة؟ ولذلك نجد أهل الخليج يسمون التصوير عكسًا، والمصوّر عُكَّاسًا، والصور عُكُوسًا.

والأحاديث قد عُلِّقَت التحريم بأن المصوّر يضاهي خلق الله عزّ وجلّ، وهنا لا مضاهاة، بل هو خلق الله نفسه، والذي في التلفاز ليس صورة مضاهية، بل هي خلق الله ذاته.¹ على كلّ حال، لم تكن المناقشة مجديّة مع الشيخ عبد المحسن، فهو متمسك برأيه، لا يتنازل عنه، ولا يفرط فيه.

ورغم هذا أن التليفزيون إنما هو وسيلة، يمكن أن تستخدم في الخير، كما تستخدم في الشرّ، والوسائل إنما يحكم لها بحكم مقاصدها، مثل السيف أو البندقية، فهي في يد المجاهد أداة خير، ووسيلة للدفاع عن الحقّ، وهي في يد قاطع الطريق أداة شرّ وإفساد في الأرض، فلا نقول: البندقية حلال أو حرام، إنما حكمها بحسب ما تستعمل فيه. والتليفزيون كذلك مثل غيره من الصحافة والإذاعة والمطبعة، يستطيع المسلم أن يستفيد من خيرها، ويحذّر من شرّها، وهنا دور التربية والتوجيه. وقد عمّت البلوى بهذه الأدوات، فلم يعد من الممكن منعها إلا بضغط وإكراه، وفي هذه الحالة تكون مرغوبة، كما يقال في المقولة: "أحبّ شيء إلى الإنسان ما منعنا." أو "الإنسان حريص ممّا مُنِع."

*** مناقشة في قضية التصوير والفوتوغرافي بين القرضاوي وناصر الدين الألباني:**

*** الجواب:** أباح الشيخ يوسف القرضاوي التصوير والفوتوغرافي، كما أباحه العلامة الشيخ محمّد نجيت المطيعي، وغيره من العلماء. ولكنّ الشيخ ناصر الدين الألباني يُحَرِّمُهُ تحريمًا قاطعًا. الذي أصرّ على رأيه، ولم يتزحزح قيد شعرة.

وقد ذكر القرضاوي الأحاديث الصحيحة دليلا في هذه القضية التي استثنت من الصور "ما كان رَقْمًا في الثوب" وبيان العلة في التصوير: أنّه "مضاهاة خلق الله"، وهذا التصوير لا يضاهي خلق الله، بل هو خلق الله نفسه، انعكس على الورق كما تنعكس الصورة في المرآة، ولا غرو أن يُسَمِّيَهُ أهل الخليج: "عكسًا" ويسمّوه المصوّر: "العكاس" والصور: "العكوس".

وذهب الشيخ أبو الحسن علي الندوي إلى عدم جواز التصوير والفوتوغرافي عمومًا، وإن سمح الشيخ الندوي لأول مرّة للمصوّرين لأن يحضروا، ويلتقطوا الصور للحفل وللضيوف، وللمتكلمين، الذي انعقد في السنة ١٩٧٥م بمناسبة مرور خمسة وثمانين عامًا على تأسيس ندوة العلماء بالهند. وقال الشيخ: إن علماء الهند لا يجيزون التصوير،² ولكنّ لأجل خاطر إخواننا من علماء العرب سمحنا بالتصوير، نزولا على رأيهم في إباحته.

*** مناقشة بين الشيخ القرضاوي وبين المشايخ السعوديّة حول بعض مسائل الحجّ:**

وكان بينه وبين الإخوة من مشايخ السعوديّة جدل لا ينقع حول بعض مسائل الحجّ، فهو من دعاة التيسير عمومًا، وفي مسائل الحجّ خصوصًا، ولا سيّما في هذه السنين التي يشتدّ فيها الرّحام في موسم الحجّ، حتّى ليلبغ الحجاج مليونين أو في بعض السنين. وهذا يقضي منا التيسير على عباد الله، ورفع الحرج عنهم، فما جعل الله في هذا الدين من حرج، وقد سئل النبي صلّى الله عليه وسلّم في حجّة الوداع عن الوداع من أمور كثيرة مما يتصل بالحجّ، فما سئل عن أمر قدم ولا أحر، إلا قال: "افعل، ولا حرج".

١ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، فتاوى معاصرة، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الثالثة، ٢٠٠٢م)، ج ٨، ص ٢١٩

٢ المرجع السابق، ص ٢٢٠

وهذا الرَّحَامُ الهائل هو الذي حَفَرَ الملك فيصل بن عبد العزيز رحمه الله: أن يتنازل هو ومن حوله عن الحجّ في أحدِ الأعوام، مخالفاً سنة من سبقوه، ليؤثر الحجاج الوافدين، وليكون قدوة لغيره من أهل المملكة. وكان من أهمّ النقاط التي احتدّ فيها الجدل: مسأل الرمي قبل الزوال، والشيخ القرضاوي أفقّى بمشروعِيته، وقد أفقّى بذلك من فقهاء التابعين عطاء وطاوس، كما أفقّى بذلك أبو جعفر الباقر من أئمّة آل البيت. وأفقّى بذلك بعض علماء الشافعية المتأخّرين. وأفقّى به من المعاصرين الشيخ عبد الله بن زيد المحمود في قطر، والشيخ مصطفى الزرقا من سوريا.

وهذا ما دفعه أخيراً إلى أن يخرج حول الحجّ بعنوان: "مائة سؤال عن الحجّ والعمرة والأضحية"، ضمّنَه ما يراه من زُخَصٍ وتيسيرات في أمر الحجّ، مثل: التّفَرُّ من عرفة قبل الغروب، كما هو مذهب الشافعية، والبقاء في مزدلفة بمقدار الصلاة والتقاط الحُصَى، ورمي جمرة العقبة من بعد مُنتَصَفِ ليلة العيد، وعدم المميّتِ بمنى لمن لم يشقّ عليه ذلك، ورمي الجمار قبل الزوال في الأيام كلّها.^١ وهو ما أصبح كثيرون من العلماء يميلون إليه ويفتخون به، ممن كانوا يعارضونه. وإنما أَلْجَأَهُمْ إليه ما لمسوه من ضرورات الناس وحاجاتهم. والضرورات تبيح المحظورات، فكيف بأمر أجازها بعض الفقهاء في غير ضرورة ولا حاجة؟! ولكن ممّا يُؤسّفُ له: أن كتاب الشيخ القرضاوي لم يُفَسِّحْ له، ليدخل السعودية، فهو من الممنوعات! وهذه الواقعة انعقدت وفي حجّ هذا الموسم سنة ١٣٩٣هـ (١٩٧٣م) - (١٩٧٤م).

وفي حجّ هذا الموسم قد كان ألقى الشيخ القرضاوي محاضرة في بعض المخيمات في منى، وبعد المحاضرة والإجابة عن الأسئلة بعدها: لقيه شابٌ مصريّ يتوقّد ذكاءً وحماسةً، وقدم له نفسه قائلاً: أنا عصام العريان، طالب بكلية الطب جامعة القاهرة.

* السؤال: ما أسرار في تقبيل الحجر الأسود في الحجّ؟

* الجواب: الحجر الأسود الواقع في رُكْنِ الكعبة المشرفة الذي وضع الرسول صلّى الله عليه وسلّم بيدي المباركين في مكانه. والذي يُقبَلُهُ المسلم كأنما يقبَل شفتي حبيب بعد شوق وغياب طويل، وهو يقبَله ويقول ما قال عمر رضي الله عنه: إني أقبلك وأنا أعلم أنك حجر لا تضرّ ولا تنفع، ولولا أني رأى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقبلك ما قبّلتك. هذا هو اعتقاد كلّ مسلم.

والذين لا يدركون سرّ هذه اللغة الرموزيّة ولا يتذوّقونها يتوهّمون أن المسلمين يعبدون الحجر أو يقدّسونه، والمسلمون أبعد أمم الأرض عن تقديس الأحجار. وقد قام دينهم على التوحيد الخالص: إفراد الله بالعبادة والاستعانة، حيث يقولون في كلّ ركعة في صلواتهم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [٥].^٢ وعدا ذلك يدعو الطائف بما شاء من الأدعية ويتعبّد بما شاء من الأذكار وتلاوة القرآن.

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، مئة سؤال عن الحجّ والعمرة والأضحية، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الثالثة، ١٩٨٥م)، ص ٤٨

٢ القرآن الكريم، الفاتحة (١)، الآية [٥].

موقف الأستاذ الشيخ القرضاوي عن الحب والشوق والحنين إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

كل مَنْ زار إلى روضة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الواقعة في داخل مسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة، وكان يصلّي هناك. وإنها الحب والشوق والحنين إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كأنما هو حيّ، وكأنما سنراه وجهًا لوجه، كأننا سنصافحه بأيدينا، وشيء من هذا لا يحدث قطعًا، فرسول الله عليه وسلم ميّت، ولا نستطيع أن نراه ولا أن نصافحه. وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [٣٠].^١ وقال تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ [٣٤].^٢ وقال تعالى أيضًا: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ [١٤٤].^٣

ولكن عاطفة الحب لا تعترف بهذه الحواجز الماديّة بين المحبّ والحبيب، بل لا تعتبر الموت حائلًا بين الحبيب وحبيبه، وقد يغلو بعضهم في هذا الجانب حتى زعموا أن أحد الصالحين، وقف عند القبر النبويّ، وأنشد بيتين من الشعر، يجيي بهما رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمدّ الرسول الكريم إليه يديه من قبره يصافحه والآلاف ينظرون ضللك!

وهذه - بلا ريب - من أوهام المحبّين، وتماويل العاطفيّين، وشطحات المتصوّفين، ولو جاز أن يحدث هذا الحدث لكبار الصحابة مثل: أبي بكر، وعمر، ونسائه أمهات المؤمنين، ولآل بيته: عليّ، وفاطمة أحبّ الناس إليه، وسبطيّه الحسن والحسين، رضي الله عن الجميع. ولا ريب أن شيئًا من ذلك لم يحدث لأحد منهم. فكيف يمكن أن يحدثه لغيرهم؟

* السؤال: هل يجوز رمي الجمار قبل الزوال؟

* الجواب: أجاز الشيخ عبد الله بن زيد المحمود "رمي الجمار قبل الزوال". في كتاب حول فقه الحجّ، وسمّاها "يسر الإسلام". وأقام على رأيه أدلّة قويّة، أنه لا يوجد دليل ينهى عن الرمي قبل الزوال، وأن الرمي أمر يتمّ بعد التحلّل النهائيّ من الحجّ، وأن الإنابة فيه تجوز، وأنه - عند الحنابلة - لو أحرّ الرمي كلّه إلى اليوم الأخير لأجزاه ... وأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما سئل عن شيء قدم أو أحرّ يوم النحر، إلا قال: افعل ولا حرج. وأن رفع الحرج مطلوب الآن أشدّ من أيّ وقت مضى؛ فالناس يموتون تحت الأقدام، وأن طاووسًا وعطاء من كبار فقهاء التابعين أجازا الرمي قبل الزوال، وأن بعض المتأخرين من الشافعيّة وغيرهم أجازوه.^٤

الحقيقة أن منطلق الشيخ عبد الله بن زيد المحمود قويًّا، وقد سبق زمنه بهذه الرسالة الشجاعة، فأصبح الكثيرون الآن يفتون به، وقد تبخّي القرضاوي رأيه منذ قرأ رسالته، وردّه على علماء الرياض الذين شدّدوا غاية التشديد في القضيّة، وردّوا عليه، وشنوا عليه الغارة، وأرادوا أن يلزموه بالرجوع عن رأيه، ويبدو أنه وافقهم عندما كان هناك تحت الضغط، فلما عاد إلى قطر، غيّر رأيه، ورأى أنه إنما يدين الله بما اتقن به، وانتهى إليه اجتهاده، وأن الله لا يكلفه أن يدع اجتهاده ليعمل باجتهاده الآخرين. وهذا من محاسن الإسلام، وإن كان المشايخ في "الرياض" قالوا عنه: أخلف وعده، ونكث عهده. وليس كذلك، بل تفسيره ما ذكر، وهو بيّن.

١ القرآن الكريم، الزمر (٣٩)، الآية [٣٠].

٢ القرآن الكريم، الأنبياء (٢١)، الآية [٣٤].

٣ القرآن الكريم، آل عمران (٣)، الآية [١٤٤].

٤ برنامج "الشريعة والحياة" من قِبَل "قناة الجزيرة" (وهي "قناة فضائية قطريّة" التي أسست في شهر يوليو (تمّوز)، الموافق سنة ١٩٧٠م)، من حلقات حول مسائل الحج

والعمرة من الأستاذ الشيخ يوسف القرضاوي، سنة ٢٠٠٤م

٥ ألفقرضاوي، يوسف بن عبد الله، مئة سؤال عن الحج والعمرة والأضحى، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الثالثة، ١٩٨٥م)، ص ٥٥

* السؤال: كان تعليم البنات في سنة ١٩٥٤م محدودًا جدًّا في قطر، فقد قامت معركة جدلية بين المشايخ في تعليم

البنات، وإلى أي حدٍّ يجوز لها أن تتعلم؟

* الجواب: كان بعضهم يُجَبِّدُ أن تتعلم البنت كما يتعلم شقيقها الابن. فطلب العلم فريضة على كلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ. كما روي

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ». ^١ وبعضهم يقول: يكفيها التعلُّمُ الابتدائيُّ، ولا حاجة إلى ما بعد ذلك، وقد قال الله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [٣٣]. ^٢

* موقف القرضاوي في القضايا التالية:

قضية تعليم المرأة:

ظَلَّتْ هذه المعركة محتدمة، ولم تَحْسَمْ إلا قبيل قدومه (القرضاوي) إلى قطر، وقد حَسَمَ في صالح التوسُّع في تعليم المرأة. ومن الغريب أن الشيخ عبد الله بن زيد المحمود، صاحب الفتاوى الجريئة في الحجِّ وغيره، كان من أنصار التضييق والتشديد في تعليم المرأة. وكان الشيخان: ابن تركي، والأنصاري، من القائلين بإتاحة الفرصة للفتاة لتتعلَّم كلَّ علم نافع تريده وتقدر عليه.

وقد عاش القرضاوي في قطر حتَّى رأى الشيخ عبد الله بن زيد، يكتب إلى مدير جامعة قطر - الأستاذ الدكتور إبراهيم كاظم رحمه الله - يستغرب منه كيف توضع الشروط والعقبات في سبيل تعليم الفتاة، ويطلب بأن تفتح الجامعة أبوابها على مَصَارِعِهَا لكلِّ فتاة ترغب في استكمال تعليمها. أبدع الشيخ القرضاوي المعهد الديني في قطر - على حَدَاثَةِ سِنِّهِ وعلى صغر حجمه - يمثِّل نموذجًا حيًّا للجمع بين القديم والحديث، أو الأصيل والمعاصر أي العلوم الحديثة.

قال سماحة العلامة الشيخ محمد إبراهيم آل الشيخ (الذي كان المفتي الأكبر للمملكة العربية السعودية في سنة ١٩٦٣م)

للقرضاوي: ألا تعتقد أن دراسة الطالب الشرعي لهذه العلوم الحديثة يؤثِّر على مستواه الدراسي في علوم الشريعة واللغة؟

قال الأستاذ القرضاوي له: بلى، ولكننا مضطَّرون إلى ذلك، لئلا يعيش الطالب معزولاً عن عصره، وحتَّى إذا قدر له أن يشتغل بالدعوة أو بالفتوى كان عالماً بواقع من يدعوهم ويخاطبهم بلسانهم، ليبيِّن لهم، وعالماً بواقع من يفتيهم، وتعلَّم سماحتكم أن المحقِّق ابن القيم رحمه الله تعالى قال: الفقيه الحقُّ هو من يزواج بين الواجب والواقع، وقد قال ذلك في شرح ما روي عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى فيما يلزم المفتي، وهي خمس خصال، منها: معرفة الناس، وقد طوَّر الأزهر معاهدته، وأدخل فيها اللغة الإنجليزية، وتوسَّع في العلوم الحديثة، ولا يسعنا إلا أن نعيش عصرنا.

وفي الأقوال المأثورة: "رحم الله امرئًا عرف زمانه، واستقامت طريقته". ^٣

١ القزويني، ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد، *السنن*، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، (دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي)، رقم الحديث: ٢٢٤، ج ١، ص ٨١؛ [تعليق محمد فؤاد عبد الباقي: في الزوائد إسناده ضعيف لضعف حفص بن سليمان. وقال السيوطي سئل الشيخ محي الدين النووي رحمه الله تعالى عن هذا الحديث فقال انه ضعيف أي سندا. وإن كان صحيحا أي معنى. وقال تلميذه جمال الدين المزي هذا الحديث روى من طرق تبلغ رتبة الحسن. وهو كما قال. فإني رأيت له خمسين طريقا وقد جمعتهما في جزء. كلم الإمام السيوطي. [حكم الألباني: صحيح دون قوله "وواضع العلم إلى آخر الحديث" فإنه ضعيف جدا]. البيهقي، *شعب الإيمان*، باب طلب العلم "والعلم إذا أطلق علم الدين"، (مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية بومباي بالهند، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣م)، رقم الحديث: ١٥٤٦، ج ٣، ص ١٩٥

٢ القرآن الكريم، الأحزاب (٣٣)، الآية [٣٣].

٣ *القرضاوي*، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٥٠٣

قضية في أداء الحج المفروض:

عند الشيخ القرضاوي: لا ينبغي أن يؤخر، صحيح أن هناك من أئمة المذاهب الإسلامية من يقول: الحج مفروض على التراخي. ولكنه يحمل الإنسان المسؤولية لو واثته الفرصة ولم يغتنمها، ثم فقد الاستطاعة بعد ذلك، فهو يتحمل وزرها. ^١ ولذا ير الأستاذ القرضاوي أفضل من التعجيل، فقد قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْحِيَارَاتِ [٤٨]﴾. ^٢ وقال سبحانه وتعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ [٢١]﴾. ^٣

وفي الحديث ما رواه ابن عباس قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَعَجَّلُوا إِلَى الْحَجِّ - يَعْنِي: الْفَرِيضَةَ - فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَا يَدْرِي مَا يَعْزُرُ لَهُ». ^٤ وفي الأمثال: "خير البر عاجله".
والشاعر يقول: "وانتهز الفرصة، إن الفرصة تصير - إن لم تنتهزها - عُصَّةً".

* السؤال: هل الأنبياء عليهم السلام حيي حياة حسية في رياضتهم أو مقابهم أم لا؟

* الجواب: نعم، الأنبياء عليهم السلام حيي حياة حسية في رياضتهم أو مقابهم بدليل قوله تعالى، ألم يقل الله عز وجل في القرآن المجيد: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ [١٦٩]﴾. ^٥ فإذا كان الشهداء أحياء عند ربهم، أفلا يكون الأنبياء أحياء، فما بالك بسيد الرسل وإمام الأنبياء؟

قال الشيخ الأستاذ يوسف القرضاوي: إنه ليس شعوري وحدي، إنه شعور كل المؤمنين من حولي، يستحضرون رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه معهم، وليس هذا تقديسًا ولا شرًا، كما قد يتوهم بعض الجاهلدين، إنه الحب والوجد والعاطفة، وهذه لها منطقتها، ولها خطابها الخاص الذي لا يخضع لمنطق الأرقام والحساب والظاهرية. ^٦

* السؤال: هل يجوز للنساء أن يدخلن في المسعى (مكان السعي) في حالة الحائض والنفاس؟

* الجواب: في السنة التي ذهب الشيخ القرضاوي والآخرون معه لأداء الحج المفروض إلى مكة المكرمة، اكتمل بناء المسعى الجديد، وإن لم يتم "تشطيه" وتكليفه، وقد حدثهم الذين حجوا في السنة الماضية (مؤسس الحج في سنة ١٣٨٠هـ) كيف كان الناس يسعون بين المحلات التجارية، عن يمين وشمال، وبين الباعة والمشتري، والمتجولين، وقد تجدد حولك من يركب حملاً، أو يجز عريه أو نحو ذلك. على خلاف ما نرى عليه المسعى اليوم، وقد أصبح جزءاً من المسجد الحرام، وإن أفتى العلماء أنه لا يأخذ كل أحكام المسجد، فيجوز أن تدخله الحائض والنفاس.

١ ألفقرداوي، يوسف بن عبد الله، منه سؤال عن الحج والعمرة والأضحية، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الثالثة، ١٩٨٥م)، ص ٥٥

٢ القرآن الكريم، المائدة (٥)، الآية [٤٨].

٣ القرآن الكريم، الحديد (٥٧)، الآية [٢١].

٤ الشيباني، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، [محقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون]، (بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م)، رقم الحديث: ٢٨٦٧، ج ٥، ص ٥٨

٥ القرآن الكريم، آل عمران (٣)، الآية [١٦٩].

٦ ألفقرداوي، يوسف بن عبد الله، فتاوى معاصرة، (القاهرة، دار القلم، الطبعة: الأولى، ١٩٨٩م)، ج ١، ص ٤٠

*** السؤال:** هل يجوز المبالغة في شراء الهدايا ليهدوا منها الحجاج أقاربهم وأصدقاءهم في موسم الحج بعد عودتهم إلى بلادهم؟

*** الجواب:** يجوز شراء الهدايا ليهدوا الحجاج أقاربهم وأصدقاءهم منها في موسم الحج بعد عودتهم إلى بلادهم على الإطلاق. ولكن بعض الحجاج يبالغون في شراء هذه الهدايا حتى ترهقهم عُسرًا. وبعض الناس يتأخر عن الحج؛ لأنه يقدر على تكاليف الحج، ولا يقدر على هذه الهدايا، وهذا ليس بعُدٍ شرعًا، فمن تأخر عن الحج وضاعت عليه الفرصة بسبب ذلك فهو آثم.

*** السؤال:** هل يجوز استخدام المِسْبَحَةِ أم لا؟

*** الجواب:** الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي شخصيًا لا يستعمل المِسْبَحَةَ، فهو يسبح يمينه ويعدّ بها، ويكتفي بذلك، وإن كان لا يمنع المِسْبَحَةَ. ولا يعتبرها بدعة. فبعض الناس يستعين بها على ختام الصلوات، وعلى التسايح التي تحتاج إلى عد، كالعشرة والمائة.^١ وبعض الناس يتخذها زينة، كالحاتم في الأصبع، وهؤلاء يتباهون بها، ويحرصون على أن تكون من النوع الثمن. وقال بعضهم: المسابح ثلاثة: مِسْبَحَةٌ، ومروحة، ومقبحة. فَالْمِسْبَحَةُ: ما أعان على العبادة، والمروحة: ما كان للتلهي، والمقبحة: ما حمل للرياء.

*** السؤال:** هل يجوز زواج غير المسلم مسلمةً أو كتابيًا؟

*** الجواب:** لا يجوز أن يتزوج غير المسلم مسلمةً أو كتابيًا، وهذا الرّوَاج باطل في نظر الإسلام، فإن المسلمة لا يجوز ابتداءً أن تتزوج غير المسلم، ولو كان كتابيًا، حيث قال الله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ [١٠]﴾.^٢

*** اختلاف العلماء في مسألة بقاء المرأة مع زوجها الكتابي:**

الدكتور حسن الترابي قد أثار زَوْجَةَ في المؤتمر المنعقد في سنة ١٩٧٦م، الذي قام به اتحاد وفد الطلبة المسلمين بأمريكا. عندما أشار إلى جَوَازِ أن تبقى المرأة مع زوجها الكتابي، إذا أسلمت هي وبقي هو على دينه. قامت القيامة عليه، وَرَدَّ عليه العلماء الشرعيون الحضور في المؤتمر، ومنهم: القاضي يحيى الفسيل، وكان الشيخ القرضاوي ممن رَدَّ عليه أيضًا. وكان يظن أن في هذه المسألة إجماعًا يجب يحترم، ولا يخترق. وبعد نحو ربع قرن من الزمان: ثارت القضية من جديدة في "المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث" وتبيّن له أن المسألة التي كان يظنها إجماعية - وهي التفريق بين المرأة وزوجها إذا أسلمت، وبقي هو دينه - فيها "تسعة أقوال" ذكرها الإمام ابن القيم في كتابيه: "أحكام أهل الذمة" منها عن عمر وعلي رضي الله عنهم في جَوَازِ بقائها مع زوجها، وعدم فسخ النكاح الأول. كما نقل عن بعض السلف: أنهما على نكاحهما ما لم يُفَرَّقْ بينهما سلطان، أي ما لم تُحْكَمْ مَحْكَمَةً قَضَائِيَّةً بوجوب التفريق بينهما.^٣

وقد أعدّ في المجلس الأوروبي: الشيخ عبد الله الجديع؛ بحثًا مُعَمَّمًا مفصلاً ومدللاً، ومستمدًا من كتب الأحاديث والآثار، وجد فيه ثلاثة عشر قولاً في الموضوع، ورجح بالأدلة جَوَازَ بقاء المرأة مع زوجها الكتابي ولو لم يسلم. وهكذا يتطوّر الفقه، وتتغير الفتوى بتغيير المعلومات، والعتور على أدلة لم تكن معروفة للشيخ القرضاوي وغيرهم من قبل. وَسَجِبُوا اتّهامهم للدكتور حسن الترابي بأنه خرّق الإجماع وخالف النصوص، وإن كان هو حين عرض رأيه، لم يؤيده بقول أحد، كما أن قوله أوهم أنه يجوز أن تتزوج المسلمة كتابيًا ابتداءً، وهو ما لا يجيزه أحد، وما نفاه هو أيضًا.

١ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، *الحواي في الفتاوى*، بعنوان: "المنحة في حكم المسيحية، يجيز فيها استخدام المسيحية، ويردّ على من قال ببدعيتها.

٢ القرآن الكريم، الممتحنة (٦٠)، الآية [١٠].

٣ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *الأقليات الدينية وحلّ الإسلام*، (القاهرة - مكتبة دار الشروق، الطبعة: الثانية، ١٩٩٠م)، ص ٤٣

* في قضية حكم "بنوك الحليب أو اللبن":

بدأ الشيخ القرضاوي المشاركة في المنظمة منذ ندوتها الأولى في الكويت: الإنجاب في ضوء الإسلام، وقد طلب منه أن يكتب عن "بنوك الحليب أو اللبن" التي تجمع كميات كبيرة من اللبن، من أمهات لا يعرف من هنّ.

* الأسئلة: فهل يترتب على ذلك تناول الحليب ما يترتب من أحكام الرضاع من تحريم؟ وكيف هو لا يعرف من أرضعته أو

شاركت في إرضاعه من النساء؟ وهل يترتب عليه أن تحريم عليه الزواج من بنات المرضعات كلهن؟ وفي ذلك من الحرج ما فيه؟

* الأجوبة: أفنى بذلك أكثر العلماء المشاركين في الندوة، أخذاً بالاحتياط، وعملاً بمقتضى الورع، ولكن الشيخ القرضاوي رجح

في بحثه رأياً آخر، أجاز فيه ما تقوم به هذه البنوك، ولم يترتب عليه ما رتبّه الآخرون من آثار تحريم الزواج ونحوه.

حُجَجُهُ: أولاً: الرضاعة الحقيقية في اللغة التي نزل بها القرآن، وجاء بها الحديث: امتصاص اللبن من الثدي عن طريق الفم، وهذا له

إبناؤه وأثره في تحقيق الأئمة، التي هي أساس التحريم في الرضاع، حيث قال الله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ [٢٣].^١ وأما ما كان عن طريق الشرب من كأس أو فنجان أو الحنّ أو غير ذلك فلا يعتبر رضاعاً شرعياً عنه الأئمة، وهذا كذهب الليث بن سعد، ومذهب الظاهرية، ورواية عن الإمام أحمد.

ثانياً: أن الحديث الصحيح يقول: "خمس رضعات مشبعات معلومات يجرمن". كما في حديث عائشة رضي الله عنها قالت:

«كَانَ فِيْمَا أُنزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ: عَشْرُ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يُجْرَمْنَ، ثُمَّ نُسِخْنَ، بِخَمْسِ مَعْلُومَاتٍ، فَتُوِّبِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهِنَّ فِيْمَا يُقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ».^٢

شرح محمد فؤاد عبد الباقي: (وهن فيما يقرأ) معناه أن النسخ بخمس رضعات تأخر إنزاله جدا حتى إنه صلى الله عليه وسلم توفي

وبعض الناس يقرأ خمس رضعات ويجعلها قرآناً متلوا لكونه لم يبلغه النسخ لقرب عهده فلما بلغهم النسخ بعد ذلك رجعوا عن ذلك وأجمعوا على أن هذا لا يتلى والنسخ ثلاثة أنواع أحدها ما نسخ حكمه وتلاوته كعشر رضعات والثاني ما نسخت تلاوته دون حكمه كخمس رضعات وكالشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما والثالث ما نسخ حكمه وبقيت تلاوته وهذا هو الأكثر ومنه قوله تعالى والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم الآية. ومعنى "معلومات" في الحديث المذكور: أن تكون المرضعة معلومة، وسبب الرضاع معلوم، وهو ما دون الحولين، وعدد الرضعات معلوماً، وهو ما لا يقل عن خمس، إلخ. وهنا لا يعلم من أرضعته، ولا كم أخذ من لبنها: أهو قطرة أم قطرات أم أكثر.

ثالثاً: أن اختلاط اللبن بعضه ببعض لم يجعل له حكماً مؤثراً.

ورابعاً: أن القوم المحرم إذا أخذ بالأحوط، فإن هذا الرأي يأخذ بالأيسر، ويعتقد الشيخ القرضاوي أنه إذا تعارض الأحوط والأيسر في

مثل هذه الأمور التي تتعلق بمطالب المجتمع، وحاجات الناس، ومصالح الخلق، فإن الترجيح يكون للأيسر، كما جاء في حق نبينا صلى الله عليه وسلم عن مسلم: أنه ما خيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً. وهذا هو منهج الشيخ القرضاوي الذي اختاره في فقهه وفي فتاواه: ترجيح الأيسر على الأحوط، إذا تكافأ القولان أو تقاربا. وهو ما أيده فيه الطبيب الدكتور العالم الباحث الأديب الأستاذ الدكتور حسان حتوت.^٣

١ القرآن الكريم، النساء (٤)، الآية [٢٣].

٢ النيسابوري، مسلم، الصحيح لمسلم، باب التحريم بخمس رضعات، (بيروت، دار إحياء التراث العربي)، رقم الحديث: ١٤٥٢، ج ٢، ص ١٠٧٥

٣ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، فتاوى معاصرة، (القاهرة - مكتبة دار الشروق، الطبعة: الثانية، ١٩٩٠م)، ج ٢، ص ١٧٧

* السؤال: ما حكم إجهاض حمل المُغتصبات من الصُّلبِ أو غيرهم؟

* الجواب: وكان أخطر الأسئلة التي وُجِّهَ إلى الشيخ القرضاوي في أثناء مؤتمر مُناصرة البوسنة والهرسك في السنة ١٩٩١م: سؤال من الأخوات المسلمات اللاتي اعتدى على أعراضهن قهراً، واغتصبن اغتصاباً تحت إكراه السلاح، وكان الصليبيون المتوحشون، يفعلون ذلك انتقاماً وإذلالاً للمسلمين والمسلمات، وقد حمل من هذا الاغتصاب عدد منهن، وهنّ يكرهن هذا الحمل في بطونهنّ من أعدائهنّ وأعداء دينهنّ، ويردن التخلص منه بالإجهاض، ولا يردن ولدًا يحمل هذه الذكرى السيئة والمريرة.

وكانت خلاصة الفتوى: أن هؤلاء الأخوات الممتحنات لا ذنب عليهنّ إطلاقاً في هذه البلوى، ولا يجوز لمسلم ولا لمواطن أن يوجّه إليهنّ أيّ إساءة بالعارة ولا بالإشارة، لأنهنّ فعلن ما فعلن تحت سيف الإكراه، والمكره معذور بالإجماع، وقد أحاز الإسلام للمكره أن ينطق كلمة الكفر، كما قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [١٠٦]﴾^١. وقال تعالى عن المكرهات على البغاء: ﴿وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ [٣٣]﴾^٢.

وعلى الإخوة البوسنيين أن يتقدّموا للزواج منهن، وعلى المجتمع أن يحتضن مواليدهنّ إذا ولدوا، ويربيهم الإسلام، وقد ولدوا على الفطرة، ولا يحملون وزر آبائهم، ولعلّ الله يخرج منهم ذريّة صالحة تحدم الإسلام. وأزاد الشيخ القرضاوي هنا: أن مَنْ لم يبلغ حملها الأربعين يوماً فيمكنها أن تجهضه، كما هو رأي جماعة من الفقهاء، بل أحاز بعضهم الإجهاض في مثل هذه الحالة إذا لم يبلغ الحمل مائة وعشرين يوماً، وهي التي جاء فيها الحديث الصحيح: «أنه ينفخ فيه الروح»^٣.

* مناقشة: نقاش القرضاوي مع الإمام موسى الصدر^٤ حول الشهادة الثالثة في الأذان

كان مما تذاكرا فيه مع موسى الصدر: الأشياء الصارخة مثل: الشهادة الثالثة المُرَوَّجَةُ بين الشَّيْعِيِّينَ في الأذان: "وأشهد أن علياً أمير المؤمنين ولي الله.

* الجواب: فمن المؤكّد: أن هذه الشهادة لم تكن من جملة الأذان على عهد الرسول صلى الله عليه وسلّم، ولا على عهد الخلفاء الراشدين المهديين، حتى في عهد عليّ رضي الله وكرّم الله وجهه. وقد أقرّ الإمام موسى الصدر مع الشيخ القرضاوي على ذلك، وقال: إن هذا هو المعروف عند علمائنا، ولكن هناك أموراً تصطدم بعواطف العامة، وتحتاج معالجتها إلى الرفق والأناة والحكمة.

ومما تناقشا فيه: "الحصاة" التي يضعها الشيعة في قلوبهم عند كل صلاة، وَيَتَحَرَّوْنَ السجود عليها، ويشيع أنها من "طينة كربلاء". وفي هذا رائحة تقديس للحجارة والحصى، وهو من رشحات الوثنية التي يرفضها الإسلام، وَيَسُدُّ الذرائع إليها.

* وكان من جوابه: أن تحرى وجود هذه الحصاة أو الطوبية ونحوها في موضع السجود: مبني على حكم شرعيّ عند الشيعة من أحكام الصلاة، وهو أن السجود لا يجوز إلا أن يكون على الأرض أو شيء من جنسها، فلا يجوز السجود على منسوج كالسجاجيد، أو ملبوس كالتياب. ونظراً لأن معظم المساجد اليوم مفروشة بالسجاد "أو الموكيت" ونحوها، يجتهد الشيعة في حمل الحصاة معهم، ليسجدوا عليها، وليس من اللازم أن تكون من كربلاء ولا من غيرها.

١ القرآن الكريم، النحل (١٦)، الآية [١٠٦].

٢ القرآن الكريم، النور (٢٤)، الآية [٣٣].

٣ أَلْقُرْآوِي، يوسف بن عبد الله، فتاوى معاصرة، الفصل: قضية الإجهاض، (نشر دار القلم، الطبعة: الخامسة، ١٩٩٢م)، ج ٣، ص ٦٠٩.

٤ هو كان رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في لبنان في سنة ١٩٦٥م.

* حكم رفض الشكوى إلى أحد:

ليس الشيخ القرضاوي مع بعض المتصوفة الذي يرفضون الشكوى إلى أحد، ولو كانت إلى الله! ويقول بعضهم: علمه بحالي يعني عن سؤالي! ويقول شاعرهم:

كيف أشكو إلى طيبي ما بي والذي قد أصابني من طيبي؟

وقيل لبعضهم: ألا نأتي لك بطبيب؟ قال: الطبيب هو الذي أمرضني!

* ورأي الشيخ القرضاوي:

أن تلك حالات خاصة يغلب على أصحابها وجدان معين يقع تحت تأثيره؟ ويفقد بذلك السيطرة على نفسه، فهو أشبه بالمكره في هذه الحالة، ومثله لا يقتدي به، ولا يؤخذ من تصرفه حكم شرعي. إنما العمدة هنا القرآن والسنة. وقد رأينا أن يعقوب أيوب عليهما السلام يشكوان إلى الله تعالى، وهما من هما في أنبياء الله، قال الله تعالى عن يعقوب عليه السلام: ﴿وَأذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ [٤٥]﴾ ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ [٤٦]﴾ ﴿وَأْتَهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ [٤٧]﴾^١. وقال عن أيوب عليه السلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ [٤٤]﴾^٢.

* في قضية تسمية المسجد الأقصى وما حوله بـ"الحرم القدس"

إخواننا الفلسطينيون يسمون المسجد الأقصى وما حوله: "الحرم القدس" تقليدًا للحرم المكي، والحرم المدني؛ ولهذا يقولون عن المسجد الأقصى: أولى القبلتين، وثالث الحرمين.

ولكن من المعلوم: أنه لا يوجد إلا حرمان فقط، الأول: حرمة الله تعالى، وهو حرم مكة، والثاني: حرمة رسوله، وهو حرم المدينة، ولا يوجد حرم ثالث بعدهما. ولهذا نرى الأولى أن يقال عن الأقصى: أولى القبلتين، وثالث المسجدين العظيمين، وهما المسجد الحرام، والمسجد النبوي، فقد صحَّ الحديث: أن هذه المساجد الثلاثة هي التي لا تُشَدُّ الرحال إلا إليها، كما روى ذلك أبو سعيد الخدري رضي الله عنه.

كما يسمون أهل "مدينة الخليل" "مسجد الخليل إبراهيم" بـ "الحرم الإبراهيمي!" وقد رأينا أنه لا يجوز أن نقول: "الحرم القدسي" مع ما ورد في القدس ومسجدها الأقصى من نصوص شرعية، فكيف يجوز أن نقول: الحرم الإبراهيمي؟

ورأيت أنا (الباحث) أن بعض الناس يقولون عند مسجد الحسين في القاهرة وما حولها: الحرم الحسيني، وعن مسجد السيدة زينب وما حولها: الحرم الزينبي، حينما كنت طالبًا لل بكالوريوس من جامعة الأزهر في جمهورية مصر العربية (من سنة ٢٠٠٦م - ٢٠١٠م). وهذا توسع في استخدام كلمة "الحرم"، وهي لها مدلول ديني معين لا ينبغي التوسع فيه، إلا أن يكون المقصود بكلمة "الحرم": المعنى اللغوي للكلمة، فيقال: حرم الشيء وحرمة: ما يحيط به ويتصل به، ولهذا غداً من الكلمات الشائعة في المحيط الجامعي أن يقال: "الحرم الجامعي" ويقصد به الكليات الجامعية وما يتصل بها من إدارات مراكز ومسكن وغيرها. ولكن يلاحظ: أن استعمال الكلمة في هذا المجال لا يوحي بأي مدلول ديني خاص.

١ القرآن الكريم، ص (٣٨)، الآيات [٤٥ - ٤٧].

٢ القرآن الكريم، ص (٣٨)، الآية [٤٤].

* في قضية "إن شاء الله"

* الجواب:

على مذهب الحنفية: أن من ذكر شيئاً ثم قال: إن شاء الله، لم يلزمه شيء بالحِنْث؛ لأن "إن شاء الله" إبطال لليمين عند الإمام محمد رحمه الله، وشرط لا يوقف عليه عند الإمام أبي يوسف رحمه الله.

* في قضية "قول للميت" المرحوم أو المغفور له أو غيرهما"

الواقعة السائرة بين مجتمعاتنا نقول للميت "المرحوم أو المغفور له أو غيرهما" كما كانت الشَّعَارَاتُ والنداءات: إلى جنة الخلد يا شهيد الإسلام، إلى جنة الخلد يا صاحب "الظلال". لـ "الأستاذ سيّد محمد قطب بعد تنفيذ إعدامه.

ربما اعترض بعض السلفيين على مثل قول هذه الأقوال، فإن أحداً لا يستطيع أن يجزّم بمصير أحد، إلا بُشِّرَ رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وسلّم بأنه في الجنة، وقد أنكر الرسول الكريم على أم العلاء الأنصاريّة، حين قالت لعثمان بن مظعون - بعد موته - وقد كان من السابقين الأولين الذين أودوا في سبيل الإسلام: أشهد عليك أبا السائب، لقد أكرمك الله! فقال: "من هذه المتألية على الله؟" «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَكْرَمَهُ؟» وَاللَّهِ مَا أَدْرِي، وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ، مَا يُفْعَلُ بِي. وبهذا زَجَرَهَا عن العزم بمصاير البشر، ولا يدري أحد بما ختم له؟

* الجواب:

عند الأستاذ القرضاوي: ولكن الذين يقولون مثل هذه الأقوال، لا يقولونها على سبيل الجزم واليقين، ولكن من باب التفاؤل، وتحسين الظنّ بالله تعالى، وبالمسلم المستور الحال، أو الظاهر الصالح؛ لهذا جرت عادة الناس أن يقولوا: المرحوم فلان، والمغفور له فلان. يعنون: المرحو له الرحمة، والموجو له المغفرة، وإن كان المتحرّون يقولون: المرحوم إن شاء الله، والمغفور إن شاء الله.

* قضية: ملاحظة الشيخ ابن محمود حول قضية تارك الصلاة في رأي القرضاوي:

ومّا جدير بالذكر بالنسبة للإذاعة في سنة ١٩٧٠م في قطر، أن الشيخ القرضاوي وجد الشيخ عبد الله بن زيد المحمود، رئيس المحاكم الشرعيّة، والعالم البَحَّاثَةُ الكبير - وقد بينه والقرضاوي ودّ عميق، واحترام متبادل - يتتبع برنامج في الإذاعة، ويستمع إليه، وفي زيارة له، قال للقرضاوي: أريد أن أجلس معك، فقال: على الرُّحْبِ والسعة. قال إني سمعت كثيراً من إجاباتك عن أسئلة السائلين، وهي مُوقَّعةٌ إلى حدّ كبير، ولكن لي ملاحظة على القضيتين المذكورتين في التالية، أرجو أن تراجعهما.

قال الشيخ القرضاوي: ليس في العلم كبير، وفوق كلّ ذي علم عليم. وكلي أذن صافية لملاحظتك، حفظك الله. وتحدّث مع الشيخ القرضاوي في كفر تارك الصلاة.

* الجواب: قضية كفر تارك الصلاة:

قال الشيخ عبد الله بن زيد المحمود: رأيتك متساهلاً فيها، والأحاديث الصحيحة تكفر تارك الصلاة، وهو المشهور عن الإمام أحمد وبعض السلف. قال الشيخ القرضاوي: يا فضيلة الشيخ، أنا لست متساهلاً في أمر تارك الصلاة، وقد ذكرته حكمه في كتابي: "العبادة في الإسلام"، ولكني أتحرى وأثبت في قضية التكفير.

وأنا مع جمهور الأئمة "أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وغيرهم" في تفسيق تارك الصلاة، لا تكفيره، إذا كان تركها على سبيل الكسل، أمّا من تركها منكرًا لفرصيتها، أو مستخفًا بأمرها، فهو كافر ولا شك.

والأحاديث التي تُكفّر تارك الصلاة مؤولة، كما أُول غيرها، حتى لا تتناقض مع أحاديث وآيات أخرى، حتى إن ابن حزم - وهو رجل ظاهري كما نعرفه - لا يكفّر تارك الصلاة، وابن قدامة الحنبلي يقول: لم ينقل في بلد من بلدان المسلمين أنهم تركوا صلاة الجنائز على تارك الصلاة، أو لم يدفنوه في مقابر المسلمين.

على أن الحنابلة أنفسهم لا يحكمون عليه بالكفر إلا بعد أن يدعوه الإمام أو القاضي إلى الصلاة، فيرفض وبأبي.

* قضية عمومية في مسألة الصلاة الفريضة:

وقال فضيلة الشيخ يوسف القرضاوي: أن الصلاة فريضة مقدّسة، أوجبها الله في الصحة والمرض والحضر والسفر، والأمن والخوف، ولم يعذر أحدًا على تركها إلا من فقد الوعي. أمّا من بقي معه عقل يفهم الخطاب، فلا عذر له في ترك الصلاة عمود الإسلام. إن شروط الصلاة وأركانها تسقط بالعجز عنها، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، أما الصلاة نفسها فلا بدّ منها، من لم يستطع الوضوء أو الغسل صلّى بالتيمّم، ومن يستطع التيمّم صلّى فاقد الطهورين، ومن لم يقدر على التوجّه إلى القبلة، صلّى إلى أيّ جهة قدر عليها، ومن لم يقدر أن يصلّي قائمًا صلّى قاعدًا، ومن لم يستطع الصلاة قاعدًا، صلّى مُضْطَجِعًا على جنبه، أو مُسْتَلْقِيًا على ظهره، مُؤَمِّيًا برأسه، أو مشيرًا بحاجبيه، قارئًا بلسانه إن قدر، أو مستحضرًا القراءة والأذكار بقلبه.

في حالة الحرب: أمرنا الله بالصلاة مُشاة أو راكبين، ولا تؤخّر الصلاة، كما قال الله تعالى في تنزيل محكمه: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [٢٣٨] ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [٢٣٩].^١

ومعنى "رجالاً": أي راجلين، مُشاة على أرجلكم، ومعنى "ركباناً": راكبين فوق خيولكم أو دباباتكم في البرّ، أو غواصاتكم في البحر، أو طائراتكم في الجوّ ... صلّوا حيثما كنتم وكيفما استطعتم.

* قضية الجمع بين الصلاتين أي الظهر والعصر أو بين المغرب والعشاء:

انعقدت هذه الحكاية في أمريكا حينما سافر الشيخ القرضاوي لزيارة "اتحاد الطلبة المسلمين بأمريكا" في سنة ١٩٧٥م، وعقدت طلبة "الاتحاد" المؤتمر. وكان الإخوة قد اعتادوا في مؤتمراتهم: أن يصلّوا كلّ الصلاة في وقتها، مع أن ٩٩% من المشاركين مسافرين، وكان الإعداد للصلاة يأخذ من الإخوة جهدًا ووقتًا ليس بالقليل، فالمنطقة التي تقام فيه الصلاة مشغولة في العادة بأشياء، فلا بدّ أن تُفرغ من كلّ ما فيها من نشاط، وأن تُقرش، ويَطْوَى القُرْش بعد الصلاة.

فقال الشيخ القرضاوي للإخوة: لماذا لا نأخذ بِرُخْصَةِ الجمع بين الصلاتين، ونحن في هذا المؤتمر أَحْوج ما نكون إليها، لاندحام الوقت بالنشاط المكثّف، ولأن أداء كلّ صلاة في وقتها يُرْهِقُنَا من أمرنا عُسرًا. قالوا: إن إخواننا من الهند وباكستان يَرُفُضُونَ الجمع؛ لأنهم أحناف، والمذهبُ الحنفيّ - كما تعلم - لا يُجِيزُ الجمع إلا في عرفة ومزدلفة في الحجّ.^٢

قال الشيخ القرضاوي لهم: أن يقلّدوا غير مذهبهم في هذه القضية، ولا سيّما أن القول فيها أرجح، والحاجة إليه ماسّة، والله يحبّ أن تؤتّى رُخصة، ولا داعي للتعصّب المذهبيّ، والتعسير على سائر الإخوة

١ القرآن الكريم، البقرة (٢)، الآيتان [٢٣٨-٢٣٩].

٢ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، فتاوى معاصرة، (القاهرة، دار القلم، الطبعة: الأولى، ١٩٨٩م)، ج ١، ص ١١٠

والشيخ القرضاوي سيدعو إلى الجُمع بين الصلاتين إذا أقاموا صلاة الظهر، وَمَنْ قَبِلَ قَوْلَهُمْ صَلَّى وراءهم، ومن لم يقبل صَلَّى ما شاء بعد ذلك، وعندما أقام الشيخ القرضاوي الصلاة أخبرهم بما سيفعلون، وسكت الإخوة على مَضَضٍ، وأكثرهم صَلَّى خلفه، ثم ما لبثوا أن صلّوا جمعًا، وقالوا: ما كان أغبائًا! عسرنا على أنفسنا ما يسر الله لنا. وبذلك وقَّروا الجُهدَ والوقت، وأصبح هذا هو المعمول به في كلِّ المؤتمرات بعد ذلك.

* السؤال: إذا حمل رجل "قربة فُساء" في صلاته: هل تفسد صلاته أو لا تفسدها؟

* الجواب: موقف الشيخ القرضاوي: قال فضيلة الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي: وكنا نعيب على هؤلاء الفقهاء هذه الافتراضات والتخيُّلات التي لا تمتُّ إلى الواقع بصلة، وكثيرًا ما تندّر بها الكتّاب الذين يحملون على الفقهاء ويجرحونهم بالحقِّ وبالباطل، وقد عشنا فرأينا المسلم يصلّي وهو يحمل قربة بول، لا يملك أن ينزعها، فرحم الله فقهاءنا فقد سبقوا زمنهم.^١

* قضية تحديد عدد صلاة التراويح:

* الجواب: موقف الشيخ القرضاوي: كان الشيخ القرضاوي يصلّي التراويح ثماني ركعات في مسجد الأمير الشيخ خليفة في الدوحة على ما اختاره من قديم، مما هو ثابت عن رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم، مع الشفع والوتر، وإن كان لا ينكر على من صَلَّى عشرين ركعة. فلم يأت نصّ بتحديد العدد في صلوات التراويح، والعشرون مأثورة من عهد عمر رضي الله عنه. وسار عليها أئمة الحرمين الشريفين في مكّة المكرمة والمدينة المنورة إلى اليوم.^٢

هناك أمر واضح وثابت أن من صَلَّى ثماني ركعات باعتباره عن رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم، فهو في الصحيح. ومن صَلَّى عشرين ركعة باعتباره مأثورة من عهد عمر رضي الله عنه، فهو أيضًا في الصحيح. إذن لا نزاع وقضية اجتهادية في تحديد عدد صلاة التراويح في هذه المسألة.

* نظر و قول الباحث:

اختلاف علماء الأمة في المسألة الشرعية الفرعية والجزئية مقتبسًا من الدلائل النقلية ومدعمًا على الدلائل العقلية وفق المصادر الشرعية الصحيحة مقبول وربما ممدوح. وهذا أمر عادي ولا مانع ولا عتاب فيه، ولكن المشكلة هنا ومن الأسف الشديد، إذا أدى ووصل هذا الاختلاف إلى المُشَادَّةِ والمعادية والمبالغة والمشاجرة والصراع والمحابة والتحاسد فيما بينهم وبين المجتمع فهذا متروك ومنموع ومرفوض ولا شك ولا ريب فيه. لسبب عدم وجود آداب الاختلاف واحترام رأي الآخرين وإفشاء الفساد والفتنة في المجتمع التي نهانا الله تعالى بتنزيله في القرآن: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [٥٦].^٣

وقال الله تعالى أيضًا في آية أخرى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [١٩١].^٤

رغم ذلك نرى أن بعض العلماء اختلفوا في تحديد عدد صلاة التراويح في رمضان كأهم شارع الشريعة، حتى كانوا يتحدثون إلى

١ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، فتاوى معاصرة، (القاهرة، دار القلم، الطبعة: الأولى، ١٩٨٩م)، ج ١، ص ١٥٠

٢ المرجع السابق، ص ٢٠٠

٣ القرآن الكريم، الأعراف (٧)، الآية [٥٦].

٤ القرآن الكريم، البقرة (٢)، الآية [١٩١].

مخالفين رأيهم وموقفهم، غير ناظرين إلى مناهج وأساليب الاختلاف ومقاصد الشرعية ولا مصلحة عامة، وربما دون معيّنين مرتبة ومنزلة المسألة من مراتب أحكام التكليف التشريعي، وكثيراً ما يكون في محاضرتهم وجلساتهم الدينية والإسلامية خاصة في بنغلاديش.

وعند الباحث أن هناك اتجاه آخر: وهو أن مرتبة ومنزلة صلاة التراويح سنة من أحكام التكليف الشرعي لا فرض ولا واجب وهو أمر متفق عليه ولا إشكال فيه. وحكم السنة عند الأصوليين أنه ما كان يثاب فيه ولا يعاقب عليه.

وطرح الباحث هنا سؤالاً، وهو مثلاً: إن كان أحد يصلي صلاة التراويح في رمضان أحياناً وليس منتظماً عند حاجة ماسة من المرض والألم في رحله عند القيام الطويل، أو عمداً أو غافلاً وبالتالي هل صيامه يكون باطلاً؟

والجواب من الباحث: لا يبطل ترك التراويح صيامه للرجل المصاب والممس ولا للرجل الغافل، بل نقول للعافل أو للتارك عمداً يقل من الثواب عند الله له. وإضافه إليه لا ينبغي أن يكون من الغافلين أو التاركين عمداً في امتثال أوامر أحكام الشريعة الإسلامية، وبالتالي لا فرصة ولا محالة لها أن هذه السنة أي التراويح لا قيمة ولا اهتمام لها ظاهراً هي مهملة. لأن جاء في الحديث الصحيح،: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ «فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ»^١.

وفي رواية النسائي: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ، فَقَالَ: «فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالشَّيْءِ فَخُذُوا بِهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ، فَاجْتَنِبُوهُ». وللرجل المصاب والممس: حسابه على الله.^٢

* قضية زخرفة المساجد:

لقد أنشأت قطر جامعها الكبير، الذي يسمّى: «جامع الشيوخ» وكلمة «الشيوخ» هنا تعني: الحاكم، وقد كان هذا الجامع يجوار ديوان الحاكم. وكان أكبر مسجد في ذلك الوقت، وفي سقفه بئحة أو ثريا كبيرة من أكبر الثريات في ذلك الوقت في المنطقة كلها.

* زخرفة المساجد بين ابن محمود وقاسم درويش فخرو:

وقد اعترض سماحة العلامة الشيخ عبد الله بن زيد المحمود رئيس المحاكم الشرعية في قطر، وخطيب الجامع الكبير في ذلك الوقت على هذه النجفة، وعلى ما يراه من بذخ في بناء الجامع أو المسجد، وقد جاء في الآثار كراهية زخرفة المساجد.

وكان الشيخ قاسم درويش فخرو الذي يشرف على بناء المسجد هو تولى الإجابة عن اعتراض الشيخ ابن محمود، وقال له: إن الجامع هو جزء من المجتمع، ويجب أن يكون صورة من تقدّم المجتمع وتطوره، ولا يجوز أن نبني مسجداً جامعاً على الطراز القديم، وبيوتنا مبنية على أحدث طراز، فمسجدنا القديم كان صورة لمجتمعنا في تلك المرحلة، ومسجدنا هذا مرآة لتقدمنا في هذه المرحلة.

١ النيسابوري، مسلم، الصحيح لمسلم، باب: فرض الحج مرة في العمر، (بيروت، دار إحياء التراث العربي)، رقم الحديث: ١٣٣٧، ج ٢، ص ٩٧٥.

والنسائي، السنن الصغرى للنسائي، باب: وجوب الحج، (حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية)، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م)، رقم الحديث: ٢٦١٩، ج ٥، ص ١١٠، [حكم الألباني: صحيح].

٢ نظر وقول الباحث لهذه الرسالة.

* عند الشيخ القرضاوي:

ويعتقد أن هذا الكلام مقنع، ومن ينظر إلى المسجد بإنصاف لا يجد فيه زخرفة ولا تكلفاً، إنما يجد المتانة والفخامة والسعة والجمال، وهذا ما يجب أن تتسم به مساجدنا الجامعة.^١

* قضية: حكم الاستشفاء بالرقى والقرآن والأدوية الروحية:

* موقف القرضاوي:

سئل صاحب الشيخ القرضاوي وهو في رحلة إلى لندن للعلاج في سنة ١٩٨٠ م: ما قولك في الاستشفاء بالرقى الأدعية والعلاج بالقرآن وغير ذلك من الأدوية الروحية؟

قال الشيخ القرضاوي: إن كان المقصود بهذه الأدوية الروحية: أنها مكملات للأدوية المادية العضوية، فلا بأس باستعمالها، بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم رغب فيها، وحث عليها. ولا ريب في أنها تمد المريض بمدد روحي، وقوة معنوية يحتاج إليها رفع معنوياته التي لا غنى عنها في محاربة المرض وتحدياته، وهي سبب من الأسباب الروحانية في الشفاء.

وأما إن كان القصد: الاستغناء بها عن الطب القائم على الملاحظة والتجربة، والمبني على شبكة الأسباب والمسببات، فهذا مرفوض شرعاً. فإن الرسول صلى الله عليه وسلم قد تداوى في نفسه، وأمر غيره بالتداوي، ووصف أشياء من البيئة للتداوي وفق خبرته وكذلك أصحابه من بعده. وما جاء في القرآن الكريم أنه ﴿وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [٨٢].^٢

لا يعني: أنه شفاء من كل الأمراض العضوية والمادية، بل هو كما قال الله تعالى: ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [٥٧].^٣ شفاء لها من الشك والشرك والجهل والكبر وأمراض القلب. ولو أن المسلمين اكتفوا بالاستشفاء أو العلاج بالقرآن - كما يزعم بعض الناس في عصرنا - ما قامت للمسلمين قائمة في علم الطب، ولكنهم سبقوا الأمم في إقامة صرح طبي عملي شامخ البنيان، قام عليه أطباء نوابغ لمعت أسماؤهم في سماء العالم وتعلمت منهم أمم شتى.

والعجيب أن نجد من هؤلاء الأطباء العباقرة كثيراً من النوابغ في علوم الدين، كما وجدنا العلامة ابن رشد (المتوفى ٥٩٥ هـ): يؤلف "الكليات"، وغيرها في علم الطب، كما يؤلف "البداية المجتهد ونهاية المقتصد" في علم الفقه المقارن.

ورأينا الإمام المفسر المتكلم الأصولي: الفخر الرازي (المتوفى ٦٠٦ هـ) يقول الذين ترجموا لسيرته: كانت شهرته في الطب لا تقل عن شهرته في علوم الدين.

ورأينا النابغة ابن النفيس (المتوفى ٦٨٧ هـ) مكتشف الدورة الدموية الصغرى: يترجم له العلامة تاج الدين السبكي في "طبقات الشافعية الكبرى" بوصفه أحد فقهاء الشافعية.

١ برنامج "الشريعة والحياة" من قِبَل "قناة الجزيرة" (وهي قناة فضائية قطرية) التي أسست في شهر يوليو (تموز)، الموافق سنة ١٩٧٠م)، من حلقات حول إجابة

أسئلة الناس من الأستاذ الشيخ يوسف القرضاوي، سنة ٢٠٠٥م

٢ القرآن الكريم، الإسراء (١٧)، الآية [٨٢].

٣ القرآن الكريم، يونس (١٠)، الآية [٥٧].

مناقشة الشيخ القرضاوي مع الدكتور رشيد بن عيسى^١ حول موضوعات شتى: هجوم رشيد بن عيسى على المذاهب السنّية ومعتقداتها:

وجد الشيخ القرضاوي رشيد بن عيسى لا يقف عند حدّ الإعجاب بالثورة «ثورة الخميني في إيران» وإمامها ومُنَجِّزاتها، ولكنه تعدّى ذلك إلى الإعجاب بالمذهب الشيعي، وليته وقف عند ذلك، بل شَنَّ هجوماً قاسياً على المذاهب السنّية ومعتقداتها وأئمّتها. هذا ما سمعه الشيخ القرضاوي بأذنيه.

أولاً: بدأ رشيد بن عيسى حديثه مع الشيخ القرضاوي بقوله: أترى هذه «التعليقة» المعلّقة أمام السائق؟ قال: نعم أراها. قال رشيد بن عيسى ما تعليقك عليها؟ قال: إنّها في اعتقاد العوام «تعويذة» تقيهم من «العين» عين الحاسدين، ويسمونها في مصر «خمسة وخمسة» لأنها تشير إلى خمسة أصابع. كأنهم يقويون هذه الأصابع الخمسة في عين الحسود!

قال: أنا فأرى أنها تشير إلى الخمسة «أصحاب الكساء» وهم الرسول وعلي وفاطمة والحسن والحسين.

قال الشيخ القرضاوي: ما أظنّ هذا خطر بيال الذين وضعوا هذه التعاويد وأمثالها ممّا في السيّارات، فمنهم من يعلّق مسبّحةً، ومنهم من يعلّق آية قرآنيّة، كآية الكرسيّ، ومنهم من يعلّق بعض الأذكار، مثل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. وهي الباقيات الصالحات.

قال: هؤلاء الخمسة هم الذين نزل فيهم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [٣٣].^٢ سياق آية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾.

قال الشيخ القرضاوي: هؤلاء الخمسة على عينه ورأسه، وأن حبّهم من دلائل الإيمان، وبغضهم من دلائل النفاق، وأنّه يتقرّب إلى الله بحبّهم جميعاً... ولكنّ الآية لم تنزل فيهم، من قرأ الآية وتدبّرها في ضوء سياقها وما لحقها: يستيقن أنّها في نساء النبي صلّى الله عليه وسلّم، فكلّ الآيات قبلها خطاب لنساء النبي: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [٣٠] ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ قَدْ جَاءَ اللَّهُ بِقُرْآنٍ بَيِّنٍ وَنُزُلًا مُبِينًا﴾ [٣١] ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [٣٢] ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [٣٣].^٣

فهذا لا شكّ في أنه خطاب لنساء النبي، يؤكّده بقية السياق، وهو قوله تعالى: ﴿وَأذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [٣٤].^٤

وقد كان عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنه يقول: من شاء باهلتها: أنّها في نساء النبي، وليس كما يقولون!

١ وهو كان معجباً بالإمام الخميني وبثورته، ومعيناً بالبحث عن كلّ كفاية وكلّ شخصيّة تستطيع أن يكون لها دور في خدمة الإسلام، وخصوصاً الجانب الفكري والثقافي. وقد لقيه الشيخ القرضاوي في بعض مؤتمرات اتحاد الطلبة المسلمين في أمريكا: وسرّ به وثقافته، وبقله النقديّ، وتفكيره الإيجابي. وهو كان مُقلِّداً للمذهب الشيعي. وكان من تلاميذ مالك بن نبي الشيعي.

٢ القرآن الكريم، الأحزاب (٣٣)، الآية [٣٣].

٣ القرآن الكريم، الأحزاب (٣٣)، الآية [٣٠ - ٣٣].

٤ القرآن الكريم، الأحزاب (٣٣)، الآية [٣٤].

ثالثًا: دعوى مخالفة عمر للنصوص:

قال رشيد بن عيسى - منتقلا عن الموضوع إلى غيره - : إنك ذكرت أي الشيخ القرضاوي في كتابك «فتاوى معاصرة» أن عمر ابن الخطاب كان لا يعرف حكم التيمم، لولا أن عرفه بعض الصحابة بما ورد فيه من نصوص، والعجيب أنك قلت: إن هذا كان اجتهادًا منه أخطأ فيه، وهو ماجور على اجتهاده!

قال الشيخ القرضاوي: هو ماجور على اجتهاده أجر المجتهد إذا أخطأ، وهذه من روائع الإسلام: أن يثيب المجتهد المخطئ تشجيعًا للاجتهاد. ولكنه يعطيه نصف أجر المجتهد المصيب. قال رشيد بن عيسى: ولكن هذا أمرٌ بدهيٍّ من أوليات الإسلام التي لا يجوز أن تُجهل، فكيف يُتاب من جهلها، ويأخذ أجرًا على جهله؟ قال الشيخ القرضاوي: لكي نكون منصفين في تقديرنا للأشخاص، وتقويمنا للوقائع: يجب أن نضعها في إطارها الزمني. ففي ذلك الوقت لم يكن الحكم بالوضوح البيِّن لنا اليوم. قال رشيد بن عيسى: ليس هذا أول حكم خالف فيه عمر النصوص.

قال الشيخ القرضاوي: كان من أوصاف التي مُدِّحٌ بما عمر: أنه كان وقافًا عند كتاب الله. ولقد رَدَّت عليه امرأة - وهو على المنبر - بآية من كتاب الله، فلم يسعه إلا أن يقول: أصابت امرأة وأخطأ عمر. وكلٌّ ما ادعوه على الفاروق رضي الله عنه، ومن دعاوى تجاوز النصوص: مردود عليها من العلماء الراسخين.

قال رشيد بن عيسى: مثل من؟ قال الشيخ القرضاوي: مثل العلامة الشيخ محمد المدني الذي نشر جملة مقالات قيِّمة في «جملة الأزهر» تحت عنوان «نظرات في فقه عمر» فنَدَّ فيها كلَّ هذه المزاعم الباطلة. وكم أتمنى أن تنشر في كتاب يجمعها.^١

ثالثًا: موقف أهل السنة من الصحابة:

قال الدكتور رشيد بن عيسى: للشيخ القرضاوي أنتم - أهل السنة - تُقدِّسون الصحابة، وإن كانت أخطاؤهم مكشوفة لِلْعِيَانِ. قال الشيخ القرضاوي: نحن أهل السنة لا نقدِّس الصحابة، ولا ندَّعي عصمتهم، ولكننا نحَبِّبهم ونُحِبُّهم ونُكْرِمُهُم، لأن الله في كتابه كَرَّمَهُم وَعَظَّمْ مِنْزِلَتَهُمْ فِي سُورَةِ آيَاتٍ كَثِيرَةٍ. كما قوله تعالى:

قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ هَاجِرِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [١٠٠]﴾.^٢ وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ [٧٤]﴾.^٣ وقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا [١٨]﴾.^٤

وقوله عز وجل: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا [٢٩]﴾.^٥ وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا

١ وقد نشر الشيخ القرضاوي في دار القلم بالكويت.

٢ القرآن الكريم، التوبة (٩)، الآية [١٠٠].

٣ القرآن الكريم، الأنفال (٨)، الآية [٧٤].

٤ القرآن الكريم، الفتح (٤٨)، الآية [١٨].

٥ القرآن الكريم، الفتح (٤٨)، الآية [٢٩].

وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ [١٠].^١ بالإضافة إلى قوله سبحانه: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [٦].^٢

* الثناء على الصحابة في الأحاديث النبوية:

أضاف الشيخ القرضاوي إلى هذه الآيات القرآنية: ما صحَّ في الثناء عليهم، والتنويه بفضلهم، من الأحاديث الشريفة النبوية، مثل قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم». ^٣ وقد استفاد هذا عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين. والحديث المتفق عليه: «عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ، ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدًّا أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ». ^٤ وفي رواية الإمام مسلم: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَذْرَكَ مُدًّا أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ». ^٥

ثمَّ جاء في أحاديث صحاح تنوّه بفضل جماعة منهم، مثل: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين، وسائر العشرة المبشرين بالجنة، ومنهم طلحة والزبير، وآخرون مثل: ابن مسعود وابن عباس وأبي ذرٍّ وعمّار وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأسامة بن زيد، وغيرهم رضوان الله أجمعين.

أدلة عقلية على فضل الصحابة:

ولو لم تجئ النصوص بفضلهم لقضى العقل بذلك، فهم الذين حملوا راية الإسلام من أول يوم، وتحملوا الأذى في سبيله، وبدلوا من أجله الأنفس والأموال، وأخرجوا من ديارهم من أجله، ونصروا الله ورسوله، ودافعوا عنه بكل ما يملكون. وهم الذين نقلوا إلينا القرآن الكريم، فعنهم تَلَقَيْنَا هذا القرآن، نقله عنهم أصحابهم من التابعين، وعنهم نقله الأتباع، حتّى وصل إلينا عن طريق التواتر اليقيني جيلا بعد جيل.

وهم الذين رووا لنا الأحاديث النبوية، والسنة المحمّدية: القولية والفعلية والتقريرية. وهم الذين فتحوا الفتوح، ونشروا الإسلام في آفاق العالم، ليخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام. ثمّ هم تلاميذ المدرسة المحمّدية، الذين تربوا على مبادئهم، واقتبسوا مباشرة من نورها، فهم أقرب الناس إلى رسول الله، وألصقهم به، وأكثرهم فهما لما جاء به، وعملاً بأحكامه وتعاليمه، فمن طعن في هؤلاء التلاميذ الصادقين، فكأنما طعن في أستاذهم ومعلمهم. وهكذا استطرد الشيخ القرضاوي في الكلام عن الصحابة، لما يعرفه من حقد كثير من الشيعة عليهم، وأنهم يتعبّدون لله بسبهم، وقد بدأ ذلك من رشيد بن عيسى، من أول الحديث، ولم يستطع أن يكتمه. وقال الشيخ القرضاوي: «ونحن مع حبنا للصحابة: نحب آل البيت معهم ونكرهم ونعظمهم؛ ونرى أن هذا فرع محبتنا لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم إن كثيراً منهم صحابة أيضاً». ^٦

١ القرآن الكريم، الحديد (٥٧)، الآية [١٠].

٢ القرآن الكريم، الأحزاب (٣٣)، الآية [٦].

٣ رواه البخاري، باب: في الشهادات، رقم الحديث: ٢٦٥١، ومسلم، باب: في فضائل الصحابة، رقم الحديث: ٢٥٣٥، عن عمران بن حصين رضي الله عنه.

٤ البخاري، الجامع الصحيح للبخاري، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ)، رقم الحديث:

٣٦٧٣، ج ٥، ص ٨

٥ النيسابوري، مسلم بن الحجاج، الصحيح لمسلم، باب: تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم، (بيروت، دار إحياء التراث العربي)، رقم الحديث: ٢٥٤٠، ج ٤،

ص ١٩٦٧

٦ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيره، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٤٣٤

* نشأة المذاهب الفقهيّة:

قال رشيد بن عيسى في نقلة أخرى لحديثه: كيف أنشأ أهل السنّة مذاهب الأربعة أئمّتها من العرب والعجم، ولكن لا يوجد فيهم واحد من أئمّة أهل البيت، أو ليس هذا غريباً؟ قال الشيخ القرضاوي: لا غرابة في ذلك، إذا عرفت كيف نشأت هذه المذاهب، إن أهل السنّة لم يجمعوا في مؤتمر حاشد، ليقولوا: نريد أن ننشئ عدداً من المذاهب مذهب فلان، ومذهب فلان.

والواقع أن أئمّة المذاهب لم يريدوا أن يؤسّسوا مدارس أو مذاهب فقهية يُقلّدها الناس، ويتّخذونها منهجاً لحياتهم. إنما كانوا يُدلّون بأرائهم واجتهادهم، ويعلمونها تلاميذهم، ولا يدعون أنّها الحقّ وحدها... فمنهم من وجد أصحاباً، وتلاميذ أقوياء نشروا مذهبه، ووسعوا آفاقه، منهم من لم يرزق بذلك فبقي من الكتب، كما قال الشافعي عن الليث ابن سعد: الليث أفقه من مالك، ولكن أصحابه لم يقوموا به! ومنهم من انتشر مذهبه فترة ثم انقرض، مثل: الأوزاعي، والثوري، والطبري، وغيرهم. وفي ذلك الوقت ظهر من أئمّة أهل البيت: الباقر والصادق وزيد بن علي وزين العابدين، وغيرهم، فاتّبعتهم أناس وقلّدهم، كما اتّبعت آخرون مالكا وأبا حنيفة والشافعي وأحمد رحمهم الله.

* قضية: حكم طلب العلاج عند النصارى:

قد داعب بعض الإخوة مع الشيخ القرضاوي حينما ذهب إلى لندن للعلاج في سنة ١٩٨٠م قائلاً: حتى المشايخ يطلبون العلاج عند الخواجات الأوروبيين؟! قال الشيخ القرضاوي لهم: وهل في ذلك من حرج؟ والله تعالى الذي خلق الداء، وخلق الدواء، وأجرى سننه بنفع التداوي إذا أصاب محلّه. ما روي عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء علمه من علمه وجهله من جهله»^١. ولم يستثن داء من ذلك إلا الموت والهرم، فعلم أنه لا يوجد مرض عضال لا دواء له. وفي هذا فتح لباب الأمل لدى الأطباء والمرضى جميعاً: أن لا يأس من الشفاء أبداً.

* قضية: دفع قدر الله بقدر الله:

وقد حلّ الإسلام مُعْضِلةً دينيةً وفكريةً قديمة، وهي تعارض التداوي مع القدر السماوي، وذلك حين سئل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما رواه أبو حنيفة، قَالَ: سئل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَرَأَيْتَ أَدْوِيَةَ نَتَدَاوِي بِهَا، وَرُقَى نَسْتَرْقِي بِهَا، وَتُقَى نَتَقِيهَا، هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ شَيْئاً؟ قَالَ: «هِيَ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ»^٢.

ومعنى هذا: أن المرض من قدر الله، والدواء من قدر الله، والمؤمن يدفع قدر الله بقدر الله، كما يدفع قدر الجوع بقدر الغذاء، وقدر العطش بقدر شرب الماء: يدفع قدر وقوع الداء بقدر تناول الدواء، كلّها بقدر الله.

١ الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران (المتوفى: ٤٣٠هـ)، *الطب النبوي*، [المحقق: مصطفى خضر دوغمز التركي]، (دار ابن حزم، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٦م، رقم الحديث: ٥، ج ١، ص ١٧٦)

٢ القزويني، ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد، *السنن*، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء، (دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي)، رقم الحديث: ٣٤٣٧، ج ٢، ص ١١٣٧؛ [حكم الألباني: ضعيف]. ابن البيع، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري، (المتوفى: ٤٠٥هـ)، *المستدرک علی الصحیحین*، [التعليق - من تلخيص الذهبي]، (بيروت - دار الكتب العلمية)، رقم الحديث: ٧٤٣١، ج ٤، ص ٢٢١، عن عن حكيم بن حزام، (بيروت - دار الكتب العلمية)، رقم الحديث: ٧٤٣١، ج ٤، ص ٢٢١، ٧٤٣١ - صحيح.

ولقد روى أبو داود: أن رجلا جاء إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشكو إليه: أنه مفؤود "أي مصاب في فؤاده أي: كبده" فأمره أن يذهب إلى الحارث بن كلدة "الطبيب الثقفي" يطلب العلاج عنده. ^١ قالوا: ولم يكن الحارث أسلم بعد، فاستنبط الفقهاء منه مشروعية العلاج عند غير المسلم ما دام ثقة ومأموناً. وقد كان للأطباء النصارى وغيرهم دور غير منكور في الحضارة الإسلامية. ^٢

موقف الشيخ القرضاوي في قضية انتقاد الموتى

ومن الناس مَنْ إذا مات ماتت خطاياهم معه، فطوبى له. ومنهم من يموت ولا تموت ذنوبه، بل تبقى من بعده آثار ظلمه وعدوانه، وهو الذي قال الله تعالى في أمثاله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ [١٢]﴾. ^٣ ربما توقّف بعض أهل الدين من الناحية الشرعية، وقالوا: نحن أمرنا أن نذكر محاسن موتانا، وجاء في الحديث: عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: ذُكِرَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَالِكٌ بِسُوءٍ فَقَالَ: «لَا تَذْكُرُوا هَلَكَاكُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ». ^٤ كما نهي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن سبِّ الأموات، كما في حديث عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا». ^٥ لسببين:

الأول: أنهم أفاضوا إلى ما قدموا، وأمسوا عند ربّ عادل يحاسبهم.

والثاني: أن سبّ الموت يؤدي الأحياء، ممّن يهّمه أمر الميت من أبناء وأقارب وأصحاب.

لهذا يتورّع بعض المتديّنين من الكلام عمّن مات، وإن أصابه من ظلمه ما أصاب، وَيَكِلُّ أمره وجزاءه إلى من لا يخفى عليه خافية، ولا تضيع عنده مَظْلَمَةٌ مَظْلُوم، ولاحقّ مضموم.

ولكنّ إذا كان السبّ ممنوعاً، فإن النقد الحقّ مشروع، ولا سيّما من كان يتحمّل مسئولية عامّة، فإن مت حقّ الناس أن يَنقُذُوا أعماله، ويثبّوا على ما كان فيها من حقّ وخير، ويُنكِرُوا ما كان فيهما من باطلٍ وشرّ. وهذا ما فعله المؤرّخون المسلمون الأثبات في تقويم الخلفاء والأمراء، من بني أمية، وبني العباس وغيرهم. وقالوا: كان فلان عادلاً، وكان فلان ظالماً، وأوسعوا الحجاج بن يوسف ذمّاً وتجرّماً.

فالتعديل والتجريح من أجل مصلحة الدين، ومصلحة الأمة: أمر مشروع. وعلى هذا مضت سنة أئمة الحديث في خير القرون ومن بعدهم: يقولون عن الموتى في كتبهم: هذا مُعْفَل، وهذا كثير الغلط، وهذا مُدَلَّس، وهذا كذاب، وهذا أكذب الناس، لِيَحْدَرُوا الأمة أن تَنقُبَ بمؤلّاء، أو تأخذ عنهم الدين.

وسيطلّ من حقّ المظلوم: أن يَصْرُحَ شاكياً من ظلمه، حيّاً كان أو ميتاً، ما دامت مَظْلَمَتُهُ قائمة. حيث قال الله تعالى في محكم

تنزيله: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا [١٤٨]﴾. ^٦

١ رواه أبو داود في "الطب" برقم الحديث: ٣٨٧٥، عن سعد بن أبي رافع رضي الله عنه.

٢ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، *فتاوى معاصرة*، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الثالثة، ٢٠٠٢م)، ج ٨، ص ٢٦٠.

٣ القرآن الكريم، يس (٣٦)، الآية [١٢].

٤ النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب، *المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي*، باب: النهي عن ذكر الهلكى إلا بخير، (حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م)، رقم الحديث: ١٩٣٥، ج ٧٤، ص ٥٢، [حكم الألباني صحيح].

٥ البخاري، *الجامع الصحيح للبخاري*، باب: ما ينهي عن سبّ الأموات، (دار طوق النجاة [مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي]، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ)، رقم الحديث: ١٣٩٣، ج ٢، ص ١٠٤.

٦ القرآن الكريم، النساء (٤)، الآية [١٤٨].

* موقف الشيخ القرضاوي حول قضية بناء المقبر للميت:

كان أهمّ معلّمٍ سياحيّ في الهند الذي زاروه الشيخ القرضاوي في سنة ١٩٧٥م، وهو "تاج محل" وهو فعلاً تحفة هندسيّة معماريّة فنيّة لا نظير لها، وهو يُعدّ من عجائب الدنيا السبع، وقد أعدّه المَلِكُ "شاهجهان" - أحد ملوك المغول - ليكون قبراً لزوجته التي يحبّها.

ولا ريب أن هذا من السرفِ والتبذخ والتّرفِ المُحرّم في الإسلام: أن تنفق ألوف الألوف من أموال الدولة على مقبره للميت، مهما تكن منزلته، وقد أنكر هذا كثير من الدعاة والمفكرين الإسلاميين، ولعلّ أشدهم في ذلك كان الأستاذ أبا الأعلى المودودي.

ولكنّ ربّما لو نظرنا إلى الأمر من زاوية أخرى: أن الرجل أراد أن يبيّن المبلغ الرّقبي العُمُرانيّ والحضاريّ للمسلمين في دولته، وتمكّنها من العلم والهندسة والفنون، وأن يكون البناء معلّماً دالّاً على عظمة الحضارة الإسلاميّة في الهند... لو نظرنا للأمر بهذا العين: ربّما وجدنا له عُذراً. كما بنى المصريّون الفراعنة "الأهرام" مقابر ملوكهم، ولكنها بقيت آثاراً دالّة على شموخ المدينة المصريّة القديمة، وارتقائها في فنّ المعمار، إلى مدى لم يعرف سرّه البشر إلى اليوم.

ومن المهمّ، أن نعلم أن كلّ المعالم السّياحيّة التي تباهي بها الهند وتُفخّر: هي معالم إسلاميّة، فلم نكد نجد شيئاً له قيمة يمكن أن يزار غير ما خلفه المسلمون.

* موقف الشيخ القرضاوي في قضية "الرجم" للمُحصن، وفي حدّ الزنا:

قال الشيخ محمّد أبو زهرة: الرأي الذي يتعلّق بقضية "الرجم" للمُحصن، وفي حدّ الزنا، كتّمه في نفسه من عشرين سنة، لحشية هياج العامّة عليه، وتوجيه سهام التشهير والتجريح إليه، هو "الرجم" كان شريعة يهوديّة، أقرّها الرسول صلّى الله عليه وسلّم في أوّل الأمر، ثمّ نسخت بحدّ الجلد في سورة النور.

قال الشيخ: له على ذلك أدلّة ثلاثة:

الأوّل: أن الله تعالى قال في سورة النساء: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ [٢٥]﴾^١ والرجم عقوبة لا تنصف، فثبت أن العذاب في الآية هو المذكور في سورة النور: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [٢]﴾^٢

والثاني: ما رواه البخاري في "جامعه الصحيح"، عن عبد الله بن أوفى أنه سئل عن الرجم؟ هل كان بعد سورة النور أو قبلها؟ فقال: لا أدري. فمن المُحتَمَلِ جدّاً أن تكون عقوبة الرجم كانت مقرّرة قبل نزول آية النور التي نسختها.

والثالث: أن الحديث الذي اعتمدوا عليه، قالوا إنه كان قرآناً، ثمّ نسخت تلاوته وبقي حكمه: أمر لا يُقرّهُ العقل، لماذا تنسخ التلاوة والحكم باق؟ وما قيل: إنه كان في صحيفة فجاءت الداجن وأكلتها: لا يُقبَلُ منطوق. وما انتهى الشيخ من كلامه حتّى ثار عليه أغلب الحضور من ندوة التشريع الإسلاميّ في ليبيا. وقام من قام منهم، وردّ عليه بما هو مذكور في كتب الفقه حول هذه الأدلّة. ولكنّ الشيخ ثبت على رأيه كالطوّد الأشمّ.

١ القرآن الكريم، النساء (٤)، الآية [٢٥].

٢ القرآن الكريم، النور (٢٤)، الآية [٢].

وقد لقيه الشيخ يوسف القرضاوي بعد انفضاض الجلسة، وقال له: يا مولنا، عندي رأي قريب من رأيك، ولكنه أدنى إلى القبول منه. قال: وما هو؟ قال الشيخ القرضاوي: جاء في الحديث الصحيح: عَنْ عَبْدِ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خُذُوا عَنِّي، خُذُوا عَنِّي، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ هُنَّ سَبِيلًا، الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَنَعْفَى سَنَةٍ، وَالتَّيِّبُ بِالتَّيِّبِ جَلْدُ مِائَةٍ، وَالرَّجْمُ»^١. وقال أيضًا: وما تأخذ من هذا الحديث؟ قال القرضاوي: تعلم فضيلتك أن الحنفية قالوا في الشطر الأول من الحديث: الحد هو الجلد، أما التغريب أو النفي، فهو سياسة وتعزير، مؤكِّدٌ إلى رأي الإمام، ولكنه ليس لازمًا في كلِّ حالٍ.

وعلى هذا نقول في الشق الثاني من الحديث: إن الحد هو الجلد، والرجم سياسة وتعزير، مثل التغريب والنفي، فُنْتُبْتُ ما جاءت به الروايات من الرجم في العهد النبوي، فقد رجم يهوديين، ورجم ماعزًا، ورجم الغامدية، وبعث أحد أصحابه في قضية امرأة العسيف، وقال له: "اغد يا أنيس إلى امرأة هذا، فإن اعترفت فارجموها"^٢. وكذلك ما روى أن عمر رجم من بعده، وأن عليًا رجم كذلك. ولكننا نفترس هذه الوقائع على أنها لون من التعزير والسياسة الشرعية. والأحكام التعزيرية ليست لازمة دائمًا، كما هو معلوم.

ولكنَّ الشيخ محمد أبو زهرة لم يوافق على رأي القرضاوي هذا، وقال له: يا يوسف، هل معقول أن محمد بن عبد الله الرحمة المهتدة، يرمي الناس بالحجارة حتى الموت؟ هذه شريعة يهودية، وهي أليق بقساوة اليهود.

وكان رأي الشيخ الزرقا مع الجمهور، ولكنه يخالف الجمهور في تعريف "المحصن" فعندهم: أن المحصن من حصل له الزواج، وإن فارقته زوجته بطلاق أو وفاة، وبات في واقع الحال لا زوجة له. وعند الشيخ الزرقا: "المحصن" من له زوجة بالفعل. وهذا رأي الشيخ رشيد رضا، ذكره في "تفسير المنار"^٣.

* قضية مراعاة العرف في عدم اختلاء الزوج بزوجته قبل حفل الزفاف:

صورة المسألة مثلاً: كان أمام العروسين شهر يمكنهما أن يلتقيا فيه، بعد أن أصبحا زوجين شرعيين، ولا مانع أن يذهبا للتنزه أو التفرج وغير ذلك، على أن يصحبهما أحد أشقياء العروس أو شقيقاتها، رعاية لما يقره العرف العام: أن الزوج لا يجوز له أن يختلي خلوة كاملة بزوجته، أبيها، وتذهب إليه بيته. وما يقره عرف الناس في ذلك لا ينكره الشرع، وقد قال الناظم: والعرف في الشرع له اعتبار لذا عليه الحكم قد يدار^٤

* السؤال: هل يمكن أن تحب المرأة الرجل في الله عز وجل؟

* الجواب: من الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي: هذا سؤال غير عادي، ولا يتعلق بمشكلة علمية، ولا بمشكلة فردية أو أسرية ، ولكنه سؤال له معنى خاص، ومغزى خاص، ولهذا ما زال حياً شاخصاً في ذاكرة الشيخ القرضاوي.

الطالبات قلن أو قالت إحدتهن متحدثته عنهن في لقاءه مع الطالبات في المسكن الجامعي المعروف في منطقة "بو زريعة": نريد أن نسألك يا أستاذ سؤالاً خاصاً وصریحاً، ونريد أن تجيبنا عنه أيضاً جواباً حراً صريحاً، وهو: هل يمكن أن تحب المرأة الرجل في الله عز وجل؟ وتثاب على ذلك الثواب المتحابين في الله تعالى؟ كان السؤال مفتحاً له؛ ولكنه لم يهرب من الإجابة عنه، وقال الشيخ القرضاوي: نعم، يمكن أن تحب المرأة الرجل في الله، كما يمكن أن يحب الرجل المرأة في الله.

١ النيسابوري، مسلم بن الحجاج، الصحيح لمسلم، باب: حد الزنى، (بيروت، دار إحياء التراث العربي)، رقم الحديث: ١٦٩٠، ج ٣، ص ١٣١٦

٢ رواه البخاري، برقم الحديث: ٢٣١٥، ورواه مسلم، برقم الحديث: ١٦٩٨، عن أبي هريرة، وزيد بن خالد الجهني.

٣ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، الاجتهاد في الشريعة الإسلامية، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الثانية، ١٩٩٤م)، ص ٧٥

٤ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، فتاوى معاصرة، (القاهرة - مكتبة دار الشروق، الطبعة: الثانية، ١٩٩٠م)، ج ٢، ص ١٠٣

المهم أن يحقق معنى الحب في الله، وهو أن يتأكد المرء أن حبه حقاً، أي: لا للدنيا ولا للشهوة خفية، ولا لغرض مادي، وإنما يحب من يحبه لدينه وإخلاصه لله وبذله ونصره له. يكون هذا من المرأة للرجل، ومن الرجل للمرأة.... مثلاً- قول امرأ: أنا أحب الأخت المؤمنة فلانة في الله؛ لما قدمته لدينها ودعوها من جهد و تضحية وصبر على البلاء والأذى في سبيل الله.

والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [٦٧].^١ ... ومن هؤلاء المتقين رجال ونساء متحابون في الله، ومتحابات في الله. وكذلك الأحاديث الكثيرة التي جاءت تحت على الحب في الله، وأن المتحابين في الله يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه، وأنهم على منابر من نور يوم القامة. وهذه النصوص العامة تشمل الرجال والنساء جميعاً إذا أحب بعضهم بعضاً في ذات الله تعالى.

وهنا قال عدد من الطالبات المشاركات من ملتقى نشاط مصاحب في نفس واحد: نشهد يا أستاذ أننا نحبك في الله!! وهنا لم يملك الشيخ القرضاوي عينيه من الدموع، وهو رجل قريب الدمعة، إذا تأثر بموقف إيماني أو إنساني، وسرعة ما تغرق عينيه! وأثر ذلك في الطالبات، فبكى كثير منهن. وهنا قال للطالبات: أما وقد قلت ما قلت، فلا بد لي من أن أحرركنَّ بالسنة الإسلامية المطلوبة في هذا الموقف: وهما ستتان:

الأولى: إذا أحب الإنسان إنساناً في الله، فليبادر باخباره، كما في الحديث: عَنِ الْمُقَدَّامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ أَبِي كَرِيمَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِذَا أَحَبَّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ، فَلْيُعَلِّمُهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ».^٢

وفي الحديث الآخر: عن أَبِي ذَرِّ الغفاري، إِنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِذَا أَحَبَّ أَحَدُكُمْ صَاحِبَهُ، فَلْيَأْتِهِ فِي مَنْزِلِهِ، فَلْيُخْبِرْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ لِلَّهِ».^٣ وفي الحديث الثالث: "إذا أحبَّ أحدكم أخاه في الله فليعلمه، فإنه أبقى في الألفة، وأثبت في المودة".^٤ وذلك لما في الإخبار من سروره وتبشيره بالخير، وتوثيق الرابطة بينهما.

الثانية: أن يدعو المحبوب لمن يخبره بأنه يحبه في الله قائلاً: أحبك الذي أحببتني من أجله. أي أحبك الله.

* قضية معركة جدلية حول الحجاب:

كانت وزارة الشؤون الدينية المنظمة للفتايات الفكر الإسلامي في الجزائر المنعقدة في عام ١٩٨٤م، وقد اختار الشيخ القرضاوي باعتبار أحد المشاركين. وكان من المواقف المهمة التي شهدها كل المشاركين معه في "الملتقى": ما جرى من حديث اشتد، ونقاش احتد، حتى التهب وامتد، حول قضية "الحجاب".

* موقف الشيخ القرضاوي:

والحجاب مصطلح اشتهر بين الناس يعنون به "الخِمار" أو غطاء الرأس المذكور في القرآن الكريم في سورة النور، وفي قوله في توجيه المؤمنات: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ﴾ [٣١].^٥ ولا ينازع مراقب أو دارس: أن من أبرز آثار الصحوة المعاصرة في جانب المرأة، هو: ارتداؤها الحجاب، طوعاً واختياراً، لا قسراً، ولا أجباراً، فهي حركة نسائية خالصة دافعها الإيمان وتقوى الله تعالى، والحرص على رضاه.

١ القرآن الكريم، الزخرف (٤٣)، الآية [٦٧].

٢ الشيباني، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، [المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون]، (بيروت: مؤسسة الرسالة،

الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م)، رقم الحديث: ١٧١٧١، ج ٢٨، ص ٤٠٨

٣ المرجع السابق، رقم الحديث: ٢١٢٩٤، ج ٣٥، ص ٢٢٠، وقال مخزوجه: إسناده ضعيف، وصححه الألباني في "الجامع الصغير" برقم الحديث: ٢٨١

٤ رواه ابن أبي الدنيا في كتاب "الإخوان" رقم الحديث: ٦٩، عن مجاهد مرسلًا، وحسنه في "صحيح الجامع" برقم الحديث: ٢٨٠

٥ القرآن الكريم، النور (٢٤)، الآية [٣١].

وقد تجلّت في كلّ بلادنا العربيّة والإسلاميّة، كما تجلّت في الجزائر بصفة خالصة، ولم تفلح محاولات "الفرنسة" التي حاولها الاستعمار الاستيطاني الفرنسيّ المتجبر، أن تقتلع هويّة المسلمة من جذورها، فسرعان عادت إلى حظيرتها، والتحقّت بركبها، واصطلحت على ربحها. وقد حاول كثيرون وكثيرات من الكُتّاب: أن يُهونوا من أمر الحجاب، الذي غدا يعدّ من أكبر إنجازات الصحوة في ميدان السلوك الاجتماعيّ، قائلين: إن المهمّ هو ما في داخل الرأس من أفكار، وليس ما يغطيها من حجاب أو خمار.

والحقّ أن هذا نوع من المُعَالَطَةِ، فنحن لا نوازن، ولا نعارض بين الخمار على الرأس، والأفكار في داخلها. وما يمنح المسلمة أن تملأ رأسها من الداخل بفكر نير صحيح، وتغطيها من الخارج بخمار محتشم سايف؟!!

وواقع أن الحجاب ليس من أركان الإسلام، ولا من فرائضه الأساسيّة، ولكنه في الوقت نفسه فريضة دينيّة بإجماع الأمة بكلّ مذاهبها ومدارسها، وهو أيضًا رمز للتحديّ الثقافيّ والحضاريّ، والصُّمُود أمام خصوم الصحوة، وخصوم هذه الحضارة، وهو يعدّ انتصارًا هائلًا بالنسبة للمرأة التي كانت في عدّة عقود مضت قد فقدت فيها استقلالها، وسارت وراء المرأة الغربيّة شبرًا بشير، وذراعًا بذراع.^١ ولقد تحدّثت إحدى المشاركات، فقالت: لماذا التركيز على الحجاب؟ وهل الصحوة الإسلاميّة صحوة لباب أو صحوة حجاب؟ ويقولون: أنّها صحوة لباب وحجاب؛ لأنّها صحوة التزام وآداب.

وقامت أساتذة جامعيّة معروفة من المشاركين في الملتقى، وقالت كلمة تردّ فيها على الذين يعظمون أمر الحجاب قائلة: إن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم... واسترسلت في حديثها مُنَدِّدَةً بالداعين إلى الحجاب والداعيات إليه. وهنا انبرت للردّ على هذا التيار فتاة جزائريّة، وهي "أسماء بن قادة" لم تنزل طالبة في الجامعة، وقالت: ماذا يضرّكم أن تجمع المحجّبة بين دينها وديناها، أن تُرضى ربّها، وتعمل لِرُقِيّ نفسها وقومها؟

* السؤال: كانت من الواقعة أن قدّمن بعض الطالبات الملتزمات سؤالًا كان الشيخ القرضاوي يُلقني المحاضرة في الجزائر في السنة الدراسيّة ١٩٩٠م - ١٩٩١م: ما رأيك في الطالبات اللاتي يشهدن هذه المحاضرة الإسلاميّة، وهن حاسرات الرءوس، وربّما كاشفات عن أجزاء أخرى من الجسد كالذراعين والساقين.

* إجابة الشيخ القرضاوي عن حكم حضور الطالبات والنساء الحاسرات الرءوس:

قال الشيخ القرضاوي: كأن السائلة كانت تتوقّع منه أي الشيخ القرضاوي أن يقول: هؤلاء المتكشّفات المتبرّجات في جهنّم، ولا يجوز لهنّ حضور هذه المحاضرة، والواجب عليكنّ أن تمنعهنّ!! إلى غير ذلك، ممّا قد يقوله بعض الدعاة. أما هو الشيخ القرضاوي فلا يقوله ولهذا اتّجه بالجواب وجهة أخرى، وقال: إن حرص هؤلاء الطالبات أو النساء على شهود هذه المحاضرة، والاستماع إليها: دليلًا على جذوة الإيمان في قلوبهنّ لم تنطفئ تمامًا، وأن الإيمان لا يزال له حضور عندهنّ. وما من واحدة فيكنّ إلا مرّت عليها فترة لم تكن فيها محجّبة، ثمّ شرح الله صدرها للالتزام بالحجاب. حيث قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [٩٤].^٢

١ أَلْقُرْآنُ، يوسف بن عبد الله، فتاوى معاصرة، (مصر - مكتبة وهبة، الطبعة: الثالثة، ٢٠٠٢م)، ج ٨، ص ١٣٥

٢ القرآن الكريم، النساء (٤)، الآية [٩٤].

حين أحاب الشيخ القرضاوي بهذا الجواب: رأى بعض الفتيات تُعَرِّقْنَ أعينهم بالدموع. وهذا من دلائل الإيمان. وأن هذه الكلمات هزتهن من الأعماق، وبعدها قررن الامتثال لما أمر الله، وارتداء الحجاب مختارات، وقد كنّ قبل غير ملتزمات.^١

* السؤال: ما المحذور في تكلم وتحدث مجلس النساء مباشرة بلا ستار ولا حجاب؟

* الجواب: وذكر الشيخ القرضاوي أيضًا: النساء كنّ يَحْضُرْنَ في مجلس النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع الرجال في زمنه، ويخاطب الجميع، وحتى حين طلبن يومًا لمن خاصّة، كان يلقاهنَّ وجهاً لوجهٍ. وفي المسجد يصلّي الجميع خلف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخلف كلِّ إمام بعده الصفوف الأمامية للرجال، والصفوف الخلفية للنساء، وليس بينهما أي حاجز من بناء أو خشب أو قماش أو غير ذلك. ولا يوجد في الإسلام مسجد خاص بالنساء. المسجد للرجال والنساء جميعًا، ثم ماذا يحدث إذا خوطبهنَّ وجهاً لوجهٍ إذا كان المُخاطِبُ أو المُتكلِّمُ أو الواعظُ واحدًا أو مفردًا، وهنّ مائة أو ألف أو أكثر...؟

* قضية "الإزار":

وهذه الواقعة التي وقعت حينما حضر الشيخ القرضاوي في جامعة الملك عبد العزيز. ويتحدث عن الموضوع حقيقة التربية الإسلامية. وهنا سرّب أحدهم إلى الشيخ القرضاوي ورقة يقول فيها: كلامك جميل يا أستاذ، فليت فعلك يكون مثل قولك، فإني أي راسل الورقة أرى جبتك ليست إلى نصف الساق، كما جاء في الحديث!

* الجواب: فأجابه الشيخ القرضاوي مختصرًا: والحديث - لو أخذنا بحرفيته - جاء في الإزار، لا الجبّة ولا البدلة ولا غيرها. والإزار له وضع خاصّ. وأما إذا نظرنا إلى مقصود النصوص فقد بيّنته الأحاديث الأخرى: أن علّة النهي هي المخيطة، أي الاختيال والتبختر، وهي من معاصي القلوب، وهذا واضح لمن يتأمل مجموع الأحاديث.^٢

* في قضية اللحية:

* موقف الشيخ القرضاوي: وفي حجّ هذا الموسم سنة ١٣٩٣هـ (١٩٧٣م - ١٩٧٤م) لقي عصام العريان الشيخ القرضاوي. الطالب بكلية الطب جامعة القاهرة، وهو شاب مصري يتوقّد ذكاءً وحماسة. الذي قال للدكتور الشيخ القرضاوي: لقد فوجئت حين رأيتك مُلتَحِيًّا! قال الشيخ القرضاوي له: وما الذي فاجأك؟ قال لأنك سهّلت في أمر اللحية فيما كتبتّه عنها في "الحلال والحرام"، حيث لم تجعل إعفاءها واجبًا، ولا خلقتها حرامًا.

قال الشيخ القرضاوي له: وهل قلت ذلك لأبرّرَ لنفسي أن أخلِّقَ لحيتي؟ إن العالم يقرّر ما يصل إليه اجتهاده بعد البحث والتحري، ويدين الله به، حتى إن كان سلوكه ضده. فقد رأيت الشيخ محمود شلتوت رحمه الله (شيخ الأزهر الأسبق) يميل إلى تحريم التدخين، مع أنه كان يُدخِّنُ، ولكن الحقّ أحقّ أن يتّبع ويعلم، دون تحيّر ولا مُحَابَاة.

* في مسألة التدخين:

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، فتاوى معاصرة، (مصر - مكتبة وهبة، الطبعة: الثالثة، ٢٠٠٢م)، ج ٨، ص ١٤٠

٢ المرجع السابق، ص ٢٢٥

*** موقف الشيخ القرضاوي:** ومن هذه المسائل: ما يفهم بعض العلماء موقفه فيها جيداً مثل: موضوع التدخين، فإنه من المتشددين فيه، وقد رجح الشيخ القرضاوي تحريمه في الكتاب بوضوح، إنما وهم من وهم في ذلك، لأنه قال في حكم زراعته، حكم الزراعة مبني على حكم التدخين، فمن حرم تناوله حرم زراعته، ومن كره تناوله كره زراعته، وهذا ليس تراجعاً عن التحريم.^١

*** في قضية مودة الكافر:**

*** موقف الشيخ القرضاوي**

هو لا يُبيح مودة كل كافر، فالكافر المُحَارِبُ والمُعَادِي للإسلام وللمسلمين لا مودة له، وفيه جاء قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ [٢٢]﴾.^٢ ومُحَادَّةُ الله ورسوله ليست مجرد الكفر، ولكنها المُشَاكَّة والمُعَاداة. أن الإسلام أجاز للمسلم أن يتزوج كتابية، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ [٥]﴾.^٣ فهل يحرم على الزوج أن يود زوجته والله تعالى يقول: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً؟ [٢١]﴾.^٤

وهل يحرم على الابن أن يود أمه الكتابية؟ أو يود جدّه وجدّته وخالته، وأولاد أحواله، وخالاته؟ وكلّهم تجب لهم صلة الرحم، وحقوق أولي القرب.

*** قضية: حول "الردة": لماذا يُقتل المُرتدُّ؟ وتكلم العلماء يدافعون عن حدّ الردّة، وعقوبة المرتد، هل الردّة موقف عقلي أو هي جريمة ضدّ الجماعة؟**

*** الجواب:** وأجاب الشيخ القرضاوي عن سؤاله، فقال إن الردّة موقف عقلي، إنسان اقتنع بدين، ثمّ تغيّر فكره وتحوّل اقتناعه، فلم يعد أن يؤمن به، فلماذا يعاقب؟

قال الشيخ القرضاوي له: إن الردّة ليست مجرد موقف عقلي، إنما تغيير للولاء من أمة إلى أخرى، هل يباح للإنسان أن يغيّر ولاءه لوطنه إلى أعداء وطنه بدعوى أنه حُرٌّ في ولاءه، إن أحداً لا يقبل منه ذلك، ويرى كلّ الناس ذلك منه خيانة وطيّة، يعاقب عليها بالإعدام، والردة هي تغيير الولاء من أمة الإسلام إلى أعدائها، فهو برّدته أصبح عدواً لأمتّه، مؤالياً لأعدائها.

*** قضية في ردّ البدعة المروّجة:** وكان من آثار التّصوّف في قريته: الاهتمام بـ "مولد الأولياء" وأهمّها وأبرزها: مولد السيّد "أحمد البدوي" بمدينة طنطا في مصر، وكذلك في البلدان الأخرى، خاصّة في شبه القارة، وغير ذلك.

*** موقف الشيخ القرضاوي:** كان يدرّسهم الشيخ محمود الدفتار الفقه الحنفي في السنة الخامسة للمرحلة الثانوية، وهو كان من أحباب السيّد "أحمد البدوي" والمدافعين عنه، وقد اجترأ القرضاوي مرّة، فناقشه في أن الأضرحة التي تقام للأولياء ويدفنون فيها، ليست على منهج السنّة، وأن النبي صلى الله عليه وسلّم نهي عن الصلاة إلى القبور، والصلاة عليها، كما نهي عن إضاءتها وإيقاد السرج عليها، ولعن من اتخذ قبور الأنبياء مساجد. ودخل مع الشيخ في مناقشة، وقال له: أيّهما أولى: أن تصلي قرب الميضأة أم تصلي بجوار الضريح؟ قال له بضريح العبارة: أن أصلي قرب الميضأة. فنهه بشدّة، وقال أنت وهابي تبغض الأولياء. قالت له: أنا أقول ما درسته في هذا المعهد في "صفوة البخاري". فأسكتته وأغلق المناقشة.

١ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *الحلال والحرام في الإسلام*، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٩٦١م)، ص ١١٠.

٢ القرآن الكريم، المجادلة (٥٨)، الآية [٢٢].

٣ القرآن الكريم، المائدة (٥)، الآية [٥].

٤ القرآن الكريم، الروم (٣٠)، الآية [٢١].

وفي مرة أخرى ، كان الشيخ يشرح لنا " باب الأضحية " في الفقه، وما لها من فضل أغفله أكثر الناس، أو قلت قدرتهم عن القيام به، وهنا تدخل وقال له: يا فضيلة الشيخ! إن كثيرا من الناس يذبجون بالفعل، ولكنهم يذبجون للبدعة، ولا يذبجون للسنة، قال له: كيف يذبجون للبدعة؟ قال القرضاوي: عندنا في قريتنا وفي غيرها من القرى أناس كثيرون يندرون خرافهم لتذبح في مولد السيد " أحمد البدوي." وهذه بدعة، ولا يذبجون يوم عيد الأضحى، وهي سنة، ولو أن العلماء قاموا بواجبهم، ونهوا الناس على ذلك، لأحيينا السنة وأمتنا البدعة. فغضب الشيخ، وقال له: اخرج من الفصل.

* السؤال: هل يجوز تعلق صورة الأشخاص أو الحيوان بالجدار أو وضعها في الغرفة؟

* الجواب: قال الشيخ القرضاوي: من الناحية الشرعية، فالإسلام يكره تعليق صور الأشخاص أو الحيوان بالجدار أو وضعها في الغرفة، وخصوصا إذا كانت مظنة التعظيم، فهذا لا يجوز. حتى لو كان صورة أمير البلاد، وولي عهده، ووزير من الوزراء.

* جنوح إلى التشديد لا مبرر له:

في مجتمعاتنا وجدنا - كالعادة بعض الإخوة الذين يجنون إلى التشديد والتعسير، يعترضون - فيما يعترضون عليه - على جلوس الناس على الكرسي، وتوجههم إلى غير القبلة في الجلوس، وعلى لباس "البنطلونات"، ولبس الساعة في اليد اليسرى، بدل اليمنى... إلخ. من الأسئلة هذه الأشياء، التي يعترض بها الإخوة الذين يوصفون بأنهم "سلفيون"، قال الشيخ للإخوة: إن الإسلام يقوم على التيسير، كما قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ [١٨٥]﴾. وقال تعالى أيضا: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ [٧٨]﴾.

وقال رسولنا الكريم: عن هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ.^٢ وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا، وَلَا تُنْفِرُوا».^٤

والمسلمون في بلاد شتى ومثلهم كل من يعيش خارج المجتمعات الإسلامية - أولى الناس بالتيسير، ورفع الحرج عنهم، والله يحب أن يؤتى رخصه. والمسلمون ينتهزون يومي الإجازة: السبت والأحد، ليلتقوا في المركز الإسلامي وأمثاله، ليتعلموا دينهم، ويتدارسوا أمورهم، ويتفاهموا ويتوادوا، ويقترّب بعضهم من بعض، وهم يقضون سحابة النهار - وربما بعض الليل - في المركز، ويتغدّدون فيه، وقد يتعشّون أيضا، ولا بد أن نهيئ لهم أسباب الراحة، حتى يمكثوا هذه المدة دون تعب كثير، وتوفير المقاعد والكراسي التي اعتادوا الجلوس عليها مما يساعدهم على ذلك.

١ القرآن الكريم، البقرة (٢)، الآية [١٨٥].

٢ القرآن الكريم، الحج (٢٢)، الآية [٧٨].

٣ البخاري، الجامع الصحيح للبخاري، باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم " يسرّوا ولا تعسّروا، (دار طوق النجاة [مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي]، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ)، رقم الحديث: ٦١٢٨، ج ٨، ص ٣٠. والترمذي، سنن الترمذي، باب ما جاء في البول يصيب الأرض، (مصر - شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الباي الحلبي، [تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (ج ١، ٢)] الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م) رقم الحديث: ١٤٧، ج ١، ص ٢٧٥، [حكم الألباني: صحيح].

٤ البخاري، الجامع الصحيح للبخاري، باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم " يسرّوا ولا تعسّروا، (دار طوق النجاة [مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي]، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ)، رقم الحديث: ٦٩، ج ١، ص ٢٥. والنيسابوري، مسلم بن الحجاج، الصحيح لمسلم، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، (بيروت، دار إحياء التراث العربي)، رقم الحديث: ١٧٣٤، ج ٣، ص ١٣٦٩، وفي روايته «وَسَكُّنُوا بدلا وَبَشِّرُوا».

* والاتجاه إلى القبلة في الجلوس:

أدب من الآداب، وليس فرضًا ولا واجبًا ولا سنة مؤكدة، وخصوصًا إذا عارضه ما هو أهم منه، وهو ضرورة الجلوس في مواجهة المنصبة التي يجلس عليها المتكلمون.

* **وأما البنطلونات**، فهو مطلوب في بلاد أمريكا وأوروبا وغيرها؛ لأن الأزياء تتغير بتغير الأعراف، والإسلام لم يلزمنا بزِيٍّ مُعَيَّنٍ نراه وحده الزِّيَّ الشرعي، لكن له مواصفات لا بد من مراعاتها: من ستر العورة، وأن لا يشف ولا يُصَفُّ، وأن لا يكون زِيًّا اختص به الكفار، وهو يريد أن يتشبه بهم، وقد أصبح هذا الزِّيُّ معتادًا في كثير من بلاد العالم، ومنه بلاد المسلمين، فإذا كان الناس في مصر والشام والعراق والمغرب والخليج وباكستان وبنغلاديش وغيرها، يلبسون هذا الزِّيَّ، فكيف لا يلبسهُ المسلم الذي يعيش في قلب أمريكا نفسها؟ بل الأولى أن يلبس لبسهم في تلك البيئَة - ما دام غير مُحَرَّم - حتى يكون قريبًا منهم، غير مخالفٍ لهم، فهذا يدعى الشيخ القرضاوي إلى تأثيره فيهم، وتجاوبهم معه. ونحن ندعو إلى أن يندمج المسلم في المجتمع لا يعزل عنه، ما دام محافظًا على هُوِيَّتِهِ الدينيَّة.^١

* **السؤال:** لماذا اختار الإسلام للصيام شهرًا قمرًا ينتقل بين الفصول الأربعة، ولم يثبتته في شهر شمسي بحيث يظل ثابتًا

لا يتغير؟

* **الجواب:** جواب السؤال واضح، وهو: أن يتعبد المسلم لربه سبحانه بالصيام في كل فصول السنة، ما كان فيها حارًا، وما كان فيها باردًا، وما كان معتدلاً، ما كانت أيامه قصيرة، وما كانت أيامه طويلة، وهذا يدل على قوة الإذعان والطاعة والاستجابة لأمر الله في سائر الأحوال.

* قضية إفتار في السفر:

فضيلة الشيخ الدكتور القرضاوي عادةً إذا سافر في رمضان إلى القاهرة أو السعودية أو نحوها، لا يفطر، ويظل صائمًا، لا لأنَّ الفِطْرَ ممنوع أو مكروه، ولكن المسافر أمير نفسه، إن شاء أفطر، وعليه عدة من أيامٍ أخرى، بعدد الأيام التي أفطرها، وإن شاء صام ولا حرج عليه، خلافًا للظاهرية الذين أوجبوا على المسافر في رمضان أن يفطر. وهو مروى عن أبي هريرة. وفي السفر إلى هذه البلاد العربية، لا يوجد مشقة تدعو الصائم إلى الفطر.

والذي دعاه أي الشيخ القرضاوي إلى الأخذ برخصة الفطر في هذه المرة: أنه وجد نفسه لن يصل إلى الرِّبَاطِ^٢ الساعة الثانية عشرة منتصف الليل بتوقيت قطر، وكان الوقت صبيحًا، مع التنقل من المطار إلى آخر، فرأى الشيخ القرضاوي أن الفطر أحبُّ إليه، وطالما ذكر للناس الحديث النبوي: عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخْصَتُهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ».^٣

١ برنامج **الشرعية والحياة** من قِبَل **قناة الجزيرة** (وهي قناة فضائية قطرية) التي أسست في شهر يوليو (تموز)، الموافق سنة ١٩٧٠م)، من حلقات حول إجابة

أسئلة الناس من الأستاذ الشيخ يوسف القرضاوي، سنة ٢٠٠٣م

٢ عاصمة المغرب أو مراكش أو مراكش.

٣ الشيباني، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن محمد بن حنبل، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م)، [المحقق: شعيب

الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون]، رقم الحديث: ٥٨٦٦، ج ١٠، ص ١٠٧، وقال مخرجه: صحيح، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

السؤال: الذي يتعلّق بإثبات بداية الصيام ونهايته:

قال أحد إخوانه المغربيّ لـ "الشيخ القرضاوي: عندنا مشكلة تظهر في بداية كلّ رمضان ونهايته، فلدينا فئات ثلاث من أهل المَغْرِبِ، (قول الباحث): حتى في بنغلاديش موجودة هكذا. ولكنهم ليسوا كثيرين، بل هم قليلون.

١. فئة تصوم وتُفْطِرُ مع "المملكة العربيّة السعوديّة" وهم عادة من الإخوة السلفيّين أو ممّن يسمّيهم الناس: الوهابيّين.
٢. وفئة ثانية تصوم وتفطر مع "تونس" التي تعتمد الحساب الفلكي في صيامها وفطريها. وغالبًا ما يتفق هذا مع مصر والجزائر وغيرها.
٣. وفئة ثالثة تصوم وتفطر مع ما تقرّره السلطات الشرعيّة المسئولة في المغرب. وهي في العادة تأخّر عن هؤلاء وأولئك. فما رأيك في هذه الفئات الثلاث، وأيّها ترجّح لنا أن نتبعه؟

*** الجواب:** قال الشيخ الدكتور القرضاوي: الكلام في هذا يطول، ورأي الذي أفْتى به من سنين طويلة: أن نعتد الحساب الفلكي في النفي لا في الإثبات، بمعنى: أن الحساب إذا نفى إمكانية الرؤية من الناحية العلميّة القطعيّة، فلا نقبل شهادة الشهود، لأن شهادة الشهود ظنيّة، والحساب الفلكي العلميّ قطعيّ، والظنيّ لا يقاوم القطعيّ، فضلًا عن أن يقدم عليه. كما قال الإمام تقي الدين السبكي في رسالته له. وإذا قال الحساب بإمكان الرؤية، فإن وجود الرؤية في أيّ مكان يمكن أن يثبت به، الهلال في البلاد الأخرى، وخصوصًا ما كان قريبًا منه، بناءً على عدم اعتبار اختلاف المطالع. ولأن روي عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صُومُوا لِرُؤْيَيْهِ وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَيْهِ، فَإِنْ غُبِّيَ عَلَيْكُمْ فَأَكْمَلُوا عِدَّةَ شَعْبَانَ ثَلَاثِينَ»^١.

ولكن ما يراه شيء، وما هو واقع شيء آخر، فأحيانًا يثبت الهلال في السعوديّة، مع أن الحساب القطعيّ يقول: إن الهلال لم يولد بعد. فالمشكلة هنا في وجود الخطأ في إثبات الرؤية، وإذا كان الهلال لم يولد: كان الشاهد مُحْطَطًا أو واهمًا أو كاذبًا. على أن الذي أقره هنا باطمئنان: أننا إذا لم نصل إلى وحدة المسلمين في شعائرهم الدينيّة في أقطار الأرض كلّها، كما يخلّم كثيرون، فلا نقول من أن نحصر على وحدتهم في كلّ فُطْرٍ، بحيث يصومون معًا، ويُعَبِّدُونَ معًا. إذ ليس مقبولًا بحال أن يصوم جماعة منهم وسائل أهل البلد مفطرون، أو تعلن العيد فئة منهم فيصلّون ويكبّرون وسائر أهل البلد صائمون.

ولذا يرى الشيخ القرضاوي أن يسلمّ الموقف في المغرب هو موقف الفئة الثالثة التي تصوم وتفطر مع أهل المغرب، بناءً على تعليمات السلطات الشرعيّة المُخَوَّلَة بإثبات الهلال، كالحاكم الشرعيّة، أو الإفتاء، أو وزارة الأوقاف، أو غيرها.

* قضية: مُشَادَّةٌ مع الدكتور علي عبد الواحد وافي في أدب الطّعام والشّرَابِ:

كان سبب مُشَادَّةٍ، هو استخدام اليد اليمنى في الأكل والشرب، وهل هي سنة تتبع أو عادة يفعلها من شاء ويتركها من شاء؟ وكان رأي الدكتور علي رحمه الله: أن الأكل باليمين والشرب باليمين ليس أكثر من عادة، مثل الأكل باليد أو بالمعلقة والشوكة، والأكل على الأرض أو على المائدة.

١ البخاري، الجامع الصحيح للبخاري، [المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر]، باب: بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «إِذَا رَأَيْتُمْ هَيْلَالَ فَصُومُوا، وَإِذَا رَأَيْتُمْهُ فَأَفْطِرُوا»، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ)، رقم الحديث: ١٩٠٩، ج ٣، ص ٢٧. والنيسابوري، مسلم بن الحجاج، الصحيح لمسلم، [المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي]، (بيروت - دار إحياء التراث العربي)، رقم الحديث: ١٠٨١، ج ٢، ص ٧٦٢

موقف الشيخ القرضاوي:

وهنا قال الشيخ القرضاوي له بكلّ أدب: اسمح لي يا فضيلة الأستاذ! أنه يخالف في بعض، ويوافقه في بعضه. فأما الذي يوافقه فيه: فهو الأكل باليد أو بالملقعة، والأكل على الأرض أو على المائدة "الطاولة"، فهذه من الأفعال التي ليس فيها أمر ولا نهي من النبي صلى الله عليه وسلم.

وهذا بخلاف ما جاء في شأن الأكل باليمين والشرب باليمين، فقد جاءت فيهما أحاديث صحيحة صريحة، مثل حديث: عن القاسم بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر، عن سالم، عن أبيه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لَا يَأْكُلُ أَحَدُكُمْ بِشِمَالِهِ، وَلَا يَشْرَبُ بِشِمَالِهِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ، وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ»^١. فجعل الأكل بالشمال من عمل الشيطان، وهو يؤذن بحزمة هذا العمل.

ولو كان الوارد هنا مجرد الأمر كما في حديث عمر بن أبي سلمة، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا غلام، سمّ الله، وكلّ بيمينك، وكلّ مما يليك»^٢. لقلنا: الأمر هنا يفيد الاستحباب، ولكن الحديث المقترن بالتشبيه بالشيطان، دلّ على شيء آخر. فقال الشيخ القرضاوي: إن الإسلام يريد بمثل هذا الأدب: أن يعرّس في الأمة عادات مشتركة تميّزها بين الأمم، فإذا الأوروبيون يأكلون بالشمال، فإن الأمريكيين يأكلون باليمين

وهنا قال الدكتور وافي: الأمريكيون لا يأكلون باليمين، بل بالشمال، فقال الشيخ القرضاوي: يا سيادة الأستاذ، أنا كنت في أمريكا من قريب. وقد زرتها أكثر من قريب، فقد زرتها أكثر من مرّة ورأيتهم يأكلون باليمين: قال: أنا أعلم منك بالغيبيّن منك. قال: هذا صحيحٌ ومُسلّمٌ، ولا ادعى أنه أعلم منه في هذا، ولكن سيادتك عاش في فرنسا، ولم تعش في أمريكا...

* السؤال: هل يجوز أن ندفع للهيئة الخيرية من الزكاة؟

* الجواب: عند الشيخ القرضاوي: يجوز دفع الزكاة للهيئة، ولكنها ستصرف في مصارف الزكاة، ولن تدخل في رأس مال الهيئة المنشود الذي يعدّ صدقة جارية لصاحبه، وهو بمثابة الوقف الخيريّ، الذي يدوم ثوابه ما دام الانتفاع بريعه مستمرّاً، حيث يحبس أصله، وتسبّل ثمرته.^٣

١ البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ)، الأدب المفرد، باب لا يأخذ ولا يعطي إلا باليمن (بيروت - دار البشائر الإسلامية الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩ - ١٩٨٩ [المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي])، رقم الحديث: ١١٨٩، ج ١، ص ٤٠٦، [حكم الألباني: صحيح]. والترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى، سنن الترمذي، (مصر - شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م، [إبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف ج ٤ (٥)، ١٧٩٩، رقم الحديث: ١٧٩٩، ج ٤، ص ٢٥٧، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ "وَلَا يَشْرَبُ" بدل "وَلَا يَشْرَبُ". [حكم الألباني: صحيح]

٢ البخاري، الجامع الصحيح للبخاري، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين، (دار طوق النجاة [مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي]، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ)، رقم الحديث: ٥٣٧٦، ج ٧، ص ٦٨. والنيسابوري، مسلم بن الحجاج، الصحيح لمسلم، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما، (بيروت، دار إحياء التراث العربي)، رقم الحديث: ٢٠٢٢، ج ٣، ص ١٥٩٩

٣ ألفردواوي، يوسف بن عبد الله، فقه الزكاة، (بيروت، دار القلم، الطبعة: الأولى، ١٩٧٠م)، ج ١، ص ١٠٩

*** موقف الشيخ القرضاوي في قضية حكم استثمار أموال الزكاة التي أُعطيَ للهيئة أو المؤسسة الخيرية:**

رأى الشيخ يوسف الحجّي: هو يرفض أن يستثمر شيئاً من أموال الزكاة، حتّى لا تتعرّض للمخاطر، والمفروض أنه أمانة لدى الهيئة حتّى يصل إلى مصارفه.

رأى الشيخ يوسف القرضاوي: هو أفتى بجواز استثمار ما يجمع من أموال الزكاة في استثمارات قصيرة الأجل، حتّى تصل إلى مستحقّيها، في خلال السنة لا تزيد عن ذلك، على أن يكون ذلك في معاملات مأمونة المخاطر، وما تأتي من أرباح يضاف إلى الزكاة لحساب المستحقّين.^١

*** السؤال: هل أن من إنقاذ البوسنة أهمّ من الحجّ هذا العام؟**

جدير بالذكر أن هذا السؤال طرح بعض الإخوة إلى الشيخ القرضاوي في سنة ١٩٩١م عند مؤتمر مُنصرة البوسنة والهرسك. الذي قاله أحد عضو هذا المؤتمر. وهو الأستاذ فهمي هويدي.

*** الجواب:** قال الشيخ القرضاوي لهم: إن فقهه مؤسّس على اعتبار شرعيّ صحيح، وهو أن الفرائض إذا تراخمت أو تعارضت، يجب أن يقدّم أولاهما، بالترجيح ... وفي الشرع: إذا تعارض الفرائض المتعلّق بحقّ الفرد، والفرض المتعلّق بحقّ الجماعة أو الأمة، يقدّم ما يتعلّق بحقّ الأمة. ولهذا أجمع الفقهاء على أن الجهاد إذا كان فرض كفاية، فلا بدّ فيه من استئذان الوالدين حسب نصّ الأحاديث الصّحاح. ولكن إذا كان الجهاد فرض عين، كما إذا العدو بلاد المسلمين، فهنا يسقط استئذان الوالدين: لأن برّ الوالدين فرض، والدفاع عن أرض الإسلام فرض، ولكن برّ الوالدين يتعلّق بحقّ فرديّ والدفاع عن أرض الإسلام يتعلّق بالجماعة أو الأمة، وما يتعلّق بحقّ الجماعة يقدّم على ما يتعلّق بحقوق الأفراد.

ومع هذا نحن في غنى عن منع الناس من أداء الفريضة، فالواقع أن موسم الحجّ في بعض السنوات يضمّ ملايين ملايين من المسلمين، والإحصاءات تؤكّد أن أكثر من ٦٠% من الحجاج يحدّثون للمرة الثانية أو الثالثة أو الرابعة أو العاشرة أو العشرين أو ما هو أكثر وهؤلاء هم الذين لو يطالبوهم بأن يتركوا الحجّ هذا العام، ويخصّصوا نفقات حجّهم لنصرة إخوانهم البوسنة. وهذا لا مانع باعتبار الشريعة الإسلاميّة.^٢

١ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، فقه الزكاة، (بيروت، دار القلم، الطبعة: الأولى، ١٩٧٠م)، ج ١، ص ١١٨

٢ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٦٧٥

المبحث الرابع: فكره في التربية والتعليم

عند الشيخ القرضاوي أن حقيقة التربية الإسلامية تشمل بضعة عشر نوعًا من التربية: العقلية، والحلُقيّة، والبدنيّة، واللسانيّة، والعلميّة، والمهنيّة، والاجتماعيّة، والاقتصاديّة، والسياسيّة، والعسكريّة، والجنسيّة، والفنيّة «الجماليّة» والدينيّة. فالتربية الدينيّة تمثل فرعًا من فروع التربية الإسلاميّة، وليست هي التربية الإسلاميّة كما يتوهم البعض. ويظهُرُ هذه نظريّته في التربية عند المناقشة حول أصول التربية مع صديقه الدكتور أحمد التويجري.^١

١ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٧٥٨ - ٧٥٩

المبحث الخامس: فكره في علم التوحيد

إذا كان الفقه يتعلّق بالسلوك والعمل، فإن علم التوحيد يتّصل بالعقيدة، التي أساس الدين كلّها، فإذا ثبتت العقيدة وسلمت، فقد ثبت الدين وسلم، وإذا أهدمت العقيدة أهدم الدين، وإذا وهت العقيدة وهى الدين.

ولكن المنهج الذي يدرّس على أساسه التوحيد: منهج قديم، من آثار عصور التراجع والتخلّف في الحضارة الإسلاميّة، وهو يقوم على افتراضات معيّنة، لم تعدّ موجودة أو مؤثرة في حياتنا العقليّة، وما ردّ عليه الأشاعرة والماتريديّة قديما من أفكار ومفاهيم خلطوها بالتوحيد، لم يعدّ له ذلك التأثير الذي كان، ونحن في حاجة إلى أن نردّ على أفكار أخرى، وعقائد أخرى. نحتاج أن نردّ على المادّيين والماركسيّين واللاذنيّين، ممن ينكرون الألوهيّة، أو ينكرون الوحي والنّبوءة، ونردّ عليهم بالمنطق العقليّ البرهانيّ، والمنطق العلميّ المُعاصر، الذي أُلّفَت فيه كتب شتى تردّ على المادّيين الجاحدين.

كما أنّنا في حاجة إلى الردّ على أصحاب الأديان المخالفة من اليهود والنصارى، فيما يثيره المبشّرون والمستشرقون من شبهات على عقائد الإسلام ومصادره. وفي حاجة إلى الردّ على الفرق المنشقة من القاديانيّة والبهائيّة. وفي حاجة إلى أن نعرض أصول العقيدة، كما عرضها القرآن يوضحها وفطريّتها وعمّقها، وبما يخاطب العقل والقلب معًا. لقد كان القرضاوي يدرس التوحيد في السنتين الرابعة والخامسة في شرح الجوهرة للقائي، والجوهرة (منظومة) تتضمّن العقائد في الإلهيات والنّبوات والسّمعيّات، على المذاهب الأشعريّ. وهي ومكتوبة بلغة لا تلائم هذا العصر ولا تعالج مشكلاته العقليّة، وقد شرّحها الشيخ الباجوريّ بنفس اللغة. ولكن يحمّد لواضع منهج التوحيد: أن ضمّ إليه جزءا من رسالة الشيخ محمّد عبده في رسالة التوحيد وهو (حاجة البشر إلى الرسالة). وفي رأي القرضاوي: أن اعتبار "التوحيد" من العلوم العقليّة البَحْتَة أمر خاطئ، فالإسلام عقيدة وشريعة، والعقيدة هي الأساس، والشريعة هي البناء، وإذا كانت الشريعة وفقّهها من علوم الدين، فكيف لا تكون العقيدة - وهي الأساس - من علومه؟ صحيح أن العقيدة في الإسلام تقوم على منطقتي عقليّ سليم، خصوصا في العقيدتين الأساسيتين: وجود الله، وإثبات النّبوءة، إذ لا بدّ أن يثبتا بالعقل، ولكن هذا لا يخرج علم التوحيد من اعتباره من العلوم الدينيّة، بل هو أصلها وعمدتها. لهذا كان الواجب دراسة العقيدة من القرآن أولا، لا على أنه مجرد أخبار، بل باعتباره مشتملا على آيات ودلالات وبراهين عقليّة، ردّ بها على المخالفين من الدهريّين ومن أهل الأديان الأخرى.

ومن أهمّ من يجب الردّ عليهم في عصرنا هم: جماعة "المادّيين" الذين يَنكُرُونَ كلّ ما وراء الحسّ، وما بعد الطبيعة. ويمكننا الاستعانة في الردّ عليهم بالعلوم الحديثة التي قام كثير من أقطابها بدور غير مُنكُورٍ، في التبديل عاى وجود الله تعالى من خلال تخصّصاتهم، كما في كتاب "الله يتجلّى في عصر العلم" والعلم يدعو إلى الإيمان" و"مع الله في السماء" و"الله والعلم الحديث" إلخ.

المبحث السادس: فكره المتعلقة بالدعوة الإسلامية

كيف كان ينبغي أن تكون الدعوة؟

قد يهتم بعض دعاة الأديان بمجرد الإعلان عن الدخول في دينهم، للمباهاة بالأعداد، والمكاثرة في حرب الإحصاءات والتعداد، ولأن عندهم: إذا آمنت بالمُخَلَّص "يسوع المسيح" فقد نجوت وإن لم تعمل! أما نحن فالإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل، كما تدلّ على ذلك العشرات - بل المئات - من آيات القرآن، وأحاديث الرسول. وحسبنا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا [١٢٣]﴾ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا [١٢٤]﴾^١.

والمعنى في هذه الآية: أَنَّ الدِّينَ لَيْسَ بِالتَّحَلِّيِّ وَلَا بِالتَّمَنِّيِّ، وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ ادَّعَىٰ شَيْئًا حَصَلَ لَهُ بِمُجَرَّدِ دَعْوَاهُ، وَلَا كُلُّ مَنْ قَالَ: "إِنَّهُ هُوَ الْمَحَقُّ" سَمِعَ قَوْلُهُ بِمُجَرَّدِ ذَلِكَ، حَتَّىٰ يَكُونَ لَهُ مِنَ اللَّهِ بُرْهَانٌ^٢ فالمدار إذن على العمل لا على الدعاوي والأمانى.

كان نَظَرُ القرضاوي في الدعوة كما قال مؤسس جماعة الإخوان المسلمين الأستاذ حسن البنا: وهو كان حريصًا كلَّ الحِرْصِ على توثيق روابط الجماعة: فِكْرِيًّا، وعاطفيًّا، وتنظيميًّا، وكان يقول: دعوتنا تقوم على: الفهم الدقيق، والإيمان العميق، والحبِّ الوثيق. وكان في كلِّ ثلاثاء يلقى فيه الإخوان يبدأ حديثه إليهم بما سمّاه: "عاطفة الثلاثاء"، وهي كلمات يحيي فيها المشاعر الإيمانية، ويلهب فيها العواطف الأخوية، بأحاديث الحبِّ في الله، والتجالس في الله، والتزاور في الله.

كان لا بدّ من تمهيد لتصفية النفوس، وترطيب القلوب، وتذكير الجميع بأخوة الإيمان، ووحدة الإسلام، وضرورة التضامن في مواجهة العدو، ولا سيّما في الوقت الذي تحاك فيه المؤتمرات ضدّ الجهاد الإسلامي، وضربه من الداخل، فالتساند والتعاقد والتضامن بين المجاهدين: فريضة وضرورة، ولو لم يوجبه الدين، ويشدّد فيه كلّ التشديد، لأوجبه الواقع وألزمنا به إلزامًا. إن القرآن حدّثنا من التفريق إذ الأعداء يجتمعون، والتخاذل إذ هم ينتاصرون، والتباعد إذ هم يتقاربون، فقد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ [٧٣]﴾^٣.

ذكر الشيخ القرضاوي في هذا الصدد: أن الناس يمكن أن يحتلّفوا في أحوال الرِّخَاءِ وَالْعَافِيَةِ وَالسَّلَامِ. أمّا في حالة البلاء والحرب والخوف، فلا مجال للخلاف. وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ [٤]﴾^٤. والمفروض في المختلفين في هذه الحالة أن يتحدوا، فإن المصائب يجمعن المصابين. فكيف يحتلّف المتحدون الذين يؤمنون بفكرة واحدة، وبأهداف واحدة، وبمنهج واحد؟ هذا لا معنى له إطلاقًا.

وكان المقصود أن نحدّد الأولويات، ونبدأ بها، ونبحث عن نقاط الاتفاق الأساسية، وعن الخطوات العملية التي يجب أن تُتَّخَذَ لمواجهة المرحلة القادمة، والتي يدبّر فيها الآخرون تدبيرات مآكرة، لتفريق الصفِّ، وإبراز قوي لا تستحقّ الإبراز.

١ القرآن الكريم، النساء (٤)، الآيتان [١٢٣ - ١٢٤].

٢ البصري ثم الدمشقي المعروف والمشهور بـ "ابن كثير"، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم، (دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، [المحقق: سامي بن محمد سلامة])، ج ٢، ص ٤١٧.

٣ القرآن الكريم، الأنفال (٨)، الآية [٧٣].

٤ القرآن الكريم، الصف (٦١)، الآية [٤].

المبحث السابع: فكره في الإسلام والعلوم الإنسانية

كان موضوع ملتقى الفكر الإسلامي العشرين ١٩٨٦م في مدينة «سطف» عن «الإسلام والعلوم الإنسانية». وهو موضوع له اعتباره وأهميته في التكوين الفكري والثقافي للأمة، لأن العلوم الإنسانية والاجتماعية هي التي تصنع الأفكار والميول والأذواق والاتجاهات العقلية والنفسية والسلوكية، التي تختلف فيها الأمم، ويتميز بعضها عن بعض. إن العلوم الكونية المادية: علمية بطبيعتها، فهي لكل الأمم، ولكل الأديان والثقافات، ولا وطن لها، ولا دين خاص بها، بخلاف العلوم الإنسانية والاجتماعية، فهي التي تلون ثقافة الأمم، وتميز فكر بعضها عن بعض. فإذا كانت العلوم الطبيعية والرياضية، لها أثرها في عالم المادة، وهي التي غيرت الحياة من حولها، وقربت البعيد، وأنطقت الحديد، وجعلت العالم قرية واحدة، فإن العلوم الإنسانية والاجتماعية هي التي تغير الإنسان، أو تحاول أن تغيره، لأن تغير الجبال والصحور أسهل من تغيير الإنسان: تغيير عقيدته وفكره واتجاهه. ولقد ألفت أحد أقطاب العلم الغربي من الحاصلين على جائزة نوبل في العلوم - وهو الأستاذ أكسس كاريل - كتابًا سماه: «الإنسان ذلك المجهول» بين فيه: أن الإنسان عرف الكثير من أحوال المادة وخصائصها، من الذرة إلى المجرة، واستطاع أن يوظفها في تيسير ظروفه، وتحقيق أهدافه. ولكنه للأسف يجهل الكثير عن أحوال نفسه. وهذا هو سرُّ المشكلة أو المأساة التي يعيشها الناس اليوم: أنهم لا يعرفون حقيقة أنفسهم.

لذا كان من المهم: أن يعقد هذا الملتقى لبيان الموقف الإسلامي من العلوم الإنسانية والاجتماعية: علم النفس، وعلم التربية، والفلسفة، وعلم الأخلاق، وعلم الاجتماع، وعلم التاريخ، وعلم الاقتصاد، وعلم اللسانيات، وغيرها. ولا سيما أن هذه العلوم قد وصلت إلينا، كما عرفها الغرب وأصلها وعرضها، فهي غريبة المنبع والجزور والفكر والأسلوب. ونحن فينا، عالة على الغرب، وجميع المثقفين وأساتذة الجامعات: تلاميذ تابعون للمدرسة الغربية، يحتكمون إلى فلسفتها، ويؤمنون بقيمتها، ويدافعون عن توجهاتها، ولا يرون في الوجود بديلا عنها إلا من رحم ربك وقليل ما هم. إن هذه العلوم تدرس في جامعات البلاد العربية والإسلامية بصفة عامة، كما جاءت من الغرب، دون نقدها، ولا تعقيب عليها، إلا ما كان من الغربيين أنفسهم، حين يُنقذ بعضهم بعضًا. وإلا ما ندر من بعض علمائنا العرب والمسلمين، وقليل ما هم.

وما زلنا ننتظر من الأجيال الجديدة من العلماء: أن يغوصوا ويتعمقوا في هذه العلوم، وألا يقفوا منها موقف التسليم المطلق، بل موقف الفاحص الناقد المتخبر، في ضوء الواقع المشهود، وفي ضوء تطور العلم والمعرفة، وفي ضوء تراثنا وتراث البشرية، ليستخرج منها ما هو أقوم قيلاً، وأهدى سبيلاً، وأثبت في ميزان الحق. لا نريد أن ننفي ما وصلت إليه البشرية من نتائج ومعارف في هذا المجال، فهذا ما لا يتصور، ولكننا نريد أن ندرسه دراسة الناقد المتأمل، لا دراسة المقلد المتلقّي. نأخذ منه وندع، وفق فراءتنا ومعاييرنا.

وبهذا تظهر المدارس الإسلامية المختلفة في العلوم الإنسانية والاجتماعية: المدرسة الإسلامية في علم النفس، والمدرسة الإسلامية في علم الاجتماع، والمدرسة الإسلامية في علم التربية، وهكذا، وهو يؤثر هذا المصطلح، على مصطلح «علم النفس الإسلامي» و«علم الاجتماع الإسلامي» إلى آخره.

وبعض هذه العلوم تُخدم من الناحية الإسلامية خدمة كبيرة مثل «علم الاقتصاد» الذي قدّم الشيخ القرضاوي فيه أطروحات إسلامية «ماجستير ودكتوراه» بالعشرات وربما بالمئات، وأنشأ له أقسام بالجامعات، ومراكز أبحاث، ومجلات متخصصة... إلخ على حين لم تتح لعلوم أخرى مثل علم الاجتماع مثل هذه الخدمة والعناية.^١

١ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٤٣٧ - ٤٤٠ (مختصراً).

المبحث الأول: أفكاره في السياسة الشرعية وبعض نشاطاته

يقال "صنفان من الأمة إذا صَلَحَا صَلَحَ النَّاسُ، وإذا فَسَدَا فَسَدَ النَّاسُ: الأمراء والعلماء." ونسبه بعضهم حديثاً إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكنّه لا يصحّ سندا، وإن كان معناه صحيحاً في الجملة؛ فالأمراء لهم القيادة السياسيّة والتنفيذيّة، والعلماء لهم القيادة الفكرية والروحية، وَبِصْلَاحِ الْقِيَادِيَّةِ يَصْلُحُ الْمَجْتَمَعُ، وَتَصْلُحُ حَيَاةَ النَّاسِ.

ولكن الخطر: أن تَفْسُدَ الْقِيَادَتَانِ أَوْ تَفْسُدَ إِحْدَاهُمَا، وَلَا سِيَّمَا قِيَادَةَ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَهَمُّ الْأَمَلِ فِي الْخِلَاصِ، إِذَا فَسَدَتِ السِّيَاسَةُ وَالتَّسَلُّطُونَ مِنْ أَهْلِ الْإِمَارَةِ وَالسُّلْطَانِ. والإمام الغزالي يرى أن فساد المجتمعات بسبب فساد الملوك وَالْحُكَّامِ، وَإِنَّمَا يَفْسُدُ الْمُلُوكُ بِفَسَادِ الْعُلَمَاءِ، وَإِنَّمَا فَسَادُ الْعُلَمَاءِ بِفَسَادِ قُلُوبِهِمْ، وَفَسَادُ قُلُوبِهِمْ إِنَّمَا هُوَ بِسَبَبِ حُبِّ الدُّنْيَا، وَنَسْيَانِ الْآخِرَةِ. ولهذا يبدأ الإصلاح الحقّ بإصلاح العلماء، وإصلاح العلماء في نظرنا يدور على أمرين: إصلاح العقول والأفكار، وإصلاح القلوب والضمائر.

وإصلاح العقول ينبغي أن يبدأ من المَحْضَنِ، من المعهد الذي يصنع عقل الطالب، بحيث يتعلّم فيه ثقافة إسلامية خصبة وحيّة، تعتمد على لباب العلم لا على قشوره، وعلى الجوهر لا على الشكل، وعلى المعنى لا اللفظ، وتهدف إلى إيقاظ الروح القلب، إلى جَوَارِ إِضَاءَةِ الْعَقْلِ وَالْفِكْرِ، وَأَنْ تَجْمَعَ إِلَى هَذِهِ الثَّقَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ: ثَقَافَةٌ عَصْرِيَّةٌ مُنَاسِبَةٌ، تَصِلُ الطَّلَبَ بِزَمَانِهِ وَبِئَيْتِهِ.

وهذا المبحث يشتمل على تسعة عشر مطلباً، وبيانها كالآتي:

المطلب الأول: موقف القرضاوي من الديمقراطية

وحيثما سافر الشيخ القرضاوي إلى الجزائر في السنة الدراسية ١٩٩٠م - ١٩٩١م، كان الجوّ في الجزائر متوتراً بين الإسلاميين بعضهم بعضاً، وهذا مما يؤسف له، ولا سيّما بين الفصيلتين الكبيرتين: أَلْجَبَهَةُ الْإِسْلَامِيَّةِ لِلْإِنْقَازِ «الشيخ عباس مدني وجماعته» وحركة المجتمع الإسلاميّ: حماس «الشيخ محفوظ نحاح وجماعته».

وكانت تصدر من بعض أعضاء جبهة الإنقاذ: تصريحات مثيرة تستفزّ الناس، مثل قول بعضهم عن الديمقراطية: إنها كفر! وهي مُجَارَفَةٌ خَطِيرَةٌ، وقد سمع الشيخ القرضاوي هذا الكلام، وهو في الجزائر، وردّ عليه في حينه، ثمّ ردّ عليه في كتابه «فتاوى معاصرة»^١ ومثل قول بعضهم: «لا تحالف في الإسلام» تعليقا على ما نادى به الإخوة في «حماس» من ضرورة عمل «ميثاق وطني إسلامي» يتحالف عليه من شاء من الأحزاب. فردّوا عليهم بحديث المروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أَبْلَعَكَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ» فَقَالَ: قَدْ حَالَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ قُرَيْشٍ وَالْأَنْصَارِ فِي دَارِي.^٢

شرح الحديث المذكور: «لا حلف في الإسلام»، المراد به حلف التوارث والحلف على ما منع الشرع منه. قال الطبري لا يجوز الحلف اليوم فإن المذكور في الحديث والموارثة به وبالمؤاخاة كله منسوخ لقوله تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [٧٥].^٣

١ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، فتاوى معاصرة، الفصل: الديمقراطية، (القاهرة، دار القلم، الطبعة: الرابعة، ١٩٩١م)، ج ٢، ص ٣٠٢

٢ البخاري، الجامع الصحيح للبخاري، باب: الإخاء والحلف، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ)، رقم الحديث: ٦٠٨٣، ج ٨، ص ٢٢، ومسلم، الصحيح لمسلم، باب: مؤاخاة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (بيروت، دار إحياء التراث العربي) الطبعة: ١، ١٤٢٢هـ)، رقم الحديث: ٢٠٤، ج ٤، ص ١٩٦٠

٣ القرآن الكريم، الأنفال (٨)، الآية [٧٥].

وقال الحسن: كان التوارث بالخلف فنسخ بأية الميراث. وقال الإمام النووي: أما ما يتعلق بالإرث فيستحب فيه المخالفة عند جماهير العلماء وأما المؤاخاة في الإسلام والمخالفة على طاعة الله تعالى والتناصر في الدين والتعاون على البر والتقوى وإقامة الحق فهذا باق لم ينسخ وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم في هذه الأحاديث وأما حلف كان في الجاهلية لم يزد الإسلام إلا شدة. وهنا هذا الاعتبار.

وبالتالي قال الشيخ القرضاوي: وهو حديث صحيح، لكنه وضع في غير موضعه، فقد تحالف الرسول صلى الله عليه وسلم مع خزاعة بعد صلح الحديبية^١. وكان منهم مسلمون ومشركون. وقد نسبوا إليهم أنهم قالوا: إذا وصلنا إلى الحكم، فلن نسلمه لغيرنا أبداً. وإنما نتخذ الديمقراطية سُلماً للوصول، فإذا وصلنا ألعينا الديمقراطية... فإذا انتشرت في قُراها وأقطارها كانت خير عنوان للإسلام، واستطاعت بعزم وعلم وعمل أن تحوّل الآمال إلى حقائق، والفرقة إلى وحدة، والتخلف إلى سبق بعيد. هذه مهمتنا التي نبذنا أنفسنا لها، وبنظرها منا مجتمعنا، ويحاسبنا عليها ربنا. ﴿وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [١٠٥]﴾^٢. وفي آية أخرى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ [٣٨]﴾^٣.

المطلب الثاني: كلمته الرائعة حول موظفي الحكومة ومسئوليتهم

في شتاء سنة ١٩٨٥م، ألقى الشيخ القرضاوي كلمة رائعة في عاصمة ماليزيا "كوالالمبور" بإلحاح السيد أنور إبراهيم عليه، وقد جمع السيد أنور: كبار المسؤولين في الوزارات المختلفة - مستوى وكيل وزارة ومدير عام، وأمثالهم - ليلتقي بهم، ويوجههم الوجهة التي يحب، ويستمع إلى أسئلتهم يجيب عنها.

وقد اجتمع الشيخ القرضاوي بهؤلاء الموظفين الكبار، وألقى عليهم كلمة توجيهية مناسبة، وتتضمن ما يطلبه الإسلام من المسلم في أداء عمله، حتى يكون الشخص القوي الأمين، والحفيظ العليم، وأن إتقان العمل في الإسلام عبادة وفريضة، فإن الله كتب الإحسان - الإتقان - على كل شيء، والله تعالى يحب من أحدنا إذا عمل عملاً أن يجزيه، فإن الله يحب المحسنين. وتتضاعف مسؤولية العامل إذا كان على رأس العمل، وكان مسئولاً عن غيره، فإن الله تعالى سائل كل راع عما استرعاه، فإن الله تعالى سائل كل راع عما استرعاه، حفظ أو ضياع، وكل مسئول عن رعيته.

ولا يكفي في حسن الإدارة القوائين واللوائح المنظمة للعمل، بل لا بد - وراء ذلك كله - من النزاهة والضمير الحي، الذي هو رقيب على صاحبه، وإن غاب الرقيب. وهو الذي جعل الفتاة تقول لأمتها: إذا كان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لا يرانا، فإن رب أمير المؤمنين يرانا. وهو الذي جعل العبد المملوك راعي الغنم، حين سأله عمر أن يبيعه شاة من غنمه، فقال له: إنها ليست له، بل هي لسيدته، فأراد عمر أن يخرجه، وقال له: خذ ثمنها، وقل لسيدك: أكلها الذئب! فقال له: يا هذا، فأين الله؟! وكان لا يعرف أن محدثه أمير المؤمنين. إن رقابة الله سبحانه أهم من رقابة القانون، فإن القانون يمكن الاحتيال عليه، والله جل جلاله لا يمكن أن يُحتال عليه، فهو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يعلم السر وأخفى^٤.

١ القرضاوي، يوسف عبد الله، *فقه الجهاد*، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الرابعة، ١٩٩٠م)، ص ٢٠٥ - ٢٠٦.

٢ القرآن الكريم، التوبة (٩)، الآية [١٠٥].

٣ القرآن الكريم، محمد (٤٧)، الآية [٣٨].

٤ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٣١٧.

المطلب الثالث: أفكاره في الجهاز السري أي النظام الخاص^١ لجماعة إخوان المسلمين

كان الجهاز السري أي النظام الخاص يشكّل جماعة داخل في تلك البُرْهَة، أو كما يقولون: دولة داخل الدولة، بل كان يعتبر نفسه هو الجماعة الحقّة، وما الآخرون إلا " ديكور " وزينة، أو كثرة كغشاء السيل.

فكّر القرضاوي في نفسه: هل أصلح لنظام الخاص؟ وهل أصلح في تنظيم سريّ، وعمله كلّه عليّ؟ ثمّ إنه يفترض الطاعة العمياء من أفراد، وهو لا يلتزم إلا بطاعة مبصرة، ولا يفعل شيئاً لا يفهمه، ولا يعرف فحواه ولا مشروعيتّه؟

ثمّ ما هذا النظام الذي يجعل في المنطقة الواحدة مسئولاً سريّاً، ومسئولاً علنيّاً لا يعلم عن المسئول الآخر شيئاً، وهل يجيز الإسلام هذه الإزدواجيّة؟ وما الحكم لو صدر أمران متعارضان للأخ: أحدهما من الرئيس العلنيّ، والآخر من القائد السريّ؟ ثمّ كيف يفرض على الناس مسئول لا يعرفون عنه شيئاً، لأنّه لا يحضر إلى دار الإخوان، ولا يسمع محاضرة ولا درساً، ولا يشارك في نشاط عام، ولا يُستطاع أن يُحكّم له أو عليه؛ لانه يعيش في مخبأ سريّ كالإمام الغائب، لا يُعرف عنه كثيراً ولا قليلاً؟!!

على أن هنا خللاً واضحاً، إذ كان يجب أن يكلمه الحاج أحمد البس في ذلك أولاً، فهو يعرفه ويعرف تاريخه، ويعرف منزلته في الدعوة، أما أن يكلمه رجل مجهول غير معلوم، فهذا ما ينبغي أن ينكر ولا يستساغ. كان هذا ما يدور في خلدِهِ وما يجول بفكره، ولكن لم يتخذ موقفاً حاسماً، إذ لم يكن مطلوباً منه شيء غير عاديّ يفعله، وكان ينتهز الفرصة ليناقد الأمر في القضية مع الحاج أحمد البس مسئول الغريّة، أو مع الإخوة في القاهرة، ولا سيّما مع المرشد العام نفسه، عندما تسمح الظروف، ولكنّ الظروف كانت تتغيّر بسرعة هائلة.

المطلب الرابع: وَفَقَةُ القرضاوي للتقويم النظام الخاصّ

في سنة ١٩٤٠م أنشأ الأستاذ البنا جهازاً داخل الجماعة، سمّاه: " النظام الخاصّ " يضمُّ إليه من أفراد الجماعة الإخوان الذين عرفوا بإخلاصهم للدعوة، وثباتهم عليها، والتزامهم بتعاليمها وتوجيهاتها، كما يتميّزون باللياقة البدنيّة، والقدرة على الاحتمال، والصبر على المكاره، وكنمان الأسرار، والسمع والطاعة في المُنَشِّط والمكره، والاستعداد للتضحية والبذل، ولو بالنفس والنفيس.^٢ كلّف الأستاذ حسن البنا خمسة من الإخوان بالإشراف على هذا النظام واختيار جنوده، وتدريبهم على متطلّبات للجهاد، وإعدادهم لليوم الموعود.

وكان وراء تكوين هذا النظام عدّة أهداف يسعى إلى تحقيقها:

أولها: مقاومة الإنجليز، الذين يحتلّون مصر والسودان وغيرهما من بلاد العرب والمسلمين، فمن المعروف أن الحرّيّة والسيادة والاستقلال للأوطان لا تنال بالخطب ولا بالمفاوضات، ما لم تُسندَها مقاومة شعبية مُسلّحة. أكّد القرضاوي ضرورة هذا التنظيم: أن التجنيد في ذلك الوقت لم يكن إجباريّاً، وكان من يملك عشرين جنينها يستطيع أن يعفي نفسه من الخدمة العسكريّة.

ثانيها: مقاومة المشروع الصهيونيّ، الذي غزا المنطقة بمكر ودعاء، وأقام مستعمرات شتى في أرض فلسطين.

فلا بدّ من إعداد جيل مجاهد؛ ليقف في وجه أطماع بني صهيون، ويواجه القوّة بالقوّة المستطاع إعدادها، ليُرْهبَ بها عدو الله وعدوّه.

١ كان النظام الخاص يشكّل جماعة داخل الجماعة، أو كما يقولون: دولة داخل الدولة، بل كان يعتبر نفسه هو الجماعة الحقّة، وما الآخرون إلا " ديكور " وزينة، أو كثرة كغشاء السيل.

٢ القُرْضاوي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ١٤٦

ثالثها: حماية الدعوة من أعدائها الذين قد يحاولون اقتلاع جذورها، وإيقاف مسيرتها، وتعويق حركتها، بقانون القوة، أو بقوة القانون، عن طريق الأحكام العرفية أو الطوارئ العسكرية.

وهنا يجب أن تدافع الدعوة عن نفسها ووجودها، إذا اعتدى عليها، وعلى حُرْمَاتِهَا، حُرْمَاتٍ من حقها في إبلاغ كلمة الإسلام إلى الناس، وجمعهم عليه، وتربيتهم على منهجه. وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [٣٩].^١

رابعها: غرس روح الجهاد في الشباب المسلم، هذا الجهاد الذي طَمَسَتْ مَعَالِمَهُ، وَخَنَقَتْ أَنْفَاسَهُ فِي مَجْتَمَعَاتِ الْمُسْلِمِينَ، وَحَلَّ مَحَلَّهُ رُوحَ الْمُيُوعَةِ وَالطَّرَاوَةِ، وَالْإِحْلَادِ إِلَى الرَّاحَةِ وَالِدَّعَةِ وَ نُعُومَةِ الْعَيْشِ، وَالْأَمَمِ الَّتِي دَيْسَتْ حَقُوقُهَا، وَاتْتَهَكَتْ حُرْمَاتُهَا، وَاحْتَلَّتْ أَرْضَهَا، يَجِبُ عَلَيْهَا أَنْ تُعَدَّ أَبْنَاءَهَا لِلجِهَادِ لِتَحْرِيرِ أَرْضِهَا، وَاسْتِعَادَةِ حَقِّهَا، وَطَرْدِ غَاصِبِهَا. وَلَا سِيَّمَا الْأُمَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ الَّتِي أَمَرَهَا اللَّهُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَاشْتَرَى مِنْ أَبْنَائِهَا أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَمْ يَجِدُوا الْجَنَّةَ. وَلَقَدْ جَعَلَتْ دَعْوَةَ الْإِحْوَانِ مِنْ شِعَارَاتِهَا مِنْذُ ارْتَفَعَتْ رَايَتُهَا: بِالْجِهَادِ سَبِيلِنَا، وَالْمَوْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَسْمَى أَمَانِينَا، فَلَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ لِهَذَا الشُّعَارِ مَدْلُولٌ عَمَلِيٌّ فِي تَكْوِينِ أَبْنَائِهَا. وَكَانَ النِّظَامُ الْخَاصُّ هُوَ الَّذِي يُؤَثِّرُ ذَلِكَ بِقُوَّةٍ وَجَلَاءٍ، وَيُدْرِبُ الشَّبَابَ عَلَى الْأَعْمَالِ الْجِهَادِيَّةِ وَالْعَسْكَرِيَّةِ الْإِلْزَامِيَّةِ لِكُلِّ مَنْ يُهَيِّئُ نَفْسَهُ لِلدَّخُولِ فِي مَعْرَكَةٍ مَعَ أَعْدَاءِ الْأُمَّةِ.

خامسها: السعي إلى تغيير الحكم العلماني الذي لا يَحْكُمُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَلَا يَحْتَكِمُ إِلَى شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ وَوَقِيهِ فِي تَشْرِيعِهِ وَتَقْنِينِهِ، وَلَا فِي اقْتِصَادِهِ وَسِيَاسَتِهِ، وَلَا فِي تَرْبِيَتِهِ وَتَعْلِيمِهِ، وَلَا فِي ثِقَاتِهِ وَإِعْلَامِهِ، وَلَا فِي تَقَالِيدِهِ وَأَدَابِهِ، عَنْ طَرِيقِ "انقلاب عسكري" تكون طلائعُهُ مِنْ أَبْنَاءِ النِّظَامِ الْخَاصِّ.

هذه هي الأهداف الخمسة التي كان يُرْجَى مِنَ النِّظَامِ الْخَاصِّ أَنْ يُحَقِّقَهَا أَوْ يُسَاهِمَ فِي تَحْقِيقِهَا، وَكُلُّهَا أَهْدَافٌ مَشْرُوعَةٌ وَمَقْبُولَةٌ، وَلَا يَسَعُ أَيُّ مُسْلِمٍ أَوْ وَطَنِيٍّ حَزْرًا إِلَّا أَنْ يُرْحَبَ بِهَا، وَخُصُوصًا فِي تِلْكَ الْمَرِحَلَةِ مِنْ مَرَاكِلِ تَارِيخِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَامَّةً، وَالْعَرَبِيَّةِ خَاصَّةً، وَالْمِصْرِيَّةِ عَلَى وَجْهِ أَحْصَ.^٢ وَلَكِنْ مَاذَا كَانَ مَوْقِفُ النِّظَامِ الْخَاصِّ مِنْ هَذِهِ الْأَهْدَافِ؟ وَهَلْ اسْتَطَاعَ أَنْ يُحَقِّقَ شَيْئًا مِنْهَا؟ وَهَلْ ظَلَّتْ هَذِهِ الْأَهْدَافُ بَاقِيَةً فِي بَرْنَامِجِهِ أَوْ تَعَيَّرَتْ؟ أَوْ فَعَدَتْ مِصْدَاقِيَّتِهَا؟

أما المهدفان الأولان - مقاومة الاحتلال البريطاني والاستعمار الصهيوني - فلا يَنْكُرُ أَنَّ النِّظَامَ قَدْ قَامَ مَشْكُورًا بِبَعْضِ الْأَعْمَالِ ضِدَّهِمَا، وَضَرَبَ بَعْضَ الْمَوْسَسَّاتِ التَّابِعَةِ لِكُلِّ مِنْهُمَا، وَرُبَّمَا قِيلَ: لَمْ يَكُنْ وَجُودُ النِّظَامِ الْخَاصِّ شَرْطًا لِتَحْقِيقِ ذَلِكَ، فَقَدْ يُمْكِنُ ذَلِكَ عَنْ طَرِيقِ تَنْظِيمِ الْمَقَاوِمِ الْوَطَنِيَّةِ الشَّعْبِيَّةِ، كَمَا حَدَثَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الشُّعُوبِ وَالْأَوْطَانِ، وَلَكِنْ نَقُولُ: إِنْ الْعَمَلُ السَّرِّيُّ فِي حَالَاتِ مَقَاوِمِ الْعَدُوِّ الْمُحْتَلِّ أَكْثَرَ جَدْوَى، وَخُصُوصًا مَعَ وَجُودِ الْحُكُومَاتِ الْمُوَالِيَّةِ لَهُ، أَوْ الْمُسْتَحْدِيَّةِ أَمَامَهُ.

وقد شهدوا عندما فتح باب التطوع لجهاد العدو الصهيوني في فلسطين سنة ١٩٤٨م، والعدو البريطاني في سنة ١٩٥١م: أن الذين تقدموا لجهاد الأعداء من الإخوان عامة، ومن الشعب كافة، كان أكثرهم من غير أعضاء النظام الخاص. كما تبين أن النظام بكل ما لديه من قوة بشرية ومادية، لم يمكنه حماية الدعوة من الضربات التي وجهت إليها، سواء سنة ١٩٤٨م في عهد الملكية المصرية، أم سنة ١٩٥٤م في عهد الثورة؛ لأن سيف الحكومة أقطع، وقوة الحكومة أغلب. بل كان النظام الخاص في كلا العهدين من أسباب اضطهاد الإخوان من خصومهم، وأتهمهم بالعمل على قلب نظام الحكم، وإنشاء جهاز سري مسلح مخالفًا لقوانين الدولة،

١ القرآن الكريم، الشورى (٤٢)، الآية [٣٩].

٢ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ١٤٩

وَاتَّخَذُوا مِنْ بَعْضِ الْأَعْمَالِ الَّتِي مِنَ النِّسَابِ ضِدَّ الْإِبْتِغَاءِ أَوْ الصَّهَابَةِ: ذَرِيعةٌ لِضَرْبِ الْإِخْوَانِ وَحَلِّ جَمَاعَتِهِمْ، وَاتِّهَمُوا بِاسْتِخْدَامِ الْعُنْفِ. وَإِذَا قَارَنَّا بَيْنَ جَمَاعَةِ الْإِخْوَانِ فِي مِصْرَ وَالْجَمَاعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي بَاكِسْتَانِ وَبَنْغَلَادِيَشِ الَّتِي أَسَّسَهَا الْإِمَامُ أَبُو الْأَعْلَى الْمُوْدُوْدِي، نَجِدُ كِلْتَا الْجَمَاعَتَيْنِ تَحَارِبُ مِنَ السُّلْطَاتِ الْحَاكِمَةِ، وَلَكِنَّ الْجَمَاعَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ، سُرْعَانَ مَا يَقِفُ الْقَضَاءُ فِي مَحَاكِمَةِ الْعُلِيَا بِجَانِبِهَا، وَيَحْكُمُ لَهَا بِالْعَوْدَةِ إِلَى مُمَارَسَةِ نَشَاطِئِهَا، وَإِلْغَاءِ الْخَطَرِ الْمَفْرُوضِ عَلَيْهَا، إِذْ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهَا نِظَامٌ سَرِّيٌّ خَاصٌّ، يَسْتِخْدَمُ الْقُوَّةَ فِي تَنْفِيذِ أَعْرَاضِهِ، وَلِذَا لَمْ يَجِدِ الْقَضَاءُ أَمَامَهُ أَيَّ تَهْمَةٍ يُمْكِنُ أَنْ يُلْصِقَهَا بِهَا.^١

أَمَّا إِعْدَادُ الشَّبَابِ لِلْجِهَادِ وَتَدْرِيئِهِ عَلَى مُتَطَلِّبَاتِهِ، فَالْحَقُّ أَنَّ النِّظَامَ الْخَاصَّ قَدْ قَامَ بِهَذِهِ الْمَهْمَةِ خَيْرَ قِيَامٍ، وَرَبَّى عَلَى الْجِهَادِ وَالْفِدَاءِ وَالتَّضْحِيَةِ: شَبَابًا كَانُوا بِحَقِّ تَمَازِجٍ وَمَثَلًا رَفِيْعَةً لْغَيْرِهِمْ فِي رِيَاثَتِهِمْ وَتَقَاتِهِمْ وَإِثَارِهِمْ فَكَانُوا بِحَقِّ: رَهْبَانَ اللَّيْلِ، وَفِرْسَانَ النَّهَارِ. تَكَادُ تَحْسِبُهُمْ مِنْ بَقَايَا السَّلَفِ الصَّالِحِ. وَقَدْ ضَمَّ النِّظَامُ فِيمَا رَأَى الْقِرْضَاوِي: خَيْرَةَ الْعُنَاصِرِ الْإِخْوَانِيَّةِ.

عَلَى أَنَّهُ يَقُولُ: إِنَّ التَّدْرِيْبَ عَلَى مُتَطَلِّبَاتِ الْجِهَادِ وَالسَّلَاحِ، كَانَ مَطْلُوبًا وَلَا زَمًا فِيمَا سَبَقَ. أَمَّا الْيَوْمَ لَمْ يُعَدَّ حَاجَا إِلَيْهِ، بَعْدَ أَنْ أَصْبَحَ التَّجْنِيْدُ إِجْبَارِيًّا، وَغَدَا كَلَّ مُوَاطِنٍ يَعْرِفُ كَيْفَ يَسْتِخْدَمُ الْبُنْدُوقِيَّةَ وَالْمِدْفَعُ، وَأَمَّا أَعْمَالُ الْحُشُونَةِ وَالتَّرْبِيَةِ الْبَدَنِيَّةِ، فَلَا تَحْتَاجُ إِلَى نِظَامٍ سَرِّيٍّ خَاصٍّ لِمُزَاوَلَتِهَا، بَلْ يُمْكِنُ أَنْ تَمَارَسَ فِي الْعَرَءِ فِي الرِّحَالِ وَالْمَجِيْمَاتِ، وَعَلَى مَرَأَى وَمَسْمَعٍ مِنَ الْجَمِيْعِ.

بَقِيَ مَا يَقَالُ عَنِ تَغْيِيْرِ الْحُكْمِ بِانْقِلَابٍ عَسْكَرِيٍّ فَهِيَ لَا تَسْتَعْمَلُ إِلَّا لِلضَّرُورَةِ، وَمَا أُبِيحَ لِلضَّرُورَةِ يُقَدَّرُ بِقَدْرِهَا، وَبِشُرُوطِهَا وَضَوَابِطِهَا. يَقُولُ الدُّكْتُورُ حَسَنُ التَّرَايِي مُدَبِّرٌ وَمُحَطِّطٌ الْانْقِلَابِ الْعَسْكَرِيِّ: أَحْذَرُوا مِنَ الْعَسْكَرِيِّينَ، فَمَصِيْرُكُمْ مَعَهُمْ وَهُوَ نَفْسُ مَصِيْرِي! هَذَا مَعَ تَمَيُّزِ "ثَوْرَةِ الْإِنْفَاذِ" بِأَنَّهَا كَانَتْ ثَوْرَةٌ بِيضَاءٌ لَمْ تَرَقَّ فِيهَا قَطْرَةٌ دَمٍ حِينَ اسْتَوَلَّتْ عَلَى الْحُكْمِ، وَأَنَّهَا بَنَتْ الْإِسْلَامَ وَشَرِيْعَتَهُ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ، وَلَمْ تَتَخَلَّ عَنْهُ إِلَى الْآنِ. هَذَا مَعَ ضَعُوفِيَّةِ نَجَاحِ الْانْقِلَابَاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ الشَّعْبِيَّةِ فِي مُوَاجَهَةِ الْجِيُوشِ الْحُكُومِيَّةِ وَالْقُوَّاتِ الْمُسَلَّحَةِ. وَهَذَا أَمْرٌ لَهُ خَطُورَتُهُ فِي التَّرْبِيَةِ: الْإِعْجَابُ النَّفْسِ، فَهُوَ أَحَدُ الْمُهْلِكَاتِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوَى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ».^٢ وَيَتَرْتَّبُ عَلَى هَذَا احْتِقَارُهُ لْغَيْرِهِ، وَاعْتِقَادُهُ أَنَّهُ هُوَ اللَّبُّ، وَمَنْ عَدَاهُ قِشْرٌ وَأَنَّهُ هُوَ الْجَوْهَرُ، وَالْآخَرُونَ عَرَضٌ وَشِكْلٌ. وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيْحِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بِحَسَبِ أَمْرِي مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْفَرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ».^٣

وَهَذَا الْعُرُوزُ لَدَى أَعْضَاءِ الْجِهَادِ الْخَاصِّ فِي أَنْفُسِهِمْ، مَعَ وَجُودِ الْقُوَّةِ الْمَادِيَّةِ فِي أَيْدِيهِمْ، جَعَلَهُمْ يَسْتِخْفُونَ بِالْقِيَادَةِ الشَّرْعِيَّةِ لِلْجَمَاعَةِ، وَيَفْتَنُونَ لِأَنْفُسِهِمْ بِمَا يَجُوزُ وَمَا لَا يَجُوزُ، حَتَّى إِذَا خَرَجُوا عَلَى طَاعَةِ إِمَامِهِمْ وَمُرْشِدِهِمْ الْأَوَّلِ نَفْسَهُ، وَنَقَدُوا بَعْضَ التَّعْلِيْمَاتِ الْخَطِيْرَةِ بِغَيْرِ إِذْنِهِ، كَمَا رَأَيْنَا فِي كَثِيْرٍ مِنَ الْبِلَادِ: مَقْتَلِ الْخَازِنْدَارِ، قَبْلَ حَلِّ الْإِخْوَانِ، وَحَادِثِ نَسْفِ مَحْكَمَةِ الْاسْتِثْنَاءِ بَعْدَ حَلِّ الْإِخْوَانِ، وَهُوَ الَّذِي اضْطَرَّ الْإِمَامُ الْبِنَا أَنْ يَصْدُرَ بِيَانُهُ الْخَطِيْرُ وَالشَّهِيْرُ الَّذِي قَالَ فِيهِ: "هُؤْلَاءُ لَيْسُوا إِخْوَانًا وَلَيْسُوا مُسْلِمِيْنَ!!"

١ الْقِرْضَاوِي، يُوْسُفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، *ابْنُ الْقَرِيَّةِ وَالْكِتَابُ مَلَامِحُ سِيْرَةٍ وَمَسِيْرَةٍ*، (قَطْرٌ، دَارُ الْكُتُبِ الْقَطْرِيَّةِ، الطَّبْعَةُ: الْأَوَّلَى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ١٥٠

٢ الْبِيَهَقِيُّ، أَحْمَدُ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ، *الْمَعْجَمُ الْأَوْسَطُ*، [الْحَقِيقُ: طَارِقُ بْنُ عَوْضِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَبْدِ الْمُحْسَنِ بْنِ إِبْرَاهِيْمِ الْحُسَيْنِيِّ]، (الْقَاهِرَةُ - دَارُ الْحَرَمِيْنَ)، رَقْمُ الْحَدِيثِ: ٥٤٥٢، ج ٥، ص ٣٢٨، وَفِي شَعْبِ الْإِيْمَانِ، بَابُ الْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ، (مَكْتَبَةُ الرَّشْدِ لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيْعِ بِالرِّيَاضِ بِالتَّعَاوُنِ مَعَ الدَّارِ السَّلْفِيَّةِ بِبُومَبَايَ بِالْهِنْدِ، الطَّبْعَةُ: الْأَوَّلَى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣م)، رَقْمُ الْحَدِيثِ: ٧٣١، ج ٢، ص ٢٠٣

٣ النِّيْسَابُورِيُّ، مُسْلِمٌ، *الصَّحِيْحُ لِمُسْلِمٍ*، بَابُ: تَحْرِيْمِ ظُلْمِ الْمُسْلِمِ وَخِذْلِهِ، (بِيْرُوتُ، دَارُ إِحْيَاءِ التَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ)، رَقْمُ الْحَدِيثِ: ٢٥٦٤، ج ٤، ص ١٩٨٦. وَالشَّيْبَانِيُّ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ حَنْبَلٍ، *مُسْنَدُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ*، (بِيْرُوتُ: مُؤَسَّسَةُ الرِّسَالَةِ، الطَّبْعَةُ: الْأَوَّلَى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١م)، رَقْمُ الْحَدِيثِ:

وجدريد بالذكر أن الأستاذ حسن الهضيبي المُرشِدُ الثاني للإخوان المسلمين، بعد أن بويع مُرشِداً، وعَلِمَ بوجود النظام الخاصّ في الجماعة، أنكر ذلك، وقال كلمته الشهيرة: "لا سِرِّيَّة في الإسلام."! ويبدو أنّ بعض مستشاريه أشاروا عليه أن من المصلحة الإبقاء على النظام الخاصّ في الوقت الحاضر، وقد اقتنع الرجل بذلك، ولكنه أصرّ على أن يُغيّر قيادة النظام، بعد أن استبدت بالأمر، وخالفت القيادة الشَّرعيَّة للجماعة، وغدت تتصرّف وكأنّها السلطة الشرعيَّة وحدها. وحين أبلغت قيادة النظام بما قرّره مكتب الإرشاد، رفض القرضاوي الإنصياع لأمره، وقرّر عمل انقلاب داخليّ في الجماعة عن طريق النظام، يفرض ما يريد بحقّ القوّة، لا بقوّة الحقّ.^١

وكان من احتلال المركز العام، اقتحام منزل المرشد، ومحاولة فرض الاستقالة عليه، وتكليف لجنة لإدارة الجماعة... إلخ... وقد باءت هذه المحاولة كلّها بالإخفاق، ولم يحالفها التوفيق، ولم تتجاوب معها الجماعة، وكانت الشرعيّة المجرّدة من السلاح، المؤيَّدة بالجماعة: أصلب وأقدر وأثبت من القوّة الفاشيَّة المؤيَّدة بالسلاح، وقد اعترف كثير من الشبّان المخلصين الذين شاركوا في هذه الفتنة العمياء بِخَطئهم، وتابوا إلى الله تعالى، وطلبوا من المرشد السَّمَّاح والعفو عنهم.

وكَلَّف المرشد الهضيبي المهندس سيّد فايز، ليتولّى إعادة صياغة النظام من جديد على قِيَم ومفاهيم ترضاهما الجماعة وقيادتهما. وربما كان المراد إدماج النظام في الجماعة، والخروج به شيئاً فشيئاً إلى الظهور والعلنيّة بالتدريج. ولكنّ قيادة النظام لم تُهَمَل سيّد فايز، ولم تمنحه الفرصة ليحقّق ما أراد أو ما أريد منه، فعاجلته بتدبير مَصْرَعِه بِسُرْعَةٍ، حين أرسلت له في منزله بمناسبة المولد النبويّ "عُلبَّة حَلوى" وكان غائبا عن المنزل، فلما عاد وفتح العُلبَّة كانت حَلوى المولد "قُنبَلَةٌ" انفجرت فيه وقصّت عليه وعلى شقيقته الصغرى التي كانت موجودة عند فتح العُلبَّة. هذه هي رواية الإخوان للحادثة، والعهدّة عليهم.

قال القرضاوي ونحن معه: ولا ندري بأيّ كتاب أم بأية سنّة، استحلّ هؤلاء قتل أخيهم في الله وفي الدين والدعوة؟ وكيف هان عليهم سَفْكَ دَمٍ بغير حقّ؟ ألم يقرأوا في القرآن قصّة ابني آدم، حين قال ابن آدم الشرير لآخيه الحَيِّر: ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ [٢٧]﴾ ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدَيَّ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ [٢٨]﴾. وما عَقَّب به القرآن على هذه القضية بقوله: ﴿مَنْ أَجَلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا [٣٢]﴾.^٢

لم يحقّق النظام الخاصّ - أو الجهاز السريّ - إذن ما أنشئ لأجله من أهداف، إلا في حدود ضيقة، ولم تُعدّ الحاجة إليه قائمة بعد تغيير الأوضاع في المنطقة. بل أصبح وجوده في الجماعة - بطبيعته السريّة المُغلقة - خطراً على الجماعة من الداخل، وخطراً عليها من الخارج. وأصبح إثم أكبر من نفعه. ولهذا تحرّرت الجماعة منه، ومن فكرة "العُنْف" أو "المُواجهَة المُسلّحة" مع الدولة، بصفة عامّة، كما دلّت على ذلك الوقائع، وشهد القرضاوي بذلك الأحداث.^٤

١ القُرَضَاوي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ١٥٣ - ١٥٤

٢ القرآن الكريم، المائدة (٥)، الآية [٢٧ - ٢٨].

٣ القرآن الكريم، المائدة (٥)، الآية [٣٢].

٤ القُرَضَاوي، يوسف بن عبد الله، *الإخوان المسلمون ٧٠ عامًا في الدعوة والتربية والاجتهاد*، فصل: "الإخوان والعنف"، (بيروت، دار القلم، الطبعة: الثانية، ١٩٩٠م)، ص ٩١. والكتاب: "الصحة الإنسانيّة من المراهقة إلى الرشد".

* اعترض بشدة الدكتور أحمد الملط نائب المرشد العام للإخوان في مصر رحمه الله حينما قال الشيخ القرضاوي في إقرار النظام الأساسي للهيئة الخيرية الإسلامية العالمية في سنة ١٩٨٦م حرصنا على أن تُبعد الصبغة السياسيّة والجهاديّة عن الهيئة، ضمناً لجُسن أدائها لعملها بعيداً عن المؤثرات السياسيّة وتياراتها المتناقضة. وهو ما يعرضها لخصومات وصراعات تضرها ولا تنفعها. ويقول للشيخ القرضاوي بوصفه صاحب الفكرة: كيف تُحذف السياسة من الإسلام يا شيخ يوسف؟ أتريدون إسلام الأضرحة والموالد، الذي يبارك الأنظمة الفاجرة، ويسير في ركاب الطغاة من الأحكام؟ ألسنت أنت الذي كنت تعلمنا: أن الإسلام عقيدة وشريعة، وعبادة ومعاملة، ودين وسياسة، وصلاة وجهاداً؟

قال الشيخ القرضاوي له: يا دكتور أحمد، نحن لا نؤمن بتجزئة الإسلام، ولا بحذف السياسة أو الاقتصاد أو الجهاد منه، ولكننا نؤمن بالتخصّص، ونحن متخصصّون في عمل الخير على كلّ مستويات، وعن طريق هذا الخير نرقي بالناس، حتّى نمكّنهم من العمل في السياسة والاقتصاد والدعوة والجهاد، وبعد أن نهيئ الخبز للحجاج، والكساد للعريان، والدواء للمريض، والكفالة لليتميم، والمسكن للمُشرّد، والعمل للعاطل، والتدريب للعامل، والمدرسة للأمي، والكفاية للأسرة... وهذه أمور تحتاج منا إلى جهود وأوقات وأموال وعقول، وطاقات بشريّة مدريّة، وكلّ هذه لا نملك منها إلا القليل، أو الأقلّ من القليل.

هذا هو عمل الهيئة الذي ينبغي أن نتفرغ له... أما السياسة والجهاد وغيرها، فلها رجالها، ولها مجالها، وقد خصّنا القرآن على رعاية التخصّصات، وسدّ الثغرات المختلفة، وعدم توجيه الطاقات كلّها في اتجاه واحد وإغفال ما عداه، وفي ذلك جاء قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [١٢٢].

المطلب الخامس: تعايش دعاة الإسلام مع النظام الحاكم المعتدل

ولكن الذي يدعو الشيخ القرضاوي إليه ويؤكّده: أنه في كثير من البلاد التي يشيع فيها جوّ الحرّيّة ومُناخ الديمقراطية، ويتمكّن دعاة الإسلام من عرض دعوتهم بلا قيود ولا تضييق، يمكنهم أن يتعايشوا مع النظام الحاكم، دون افتعال للصراع أو سعى إليه بغير ضرورة. والرسول صلّى الله عليه وسلّم يقول: عَنْ سَالِمِ أَبِي النَّضْرِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَتَمَنَّؤْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُّوا اللَّهَ الْعَاقِبَةَ»^٢. وهذا في العدو الكافر المحارب، فكيف بالحكّام وهم مسلمون أبناء مسلمين، يحكمون بلاداً إسلاميّة؟

المطلب السادس: فكرة القرضاوي في الحاكميّة

يتضح لنا فكرته في الحاكميّة عند حديثه عن فكرة سيّد قطب فيها، وهذا المطلب يشتمل على مسألة، وبيانها فيما يلي:

تحامل على سيّد قطب في فكرة الحاكميّة

ولقد اتّهم بعضُ الكاتبين سيّد قطب بأنه تبنى فكرة "الحاكميّة" التي أخذها عن المودودي^٣، وجعلها من صُلب عقيدة التوحيد، وربّب عليها أحكاماً خطيرة منها: أن الدولة التي تقوم على أساسها: أشبه ما تكون بالدولة الدينيّة، التي تقوم على الحكم بالحقّ الإلهي

١ القرآن الكريم، البقرة (٢)، الآية [١٢٢].

٢ البخاري، الجامع الصحيح للبخاري، باب: كراهية تمّى لقاء العدو، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة:

الأولى، ١٤٢٢هـ/الحديث: ٧٢٣٧، ج ٩، ص ٨٤

٣ العلامة أبو الأعلى المودودي، (المؤلّد: ١٩٠٣م - الممتوّق: ١٩٧٩م)، وهو كان أمير "الجماعة الإسلاميّة" ومؤسّسها في باكستان والهند، وصاحب الكتب والرسائل

التي قرأها المسلمون في لغات شتى، و ألفَ التفسير الشهير المسمّى بـ: "تفهم القرآن".

وهذا تحامل على الرجل. والحق أن فكرة الحاكمية أساء فهمها الكثيرون، وأدخلوا في مفهومها ما لم يرد أصحابها. يؤدّد الشيخ يوسف القرضاوي أن ينبّه هنا على جملة ملاحظات حول هذه القضية. وهذه المسألة تحتوي على ثلاث ملاحظات، وهي:

الملاحظة الأولى:

أن الحاكمية التي ركّز عليها سيّد قطب والمودودي، هي: الحاكمية بالمعنى التشريعي، ومفهومها: أن الله سبحانه هو المشروع لخلقه، وهو الذي يأمرهم وينهاهم، ويحلّ لهم ويحرم عليهم. وهذا ليس من ابتكار المودودي ولا سيّد قطب، بل هو أمر مقرّر عند المسلمين جميعاً. ولهذا حين قال الخوارج حكم إلا الله: لم يعترض عليّ رضي الله عنه على المبدأ، وإنما اعترض على الباعث والهدف المقصود من وراء الكلمة؛ فقال ردّاً عليهم: كلمة حقّ يراد بها باطل.

وقد بحث في هذه القضية علماء "أصول الفقه" في مقدّماتهم الأصولية التي بحثوا فيها عن الحكم الشرعي، والحاكم، والمحكوم به، والمحكوم عليه.

قال الإمام أبو حامد الغزالي في مقدمات كتابه الشهير "المستصفى من علم الأصول" عن "الحكم" الذي هو أوّل مباحث العلم، وهو عبارة عن خطاب الشرع، ولا حكم قبل وُزُودِ الشرع، وله تعلّق بالحاكم، وهو الشارع، وبالمحكوم عليه، هو المكلف، وبالمحكوم به، هو فعل المكلف. ثم يقول: وفي البحث عن الحاكم يتبيّن: أن "لا حُكْمَ إلا الله" وأن لا حكم للرسول، ولا للسيّد على العبد، ولا لمخلوق على مخلوق، بل كلّ ذلك حكم الله تعالى ووضعه، لا حُكْمَ لغيره. ثمّ يعود إلى الحديث عن "الحاكم"، وهو صاحب الخطاب المُوجِّه إلى المكلفين، فيقول: "أما استحقاق نفوذ الحكم، فليس إلا لمن له الخلق والأمر، فإنما النافذ حكم المالك على مملوكه، ولا مالك إلا الخالق، فلا حكم ولا أمر إلا له، أما النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، والسُلْطَاتُ والسيّد والأب والزوج، فإذا أمروا وأوجبوا لم يجب شيء بإيجابهم، بل بإيجاب من الله تعالى طاعتهم، ولو لا ذلك لكان كلّ مخلوق أوجب على غيره شيئاً كان للموجب عليه أن يُقلِّبَ عليه الإيجاب، إذ ليس أحدهما أولى من الآخر، فإذا الواجب طاعة الله تعالى، وطاعة من أوجب الله تعالى طاعته." ^٢ وبهذا نعلم أن فكرة "الحاكمية" ليست من اختراع سيّد قطب ولا المودودي، بل هي فكرة إسلامية أصيلة، قرّرها علماء الأصول، واتفق عليه أهل السنّة والمعتزلة جميعاً.

الملاحظة الثانية:

أن "الحاكمية" التي قال بها المودودي وسيّد قطب، وجعلها لله وحده، لا تعني أن الله تعالى هو الذي يُؤيّي الخلفاء والأمراء، يحكمون باسمه، بل المقصود بها الحاكمية التشريعية فحسب، أما سند السُلْطَةِ السياسيّة فَمَرْجِعُهُ إلى الأُمّة، هي التي تختار حكامها، وهي التي تحاسبهم وتراقبهم، بل تعتزلهم. والتفريق بين الأمرين مهمّ، والخَلْطُ بينهما مُؤْهِمٌ ومُضَلِّلٌ، كما أشار إلى ذلك الدكتور أحمد كمال أبو المجد بحقّ في أحد بحوثه.

١ حجة الإسلام والعلامة والإمام أبو حامد الغزالي، (المؤلّد: ٤٥٠ هـ - الممتوّق: ٥٠٥/١٠٥٨ هـ - ١١١١ م)، المستصفى، (بيروت - دار صادر، مصوّرة عن طبعة بولاق). ج ١، ص ٨

٢ حجة الإسلام والعلامة والإمام أبو حامد الغزالي، (المؤلّد: ٤٥٠ هـ - الممتوّق: ٥٠٥/١٠٥٨ هـ - ١١١١ م)، المستصفى، (بيروت - دار صادر، مصوّرة عن طبعة بولاق). ج ١، ص ٨٣. وفي "فتاوح الرحموت": "مسألة: لا حكم إلا من الله تعالى، بإجماع الأُمّة لا كما في كتب بعض المشايخ، إن هذا عندنا، وعند المعتزلة الحاكم العقل، فإن هذا مما لا يجترئ عليه أحد ممن يدعى الإسلام، بل إنهم يقولون: إن العقل مُعَرَّفٌ لبعض الأحكام الإلهية، سواء ورد به الشرع أم لا، وهذا مأثور عن أكابر مشايخنا أيضاً "يعني الماتريدية" ج ١ ص ٢٥ مع "المستصفى".

قال الشيخ القرضاوي للأستاذ سيّد قطب هنا: أن الحاكميّة التي يَلحُ عليها ويستدلّ عليها بآيات القرآن تعني أمرين: الحاكميّة الكونيّة، والحاكميّة الشرعيّة، فمن أقرّ بالحاكميّة الكونيّة القدريّة، فقد أقرّ بالحاكميّة، ولم يعطّل اللفظ عن معناه، بمعنى: أنه لا يتصرّف في الكون كلّّه إلا الله، إذا قضى أمرًا، إنما يقول له: كن فيكون، على أن المرء قد يقرّ بحاكميّة الله الأمريّة التشريعيّة وبنصّه ولا ينفذ أحكامه. وهي قضيّة علاقة الإيمان بالعمل.

فليس معنى الحاكميّة الدعوة إلى دولة ثيوقراطيّة، بل هذا ما نفاه كلّ من سيّد قطب والمودودي رحمه الله. وحسبُ هنا أن يذكر قول سيّد قطب في "معالجه:" "ومملكة الله في الأرض لا تقوم بأن يتولّى الحاكميّة في الأرض رجال بأعيانهم - هم رجال الدين - كما كان الأمر في سلطان الكنيسة، ولا رجال ينطقون باسم الآلهة، كما كان الحال فيما يُعرفُ باسم "التيوقراطيّة" أو الحكم الإلهي المقدس!! ولكنها تقوم بأن تكون شريعة الله هي الحاكمة، وأن يكون مرّد الأمر إلى الله وفق ما قرره من شريعة مبينة."

الملاحظة الثالثة:

أن الحاكميّة التشريعيّة التي يجب أن تكون لله وحده، وليست لأحد من خلقه، والتي نادى بها المودودي وسيّد قطب، هي: الحاكميّة "العليا" و "المطلقة" التي لا يحدها ولا يقيدتها شيء، فهي من دلائل وحدانيّة الألوهيّة. بل مُقوّمات التوحيد، كما بيّن القرآن في قوله تعالى: "أفغير الله أبتغي حكّمًا وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مُفصّلًا."^١ وهذه الحاكميّة - بهذا المعنى - لا تنفي أن يكون للبشر قُدْر من التشريع أذن به الله لهم. إنما هي تمنع أن يكون لهم استقلال بالتشريع غير مأذون به من الله، وذلك مثل التشريع الدينيّ المَحْض، كالتشريع في أمر العبادات، والتشريع الذي يحلّ ما حرّم الله، ويحرّم ما أحلّ الله، ويسقط ما فرض الله. أما التشريع فيما لا نصّ فيه، أو في المصالح المرسلّة، وفيما للاجتهاد فيه نصيب، فهذا من حقّ المسلمين؛ ولهذا كانت نصوص الدين في غالب الأمر كليّة إجماليّة لا تفصيليّة، ليتاح للناس أن يشرعوا لأنفسهم، ويملئوا الفراغ التشريعيّ بما يناسبهم.^٢

المطلب السابع: نقطة الضعف في المشروع القطبيّ^٣

نقطة الضعف الأساسيّة في المشروع الفكريّ والدعويّ لسيّد قطب - وهو مشروع عملاق بلا ريب - أنه كان شديد الإعجاب بعلامة الهند الكبير الأستاذ أبي الأعلى المودودي، وأنه اقتبس منه - تقريبًا - جميع أفكار التي كانت موضع الانتقاد في مشروع المودودي، مثل: الحاكميّة، والجاهليّة، والقسوة على التاريخ الإسلاميّ.

بل الواقع: أنه ربّ على هذه الأفكار من النتائج والآثار ما لم يرتبه المودودي نفسه، ساعده على ذلك قلمه البليغ، وأدبه الرفيع، وبيانه الحيّ الدافق. فقد تحدّث المودودي عن قضيّة "الحاكميّة" الإلهيّة لهذا الكون، الذي هو مملكة الله وحده، وهو سبحانه ملكها كما أنه مالِكها؛ فله وحده التصرّف في الحكم فيها، فهو الذي يأمر وينهى كما يشاء، ويُجَلّل ويُجرّم كما يريد، ويشرع للناس ما يشاء دون منازع، ولا يسأل عما يفعل؛ وهو ما نطقت به آيات القرآن الصريحة، مثل: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَفْصِلُ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [٥٧].^٤ وآية أخرى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ

١ القرآن الكريم، [الأنعام: ١١٤]

٢ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، *بينات الحان الإسلاميّ*، ص: ١٦٣-١٦٧، والكتاب: *عوامل السعة والمؤونة في الشريعة الإسلاميّة*.

٣ يراد بـ"القطبيّ" الأستاذ محمّد سيّد قطب، مؤلّف التفسير *في ظلال القرآن*.

٤ القرآن الكريم، الأنعام (٦)، الآية [٥٧].

رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تُكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ [١١٤] ﴿١﴾. وهذه قضية مُسَلِّمَةٌ كما نقلنا من قبل عن علماء أصول الفقه، ولكن المشكلة تقع في الإيجاعات التي تركتها هذه المسألة في الأنفس والعقول، حتى فهم بعض الناس مما قيل في شرحها وتفسيرها: أن لا دور للبشر في التشريع والتقنين، وإن كان تفصيليًا، أو مصلحيًا، أو إداريًا، أو إجرائيًا.

ولقد وقف كثير من الدعاة والمفكرين موقف النقد لمقولات "الفكر القطبي" التي انفرد بها، واقتبسها من المودودي، والتي انتشرت في "الظلال"، و تجسدت في "المعالم"، ومن هؤلاء من لا يمكن أن يتهم بأنه يعمل لحساب سلطة أو جهة غير إسلامية. يُذكر من هؤلاء: علامة الهند، الداعية الإسلامي الكبير: الشيخ أبو الحسن علي الندوي، في كتابه "التفسير السياسي للإسلام" والذي انتقد فيه أفكار الأستاذ أبي الأعلى المودودي، والأستاذ سيد قطب، وإن كان تركيزه على المودودي، لقوة تأثيره وانتشار كتبه في القارة الهندية، وخالفهما في التهوين من قيمة التنسك والتضخ إلى الله تعالى، والتركيز على الحاكمية بالمعنى السياسي. كما يُذكر من هؤلاء: المفكر المسلم المعروف الدكتور محمد عمارة، الذي نقد المودودي في شدته القاسية، أو قسوته الشديد على التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، في عبارات صدرت عنه، يقف شعر الرأس عند قراءتها. والله يغفر له، ويأجره على اجتهاده من فضله أجرًا واحدًا.

ثم قال الدكتور محمد عمارة: "ومن هذا الغلو المودودي - غير المبرر - انطلق الشهيد قطب (١٣٢٤هـ - ١٣٨٦هـ / ١٩٠٦م - ١٩٦٦م) في لحظات المِخْنَةِ والتَوَثُّرِ، التي كتب فيها "معالم في الطريق"، فقال: "إنه يدخل في إطار المجتمع الجاهلي، تلك تلك المجتمعات التي تَزْعُمُ لنفسها أنها مُسَلِّمَةٌ..... وهذه المجتمعات تدخل في هذا الإطار لا لأنها تعتقد بألوهية أحد غير الله، ولا لأنها تقدّم الشعائر التعبدية لغير الله أيضًا، ولكنها تدخل في هذا الإطار لأنها لا تدّين بالعبودية لله وحده في نظام حياتها، فهي - وإن لم تعتقد بألوهية أحد إلا الله - تعطي أخصّ خصائص الألوهية لغير الله، فتدّين بحاكمية غير الله، فتتلقى من هذا الحاكمية: نظامها، وشرائعها، وقيمها، وموازينها، وعاداتها وتقاليدها، وكلّ مقومات حياتها تقريبًا. إن موقف الإسلام من هذه المجتمعات كلّها يتحدّد في عبارة واحدة: إنه يرفض الاعتراف بإسلامية هذه المجتمعات."^٢

المطلب الثامن: موقف القرضاوي حول قضية تشريع الإسلام والقوانين الوضعية

من المعروف: أن القوانين الوضعية لا تخالف الشريعة الإسلامية مخالفة صريحة، إلا في القانون الجنائي، الذي لا يعترف بخصوصية العقوبات الإسلامية التي تتمثل في الحدود، مثل: حدّ السرقة، وحدّ الزنا، وحدّ القذف، وحدّ قطاع الطريق، وحدّ شُرْبِ الخمر، وإن كان هناك رأي قوي يرى أن عقوبة حدّ شُرْبِ الخمر عقوبة تعزيرية، مفوضة إلى الإمام أو القاضي، وهو يرجح الشيخ يوسف القرضاوي. كما تخالف القوانين الوضعية في الجانب المدني: الشريعة الإسلامية في تحريم الفوائد الربوية، وتحريم المعاملات التي تشتمل على غرر فاحش.

وأهمّ من ذلك: هو أن المُنْطَلَقَ الذي تنبعث منه القوانين الوضعية، غير المنطلق الذي تنبعث منه الأحكام الشرعية، فمنطلق القوانين: اعتبارات بشرية مَحْضَةٌ، أمّا منطلق الأحكام الشرعية، فهو وحي الله المتمثل في القرآن والسنة، وهذا لا يَحْجُزُ على المسلمين أن يجتهدوا لأنفسهم فيها لا نصّ فيه، عن طريق القياس أو الاستحسان والاستصلاح أو غيرها. ويمكنهم أن يقتبسوا من غيرهم ما يرونه أصلح لهم، وأليق بجلب الخير لهم، ودفع الشر عنهم، في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها العامة.

١ القرآن الكريم، الأعام (٦)، الآية [١١٤].

٢ السيد قطب، معالم في الطريق، (مصر، مكتبة تحفة الأمة)، ص: ١٠١ - ١٠٣.

وفرق بين أن يَصُدَّرَ التشريع بناء على قرار حاكم أو مجلس، وأن يَصُدَّرَ بناء على أمر الله تعالى به في كتابه وعلى سنة رسوله، وعلى ما اقتضته قواعد الشريعة ومقاصدها.^١

المطلب التاسع: نكبة حَزيران "يُونِيُو" (١٩٦٧م) وأنظار القرضاوي وتحليله وموقفه

إنه نكبة الخامس من حزيران "يونيو" (١٩٦٧/٦/٥م) الذي عرف بـ "حرب الأيام الستة". والذي هزمت فيه "إسرائيل" مصر وسوريا، هزيمة ثقيلة، واستولت على سيناء في مصر، والجولان في سوريا بضربة خاطفة قاضية، حطمت بها الطيران المصري، بضرب الطائرات وهي رابضة في مطاراتها، فدمرت الطائرات، وخرّبت المطار، وشلت بذلك سلاح الجو المصري، شللاً كلياً، لا شللاً نصفياً. وأضحت القوّات المصريّة في سيناء مكشوفة بلا غطاء جويّ، يحميها ويجرّسها من الضربات الجوية للعدوّ المتربّص. في الصباح على هذه القارعة الهائلة، وهذا النبأ المفزع، وأخذ يتتبّع الناس الإذاعات والتلفازات، ونشرت الأخبار، ليعرف المزيد عما حدث.

والشيخ يوسف القرضاوي في قطر. ولم يكن لقطر في ذلك الوقت إذاعة ولا تليفزيون، فكانوا يفتحون إذاعة مصر، و تليفزيون مصر، فإذا هما يقولان كلاماً، وتقول إذاعة لندن وغيرها كلاماً آخر. ثم عرفوا بعد ذلك أن أكثر البيانات التي كانت تدعيها مصر إنما هي أكاذيب مُلَفَّفَةٌ، تحاول أن تمسك بها الناس أن يثوروا. فهي تَحَدُّهُمُ بمعسول القول، وأخبار النصر، وإسقاط طائرة في المكان الفلاني، وأخرى في مكان آخر، والناس تُصَدِّقُ هذا الهُراء، وتركض من مكان إلى آخر لتبحث عن حُطَامِ الطائرة المسقطه، فلا تجد له أثراً، ولا تسمع له خَبِراً.^٢

ومن أوّل ما وقعت الحرب، ارتفع نَبْضُ الشارع العربيّ والإسلاميّ، واتقدت شعلة الحماسة للجهاد في صدور الناس من كلّ جنس ولون، ونادى جمهور الناس: أن حيّ على الجهاد، لقاومة الصهاينة، والدِّفاع عن الأقصى والمقدّسات.

واستقبلت منظمة التحرير الفلسطينية بالدوحة آلاف الناس يقفون في طوابير طويلة، يريدون تسجيل أسمائهم في المتطوعين لإنقاذ فلسطين. وكان أكثر هؤلاء حماسية: إخواننا من الباكستانيين والأفغانيين وغيرهم من أبناء البلاد الإسلاميّة، الذين يعيشون في قطر، قائلين: إن المسجد الأقصى ليس ملك فلسطينيين ولا العرب وحدهم، بل هو ملك المسلمين جميعاً، فعلينا أن نسهم في تحريره وإبعاد العدو عنه. أنهم أقاموا مع القرضاوي مَهْرَجَاناً منظّمة التحرير، وكان ممن يتكلّم فيه العالم القطريّ الغيور المعروف الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، فكان مما قاله للشباب الفلسطيني: اعتصموا بحبّ الله، وتمسكوا بالدين ينصرمك الله على عدوّكم.

إن إخراج الدين من المعركة هو الذي أضرّ بهذه القضية أبلغ الضرر؛ لأننا نجرّد أنفسنا من أمضى سلاح يحاول عدوّنا أن يضرنا به. فهو يستغل الدين ويوظفه في تعبئة قواه، وتجنيد رجاله، وهو غير مؤمن به. فكثير من الصهاينة "علمانيون" لا دين لهم، ولكنهم - وإن لم يؤمنوا بالدين - يؤمنون بقوّة الدين، وأهميّة توظيف الدين في معركتهم.

وكم نادينا قومنا: إننا يجب أن نحاربهم بمثل السلاح الذي يحاربوننا به. فإذا حاربونا باليهوديّة، حاربناهم بالإسلام، وإذا قاتلونا بالتوراة، قاتلناهم بالقرآن، وإذا قالوا: التَّلْمُود، قلنا: السنة النبويّة، وإذا قالوا: نُعْظَمُ السبت، قلنا: نُعْظَمُ الجمعة، وإذا قالوا: الهَيْكَل،

١ القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ما في ٢٦٩ - ١٧٠ (بالاختصار).

٢ المرجع السابق، ص ٩٤ - ٩٥

قلنا: المسجد الأقصى. ولا يُقْلُ الحديد إلا بالحديد، وحديدنا أقوى من حديدهم؛ لأن ديننا أقوى من دينهم، إذ كيف يكون المنسوخ في قوّة الناسخ، وكيف يكون المُحَرَّفُ والمبدلُ في قوّة الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟

كانت الهزيمة ثقيلة، وكان حجم الخسارة ضخمًا، من الناحية الماديّة، ومن الناحية المعنويّة. وقد اعترف عبد الناصر بعد ذلك في ٢٣ يوليو وفي نوفمبر من العام نفسه، بمقدار هول الخسارة وفداحتها، وذكر أعداد المقتولين والمأسورين والمفقودين من الضباط والجنود، وصرح: أن الطريق إلى القاهرة كان مفتوحًا أمام إسرائيل. ولم يكن هناك حندي واحد يعوق تقدم إسرائيل لو أرادت.

وتذكر المراجع أن ضحايا هذه الحرب يبلغون ٣٥٠٠٠ جندي قُتل أكثرهم في ساعات، وخصوصًا في الممرّات؛ لأن "شارون" مجرم الحرب الإسرائيليّ كان يسحقهم بالدبابات في الممرّات^١.

وهذا المطلب يتناول مسألتين، وهما:

المسألة الأولى: موقف الشيخ القرضاوي وعموم الناس من الهزيمة

رأى بعضهم في هذه الهزيمة أو النكسة درةً لفتنة عارمة، كادت تخلعُ الناس من إيمانهم، وتُفسدُ عليهم دينهم، حين استسلموا للطاغوت، وأعرضوا عن الله.

فرأى الشيخ محمد متولي الشعراوي في هذه المصيبة نعمة من وجهةٍ أخرى. وهي إذلال الطاغية المفتون بسلطانه، المغرور بقوّته، الذي أصبح صنمًا معبودًا لدى الكثيرين. فعرفته هذه الهزيمة قدره، وألزمته حده، فوقف عنده. رأى الشيخ الشعراوي أيضًا أن تحرير الشعب من الفتنة بالطاغوت: أهمّ من نصر سريع يتحقّق في معركة، ثمّ تعقبه مأس لا تنتهي، وويلات تجرّ ويلات إلى شاء الله.

قال الشيخ القرضاوي: أنا لا أؤيد هذا الموقف، ولا أبرره، ولا أرى أن يستبدل الناس بالوطني الفاجر: المُحتلّ الكافر، إذ لا تستبدل شرّ بشر، ولا ظلم بظلم، فكيف نستبدل شرًّا بما هو أشرّ، وظلمًا بما هو أظلم؟ ولكي أحاول أن أفسّر وأعلّل ما وقع^٢ ولقد ذكر هذا المعنى - انفصال الشعوب العربيّة المسلمة في واد، فالحكام يؤمنون بمذاهب وضعيّة، وفلسفات علمانيّة، ويحكمون بقوانين أجنبيّة عن شريعة الله، وهي شريعة الأمّة، أما جماهير الشعوب فما زالت مؤمنة برّبها ودينها وقرآنها، ومحمّدها. "وأن كلّ شرّ وخسران في الانحراف عن صراط الله، وعن هدي رسول الله.

المسألة الثانية: تحليل لأسباب النكبة

كان وقوع هذه النكبة الكبرى مجالًا رحبًا لتحليلات المحلّلين لأسبابها وعواملها، وقد رأينا في ذلك شطحات وعجائب من التحليلات ينبغي أن نرصدَ هنا. وفيها نقطتين، وهما:

النقطة الأولى: الدين هو السبب

في باعث الهزيمة: أن سببها هو الدين! نعم الدين!!

١ محمد شوكت التوني، قضية التعذيب الكبرى، (مصر، مكتبة ابن جزم)، ص ٧٠

٢ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ١٠٩

هكذا كتب الأديب المهجري المعروف "ميخائيل نعيمة" في استفتاء أجرته مجلة "الآداب" البيروتية بعد نكبة حزيران، سكنت عليه المجلة سكوئاً المقرّ المؤيّد.

قالت المجلة: ما هو في رأيكم الدرس الأكبر الذي يحسن بالعرب أن يتعلّموه من الهزيمة؟

وقال الكاتب الشاعر: "في رأيي أن الدرس الأكبر الذي يجب أن يتعلّمه العرب من هزيمتهم النكراء: أن الدنيا لا تُسأس بالدين! فالدين موطئ السماء التي لا يعرفها أحد، والدنيا موطئ الأرض التي لا يجّهلها أحد...^١ على أيّ حال، قد كان الدين معزولاً - تماماً - عن المعركة، ولم يكن له فيها دور إيجابي ولا سلبيّ. لا قبل المعركة ولا في أثناء المعركة.

بل الذي يذكره الشعب العربيّ - قبل المعركة بأيّام - أن الدين كان عُزْزَةً لِلْهُجُومِ وَالسُّخْرِيَّةَ وَالْقَذْفَ بِالْحُصَى وَالْحِجَارَةِ، حتى اجترأ مجترئ من الثوريين، أن يكتب في صحيفة علنيّة رسميّة - تصدر في سوريا - هذه العبارات: "... والطريق الوحيد لتشديد حضارة العرب وبناء المجتمع العربيّ، هي: خلق الإنسان الاشتراكيّ العربيّ الجديد، الذي يؤمن أن الله والأديان والإقطاع والرأسمال والاستعمار والمتخمين وكلّ القيم - التي سادت المجتمع السابق - ليست إلا دُمى مُحَنَظَّةٌ في مَتَاحِفِ التاريخ!!"^٢

ولقد ذكر الشيخ القرضاوي ما شهدته بنفسه في قطر في الساعات الأولى، اجتماعاً في مقرّ "منظمة التحرير" ضمّ المثات، بل الألوف من الناس من الفلسطينيين والقطريين والمصريين وغيرهم، ووقف رجل عالم فاضل من أهل البلاد يخطب في هذا الجمع، وكان مما دعا إليه في كلمته: أن ارجعوا إلى الله وتمسكوا بدينه ينصركم على عدوكم... فما كان من بعض الشباب المفتونين بعبادة الأوثان البشرية إلا أن قالوا: لا دين إلا السلاح؟

هذه هي الروح التي كانت سائدة هنا وهناك. فكيف يزعم زاعم أن الدين سبب الهزيمة!! وأن علينا أن نتخلّى عن الدين لننتزّع النصر من أحشاء الهزيمة؟ ثم أيّ دين يعنيه الكاتب؟ إنه لا شكّ يعني الدين على وجه العموم، والإسلام على وجه الخصوص. فهو الدين الذي تعتنقه أغلبية الأمة، وتُنصُّ دساتير دولها على أنه دين الدولة الرسميّة.

النقطة الثانية: فهل يمكن أن يكون الإسلام سبب الهزيمة، أي هزيمة؟ كلا.

كيف يكون ذلك؟ وهو الذي يقول في كتابه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [٦٠].^٣ ويقول: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ [١٠٢].^٤ وقال الله تعالى في آية أخرى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا تَبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ [٧١].^٥

بل قال الشيخ القرضاوي: إن التحليل الدقيق والعميق لأسباب الهزيمة يقول بصراحة: إن سببها الحقيقيّ يمكن في تحلينا عن حقيقة الدين، عن الإسلام الصحيح، الإسلام الحقّ الذي يُعِدُّ الأمة للجهاد، ويطهر الأمة من المُؤَوِّعَةِ والتحلل وأسباب الخذلان.

١ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، درس النكبة الثانية، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الثالثة، ١٩٦٨م)، ص: ٣٨ - ٣٩.

٢ إبراهيم خلاص، "من مقال المدعو "مجلة" جيش الشعب" السورية، ٧ أغسطس، الموافق ١٩٦٧م، ص ٨

٣ القرآن الكريم، الأنفال (٨)، الآية [٦٠].

٤ القرآن الكريم، النساء (٤)، الآية [١٠٢].

٥ القرآن الكريم، النساء (٤)، الآية [٧١].

وقال إجابةً عن السؤال المطروح وَالْمُوجَّهِ إِلَى الشَّعْبِ الْعَرَبِ، وهو: كَيْفَ يُهْزَمُ الْعَرَبُ، وعددهم مائتا مليون، أمام إسرائيل، وعدد (٢) مليون؟! كيف يهزم الواحد من اليهود مائة من العرب؟

وجوابه: على حين كان العدو يسلح بعقيدة إيمانية، ورؤية توراتية، وأحلام تلمودية؛ لهذا قلت: لقد دخل اليهود المعركة ومعهم التوراة وتلمود، فلماذا إنهم انتصروا علينا؛ ونحن المسلمون دخلنا المعركة وليس معنا القرآن، لقد دخلوها يهوداً يعتزّون باليهودية، ولم ندخلها نحن مسلمين نعتزّ بالإسلام. دخلوا يَهْتَفُونَ باسم موسى، ولم نَهْتَفْ باسم محمد. قالوا: أهْيَكُلُّ، ولم نقل: الأَقْصَى. عَظَّمُوا السَّبْتَ، ولم نُعَظِّمِ الْجُمُعَةَ. كان الدين عندهم شرفاً يباهون به، وكان الدين عندنا تُهْمَةٌ نبرأ منها!

لقد كان لتخليينا للإسلام - مصدر قوتنا ومددنا الروحي والنفسي - نتائج كثيرة لمسنا آثارها، حين دخلنا المعركة دون أن نتسلح بالإيمان، لمواجهة أمة تحاربنا باسم الدين.

"إن الحُطْرَ الأكبر لم يدهمنا من انقضاض طيران العدو، وغزو ألوته ودَبَابَاتِهِ، وإنما جاء من انهيار داخلي سبق المعركة بأعوام، ومن محاولة الانتحار الأدبي. والتخلي عن الحقيقة والفضائل والقيم قضى على أمم كثيرة من قبل في التاريخ. إن ما حدث داخل المجتمعات الثورية كان وحده سبباً كافياً ليجلب لنا الدمار الروحي، والدمار المادي جميعاً."^٢

المطلب العاشر: حرب العاشر من رمضان في سنة ١٩٧٣م وأنظار القرضاوي وتحليله وموقفه

كان من أهم ما حدث في هذا العام، وفي شهر رمضان المبارك: ما فاجأ أهل المصرتين وفاجأ العالم كله من حيث اهتزت له القلوب طرّاً، وابتسمت له الشّعور فرحاً، ولهجت الألسنة ثناءً، وسجدت الجباه من أجله لله شكراً.

إنه الحدث الذي عوضهم عمّا فوجئهم به من قبل في الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٧م، والذي خسرت به الأمة ما خسرت، وكسبت إسرائيل ما كسبت، وضاعت به - إلى اليوم - القدس والضفة والقطاع والجولان، بالإضافة إلى سيناء التي استردتها مصر فيما بعد.

وهذا الحدث الذي أحيا الأمة العربية من المحيط إلى الخليج، بل الأمة الإسلامية من المحيط إلى المحيط، وهو: حرب العاشر من رمضان، والشيخ القرضاوي يسماها دائماً: معركة العاشر من رمضان، وليس السادس من أكتوبر؛ لأن شهر رمضان ونفحاته وبركاته وإمداداته التي هبّت نسماها على الجنود الصائمين المصلين، كان له أثره في تحقيق النصر، وإمداد المقاتلين بشحنة إيمانية دفعتهم إلى البذل والفداء، أما أكتوبر، فليس له أي إيجاء أو دخل في هذا النصر.

لقد عبر الجيش المصري القناة! صنع قنطرة أو جسوراً للعبور عليها، مكوّنة من أجزاء، تركب في الحال، ويوصل بعضها ببعض، فتكون جسراً فوق الماء تعبر فوقه المصنّعات والمخزّنات والدبابات إلى البر الآخر، وقد بدأ بالعمل فيها من سنوات، ثم بدأت تجربتها، والتدرب عليها منذ شهور، في تكتم وسرية بالغة، وهذا عمل مصري خالص، لم يشترك فيه خبراء أجانب، ولهذا حفظ السر، ولم يبعث به أحد. وكان كل شيء مُعدّاً بمجدارة وأناة وحكمة، ولم يكن هناك شيء مُرتجّل، وقام كل سلاح بدوره: سلاح المهندسين، وسلاح الفرسان، والمدفّعات، وسلاح الطيران، كلّ قام بما هيى له، وما كلف به.

١ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٢٤١
٢ أديب نصّور، النكسة والخطأ: ص ١٥٩. والقرضاوي، يوسف بن عبد الله، الحلول المستوردة، وكيف جنت على أمتنا؟، فصل: "لماذا فشلوا في حرب فلسطين؟" (مصر، مكتبة وهبة، ص: ٣٠٧ - ٣١٥) (لكثرة المعلومة).

وقد فرق هذا الحرب وحرب يونيو ١٩٦٧م، فقد كان العنصر الإيماني والروحي مغيباً عنها تماماً، لذلك لم يُحالف النصر.

لقد اعتمد الجيش المصري على الآلات، فلم تغن عنهم الآلات، وأتكلوا على السلاح فلم ينجدهم السلاح، لأن السلاح لا يقاتل بيد حامله، ويد حامله إنما يُحرّكها إيمان يهدف، وإيمان رسالة، وهذا لم يُعبأ به الجنود.

سئل الرئيس حسني مبارك، عندما كان نائباً للرئيس أنور السادات في ٢٧/٩/١٩٧٥م، سأله بعض الصحفيين: ماذا أخذنا من دروس ١٩٦٧م في الإعداد القتال ٦ أكتوبر؟ قال: باختصار ... في ١٩٦٧م ... لا تخطيط ... لا إعداد ... لا تدريب ... لا تنسيق ... بين العمل السياسي، والعسكري. أه.

وكانت من ثمرات مِحْنَة ١٩٦٧م: أنها أيقظت في الناس المعنى الديني والضمير الديني، والرجعة إلى الله، وبدأت حركة إيمانية قوية في القوات المسلحة، وكان الحُرْصُ على إقامة الصلاة، وقام وُعَاظُ الأزهر بدورهم في التنبيه والإحياء، وكان هناك شعور عام بالحاجة إلى الله، والدعاء بنصر الله، فلا غرو أن كان شعار المعركة: "الله أكبر".^١

إن الجندي المصري في سنة ١٩٧٣م هو نفسه في سنة ١٩٦٧م من حيث الشكل والمظهر، ولكنه غيره من حيث الباطن والجوهر، إن الإنسان إنما يقاد من داخله، لا من خارجه، ولا يقود الناس في بلادنا شيء مثل الإيمان، ولا يحركهم محرك مثل الإيمان.

وهذا ما لم تفهمه قيادة ١٩٦٧م، فقد عزفوا على منظومة القومية، ومنظومة الاشتراكية، ومنظومة الثورة، فلم تحرك ساكناً، أو تنبه غافلاً في الجندي المصري، أو الجند العربي عموماً.

وأقول (الباحث) بالجملة: ولأن إيماننا أي العالم الإسلامي في صدد نكبة حزيران "يؤنيؤ" (١٩٦٧م) بخلاف حرب العاشر من رمضان في سنة ١٩٧٣م لم يكن كاملاً، كان نصرنا غير كامل أيضاً، فعلى قدر الإيمان يكون النصر؛ ولهذا ابتلينا بقضية "الثغرة" والتفاف العدو علينا، وهو ما كلّفنا الكثير من الجُهد، وأفقدنا الكثير من النصر.

المطلب الحادي عشر: نظَرُ القرضاوي في "زيارة أنور السادات لإسرائيل وتوقيع اتفاقية كامب ديفيد"

كان فَرِحَ المصريّين بانتصار العاشر من رمضان "السادس من أكتوبر في سنة ١٩٧٣م" عظيماً، وكان كلّ مصريّ مَهْهُواً بهذا النصر، وكان الإسلاميون والمتديّتون بصفة عامّة أكثر فرحاً من غيرهم؛ لاعتقادهم أنه تمّ بنفحات إيمانية، ومَعُونَات رِبَّانِيَّة! ومن الحقّ أن نذكر أن العرب جميعاً - بل المسلمين عامّة - شاركوا مصر فرحتها، وشاركوا المصريّين احتفالهم بهذا النصر المبين، فانتصار مصر إنما هو في الواقع وفي النهاية: انتصار لأمة العرب والإسلام. ولكن للأسف لم تطل هذه الفَرْحَةُ الغامرة، التي وُحِدَت مشاعر العرب والمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، بل حدث ما كَدِرَ صَفَاء هذه الفرحة، بل أحالها إلى غَمٍّ وحُزْنٍ، وحول وحدة الشعور، ووحدة الموقف إلى خلافٍ وفُرْقَةٍ، ومَرَّقَت الأُمَّة شَرَّ مُمَرَّق.^٢

كان ذلك عندما أعلن الرئيس السادات في خطاب له: استعداده لأن يذهب إلى إسرائيل، وأن يلقي رئيس وزرائها في ذلك الوقت "مناحم بيغن" وأنه مستعدّ لتوقيع سلام مع إسرائيل في سنة ١٩٧٦م. والتقطت إسرائيل الخيط، ورحبت بزيارة السادات، وكان الأمر كان معروفاً من قبل! وسرعان ما ورتبت الأمور، وهيئت الأسباب، وفتحت الأبواب، لزيارة السادات.

١ أَلْفَرِضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٣١٢

٢ المرجع السابق، ص ٤٤٠

وفوجئ الشعب العربيّ، وفوجئت الأمة الإسلاميّة كلّها بزيارة أول رئيس عربيّ لإسرائيل، وخطابه في الكنيست - صلاة عيد الأضحى في المسجد الأقصى - والدخول في درب المفاوضات، التي انتهت بعد سنة بتوقيع اتفاقية "كامب ديفيد" في أمريكا بين مصر وإسرائيل. كانت هذه أول معاهدة تعقد بين إسرائيل وبلد عربيّ، فكيف وقد عقدت مع أكبر بلد عربيّ؟ وأهمّ بلد عربيّ؟! لقد كسبت مصر بهذه المَعْرَكَة استعادة سيناء، وكسبت أمريكيّة تقدر بنحو ملياري دولار.

ولكن إسرائيل كسبت ما هو أكبر وأخطر: كسبت "تحييد مصر" وإخراج أكبر قوّة عسكريّة عربيّة، وأكبر قوّة بشريّة وعمليّة من المعركة. فلم تعد مصر شريكة في القضية الفلسطينيّين وإسرائيل! كما أنّها أشاعت روح الاستسلام في المنطقة، وبداية الاتفاقات بين إسرائيل وبلاد عربيّة أخرى - مثل: الأردن - ما كانت تجرُّ عليها، لولا أن مهَّدت مصر لها الطريق، وفتحت الباب المسدود! وكما أن إسرائيل بهذه الاتفاقية: اخترقت جدار الأمن القوميّ العربيّ، واستطاعت أن تُنْفِذَ إلى البلاد العربيّة، بأصبحت لها بعد ذلك سِفَارَاتُفي مصر وفي الأردن، وفي موريتانيا، وأصبحت لها مكاتب في بعض البلاد مثل: قطر. وكان كلّ هذا من كبائر المُخَرَّمات قبل ذلك.

بل شجّعت هذه الاتفاقية كثيرًا من البلاد الإفريقيّة وبلاد عدم الانحياز - التي مقاطعة إسرائيل - على تغيير موقفها، حتى إن الكثير منها سعى في إعادة العلاقات مع إسرائيل، وعادت بالفعل. كما سبَّبت هذه الاتفاقية في شقّ العالم الإسلاميّ وتمزيقه إلى من يؤيّد السلام مع الصهاينة، ومن لا يؤيّد به، إلى من يسمّى الاستسلام حكمة، والمقاومة حماقة! وكان ذلك بداية انقسام عربيّ، وتصدُّع في الجدار العربيّ لم يلتئم حتى اليوم. وكذلك انقسم الناس داخل مصر نفسها، فالمؤمنون بالإقليميّة يقولون: إن مصر حَقَّقَتْ نصرًا بلا حرب، وحرّرت سيناء بلا دماء، وتفرَّغت للبناء الداخليّ، بعد أن خاضت أربع حروب من أجل فلسطين.

والعروبيّون والإسلاميون يقولون: إن مصر فقدت دورها القياديّ في الوطن العربيّ، وأمست في موضع التهمة، بعد أن كانت في موضع الريادة، وفتحت الباب لإمريكا للتدخل في توجيه المنطقة العربيّة سرًّا وعلانيّة، وأدّت إلى كلّ ما جرى بعد ذلك من هزائم ونكباتٍ من فلسطين إلى العراق.

قال الشيخ القرضاوي: وقد لآخِظْتُ هذا الانقسام المؤلم بنفسه، وساءني أن أجده في شتى المجالس والأنديّة والاتجاهات، ولا أملك أمامه إلا الحُوقلة والاسترجاع!

المطلب الثاني عشر: نريد أن نسأل هنا سؤالًا، وهو: هل العُنفُ ظاهرة إسلاميّة؟

ونقول: إن الإعلاميّ العربيّ عامّة، والأمريكّيّ خاصّة، يُوهِمُ العالم أن "العنف" يحمل الجنسيّة الإسلاميّة، وأن الإسلام بعقيدته وشريعته يُفَرِّزُ "العنف"! وأن المسلمين بطبيعتهم الدينيّة أهل عنف. وهذا ولا شكّ تحامل على الإسلام وأمّته وقرآنه ونبّيه وشريعته.^٢ فالإسلام دين الرفق، وليس دين العُنف، ودين الرحمة وليس دين التّقمة، ودين اللين والرفقة، وليس دين العُلظة والقسوة. وأشهر أسماء الله عند المسلمين: الرحمن الرحيم، وليس المنتقم الجبار، كما يُروّج أعداء الإسلام. واسم "الجبار" ذكر في القرآن مرّة واحدة، واسم الرحمن الرحيم افتتحت به - كما نرى في المصحف - مائة وثلاث عشرة سورة، غير ذكر داخل السور. والمسلمون يبدون أكلهم وشربهم وسائر أعمالهم بـ "بسم الله الرحمن الرحيم"، والمسلمون يرحمون الناس ليرحمهم الرحمن، وبعبارة أخرى: يرحمون من في الأرض ليرحمهم في السماء.

١ أَلْفَرَضَاوي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٤٤٢

٢ المرجع السابق، ٢٠١٠م، ج ٤، ص ٢٠٢

والعنف الذي وقع من بعض المسلمين، يرجع في كثير منه إلى الغرب ومظالمه المستمرة على أمة الإسلام. ويكفي خلقه إسرائيل من عدم، على أنقاض أهل فلسطين، ومساندته لها منذ قيامها إلى اليوم، وتشجيعها على الظلم والعدوان الدائم على أهل البلاد. ومع هذا وجدنا العنف والإرهاب في كل بلاد الدنيا: في الشرق والغرب في الشمال والجنوب، في أمريكا، وفي إسرائيل نفسها، وفي اليابان، وفي بريطانيا، وفي الهند، وفي غيرها من أقطار العالم.

قال الشيخ القرضاوي: ولم تتهم البروتستانتية بأنها صانعة الإرهاب في أمريكا، ولا الكاثوليكية بأنها صانعة الإرهاب في بريطانيا، ولا اليهودية بأنها صانعة الإرهاب في إسرائيل، ولا النهديسية أو السيخية بأنها صانعة الإرهاب في الهند، فلماذا يتهم الإسلام وحده بأنه صانع العنف والإرهاب فيما قام به بعض المسلمين من حوادث؟

ربما كان ذلك صحيحًا لو أقرهم المسلمون على فعلوه، ولكن العكس هو الصحيح، فالمسلمون عامة، وعلماءهم خاصة، أنكروا عليهم، ونددوا بما صنعوا وحملوهم وزر ما عملوا. ولا تزر وازرة وزر أخرى.

المطلب الثالث عشر: هل العنف يحقق هدفًا؟

على أننا لو ناقشنا العنف من غير ناحية شرعية، بل من ناحية فائدته وجدواه، اعتمادًا على مذهب "المنفعة" أو "البراغماتية" هل نجد العنف أفاد أصحابه؟ هل حققوا به أهدافهم النهائية أو المرحلية، هل جئيت من ورائه ثمرة الصحو الإسلامية، أو للدعوة الإسلامية، أو للأمة الإسلامية؟ والجواب بالنفي قطعًا.^١

فالواقع الذي عايشناه يقول: إن العنف لم يغيّر حكومة، ولم يسقط نظامًا، كما أراد أصحابه. ولم نر الاغتيال السياسي، أو القتل العشوائي، أو العمل التخريبي: غير شيئًا في الأنظمة القائمة، التي أراد دعاة العنف ومستخدموه أن يغيروها، بل زادت الأنظمة تجرّجًا وَفَرَعًا وَعُثْوًا. والاغتيال السياسي الذي نجحوا في بعض محاولاته، لم يغيّر شيئًا في واقع الأمر، كل ما حدث أن ذهب حاكم، وجاء حاكم آخر، والوضع كما هو، بل ربما كان أشدّ وأقسى ممّا قبله، حتى أصبح البيت الذي يتغنى به كثيرون قول الشاعر:

رُبَّ يوم بكيت منه، فلما صرّث في غيره بكيت عليه!

أو كما قال الشاعر الآخر: دعوت على عمرو، فمات، فلما بلوت الغير نُحت على ثم إن الذي يمارس العنف، لا يستطيع أن يستمرّ فيه أبد الدهر. إنه يمارسه مدّة تقصر أو تطول، ثمّ يتعب ويئس ويلقي سلاحه، ولم يجن من عنفه إلا ما سفك من دماء، وما دمر من مُتَلَكّات، وما أضع من جهوده وأوقاته، كلّمًا جزء من العمر النفيس. ولذا رأينا جماعات العنف في العالم بعد مدّة من الزمن تحيل نفسها على "التقاعد".^٢

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٢٠٤

٢ المرجع السابق، ص ٢٠٥

المطلب الرابع عشر: فقه التغيير

ويريد الشيخ القرضاوي لهؤلاء المتسرعين السطحيين من هوة العنف - الذين يريدون تغيير المجتمعات بالقنبلة والرشاش - أن يعرفوا أن التغيير "فقهًا" يجب أن يطلعوا عليه. وأن التغيير المنشود الذي تنتقل به الأمم من الفساد إلى الصلاح، ومن الانحراف إلى الاستقامة، ومن الضعف إلى القوة، لا يتم بالانقلاب ولا بالسلاح. إن له سننًا ثابتة لا بد أن تُرعى، فهو لا يتم إلا بتغيير الإنسان من داخله، أي من عقله وضميره، وهذا يحتاج إلى منهج بعيد المدى، طويل النفس، واضح الأهداف، محدّد المراحل، بين الطريق. ومحوره تغيير الأنفس أو - على حدّ تعبير القرآن - تغيير ما بالأنفس، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [١١].^١

وهذا ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم مع العرب: غيّر ما بأنفسهم، فغيّر الله ما بهم. غيّر معتقداتهم ومفاهيمهم وأفكارهم وقِيَمهم، واهتمامهم، وأهداف حياتهم، فأنشأهم خلقًا آخر، وأصبح عربيّ الإسلام غير عربيّ الجاهليّة، في أهدافه وأخلاقه وسلوكه وعلاقاته. وبهذا انتقلوا من رعاة للغنم إلى رعاة للأمم، وأخرجوا الناس من عبادة الأشياء والأشخاص، إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سَعَتِهَا، ومن جُور الأديان الفلسفات إلى عدل الإسلام، ووسطيّة الإسلام، حيث قال الله تبارك وتعالى في محكم تنزيله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [١٤٣].^٢

وأخرج الله بهم الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، الصّراط الذي هدى إليه رسول الله، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ [٥٣].^٣

المطلب الخامس عشر: أوّل لقاء للقرضاوي بالرئيس حسني مبارك

ذات يوم من الأيام جمّع المحجوب،^٤ الشيخ القرضاوي ومجموعة من العلماء بالرئيس مبارك في قصره بمصر الجديدة، لمحاولة تقريب القرضاوي من الرئيس مبارك. ومن كان معه من العلماء، إلا الدكتور عبد الله عبد المحسن التركي رئيس جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض. وهو أول مرّة التقى الشيخ القرضاوي فيها الرئيس وجهًا لوجه.^٥ وقد أجلسه قريبًا منه ولم يكن بين القرضاوي وبينه غير الوزير. وفي ذهن القرضاوي أن الرئيس سلّم عليه بجملة غير معتادة، ورزّت على كتفه، وكان المحجوب حاضرًا، فقال له: رأيت كيف عاملك الرئيس معاملة خاصّة؟ أريد أن تكون الصلة بينك وبينه حسنة!

قال الشيخ القرضاوي له: "أنا أودّ أن تكون الصلة بيني وبين جميع الناس حسنة، ولكني يا دكتور لا أحبّ زيارة الاقتراب من الحكّام! فلست راغبًا فيما عندهم ولا طامعًا في دنياهم. وقد أخشى أن يتخذ ذلك ذريعة لتشويه سمعتي".^٦

١ القرآن الكريم، الرعد (١٣)، الآية [١١].

٢ القرآن الكريم، البقرة (٢)، الآية [١٤٣].

٣ القرآن الكريم، الشورى (٤٢)، الآية [٥٢ - ٥٣].

٤ هو الدكتور محمد المحجوب، وكان وزير الأوقاف المصريّ وأيضًا كان عضوًا بالحزب الوطني الحاكم في عهد الرئيس حسني مبارك.

٥ التقى الشيخ القرضاوي مرّة أخرى مع جمهور العلماء المدعوّين إلى مؤتمر السيرة والسنة الذي دعا إليه الإمام الأكبر الشيخ جاد الحقّ علي جاد الحقّ شيخ الأزهر في ذلك الوقت، وكان في ذلك الوقت نائبًا للرئيس السادات، الذي أنابه عنه في افتتاح هذا المؤتمر.

٦ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٤٤٩

رسالة المفتوحة إلى رئيس الجمهورية «الرئيس حسني مبارك» من قِبَل الشيخ القرضاوي:

قال الشيخ القرضاوي فيها بعد البسملة والتحية: هذه أول رسالة أخطأها إليك، وكنت أريدها رسالة مغلقة تقرأها وحدك، ولكن العارفين خوْفوني أنها قد تُحجب عنك، فلم أرى بأساً من نشرها، فليس فيها ما يجب إخفاؤه، وأرجو ألا يضيق وقتك عن قراءتها.

السيد الرئيس، ليست رسالتي هذه شكوى شخصية مما تناولني به الوزير المذكور أي اعتبار ديني أو أخلاقي أو سياسي، هذا مع أنني ليس لي به احتكاك مباشر، فأنا - تسع وعشرين سنة - أعيش في بلد عربي كريم أتمتع فيه بالحب والتقدير والتكريم من جميع أهله أميراً وحكومة وشعباً، فما له ولي؟! وسلّ عني أن شئت الدكتورين: أسامة الباز، ومصطفى الفقي، وسلّ سفراء مصر في قطر، الحالي، والسابق، والأسبق.

أؤكّد لكم يا سيادة الرئيس أن ما قرأته وما سمعته من شتائم وافتراءات تتعلّق بشخصي، لم يحركّ شعره مني، فهي دبر أذني، وتحت قدمي، وكلّ إناء بالذي فيه ينضح، بل هي شهادة لي كما قال المتنبي. وحسي هنا ما أدبنا به القرآن الكريم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّعْنَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ [٥٥]﴾.^١

مصر - يا سيادة الرئيس - مهد الحضارة، وقلب العروبة - وقُلعة الإسلام، بلد الأزهر، وقبله العلم المسلمين، وحارسة الثقافة الإسلامية واللغة العربية من ألف عام، كيف يُشتمّ علماءها، ويُسبّ أهل الرأي والفكر فيها، ويُهدّد أبنائها بقطع رقباهم ومواراة حتّتهم كما يفعل قطاع الطريق؟! كيف هذا، وأنتم صامتون!؟

لقد نسب الوزير إلى الإمام الشافعي، زوراً، أنه يجيز قتل الثلث لإحياء الثلثين، فلا مانع عنده من أن يقتل ثمانية عشر مليوناً من أبناء مصر! أو على الأقلّ ١% أي أكثر من نصف مليون بهذه الفتوى الجاهلة! كيف والقرآن يقرّر: ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا [٣٢]﴾.^٢ والسنة تقول: عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَزَوَالِ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ».^٣

بل إن الإسلام يحترم حياة الحيوان الأعجم، فكيف الإنسان المكرّم؟ وأيّ مسلم أو مؤمن لا يحفظ هذا الحديث الصحيح: عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هَرَّةٍ رَبَطَتْهَا، فَلَمْ تُطْعَمْهَا، وَلَمْ تَدْعُهَا تَأْكُلْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ».^٤ وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هَرَّةٍ رَبَطَتْهَا، فَلَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا، وَلَا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ، حَتَّى مَاتَتْ هَزْلاً».^٥

١ القرآن الكريم، القصص (٢٨)، الآية [٥٥].

٢ القرآن الكريم، المائدة (٥)، الآية [٣٢].

٣ القزويني، ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد، (المتوفى: ٢٧٣هـ)، السنن، باب التغليظ في قتل مسلم ظلماً، (دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي)، رقم الحديث: ٢٦١٩، ج ٢، ص ٨٧٤؛ (في الزوائد إسناده صحيح ورجاله موثقون. وقد صرح الوليد بالسماع فزالتمة تدليسه. والحديث في رواية غير البراء أخرجها غير المصنف أيضاً، وصحّحه الألباني في «صحيح ابن ماجة، رقم الحديث: ٢١٢١».)

٤ البخاري، الجامع الصحيح للبخاري، باب: خمس من الدواب فواسق، يقتلن في الحرم، (دار طوق النجاة [مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي]، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ)، رقم الحديث: ٣٣١٨، ج ٤، ص ١٣٠

٥ النيسابوري، مسلم، الصحيح لمسلم، باب: في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت، (دار إحياء التراث العربي - بيروت)، رقم الحديث: ٢٦١٩، ج ٤، ص ٢١١٠

فكيف بمن يحبس البشر ويعذبهم بغير حكم قضائي؟! السيد الرئيس، إن النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم من لباب الدين، التواصل بالحق والصبر من فرائضه الأساسية، وليس في الأمة أحد أصغر من أن ينصح، ولا أحد أكبر من أن يُنصح، ولقد قال المهدي لسليمان: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ [٢٢]﴾^١. وكان عمر الفاروق رضي الله عنه يقول على المنبر: رحم الله امرءًا أهدي إلي عيوب نفسي. وحين قال له رجل: اتق الله. شجعه قائلاً: لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها!

وخير ما يقدمه العالم لولي الأمر أن ينصحه، ويدكره، والذكرى تنفع المؤمنين. وإني من موقع مسؤوليتي باعتباري أحد علماء المسلمين الذين أخذ الله عليهم الميثاق أن يبينوا ولا يكتموا، ولا يشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً - والدنيا كلها ثم قليل - وأن يقولوا الحق لا تأخذهم في الله لومة لائم.

من هذا الموقع أنصح لكم: أن تتدرك الخطر قبل أن يستفحل، وتطفى الشرارة قبل أن تتحول ناراً، حفاظاً على قيم مصر الدينية والحضارية، وموارثها الثقافية، وحماية لشعبنا ووطننا من طوفان يخشى العقلاء انفجاره في أي لحظة، ولن تستطيع قوة من الاندلال ولا الانتشار، ومعظم النار من مستصغر الشرر.

إنها نصيحة خالصة لا أرجو بها إلا الله والدار الآخرة، ومصالحة الأمة، ولا أريد من أحد جزاء أو شكوراً، فقد أغناني الله عن دنياكم، ومناصبكم التي يتهافت عليها كثيرون.

السيد الرئيس، أن أمتنا أحوج ما تكون إلى أمرين:

الأول: إيمان صادق بالله ورسالته، ولقائه وحسابه، تزكو به الأنفس، وتحيا الضمائر وتستقيم الأخلاق، إيمان يحفز على الخير، ويبرئ عن الشر، ويوقف المرء عند حدود الله في أمره ونهيه وحلاله وحرامه، ولا بد أن تتعاون كل الأجهزة والمؤسسات على غرس هذا الإيمان.

الثاني: مناخ حر، تفتح فيه النواذ، وتزول أحكام الطواري، ويعبر فيه الناس عن أنفسهم، وآرائهم، في ظل القانون، وحكم القضاء، دون خوف من اعتقال بلا محاكمة، أو تهديد بجلد الظهر أو قطع الرقاب!

إن أمتنا ليست قطيعاً يساق بالعصا، أو مجموعة من العبيد تقاد بالقهر، إنما هي أمة عريقة تقاد بالعدل والتسامح والحب... وسياسة العنف والبطش لا تحل مشكلة، بل تنشئ التطرف على كل صعيد، وتنمي، وتزرع الأحقاد والكراهية، وتنتهي بدمار الأمان والاستقرار. إن العصا الغليظة قد تخيف العبيد، ولكنها تثير الأحرار. إن العالم من حولنا يتغير، والشعوب المقهورة تنتصر على الجلادين، وعتاة الفراعنة يتساقطون، ولا مكان اليوم لطاغية كبير، فكيف بطاغية صغير؟ والسعيد من اتعظ بغيره.

حفظ الله وطننا، وحمى شعبنا، ووفق قيادته إلى الخير والسداد.

الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي^٢

تأخرت هذه الرسالة قليلاً في وصولها إلى الصحف، ونشرت مع إقالة الوزير زكي بدر في وقت واحد، حيث استجاب الرئيس مبارك لغضب الرأي العام المصري، الذي بلغ سيله الزبي، فاستغنى عن الوزير المتحيز البديء. وقد قال تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ

١ القرآن الكريم، النمل (٢٧)، الآية [٢٢].

٢ أَلْقُرْآؤِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٨٥٦ - ٨٦١، (نص ما كانت في تلك الرسالة).

وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْتَظِرِينَ [٢٩]». ^١ اعتذار الشيخ القرضاوي عن التوقيع على البيان: أنهم طلبوا منه أن يوقع، فلم يفعل، واعتذر عن ذلك، وعجل بسفره، قافلاً إلى الدوحة. ولكنهم حين أصدروا البيان ذكروا اسم الشيخ القرضاوي مع الموقعين، وهو كان مع الحاضرين والمناقشين، ولكن لم يكن من الموقعين. وهذا ما اضطره إلى أن أحزر بياناً نشرته صحيفة «الشعب» لسان حزب العمل.

أما الذين وقعوا البيان، فقد ذهبوا - أو ذهب بهم - إلى الجامعة الأزهر، لِيَعْقِدُوا مُؤْتَمَرًا فِيهِ، وتكلم فيه كل من الشيخ الشعراوي، والشيخ الغزالي، والشيخ محمد الطيب النجار، كل بما عن له في وقته، وإن تفاوتت مستويات كلماتهم في القرب والبعد مما أرادته الحكومة أو وزيرها.

ولكن الشيخ الغزالي استدرك على هذا المؤتمر بيان نشره أيضاً في جريدة «الشعب» يوضح فيه موقفه، ويزيل ما في الموضوع عن غبش وتلبيس، واستغلال كلامه أو موقفه لخدمة هدف لم يقصد إليه. وفي الحديث الصحيح: عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى الْمِنْبَرِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى».^٢

المطلب السادس عشر: حدث الأحداث، غزوة الكويت وتحليل القرضاوي وأنظاره وموقفه

غزوة صدام حسين لدولة الكويت، وذلك في أغسطس سنة ١٩٩٠م. حتى يَهْجُمَ عليها بقوة وحشية. وقد جسَّ صدام نبض أمريكا، بحديثه مع السفير الأمريكية في بغداد... ماذا يكون موقف أمريكا لو غزا العراق الكويت؟ وقالت السفيرة: سيادة الرئيس، ليس بيننا وبين الكويت معاهدة دفاع مشترك!! فكأن هذا النوع من الإذن، أو التحريض على فكرة الغزو. وكان الناس تعاطفاً مع الكويتيين. وبقي الشيخ القرضاوي أياماً في ضاحية «إجم» بالقرب من لندن مع ابنته «إلهام» وأولادها في بداية فترة الغزو. يراقب الأحداث، ويتابع التلفازات، ووكالات الأنباء، ولا يكاد يصدّق ما جرى ويجرى، من هول الصدمة.

وهذا المطلب يحتوي على خمس مسائل، وتفصيلها كما في التالي:

المسألة الأولى: محنة قاسية

وكانت محنة قاسية على أهل الكويت، وقد دخلت قوات صدام وحنوده، فنهبت وسلبت، وحملت سيارات كبيرة من قصور الكويتيين من الأثاث والأدوات والتحف: ما يقدر بالمليارات، بل نهب المحلات التجارية، وفتح مخازنها، ونقل ما فيها إلى بغداد وسائر مدن العراق. لم يكن غزواً نظيفاً، بل كان أشبه بعمل اللصوص وقطاع الطريق. وكان الضابط والجنود تصرفون فوق تصرف من لا يعلم أن أحداً سيحاسبه يوماً.^٣

المسألة الثانية: مؤتمرات صدام الإسلامية

كان صدام قد مهّد لذلك بمحاولة كسب الرأي العام العربي إلى صفّه، فبدأ يتظاهراً بأنه مع الإسلام، وأنه لم يعد متمسكاً بأفكار البعث، أضاف إلى علم العراق: كلمة «الله أكبر». دعا أكثر من مرّة إلى مؤتمرات عنده، حشد فيها من علماء الدين من استطاع

١ القرآن الكريم، الدخان (٤٤)، الآية [٢٩].

٢ البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، *الجامع الصحيح للبخاري*، [المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر]، باب: بدء الوحي، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ)، رقم الحديث: ١، ج ١، ص ٦. ومسلم في كتاب الإمارة بقوله قوله صلى الله عليه وسلم إنما الأعمال بالنية، رقم ١٩٠٧

٣ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٦٢٨

حشده، من بلاد العرب والمسلمين، ليعلم أنه ليس ضدّ الدين ... بل هو ناصر الدين! وفي آخر مؤتمر عقده، شارك فيه عدد كبير من علماء الأمة منهم الشيخ الغزالي، والشيخ عبد الله الأنصاري من قطر، وغيرهما.

وقد حرص على أن يجتمع بالشيخ الغزالي قبل سفره اجتماعاً خاصاً طال لمدة ساعتين، حتى ينتهي الاجتماع، وقال الشيخ الغزالي: 'يبدو أن الرجل تغيّر، وسبحان الله مقلّب القلوب'! وعاد الشيخ عبد الأنصاري يتحدث عنه، كأنه أحد أبطال الإسلام! وكان الشيخ أحمد البزيغ ياسين في الكويت من أكبر الدعاة لصدّام، وكان الشيخ القرضاوي يختلف معه بشدّة حين يلتقون في اجتماعات مجلس إدارة الهيئة الخيريّة الإسلاميّة، وهو أمين الصندوق فيها، وكان يقول للشيخ القرضاوي بثقة واعتزاز: إنه فحلّ العرب! يحسب الشيخ القرضاوي أنه كان - بهذه الأمور كلّها - يهيمّ النفسيّة العربيّة، والذهنيّة العربيّة، لما يريد أن يفعله.

المسألة الثالثة: عدم استجابة القرضاوي لحضور مؤتمرات صدام

في لسان الشيخ القرضاوي: 'وأحمد الله أني لم أشارك في شيء من هذا،' وقد دُعيت أكثر من مرّة لمؤتمرات صدام، وألح عليّ في الدعوة: السفير العراقيّ في قطر، ولكنني اعتذرت، وأصررت على الاعتذار. وكانوا يقولون في العراق: هناك عالمان فقط لم يستجيبا لدعوة العراق أو دعوة صدام حسين، وأحدهما: الشيخ أبو الحسن علي الندوي في الهند، وآخرهما: الشيخ يوسف القرضاوي في قطر. وذلك من فضل الله عليهما وعلى الناس.¹

المسألة الرابعة: خطبة تاريخيّة القرضاوي بمناسبة احتلال الكويت في مسجد عمر بن الخطاب

عاد الشيخ القرضاوي من لندن أو ضاحيتها من شقّة ابنته «إهام» في بداية العام الدراسي (١٩٩٠م - ١٩٩١م). وفي هذه الأثناء، خطب الشيخ القرضاوي خطبة تاريخيّة في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة، حول العدوان على الكويت. دَانَ فيها هذا الغزو الأثمّ، الذي يتّسم بالحُمَاقَة وعدم التدبّر في العواقب، كما يتّسم بالعدر بشقيق وقف معه في وقت الشدّة، فهو يجزي الإحسان بالإساءة، وهو يقسّم في وقت يحتاجون فيه إلى التّوحد والتلاحم، وهو يعيدنا إلى عهد الجاهليّة حيث يغيّر الأخ على أخيه بأدنى سبب. كما قال قائلهم: أحياناً على بكر أحنينا إذا ما لم نجد إلا أحنانا

وقد حدّثنا رسولنا من ذلك حين قال في حجّة الوداع قائلاً: عَنْ جَرِيرٍ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ جَرِيرٍ: «اسْتَنْصِبِ النَّاسَ» فَقَالَ: «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ». ² ... ثمّ هو يفتح الباب للتدخل الأجنبي، بعد أن تحرّرت المنطقة منه إلى حدّ كبير.³

المسألة الخامسة: مؤتمر العلماء بمكّة المكرمة

ثمّ تداعى العلماء والدعاة وأهل الرأي إلى مؤتمر للعلماء بمكّة المكرمة، للبحث في الغزو العراقيّ للكويت، وكيف ننقذ الكويت؟ وما الواجب على الأمة؟ وما الواجب على العلماء؟ وقد حضرت شخصيات كثيرة من أقطار شتى من بلاد العرب، وبلاد العجم، وتحدّثوا واقترحوا وناقشوا. وقد ألقى الشيخ القرضاوي كلمة قويّة متزاونة حازت القبول لدى الحاضرين.

١ ألفردّواوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٦٢٩

٢ البخاري، الجامع الصحيح للبخاري، باب: حجّة الوداع، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ)، رقم الحديث: ٤٤٠٥، ج ٥، ص ١٧٧. والنيسابوري، مسلم، الصحيح لمسلم، باب: الإيمان، (بيروت، دار إحياء التراث العربي)، رقم الحديث:

١١٨، ج ١، ص ٨١

٣ ألفردّواوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٦٣٢

وهذه المسألة تشتمل على خمس نقاط، وهي:

النقطة الأولى: مدى مشروعية الاستعانة بالأمريكان

وكانت نقطة الخلاف الأساسية هي مدى مشروعية الاستعانة بالأجانب من غير المسلمين، كالأمرليكان حلفائهم. وكان مع الشيخ القرضاوي جماعة من المشاركين يتخوفون من هذا الأمر: أن يدخلوا ديارنا فلا يخرجوا منها، ويتشبثوا بالبقاء في الأرضنا، ولا نملك أن نحاربهم، وهم الذين أعانونا في حربنا، وهم الذين يملكون كل وسائل القوة وأدواتها. فالأولى أن يتعاون العرب والمسلمين بعضهم بعضاً، لمقاومة هذا العدوان وطرده، وتحرير الكويت من نيره.

وقال القائلون: إن هذا إغراق في الخيال، فجيوش صدام - من حيث عدد وعتاده وسلاحه وتدريبه - لا يمكن أن تحاربه جيوش عربية أو إسلامية. لا يستطيع محاربه إلا أمريكا. وقد اختلف الفقهاء في جواز الاستعانة بالكفار في الحروب، وأجاز أكثرهم الاستعانة بهم إذا كانوا مؤتمنين. وكان الرد على ذلك بأن هذا في الاستعانة بالكافر على الكافر، لا في الاستعانة به على المسلم. قال الشيخ القرضاوي: ثم معنى الاستعانة بالكافر: أن تكون أنت صاحب السلطان والقوة والنفوذ، ويأتي هو عوناً لك. أنا الواقع هنا فهو أن الأجنبي هو الذي بيده القوة والسلطان والأمر والنهي، وهو الذي بيده كل شيء، فالواقع أنه هو الأصل، ونحن الفرع، هو الذي يستعين بنا، ولسنا نحن الذين نستعين به!

النقطة الثانية: الاستعانة بالكفار للضرورة:

واستمر النقاش طويلاً في ذلك، ولكن الذي حسم النزاع هو قولهم: إننا أمام الضرورة، ليس لنا خيار غيرها. إما أن نقبل ما وقع، ونرضى بضيق الكويت دولة، وابتلاع صدام لها، وإما أن نقبل الاستعانة بقوة أمريكا وحلفائها، فهي وحدها القوة القادرة على الردع. وما دمنا أمام ضرورة، فالضرورة تبيح المحظورات. وبهذا انتصر رأي القائلين بجواز الاستعانة بأمريكا، وعلى أن تخرج فوراً من المنطقة بعد إنهاء احتلال الكويت، لأنه أمر محظور أبيض للضرورة، وما أبيض للضرورة يقدر بقدرها.¹ على تقرير هذا من الوجهة النظرية سهل، ولكن الصعب هو تنفيذه، فمن ذا الذي أن يقول للقوة المقتدرة المنتصرة: ارحلي هنا، ارجعي من حيث جئت!

النقطة الثالثة: موقف بعض علماء السعودية المضاد للاستعانة

وكانت هناك فئة من علماء السعودية قد اتخذت موقفاً مضاداً لهذا الاتجاه، معارضة لمقررات هذا المؤتمر الذي كان على رأسه مفتي المملكة العربية السعودية الشيخ عبد العزيز بن باز، وعلى رأس هؤلاء العلماء المعارضين الشيخ الدكتور سفر الحوالي، الذي أعد دراسة قيمة حول الموضوع، بيّن فيها: أن أمريكا هي التي خططت لهذا الأمر، وبيّنت له قبل، وجّهت «قوات الانتشار السريع»، وكان صدام حسين أدواتها في تنفيذ مخطّطها من حيث لا يدري، فقد درست نفسيته، واستغلت طموحاته في تحقيق أهدافها في السيطرة على المنطقة.

النقطة الرابعة: أهمية الجمع بين العلم الشرعي والفقهاء السياسي

وهذه نقطة مهمة تسجل لإخواننا من شباب العلماء والدعاة في المملكة، الذين جمعوا إلى العلم الشرعي: الفقهاء السياسي، ووقفوا موقف المعارضة لسياسة الحكومة، وسياسة كبار المشايخ. فمنهم الدكتور الشيخ الدكتور سفر الحوالي، والعودة والقربي والعمر والآخرين.

١ أَلْفَرَضَاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٦٣٤

النقطة الخامسة: موقف الشيخ القرضاوي من غزو الكويت

أجاب الشيخ القرضاوي عن سؤال الجزائريين بمناسبة موقفه من غزو الكويت: «أنا من غير شكٍّ ضدَّ الأمريكان وحلفائهم من الفرنسيين والبريطانيين والغربيين المعتدين بصفة عامة. ولكيَّ أيضاً ضدَّ غزو الكويت بغير حقٍّ، وإعطاء الغزاة حقَّ سبلها ونهبها واستحلالها.

وهو يرى أن الواجب علينا جميعاً الآن يعني في ذلك الوقت أن نضغط على صدام حسين للانسحاب طوعاً واختياراً، قبل أن ينسحب قهراً واضطراً. فمن خلال حرصه على العراق: شعباً، وطناً، والعراق جيئاً، أطلب صداماً بالانسحاب، فلا يدع الفرصة لما يسمّى «قوات التحالف» لتستقرَّ في المنطقة، وتتحكَّم في مقدراتها. هذا هو ما يحكم به العقل والشرع ومصلحة الأمة، وما زات أمامه مُهَلَّة أعطيت له لينسحب بإرادته.^١

وقد حاول كثيرون أن يثنوا صداماً عن عزمه، وأن يقنعوه بالعدول عن رأيه، ومنهم الرئيس المصري حينئذٍ حسني مبارك، الذي أرسل إليه رسائل عدَّة، فلم يبال بها؛ إذ لم يكن مبارك عنده بالثقة الذي ينصت لنصحها، ويطمئن إليه في ذلك الوقت.

المطلب السابع عشر: قبوله التعددية السياسية

التعددية السياسية مقبولة شرعاً، وقد كتب الشيخ القرضاوي في ذلك بتوسُّعٍ وبزُهْنٍ عليه. وقال: إن تعدد الأحزاب في السياسة يشبه تعدد المذاهب في الفقه، فالأحزاب مذهب في السياسة، والمذاهب أحزاب في الفقه. وأشَرَّ الشيخ القرضاوي إلى أن سيّدنا عليّاً رضي الله عنه: أقرَّ وجود حزب الخوارج في عهده، مع أن لهم مبادئ لا يقرّهم عليها، وهي مناهضة له ولمفاهيمه ولسياسته، ومع هذا اعترف بوجودهم ومشاركتهم في الحياة الدينية والجهادية والسياسية، ما لم يبدؤوا المسلمين بقتال.^٢

المطلب الثامن عشر: أنشطة المركز المتنوعة

وقد قام «مركز الدراسات الحضارية» بأنشطة متنوّعة في سنة ١٩٩٣م، وجعل له فرعاً أو مكتباً في القاهرة. منها ندوات كانت تبحث في موضوعات يتعد عنها الإسلاميون، مثل التعددية والحريّات، وشرعية تكوين الأحزاب في الدولة الإسلامية، والموقف عن المرأة، وضرورة النقد الذاتي للحركة الإسلامية.

مشاركة عدد من المفكرين:

وكان يشارك في هذه الحلقات عدد من المفكرين الإسلاميين الأحرار، مثل: الشيخ يوسف القرضاوي في بعض الندوات حين يكون في القاهرة في إجازة الصيف أو عند مروره بالقاهرة لسبب أو لآخر، والمستشار طارق البشري، والدكتور محمد عمارة، والأستاذ فهمي هويدي، والدكتور أحمد كمال أبو المجد، والدكتور محمد سليم العوا، والدكتور أحمد كمال إمام، كما شارك فيها عدد من الإخوان الملتزمين بالتنظيم، مثل: الدكتور عبد المنعم أبو الفتوح، والدكتور عصام العريان، حتى الأستاذ مصطفى مشهور نائب المرشد العام، ثم المرشد العام بعد ذلك شارك في بعض الندوات. وكان ذلك في سنة ١٩٩٣م.

١ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٦٤١ - ٦٤٢

٢ المرجع السابق، ص ٦٥٤ - ٦٥٥

ومن الندوات التي شارك الشيخ القرضاوي فيها: ندوة تكوين الأحزاب داخل الدولة الإسلامية، حيث قال: إن تعدد الأحزاب في السياسة أشبه بتعدد المذاهب في الفقه، ويمكننا أن نقول: إن الأحزاب مذاهب في السياسة، والمذاهب أحزاب في الفقه. وقد نقلها الكاتب المعروف فهمي هويدي على لسانه في مقالاته الأسبوعية الشهيرة في الجريدة اليومية «الأهرام» وغيرها.^١

المطلب التاسع عشر: سؤال مُحرَّج لعلماء السنة

بعد انتصار ثورة الخميني في إيران في شباط "فبراير" ١٩٧٩م، توجه الناس هنا وهناك بسؤال مُحرَّج إلى العلماء والدعاة من أهل السنة: لماذا نجح علماء الشيعة في قيادة ثورة ناجحة على نظام جاهلي، ولم ينجح علماء السنة في إقامة ثورة مماثلة في بلاد السنة على الأنظمة العلمانية الجاهلية؟ هل هذا عجز في طبيعة المذهب السيئي نفسه أو هو عجز في علماء السنة الذين ساروا في ركاب الحكام؟ وكان الشيخ القرضاوي ممن وجه إليهم هذا السؤال - أو قُلَّ هذا الاتهام - في كلِّ مكان ذهب إليه من بلاد المسلمين من أهل السنة.

وهذا المطلب يتضمن مسألة، وهي:

عوامل داخلية وخارجية ساعدت على نجاح الثورة

وكان الجواب: أن العيب والعجز ليس في مذهب أهل السنة بلا ريب، ولا في علماء السنة الصادقين، ولكن هناك ظروفًا وعوامل داخلية وخارجية أدت إلى نجاح ثورة الخميني في ذلك الوقت لم تتوافر لأهل السنة. فقد كان مذهب الشيعة هو: انتظار "الإمام المهدي" حتى يظَهَر، ويملاً الأرض قسطاً وعدلاً، بعد أن ملئت ظلماً وجوراً. ومعنى هذا: أن طبيعة المذهب هي: الصبر على جور الأئمة في الأرض، حتى يأتي الفرج من السماء! ولكن الإمام الخميني رفض هذه الفكرة: فكرة الانتظار إلى ظهور الإمام، فقد انتظر الشيعة اثني عشر قرنًا، ولم يظَهَر، فإلى متى ننتظر؟ وخرج الخميني بنظرية جديدة في "ولاية الفقيه" نيابة عن الإمام.

وقد وافقه كثير من "آيات الله" والمرجعيات الشيعية الدينية، وخالفه الأقلون. وكان الخميني هو الرجل المؤهَّل لقيادة القافلة الشيعية في هذه المرحلة بما أوتي من قوة العزيمة، وشجاعة المواجهة، والإصرار على المبدأ، والتأثير في الأنباع، وإن لم يكن أعلم المرجعيات المعروفة في ذلك الوقت... ولكن قيادة الثورات الشعبية لا تحتاج إلى العلم وحده، بل تحتاج أيضًا إلى مجموعة من الصفات العقلية والنفسية والحلقية كانت متوافرة في الخميني الذي تصدَّى لمقاومة طغيان الشاه، وهو في أوج مجده وسلطانه.^٢

وهذه المسألة تشتمل على نقطتين، وهما:

النقطة الأولى: قد ساعد على نجاح الخميني في ثورته عدّة أمور

أولها: أن الشاه قد بلغ من الطغيان والفساد مبلغًا عظيمًا... فمن الناحية الداخلية باتت إيران مظهرًا للانحلال والتفكك، من الناحية الأخلاقية، وللتمايز والتفاوت المستنكر من الناحية الاقتصادية، ما بين ثراء فاحش وفقير مدقع.

من الناحية الخارجية: أصبح الشاه ودولته شرطي أمريكا في الشرق الأوسط، وأصبحت لإيران علاقات مكشوفة بدولة الكيان الصهيوني، فضلًا عما نسب إليه من الولاء للبهائية وغيرها، مما يعني: أن ولاءه لم يعد للإسلام، ولا للمذهب الجعفري، مذهب الأكثرية في إيران.

١ أَلْفَرَسَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٧٣٧

٢ المرجع السابق، ص ٧٣ - ٧٤

وثانيها: أن الشعب قد غلا مِرْجُلُهُ، واشتدَّ حَنْقُهُ وسخطه على نظام الشاه، فقد بلغ السبيل الزبي، ولم يكن يحتاج إلا إلى القائد الذي يلتف حوله، ويمضي تحت رايته بقوة وحساسة، وقد وجد ضالته في الخميني الذي استطاع بحق أن يجمع الشعب من ورائه، ويبعثه نفسياً وعاطفياً، لينطلق كالسيل العَرم، لا يقف في سبيله شيء... ولو كان الجيش بكلّ أسلحة، والسافاك بكلّ جبروته.

ثالثها: أن الظروف الدولية كانت مهياًة لاستقبال الثورة في إيران، فقد أضحي الشاه "ورقة محترقة" كما يعبرون اليوم، وليس هناك من يتشبّث ببقائه، ولا من يبكي عليه إذا ذهب... ومثل هذا المخلوق لا تحرص عليه القوى الكبرى، ولا تكلف نفسها الدفاع عنه.

النقطة الثانية: أثر المذهب الشيعي

ومما لا ينبغي أن ينازع فيه: أن طبيعة المذهب الجعفري الشيعي: أن يمنح علماء الدين - وبخاصة "آيات الله الخميني" - فيه قوّة مادّية ومعنويّة، لا يتوافر مثلها لأهل السنّة، ولا سيّما في هذا العصر.

وقد كان أهل السنّة من قبل يستعوضون عن خمس الشيعة بما لهم من أوقاف وفيرة، وقفها أهل الخير على العلماء والمؤسّسات الدينيّة، ولكن حكومات أهل السنّة في العصور الأخيرة استولت على الأوقاف كلّها، ليبقى العلماء عالة على الدولة أو الحكومة!

أما الجانب المعنويّ فهو ما يتمتّع به هؤلاء المراجع من سلطة روحية قويّة على أتباعهم، وهي سلطنة أساسها الالتزام الدينيّ، ينصاع لها المرء طائعا مختاراً، معتقداً أنه يتقرّب بذلك إلى الله. فالمرجع الدينيّ في نظره ممثل للإمام المعصوم الغائب، وطاعته طاعة لهذا الإمام، الذي تعدّ طاعته من طاعة الله ورسوله، فهي إذن طاعة الله مطلقة، فإذا أصدر إليه المرجع أمراً، فكأنما أمر به من السماء!

وهذا النوع من الطاعة لا يتوافر لأهل السنّة وفق أصول مذهبهم الذي يرى: أن لا عصمة لأحد غير رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وعصمة الأئمة في مجموعها، فهي لا تجتمع على الضلالة، ومن عدا ذلك، فكلّ أحد يؤخذ من كلامه ويرد عليه، سواء كان من آل البيت أم من الصحابة، رضي الله عن الجميع.

وعلى هذا يكون لعلماء السنّة فضلهم ومكانتهم، وهم الذين يرجع إليهم في أمر الدين، وأحكام الشرع، وطاعتهم فيما يفتون به ويرشدون إليه واجبة إلا إذا اختلفوا، فيتخيرون من أقوالهم ما هو أرجح دليلاً، وأهدى سبيلاً. ولكن جماهير الناس تناقشهم وتردّ عليهم، فليسوا معصومين، ولا مُتَمَلِّينَ لمعصومين!

المبحث الثاني: أفكاره في الاجتماعية وبعض نشاطاته

إن الإسلام دين اجتماعي، لا يمكن للمسلم أن يثبت وجوده فيه إلا داخل جماعة، لهذا شرعت صلاة الجماعة، وجعلت أفضل من صلاة الفرد وحده بسبع وعشرين درجة، وأنشئت المساجد لصلاة الجمع والجماعات، لتوحد المسلمين، وتصلهم بالجماعة المسلمة، فيد الله مع الجماعة، والشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية، والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وللمسلم على المسلم جملة حقوق: يسلم عليه إذا ليقه، ويشمته إذا عطش، ويسأل عنه إذا غاب، ويعينه إذا احتاج، ويعوده إذا مرض، ويهنئه إذا فرح، ويعزيه إذا حزن، ويصلي عليه إذا مات.

ولهذا لا يستطيع مسلم أن يحتفظ بإسلامه قوياً مؤثراً إذا عاش وحده، بل بالتعاون مع إخوانه يحيا ويبقى ويقوى، وهذا ما نصحننا به الإخوة هناك: أن يعيشوا بالإسلام مترابطين متآخين، يتزاورون ويتضامنون فيها بينهم، وبذلك يشعرون بنعمة الإخوة تظلمهم، كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [٦٢] ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [٦٣].^١

وفيه المطلوب، وهو أفكاره في الاجتماعية وبعض نشاطاته، والذي يحتوي على ثماني مسائل، وتفصيلها فيما يلي:

المسألة الأولى: الإنسان مدني بطبعه

وقد بين الشيخ القرضاوي في مقدمة الكتاب: أن الإنسان كما قال القدماء: مدني بطبعه، وكما قال المحدثون: حيوان اجتماعي. أي: أنه لا يستطيع أن يعيش وحده، بل لا بد أن يتعاون مع غيره، حتى تستقيم حياته، وتحقق مطالبه، ويستمر نوعه. وقد قال الشاعر العربي: 'الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض - وإن لم يشعروا - خدم!'

والإسلام يُصوِّر الإنسان كائنًا يعيش وحده، إنما يُصوِّره في مجتمع، ولهذا توجَّهت التكاليف إليه بصيغة الجماعة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾. ولم يجئ في القرآن الكريم «يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ»؛ وذلك أن تكاليف الإسلام تحتاج إلى التكاتف والتضامن في حملها والقيام بأعبائها. يستوي في ذلك العبادات والمعاملات. فإذا نظرنا إلى فريضة كالصلاة وجدنا أنها لا يمكن أن تقام كما يريد الإسلام إلا بمسجد يتعاون المجتمع على بنائه، ومؤذن يعلن الناس بمواقيت الصلاة، وإمام يؤمهم، وخطيب يخطبهم، ومعلم يعلمهم، وهذا كله لا يقوم به الفرد، وإنما ينظمه المجتمع.

وقد جعل القرآن أول أعمال الدولة المسلمة إذا مُكِّن لها الأرض: أن تقيم الصلاة، كما قال الله تعالى في القرآن الحكيم: ﴿الَّذِينَ إِذَا مَكَتَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [٤١].^٢ ومثل ذلك يقال في فريضة الصوم، وضرورة ترتيب أمور الحياة في رمضان ترتيباً يعيّن على الصيام والقيام والسحور وغيرها.

ومن باب أولى: الزكاة، فالأصل فيها أنها تنظيم اجتماعي تشرف عليه الدولة، بواسطة ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ [٦٠].^٣ الذين نصّ عليهم القرآن. وكذلك كل شعائر الإسلام وأركانها.

١ القرآن الكريم، الأنفال (٨)، الآيات [٦٢ - ٦٣].

٢ القرآن الكريم، الحج (٢٢)، الآية [٤١].

٣ القرآن الكريم، التوبة (٩)، الآية [٦٠].

أما الأخلاق والمعاملات فلا يتصوّر أن تقوم - كما ينشدها الإسلام - إلا في ظلال مجتمع ملتزم بالإسلام، يتعبّد لله بإقامة حياته على أساس الإسلام.

وقد علّم الإسلام المسلم أن يقول إذا ناجى ربّه في صلاته: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [٥].^١ فهو يتكلّم بلسان الجماعة، وإن كان وحده، وكذلك إذا دعا ربّه دعا بصيغة الجمع: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [٦].^٢ ... فالجماعة حيّة في وجدانه، حاضرة على لسانه.

والمجتمع المسلم مجتمع متميّز عن سائر المجتمعات بمكوّناته وخصائص، فهو مجتمع ربّاني، إنساني، أخلاقي، متوازن.

المسألة الثانية: أهميّة إقامة المجتمع المسلم

والمسلون مطالبون بإقامة هذا المجتمع، حتّى يُمكنوا فيه لدينهم، ويجسدوا فيه شخصيتهم، ويجيوا في ظلّه حياة إسلاميّة متكاملة: حياة توجّهها العقيدة الإسلاميّة، وتركيزها العبادات الإسلاميّة، وتقودها المفاهيم الإسلاميّة، وتحركها المشاعر الإسلاميّة، وتضبطها الأخلاق الإسلاميّة، وتحملها الأداب الإسلاميّة، وتهيمن عليها القيم الإسلاميّة، وتحكمها التشريعات الإسلاميّة، وتوجّه اقتصادها وفنونها وسياستها: التعاليم الإسلاميّة.^٣

المسألة الثالثة: تصوير خاطئ للمجتمع المسلم

فليس المجتمع المسلم كما يتصوّر أو يصوّر كثيرون - هو فقط - الذي يطبق الشريعة الإسلاميّة في جانبها القانوني، وخصوصاً جانب الحدود والعقوبات، هذا تصوّر وتصوير قاصر، بل ظالم لهذا المجتمع، واختصار لكلّ مقوماته المتعدّدة في مقوم واحد هو التشريع، وفي جانب واحد من التشريع هو التشريع الجزائي، أو الجنائي.

ولهذا كان من المهمّ عند الشيخ القرضاوي هنا: إلقاء الضوء على المكوّنات أو الملامح الأساسيّة لهذا المجتمع الذي نشده، والذي قامت حركات وجماعات إسلاميّة في شتّى أنحاء العالم العربيّ والإسلاميّ تدعو إليه، ليحلّ محلّ المجتمعات الحاضرة، التي اختلط فيها الإسلام بالجاهليّة، سواء أكانت جاهليّة وافدة، مما غرانا به الاستعمار الغربيّ بشقيه: الرأسمالي والاشتراكي، أم جاهليّة موروثية، من رواسب عصور التخلف، التي ساء فيها فهم المسلمين لدينهم، كما ساء تطبيقهم له، حكامًا ومحكومين.^٤

المسألة الرابعة: مع الأخوات المسلمات

ومن المجالات التي كان القرضاوي يشارك فيها: دروس كان يلقيها للأخوات المسلمات، وكان الأستاذ البنا قد أنشأ قسماً للأخوات المسلمات ليكون مكّلاً وموازياً للإخوان المسلمين، حيث قال الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [٧١].^٥

١ القرآن الكريم، الفاتحة (١)، الآية [٥].

٢ القرآن الكريم، الفاتحة (١)، الآية [٦].

٣ ألفردّواوي، يوسف بن عبد الله، ملامح المجتمع المسلم الذي نشده، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: السادسة، ١٩٩٩م)، ص ٢١

٤ المرجع السابق، ص ٤٩

٥ القرآن الكريم، التوبة (٩)، الآية [٧١].

وكانت تشرف على هذا القسم زوجة الأخ الفاضل الأستاذ محمود الجوهري، وهو يساعدها، ولكن القسم كان ضعيفا، ولم يرق إلى المستوى المطلوب، باعتبار أن المرأة نصف المجتمع، وأن النساء شقائق الرجال، وإن كان للأخوات دورهن في أيام "المحن" حيث يوصلن المساعدات إلى أسرالمعتقلين الذين لا مورد لهم.

ولم يرق العمل الإسلامي النسوي إلا في عصر الصحوة الإسلامية المعاصرة، حيث انتشرت ظاهرة الالتزام بالزّي الشرعي الذي أطلق عليه "الحجاب" وهو توجه طوعي اختياري من النساء والفتيات المسلمات، لم يُجرهنّ عليه أحد، وحيث أقبل الكثير منهنّ على الإسلام علما وعملا وغيرةً وحماسًا^١.

ولكن حتى الآن لا توجد زعامات وقيادات نسائية إسلامية، كما عند العلمائين والممارسين، إلا الزعامات التاريخية أمثال الحاجة زينب الغزالي حفظها الله، في مصر، والدكتورة سعاد الفاتح في السودان. وسبب ذلك: أن الرجال هم الذين يقودون العمل النسائي ويجرّونه، وكثير منهم لا يسمحون لزوجاتهم بممارسة النشاط الإسلامي المطلوب، إلا قليلا منهم، مثل الأخ الدكتور أحمد عبد الله، وزوجته الداعية المثقفة المتألّفة، الدكتورة هبة رؤوف عزّت، والأخ المهندس سراج، وزوجته الداعية الناشطة المهندسة كاميليا حلمي مديرة فرع المرأة في المجلس العلمي للدعوة والإغاثة.

المسألة الخامسة: بمُناسبة العقيدة وأثرها في حياة المجتمع

كان الشيخ القرضاوي يرى أننا في حاجة لبحث يثبت صحّة العقيدة في الله، وفي الآخرة من زاوية أخرى، غير زاوية التي أشرنا إليها، وهي: آثار العقيدة المباركة في حياة الإنسان فردًا ومُجمَعًا، فإذا كانت هذه العقيدة تُثمّر السكينة النفسية للفرد، وتمنحه الرضا والأمل والأمن والحب، فيحيا في ظلال سعادة روحية لا يُوزيها ملك القصور والقناطير المنظرة، كما أن لها أثرها في تزكية نفسه، وإحياء ضميره، وتنمية وازعه الأخلاقي، وإعطائه القدرة على الانتصار على طغيان غرائره وشهواته، وعلى أن يتحكم في نزعاته وعاداته. كما أن العقيدة لها أثرها في حياة المجتمع، وما المجتمع إلا أفراد تربطهم روابط مشتركة، فإذا صلح الأفراد بالعقيدة صلح المجتمع كله، كما أن البناء لا يصلح إلا بصلاح لبنائيه. ومن فضل العقيدة أنها تقوي نزعة العيرية والإيثار عند الفرد، فيلتحم بغيره، ويتعاون معه على البر والتقوى، ويجعل المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا.

إذا كان العقيدة الدينية هذه الآثار الطيبة التي قرأناها في التاريخ، وبمسانها في الواقع، فلا يمكن أن تكون هذه العقيدة باطلاً؛ لأن الباطل لا يمكن أن يكون من ورائه منفعة للناس، ولو نفع قليلاً منهم لكان يضرّ بأكثرهم، ولو نفع في وقت معين فلا يمكن أن ينفع في المدى الطويل.

المسألة السادسة: وَفَقَةُ القرضاوي في الشيعة

في نظر الشيخ القرضاوي أن الفتن التي تثار في بعض البلاد بين السني والشيعة في المجتمع، غالبًا ما تكون أسبابها خارجية، تريد أن تضرب المسلمين بعضهم ببعض، أو يكون هناك ظلم كبير وقع على أحد الفريقين، لا يمكن احتمالها أو الصبر عليه. وما عدا ذلك فالعلاقات تجري على ما يرام. وقد تحدّثنا الشيخ القرضاوي والإمام موسى الصدر - رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في لبنان عن أهمية بين السني والشيعة، حتى لا يدعوا مجالاً للذين يصطادون في الماء العكر، وينتهجون "فرق تسد"، وأن يركّزوا على "القواسم المشتركة" بين المذهبين، ويوسعوا قاعدتهما ما أمكنوا ذلك، وأن يضع كلّ منا يده في يد أخيه في القدر المتفق عليه ويسامحه فيما لا يمكن

١ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٤٥٩

الاتفاق عليه، وَفَقًا لـ"قاعدة المنار الذهبية" التي أطلقها العلامة المجدد السيد محمد رشيد رضا رحمه الله، وهي التي تقول: "نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويُعذِرُ بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه." وقد طَبَّقَ الإمام الشهيد حسن البنا هذه القاعدة في حياته وعلاقاته، ورحب بدار التقريب بين المذاهب، التي أُقيمت في القاهرة.

المسألة السابعة: تَيَّارُ التكفير في مصر

في هذه الآونة يعني سنة ١٩٧٧م لاحظ الشيخ القرضاوي وغيرهم من المراقبين للتيارات الفكرية في مصر - وخصوصًا الدينيّة منها - بروز تيار "التكفير" يعني الذي يعلو ويتوسع في رمي المسلمين بتهمة الكفر والمُرُوق من دين الإسلام، أو عدم الدخول فيه أصلًا، وهو أمر جديد لم يكن معروفًا بهذه الحِدَّة في مصر من قبل.

قد شغل تيار التكفير مصر مدّة من الزمن، واستطاع أم يؤثّر في مجموعة من الشباب الذي غلبت عاطفته على عقله، وكانت حماسته أكبر من فقهه. فأمسوا يكفرون الناس بالجملة، حتى كفروا آباءهم وأمهاتهم، وإخوانهم وأخواتهم، وكفروا علماء الدين من الوُعَاظِ والخطباء، وأئمّة المساجد. بل كفر بعضهم المسلمين بعد القرن الرابع الهجريّ إلى اليوم!!

وقد ذكر الشيخ القرضاوي في كتابه: "الصحة الإسلامية بين الجمود والتطرّف": كيف تَشُرُّبُ هذا الفكر إليهم. إنهم يقولون: إنهم أخذوه عن سيّد قطب رحمه الله، وربّما وجدوا في نصوصه في عدد من كتبه - وخصوصًا (التفسير) "في ظلال القرآن" و"المعالم" - ما يؤيّد وجهة نظرهم.^١ ولكنّ الذي مَهَّدَ لدخول هذا الفكر إلى رءوسهم، وَقَرَّبَهُ إلى عقولهم، هو: العذاب الذي قاسوه في السجن الحربيّ. ولم يكن هذا التيار بِالضَّخَامَةِ التي تصوّرها أجهزة الإعلام الرسميّة، ولكن يبدو أن لهذه الأجهزة هدفًا من وراء التضخيم والتهويل. لعلّ ذلك لتضرب به التيارات الأخرى الأقدم وضعًا، والأطول عُمرًا، والأرسخ قدمًا، والأوسع قاعدة، مثل تيار الإخوان المسلمين.

وقد عُني الكاتب الإسلاميّ الكبير فهمي هويدي بفكرهم ومناقشته على صفحات الجريدة "الأهرام"، حين كان مسؤولًا عن الجانب الدينيّ في الصحيفة. وقال: خطورة هذا التيار في هذه المرحلة: أنه لم يعد يكتفي بالجانب النظري، بل طَفِقَ يتّخذ طريق "التنظيم" والتجنيد للشباب المتحمّس. ومن انضمّ إليه اجتهد أن يَغْسِلَ دِمَاغَهُ من الأفكار التي يعتنقها جمهور المسلمين، وفيه في نظره: أفكار خاطئة؛ بل ضالّة، وإن قال بها علماء كبار؛ لأنّها مخالفة لظاهر القرآن والسنة.

وهنا تبدأ مرحلة "تنقيف" مركزة تقوم على أصولها الخاصّة، التي تُرْفُضُ الآخر، كل الآخر، مسلمًا أم غير مسلم، وترفض فقه الآخرين كلّهم، والتي تتمثّل في التمسك بظواهر النصوص، وترك المحكمات، وسوء الظنّ بالناس جميعًا. ثمّ بدأ الأمر يزداد خطرًا حين سَلَكُوا "طريق العُنْفِ" فاستخدموه أوّلًا مع كلّ من سلك طريقهم، ثم ارجع عنه حين اكتشف خطأه وضلاله، فهم يَغْدُوْنَهُ حينئذٍ مُرْتَدًّا، يستحقّ أن يقام عليه حدّ الردّة بالقتل! وكثيرًا ما نَقْدُوهُ بالفعل!

بدءوا يَصُدُّرْنَ فتاوى خطيرة فيما بينهم، فمن تركهم عَدُوهُ مُرْتَدًّا، وأجازوا لامراته أن تتزوَّج غيره وإن لم يطلّقها! بل أجازوا أن يخطفوا الفتاة، ويزوَّجوها لأحداهم، لأن رضا أبيها "الكافر" غير مطلوب، وغير معتبر.

١ القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٤٦١

إلى سلسلة من الأخطاء والضلالات، جرَّ بعضها إلى بعض. فقد أعطوا أنفسهم كلَّ سُلطَاتِ الإفتاء والقضاء والشرطة، فَيُفتنون بإباحة دم من شاءوا من الناس، ثم يصدرون حكمهم المُبرَم الذي لا رادَّ له، ولا يقبلُ الاستئناف ولا النقض، وبعد ذلك يشرعون في التنفيذ! وأحدهم لا يَحْسُنُ أن يفتي في مسألة من مسائل الميراث، ولا يحسن أن يكون قاضيًا في مُحْكَمَةِ حُنَج!!

وأشدَّ من ذلك خطرًا: أن هذا الفكر المُنحرف بدأ يوسع دائرته، ليصدره أهله خارج مصر، ومصرُ أبدًا رائدة في الخير، ورائدة في الشرِّ معًا. فهي تُصدِّرُ كلا منهما إلى سائر البلاد العربيَّة، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله.^١

المسألة الثامنة: أهميَّة موضوع الأقليات الدينيَّة

موضوع الأقليات الدينيَّة موضوع مهم، ويفتقر إلى كثير من التَّجْلِيَّة والتأصيل، لما شابه في تراثنا من أحكام وقتيَّة، ربَّما كانت قرارات إداريَّة أو سياسيَّة مناسبة لزمانها ولبئيتها، فظنها بعض الناس أحكامًا شرعيَّة، يجب تعميمها على كلِّ الناس، ودوامها في كلِّ الأزمان. وهذا ما يشتهه على كثيرين، ولا يميِّز بين بعضه وبعض إلا الراسخون.

وهذه المسألة تتناول ثلاث نُقَط، وهي:

النقطة الأولى: محاضرة الشيخ القرضاوي في جامعة الخرطوم عن حقوق الأقليات

كان الشيخ القرضاوي ألقى في أواسط السبعينات من القرن العشرين محاضرة في جامعة الخرطوم، عن حقوق الأقليات الدينيَّة في المجتمع الإسلامي، وبيَّن هذه الحقوق استنباطًا من نصوص القرآن وصحيح السنَّة، وهدى الخلفاء الراشدين، وأقوال الأئمَّة المحققين، وتوجَّهات المصلحين المُجدِّدين.

النقطة الثانية: اعتراض أحد الحاضرين

فقام أحد الحاضرين من المسيحيِّين معترضًا، وقال: إن ما قاله مخالف لما هو منصوص في كتب الفقه الإسلاميِّ من معاملة أهل الذمَّة، وبدأ يقرأ نصوصًا من بعض كتب المتأخرين من أهل المذاهب، وفيها: وجوب تمييز الذمِّيِّ عن المسلمين في ملبَّسِه، وإهانته عند دفع الجُرِيَّة، وذكر حديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَبَدُّوْا الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَى بِالسَّلَامِ، فَإِذَا لَقِيْتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ، فَاضْطَرُّوْهُ إِلَى أَضْيَقِهِ».^٢ وقال المعترض: بعني لم كنت مسيحيًّا أسير على حرف النيل، فأنت كمسلم مطلوب منك أن تُضَيِّقَ عليَّ الطريق، حتَّى تضطرَّني إلى أن أسقط في النيل!

النقطة الثالثة: جواب الشيخ القرضاوي على المعترض

وكان جوابه على هذا كلِّه واضحًا وحاسمًا. لقد قال: إن ما ذكره في محاضرتِه من أحكام، وما قرَّره من مبادئ، وما سرده من وقائع، لم يَخْتَرعه من عنده. بل كلُّه ما قاله مأخوذ من مصادره الموثقة: إمَّا من كتاب ناطق، أو سنَّة نبويَّة هادية، أو سيرة صحابيَّة راشدة، أو أقوال فقهية مدلَّلة، أو وقائع تاريخيَّة ثابتة. وهو ما يقوله ويردِّده كلَّ دعاة الإصلاح والتجديد منذ عهد الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا والشيخ حسن البنا ومن بعدهم إلى اليوم. وهو الذي ندعو الناس إليه، لا ندعوهم إلى شيء غيره. وما عدا ذلك فهي آراء لا تُلزمننا، ولا تُلزم إلا أصحابها، وهي تعبَّر عن زمنها، وعن فكلِّ يمثل فترة الانحطاط والتراجع في التاريخ الإسلاميِّ.

١ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريَّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٤٦٣

٢ النيسابوري، مسلم، *الصحيح لمسلم*، باب: النهي عن ابتداء أهل الكتاب، (بيروت، دار إحياء التراث العربي)، رقم الحديث: ٢١٦٧، ج ٤، ص ١٧٠٧

كامل يعارض أحاديث أخرى، ومواقف عملية للصحابة رضي الله عنهم. وقد صحّ عن عدد من الصحابة أنهم كانوا يسلمون على كل من لقيهم، مسلماً أو غير مسلماً، عملاً بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، ... أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ».^١

وفي قول الشيخ القرضاوي: وظلّ هذا الأمر يَجُوزُ في نفسي، وأرى لزوم الكتابة فيه، لتمييز الصواب من الخطأ، والثابت من المتغير، حتى وقفني الله تعالى لكتابة هذا الكتاب: "غير المسلمين في المجتمع الإسلامي".

لقي أحد الدعاة الهنود الشيخ القرضاوي بعد صدور هذا الكتاب، وقال له: كتابك مهم جداً، ولكننا في حاجة إلى كتاب يكمله، قال الشيخ: ما هو؟ قال: "المسلمون في غير المجتمع الإسلامي"! وهو ما وفقه الله إليه بعد ذلك، من الكتابة في فقه الأقليات المسلمة، التي تعيش في وسط المجتمعات غير الإسلامية.^٢

١ النيسابوري، مسلم، الصحيح لمسلم، باب: بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون ... وَأَنَّ إِفْشَاءَ السَّلَامِ سَبَبٌ لِحُصُولِهَا، (دار إحياء التراث العربي - بيروت)، رقم الحديث: ٥٤، ج ١، ص ٧٤. والسجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، [المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد]، باب في إفشاء السلام، (بيروت - المكتبة العصرية)، رقم الحديث: ٥١٩٣، ج ٤، ص ٣٥٠، [حكم الألباني: صحيح].

٢ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ١٩ - ٢٠

المبحث الثالث: أفكاره في الاقتصادية وبعض نشاطاته

قال القرضاوي: لا أذكر في هذه السنة (١٩٦٠م - ١٩٦١م) أحداثاً ذات بال، حدثت في حياتي، إلا أنني كنت أقرأ كثيراً في الموضوع الذي اخترته لرسالة الدكتوراه، وهو "الزكاة في الإسلام وأثرها في حلّ المشاكل الاجتماعيّة"، والذي قدمته إلى الكليّة، التي عينت لي مشرفاً هو شيخنا في الكليّة، وشيخي في الدراسات العليا: الشيخ أحمد علي رحمه الله.

وقد كان القرضاوي معنيّاً بالمقارنة بين الزكاة وغيرها من الضرائب، ولكنه قرأ كثيراً من كتب الاقتصاد، وخصوصاً ما يسمّى: "الاقتصاد السياسي"، ولم يجد فيها ما يشبع نهمته. وكانوا يتحدثون عن الاقتصاد الرأسماليّ، والاقتصاد الاشتراكيّ، ولا يخطر ببالهم أن هناك شيئاً اسمه: الاقتصاد الإسلاميّ، حتى حينما يتناولون التاريخ، يذكرون الاقتصاد عند اليونان، والاقتصاد عند الرومان، والاقتصاد عند الفرس، ولا يذكرون شيئاً عن الاقتصاد عند العرب والمسلمين، الذين كانت لهم حضارة ثمّاء، استمرت شمسها مشرقة نحو عشرة قرون!

وقد اكتشف القرضاوي بالمصادفة أن الفرع الذي يهّمه في دراسته أكثر من غيره من فروع الاقتصاد، هو: علم الماليّة العامّة، الذي يتناول موارد الدولة ونفقاتها، وفلسفة الضرائب وشروطها، وكيف تتحقّق العدالة فيها. وقد قيل له: أن أعظم كتاب في "أصول علم الماليّة" هو كتاب الأستاذ الدكتور محمد عبد الله العربيّ، أستاذ علم الماليّة في كليّة الحقوق بجامعة القاهرة، والذي كتب في الاقتصاد الإسلاميّ عدّة بحوث جيّدة.

وهذا المبحث يشتمل على أربعة وعشرين مطلباً، وبيانها كالآتي:

المطلب الأوّل: شركة الأخوة الإسلاميّة بالمحلّة

وكان مما فكّر فيه إخوان المحلّة أمام المد الإخواني: أن ينشئوا شركة تجاريّة عامّة، تساهم فيها الجماعة، كما يساهم فيها الإخوان بأموالهم الخاصّة، ويكون جزء من أرباحها للدعوة، وقد أنشئت بالفعل باسم: "شركة الأخوة الإسلاميّة" وساهم القرضاوي فيها بكلّ ما يملك ممّا ادّخره من راتبه.^١

ولم تكد الشركة تجري سفينتها باسم الله مجراها ومرساها، وجرت بهم بريح طيّبة، حتى جاءت ريح عاصف، فأحاط بها الموج من كلّ مكان، وكانت الخنة مع الثورة، فصودرت الشركة وأغلقت، واستطاع أحد الإخوان - وهو الحاج سليمان مطاوع - أن يشتريها من الحكومة بطريقة خاصّة، ويحوّلها إلى شركة خاصّة باسم "شركة الشرق" وهي لا تزال تعمل إلى اليوم، المهم أن الذين دفعوا أموالهم فيها أولاً خسروا نقودهم وعوضهم على الله. وليست هذه أوّل مرّة يخسر الإخوان فيها شركاتهم، فقد جرّبوا ذلك في عهد الملكيّة، فقد كان من رأي الإمام البنا أن يثبت الإخوان شمول دعوتهم عملياً، كما أثبتوا شمولها نظرياً، فإذا قالوا: الإسلام نظام اقتصاديّ أسّسوا شركات اقتصاديّة ليؤكّدوا مصداقيّتهم بأعمالهم.

ومن هنا أنشأوا أيام الشهيد البنا: "شركة المعاملات الإسلاميّة"، و"شركة المناجم والحاجر" وشركة الصحافة وغيرها، فلمّا حلّت الجماعة حلّت معها هذه الشركات، واعتبرت من ممتلكات الجماعة، فصودرت مع كلّ ما تملكه من دور ومؤسسات.

١ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٥٤

والذي أراده أن الشمول النظري لا يستلزم الشمول العملي، وأن مهمّة الدعوة أن تربّي أبناءها على هذا الشمول، وأن تطلقهم في ميادين الحياة يطبقونه بالفعل، كلّ فيما يحسنه ويختصّ به. فهذا ينشئ وحده أو مع آخرين شركة تجاريّة، وآخر يؤسّس مع آخرين مصرفاً إسلامياً، وثالث يقيم مدارس من إسلاميّة، وآخرون يقيمون مصنّعات، وهكذا. وبهذا لا يكون من السهل أن تصدر الحكومة كلّ هذه المؤسّسات؛ لأنها ستصطدم بحقوق الأفراد.

المطلب الثاني: تأميم شركة قناة السويس ومساهمة القرضاءوي

كان من أهمّ حدثٍ وقع في هذه الفترة من صيف في سنة ١٩٥٦م، وهزّ أركان العالم هو: إعلان الرئيس عبد الناصر - في ٢٣ يوليو - تأميم شركة قناة السويس، والاستيلاء على كلّ أملاكها، والبَدْءُ في تسيير قناة السويس بمُرشدين مصريين بدل الفرنسيين والإنجليز وغيرهم، الذين تخلّوا في الحال عن مُعاوَنَةِ السفن وإرشادها، ولم يتعاون مع المصريّين في ذلك غير اليُونانِيّين.

لقد شدّ هذا الإعلان انتباه الشرق والغرب، وصَفَّقَ المصريّون والعرب طويلاً لعبد الناصر، وكسب تأييداً ساحقاً لِمُؤَقَفِهِ هذا الشُّجاع، حتّى الإخوان الذين خرجوا من المعتقلات منذ أسابيع قليلة، والذين لا يزال بعضهم قابلاً في سجون الواحات وغيرها، وأيدوا عبد الناصر. لأن قناة السويس مصدر موثوق به معتبر من مصادر الشعب المصريّ لكسب العُملة.

وكان القرضاءوي هو مَن أيّدَه بصدق،^١ لأن الله قد علّمنا أن نكون عدولاً حتى مع خصومنا، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [٨].^٢

المطلب الثالث: نظريّة الإسلام في اكتساب الأموال عند القرضاءوي

الإسلام لا ينظر إلى المال على أنه شرٌّ ونَقَمَةٌ على الإنسان، بل ينظر إليه على أنه نعمة من يجب أن تشكر، وأمانة يجب أن ترعى، وهو وسيلة لتحقيق غايات الإنسان، جيّدة كانت أم رديئة، هو خير في يد الأحيار، وشرّ في يد الأشرار. وقد جاء في الحديث: عن عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ ... قَالَ: فَأَكُونُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «يَا عَمْرُو، نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحِ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ». ^٣ وقد امتنّ الله على رسوله فقال: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا (أَيَّ فَقِيرًا) فَأَعْنَى﴾ [٨].^٤

وقال تعالى على لسان نوح: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبِّي إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [١٠] ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ [١١] ﴿وَيُؤَدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [١٢].^٥ وكان من دعاء النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «اللَّهُمَّ أَسْأَلُكَ الْهُدَىٰ وَالتَّقَىٰ وَالعَفَافَ وَالعَنَى». ^٦

١ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢، ص ٢٢٨

٢ القرآن الكريم، المائدة (٥)، الآية [٨].

٣ البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة (المتوفى: ٢٥٦هـ)، الأدب المفرد، [محقّق: محمد فؤاد عبد الباقي]، باب: المال الصالح للمرء الصالح، (بيروت - دار البشائر الإسلامية، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م)، رقم الحديث: ٢٩٩، ج ١، ص ١١٢. [قال الشيخ الألباني: صحيح].

٤ القرآن الكريم، الضحى (٩٣)، الآية [٨].

٥ القرآن الكريم، نوح (٧١)، الآية [١٠ - ١٢].

٦ البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي (المتوفى: ٢٩٢هـ)، مسند البزار المنثور باسم البحر الزخار، [المحقق: محفوظ الرحمن زين الله، (المدينة المنورة - مكتبة العلوم والحكم، (حقق الأجزاء من ١ إلى ٩)، الأولى، بدأت ١٩٨٨م، وانتهت ٢٠٠٩م)، رقم الحديث: ٢٠٧٣، ج ٥، ص

كما كان يستعيد به من شرّ فتنة الفقر، ومن شرّ فتنة الغنى. كما روي عن عائشة، أنّ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ النَّارِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْفَقْرِ، وَشَرِّ فِتْنَةِ الْغِنَى». فلم يجرى في القرآن ما جاء في الإنجيل: أن الغنى لا يدخل ملكوت السماوات، حتى يدخل الحمل في سمّ الخياط، ولم يقل الرسول لأحد أصحابه: اذهب فبع ما لك ثمّ اتبعني. بل قال: ما نفعني مال كمال أبي بكر ... ودعا لخادمه أنس بدعوات منها: أن يكثر الله ماله.

المطلب الرابع: وَقْفَةُ القرضاي في الرشوة

هذه آفة من أشدّ الآفات خطرًا على المجتمعات وقيمها: انتشار الرشوة، واعطاء الأمر لمن يدفع، لا لمن يستحق. ولذا لعن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الراشي والمرتشي والرائش، أي الوسيط بينهما. وفي الحديث الصحيح: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ» قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «إِذَا أُسْنِدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ».^٢

وليس من الضروري أن تفهم "الساعة" هنا على أنها الساعة العامة للبشر جميعًا. بل لكلّ أمة ساعة تذهب فيها عزّتها وسيادتها، ويسلّط عليها غيرها، فيصرف أمورها على ما يريد هو، لا على ما تريد هي. ولكن جازت الرشوة - وما هي بجائزة - في أيّ مجتمّع، لا يجوز أن تكون في الأزهر، الذي يخرج للأمة علماءها ودعائها ومفتيها.

المطلب الخامس: التجاوب عن الربا

وفي إحدى الزيارات تحدّث سمّو الشيخ أحمد بن علي آل ثاني، الذي كان حاكم قطر، عن الربا وتشدّد بعض العلماء فيه، واضطرّ القرضاي أن يزدّد عليه، ويبيّن له أن تحريم الربا أمر قطعيّ، وأن الفوائد هي الربا، وأن الله تعالى لا يحرم على الناس إلا ما يضرّهم، وأن الواجب على المسلمين: أن يحرموا ما حرّم الله ورسوله ... إلخ ما قيل في هذه الجلسة.

وكان حديث القرضاي واضحًا حامسًا، لا مجاملة فيه ولا تهاون، وكان بعض الحضور ينظر إليه وهو يتكلّم، كأنما هو مشفق عليه: أن يعارض حاكم البلاد بهذه الصراحة، وهذه القوّة. وذاع حديث هذه الجلسة وهذه المناقشة بين الناس، وخشي بعضهم على القرضاي من عواقبها، وقال بعضهم: كان عليه أن يراعي المقام، كما راعاه آخرون من الحضور. ولكنّ القرضاي عرف بعد ذلك من الشيخ عبد البديع: أن الحاكم أعجب بحديثه، وزاد احترامه له، وقال: هذا رجل يقول ما يراه حقًا، ولا يخاف في الله لومة لائم. فمثله يجب أن يقدر، ويحرص عليه، ولا يفرض فيه.

وعرف من هذا أن قول الحقّ لا يحرم الإنسان من رزق قد كتب له، ولا ينقص من قدره حتّى عند من يجبههم بكلمة الحقّ، كما لا يقدم أجله أو ينقص من عمره لحظة، ربنا يقول: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.^٣

١ نزيل اليمن، معمر بن أبي عمرو راشد الأزدي مولاهم، أبو عروة البصري، (المتوفى: ١٥٣هـ)، الجامع (مشور كملحق بمصنف عبد الرزاق)، [المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي] باب: الدعاء، (باكستان - المجلس العلمي، وتوزيع المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ)، رقم الحديث: ١٩٦٣١، ج ١٠، ص ٤٣٨

٢ البخاري، الجامع الصحيح للبخاري، باب: رفع الأمانة، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ)، رقم الحديث: ٦٤٩٦، ج ٨، ص ١٠٤. والبيهقي، السنن الكبرى، [المحقق: محمد عبد القادر عطا]، باب لا يولي الوالي ولا امرأة ولا فاسق، (بيروت - دار الكتب العلمية، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م)، رقم الحديث: ٢٠٣٦٣، ج ١٠، ص ٢٠١

٣ القرآن الكريم، المنافقون (٦٣)، الآية [١١].

المطلب السادس: قضية الزكاة ما يتعلق برواتب المُوظَّفين

كانت الحلقات التي تحت إشراف التلفزيون المصري في سنة ١٩٧٤م عن الأجوبة التي تتعلق في قضية الزكاة: ما يتعلق برواتب المُوظَّفين، فإن له في كتابه اجتهادًا خاصًا بشأن الرواتب الكبيرة، كرواتب أهل الخليج وأهل أوروبا وأمريكا ونحوها، فقد رجَّح الشيخ القرضاوي فيها: أن يدفع الموظَّفُ فيها زكاة ما بقي من رواتبه بعد حوائجه الأصليَّة "المسكن والنفقة والكسوة والعلاج والتعليم ونحوها"، إذا بلغ نصَّابًا، يُزكِّيه في الحال، ولا ينتظر حتى يُحوَّلَ عليه الحول، بناءً على ما ذهب إليه بعض الصحابة "ابن مسعود وابن عباس ومعارية رضي الله عنهم أجمعين"، من وجوب زكاة المال المسفد عند قبضه إذا بلغ نصَّابًا، إذ لم يصحَّ حديث في اشتراط الحول، - إلا في المال الذي زكِّي قبل فلا يزكِّي إلا بعد عامٍ - وكان ابن مسعود يزكي العطاء "راتب الجنود" يسلم لهم نصيبهم، ويأخذ من كلِّ ألفٍ خمسة وعشرين (ربع عشر أو ٢,٥%) من باب "الحجز في المنبع".^١

ولكنَّ عندما سُئلَ الشيخ القرضاوي عن الموظَّفين في مصر، قال: إنَّهم - بصفة عامَّة - لا ينطبق عليهم هذا الأمر، فإن أكثرهم لا يكاد راتبهم يكفي حاجاتهم الأساسيَّة حتى نهاية الشهر، بل الحقُّ يقال: إن كثيرًا من الموظَّفين المصريين هم ممن يستحقُّ الزكاة لا ممن تجب عليهم الزكاة!!

المطلب السابع: موقف الشيخ القرضاوي عن مشكلة الفقر

مشكلة الفقر التي ذكر الشيخ القرضاوي في رسالته الدكتوراه. موقف الديانات والفلسفات والأنظمة منها، وموقف الإسلام منها، وكيف تصدَّى الإسلام لعلاجها بوسائل عمليَّة تشريعيَّة وأخلاقيَّة وغير ذلك. وقد اعترض الأستاذ الشيخ محمَّد أمين أبي الروس^٢ على اعتباره الفقر مشكلة، وقال: إن الفقر ليس مشكلة، وإنما هو ابتلاء يبتلى الله به الإنسان، كما قد يبتليه بالغي. وكان هذا من أثر النزعة الصوفيَّة عند الشيخ أبي الروس، فإن الصوفيَّة لا يعتبرون الفقر مشكلة، بل يعتبرون الغني هو المشكلة وهو الداء والمرض. وقد أثر عنهم قولهم: إذا رأيت الفقر مقبلاً، فقل: مرحبًا بشعار الصالحين! وإذا رأيت الغني مقبلاً، فقل: ذنب عجلت عقوبته! وهو عكس ما ذهب إليه الشيخ القرضاوي إليه في بحثه، فقد رأيت الإسلام اعتبر الفقر بلائًا، يُستعاذ بالله من شرِّه، وقد علَّمنَا النبيّ صلى الله عليه وسلَّم أن نستعيد بالله من شرِّ فتنة الفقر، ومن شرِّ فتنة الغني، ونعوذ به من القلَّة والذِلَّة.

وقال عليّ رضي الله عنه: لو تمثَّل لي الفقر رجلاً لقتلته! وقال أبو ذر رضي الله عنه: إذا ذهب الفقر إلى بلد قال له: الكفر خذني معك، ولا سيِّمًا إذا كان الفقر ناشئًا من سوء توزيع الثروة، فالذين يعملون لا يملكون، والذين يملكون لا يعلمون! وبعد الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي أصدر هذه القضية مع إضافتها في كتاب خاصّ تحت عنوان: "مشكلة الفقر، وكيف عالجها الإسلام؟"

١ القُرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *فقه الزكاة*، (بيروت، دار القلم، الطبعة: الأولى، ١٩٧٢م)، ج ٢، ص ٦٧

٢ هو كان فضيلة الأستاذ الشيخ محمَّد أمين أبي الروس في جامعة الأزهر حينئذ، وكان مشرفًا ثانٍ لرسالة "الشيخ يوسف القرضاوي" بعد وفاة مشرفه الأول، الذي درَّسه مقرَّر التفسير في أكثر من سنة، ولكن شاء الله أن ينتقل الشيخ أبو الروس إلى رحمة الله تعالى، قبل أن يكمل رسالته للدراسات العليا.

المطلب الثامن: درس الشيخ القرضاوي حول الزكاة في الدوحة أحدث ضجة في قطر

كان المأمول والذي خطّط الشيخ القرضاوي له، والذي انعقدت عليه نيته، بشأن رسالته للدكتوراة: أن ينزل إلى مصر في إجازة صيف سنة ١٩٦٥م للبحث عن مشرف جديد، ومحاولة تلخيص الأمر معه.

ولكن العبد يفكر، والربّ يقدر، فكان لله تقدير آخر فقد بلغه أمر جعله يعدل عن النزول إلى القاهرة في ذلك الصيف، وذلك أنه كان ألقى حديثاً في مسجد الشيخ خليفة بن حمد، ولي عهد قطر ونائب الحاكم، في درس من دروس العصر في شهر رمضان المبارك. هاجم الشيخ القرضاوي فيه الاشتراكية بمناسبة حديثه عن الزكاة، هجوماً خفيفاً، خاطب فيه الأغنياء، قائلاً: إنكم بخلتم بحقّ الله في أموالكم، وهو ٢.٥%، فسلب الله عليكم دعاة الاشتراكية الثورية؛ الذين لا يكتفون منكم بـ ٢.٥% ولا بعشرة أضعافها، بل يصادرون أموالكم كلّها، ويخربون بيوتكم ولا يكادون يبقون لكم شيئاً! لقد كان الابتلاء بمصيبة الاشتراكية عقوبة قدرية من الله للأغنياء الأشحاء، الذي يضعون حقوق الفقراء. وكان الدرس يذاع من إذاعة محلية تبث من الجامع الكبير، يسمعه أهل الدوحة وضواحيها.^١

واعترفت جهات الأمن والمخابرات في مصر هذا الحديث أو هذا النقد موجّهاً إلى مصر خاصة، مع أنه لم يذكر اسم مصر في حديثه، وقد سألوا أكثر من زائر لمصر عن هذا الحديث. وقد لقيه الأستاذ صلاح جلال - الكاتب الصحفي في الأهرام، وفتيى الصحيفين بعد ذلك - وقال ماذا صنعت؟ هناك ضجة حولك في مصر.

*** السؤال:** الذي وجهه رئيس الجامعة "الدكتور إنكو عزيز" في ماليزيا. وخلاصة السؤال: إن الشيوعيين يُفجّمون المسلمين بسؤال لا يجدون له جواباً حول الزكاة. يقولون: إن الإسلام ألقى عبء الزكاة على الفقراء، وأغنى منها الأغنياء، وذلك أن المجلس الملي أو الشرعي في الولاية يأخذ الزكاة "العشر" من زراع الأرز أو القمح أو العشير مثلاً، وربما كان الزارع مستأجرًا للأرض، وليس مالكا لها، ولكن المجلس لا يأخذ شيئاً ممن يملك حدائق جوز الهند أو التفاح، أو مزارع الشاي أو المطاط أو غيرها مما يجلب على صاحبه الملايين، ومع هذا لا يطالب من الزكاة بقليل ولا كثير، حيث يقول الفقهاء: هذه الفواكه وأمثالها، وكذلك الشاي والمطاط لا يجب فيها شيء من الزكاة!

قال الشيخ القرضاوي: إن المجلس التي تجمع الزكاة عندكم ملتزمون بمذهب الشافعي رحمه الله، الذي لا يوجب فيها أخرجت الأرض زكاة، إلا فيما يكال وييس ويدخر، مثل الأقوات، وما عدا ذلك لا زكاة فيه...^٢

ولكن الذي رجّحه الشيخ القرضاوي بالأدلة في كتابه "فقه الزكاة": أن الزكاة واجبة في كلّ ما خرج من الأرض، مأكولاً كان أم غير مأكول، حتى فُظن والمطاط ونحوها. وهو مذهب عمر بن عبد العزيز وأبي حنيفة رحمه الله أصحابه، وداود الظاهري، وهو الذي تُسنّده الأدلة من القرآن والسنة.^٣ حتى إن إمام المالكية في عصره، القاضي أبا بكر بن العربي: رجّح مذهب أبي حنيفة في كتابه "أحكام القرآن" عند تفسير آية ﴿وَأْتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [١٤١].^٤

١ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٥٤٣

٢ المرجع السابق، (٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٥٩

٣ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، فقه الزكاة، (بيروت، دار القلم، الطبعة: الأولى، ١٩٧٢م)، ج ٢، ص ٥٥

٤ القرآن الكريم، الأنعام (٦)، الآية [١٤١].

وعند شرحه لحديث: عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «فِيمَا سَقَتِ السَّمَاءُ وَالْغُيُوثُ أَوْ كَانَ عَثَرِيًّا الْعَشْرُ، وَمَا سَقِيَ بِالنَّضْحِ نِصْفُ الْعَشْرِ وَفِيمَا سَقَتِ السَّمَاءُ الْعَشْرُ»^١.

في شرحه لجامع الترمذي، وضعف مذهبه - وهو مذهب مالك - في هذه المسألة، قائلاً في الأحكام: أما أبو حنيفة فجعل الآية مرآته فأبصر الحق، فأوجبه في كل ما أخرجت الأرض ... وكذا قال في "عارضة الأحوذى في شرح الترمذي" مستنداً إلى عموم الآية ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ [٢٦٧].^٢ وعموم الحديث: "فيما سقت السماء العشر". مؤيداً بأن هذا القول أليقها بشكر النعمة، وأحوطها للمساكين.

ويحسب الشيخ القرضاوي أن الإمام الشافعي رحمه الله لو كان حياً اليوم، ورأى هذه المفارقات، لغير رأيه، كما غير رأيه في كثير من المسائل، والتي يقال فيها: قال الشافعي في "القديم"، وقال الشافعي في "الجديد" وقديمه ما كان يراه قبل هجرة إلى مصر، وحديده ما غير بعد إقامته في مصر، حيث رأى ما لم يكن قد رأى، وسمع ما لم يكن قد سمع ... كما أنه قد ازداد نضجاً وعمقاً، واتسع علمه فلا غرو أن يتغير اجتهاده في بعض المسائل.

واستراح "الدكتور إنكو عزيز" لجواب الشيخ القرضاوي، وقال: ليت المشايخ عندنا يفقهون مثل هذا الكلام، ويأخذون الزكاة من كل ذي مال نام. وبهذا يسوون بين المكلفين جميعاً، كما هو الأصل الشرعي أن الناس سواء أمام التكليف.

المطلب التاسع: نفقاته الفندق المتواضعة من أموال الدولة

ذهب الشيخ القرضاوي في لندن للعلاج من مرض "الدوخة" في سنة ١٩٨٠م، واستقبله مندوب السفارة، وحجز له في الفندق في لندن، ثم في اليوم التوديع جاء مندوب السفارة ليحاسب الفندق، ففوجئ بالنفقات التي يطلبها الفندق. إنه رقم لا يصدق. الإقامة والأكل والتليفونات لا تبلغ ثلاثة آلاف جنيه!! فقال المندوب: ما هذا يا أستاذ؟ هل كنتم صائمين طوال هذه المدة؟ إن الرجل من الإخوة القطريين يأتي لمدة أسبوع، فيكلفنا أضعاف هذا المبلغ! أنكم لم تتكلموا في الهاتف طوال هذا الشهر إلا خمس مرات، كل مرة نحو ثلاث دقائق: وإخوانكم يحسب عليهم التليفون بالساعات كل يوم!

قال الشيخ القرضاوي له: إن الفقهاء قد زووا أن المال العام - مال الدولة - كمال اليتيم، وشددوا في الأخذ منه. ولذلك آثرنا ألا نأخذ منه إلا بقدر الحاجة.^٣ كنا نأكل وجبتين في اليوم: الإفطار والعشاء. وكنا نختار أرخص الأشياء لطعامه: دجاج مع البطاطس "اتشكن إن ذا باسكت" وكنا نكلم الأولاد مرة واحدة كل أسبوع للاطمئنان عليهم، وهذا يكفي. وظل مندوب السفارة كلماً لقي واحداً، يقول له: أتدري كم كلفنا الشيخ وأهله السفارة إقامة ومعيشة لمدة شهر كامل؟ إنه لم يكمل ثلاثة آلاف باوند!

١ البخاري، الجامع الصحيح للبخاري، باب العشر فيها يسقى من ماء السماء وبالماء الجاري، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ، رقم الحديث: ١٤٨٣، ج ٢، ص ١٢٦.

٢ القرآن الكريم، البقرة (٢)، الآية [٢٦٧].

٣ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، فقه الزكاة، (بيروت، دار القلم، الطبعة: الأولى، ١٩٧٢م)، ج ٢، ص ٤٢.

المطلب العاشر: المناقشة حول العملة الورقية مع زميله

قد كان القرضاوي في مناقشة يومًا مع زميله الدكتور علي السالوس، حول العملة الورقية إذا هبطت قيمتها هبوطًا فاحشًا، مثل: العملة اللبنانية، والعملة التركيّة، والعملة السودانيّة، والعملة العراقيّة، وغيرها. وكان رأي السالوس: أن الديون القديمة تسدّد باسمها لا بقيمتها. قال الشيخ القرضاوي له: لو أن الرجل الذي له عليه ١٥٠٠٠ ليرة اللبنانيّة، قال: أريد أن أبرئ ذمّي وأدفع لك الدَيْنَ الذي عليّ بسعر اليوم، فهل يجزئه أن يدفع لي ما لا يكفي لأن أتغدى في مطعم؟ قال الشيخ: نعم، يجزئه، كان عليه مبلغ معلوم معدود، وقد أعطاك المبلغ بنفس العدد!

المطلب الحادي عشر: تأسيس أول بنك إسلامي في دبي

في السنة ١٩٧٥م أعلن في إمارة دبي عن تأسيس أول "بنك تجاري إسلامي" أي لا يتعامل بالفوائد الربويّة أخذًا ولا إعطاءً، ويلتزم أن يُجرّي معاملاته وفق أحكام الشريعة الإسلاميّة وقواعدها؛ إنه "بنك دبي الإسلامي".

وكان إعلان ذلك حدّثًا في التاريخ الاقتصاديّ للأمة، يُعدّ انتصارًا لها في معركة من أخطار المعارك التي تُخوضها، لتحرّر اقتصادها من رجس الربا، ومن هيمنة الاقتصاد الرأسماليّ بفلسفته وتطبيقه - منذ عصر الاستعمار - على جميع مصارفها ومؤسّساتها الماليّة.^٢

ولقد كان إنشاء بنك بلا فائدة حلّمًا، فأصبح اليوم حقيقة! كان "عبيد الفكر الغربيّ" كما سمّاهم الشيخ القرضاوي في كتاباته، وأسرى الاقتصاد الوضعي، يقولون للمسلمين: لا تُحلّموا - مجرد حلّم - بإقامة بنوك بلا فوائد. فهذا مستحيل. إن الاقتصاد عَصَبُ الحياة، والبنوك عصب الاقتصاد، والفائدة عصب البنوك، ومن زعم إقامة بنوك بغير فوائد، فهو واهم أو مُغرّق في الخيال! وشاء الله أن يتحوّل الحلم أو الوهم أو الخيال، إلى واقع نشهده بأعيننا، ونلمسه بأيدينا. وكان هذا تطوّرًا محمودًا في موقف الأمة من هذه القضايا وأمثالها، وكان هذه تسجيّدًا للصّحوة الإسلاميّة في ميدان الاقتصاد.

لقد مرّ فكر الأمة في مواجهة الغرب الذي غزانا وانتصر علينا بأطوار ومراحل:

١. كان هناك طور الاستسلام والتبعية المطلقة، التي قال فيها "طه حسين" باتّباع الحضارة الغربيّة في خيرها وشرّها، وحلّوها ومُرّها، ما يحبّ منها وما يُكره، وما يُحْمَدُ منها وما يُعابُ... وحكى زكي نجيب محمود عن نفسه: أن كان يرى في وقت ما، أن نأكل كما يأكل الغربيّون، ونلبس كما يلبسون، ونتصرّف كما يتصرّفون، ونكتب من الشمال إلى اليمين كما يكتبون! وهؤلاء يرون شرعيّة اتّباع نهج الغرب في كلّ شيء جهرًا لا خُفيّةً، وصراحةً لا ضمّنًا.

٢. وجاءت مرحلة أخفّ من تلك، وإن كانت أخطر؛ لأنها تريد أن تأخذ نهج الغرب بعد أن تُسوّغهُ بفتاوى شرعيّة، وأسانيد دينيّة، تجعل حرامه حلالًا، ومنكره معروفًا، أي أنّهم أرادوا أن يلبسوا الخواجة الأوربيّ "عمامة" بدل القبعة أو "البُرْنَيْطَة" - كما يقول المصريّون - حتى يقبل إسلاميًا.

وفي هذا ظهرت محاولات للقول بإباحة "الربا" الذي تقوم عليه البنوك، وتحت عناوين شتى، منها: أنّه غير ربا الجاهليّة. ومنها: أن المُحرّم هو ربا الاستهلاك للنفقة الشخصيّة، وليس ربا التجارات والإنتاج. ومنها: هو ربا الأضعاف المضاعفة.

١ ليرة: هي العملة اللبنانيّة

٢ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٣٧٢

ومنها: أن المجتمع أصبح في رضع ضرورة لهذه الفوائد، والضرورات تبيح المحظورات ... وكلّ هذه المحاولات باءت بالإخفاق، ودرّ عليها العلماء الراسخون، وكشفوا عن زيفها من الشرعيّين: من أمثال: الشيخ الدكتور محمّد عبد الله دراز، والشيخ أبو زهرة، والشيخ أبي الأعلى المودودي ... ومن الاقتصاديين، من أمثال: الدكتور عيسى عبده إبراهيم، والدكتور محمّد عبد الله العربي، والدكتور محمود أبو السعود، والدكتور أحمد النجار، وآخرين.

٣. وكانت زُذُودُ هؤلاء العلماء على المحاولات التسويبيّة التي تعبّر عن هزيمة نفسيّة؛ تمثل طوراً جديداً، انضمّ علماء الاقتصاديون، لهم وزنهم وثقلهم العلميّ، إلى علماء الشرع، ليعلن الجميع: أن "الربا" لا ضرورة إليه، ولا يمكن أن يُحرّم الله على الناس شيئاً يحتاجون إليه، فضلاً عن أن يضطّروا إليه، وأن من الممكن إقامة بنوك بلا فوائد. ونشروا في ذلك مقالات ورسائل وكتباً، بأكثر من لغة، فقد ساهم إخوان الباكستانيّون والهنود في ذلك مساهمة طيبة.

٤. ثم جاء طور آخر تعاون فيه: رجال المال والأعمال، مع رجال الشرع، ورجال الاقتصاد الإسلاميّ، ليُنشئوا أول بنك إسلاميّ، انفردت إمارة دبي بهذه الفضيلة، وحازت قَصْبَ السبق في ذلك، وقد قيل: الفضل للمبتدي، وإن أحسن المقتدي. وفي إقامة هذا الصرح الإسلاميّ: صاحب الهمة العالية، والعزيمة القويّة: الحاج سعيد لوتاه، رجل الأعمال المستنير، الذي صمّم على أن يقيم هذا البنك، برغم تخويف المخوفين له، ممّا وراء ذلك من مخاطر ومجازفات غير مأمونة، ولكنه توكل على الله، ومضى في الطريق. حيث قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا [٣]﴾. وقال أيضاً: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [١٠١]﴾.^٢

وكان من رجال الاقتصاد الإسلاميّ الذين أسهموا بدور أساسيّ في إنشاء هذا البنك هو: الأستاذ الدكتور عيسى عبده إبراهيم. وأيد الحاج سعيد افتتاح هذا الصرح بإقامة أول مؤتمر علميّ شرعيّ للبنوك الإسلاميّة، فدعا كوكبة من علماء الأمة في دبي، لبيحثوا عدّة موضوعات، ويصدّروا فيها فتاوى بالإجماع أو بالأغليّة، ليعمل البنك بموجِبِها.

وقد اعتبره (الشيخ الدكتور القرضاوي) الحاج سعيد لوتاه، رئيس مجلس إدارة البنك: مستشاراً شرعيّاً غير متفرّغ للبنك، فيما يحتاجون إليه، فكانوا يتصلون بالشيخ القرضاوي هاتفياً، أو يذهب إليهم بين الحين والحين، على فترة متباعدة.^٣ وكان الشيخ القرضاوي يقوم بهذا العمل محتسباً، دون أيّ مقابل؛ فقد كان فرحه بقيام هذه المؤسسة الإسلاميّة، وإسهامه في إنجازها أعظم عنده من أيّ أجرٍ أو مكافأة ماديّة.

المطلب الثاني عشر: تأسيس شركة الاستثمار الخليجيّ

في السنة ١٩٧٥م أو ١٩٧٦م بدأت فكرة البنوك الإسلاميّة تتّسع، فأنشئ "بنك فيصل الإسلاميّ" في مصر، و"بنك فيصل الإسلاميّ" في الخرطوم، وكان يرأس مجلس إدارة كلّ منهما: الأمير محمّد فيصل آل سعود، الذي تبنى فكرة البنوك الإسلاميّة، وخدمها ورعاها بماله ونفوده، ورأى أن يُجلّد ذكر أبيه الملك المحب لدى جمهور المسلمين: "فيصل بن عبد العزيز" بأن ينشئ سلسلة من البنوك الإسلاميّة تحمل اسمه، فنشأ البنكان في مصر والسودان.

١ القرآن الكريم، الطلاق (٦٥)، الآية [٣].

٢ القرآن الكريم، آل عمران (٣)، الآية [١٠١].

٣ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٣٧٥

ثم اقترح على الأمير محمد: أن يؤسس في أقطار الخليج العربي، شركة للاستثمار، تجمع فيها أموال من لديه مدخرات يحب أن يستثمرها في الحلال المشروع، فكثير من الناس يجمد أمواله، ولا يستثمرها في حرام. فهذه الشركة فرصة تتيح للناس أن يستثمروا أموالهم وَفَقَّ صُكُوكِ لِلْمُضَارَبَةِ لِمُدَّةِ سَنَةٍ أَوْ ثَلَاثَةِ سَنَاتٍ، ثُمَّ يَسْتَرُدُّوْهَا.

وقامت حملة إعلامية كبيرة لهذه الشركة، ومَرَّ الأمير محمد فيصل ببلاد الخليج: الكويت، والبحرين، والإمارات، ثم قطر للدعاية لهذه الشركة الوليدة، وكان معه الأستاذ الدكتور عبد العزيز حجازي، رئيس مجلس الوزراء المصري سابقاً، والشيخ محمد خاطر مفتي مصر سابقاً، والدكتور إبراهيم كامل، أحد رجال المال والأعمال المرموقين.

قبل أن يصلوا إلى قطر، اتصلوا بالشيخ الدكتور القرضاوي، وطلبوا منه أن يشدَّ أزرهم في مسيرتهم، فقال لهم: أنا معكم في وَجْهَتِكُمْ فِي الْمَعْرَكَةِ ضِدَّ الرِّبَا. فقالوا: نريدك أن تنضمَّ إلينا وتكون أحد المتحدثين الرئيسيين في بلاد الخليج، فوافق الشيخ القرضاوي على ذلك، وأقيمت ندوة حافلة حاشدة في فندق الخليج في قطر، في إحدى القاعات الكبرى، وقد ازدحم على آخرها. تحدَّث الأمير محمد فيصل والشيخ خاطر والدكتور حجازي، ثم تحدَّث الشيخ القرضاوي بكلمة قوية شدَّت الجماهير إليها، ثم بدأ الناس يسألون ويستفسرون، وتجيهم المَنصَّة عن أسئلتهم.^١

والحقيقة: أن هذه الليلة كانت السبب الأكبر وراء نجاح شركة الاستثمار الخليجي، ولولاها لفشلت الشركة تماماً، فقد تبين أن الذين ساهموا من قطر، كانوا حَوَالِيَّ الثمانين في المائة، أو أكثر، فلم يستجب الناس في بلاد الخليج الأخرى للنداء. ولكنها الحقيقة تقال للتاريخ؛ فلولا ثقة الناس في قطر بالقرضاوي، واستماعهم لكلمته، وأسئلتهم المتتابعة بعد ذلك له: هل نشترك أو لا؟ ما قامت لشركة الاستثمار الخليجي قائمة. كما اصطحبه الدكتور إبراهيم كامل معه في زيارات للكويت وللإمارات.

وبعد أن قامت الشركة، رأى الأمير محمد فيصل والمسئولون عن الشركة: أن يؤسسوا لها هيئة رقابة شرعية، تكون موضع ثقة عند الناس، وقد طلبوا من الشيخ القرضاوي أن يشارك فيها، فاعتذر أول مرة، ولكنهم ألحوا عليه لكي نتجح الفكرة، فقبل الشيخ القرضاوي، وشكّل هيئة، كان رئيسه: الشيخ المفتي محمد خاطر، وأعضائها: الشيخ صديق الضيرير، والشيخ عبد الله علي المحمود عالم الشارقة، والشيخ الدكتور يوسف القرضاوي.^٢

وكان مقرُّ الشركة في ولاية الشارقة، وقد دعاهم لافتتاحها هناك، وكان في يوم الخميس، وقد باتوا هناك وخطب الشيخ القرضاوي الجمعة في مسجد الشيخ سلطان القاسمي حاكم الشارقة وبحضوره، وقد دعاهم للغداء عنده.

وكان نجاح هذه الشركة حافزاً للتفكير في تأسيس شركة أكبر وأوسع، وهي التي سميت: "دار المالي الإسلامي" التي قامت في جنيف، ويديرها الدكتور إبراهيم كامل.^٣

١ أَلْقَرَضَاوِي، يَوْسُفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٣٧٦

٢ المرجع السابق، ص ٣٧٧

٣ المرجع السابق، ص ٣٧٧

المطلب الثالث عشر: عُضُوبَةُ مجلس إدارة بنك فيصل المصري

في العام الدراسي ١٩٧٥م - ١٩٧٦م، فوجئ الشيخ القرضاوي في أمسية يوم من الأيام باتّصال من صديقه المهندس يوسف ندا، وكان ذلك من القاهرة على غالب ظنّه، وقال: إننا نريد أن تكون معنا في مجلس إدارة "بنك فيصل الإسلامي المصري" وقد رشّحك أكثر من واحد في المجلس، منهم المهندس أحمد حلمي عبد المجيد، ورحّب الأمير محمّد الفيصل بذلك، وذكر أنك عاونتهم معاونة كبيرة في إقامة شركة الاستثمار الخليجيّ، وأن معاونتك كانت لها الأثر الأول في قيام الشركة، قال الشيخ القرضاوي له: هو يرحّب بكلّ ما يوسّع قاعدة الاقتصاد الإسلاميّ، ويضيق دائرة الربا في مجتمعاتنا المسلمة. ولكن يخاف أن يجور ذلك على وقته الذي نذرته للعلم والدعوة. قال: احتسب ذلك على سبيل الدعوة أيضًا، ووجود عنصر شرعيّ مهم في المجلس، على أن المجلس يجتمع كلّ شهرين مرّة ولن يعطلك كثيرًا. وقال الشيخ القرضاوي: على بركة الله. وكان أول المجلس الأول لا يحتاج إلى جمعيّة عموميّة، ويكفي ترشيح بعض الأعضاء وموافقة أغلبيّة المجلس.

وأصبح منذ ذلك الحين عُضُوبًا في مجلس إدارة بنك فيصل المصريّ، وحضر أول جلسة عقدت بعد الانتخاب، ثمّ تعددت اللقاءات والجلسات، وفيه تعرّف الشيخ الدكتور القرضاوي على سائر الأعضاء، ومنهم من لقيه قبل ذلك، ومنهم من لم يلقه: الأمير محمّد الفيصل آل سعود، رئيس المجلس، والدكتور عبد العزيز حجازي نائب الرئيس، والدكتور توفيق شواوي، والحاج حلمي عبد المجيد، والدكتور عمر عبد الرحمن عزام، والدكتور عبد العزيز الفدّا، والأستاذ حيدر بن محمّد بن لادن، والأستاذ كمال عبد العزيز الحامي، والدكتور أحمد ثابت عويضة، والدكتور أحمد محمّد عبد العزيز النجار، والأستاذ علي حمدي، والدكتور عبد الصبور مرزوق، وغيرهم.^١

المطلب الرابع عشر: ملاحظة على البنوك الإسلامية

ما لاحظته الشيخ القرضاوي: أن البنوك الإسلامية قد استعجلت في ظهورها، قبل أن تُهيأ لها "الكوادر" المطلوبة، على مهلّ. هذه الكوادر التي تجمع بين العلم المصنّعيّ، والفقه الشرعيّ، والالتزام الإسلاميّ، والحماسة للفكرة والإيمان بها... وهذا لم يكن حاصلًا كما ينبغي.

بل قامت البنوك الإسلامية أول ما قامت على أناس جاءوا من البنوك الرئويّة، فليس عند أكثرهم أي فقه شرعيّ، ولا عندهم أي إيمان بفكرة بنك إسلاميّ، ولا عند كثير منهم أيّ التزام بخُلُقٍ إسلاميّ، حتّى كان منهم من لا يقيم الصلاة، ومن تدخل عليه وهو يُدخّن سيجارة. بل حكى له بعضهم: أن منهم من كان يُفطّر في رمضان! فهل يؤمن هؤلاء على إقامة مؤسسة إسلاميّة بأمتنها المسلمون على تنمية أموالهم في الحلال، وهم لا يعرفون حلالًا من حرام؟!!

ومما يذكره: أن أحد الموظّفين في إدارة الاستثمار في البنك سأله (القرضاوي) عندما حضر في أحد اجتماعات المجلس، سؤالًا عجيبًا، قال: هل يجوز أن يغيّر طالب المراجعة الشيء الذي اتّفق على شرائه بشيء آخر؟ مثلاً: هو اتّفق على شراء سيّارة نقل كبيرة، فخطّر له أن يغيّرها ويشترى بئونها جزّارًا زراعيًا مثلاً، هل هذا يجوز؟

قال الشيخ القرضاوي له: يا بُنيّ هذا لا يتصوّر أصلاً، لأن طالب المراجعة لا يعطيه البنك نقودًا في يده يشتري بها ما يريد، حتّى يفكّر في تحويلها من سلعة إلى أخرى.^٢ ولكن البنك هو الذي يشتري له البضاعة التي أمر البنك بشرائها له، ولا بدّ أن يشتريها البنك

١ ألفردّواوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٣٧٨

٢ ألفردّواوي، يوسف بن عبد الله، بيع المراجعة للأمر بالشراء، (القاهرة- مكتبة وهبة، الطبعة: الثالثة، ١٩٩٧م)، ص ٣٥

لنفسه أولاً، ويتملكها ويجوزها، ثم يبيعها له بعد ذلك، حتى لا يبيع ما لا يملك. فإذا كنت أعطيته الفلوس في يده، فهذا لا يجوز شرعاً، وقد خالف ما أفتى به هيئات الرقابة الشرعية جميعاً، وحنث الأمانة التي ائتمنت عليها، فقال: والله ما كنت أعرف ذلك. ولن أفعلها بعد ذلك.

وبالفعل جمع له الموظفون، وجلس الشيخ القرضاوي معهم وقتاً طويلاً، وشرح لهم بعض ما غمض عليهم، وأجاب عن استفساراتهم حول معاملات البنك، وما قد يقعون فيه من أخطاء.

المطلب الخامس عشر: المؤتمر العالمي الأول في الاقتصاد الإسلامي

كان من أهم المؤتمرات العالمية التي شارك الشيخ القرضاوي فيها بالبحث والمناقشة والمحاضرة: المؤتمر العالمي الأول للاقتصاد الإسلامي، الذي عقد بالمملكة العربية السعودية، والذي جسّد الصحوّة الإسلاميّة في تلك المرحلة، في ميدان من أخطر الميادين التي غزتها الثقافة الغربيّة، وهو ميدان الاقتصاد.

أقيم المؤتمر العالمي الأول للاقتصاد الإسلامي في مكة المكرمة، في الفترة ما بين (٢١ - ٢٦ صفر ١٣٩٦هـ)، الموافق ٢٦ فبراير ١٩٧٦م. تحت رعاية جامعة الملك عبد العزيز بعد جامعة أمّ القرى. وأعدت الجامعة لهذا المؤتمر الكبير إعداداً جيّداً، واستعانت بعدد من المعنّيين والمختصّين في الاقتصاد الإسلامي، وكان المدعوون من قارّات العالم كلّه، من الغرب والشرق، من العرب والعجم، من علماء الاقتصاد، وعلماء الشرع، من رجال النظر، ورجال التطبيق.

كان المؤتمر جامعاً لكلّ من تحب أن تراه من كبار رجال الفقه والشريعة والدعوة، ورجال الاقتصاد والمحاسبة والإدارة: الشيخ عبد الله بن باز، والشيخ الزرقا، والشيخ علي حسن الندوي، والأساتذة: عيسى عبده، ومحمد المبارك، ومعروف الدواليبي، والبهي الخولي، ومحمود أبو السعود، وأحمد النجار، ومناع القطان، وعبد العزيز حجازي، وخورشيد أحمد، وحسين حامد حسان، ومحمد نجاة الله الصديقي، ومحمد صقر، وأنس الزرقا، ومنذر قحف، وشوقي الفنجري، وعبد الرحمن يسري، ورفيق يونس المصري.

وآخرون من أهل العلم والفضل، فقد كانوا نحو ثلاثمائة عالمٍ وخبيرٍ. كان في المؤتمر محاضرتان عامتان، يدعى إليها أعضاء المؤتمر وغيرهم: محاضرة في أول المؤتمر، ألقاها الداعية الإسلامي الكبير الأستاذ محمد قطب، ومحاضرة في خواتيم المؤتمر يلقيها الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي.^١ كانت جلسات المؤتمر غنية بالبحوث الأصليّة في بابها، والمناقشات الحرة المستفيضة حولها، وكان بحثه الذي كلّف بكتابته حول: "الدور الزكاة في علاج المشكلات الاقتصادية".

وكان من البحوث التي احتدّ فيها النقاش: بحث "التأمين بين الحِلِّ والحُرْمَةِ" وقد كتب فيه عدّة أشخاص، وكان جُلُّ النقاش بين العلامة الشيخ مصطفى الزرقا، والأستاذ الدكتور حسين حامد حسان، حيث يميل الزرقا إلى الإباحة بقيود، ويميل حسان إلى التحريم.

ومّا ذكره الأستاذ فهمي هويدي: أنه حضر منذ سنوات مؤتمراً في "كوالا لامبور" في ماليزيا، فرأى الحضور هناك انقسموا إلى قسمين: قسم يحرم فوائد البنوك، وقسم يحاول تسويغ الفوائد، بإيجاد سند شرعي لها، ولكن هذا المؤتمر لم تُثَرَّ فيه هذه القضية قط، بل هو مجمع على تحريم الفوائد تحريماً باتاً.

١ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٤١٥

وختتم المؤتمر جلساته بالجلسة الختامية، وفيها توصيات وقرارات مهمة، مما اتفق عليه المُؤتمِرُونَ، تتعلّق بالموضوعات التي بحثت، ومنها: التوصية بإنشاء مركز علمي لأبحاث الاقتصاد الإسلامي، تُوفّر له الإمكانيات المادية والبشرية، ليقوم بمهمته وَسَط الصِّراع العالمي، الذي اتخذ طابعاً أيديولوجياً محوره الاقتصاد، ليظهر الاقتصاد الإسلامي: الاقتصاد الوسط الذي يقيم الموازين القسّط بين الاقتصادين الفرديّ "الرأسمالي"، والاقتصاد الجماعيّ "الشيوعي".

وقام هذا المركز في جامعة الملك عبد العزيز، ودُعي الشيخ القرضاوي للمحاضرة فيه، والاجتماع برجاله أكثر من مرّة، وقام عليه إخوة كرام، على رأسهم: الأستاذ الدكتور الزبير، الذي تفرغ له حيناً من الدَّهر، والدكتور أنس الزرقا، والدكتور محمد نجا الله الصديقي، والدكتور منذر قحف، والدكتور رفيق المصري، وآخرون من أفاضل العلماء في الاقتصاد الإسلامي.^١

المسألة السادسة عشر: شركة الراجحي المَصْرِفِيَّة والاستثمار

كانت شركة الراجحي من الشركات الكبرى في المملكة السعودية، وكانت تعمل في المجالات الاقتصادية والتجارية المختلفة، ومع البنوك التقليدية التي تقوم على الفوائد الربوية. ولم يكن في المملكة بنك إسلامي يتعامل بغير الفوائد، ووفق أحكام الشريعة الإسلامية، برغم أن الذين قادوا مسيرة البنوك الإسلامية سعوديون، على رأسهم الأمير محمد فيصل آل سعود، الذي أسس بنك فيصل الإسلامية في مصر والسودان والبحرين، وأسّس دار المال الإسلامي في جُزُر البهاما وإدارتها في جنيف في سويسرا. ولكنه لم ينشئ بنك فيصل الإسلامي السعودي. كما كان من الذين قادوا المسيرة أيضاً: الشيخ صالح كامل وما أسس من بنك البركة في أقطار شتى.

ولقد قدّم الشيخ سليمان الراجحي وإخوانه طلبهم للسلطات المالّية السعودية، للحصول على تصريح بإنشاء بنك إسلامي، وبعد سنين طويلة، وجهد جهيد، أذن له أن يحوّل شركته إلى شركة تتعامل بغير الفوائد، دون أن تسمّى «بنكاً إسلامياً»، لأن هذا يخرج المملكة، فإذا كان هذا بنكاً إسلامياً، فماذا تسمّى البنوك الأخرى، والمفروض أن المملكة ملتزمة بتطبيق الشريعة الإسلامية في كلّ مجالات الحياة، كما هو صريح أمر القرآن: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ [٤٩]﴾.^٢

وهذا المطلب يحتوي على أربع مسائل، وبيانها فيما يلي:

المسألة الأولى: الهيئة الشرعية المشرفة على شركة الراجحي

المهم أن الشركة أذن لها في العمل المَصْرِفِيّ في بغير فائدة، وغدل اسمها شركة الراجحي لِلصِّفْرِفَةِ والاستثمار، وقد عيّنت الشركة لها هيئة شرعية للإشراف عليها والتوجيه لها، وضمان سيرها على الأحكام الشرعية. وكان رئيس الهيئة سماحة العالم الجليل الشيخ عبد الله بن عقيل، وعيّن نائباً له معالي الشيخ صالح حصين، الرجل الذي جمع بين الفقه والقانون، كما جمع بين النظر والتطبيق، واختاروا لعضوية الهيئة العلامة الشيخ مصطفى الزرقا، وسماحة الشيخ عبد الله البسام، والأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي حفظه الله، ولأمانتها الشيخ عبد الرحمن بن عقيل.^٣

١ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٤١٧

٢ القرآن الكريم، المائدة (٥)، الآية [٤٩].

٣ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٤٩٠

المسألة الثانية: اقتراحات الشيخ صالح الحصين على الهيئة الشرعية

وقد اقترح الشيخ الحصين على الهيئة جملة اقتراحات جوهرية ومتميزة، وهي:

أولاً: أن تعمل الهيئة احتساباً، دون أن تتقاضى أي مكافأة. وقد وافق الجميع على ذلك. وذلك حتى تكون حرة تماماً في الرقابة والتوجيه.

ثانياً: أن تكون مهمة الهيئة التوجيه الشرعي للشركة، والفتوى فيما يعرض عليها من عقود وتصرفات. أمّا الرقابة فستكون من سلطة المحاسب القانوني، الذي يجب عليه التدقيق في عمل الشركة وفقاً أحكام الشريعة، وعليه أن يكون ضمن جهازه شرعيّين، يمكنهم القيام بهذا التدقيق.

ثالثاً: أن تضع الشركة خطة للتخلص من التعامل من المراجعة خلال ثلاث سنوات.

المسألة الثالثة: غرق البنوك الإسلامية في عملية المراجعة

وكانت هذه الخطوة الأخيرة خطوة ثورية تقدّمية. فقد غرقت البنوك الإسلامية في عملية المراجعة، وأعرضت عن كل المعاملات الأخرى من التجارات والمشاركات والمضاربات، التي هي البديل الحقيقي لمعاملات البنوك الربوية.

وقال الشيخ الحصين: إن المراجعة شديدة القرب من التعامل بالفائدة الذي تقوم به البنوك الرأسمالية التقليدية، فإذا انحصر عمل البنوك والشركات الإسلامية المصرفية في هذه المعاملة، فما ضيعه الجهود المبذولة في إقامة البنوك الإسلامية، وما أجددنا أن تتمثل بقول الشاعر حينئذ: إن كان منزلي في الحب

ما قد لقيت، فقد ضيّعت أيامي!

وقد اجتهدت الشركة أن تُقلّص من دور المراجعة، وأن تدخل في المقاولات والمعاملات المختلفة، وما أكثرها في المملكة، ولكنها لم تستطع أن تتخلّص منها نهائياً، كما كان يريد الشيخ صالح الحصين. لقد دخلت البنوك الإسلامية في «قمقم» المراجعة، ولم تستطع أن تخرج منه، وهو ما حذت منه هذه البنوك في كتاب الشيخ القرضاوي الذي ألف دفاعاً عن المراجعة، وسمّاه: بيع المراجعة للأمر بالشراء، كما تجربته المصارف الإسلامية. ومع هذا حدّر في نهايته أن تسحن المصارف الإسلامية نفسها في المراجعة، تنصرف عن المعاملات الأخرى، وهو ما وقع بالفعل، لا حول ولا قوة إلا بالله.

المسألة الرابعة: استعفاء الشيخ القرضاوي من عضوية هيئة الشركة

وبعد عدّة سنوات، تكاثرت على الشيخ القرضاوي الأعباء، فاستعفى من عضوية هيئة الشركة، وقبلوا منه ذلك، وخصوصاً بعد فرغت الشركة العلامة الفقيه الكبير الشيخ مصطفى الزرقا، لبحوث الهيئة، وتحرير معاملاتهما، وتأصيلها فتاواها رحمه الله وجزاه خيراً.¹

١ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٤٩٢

المطلب السابع عشر: تأسيس بنك التقوى

وهذا المطلب: يتضمّن تسع مسائل، وتفصيلها فيما يلي:

المسألة الأولى: اتّصل بـ الشيخ القرضاوي يوسف ندا وإعلامه بتأسيس بنك التقوى

اتّصل بـ الشيخ القرضاوي صديقه المهندس يوسف ندا هاتفياً من «لوجانو» في سويسرا، وقال: لعلك عرفت يعزمننا على تأسيس بنك إسلامي، اخترنا أن نسميه «بنك التقوى» وربما قرأت أسماء المُكْتَبِينِ أو الراغبين في الاكتساب والمشاركة فيه. قال الشيخ القرضاوي: نعم قرأت ذلك، وتميّت لو استشرتني قبل ذلك، وأنت تعلم اهتمامي بشأن البنوك الإسلاميّة. قال: نعم أعلم ذلك، وقد رشّحتك - مع من رشّحوك - لمجلس إدارة بنك فيصل الإسلاميّ في القاهرة من زمن طويل، وبماذا كنت تشير علينا لو استشرناك، فما زال للشورى مكانها؟

المسألة الثانية: رأي القرضاوي في اختيار اسم البنك

قال الشيخ القرضاوي: لكلّ شيء أوانه، فإذا فات أوانه، لم تعد تُجدي المشورة. فقد كان يودّ أن يُختاروا اسماً غير اسم «التقوى» بنك الخير، بنك الطيّبات، بنك الاستقامة، أو نحو ذلك. قال يوسف ندا: وهل في تسمية «بنك التقوى» حرج؟ قال الشيخ القرضاوي: لا حرج، ولكن فيها شيء من تزكية النفس، وعلى كلّ حال، هذا أمر قد وقع.

المسألة الثالثة: رأي القرضاوي في إعلان أسماء المُكْتَبِينِ في البنك

كان الشيخ القرضاوي يودّ ألاّ تعلنوا على الناس هذه القائمة من الإسلاميّين من أقطار شتى، فكأنهم يزفّهم إلى رجال المباحث وأمن الدولة. قال: أردنا أن نُعلّم جماهير المتزمنين بالإسلام: أن هذا البنك مؤيّد ومشجّع من كلّ شخصٍ غيور على الإسلام، عامل لخدمته. قال الشيخ القرضاوي: لا شكّ في أن هدفكم نبيل، وأن نيتكم كانت صالحة، ولكنها قدّمت خدمة للمتريّفين بالدعوة الإسلاميّة، والحركة الإسلاميّة. ولعلّ الله تعالى يجزيكم بحسن نيتكم، ويعمي أعينا لكائدين للإسلام وأمته عنكم.

المسألة الرابعة: رئاسة لهيئة الرقابة الشرعيّة في بنك التقوى

ثمّ قال المهندس يوسف ندا: لقد اتّصلت بك لتضع يدك في أيدينا، لنقيم هذا البنك على أسس إسلاميّة واقتصاديّة سليمة، وأن ترأس هيئة الرقابة الشرعيّة في البنك، حين ننتهي من تأسيسه، وتختار لها من تحبّ من إخوانك العلماء الذين تثق بقوّتهم وأمانتهم. قال الشيخ القرضاوي: عزيز عليّ والله أن أعتذر من عدم استجابتي لرغبتك، برغم معرّتك، عندي، ولكن كُثرت الأعباء عليّ، وهي تعطلني من عملي العلميّ، الذي أرى في حياة روحي حياتي. قال: يعني يا شيخ يوسف تتحمّل مسؤوليات بنوك شتى هنا وهناك، وحين يلجأ إليك إخوانك الذين كلّهم ثقة بك تتحلّى عنهم؟!

قال الشيخ القرضاوي: والله أتخلّى عنهم، ولكن أحشى ألا أقوم بالأمر المنوط بي كما يجب، ولا سيّما أن هذا العمل يتطلّب أسفاراً إلى أورتا. فقال: سنخفف عنك ما استطعنا، وسنعفك من الأسفار ما أمكننا، وسنعقد بعض الاجتماعات عنك في الدوحة. قال الشيخ القرضاوي: إذن نستعين بالله، وتوكلّ عليه، وندعوه أن يقوي ظهرنا.

وقال الشيخ للمهندس ندا: ليتك تبعث إليّ بنظام البنك لأنظر فيه مع بعض أقراني، وهل هو قابل للتعديل أم لا؟ قال: نعم، هو قابل للتعديل، ولكم أن تعدلوا فيه ما شئتم حتّى يكون متوافقاً مع مبادئ الشريعة الإسلاميّة.^١

١ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٥١٠ - ٥١١

المسألة الخامسة: تعديلات جذرية في النظام الأساسي

وأرسل إلى الشيخ القرضاوي النظام الأساسي، واجتمع الشيخ القرضاوي وإخوانه: الدكتور جمال الدين عطية الذي كان يعمل أستاذاً بكلية الشريعة، والدكتور علي محي الدين القرداغي، ونظروا في هذا النظام، وعدّلوا فيه تعديلات جذرية. وأرسلوها إلى المهندس يوسف ندا وشريكه الأستاذ غالب همت، ليأخذ طريقه القانوني في إقراره واعتماده من الجهات المسؤولة في «البهاما» التي سجّل فيها البنك. وقد أدخلوا على النظام تعديلات مهمّة، ليصبح موافقاً للشريعة الإسلامية، ولعله أول بنك يتاح له مثل هذا، وقد وافق إخوانهم المؤسسون على كلّ ما طلبوه.

المسألة السادسة: هيئة الفتوى والرقابة

ثم طلب المهندس يوسف ندا أن يختار الشيخ القرضاوي من يعملون معه في هيئة الفتوى والرقابة الشرعية، فاختار الشيخ القرضاوي الأخوين الكريمين: الدكتور محي الدين القرداغي من قطر، والدكتور عبد عبد الستار أو عبد الفتاح أبوغدة من سوريا، وهو يعمل في جدة مع الشيخ صالح كامل.^١ ومما يشهدون الله عليه: أن إخوانهم في إدارة بنك التقوى يوسف ندا وغالب همت ومن يعاونهما، كانوا صادقين في التعاون معهم على أن تكون معاملات البنك شرعية خالصة، لا شائبة فيها، ولا دخل. وكان يُطيلون النقاش في فهم القضايا والإحاطة بها من جميع جوانبها، حتى يفصل فيها، دون محاولة من فريق الاحتيال على الآخر، وكما قال المهندس يوسف ندا: نحن نريد ربّنا حلالاً صرفاً.

المسألة السابعة: استقامة معاملات بنك التقوى

وكان بنك التقوى شاهدة: أسلم البنوك الإسلامية من حيث استقامة المعاملات وبُعدها عن الصورية التي وقع فيه كثير من المصارف. ومن هنا لم يدخل البنك في بيع مباحة، لما فيه من قبل وقال: وقد رأينا أخانا الشيخ صالح الحصين يحاول تخليص شركة الراجحي من المراجعة فما استطاع. كما لم يدخل بنك التقوى في متاهات سوق السلع والمعادن الدولية، التي تحيط بها شبهات الشكلية والصورية من كلّ جانب، ولا يكاد المرء يرى فيها سلعةً تتحرّك من منتج إلى مستهلك، إلا ما ندر. وإنما هي أوراق تُسوّد وتنقل الملكية من فلان إلى فلان، والسلعة في مكانها لم تغادره. وظلّ البنك سنين يعطي من الأرباح للمساهمين والمضاربين أفضل مما يعطي غيره من البنوك.^٢

المسألة الثامنة: مُصَادَرَةُ البنك وَتَصْفِيَّتُهُ

وزادت الطين بلّةً أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، فشلت البنك تمامًا عن أيّ حركة، بل صادرت وأدخلته تحت الحراسة، وفي هذا نفقات هائلة، كلّها عبء على البنك، الذي يدفع ولا يكسب، بالإضافة إلى القضايا التي رفعها البنك في اتجاهات شتى، وكلّها أعباء ونفقات ضخمة وتؤخذ من لحم الحي، ومما بقي من رأسمال البنك الذي أحاطت به المصائب من كلّ جانب، وما زال الإلحاح على إدارته من الجهات المسؤولة في البهاما، ليقوم بتصفية البنك نهائيًا، وهو ما كان.

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٥١١ - ٥١٢

٢ المرجع السابق، ص ٥١٢

المسألة التاسع: خسارة الشيخ القرضاوي بخسارة بنك التقوى

لقد كانت خسارته هو وأبنائه وبناته كبيرة بخسارة بنك التقوى، فقد وضعوا فيه في النهاية جُلَّ مدّخراتهم، وهي مبلغ كبيرة بالنسبة لهم، ولم يقدر لهم أن يَصْرِفُوا بعض الأرباح، كما فعل بعض المُؤَدِّعِينَ، بل ما تحقّق لهم من أرباح وضعوه في مضاربات البنك. ولا يسعاهم إلا أن يحتسبوا ما أصابهم عند الله سبحانه وتعالى، ويدعوه جُلَّ شأنه أن يعوّضهم عن كلِّ خسارتهم، في الدنيا والآخرة.^١

المطلب الثامن عشر: محاضرة الشيخ القرضاوي عن شروط النجاح لمؤسسة الزكاة

احتفال بمقرّ البنك بجدة:

دعاه معالي الدكتور أحمد محمد علي رئيس البنك الإسلامي للتنمية في الاقتصاد الإسلامي لعام ١٤١١هـ إلى حضور احتفال بمقرّ البنك يشرف عليه معهد التدريب والبحوث في جدة، وإعداد محاضرته بهذه المناسبة، وسيكون جمهوره من صفوة المثقّفين والمهتمّين.

محاضرة الشيخ القرضاوي عن شروط النجاح لمؤسسة الزكاة:

وأعدّ الشيخ القرضاوي بالفعل محاضرته عن الشروط المناسبة لنجاح مؤسسة الزكاة. وقد نُشرت بعد ذلك، وكان من المدعوّين لحضور هذا الحفل الفقيه الكبير العلامة الشيخ مصطفى الزرقا رحمه الله، وكان لديه عذر منعه من الحضور، ولكنه أرسل للأستاذ الدكتور عبد الحميد الغزالي مدير المعهد برسالة يشارك بها في هذا الاحتفال. وقد نُشرت في الكتاب التذكاريّ عن يوسف القرضاوي بمناسبة بلوغه السبعين. وهي رسالة يَعتزُّ بها من فقيه كبير، وعالم ربّاني له وزنه وقدرته عربيّاً وإسلاميّاً وعالميّاً.^٢

المطلب التاسع عشر: مساهمة القرضاوي في المشروعات الاقتصادية الإسلامية

وهذا المطلب يتناول مسألتين، وهي:

المسألة الأولى: إسهام الشيخ القرضاوي في بعض المشاريع الاقتصادية

وكان الشيخ القرضاوي لا يكاد يَدْعُ مشروعاً من هذه المشروعات إلا ساهم فيه، تشجيعاً للاستثمار الإسلامي من ناحية، ولأنه لا يستطيع أن يستثمر ماله بنفسه من ناحية أخرى، حيث لا خبرة له، ولا وقت عنده.

المسألة الثانية: خسارته في جُلِّ المساهمات الماليّة

ولكن - للأسف - جُلَّ المشروعات التي ساهم فيها خسر، وبعضها حصلوا فيها على قليل من رأس المال، وبعضها لم يحصلوا فيها على نقيير ولا قطمير، بل ذهبَتْ كلّها هباءً. حدث هذا معه في البنك الإسلامي الأوروبي. وفي المصرف الإسلامي الدولي للاستثمار والتنمية في مصر. وفي شركة الإسلاميّة للصوتيات والمَرْتَبَاتِ المتفرّعة منه. وفي الشركة الإسلاميّة للتنمية في الخرطوم. وفي شركات توظيف الأموال التي اشتهرت في مصر، مثل: شركة الرّيّان، وشركة الشريف ومصانعه، وشركة الحجاز، التي لم يحصلوا من رصيدهم فيها على دينار ولا درهم ولا فلس. لا هو يعني الشيخ القرضاوي ولا أولاده ولا أصهاره.

ومن المُؤسِفِ: أن الشيخ القرضاوي وَرَظَ أولاده معه بعد أن عملوا وأمست لهم رواتبهم ومواردهم الخاصّة. فدخلوا فيما دخل الشيخ القرضاوي فيه، فأصابهم ما أصابه. وآخر هذه الكوارث: بنك التقوى، الذي ضاع كلُّ ما أودعوه من أسهم، ومن مضاربات، ومن

١ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٥١٤

٢ المرجع السابق، ص ٦٦٩ - ٦٧٠

أرباح، وهي خسارة كبيرة بالنسبة لهم. نحن - المسلمون - عادة نرَكُّظُ ظهْرنا إلى الأقدار وتقسيم الأرزاق، ونقول قَدَّرَ اللهُ وما شاء فعل، ونزيع أنفسنا بهذا الرضا والتسليم، ولا نسأل عن الأسباب وَفَقَّ نظام السنن التي أقام الله عليها هذا العالم.^١

المطلب العشرون: لماذا تخسر المشروعات الاقتصادية الإسلامية؟

ولكن يجب أن نسأل أن أنفسنا: لماذا تُخَسِّرُ كلَّ هذه المشروعات التي تُنسَبُ إلى الإسلام؟ ويزعم أصحابها: أنهم يطبّقون المعاملات الإسلامية. يمكننا أن نلجأ إلى التفسير التأمري: ونقول: هناك خطط جهنميّة، وأيد خفية، ومكايد صهيونيّة وصلبيّة، تعمل في الخفاء وفي العلن، لتدمير هذه المشروعات، ووضع العقبات في طريقه، والحيلولة بينها وبين النماء الطبيعيّ. وهذا له وجه، وهو واقع. ولكن إلقاء اللوم على الخارج دائماً، يُبعدنا عن محاسبة أنفسنا، ومعرفة تقصيرنا، وأسباب إخفاقنا... وقد علّمنا القرآن أن نلوم أنفسنا أولاً، كما قال الله تعالى بعد غزوة أحد: ﴿أَوَلَمْ نَأْتِكُمْ مِصْبِيحًا قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَلَيْسَ هَذَا قُلٌّ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [١٦٥]﴾.^٢

إن بعض المشاريع كانت ناجحة ومبنية على أسس متينة، فلما تدخلت فيها الحكومة خسرت وضاعت. وكما أن كثيراً من هذه المشروعات تقوم قبل أن تستكمل الدراسات اللازمة لإقامتها، المبنية على الأرقام والإحصاء والمعلومات الصحيحة، وإذا قدمت يوماً دراسات فيكتفى منها بما لا يشفي الغليل، وينير السبيل، وكثيراً ما يتولاها غير المتخصّصين، الذين ليس لهم في الاقتصادي النظري، ولا الاقتصاد العمليّ ناقة ولا جمل.

ولقد سئل الشيخ القرضاوي بعض الإخوان المسلمين يوماً: 'لماذا اعتبرهم فلائناً من أهل الاقتصاد، وركبتموه ليأخذ عشرات الملايين ومئاتها من الناس، وليس هو من أهل الاقتصاد، لا دراسة ولا ممارسة؟' فقليل له: إنه كان في السجن يُدِيرُ فلوس الإخوان في شراء ما يحتاجون إليه، وتوزيعها عليهم، وتوفير ما يمكن توفيره منها، وكان ناجحاً في هذا العمل. قال الشيخ القرضاوي: سبحان الله! تَقْيِسُونَ على هذا العمل الهين اليسير، بهذه المبالغ القليلة المحدودة: عشرات الملايين ومئات الملايين من أموال الناس؟ والعمل داخل السجن لم يكن عملاً اقتصادياً ولا استثمارياً، بل كان عملاً إنسانياً تنظيمياً!^٣

المطلب الحادي والعشرون: تجربة شركة الرّيّان

ولقد سمع الشيخ القرضاوي بنفسه من الأخ الأكبر في جماعة الرّيّان، وهم في اجتماع المصارف الإسلامية في إستانبول، كيف بدءوا مشوارهم، من مطعم صغير عندهم، ثم بتجارة البيض يجمعونه من القرى حولهم، ثم توسّعوا شيئاً فشيئاً، وفتحوا الباب لمن يشاركهم من أقاربهم وأصدقائهم وجيرانهم، حتى وصلوا إلى المليارات، ولم يكونوا مُهَيَّأِينَ لذلك.

ولم يكن لهذه الشركات مجالس إدارة منتخبة منتظمة، من جمعيات عامّة للمساهمين، ولا هيئات رقابة شرعيّة، ولا رقابة معروفة من جهات الحكومة، ولا حتى من الجمعية العموميّة، كما في البنوك الإسلامية.

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٧٧٠ - ٧٧١

٢ القرآن الكريم، آل عمران (٣)، الآية [١٦٥].

٣ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (المرجع السابق، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٧٧٢ - ٧٧٣

المطلب الثاني والعشرون: من أخطاء البنوك الإسلامية

وحثى البنوك الإسلامية، التي لها جمعيات عمومية، ومجالس إدارة، وهيئات رقابة، وقد وقعت في خسائر هائلة، كما وقع بنك فيصل الإسلامي المصري، بسبب تورطه مع بنك الاعتماد والتجارة، وكما خسرت دار المال الإسلامي في سويسرا: خسارة هائلة، حين تعاملت بالذهب، بواسطة أحد موظفيها، الذي ضربها ضربة قاصمة، ظلّت سنين عدداً، تحوّل الإفاقة منها، وهي لا تقدر. ثم إن الحكومة عاجلت قضية شركات الأموال معالجة فجّة، غير علمية ولا مدروسة، ولا راعت حاجات الناس، ممّا سبّب ضياع أكثر حقوق المودعين من أصحاب الأموال.^١

المطلب الثالث والعشرون: تأييده البنوك الإسلامية

ومما يتعلّق بالناحية الاقتصادية: أن الشيخ القرضاوي أيّد قيام البنك الإسلامية حينما كانت فكرة في رءوس بعض الاقتصاديين الإسلاميين، وحلماً في نفوس بعض رجال الإسلاميين، وكانت هناك دراسات قليلة تنشر هنا وهناك عن إمكان قيام بنك بلا فوائد، ثم عن ضرورة إنشاء هذه البنوك، على المستوى النظري. ثم هياً الله رجالاً من أهل الفكر والنظر التقوا رجالاً من أهل المال والعمل، وكان من ثمرات هذا اللقاء: تأسيس أول بنك تجاري إسلامي، وهو بنك دبي الإسلامي الذي تحمّس له الرجل العملي المسلم الحاج سعيد لوتاه. وقد دعا الشيخ القرضاوي إلى التعاون معه في أول الأمر، واعتبره كأنه مستشاراً للبنك تطوّعاً، ثم عقد البنك مؤتمره الأول الذي كان بحق أول مؤتمر للبنوك الإسلامية، دعا فيها عدداً من العلماء المشغولين بفقهاء المعاملات وبالاقتصاد الإسلامي، وذلك في شهر مارس سنة ١٩٧٥م

ثم نشأ بعد ذلك بنك فيصل الإسلامي المصري، وبنك فيصل الإسلامي السوداني، وبنك التمويل الكويتي، والبنك الإسلامي الأردني، وبنك البحرين الإسلامي، وتلاحقت بعد ذلك البنوك الإسلامية، مثل: مصرف قطر الإسلامي، والمصرف الإسلامي الدولي في مصر، وغيرها.^٢

المطلب الرابع والعشرون: الاتحاد الدولي للبنوك الإسلامية

وكان الاتحاد الدولي للبنوك الإسلامية - برئاسة الأمير محمد فيصل، وأمانة الدكتور أحمد عبد العزيز النجار^٣ - يقوم بدور علمي نظري في تسديد مسيرة البنوك الإسلامية، وأصدر موسوعة البنوك الإسلامية؛ وهي تضم أبحاثاً ومؤشّرات حول المصارف الإسلامية، وإن كان بعضها لم ينضج بعد.

وحاول الدكتور النجار أن ينشئ معهداً لتخريج مصرفيين إسلاميين، أو تدريب العاملين في المصارف منهم، وهيئة دراسة منهجية: شرعية، واقتصادية، ومحاسبية، وإدارية، وغيرها. وكان مقرّ هذا المعهد في قبرص، وقد استمرّ من الزمن ثم توقّف؛ لأن تكلفه كثيرة، بسبب موقعه.

وهذا المطلب يتناول خمس مسائل، وبيانها فيما يلي:

١ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القريّة والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٧٧٣

٢ المرجع السابق، ص ٧٧٥

٣ هو أول من أسّس بنكاً اجتماعياً بلا فوائد في مصر وفي العالم العربي، في منطقة ميت غمر، وقد كان الساعد الأيمن للأمير محمد فيصل آل سعود في تأسيس الاتحاد الدولي للبنوك الإسلامية وتقويته، وله عدّة بحوث وكتب في مجال الاقتصاد الإسلامي.

المسألة الأولى: الهيئة العليا للفتوى والرّقابة الشرعيّة للبنوك

ولقد حاول الأتّحاد أن يشدّ أزر البنوك الإسلاميّة، فأنشأ هيئة عليا للفتوى والرّقابة الشرعيّة للبنوك، اختير الشيخ محمّد خاطر مفتي مصر الأسبق ورئيس هيئة الرّقابة الشرعيّة لبنك فيصل الإسلاميّ المصريّ: رئيسًا لها، واختاروا الشيخ يوسف القرضاوي نائبًا له. واجتمعوا في إسلام آباد في ضيافة ضياء الحقّ رحمه الله. كما اجتمعوا في القاهرة وغيرها، وقد استمرّت هذه الهيئة عدّة سنوات، ثمّ توقّفت؛ لعدم تجاوب البنوك الإسلاميّة معها لأسباب عدّة.^١

المسألة الثانية: الهيئة العامّة للمحاسبة للبنوك والمؤسّسات المالية

ثمّ أنشئ مجلس للمعايير مهمته ترشيد المصارف والمؤسّسات المالية الإسلاميّة، ثمّ تطوّر إلى الهيئة العامّة للمحاسبة للبنوك والمؤسّسات الماليّة الإسلاميّة، ويتبعها مجلس للمعايير. وقد أُختير الشيخ الرضاوي في مجلس أمنائها لعدّة سنوات، وكان مقرّها: البحرين، كما كان رئيسها: الشيخ إبراهيم آل خليفة. ونائبه: الاقتصاديّ الكبير الأستاذ الدكتور عبد العزيز حجازي رئيس وزراء مصر الأسبق، ونائب رئيس مجلس إدارة بنك فيصل الإسلاميّ لعدّة سنين.

المسألة الثالثة: المجلس الشرعيّ للهيئة العامّة

ثمّ أنشئ في هذه الهيئة مجلس شرعيّ يضمّ عددًا لا بأس به من علماء الشريعة المهتمين بفقهِ المصارف الإسلاميّة. وقد رُشّح الشيخ القرضاوي لرئاسة هذا المجلس، فاعتذر الشيخ القرضاوي، ورُشّح العلامة الهندي محمّد تقي العثماني؛ وهو فقيه يجمع بين الأصالة والمعاصرة. وما زال المجلس يعمل ويشرف على إصدار المعايير التي تصدر من الهيئة، وضبطها بضوابط الشرع. وقد صدر عنه عدد كبير من المعايير لها وزنها وقيمتها العلميّة والعملية.^٢

المسألة الرابعة: تكاثر البنوك الإسلاميّة

وقد تكاثرت البنوك الإسلاميّة، وأصبحت تُعدّ بالمئات، حتّى أصبحت البنوك العالميّة الأوروبيّة والأمريكيّة، حريصة على أن تكون لها فروع إسلاميّة في البلاد العربيّة والإسلاميّة المختلفة؛ لما رأوا إقبال أبناء الشعوب الإسلاميّة على هذه البنوك، فلم يدعوا هذه السوق للمسلمين وحدهم، وقالوا: نضع لهم المعاملات التي يريدونها. وقد رأوها في واقع الأمر وفي بعض الأحيان، لا تختلف اختلافًا جوهريًّا عن معاملاتهم، وهو ما سهّل الأمر عليهم.

١ ألفرّضاوي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٧٧٦

٢ المرجع السابق، ص ٧٧٦ - ٧٧٧

المسألة الخامسة: دخول معاملات صورية تقرب البنوك الإسلامية من البنوك الربوية

وقد دخلت على البنوك الإسلامية في السنين الأخيرة معاملات، جعلتها تتسم بالصورية والشكلية، وتقربها من البنوك الربوية، بحيث لا تكاد تجد فارقاً جوهرياً بينها وبين البنوك التي يفترض أنها كانت بديلاً عنها، وخصوصاً بعد أن توسع كثيرون في عملية المراجعة التي باتت هي أساس معاملات البنوك الإسلامية، ولم تعدّ وتسمع عن المضاربات والمشاركات والبيوع والتجارات ونحوها، وليتهم يطبقون هذه المراجعة بشروطها وضوابطها كما تقرها الهيئات الشرعية، بل إن بعض الهيئات الشرعية أدخلوا فيها صوراً غريبة يعجب المرء لها.

كما دخل التورق في معاملات كثير من المصارف، حتى سمّاه بعضهم: «التورق المبارك» إلى غيرها من العقود والمعاملات. وهذا ما جعل الشيخ القرضاوي يصرخ متخوفاً من مصير هذه البنوك إذا استمرّ الحال على ما هو عليه، بل ربما تزداد تدهوراً؛ وهو ما دفع العلامة الشيخ تقي العثماني إلى أن يستنجد به لعمل شيء لوقف هذا التيار.

ومنذ سنوات دعا الشيخ صالح كامل رئيس مجموعة بنوك البركة إلى ندوة في شهر رمضان المبارك، يستصرخ فيها الغيورين على المصارف والمؤسسات المالية الإسلامية، من معاملة «التورق» الذي غزا بعض البنوك الإسلامية، وكان الشيخ القرضاوي ممن استجاب له، وفق معه ضدّ هذا الغزو الخطير الذي يضرب البنوك الإسلامية من داخلها. وكان من أقوى الذين هاجموا هذا التوجّه العالم الفقيه الشيخ صالح الحصين.^١

١ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ما في ٧٧٧ - ٧٧٨

المبحث: مساهمته وأدوارُهُ في انتشار العلوم الإسلاميّة في أنحاء العالم

وهذا المبحث يشتمل على أربع وثلاثين مطلبًا، وتفصيلها فيما يلي:

المطلب الأول: وَفَقَةُ تَأْمَلِيَةِ الْقِرْضَاوِيِّ

الشيخ القرضاوي: يحبّ أن يرجع إلى الوراثة أكثر من قرون، بعد مضي أعوام كثيرة عليه في جماعة الإخوان؛ ليقف مع نفسه وَفَقَةُ تأمل ومحاسبة، يريد أن يسأل نفسه: هل كان انضمامه إلى دعوة الإخوان المسلمين خيرا له في دينه ودنياه؟ وهل استفاد من هذه الدعوة أم لا؟ ويودّ أن يقول بكلّ صراحة وجلاء: إنه حقّق مكاسب دينيّة كبيرة، واحتنى فوائد جمّة بانضمامه إلى دعوة الإخوان:

١- أنها وسعت أفقه بفهم الإسلام فهما شاملا، كما شرعه الله تعالى، وكما أنزله في كتابه، وكما دعا إليه رسوله، وكما فهمه أصحابه، فهو دين ودنيا، ودعوة ودولة، وعقيدة وشريعة، وعبادة وقيادة، ومصحف وسيف. وقد قال تعالى في محكم تنزيله لرسوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [٨٩].^١ وقد قرّر جميع الفقهاء: أن الشريعة حاکمة على جميع أفعال المكلفين، فلا يخرج فعل منها عن حكم شرعيّ تقرّره الشريعة.

شعور القرضاوي: فأصبح يفهم الإسلام بهذا الشمول، ولم يعدّ مقصورا على أداء الشعائر، كما كان يتصوّر من قبل، وكما لا يزال الكثيرون يتصوّرون إلى اليوم.

٢- أسقط عنه أي القرضاوي فريضة (العمل الجماعيّ لنصرة الإسلام) فمن المؤكّد اليوم: أن نصرة الإسلام بالقول والعمل والدعوة والبذل حتّى يستعيد القيادة التي عزل عنها، ويعود حكم شريعته ليشمل كلّ جوانب الحياة، والوقوف في التيارات المعادية للإسلام ودعوته وشريعته وحضارته وأمّته: كلّ ذلك لا يمكن أن يتمّ بالجهود الفرديّة المبعثرة، بل لا بدّ من عمل تقوم به جماعة، تجتمع على أهداف واضحة، ومفاهيم بيّنة، يجمعها الفهم الدقيق، والإيمان العميق، والترابط الوثيق، لتحقيق الأهداف الكبرى للأمة الإسلاميّة، بعد أن هدمت الخلافة الإسلاميّة، ولم يعدّ للأمة خليفة ولا إمام، ولا رباط ولا نظام. ومن المعلوم يد الله مع الجماعة، وأن المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه، وأن الذئب إنما يأكل من الغنم الشاردة، وأن التعاون على البرّ والتقوى من فرائض الإسلام.

وإذا كان أعداء الإسلام يعملون مجتمعين مترابطين، فلا يجوز أن نقابلهم منفردين متناثرين، والله تعالى يقول: ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [٦٢]. ﴿وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [٦٣].^٢ فأشار إلى أن النصر إنما يتحقّق بالمؤمنين المترابطين المتولّفين.

٣- انتقل من مجرّد (واعظ ديني) في القرية أو القرى المجاورة إلى (داعيّة إسلامي) فلم يعدّ همّه محصورا في الحفاظ على التدين الفرديّ في نفس المسلم، وإن كان هذا ضروريًا ولا بدّ منه، ولكن لا بدّ من (يقظة إسلاميّة) عامّة، تصحو بها العقول، وتحيا بها القلوب.

الواعظ الدينيّ معيّن بتريق القلوب، وتذكير الناس بالموت، واستخدام الرقائق والحكايات وأحاديث الترغيب والترهيب، صحّت أم تصحّ. والداعيّة الإسلاميّة مهمّته أن يتقف الفكر، ويوقظ الشعور، ويشدّ العزائم، ويعليّ الهِمَمَ، ويحشد الطاقات، ويجمع القوى، ويوثق الروابط، ويجمع الأمة ما استطاع في ساحة الإسلام.

١ القرآن الكريم، النحل (١٦)، الآية [٨٩].

٢ القرآن الكريم، الأنفال (٨)، الآيتان [٦٢ - ٦٣].

٤ - وبانضمامه إلى دعوة الإخوان، انتقلت من الهموم الصغيرة إلى الهموم الكبيرة، ومن المطامح التي تتعلق بشخصه إلى الآمال المتعلقة بأمته. لم يعد كل طموحه أن يتخرج، ثم يتوظف، ثم يتزوج، ويكون لنفسه مستقبلاً خاصاً، بل أصبح طموحه أعمق وأكبر من ذلك، وغدت آمالي أعرض وأوسع من مجرد المكاسب الشخصية، والمستقبل الفردي. أصبح أطمح إلى تحرير وادي النيل وديار العرب الإسلام من كل سلطان أجنبي.

ويطمح إلى طرد الأفكار والأنظمة والقوانين الوضعيّة المستوردة، وإحلال الأفكار والأنظمة والأحكام الإسلاميّة محلّها. ويطمح إلى أن تتقدّم الأمة المسلمة، وتأخذ مكانها في ركب العلم والتكنولوجيا، وتخرج من سجن التخلف الرهيب. وأطمح إلى أن تتوحد الأمة بعد أن فرقتها العصبية الجاهليّة، والمذاهب المستوردة، والأنانيّة الحاكمة، ناهيك بالفتن الاستعماريّة التي كان شعارها: فرق تسدّ.

وأطمح إلى أن تعود الخلافة الإسلاميّة، لتتقود الأمة تحت راية القرآن، وزعامة محمد صلى الله عليه وسلم. لقد استحال همومه الصغيرة، إلى الكبيرة، هموم أمة كبرى من المحيط إلى المحيط.

المطلب الثاني: الدعوة في أنحاء العالم

كان القرضاوي يمارس نشاطه المعتاد في الإخوان، سواء في قسم الطلاب أم في قسم نشر الدعوة أم في قسم الاتصال بالعالم الإسلامي، وخصوصاً بعد الإفراج وإعلان عبد الناصر ورجال الثورة الصلح مع الإخوان، وزيارة جمال عبد الناصر للأستاذ المرشد حسن الهضيبي في بيته.

المطلب الثالث: ندوة إخوانية بحثية في إستانبول

الشيخ القرضاوي وعدد من الإخوان المصريين خاصة اتفقوا أن يلتقوا في مدينة إستانبول في سنة ١٩٦٨م، ليتدارسوا بعض القضايا المهمة الخاصة بالدعوة، ويقدموا فيها ورقات للبحث والمناقشة. وكان الغالب على هذه القضايا: الجانب الفكري وتأصيل المفاهيم. وخصوصاً بعد أن دار جدل حام بين الإخوان بعد محنة ١٩٦٥م، داخل السجن، وخارجها، وطار ردّاذ منه إلى الخارج، وحدث التباس في عدد من القضايا، مثل: قضية "الجاهليّة"، وقضية "الحاكميّة"، وقضية "التكفير" وغيرها. وقد مرّت بالجماعة ثلاث محن كبيرة في تاريخها: محنة في عهد الملكية، ومحتنان أكبر منها وأقسى في عهد الثورة، كل محنة أكبر من أختها.

ومن حق الجماعة، بل من واجبها: أن تراجع نفسها، وتقوم مناهجها، على غرار ما تفعل وزارات التربية، والجامعات، والمؤسسات المختلفة، في ضرورة مراجعة فلسفتها ومناهجها وسياساتها كل مدة من الزمن، لعلها تجد الجماعة خلافاً فسدّه أو نقصاً فتكمّله، أو عيباً فتصلّحه، أو خطأ فتصحّحه، وإن جماعة مضت على تأسيسها كثيراً من السنين، لهي أجدر بأن تراجع نفسها، وتقوم مسيرتها، طلباً للتصحيح والتصويب والتعديل والتكميل والتحسين، والمؤمن دائماً ينشد الأمل والأحسن، كما قال تعالى في وصف المهتدين من أولي الألباب: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ [١٨]﴾.^١

وقد شارك الشيخ القرضاوي في هذه الندوة بورقتين، إحداها حول "التقليد والتّمذّب في الفقه" والأخرى حول "التصوّف والصوفيّة" ومحاوله تحرير موقفهم من هذين الأمرين.^٢

١ القرآن الكريم، الزمر (٣٩)، الآية [١٨].

٢ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ١٦٨ - ١٦٩

وكان المشاركون في هذه الندوة: الدكتور توفيق الشاوي، والأستاذ هارون المجددي، والأستاذ عبد البديع صقر، والشيخ أحمد العسال، والدكتور صلاح شاهين، والآخرين، وكان لقاءً خصباً ونافعاً، ناقشوا فيه الموضوعات بكلّ حُرّيّة، بعيداً عن ضغط السلطان، وعن ضغط الجماهير أيضاً، وكثيراً ما يكون ضغط العامة على الخاصة، أو ضغط الجماهير على اهل العلم والفكر: أشدّ خطراً من ضغط الحكومات.

ولهذا كان التوجيه القرآني: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْنَىٰ وَفِرَادَىٰ تُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ [٤٦]﴾^١. ومعنى "مشنى وفرادى": أن يفكر كلّ فرد مع رفيقه أو يخلو إلى نفسه، أي بعيداً عن تأثير العقل الجمعي، وهنا هم في حوِّ حرّيّة التامة، لا عليهم من الخارج، ولا من الداخل، أي لا ضغط من الحكومة، ولا من الجماعة. ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْنَىٰ وَفِرَادَىٰ﴾، قاله قتادة. والمعنى: أن التي أعطاكم بها، قيامكم وتشميركم لطلب الحق، وليس بالقيام على الأقدام.^٢

وكان الذي دفعهم إلى هذا اللقاء: شعورهم المشترك بأن الجانب الفكري في الجماعة، يجب أن ينمى وأن يؤصل، وأن ينتقلوا من سيحان "النزعة العاطفيّة" إلى انضباط "العقليّة العلميّة"، وأن يساعدوا على أن تُقرّر الجماعة: أجيالاً من "العلماء"، الذين يتميّزون بالتدقيق لانتشار العلوم الإسلاميّة والدعوة في أرجاء العالم، لا من "الخطباء" الذين يُعرفون بالإثارة.^٣

وفي بعض الآثار الواردة: إنه "سيأتي على الناس زمان كثير خطبائه، وقليل علمائه!" وحتى لا تفهم الجماعة بأنها تغلب عليها "ثقافة المنابر"! كما جاء في حديث: عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: «إِنَّكُمْ فِي زَمَانٍ قَلِيلٍ خُطْبَاءُ كَثِيرٌ عُلَمَاءُ يُطِيلُونَ الصَّلَاةَ، وَيَقْصُرُونَ الْخُطْبَةَ، وَإِنَّهُ سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ كَثِيرٌ خُطْبَاءُ قَلِيلٌ عُلَمَاءُ يُطِيلُونَ الْخُطْبَةَ، وَيُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ حَتَّى يُقَالَ هَذَا شَرْقُ الْمَوْتَى» قُلْتُ لَهُ: مَا شَرْقُ الْمَوْتَى؟ قَالَ: «إِذَا اصْفَرَّتِ الشَّمْسُ جَدًّا، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَلْيُصَلِّ الصَّلَاةَ لَوْ قُبَيْهَا، فَإِنْ احْتَبَسَ فَلْيُصَلِّ مَعَهُمْ وَلْيَجْعَلْ صَلَاتَهُ وَحْدَهُ الْفَرِيضَةَ وَصَلَاتَهُ مَعَهُمْ تَطَوُّعًا»^٤.

المطلب الرابع: مع سيّد قطب

تحدّث القرضاوي عن الأستاذ سيّد قطب في المرحلة السابقة باعتباره الكاتب الإسلامي المرموق، صاحب القلم السيّال، والأسلوب الرفيع، والذي دخل الساحة الإسلاميّة بقوة، بكتابه: "العدالة الاجتماعيّة في الإسلام" وما بعده، واقترب من الإخوان، وإن لم يصبح واحدا منهم.

وفي هذه الفترة طلبه الأستاذ سيّد قطب ليلقاه، فذهب إليه في المجلّة، وقال له: إنه كُلفَ رئاسة قسم نشر الدعوة، وهو يريد أن ينهضَ بالقسم على أسس منهجيّة سليمة، ويرجو من دُعاة الإخوان أن يعاونونه على ذلك، فهو لا يستطيع أن يحقّق ما يريد إلا بتعاون الجميع معه، وخصوصاً شباب الدعوة المرجوّن أمثاله أي القرضاوي.

١ القرآن الكريم، سبأ (٣٤)، الآية [٤٦].

٢ الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (المتوفى: ٥٥٩٧هـ)، زاد المسير في علم التفسير، (بيروت - دار الكتاب العربي، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ)، ج ٣، ص ٥٠٣.

٣ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ١٦٩.

٤ الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم (المتوفى: ٥٣٦٠هـ)، المعجم الكبير، [المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي]، (القاهرة - مكتبة ابن تيمية، الطبعة: الثانية)، رقم الحديث: ٩٤٩٦، ج ٩، ص ٢٩٨.

قال القرضاوي له: أنا معك في كلِّ ما تَصَبُّو إليه إن شاء الله، ونحن جنودك في تحقيق آمالك الكبيرة والمرجوة في نشر الدعوة بطريقة علمية. قال: تعلم أن أحاديث الثلاثاء، أصبحت متروكة للمُصَادَفَاتِ، في كلِّ ثلاثاء يقدم أحد الإخوان الدعاة ليلقي ما يحظر بباله بدون إعداد ولا تحضير، وإنما هو حديث مُرْتَجَلٌ عفو الخاطر، ومثل هذا لا يليق بجماعة كبيرة مثل الإخوان.

لهذا رأى القرضاوي (الأستاذ سيّد قطب) أن ينظّموا هذا الأمر، بحيث يكلفون عددا من دُعَاة الإخوان، كلِّ واحد يأخذ شهرا، يلقي فيه أربعة أحاديث في موضوع محدد يتفق معه عليه، ويحضر له المادّة المطلوبة، ويلقيه على الإخوان، فيستفيدون علّما وثقافةً، لا مُجَرَّدَ عواطف ومشاعر، قال القرضاوي له: نِعَمَ الرَّأْيِ هذا. قال: وعلى هذا الأساس أعرض عليك واحدا من موضوعين، تختار أحدهما لتعده وتلقيه في الوقت المناسب، الموضوع الأوّل: مواقف من السيرة النبويّة، والثاني: من أخلاق القرآن، فهل ترى هذين مناسبين؟ قال القرضاوي: كلاهما ملائم، ولكنني أختار الثاني، فرمّا يكون عندي فيه ما يقال ممّا يفيد إن شاء الله. قال سيّد قطب: على بركة الله، فليكن ذلك في شهر نوفمبر تقريبا، أي في أثناء السنة الدراسيّة إن شاء الله. قال القرضاوي: وهو موعد مناسب له، وأسأل الله التوفيق.

ولكنّ الأمور تغيّرت بسرعة مُذهِلةً، وحدث ما حدث، حتّى إن شهر نوفمبر الموعد حبيما جاء، كان قد ضمّه وضَمَّ الشيخ القرضاوي، وضَمَّ الإخوان معنا السجن الحربيّ، والعبد يفكر، والله يُقَدِّرُ، والله في خلقه شئون. وكانت هذه المرّة الثانية التي ألقى فيها الشهيد سيّد قطب رحمه الله، وأجلس إليه منفردا به. أمّا المرّة الأولى، فكنت أنا الذي طلبت لقاءه، فقد كنت مشغولا بإصلاح الأزهر، لعلمي بأن الأزهر مؤسّس علميّة دينيّة كبرى ذات تأثير في مصر وفي العالم الإسلاميّ كلّه، بل في المسلمين خارج العالم الإسلامي حيثما كانوا، وأن بإضاعة الأزهر يضيع خير كثير على الأمة، وبإصلاحه يصلح كثير من شأن الأمة، وقديما قالوا:

يا أيّها العلماء، يا ملح البلد ما يُصْلِحُ الملح إذا الملحُ فسد؟

ذهب القرضاوي إلى إلى الأستاذ سيّد قطب رحمه الله، وعرض عليه ما عنده من أفكار لإصلاح الأزهر، والرقى بمنهج، والنهوض بعلمائه ورجاله، وشرح له ذلك في جلسة مُطَوَّلَةٍ، في دار الإخوان بالحلمية، وقد أثنى على جهده وتوجيهه الإصلاحيّ، وشجّع تشجيعا سرّه وشرح صدره، وأضاف إليه بعض النصائح والتوجيهات المهمّة من ثمرات قراءته، ومن تجاربه في الحياة، وجدير بالذكر ممّا قاله (الأستاذ سيّد قطب رحمه الله) له: وهو يحدثه عن الفلسفة الإسلاميّة: إنّها في الحقيقة ليست فلسفة إسلاميّة، إنّها في الواقع ظلال للفلسفة اليونانيّة مُترجمَةٌ إلى العربيّة، مضافًا إليها بعض إضافات لم تغيّر جوهرها.

المطلب الخامس: المؤتمر العالميّ الأوّل لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة

كانت المملكة العربيّة السعوديّة في العقد الأخير "عقد التسعينات" من عقود القرن الرابع عشر الهجريّ "عقد السبعينات من القرون العشرين" في حالة من اليقظة والحركة، فقد وصلت إليها الصحوة الإسلاميّة التي بدأت في مصر، بعد هزيمة حزيران سنة ١٩٧٦م، وطُفِقَ كثير من شبابها الذين حصلوا على الدكتوراه، من خارج البلاد يعودون إليها، ويقودون زمام التعليم والتربية والثقافة في كثير من المؤسّسات، كما ضمن المملكة في رِحَابِهَا كثيرًا من دعاة الحركة الإسلاميّة ليعملوا في مدارسها ومعاهد وجامعاتها. وكان من ثمرة ذلك كلّ صحوة عامّة ظهرت بشائرها في صُوَرٍ مختلفة ومَسَارَاتٍ عدّة. وكان البحث الذي طلب من الشيخ القرضاوي: ما يتعلّق بالإعداد العلميّ أو المعرفيّ للداعية، وقد وفّقه الله تعالى، فكتب بحثًا بعنوان: "ثقافة الداعية" وبيّن فيه أنواع الثقافات التي يجب أن يتسلّح بها الداعية، لخوض معركة الدعوة، وهو قوي محصّن، واقف على أرض صُلْبِهِ.^١

١ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٤٤٤ - ٤٤٥

هذه الثقافات هي :

- ١ . الثقافة الدينيّة بأنواعها وألوانها: "القرآن وعلومه، والحديث وعلومه، والفقه وأصوله وقواعده، والعقيدة ومقارنة الأديان".
- ٢ . الثقافة اللغويّة والأدبيّة، وهو ما يسمّيه الأقدمون: "العلوم الآلية".
- ٣ . الثقافة التاريخيّة ، ولا سيّما التاريخ الإسلاميّ الذي يبدأ بالسيرّة النبويّة.
- ٤ . الثقافة الإنسانيّة، يعني: التزوّد بقدر مناسب من العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة.
- ٥ . الثقافة العلميّة، بدراسة ما لا بدّ منه من العلوم الطبيعيّة والرياضيّة.
- ٦ . الثقافة الواقعيّة، وهي دراسة الواقع بما هو عليه بلا تّحوين ولا تّحويل؛ واقعنا وواقع أعدائنا.

وأنّ البحث كان موضع الرضا والثناء من المشاركين في المؤتمر، ثمّ صدر في كتاب، انتشر واشتهر، حتّى أمسى من المتطلّبات الأساسيّة لتكوين الداعية، وأصبح موضع الاهتمام من الأكاديميّين والحركيّين على سواء.

وفي الجلسة الافتتاحيّة للمؤتمر: رشّح المؤتمرون سماحة الشيخ عبد الله بن باز لرئاسة المؤتمر، كما هي العادة، في ترشّح رئيس كلّ جامعة لرئاسة المؤتمر، ولكن الشيخ عبد الله بن باز تنازل عن الرئاسة للشيخ عبد المحسن العباد نائب رئيس الجامعة.

ثمّ جاء دور ترشيح مقرّر عام للمؤتمر، فوقف الشيخ الجليل العلامة شامحة الشيخ حسنين محمّد مخلوف مفتي جمهورية مصر الأسبق ليقول: أنا أرشّح الداعية الإسلاميّة الكبير الشيخ يوسف القرضاوي ، ليكون مقرّرًا للمؤتمر... وكان يجوّار الشيخ القرضاوي الأستاذ مبارك المفكّر الإسلاميّ السوريّ، فقال الشيخ القرضاوي له: أنا سأرشّح الشيخ الغزالي، وأرجو أن تُثنيّ عليّ لأسباب وأنت تعرفها... فمنها: ردًّا على أنور السادات المهاجم جهرًا في حديثه المذاع على الهواء على الشيخ الغزالي، ولأجل الشيخ القرضاوي تنازل عن الترشيح لشيخ الداعية الكبير الشيخ محمّد الغزالي رحمه الله. وكان في الواقع نعم المقرّر. فقد أعطي القوس باربيها.

انقسم المؤتمر إلى عدّة لجان حسب الموضوعات التي تبحث، والتي طلبت من الباحثين، وكتبوا فيها. وكلّ لجنة تضمّ عددًا من المدعوّين، تختار لها رئيسًا ومقرّرًا، ثمّ يعث مقرّر اللجان الفرعيّة: تقرير كلّ لجنة بعد كلّ جلسة إلى المقرّر العام. وظلّ المؤتمر عدّة أيّام في حركة دائبة، ونقاش علميّ حيّ، ينبثق في العادة عن توصيات أو مشروع قرار، يرسل من اللجان الفرعيّة إلى المقرّر العام.

وقبل الجلسة الختاميّة، عقدت جلسة خاصّة لمناقشة التوصيات، ومشروعات القرارات، لإبقائها أو حذفها، أو تعديلها بإعادة صياغتها، حتّى اكتملت مجموعة مهمّة وقويّة من التوصيات، فيها نظرة شاملة لهموم الأمة، ومشكلات الدعوة، وواجبات الدعاة، والعقبات التي تواجههم، وواجب الأمة نحو الدعوة والدعاة.

ووضعت هذه التوصيات والقرارات في صيغتها النهائيّة، وأقرّها المؤتمر في جلسة ختاميّة، قرأها الشيخ الغزالي على المؤتمرين والضيوف. وقد ورّعت على الأعضاء، وعلى الصحف وأجهزة الإعلام، بل طبعت مستقلّة، ونشرت مستقلّة لما فيها من شموليّة وتنوّع وتوازن وتكامل. وليت المسئولين عن أمة الإسلام - حكوميّين وشعبيّين - التزموا بما في هذه التوصيات، ففيها خير كثير، لو كانوا يعلمون.^١

١ ألفقرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٤٤٩

المطلب السادس: مع التنظيم العالمي لإخوان المسلمين

اقترح بعض الإخوة أن يطلق عليه اسم التنظيم الدولي أو العالمي لإخوان المسلمين، وآثر الشيخ القرضاوي كلمة "العالمي" على كلمة "الدولي"؛ لأن كلمة "الدولي" أشبه بالمؤسسات الرسمية و"العالمي" أشبه بالمؤسسات الشعبية. ولكن شاعت كلمة "الدولي". وهذا المطلب يشتمل على مسألتين، وبيانها كالتالي:

المسألة الأولى: إحياء المكتب التنفيذي

بدأ التفكير في إحياء المكتب التنفيذي القديم، الذي كان يُمثّلُ الدول العربية أو عددًا منها، إذ أن حركة الإخوان المسلمين ليست مجرد جماعة مصريّة، بل هي حركة إسلاميّة عالميّة، وإن كانت مصريّة النشأة. وبدأت لقاءات كانت في أول الأمر يغلب عليها الجانب العلمي والبحثي في شئون الدعوة وقضاياها الفكرية، وموقّعاتها العمليّة. ثمّ بدأ الأمر يأخذ شكلاً تنظيميّاً، يُدعى من كلّ بلدٍ واحدٍ يُمثّل الدعوة فيها، وكان الشيخ القرضاوي يحضر ممثلاً للإخوان المسلمين في قطر، وكانوا في أول الأمر مشغولين، بوضع خطة للعمل المستقبليّ، ليناقشها الأعضاء، فإذا أقرّوها، وضعت موضع التنفيذ.^١

المسألة الثانية: كتابته خطة العمل المستقبليّ للحركة

وكلف الإخوان الشيخ القرضاوي أن يقوم بتقديم تصوّر عام لهذه الخطة، ومحاورها الأساسيّة وخطوطها العريضة. وقد عكف على هذا الأمر، ووضع تصوّرًا لهذه الخطة، في الداخل والخارج: في المجال العلميّ، وفي المجال التربويّ، وفي المجال الاجتماعيّ، وفي المجال الاقتصاديّ، وفي المجال السياسيّ... وقسمها إلى مراحل كلّ مرحلة تسلّم إلى ما بعدها. ومن خصائص هذه الخطة:

١. أنّها علميّة، تعتمد على الإحصاء والأرقام، لا على العاطفيّة والارتجال.
٢. وأنّها واقعيّة، تتعامل مع الواقع كما هو، بلا تجميل ولا تجميل، ولا جريان مع الأحلام.
٣. وأنّها مرنة، تستطيع أن تستبدل شيئاً بشيء، لا تقف جامدة عند تغيير المواقف.
٤. وأنّها متوازنة، تتبني خطّ الوسطيّة والاعتدال في كلّ أمور.
٥. وأنّها استشرافيّة، تنظر إلى المستقبل وتوقّعاته، وتعدّد له ما يناسبه.

وقد عرض الشيخ القرضاوي هذه الخطة على المكتب أو المجلس، وأخذ يناقشها في جلسة من جلساته، وأقرّها المجتمعون بصفة عامّة، بعد إدخال بعض التعديلات عليها، وتمّ استكمال بعض أشياء، رأيه أنّها تتمّ البناء... ثمّ في الدورات التالية شغل المجتمعون بأمور إداريّة أخرى.^٢

المطلب السابع: مُشادّة مع الدكتور محمّد أركون^٣ حول الصحوة الإسلاميّة وغير ذلك في سنة ١٩٨٤م

كانت وزارة الشؤون الدينيّة المنظمّة لملتقيات الفكر الإسلاميّ في الجزائر، وقد اختار الشيخ القرضاوي موضوع "الصحوة الإسلاميّة" ليكون محور الملتقى في هذا العام ١٩٨٤م، وكان من الموقف المهمّة في "الملتقى": أن الدكتور محمّد أركون الذي التقاه الشيخ القرضاوي بمحض المصادفة في الطريق إلى الفندق، قد كشف اللثام عن هويّته، وعن اتجاهه الفكريّ، وأن أستاذ الدراسات الإسلاميّة المشارك في ملتقى الصحوة الإسلاميّة لا يؤمن بالصحوة الإسلاميّة، ولا بالدعوة الإسلاميّة، ولا بالأمة الإسلاميّة، ولا بالثقافة الإسلاميّة، ولا

١ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٢٢

٢ المرجع السابق، ص ٢٣

٣ هو عالم جزائريّ في الأصل، وعمل في جامعة السوربون في باريس، في قسم الدراسات الإسلاميّة.

بالشريعة الإسلامية، وأنَّ له رؤيته الخاصّة في ذلك كلّها، المخالفة لرؤية جميع الملتقى: الشيخ يوسف القرضاوي، والشيخ محمد الغزالي، والشيخ رمضان البوطي، وكلّ العلماء والدعاة والمفكرين، والحاضرين منهم والغائبين.

وهو يرى أنهم أي الشيخ يوسف القرضاوي، والشيخ محمد الغزالي، والشيخ رمضان البوطي، وغيرهم على "خطابات" غير علمية ولا موضوعية، لأنهم لا يستخدمون مصطلحاته ومصطلحات زملائه... فهم يقولون: أي الشيخ القرضاوي وغيرهم "الإسلام والإسلامية" وهم يقولون: الإسلامية، وكذلك "التاريخية" ويقولون "التاريخية والتاريخانية" ولا ندري ما المعايير التي يعتمدونها في زيادة الواو في النسب "التاريخية" أو زيادة الألف والنون "التاريخانية". وعلى أيّ قاعدة من قواعد النحو أو الصرف أو البلاغة يقيمون إبنائهم المُحدّث!

كانت محاور الصحوة كلّها تدور حول ترشيد الصحوة، وتسديد مسيرتها، وعلاج أمراضها، ووقايتها من الانحراف، وحمايتها من أن تتآكل من الداخل، أو تضرب من الخارج، وتوفير أسباب الصحّة لها، والرقيّ بها فكرًا وأداءً. وكانت ورقة الشيخ القرضاوي حول تطوير الصحوة، والانتقال بها من طوّر إلى طوّر، وتمثل ذلك في عشرين نقطة حدّدها، وعرضها على المشاركين في الملتقى، وشرح كلّ نقطة منها شرحًا مركزًا مختصرًا يلقي شعاعًا عليها، ويكشف عنها الغموض والإجمال، وإن لم يستوفِ شرحها. ويكفيه هنا أن يشير إلى عناوين هذه النقاط العشرين، التي تمثّل الخطوط العريضة لمستقبل الصحوة المنشود، في فهم الإسلام، والدعوة إليه، والعلاقة بالآخرين من العاملين له، والقاعدين عنه من أبناء أمته، ومن الجاهدين به، والخائفين منه، والطامعين فيه، والحاقدين عليه، من غير أمته.^١

لا بدّ أن تنتقل دائرة الاهتمام والتركيز:

١. من الفروع والجزئيات إلى الأصول والكلّيات.

٢. من النوافل إلى الفرائض

٣. من المختلف فيه إلى المتفق عليه.

٤. من أعمال الجوارح إلى أعمال القلوب.

٥. من طربي العلوّ والتفريط إلى الوسطية والاعتدال.

٦. من التعسير والتنفير إلى التيسير والتبشير.

٧. من الجمود والتقليد إلى الاجتهاد والتجديد.

٨. من الكلام والجدل إلى العطاء والعمل.

٩. من العاطفية والارتجال إلى العلمية والتخطيط.

١٠. من التعصّب على المخالفين في الرأي إلى التسامح معهم.

١١. من الإثارة إلى التفقيه" أو من أسلوب الوُعَاظِ إلى أسلوب الفقهاء، أو من حماسة المنبر إلى هدوء الحلقة.

١٢. من الكم إلى الكيف" أو من الاهتمام بتزايد الأعداد ولو على حساب التربية إلى العناية بالتربية ولو على حساب العدد".

١٣. من سماء الأحلام إلى الأرض الواقع" أو من المثالي المنشود إلى الممكن الموجود.

١٤. من الاستعلاء على المجتمع إلى المعاشة له" أو من موقف ممثل الأتّام إلى موقف الأب أو الطبيب".

١٥. من الانكفاء على الماضي إلى المعاشة الحاضر، والإعداد للمستقبل.

١ القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٢٩٨

١٦. من الاستغراق في العمل السياسي إلى الاهتمام بالعمل الاجتماعي.
١٧. من اختلاف التضاد والتشاجن إلى اختلاف التنوع والتعاون.
١٨. من إهمال شئون الحياة إلى التعبّد بإتقانها.
١٩. من الإقليميّة الضيقة إلى العالميّة الواسعة.
٢٠. من الإعجاب بالنفس إلى محاسبة النفس "أو من الغلّوّ في إثبات الذات إلى نقد الذات.

هذه هي المُنطَلَقَات العَشْرُون والتي اعتبرها الكثيرون بمثابة "ورقة عمل" لتوجيه الصحوة الإسلاميّة. وقد ضمّ الشيخ القرضاوي بعضها إلى بعض، فأصبحت عشر نقاط قام عليها كتاب الشيخ القرضاوي "الصحوة الإسلاميّة من المراهقة إلى الرشد".^١ وقد استقبل المشاركون في المؤتمر كلمته بالترحيب والقبول والثناء، إلا واحداً منهم، الذي زعم أن الإسلاميين يستخدمون لغة العاطفيّة والإثارة، وليست اللغة العلميّة، التي تحلل وتفكك وتركّب، وتعتمد على علوم اللسانيّات والإبستمولوجيا والأنطولوجيا وما شابه ذلك من ألوان "اللوجيا". ولقد ردّ كثيرون على الجكتور محمّد أركون: ردّ عليه الشيخ الغزالي، وردّ عليه الدكتور رمضان البوطي، الذي قال: إن كلام الأستاذ القرضاوي كلام علميّ مائة في المائة.

وقد عرف الشيخ القرضاوي بعد ذلك أن هذه لم تكن المرّة الوحيدة لـ الدكتور محمّد أركون، فقد شارك في الملتقيات مرّة بعد ذلك ١٩٨٦م، وثار عليه كثيرون، وبخاصّة الشيخ محمّد الغزالي.

المطلب الثامن: من عيوب المُنظَّمات والمؤسّسات الإسلاميّة في الغالب

عند فضيلة الشيخ القرضاوي: أن الشورى واجبة، وأن الشورى ملزّمة كما حقّها، وأشار الله سبحانه وتعالى إليه قائلاً: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [٣٨].^٢ وقال في آية أخرى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [١٥٩].^٣ وأن النزول على رأي أكثرية أهل الحلّ والعقد واجب... على حين يرى كتاب لبعض الدعاة: أن العمل برأي الأكثرية من الأمراض التي دخلت على الحركة الإسلاميّة، وأن الواجب هو العمل برأي الإمام، وإن خالف الأكثرية، بعد أن يستشيرهم. ولكن الأسف الشديد- قلّمًا يوجد هذا المنهج على فكرة في المُنظَّمات والمؤسّسات الإسلاميّة، وعدم وجوده هو سبب من أسباب الانهزام الإفشال والانحطاط إلى وصول المُدَفِّ والمَقْصِد.

ومع هذا أن هناك على المُنظَّمات والمؤسّسات الإسلاميّة أن تركز أكثرًا في التربويّ والتثقيفي والمنهج الدعويّ وأسلوبها وتخطيطها على الموعظة الحسنة وبالبصيرة بلا عَشْوَائِيًّا، وأن تُقَوِّي وتربّي القعيدة الصحيحة والشريعة، والعبادة والمعاملة، والدين والدينا، والعُدّة والقوّة بحقّها وضبطها لانتشار الدعوة.

١ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٢٩٩

٢ القرآن الكريم، الشورى (٤٢)، الآية [٣٨].

٣ القرآن الكريم، آل عمران (٣)، الآية [١٥٩].

المطلب التاسع: تأليف كتب للعلوم الشرعيّة، وغيرها في قطر لانتشار العلوم الإسلاميّة في بلاد الخليج

تأليف كتب حديثة للعلوم الشرعيّة في قطر، وكانت تمثّل الرّيادة والطلّعة في بلاد الخليج كلّها. وكانت هذه الكتب في علوم التوحيد والفقّه والبحوث الإسلاميّة. وقد استقبلت هذه الكتب استقبالا حسنا في قطر وما حولها، وعُدّت تجديداً مطلوباً في مجالها بدل الكتب القديمة التي كانت ألعازراً وعقدّاً بالنسبة للطلاب.

وهذا النجاح شجّع المسؤولين في وزارة المعارف التي أصبح اسمها: "وزارة التربية" لتبدأ شوطاً أطول وأوسع في تأليف كتب حديثة في مناهج العلوم كلّها: الدينيّة، والاجتماعيّة، والعلميّة. وشكّلت لجان للتأليف في مختلف المقرّرات، ويشرف عليها مفتشو - أو مُوجّهو - كلّ مادة، ويشرف على جميع اللجان مدير المعارف الأستاذ كمال ناجي. وقد شارك الشيخ القرضاوي في تأليف بضعة عشر كتاباً من كتاب العلوم الشرعيّة من الحديث والتفسير والآداب وغيرها، بإشراف فضيلة الشيخ عبد المعز عبد الستار، مُوجّه العلوم الشرعيّة.^١

كما اشترك هو والأخ الأستاذ سليمان السطاوي في تأليف كتابين مهمين، أحدهما: في مادّة "المجتمع الإسلامي" لطلبة السنة الثانية الثانويّة. والثاني: "فلسفة الأخلاق" لطلبة السنة الثالثة الثانويّة من المعهد الدينيّ، بإشراف الأستاذ صالح جمال مُوجّه العلوم الاجتماعيّة. كما كفل - هو والإخوان الشيخ عليوة مصطفى، والشيخ عليّ جمار - بتأليف كتاب من جزأين في علم التوحيد، لطلاب السنتين الأخيرتين من المرحلة الثانويّة للمعهد الدينيّ، وقد قسّموا موضوعات الكتاب عليهم. فختار الشيخ القرضاوي أن يكتب عن: الحاجة إلى العقيدة، وعن أدلّة وجود الله تعالى، وعن الإيمان بالقدر، وعن اليهود والنصرانيّة. وقد لقي هذا الكتاب قبولا عامّاً لدى المهمتين بتدريس العقيدة، وطلب كثير من الإخوة بالسعوديّة والبحرين والإمارات: أن يرسلوا إليهم نُسخاً من الكتاب، ليدرسوه لطلّابهم، أو على الأقلّ: ليقتبسوا منه.

كما ألّفَتْ وزارة التربية القطريّة جملة وافرة من الكتب في الموادّ الاجتماعيّة كالجغرافيا والتاريخ، وصحّح الشيخ القرضاوي فيها بعض المفاهيم الخاطئة، مثل: تدريس الفتح العثماني للبلاد العربيّة على أنّه "استعمار". ولم يكن المسلمون ينظرون إليه هذه النظرة. فقد قام العثمانيون بدور مهمّ بعد سقوط الخلافة العبّاسيّة، وحموا البلد العربيّة من الغزو والاستعماريّ الأوروبيّ عدّة قرون. وكان العرب يشاركون الأتراك في الحكم، ومنهم من وصل إلى مرتبة "الصدر الأعظم"، وإن لم يخل عهدهم من ظلم لا ريب فيه، أصاب العرب والأتراك جميعاً. إنّما بدأ الأتراك ينحرفون حينما برز فيهم العلمانيّون المتعربون، مثل دعاة "الاتحاد والترقي"، الذين تغلغل فيهم يهود الدونمة وأمثالهم.

وكان المشرفون على التأليف يرجعون إلى الشيخ القرضاوي في المشكّلات العلميّة التي لها علاقة بالدين، كما فعل مؤلّفو كتب "الأحياء" عند عرضهم للنظريّات المختلفة في نشأة الحياة والإنسان. ومنهم الأستاذ توفيق القيسي مُوجّه العلوم، وموقفهم من نظريّة النشوء والارتقاء التي قال بها: "دارون"، فكلموا الأستاذ كمال ناجي، الذي كتب إلى القرضاوي يطلب رأيه حول الموضوع، فكتب الشيخ القرضاوي ردّاً في رسالة علميّة مطوّلة، خلاصتها: أنه لا مانع من عرض فكرة "دارون" على أنّها "مجرد رأي" لا يبلغ أن يكون نظريّة.

وفيه تُعزّات وتدلّيسات كثيرة، اكتشفها من جاءوا بعده، بينوا أوجه الخلل والدخّل فيها أعلنه من رأي. وقد ردّ كثير من علماء الغرب البيولوجيّين أنفسهم على "دارون"، كما خالفه تلاميذه أنفسهم بعد ذلك، وعدلوا في الفكرة بما أطلق عليه "الدرأوبيّة الحديثة، ولا سيّما بعد ظهور قوانين الوراثة وثبوتها علمياً بما لا يدع مجالاً " لأيّ ارتياب.^٢

١ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٥م)، ج ٣، ص ٢٥١

٢ المرجع السابق، ص ٢٥٢

كما كتب الشيخ القرضاوي كُتُبًا بالعربية ردّت على هذه النظرية من الوجهة العلمية، ومن الوجهة الإسلامية . وقد لخص ذلك علامة العرب الأستاذ عباس العقاد في كتابه "الإنسان في القرآن الكريم".

المطلب العاشر: المؤتمر العالمي للسنة والسيرة في قطر

كان من أهم وأبرز الأحداث التي ظهرت في تلك الآونة يعني ١٩٧٩م: استضافة دولة قطر للمؤتمر العالمي للسيرة النبوية، بفضل جهود العالم الجليل الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري رحمه الله، وتجاوب المسؤولين في دولة قطر، وكان هذا المؤتمر قد عقد مرتين قبل ذلك: مرّة في باكستان، مرّة في تركيا. وأرادت قطر باستضافة هذا المؤتمر، أن تكون بداية احتفالات الأمة الإسلامية بمقدّم القرن الخامس عشر الهجري.

وأهم اتفقوا على أن يحتفلوا بالقرن بعقد المؤتمر في أوائل شهر محرم سنة ١٤٠٠٠ هـ وكوّنت لجنة تحضيرية للإعداد للمؤتمر برئاسة الشيخ عبد الله الأنصاري، وعضوية الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي، وأبي عمر محمد عبد الله الأنصاري، والشيخ علي جماز، والأستاذ محمد الشافعي صادق، وبعض العلماء والموظفين. واقترحوا أن يستعينوا ببعض الشخصيات البارزة، منهم الدكتور عبد العزيز كامل في الكويت، والشيخ أبو الحسن علي الندوي في الهند، والدكتور عز الدين إبراهيم في الإمارات.

وكان من أهم المقترحات: ما رآه الدكتور عبد العزيز كامل من إضافة كلمة في غاية الأهمية إلى عنوان المؤتمر، وهي كلمة "السنة" فبدل أن كان اسمه "المؤتمر العالمي للسيرة النبوية" يجب أن يكون اسمه "المؤتمر العالمي للسنة والسيرة النبوية" فالسنة أعم وأشمل من السيرة.، وهي في حاجة إلى خدمة وعناية كبرى، والسيرة جزء منها. ينبغي على هذا المؤتمر أن يكون تركيزه على النهوض بالواجب نحو السنة وعلومها، نوضاً يليق بإمكانيات العصر. واستجابت اللجنة لاقتراحه فوراً، وغيّرت عنوان المؤتمر^١.

وفيه مسألتان، وهما في التالي:

المسألة الأولى: جلسة الافتتاح

كما ألقى الشيخ الأنصاري كلمة المؤتمر، وألقى الشيخ الندوي كلمة الضيوف. واختار أعضاء المؤتمر فضيلة الشيخ عبد الله الأنصاري الداعي إلى المؤتمر رئيساً للمؤتمر، كما اختاروا له نائبين: أولهما: الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي، والثاني: هو الأستاذ الدكتور الشيخ يوسف القرضاوي. كما اختار المؤتمر الدكتور عز الدين إبراهيم مقرراً عاماً للمؤتمر، وكان اختياراً موفقاً.

وقد سُمّ المؤتمر إلى لجانٍ، حسب الموضوعات تقدّم إلى كلّ لجنة البحوث المعدة في موضوعها، لتناقش وتقرّر التوصيات بشأنها، لتحال إلى لجنة الصياغة التي كان الشيخ القرضاوي أحد أعضائها.

المسألة الثانية: الرسول والعلم

وقد كان الشيخ القرضاوي أعدّ بحثاً في أحد الموضوعات المطلوبة للمؤتمر، وهو موضوع "الرسول والعلم". وقد عرضه في المؤتمر، واستفاد بما أثير من مناقشات في إغناء البحث وتطويره، وقد نشر في كتاب بعد ذلك، وطبع مرّات ومرّات^٢. وقد نشرت "إدارة أحياء التراث الإسلامي" التي يشرف عليها الشيخ الأنصاري: مجموعة البحوث المقدّمة للمؤتمر في سبعة مجلدات.

١ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ١٠٠

٢ المرجع السابق، ص ١٠٢

وصدر عن المؤتمر جملة توصيات جيّدة، مما يتعلّق بالسنة والسيرة، وما يتعلّق بالأمة عامّة في مطلع قرن الهجري الجديد ١٤٠٠هـ. وكان من أهمّ التوصيات: إنشاء موسوعة للسنة النبويّة تضمّ صحاح الحديث وحسائها محقّقة ومبوّبة ومفهرسة عصريّة، ومعلّقا عليها بما يوضح المفاهيم، ويدرأ الشبهات. وكذلك تأسيس مركز للسنة والسيرة يخدم علومها في ضوء معارف العصر وإمكاناته. ومما جدير بالذكر هنا: أنه بعد عدّة أشهر أصدر أمير دولة قطر: مرسومًا بإنشاء مركز بحوث السنة والسيرة، الذي أوصى به المؤتمر، والذي تشرفت برئاسته وتأسيسه.

المطلب الحادي عشر: رئاسة مؤتمر "الإسلام والمستشرقون"

المهم أنّهم وصلوا بعد جهد إلى "أعظم كره" وكانت فرحة الشيخ أبي الحسن بهم لا توصف، وقال: كنّا في حاجة إلى من يرأس المؤتمر، ووجودك أي الشيخ القرضاوي قد حلّ لنا هذه المشكلة، وشرفه الشيخ بذلك. وهو في الحقيقة أولى برئاسته. وانعقد المؤتمر، وقوى كلمة ضيافة مرتجلة في افتتاحه عن الاستشراق والمستشرقين، وأن منهم المحرفين، ومنهم المخلصين في طلب الحقيقة. ولكن حتّى المنصفين منهم لا يستطيعون التحرّر من جملة عقد تحكمهم منها: نظرهم إلى الإسلام على أنه دين مصنوع، وأن قرآنه مُختلق مُفترى على الله، وأن نبيّه محمّدًا - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كاذب في دعواه... وهذه النظرة السوداء لا شك في أن لها تأثيرها فيما يكتبه صاحبها عن هذا الدين. ومنها: نظرهم إلى الغرب على أنه السيّد، وأن الجنس الأبيض هو سيّد الأجناس، وأن أوروبا هي أم الدنيا، وأن تاريخها هو تاريخ العالم، فالقرون الوسطى هي قرون الظلام والتخلّف والانقطاع، وإن كانت هي قرون الحضارة والنور وازدهار العلم في تاريخ الإسلام. ومنها: عدم تدوّقهم للغة العربيّة وضعف معرفتهم بخصائصها، وإن بلغوا من العلم بما مبلغًا كبيرًا، ولكن العلم شيء والتدوّق شيء آخر. ولهذا الأسباب وغيرها لم يكن حكم غالب المستشرقين على الإسلام وتراثه وعلومه ورجاله وتاريخه حكمًا منصفًا. وكان في المستشرقين من هو من ذوي الغرض والهوى والتحيّز، الذي يخدم ببحوثه جهات معادية للإسلام، أو كان هو نفسه معاديًا للإسلام وأهله. وقد لقي هذه الكلمة المرتجلة استحسان الحاضرين.^١

وهذا المطلب يشتمل على مسألة، وهي:

كلمة أبي الحسن الندوي في المؤتمر:

وألقى العلامة أبو الحسن: كلمة رائعة في شأن المستشرقين، وخصوصًا المتحاملين منهم على الإسلام والمسلمين، وشبههم بـ "مفتشي القمامة" الذين لا يهتمون بكلّ ما هو حسن وجميل، إنما يبحثون عن الفضائل والقاذورات، ولا تقع أعينهم إلا على هذه الأشياء، التي تنبؤ عنها أعين جماهير الناس، ولا تلتفت إليها، وهي وحدها موضع اهتمامهم.

المطلب الثاني عشر: إمكانيّة التفاهم بين الدولة وجمعيات الإسلاميه

قد أسست جمعية الإصلاح الاجتماعيّ في يوم الثلاثاء ٢٧ رجب، ١٤٠٣ هـ الموافق ١٠ مايو ١٩٨٣ م. وكان هذا نموذجًا يُحتذى في إمكانيّة التفاهم والتعاون بين الدولة والجمعيات الإسلاميه الشعبيّة، ما دامت الأهداف واضحة، والمناهج محدّدة، والنيّات صادقة، والاتّجاه إلى خدمة الدين والوطن وإصلاح المجتمع والرفي بالأمة بين المعالم، لا يُبسّ فيه ولا عَيش.^٢

١ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٢٣٢

٢ المرجع السابق، ص ٢٥٧

وهو أولى من حسابان الصدام بين الطرفين حَتْمِيًّا، يستحيل تجنُّبه، فهذا يمكن قوله في البلاد التي تقف موقفًا معاديًا للدين ودعاته، وللشريعة وعلمائها. ومعظم بلاد المسلمين ليست كذلك، وبخاصة دول الخليج. لا يفهم من كلام الشيخ القرضاوي أنه يدعو إلى أن يسير الدين في ركاب الدولة، وأن تكيّف الحركة الإسلاميّة أهدافها ومناهجها لخدمة السلطة، وأن يصيح علماء الشريعة أبقًا للحكومات العلمانيّة، وأن يجرقوا البحور بين يدي أصحاب السلطان، وإن كانوا من الجبابرة المستكبرين في الأرض، المسلّطين على رقاب العباد، حيث قال الله تعالى في محكم تنزيله: ﴿الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ [١١]﴾ ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ [١٢]﴾.^١

فالدين يجب أن يكون هو المخدوم لا الخادم، والعلماء يجب أن يكونوا ألسنة للحقّ، وهداة للخلق، ونصحة للحكام، كما قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتْلِحُونَ [١٠٤]﴾.^٢

المطلب الثالث عشر: تأسيس الهيئة الخيريّة الإسلاميّة العالميّة، وهذا المطلب يحتوي على اثنتين وعشرين مسألة، وبيانها فيما يلي:

المسألة الأولى: النشاط التنصيريّ في العالم الإسلاميّ

كان النشاط التنصيريّ في أوج قوّته في السبعينات من القرن العشرين، وقد عقد دعاة التنصير مؤتمرًا عالميًا لهم في «لوزان» بسويسرا سنة ١٩٧٤م بهدف التنصير العالم! وفي سنة ١٩٧٤م عقدوا مؤتمرًا في ولاية كلورادو في الولايات المتّحدة بهدف أعلنوا عنه، وهو: تنصير المسلمين في العالم!! وكان هؤلاء المنصرون من البروتستانت الأمريكيّين.

وكأن المسلمين هم أوّل من يحتاج إلى الهداية التي يملكونها!! كان الشيخ القرضاوي وغيرهم يظنون أنهم يتوجّهون - أوّل ما يتوجّهون - بجهود تنصيرهم إلى البلاد التي تعلن الإلحاد صراحة، ويقولون بصراحة وجلاء: إلا إله، والحياة مادّة فحسب! ولا نؤمن بالله، ولا برسالات السماء، ولا بالآخرة، فهم أوّل من يحتاج إلى أن يوصلوا بالسماء، ويذكروا بالله وبالحياة الباقية الأخرى... فإن وقفت في طريقهم العقبات: اتّجهوا إلى البلدان التي لم تصل إليها النبوات، وما تزال تعيش تحت سلطان الديانات البدائية، والوثنيات الهمجية.^٣

فهؤلاء وأولئك كانوا أوّل بالتبشير والتنصير من المسلمين: أتباع ملّة إبراهيم، وأصحاب الديانة التوحيدية، التي تميّز توحيدها بالخلوص والصفاء، فليس فيه تشبيه اليهود، ولا تثليث النصارى، فاليهود يشبّهون الخالق بال مخلوق، والنصارى يشبّهون المخلوق بالخالق. بل كان عليهم أن يبدعوا بإعادة النصارى في الغرب إلى المسيحية، ولا سيّما في أوروبا التي لم يعد يذهب إلى الكنيسة منهم في يوم الأحد إلا خمسة في المائة (٥%)!

المسألة الثانية: المنصرون الأمريكيّان

ولكنهم فوجئوا بهذا التوجّه الغربيّ من المبشرين الأمريكيّان خاصة لتنصير المسلمين في العالم. اجتمع مائة وخمسون من عُتاة المنصّرين البروتستانت من الأمريكيّان ومن يدور في فلكنهم في كلورادو لتنصير المسلمين في العالم، وقدموا أربعين بحثًا أو دراسة عن الإسلام وأتمته وكتابه ونبيّه وتاريخه وحاضره ومستقبله، يروية مسيحية تنصيرية... وكيف يمكن التأثير في المسلمين؟ واقتلاعهم من دينهم؟ وإقناعهم

١ القرآن الكريم، الفجر (٨٩)، [الفجر ١١ - ١٢].

٢ القرآن الكريم، آل عمران (٣)، الآية [١٠٤].

٣ ألفقرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٣٨٨

بالنصرانية، وأنَّ المسيح هو ابن الله المخلص للبشر من الذنب الذي ورثوه عن أبيهم آدم، أو هو «أقنوم» من الأقانيم الثلاثة التي تتكوّن منها الألوهية عند النصارى: «الإله الأب، والإله الابن، والروح القدس».^١

المسألة الثالثة: تجارب المنصرّين الفاشلة:

قال الشيخ القرضاوي: والمشكل هنا: أن المسلمين يؤمنون كلَّ الإيمان بأن دينهم هو الدين الخاتم، الذي حتم الله به النبوات، وأن كتابهم هو المهيم على الكتب كلّها، وأنه الكتاب المعجز، والكتاب المحفوظ، الذي لا يعتريه تحريف ولا تبديل. وأن دينهم جاء متممًا لما جاءت به الرسالات السابقة، ومُصَحِّحًا لما وقع فيها من أوهام وأخطاء وتحريفات على مرّ الزمان.^٢ من الصعب إخراج المسلم من دينه ليعتنق دينًا آخر، ويتحوّل محمّد وأحمد وعلي و حسن وحسين إلى جورج وحنّا وبطرس، هذا أمر يكاد يكون مستحيلًا في العادة.

المسألة الرابعة: غارةٌ جديدة على العالم الإسلامي

على كلّ حالٍ قد ابتدأ التنصير غارةً جديدة على العالم الإسلامي، باجتماع كلورادو، الذي صمّم على تنصير المسلمين في أنحاء العالم، ورصد لذلك «ألف مليون» دولار، وأنشأ لذلك معهدًا لتخريج منصرّين مسلمين، سمّوه «معهد زويمر» إحياءً لذكرى ذلك المنصرّ العتيد الذي رأس المؤتمر التبشيري الكبير في القاهرة سنة ١٩٠٦م. القوم إذن جادّون في مهمتهم، مصرون على غايتهم، ووراءهم إمكانيات مالية هائلة، ودول تؤيّددهم بسلطاتها وقوّتها، وجيوش من المبشّرين والمبشّرات. بلغت منذ عدّة سنين ٤,٧٥٠,٠٠٠ أربعة ملايين وسبعمائة وخمسين ألف مبشّر ومبشّرة في أنحاء العالم وقتئذٍ. وقد كان الشيخ القرضاوي يحسب أن «المليار دولار» الذي رصّدوه لتنصير المسلمين: مبلغ كبير، حتّى عرف بعد ذلك أنهم يجمعون في بعض الأحيان مليارات لا ملياراتٍ واحدًا، وأن المال ليس مشكلة لديهم على الإطلاق. ومن المعلوم: أن الفاتيكان كان يعتبر - من ناحية الغني - الدولة الثالثة في العالم بعد أمريكا والاتحاد السوفييتي.^٣

المسألة الخامسة: التنصير غزو غربي للشرق الإسلامي

إن المسلمين ينظرون إلى التنصير على أنه ليس مجرّد عمل ديني، أو دعوة دينية خالصة، بل يرونه نوعًا من الغزو الغربي للشرق الإسلامي. فقد غزانا الغرب عسكريًا، وغزانا سياسيًا، وغزانا ثقافيًا، وغزانا كذلك دينيًا. وكانت أدواته الأولى في غزونا دينيًا هو هذا الذي سمّوه «التبشير» وسمّيناه «التنصير» والذي كان دائمًا خادماً للاستعمار ومهددًا له، ومساعدًا له على استدلال الشعوب، وامتناص خيراتها، ونهب ثروتها، وإبقائها في حضيض الفقر والتخلّف، كما بين ذلك الذين أرّخوا لهذا التبشير وعمله في بلادنا، مثل الدكتور عمر فروخ، والأستاذ مصطفى الخالدي في كتابهما «التبشير والاستعمار» ومثل كتاب «الغارة على العالم الإسلامي».

كُنَّ ممن قرأ ما صنعه المنصرّون في «كلورادو» وما قرّروه من أمر خطير، فأخذ الشيخ القرضاوي على عاتقه أن ينبّه المسلمين على هذا المكر الكُبار، وأدقّ ناقوس الخطر، لتنبيه الأمة على ما يحاك لها، وهي في غفلة عن هذا. وليس لها قيادة توقظها وتحركها، لا سياسية ولا دينية.^٤

١ أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٣٨٩

٢ المرجع السابق، ص ٣٨٩ - ٣٩٠

٣ المرجع السابق، ص ٣٩٤

٤ المرجع السابق، ص ٣٩٥

المسألة السادسة: التنصير غزو غربي للشرق الإسلامي

إن المسلمين ينظرون إلى التنصير على أنه ليس مجرد عمل ديني، أو دعوة دينية خالصة، بل يرونه نوعاً من الغزو الغربي للشرق الإسلامي. فقد غزانا الغرب عسكرياً، وغزانا سياسياً، وغزانا ثقافياً، وغزانا كذلك دينياً. وكانت أدواته الأولى في غزونا دينياً هو هذا الذي سمّوه «التبشير» وسمّيناه «التنصير» والذي كان دائماً خادماً للاستعمار ومهدداً له، ومساعداً له على استدلال الشعوب، وامتصاص خيراتها، ونهب ثروتها، وإبقائها في حضيض الفقر والتخلف، كما بين ذلك الذين أرتحوا لهذا التبشير وعمله في بلادنا، مثل الدكتور عمر فروخ، والأستاذ مصطفى الخالدي في كتابهما «التبشير والاستعمار» ومثل كتاب «الغارة على العالم الإسلامي».

المسألة السابعة: دعوة الشيخ القرضاوي لإنشاء صندوق إسلامي

في محاضرة للشيخ الشيخ القرضاوي في مدينة «جدة» بدعوة من مركز أبحاث الاقتصاد الإسلامي التابع لجامعة الملك عبد العزيز، تكلم الشيخ القرضاوي عن هذا الموضوع بإفاضة، وقال: 'لو كان الأمر بيده لدعا في الحال لإنشاء صندوق إسلامي يجمع فيه ألف مليون دولار، لا لأسلمه العالم، وهذا من حقنا، ولكن لحماية الوجود الإسلامي من هذا الغزو المخطط الحاقق الماكر.'

وبعد المحاضرة اجتمع عدد من الإخوة الدعاة، منهم الشيخ الزنداني، والدكتور محمد عمر زبير، والدكتور أنس الزرقا، وعدد من الشيوخ والأساتذة الفضلاء، وقالوا: لماذا لا نتادي أنت بإنشاء هذا الصندوق، ولماذا تنتظر غيرك أن يقوم بهذه المهمة؟ قال الشيخ القرضاوي: بأي صفة أقوم بذلك؟ قالوا: بصفتك أحد علماء المسلمين، الذين تثق بهم الأمة، وتستمع إليهم، وتقرأ لهم، وتحملك مسئولية عنهم، ونعتقد أن ثقة الأمة بك تجعل من فرض العين عليك أن تقوم بهذا الأمر، وتبناه، ونحن أول المؤيدين لك، والسائرين وراءك، فعاهدنا على ذلك ... ولم يدعوه حتى عاهدهم على أن يتبني مواجهة هذا الغزو. وأصبح حين يحاضر في أي بلد يدعو لإنشاء هذا الصندوق الإسلامي العالمي، أو المؤسسة العالمية ذكر ذلك في قطر، وفي الإمارات، وفي الأردن، وفي كل بلد دعا إليه.^١

المسألة الثامنة: كلمة الشيخ القرضاوي في مؤتمر المصارف الإسلامية بالكويت

ثم هياً الله له فرصة في الكويت في اجتماع مؤتمر المصارف الإسلامية، وكان هو المؤتمر الثاني للمصارف، بعد مؤتمر دبي الذي عقد منذ سنوات. وفي الجلسة الختامية للمؤتمر، طلبت الكلمة، وقال الشيخ القرضاوي للإخوة: 'سمحوا لي أن أفتلكم من جو المصارف والمعاملات المالية الإسلامية إلى جو آخر. هو أشد سخونة، وأعظم خطراً، إنه يتعلق بالحفاظ على دين الأمة وعقيدتها وهويتها ... وذكر الشيخ القرضاوي لهم ما رصد المنصرون لذلك «ألف مليون دولار» لتردد عن ديننا! وأن على الأمة أن ترصد مثلها لحماية المسلمين من خطر الغزو المرتقب. وأمتنا أكثر من ألف مليون، فلو دفع كل فرد - في المتوسط - دولاراً، لجمعنا الألف مليون بسهولة، ومن هنا نرفع شعاراً «ادفع دولاراً تنقذ مسلماً».^٢

المسألة التاسعة: مهمة المؤسسة الخيرية

وعليهم أن ينشئوا لذلك مؤسسة خيرية مهمتها: أن تجمع مليون دولار من المسلمين، وأن تستثمرها في الحلال، لينفقوا من عوائدها، ويبقون الأصل من سالمًا، والشيخ القرضاوي اقترح الكويت مقرّ لهذه المؤسسة، كما اقترح أميناً عاماً لهذه المؤسسة الشيخ الفاضل يوسف الحجّي، «وزير الأوقاف والشئون الإسلامية سابقاً، وأحد رجالات الكويت المحبوبين والمحترمين» ... وتجابوب الحضور مع الشيخ القرضاوي، وأثنوا على قوله وكان منهم الأخ الفاضل المعطاء في كل عمر خير؛ أبو بدر «عبد الله المطبوع» رحمه الله وأثابه،

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٣٩٦

٢ المرجع السابق، ص ٣٩٦-٣٩٧

فجاء وهمس في أذن الشيخ القرضاوي، وقال: لقد أصبت وأحسنت في اختيار يوسف الحجّي لهذه المُهمّة، فهو موضوع ثقة وقبول من الجميع، والشيخ القرضاوي قال له: أنه متبرع لهذا المشروع بمليون دولار يضعها لحسابه من الغد. في بيت التمويل الكويتي، ولكنّ يرجو أن لا يذكر اسمه أي اسم الشيخ القرضاوي، وأعلن ذلك على الحضور، فامتألت القاعة بالتكبير، ولم يُعلن عن اسمه حسب رغبته، وإن كان الأمر قد عرف بعد ذلك، وإنما لكل امرئ ما نوى.

المسألة العاشرة: الحثّ على المشروع في خطبة الجمعة بالكويت

بعد هذا الإعلان وجد الشيخ القرضاوي حماسة بالغة من الناس على كلّ مستوياتهم، وكانوا في يوم الخميس، وقد انتهى المؤتمر وسياسف الشيخ القرضاوي في المساء، ولكن السيّد محمد ناصر الحمضان وكيل وزارة الأوقاف في حينها، قال: أقترح أن تؤجّل سفرك، وتبقى إلى الغد، وتخطب خطبة الجمعة، وتذاع في التلفزيون والإذاعة، وتحتّ الناس على هذا المشروع، وبذلك يكون له أرضية قوية. وقد استجاب الشيخ القرضاوي لهذه الدعوة، وتمّ الأمر على ما يرام.

ولم يكن الشيخ يوسف الحجّي موجودًا حين أعلن الشيخ القرضاوي عن اختياره، ليكون أمين هذه المؤسسة المنشودة، فلمّا حضر، ويبلغ ما قاله، رحّب بتحمّل المسؤولية، وقال: ما دعا إليه القرضاوي، فنحن له جنود.^١

المسألة الحادية عشرة: خطبة الجمعة التالية في قطر

وعاد الشيخ القرضاوي إلى قطر، وخطب الجمعة التالية في قطر، ونوّه بالموضوع، فلقي من القبول والتشجيع ما شرح صدره، وكان من ذلك برقية من الشيخ محمد بن حمد شقيق الأمير، ووزير التربية والتعليم، يثني فيها على المشروع، ويعلم وقوفه بجانبه بقوة بكلّ ما يستطيع، ويدعو له وللمشروع بالنجاح والتوفيق.^٢

المسألة الثانية عشرة: تشجيع أمير قطر الشيخ خليفة

كما لقي الشيخ القرضاوي أمير الدولة قطر الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني، وحدثه عن فكرة المؤسسة ومقاصدها، فرحّب بها، وشجّع على المضي في المشروع، وقال: ثق بأيّ مستعدّ للمساعدة في ذلك، على المستوى الشخصي، وعلى المستوى الدولي، وسرّ بذلك سرورًا كبيرًا... وكان ممّا يشجع على ذلك في تلك الأيام: ارتفاع أثمان البترول، وازديار دخل دول الخليج، وهذا من حُسن حظّ المشروع، والله الحمد.

المسألة الثالثة عشرة: وضع التصوّر العلم للمشروع

وكان على الشيخ القرضاوي أن يضع تصوّرًا عامًا للمشروع، وأهدافه، ووسائله، وأن يكون في صورة مؤسسة عالميّة، لها أعضاء مؤسسون من كلّ أنحاء العالم، يمثّلون رجال الأمة من أهل العلم والرأي، ومن أهل المال والثورة، ومن أهل الكفاية والخبرة.

وبعث الشيخ القرضاوي بهذه التصرّوات إلى الإخوة في الكويت، ليعطوا هذه التصرّوات إلى أحد القانونيين ليصوغها في صورة القانونيّة، على شكل نظام أساسي، ثمّ يبحثون بعد ذلك كيف يستخرجون القانون الذي يقرّها ويعطيها الوجود القانوني.

١ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٣٩٨

٢ المرجع السابق

وكان الشيخ القرضاوي اختار تسميتها «المؤسسة الخيرية الإسلامية العالمية» ولكن الأستاذ خليل حمد المدرّس في قطر - وهو من أحد الأعضاء المؤسسين - اقترح اسم «الهيئة» بدل اسم «المؤسسة» لاعتبارات تتعلق بالترجمة إلى الإنجليزية. وبعد الصياغة القانونية المبدئية لنظام الهيئة: أرسل إلى الأعضاء الذين اختيروا من شتى البلدان لبيدوا ملاحظاتهم على مواد النظام مادة مادة، وفقرة فقرة، ويقترحوا تعديل ما يريدون تعديله، وحذف ما يرون حذفه، وإضافة ما يرون إضافته.^١

المسألة الرابعة عشرة: اختيار الأشخاص المؤسسين واللجنة التحضيرية

وحرصوا كل الحرص على أن يكونوا ممثلين بقدر الإمكان للأقطار والأجناس والتيارات المختلفة. كما اختاروا لجنة تحضيرية للنظر في كل ما يلزم للإعداد لهذه الهيئة وظهورها بالصورة الملائمة لإسلاميتها وعالميتها، وكانت اللجنة مكونة من ستة أشخاص:

١. الشيخ يوسف حجّي
٢. الشيخ يوسف القرضاوي
٣. الشيخ سليمان الراجحي
٤. الشيخ عبد الله العقيل
٥. الشيخ عبد الله المطوع
٦. الشيخ عبد الله بزيع الياسين

كانت اللجنة تنظر في الترشيحات التي تقدّم لها ليكونوا من المؤسسين، وتراعي موازنات مختلفة في الإختيارات، منها: تمثيل الأقطار والأجناس، وأهل العلم وأهل البذل، والشخصيات المقبولة في مجتمعاتها، ثم تحظر الذين وقع عليهم الإختيار وتعرض عليهم فكرة الهيئة كما تصوّرت، ثم مشروع النظام الأساسي المقترح، وتطلب الرأي فيه.^٢

المسألة الخامسة عشرة: تدليل العقوبات لاستصدار قانون الهيئة العالمية

كما كانت مهمة اللجنة التفاهم مع الجهات المسؤولة في الكويت، لتدليل العقوبات لاستصدار القانون بالهيئة المنشودة. ولم يكن الأمر سهلاً، فالهيئة - وإن كان مقرّها بالكويت - ليست هيئة كويتية محلية، بل هي هيئة عالمية بحكم تكوينها من مؤسسين يمثلون المسلمين في العالم، وبحكم أهدافها، فهي لخير المسلمين في العالم، وإمدادهم بما يحتاجون إليه ليعيشوا مسلمين ملتزمين بدينهم، غير متخلفين عن عصرهم، وهي عالمية بحكم تمويلها، فهي تقبل التبرعات - غير المشروطة - من أيّ جهة أو فرد يساعدها في مهمتها، وهي عالمية بحكم مصارفها ومواقع نشاطها، فهي تعمل في كل مكان يوجد فيه مسلمون محتاجون، ولا سيما في إفريقيا وآسيا، حيث ينشط التنصير بين المسلمين، مُستغلّاً فقرهم ومرضهم وأميتهم، فيقدّم المساعدات الغذائية، وينشئ المُستشفيّات والمُستوصفات الطبيّة، ويؤسّس المدارس التعليميّة، التي قاطعها المسلمون، لصبغتها الكنيسة، فمن دخلها نال الشهادة، وفقد الدين! ولهذا بقي المسلمون في معظم دول إفريقيا - جنوبي الصحراء - معزولين عن التعليم العصري، قاصرين تعليمهم على القرآن واللغة العربيّة وشيء من العلوم الشرعيّة، وبعض مبادئ الحساب، كلّ ذلك يعلم على الطريقة التقليديّة القديمة... فقد تطوّر الأزهر، وتطوّرت المعاهد الدينيّة في العالم العربيّ، وكثير من البلاد الإسلاميّة ولم يتطوّر التعليم عند هؤلاء.

١ الكُردّواوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٣٩٩

٢ المرجع السابق، ص ٣٩٩ - ٤٠٠

المهم أن الهيئة المنشودة هيئة علمية بلا نزاع، ويريدون من القانون الذي يصدر بإنشائها في الكويت أن يحافظ على عالميتها واستقلالها. وكان هذا العمل يقوم به إخواننا الكويتيون من الأعضاء المؤسسين في الهيئة، وكان هناك عمل آخر تقوم به اللجنة التحضيرية مع المؤسسين لإنضاج النظام الأساسي، والاتفاق المبدئي على صيغته النهائية بعد التعديلات المقترحة. وقد صدر قانون الهيئة (قانون رقم ٦٤ لسنة ١٩٨٦م) بأمر أميري من الشيخ جابر الصباح أمير دولة الكويت رحمه الله، وأحيل إلى مجلس الأمة، لمناقشته، وإقراره أو تعديله، وبعد أخذ ورد، وافق مجلس الأمة على القانون.^١

المسألة السادسة عشرة: الاجتماع التأسيسي لإقرار النظام

وكان المؤسسون دعوا للاجتماع في الكويت عام ١٩٨٦م لمناقشة النظام الأساسي ثم إقراره بعد تعديل ما يتطلب التعديل، وكان الحضور مكثفًا، لم يكده يعتذر إلا من قهرته الظروف أو أقعده المرض، وكانوا صفوة من رجالات الأمة المعنيين بأمرها، المشغولين بمهمها، حتى قال للشيخ القرضاوي الشيخ الغزالي رحمه الله: 'لقد جمعت حكماء الأمة في هذا المكان، وكلما يجتمعون، وحملتهم الآن المسئولية الدينية والتاريخية، لينهضوا بواجبهم، ويقوموا بدورهم'. وكذلك قال الشيخ عبد المعز عبد الستار: 'كنا نسمع عن حكماء صهيون، أو مشيخة بني إسرائيل، الذين اجتمعوا يومًا لينظروا في مصير قومهم، ويقرروا ما يجب عليهم لمستقبلهم، ويحدّدوا علاقتهم بغيرهم. وما نحن أولاد اليوم نرى مشيخة المسلمين أو صفوتهم يجتمعون، لينظروا في مصير أمتهم'.

قال الشيخ القرضاوي للشيخين: 'لا داعي لأن تُسرفَ في التفاوض' وعلى كل حال، فإن لقاء المؤمنين لا يثمر إلا خيرًا، وخصوصًا إذا اجتمعوا لهدف واضح، ومنهج بيّن، ولم تكن لهم أغراض دنيوية، أو مصالح شخصية، إنما جمعهم حب الله ورسوله، والانتصار لهذا الدين الذي يشكوا إلى الله أبناء عقوه، وأنصارًا خذلوه.^٢

المسألة السابعة عشرة: إقرار النظام الأساسي

وانتهى الاجتماع بإقرار النظام الأساسي، بعد تعديلات طفيفة عليه. وقد حرصوا في نظامهم الأساسي على: أن تكون هيئتهم هيئة خيرية مخضبة، كل همها عمل الخير، وليست هيئة تشييرية أو دعوية في أساسها، وإن كان الدافع الأول من إنشائها هو الحملة التنصيرية الكبرى على المسلمين. كما حرصوا على أن تُبعد الصبغة السياسية والجهادية عن الهيئة، ضمانيًا لحسن أدائها لعملها بعيدًا عن المؤثرات السياسية وتياراتها المتناقضة. وهو ما يعرضها لخصومات وصراعات تضرها ولا تنفعها.^٣

المسألة الثامنة عشرة: اختيار رئيس الهيئة ونائبه والأمين العام

وكان على المجتمعين أن ينتخبوا بالاقتراع الحر: مجلسًا للإدارة من (٢١) شخصًا، وقد اجتمع المجلس عقب اختياره في جلسة إدارية، ليختاروا الرئيس ونائبه وأمينًا عامًا وأمين الصندوق، وقد اختار المجلس بالإجماع الشيخ يوسف الحجّي رئيسًا عامًا للهيئة، واختار نائبًا لها: الشيخ صالح الحصين، وهو شخصية سعودية معروفة، واختار أمينًا عامًا: الشيخ عيسى بن محمد آل خليفة، واختار أمينًا للمال: الشيخ أحمد البزيع ياسين من الكويت.^٤

١ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٤٠٠ - ٤٠١

٢ المرجع السابق، ص ٤٠٢

٣ المرجع السابق، ص ٤٠٣

٤ المرجع السابق، ص ٤٠٥

المسألة التاسعة عشرة: اللجنة التنفيذية

كلما اختار لجنة تنفيذية من الأعضاء تكون أقدر على الاجتماع في مدة أقرب من مدة المجلس، وكان الشيخ القرضاوي ممن اختيروا لمجلس الإدارة، ولجنة التنفيذ. كما اختير للمجلس من قطر: فضيلة الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري رحمه الله.^١

المسألة العشرون: وفد الهيئة إلى أمراء دول الخليج

وقد اتفقوا على أن يمرّ وفد يمثل الهيئة بأمراء دول الخليج وملوكها، ويشرح لهم أهدافها وفكرتها، ويطلب منهم المعونة والتأييد الماديّ والمعنوي لها. وكان الوفد يتكوّن من رئيس الهيئة الشيخ يوسف الحجّي، ومن الأستاذ الشيخ يوسف القرضاوي حفظه الله وأطال الله عمره وحياته الطيبة، ومن الشيخ عبد الله الأنصاري رحمه الله، ومن الشيخ عبد الله المطوع «أبي بدر» رحمه الله. وقد مرّوا بأمير قطر الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني، «وقد كان الشيخ القرضاوي قد حدّثه من قبل عن الهيئة» فأحسن استقبالهم، وتجاوب معهم، وأمر بفتح حساب في مصرف قطر الإسلاميّ للهيئة. كما مرّ الوفد بدولة البحرين، ولقي أميرها عيسى بن سليمان آل خليفة، الذي رحّب بهم كلّ الترحيب، وقال: البلد بلدكم، ونحن معكم. وقدم الوفد طلباً لزيارة دولة الإمارات العربيّة المتّحدة ففوجئوا باعتذارهم عن عدم استقبالهم في الظروف الراهنة.

أما عُمان، فلم تردّ عليهم، لا بالإيجاب، ولا بالسلب. وكذلك المملكة العربيّة السعوديّة لم تردّ عليهم.^٢

المسألة الحادية والعشرون: نظرة رياضية

وهذا الموقف من الأنظمة الحاكمة جعل الشيخ القرضاوي يستشعر أن الأمر ليس كما كان يتوقعه، حين قال: إن الألف مليون دولار يمكن أن تجمع من أكثر من ألف مليون شخص، على أساس متوسط دولار لكلّ فرد.

وقد نظر الشيخ القرضاوي في الأمر يوماً نظرة رياضية، فقال: يمكننا أن نجتمع الألف مليون بوحدة من هذه الطرق.

(١٠٠٠) ألف فرد، يدفع كلّ واحد (١٠٠٠٠٠٠) مليون دولار، فتكون النتيجة = ١٠٠٠٠٠٠٠٠ ألف مليون.

أو (١٠٠٠٠٠) عشرة آلاف فرد، يدفع كلّ واحد (١٠٠٠٠٠) مائة ألف دولار، فتكون النتيجة = ١٠٠٠٠٠٠٠٠ ألف مليون.

أو (١٠٠٠٠٠) مائة ألف فرد، يدفع كلّ واحد (١٠٠٠٠) عشرة آلاف دولار، فتكون النتيجة = ١٠٠٠٠٠٠٠٠ ألف مليون.

أو (١٠٠٠٠٠٠٠) مليون فرد، يدفع كلّ واحد (١٠٠٠) ألف دولار، فتكون النتيجة = ١٠٠٠٠٠٠٠٠ ألف مليون.

أو (١٠٠٠٠٠٠٠٠) عشرة ملايين فرد، يدفع كلّ واحد (١٠٠) مائة دولار، فتكون النتيجة = ١٠٠٠٠٠٠٠٠ ألف مليون.

أو (١٠٠٠٠٠٠٠٠٠) مائة مليون فرد، يدفع كلّ واحد (١٠) عشرة دولارات، فتكون النتيجة = ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠ ألف مليون.

أو (١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠) ألف مليون فرد، يدفع كلّ واحد (١) دولارًا واحدًا، فتكون النتيجة = ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ ألف مليون.^٣

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٤٠٥

٢ المرجع السابق، ص ٤٠٥ - ٤٠٦

٣ المرجع السابق، ص ٤٠٧ - ٤٠٨

المسألة الثانية والعشرون: أنشطة الهيئة المختلفة

أثبتت الهيئة وجودها بأنشطتها المختلفة عن طريق ما يدفع إليها من الزكوات والصدقات والتبرعات المخصصة لبناء مساجد، أو مدارس، أو دور أيتام، أو طبع مصاحف، أو حفر آبار، أو نشر كتب، أو إنشاء مراكز للدعوة، وكلها أنشطة مهمة تبرع بها أهل الخير، ممن وثقوا بإدارة الهيئة وأجهزتها في إنفاق هذه الأموال بأمانة وكفاءة.

وقد كان الشيخ يوسف الحجّي يأبى أن يأخذ من المتبرعين أي مبلغ مقابل الإدارة، ويرى أن هذا هو واجب الهيئة، لولا أن ضغطنا عليه، وقلنا إن هذا يقوّي الهيئة، وهو من حقّها، وهو لا يأخذ شيئاً لنفسه، بل يعمل محتسباً في خدمة الهيئة من الصباح الباكر حتّى المساء المتأخّر جزاء الله خيرًا. وقد أجاز الشرع الحكيم للعاملين على الزكاة أن يأخذوا أجرهم منها. فلماذا تتوّع الهيئة عن أخذ أجرها، وهو في النهاية مصروف للخير وللدعوة وللفقراء والمحتاجين؟^١

المطلب الرابع عشر: ملتقى الفكر الإسلاميّ العشرون سنة ١٩٨٦م في مدينة «سطيف» عن الإسلام والعلوم الإنسانيّة،

وفيه مسألة، وهي:

زيارة جامعة الأمير عبد القادر

لم يحضر الشيخ القرضاوي ملتقى الفكر الإسلاميّ التاسع عشر الذي عقد في سنة ١٩٨٥م بسبب رحلته العلاجيّة إلى ألمانيا، ولكنه عوّض ذلك بالاستجابة لدعوة في أثناء العام الدراسيّ، في فصل الشتاء لزيارة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميّة في مدينة قسنطينة، والتي كان الشيخ محمّد الغزالي يعمل مستشارًا علميًا لها، ويرأس مجلسها العلميّ، وكان الأستاذ الدكتور عمار الطالبي أستاذ الفلسفة الإسلاميّة الذي عرفه الشيخ القرضاوي في ملتقيات الفكر السابقة، وقد بلغه أن الجوّ بينه وبين الشيخ الغزالي ليس على مايرام، والشيخ القرضاوي يكره هذا الأجواء التي يسود فيها الخلاف، وتكثر فيها الدسائس والشائيات ولا سيّما في الجوّ الإسلاميّ.

ولكن من حُسن حظّه، حين استجاب للدعوة، وهب إلى الجزائر العاصمة، ومنها إلى مدينة قسنطينة التي تحتضن الجامعة، كان الدكتور الطالبي قد نُقلَ منها، وانتدب لإدارتها أحد الأساتذة، هو الدكتور نور الدين.

ومن المصادفات الغريبة: أنه وجد الدراسة في الجامعة شبه معطلّة، لأن الطلاب مُضربون عن الدراسة، لأن لهم مطالب من الجامعة، أو من الدولة لم تتحقّق، ومع هذا ألقى الشيخ القرضاوي عددًا من المحاضرات تدعى إليها الطلاب وحرصوا على حضورها، على رغم إضرابهم. وبقي أيتامًا في قسنطينة التقى الشيخ القرضاوي فيها الطلاب في محاضرات عامّة، التقى بعضهم في لقاءات خاصّة، والتقى إدارة الجامعة وعددًا من أساتذتها. وسعدت سعادة خاصّة بلقاء الشيخ محمّد الغزالي رحمه الله، الذي تقرب إلى الله تعالى بحبّه والقرب منه، وما لقيه الشيخ القرضاوي قطُّ إلا استفاد منه.^٢

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٤٠٩.

٢ المرجع السابق، ص ٤١٨ - ٤١٩.

المطلب الخامس عشر: إلى ملتقى الفكر في سطيف

وعند وصولهم إلى «سطيف» ذهبوا إلى الفندق الذي يقيمون فيه، وخطبوا رحالهم وتركوا حقائبهم في حُجراتهم، ثم انطلقوا إلى الملتقى، الذي كان يمارس نشاطه في جلسته المسائية، وقبل أن يصل الشيخ القرضاوي إلى القاعة، حتى هزول إليه الوزير الأستاذ «بوعلام باقي»، وهو من قيادات ثورة التحرير. وكان رجلاً فاضلاً حكيماً، ومعه كبار المسعولين في وزارة الشؤون الدينية، وقالوا: «كنا في قلق شديد على عدم وصولك أي الشيخ القرضاوي في الموعد المحدد، والأدهى من ذلك أننا لم نعلم عنك أي شيء، فقد انقطعت الأخبار بيننا وبينك.» قال الشيخ القرضاوي: لقد حدثت أشياء كثيرة آخرتني عن موعدي، والحمد لله أني وصلت بعد جهدٍ شديد ومعاناة.^١

المطلب السادس عشر: مع مُنظمة الدعوة الإسلامية في الخرطوم

في سنة ١٩٨٠م أنشأ الإخوة العاملون للإسلام بالسودان الشقيق: مؤسسة تعني بالدعوة والعمل الخيري في المجتمعات الإسلامية، ولا سيّما إفريقيا، التي يغلب عليها الفقر والمرض والأمية، وتحاول أن تغزوها التيارات المختلفة من نصرانية وشيوعية.

وهذا المطلب يتضمن خمس مسائل، وهي:

المسألة الأولى: اختيار الشيخ القرضاوي عضواً في مجلس أمناء منظمة الدعوة

وقد تلقى الشيخ القرضاوي رسالة الأمانة العامة لمنظمة الدعوة الإسلامية بالخرطوم: أن المجلس قد اختاره عضواً بمجلس أمناء المنظمة، وأنهم يهتفون به - أو كما قالوا - يهتفون أنفسهم بانضمامه إلى المجلس، راجين أن ينتفعوا بتجربته الدعوية، وتجربته العلمية والعملية، في المضي بمسيرة المنظمة إلى الأمام.

وردّ الشيخ القرضاوي عليهم شاكرًا، راجيًا أن يكون عند حُسن ظنّهم، سائلاً الله تعالى أن يبارك في وقته، ويمدّه بتوفيقه وتأييده، مؤكّداً لهم أنه مؤمن بمهمة المنظمة الجليلة في العمل الخيري والعمل الدعوي.^٢

المسألة الثانية: أهداف المنظمة

وكان الإخوة في السودان قد أسسوا هذه المنظمة، لتسدّ بعض الثغرات في العمل الخيري والإنساني: في إطعام الجائع، وكسوة العاري، وإيواء المُشرّد، وتعليم الجاهل، ومداواة المريض، وغير ذلك من ألوان الخير، التي تفتقر إليها المجتمعات الإفريقية أكثر من غيرها، والتي انفردت بها الإرساليات التنصيرية من كاثوليكية وبروتستانتية، والتي تمدّها أوربا وأمريكا بالملايين، با بالمليارات. فكان لا بدّ أن يدخل المسلمون هذا الميدان ولا يدعوه لغيرهم ممن لا يريدون بعملهم مجرد فعل الخير، ولكن يريدون أن يفتنوا الناس عن دينهم، مستغلين فقر الناس وجهلهم وحاجتهم إلى كلّ شيء.^٣

المسألة الثالثة: حضور الشيخ القرضاوي إلى مجالس المنظمة

دأب الشيخ القرضاوي على حضور مجالس المنظمة ما وجد سبيلاً لذلك، ما لم يكن مرتبطاً بأمر آخر لا يمكنه الفكاك منه، وهذا هو الواجب على الإنسان أن يعمل حين تتعارض أمامه المصالح، أو الخيرات بعضها وبعض، وهو ما نسميه «فقه الموازنات»، وله أصل

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٤٣٧

٢ المرجع السابق، ص ٤٥٧

٣ المرجع السابق، ص ٤٥٧ - ٤٥٨

في الفقه وأصوله في باب «التعارض والترجيح». وكان المجلس يَعْقِدُ جلساته أول الأمر في الخرطوم، ثم رأى أن يَعْقِدَ جلساته - ما استطاع - في العواصم الإفريقيّة المختلفة، تعريفاً بالمنظمة من ناحية، وتعزفاً على واقع البلد الذي يَعْقِدُ فيه المجلس من ناحية أخرى.

وقد حضر الشيخ القرضاوي مجلسين مهمّين في بلدين إفريقيين: أحدهما: في «كمبالا» عاصمة أوغندا. والثاني: في «دار السلام» عاصمة تنزانيا.^١

المسألة الرابعة: اقتراح الشيخ القرضاوي إعداد الدعاة المؤهلين

وكان كثيراً ما يدّعي المشير لبعض الأمور، فَيُنَبِّئُ الشيخ القرضاوي لإدارة الجلسة. واقترح الشيخ القرضاوي في هذه الدورة اقتراحاً مُهِمّاً، وهو أن المنظمة تحمل اسم «الدعوة» منظمة الدعوة الإسلاميّة، ومع هذا لا تباشر الدعوة بطريقة مباشرة، لكن بواسطة العمل الخيريّ الذي يُمَهِّدُ لانتشار الدعوة، ويرى أنه غداً من المناسب أن تخوض المنظمة بحُجّة الدعوة بإعداد الدعاة المُؤَهَّلِينَ علمياً وفنّياً ولُغَوِيّاً، والمُدْرِيْنَ على التعامل مع الناس، وبيئتهم في مناطق شتّى حسب الأولويّة.^٢

المسألة الخامسة: استمارة كفالة داعية

واقترح الشيخ القرضاوي هنا: أن ينشئوا استمارة «كفالة داعية» كما عرف الناس «كفالة اليتيم» ووجد إقبالا من المسلمين، فينبغي أن يدخل هذا المصطلح الجديد «كفالة الداعية» ميدان العمل الخيريّ. ومثل هذا فليعمل العاملون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ووقع هذا الاقتراح موقع القبول من الأعضاء جميعاً، ورحبوا به، ويظنّ الشيخ القرضاوي بعد ذلك بدأ يدخل ميدان التطبيق.^٣

المطلب السابع عشر: ندوة (الصحة الإسلاميّة وهموم الوطن العربيّ) في عمّان^٤

في شتاء سنة ١٩٨٧م جاءت دعوة عند الشيخ القرضاوي من «منتدى الفكر العربيّ» بعمّان، الذي يرأسه ويوجّهه الأمير المثقّف الحسن بن طلال، ويشغل الأمانة العامة له في ذلك الوقت: الدكتور سعد الدين إبراهيم أستاذ علم الاجتماع، ومؤسس مركز ابن خلدون في القاهرة. وقد اتّصل به الدكتور سعد الدين، وألحّ على ضرورة حضوره، إذ إن الأمير الحسن حريص على مشاركته، وسيكون في الندوة عدد من الميعنين بالصحة في العالم العربيّ الإسلاميّ، وعدد من قادة الحركات الإسلاميّة.

وأكد الشيخ القرضاوي له أنه عازم على المشاركة، وقد يعدّ ورقة مطوّلة حول الموضوع المطروح، كما طلبوا منه، فقال: أرجوك أرسلها لنا بسرعة، لنطبعها ونوزّعها على الأعضاء. وقد حضر الشيخ القرضاوي الندوة، وقدم فيها ورقته، وناقشها الحضور، وهم صَفْوَةٌ من المهتمّين بالصحة في العالم العربيّ، منهم إسلاميون مثل: الدكتور حسن الترابي، والدكتور محمد عمارة، والدكتور اسحاق فرحان، والأستاذ كامل الشريف، ومنهم قوميون مثل: الدكتور فهد الفانك، ومنهم مسيحيون مثل: الدكتور وليم سليمان قلادة، القطبي المصريّ. كما شارك الشيخ القرضاوي بقوة في مناقشة الأوراق المقدّمة للندوة.^٥

١ القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٤٥٩

٢ المرجع السابق، ص ٤٦٤ - ٤٦٥

٣ المرجع السابق، ص ٤٦٥

٤ عمّان: عاصمة بلاد الأُرْدُنّ.

٥ القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، المرجع السابق، ج ٤، ص ٤٦٨

وفيه مسألة، وهي:

حديث خاص مع الأمير الحسن بن طلال:

وفي حوارهم المؤتمّر، شكر الأمير الحسن بن طلال على الشيخ القرضاوي شكرًا خاصًا، وتحدّث معه حديثًا خاصًا، وكان ممّا قاله له: 'لقد رأيت أن وجودك معنا كان مثمّرًا و متميّرًا، فأرجوك ألا تتعد كثيرًا عنّا.

قال الشيخ القرضاوي له: تعلم سيادتكم أي عضو في مؤسسة آل البيت، وأحضر إلى عمّان في مناسبة كثيرة.

قال: ولكيّ أريد أن تقترب منا في منتدانا هذا، فنحن لا نريد عُزُوبَةً مجافية للإسلام، ولا متبرئة منه.

قال الشيخ القرضاوي: إن العروبة الحقيقة لا تستغني عن الإسلام ولا تنفصل عنه، والشاعر المعروف محمود غنيم يقول:

إن العروبة لفظ إن نطقت به فالشرق والضاد والإسلام

والمصريّون، ومثلهم المغاربة أهل الشمال الإفريقيّ، لا يفرقون بين عروبة وإسلام، ولا بين عربيّ ومسلم. فإذا قال أحدهم: اللهم انصر العرب. تعني تمامًا: اللهم انصر الإسلام والمسلمين. قال: وهذا ما نريد أن نشيعه ونثبته، على أن يكون الإسلام الذي نتبناه هو الإسلام المستنير، الإسلام المتوازن، لا إسلام المتشدّدين الغلاة، الذين صوّروا الإسلام وكأنه غول مخيف أو وحش مفترس.

قال الشيخ القرضاوي: بل إسلام الوسطيّة والاعتدال، الذي لا غلو فيه ولا تفريط، لا طغيان ولا إحصار، كما أشار القرآن إلى ذلك في قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ [٧]﴾ ﴿أَلَا تَطَعُوا فِي الْمِيزَانِ [٨]﴾ ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ [٩]﴾^١. وهذا ما أؤمن به وأدعو إليه وأحرص عليه. قال: ولهذا نريد قريك منا، لتفيدنا في بيان هذا المنهج وشرحه. قال الشيخ القرضاوي: لن تأخّر عنكم في كلّ ما أراه يخدم هذا المنهج، ويؤيّد هذا التيار.^٢

المطلب الثامن عشر: زيارة ألمانيا صيف سنة ١٩٨٧م بسعي الدكتور زقزوق، وهذا المطلب يحتوي على أربع مسائل، وهي:

المسألة الأولى: دعوة موجهة من الدكتور عبد الجواد فلاتوري

في ربيع سنة ١٩٨٧م اتّصل بـ الشيخ القرضاوي صديقه الأستاذ الدكتور محمود حمدي زقزوق عميد كليّة أصول الدين بجامعة الأزهر حينئذ، وقد عمل معه عدّة سنوات في قطر وكيلاً لكلّيّة الشريعة، و بينهما صلة مودّة. وقد طلب من الشيخ القرضاوي الدكتور زقزوق أن يستجيب لدعوة لزيارة ألمانيا موجهة من الدكتور عبد الجواد فلاتوري، الذي يحمل الجنسيّة الألمانيّة، وهو إيراني الأصل، شيعي المذهب، ولكنه يعيش في ألمانيا بوجدان المسلم لا غير.

وقد حاول القرضاوي أن يعتذر للدكتور زقزوق في أوّل الأمر، ولكنه ألحّ عليه أن يتغلّب على كلّ الظروف، وأن المدعوّين فيهم فضيلة الشيخ محمد الغزالي، وفضيلة الدكتور السعدي فرهود مدير جامعة الأزهر سابقًا، والدكتور أبو حطب أستاذ اللغات في جامعة الأزهر، وما زال به، حتّى أخذ منه وعدًا بل موثّقًا بأن يكون ضمن هذا الوفد. وفي الوقت المحدّد في غُطلة الصيف، سافروا هم الخمسة من القاهرة إلى فرانكفورت، ومنها السيّارات إلى مدينة «كولن» التي يقيم فيها الأستاذ الفلاتوري.^٣

١ القرآن الكريم، الرحمن (٥٥)، الآية [٧ - ٩].

٢ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٤٦٨ - ٤٧٠ (ملخصًا)

٣ المرجع السابق، ص ٤٩٣

المسألة الثانية: الأغلط حول الإسلام في الكتب الدراسية

ونزلوا بأحد الفنادق هناك، وفي اليوم التالي، أرادوا الفلاتوري نماذج العمل الكبير الذي قام به، وهو عمل جدير بالتنويه والتقدير. فقد تتبعت الكتب الدراسية في ألمانيا، في مختلف المراحل الدراسية، وما تحمله من أغلط حول الإسلام ورسالته ونبيّه وقرآنه وحضارته وتاريخه، ووجد في هذه الكتب المقرّر على الطلاب: ألوف الأغلط، التي تمتلئ بها هذه الكتب.

المهمّ أنه عرض مشروعه على المسؤولين عن التعليم في ألمانيا، فرحبوا به كثيرًا، وأبدوا استعدادهم لتصحيح هذه الأخطاء، ووضع الصواب، مكانها، وأن سبب هذه الأغلط هو ضعف المعلومات لدى الكاتبين، وربما كانت مصادرهم نفسها غير مأمونة. وأكثر من ذلك: أنه بعد نجاح مشروع في ألمانيا، بدأ يتّجه إلى نفس العمل في بلاد أوربيّة أخرى، بدأها بالكتب الدراسية في بريطانيا والحقيقة أن عمل الأستاذ الفلاتوري: نموذج يحتذي في خدمة الثقافة الإسلاميّة، والفكر الإسلاميّ، وبالتالي: خدمة الإسلام نفسه ورسالته. فهذا عمل علميّ كبير، ويتمّ في صمت وهدوء، بعيدًا عن الأضواء والإعلان والضجيج، وهو عمل استغرق سنين وجودًا كبيرًا، بعد تخطيط وصبر طويل، فأتى أكله، وأعطى ثمراته. فليت هم يتعلّمون من هذا الدرس النموذجي العلميّ، الذي يفترض أن تنتفع بثمراته أمة كبرى مثل الأمة الألمانيّة. وبهذا تخدم الرسالات والثقافات والحضارات.¹

المسألة الثالثة: لقاء مع المستشرقين ورجال الدين المسيحيّ

ومن ثمرات هذه الرحلة: هذا اللقاء الذي ربّته الأستاذ الفلاتوري مع عدد من المستشرقين ورجال الدين النصارى، حيث التقوهم في يوم عمل مستمرّ، وتناولوا فيه الغداء معًا، وقد وجهوا إليهم عددًا من الأسئلة الشائكة حول موضوعات إسلاميّة مختلفة، منها: حول الحرّيات وعقوبة الرّدّة ونحوها، وحول الجهاد والتجديد، وحول الأقليات الدينيّة، وفرض الجزية داخل الدولة الإسلاميّة، أو المجتمع الإسلاميّ، وحول الجهاد والإسلام... إلى غير ذلك من القضايا التي يخدم فيها النزاع بين المسلمين وغيرهم، وتختلف فيها الأجوبة عند الإسلاميّين أنفسهم.

وقد وجدوا عندهم أجوبة مقتعة - إلى حدّ كبير، حول هذه التساؤلات، وهي أجوبة تعتمد على الأصول الشرعيّة مع النظر إلى العصر وتياراته ومشكلاته من ناحية أخرى. ولقد قرب هذا اللقاء بين الطرفين إلى حدّ كبير، وليس هناك أنفع من الحوار المباشر، الذي يلتقي الناس فيه وجهًا لوجه. وقد تمّى الجميع لو تكرّر مثل هذا اللقاء في أوربا أو في البلاد العربيّة.²

المسألة الرابعة: أمران يتعلّقان بـ الشيخ القرضاوي

الأول: أنهم تحدّثوا حديثًا طويلًا عن الأصوليّة والأصوليّين، وتعرضّ الشيخ القرضاوي لشرح معنى الأصوليّة، وهي تعني: العودة إلى الأصول والجذور، ونحن عندنا أصول الدين، وأصول الفقه، وينسب إليهما فيقال: الأصوليّة. وقد قال السفير: إذن أنت تعتبر نفسك أصوليًا؟ قال الشيخ القرضاوي: بل عريقًا في الأصوليّة. ومن حكمنا المأثورة: إنما يحرم الوصول، من ضيّع الأصول، وما دامت الأصوليّة هي التمسك بالجذور، فاللهم أحييني أصوليًا، وأمّتي أصوليًا، واحشرنني في رمزة الأصوليّين.

الأمر الثاني: كلمة قالها الشيخ محمّد الغزالي رحمه الله أمام الإخوة الضيوف، فأحرجه الشيخ القرضاوي بها. وذلك حين أحاب عن بعض الأسئلة المطروحة، ممّا سرّ الشيخ وأثلج صدره. فقد قال الشيخ الغزالي في صراحة: 'كان يوسف فيما مضى تلميذًا لي، أمّا اليوم فأنا تلميذه.' قال الشيخ القرضاوي: يامولانا، أنا لا أزال وسأظلّ تلميذك اليوم وغداً.³

١ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٤٩٣ - ٤٩٤

٢ المرجع السابق، ص ٤٩٤ - ٤٩٥

٣ المرجع السابق، ص ٤٩٥ - ٤٩٦

المطلب التاسع عشر: ندوة قضايا المستقبل الإسلامي بالجزائر، وهذا المطلب يتناول أربع مسائل، وبيانها فيما يلي:

المسألة الأولى: مركز دراسات المستقبل الإسلامي

في شهر مايو سنة ١٩٩٠ انعقدت بالجزائر ندوة حول «قضايا المستقبل الإسلامي» دعا إليها الكاتب الصحفي المعروف محمد الهاشمي الحامدي، الذي أسس في لندن مع جماعة من المفكرين والمهتمين «مركز دراسات المستقبل الإسلامي» بالتعاون مع معهد الدراسات الإستراتيجية بالجزائر، الذي كان يديره الأستاذ محمد يزيد. أخبر الحامدي الشيخ القرضاوي عن مركزه في لندن، وعن نيته في عقد الندوة، وقال: «إني سأدعو إليها عددًا من ممن تحبهم ويحبوك من المفكرين الإسلاميين^١ - وغير الإسلاميين أيضًا - من مصر والسودان وبلاد الشام والمغرب العربي. ولكي يغريني بالحضور، قال: إن الندوة ستقام بالبلد الذي تحبه ويحبك: الجزائر.

وطلب الحامدي إلى أن يكون بحثه أي الشيخ القرضاوي في هذه الندوة «أولويات الحركة الإسلامية في العقود الثلاثة القادمة» لما رآه شديد الاهتمام بما أسماه «فقه الأولويات» الذي ركز عليه، وكرّر الحديث عنه في السنوات الأخيرة، ثم ألّف فيه كتابًا فيه بعد ذلك. وهو جزء من اهتمامه بترشيد الصحوة الإسلامية، وتسديد الحركة الإسلامية فهذا همّه الأكبر، وما أعظمه وأثقله من همّ يدعو الله أن يوفقه ويعينه على القيام بحقه، فلا حول ولا قوة إلا بالله به. وهو المستعان في كلّ عظمة.^١

المسألة الثانية: أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة

ولم يسعه إلا أن يستجيب لهذه الدعوة، ويعدّ بحثه الذي جعل عنوانه «أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة». ولم يشأ الشيخ القرضاوي أن يتقيّد بـ «العقود الثلاثة» كما طلب منه، لأنه لا يستريح لمثل هذا التحديد الصارم، في هذا الزمن السريع التغيير، الحافل بالمفاجآت الكبيرة.

وما كتبه الشيخ القرضاوي في هذا البحث ليس جديدًا كلّ الجدة، إنما هو امتداد وتكملة للاتجاه النقدي البناء، الذي بدأه من قبل، في «الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا» و «الحلّ الإسلامي فريضة وضرورة» و «ظاهرة الغلو في التكفير» و «أين الخلل» و «الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف» و «ظاهرة الصحوة الإسلامية وهوم الوطن العربي الإسلامي» وغيرها.^٢

المسألة الثالثة: فكرة إنشاء اتحاد للكتاب المسلمين

جدير بالذكر أن في هذه الندوة: تقدّم الشيخ القرضاوي في خواتيم الندوة بمقترح مهمّ للمشاركين، وهو فكرة: إنشاء اتحاد للكتاب المسلمين. فكما أن هناك اتّحادات للكتاب المحليين، اتّحادًا للكتاب العرب، أن يكون هناك اتحاد لأرباب القلم والفكر من المسلمين خارج المحيط العربيّ وداخله.

ولاقى هذا الاقتراح القبول من الحضور بصفة عامّة، وإن كان الدكتور محمد عمارة، أبدى ملاحظة قائلاً: «إن بعضنا عضو في اتحاد الكتاب العرب، وإن مثل هذا الاتّحاد قد يتعارض مع ذلك». وقال الشيخ القرضاوي له: «نحن نقول في تراثنا: لا تعارض بين الخاص والعام، فكما أن بعضنا عضو في اتحاد قُطريّ في بلده^٣ وهو كذلك عضو في اتحاد عربيّ، ولم يجد غضاضة ولا تناقضًا في ذلك، كذلك لا تعارض بين اتّحاد الكُتّاب العرب، واتّحاد على مستوى العالم الإسلاميّ، بل على مستوى المسلمين في العالم كلّه، والمعروف أن العرب يكوّنون حواليّ خمس المسلمين.^٤

١ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٦١٣ - ٦١٤

٢ المرجع السابق، ص ٦١٤

وقد تحدّثت الصحف الجزائرية بصورة عامّة عن الندوة، وعن محاضرة الشيخ القرضاوي، ثم عن هذا الاقتراح الأخير الذي أعطته اهتماماً خاصاً. وقد أرسل إليه الدكتور الهاشمي أخيراً ما نشرته مجلّة «الوحدة الجزائرية»^١ تحت عنوان: 'اقتراح الدكتور القرضاوي لإنشاء اتحاد المفكرين الإسلاميين'.

وقد أوردت المجلّة تعليق «عزي عبد الرحمن» من معهد علوم الإعلام والاتصال على هذا الاقتراح، حيث قال: المبادرة التي قدّمها الأستاذ يوسف القرضاوي مبادرة جيّدة وإيجابية؛ لأننا حقيقة نلاحظ أن تطوّر الفكر الإسلامي قد ظهر بصفة متقطعة ومجزأة، لم يحدث هناك تلاقح بين هذا الفكر، وأصبح كلّ فكر ينمو وفق خصوصيات معيّنة، لم يحدث أن وقع انسجام خاص بتطوّر الفكر الإسلامي ونقل الخبرة المحوذة في كلّ المجتمعات الإسلامية...، يعني أنه لم تكن هناك بعض المحاولات مثل ما قام به مركز الدراسات الإسلامية بلندن، والمركز العالمي للكتاب الإسلامي ومراكز أخرى في المشرق العرب... وكلّما كانت هناك جهود نحو التوحيد «أي توحيد هذا التراكم» كلّما كانت هذه الجهود مُشَتّتة مبعثرة كلّما أدّى ذلك إلى الإطالة أو إلى عدم توحيد هذه الجهود.

وقد أوردت المجلّة أيضاً تعليق الدكتور «أبو عمران الشيخ» حيث قال: أنا أرحّب بالفكرة حتّى أميّز بين المسلم العالم والمسلم الأمي، والآن كلّ واحد يفتي ويقول ما يشاء. لماذا اتحاد للمفكرين أو العلماء الإسلاميين فقط؟ حتّى نُعزّل المستويات العلمية ونميّز بين العلوم... ولا يدخل في الاتحاد إلا العلماء المسلمون، والمفكرون الذين اشتهروا بمؤلفاتهم وتدخلاتهم وآرائهم ومقالاتهم في الندوات العلمية وغيرها.

وأوردت المجلّة أيضاً تعليقاً للأستاذ «عبد الرزاق قسوم» من معهد الفلسفة، الذي دعا إلى الترتيب، حيث قال: ليس المشكل في إقامة أو عدم إقامة اتحاد أو تنظيم للمفكرين الإسلاميين. العالم الإسلامي يعجّ الآن، بل يبالغ في التنظيمات، وهي كلّها قوالب جاهزة، لكن أفرغ الشيخ القرضاوي من محتواها الحقيقي. هو طبعاً أي تنظيم كان للمتقنين، للكتاب، للمفكرين في الحقل الإسلامي، ولكن شرط أن يصاحب هذا الجانب، الجانب التطبيقيّ والوسائل التي تمكّن من العمل، والوعي بخطورة الواقع الذي نعيش فيه. هو يخشى أن يكون ويبقى هذا على شكل محتّطات. ومع ذلك يدعو إليه مع التأمل والترتّب في إعطاء المقوّمات الحقيقية للبقاء.^٢

المسألة الرابعة: تحمّس الشاوي والعوا لفكرة الاتحاد

وكان من المتحمّسين لفكرة هذا الاتحاد: شيخ القانونيين العرب والمسلمين الأستاذ الدكتور توفيق الشاوي رحمه الله، والأستاذ الدكتور محمّد سليم العوا، اللذان أخذوا على عاتقهما، صياغة الفكرة صياغة قانونية. على أن يكون مقرّ هذا الاتحاد هو: الجزائر، التي رحّب المسؤولون فيها بالفكرة، وباستضافة المؤسسة التي تنشأ لخدمتها. وشاء الله تعالى أن تتغيّر الأمور في الجزائر بعد ذلك، وتدخل في دوامة من الصراع الدمويّ، الذي دميت له قلوب المسلمين، قبل أن تدمع أعينهم. وظلّ ذلك إلى سنوات، ولم يكونوا يملكون أمامها إلا الحوقلة والاسترجاع. واختفت فكرة الاتحاد، ولكنها لم تمت في نفسيّ، بل اختزنتها، حتّى ظهرت فكرة أخرى، لتجميع العقول المسلمة في الأمة هي فكرة «الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين» الذي ظلّلت عدّة سنوات، والشيخ القرضاوي يدعو إليه من يعرف من علماء الأمة، وهو ليس بديلاً عن فكرة اتحاد كتّاب المسلمين، فلا يُعني أحدهما عن الآخر، فليس كلّ كاتب عالمياً، ولا كلّ عالم كاتباً، فبينهما - كما يقول علماء المنطق - عموم خصوص من وجه... حقّق الله به ذلك الأمل المنشود، في شكلٍ جديدٍ، وتحت عنوان جديد.^٣

١ مجلّة «الوحدة الجزائرية»، عددها ٢٤، مايو الموافق سنة ١٩٩٠م، تحت عنوان: 'اقتراح الدكتور القرضاوي لإنشاء اتحاد المفكرين الإسلاميين'.

٢ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٦١٦ - ٦١٧

٣ المرجع السابق، ص ٦١٧ - ٦١٨

المطلب العشرون: ندوة عن المستقبل الإسلامي وقضاياها

في شهر مايو سنة ١٩٩٠ انعقدت بالجزائر ندوة حول «قضايا المستقبل الإسلامي» دعا إليها الكاتب الصحفي المعروف محمد الهاشمي الحامدي، الذي أسس في لندن مع جماعة من المفكرين والمهتمين «مركز دراسات المستقبل الإسلامي» بالتعاون مع معهد الدراسات الإستراتيجية بالجزائر.

وفي هذه المرحلة التقى الشيخ القرضاوي الصحفي التونسي المعروف: الهاشمي الحامدي لأول مرة، الذي كان عضواً نشيطاً في «حزب النهضة» الذي يتبنى الاتجاه الإسلامي، ويقف في وجه التيارات العلمانية «اللائكية» ليبرالية وماركسيّة. وفي أثناء لقاء الشيخ القرضاوي، حدث مع الشيخ القرضاوي عن نيته لإقامة ندوة فكرة إسلامية عالمية مهمة، وتحدث عن المستقبل الإسلامي وقضاياها. رحّب الشيخ بالفكرة، وقال له: هذا أمر غاية الأهمية اليوم، لأن غالب الإسلاميين يعيشون في الماضي، وربما التفت بعضهم إلى الحاضر، ولكنهم في الجملة غائبون عن المستقبل. مع أن لدينا في القرآن والسنة مؤشرات تقودنا إلى الانتباه للمستقبل، كما نجد في القرآن المكي حديثاً عن المستقبل في آيات مختلفة، كقوله تعالى:

﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيِّئَاتُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [٣]. ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [٤٥]. ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [٥٣].^٢

قال الحامدي: لقد سُرّني تجاوبك مع الفكرة، وتشجيعك لها.^٣ قال الشيخ القرضاوي: أنا أؤمن بأنه لا خلاص لأمتنا ما لم نخرج من التقوقع على الماضي، ونتعلم التفكير المستقبلي، القائم على العلم الدراسة والإحصاء لا على الأُخيلة والأوهام. المهم أن تتكوّن عندنا عقلية استشراف المستقبل.

قال الهاشمي للشيخ القرضاوي: لهذا تنعقد هذه الدورة، وستكون في البلد الذي تحبّه ويحبّك: الجزائر، وسندعو إليه كثيراً من إخوانك وأصدقائك من المفكرين الذين تعرفه: طارق البشري وعمارة وهويدي والعوّاد وعادل حسين، والترابي والغنوشي والدجاني ومنير شفيق، وغيرهم. وعلى رأس الجميع: الشيخ الغزالي. وأنا أطلب منك أن تكتب في موضوع أنت مشغول به، ورأيتك مبثوثاً في محاضرتك، وفي كتبك الذي سمّيته «فقه الأولويات» فأريدك أن تتحدّث عن «أولويات الحركة الإسلامية في العقود الثلاثة القادمة». قال الشيخ القرضاوي: على بركة الله، وسأجتهد في كتابة هذا البحث، وبالله التوفيق.^٤

١ القرآن الكريم، الروم (٣٠)، الآية [٣].

٢ القرآن الكريم، القمر (٥٤)، الآية [٤٥].

٣ القرآن الكريم، فصلت (٤١)، الآية [٥٣].

٤ أَلْقُرْآؤِ، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٦٢٠ - ٦٢١

المطلب الحادي والعشرون: تأسيس المؤتمر القومي الإسلامي

وهذا المطلب يشتمل على خمس مسائل، وتفصيلها كالآتي:

المسألة الأولى: مواجهة دعاة التطبيع

في سنة ١٩٩٤م نادى الإسلاميون والقوميون «العروبيون» إلى ضرورة التلاقي بينهما، لتأسيس كيان مشترك يجمع الفريقين في جبهة واحدة، لمواجهة دعاة «التطبيع» مع العدو الصهيوني، وتدوين الحواجز - ولا سيما الحواجز النفسية والثقافية - بينه وبين أمة العرب والإسلام.^١

المسألة الثانية: ضرورة التلاقي بين الإسلاميين والقوميين

وكانت القوى الوطنية والقومية والإسلامية مبعثرة موزعة الجهود، مختلفة المواقف والمناهج، ومتصارعة القيادات، وإن كان هدف الجميع واحدًا، بالنسبة لقضية الأمة الجهرية، وهي قضية فلسطين، التي لا يختلف اثنان منهم في وجوب تحرير أرضها، وجوبًا دينيًا، ووجوبًا قوميًا، ووجوبًا إنسانيًا. لقد انقضى ذلك العهد الذي ظل فيه الفريقان يهاجم كلاهما الآخر، وبخاصة الغلاة من الطرفين. فالإسلاميون يتهمون القوميين - خصوصًا غلاتهم - بأنهم لا يؤمنون بالدين عامة، ولا بالإسلام خاصة، ويعتبرون القومية العربية كأنها هي نبوة جديدة، بديلة عن نبوة محمد، وأنهم يسوون بين أبي جهل وعمر بن الخطاب، وبين حمالة الحطب وفاطمة بنت محمد، وبعضهم سمى ابنه: «هلبًا» لينادي: يا أبا هلب! إلى آخر ما قيل.^٢

المسألة الثالثة: نشأة القومية العربية

ومن المعروف أن القومية وعاء يمكن أن يملأ بأي أيديولوجية، يمينية أو يسارية، أو إسلامية، ولكن القومية العربية نشأت نشأة علمانية مفرغة من الالتزام بالدين، أي دين. هكذا دعا إليها «أبو القومية» ساطع الحصري في كتبه ورسائله المختلفة، وهكذا دعا إليها حزب البعث منذ ميلاده في سوريا على يد ميشيل عفلق ورفاقه وأساتذته، وانتقل إلى العراق متضمنًا هذا الموقف المعادي من الذين، مع منظر القومية أقاموها على اللغة والتاريخ، لا على العرق ولا على الأرض. وهذان العنصران - بالنسبة للقومية العربية - يربطانها ربطًا متينًا بالإسلام، إذ لا معنى للغة العربية بغير القرآن الذي حفظها وخلدها ووحدها، ومعنى لتاريخ العرب بغير الإسلام، فهو صانع مجد العرب، وهو الذي جعل لهم رسالة في العالمين.

وقد كان عفلق يُشيدُ بمحمد بن عبد الله باعتباره عبقرية عربية، لا باعتباره صاحب رسالة ربانية لهداية العالم وإخراجه من الظلمات إلى النور. والقوميون يتهمون الإسلاميين: بأنهم لا يجعلون للعروبة مزية في فكرهم ولا للعرب مكانة في برنامجهم، مع أن النبي محمدًا منهم، والقرآن نزل بلغتهم، والكعبة البيت الحرام في أرضهم، وكذلك المسجد النبوي والمسجد الأقصى ... وكذلك حملة رسالة الإسلام الأولون الذين نشروا الإسلام في العالم منهم.

وقد ظلَّ هذا التباين بل التصارع نحو أربعة عقود، منذ الخمسينات حتى أوائل التسعينات ... وبعد تبني عبد الناصر للقومية العربية، ودخوله مع الإسلاميين في صراع سقط في شهداء: ازدادت الفجوة بين التيارين.^٣

١ أَلْفَرَضَاوي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٧٤٤

٢ المرجع السابق، ص ٧٤٥

٣ المرجع السابق، ص ٧٤٦

المسألة الرابعة: التركيز على القواسم المشتركة

وبعد لقاءات ومشاورات من حكماء القيادتين: رئي أن تتكوّن من كلّ فريق لجنة تقدّم ورقة تتضمّن رؤيته في معالجة الموقف، متضمّنة ضرورة التلاحم بين القيادتين، مركّزة على القواسم المشتركة بينهما، مجتهدة في تعميقها، مُجَنّثة مواضع الخلاف، ومثيرات النزاع، فعند الشدائد تذهب الأحقاد، والمصائب يجتمع المصابين، والحن الكبار تجمع ولا تفرّق، وأيّ محنة أكثر من محاولة الصهيونيّة وأن تبتلع فلسطيننا، وأن تتحدّي أمتنا، وأن تنتصر على ثلاثمائة مليون من العرب، وراهم ألف مليون من المسلمين أو تزيد؟!!

وتكوّنت اللجنة الإسلاميّة من نخبة من مفكّريهم المرموقين: الأستاذ الدكتور الشيخ يوسف القرضاوي، والمستشار طارق البشري، والدكتور محمّد عمارة، ود. محمّد سليم العوا، والأستاذ فهمي هويدي، وانضمّ إليهم د. أحمد صدقي الدجاني، الذي شارك أيضًا مع التيّار القوميّ، فكان هو همزة الوصل بين الفريقين. كما تكوّنت لجنة ماثلة من النخبة المعتدلة من مفكّري القوميّين المرموقين. وأعدّوا ورقتهم، كما أعدّ الإسلاميون ورقتهم.

اتفق الفريقان على أن يلتقيا في صورة مؤتمر عام، يقدم فيه كلّ منهما ورقته، لتناقش بحريّة وصراحة... وبعد ما يقرّر المؤتمر من الحذف أو التعديل أو التحسين، أو الإضافة، ينبثق من هذا اللقاء كيّان عام يضمّ القوميّين والإسلاميّين معًا في هذه المرحلة العصبية التي تمرّ بها أمتنا.^١

ولم توجد - للأسف - دولة عربيّة ترحّب بالفريقين غير واحدة العرب: لبنان، الذي وسعت أرضه، ووسع صدره هذا المؤتمر التاريخيّ. وفي المؤتمر قدّم الدكتور محمد سليم العوا ورقة الإسلاميين. وقدّم الدكتور أحمد صدقي الدجاني ورقة القوميّين.

المسألة الخامسة: كلمة الشيخ القرضاوي في المؤتمر في شرعيّة هذا التلاحم

وتحدّث عدد من الإسلاميين والقوميّين، منهم: الشيخ يوسف القرضاوي، فقد ألقى كلمة في تأصيل شرعيّة هذا التلاحم، وأنه فريضة وضرورة، فريضة يوجبها الدين، وضرورة يحتمها الواقع، إذ لم يتمّ هذا التلاقي ويتأسس هذا الكيان، فليس هناك غير الطوفان.

لقد انتهى عصر الصراع بين الفريقين، الذي كان يقوده الغلاة من الطرفين. وبدأ عصر جديد، عصر التقارب والتواصل والتضامن، التي يوجبها علينا الإسلام والعروبة والمصلحة وطبيعة المرحلة، أي عصر أهل الحكمة والاعتدال. وتحدّث علامة الشيعة الشيخ محمّد حسن فضل الله، وألقى كلمة حول هذا المعنى. ولقد انبثق عن هذا التجمّع الكبير: تأسيس المؤتمر القوميّ الإسلاميّ، وأجمع المؤتمرون على اختيار المفكّر المناضل المعتدل الدكتور أحمد صدقي الدجاني رحمه الله منسقًا عامًا للمؤتمر، وكان موضع ارتياح الجميع. وكان من أعظم إنجازات هذا المؤتمر بعد فترة: إنشاء مؤسسة القدس الدولية.^٢

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٧٤٧ - ٧٤٨

٢ المرجع السابق، ص ٧٤٨ - ٧٤٩

المطلب الثاني والعشرون: دعوات مُكثّفة إلى مؤتمرات ومحاضرات في أنحاء العالم

كثرة الدعوات من الجامعات والمؤسسات العلميّة:

كان عقدا الثمانينات والتسعينات من أحصب العقود في نشاط الشيخ القرضاوي العلميّ والدعويّ؛ فقد انمالت عليه الدعوات من الشرق والغرب، والشمال والجنوب، لإلقاء محاضرات، أو المشاركة في مؤتمرات أو ندوات، عربيّة إسلاميّة وعالميّة. كانت الدعوات تأتي من الجامعات، والمراكز الثقافيّة، والمعاهد العلميّة والفكرية، والمؤسسات العلميّة والتربويّة والأكاديميّة، شعبيّة ورسميّة. كان الشيخ القرضاوي يعتذر عن كثير منها ويستجيب لبعضها حسب أهمّيّتها من ناحية، وحسب ظروفه الخاصّة من ناحية أخرى.^١

كثرة الواجبات وازدياد المطالب:

لقد كان الشيخ القرضاوي في مطلع شبابه يحفظ الوصايا العشر للإمام حسن البنا عليه رحمه الله، وهي وصايا تربويّة عمليّة، ومنها وصيّة تقول: 'الواجبات أكثر من الأوقات، فعاون غيرك على الانتفاع بوقته، إذا كانت لك حاجة، فأوجز في قضائها.' «الواجبات أكثر من الأوقات» كان يحفظها قولاً، فأصبح يعيشها فعلاً؛ فالأوقات محدودة جدّاً، والواجبات المطلوبة من أمثاله واسعة جدّاً، وهي دائماً في ازدياد. والعجيب أنه كلّما تقدّم في العمر اتّسعت هذه الواجبات، وازدادت المطالب، بقدر ثقة الناس وحبّهم ورجائهم في استجابته لهم. فالقوّة تضعف، والأعباء تتضاعف، بصورة عكسية.

فلماذا يصنع العالم الداعية أمام هذه المطلوبات منه، إلا أن يأخذ بقول أحد الحكماء: لا تسأل الله أن يُخفّف حملك، ولكن سلّه أن يقوّي ظهرك! يبدو أنه يرى أن تخفيف الحمل غير وارد، فلم يبق إلا تقوية الظهر، وهو ما يرجوه من الله. كان الشيخ القرضاوي في تلك السنين يقدم من سفر، ليستعدّ لسفر آخر، فلا يكاد يستقبله أهله حتّى يودّعه. وكان بعض الإخوة يقولون عنه: الشيخ الطائر.

قال الشيخ القرضاوي: فإن حاجة الناس، وحاجة الدعوة، والقضايا الساخنة في الأمة، ومعركة الإسلام وأمتّه مع أعدائهما، وما يتطلّبه ذلك من جهود لا تملك الأمة عشر معشارها: أوجب علينا أن نبذل ما نستطيع لتلبية بعض الحاجات.^٢

المطلب الثالث والعشرون: الإشارة بإجمال إلى أهمّ الزيارات التي قام الشيخ القرضاوي بها لانتشار العلوم الإسلامية في أنحاء العالم

* لقد شارك فضيلة الدكتور والشيخ يوسف القرضاوي في ملتقيات الفكر الإسلاميّ في الجزائر كلّها من سنة ١٩٨٢م إلى ١٩٩٠م، إلا ملتقيين تخلّف عنهما لأعداره.

* وشارك في عدد غير قليل من مؤتمر «اتّحاد الطلاب المسلمين في الولايات المتّحدة وكندا» - الذي يعبرون عنه بـ (MSA) - ومؤتمر رابطة الشباب المسلم العربيّ، الذي يطلقون عليها اسم «المايا».

* وشارك في مؤتمرات الطلبة المسلمين في بريطانيا «الفوسس» في لندن ومانشستر وغيرها لعدد من السنوات.

* وشارك في ندوات البركة الاقتصاديّة، التي تدعو إليها «دلة البركة» برئاسة الشيخ صالح كامل، وهي ندوات متخصّصة في القضايا الاقتصاديّة الإسلاميّة، والتي عقد أكثرها في داخل المملكة العربيّة السعوديّة: جدّة، مكّة، والمدينة، وبعضها عقد في الجزائر.

* وشارك في مؤتمرات «قضايا الزكاة المعاصرة» التي عقدت في الكويت والقاهرة وعدد من بلدان الخليج.

١ ألفردّواوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٧٥٠

٢ المرجع السابق، ص ٧٥٢ - ٧٥٣

- * وشارك باستمرار في المؤتمرات والمجامع التي اختارته عضوًا فيها، مثل: «المجمع الفقهيّ لرابطة العالم الإسلاميّ» بمكّة، أو «المجمع الملكيّ لبحوث الحضارة الإسلاميّة» في عمان، ومركز «أوكسفورد» للدراسات الإسلاميّة في لندن، وقد اختير عضوًا بمجلس أمنائه.
- * كما حضر عددًا غير قليل من دورات «المجمع الفقهيّ الدوليّ» المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلاميّ، بوصفه أحد خبرائه، قبل أن يختاره عضوًا فيه.
- * كما شارك في مؤتمرات المصارف الإسلاميّة التي عُقدت في عدد من البلدان: دبي: والكويت، وإستانبول، والقاهرة، وغيرها.
- * وكذلك شارك في الندوات والمؤتمرات التي دعت إليها المنظّمة الإسلاميّة للعلوم الطبيّة في الكويت، والتي تجمع بين الفقهاء والأطباء.^١

المطلب الرابع والعشرون: محاضراته في الجامعات

- * حاضر الشيخ القرضاوي في عدد من الجامعات، بعضها أكثر من مرّة، وبعضها محاضرات للطلاب، وبعضها لأعضاء هيئة التدريس: في جامعة القاهرة، وجامعة عين الشمس، وجامعة الإسكندرية، وجامعة الأزهر، وجامعة المنصورة، وطنطا، وشبين الكوم، وأسيوط، والمينا، وغيرها من جامعات مصر.
- * وحاضر كذلك في جامعة الملك عبد العزيز بجدة، وخصوصًا في مركز أبحاث الاقتصاد الإسلاميّ بها، وجامعة أمّ القرى، وجامعة المدينة المنورة، وكان عضوًا بالمجلس الأعلى بها، وخصوصًا في عهد الأستاذ الدكتور عبد الله زايد.
- * والتقى الأساتذة في كليّة التربية بجامعة الرياض «الملك سعود» في عهد عميدها الدكتور أحمد التويجري، وكذلك في قسم الثقافة الإسلاميّة بالجامعة نفسها، في عهد رئيسه الدكتور أحمد العسال.
- * وحاضر أكثر من مرّة في جامعة الظهران: «جامعة الملك فهد للبترول» وجزير بالذکر أن الحضور في آخر مرّة كان كثيفًا جدًّا، حتّى كان الذين خارج القاعة - وهي كبيرة - أضعاف الذين كانوا داخلها.
- * وحاضر أكثر من مرّة في جامعة الملك فيصل بالدمام والأحساء بدعوة من مديرها الأستاذ الدكتور محمّدة سعيد القحطاني.
- * وحاضر في جامعات الجزائر: جامعة الجزائر، وجامعة باب الزوار، وجامعة العلوم والتكنولوجيا، وجامعة وهران، وجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميّة، وجامعة قسنطينة ... وغيرها.
- * وحاضر في جامعات المغرب: جامعة محمّد الخامس، وجامعة محمّد بن عبد الله بفاس، وجامعة القاضي عياض، وبعض كليّات الآداب، وغيرها.
- * وحاضر في الجامعة الأردنيّة، وجامعة اليرموك، من جامعات الأردنّ.
- * وحاضر أكثر من مرّة في جامعة الكويت، وجامعة الإمارات العربيّة المتّحدة، وجامعة البحرين، وجامعة الخليج.
- * وحاضر أكثر من مرّة في جامعة الخرطوم، وجامعة أم درمان الإسلاميّة، وجامعة إفريقيا، وجامعة القرآن الكريم، وغيرها من جامعات السودان.
- * وحاضر أكثر من مرّة في جامعات ماليزيا الإسلاميّة والوطنية، وبخاصّة الجامعة الإسلاميّة العالميّة. وكذلك في الجامعات الكبرى في إندونيسيا. كما حاضر في بعض جامعات اليابان، وكوريا الجنوبيّة.

١ ألفَ قَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٧٥٣ - ٧٥٤ (مختصرًا)

* كما حضر في جامعة «دار العلوم» التابعة لندوة العلماء ولكنهو، وأكثر من مرّة بدعوة من الشيخ أبي الحسن الندوي، وفي المرّة الأولى كان الشيخ غالبًا، والمرّة الثانية كانت بحضوره وتشريفه، ومثل ذلك «جامعة الفلاح» في مدينة بيلرباكنج، وجامعة «دار الهدى» في حيدر آباد، والجامعة الإسلاميّة في حيدر آباد، وجامعة عليكرة أكثر من مرّة، والجامعة المليية في نيودلهي.

* كما حضر في بعض الجامعات الإسلاميّة في «بنجلاديش» مثل «جامعة فتيا»، وجامعة الحضارة، والجامعة العالميّة الإسلاميّة في شيتاغونج.

* وكذلك حضر في جامعة دار العلوم في كراتشي، وجامعة البنجاب في لاهور، ومعهد الإمام المودودي بالمنصورة في لاهور. وقبل ذلك في الجامعة الإسلاميّة العالميّة في إسلام آباد لمزات عدّة، وقد كان عضوًا بمجلس أمنائها.

* كم لبّى الشيخ القرضاوي دعوة مركز أوكسفورد، والكلية الشرقيّة بلندن للمحاضرة فيها. وكذلك دعوة من مجتمّع البحوث الإسلاميّة، لمحاضرة عن القدس في لندن.

* وحاضر في عدد من كليّات الإلهيات في تركيا.

* وحاضر في بعض الجامعات الإيرانيّة حين زار إيران في عهد الرئيس السابق محمّد خاتمي في طهران وقم مشهد وأصفهان وغيرها.

* واستجاب الشيخ القرضاوي لدعوات لانتشار العلوم الإسلاميّة في أرجاء العالم كلها وفيرة يصعب حصرها، من الأندية العلميّة والأديبيّة والثقافيّة في بلاد الخليج والبحرين والإمارات وعمّان والكويت. وكذلك الجمعيات العلميّة والإصلاحية الإسلاميّة في بلاد الخليج وغيرها.^١

* محاضرات ولقاءات:

ومن الأنشطة التي قام بها الشيخ القرضاوي في تلك السنة الدراسيّة ١٩٩٠م - ١٩٩١م: المحاضرات التي دعت إليها الجامعات المختلفة في العاصمة، وفي قسنطينة، وربّما في غيرها في بعض الأحيان. وكذلك اللقاء للطلاب والطالبات في مساكنهم الجامعيّة، وخصوصًا الطالبات.

المطلب الخامس والعشرون: محاضرات مكثّفة في محافظات مصر

وفي هذه الفترة يعني من أواسط العقد السابع إلى أواسط العقد التاسع من القرن العشرين وفق الله الشيخ القرضاوي للقيام بنشاط مكثّف في جمهوريّة مصر العربيّة: في القاهرة، والإسكندريّة، وفي سائر محافظات مصر، وبدعوة من الجامعات، أو من الأندية، أو النقابات والجمعيات المختلفة.

محاضراته في جامعة القاهرة:

أكثر محاضراته كانت في جامعة القاهرة، التي دُعِيَ إليها مرارًا وتكرارًا، أحيانًا بدعوة من رئيس الجامعة، وأحيانًا من وكيل الجامعة، مثل الأستاذ الدكتور: علي السّلمي، والأستاذ الدكتور فتحي سرور، وأحيانًا بدعوة عن عميد كليّة، وكانت أكثر الكليّات دعوة له هي كليّة الطب؛ وكانت تحضر جموع حاشدة تملأ القاعة، ويقف الأكثر داخل وخارج القاعة. كما كان يحضّر مع مُعَسِّكْرَاتِهِمْ أو مُخَيِّمَاتِهِمْ الصيفيّة التي يعقدونها داخل الجامعة، يحاضرهم ويحدثهم ويتلقّى أسئلتهم في كلّ اتجاهٍ ويجيب عنها.

١ ألفَقْرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (فطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٧٥٤ - ٧٥٧ (بالإيجاز)

وكثيراً ما لا يكتفون بمثل هذا اللقاء فيزورونه في بيته، ويستكملون النقاش في القضايا العلميّة المختلف فيها بين السلفيّين وغيرهم، والقضايا الفكرية المختلف فيها بين التحرريين وغيرهم، والقضايا العقديّة المختلف فيها التكفريين وغيرهم. كما حاضر في جامعة عين السمش، وجامعة الأزهر، وجامعة الإسكندرية، وجامعة طنطا، وجامعة المنصورة، وجامعة أسيوط، وجامعة المنيا، وغيرها. كما دُعِيَ من جهات أهليّة وثقافيّة وخيريّة، للاحتفال بمناسبات إسلاميّة، كالمولد والهجرة، أو لإلقاء محاضرات في قضايا إسلاميّة: فكريّة، وثقافيّة، وتربويّة، وسياسيّة، وغيرها.

ولقد دُعِيَ مرّات ومرّات من قِبَل نقابة الأطباء بدار الحكمة بالقاهرة، ومن قِبَل نقابة المهندسين، ومن جهة نقابة الصحفيين، ومن نقابة المحامين، وغيرهم. ودُعِيَ من المحافظات والمدن المختلفة: طنطا، وشبين الكوم، والزقازيق، ودمياط، ورشيد، وكفر الشيخ، ودمهور، ومحافظات الصعيد. كما دعاه إخوانه في المحلّة الكبرى بمناسبات شتّى، وكانت تحتشد لسماع المحاضرة جموع هائلة تأتي من كلّ البلاد المحيطة بالمحلّة؛ لأنّ بينهم وبين الشيخ القرضاوي روابط رويّة وفكريّة وثيقة وقديمة. وكذلك خطّب الشيخ القرضاوي خطبةً صلاة العيد أكثر من مرّة في الإسكندرية.^١

المطلب السادس والعشرون: خطبة

وهذا المطلب يشتمل على ثلاث مسائل، وتفصيلها فيما يلي:

المسألة الأولى: نقل خطبة الجمعة في التلفزيون القطري

وقد التزم تلفزيون قطر بنقل خطبة الجمعة منذ تأسيس المسجد، وبعد أن أضحت محطة قطر فضائية عالمية، أمسى العالم كلّه يشاهد هذه الخطبة ويتابعها. ويؤدّي الشيخ القرضاوي أن يؤدي هنا شهادة لله: إن أحداً في قطر لم يقل له كلمة واحدة في شأن خطبه في المسجد، أو دروسه في رمضان، أو برامجه في الإذاعة والتلفزيون، أو يضع أمامه خطوطاً حمراء لا يتجاوزها ... لم يحدث ذلك من أمير ولا من وزير، حتّى أنه في بعض الأحيان كان يخطب نارياً في موضوع من الموضوعات الحسّاسة، ثم يسافر لفترة من الزمن، فينتقع عن الخطبة جمعيتين أو ثلاثاً، فيقول القائلون: منع الشيخ من الخطابة بعد تلك الخطبة! وتسرّي الإشاعة مسرى النار في المهشيم، ثم سرعان ما يراه الناس يعتلي المنبر بعد ذلك، ويعاود خطبه كما كان من قبل، لم يتبدّل ولم يتغيّر.^٢

المسألة الثانية: خطبته في جامع أبي بكر ثم عمر بن الخطاب

هو جامع أبي بكر الصديق في الدوحة، وهو يتسع لأكثر من ألفين من المصلّين، وقد طلب الشئون الدينيّة القطريّة إلى الشيخ القرضاوي أن يتولّى خطبة الجمعة فيه، وظلّ الشيخ القرضاوي يقوم بذلك، حتّى أنشئ جامع عمر بن الخطاب، وهو في منطقة أكثر حيويّة وسكّاناً من منطقة جامع أبي بكر، فانتقل الشيخ القرضاوي إليه، ما لم يكن مريضاً أو على سفر.

المسألة الثالثة: خطبته ودروسه في ثلاثة مساجد في قطر

أصبح جامع عمر بن الخطاب هو مسجده لخطبة الجمعة، والجامع الكبير هو مسجده لصلاة التراويح ودروس التفسير بينها، ومسجد الشيخ خليفة بن حمد أمير البلاد يومئذ هو مسجده لدروس العصر في رمضان، الذي كان يحضره باستمرار، ود ظلّ الشيخ القرضاوي يؤدّي، وظلّ يُداوم عليه ستّة وثلاثين عاماً.^٣

١ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٧٦٦ - ٧٦٩

٢ المرجع السابق، ص ٧٨٠ - ٧٨١

٣ المرجع السابق، ص ٧٨١

فقد ألقى عددًا من الخطب في عدد من المساجد، مثل مسجد «الأبيار» وقد تجمّع فيه عشرات الآلاف. حدّثه سفير قطر في الجزائر السيد «أحمد العسيري»: أن ابنه ذهب في الساعة الحادية عشرة أي قبل الصلاة بساعتين، ليجلس بجوار المنبر، ليكون أول من يصفح الشيخ يوسف القرضاوي بعد الصلاة، فهو يرى نفسه أحقّ بالشيخ من غيره. وكذلك خطب الشيخ في مسجد جراح. ومسجد الأرقم. وبعض المساجد لم يتح له أن يخطب، ولكن سعد بإلقاء محاضرة فيه، مثل مسجد الأرقم الشهير، الذي كان إمامه وخطيبه في ذلك الوقت الداعية الشيخ محمد سعيد الذي استشهد في أحدث فتنة الجزائر.^١

ونسأل الله تعالى أن يجعل عمله هذا كلاً، خالصاً له، وابتغاء مرضاته، فرمّا فتح الله لنا باب الطاعة وما فتح لنا بال القبول، وقد مرض أحد العلماء الصالحين مرض موته، فزاره بعض تلاميذه، بوجوده يبكي، فقالوا: مثلك يبكي، وأنت الذي فعلت كذا وكذا - يعدّون حسناته وفضائله ... فقال لهم: وما يدريني أن شيئاً من ذلك قد تقبل مني، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [٢٧].^٢

المطلب السابع والعشرون: محاضرات مكثفة في مدن المملكة العربية السعودية

وفي هذه الفترة - من أواسط العقد السابع إلى أواسط العقد التاسع من القرن العشرين - قام الشيخ القرضاوي بزيارات ومحاضرات مكثفة في مدن المملكة العربية السعودية المختلفة، بدعوات من جامعتها، أو مراكزها وأنديتها الأدبية والثقافية، أو غيرها من المؤسسات.

وهذا المطلب يتضمّن خمس مسائل، وبيانها كما في التالي:

المسألة الأولى: دعوات من جامعات المملكة في أكثر من مدن

دُعِيَ الشيخ القرضاوي إلى جامعة الملك عبد العزيز بجدة وخصوصاً: مركز أبحاث الاقتصاد الإسلامي، الذي أنشئ بتوصية من المؤتمر العالمي الأول للاقتصاد الإسلامي. وكذلك الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وهي التي كان عضواً في مجلسها الأعلى في إحدى دوراته. وقد ألقى فيها بعض المحاضرات العامة، ولا سيّما في عهد مديرها الأستاذ الدكتور عبد الله زايد. ودُعِيَ من جامعة الرياض أو الملك سعود، ولا سيّما كليّة التربية التي كان عميدها الدكتور أحمد التويجري.^٣

المسألة الثانية: محاضرة الفقيه المسلم وتحديات العصر بالرياض

ومن الدعوات التي جاءت عند الشيخ القرضاوي من الرياض: دعوة من مؤسسة الملك فيصل الخيرية في أحد مواسمها الثقافية، وقد اقترحت عليه محاضرة عنوانها: «الفقيه المسلم وتحديات العصر». وقد حضر عدد من رجال الشريعة ورجال الاقتصاد، ورجال الثقافة بصفة عامة ... وجدير بالذكر أن من الإخوة الذين أسعدوه بالحضور الأخوين الداعيين الشهيرين: الشيخ مناع القطان، والشيخ محمد الراوي، وقد لقي الشيخ القرضاوي قبل المحاضرة، وقال له: لماذا قبلت الحديث في هذا الموضوع الشائك؟ إنهم يريدون أن يُورطوك، لتقول كلاماً يصطدم بفكر المشايخ هنا. قال الشيخ القرضاوي لهم: لا تراعوا، سأعالج الموضوع بطريقة علمية واقعية ليس فيها تحدّد لأحد، ولن يحدث شيء تخافانه إن شاء الله.

١ القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٦٤٧ - ٦٥٠ (بالاختصار)

٢ القرآن الكريم، المائدة (٥)، الآية [٢٧].

٣ القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٧٥٨

وهذا ما كان. وقالوا الإخوان الكريمان له: لقد قلت ما يجب أن يقال دون أن يُخْرَج أحد، وأكملت هذا باستشهادك بشيخي الجماعة: ابن تيمية وابن القيم. قال الشيخ القرضاوي: الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله.^١

المسألة الثالثة: مَهْرَجَانُ الجَنَادِرِيَّةِ

وفي الرياض أيضًا جاءه أكثر من مرّة دعوة للمشاركة في مَهْرَجَانِ الجَنَادِرِيَّةِ الشهير، الذي يحسب على الأمير عبد الله بن عبد العزيز ولي العهد وقتئذ. وكان في أول أمره قد غلب عليه الليبراليون والعلمانيون واليساريون. ثم ما زالت العناصر الإسلامية الواعية تجهد جهدها، لتطعيم هذا المهرجان بمشاركة إسلامية من شخصيات لها وزنها، وخصوصًا من المجموعة التي تجمع بين السلفية والحقّة و التجديد الأصيل. ولهذا تردّد الشيخ القرضاوي في أول الأمر ... ثم عرف هذا التوجه الجديد، سرعان ما استجاب، وقد ألقى بعض المحاضرات، وشارك في بعض الندوات. واحتفى به الأمير عبد الله بن عبد العزيز ولي العهد احتفاءً خاصًا.^٢

المسألة الرابعة: محاضراته في نادي مكة وجِدَّة الأديبين

ومما شارك الشيخ القرضاوي به في مكة المكرمة: أنه استجاب أكثر من مرّة لدعوة النادي الأدبيّ فيها وإلقاء أكثر من محاضرات، وأن إحداها كانت بعنوان: «الداعية المسلم وتحدّيات العصر»، على غرار محاضرة الرياض: «الفقيه المسلم وتحدّيات العصر». كما ألقى محاضرة في النادي الأدبيّ بجِدَّة.^٣

المسألة الخامسة: جامعة الملك فهد للبترول

وَدُعِيَ أكثر من مرّة للمحاضرة في جامعة الملك فهد للبترول والمعادن «جامعة الظهران». وفي إحدى المرات حاول الشيخ القرضاوي أن يعتذر، فقالوا: إن المحاضرات لا تقام إلا بموافقة ملكيّة سابقة، أو بتعبيرهم: موافقة المقام السامي، فلا تضيع علينا هذه الموافقة. وقد علم أن كلّ المحاضرات لا بدّ أن توجد فيها هذه الموافقة، وقد أكّد له كلّ الذين دعوه: أن الموافقة عليه من الجهات العليا تصدر بسهولة، فقد كان مرضيًا عنه في تلك الفترة. وكان آخر محاضرة له في جامعة الملك فهد، فقد كان فيها حضور كثيف ملأ القاعة الكبيرة جليوسًا ووقوفًا، وخارج القاعة ممّا قدّره بعضهم بنحو خمسة آلاف، وهذا قلّمًا يحدث.^٤

المطلب الثامن والعشرون: المجلس الأعلى العالميّ للمساجد

وكان يشارك فيه الشيخ والأمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر، وكان من الأفكار العلميّة التي طرحها شيخ الأزهر: أن نخرج من هذا المؤتمر بشيء علميّ ينفذ الأمانة الإسلاميّة، وهو تأسيس المجلس الأعلى العالميّ للمساجد، ليكون في مقابلة «المجلس العالميّ للكنائس في أمريكا». وأستجيب لدعوة الشيخ، وأخذ قرار بهذا الأمر.^٥

المطلب التاسع والعشرون: التعاون مع رابطة العالم الإسلاميّ

ومن المؤسّسات التي كان الشيخ القرضاوي يتعاون معها في المملكة: رابطة العالم الإسلاميّ. وأوّل دعوة جاءته منها: المشاركة في «مؤتمر رسالة مسجد»، وكان مؤتمرًا كبيرًا، حضره جمٌّ غفيرٌ من أهل العلم والدعوة من أنحاء العالم.

١ ألفردّواوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٧٥٩ - ٧٦٠

٢ المرجع السابق، ص ٧٦٠

٣ المرجع السابق، ص ٧٦٠

٤ المرجع السابق، ص ٧٦١

٥ المرجع السابق، ص ٧٦٤

المطلب الثالثون: اختياره عضوًا بالمجمع الفقهي

عَرَضَ الأستاذ صفوت السقا الأمين المساعد على الشيخ القرضاوي: أن يتولَّى مَنْصِبَ الأمين العام للمجمع الفقهي للرابطة. وقال له: 'أنا أستطيع أن أدع عملي العلمي والفكري للاشتغال بأيِّ عملٍ إداريٍّ مهما تكن منزلته، وكلِّ مسيرٍ لما خلق له.' وبعد ذلك اختاروه عضوًا للمجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي. الذي يرأسه العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز ومعه الشيخ علي حسن الندوي، والشيخ مصطفى الزرقا، وأبو سنة، والصواف، وابن خلدون، والفوزان، والبسام، وغيرهم. وقد حرص الشيخ القرضاوي على حضور جلساته، وتقديم الأبحاث إليه ما استطاع، ولا يتخلف إلا لعذر.^١

المطلب الحادي والثلاثون: الندوات العالميَّة للشباب المسلم

ومن المؤسسات السعودية التي تعاون الشيخ القرضاوي معها: «الندوات العالميَّة للشباب المسلم» منذ بداية تأسيسها، وكان أمينها العام الدكتور عبد الحميد أبو سليمان، والذي دعا في أحد اجتماعاته الأولى عددًا كبيرًا من رجال الفكر والعلم، ورجال المال والأعمال، لينشئ صندوقًا للإنفاق على أنشطة هذه المؤسسة .

وكان يرعى هذا الاجتماع العالم الفاضل، والوزير الصالح: معالي الشيخ حسن عبد الله آل الشيخ رحمه الله. وقد أوصى هذا الاجتماع بوصايا كان لها أثرها فيما بعد. وقد تعاون الشيخ القرضاوي مع كلِّ من تولَّوا الأمانة العامَّة لهذه الندوة، وخصوصًا الداعية الواعي المخلص النشيط: الدكتور مانع الجهني رحمه الله. وحضر الشيخ القرضاوي معهم مخيَّمات للشباب، في بلاد شتَّى، في أوربَّا، وفي الأودن، وفي ماليزيا، وفي غيرها.^٢

المطلب الثاني والثلاثون: الردُّ على الكراسة الرماديَّة

في عهد الستينيات نشر الشُّيُوعِيُّونَ في العراق هجومًا على الإسلام وتعاليمه: عقيدة وشريعة وأخلاقًا وحضارة، في بحث عرف باسم: "الكراسة الرماديَّة" نشرت خلاصتها الصحف المصريَّة، والتي هيَّجت عليها الرأي العام المصري، المرتبط عقديًا وفكريًا وشعوريًا بالإسلام، والذي يثور كالبركان إذا عدا على حماه عاد. كما رأوا ثورته أخيرًا ضدَّ رواية: "وليمة لأعشاب البحر".

وقد كلَّفهما الدكتور البهي - الشيخ القرضاوي وصديقه العسال - بكتابة ردِّ علميٍّ على الشبهات التي أثارها هذه الكراسة، والأباطيل التي اتَّهمت بها الإسلام زورًا. وقد أعدَّا ردًّا بالفعل أطلع عليه الدكتور البهي وأقرّه، وأمره بنشره في مجلَّة جامعة الأزهر، وقد اختاروا عنوانه: "الإسلام بين شبهات الضالِّين وأكاذيب المفترين."^٣

المطلب الثالث والثلاثون: بين الشيخ القرضاوي وبين المُستشرقِ الألمانيِّ ونديلين ونزل تيوبر (Wendelin wenzel teuber)

من الأحداث التي ينبغي أن يذكرها في هذه الفترة ٢٧/٤/١٩٩٥م: المراسلة التي تمَّت بين الشيخ القرضاوي وبين المستشرق الألمانيِّ «ونديلين ونزل تيوبر (Wendelin wenzel teuber)»، بمبادرة منه. وهي تمثِّل تطوُّرًا مهمًّا في العلاقة بين المستشرقين الغربيين والعلماء والمفكرين المسلمين.

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٧٦٤ - ٧٦٥

٢ المرجع السابق، ص ٧٦٥

٣ المرجع السابق، ٢٠٠٤م، ج ٢، ص ٣٢٦ - ٣٢٧

فقد كان المستشرقون يكتبون - في الغالب - لأنفسهم، فيقرأ بعضهم لبعض، ويؤيد بعضهم بعضًا - أو يردُّ - أحيانًا - بعضهم على بعض. ولا يكاد المسلمون يعرفون ما يكتب عنهم، ناهيك بأن يقرءوه أو يدرّسوه، إلا بعد حين، قد يطول، حينما يترجمه بعض الدارسين والمهتمين إلى العربيّة. ولكن في هذه المرّة رأى الشيخ القرضاوي هذا المستشرق أو الباحث - الذي يحسبه منصفًا وجادًا - يبادر ليكتب مَنْ يُؤلف عنه، ويسأله في بعض ما بهّمه أو يُشكل عليه، وهذه - في نظره - خطوة إلى الأمام، يجب أن نُرحّب ونُؤوِّد بها، وشكر الشيخ القرضاوي صاحبها.

وهذا المطلب يحتوي على عشر مسائل، وبيانها فيما يلي:

المسألة الأولى: نصُّ رسالة المستشرق الألمانيّ (Wendelin wenzel teuber, M.A)

ولقد كتب المستشرق الألمانيّ بعد تحيُّته الخالصة الطيّبة لشيخ القرضاوي: فلا شكّ في أنكم تعلمون كيف تدور مناقشات كثيرة في الغرب حول «الإسلام السياسيّ» أو «الإسلام المتطرّف» أو «الأصوليّون» حتّى «الخطر الإسلاميّ»، وما أشبه ذلك من العبارات، على أن هؤلاء الكاتبين يجهلون أو يتجهلون تيار «الوسطيّة» الإسلاميّة الذي يتجسّد في فكر فضيلتكم.

لهذا توجّهتُ منذ سنتين إلى قراءة مُؤلِّفاتِكُمْ، حتّى قرأتُ أكثرية ما كتبتموه، وبدأتُ بكتابة دراسة بعنوان: «الإسلام والسياسة عند يوسف القرضاوي» - وإن لم أكن أرضى بلفظ العنوان على الإطلاق - في إطار معهد الدراسات العالية في الشرق الأوسط المعاصر (Graduiertenkolleg) المشجّع من الدولة الألمانيّة وولاياتها بجامعة إرلنجن (Erlangen) طالبًا للدكتوراه. أما موضوع الدراسة فليس مجرد البحث في آرائكم وعرضها، بل كذلك دراسة في نسبة النظريّات الغربيّة الأوروبيّة من جانب إلى التراث الإسلاميّ من جانب آخر في تصوّر المجتمع الإسلاميّ كما تعرضونه؛ هذا لأن كثيرًا من الأوروبيّين، بل من المستشرقين ما زالوا يرون الإسلام ممثلاً تقليد القديم والقدماء، حتّى الجمود، فكّر فكر معاصر أو حديث فهو أوروبي الأصل، مأخوذ من الغرب ودخيل في الإسلام. بمعنى أن مفكّري الإسلام منذ عهد مقابلتهم الأولى بالغرب الحديث يحاولون أن يُبرِّزوا ويُجمعوا الثاني إلى الأوّل، وأن يصلُّوا بين ما لا أصالة له، وهذا من المستحيل كما يدعون.

وأودُّ أن أوكِّد هنا أن إعلان ما هو «أصيل» أم «دخيل» في الإسلام، أو تقرير ما هو منه وما ليس منه، ليس لي ولا لأحد مثلي، إنما هو شأن المسلمين المؤمنين برسالة محمّد، باجتهاداتهم ثم اختلافهم وإجماعهم... ولكني أريد إثبات أن التفريق المذكور غير صحيح، وأنه يضل عن الطريق إلى فهم جيّد؛ لأن الذي يعايش هذا العصر هو بهذا معاصر بحيث إن لقضايا العصر وظروفه وأحواله وتحدياته، أثرًا كبيرًا في فكره، ولا سيّما إن كان من الملتزمين بدينه فيسأل نفسه: ما المطلوب منّي في قضية ما؟ وسيبحث عن تركيب حتّى لا يتمزّق بين واجبات دينه ومقتضيات واقعة، ولن يكتفي بمجرد التبرير. وإذا كان من أهل الفكر والتحقيق، بل الاجتهاد، فعليه أن يُرَجِّح بين التراث والتقاليد والمسائل العصريّة في تفهّمه للنصوص من القرآن والسنة النبويّة.^١

هذا ما فهمتُ من قراءة كتب فضيلتكم: أنكم تُنشُدون مجتمعا أصيلا عصريًا، وأنكم تجدّدون مفاهيم التراث بحيث تغيد العصر الحديث، في حين أنكم تُنسبُون المفاهيم الحديثة إلى التراث، بل إلى الأصول نفسها، وتحورونها بحيث تصبح جزءًا لا يتجزأ منه، وإن كانت غريبة الأصل؛ حتّى بعض الثوابت، وإن بقيت على المعنى نفسه، يمكن تجديد أشكالها لإحسان لإقامتها. ومعنى هذا أن كلا من مفاهيم التراث والفكر العربيّ الحديث لم يعدّ تمامًا نفس الشيء. ولعلّ المثال الأوضح في ذلك ما قلموه في «النظام الديمقراطيّ»

١ ألفرداوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٨٠٧ - ٨٠٩.

و«تعدُّ الأحزاب» ونحوهما من أساليب الدولة الإسلامية المنشودة. وقد أعجبنى أي المستشرق الألمانيّ «وندلين ونزل تيوبر (Wendelin wenzel teuber)» قولكم بأن هذا هو منهج «السلفية»: أي تكييف تطبيق الأحكام للتوصل إلى الأهداف الكبرى باعتبار مُسْتَلزَمَاتِ العصر ومُكْتَسَبَاتِهِ.

فانتهيتُ من تحليل المنهَجِ الفكريِّ لفضيتكم إلى أن المستحيل هنا ليس الجمع بين «العصريّ» و«التقليديّ» أو «التراثيّ»، بل المسحيل هو تفريقهما، وإن افترضنا أن المجتمع «الصنّاعيّ» الحديث وتغير مؤسّساته وفق تقدُّم الوسائل التكنولوجيّة ونحوه من مسلّمات العصر، حتّى النظام الدوليّ، من ابتداعات العرب.

وكان سؤاله الأوّل إلى الشيخ القرضاوي هنا: هل توافقون على ما أراه؟ وهل تفهّمي لفكركم صحيح أو غلط، وأين الخطأ إن كان خاطئاً؟ أو بعبارة أخرى: كيف تتمنون أن أتناول هذه القضية، وفكركم بصفة عامّة؟ بل لعلكم تعارضون مُنْطَلَقِيّ عموماً؟ على أن هناك عدّة أسئلة أخرى:

أولها يتعلّق بالمستقبل: كيف تقدّرون الآمال لنجاح تيّار الوسطيّة الإسلاميّة؟ ألا ترون الخطر أن ينسحق بين استبداد الحُكّام الذين يأبون على القوى الإسلاميّة المعتدلة الوصول إلى السُلْطَة ولو عن طريق الانتخابات، وبين ردّ فعل المتطرّفين من الإسلاميين الذين يميلون إلى العُنف، فتنشّب حرب بين الطرفين لا مجال فيها لكلمة اعتدال؟ وبأيّ استراتيجيّة توصون إذن؟

وهل العنف عندكم وسيلة مقبولة في حال من الأحوال؟

وثانيهما يتعلّق بالحاضر: كيف تحسبون نفوذ دعاة الوسطيّة عند الجماهير وعند الشباب الإسلاميّ في بلد كمصر، وبخاصّة - وإن كان الجواب شائكاً - نفوذ نفسكم؟

ثالثاً يتعلّق بالماضي: هل ترون في تفكيركم - ما عدا الاعتقادات الأساسيّة - أيّ تطوّر - لا أعني تناقضاً - من أقوال الشاب الطالب إلى أقوال الشيخ الناضج، أو بين الأربعينات والتسعينات بما حدث في هذه المرحلة من تغيّرات الظروف السياسيّة والاجتماعيّة؟ وأين يظهر هذا التطوّر إذا كان موجوداً؟ كانت عندي أسئلة أخرى متنوّعة لا أسألها هنا لكي لا آخذ من وقتكم الضيق أكثر مما ينبغي، وأنا عارف لكثرة مهمّاتكم الشتّى، ولكنني اعتقدتُ أنكم قد تهمّتون بما يُكتب عنكم في الغرب، وينبغي أن يكون لكم الكلام فيه. إن أكرمتُموني بأن تعتبروني جديراً بالجواب أكون مسروراً جدّاً. حفظكم الله ووهبكم التوفيق! ^١

المسألة الثانية: جواب الشيخ القرضاوي على رسالة المستشرق الألمانيّ «وندلين ونزل تيوبر Wendelin wenzel teuber»

أجاب الشيخ القرضاوي رسالته في ١٤١٦/١/٦ هـ الموافق ١٩٩٥/٥/٤ م. وبدأ الردّ بعد التحيّة بأحسن منها، وفَقَّ وجهاً القرآن الكريم: ﴿وَإِذَا حُيِّئْتُمْ بِهِ بِحَسَنَةٍ فَحَبِّئُوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا [٨٦]﴾. ^٢ وهو أي فضيلة الشيخ القرضاوي يختار الأحسن، شأن المسلم الذي أرشده القرآن إلى ذلك: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ أُولُو الْأَلْبَابِ [١٨]﴾. ^٣

١ ألفردّواوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٨٠٩ - ٨١١

٢ القرآن الكريم، النساء (٨٦)، الآية [٤].

٣ القرآن الكريم، الزمر (٣٩)، الآية [١٨].

المسألة الثالثة: اهتمام الشيخ القرضاوي بما يكتب عنه في الغرب

واعتقاده أي المستشرق الألماني أنه أي الشيخ القرضاوي قد يهتم بما يكتب عنه في الغرب اعتقاد في محله، واشتراكه في ذلك عن طريق السؤال والحوار أمر يسعه كثيرًا بلا ريب. وهذا التوجه يعتبر تطورًا له قيمته من قبل الاستشراق والفكر الغربي عمومًا، فقد كان المستشرقون قديمًا يكتبون عن الإسلام والمسلمين، وينقل بعضهم عن بعض، ولا يكاد يرى المسلمون هذه الكتابات إلا في النادر. ثم تطوّر الأمر فعَدَا المسلمون يقرءون ما يكتبه المستشرقون ويناقشونهم فيه، فبدأ نوع من المشاركة والحوار. أمّا توجُّه هذا المستشرق الألماني الآن فهو خطوة جديدة؛ لأنها تقوم على التعرّف والاستشفاف قبل الكتابة. وخصوصًا ممن يُكْتَبُ عنه، فهذا مما يُحمد له ويحسب في ميزانه. وقد فهمَ الشيخ القرضاوي برسالته أنه يُجِئُ العربية، وأنه قرأ كتبه أي الشيخ القرضاوي بها، وهذا شيء رائع حقًا، فقراءة النصّ بلغته الأصليّة أدلُّ عليه من قراءته مترجمًا. وإذا كانت رسالته إلى الشيخ القرضاوي بلغته وأسلوبه فهي لغة راقية حقًا، وبهئته عليها.^١

المسألة الرابعة: سعادة الشيخ القرضاوي باهتمام المستشرق بتيّار الوسطيّة

ولقد سعدَ كثيرًا باهتمامهم أي المستشرق الألماني البالغ بـ «تَيَّارِ الوسطيّة الإسلاميّة» الذي يتبنّاه ويدعو إليه بقلمه ولسانه وفكره وجهده منذ سنين طويلة، والذي يعتبره هو المعرّب الحقيقيّ عن روح الإسلام ومنهج أمته التي سماها القرآن الحكيم أمة وسطًا، حيث قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [١٤٣].^٢

ذكر الشيخ القرضاوي له: وإن كان هناك أناس في الغرب قد طفقوا يحدّون من هذا التيار. ويقولون صراحة: اِحْدَرْوُا الإسلام المعتدل، فهو أشدَّ خطرًا وأطول عُمرًا، وأوسع قاعدة. وهذا ما أعجب له يا أخي كلّ العجب، فإذا كان التطرّف مرفوضًا، والاعتدال مُحْوَفًا، فماذا يصنع المسلم الملتزم؟

إن الأمل قد أصبح معقودًا بالباحثين المصنّفين ذوي الأفق الواسع، والنية الصادقة، من أمثالك، فهم الذين ينيرون الطريق — ببحوثهم الموضوعيّة، ونظراتهم العلميّة — لأقوامهم، ويهدونهم سواء السبيل.^٣

المسألة الخامسة: تأثير المجتهد بزمانه ومكانه

أما سؤالك الأساسيّ حول توجُّهك في الكتابة عن فكري في موضوع «الإسلام والسياسة» فأنا معك في أن المفكّر — أو «المجتهد» بلغة الفقه الإسلاميّ — لا يستطيع أن ينفصل عن زمانه ومكانه، أو عن عصره وبيئته، وهذا ما جعل المحقّقين من فقهاءنا يقولون من قديم: أن الفتوى تتغيّر بتغيّر الزمان والمكان والعرف والحال. والمجتهد المسلم الذي يعيش في القرن الخامس عشر الهجريّ، غير المجتهد الذي عاش في القرن العاشر، غير المجتهد الذي عاش في القرن الثاني آة الثالث، ومن هنا كان لا بدّ لنا أن نتأثّر بعصرنا وتوجّهاته الثقافيّة والحضاريّة، شئنا أم أبينا، إن كنا نعيش في هذا العصر حقًا، ولم نفرض على أنفسنا عزلة مصنوعة.^٤

المسألة السادسة: كيفية قراءتي للتراثي

وسيتجلّى أثر هذا في قراءتنا للتراث، وفي فهمنا للنصوص، سنجد في التراث أقوال مهجورة، وآراء مطمورة، تتوافق مع العصر، تحتاج إلى أن تتبنى وتشهر، وسنجد نصوصًا مهمّة لم تأخذ حثّها في الظهور يجب أن تظهر، ونجد نصوصًا أخرى فهمت في ضوء زمن معيّن ينبغي أن تعاد قراءتها.

١ القُرْضَاوي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٨١٣

٢ القرآن الكريم، البقرة (٢)، الآية [١٤٣].

٣ القُرْضَاوي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطريّة، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٨١٣ - ٨١٤

٤ المرجع السابق، ص ٨١٤

كل ما في الأمر أن هناك قوماً يغلب عليهم العصر حتى يذوبوا فيه، وينسوا أصلاتهم وهويّتهم، ويبرّروا ذلك بتأويل النصوص تأويلاً متعسفاً يقنعهم بسداد طريقهم ... وقوماً آخرين يأخذون من إيجابيات العصر ما يتلاءم مع أصلاتهم، ويشدّ أزرها في الوقت نفسه، موازين بين الثوابت والمتغيّرات، مقبّسين من الأساليب، والآليات والضمانات ما يقوّي الثوابت، مُحَوِّرين فيما نأخذه ونقتبسه، بحيث يصبح جزءاً منا، ويفقد جنسيته الأولى.

المسألة السابعة: موقف الشيخ القرضاوي من الحضارة الغربيّة

عند الشيخ القرضاوي: ليس الغرب كلّ مرفوضاً، ولا الغرب كلّ مقبولاً؛ هناك قضايا مُسَلِّمة في الغرب، لا يقبلها منطق المفكّر أو المجتهد المسلم الملتزم، مثل: قضية الربا في المجال الاقتصاديّ، وقضية التبرّج في المجال الاجتماعيّ، وقضية العلمانيّة في المجال السياسيّ، ومثل النزعة الماديّة في المجال الفكريّ، والنفعية «المطلقة» في المجال الأخلاقيّ، ونحو ذلك مما لا يُسَوِّغُه الإسلام مجال في ضوء قرآنه وسنته. وما عدا ذلك فهو مجال رَحْب للاقتباس، حتى ذكر الشيخ القرضاوي في بعض كتبه أننا وإن كنّا نرفض الفلسفة الكليّة لـ «ماركس» أو «فرويد» أو «دوركايم» أو «داروين»، فإن هذا لا يمنعنا أن نأخذ من نظريّاتهم ما لا يخالفنا، فليس كلّ ما قالوه خطأ، بل فيه الصواب والخطأ، شأن البشر غير المعصومين. وقال الشيخ القرضاوي: أعتقد أنّكم وجدتم - وستجدون - في كتيبي ما يلقي الضوء على هذه القضايا، وخصوصاً في كتيبي «فتاوى المعاصرة» الجزء الثاني، و«أولويات الحركة الإسلاميّة» و«الإسلام والعلمانيّة وجهًا لوجه» و«الصحة الإسلاميّة بين الجمود والتطرّف» و«الصحة الإسلاميّة وهموم الوطن العربيّ والإسلاميّ» و«أين الخلل؟» و«الثقافة العربيّة الإسلاميّة بين الأصالة والمعاصرة» وسلسلة «حتمية الحلّ الإسلاميّ» و«الاجتهاد في الشريعة الإسلاميّة» و«ملامح المجتمع المسلم» و«فقه الأولويات» وغيرها.

المسألة الثامنة: إجابة أسئلة المستشرق الألماني الفرعيّة في رسالته

مستقبل تيار الوُسطيّة الإسلاميّة

أما سؤاله الأول، المتعلّقة بالمستقبل: مستقبل «تيار الوُسطيّة الإسلاميّة»، فنحن المسلمون عادةً نقول بمَنطِق الإيمان: المستقبل بيد الله وحده، ولا يمنعنا هذا أن نقول في ضوء المنظور من الأسباب: إن هذا التيار هو صاحب المستقبل، وهو الذي سيرجع إليه كثير من الغلاة بعد أن تبيّنوا أن التطرّف لا يفيد، والعنف لا يُجدي، كما سيحاول كثير من المُقَصِّرِينَ أن يلحقوا به، واللحاق به مستطاع وميسور؛ فإنه لا يطلب من الناس ما يعنتهم في دينهم، أو يخرجهم في دنياهم. وأملّي أن الشعوب سنعي قيمة هذا التيار وتبناه، حين تملك أمر نفسها حقيقة. أمّا الحكام فالغالب أنه لا أمل فيهم، فهم لا يعلمون من أجلّ أمّتهم، وتحقيق مشروعها الحضاريّ، بل يعملون لصالح أنفسهم، أو لصالح من يدينون له بالولاء.

ولا أرى العنف وسيلة مُجديّةٌ مجال من الأحوال في التغيير الإصلاحيّ، وهو محظور أبداً، إلا في حالة الضرورات التي تُبيح المحظورات، وللضرورات في الشريعة الإسلامية أحكامها. ولكن حتى هذه لها ضوابطها المعروفة في الشرع، إن ما أبيض للضرورة يُقدَّر بقدرها، وبضوابطها، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ [١٧٣]﴾. ^٢ والخلاصة: إن تيار الوُسطيّة هو تيار المستقبل، مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ [٨٨]﴾. ^٣

١ ألفردواوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٨١٦ - ٨١٧

٢ القرآن الكريم، البقرة (٢)، الآية [١٧٣].

٣ القرآن الكريم، ص (٣٨)، الآية [٨٨].

المسألة التاسعة: أثر الوسطية عند جماهير المسلمة

وأما السؤال الثاني: المتعلق بالحاضر، ومدى نفوذ دعاة الوسطية عند الجماهير، وعند الشباب الإسلامي في بلد كمصر، ونفوذ فكري وتأثيري أنا أي الشيخ القرضاوي خاصة، وإن كان شائكًا، فأقول بصراحة: إن هذا التيار هو أوسع التيارات نفوذًا، وأكثرها جمهورًا، وأعرضها قاعدة، يتبين ذلك عندما تتاح فرصة ليعبر هذا التيار عن نفسه بحرية، فيختار دعواته ومثله كما في أندية هيئات التدريس، واتحادات الطلاب بالجامعات، و نقابات الأطباء والصيدليّة والمهندسين والمحامين وغيرهم من أصحاب المهن المختلفة، الذين يمثلون مثقفي الأمة.

والقرضاوي وإن كان إقامته في قطر كما نعلم، ولا يذهب إلى مصر إلا في إجازة الصيف، فإنك (أي مستشرق المذكور) تستطيع أن تحكم مدى نفوذ تيار الوسطية من خلال أمرين:

١. انتشار كتب القرضاوي بحمد الله انتشارًا لا نظير له، حتى إن عددًا منها طبع عشرات المرات.
٢. الحضور المكثف لما أدمى إليه من محاضرات، سواء في القاهرة أم في مدن الأقاليم. ويوم كنت أخطب العيد في ميدان عابدين، وكان يحضر مئات الآلاف. ومن المعلوم: أن الشباب الذين لا يدينون بفكري يحترمون؛ لأنه مؤصل تأصيلًا شرعيًا. وهذا قد عايشته ولمسته في أقطار عربية وإسلامية كثيرة زرتها، ورأيت فيها هذا التجارب والهائل، الذي يتمثل في الإقبال على محاضراتي، وفي اقتناء كتيبي، ولله وحده الفضل والمِنَّة. وإن أنسى لا أنسى تلك الجملة التي يبدأ بها كثير من الأوراق التي تردني بعد إلقاء المحاضرات، وهي تقول: نحبك في الله!

المسألة العاشرة: التطور في تفكيري بين الماضي والحاضر

وأما السؤال الثالث: المتعلق بالماضي، وهو عن التطور في تفكيري بين الماضي والحاضر، بين الأربعينات والتسعينات، من أقوال الشاب الطالب إلى أقوال الشيخ الناضج، فلا شك في أن الإنسان الحي يتطور بتطور ما حوله، ويتغير بتغير زمانه ومكانه، فليس الإنسان آلة صماء، بل هو فكر وشعور وإرادة. ولا سيما إذا لم يكن إنسانًا جامدًا ولا مقلدًا. لقد كان يغلب عليّ في الأربعينات حماس الشباب، خيال الشاعر، وأسلوب الواعظ، ولكي - طوال حياته - لم أكن جامدًا ولا مقلدًا تقليدًا مطلقًا، فكنت منذ المرحلة الابتدائية أناقش شيوعي، وأقبل منهم وأدع، وكنت وأنا في المرحلة الثانوية أدرس القفه في قريتي متخيرًا من المذاهب، كما حكيت ذلك في مقدمة كتابي «فتاوى المعاصرة». كما لم أجنح إلى الغلو ولا إلى التسيب في أي فترة من عمري؛ كانت الوسطية كأنما هي جزء من كياني، فطرة فطرني الله عليها. يتبين ذلك في أول مؤلف حقيقي أدخل به ميدان التأليف وهو كتاب: «الحلال والحرام في الإسلام»، الذي كتبه في سنة ١٩٥٩م، بناءً على تكليف من مشيخة الأزهر، وفيه يتجلى منهج الاعتدال والتيسير، كما يتجلى روح الاجتهاد والتجديد، وفي الفكرة والأسلوب. وقد كان الكتاب موضع اهتمام من الإخوة في جامعات باكستان، بوصفه نهجًا جديدًا في كتابة الفقه المعاصر. وقد وصل إليهم الكتاب مبكرًا «أوائل الستينات»، فقدمت فيه طالبة في جامعة البنجاب بحثًا وحصلت به على درجة الماجستير، وآخر في جامعة كراتشي.^٢

١ أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٨١٧ - ٨١٨

٢ المرجع السابق، ص ٨١٨ - ٨١٩

المطلب الرابع والثلاثون: مؤتمر «مسكو» للأديان في سنة ١٩٩٥م

برنامج «التواصل مع أحفاد الإمام البخاري»

وفي شهر مايو، سنة ١٩٩٥م زار الشيخ القرضاوي مدينة موسكو عاصمة روسيا لأول مرة، ليحضر مؤتمرًا للأديان يعقدها فيها، ويقام في إحدى جامعتها. وكان الذي دعاه للمشاركة في هذا المؤتمر، وألح عليه هو لجنة مسلمي آسيا في الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت، والتي يشرف عليها الرجل الإعلامي الحركي النشط الدكتور عادل الفلاح، الذي تبني برنامجًا له بإجاءه وإغراؤه تحت عنوان: «التواصل مع أحفاد الإمام البخاري». ويقصد بأحفاد الإمام البخاري: مسلمي الجمهوريات الآسيوية التي كانت جزءًا من الاتحاد السوفيتي، وكانت تزرخ وراء الستار الحديدي، وقد تنفست الصعداء أخيرًا حين تفكك الاتحاد السوفيتي، وانتفضت بعض دول الاتحاد على حكاهما الشيوعيين، مثل: رومانيا، وبولندا، من دول أوروبا الشرقية، وغيرت أنظمتها الدكتاتورية المتسلطة إلى أنظمة ديمقراطية، تخضع للانتخابات، ما تقوله صناديق الانتخابات. وفي هذا الإطار استجاب الشيخ القرضاوي لدعوة: الدكتور عادل الفلاح لحضور هذا المؤتمر الذي يتخذ صبغة عالمية، وقد وجدها الشيخ القرضاوي فرصة للتعرف على هذه البلاد التي كانت تنازع أمريكا السيادة على العالم، والتي كان اتحادها يضم عددًا من الأقطار الإسلامية العريقة في الإسلام، والتي ساهمت في بناء الحضارة الإسلامية والثقافة الإسلامية.^١

بعض العلماء المشاركين في المؤتمر

وقد سافر الشيخ القرضاوي إلى روسيا، ووصل إلى مسكو، ووجد عددًا من علماء المسلمين المشاركين في هذا المؤتمر، منهم الدكتور عليّ جمعة، الذي كان أستاذًا في الجامعة الأزهر، وجاء ممثلًا لشيخ الأزهر الشيخ جاد الحقّ عليّ جاد الحقّ رحمه الله، والدكتور عبد الودود شلي، ومنهم الدكتور محمد أركون الذي التقى الشيخ القرضاوي من قبل في الجزائر.^٢

١ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٨٢١ - ٨٢٢

٢ المرجع السابق، ص ٨٢٢

نتائج البحث

- ❖ مزايا لفضيلة الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي
- ❖ من هذه المزايا في نظر الباحث
- ❖ في منهج الشيخ القرضاوي
- ❖ الجانب التربوي عند الشيخ القرضاوي
- ❖ إضاءتي (الباحث) بعناية الشيخ القرضاوي بالجانب الاقتصادي والمالي
- ❖ ثنائي (الباحث) على منهجه العلمي

مزايا لفضيلة الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي

كان فضيلة الشيخ القرضاوي يُجْمَعُ ويتمتع بجملة مزايا قلما تتوافر لكثير من الدعاة والعلماء، حيث كونه هو المفسر وحافظ القرآن الكريم كاملا منذ شبابه، والمحدث الجليل، والفقيه والمجتهد المعاصر، والأديب، وغير ذلك مؤهلات في العلوم والفنون، بعضها هبات من الله تعالى يمنحها من يشاء من عباده، حيث قال الله تعالى في القرآن الحكيم: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ [٢٦٩]﴾^١ وفي المراد بهذه «الحكمة» أحد عشر قولاً، فمها - أحدها: أنها القرآن، قاله ابن مسعود، ومجاهد، والضحاك، ومقاتل. والثاني: الفهم في القرآن، قاله أبو العالية، وقتادة، وإبراهيم. والثالث: العلم والفقه، رواه ليث عن مجاهد. والرابع: الإصابة في القول، رواه ابن أبي نجیح عن مجاهد. والخامس: العقل في الدين، قاله ابن زيد. والسادس: الفهم، قاله شريك. والسادس: العلم والعمل، لا يسمى الرجل حكيماً إلا إذا جمعهما، قاله ابن قتيبة.^٢ ومثالها ومصداقها يوجد في "الشيخ القرضاوي".

وبعضها مكتسبة يحصلها المرء بالسعي وجهاد النفس وبذل الجهد والكد، كما يقال في المثل العربي: من جدّ وجد، ومن زرع حصد.

من هذه المزايا في نظر الباحث

أولاً: بشاشة وجهه، وابتسامته الدائمة، وشخصيته الجاذبة، بلا تكلف ولا افتعال؛ وهو ما جعله قريباً ومحبباً إلى الناس، ولا سيما الشباب.

ثانيها: لياقته وحضور بديهته في الحوار والرد على الأسئلة المحرجة، والإجابة المقنعة أو حسن التخلص منها.

ثالثها: فصاحة لسانه، وقوة تأثيره في خطابته، وشد الجواهر إليه.

١ القرآن الكريم، البقرة (٢)، الآية [٢٦٩].

٢ الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (المتوفى: ٥٩٧هـ)، زاد المسير في علم التفسير، (بيروت - دار الكتاب العربي، الطبعة: الأولى،

١٤٢٢هـ)، ج ١، ص ٢٤٢

رابعاً: قوة عاطفته، وحيوية مشاعره، التي تنتقل منه إلى سامعيه، فتجعله يبكي ويُبكي، ويتأثر ويؤثر.

خامساً: اتصاله بالدعوة ورجالها، ونشاطه فيها منذ عهد مبكر من عمره. وكان الدكتور يوسف القرضاوي بموهبته وذكائه وحيويته وخبرته في الدعوة منذ باكورة شبابه.

سادساً: رحلاته وأسفاره وزيارته إلى أقطار شتى، وتعرفه على كثير من رجالات العالم الإسلامي، وخصوصاً العاملين للدعوة الإسلامية، والبعث الإسلامي.

سابعاً: قدرته على الاتصال بالشخصيات الكبيرة، وتأثيره فيهم، واستفادته من ذلك لصالح الدعوة.

ثامناً: وهو المفكر المناضل المعتدل والداعية الواعي المخلص النشيط والخطيب المصنّف والمرتبّل.

تاسعاً: والعالم الفقيه المجتهد، وهو رجل ملء السمع والبصر، الناهض النابض النابغ، والمصلح والمجدد والعالم البَحَّاث. ولم يكن جامداً ولا مقلداً تقليداً مطلقاً. كما لم ينجح إلى الغلو ولا إلى التسيّب في أيّ فترة من عُمره؛ كانت الوسطية كأنما هي جزء من كيانه، فطرة فطره الله عليها.

عاشراً: ورجل ذو استقامة وبنّاء ومؤسّس، لا يدع ناحية من النواحي إلا وضع فيها لبنة. وصاحب القلم السيّال والأسلوب الرفيع، وهو أيضاً صاحب التصانيف المفيدة الرائقة، والآثار النافعة الفائقة، الشاعر المفكر الإسلامي، حتى ألف نيّف على مائة وخمسين كتاباً، فبعضها موسوعة في موضوعات ومواد شتى. وهو المربيّ الكبير والمشهور والمثقف المعروف في العالم، والمُناوِرُ المفلح والمدير الفائق الراسخ.

الحادي عشر: كما قال الشيخ بن بية^١: وإنما هو إمام. من هو الإمام؟ قال الشيخ: الإمام هو المتقدّم على غيره والإمام هو المقتدي به، والإمام هو مَنْ يؤمّه الناس من كلّ صَوْب، ليجدوا عنده ما يحتاجون إليه ... بهذه الاعتبارات وبهذه المعايير نعتبر العلامة الإمام الشيخ: يوسف القرضاوي من أئمة المسلمين، لا نُزكّيه على الله ... فهو قد تقدّم على الجيل في علمه، وفي فقهه، وفي ديانته - إن شاء الله - لا نُزكّيه على الله. فهو إمام يقتدي بهن يرجع الناس إلى فتاواه ليسألوا عن الحلال والحرام ... وهو إمام يؤمّه الناس من كلّ صَوْبٍ ليجدوا حللاً بمشاكلهم؛ الشيخ القرضاوي هو فقيه - أيضاً - بما في هذه الكلمة من معنى، فقيه عالم بالأحكام، فقيه مستنبط للأحكام، فقيه نفسي، وفقيه واقعي، وفقيه عملي، كلّ كتبه تشهد على ذلك.

في منهج الشيخ القرضاوي

كان الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي مشغول الفكر والقلب بالتجديد والإصلاح، وخصوصاً للحركة الأمة الإسلامية في الجانب العلمي والتربوي والديني والثقافي والاجتماعي، والسياسي الشرعي والاقتصادي وغير ذلك من الجوانب والاتجاهات والتيارات.

يتبيّن ذلك في أوّل مؤلّف حقيقي يدخل به ميدان التأليف وهو الكتاب المستنير والنادر في العالم لمنهجه العصريّ التجديديّ: «الحلال والحرام في الإسلام»، الذي كتبه في سنة ١٩٥٩م، بناءً على تكليف من مشيخة الأزهر، وفيه يتجلّى منهج الاعتدال والتيسير، كما يتجلّى روح الاجتهاد والتجديد، وفي الفكرة والأسلوب. وقد كان الكتاب موضع اهتمام من الإخوة في جامعات باكستان، بوصفه نهجاً جديداً في كتابة الفقه المعاصر. وقد وصل إليهم الكتاب مبكراً «أوائل الستينات»، فقدمت فيه طالبة في جامعة البنجاب بحثاً وحصلت به على درجة الماجستير، وآخر في جامعة كراتشي.

١ وهو معالي الشيخ العلامة عبد الله بن بية، وكان أحد من المتكلمين بمناسبة تكريم شعبيّ في جدّة في حفل الأثينية الشيخ عبد المقصود خوجة، المنعقد في مساء يوم ٢٥ من شهر ربيع الآخر سنة ١٤١٤هـ. وكان المحتفى به فضيلة معالي الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي، حفظه الله في الدارين.

ومنهجه في البتاء والتقريب، حيث ما قال في أحد محاضراته مع التلاميذ: هَوْنُوا على أنفسكم، نحن لا نريد أن ننصب معركة بين الصوفيين وغيرهم، وهذا منهجه الأساسي. بل نريد أن نبني ولا نُهدم، ونجمع ولا نفرق، كما أشار الله تعالى إليه بالقرآن: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [١٠٣].^١

قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾، قال الزجاج: اعتصموا: استمسكوا. فأما الحبل، ففيه ستة أقوال: أحدها: أنه كتاب الله: القرآن. رواه شقيق عن ابن مسعود، وبه قال قتادة، والضحاك، والسدي. والثاني: أنه الجماعة، رواه الشعبي عن ابن مسعود. والثالث: أنه دين الله، قاله ابن عباس، وابن زيد، ومقاتل، وابن قتيبة. وقال ابن زيد: هو الإسلام. والرابع: عهد الله، قاله مجاهد، وعطاء، وقاتادة في رواية، وأبو عبيد. والخامس: أنه الإخلاص، قاله أبو العالية. والسادس: أنه أمر الله وطاعته، قاله مقاتل بن حيان.^٢

وأن نحاول التقريب بين المتباعدين، ما أمكننا لنقف عند منهج وسط، نتعاون فيه فيما اتفقنا وتسامح فيما نختلف فيه. و"قاعدة المنار الذهبية" أيضًا أشارت إليه، التي أطلقها العلامة المجدد السيد رشيد رضا رحمه الله، وهي التي: "نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه." وأكد الشيخ القرضاوي هنا على أن المؤمن دائمًا يلتمس المعاذير للآخرين، والمنافق يتطلب العثرات. وقال: 'وأنا أحمد الله تعالى - أن من أخلاقي الثابتة: التماس الأعذار للآخرين.

خطه الأساسي - هو خط الوسطية الإيجابية، وأشار الله تعالى إليه في القرآن: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [١٤٣].^٣ - لم يتغير، بل زاد تأكيدًا وتعمقًا ووضوحًا... وبتما حدث تغير ما أو تطور ما، في بعض قضايا، وهو تغير في الدرجة لا في النوع، مثل الموقف من القومية ومن الديمقراطية. فهو الآن أكثر تسامحًا في هذه القضايا منه في عصر الشباب، كما أنه الآن أكثر انفتاحًا، وميلاً إلى الحوار مع المخالفين، ويحاول تأصيل هذه القضايا من الوجهة الشرعية، وبعد اتسعت المعرفة، ونضج الفكر، وازدادت الخبرة بالدين والحياة معًا. والخلاصة: إن تيار الوسطية هو تيار المستقبل، مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [١٨٨].^٤

علاوة على ذلك، أن كان له مشاركة ومساهمة والانضمام والانتماء إلى جماعة إخوان المسلمين من قبل يعني في عهد طالبيه العلم، ثم استعفى منذ سنين؛ ليتفرغ لخدمة الإسلام بالعلم والفكر والدعوة، واعتبر نفسه ملك المسلمين جميعًا، لا ملك الإخوان وحدهم. وقال: 'هذا لا يعني أنني أنكر لفكر الإخوان أو لدعوتهم، وهم قد يعتبرونني منظرهم أو مفتيهم، كما أن كتيبي تعد من مراجعهم الأولية، وهم أول الناس قراءة لها'.^٦

١ القرآن الكريم، آل عمران (٣)، الآية [١٠٣].

٢ الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (المتوفى: ٥٩٧هـ)، زاد المسير في علم التفسير، (بيروت - دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى،

١٤٢٢هـ)، ج ١، ص ٣١١

٣ القرآن الكريم، البقرة (٢)، الآية [١٤٣].

٤ القرآن الكريم، ص (٣٨)، الآية [١٨٨].

٥ هي المؤسسة الإسلامية الكبرى في مصر المعروف والمشهور بـ "إخوان المسلمين" «Muslim Brotherhood» التي أسس الإمام حسن البنا.

٦ أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، لقاء مع ضابط من أمن الدولة في مصر، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى،

٢٠١٠م)، ج ٤، ص ٨٣٣

وبالتالي هو عانى ما غناه وقاسى ما قاساه وأصاب ما أصابه من القسوة والجفوة والشدة والنكبة والنكسة والمأساة والمتاعب والكرب والعذاب والاضطراب والقلق والاضطهاد ظلماً وطغياناً وجوراً ووحشياً بلا عدل ولا إنصاف من الحكومة المصرية. حتى يتهمه ويتحامل عليه أي الشيخ القرضاوي بعض الناس بالتهمة وبالقذف كذباً والشكاية الزائفة، وأحياناً يدعى وهو كذاً وكذاً، وأحياناً يُسند إليه ما لا يليق ولا يلائم بشأن حضرته بلا أدب ولا مؤرورة ولا مجاملة، حيث قال الشيخ القرضاوي: 'وربما أصابني في ذلك الوقت ما أصابني، ولا سيما من المتعصبين الأشخاص والأفكار، سواء من الإسلاميين أم من القوميين'.^١

ولكن أمرنا وعلمنا الرسول صلى الله عليه وسلم: عن أنس ابن مالك - رضي الله عنه - مرفوعاً «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَمَنْ يُوَقِّرْ كَبِيرَنَا»،^٢ أي: حقه. وينسب إلى ما لا مبرر وأساس له في قضية من القضايا المختلفة فيه في المسائل الفروعيات والجزئيات الشرعية التي رخص لنا الشرع، وهكذا الاختلاف كان في عصر الصحابة وعلى التوالي أو بالتسلسل يجري ويدوم إلى يوم القيامة في حياتنا. أظن أي الباحث أن هؤلاء الذين يفعلون هكذا بغير علم أو جهالة ربما حسداً أو تعصباً أو تحيزاً. ولكن الأمر لا ينبغي أن يكون كذلك.

وعلى هذا، أي (الباحث) لا أرى ولا أدعي، وهكذا لا يرى ولا يدعى العلماء المحققون المفكرون الحاذقون والباحثون الناهجون المؤهلون أن فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي فوق النقد والمناقشة في جميع آرائه ومواقفه وأبحاثه وبريء منها ولا مهلة لها. بل كانوا ينقدون ويناقشون وغيرهم بعض قضاياها المناسبة مُراعين المصادر الشرعية ومقاصدها، ومعاييرها وموازينها ومقاييسها ومعالمها وضوابطها وأسلوبها وأدبها وحدودها، مع قاصدين وراغبين الهدف الوضعي والإيجابي فيها. كما روى عن أنس رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ».^٣

حيث قال الإمام مالك رحمه الله: 'كل رجل يؤخذ منه ويرد عليه'.
وقال الشيخ القرضاوي: 'لكل عالم هفوة، ولكل جواد كبتة'.

ولذلك حين تحدث عن معالم وضوابط الاجتهاد المعاصر، في كتابه «الاجتهاد في الشريعة الإسلامية»، وكان نصه «جعلت منها: أن نفسح صدورنا للمخطئ في اجتهاده، فهذا يحيا الاجتهاد ويزدهر، والمجتهد بشر غير معصوم، فمن حقه - بل من الواجب عليه - أن يجتهد ويتحرى ويستفرغ وسعه، ولا يلزمه أن يكون الصواب معه دائماً، وما دامت صدورنا تضيق بالرأي المخالف للجمهور، فلن ينمو الاجتهاد، ولن يؤتي ثمراته». وبالتالي سيكون الدين (الشريعة الإسلامية) جموداً ومُعطل المفعول. على أن ما يحسبه بعض الناس خطأ، قد يكون هو الصواب بعينه، وخصوصاً إذا تغير الزمان والحال، وهذا ما قال المحققون من فقهاءنا من قديم: 'أن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والعرف والحال والظروف'.

- ١ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٠م، المقدمة، ج ٤، ص ٨
- ٢ الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى، الجامع الكبير - سنن الترمذي، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٨م)، رقم الحديث: ١٩١٩، وقال هذا حديث صحيح. وأحمد في مسنده، رقم الحديث: ٢٣٢٥
- ٣ القزويني، ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد، (المولد: ٢٠٩هـ. المتوفى: ٢٧٣هـ)، السنن، باب ذكر التوبة، (دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي)، رقم الحديث: ٤٢٥١، ج ٢، ص ١٤٢٠، [قال الألباني: هذا حديث حسن.]
- ٤ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٢٠
- ٥ القرضاوي، يوسف بن عبد الله، الاجتهاد في الشريعة الإسلامية، الفصل: معالم وضوابط الاجتهاد المعاصر، (مصر، مكتبة الوهبة، الطبعة: الثالثة، ٢٠٠٠م)، ص ١٠٥

فأما الخطأ في الآراء والمواقف الفكرية والسياسية وغير ذلك، فنحن نؤمن بأن لا عصمة لبشر بعد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس في علم كبير. كلٌّ مجتهدٍ أو عالمٌ يؤخذ منه ويردّ عليه. وما اجتهد فيه فأصاب فله أجران، وما أخطأ فيه فله أجر واحد، إذا صَحَّتْ نِيَّتُهُ، وتحرى في اجتهاده، واستشار أهل الذكر والخبرة، واستفرغ وسعه في الوصول إلى الحقيقة والرأي الأرشد. وهذا روائع الإسلام حقًا، حقًا.

وفضيلة الأستاذ الشيخ يوسف عبد الله القرضاوي مجرّد إنسان وليس بمعصوم، ويمكن أن يقع الخطأ في آرائه أو اجتهاده الشرعيّ أو في أمور مما يتعلّق بالأمة والجماعة، وهو ما اعتقد أنه قام به في حدود معلوماته وقدراته. لذا ينبغي على المسلمين أن ينظروا أفكاره بمنظار القرآن والسنة النبوية العطرة، هل هي أصيلة أم زائفة؟

كما في الحديث المتفق عليه المروي عن عمرو بن العاص، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»^١.

[«إذا حكم الحاكم فاجتهد» قال العلماء: أجمع المسلمون على أن هذا الحديث في حاكم عالم أهل للحكم، فإن أصاب فله أجران أجر باجتهاده، وأجر بإصابته وإن أخطأ فله أجر اجتهاده، وفي الحديث محذوف، تقديره إذا أراد الحاكم فاجتهد، قالوا: فأما من ليس بأهل للحكم فلا يحل له الحكم، فإن حكم فلا أجر له، بل هو إثم ولا ينفذ حكمه سواء وافق الحق أم لا، لأن إصابته اتفافية ليست صادرة عن أصل شرعي، فهو عاص في جميع أحكامه سواء وافق الصواب أم لا، وهي مردودة كلها ولا يعذر في شيء من ذلك.]

إذن نحن نستطيع أن نلاحظ: أن المجتهد بمنزلة الحاكم، كلاهما بذلا جهدهما ليتعرفا الحق والصواب. والحكم ليس خارج الشريعة.

الجانب التربوي عند الشيخ القرضاوي

فالشيخ يوسف القرضاوي جمع كلّ هذه الخصال، ولكن زيادة على ذلك هو مُربِّ، وهذا جانب عظيم وأساسي في حياة هذا العلامة؛ وهو مُربِّ ربي الأجيال، ربي من شافهه وتعلّم عليه، وربّي من يبعد عنه في أمكنة شتى من أنحاء العالم حيث تصل فتاوى الشيخ القرضاوي وكتبه، وحيث تصل أناشيد الشيخ القرضاوي - أيضاً - لمن لا يعرف أن له أناشيد، وحيث يترى الناس، تربي هذه الأشياء؛ وهو من دعائم الصحوة الذين حركوها ولا نريد أن نتهمه، ولكنه من الذين رشدوها أيضاً، فهو إمام مُجدّد في هذا العصر، نسأل الله أن يثيبه على ذلك، وأن ينفعه وينفع على يديه المسلمين، وأن تتخرج أجيال على منهجه من العلم، والسّمت، والتقوى. قال الشيخ ابن بية: إنني أفرح كثيراً (وأنا أي الباحث أيضاً)، بفتاواه، قد يختلف المرء مع بعض ما يقول، ولكنه يُقدّر قوله، ويحترم هذا القائل، وهذا القول، لأنه لا يتكلّم عن هوى، ولا يتكلّم عن جهل، والفتوى إذا سلّمت من هذين العيبين، فإنها فتوى مؤيّدّة وفتوى صالحة.

إضاءتي (الباحث) بعناية الشيخ القرضاوي بالجانب الاقتصادي والمالي

أعتقد أن من يحاول أن يخرج موضوعاً خاصاً يهتم به الشيخ الإمام يوسف القرضاوي، فسيجد الموضوع المال أي الاقتصادي؛ وأنا أعتقد أنه وجد المال من أكبر الفتن التي تواجه الأمة، وتواجه هذا العصر بالذات، فبحث عن كيفية اقتنائه، وكيفية إخراجها، فكتب في

١ البخاري، **الجامع الصحيح للبخاري**، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، [دار طوق النجاة] مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي] (الطبعة: الأولى، ٤٢٢ هـ)، رقم الحديث: ٧٣٥٢، ج ٩، ص ١٠٨، النيسابوري، مسلم، **الصحيح لمسلم**، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، (بيروت، دار إحياء التراث العربي)، رقم الحديث: ١٧١٦، ج ٣، ص ١٣٤٢

الحلال والحرام وأنواع المعاملات، ثم كتب في كيفية إخراجها في الزكوات والصدقات، ولكنه لم يكتب فقط بل ساهم عملياً في قيام مؤسسات تقوم على هذا الفكر، وهذا التجديد، فقامت بنوك إسلامية ومؤسسات كان رائد قيامها وكان موجهها لها ... وقامت مؤسسات خيرية لجمع الزكوات والصدقات، وتوزيعها على الفقراء في أنحاء العالم ... كان مقترحاً، بل موجهاً، بل مؤسساً لهذه الهيئات الخيرية.

وقد حصل الشيخ يوسف القرضاوي عددً من الجوائز والمكافآت اعترافاً لمساهمته في العلوم الإسلامية للأمة، وسعد وتشرّف بالتكريم وبخطاب الاحترام شتى لشخصيته البارزة الممتازة شرفاً وإكراماً لخدمته في حياته. فمنها:

* كما قد نال جائزة البنك الإسلامي للتنمية في الاقتصاد الإسلامي لعام ١٤١١ هـ في الاقتصاد الإسلامي؛ لما بذله من جهد في خدمة هذا الاقتصاد.

* حصلَ جائزة الملك فيصل للدراسات الإسلامية في الفقه، وكانت هذه في السنة ١٤١٤ هـ. ويُشَبَّهُهَا وَيُعَدُّهَا بـ "جائزة نوبل" العالمي.

* وقد حصل على جائزة سلطان بروناي في مجال الدراسات الإسلامية في الفقه، من مشروعات مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية.

* وتشرّف الشيخ القرضاوي بتكريم شعبي في جدة بـ "الثانية الشيخ عبد المقصود خوجة" في حفل الاثنينية في مساء يوم ٢٥ من شهر ربيع الآخر سنة ١٤١٤ هـ.

اعتاد الشيخ عبد المقصود خوجة أن يكرم في كلّ مدّة في إحدى «الاثنتين» أحد العلماء أو المفكرين البارزين الذين لهم أثرهم في تنوير الأمة، وهدايتها إلى الحقّ والخير، ومقاومة الباطل والشرّ. وأراد أن يلحقه أي الشيخ القرضاوي بهؤلاء الكبار الأجلاء، فحشره في زمرتهم، ودعا إلى حفل تكريمه الذي حضره عدد كبير من أهل جدة، قيل له: إنه لم يحضر مثله في مثل هذه المناسبة.

ثنائي (الباحث) على منهجه العلمي

يقول بعض الناس عن الشيخ القرضاوي أنه يُرَخِّصُ وَيُوسِّعُ، وهذا دليل على فقهه، فهو إذا رَخَّصَ وَوَسَّعَ يهَيئ الضوابط، وإذا ضَيَّقَ وَشَدَّدَ يهَيئ المخارج، كيف لا وقد جمع علماً كثيراً، جمع التفسير والحديث، والأصول إلى الفقه، واللغة وعلومها: النحو والصرف والبلاغة، فاقتطف من جنى هذه العلوم ... فتوسّع وأوسع، فكأن الشاعر عناه هو شاعر من بلادي، وعندما يقول في القرن الماضي: فيه تجمع سيويه ومالك والشافعي والأشعري وأشهب «الأشعري هناك عندنا قدوة».

وبعد البحوث والدراسات وإجراء الاستقراءات المتواصلة في شخصية حضرته ومؤلفاته الوافرة اكتشف عندي بأنه حجة لهذا العصر وشخصية مثالية للأمة الإسلامية وللمسلمين، وبالجملة أنه كالباحر العلوم والمكتبة الثرية المُزْدَهَرَة ربّما أكثر منها كما زعمت قبل كتابة هذه الرسالة. ولا أزكيه ولا أحداً على الله عزّ وجلّ.

الخاتمة

بعد البحوث والاستقرارات المتواصلة عن "ملاحم ومراحل سيرة الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي ومسيرته، وصعوده وانحداره" والدراسات والوافرة والقراءات الكثيرة في مؤلفاته الثمينة والنفيسة والقيّمة منذ أوقات طويلة علّمت بالاطمئنان التأم أي الباحث وفهمت بالضبط ولا شك ولا ريب فيه أنه العلامة الدراكة الداعية الجليل والمجدد وأحد المجتهد والمستنبط في العصر الحاضر، والحديث الفقيه الحاذق النبيل، الأستاذ المفضّل، وهو العيّ عن التعريف، حفظه الله تعالى ورعاه وأطال الله حياته الطيبة، ونفع به العباد والبلاد وأولاده وسائر المسلمين، الموهوب المحبوب. وهو عنيّ عما طلب، بما آتاه الله تعالى من العلوم الواسعة، والمواهب العالية الساطعة.

وأطلع عليّ أي الباحث أطلاعاً أن الدكتور يوسف القرضاوي، وهو عندي نعمة أكيداً من الله تعالى أنعم بها على المسلمين في هذا العصر الذي كثر فيه أشباه العلماء، وتزاحموا في المظاهر العلماء الثقات، فاشتبه الأمر على المسلمين، وأصبح كثير منهم لا يعرف من يجب أن يأخذ دينه، ويلتزم بفتواه ورأيه دون غيره.

وفي نظريّ إن أربعة من أفاضل علماء الإسلام في هذا العصر ينطبق عليهم هذا الوصف، أنهم من نعمة من الله تعالى على المسلمين في هذا العصر الذي ضاعت فيه الموازين والمقاييس، وانفصل فيه العلم عن التقوى، بعد أن كان العلم وتقوى الله متلازمين في الصدر الأول من الإسلام، فمن كان أكثر علمًا كان أكثر تقوى وخشية من الله تعالى وموقفه بين يديه في الآخرة. والمسلمون محتاجون في كل عصر إلى من يثقون بعلمه وبصيرته في الأسس الثلاثة المذكورة، وهي: أولاً: عقيدة الإسلام الصحيحة، وثانياً: فقه الشريعة وأحكامها، وثالثاً: الفكر الإسلامي العام الذي يحفظ حدود الإسلام من أن تضيع أو تختلط بها الأفكار المزيّفة.

إني سأذكرهم وأبدأ بذكر الأسن فالأسن منهم:

* أحدهم: فضيلة الشيخ والإمام الأكبر محمد سيد طنطاوي، (شيخ الأزهر سابقاً). الذي نشأ مناضلاً عن حمى الإسلام بقلمه السحري ولسانه وعلمه.

* والآخر هو فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أبي الحسن علي الندوي الذي هو حجّة الإسلام والمسلمين في بلاد الهند.

* والآخر هو فضيلة الأستاذ الشيخ محمد الغزالي رحمه الله، الذي حفظ الله بعلمه وبصيرته الإسلامية بقلمه السيّال حدود الإسلام الصحيح في وجه التيارات العاصفة المضللة التي تبعث بعقول الشباب المسلم، فقام بتمييز الحق من الباطل، وأدحض الشبهات، وشرح الإسلام خير شرح.

* ثم الأخير الذي أتوجّح به هذه الكلمة الاحتشامية هو المحتفى به الأستاذ العلامة الدكتور يوسف القرضاوي، الذي أخذ بحظّ وفير من كل واحد من تلك الأسس الثلاثة، وتعمّق في فقه الشريعة فكان بذلك حجّة العصر.

وقد تميّز الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي - بارك الله فيه - بإدراكه العميق لفقه الواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، أو كما قال هو في بعض كتبه القيّمة «فقه الأولويات» الذي به يستطيع العالم القائم بمهمّة التوجيه والإفتاء أن يميّز بين أصول الإسلام وفروعه، وبين الكلّيّ والجزئيّ، والأهمّ والمهمّ.

والواقع أن فقه الأولويات هذا الذي أصبح من الضروريات التي تدعو إليها وتلحّ عليها دواعي العصر ومشكلاته، ينبغي أن يضاف إلى تلك الأسس الثلاثة فتصير به أربعة.

وأخيراً، أريد أن أذكر (هذا الباحث، والعبد الضعيف، والفقير إلى المولى الغني الحميد) هنا حقاً وصدقاً وأمانةً - أني بذلت أقصى جهدي وِغَايَةَ وَسَعْيِي حسب طاقتي واستطاعتي وسعيث أن آخذ المعاونة من وسائل شتى، حتى استهلكْتُ كثيراً من الأقاوت تواصلًا لتنسيق هذه الرسالة كما حقها، وحاولتُ أن أعدّ وأقيّم مناقب الإمام الفقيه الشيخ: يوسف القرضاوي ومَنزَلَتَهُ وهكذا أوصافه ونشاطاته ومساهمته وأدواره وخدماته في مجالات متنوّعة ومتعدّدة بلقلمي فيها. لكي تكون مقبولاً ومُعْتَبَرًا عند سماحة لجنة المناقشة وابتغاء لمرضاة الله عزَّ وجلَّ!

نسأل الله تعالى أن يمدّ ويُطيل في عمره لطول حياته الطيبة الذي أنعم به على المسلمين اليوم، ويؤيِّده وأسرته بنصرته الكريمة الموفورة، ويرزقه القوّة والصحة العافية والمعاودة على متابعة أداء رسالته، ويجعل فيما يقدّمه للأجيال الصاعدة من تبصير وتنوير، وخير زاد يغدّي تلك الأجيال بالمفاهيم الإسلامية الصحيحة، ويشحذ هممها ويعلمها الإخلاص والتضحية في سبيل الله. وتقبّله في الصّالحين، وجزاه عن دينه وأمته، وعن العلم والتربية، خير ما يجزي به العلماء المرّين والمؤسّسين المخلصين في الدارين، وخلفه في أهله وذريته بخير ما يخلف به المؤمنون الصادقين.

وأسأل الله المولى الكريم أيضاً أن يتقبّل مني هذا الجهد ويجعل هذه الرسالة نافعة لي وللدارسين والباحثين، وصلى الله تعالى على خير خلقه نبينا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيرًا وكثيرًا.

وهذا كلّ ما عندي، والعلم عند الله، إنه عليم بالصواب. «يَا رَبِّ لَكَ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِكَ وَعَظِيمِ سُلْطَانِكَ»^١. وأشكر الله شكرًا جزيلًا لإتمام هذه الرسالة بتوفيقه، وجزاكم الله خير الجزاء مني في الدارين، ولكم فائق الاحترام! والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته!

وختامًا بالذكر والدعاء: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، نَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، نَسْتَغْفِرُكَ وَنُثَوِّبُ إِلَيْكَ»^٢.
﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ [١٨٠]﴾ ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ [١٨١]﴾ ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [١٨٢]﴾^٣.

١. القزويني، أبو عبد الله محمد بن يزيد بن عبد الله ابن ماجة (المواد: ٢٠٩هـ - المتوفى: ٢٧٣هـ)، السنن، باب فضل الحامدين، (دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي، ٢٠٠١م)، رقم الحديث: ٣٨٠١، ج ٢، ص ١٢٤٩، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، في الزوائد في إسناده قدامة بن إبراهيم ذكره ابن حبان في الثقات. وصدقة بن بشر لم أر من جرحه ولا من وثقته. وباقي رجال الإسناد ثقات.

٢. الطبراني، الروض الداني (المعجم الصغير للطبراني)، باب من اسمه محمد، (بيروت، عمان - المكتب الإسلامي، دار عمار، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥هـ - ١٩٧٥م)، رقم الحديث: ٩٧٠، ج ٢، ص ١٧٠، عن الرُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ. ورواه أحمد، برقم الحديث: ١٩٧٦٩، وقال مخرجه: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين عن أبي برزة الأسلمي.

٣. القرآن الكريم، الصفات (٣٧)، الآيات [١٨٠-١٨٢].

المصادر والمراجع

* أهم المصادر والمراجع الرئيسية

📁 من القرآن الكريم وتفسيره:

* القرآن الكريم

١. البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ)، *أنوار التنزيل وأسرار التأويل: المشهور بـ (تفسير البيضاوي)*، (بيروت - دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ)، ج ٤.
٢. الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر (المتوفى: ٣١٠هـ)، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، (بيروت - مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م) ج ١٧.
٣. الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (المتوفى: ٥٩٧هـ)، *زاد المسير في علم التفسير*، (بيروت - دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ)، ج ٣.
٤. محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (المتوفى: ١٣٥٤هـ)، *تفسير القرآن الحكيم: المعروف بـ (تفسير المنار)*، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ م)، ج ٢.
٥. البصري ثم الدمشقي المعروف والمشهور بـ "ابن كثير"، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، *تفسير القرآن العظيم*، [المحقق: سامي بن محمد سلامة]، (دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م)، ج ٢.
٦. القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق (المتوفى: ١٣٣٢هـ)، *محاسن التأويل: المعروف بـ (تفسير القاسمي)*، (بيروت - دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ)، ج ٧.

📁 من كتب الأحاديث وشروحها:

١. البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ)، *الأدب المفرد*، [المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي]، (بيروت - دار البشائر الإسلامية، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩ - ١٩٨٩)، ج ١.
٢. ابن أبي الدنيا، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي (المتوفى: ٢٨١هـ)، *الإخوان* [المحقق: مصطفى عبد القادر عطاء]، (بيروت - دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م)، ج ١.
٣. النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (المتوفى: ٦٧٦هـ)، *الأذكار*، [تحقيق: عبد القادر الأرئوط رحمه الله]، (بيروت - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة جديدة منقحة، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م).
٤. الدارمي، البستي، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي، أبو حاتم (المتوفى: ٣٥٤هـ)، *الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان*، (بيروت - مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م)، ج ٩.
٥. الكلاباذي البخاري الحنفي، أبو بكر محمد بن أبي إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب (المتوفى: ٣٨٠هـ)، *بحر الفوائد المشهور بمعاني الأخبار*، (بيروت - دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م)، ج ١.

٦. البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة (المتوفى: ٢٥٦هـ)، **تخريج الأحاديث المرفوعة المسندة في كتاب التاريخ الكبير للبخاري**، (الرياض - مكتبة الرشد الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م)، ج ١.
٧. البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي (المولد: ١٩٤هـ - المتوفى: ٢٥٦هـ)، **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله وسننه وأيامه**، (دار طوق النجاة [مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي]، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ)، ج ٢.
٨. نزيل اليمن، معمر بن أبي عمرو راشد الأزدي مولاهم، أبو عروة البصري (المتوفى: ١٥٣هـ)، **الجامع (منشور كملحق بمصنف عبد الرزاق)**، [المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي]، (باكستان - المجلس العلمي، وتوزيع المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣ هـ)، ج ١٠.
٩. النمري القرطبي، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم (المتوفى: ٤٦٣هـ)، **جامع بيان العلم وفضله**، [تحقيق: أبي الأشبال الزهيري]، (دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م)، ج ١.
١٠. البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسرُوْجُردِي الخراساني، أبو بكر (المتوفى: ٤٥٨هـ)، **اللدعات الكبير**، (الكويت - غراس للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى للنسخة الكاملة، ٢٠٠٩ م). ج ١.
١١. الطبراني، **الروض الداني (المعجم الصغير للطبراني)**، (بيروت، عمان - المكتب الإسلامي، دار عمار، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م)، ج ٢.
١٢. السَّجِسْتَانِي، أبو داود سليمان بن الأشعث، **الزهد لأبي داود السجستاني**، (حلوان - دار المشكاة للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م). ج ١.
١٣. الترمذي، أبو عيسى مُحَمَّد بن عيسى بن سَوْرَة بن موسى بن الضحاك (المواد: ٢٠٩ هـ - المتوفى: ٢٧٩ هـ)، **سنن الترمذي**، [تحقيق وتعليق: إبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (ج ٤، ٥)]، (مصر - شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م)، ج ٥.
١٤. الترمذي، أبو عيسى مُحَمَّد بن عيسى، **سنن الترمذي**، [تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (ج ٢) ومحمد فؤاد عبد الباقي (ج ٣)]، (مصر - شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م)، ج ٣.
١٥. الترمذي، **سنن الترمذي**، [تحقيق وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي (ج ٣)]، (مصر - شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م)، ج ٣.
١٦. الترمذي، أبو عيسى مُحَمَّد بن عيسى بن سَوْرَة بن موسى بن الضحاك (المولد: ٢٠٩ هـ - المتوفى: ٢٧٩ هـ)، **سنن الترمذي**، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٨ م).
١٧. الترمذي، **سنن الترمذي**، [المحقق: بشار عواد معروف]، (بيروت - دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٨ م)، ج ١.
١٨. السَّجِسْتَانِي، أبو داود، **سنن أبي داود**، [تعليق: محمد محيي الدين عبد الحميد]، (بيروت - المكتبة العصرية، صيدا، الطبعة: الأولى، ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م)، رقم الحديث: ٣٩١١، ج ٤.
١٩. القزويني، أبو عبد الله مُحَمَّد بن يزيد بن عبد الله ابن ماجة (المواد: ٢٠٩ هـ - المتوفى: ٢٧٣ هـ)، **السنن**، (دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي، ٢٠٠١ م)، ج ٢.
٢٠. القزويني، أبو عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجة، **السنن**، [تعليق محمد فؤاد عبد الباقي]، (دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي، ٢٠٠٠ م)، ج ١.

٢١. النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني (المولد: ٢١٥هـ - المتوفى: ٣٠٣هـ)، *سنن النسائي*، (حلب - مكتب المطبوعات الإسلامية، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م)، ج ٣.
٢٢. النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني (المتوفى: ٣٠٣هـ)، *السنن الكبرى*، [المحقق: حسن عبد المنعم شليبي]، (بيروت - مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م)، ج ٧.
٢٣. البيهقي، أبو بكر، *السنن الكبرى*، (بيروت - دار الكتب العلمية، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م)، ج ١٠.
٢٤. البيهقي، أبو بكر، *السنن الكبرى*، [المحقق: محمد عبد القادر عطاء]، (بيروت - دار الكتب العلمية، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م)، ج ١٠.
٢٥. النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني (المولد: ٢١٥هـ - المتوفى: ٣٠٣هـ)، *سنن النسائي*، (حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية)، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م)، ج ٧.
٢٦. البغوي الشافعي، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء (المتوفى: ٥١٦هـ)، *شرح السنّة للبغوي*، [تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد زهير الشاويش]، (بيروت - المكتب الإسلامي، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م)، ج ٩.
٢٧. البيهقي، أبو بكر، *شعب الإيمان*، (مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م)، ج ١٠.
٢٨. الطحاوي، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري (المتوفى: ٣٢١هـ)، *شرح معاني الآثار*، (عالم الكتب، الطبعة: الأولى - ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م)، ج ٤.
٢٩. الدارمي، البُستي، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي، أبو حاتم، (المتوفى: ٣٥٤هـ)، *صحيح ابن حبان*، [المحقق: شعيب الأرنؤوط]، (بيروت - مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثانية، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م).
٣٠. الأشقودري الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، *صحيح الجامع الصغير وزيادته*، (مصر - المكتب الإسلامي، ٢٠٠٠م).
٣١. ناصر الدين الألباني، *صحيح الترغيب*. (بيروت - مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).
٣٢. الحافظ أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، *فتح الباري شرح صحيح البخاري*، (مصر - دار الحديث، الطبعة الثانية: ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م)، ج ١١.
٣٣. المناوي القاهري، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي (المتوفى: ١٠٣١هـ)، *فيض القدير شرح الجامع الصغير*، [مع تعليقات يسيرة لماجد الحموي]، (مصر - المكتبة التجارية الكبرى، الطبعة: الأولى، ١٣٥٦هـ).
٣٤. أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواسطي العبسي (المتوفى: ٢٣٥هـ)، *الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار*، (الرياض - مكتبة الرشد، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ)، ج ٤.
٣٥. النيسابوري، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري (المولد: ٢٠٤هـ - المتوفى: ٢٦١هـ)، *المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم*، [المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي]، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٨)، ج ٤.
٣٦. النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد، *المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي*، [تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة]، (حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م)، ج ٣.

٣٧. مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبغي المدني (المتوفى: ١٧٩هـ)، **الموطأ للإمام مالك**، باب النهي عن القول بالقدر، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م)، ج ٢.
٣٨. الشيباني، أبو عبد الله أحمد بن مُحَمَّد بن حنبل بن هلال بن أسد (المتوفى: ٢٤١هـ)، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، (مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م). ج ١٤.
٣٩. الشيباني، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد (المتوفى: ٢٤١هـ)، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، [المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون]، (مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م)، ج ٣.
٤٠. البيهقي، أبو بكر، **المعجم الأوسط**، [المحقق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني]، (القاهرة - دار الحرمين، الطبعة: الثالثة، ١٩٦٩ م). ج ٥.
٤١. ابن البيع، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري (المتوفى: ٤٠٥هـ)، **المستدرک علی الصحیحین**، (بيروت - دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م)، ج ٢.
٤٢. ابن البيع، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري، (المتوفى: ٤٠٥هـ)، **المستدرک علی الصحیحین**، [التعليق - من تلخيص الذهبي]، (بيروت - دار الكتب العلمية، الطبعة: الثالثة، ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م) ج ٤.
٤٣. الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم (المتوفى: ٣٦٠هـ)، **المعجم الأوسط**، (القاهرة - دار الحرمين، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م)، ج ٦.
٤٤. الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم (المتوفى: ٣٦٠هـ)، **المعجم الكبير**، [المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي]، (القاهرة - مكتبة ابن تيمية، الطبعة: الثانية، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨١ م)، ج ٩.
٤٥. الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان (المتوفى: ٨٠٧هـ)، **موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان**، [المحقق: محمد عبد الرزاق حمزة]، (بيروت - دار الكتب العلمية، ١٩٩٩ م)، ج ١.
٤٦. الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان (المتوفى: ٨٠٧هـ)، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، [المحقق: حسام الدين القدسي]، (القاهرة - مكتبة القدسي، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م).
٤٧. الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران (المتوفى: ٤٣٠هـ)، **المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم**، (بيروت - دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م)، ج ٤.
٤٨. الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي (المتوفى: ٣٦٠هـ)، **المعجم الكبير** (القاهرة - مكتبة ابن تيمية، الطبعة: الثانية، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨١ م)، ج ١٣.
٤٩. الدارمي، التميمي السمرقندي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي (المتوفى: ٢٥٥هـ)، **مسند الدارمي**، المعروف بـ (سنن الدارمي)، (المملكة العربية السعودية، دار المغني للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ - ٢٠٠٠ م) ج ٢.
٥٠. الموصلبي التميمي، أبو يعلى أحمد بن علي بن المثني بن يحيى بن عيسى بن هلال (المتوفى: ٣٠٧هـ) **مسند أبي يعلى**، [المحقق: حسين سليم أسد]، (دمشق - دار المأمون للتراث، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م)، ج ٨.

٥١. البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار (المتوفى: ٢٩٢هـ)، *مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار*، (المدينة المنورة - مكتبة العلوم والحكم، الطبعة: الأولى، بدأت ١٩٨٨م، وانتهت ٢٠٠٩م)، ج ١٠.
٥٢. البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي (المتوفى: ٢٩٢هـ)، *مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار*، [المحقق: محفوظ الرحمن زين الله، (المدينة المنورة - مكتبة العلوم والحكم، (حقق الأجزاء من ١ إلى ٩)، الطبعة: الأولى، بدأت ١٩٨٨م، وانتهت ٢٠٠٩م)، ج ٥.
٥٣. الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان (المتوفى: ٨٠٧هـ)، *موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان*، [المحقق: محمد عبد الرزاق حمزة]، باب الغني غني النفس، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٩م)، ج ١.

📁 من كتب الفقه والفتاوى:

١. القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *بيع المرابحة للأمر بالشراء*، (القاهرة - مكتبة وهبة، الطبعة: الثالثة، ١٩٩٧م).
٢. القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *الحلال والحرام في الإسلام*، مقدمة، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٩٦١م).
٣. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (المتوفى: ٩١١هـ)، *الحاوي في الفتاوى*، (مصر، مكتبة ابن حزم، ١٩٨٩م).
٤. القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، (المولد: ١٩٢٦م - ما زال على قيد الحياة)، *فتاوى معاصرة*، الفصل: صيام يوم عاشوراء، (القاهرة، دار القلم، الطبعة: الخامسة، ١٩٩٣م)، ج ٣.
٥. القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *فتاوى معاصرة*، الفصل: قضية الإجهاض، (نشر دار القلم، الطبعة الخامسة، ١٩٩٢م)، الطبعة: الثانية، (١٩٩٢م)، ج ٣.
٦. القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *فتاوى معاصرة*، (القاهرة، دار القلم، الطبعة: الأولى، سنة ١٩٨٩م)، ج ١.
٧. القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *فتاوى معاصرة*، (القاهرة - مكتبة دار الشروق، الطبعة: الثانية، ١٩٩٠م)، ج ٢.
٨. القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *فتاوى معاصرة*، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الثالثة، ٢٠٠٢م)، ج ٨.
٩. القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *فتاوى معاصرة*، الفصل: الديمقراطية، (القاهرة، دار القلم، الطبعة: الرابعة، سنة ١٩٩١م)، ج ٢.
١٠. القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *فقه الغناء والموسيقى*، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، - ١٩٩٤م).
١١. القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *فتاوى معاصرة*، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، - ١٩٩٣م). ج ٢، نبذة عن "أحاديث كتاب الحلال والحرام".
١٢. القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *فقه الزكاة*، مقدمة، (بيروت، دار القلم، الطبعة: الأولى، ١٩٧٠م)، ج ١.
١٣. القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *فقه الزكاة*، (بيروت، دار القلم، الطبعة: الأولى، ١٩٧٢م)، ج ٢.
١٤. القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *فقه الجهاد*، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الرابعة، ١٩٩٠م).
١٥. القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *الفتاوى الشاذة* (القاهرة - دار الشروق، الطبعة: الثانية ١٩٩٤).
١٦. القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *مشكلة الفقر، وكيف عالجه الإسلام؟*، مقدمة، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٩٧١م).
١٧. القُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، مقدمة، *مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية*، مقدمة، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٩٩١م).

📁 من كتب اللغات والمعاجم:

١. مرتضى، الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، *تاج العروس من جواهر القاموس*، باب س ف ط، (مصر، دار الهداية، ١٩٧٧م)، ج ١٩.
٢. الدكتور سعدي أبو حبيب، *القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً*، باب حرف الواو، (سورية - دمشق، دار الفكر، الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، تصوير: ١٩٩٣ م)، ج ١.
٣. محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ)، *لسان العرب*، باب فصل الواو، (بيروت - دار صادر، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ)، ج ١.
٤. مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار)، *المعجم الوسيط*، باب النون، (القاهرة - دار الدعوة، ١٩٩٠م)، ج ٢.
٥. الدكتور رُوحى البعلبكي، *المورد (قاموس عربي - إنكليزي)*، (بيروت - دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة والعشرون - ٢٠١٢م).
٦. الدكتور محمد فضل الرحمن، *المعجم الوافي لطالب المنهل الصافي (عربي بنعالي)*، (داكا - رياض بروكاشني، الطبعة السادسة والعشرون - ٢٠١٨م).
٧. الدكتور محمد فضل الرحمن، *المعجم الوافي لطالب المنهل الصافي (بنعالي إنكليزي عربي)*، (داكا - رياض بروكاشني، الطبعة السادسة - ٢٠١٨م).
٨. الدكتور محمد مستفيض الرحمن، *المنير (معجم اللغة العربية والبنغالية)*، (داكا - دار الحكمة، الطبعة الأولى - ٢٠١٠م).

* أهم المصادر والمراجع الثانوية:

١. أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله بن عليّ بن يوسف (المولد: ١٩٢٦م - ما زال على قيد الحياة)، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م)، ج ١.
٢. أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤م)، ج ٢.
٣. أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى - ٢٠٠٥م)، ج ٣.
٤. أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ابن القرية والكتاب ملامح سيرة ومسيرة*، (قطر، دار الكتب القطرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م)، ج ٤.
٥. أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *الإيمان والحياة*، مقدمة، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٩٩٦م).
٦. أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *أين الخلل*، مقدمة، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الثانية، ١٩٩٧م).
٧. أَلْقَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *الاجتهاد في الشريعة الإسلامية*، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الثانية، ١٩٩٤م).

٨. أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *الاجتهاد في الشريعة الإسلامية*، الفصل: معالم وضوابط الاجتهاد المعاصر، (مصر، مكتبة الوهبة، الطبعة: الثالثة، ٢٠٠٠م).
٩. أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *الناس والحق*، مقدمة، (بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الرابعة، ١٩٧٥م).
١٠. أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *الإسلام والعلمانية وجه لوجه*، مقدمة، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الرابعة، ١٩٨٩م).
١١. أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *الأمة في عام*، مقدمة، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الثانية، ١٩٩٥م).
١٢. أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *الأصول العشرون للإمام الشهيد حسن البنا*، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٩٨٠م).
١٣. أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم*، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٩٩٦م).
١٤. أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *الأقليات الدينية وحلّ الإسلام*، (القاهرة - مكتبة دار الشروق، الطبعة: الثانية، ١٩٩٠م).
١٥. أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *الإخوان المسلمون ٧٠ عامًا في الدعوة والتربية والاجتهاد*، فصل: "الإخوان والعنف"، (بيروت، دار القلم، الطبعة: الثانية، ١٩٩٠م).
١٦. الأستاذ عبد العقيل، *أعلام الحركة الإسلامية*، (مصر - طبعة دار التوزيع والنشر الإسلامية، ١٩٩٨م).
١٧. السيّد زينب الغزالي، *أيام من حياتي*، (مصر - مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٠م).
١٨. الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، *إعلام الموقعين عن رب العالمين*، (بيروت - دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، ج ٣).
١٩. أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *بينات الحلّ الإسلامي*، (مصر - دار الشروق، ١٩٩١م).
٢٠. أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامي*، (القاهرة، دار الشروق، ١٩٧٦م).
٢١. يوسف بن عبد الله، *التربية عند الإمام الشاطبي*، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الثانية، ١٩٩٢م).
٢٢. الجرجاني، يحيى (المرشد بالله) بن الحسين (الموفق) بن إسماعيل بن زيد الحسني الشجري (المتوفى ٤٩٩ هـ)، *ترتيب الأمالي الخمسية للشجري*، [تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل]، (بيروت - دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م)، ج ٢.
٢٣. الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران (المتوفى: ٤٣٠ هـ)، *حلية الأولياء وطبقات الأصفياء*، دار الكتب العلمية - بيروت (الطبعة ١٤٠٩ هـ بدون تحقيق)، ج ٧.
٢٤. أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا؟*، (مصر، دار الشروق، الطبعة: الأولى، ١٩٦٩م).
٢٥. أَلْقُرْضَاوِي، *الحلول المستوردة، وكيف جنت على أمتنا؟*، فصل: "لماذا فشلوا في حرب فلسطين؟"، (مصر، مكتبة وهبة).
٢٦. أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله بن علي بن يوسف (المولد: ١٩٢٦م - ما زال على قيد الحياة)، *خطب الشيخ القرضاوي*، (القاهرة - مكتبة وهبة، الطبعة: الثالثة، ١٩٩٥م)، ج: ٣.
٢٧. أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *الخصائص العامة للإسلام*، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٩٨٨م).
٢٨. أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *درس النكبة الثانية*، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٩٧٠م).
٢٩. أَلْقُرْضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي*، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٩٩٤م).

٣٠. الدكتور أحمد سيد محمد، *الدليل إلى منهج البحث العلمي*، (القاهرة، مصر، مكتبة دار المعارف، ١٩٨٥م)، الطبعة الأولى.
٣١. القُرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *درس النكبة الثانية*، (مصر - مكتبة وهبة، الطبعة: الثالثة، ١٩٦٨م).
٣٢. القُرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *السنة مصدر للمعرفة والحضارة*، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الثالثة، ١٩٩٣م).
٣٣. القُرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *الشيخ الغزالي كما عرفته: رحلة نصف قرن*، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٩٨٢م).
٣٤. القُرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته*، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٩٨٢م).
٣٥. القُرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *الصبر في القرآن الكريم (في التفسير الموضوعي)*، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الثالثة، ١٩٨١م).
٣٦. القُرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *الصحة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي*، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الثالثة، ١٩٩٥م).
٣٧. القُرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *الصحة الإسلامية بين الآمال والمحاذير*، مقدمة (القاهرة، مكتبة دار الشروق، الطبعة: الثالثة، ١٩٩١م).
٣٨. القُرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *الصحة الإنسانيّة من المراهقة إلى الرشد*، (بيروت - دار القلم، ١٩٩٠م).
٣٩. الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران (المتوفى: ٤٣٠هـ)، *الطب النبوي*، [المحقق: مصطفى خضر دونغر التركي]، (دار ابن حزم، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٦م، رقم الحديث: ٥، ج ١).
٤٠. القُرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ظاهرة الغلو في التفكير*، (القاهرة، مكتبة دار الشروق، الطبعة: الرابعة، ١٩٧٧م).
٤١. القُرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *العبادة في الإسلام*، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الثانية، ١٩٩٥م).
٤٢. القُرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *عالم طاغية (مسرحة تاريخية)*، مقدمة، (بيروت، دار الإرشاد، الطبعة: الخامسة، ١٩٧١م).
٤٣. القُرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية*، (مصر - مكتبة وهبة، ١٩٩٤م).
٤٤. علي جريشة، *عندما يحكم الطغاة*، يؤكد هذا ما ذكرته السيّدّة زينب الغزالي في محنة ١٩٦٥م.
٤٥. لقد بلغ الشيخ القرضاوي ثلاثين معلماً في كتابه «*فقه الوسطية والتجديد في الإسلام*» الذي صدر من مركز القرضاوي للوسطية الإسلامية والتجديد في مؤسسة قطر للتربية والعلوم وتنمية المجتمع، ١٩٧١م.
٤٦. القُرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *في فقه الأوّلويات - دراسة جديدة في ضوء القرآن والسنة*، مقدمة، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الثانية، - ١٩٩٧م).
٤٧. القُرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *في وداع الأعلام*، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٩٩٩م).
٤٨. في *قنوات الرحموت*: "مسألة: لا حكم إلا من الله تعالى، بإجماع الأمة لا كما في كتب بعض المشايخ، إن هذا عندنا، وعند المعتزلة الحاكم العقل، فإن هذا مما لا يجترئ عليه أحد ممن يدعى الإسلام، بل إنما يقولون: إن العقل مُعَرَّفٌ لبعض الأحكام الإلهية، سواء ورد به الشرع أم لا، وهذا مأثور عن أكابر مشايخنا أيضاً "يعني الماتريديّة" ج ١ مع *المستصفي*."
٤٩. محمد شوكت التوني، *قضية التعذيب الكبرى*، (مصر - مكتبة ابن حزم، ١٩٧١م).
٥٠. القُرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *كيف نتعامل مع السنة النبوية؟*، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الخامسة، ١٩٩٤م).
٥١. الدكتور أحمد شلي، *كيف تكتب بحثاً أو رسالة؟*، (مكتبة النهضة المصرية، ٩ شارع علي القاهرة - مصر، ١٩٩٧م)، الطبعة الرابعة والعشرون.

٥٢. أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا*، (شرح هذا الحديث ومعنى التجديد فيه وجوانبه)، (القاهرة - دار القلم، الطبعة: الثالثة، ١٩٨٢م).
٥٣. أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ملاحم المجتمع المسلم الذي نشده*، فهارس هذا الكتاب، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٩٩٣م).
٥٤. أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *مئة سؤال عن الحج والعمرة والأضحية*، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: الثالثة، ١٩٨٥م).
٥٥. أَلْفَرَضَاوِي، يوسف بن عبد الله، *ملاحم المجتمع المسلم الذي نشده*، (مصر، مكتبة وهبة، الطبعة: السادسة، ١٩٩٩م).
٥٦. جابر رزق، *مدابح الإخوان في سجون ناصر*، (مصر - مكتبة النهضة، ١٩٨٠م).
٥٧. حجّة الإسلام والعلامة والإمام أبو حامد الغزالي، (المؤلّد: ٤٥٠ هـ - الممتوّق: ٥٠٥/١٠٥٨ هـ - ١١١١م)، *المستصفي*، (بيروت - دار صادر، مصوّرة عن طبعة بولاق، ١٩٨٤)، ج ١.
٥٨. السيد قطب، *معالم في الطريق*، (مصر، مكتبة نفضة الأمة، ١٩٧١م).
٥٩. أديب نصّور، *النكسة والخطأ*، مصر - مكتبة ابن جزم، ١٩٦٩م.

* مجلات والجرائد:

١. ملّخص ما قال في الحرية اليومية المسمّى بـ"الأهرام"، من جمهورية مصر العربية، الموافق ٨ أكتوبر، سنة ١٩٦١م.
٢. *بشارت*، اسم جريدة باكستاني اليومية، الموافق سنة ١٩٦٨م.
٣. إبراهيم خلاص" من مقال المدعو مجلّة "جيش الشعب" السورية، ٧ أغسطس، الموافق ١٩٦٧م.
٤. مجلّة "الدّوحة"، المجلة القطرية، ١٩٦٧م.
٥. برنامج "الشريعة والحياة" من قبيل "قناة الجزيرة" وهي "قناة فضائية قطريّة" التي أسست في شهر يوليو (تمّوز)، الموافق سنة ١٩٧٠م)، من حلقات حول إجابة أسئلة الناس من الأستاذ الشيخ يوسف القرضاوي، سنة ٢٠٠٣م.
٦. برنامج "الشريعة والحياة" من قبيل "قناة الجزيرة" وهي "قناة فضائية قطريّة" التي أسست في شهر يوليو (تمّوز)، الموافق سنة ١٩٧٠م)، من حلقات حول مسائل الحج والعمرة من الأستاذ الشيخ يوسف القرضاوي، سنة ٢٠٠٤م.
٧. برنامج "الشريعة والحياة" من قبيل "قناة الجزيرة" وهي "قناة فضائية قطريّة" التي أسست في شهر يوليو (تمّوز)، الموافق سنة ١٩٧٠م)، من حلقات حول إجابة أسئلة الناس من الأستاذ الشيخ يوسف القرضاوي، سنة ٢٠٠٥م.
٨. "فقه الدعوة: ملاحم وآفاق"، مجلّة القطرية الشهيرة، «الأمة»، عدد ١٩، فبراير ٢٠٠٢م.
٩. تحويل من مقابلة الشيخ الأستاذ القرضاوي من قبيل "قناة الجزيرة"، في قطر، الموافق ١٦/١٠/٢٠١٠م.
١٠. كتاباته بمجلّة "منير الإسلام" من جمهورية مصر العربية، ١٩٦٥م.
١١. مجلّة «الوحدة الجزائرية»، عددها ٢٤، مايو الموافق سنة ١٩٩٠م، تحت عنوان: 'اقترح الدكتور القرضاوي إنشاء اتحاد المفكرين الإسلاميين'.